حكاية جينجي

الجزء الأول

موراساكي شيكيبو

ترجمة: كامل يوسف حسين

حكـايــة جينـجـــي

الجــزء الأول

موراساكي شيكيبو

ترجمة

كامل يوسف حسين

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

PL788.4 .G412 2011
Murasaki, Shikibu, b. 978?
[Genji monogatori]

حكاية جينجي / موراسكي شيكيبو؛ ترجمة كامل يوسف حسين.- ط. 2.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

2 مج؛ سم.

ت د م ك: 3-963-01-9948-978

ترجمة كتاب: Genji monogatori

1. القصص اليابانية. أ. حسين، كامل يوسف. ب. العنوان.

أبـوظـبـي للـثـقـافـة والـتـراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

حكايــة جينــجـــي

تصدير

«حكايـة جينجـي» عمل جليل القـدر، عظيم الأهمية، هائل الامتـداد. ومن المحقق أن إطلاله على القارىء العربي في نصه الكامل في بدايات الألفية الثالثة، وهو الذي رأى النور لأول مرة في مسـتهل القرن الحادي عشـر، يوضح بجلاء جانباً من أبعاد الوضعية المحزنة للعلاقـات الثقافيـة العربية اليابانية، بـل ومجمل علاقتنا نحن العرب بالثقافات الآسـيوية، التـي لا يتردد بعـض الباحثين في الذهاب إلى القول إنها لا وجـود لها أصلاً، وإنها بحاجة إلى الإرسـاء، قبـل الحديث عن التوثيق والتكريس، ولكن فـي حالة «حكاية جينجي»يظل صحيحاً أنه خير أن تصلنا متأخرة عن أن لا تصلنا أبداً.

ولسـت أرغب في كتابة تصدير لا يضيف جديداً إلى أبعاد أهمية هذا العمل، أو يضيف المزيـد إلـى امتداده، غير أننـي أجد من واجبي، ومـن حق القارىء فـي آن، المبادرة بإلقاء الضـوء علـى أبعاد أهمية «حكاية جينجي» بالنسـبة لنا نحن العرب، فـي هذا المنعطف من استمرارية علاقتنا باليابان والجهود المبذولة لمد الجسور الثقافية بيننا وبين مجمل ثقافات آسيا.

وقـد لا يكـون من قبيل المبالغة القول إن أبعاد أهمية «حكاية جينجي» بالنسـبة لنا نحن العرب، تكاد تكون بلا حصر تقريباً. غير أنني سأكتفي في هذا التصدير، بإلقاء الضوء على أربعة أبعاد فحسـب، للأهمية الفائقة لـ«حكاية جينجي» بالنسبة لنا نحن العرب، والتي من شـأنها أن تدفعنا إلى المزيد من الاهتمام بالأعمال المماثلة من كنوز الآداب الشرقية، التي ظلت حتى الآن من دون الحد الأدنى من التعريف بها وإلقاء الضوء عليها.

هذه الأبعاد الأربعة هي في اعتقادي، وبأكبر قدر من الإيجاز، كما يلي:

أولاً: «حكاية جينجي» هي الراوية الأولى بالمعنى الصحيح في الأدب العالمي:

هذا العمل، الذي يقع فيما يزيد على ثلاثة أرباع مليون كلمة، مدرجة في أربعة وخمسين فصلاً، يتميز بصفة جوهرية بحبكة بسيطة، تدور حول حياة البطل جينجي وغرامياته، ومن

ثم كاورو الذي يُعتقد بأنه ابنه من بعده، هو بحسب إجماع حشد هائل من الباحثين والكتاب والشراح والنقاد أول رواية بالمعنى الصحيح في أي أدب من آداب العالم.

بينما يميل تيار قوي من المنظرين والنقاد إلى القول إن علينا أن ننتظر حتى القرن التاسع عشر، وأن نرحل إلى المعاقل الحضرية الأوروبية، لكي نلتقي بالراوية، فإن هناك تياراً لا يقل قوة عن سابقه يذهب إلى القول: إننا على امتداد صفحات «حكاية جينجي» نلتقي مع الراوية الأولى بالمعنى الصحيح.

لكن لماذا يجمع المنخرطون في هذا التيار على وصف «حكاية جينجي» بأنها الراوية الأولى في العالم؟

الأسباب عديدة، ولسنا هنا في معرض تحليلها، إنما سنكتفي بالإشارة السريعة إليها:

أ ـ رأينا حالاً هذا الاهتمام الفائق بحبكة الراوية البسيطة بصفة جوهرية، وأيضاً التي تتمتع بالثراء الشديد في التفاصيل، التي ترد في غمار انطلاق أحداثها وتعاقب هذه الأحداث، وهكذا فإننا على موعد مع الوصف الممتع والمعقد والمعمق في آن للحياة اليومية ولتشابك العلاقات وللغوص المعمق في أغوار الشخصيات.

ب ـ يلفت الباحث الياباني المتخصص سين أونو نظرنا إلى اللغة الواضحة التي كُتبت بها «حكاية جينجي» حيث ذهب إلى القول إنه ما من عمل أدبي واحد كُتب في العصر الهاييني (1185 ـ 794) بهذه اللغة الدقيقة والواضحة التي كُتبت بها «حكاية جينجي» وهذه اللغة تتحول إلى نور هاد وكشاف تسلطه المؤلفة مورا ساكي شيكيبو، في مواجهة مفاهيم مركبة ومعقدة في ذلك العصر، من نوعية الزواج والاستحواذ الروحي والعلاقة بين الجوانب الروحية والتقاليد البوذية والأعراف الشنتوية.

ج ـ البراعة الفائقة في رسم الشخصيات، ولعل هذا البعد هو أقوى الحجج التي يستعين بها المتحمسون لتوصيف «حكاية جينجي» بأنها الراوية الأولى في العالم بامتياز، فالشخصيات التي تحشدها المؤلفة تُقدَّر بالمئات، وعلى الرغم من أنه ليس هناك الكثير من التغلغل الصريح في مشاعر هذه الشخصيات وحالاتها الذهنية، إلا أنها في نهاية المطاف شخصيات مرسومة ببراعة، وجرى التمييز بين كل شخصية وأخرى بإصرار وبراعة فائقين،

ونلاحظ أنه لا وجود للتطرف في نسبة الشخصيات إلى الخير أو الشر، باستثناء ما نجده في الفصول الأولى من الحكاية، التي يمكن وصفها بأنها الأكثر رومانسية في العمل كله، والإيهام بالحياة والحركة يتم تحقيقه، في الغالب الأعم، من دون مبالغة ولا وصول إلى آفاق الملامح الكاريكاتيرية.

د ـ عمق التأثير واتساع نطاق الرواج، فمن الواضح أن «حكاية جينجي» قد وجهت في البداية إلى حلقة ضيقة من سيدات البلاط الهاييني، لكنها اكتسبت رواجاً وشعبية لم يقّدر لهما التراجع قط، منذ ذلك الحين وحتى اليوم، هكذا شهدنا انتشاراً محيراً لمخطوطات هذا العمل، في القرون الوسطى، ومن هذه المخطوطات أُخذت النصوص الكاملة الأولى لهذا العمل، التي قُدِّر لها الوصول إلى أيدينا والبقاء حتى اليوم.

ولم يقتصر تأثير هذا العمل على الإبداع الأدبي اللاحق، إنما امتد إلى العديد من القوالب والأشكال الفنية، وصولاً إلى الأدب الشعبي. وتعد «حكاية جينجي» من المصادر الرئيسية لدراما النو المسرحية، كما اقتبست لأعمال لا حصر لهاّ قُدِّمت على خشبة مسرح الكابوكي، وعبر الشاشتين الفضية والصغيرة.

ومن المدهش أن تشق «حكاية جينجي» في أكثر من محاولة إبداعية واحدة لنقلها من اليابانية القديمة إلى اليابانية الحديثة، طريقها إلى قوائم أكثر الكتب مبيعاً في اليابان.

غير أن علينا الانتباه إلى الطبيعة الصراعية للعلاقة بين هذين التيارين، والتي لم تفقد حدتها ولا سخونتها حتى اليوم، نتيجة للاحتكاك المتواتر بين القائلين بأن «حكاية جينجي» هي الراوية الأولى في العالم، ومن يصرون على نفي ذلك وإنكاره. ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد الضجة الكبرى التي أثارها الروائي الياباني كينزابورو أوي، عندما ذهب في مقابلة مع مجلة «مانوا» الدورية الأدبية المتخصصة نشرتها في عددها الصادر في صيف 1944 إلى القول: «هناك من يقولون أن (حكاية جينجي) هي أول رواية في العالم، وأعتقد أن هذا غير دقيق، قد يكون من الممكن القول إن (الكوميديا الإلهية) لدانتي هي أول رواية عالمية عظيمة ومتكاملة بالمعنى الحقيقي، أما القول إن (حكاية جينجي) هي أول رواية في العالم فهو خطأ، فهناك اختلاف في المفاهيم بين (حكاية جينجي) والراوية الأوروبية».

ومن المؤكد أن مما له دلالة بالغة العمق أن هذه الأسطر التي قالها أوي، في هذا الحوار، لا تـزال تجد من الباحثين والشـراح والمنظرين والمعنييـن بـ«حكاية جينجي» من يتصدى لها بالتفنيد أو التأييد حتى اليوم.

ثانيـاً: «حكاية جينجي» تُشـكِّل تطـوراً نوعياً بلا مثيل في مسـار الأدب الياباني الحقيقة الأساسـية المتعلقة بـ«حكاية جينجي»، والتي يتعين أخذهـا في الاعتبار في معرض تقويم هـذا العمـل هي أن مؤلفته مورا سـاكي شـيكيبو، تعني بالنسـبة لليابان مـا يعنيه هوميروس لليونان، وشكسبير لانجلترا، ودانتي لإيطاليا، وجوته لألمانيا، وشعراء التانج للصين.

مـن المحقـق أن هـذا التقويم لم يـأت من فـراغ، وأنه لا يعكـس مبالغـة ولا تضخيماً، وسواء أقبلنا وجهة النظر القائلة بأن «حكاية جينجي» بكاملها تشكل وثبة تخيلية هائلة، تم عبرهـا تجـاوز كل ما قبلها على نحو نوعي لا مجال لإنكاره، أو ذهبنا إلى تبني وجهة النظر المختلفة القائلة: إن كل فصل أو مجموعة فصول منها تعكس قفزة تخيلية جزئية بالمقارنة مع ما سـبقها، فإننا في نهاية المطاف مع «حكاية جينجي» نجد أنفسـنا حيال تطور نوعي لا موضع للتشكيك فيه، بحيث أن الأدب الياباني بعدها سيختلف تماماً عما كان عليه قبلها.

حتـى المنعطـف الذي أُطلقت عنـده «حكاية جينجي» في وقت ما مـن الربع الأول من القرن الحادي عشـر (عام 1004 بحسـب اعتقاد بعض الباحثين، لكن من دون وجود دليل نصي حاسـم يؤكد هذا الاعتقـاد)، كان الأدب الياباني يتألف من دواوين أو مجموعات أو مختارات مكتوبة وفق نسق الكانجي المستعار من الصين.

أمـا النثر فقـد اقتصر علـى الحكايات الخرافية وعـدد محدود من اليوميـات والأعمال المكتوبة بأسلوب المقاطع الصوتية اليابانية، المعروفة باسم الكانا، ولـم يكن أحد أقدم من قبـل قـط على كتابة رواية، دع جانباً رواية ذات حبكـة واضحة ولا ينقصها التركيب في آن، وتحفل بمئات الشخصيات التي يتم رصدها عبر مختلف مراحل تطورها.

بهذا المعنى فإن مورا سـاكي كان أمامها، كمصدر تسـتلهم منه عملها، تراث بالغ الثراء من الكتابات التاريخية الصينية ومن الشـعر الغنائي الصينـي والياباني، أما من ناحية القص اليابانـي فإنهـا لـم يكـن لديها إلا البدايـات التي توصل إليهـا اليابانيون أنفسـهم، في القرن

العاشر، حيث لم يكن القص النثري مما يعجب به الصينيون كثيراً في ذلك الوقت، ولم يكن مما برعوا في إبداعه.

وعلى الرغم من أن هذه البدايات اليابانية لم تكن تفتقر إلى الجمال، إلا أنه لم يكن فيها الكثير مما يدعو إلى التنبؤ بالقفزة النوعية الكبيرة التي ستُحقق عبر «حكاية جينجي». هذه القفزة تبدو باهرة بكل المعايير إلى حد أن إدوارد جي. سدنستكر لن يتردد في مقدمة ترجمته لـ«حكاية جينجي» إلى الإنجليزية في القول: إن مورا ساكي أنجزت عبرها محاولة ناجحة بحسب رؤية الكثيرين، لشيء غير مألوف بالمرة، وهو إبداع أول بطل في الأدب العالمي كله، والذي يتمثل في شخصية كاورو.

من المهم هنا أن نتوقف عند تلك الإشارة البارعة، التي يتقدم بها ثيودور دي باري محرر كتاب «مصادر العرف الياباني من أقدم العصور حتى عام 1600»، حيث يلفت نظرنا في صفحة 201 من الجزء الأول من هذا الكتاب الصادر عن دار نشر جامعة كولومبيا، إلى أن مورا ساكي نفسها تقدم لنا إضاءة للتساؤل عما أرادت قوله من خلال عملها، وذلك في واحد من أقدم الأمثلة على النقد الياباني، وهو الوارد في الفصل الخامس والعشرين من «الحكاية» بعنوان «الحباحب».

هنا وعلى امتداد صفحتين من الحوار بين جينجي وتاما كازورا سنجد ملامح من رؤية مورا ساكي لما يعنيه القص الإبداعي بالنسبة لها. فهي ترفض القول بأن هذا القالب الإبداعي يستهدف الترفيه لا غير، وترى فيه قناة لمتابعة المصائر، أي لتأمل الماضي ولاستشراف المستقبل، لتجنب الوقوع في شراك الخديعة، ثم إن هذا القالب رسالة إلى أجيال المستقبل حول الطريقة التي يعيش بها الناس حياتهم، ثم إن هذا الإبداع أداة فاعلة في ردم الهوة بين الاستنارة والعواطف، فضلاً عن أنه في ذاته يتمتع بقيمته.

ثالثاً: تدين «حكاية جينجي» بوجودها لمؤلفة هي الجدة العليا لإبداع المرأة:

على الرغم من الشهرة المدوية التي تمتعت بها مؤلفة «حكاية جينجي» على امتداد القرون التي انقضت منذ أطل عملها في صورته الأولى في دوائر سيدات البلاط الهاييني، إلا أنه لا يُعرف عنها إلا القليل حقاً، إلى حد أن «موسوعة اليابان» تشير إلى أنها ازدهرت

عام 1000، فالنساء في العصر الهاييني لم يكن يُسجل شيء يذكر عنهن، بما في ذلك تاريخ الميلاد والوفاة، إلا في حالة الاستثناء النادر، المتمثل في كونهن إمبراطورات.

ما يهمنا في القليل المعروف عنها أنها مبدعة ثلاثة أعمال، أولها «حكاية جينجي» أو على الأقل الغالبية العظمى من النص الموجود بين أيدينا، و«يوميات مورا ساكي شيكيبو» ومجموعتها الشعرية المعروفة باسم «مورا ساكي شيكيبو شو».

ومن المهم أن مورا ساكي على الرغم من أنها تجعل البطولة في «حكاية جينجي» لكل من جينجي وكاورو، إلا أنها تترك الكلمة الفصل دائماً للإناث، ومن هنا يعتبر الكثير من النقاد هذا العمل أول عمل أدبي أنثوي حقاً في تاريخ الكتابة.

هذا التقويم يضرب جذوره بقوة في حساسية مورا ساكي في تحليل الأحداث والشخصيات، فالمجتمع الذي تصفه هو في جوهره مجتمع نسائي، لا يظهر فيه الرجال إلا كأطياف عابرة، فالحب ومن ثم المرأة هو الذي يتحكم في حياتهم، وربما يحسم أقدارهم.

من هنا على وجه الدقة يأتي ما أخذه فريق من النقاد اليابانيين تقليدياً على مورا ساكي من أنها في روايتها تترك القرار الأخير في النهاية للإرادة الأنثوية، التي مهما أسلمت قيادها للرجل، فإنها ينتهي بها الأمر، أخيراً، إلى أن تملي عليه تصرفه سلباً أو إيجاباً.

ربما لهذا، على وجه الدقة، لا يملك المرء إلا التوقف بمزيد من الاهتمام عند كتاب الباحثة دوريس جي بارجن بعنوان «سلاح امرأة: تلبس الروح في حكاية جينجي»، حيث تذهب إلى القول إن مورا ساكي في مشاهد التلبس، على امتداد الراوية، تضفي طابعاً درامياً عليه بطرق تخرب وتنسف بشكل حاذق وبارع بنية السيطرة الذكورية، وتغير بصورة مؤثرة هيكل الجندر (الجنس) في العصور الهايينية.

يهمنا أيضاً أن نشير إلى رفض الكثير من الباحثين لمفهوم العبقرية الجماعية في تأليف «حكاية جينجي» بكاملها أو حتى الفصول الأخيرة منها، حيث من المعتقد أن مورا ساكي هي التي أنجزت العمل بكامله، غير أن البعض يعزو نسبة فصلين أو أكثر من الفصول الأربعة والخمسين التي تشكل الكتاب لابنتها.

أياً كان الأمر، فإن مورا ساكي توضع، بصفة عامة، جنباً إلى جنب مع ساي شوناجون على قمة الإبداع النثري لعصرهما، وذلك على الرغم من الحقيقة الواضحة، وهي أن كتابات ساي شوناجون أقل أصالة وجرأة بكثير من مُنجز مورا ساكي، وأكثر قرباً بكثير منها إلى العرف الرئيسي الغنائي، وربما ليس من قبيل الصدفة أن مورا ساكي أصبحت في العصور الوسطى شخصية أسطورية، على وجه التقريب. وهكذا فإننا على سبيل المثال في مسرحية النو «جينجي كايو» نجدها ويُكشف النقاب عنها باعتبارها تجسيداً للبوذيساتفا راعية إيشيا ماديرا، وهو معبد لا يبعد كثيراً عن كيوتو، يسود الاعتقاد أنها بدأت فيه تأليف «حكاية جينجي».

ويكاد الإجماع ينعقد بين النقاد والباحثين على أن قدرة مورا ساكي على التفوق والتميز على كل المحاولات، التي ظهرت في أواخر العهد الهاييني وبعد ذلك، لتقليدها والنسج على منوالها، ترجع إلى أن إبداعها يضرب جذوره في اهتمام استثنائي من جانبها بتعقيدات الروح البشرية، وقدرتها على إبداع الإيهام بالحياة الفردية على امتداد الصفحة المكتوبة.

لقد كانت كاتبة درامية، بمعنى أنها كانت قادرة على تحقيق تأثيراتها ونقل رسائلها عبر الشخصية، وليس من خلال التشبيه والاستعارة، وهما الأداتان الأكثر بروزاً، اللتان درج التقليد الغنائي الياباني على توظيفهما أكثر من غيرهما.

ومن هذا المنظور فإن الباحث هارو شيرين يعبر عن رأي الكثيرين من النقاد في كتابه «جسر الأحلام: جماليات حكاية جينجي» الصادر عن دار نشر جامعة ستانفورد، عندما يذهب إلى القول إن «حكاية جينجي» نتاج تراكمي للمحاولة والتغيير، وإبداع مؤلفة تطورت مواقفها واهتماماتها وأساليبها الفنية بصورة يُعتد بها في الزمن والتجربة.

ويشدِّد شيرين على أن الخصائص التي تتسم بها «حكاية جينجي» ، وفي مقدمتها إبداع شخصيات ذات طابع فردي إلى حد كبير في إطار مشهد اجتماعي واقعي والطرح الحساس للفكّر والعاطفة والدراما، التي يتم الحفاظ على استمراريتها، تميز هذا العمل السردي عن الأعمال التي سبقته، وهي التي شجعت النقاد على وصفه بأنه أول رواية نفسية في العالم.

رابعاً: هذا العمل يقدم للقراء والباحثين ثروة هائلة من المعرفة الأنثربولوجية والروحية

الاجتماعية:

لا حدود للثراء الإبداعي والجمالي الذي تقدمه «حكاية جينجي»، على الصعيد الأدبي والإبداعي والجمالي، ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد أنها أول عمل نثري على هذا المستوى، وهي في الوقت نفسه تضم ما لا يقل عن 795 قصيدة، طالما شغلت بال القراء والباحثين.

غير أن «حكاية جينجي» ليست كذلك فحسب، وإنما هي أيضاً كنز معرفي، من جوانب أخرى لا حصر لها، منها ما هو اجتماعي وأنثربولوجي وروحي، وغير ذلك كثير.

دعنا نتخيل معاً أن مخطوطاً عربياً يضم ثلاثة أرباع مليون كلمة قد ظهر، بمعجزة ما، من قلب المجهول، ليحمل لنا رؤية داخلية بالغة الدقة لما كان يجري وراء السُتر المنسدلة في قصور الأمراء والخلفاء وقادة الجند، في العصر العباسي الأول، على سبيل المثال.

أي قفزة معرفية هائلة هي التي ستتحقق لنا عبر مثل هذا العمل؟ أي دقة هائلة في تفاصيل العمل والحياة اليومية والاحتفالات والزيجات والمشاحنات سنحققها؟ ألا يعني مثل هذا العمل استحضاراً مذهلاً للتاريخ بالصوت والصورة واللون والتفاصيل الدقيقة إلى حد التناهي؟

هذا هو على وجه الدقة ما تقدمه لنا «حكاية جينجي»، ولكن تحت سماء يابان العصر الهاييني، الذي كان عصراً مفعماً بالسلام، يُعد فيه الإمبراطور الشخصية الأبرز والمركز الذي يستقطب كل تفاصيل الأنشطة المراسيمية، على حين يحكم قادة قبيلة فوجيوارا القوية أيديهم على السلطة، ويمثلون القوة التي وقفت وراء العرش على مدار خمسة قرون.

إن المجتمع الذي نطل عليه عبر «حكاية جينجي» هو مجتمع يضم مجموعة نخبوية، ربما لا تتجاوز في مجملها قرابة خمسة آلاف نسمة، وهي لا تهتم بأي شيء إلا بما تعيشه من ترف، وبالإمبراطور الذي يشكِّل محور عالم هذه المجموعة، التي تهتم على نحو استحواذي بالرتبة والثراء الطائل، وتعكس حساسية فائقة حيال جمال الطبيعة ومباهج الموسيقى، والشعر، والملابس البديعة، وقطع الأثاث الفاخرة.

ولا يكاد رجال البلاط الهاييني يدرون شيئاً عما يجري خارج العاصمة، وهم لا يكترثون به، ولا يسافرون إلا نادراً، ويتبنون رؤية غير حميدة لعامة الناس.

وفي «حكاية جينجي» سنجد كل شيء يتعلق بهذه المجموعة النخبوية المثيرة للجدل، سنجد الرومانسية، السفر، اللقاءات مع ما هو فائق للطبيعة، وبطلاً يبلغ من الكمال حداً ينتمي معه، في نظر الكثيرين، إلى عهد أوغل في الابتعاد حتى عاد لا يسكن إلا في الخيال. هكذا تتعدَّد المستويات التي يمكن للقارىء العربي أن يقارب عندها هذا العمل الفريد.

غير أنه قد يكون من المهم الالتفات بشكل خاص إلى قراءة العمل على المستوى الاجتماعي والفلسفي، وهذا ليس ترفاً فكرياً، وليس حماساً للنزوع إلى التأمل، فالكثير من الجوانب التي نتلمسها على هذا المستوى لا تزال ضاربة الجذور في المجتمع الياباني اليوم، ولكن عبر تجليات أخرى.

من شأن القارىء المدقِّق أن يلاحظ، في الفصول التي تعقب وفاة جينجي، نزوعاً إلى التشاؤم، وكأنه يجد نفسه في مواجهة كاورو ونيؤو مع رجلين أقل قدراً بكثير من جينجي وتونو تشوجو، وهذا النزوع يعود، في أحد أبعاده، إلى الجانب الاجتماعي المتعلق بالعلاقة بين العائلة الإمبراطورية وبين قبيلة فوجيوروا، وفي البعد الآخر إلى المفهوم الفلسفي المتعلق بالزوال والعبور، وهو المفهوم الضارب الجذور في صميم الوعي الياباني حتى اليوم.

هكذا فإن «حكاية جينجي» يمكن أن تُقرأ، عند أحد المستويات، باعتبارها رواية النذير من التردي النهائي، الذي ساد الاعتقاد بأنه سيبدأ في منتصف العصر الهاييني.

بمعنى آخر، فإن المحيط الهائل المتمثل في «حكاية جينجي» يتجلى حكاية رمزية، أو إن شئت يبين سرداً أو وصفاً لهذا التردي النهائي، هذا الانهيار الكاسح للمجتمع، عندما تترك الشابة الوديعة أوكيفوني وحيدة في مواجهة قدرها، كأنما تُرك القانون الأخلاقي نفسه للمجتمع الهاييني وحيداً ليذوي.

ومن المؤكد أن ترجمة النص الكامل لـ«حكاية جينجي» يُعد مؤشراً لاهتمام حقيقي بإعطاء دفعة قوية للعلاقات الثقافية العربية اليابانية. وعلى الرغم من أن هذه الحركة لا

تمضي بالقوة ولا بالزخم ولا بالسرعة التي يتمناها من يتحمسون لها، إلا أن الآمال معقودة على تسارع خطاها، في المستقبل القريب. ومع الانتهاء من ترجمة عمل بهذه الضخامة، فإن الباب يُفتح أمام التطلع إلى قطع أشواط أبعد.

وإذا شئنا أن نضرب أمثلة عملية لما نقصده هنا، فإننا نشير إلى أن ترجمة أعمال أخرى مهمة، لم يكن الحديث وارداً عنها طالما أن ترجمة «الحكاية» لم تصبح عملاً مُنجزاً بعد.

لو أننا أردنا إيراد قائمة بمثل هذه الأعمال، لامتدت طويلاً بما يتجاوز أغراض هذا التصدير الموجز، فلنكتف إذاً بمثالين محددين على الأعمال التي فتحت «حكاية جينجي» المجال لترجمتها إلى العربية:

أ ـ كوكين واكاشو: هذه هي المجموعة الإمبراطورية الأولى من الشعر الياباني، وكما بوسع القارىء إدراكه من نظرة واحدة على هوامش «حكاية جينجي» فإنها من عيون الشعر الياباني العريق، ومن المهم الالتفات إلى ترجمتها من الأصل الياباني، أو على الأقل التعريف بها من خلال الترجمة الإنجليزية التي أنجزتها هيلين كريج ماكلو، والصادرة عن دار نشر جامعة ستانفورد.

ب ـ «حكايات آيسي»: هذه الحكايات النثرية الغنائية العائدة إلى القرن العاشر الميلادي تعد من كنوز الأدب الياباني، وهي تنافس «كوكين واكاشو» في الإطلال من هوامش «حكاية جينجي»، ومن المفيد حقاً ترجمتها عن الأصل الياباني، أو التعريف بها عبر طبعة جامعة ستانفورد، التي أنجزت ترجمتها هيلين كريج ماكلوأيضاً.

تبقى، أخيراً، ضرورة الإشارة إلى أننا قد أنجزنا ترجمة نص «حكاية جينجي» نقلاً عن طبعة فايكنج الصادرة عام 2001، والتي نقلها عن اليابانية بروفسور رويال تايلر، مع المراجعة المستمرة لترجمة إدوارد سدنستكر الصادرة عن دار بنجوين عام 1981 وكذلك مراجعة ترجمة آرثر ويلي الصادرة عن دار دوفر عام 2000. وحرصنا على ترجمة الهوامش والملاحق التي أنجزها تايلر لقيمتها الكبيرة في اضاءة هذا النص الفريد.

كامل يوسف حسين

المقدمة

كُتبت «حكاية جينجي» قبل ألف عام في اليابان، ولكن أي شخص يمكنه أن يقرأها اليوم، وتُعد الحواشي شيئاً مفيداً، ولكنها ليست شرطاً أساسياً. ومثل هذا العمل الكلاسيكي العظيم، الذي كُتب بلغة قديمة عن عالم قُدِّر له الاختفاء، تمت دراسته بصورة مكثفة لكن أفكار شخوصه ومشاعرها تظل على جدتها التي كانت لها على الدوام.

تتضمن «حكاية جينجي» استفاضات، وحبكات موازية، وقصصاً داخل القصص وانتقالات في المشهد، على نحو ما هي عليه الحال في العديد من الروايات الطويلة. ويساور بعض القراء الشعور بأن «الحكاية» ليست عملاً سردياً بصورة حقيقية، وإنما هي سلاسل من قصص مستقلة بشكل أو بآخر، ولكن ذلك ليس بالظاهرة غير المألوفة أيضاً، حيث أن الروايات التي تنشر كحلقات مسلسلة في الصحف غالباً ما تجيء في صورة أجزاء أو متتاليات قائمة بذاتها. وعلى أية حال، فإن آخرين يجدون فيها وحدة وتصميماً أكبر. ويتناول العديد من الروايات المطولة مثل «جينجي» تاريخ عائلة من وجهات نظر عدة، حيث يكشف أسراراً يشارك القراء عندئذ في معرفتها، بينما تظل مجهولة لشخوص معينة. وربما تعيد جوانب أخرى من «جينجي» أصداء الحكاية الشعبية أو الأسطورة، التراجيديا أو الأوبرا. وصحيح أن الراوية الإنجليزية العائدة للقرن التاسع عشر لا تُعدّ القارىء لبطلة (مورا ساكي) تموت في نهاية الثلث الثاني من العمل، ولبطل (جينجي) يموت بعد ذلك بقليل، بين الفصول، أو في فصل ختامي لا يربط الأطراف المتناثرة.

هذه الأمور وغيرها، مثل احتمال زواج متعدد الأطراف يستمتع به الرجال، من المؤكد أنها تفصل الحكاية عن الأعمال المألوفة بصورة أكبر، وهي تجعلها مثيرة للاهتمام بشكل خاص. يضع الثلث الأخير من الحكاية، بعد موت جينجي، شخوصاً جديدة على خشبة المسرح، في مشهد من نوعية جديدة.

وهذا القسم الذي يبدأ كمختتم غير مؤكد، سرعان ما يكتسب حياة قائمة بذاتها، وتخدم عتمة عالمه وعدم اكتماله في زيادة تألق عالم جينجي وضروب القصور التي بدت بارزة

للغايـة، عندما كانت متعلقة بجينجي، تشـحب إذا ما وضعت جنبـاً إلى جنب مع تخبطات مـن يلونه وحماقتهـم، فلا تزداد مكانته في الذاكرة إلا علواً. ويزداد الحنين إلى زمانه، وفي المقابل فإن متاعب شخوص الفصول الأخيرة تبدو جلية ومثيرة للشفقة.

تحقق الحكاية هذه النتيجة بجعل الشـخوص والمشـاهد التي تتحـرك فيها على امتداد العمـل بالغة الواقعية، والسـرد ليـس وصفياً بصورة متمـددة، ولكن اللمسـات الحية التي يقدمها تولِّد الصورة الحية في الذهن. وقد نظر الكثيرون إليها عبر القرون على أنها سـجل للحياة نفسـها في وقتها. وتشـبه تجربة قراءة هذه الحكاية تجربة التطلع عبر نافذة صغيرة، لكنها بالغة الوضوح، إلى عالم كامل ورحب.

لا تحقق «حكاية جينجي»، في ثرائها وتنوعها، متعة القراءة فحسب، وإنما إعادة القراءة كذلك، ويكشـف تحقيق المزيد من الألفة معها أعماقاً جديدة، وعندئذ فإن اللمحة الأولى التـي يلمحهـا القـارىء من مورا سـاكي لا تعود من فتـاة مجهولة في قصـة تنتهي في بضع صفحات، وإنما هي لمحة من امرأة عظيمة تتم رؤيتها في الطفولة على نحو ما رآها جينجي نفسـه. وتصبح ينابيع النجاح والفشـل اللاحقين صافية، وكذلك ينابيـع التقلبات العاطفية المبكـرة. ومن شـأن إعـادة القراءة كذلـك أن ترفع مسـتوى الوعي بالجوانب غيـر العادية للعمل. ومعظم الحكاية مفهوم تماماً باعتباره تقلب الانفعالات الإنسـانية المألوفة، ولكن في المدى الطويل فإن التيارات السفلية، التي تشكل حياة البشر، يمكن رؤيتها بحسبانها أكثر عمقاً وأعظم قوة، وأقل اتسـاماً بالطابع الشـخصي من الأمور المألوفة المتعلقة بالطموح، والحب، والغضب والكبرياء. وإشـارات الحكاية المتكررة إلى الكارما، أو المصير الفائق للطبيعة تكتسب عندئذ معنى جديداً.

مكانة العمل

لا ريـب أن «حكاية جينجـي» هي أقدم رواية لا يزال معترفاً بها على نطاق واسـع اليوم باعتبارهـا تحفة حقيقيـة. وكانت مؤلفتها امرأة يعُد عملها فـي الأدب والثقافة اليابانيين في مصـاف الملاحـم الهوميروسـية، وأعمال شكسـبير، وروائعة بروسـت «البحـث عن الزمن المفقـود» فـي بلاد أخـرى، وفي غضون عقود قلائـل من إكمالها في أوائـل القرن الحادي

عشر، نُظر إليها على أنها عمل كلاسيكي، وتعددت الكتابات عنها على مرَّ القرون، بل إن الشاعر العظيم فوجيوارا نو شونزي (1114 – 1204) أعلن دراستها شيئاً لا غنى عنه لكل راغب في نظم الشعر، وظلت كلماته هذه تتردّد بعد وقت طويل من نطقها، وقد كانت شعبية الحكاية بارزة في فن التصوير. وما زالت تتراكم في زمننا الإصدارات الأكاديمية والطبعات الشعبية من الراوية. وقام أربعة من كتاب القرن العشرين البارزين بترجمتها إلى اليابانية المعاصرة، وفعل أحدهم ذلك ثلاث مرات، وقام كثيرون آخرون كذلك بإنجاز ترجمات حديثة، وبنى باحثون حياتهم العملية عليها. و«جينجي» ليست كتاباً وإنما ظاهرة ثقافية. وقد حُولت إلى أفلام، ومسرحيات وقصص، وروايات حديثة، وكابوكي وكتب مصورة «مانجا»، ومسرح وموسيقى وأوبرا.

ويظهر مشهد منها على ورقة نقد حالية. وقد جعلتها ترجمة آرثر ويلي الرائدة (عام 1933)، التي أعقبتها ترجمة إدوارد سيدنستكر (1976)، شهيرة في اللغة الإنجليزية، وهناك كذلك ترجمات كاملة من الأصل إلى الألمانية، الفرنسية، الروسية، الصينية (ترجمتين) والكورية. ويجري حالياً إنجاز ترجمات أخرى إلى التشيكية والفنلندية والإيطالية. وتنضم هذه الصياغة الإنجليزية الجديدة إلى مجموعة مميزة وآخذة في التزايد من الترجمات، التي ترقى إلى مستوى عظمة عمل كلاسيكي كهذا.

ملخص الحكاية

كان طموح كثر من السادة البارزين في عالم «حكاية جينجي»، وهو البلاط في المدينة الإمبراطورية، التي هي كيوتو الآن، في تقديم بناتهم للإمبراطور أو ولي العهد، ولهذا السبب فإن الإمبراطور كان له نطاق من العلاقات النسائية المعترف بها، والذي يرجع إلى أنه كان مطلوباً منه أن يجعل مقامه متواصلاً بصورة واسعة نسبياً مع المنتمين إلى الشريحة العليا من الارستقراطية، بأكثر مما كان مرده إلى الشبق الجنسي مع جانبه، وفي مرتبة أدنى من إمبراطورته الوحيدة «تشوجو» كانت لديه زوجات عديدات «نايوجو»، وفي مرتبة أقل منهن عدد معين من المحظيات «كوي»، وكان يمكن القيّمة على الوصيفات التي يختارها «نايشي نوكامي»، والتي تُعَدّ من الناحية النظرية مسؤولة بالقصر، أن تكون على الصعيد

العملي زوجة أصغر، ولم تكن هاتة النسوة الإمبراطوريات متساويات.

وكانت الإمبراطورة عادة تُعيَّن من بين الزوجات، لكن لم يكن لكل الزوجات بأي حال من الأحوال أي أمل واقعي في تحقيق مثل هذا النجاح، ولم يكن للمحظيات أي أمل في هذا الصدد على الإطلاق، فقد كانت المرَتبة التي ولدن فيها أقل شأناً من أن تسمح بذلك، كما كن يفتقرن إلى الثقل الضروري النابع من الدعم السياسي.

جينجي، بطل الحكاية، هو ابن إمبراطور من إحدى المحظيات، والتي فقدت أباها، ومن هنا لم يكن لديها أي دعم يتجاوز إخلاص الإمبراطور الشخصي لها، وهو لا يعد كافياً.

ويتوق الإمبراطور إلى تعيين جينجي ولياً للعهد، متجاوزاً ابنه البكر، الذي أنجبته إحدى زوجاته، لكنه يعرف أن البلاط ما كان ليقبل ذلك البتة، ومن هنا فإنه يقرر إبعاده كلية عن العائلة الإمبراطورية، وذلك بمنحه اسم عائلة (أباطرة اليابان لا يحملون مثل هذا الاسم)، بحيث يمكنه أن يخدم البلاد باعتباره من العامة، وبحسبانه مسؤولاً حكومياً رفيعاً.

مُنح الاسم الذي أُطلق عليه للمرة الأولى، لابن إمبراطور تاريخي في 814، وهكذا فإن له ارتباطات صحيحة وعندما يتلقاه الابن من أبيه (في الفصل الأول «جناح البولفينية»)، فإنه يصبح جينجي، أي يصبح حاملاً لاسم مينا موتو (جين هي قراءة أخرى للحرف نفسه وجي تعني الاسم) وتسمح هذه الوسيلة له بأن ينتمي إلى المجالين كليهما، الإمبراطوري والعامي، وهكذا تمنحه المجال الأقصى كشخصية.

يشدِّد بعض القراء المعاصرين على أن «حكاية جينجي» تدور حول النساء: مشاعرهن، وتجاربهن، وأقدارهن، أكثر مما تدور حول جينجي نفسه. غير أنه إلى جينجي تعود الحكاية مراراً خلال حياته، فهو بمثابة مركزها، إذا أردنا القول، ولذلك سيتبع هذا الملخص القصة متجاوزاً في صمت خلال مسيرته عدداً هائلاً من الشخصيات والمشاهد، وليس المراد منه المبالغة في أهمية جينجي، ولا الحلول محل قراءة للحكاية، وإنما كل المقصود منه هو توجيه من يوشك على البدء في قراءة الكتاب فحسب:

في نهاية الفصل الأول، يتم تزويج جينجي من ابنة رجل نافذ بصفة خاصة من رجال

البلاط، وما من أحد يستشيره في الأمر، وفي حقيقة الأمر فإنه صغير السن للغاية بحيث أن الزواج لا يؤثر فيه كثيراً، وتواصل زوجته، التي يعرفها القراء باسم أوي، الإقامة في دار أبيها، وهو الأمر الذي كان معتاداً، بينما يظل هو في مقره في القصر الإمبراطوري (للتعرف على المقصود بمعنى «يعرفها القراء»، انظر الوارد تحت عنوان السرد، والمراتب والأسماء في هذه المقدمة). وتموت أمه بعد وقت جد قصير من ولادته، فلا يتاح له أن يعرفها، ولكنه يسمع أن الإمبراطورة المستقبلية «فوجيتسوبو» تشبهها إلى حد بعيد، وفي المرحلة الأولى من مراهقته يصبح معجباً بها أشد الإعجاب، وبمرور الوقت يضاجعها سراً، ويصل ابنهما إلى سدة العرش.

على الرغم من ذلك، فإن «فوجيتسوبو» تظل بعيدة المنال عنه، ويتوق هو إلى أن تكون له وحده، وهو يجد هذا الحب المميز في فتاة صغيرة شديدة الشبه بها. وموراساكي، التي هي ابنة أخ لفوجيتسوبو، في العاشرة من عمرها تقريباً عندما تقع عيناه عليها لأول مرة، فيربيها بنفسه، وعندما تصل إلى درجة كافية من النضج يتزوجها، وهي الحب الحقيقي والعظيم في حياته، وموتها (الفصل الأربعون «الشِرعة») يقضي عليه. غير أنه في غضون ذلك سيكون قد عرف الكثير من النسوة الأخريات.

ويبدو أن جينجي، في يفاعته، يحب فوجيتسوبو لأن الناس يقولون إنها تشبه أمه، وهو يدرك تمام الإدراك ما يجذبه على هذا النحو بالغ الغرابة إلى موراساكي. وقد طُرح الكثير من الآراء بشأن هذه الإحلالات، حيث أشار بعض القراء إلى أن كل نساء جينجي الأخريات هن بالمثل بديلات عن أمه. غير أن الحكاية، وصولاً إلى موته، لا تعزّز هذه الرؤية.

وتموت فوجيتسوبو في الفصل التاسع عشر «خيوط سحابة»، وهي تختفي من خواطره التي نلم بها بعد الفصل العشرين «زهرة الجُريس الزرقاء».

وفي الفصل الثاني «شجرة الوزَّال» يصغي المراهق جينجي، بينما يتبادل ثلاثة شبان أسرار حياتهم العاطفية، وهذه هي المحادثة الشهيرة التي «تُصنف فيها النساء في ليلة مطيرة»، التي تفتح عينه على إمكانيات أوسع نطاقاً، وفي موضع لاحق من الفصل نفسه يمضي مستكشفاً، كما في فصول متتابعة، المزيد من العلاقات الغرامية، وقد أفضى هذا السلوك إلى وصفه بالفتى اللعوب، المتهتك، أو ما هو أسوأ من ذلك، غير أن العديد من

هـذه الفصول مسـل إلى حـد بعيد، وربما تكـون المؤلفة قد اسـتخدمته لتقديـم صور عن حماقات عاشـق فـي مقتبل العمر، في سلاسـل من الحكايـات المتألقـة، والمتراوحة بين الاستحواذ المأساوي، والكارثة المطلقة الحافلة بالصخب.

وفضـلاً عن ذلك، فإن الراوية تشـدِّد مـرات عديدة على أن جينجي لـم ينس قط أياً من النسـاء اللاتـي عرفهن، والحكايـة تؤكد هـذا القول. ويتصـف جينجي العاشـق بأنه أنيق، وجـذاب، وبليـغ على نحو يسـحر الألباب، وهو فيما يبـدو يتمتع طوال عمـره بإمكانيات ماديـة غير محددة بصورة مطلقة، وبحسـبانه شـاباً في مقتبل العمر، فإن مـن الطبيعي أن له ثقـلاً ومسـؤولية محدودين في العالـم على امتداده، ولكن تقدمه فـي العمر وارتفاع مرتبته وكذلـك تصاعـد مواهبـه الطبيعية، كل ذلك سـرعان ما يحوِّلـه إلى قوة سياسـية، ومن هنا يؤدي إلى أن تتصلب المعارضة السياسـية له، وهو بحكم كونه جينجي، الذي ينطلق دوماً سـعياً وراء المغامـرة، لا يسـتطيع مقاومة مضاجعة إحدى بنات عدوه السياسـي الرئيسـي (المعروفة للقراء باسم أوبوروزوكيو) وتحدث الكارثة عندما يجده أبوها في فراشها معها. ومـن سـوء الطالع أن أخت الفتاة (أم ولي العهد) ليسـت قوية فحسـب، وإنما هي شـريرة بطبعها، وفي غمار حنقها، تنطلق في التو للقضاء على جينجي، فيضطر للتراجع إلى المنفى الاختياري.

يمضي جينجي إلى سوما، وهي منطقة ممتدة على ساحل البحر الداخلي، تقع الآن في نطـاق مدينـة كوبي، وبما أن العار قد لحق به، فلا بد من أن يترك مورا سـاكي وراءه، وتركِّز الحكايـة علـى الوجع النابع من معاناتـه، فيما هو يتقلب على جمر الغضـا في البراري، ثم تهـدد عاصفـة هائلة حياته ذاتها، وتتراءى له أحلام غريبـة، يظهر فيها أبوه الراحل وكائنات أخرى خارقة للطبيعة، وبمجرد بدء تراجع عنفوان العاصفة، يصل سيد مهذب ثري وغريب الأطـوار (راهب أكاشـي) على متـن مركب، ويدعوه ليحل ضيفاً عليه فـي مقره، الذي يقع على مسافة قصيرة على الساحل، في مكان يسمى أكاشى، ويقبل جينجي الدعوة.

في أكاشـى، يتعرف جينجي على ابنة هذا السـيد المهذب (السـيدة النبيلة من أكاشى)، والتـي تكـون قد أصبحـت حاملاً، عندما يتم اسـتدعاؤه إلـى المدينة، وكان قـد أنجب ابناً (يوجيـرى) مـن زوجته الأولى، التي ماتت منذ سـنوات، وهناك بالطبع ابنه في السـر الذي

وضعته فوجيتسوبو، والذي سيقدَّر له أن يصبح الإمبراطور رايزى وهذا الوليد الجديد، آخر أبنائه، طفلة، سيقدَّر لها في حينه بعد حكم رايزى الذي امتد طويلاً، أن تصبح إمبراطورة، وهي التي سترفع جينجي إلى مصاف الحظ الطيب الأسمى، الذي يمكن أن يحظى به نبيل بارز غير إمبراطوري، والمتمثل في أن يكون جداً لإمبراطور.

بعد عودته المظفرة من المنفى الفصل الثالث عشر «أكاشى»، يغدو جينجي رجل سلطة في المقام الأول، وعلى الرغم أنه لا يزال عرضة للوقوع في أسر نسوة معينات، يتمتعن بجاذبية آسرة، إلا أنه لا يكمل بالفعل أي علاقة غرامية جديدة، وهو يبدو معنياً بصفة أساسية بالجمال والمكانة المميزة.

التودد الوحيد الجاد من جانب جينجي، بين الفصلين الرابع عشر والثالث والثلاثين يستهدف الأميرة (أساجاو) التي من الجلي أنه ارتبط معها بعلاقة من نوع ما، وهو شاب في مقتبل العمر (الفصل الثاني) وهذه العلاقة تجيء مبكرة (الفصل العشرون)، ولا تدوم طويلاً وهي بمثابة فشل تام. والقراء، في غمار تساؤلهم عن السر في محاولته دخول هذه العلاقة أصلاً، قد أشاروا إلى أن الحنين يستبد به إلى فوجيتسوبو، وربما ذكَّرته مكانته الآخذة في الارتفاع سريعاً بأنه على الرغم أنه يحب مورا ساكي بعمق، إلا أنها ليست جديرة حقاً أمام العالم (كما هو حري بالأميرة أن تكون) بالشخص الذي أصبح في إهابه.

مع مقدم الفصل الثالث والثلاثين «أوراق الوستارية الجديدة» يكون جينجي قد ارتقى إلى ذُرى فذة، فهو قد شيد مجمعاً رائعاً، يتألف من أربع دارات مرتبطة فيما بينها، كل دارة منها مرتبطة بفصل من فصول السنة الأربعة، وتقيم بها سيدة نبيلة مهمة بالنسبة إليه، وذلك على أرض تلقاها هدية من عاشقة مميزة للغاية، (فيما يبدو هي أروكوجو نو مياسودوكورو، والتي تكون قد ماتت بحلول ذلك الفصل)، وهذه هي ضيعة روكوجو (الجادة السادسة)، التي يملكها والتي لا يضاهيها شيء، وعلى نحو أكثر تميزاً، فإن الإمبراطور، ابنه في السر، قد عينه إمبراطوراً متقاعداً فخرياً، وفي زمن الحكاية لم تكن هناك سابقة تاريخية لهذه الخطوة، والآن غدا جينجي يطل سامقاً على عالمه.

ثم يستجيب جينجي في الفصل الرابع والثلاثين «براعم الربيع 1»، لنداء من أخيه الشقيق، الإمبراطور المتقاعد سوزاكو، وهذا الأخير كانت أمه قد أجبرته باعتباره إمبراطوراً شاباً

غيـر مؤثر في مســار الأحداث على اضطهــاد جينجي والمتحالفين معـه. وهو الآن يخطط لاعتـزال الدنيـا، ولا تزال ابنته الأميرة صغيـرة للغاية وغير ناضجة، ومن هنـا فإنه يريد من جينجـي رعايتها، وبتعبير آخر يريـد منه أن يتزوجها، ويوافق جينجي على ذلك، وربما كان يعلِّق الآمال على مورا ساكي جديدة أصغر سناً، حيث أن هذه الفتاة ابنة أخي فوجيتسوبو، غير أنها كذلك بمثابة الجائزة الكبرى، التي يسـعى إليها أكثر شـبان البلاط طموحاً، ولديها الشـيء الوحيد الذي تفتقر إليه مورا سـاكي، وهو المرتبة التي من شـأنها أن تسـمح لها بأن تكون زوجة إمبراطور متقاعد فخري. ذلك هو كل ما لديها لتقدمه، ويا للحسرة! حيث أنها بخلاف ذلك فإنها مجردة تماماً من أي كيان أو هوية.

لكن الأوان قد فات لاسـتدراك الأمر، حيث يـدرك جينجي ما فعله، وهو ارتكاب خطأ فادح، بل إنه لا يستطيع أن يتجاهل ابنه الإمبراطور المتقاعد سوزاكو، ولكن عندما تمرض مورا سـاكي، فإنـه يتخلى عن ابنـة الإمبراطور أسـابيع بكاملهـا لرعايتها، وبمـرور الوقت يتسـبب هـذا في كارثة جديدة، حيث يتسـلل شـاب إلى ابنة سـوزاكو، بينمـا كل وصيفاتها تقريباً بعيدات عنها، ويضاجعها (الفصل الخامس والثلاثون، «براعم الربيع 2 »).

سرعان ما يكتشف جينجي الأمر، فيستبد به الغضب، ولكي يزداد الطين بلة، فإنها الآن حامل، وتضع في وقت لاحق كاورو، وهو صبي يفترض الناس خطأ أنه من صلب جينجي، ويموت العاشـق، بفعل مشـاعر الذنـب والخزي، بعد ميلاد ابنه بوقـت قصير، وتصبح ابنة سـوزاكو راهبـة، على الرغـم من اعـتراضـات جينجـي الشديـدة، وفـي غضون ذلك فإن مورا ساكي، لا تزال مريضة، وقد كان زواج جينجي الجديد كارثياً.

تمـوت مورا سـاكي، بعد عامين أو ثلاثة أعوام، وهي فـي صدر الأربعينات من عمرها، ويبقـى مـن بعدها جينجي، الذي غدا في أوائل الخمسـينات من عمـره، مجرد قوقعة لذاته القديمـة، ويبـدو أنه بعد أن يراه القارىء للمرة الأخيرة يديـر ظهره للدنيا، ويتقاعد في أحد المعابد، ويموت في غضون عام أو عامين.

يسـتأنف السـرد فـي الثلث الأخيـر من الكتـاب ـ الفصول الثلاثة عشـر الأخيـرة ـ بعد ثغـرة زمنية قوامها حوالي ثمانية أعوام، وقد اختفت شـخصيات بارزة عديدة من السـاحة. والفصـول الثانـي والأربعـون إلـى الرابـع والأربعيـن («الأمير العطـر» وصولاً إلـى «نهر

الخيـزران») مفككـة، ولكن من الفصل الخامس والأربعين «عذراء الجسـر» وما بعده فإن الحكاية تغدو متماسكة كلها.

يعيـد الفصـل الثاني والأربعون إدخـال كاورو ونيؤو، حفيد جينجي الـذي ولدته الابنة (التـي غـدت الآن إمبراطورة) التي ولدت منذ زمن بعيد في أكاشـي. ويرتبط نيؤو وكاورو بصداقة وثيقة العرى، ومن الفصل الخامس والأربعين فصاعداً نجدهما غريمين في ساحة العشق.

بعـد تجربة مريرة في حياة البلاط، تقاعد أمير معين ماتت زوجته ومعه ابنتاه في أوجي، الواقعة على مسـيرة سـاعات على ظهر الجياد إلى الجنوب من المدينة. وهناك، على ضفة نهـر أوجي، وجـد ملاذاً في الدين، وتبلغ سـمعة ورعه النبيل مسـامع كاورو، الذي يشـعر كذلـك بصـورة غامضـة بعـدم انتمائه إلى المـكان الذي يشـغله فـي العالم. وفـي الفصل الخامس والأربعين يبدأ كاورو في زيارته، ويسمع أخيراً، من امرأة عجوز هناك، بسر مولده هـو. ويلمح أيضاً ابنتي الأميـر، ويتوق إليَّ كبراهن (أويجيمي) وفـي حقيقة الأمر فإنه إلى حد بعيد يريدهما معاً، ولكنه على الرغم من ذلك فإنه يبلغ صديقه نيؤو بأمرهما، ويبدأ نيؤو في خطب ود الابنة الصغرى (ناكا نوكيمي)، وسرعان ما يفلح في مضاجعتها.

ينبغي لهذا أن يجعل نيؤو ملتزماً حيال ناكا نوكيمي، ولكنه نادراً ما كان يسـتطيع بالفعل أن يقـوم بالرحلـة إلى أوجـي، والآن تقنع فتـرات غيابه الممتـدة الأختين كليهمـا بأنه كان يتلاعـب بها فحسـب، فتصبح أويجيمـى على يقين من أنها سـتعاني من المصير نفسـه إذا قبلـت كاورو، فتصـل إلى أنهـا لـم تعد تريـد الحياة. وفي نهايـة الفصل السـابع والأربعين («عقد ثلاثية الأوراق»)، فإنها تمتنع عن الطعام حتى الموت، فيغدو كاورو كسير الفؤاد.

فـي الفصل الثامـن والأربعين («أغصان السـرخس الجديدة») ينقل نيـؤو ناكا نوكيمي إلى مسـكنه في المدينـة، ولكنه في الفصل التاسـع والأربعين («اللبـلاب») يضطر، تحت ضغوط سياسية وأبوية، إلى قبول ابنة يوجيري، نجل جينجي، زوجة رئيسية له، بعد أن غدا يوجيري الآن أقوى مسـؤول في البلاط، ويظل كاورو على اتصال بناكا نوكيمي، ويلاحظ الآن أنهـا أكثر شـبهاً بأختهـا مما كان يدرك. ويبدأ في الحنين إليها فـي نهاية المطاف، فتثير اهتماماتـه تلـك غيرة نيؤو، ولكي تـروغ منهما، فإنها تبلغه بأمر أخت لهمـا ثالثة، وهي ابنة

للأمير غير معترف بها، ويعرف القراء هذه الشابة باسم أوكيفوني. وهي تقول إن أوكيفوني تشبه أويجيمي بصورة مذهلة، ويصيب الشبه كاورو بالذهول حقاً عندما يراها، ومن هنا فإنه يقرر متابعة أوكيفوني من الآن فصاعداً.

من سوء الطالع أنه عندما تجيء أوكيفوني لقضاء بضعة أيام مع ناكا نوكيمي، فإن نيؤو يكتشفها بدورها، وعقب ذلك مباشرة فإن كاورو ينجز اقترابه من أوكيفوني، وينقلها سراً إلى الدار الفارغة الآن في أوجي، ولكن نيؤو يفلح في اقتفاء أثرها، على الرغم من ذلك، ويضاجعها (الفصل 14.5 الواحد والخمسون «قارب منجرف»).

تقع أوكيفوني الآن بين الاثنين. ويُعد كاورو سيداً نبيلاً، أعظم بكثير ممن يمكنها في العادة أن تتوقع الزواج منهم حتى كزوجة أدنى مرتبة، وتحبذه أمها تماماً، لكن نيؤو يثير اهتمامها أكثر منه بكثير. ويعلن كاورو، الذي كان يشيِّد داراً في المدينة، موعداً سيحضر فيه لاصطحابها، ويتصاعد التوتر مع تخطيط نيؤو للانسلال بها أولاً، وإذ تعجز أوكيفوني عن الاختيار بينهما، فإنها تقرر إغراق نفسها في نهر أوجي.

فيما يبدأ الفصل الثاني والخمسون («ذبابة مايو»)، فإنها تختفي، ولا يتم العثور على الجثة، وللحفاظ على المظاهر، ترتب العائلة جنازة سريعة، زائفة. ويلزم كاورو ونيؤو الحداد عليها، غير أنها لم تغرق في نهاية المطاف.

وقرب بداية الفصل الثالث والخمسين «إبداع الخط» يعثر عليها كاهنان، وقد لزمت الصمت، واعتصمت بالبكاء، تحت إحدى الأشجار. وهما يبلغان أمر اكتشافهما سيدهما، وهو راهب رفيع الشأن، فتعنى بها بمزيد من الحنو أخت الراهب، وهي راهبة، وهي تجد أن أوكيفوني ليست في حالة وعي عادية، وأنها تعاني كذلك من فقدان كلي للذاكرة.

وبما أن الفريق بكامله كان ماراً عبر أوجي في رحلة روحية، فإن الأخت تصحبها إلى الدار، في مكان يدعى أونو، حيث تظل حالة أوكيفوني من دون تغيير لمدة شهرين، إلى أن يقوم الراهب البارز، أخيراً، بطرد الأرواح الشريرة التي تتلبسها، وعندئذ تسترد جانباً من ذاكرتها، ولكنها تحتفظ بما تتذكره لنفسها، ثم عقب ذلك تقنع الراهب البارز برسامتها راهبة.

فـي نهايـة الفصل الثالث والخمسـين، بعـد عام من مـوت أوكيفوني المفتـرض، يعلم كاورو بأنهـا لا تـزال علـى قيد الحيـاة، وفي الفصـل الرابع والخمسـين («جسـر الأحلام الطافـي») يتحقـق من هويتهـا ومن المكان الـذي توجد فيـه، وإذ يعقد العـزم على رؤيتها مجدداً، فإنه يبعث إليها برسـالة عن طريق أخيها غير الشـقيق الشاب، لكنها ترفض الإقرار بأن الرسـالة مبعوثة إليها، وتأبى التعرف على الفتى، وفي سـطور الكتاب الختامية، يتساءل كاورو المفعم بخيبة الأمل عما إذا كان شخص آخر (يفترض أنه نيؤو) قد أبقى عليها لنفسه مختبئة هناك.

تـؤرِّق هـذه النهاية غير الحاسـمة بعـض القراء وقد أُشـير إلى أن المؤلفة قـد ماتت، أو اضطرت لترك الحكاية غير مكتملة. إلا أن هذا الغموض قد يكون مقصوداً كذلك.

المؤلفة

ولـدت مورا ساكـي شيكيبـو حوالـي عـام 973 ابنة للارستقراطية الوسطية التي أمدت اليابـان بحكام الأقاليم، وقد انتمت إلى عائلة فوجيوارا الممتدة، وفي بعض الفروع الأخرى ذات القـوة الفائقـة، ولكن اسـمها الأول لم يُقدَّر له أن يسـجل، ومورا سـاكي شـيكيبو هو لقـب، حيث يشـير شـيكيبو «مكتـب الاحتفـالات» إلى منصب شـغله أبوها فـي وقت من الأوقات، بينما مورا سـاكي هو اسـم البطلة التي أبدعها خيالهـا لحكايتها، وقد عمل أبوها فوجيوارا نوتاميتوكا (توفي عام 1029) حاكماً في مقاطعات هاريما وإتشيزين التي صحبته إليها في 996 واتشـيجـو، وقد كان ضليعاً فـي اللغة الصينية كذلك، وتزوجت ابنتها كاتاكو (أوكينشـي)، والتي عرفت في وقت لاحق باسـم ديني نو سـانمي، وقـد ولدت في 998 أو 999 وترملـت فـي 1001. وربمـا ماتـت حوالي عـام 1080، وفي حوالي 1006 اسـتدعيت مورا سـاكي لخدمة الإمبراطورة أكيكو (أوشوسـى) ولا شـك في أن هذا الاسـتدعاء كان بسبب موهبتها في كتابة القصص، ويعود تاريخ آخر سجل أتى على ذكرها إلى عام 1013، وربمـا ماتت في العام التالي لذلك. وإلى جوار «حكاية جينجي»، فقد تركت شـذرات من يوميات (مورا سـاكي شـيكيبـو نكي، ويصف جانب كبير منها وقائع في القصر في 1008)، ومجموعـة مـن الشـعر ذي الطابع الشـخصي «مورا سـاكي شـيكيبو شـو» والتـي ربما تم

تجميعها بعد وفاتها.

ما من شيء يشير، على وجه الدقة، إلى متى بدأت مورا ساكي شيكيبو بكتابة حكايتها، أو متى فرغت منها، لكن يومياتها تشير إلى أن العمل على نحو ما وجد في 1007 أو 1008 كان عملها، وقد تم الاعتراف بها منذ ذلك الحين باعتبارها مؤلفة الفصول الأربعة والخمسين جميعها، غير أن البرهان المتضمن في العمل نفسه يشير إلى أن هذه الفصول جميعها لم تُكتب في ترتيبها الحالي، وتتضمن «حكاية جينجي» الكثير من الكتابة المتألقة، ولكنها كذلك تترك انطباعاً بتحرير متألق.

لم يُقدَّر إلا لقليل من القراء والباحثين أن يشكوا على الإطلاق في نسبة تأليف العمل إلى مورا ساكي شيكيبو وحدها، ولكن البرهان الذي قُدِّر له البقاء، والذي يدعم تأليف العمل من قبل شخص واحد، ليس على ذلك القدر من القوة، فالحكاية التي تأتي على ذكرها في يومياتها لا يحتمل أن تكون العمل بأسره، وربما قد تكون قد واصلت الكتابة سنوات بعد ذلك، ربما بانقطاعات زمنية بشكل أو بآخر، بينما تغيرت نظرتها مع الإيغال في العمر، فإن جمهورها الذي توجهت إليه قد تغيَّر كذلك، غير أن الأمر الوحيد المؤكد هو أن شيئاً يشبه النص الحالي قد وجد في 1021، عندما عادت شابة من مقاطعة نائية إلى العاصمة، وتلقت نسخة كاملة من «حكاية جينجي» من عمتها، وفي سنوات نضجها فإن ابنة تاكا سوي، على نحو ما تُعرف، كتبت مذكرات في صورة سيرة ذاتية (ساراشينانكى) أشارت فيها إلى متعة قراءة هذه النسخة، ويشير حديثها عن «ما يزيد على خمسين فصلاً» إلى الفصول الأربعة والخمسين الحالية، وهي تأتي على ذكر أوكيفوني، بطلة الفصول الأربعة الأخيرة، ومن هنا فإن البرهان المحبذ لنسبة تأليف العمل لشخص واحد هو برهان معقول، لكنه ناقص.

يعد باحث ينتمي إلى القرن الخامس عشر أول شخص معروف بأنه قد أشار إلى أن ابنة مورا ساكي شيكيبو وليس مورا ساكي شيكيبو نفسها، هي التي كتبت الثلث الأخير من الكتاب (الفصول من الثاني والأربعين إلى الرابع والخمسين).

ويبدو أن هذه الفكرة قد نُسيت بشكل أو بآخر إلى أن قامت الشاعرة يوسانو أكيكو (1878 ـ 1942) بطرحها في إهاب جديد، وقد قامت أكيكو بنشر ترجمتين رائدتين من

«حكاية جينجي» إلى اليابانية الحديثة، وبحلول الوقت الذي فرغت فيه من الترجمة الثانية، كانت تعتقد أن مورا ساكي شيكيبو قد ألفت الفصول من الأول إلى الثالث والثلاثين فقط، ونسبت الفصول من الرابع والثلاثين إلى الرابع والخمسين إلى ابنة شيكيبو مورا ساكي.

وطرح آخرون علامات استفهام فيما يتعلق بتأليف الفصول من الثاني والأربعين إلى الرابع والخمسين أو الفصول من الثاني والأربعين إلى الرابع والأربعين، وأظهرت تحليلات كمبيوترية حديثة تباينات مهمة إحصائياً في الأسلوب بين الفصول من الخامس والأربعين إلى الرابع والخمسين وبين باقي الفصول، وكذلك تباينات بين بعض الفصول الأولى إذا لم تكن مورا ساكي هي المؤلفة الأولى، فإنه ما من دليل معروف يشير بالفعل إلى ابنتها، غير أن ديني نو سانمي، وهي شاعرة متميزة، تعد المرشحة الوحيدة المحتملة القابلة لتحديد هويتها. وقد كان من الممكن لشخص أو أشخاص أن يضيفوا فصولاً جديدة بحلول 1021، على نحو ما حاول عدد محدود من الأشخاص القيام به في وقت لاحق، وربما آثروا لأسباب عديدة أن يظلوا مجهولي الهوية، وأن يتركوا الفضل لينسب إلى المؤلفة الأصلية المعترف بها. وهذه المسألة من غير المحتمل أن يتم حسمها ذات يوم.

المخطوطات والنصوص

لم يُقدَّر لأي مخطوطة للحكاية من أي وقت قريب من عصر مورا ساكي شيكيبو البقاء، وأقدم شذرات نصية معروفة تظهر في «جينجي مونوجاتري إيماكي»، وهي مجموعة غير كاملة من الرسوم الإيضاحية العائدة لأواخر القرن الثاني عشر. وبحلول القرن الثالث عشر راح النص يتعرض للتحريف، بعد أن نُسخ مراراً، وانطلق باحثان بصورة مستقلة لإعادته إلى أصله، كان أحدهما هو مينا موتو نو ميتسويوكي (توفي عام 1244)، والذي تم إكمال عمله في 1255 على يد ابنه تشيكايوكي (توفي عام 1277) ولما كان ميتسويوكي قد عمل حاكماً لمقاطعة كاوتشي، فإن تنقيحه يعرف بـ«كاوتشي ـ بون»، أي «نص كاوتشي».

بدأ الشاعر والأديب العظيم فوجيوارانو تيكا (1162 ـ 1241) مشروعاً مماثلاً، حوالي الوقت نفسه، وقد كتب تيكا في يومياته يقول إن نسخته اختفت في تسعينات القرن الثاني

عشر، وإنه اضطر إلى البدء في تجميع نسخ أخرى ومقارنتها ببعضها بعضاً.

وتم إكمال هذا العمل في 1225. وقد بقيت أربعة فصول مما يعرف بـ«أوباشي بون» أي («النص ذو الغلاف الأزرق»)، مكتوبة بخطه.

وقد اعتبر تنقيحه، في نسخ لاحقة، نصاً نموذجياً من القرن الرابع عشر. وجميع الطبعات الحديثة التي يمكن الوصول إليها تقوم على أساس سلسلة مخطوطات «النص ذو الغلاف الأزرق». وهذه الترجمة تعتمد على الطبعات المزودة بالحواشي على نحو موثوق به والمدرجة في ثلاث خلاصات وافية رائعة للأعمال الكلاسيكية اليابانية و«شين نيهون كوتين شوسي» (إصدار شينتشوسا)، «شين نيهون كوتين بونجاكو تايكي» (إصدار أيونامى).

هناك أيضاً مجموعة من المخطوطات تسمى «بيبون»، أي («نصوص أخرى»)، وهي مختلفة عن خطي «نص كاوتشي»، و«النص ذو الغلاف الأزرق».

ومن منظور غير المتخصص، وبصفة خاصة قارىء الترجمة، فليس هناك تباين كبير بين خطي «نص كاوتشي» و«النص ذو الغلاف الأزرق»، ولكن دراسة «بيبون» قد تفضي إلى رؤية لوضعية أقدم للنص.

عالم الحكاية

هناك شيء أساسي يتعين تذكره خلال قراءة «حكاية جينجي» وهو أنه ما من أحد فيها يظل وحده أبداً، فالرجل النبيل أو المرأة النبيلة قد عاشا يحيط بهما، بشكل أو بآخر، فريق كبير من النساء، وفي دائرة خارجية من الرجال، ومفهوما العزلة والخصوصية لم يكن لهما وجود.

وكانت السيدة النبيلة ترقد وقد أحاطت بها الستائر، هذا صحيح، ولكنها كانت ستائر فحسب، حيث كان أي عدد من النسوة المهذبات يرقدن على الأرضية خارج هذه الستائر مباشرة، وعندما كان أي نبيل يمضي إلى مكان ما سراً تحت الليل فربما، مع تعريض نفسه لبعض المخاطر، يصحب معه تابعين أو ثلاثة أتباع، وإذا قال شيئاً بصورة منعزلة لسيدة

مهذبة، فإنه يكون قد أفلح في القيام بذلك في غرفة تضم بالفعل الكثير من الأتباع.

وعلى الرغم من ذلك، فإن سيداً نبيلاً وسيدة نبيلة لا يحيط به أو بها إلا الأتباع أو طاقم العاملين في الدار يكون وحيداً على نحو ما، لأن مثل هؤلاء الناس، بمعنى كبير، لم يكن لهم اعتبار، والعلاقات بين ذوي الحيثية هي الشيء المهم، وهذه العلاقات لم تكن تجري ممارستها بالضرورة وجهاً لوجه، فقد كفلت العادات الحميدة الحفاظ على مسافة مناسبة، وهو ما كان يضمن الحفاظ على النظام الاجتماعي المقبول، فحامل الرسالة لم يكن بمقدوره حتى أن يبلغ رسالة شفهية لسيد نبيل عظيم بنفسه، وإنما يتعين نقل كلماته عن طريق آخرين، وفي بعض الأحيان في أكثر من مرحلة، وهو قد لا يرى الوسيط الأول، دع جانباً أن يسمع صوت السيد النبيل، وبالمثل فإن فضاء الدار، المقسم من خلال الستائر المسدلة، والحواجز المصمتة، وهي أشياء ليست أكثر أهمية من طرق التخاطب، قد حافظ على المسافة، وكفل الحفاظ على المكانة.

هذا أمر يلفت النظر بشدة في مشاهد الغزل والتودد، ففي العديد من هذه المشاهد يعرب الرجل عن شكواه من الاضطرار إلى الحديث مع المرأة عبر إحدى وصيفاتها، وهو بالطبع لا يستطيع رؤيتها، وقد لا تكون لديه فكرة عن شكلها، وهو عادة لن يراها حتى لو خاطبته بصوتها، حيث أنها ستكون لا تزال في غرفة أخرى، ووراء حاجز مصمت وستارة، وستظل الستارة مسدلة، حتى لو سمحت له بولوج الغرفة التي توجد بها.

وإذا أخذ على عاتقه عندئذ أن ينحي الستارة جانباً، ويمضي إليها مباشرة، فإنه سيكون بتلك الايماءة وحدها قد انتزع شيئاً يقرب من الحميمية النهائية.

لا توحي هذه العادات شديدة الحساسية بمناخ التساهل المرح الذي وجده القراء ذوو النزعة الأخلاقية على مدار القرون، وحتى وقت جد قريب من عصرنا، في الحكاية. والأمر على العكس تماماً، فقد قُصد بها إحباط العفوية الإيروتيكية، واللغة متحفظة بالمثل. وعلى سبيل المثال، فإن كلمة «يومي» أي «حلم» هي الكلمة التي تعد بمثابة الجذر الأدبي للجماع بين عاشقين.

وقد تساءل بعض القراء عما إذا كان الرجال والنساء في الحكاية يفعلون شيئاً على

الإطـلاق، حيـث أنهم فيما يبدو يقضون لياليهم في تجـاذب أطراف الحديث، ولكن كلمة «كاتـارو» التـي تعنـي ذلك بصورة ظاهرية، تشـير بالفعـل إلى أنواع أخرى مـن التصرفات الحميمية كذلك (هذا اللطف ذاته موجود في فرنسـية القرون الوسـطى، وربما العديد من اللغـات الأخـرى). وفعل «يرى» يمكن أن يكون كذلك أقـوى من المتوقع، والرجل الذي «يـرى» أو «يواصـل رؤية» امرأة (وهو تعبير قياسـي) يقـوم على الأقل إلى حـد ما بجعلها تشـاركه حياته، وجينجي بعد أن «رأى» أوتسوسيمي في غرفة مظلمة تماماً (الفصل الثاني) إنما يقصد صراحة أنه قد نالها.

ومـع كل الأعـراف المتعلقـة بالعمـارة والأثاث والعـادات التي قُصد منهـا، على وجه الدقـة، الحيلولـة بين رؤيـة خطيب أو زائـر لامرأة، ونتيجـة لمحة عابرة (مـن خلال فتحة في سـور نباتي، ثقب في حاجز منزلق، ثغرة في سـتارة) يمكن أن تكون مدمرة. وفي عالم القص، حيث يمكن للحبكة أن تعلق على مثل هذه اللحظة، فإن «كيمامي» أي («الرؤية من خلال فتحة») يمكن أن تكون على نحو يمكن تفهمه أمراً مؤثراً شائعاً، وبالطبع، فإن رجلاً قـد يحـدِّق عبر فتحـة واعدة، وربما كان ينبغـي عليه ألا يقوم بذلك، ولكـن على الأقل في الحكاية فإن العالـم قد لا يمضي على هذا النحو المثير للاهتمام كثيراً إذا أحجم عن ذلك.

فـي لغـة الحكاية فإن «يونـاكا» أي «عالمنا»، «الحيـاة»، «العالم»، تعنـي كذلك العلاقة بيـن رجـلٍ بعينه وامرأة. وكما هـي الحال غالباً في بـلاد أخرى، فقد كان هـذا الجانب من الحياة مسـتقطباً بشـدة لاهتمامات النسـاء بصفة خاصة، لأنهن يعتمدن علـى الرجال فيما يتعلـق بمكانهن في «العالـم»، والمرأة لها ملاذ واحد خارج إطار علاقة مسـتقرة مع رجل، فبمقدورهـا أن تصبح راهبة، ولـم يعن ذلك أنها قد التحقت بدير، جماعة رهبانية مسـتقرة، وإنمـا بـدلاً مـن ذلك فقد كانـت تلتزم بمسـتوى معين من العهـود الدينية، تقص شـعرها، وترتدي ملابس بسـيطة ومحتشـمة، وتلتزم الدار. ولـم تكن هذه الخطوة بالأمر الذي ينظر إليه باستخفاف.

ويصبـح عدد كبير من النسـاء فـي الحكاية راهبات بهذه الطريقة. ومـن بين الرجال فإن جينجـي يفكِّر باسـتمرار في أن يعتزل الدنيا، وكذلك الحال بالنسبة إلـى كاورو من بعده، ولكـن أيـاً منهمـا لا يتحرك في هـذا الاتجـاه، والرجل الوحيد الـذي يصبح راهبـاً بطريقة

يمكن وضعها موضع المقارنة مع الراهبة التي جرى وصفها حالاً هو راهب أكاشي غريب الأطوار، والرجل الوحيد الذي تجري رسامته راهباً بصورة كاملة هو الإمبراطور المتقاعد سوزاكو، وأياً كانت أحلام الرجال المتعلقة بالسلام والتقوى، فإنهم ليس لديهم الدافع الذاتي للرهبنة الموجودة لدى النساء.

نمط التسلسل الهرمي القيادي

في صورة مثالية تبنتها اليابان نقلاً عن الصين، يواجه الإمبراطور الجنوب ليطل على البلاد بناظريه، يحيط به وزيراه، وزير الميسرة (يسار الإمبراطور، الشرق) ووزير الميمنة. وهذا هو السبب في أنه في التاريخ، كما في عالم الحكاية، يقع القصر الإمبراطوري في شمالي العاصمة، مواجهاً الجنوب. والسبب في أن مساكن النبلاء جميعها تواجه الجنوب كذلك، كما يفسر كذلك التناظر الثنائي للحكومة والعديد من الأجهزة الرسمية لها مكونات من الميمنة وأخرى من الميسرة، وفي الحكاية فإن التقسيم يظهر في الألقاب التي يحملها مسؤولو هذه الأجهزة.

وعلى سبيل المثال، فإن القارىء يلتقي بقيِّم إسطبل الميسرة الرئيسي وبمساعد حراس قصر الميمنة، وفي الفصول الأولى يبرز التناظر نفسه في الصراع على السلطة بين الجناح الذي يمثله وزير الميسرة وجينجي، والجناح الذي يمثله وزير الميمنة وابنته أم ولي العهد.

وقد كانت المدينة مقسمة إدارياً إلى ميسرة وميمنة، وقُسمت الموسيقى وكذلك الرقص أيضاً إلى ذخيرة فنية للميمنة وأخرى للميسرة، كما قُسمت المسابقات، من المصارعة إلى الشعر، إلى مشرق ومغرب.

ارتبطت كل المناصب بمرتبة مرقمة، ابتداء من رقم واحد إلى رقم تسعة. وقُسمت هذه المراتب إلى مستوى مراتب كاملة («المرتبة الثالثة») ومراتب أدنى («المرتبة الثالثة الأدنى»)، وعند المرتبة الرابعة فما دونها فإن المستويين الكامل والأدنى قُسما تقسيماً إضافياً إلى الدرجتين العليا والسفلى (المرتبة الرابعة الأدنى، الدرجة العليا، المرتبة السادسة الأدنى، الدرجة السفلى). والمراتب المرقمة ليست بارزة في النص، ولكن

الشخصيات على وعي كبير بها.

يقف الإمبراطور فوق هذا النظام المرقم، والراوية قد يصفه بأنه «بدون مرتبة» أو بكلمات تحمل هذا المعنى، بالأحرى كما تصف شيئاً ثميناً بلا حدود بأنه «يتجاوز أي ثمن»، غير أن أشخاصاً من السلالة الإمبراطورية يتسمون بالأهمية، من الذكور والإناث على السواء، لهم مكانهم في سلم المرتبة. والمثال الذي يضرب في هذا الصدد هو الأميرة التي يتزوجها جينجي، والدرجة التي يتعين على جينجي أن يكرمها برفعها إليها سرعان ما تصبح عبئاً، ويغدو العبء أكثر ثقلاً، عندما تُرقى إلى مرتبة أعلى.

لم يكن الإمبراطور مضطراً للاعتراف بأبنائه جميعاً، وبصفة خاصة الذين أنجبهم من أمهات لا أهمية لهن اجتماعياً أو سياسياً، ولكن معظم أبناء الأباطرة البارزين في الحكاية يتم الاعتراف بهم، وباستثناء جينجي نفسه فهم يحملون ألقاب الأمراء والأميرات.

وفي هذا الكتاب فإن الأمير (سمو الأمير) هو انطلاقاً من هذا نجل أمبراطور، والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الأميرة (سمو الأميرة) غير أن لقب الأميرة يغطي كذلك حفيدة إمبراطورية في الجانب الذكوري وليس الأنثوي من السلالة الإمبراطورية، وعلى سبيل المثال فإن سويتسوموهانا هي أميرة لأنها ابنة الأمير هيتاشي، بينما أودي ليست بأميرة، على الرغم من أن أمها أميرة، لأن والد أوي (وزير الميسرة) هو من العامة، «وأوي» المروعة على الصعيد الشخصي تحتل مكانة رفيعة للغاية، وأبوها قوي بصورة استثنائية، وثقلها في الدنيا أعظم على نحو لا سبيل إلى مقارنته مع ثقل سويتسوماهانا، المثيرة للشفقة، والتي مات أبوها على أية حال، وعلى الرغم من ذلك فإن سويتسوماهانا تحيط بها هالة من التميز الإمبراطوري لم ترثها أوي، وتحيط هذه الهالة كذلك بأميرات أخريات في الحكاية، حتى أميرات محرومات، مثل أويجيمي وناكانوكيمي، ومعظم هاته الأميرات، سواء أكن ينتمين إلى الجيل الأول أو الثاني، يعشن في المنطقة الغسقية بين التميز الإمبراطوري وما يبدو أنه قد نظر إليه أنه عادية العادة الثابتة، ونادراً ما تستطيع أميرة الزواج من غير أن تتزوج شخصاً أدنى منها مرتبة (من العامة)، وذلك سبب كان يدفعها، من حيث المبدأ، إلى عدم الزواج على الإطلاق، ولكن الإمبراطور سوزاكو يلاحظ في «براعم الربيعا» أنها قد تكون عرضة للفضيحة بصورة خطرة، إذا لم تتزوج. وغالباً ما يكون وضعها تعساً.

باستطاعة الإمبراطور الذي لا يرغب في أن يعين ابنه إمبراطوراً، ولكنه على الرغم من ذلك يفضل ألا يسلمه إلى النسيان، أن يمنحه لقباً عائلياً، الأمر الذي يجعله من العامة، وهذا هو ما ما يفعله والد جينجي بالنسبة لابنه. وفي اللغة الإنجليزية فإن جينجي غالباً ما يقال له «الأمير جينجي»، ولكن استخدام الترجمة الماثلة بين يدي القارىء يحظر ذلك، حيث أن الأمير لقب يخلع رسمياً من قبل الإمبراطور على ابن يرغب في الاعتراف به بصورة كاملة والإبقاء عليه في العائلة الإمبراطورية. وقبل أن يتلقى جينجي لقبه العائلي، فإنه ابن إمبراطوري لا يزال وضعه في الحياة رهن التحديد، أما بعد ذلك فإنه من العامة.

بستحق التسلسل الهرمي البوذي الذي نلمحه في الحكاية كلمة موجزة، فالكاهن رفيع المستوى، يحتمل أن يكون شقيق مسؤول بارز، أمير أو أميرة أو حتى إمبراطور. ومن الأمثلة على ذلك عم والد مورا ساكي، شقيق سويتسوماهانا، وربما الراهب الذي طرد الأرواح الشريرة من أوكيفوني. وغالباً ما كانت المستويات العليا من التسلسل الهرمي البوذي يشغلها أبناء الارستقراطية في أرفع مستوياتها.

السرد والمراتب والأسماء

تدرك راوية جينجي المرتبة الاجتماعية، وتفترض أن القارىء على وعي بها بدوره، ويبدو أنها سيدة مهذبة تروي حكاية لسيدتها، والطريقة التي تشير بها إلى الشخصيات هي في معظم الحالات متحفظة. والاسم الشخصي النادر الذي تأتي على ذكره هو اسم تابع لنبيل عظيم أو وصيفة عابرة، وهي تشير إلى الشخصية عادة باللقب الرسمي أو المتعارف عليه، إذا كان هناك مثل هذا اللقب، وشمل من يحملون مثل هذا اللقب المسؤولين ذكوراً وإناثاً والرهبان والبوذيين، وينتقل المسؤولون من حمل لقب إلى حمل آخر في السرد مع تقدم مسار حياتهم العملية.

تحدد سيدة مهذبة من خلال «ميشينا» الخاص بها، أي («اسم الخدمة»)، والذي يلمح، كما في حالة المؤلفة نفسها، إلى جهاز أو منصب حكوميين يرتبطان بأحد أقاربها من الذكور، ومن هنا فإن العديد من السيدات المهذبات في الحكاية لديهن «الميشينا» نفسه، وهناك على سبيل المثال تشوجو (حرفياً «نقيب») وجوجو (حرفياً «مستشار»). وفي هذا

الكتـاب فإن أسـماء الخدمة هـذه تجري كتابتها على نحو ما تنطـق وليس ترجمتها، بحيث أنها من الناحية العملية تبدو شبيهة بالأسماء.

والأميرات وكذلك العديد من الأمراء يُعرفون بالرقم، وهناك على سبيل المثال الأميرة الأولـى (أونـنـا ايتشـي نوميا)، الأميـرة الثانيـة (أونناني نوميـا)، والأميرة الثالثة (أونا سـان نوميا). قد لا تحظى النسـاء اللواتي لا يحملن لقباً ولا اسم خدمة بأية تسمية شخصية على الأطلاق في السـرد، وتعـد أوي، زوجة جينجي الأولى، مثلاً على ذلك، والقراء يسـمونها أوي لاعتبارات الملاءمة فحسـب. وموروا سـاكي شأن أوي يشـبه اسماً، ولكن هذه الكلمة تبـدأ فعلياً كاسـم بالمعنـى المألوف فـي النحو، يلمح إلى فوجيتسـوبو، ولا يشـير بصورة منتظمة إلى مورا ساكي، إلا بعد ذلك بكثير في مسار الكتاب والسيدة النبيلة العظيمة (شأن السيد النبيل العظيم في الممارسة التاريخية) قد يتم تمييزها كذلك باسم المكان الذي تقيم فيه. وعلى سبيل المثال فإن فوجيتسوبو تقيم في «الفوجيتسوبو» («جناح الوستارية») وهو جناح في مجمع القصر الإمبراطوري، وروكوجو تقيم في «الروكوجو» (الجادة السادسـة) والإشـارة المعتادة في قسـم كبير من العمل هي «تاي نو أوئي» (على وجه التقريب «سيدة أوئي»)، أهل دار جينجي، التي تقيم في جناح (تاي) سكنه).

ومن الشـخصيات الأنثويـة الأخرى من يتم تحديـد هوياتهن باعتبارهـن بنات، وتعني «أويجيمي» وهي التسمية التقليدية لكبرى أخوات أوجي ببساطة «الابنة الكبرى» أما ناكانو كيما فتعني «الابنة الصغرى».

يقتضي تتبع الشـخصيات بسـهولة في الأصل اسـتيعاباً غريزياً على وجه التقريب لعالم تدعمـه الذاكـرة، وكذلك المؤشـرات الحذرة المعتمدة على السـياق التي يقدمها السـرد، وذلـك هو السـبب في أن القراء قاموا منذ وقت طويل بإعطاء تسـميات ثابتة للشـخصيات في نهاية المطاف.

ومعظم أسـماء النسـاء (يوجاو، أبوروزوكيو، هاناتشيروسـاتو، تاماكازورا، أوكيفوني، وهلم جرا) هي كلمات من قصائد قمن بنظمها أو وُجهت إليهن، والمثال البارز بين الرجال بألقابهم التي لا تفتأ تتغير، هو أقدم أصدقاء جينجي وزملائه تونو تشوجو.

ويظهر تو نو تشوجو للمرة الأولى في الحكاية (الفصل الأول) كملازم حاجب (كورودو نو شوشو) وهو تعيين أولي، وتعلو مرتبته بمرور الوقت ليصل إلى منصب رفيع، هو مستشار (أوكيوتودو). غير أن اللقب الذي يعرفه به القراء به لاعتبارات الملاءمة يعني «النقيب أمين السر»، وهو اللقب الذي يحمله في الفصل الثاني.

ويحمل جينجي بدوره ألقابه التي لا تفتأ تتغير، فلا تكاد كلمة جينجي تظهر في النص.

تحذو هذه الترجمة حذو استخدام الأصل روحاً، إن لم يكن على الدوام بصورة حرفية، فالشخصية التي تحمل لقباً رسمياً أو عرفياً (نقيب، قائد، وزير، سيدة طاقم العاملين) تحتفظ به، ومثل هذه الألقاب كافة تتم ترجمتها، والمرأة التي تفتقر إلى مثل هذا اللقب تظهر على الشاكلة التي تظهر عليها في الأصل، بحيث أن النساء اللواتي يجري إبرازهن باللقب العرضي «الأميرة» (ميا)، «الابنة» (هيمجيمي)، «عزيزته» (أوناجيمي) وهلم جرا تظل بلا اسم تحمله. ولمساعدة القارىء، فإن كل فصل يبدأ بقائمة للشخصيات (بما في ذلك التسمية مترجمة والسن والتعريف المعتاد) وحيثما اقتضى الأمر، فإن حاشية تقدم الهوية بإيجاز عن طريق التعريف المعتاد، وهذه التعريفات وحدها هي التي تظهر في الحواشي.

بالنسبة للشخصيات الأكثر سمواً، فإن الترجمة تتبنى كذلك أشكالاً للمخاطبة تقر بالرابطة الاجتماعية التي تصل بين الراوية الخيالية وبين الشخصية، أو بين الشخصيات ذاتها. ومن الأمثلة التي تضرب في مثل هذا الصدد «معاليه» للوزير أو المستشار، «سموها» للأميرة، «جلالتها» للإمبراطورة، و«صاحب المقام الرفيع» للإمبراطور المتقاعد.

ولما كان هذا الاستخدام يعني اعترافاً بالجماعة المقربة (شخص ينتمي إلى العالم الاجتماعي للوزير هو وحده الذي سيناديه بلقب «معاليه»)، فإن استخدام اللقب بمعناه الواسع ربما يمكن استغلاله في اللغة الإنجليزية لنقل هذا البعد وهذه المسافة. وفي الفصول الأولى فإن كلمة الوزير تحدد بصورة تفضيلية وزير الميمنة، العدو السياسي لجانب جينجي، بينما «معاليه» هو حما جينجي، وزير الميمنة.

يتمثل الاسم التقليدي الوحيد المستخدم على امتداد العمل في اسم جينجي نفسه،

علـى الرغم من أن لقبـه الحالي يظهر في الخطاب المباشـر أو المونولوج الداخلي. ولفظ المخاطبة الذي يقتصر عليه وحده بعد عودته من المنفى هو «ولي النعمة»، وبصورة حصرية فـإن لقب «ولي النعم» ربما يتطابق بشـكل أفضل مع لقب الإمبراطـور المتقاعد الفخري، وهـو اللقب الذي لـم يخلع عليه إلا بعد وقت طويل من ذلك، ولكـن المنزلة الفريدة التي أصبح يحظى بها على الفور تبرز هذا التحرر في الاسـتخدام، الذي يحدده بصورة مستمرة بالنسبة للقارىء، بينما يقر كذلك بتميزه الفائق.

تـم الإبقاء على هيئة النص الأصلي، وذلك للحفاظ على طابع العالم الاجتماعي الذي تبدعـه الراويـة وعلى بنيته. وتتحدَّث الراوية الخيالية من قلب هذه البنية، وبالنسـبة لها فإن الأخلاق الحميدة تقتضي الالتزام بالحرص التقليدي. وهي كسـيدة مهذبة تعمل في خدمة سـيدة نبيلة عظيمة، فإنها تحتل، بالطبع، مكانة رفيعة بين مجمل سـكان البلاد في عصرها، بحسـب البدء من الفلاحين فصاعداً في السـلم الاجتماعي، ولكن الفلاحين ومن إليهم لا ينتمـون إلى عالمها، ذلك أن عالمها هو عالم البلاط، الذي تشـغل فيه مكاناً متواضعاً، ولا بد للغتها من أن تقر بهذا المكان، كما أن من المحتم كذلك أن تنقل الطريقة التي من شـأن شخصياتها أن تفكِّر بها وتتحدَّث كل منها عن الأخرى، إذا كانت شخصيات واقعية.

وللتعبير عن الأمر بطريقة أخرى، فإن غياب الأسـماء الشـخصية من السـرد هو طريقة إبعاد أخرى، تصور سيداً نبيلاً وسيدة نبيلة من منظور شخص لا منتم يحدِّق فيه أو فيها.

وكان بالوسـع التعرف على حامل لقب رسـمي، رجلاً كان أو امرأة، بالشـكل الصحيح عن طريق ذلك اللقب، أو في بعض الأحيان عن طريق مقر الإقامة، ولكن الاسم الشخصي، حتى إذا سُجِّل في شجرة أنساب، يعد أكثر خصوصية من أن يستخدم في الخطاب. والطريقة التي تشـير الراوية بها إلى الناس لا تشـير إلى فرديتهم بقدر ما تشـير إلى وضعهم في كيان مركب من العلاقات المعترف بها في إطار الجماعة، والذي يعد موضع اهتمام كبير بالنسبة لهم جميعاً.

ومن هنا فإن إعطاء الشـخصيات أسـماء ثابتة (عملياً أسماء شخصية) من شأنه أن يعني نقـل موقف الراوية القائـم على المجاملة باتجاه الموقف الحديث، القائم على المسـاواة. وفي بعض الأحيان سـيكون الأمر متضمناً للخلط بين شخصية (والتي ما كان يمكن لها أن

تعرف الألقاب التقليدية لشخص آخر في الكتاب) وبين القارىء، من خلال جعل إحدى الشخصيات مطلعة على الأسرار الحميمية لشخصية أخرى، أو حتى من خلال جعل شخصية ما، أو الراوية نفسها تتحدَّث بألفة هجومية.

الشعر

كانت ضوابط الشكلانية لا تزال تترك بصورة تدعو للشعور بالسعادة مجالاً لأسلوب آخر من أساليب الاتصال، أسلوب خارج مجال اللغة التي يحددها الترتيب الهرمي، وهو الشعر، الذي كان يعتبر آنذاك الفن الأكثر نبلاً بين الفنون جميعها، فقد كان بمقدور الناس في إطار الشعر أن يخاطب كل منهم الآخر من القلب، وتروي العديد من النوادر القديمة كيف أن قصيدة بليغة نظمها شخص من مرتبة متدينة للغاية، ووجهها إلى شخص أرقى مكانة، قد حازت لمبدعها الاعتراف به كرفيق في الإنسانية.

وأدب اليابان القديم كله يتضمن قصائد (ربما القص النثري قد تبلور حول القصائد في بداية الأمر). وتتضمن «حكاية جينجي» 795 قصيدة، وقد قدَّر القراء على امتداد القرون هذه القصائد غالباً، ربما على نحو يفوق تقديرهم للنثر.

كان من الممكن في العالم الذي تستحضره الحكاية أن يلقي المرء القصيدة أو يكتبها لنفسه، ولكن الشعر كان، في المقام الأول، أمراً يتعلق بالضرورة الاجتماعية، فالتودد كان يقتضي تبادل القصائد، على نحو ما هي عليه الحال بالنسبة لكثير من اللحظات في الحياة، وكان الشخص الذي يفتقر إلى البراعة في نظم الشعر بصورة ملحوظة محروماً على الصعيد الاجتماعي من العديد من المزايا، وقد تعلم الناس الكتابة عن طريق نسخ القصائد، كما اكتسبوا لغة الشعر بأن يحفظوا عن ظهر قلب عدداً كبيراً من القصائد، وأكدوا ما يعرفونه عن طريق تأليف المزيد من القصائد بأنفسهم.

وعلى الرغم من أن قصائد كثيرة في الحكاية تُلقى أو تُكتب بصورة عفوية، فإن عفويتها تعكس بالفعل تمكناً من ناصية القواعد المعقدة الخاصة بالمقولة، الكلمات والشكل.

وصل بعض القصائد إلى ذُرى رفيعة من الألم أو العاطفة أو التألق. ومن بين شخصيات «حكاية جينجي» فإنه يقال إن «أفضل شاعر» ليس إلا السيدة النبيلة من أكاشي.

يُقال للقصائد التي يدور الحديث عنها هنا «التانكا» (الأنشودة القصيرة) أو «الواكا» (الأنشودة اليابانية) أو ببساطة «أوتا» (الأنشودة). وكل قصيدة منها تتألف من خمس وحدات فرعية من 5ـ7ـ5ـ7ـ7ـ مقاطع، بإجمالي واحد وثلاثين مقطعاً. تُكتب «التانكا» عادة في سطر واحد بلا انقطاع، وليست لها قافية، حيث أن اللغة لا تمنح نفسها في ذلك الاتجاه كذلك. وطابع هذه القصائد كشعر ينشأ من نطاق الأساليب الغنية المركبة، بما في ذلك التورية، التي تجعل معظم هذه القصائد صعبة الترجمة إلى حد بعيد.

تتبع القصائد الواردة في هذا الكتاب شكل «التانكا» المقطعي، وهي مقسمة إلى بيتين متركزين، أولهما يتألف من المقاطع 5ـ7ـ5، والثاني من المقطعين 7ـ7. والنظم المقطعي، بالطبع، ليس قالباً طبيعياً في اللغة الإنجليزية، لكنه يبعد لغة القصيدة بصور ملائمة عن لغة النثر. وغالباً ما يقتضي الالتزام به كلمات أكثر في الترجمة مما يقدمه الأصل متعدد المقاطع طواعية، ولكن النتيجة تلائم القصائد المدرجة في سرد نثري. غير أن القصائد التي يجري اقتطافها في الحواشي لا تتبع هذا القالب، حيث أنها مترجمة من أجل المعنى الأساسي فحسب. والقصائد التي لا يرد ذكر للشاعر الذي نظمها هي قصائد مجهولة المصدر.

القراء والقراءة في عصر المؤلفة

في عالم مورا ساكي شيكيبو، الرجال (باستثناء الرهبان) هم جميعاً مسؤولون رسميون، سواء أكانوا كباراً أم صغاراً. وهم قد درسوا الفلسفة، والتاريخ، والقانون، وهلمجرا باللغة الصينية، وتعلموا الكتابة بهذه اللغة، وكذلك نظم الشعر الصيني.

ولما كانت الصينية هي اللغة الرسمية التي يجري تعلمها والكتابة بها، فإن وضعها كان مماثلاً لوضع اللغة اللاتينية في أوروبا خلال القرون الوسطى. وقد نظموا الشعر باللغة اليابانية كذلك، ولكن القص كان من حيث المبدأ أدنى من مكانتهم، حيث أنه صُنِّف باعتباره خيالاً مفرطاً لا قيمة له، وهي فكرة ليست قاصرة على اليابان القديمة وحدها. وعلى الرغم من ذلك، فإن من الجلي أن البعض قد عرفوا الحكايات على أية حال، وما أن أصبحت «حكاية جينجي» تحظى بالإعجاب على نطاق واسع، حتى غدا الرجال هم أبرز المتصدرين للإشادة بقيمتها بصورة واضحة.

لم يكن يُفترض أن تدرس النساء اللغة الصينية، لكن بعضهن فعل ذلك. وقد كتبت مورا ساكي شيكيبو في يومياتها تقول إنها قد علَّمت الإمبراطورة قراءة الشعر الصيني، على الرغم من أنها قد اضطرت للقيام بذلك سراً، فقد كانت الصينية تعتبر شيئاً لا يلائم النساء النبيلات، وتصف الحكاية ابنة رجل متبحر في العلم علَّمت حبيبها نظم الشعر الصيني، ونساء نبيلات كن يحببن ملء رسائلهن بالحروف الصينية، ولكن من الجلي أن مثل هذه الأمور لم يتم تشجيعها، والسيدة النبيلة التي كان بمقدورها قراءة اللغة الصينية كانت تركب مركباً صعباً وحافلاً بالمخاطرة بإعلانها عن قدرتها تلك.

من هنا فإن القص النثري باللغة اليابانية التي تُكتب وفق الأصوات المنطوقة، مع حروف صينية قليلة، كان شيئاً مخصصاً للنساء، وفي «حكاية جينجي» فإن النساء وحدهن هن اللاتي كن يقمن علناً بقراءة الحكايات أو الاستماع إليها. في الفصل الخامس والعشرين «الحباحب» يحادث جينجي سيدة نبيلة في مقتبل العمر قد عكفت على نسخ حكاية لنفسها، عندما ينطلق هو فيما يُنظر إليه على أنه دفاع المؤلفة الخاص عن القص، ويبدو أنه يعرف الكثير عن الحكايات، لكنه ربما يزعم، إذا سُئل في هذا الصدد، أنها قد تناهت إلى مسامعه من بعيد فحسب، فيما كان أناس آخرون يقرؤونها بصوت عال.

ربما تقوم المرأة التي تقع في حبائل ظروف غريبة أو مؤلمة، بالبحث في الحكايات عن أمثلة مشابهة لحالتها، تماماً كما هو حري بامبراطور أن يستعرض كتب تاريخ الصين واليابان الرسمية بحثاً عن سابقة لمحنته، ولكن الهدف المعتاد للحكاية كان بالطبع التسلية، بل إن حكاية جديدة بحوزة امبراطورة كان من شأنها أن تجعل صحبتها أكثر جاذبية لإمبراطور شاب أو ولي عهد في مقتبل العمر ومن ثم تمنحها (وبالتالي تمنح عائلتها) ميزة على منافساتها.

واللوحات تلعب هذا الدور على وجه الدقة في الفصل السابع عشر (مسابقة التصوير). ولا تأتي «حكاية جينجي» على ذكر أي أحد يكتب حكاية، ولكن في فصل (مسابقة التصوير) تقوم سيدة مهذبة وكذلك فنانون محترفون بتصوير رسومات إيضاحية لحكاية.

وكان من شأن سيدة نبيلة عظيمة، كالإمبراطورة، أن تمتلك نسخاً من الحكايات، ولكنها فيما يبدو لا تقوم بقراءتها بنفسها. وبدلاً من ذلك فإنها تصيخ السمع، فيما سيدة

مهذبـة تقرأ القصة بصوت عال، تماماً كما هي حالة جينجي نفسـه، أما هي ذاتها فإنها تنظر إلى الرسـوم الإيضاحية، وقد قاد هذا البعض إلى الحديث عن أداء يدعمه النص المكتوب فحسب، وإذا نُظر إلى «حكاية جينجي» بهذه الطريقة، فإنها قد تشبه مخطوطاً قصد به دعم الارتجال، ولا شـك في أن بعض النسـاء المهذبات كن يقمن بذلك على نحو جيد. غير أن آخريـن يعتقدون أن الحكاية هي في المقـام الأول عمل أدبي. ومن المؤكد أنها كانت تُقرأ في صمت منذ البداية من جانب عدد أقل من الناس أوتوا من حسن الحظ ما يكفي لجعلهم يصلون إلى إحدى نسخها.

وعلى سبيل المثال، فإن ابنة تاكوسوي قد كتبت تقول: إنها أوصدت على نفسها غرفتها لتعكـف على القراءة ليـلاً ونهاراً. وعلى امتداد القرون فإن أعـداداً لا تحصى من القراء قد قامت بالشيء نفسه.

قراءة «حكاية جينجي» اليوم

كان لنسـاء العالـم الذي كُتبـت له «جينجي» منازل يتعين عليهن القيام بإدارتها أو سـادة نبلاء وسيدات نبيلات ينبغي عليهن خدمتهم، وكان من الممكن أن تشغلهن مهام أو هوايات عديـدة. مـع ذلك فإن إيقاع الحيـاة كان بطيئاً، والحكاية مخصصة للقـراء الذين يتوافر لهم الوقت، فهي ليست طويلة فحسب، إنما هي تدعو إلى درجة من مساهمة القارىء بنوع من الاستيعاب النشط، لا تقتضيه إلا روايات معاصرة قليلة.

لا يتسـم السـرد بالتعجـل البتـة، وهـو يسـلك دروبـاً متداخلة وغيـر مباشـرة لا تنقطع استمراريتها إلا لتعاود الظهور في وقت لاحق، شأن غدير يتدفق أحياناً تحت الأرض.

وربما كانت تلك بشكل أو بآخر هي الطريقة التي من خلالها يعبِّر الجمهور المستهدف، وخاصة الشريحة الأكثر ارتفاعاً في المكانة، عن نفسه بالشكل الصحيح، سواء في الحديث أو على الورق.

وإحدى الشـابات فـي الحكاية (الابنـة أومي) تتمتـع بمظهر لطيف وبقدر مـن الذكاء، ولكنها تتحدَّث بسـرعة جارفة، وهذا وحده يجعلها خرقاء. وفضلاً عن ذلك، فإنها بعد أن وصلـت لتوها مـن الريف، لا تفهم عالم القصور الذي التحقت به على هذا النحو الفجائي

للغاية، وليس لديها تصور عن الحذر والحرص، اللذين ينبغي أن يوجها كل إيماءة تقوم بها. وهي تفترض أنها إذا أرادت أن تحظى بشرف خدمة الإمبراطور فإن كل ما عليها أن تطلب ذلك فحسب، ولكنها بدلاً من ذلك تجعل من نفسها شابة حمقاء فحسب. والتعليقات بين الحين والآخر من جانب الراوية تشير إلى أن ذروة التميز في حديث سيدة نبيلة يمكن أن تكمن في انحسار صوتها قبل نهاية جملتها، وأن رسالة كتبتها «بحبر قاتم الآن، وبعد قليل شاحب حد الاختفاء» يمكن أن تكون أنيقة بصفة خاصة. والمرء لا يتحدَّث بصوت خافت وإيقاع محسوب فحسب، وإنما هو يغذي الطموح كذلك بالتحكم في حديثه وبالصمت الذي يأتي في موضعه.

فضلاً عن ذلك، فإن السرد غالباً ما يضع العناصر والمشاهد بعضها إزاء البعض الآخر بأكثر مما يصرِّح بوجود صلة بينها، تاركاً للقارىء أن يدرك ويحدد العلاقة بين شيء وآخر، واللحظات والمشاهد التي يوضع بعضها قبالة البعض الآخر بهذه الطريقة ليست بالضرورة متجاورة، وهي تجيء معاً، إذا حدث ذلك في ذهن القارىء فحسب، بفضل الذاكرة والارتباط الذي تشجع عليه القراءة المتكررة، وهذا الاتصال نادراً ما يكون مقصوداً بصورة يمكن إظهارها لأن الراوية لا تقول شيئاً عنه.

وتجاهل مثل هذه الصلات المحتملة لا يجعل فهم الحكاية صعباً، ولكن قد يجعلها تبدو أكثر انقساماً إلى حكايات فرعية أو أكثر تشظياً مما هي عليه بالفعل. هل «جينجي» سلسلة من القصص المرتبطة بصورة متباعدة أم أن لها بنية سردية أكبر؟ إن طابع السرد يجعل من المتعذر حسم الإجابة عن هذا السؤال، وإلى حدٍ ما فإن الحكاية هي ما يخرج به القارىء منها، وتحفظاتها ضروب صمتها تقتضي خيالاً محلقاً ومدعوماً بالمعرفة.

الحكاية باعتبارها قصاً وتاريخاً

غالباً ما نُظر إلى «حكاية جينجي»، على نحو يمكن تفهمه، باعتبارها نوعاً من التوثيق لحياة البلاط في عصر المؤلفة، ولكن بطلها شخصية خيالية بصورة واضحة. تشير لمسات متناثرة كذلك إلى أن الحكاية قد تم اعتبارها بالفعل رواية تاريخية، وأن جينجي قد عاش في أوائل القرن العاشر، أي قبل مئة عام تقريباً من عصر المؤلفة. وعلى سبيل المثال، فإنه

معلـم في عزف آلة «الكين»، وهي آلة موسـيقية صينية يكثر ذكرها في الحكاية، وهذه الآلة قد تراجعت شعبيتها بعد منتصف القرن العاشر، وبحلول عصر المؤلفة لم يعد أحد يعزف عليهـا. وهـذا أمر مؤكد بما فيه الكفاية، فعندما يجد جينجي الموغل في العمر نفسـه ملزماً بتعليـم شـخص ما العزف على «الكيـن» («براعم الربيع 2») فإنه يعرب عن شـكواه من أن قلـة مـن الناس هي التي لا تزال تعزف عليها. غير أن ما يخـون الحكاية حقاً باعتبارها قصاً هـو أنها أجمل من الحياة، وليسـت كل لحظة أو واقعة فيها ممـا يدخل البهجة إلى النفس، والعديد منها، بالطبع، مؤلمة بشكل أو بآخر، والسرد يضفي الرشاقة والتناغم على الأشياء التـي كانت لولا ذلك سـتغدو أكثر إضجـاراً أو إزعاجاً من أن تظل مسـتحوذة على اهتمام القارىء.

والأمر يبدو كما لو أن المؤلفة قد قامت بتصوير لفيفة تضم لوحة بالغة الطول والإتقان. وتنقل هذه اللفيفة بدقة تفاصيل لا حصر لها متعلقة بتفاصيل الحياة اليومية، وتصور مشاهد باعثة على الإزعاج، وتلمح بصورة عامة إلى ضروب الإخفاق الجديرة بالاستنكار بصورة أو بأخرى التي يقع فيها البشـر. غير أنها تنتقي وتركب هذه الأمور في سـياقات آسرة. وفي ختـام بعـض الفقرات التي تثير الضيق، فإن الراوية تلاحظ بالفعل بأن المرء كان حرياً به أن يرغب في تصوير المشهد بالفرشاة.

تعرض الحكاية العديد من المشـاهد المتألقة بصرياً، واهتمامها الشديد بشؤون الأزياء هـو أمر مشـهور، غيـر أن هذا الاهتمـام باللوحة الجميلـة والأزياء لا يبرهـن، على نحو ما افتـرض البعض، على أن هـؤلاء النبلاء قد أنفقوا كل وقتهم حقاً في ترتيب لحظات تتسـم بالكمـال بصرياً بأكثر ممـا يوضح توليف البخور في الفصل الثاني والثلاثين («غصن شـجرة البرقوق») أنهم لم يكن لديهم ما يقومون به سوى الاستمتاع بعبق البخور. ولو أنهم فعلوا، ولـو أنهم نجحوا على الـدوام كذلك عندما يحاولون ذلك، مثلما يفعلون في الحكاية، فإن مثل هذه المشاهد سيغدو زائداً عن الحاجة. وتستحضر الحكاية عالماً يتم فيه إنجاز الكثير من الأمور غالباً بصورة صحيحة حقاً وصدقاً، على سبيل التغيير. ومع ذلك فضروب القسوة المقترنة بالحياة تطل بقدر كاف من الوضوح عبر تألق اللون والشكل، وشكل السلوكيات، والكلمات والمشاعر وكذلك الأشياء، فقد رأت المؤلفة الحياة بوضوح بالغ.

ويساعد هذا كله في جعل الحكاية أكثر واقعية من التاريخ. وأبرز شخصياتها تعيش بصورة أكثر توهجاً في الخيال من أي شخص عُرف من الوثائق التاريخية، وحياتهم وضروب معاناتهم، وألوان خيبة أملهم، وإخفاقاتهم وتألقهم ظلت تراثاً بارزاً عبر القرون منذ أطلوا للحياة للمرة الأولى.

وعلى الرغم من أن المؤلفة هي التي أبدعتهم، فإنهم خالدون أيضاً. حتى قصر «جينجي» المسمى قصر روكوجو، والذي أُعيد إبداعه بحب في الرسوم والنماذج المصغرة، هو النموذج الأكثر شهرة على نحو يُعتد بهاً مقارنة بغيره للعمارة المحلية في عصره. وكونه لم يوجد قط لم يغيِّر في الأمر شيئاً على الإطلاق.

لغة «حكاية جينجي»

ربما كانت الكلمات الواردة في «حكاية جينجي» قريبة من تلك التي جرى الحديث بها في البلاط قبل عشرة قرون خلت، ويتألف السرد من نص شارح، وحديث مباشر، وخواطر صامتة، (مونولوجات داخلية)، وتعقيبات بين الحين والآخر من جانب الراوية وقصائد. وهي كلها ترد في أسلوب متناغم يستوعب التنويعات في النغمة والحالة المزاجية، بحسب السياق والشخصية. فعندما يناقش سيدان مهذبان رفيعا المرتبة موضوعاً دقيقاً، فإن لغتهما تنقل التوتر القائم بينهما، وعندما يتجاذب شخصان متضلعان في العلم أطراف الحديث، فإن رطانتهما تشبه لهجة محلية.

يُعد الأسلوب الذي صيغت به الحكاية، على نحو لا نزاع فيه، إنجازاً أدبياً كبيراً، ولكنه أسلوب صعب للغاية كذلك، فالأسماء نادرة، والأفعال نادراً ما يكون لها فاعل محدد صراحة. وبعد ثمانية قرون من الأبحاث والدراسات حول «حكاية جينجي» فإنه لا يزال من الممكن المجادلة بأن هذا الخطاب أو الفعل أو ذلك ينبغي أن ينسب إلى شخص آخر. وعلاوة على ذلك فإن معجم المفردات الضيق نسبياً والأنماط المتوافرة للتقسيمات الفرعية محدودة نسبياً. ولا تشجع موارد اللغة ذاتها ولا متطلب الحذر على الوضوح في التعبير، ويشعر المرء في بعض الأحيان كأن المؤلفة تضغط في اتجاه مضاد للكوابح المتلقاة لوسيطها الذي تبدع من خلاله. ومع ذلك فلا شك في أن الأصل كان أوضح

آنذاك مما هو عليه الآن، وربما كان جانب كبير من مراوغته الشهيرة عائداً إلى جهل القراء اللاحقين وبما تحيل إليه عباراته واصطلاحاته وانعطافاته الدالة.

تستحق ثلاث سمات لغوية في الأصل تعقيباً خاصاً، وهذه السمات هي انتظام انسيابها، والدور المتكامل الذي تلعبه الأدوات النحوية التي تشير إلى المكانة الاجتماعية للمتحدِّث بالنسبة للشخص الذي يوجه إليه الحديث أو يجري النقاش معه، وبعض التعريفات الشكلية للأفعال في السرد.

ويحظى الأصل (مع استثناءات محلية) بانسياب لغوي جميل وناعم، ولا سبيل إلى نقله باللغة الإنجليزية، التي تقاوم مثل هذا الانتظام الخالي من التوتر كلمة مقابل كلمة وجملة موضع جملة. غير أن المرء يمكنه مع ذلك الحفاظ على طول بعض جمل الحكاية الطويلة العديدة، وتتبع الأصل على الأقل في تجنب التقرير المباشر، الذي ربما يعرقل انسياب اهتمام القارىء فيما يتعلق بموضوع ذهني صعب. وعلى سبيل المثال، يرد في الأصل أن «جينجي قد قرر التصرف بناء على الرغبة التي طالما ساورته»، بدلاً من أن يقول إن «جينجي قرر أخيراً أن يصبح راهباً»، أو يرد سيجعل أباً «يرغب في أن تستقر ابنته بصورة مميزة،» وليس جعله تواقاً للعثور على زوج مناسب لها (لا يضم النص اصطلاحاً ثابتاً لأي من «الزواج» أو «الزوج»).

وربما تكون اللغة المهذبة أو المتواضعة هي القضية الأولى التي تُذكر عندما يتساءل شخص ياباني عن الكيفية التي يمكن أن تُترجم بها الحكاية إلى الإنجليزية على الإطلاق، فاللغة اليابانية الحديثة لا تزال تجعل من الصعب الحديث إلى أو حول شخص من دون تحديد لمكانة المرء إزاء هذا الشخص، وتقتضي لغات أخرى إقراراً لغوياً للعلاقة الاجتماعية، ولكن ذلك لا ينطبق على الإنجليزية المعاصرة، التي تقدم وسائل محدودة نسبياً لتحقيق ذلك. ويمكن للمقولة المناسبة واختيار المفردات أن يعوضا قليلاً من الفارق، كذلك الحال بالنسبة إلى الصيغة المقحمة المضافة، مثل (يا سيدي النبيل) أو (يا سيدتي النبيلة)، ولكن الترجمة لا يمكنها الحيلولة دون أن تبدو غير رسمية نسبياً.

أصبحت تصريفات أفعال معينة في «حكاية جينجي» وأعمال أدبية أخرى منتمية لعصرها قضية مثارة في السنوات الأخيرة، والتصريف الرئيسي بين هذه التصريفات هو

كيري الذي يبدو أنه يشير إلى صيغة فعل (بأكثر مما يشير إلى صيغة فعل دالة على زمانه) تجلب الأحداث المروية إلى المضارع.

ويعتقد بعض الباحثين، الذين تعد خاصية الحضور أو الطابع الفوري هذه بالنسبة لهم مهمة فيما يتعلق بالأهمية الاجتماعية السياسية للأدب النسوي بما في ذلك «جينجي» أن ترجمة مثل هذا الأدب إلى الإنجليزية في صيغة الفعل الماضي من شأنها إبعاده عن جمهوره المخاطب به في الزمن المناسب، وبالتالي نزع طبيعته عنه بصورة كاملة. غير أن الإنجليزية تفتقر إلى مثل صيغة الفعل هذه التي تعكس الفورية السردية، وترجمة هذا الأدب إلى المضارع لن تجدي نفعاً، لأن المضارع لا يزال صيغة فعل دالة على الزمن، ومن الصعب على أية حال الحفاظ عليه بصورة ناجحة على امتداد حكاية طويلة.

وفي اللغة الإنجليزية، كما هي الحال في اللغات الأخرى المرتبطة بها، فإن الحكاية تسرد عادة في الماضي أساساً وكمسألة متعلقة بتجربة قراءة ساذجة، فإن من غير الصحيح أن الأحداث المروية في هذا الزمن تفقد فوريتها بالنسبة للقارىء أو المستمع. وصيغة الفعل الأساسية للسرد في هذه الترجمة هي بالتالي الماضي. غير أن معظم فقرات المونولوج الداخلي ترد في صيغة المضارع المقترنة بصيغة المتكلم.

تقدير الزمن

يدور موضوع أخير حول الشهور وأعمار الشخصيات. وغالباً ما يحدد النص الشهور المرقمة التي يقع فيها الحدث، ولكن هذه الشهور قمرية وليست شمسية، وهي تختلف عن شهور التقويم الحديث، والشهر القمري متأخر ستة أسابيع عن الشهر الشمسي الذي يحمل الرقم نفسه. وعلى سبيل المثال، فإن اليوم الأول من الشهر القمري الأول ليس هو اليوم الأول من يناير، في منتصف الشتاء، وإنما اليوم الأول في الربيع (منتصف فبراير).

بحلول القرن الخامس عشر، كان الدارسون قد توصلوا إلى الأعمار التقريبية على الأقل لمعظم الشخصيات بالنسبة لكل فصل، وهذه الأعمار تُطرح بحسب الطريقة اليابانية في التقدير ففي اليابان، يعتبر العام الأول للطفل هو عام التقويم الزمني للميلاد، ويدخل الطفل العام الثاني بالنسبة له أو لها مع العام الجديد. وعلى سبيل المثال فإن طفلاً يولد في الشهر

الثاني عشر من العام يصبح عمره عامين في الشهر الأول من العام التالي، بحيث أن العمر يقفز إلى الأمام سابقاً التقويم الزمني الغربي. وعمر جينجي الذي يدرج على أنه سبعة عشر عاماً، في الفصل الثاني يعني أنه في عامه السابع عشر، وأن عمره باللغة الإنجليزية سيحسب علماً أنه ستة عشر عاماً. وبتعبير آخر فإن كل الأعمار المذكورة هي أكبر بعام مما هي عليه في الاستخدام الإنجليزي.

الرسوم الإيضاحية

الرسوم الإيضاحية الواردة في النص هي تفاصيل أعاد فنان معاصر رسمها من نطاق عريض من المواد العائدة للقرون الوسطى، وهي بصفة أساسية لفيفات مصورة (تعرف باليابانية باسم إيماكي).

وبما أن شيئاً من هذا النوع لم يُقدر له البقاء من عصر «حكاية جينجي» نفسه، فإن هذه الاختيارات قريبة بقدر الإمكان من الرسوم الأصلية للأشياء والمشاهد في الحكاية. والقليل منها، على سبيل المثال «لعبة الداما» في الفصل الثالث، مستمدة من «جينجي مونوجاتري إيماكي» (القرن الثاني عشر)، وهي أقدم مجموعة معروفة من رسوم جينجي الإيضاحية، لكنها لسوء الحظ غير مكتملة. والذين يهتمون بالتعرف على مصدر كل صورة ينبغي عليهم الرجوع إلى طبعة شوجاكوكان الخاصة بالنص الأصلي، التي تشمل عنوان المصدر في التعقيب على الرسم الإيضاحي.

والأشكال الموجودة على الغلاف الصندوقي للطبعة الإنجليزية مستمدة من المطبوعات بالرسوم بحجم الصفحة الكاملة المدرجة في إحدى طبعات «كوجيتسو سوشو» العديدة، وهي مجموعة من النصوص والمواد الإيضاحية تدور حول الاحتفالات، الصفات المميزة، الأزياء وهلمجرا المرتبطة ببلاط اليابان وارستقراطيات المحاربين. وهذه الطبعة على وجه التحديد تعود إلى العام الأول من القرن العشرين. وقد استمد شكلان من قسم يصور زياً ينتمي إلى البلاط الهاييني، ويظهر الشكل الثالث، الذي يدور حول رقصات البوجاكو، راقصاً يضع قناعاً وهو يؤدي رقصة رايوو «الملك المحارب».

رويال تايلر

حكاية جينجي

الجزء الأول

1

كيريتسوبو

جناح البولفينية

تعني كلمة «كيري» باليابانية «شجرة البولفينية» وكلمة «تسـوبو» أيضاً تعني «حديقة صغيرة بين مباني قصر». ومن هنا فإن كيريتسـوبو هو الاسـم الـذي يطلق على ذلـك الجناح بالقصر الـذي يضم شـجرة بولفينية في حديقتـه. ويسـكن الامبراطـور والدة جينجـي هناك، وهكذا فإن القراء قد أسـموها على الدوام كيريتسوبو نو كوي (السـيدة المقربة كيريتسوبو)، على الرغم من أن النص لا يسميها بهذا الاسم.

الشخوص

جينجي من الميلاد حتى 12 عاماً.

الملاذ، أم جينجي (السيدة المقربة كيريتسوبو، كيريتسوبونو كوي).

جلالة الامبراطور، والد جينجي (كيريتسوبو نو ميكادو).

أم الملاذ، جدة جينجي.

الابن البكر للإمبراطور، عُيِّن ولياً للعهد وعمره 7 أعوام عندما كان عمر جينجي 4 أعوام (سوزاكو).

الزوجة كوكيدين، أم ولي العهد.

يوجى نو مايوبو، وصيفة في خدمة الإمبراطور.

خبير في الفراسة من مملكة كوما.

مراقب الميمنة الكبير (أوديين).

سيدة طاقم العاملين بالقصر (نيشي نو سوكي).

فوجيتسوبو، ابنة إمبراطور أقدم عهداً، تدخل البلاط في عامها الـ16 عندما كان عمر جينجي 11 عاماً.

معالي وزير الحرب، الأخ الأكبر لفوجيتسوبو (هايوبوكيو نو ميا).

معالي وزير الميسرة، يصبح حما جينجي في عامه الـ46 (ساديجين).

ابنته، زوجة جينجي، عمرها 16 عاماً عند الزواج حينما كان عمر جينجي 12 عاماً (أوي).

ابنه، الملازم الحاجب (تو نو تشوجو).

الأميرة، أخت الإمبراطور، أم أوي وتو نو تشوجو (أوميا).

أمير الميمنة، جد ولي العهد (أوديجين).

في عهد معين (ترى عهد من يمكن أن يكون؟)، تمتعت سيدة لم تكن ذات مرتبة رفيعة للغاية بعطف استثنائي من بين زوجات جلالة الإمبراطور والسيدات المقربات إليه. وقد ازدرتها النسوة الأخريات، اللواتي افترضن على الدوام أن هذه الحظوة من حقهن تماماً، ونظرن إليها على أنها امرأة فظيعة، بينما كانت المقربات بدرجة أقل أعظم ضيقاً بها. ولم تؤد الطريقة التي قامت بها برعايته يوماً بعد آخر إلا إلى تحريك المشاعر ضدها، وربما كان عبء الضيق المتعاظم هذا هو الذي أثر على صحتها، وأرغمها غالباً على الانسحاب في بؤس إلى مقرها، ولكن جلالته الذي تراجعت على نحو ما قدرته على الاستغناء عنها، تجاهل منتقديه إلى أن بدا أن من المحتم أن يصبح سلوكه على ألسنة الجميع.

لم يكن بمقدور كبار النبلاء والوصفاء الخصوصيين إلا أن يشيحوا بنواظرهم عن هذا المشهد الحزين، فمثل هذه الأمور قد أفضت إلى الفوضى والدمار حتى في الصين، حسبما قالوا، ومع انتشار السخط في البلاد، توارد على الذهن بصورة أكبر مثال يوكيهي[1]، مع عاقبة مؤلمة بالنسبة للسيدة النبيلة ذاتها، غير أنها وثقت في عاطفته الرقيقة، والتي لا نظير لها، وبقيت في البلاط.

كان أبوها، المستشار الكبير، قد مات. وكانت أمها وهي سيدة نبيلة من أسرة عريقة هي التي حرصت على أن تقوم ابنتها في المشاركة في عدد من فعاليات البلاط لا يقل عما تشارك فيه أخريات لا يزال آباؤهن على قيد الحياة واللواتي يتمتعن بتقدير الجميع، ولكنها لما كانت تفتقر إلى تقدير أي شخص ذي نفوذ يدعمها فإنها غالباً ما كان لديها سبب يدعوها عندما يحين الوقت لكي تحزن لتهافت وضعها[2].

لا بد أن جلالته كانت تربطه صلة وثيقة بها في حيوات سابقة كذلك، لأنها أنجبت له ابناً وسيماً على نحو مدهش. وكان قد أمر بإحضار الوليد إليه في التو[3]، لأنه كان يتوق

(1) فتنت الحسناء يوكيهي (يانغ جويفي في التقاليد الصينية) الإمبراطور الصيني زوانزو (685 ـ 762) أشد الفتنة إلى حد أن إهماله للدولة أثار تمرداً، وأجبره جيشه على إعدامها. وقد روي باى جويى (772 ـ 846) هذه القصة في قصيدة طويلة، هي «أنشودة الحزن الذي لا ينتهي» «تشانجهينج» في التقاليد الصينية و«تشوجونكا» في التقاليد اليابانية، هاكوشي مونجو 596، والتي كانت شديدة الذيوع في العصر الهاييني في اليابان.

(2) لم يكن لها قريب من جهة أمها يحظى بالنفوذ، وقد نُحيت جانباً، عندما تكون هناك مناسبة.

(3) مثل هذه الولادة لم تتم في القصر، وإنما في بيت الأم.

أشـد التـوق لرؤيته، وقد أدهشـه حسـنه. وكان ابنه البكـر، الذي ولدته له زوجتـه ابنة وزير الميمنـة يحظـى بدعم قـوي، وقد احتفى به الجميـع باعتباره يمثل ولي العهد المسـتقبلي، الـذي لا شـك فيه، ولكن ما كان لينافـس أخاه في بهائه، ومن هنا فـإن جلالته الذي كان لا يزال يحترمه كل الاحترام الواجب له قد أغرق الوليد الجديد في حبه.

لم تكن مرتبتها قد سمحت لها بدخول الخدمة المشتركة لجلالته[1] وكان معنى إصراره علـى إبقائهـا معه على الرغم من سـمعتها المشـرفة ووضعها النبيل أنه عندمـا يكون هناك عزف للموسـيقى أو أي نوع آخر من المناسـبات، فإن الخاطرة الأولى التي ترد على ذهنه هي أن يرسـل في طلبها. وبعد في بعض الأحيان، وبعد الإفراط في النوم قليلاً كان يأمرها بمواصلة البقاء معه، وهذا الرفض لتركها تنصرف جعلها تبدو جديرة بالازدراء[2].

ولكـن بعـد الميـلاد كان اهتمامه بها شـديداً إلى حـد أن أم ابنه البكر قد خشـيت أنه قد يعيـن ابنـه الجديد ولياً للعهد متجـاوزاً ابنها. وقد كانت هذه الزوجة، التـي يكن لها تقديراً كبيـراً، هـي أول من جـاء إليه يحدثه في هذا الشـأن، وقد كانت هي التي يثير لومها له أشـد ألوان الضيق في نفسه، وكانت هي التي لا يطيق إلحاق الضرر بها، لأنها قد أنجبت له أبناء آخرين كذلك.

علـى الرغـم مـن ثقتها في حمايـة جلالته السـيادية، فـإن الكثيرين قد قللوا من شـأنها، وسـعوا للبحث عن عيوب فيها، وإذ ابتعدت عن سـن الشباب، فقد بدأت في غمار محنتها تـذوي. كانـت تقيم في كيريتسـوبو، وقد اضطـر جلالته للمرور بالكثير مـن الأخريات في زياراتـه الدائبـة لها، ولا عجب أن ذلك قد أزعجهن كثيراً. وفي المناسـبات المتواترة كثيراً التـي كانـت تمضي فيها إليه، ربما كانـت هناك مفاجأة كريهة تنتظرها على امتداد الجسـور المتقاطعـة وطرق الجسـور، مفاجأة لوثت بطريقة فظيعة أطراف ثيـاب الوصيفات اللواتي كن بصحبتها أو قدمن لاستقبالها، أو إذ تغدو ضحية لمؤامرة بين كل من هن على الجانبين، قـد تجد نفسـها حبيسـة دهليز بين بابيـن لم يكن بمقدورهـا تجنبه في سـيرها، وتعجز عن

(1) كانت مكانتها أرفع من أن تسمح لها بالقيام على خدمة الإمبراطور بصورة روتينية، كما لو كانت خادماً. وكان ينبغي أن تأتي إليه عندما تُستدعى فحسب، ولوقت محدود.

(2) لأن الإمبراطور نفسه بدا كما لو كان يعاملها كأنها خادم.

مواصلة السير أو التراجع، ولما رأى جلالته كيف أنها تعاني من مثل ضروب الإذلال هذه، والتي تضاعفت بلا انتهاء مواتاة الظروف لمخططات أعدائها، فقد جعل السيدة المقربة التي أقامت طويلاً في جناح «كورودين» تنتقل إلى مكان آخر، وأعطاها هذا الجناح بدلاً منها، لتكون قريبة منه عندما يريدها إلى جواره[1]. وقد حملت لها هذه المرأة التي تم إجلاؤها من الجناح بصفة خاصة ضغينة شديدة.

في العام الثالث للطفل، أقام له أبوه حفلاً لارتدائه السراويل في مثل بهاء الحفل الذي أقامه لابنه البكر، وحشد لهذا الغرض كل الكنوز الموجودة في خزينة البلاط والمستودعات الإمبراطورية، ولم يؤد هذا إلا إلى إثارة المزيد من الشكاوى، ولكن مع نمو الصبي كشف المزيد من الأعاجيب المتعلقة بالحسن والشخصية بحيث أنه ما من أحد كان يمكن أن يضيق به، ولم يكن بمقدور من يرونه أن يصدقوا عيونهم، وراحوا يتعجبون من أن مثل هذا الطفل قُدر له أن يولد أصلاً.

في صيف ذلك العام، مرضت «ملاذ جلالته»[2]، لكنه رفض منحها الإذن بالانسحاب من حياة البلاط. ولم يشعر بالانزعاج، حيث أن صحتها كانت هشة على امتداد فترة طويلة، واكتفى بأن يهيب بها أن تعتصم بقليل من الصبر. غير أن حالتها أخذت تسوء بصورة يومية، إلى أن غدت بعد خمسة أيام أو ستة بالغة الضعف بحيث أن توسلات أمها الدامعة أقنعته أخيراً بأن يسمح لها بالمغادرة. وفي غمار خوفها من أن تعاني من بعض الإذلال القاسي، حتى في هذا الوقت، فقد تركت الطفل وراءها وانسلت بعيداً.

عانى جلالته، الذي لم يعد بوسعه أن يبقيها إلى جواره، أشد المعاناة من جراء التفكير في أنه لم يكن بمقدوره حتى أن يودعها[3] وهنالك رقدت، جميلة، عزيزة كعهدها، ولكنها

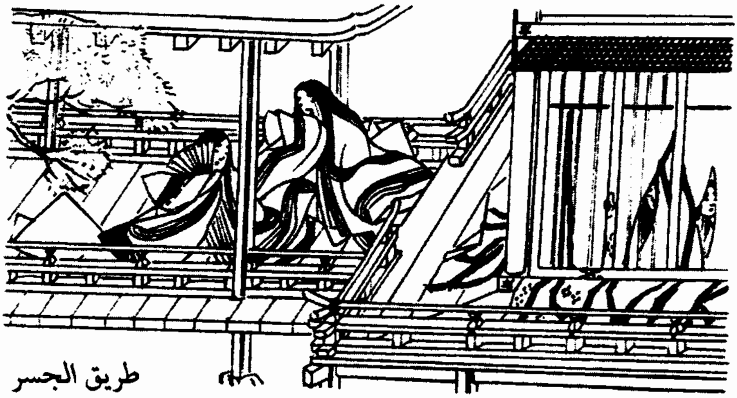
---

(1) كان جناح كورودين، «دين» تعني على وجه التقريب «قاعة»، قريباً من سكن الإمبراطور للغاية، وقد أعطاها إياه، ليس كبديل لجناح كيريتسوبو، وإنما كشقة قريبة (أويتسوبوني) لتمكث فيها عندما يرغب في صحبتها بصورة متواترة.

(2) أم جينجي. ويبدو أن لقبها غير الرسمي (الملاذ، مياسودوكورو)، يشير إلى امرأة، وبصفة خاصة تحمل مرتبة السيدة المقربة للإمبراطور، أو زوجة الإمبراطور، التي ولدت ابناً للإمبراطور أو لولي العهد.

(3) كانت مريضة للغاية بحيث لا يمكنها البقاء في القصر، خوفاً من أن يلوثه الموت، وكانت قواعد السلوك الإمبراطوري تحظر قيام الإمبراطور بتوديعها.

ناحلة للغاية الآن وعاجزة عن إبلاغه بانزعاجها وحزنها الشـديدين، ولأنها غدت في حالة شبه واعية فحسب، وهو مشهد أبعد عن ذهنه مفهوم الزمن ماضياً أم مستقبلاً، وهبط به إلى أن يؤكد لها دامعاً، بكل السبل التي يعرفها، مدى حبه لها.



طريق الجسر

عندما ظلت عاجزة عن الاسـتجابة على الرغم من ذلك، ورقدت هناك نحيلة ومغشـياً عليها فيما يبدو، والنور ينحسر محتضراً من عينيها، فلم يدر ما الذي ينبغي أن يفعله. وحتى بعد أن أصدر مرسـوماً يسـمح لهـا بالحصول على ميزة ركوب عربـة تدفع بالأيدي، مضى يعودها مجدداً، ولم يسـتطع أن يحمل نفسـه على تركها، فقال: لقد وعدتني بألا تهجرينني أبداً، حتى النهاية، وليس بمقدورك التخلي عني، لن أدعك تفعلين ذلك».

تأثرت أشد التأثر فأطلقت زفرة حرى:

«الآن حلت النهاية، ونفسي مفعمة حزناً لتفرق السبل بنا

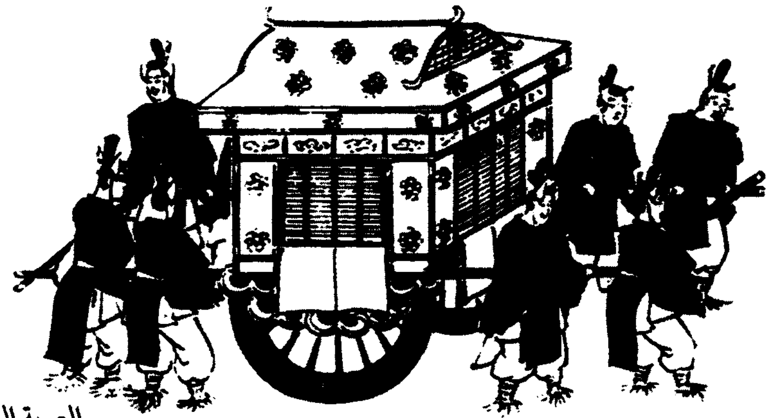
الدرب الذي أوثر سلوكه هو درب الحياة

لو أنني كنت أعلم فحسب...».

بـدا أن لديهـا المزيد لتقولـه، ولكنها كانت أكثـر إرهاقاً من أن تواصـل الحديث، الأمر الـذي حملـه، علـى الرغم من حالتهـا، على أن يواكبها إلـى ما يلي ذلك كائنـاً ما كان. ولم يوافق إلا مرغماً على رحيلها، عندما تم تذكيره بصورة عاجلة بأن معالجين ممتازين سوف يستهلون الصلوات من أجلها ذلك المساء في مسقط رأسها.

بقلب أكثر امتلاء بالمشاعر من أن يسمح له بالرقاد، مضى ينتظر الفجر في قلق، وأعرب

عن قلقه العميق حتى قبل أن يتاح الوقت أمام مبعوثه للعودة من دارها. وفي غضون ذلك، سمع المبعوث النحيب، وعلم أنها قد لفظت أنفاسها الأخيرة بعيد منتصف الليل، وبالتالي فقد عاد حزيناً. وقد وضع هذا النبأ جلالته في حالة جعلته ينعزل، تائهاً كلياً عن كل ما حوله.



العربة اليدوية

وكان لا يزال يحن إلى ابنه، ولكن الطفل كان عليه أن ينسحب سريعاً ذلك أنه ما من سابقة كانت تسمح لشخص في حالة حداد بزيارة الإمبراطور[1]. ولم يتفهم الصبي حقيقة الأمر، وراح يحدِّق في دهشة في الوصيفات المنخرطات في البكاء، واللواتي كن قد خدمن أمه، وفي دموع جلالته المنهمرة. إن مثل مشاهد الوداع هذه[2] محزنة في أفضل الأوقات، وقد جعلت براءته هذا الوداع مؤثراً على نحو يتجاوز الكلمات.

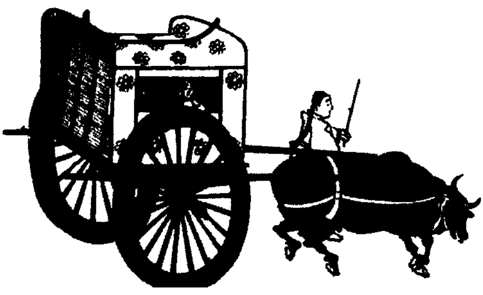
الآن حان الوقت للمضي قدماً بإجراءات الجنازة المعتادة، وقد تاقت أمها، التي انخرطت في البكاء، للصعود إلى السماء مع دخان ابنتها، وأصرت على الانضمام إلى الوصيفات في عربتهن بالموكب الجنائزي. أي حزن ذلك الذي لا بد قد عرفته لدى الوصول إلى أوتاجي حيث كان يؤدى الطقس الأكثر إجلالاً. قالت: «بجثمانها مسجى بلا حلي تحت ناظري، يساورني الشعور بأنها ما زالت تنبض بالحياة، وذلك على الرغم من أنها ليست كذلك، ومن ثم فإنني سأشاهدها تتحول إلى رماد لأعرف أنها قد مضت حقاً بعيداً».

(1) بعد عام 905، لم يعد الأطفال الذين لم يبلغوا بعد عامهم السابع يلزمون الحداد على آبائهم، ولذا فإن حاضر القصة يبدو أقدم عهداً من ذلك العام.

(2) وفاة أحد الوالدين.

تحدَّثت بقدر كاف من التماسك، ولكنها بعد لحظة برح بها حزن بالغ إلى حد أنها سقطت من العربة. «أوه عرفت أن هذا سيحدث»، هكذا صاحت كل وصيفة هاتفة بالأخرى، من دون أن يعرفن كيف يسرين عنها.

أقبل رسول من القصر، يتبعه مبعوث إمبراطوري قرأ بياناً يمنح الراحلة المرتبة الثالثة[1]. وكان محزناً للغاية، فلم يكن جلالته قد سماها زوجة أبداً، لكنه أحس بالألم لأنه لم يقم بذلك، وقد رغب على الأقل في أن يرفع مكانتها بمقدار خطوة واحدة، وحتى هذا جعل الكثيرات يغتظن منها بصورة أكبر، ولكن من هن أكثر حكمة أدركن أخيراً أن جمال محياها وروحها ورقتها العذبة قد جعلاها مخلوقة من المستحيل كراهيتها بالفعل، وقد فهمت وصيفاته[2] أن ولع جلالته الشديد بها هو الذي جعل البعض يعاملها بكراهية باردة، وتذكرنها بإعزاز لدفئها ودماثة طبعها، فقد كانت مثالاً كاملاً، الآن وقد قضت نحبها[3].


عربة

مع مضي الأيام الكئيبة ببطء، حرص جلالته بعناية على أداء الطقوس الجنائزية المتوالية[4]. ولم يفعل مرور الزمن سوى القليل للتخفيف من حزنه، بحيث أنه لم يستدع أياً من السيدات النبيلات للقيام بخدمته بعد حلول الظلام، إنما بدلاً من ذلك أمضى الليل والنهار عاكفاً على البكاء، وحتى أولئك الذين كانوا شهوداً على حالته وجدوا الخريف مخضلاً بالندى.

(1) التي تناسب زوجة الإمبراطور.

(2) هاته الوصيفات، اللواتي يلين في المرتبة السيدات المشار إليهن حالاً، كان من شأنهن أن يعرفن الراحلة معرفة شخصية، لأنهن كن يقمن على خدمة الإمبراطور بصفة دورية.

(3) جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إنيوواكا!: «عندما كانت على قيد الحياة كان وجودها محنة، ولكن الآن وقد قضت نحبها فإني أفتقدها».

(4) كان طقس يؤدي كل سبعة أيام على امتداد الأيام التسعة والأربعين الأولى التي تلي الوفاة، وذلك لإرشاد روح= =المتوفي نحو السلام، وربما بعث الإمبراطور بمندوب عنه إلى كل طقس منها، وأنفق بسخاء على أدائها.

لقد اختصرت العبارة القائلة: «كانت تعني الكثير بالنسبة له إلى حد أنها وهي ميتة تعد عبئاً على وجود المرء»، مشاعر الزوجة كوكيدين[1]، التي كانت بلا رحمة كعهدها فيما يتعلق بمن تدور حولها هذه العبارة. وكانت مشاهدة جلالته لابنه البكر في حد ذاتها تذكر فحسب بمدى تفضيله لابنه الأصغر، وعندئذ كان يرسل وصيفة موثوقة أو مرضعة[2] للاطمئنان على أحواله.

وفي غسق يوم خريفي عاصف وبارد على نحو فجائي[3]، بعث جلالته، بعد أن داهمته الذكريات أكثر من أي وقت مضى، بوصيفة تدعى يوجي نو مايوبو[4] إلى دار محبوبته، ثم بعد أن غادرت تحت قمر مساء جميل[5] غرق مجدداً في تفكير حالم، وأحس بأنها إلى جواره تماماً على نحو ما كانت دوماً في أمسيات كهذه، عندما كان يستدعيها ليستمع إلى موسيقاها، وعندما كانت لمساتها على آلتها الموسيقية، أو أدنى كلمة توجهها إليه، تأخذه إلى أبعد الحدود، باستثناء أنه كان يؤثر حتى على هذا الحلم المتوهج بالحيوية وحضورها الواقعي في الظلام[6].

لم تكد مايوبو تصل وتجتاز البوابة حتى أطبقت عليها الوحشة، فقد كانت الأم، على الرغم من كونها أرملة، تحافظ على رونق المكان، وعاشت حياة ميسورة بما فيه الكفاية بفضل حرص ابنتها الوحيدة الممتلىء بالإعزاز عليها. ولكن، يا للحسرة، الآن وقد تغلب الحزن عليها، فقد نمت الأعشاب عالية، وبدت متناثرة في كل مكان بفعل الريح، إلى أن أصبح سنا القمر وحده هو الذي ينسل في نعومة عبر تشابكاتها.

جعلت مايوبو تترجل من عربتها عند الجانب الجنوبي من الدار[7]. وفي البداية لم يكن بمقدورها أن تتحدث، وأخيراً قالت: «أتمنى على الدوام أنني لم أعش طويلاً على هذا

---

(1) أم الابن الأول للإمبراطور، ولي العهد المقبل. كوكيدين اسم صيني الأسلوب يعني «قاعة الضياء العظيم»، هو اسم مسكنها داخل مجمع القصر. وقد أقامت هناك زوجات وإمبراطورات تاريخيات كثيرات.

(2) امرأة كانت قد أرضعت الإمبراطور، بدلاً من أمه الطبيعية. وكانت العلاقة بالمرضعة عادة حميمية ودائمة.

(3) تهب رياح إعصار (نواكي)، والموسم هو أوائل الخريف وفق التقويم القمري.

(4) وصيفة متوسطة المرتبة (مايوبو) لها قريب في مراقبة البوابة (يوجي).

(5) يوزوكيو. «قمر المساء» الذي يبقى في السماء المتشحة بالغسق حتى اليوم العاشر من الشهر القمري.

(6) إشارة بالمفارقة إلى «كوكينشوس» 747: واقعيتها في الظلام لا تعادل أكثر من حلم صاف متألق.

(7) إجلالاً للإمبراطور، الذي بعث بمايوبو. والجانب الجنوبي هو الواجهة.

النحـو، ويخجلني الآن أن أرى مبعوثة من جلالته تتكبد عناء الطريق كله للوصول إلَّي عبر هذه الأعشاب». وراحت تبكي كما لو كان الأمر أكثر مما تستطيع احتماله حقاً.

ردت مايوبو قائلةً: «أبلغت سيدة طاقم العاملين في القصر جلالته بمدى الحزن المفعم يأساً الذي استشعرته بشأنك بعد زيارتها لهذه الدار، وكم كان فؤادها كسيراً، بل إنني أنا التي لا يمكنني الادعاء بأن رقة الشعور من صفاتي[1] أتفهم ما قصدته تمام الفهم»، ثم بعد أن تمالكت نفسها قليلاً أبلغتها برسالة جلالته[2]:

«كنت على يقين لبعض الوقت من أنني حتماً في غمار حلم، ولكن الآن بعد أن تراجع الغليان في ذهني، فإن الأمر الذي ما زلت أجده مؤلماً أشدّ الألم هو أنني ليس لديَّ من أتحدَّث معه حول ما يتعين القيام به، هل تتلطفين بزيارتي زيارة خاصة؟ إنني قلق على ابني ويؤرقني أنه محاط كل يوم بمثل هذا الحزن، أرجو أن تحضري سريعاً».

«عاود الانخراط في البكاء، ولم يفلح قط في إنهاء الرسالة، ولكن كان يعلم تمام العلم، كما كان بوسعي أن أرى، أنه بالنسبة لآخر لم يكن شجاعاً للغاية، وكانت مشاعري نحوه من القوة بحيث أنني أسرعت بالقدوم إليك، قبل أن أسمع بالفعل كل ما كان يريد قوله». ثم أعطتها رسالة جلالته.

قالت السيدة النبيلة: «على الرغم من أن الدموع تحجب النظر عن عيني، أمام وهج كلماته الأكثر حكمة ولطفاً...» وبدأت تقرأ:

«كنت قد اعتقدت أن الوقت قد يجلب العزاء للبدء في تخفيف حزني، ولكن مع مواصلة الأيام والشهور الآخذة في الانقضاء أصابتني بخيبة الآمل، فإنني لست أدري كيف أحمل وقر حزني. ومراراً تنصرف خواطري إلى الصبي الصغير، ويزعجني إلى حد كبير أنني لا أستطيع العناية به معك. فبادري إلى القدوم ورؤيته إكراماً لأيام خلت...»، كان قد كتب بإحساس عميق، وأضاف هذه القصيدة:

---

(1) إفصاح عن التواضع بصورة تقليدية، فمايوبو تحتل مرتبة أكثر تواضعاً من أن تسمح لها بادعاء أن لها مشاعر أكثر رقة كأمر من طبائع الأمور.

(2) إنها تتحدَّث بكلمات الإمبراطور، على الرغم من أنها تستخدم ألقاب التعظيم والتبجيل عندما يشير الإمبراطور إلى نفسه.

«مصغياً لتنهدات الريح، مثقلاً بقطرات الندى في سهل مياجي بأسره،

يمضي فؤادي إلى سعفة هاجي الصغيرة[1]».

ولكنها لم تستطع قراءتها إلى النهاية.

قالت: «الآن وقد عرفت كم هو مؤلم أن يمتد العمر بالمرء، فإنني يغمرني الخجل لتصور ما لا بد أن شجرة الصنوبر تعتقده بشأني[2]، ولهذا السبب بصفة خاصة فإني لن أجرؤ على زيارة مقر جلالته[3] كثيراً، وأمر طيب من جانبه حقاً أن يؤثرني بهذه الدعوات المتكررة لزيارته، ولكنني أخشى أنني قد لا أستطيع حمل نفسي على الذهاب. من ناحية أخرى، فإن ابنه يبدو تواقاً للقيام بذلك، على الرغم من أنني لست واثقة من مدى فهمه للأمر على وجه الدقة، وبينما يحزنني أن ذلك هو شعوره، فليس بمقدوري أن ألومه. دعي جلالته، لطفاً، يعرف أفكاري هذه التي هي أعمق ما في ذهني. إنني أخشى أن منزلة الصبي ستتأثر إذا بقي هنا، فأنا مخلوقة تنتمي إلى سوء الطالع، وسيكون من الخطأ أن يمكث هنا».

كان الصبي نائماً، فقالت مايوبو، وهي تتأهب للانطلاق مسرعة: «كنت أريد رؤيته ليكون بمقدوري أن أحدِّث جلالته عنه، لكنه ينتظر عودتي، ولا بدّ من أن الوقت قد تأخر للغاية الآن».

ردت قائلة: «أود كثيراً أن أتحدَّث معك وقتاً أطول لأرفع القليل من الظلمة التي لا تطاق عن فؤادي[4]، أرجو أن تأتي لزيارتي بمبادرة منك أيضاً وقتما تشائين. لقد اعتدت

(1) «فيما رياح التغيير المحزنة تجتاح القصر، فإنها تجلب الدموع إلى عينيَّ، وينشد فؤادي فتاي الصغير». لهاجي، وهي نبات يزهر في الخريف، سعف طويل، رشيق، تطوحه الريح وتشتبك به في يسر. وغالباً ما ترتبط مياجينو. الواقعة إلى الشرق من سينداي الحالية بهاجي في الشعر. ومقطع ميا هنا من مياجينو يشير كذلك إلى القصر «ميا». والقصيدة تشير إلى كوكينشو 694.

(2) كوكين روكوجو 3057، التي يعرب الشاعر فيها عن حزنه لشعوره بأنه أكبر سناً من شجرة صنوبر تاكاساجو، التي يضرب بها المثل بصورة شائعة في الشعر لطول العمر: «لا، لن أدع أحداً يعرف أنني أواصل العيش، ويخجلني أن أتصور ما لا بد أن صنوبرة تاكاساجو تعتقده بشأني».

(3) موموشيكي، اصطلاح شعري يشير إلى القصر، تستخدمه النسوة بصفة خاصة.

(4) جوسينشو 1102 كذلك «كوكين روكوجو» 1412 لفوجيوارا نو كانيسوكسي، وهو أحد أسلاف مورا ساكي شيكيبو: «فؤاد الوالد، على الرغم من أنه لا يعمه في الظلام، وقد يضرب ضائعاً باحثاً عن حب طفل» . وقد أصبح هذا الإحساس بمثابة المثل السائر، والحكاية تشير إلى أن القصيدة ترد كثيراً إلى حد أن ورودها لن يشار إليه في الحواشي.

زيارتي في أوقات سعيدة وبهيجة، ورؤيتك هاهنا الآن في مثل هذه المهمة المحزنة تذكر المرء كم هي مؤلمة للغاية هذه الحياة. لقد علقنا عليها آمالاً كباراً منذ ميلادها، وواصل زوجي المستشار، الكبير الراحل، الإهابة بي، إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة تقريباً، أن أحقق طموحه بالنسبة لها وأجعلها تخدم جلالته. وقال: (لا تفقدي شجاعتك ولا تستسلمي بسبب رحيلي) وهكذا فقد أرسلتها وذلك على الرغم من أنني قد أحسست بأنها إذا اضطرت للالتحاق بخدمة القصر من دون أن يكون لها أحد يدعمها بشكل مناسب، فقد يكون المنهاج الأكثر حكمة هو الإحجام عن ذلك، لأن ما كان مهماً بالنسبة لي هو أن ألبي رغباته الأخيرة. ومن سوء الطالع أن جلالته أصبح متعلقاً بها على نحو يتجاوز كثيراً ما هو مناسب لسيدة لا تستحق تلك الدرجة من العطف، ولكنها احتملت فيما يبدو المعاملة الغير لائقة التي تلقتها، وواصلت خدمته إلى أن أدى العبء المتزايد الناجم عن غيرة الأخريات منها والمقت المتزايد الذي أُخضعت له إلى انهيارها على نحو ما حدث، وذلك هو السر في أنني أتمنى لو أن جلالته ما كان قد اهتم بها كل هذا الاهتمام. وعلى الرغم من ذلك فإنني أحب أن أقول ذلك لأن فقدانها قد جعلني أتردى إلى مثل هذه الظلال الرهيبة».
انحسر صوتها، وانخرطت في البكاء.

كان الوقت قد تأخر، فطمأنتها مايوبو: «يشعر جلالته بما تحسين به، وهو يقول: (الآن أتفهم كم كان حبي مضراً بالنسبة لها حقاً، لأن الطريقة التي أصررت بها، على الرغم من إدراكي للأمر، على تفضيلها على غيرها إلى حد الفضيحة كان معناها أن الأمر لا يمكن أن يدوم طويلاً، وليست لديَّ الرغبة في مضايقة أحد، وعلى الرغم من ذلك فإنه بسببها أثرت الحنق في نفوس من كان لا ينبغي أن ألحق الضرر بهن لا لشيء إلا لأفقدها في نهاية المطاف لأواصل الميسرة بلا عزاء، وقد جعلت نفسي شخصاً أكثر مدعاة للحزن مما كنت عليه في أي وقت سابق وإنني أتمنى لو كنت أعرف ما الذي أمكن في حيواتي السابقة أن يجلب هذا كله عليّ). هذا ما يقوله مراراً، وفيما يفعل ذلك فإنه لا يكون بعيداً أبداً عن البكاء».

واصلت مايوبو الحديث، وقالت دامعة أخيراً: «تأخر الوقت كثيراً، ولا بد لي من أن لا أدع الليل ينقضي من دون أن أجلب ردك لجلالته»، وتأهبت سريعاً للعودة إلى القصر.

كان القمر بسبيله إلى الاحتجاب في سماء صافية على نحو جميل، وقد غدت الريح باردة بصورة ملحوظة، وبدا أن الجداجد التي تطلق صريرها من قلب النخيل كأنها تدعوها للبكاء معها إلى أن غدت عاجزة إلا بالكاد عن تحمل مغادرة هذه الدار التي خيم عليها الحزن. قالت:

ربما تنوح الجداجد الصداحة حتى تصبح عاجزة عن النواح، ولكن الأمر ليس كذلك لي

فطوال الليل الممتد بلا انتهاء ستنهمر دموعي .

ولم تستطع أن تستقل عربتها.

«هاهنا حيث يتزايد نواح الجداجد الحزين في العيش الذاوي

أنت يا من تعيشين فوق السحب تجلبين شآبيب من الندى

وسرعان ما أحملك اللوم» هكذا جاءها الرد[1].

لم يكن هذا وقتاً ملائماً لهدايا وداع جميلة، وبدلاً من ذلك، وعلى سبيل إحياء ذكرى ابنتها،أعطتها أشياء كانت قد استبقتها لمثل هذه المناسبة على وجه التحديد، مجموعة من الأثواب وبعض الحلي التي استخدمتها ابنتها لرفع شعرها.

كانت الوصيفات الشابات اللواتي خدمن ابنتها قد أحزنهن، بالطبع، فقد سيدتهن، لكنهن افتقدن القصر بعد تعودهن عليه، ودفعتهن ذكريات جلالته إلى استعجال انتقال ابنه إلى القصر سريعاً بقدر الإمكان، ولكنها أحست بأن الناس لن يوافقوا على مصاحبة امرأة سيئة الطالع مثلها له، ولما كانت تعرف كذلك شعورها بالقلق الشديد عليه عندما يغيب عن ناظريها، فإنها لم تستطع حمل نفسها على تركه يذهب إلى القصر.

أحسَّت مايوبو باعتصار فؤادها من فرط التعاطف عندما وجدت أن جلالته لم يخلد بعد إلى فراشه. كانت حديقة البلاط في سمت بهائها الخريفي، وبدعوى تأملها والإعجاب بها كان قد استدعى لخدمته أربعاً أو خمساً من أقرب الوصيفات إليه، ومضى بتجاذب

(1) «ألومك، بدلاً من كل ما حدث. على دموعي». هاتان القصيدتان تنقلهما وسيطة، حيث أن السيدة لا تزال في الدار. «أنت يا من تعيشين فوق السحب» (كومو نو أويوبيتو) المراد بها مايوبو، مبعوثة الإمبراطور التي استهلت زيارتها بانهمار دموع جديدة.

أطـراف الحديـث معهن. وكان أخيراً يقضي كل وقته في تأمل الرسـوم الإيضاحية لـ«أغنية الحـزن الـذي لا ينتهـي»، التـي أمـر بإبداعهـا الإمبراطـور أودا مـع قصائد من نظم آيسـي وتسـورايوكي[1] وغيرهـا من القصائد كذلك سـواء باللغة اليابانيـة أو الصينية، طالما تدور حول ذلك الموضوع، الذي كان الموضوع الدائب لحديثه.

مضـى يسـائل مايوبو بعناية فيما يتعلـق بزيارتها، وأبلغته في حديـث مقتصر عليهما كم كانت زيارة محزنة، ثم قرأ رد السيدة النبيلة. وكانت قد كتبت تقول: «تثير كلمات جلالتكم مـن الهيبة قدراً يشـعرني بأنني لسـت جديـرة بتلقيهـا، ويهيمن عليَّ اضطـراب في حضرة مشاعر كريمة على هذا النحو:

«منذ ذوت وفقدت تلك الشجرة التي تعرضت أغصانها للرياح القاسية

يخفق فؤادي أسفاً على سعفة هاجي الصغيرة».

وهلم جرا، رسـالة مشوشـة للغاية، وذلك على الرغم من أن جلالته تفهم إلى أي مدى لا تزال منزعجة، لا شـك أنه قد غفر لها[2]. وجاهد عبثاً لكبح جماح نفسه، على الرغم من تصميمـه علـى ألا يفصح عن انفعال قوي، بل إن موجة مـن الذكريات المندفعة قد أعادت إليـه الأيام الأولى التي عرف فيها محبوبته، وصدم لإدراكه لمدى طول المدة التي أمضاها بالفعل من دونها، بينما كان في وقت من الأوقات يكره أشد الكره أقصر غياب عنها.

ساوره شعور بالأسى البالغ، وقال: «كنت أريد أن تشعر أمها بأنه أمر جدير بالقيام به أن تلتحق بخدمتي، على نحو ما أهاب بها المستشار الكبير الراحل على فراش موته أن تفعل. يا للعار. على أية حال، فإنني ينبغي أن أتمكن من القيام بشيء من أجل ابني، طالما أنه ينشأ على الوجه الصحيح، ولا بد لها من أن تحرص على أن تعيش لترى ذلك».

أطلعته مايوبو على الهدايا التي تلقتها، فحدَّث نفسه قائلاً[3] لو أن هذا كان مشبك الشعر

---

(1) ربما كانت اللوحات مرسومة على ستر، بينما القصائد مكتوبة في إطار زيني خاص بكل منها كتعقيب على كل منظر. كانت آيسي شاعرة مميزة ووصيفة بمعية الإمبراطور أودا (حكم بين عامي 887 ـ 897). بينما كان كي نو تسورايواكي الشاعر الأكثر تأثيراً في بلاط أوائل القرن العاشر.

(2) تهمل قصيدتها حماية الإمبراطور للصبي، وتؤثر عليها الحماية التي كفلتها أمه، وقد تفهم على أنها تشير إلى أن الإمبراطور لا يمكنه أن يحميه.

(3) في «أغنية الحزن الذي لا ينتهي» يبعث الإمبراطور بساحر ليعثر على محبوبته في العالم الآخر (جزيرة هوراي

الذي بعثت به من وراء المجهول، ولكنه، يا للحسرة، لم يكن كذلك. غمغم قائلاً:

«ليتني أجد ساحراً يسعى وراءها لعلي عندئذ أعرف

على الأقل من بعيد أين مأوى روحها الغالية».

كان فنان قدير قد أنجز لوحات لـ«يوكيهي»، ولكن الفرشاة لا تستطيع إلا أن تنقل هذا القدر، وافتقرت صورتها إلى نسمة الحياة، ولا شك أن المحيا، الذي يشبه كثيراً زهور اللوتس في بحيرة تايكي أو أشجار الصفصاف قرب قصر ميؤو[1]، كان جميلاً على نحو لافت للأنظار بطريقته الصينية، ولكن عندما تذكر كم كانت محبوبته رقيقة ومقربة للفؤاد، ألفى نفسه عاجزاً عن مقارنتها بالزهور أو تغريد الطيور. وكان قد أكد لها صباحاً ومساء أنهما سيشتركان في جناح واحد في التحليق كطائرين أو في أغصانهما كشجرتين[2]، ولكنها بعدئذٍ ماتت، وأفعمه زوال وعوده الذي نجم عن ذلك بحزن لا ينتهي.

لم يؤد زفيف الريح وصرير الجداجد إلا إلى تعميق كآبته، وفي غضون ذلك تناهى إليه صوت الزوجة كوكيدين، التي لم تكن قد جاءت للقيام بخدمته بعد حلول الليل منذ وقت طويل، وهي تضفي أفضل ما عندها على قمر جميل بعزف الموسيقى حتى وقت موغل في الليل، ولم يحب العزف وتمنى لو أنه يتوقف. ووجد الوصيفات، وكذلك الوصفاء الخصوصيون الذين كانوا يعرفون حالته المزاجية، أن العزف يطبق على آذانهم. وبدا أن مقترفة هذا الفعل، الذي أقدمت عليه عامدة ومصرة على التكرار، مصممة على التصرف كأن شيئاً لم يكن.

احتجب القمر

«عندما تخفي الدموع في حجاب الظلام القمر الخريفي فوق السحب،

كيف يمكن أن يكون هناك نور في الأسفل وسط الأعشاب المتواضعة»[3]؟

الرائعة) [بنجلاي في التقاليد الصينية]، ويجلب الشاعر مشبك شعر منها.

(1) هذان التشبيهان ببحيرة تايكي (تايي في التقاليد الصينية) وقصر ميؤو (ويانج في التقاليد الصينية) مستمدان من «أغنية الحزن الذي لا ينتهي».

(2) في «الأغنية» يعد الإمبراطور يانج جويفي بأنهما إذا بعثا طيوراً، فإنهما سيشتركان في جناح فيما هما يحلقان، وإذا بعثا على الأرض فإنهما سيشتركان في الأغصان كشجرتين.

(3) «حتى عندما أنخرط أنا في البكاء، كيف يمكن لأم فقدت ابنتها ألا تبكي بدورها؟». مقطع «فوق السحب» يشير

هكـذا غمغم جلالته، وخواطره محلقة للسـيدة النبيلة التي غادرتها مايوبو أخيراً، وبقي مستيقظاً إلى أن احترق فتيل المصباح[1].

لا بدّ من أن ذلك كان في ساعة الثور[2]، لأنه سمع فريق مناوبة البوابة اليمنى وهو يتولى مهمته، وعندئذ أوى إلى فراشه الذي تحف به الستائر لأنه لم يرغب أن ترصده عين، ولكن مع ذلك لم يستطع النوم، وتذكر عندما كان الصباح يهل ويحين وقت الاستيقاظ أنه لم يدر ذات مرة أن الفجر قد أطل عليه[3].

لم يقم سوى بكسر صيامه عبر تناول إفطاره من دون اهتمام حقيقي به، ولـم يبد اهتماماً بغدائـه، إلى أن استشـعر من يقومون على خدمته كافة الحـزن جرّاء رؤيته على هذه الحال. وغمغـم أولئـك الذين يخدمونه عن قرب، من وصيفات ووصفاء على السـواء في قلق عن مدى إثارة هذا كله للقلق.

وربمـا كان مقـدراً له أن يهواها، ولكن أن يتجاهـل العتاب والحنق من كثيرين على هذا النحو، وأن يهزأ من أجلها بمعايير السـلوك الصحيح، بل وأن يتجاهل الشؤون العامة على نحو ما يفعل حالياً. همسـوا جميعاً قائلين إن هذا من سـوء الطالع كأشد ما يكون، وسجلوا في هذا السياق أحداثاً في أراض تقع فيما وراء البحار[4].

مـع مرور الوقـت، مضى الصبي للالتحاق بأبيـه في القصر، وقد غدا بالغ الوسـامة إلى حد أنه لم يبد منتمياً إلى هذا العالم على الإطلاق. وبالنسبة لجلالته فإن هذا قد أثار تخوفاً معينـاً[5]. وفـي الربيع التالـي، عندما قرر جلالتـه أن يحدد ولي العهد، تاق إلـى تجاوز ابنه

إلى القصر، وأعشاب أساجي هي تلك التي أتت السيدة على ذكرها بالفعل في قصيدة سابقة.

(1) لمسة أخرى من «أغنية الحزن الذي لا ينتهي».

(2) من الساعة الثانية إلى الساعة الرابعة فجراً على وجه التقريب.

(3) رقد الإمبراطور ذات مرة في أحضان محبوبته بعد طلوع الفجر. والتعبير مستمد من آيسي شو 55 من إبداع آيسي، والتي نظمت لتواكب ستاراً يصور «أغنية الحزن الذي لا ينتهي». والقصيدة تقوم على أساس بيتين من الأصل الذي أبدعه باي جويي.

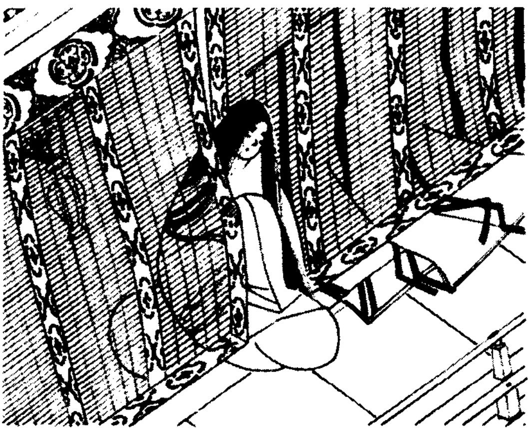
(4) الكارثة التي سببها افتتان زوانزونج بيانج جويفي.

(5) اعتقد الناس أن قوى فائقة للطبيعة تشتهي الناس الجميلين بصورة غير مألوفة وتسرقهم. وغالباً ما تشير الحكاية إلى هذا الخوف.

البكر، إلى ابنه الأصغر، ولكن بما أن هذا الابن الأصغر كان يفتقر إلى التأييد[1]، ولما كانت الدنيا بأسرها لن تقبل على أية حال بمثل هذا الاختيار، فقد تراجع عما اعتزمه، حرصاً على الصبي، وأبقى رغبته طي الكتمان. وراح الناس يؤكد أحدهم للآخر أنه ليس بإمكانه المضي إلى هذا الحد، أياً كان إخلاصه. وأحست الزوجة كوكيدين بالارتياح[2].

أما فيما يتعلق بالجدة، فقد ظل العزاء بعيداً عن فؤادها، ولم تتمن إلا اللحاق بابنتها، ولا شك في أن ذلك هو السر في أنها بدورها قد قضت نحبها في نهاية المطاف، وهو ما أثار حزناً بلا حدود من جانب جلالته، وكان الصبي آنذاك يدخل عامة السادس. وقد أدرك هذه المرة ما وقع وانخرط في البكاء. وقرابة نهاية حياتها تحدَّثت هي التي كانت قريبة منه هذا الوقت الطويل مراراً عن مدى حزنها للرحيل عنه.

ثم غدا الصبي في القصر بصورة دائمة. وعندما بلغ السابعة من عمره جعله جلالته يؤدي قراءته الأولى، وهو الأمر الذي أنجزه بتألق بالغ لم يُسمع به من قبل إلى حد أن أباه استثير صراحه وقال: «يقيناً ما من واحدة منكن يمكنها أن تكرهه الآن، فهو في نهاية المطاف لم تعد له أم. كن لطيفات معه رجاء». عندما اصطحبه إلى جناح كوكيدين سمحت له الزوجة هناك بالمرور مباشرة عبر ستائرها الحاجبة، ولم تدعه يذهب، ذلك أن مرآه كان يجلب الابتسامات إلى شفتي أكثر المحاربين ضراوة، حتى الأعداء منهم، وكانت قد أنجبت لجلالته ابنتين، ولكن لم يكن من الممكن وضع أي منهما موضع المقارنة به، بأي قدر من الخيال المحلق، كما لم تحتجب عنه أي سيدة إمبراطورية، لأنه كان بالفعل مميزاً بصورة جذابة جعلتهن يجدن فيه شريكاً في اللعب بالغ اللطف والقدرة على التحدي. ومن الطبيعي أنه انكب على


الستائر الحاجبة

(1) لم يكن له قريب من ناحية أمه يحظى بالنفوذ والتأثير للقيام بدعمه.
(2) عُين ابنها الآن رسمياً ولياً للعهد.

الدراسة الرسمية[1]، لكنه كان يجعل السماء تصدح بموسيقى الوتريات وعزف الناي. وفي حقيقة الأمر أنني لو أدرجت قائمة بكل الأشياء التي تفوق فيها لما نجحت إلا في جعله يفوق الخيال.

في غضون هذا الوقت، علم جلالته بوصول وفد من كوما[2] يضم خبيراً محنكاً في الفراسة. ولما كان استدعاء ابنه إلى القصر من شأنه أن يشكل مخالفة لنهي الإمبراطور أودو المشدد عن ذلك، فقد قام بدلاً من ذلك بإرسال ابنه سراً إلى كوروكان[3] وقام مراقب حسابات الميمنة الكبير باصطحابه إلى هناك على أنه ابنه.

أومأ خبير الفراسة المندهش مراراً برأسه في حيرة وقال: «لديه علامات من قُدِّر له أن يصبح أباً لشعبه وأن يحقق المرتبة الأسمى للعاهل، ومع ذلك فإنني عندما أراه على هذا النحو، أخشى من الفوضى والمعاناة. وعندما أراه باعتباره العمود المستقبلي للبلاط ودعامة البلاد، فإن عدم الملاءمة يظهر مجدداً».

كان مراقب الحسابات نفسه رجلاً متبحراً في العلم، وكان حواره مع الزائر مثيراً للاهتمام للغاية، وقد تبادلا القصائد، وعندما نظم خبير الفراسة قصيدة رائعة، أعرب فيها عن بهجته للقاء مثل هذا الصبي الفذ، جنباً إلى جنب مع الحزن على فراقه، ونظم الصبي بعض الأبيات من إبداعه، والتي أعجب بها الزائر أشد الإعجاب، قبل أن يهديه هدايا بديعة. وتلقى الزائر بدوره العديد من الهدايا التي حُملت إليه من جلالته. وكما هو حري بمثل هذه الأخبار، فقد ذاعت وانتشرت. وعلى الرغم من أن جلالته لم يأت على ذكرها قط، فإن وزير الميمنة، جد ولي العهد، قد تساءل متشككاً عما قد تعنيه.

تأثر جلالته كثيراً، عندما وجد أن قراءة الزائر قد تطابقت مع قراءة كان بفعل حكمته قد حصل عليها من خلال فن الفراسة على نحو ما تجري ممارسته في اليابان، والتي بناء

---

(1) الدراسات الصينية، وبصفة أساسية في الفلسفة السياسية، القانون، التاريخ، الشعر، وعرف البلاط.

(2) مملكة كوجورايو الكورية القديمة.

(3) عندما اعتزل أودا العرش كتب مقالات تتضمن نصحاً لخلفه دايجو (حكم ما بين عامي 897 -930)، وتضمنت إحدى هذه المقالات نهياً عن السماح لأي أجنبي بدخول القصر. وبالحكم من خلال هذه الفقرة، فإن الإمبراطور في الحكاية يتوافق مع دايجو. وقد كان كوروكان هو المبنى الذي يستقبل فيه السفراء والزوار الأجانب الآخرون قرب تقاطع جادتي سوزاكو وشيتشجو «الجادة السابعة».

علـى قوتهـا كان قد أحجم عن منح ابنه لقب الأميـر، ومن هنا فإنه قد قرر أنه بدلاً من جعل الصبـي يمضي أميـراً بلا مرتبة[1] من دون دعم من أي قريب له من جهة أمه، فإنه سـيضمن له مسـتقبلاً واعداً بصورة أكبر (حيث أن عهده قد لا يمتد في نهاية المطاف) وذلك بجعله يخـدم البلاد كواحد من العامة، وبهذه الروح جعله ينكـب بمزيد من الاجتهاد مقارنة بذي قبل على دراساته. وقد كان أمراً مخجلاً جعله أحد الرعايا، في ضوء مواهبه، ولكنه كان من المحتم أن يثير الشك كأمير، وعندما أدت استشارة منجِّم بارز إلى تأكيد هذا التنبؤ فحسب، قرر جلالته جعله «جينجي»[2].

لـم ينس جلالته، شـهراً بعـد آخر وعاماً بعـد آخر، مـلاذه المفقود قط. وبعد اسـتدعاء العديـد من المرشـحات المحتملات، خلـص حزيناً إلى أنه لن يجد مثلهـا مجدداً في هذه الدنيا أبداً، ولكنه سمع بعد ذلك من إحدى رئيسات طاقم العاملين في القصر بأمر إمكانية أخرى، تتمثل في الابنة الرابعة لأحد الأباطرة السـابقين، وهي فتاة عُرفت بحسـنها، وربتها أمها الإمبراطورة بأعظم قدر من العناية. ولما كانت السيدة التي حدَّثت الإمبراطورة بالأمر تديـن للإمبراطورة بمنصبها بالفعل، فقد خدمت أم النبيلة الشـابة بحميمية كذلك، وهكذا فقـد عرفتهـا أيضـاً منذ طفولتهـا، وفي حقيقة الأمـر فإنهـا الآن تراها بين الوقـت والآخر. وقالـت: «في العهـود الثلاثة التي خدمت فيهـا البلاط[3]: «لم أر أحـداً مثل ملاذ جلالتكم الراحلـة، ولكن الأميرة التي أشـير إليها قد كبرت لتصبح شـبيهة بها إلى حـد بعيد، والنظر إليها بهجة للعيون».

خاطـب جلالتـه الأم بكثير مـن الحرص والحـذر، متلهفاً على اكتشـاف حقيقة ما بلغه

---

(1) لا يغدو ابن إمبراطوري أميراً إلا بعد أن يعينه أبوه. وكان التعيين يتم في أربع مراتب، ويتلقى المعين راتباً بحسب المرتبة التي عُين فيها. أما الابن الذي لا يعين على هذا النحو ولكنه مع ذلك يتم الاحتفاظ به في العائلة الإمبراطورية، فقد كان «بلا مرتبة» (موهون).

(2) لم يكن لأعضاء العائلة الإمبراطورية اسم للعائلة. ولكن بعد صدر القرن التاسع تم جعل بعض الأبناء الإمبراطوريين الزائدين من العامة (تادابيتو) يحملون الاسم العائلي ميناموتو. و«جينجي» يعني ببساطة «أحد أبناء عائلة ميناموتو».

(3) لما كان عهد الإمبراطور الحالي هو العهد الثالث بالنسبة لها، فلا بد أن جده هو الذي عينها. وكلمة «سينداي» («أمبراطور سابق») (تعني إمبراطوراً لم يعتزل العرش، وإنما مات وهو يشغل منصبه. والإمبراطور كوكو (حكم بين عامي 884 887-) الذي سبق أودا (سلف دايجو) انطبقت عليه هذه الحالة على وجه الدقة.

فـي هـذا الصدد. وقد تلقت اقتراحه بانزعاج لأنهـا كانت تعرف إلى أي حد يمكن لأم ولي العهد أن تكون مقيتة، وانقبضت حيال تعريض ابنتها للازدراء الصارخ الذي كانت الزوجة قـد تعاملـت به مع منافسـتها كيريتسـوبو، وهكذا قضت نحبهـا قبل أن تحمل نفسـها على الموافقـة. ومـا إن أصبحت الابنة وحيدة، حتى مضى جلالته قدمـاً بخطبتها متلهفاً، مؤكداً أنها ستكون بالنسبة إليه كإحدى بناته[1] وأجمع كل من وصيفاتها ومن يهتمون بمصالحها[2] على الوجه الصحيح وأخيها الأكبر، معالي وزير الحرب، على أنها سـتكون في القصر في حـال أفضـل بكثير منها إذا بقيت وحيدة في البيت، ومن هنا فقـد أصروا على أنها لا بدّ من أن تمضي إلى القصر.

أُطلق عليها «فوجيتسـوبو»، وكانت تشـبه إلى درجة مذهلة حقاً تلك السـيدة الأخرى، ولكـن لمـا كانت تنتمي إلـى مرتبة أعلـى بكثير فقد كانـت تحظى بالاحترام عـن طواعية، ومـا كان بالإمكان معاملتها باسـتخفاف، ولـم تكن بحاجة للإذعان لأحـد فيما يتعلق بأي موضوع. وكان جلالته قد تشبث بمحبوبته القديمة بمزيد من الشغف، على الرغم من عدم الموافقة الشاملة، وهو لم ينسها الآن، ولكن عاطفته تحولت بطريقة مؤثرة إلى هذه القادمة الجديدة، التي كانت عزاء كبيراً له.

لم تستطع أي من سـيدات جلالته أن تظل متحفظة مع جينجي الصغير، خاصة السـيدة التـي يراها غالباً الآن، لأنه كان يصاحب أباه طوال الوقت، وكن جميعاً يتباهين بحسـنهن، ولا شـك أن ذلـك كان لـه مـا يبرره، ولكنهن لـم يكن في ميعـة الصبا، بينمـا كانت الأميرة الجديـدة شـابة وجذابة معـاً، ومن الطبيعـي أن جينجي قد لمحها عدة مـرات، وذلك على الرغـم مـن أنها بذلت ما في وسـعها للبقاء بعيدة عن ناظريه، ولم يكن قد بقي له شـيء من ذكريات أمه، لكن اهتمامه الناشـيء ثار عندما أبلغته رئيسة طاقم العاملين في القصر بمدى شـبه الأميـرة بأمـه، وأراد علـى الـدوام أن يكـون معهـا ليتأملها ما طاب لفؤاده.



حفل البلوغ

طلب منها جلالته، الذي كان يهتم أشـد الاهتمام بهما

(1) أي أنه سينفق عليها بنفسه، ولن يعتمد على عائلة أمها.
(2) الرجال الأساسيون في عائلة أمها.

كليهما، ألا تبقى على تحفظها حياله، وقال: «لست أدري السر في ذلك، ولكن يبدو لي من الصواب أن يعتبرك أمه، فلا تنظري إليه على أنه غير مهذب، وما عليك ألا أن تكوني شفوقة به|ومحياه وعيناه تشبه كثيراً محيا أمه وعينيها|بحيث أن شبهك يجعل الأمر طبيعياً». وهكذا فإن جينجي لم يهدر فرصة تتيحها أدنى زهرة أو وريقة خريف ليجعلها تعرف بطريقته الصبيانية كم هي أثيرة لديه. وعجل شغف جلالته بها بخصومة الزوجة كوكيدين لها، على نحو ما فعلت مع أم جينجي، إلى أن عاد عداؤها القديم وأصبحت تمقت جينجي كذلك.

كان مظهر جينجي يتسم برقة عذبة على نحو يستعصي على الوصف، ويتجاوز حتى بهاء الأميرة الذي تفننت الألسن في وصفه، ومن منظور جلالته، كما كان يتمتع بحسن لا نظير له، الأمر الذي دفع الناس إلى تسميته بـ«السيد النبيل المشرق»، ولما كانت فوجيتسوبو تناظره بهاء، وقد أحبهما جلالته كليهما، فقد سماها الناس «الأميرة سنا الشمس».

تردد جلالته في إفساد بهاء جينجي الطفولي، ولكن في عام جينجي الثاني عشر أقام له حفلاً بمناسبة بلوغه، وشغل نفسه شخصياً بالترتيبات، وأضاف إلى الاحتفال لمسات جديدة، وخوفاً من أن تقل المناسبة في فخامتها عن الحفل الذي أقامه لولي العهد قبل سنوات في شيشيندين، وتحسباً من تعرض أي شيء للاختلال، فقد أصدر تعليمات دقيقة للمآدب التي تقيمها الإدارات الحكومية المختلفة وللأشياء التي تقدمها عادة خزانة البلاط ومخزن الحبوب الإمبراطوري، مقتضياً لها الكمال في كل ما تقدمه.

جعل عرشه يواجه الشرق من القاعة الخارجية الشرقية لمقر سكناه، مع مقعدين للشاب وراعيه، الوزير، أمامه[1]، وبرز جينجي للعيان في ساعة القرد. وبدا أن جلالته يشعر بالأسى لأن جينجي لن يبدو مجدداً أبداً على نحو ما هو الآن، وقد ربط شعره على شكل خصلتين توأم[2]، ووجهه مشرق بعذوبة الصبا. قام سيد الخزينة النبيل والحاجب[3]

---

(1) إنه يجلس على مقعد في غرفة الجناح (هيساشي) (غرفته النهارية) (هيرو نو أوماشي) على الجانب الشرقي من سكنه، سيرايودين، وجينجي ووزير الميسرة في مستوى أدنى منه بمسافة عارضة خشبية في الجناح الثاني (ماجوبيساشي) وهو مساحة مفتوحة مكسوة الأرضية لا وجود لها في المساكن العادية.

(2) ميزورا، خصلتا شعر تقسمانه بصورة متعادلة على جانبي الرأس كليهما. والصبية يرجلون شعرهم على هذا النحو حتى سن البلوغ.

(3) كان شعر الإمبراطور يقصه في العادة حاجب.

بواجبهما، وكان سيد الخزينة النبيل حزيناً على نحو جلي لقص مثل هذا الشعر الجميل، واحتاج جلالته، الذي تمنى يائساً لو أن ملاذه كانت هناك لتشهد الحفل، إلى أقصى درجة من كبح جماح النفس حتى يمنع دموعه من الانهمار.


الخصل التوأم

انهمرت دموع الحاضرين جميعاً، عندما عاود جينجي الظهور مرتدياً ثياب رجل، وهبط الدرج إلى الحديقة ليحيي عاهله، بعد أن اعتمر غطاء الرأس، وانسحب إلى قاعة الانتظار. كان جلالته بالطبع، لا يزال متأثراً بعمق بالغ، واستعرض الماضي في ذهنه حزيناً، متذكراً الوقت الذي كانت فيه أم الفتى مصدر هناء بالنسبة له، وكان قد خشي أن يتأثر مظهر جينجي لدى رفع شعره عالياً، على الأقل وهو لا يزال في مقتبل العمر، ولكن ذلك لم يحدث على الإطلاق، فكل ما هنالك أنه بدا أكثر وسامة من ذي قبل.

كان الوزير الراعي قد أنجب من سمو[1] زوجته ابنة وحيدة، محبوبة، أعرب ولي العهد عن اهتمامه بها، ولكنه بعد تردد طويل شعر بأنه أكثر ميلاً إلى تقديمها إلى جينجي بدلاً من ذلك. وعندما التمس معرفة مشاعر الإمبراطور حيال هذا الأمر، رد جلالته: «حسناً، قد تكون الرفيقة المناسبة له تماماً[2] الآن، وهو فيما يبدو لم يعد يجد من يعنى به»، وقد شجَّع هذا معاليه على المضي قدماً في هذا الاتجاه.

انسحب جينجي إلى قاعة الانتظار، ثم شغل المقعد الأخير بين الأمراء[3]، بينما استمتع الجمع الحاضر بشرابه. وأشار معاليه في حديثه معه عبر عدة تلميحات إلى هذا الزواج، ولكن جينجي كان في عمر يغلب الحياء على صاحبه، ولم يعطه رداً حقيقياً، ثم بعث سيدة من دائرة العاملين بالقصر إلى معاليه برسالة من جلالته، طالباً حضوره، فأطاع معاليه في

(1) عمة جينجي وأخت الإمبراطور. يوشك جينجي على الزواج من ابنة عمته مباشرة.

(2) بعد البلوغ، سيتلقى جينجي، على نحو ما هو معمول به عادةً، دعماً مادياً من عائلة زوجته. وكانت زوجة مثل هذا الشاب تدعى «رفيقة في الفراش» (سويبوشي).

(3) الأبناء الإمبراطوريون الذين شغلوا مقاعدهم بحسب مراتبهم. وقد جلس جينجي إلى جوار حميه المقبل، حيث كان وزير الميسرة يشغل أرفع مقعد بين النبلاء غير الإمبراطوريين.

التو[1].

أخذت إحدى وصيفات جلالته الهدايا من يديه لتقدمها إلى معاليه. وشملت هذه الهدايا، حسب العادة، رداء نسائياً أبيض كبير القياس[2]، ومجموعة من الأردية النسائية. ولدى إعطائه قدح الخمر أبدى له جلالته تعبيراً واضحاً عن مشاعره:

«إلى تلك العقدة التي ترفع شعره الصبياني عاليا هل ربطت أمنية

بأن تكون السعادة لهما على امتداد أزمنة طويلة مقبلة»[3]؟

«بتلك الروحية قمت بربط شعر مع صلوات كبرى مقدر لها أن تدوم

تماماً كما أن تدرج اللون الأرجواني القاتم لا يمحى ».

هكذا رد معاليه قبل النزول عن الجسر الطويل[4] للإعراب عن إجلاله، وهناك تلقى جواداً من اسطبلات الميسرة الإمبراطورية وصقراً على مجثمه من دائرة الحجاب، ثم اصطف الأمراء وكبار النبلاء تحت الدرج[5]، ليتلقى كل منهم هديته.

كان مراقب حسابات الميمنة الكبير، بأمر من جلالته، قد أعد في ذلك اليوم أطعمة شهية في صناديق من خشب السرو وسلالاً من الفاكهة للإمبراطور. وكان هناك الكثير من زلابية الأرز والكثير للغاية من خزانات الملابس[6]، أكثر مما كان موجوداً لدى الاحتفال ببلوغ ولي العهد، بحيث لم يكن هناك فراغ لها جميعها إلا بالكاد. وقد كان احتفال جينجي، في حقيقة الأمر، هو الذي أظهر وفرة رائعة حقاً.

في ذلك المساء بعث جلالته بجينجي إلى مسكن الوزير، حيث رحب به جلالته، وأضفى

---

(1) ربما قامت المرأة (نايشو نو جو، مسؤولة من المستوى الثالث في القصر) بتوصيل رسالة الإمبراطور عبر أحد الحجاب. ويتلقى الوزير الهدايا التي تقدم عادةً إلى «الراعي».

(2) هذا الـ«أوتشيكي» المعد للتقديم سيتم تصغير قياسه من أجل الاستخدام الفعلي.

(3) هذه القصيدة، شأن رد الوزير، تتلاعب بالفعل «موسوبو»، «يرفع» الشعر، و«يؤدي» قسماً بالوفاء الزوجي. (وكان القيطان المستخدم أرجوانياً) (مورا ساكي)، وهو لون الصلة الوثيقة.

(4) ناجاهاشي، جسر من ألواح خشبية سميكة يمتد بين جناحي سيريودين وشيشندين.

(5) ميهاشي، الدرج المفضي نزولاً من سيريودين إلى الحديقة الواقعة إلى الشرق منه مباشرة.

(6) هدايا للخدم الأقل مرتبة.

تألقاً يخطف الأبصار على الطقس الذي أعقب ذلك[1]، وقد وجدت العائلة جينجي جذاباً على نحو فائق، على الرغم من أنه كان لا يزال صبياً، ولكن ابنة معاليه، التي كانت أكبر سناً من جينجي إلى حد ما، اعتقدت أنه صغير للغاية، وخجلت من أنه لا يلائمها على مثل هذا النحو.

حظـي معاليه بأعظم قدر من التقدير من جانب جلالته، فضلاً عن ذلك فإن الأميرة التي أنجبـت له ابنته كانت شـقيقة جلالتـه، وهكذا فإنهما كليهما كانا على قـدر كبير من التميز، وبدا وزير الميمنة في وضعية بائسـة الآن وقـد انضم إليهما جينجي كذلك، على الرغم من أنه مقدر له أن يحكم البلاد ذات يوم بوصفه جد ولي العهد. وكان معاليه قد أنجب العديد من الأبناء من سـيدات مختلفات، أما من سـموها فقد أنجب، بجانب ابنته، ملازماً حاجباً شـاباً وواعـداً للغاية[2]، كان وزير الميمنة قد أراد أن يكـون زوجاً لابنته، على الرغم من أنه لـم يكن على صلة طيبة بوالد هذا الشـاب، الذي جعله يقتـرن بابنته الرابعة. وقد عامل هذا الشاب المعاملة نفسها التي كان حمو جينجي يعامله بها، وكان الشابان على صلة طيبة فيما بينهما.

لم يكن جينجي حراً في الإقامة بالدار[3]، حيث كان جلالته يستدعيه في غالب الأوقات، وفي قرارة فؤاده لم ير إلا جمال فوجيتسـوبو الذي لا نظير له. راح يحدِّث نفسـه قائلاً: «آه، إنهـا المـرأة التي أرغب في الزواج منهـا، وهي لا مثيل لها»، ولا شـك أن ابنة معاليه كانت جميلة للغاية، وتلقت تربية جيدة، ولكنه لم يكن يحمل في فؤاده الكثير من المشاعر نحوها، لأنه كان قد منح قلبه الغض لأخرى، وقد حدث ذلك على نحو وصل إلى حد الألم.

الآن وقد وصل جينجي إلى مرحلة البلوغ، فإن جلالته لم يعد يسـمح له باجتياز سـتائر فوجيتسـوبو ليكون معها كذي قبل، وعندما كانت الموسـيقى تعزف كان يصاحبها بالعزف على الناي فيما هي تعزف على آلة الكوتو الوترية. كان هذا وكذلك صوتها الخافت المتناهي إليـه عبر السـتائر الحاجبـة[4] هما العزاءان الوحيدان بالنسـبة إليـه، وأراد ألا يعيش أبداً في

(1) طقس زفاف جينجي وابنة الوزير المعروفة للقراء باسم أوي.

(2) صديق جينجي الكبير من الآن فصاعداً، والمعروف للقراء باسم تو نو تشوجو.

(3) في مسكن حميه.

(4) شاركت فوجيتسوبو في عزف الموسيقى أسوبي، ولكنها ظلت محتجبة عن العيان.

أي مـكان سـوى القصر. وبعـد أداء الخدمة بين يدي جلالته خمسـة أيام أو سـتة أيام، كان يمضـي بين الحين والآخر لقضاء يومين أو ثلاثة في دار معاليه، لكنه كان صغيراً في السـن للغاية بحيث أن الوزير لم يكترث بصورة حقيقية، وعامل زوج ابنته معاملة سخية، واختار الوصيفات الأقل اتسـاماً بالطابع العادي بين الوصيفات الموجودات لخدمة جينجي. وقد شاركته هذه الوصيفات في هواياته، واعتنين به أعظم العناية.

كان سـكناه في القصر هو جناح كريتسوبو، كذي قبل، وأبقى جلالته وصيفات أمه معاً، ليقمن بخدمته على التوالي. وأصدر مرسوماً بأن تقوم دائرة الصيانة ودائرة الحرفيين بإعادة بناء سـكنى أمه، وهو ما قامت به الدائرتان على نحو جميل. وكان مخطط الأشـجار وتلال الحديقة بهيجاً بالفعل، ولكنْ الدائرتين بمزيد من الضجيج والحركة ساهمتا بتوسيع نطاق البحيـرة على نحو أنيـق، وواصل جينجي بمزيد من التنهدات تمنياتـه بأن تكون له محبوبة حقيقية لتأتي وتقيم معه هناك.

يقولون إن لقبه، السيد النبيل المتألق، قد أطلقه عليه في معرض الإشادة به الرجل الذي قدم من كوما.

2

هاها كيجي

شجرة الوزَّال

الهاها كيجي (شجرة الوزَّال) هي نبتة كانت المكانس تتخذ منها، وتمتعت بالشـهرة الشـعرية التي تتمثل في كونهـا تظهر للعيـان من بعيـد وتختفي مع دنـو المرء منها، وهي كعنـوان لهذا الفصل فإنها تلمح إلى تبادل للقصائـد بين جينجـي وامرأة أحبطتـه بالحيلولة دون وصوله إليها وهو يكتب:

«أنا الذي لم أعرف قط ما الذي تعنيه شجرة الوزَّال أتعجب الآن حيث أجد

الطريق إلى سونوهارا يفضي بي بعيداً عن دربي» .

وهي ترد:

«أصابها الأسف لاشتهار مولدها في دار متواضعة

تذوى شجرة الوزَّال التي لمحتها سريعاً واحتجبت عن الأنظار ».

الصلة بالفصل السابق

يقـع الحدث الأخير الوارد في «جناح البولفينية» وهـو زواج جينجي من أوي، عندما يكون في الثانية عشرة من عمره. وفي مستهل «شجرة الوزّال» فإنه في السابعة عشرة من عمره. ولا تذكر الحكاية شيئاً عن السـنوات التي تتخلل هاتين المرحلتين، باسـتثناء تلميح في هذا الفصل إلى محاولته إقامة علاقة غرامية مع أساجاو.

الشخوص

جينجي، نقيب في حراس القصر، عمره 17 عاماً.

النقيب أمين السر، صديق جينجي وشقيق زوجته (تونوتشوجو).

رئيس إسطبلات الميسرة (سامانوكامى).

مساعد فوجيوارا لشؤون المراسم (توشيكيبونوجو).

معالي وزير الميسرة، حمو جينجي، 51 عاماً (ساديجين).

زوجة جينجي، 21 عاماً (أوي).

تشوناجون، وصيفة في خدمة معالي الوزير.

ناكاتسوكاسا، وصيفة في خدمة معالي الوزير.

حاكم كي، تابع لوزير الميمنة (كي نو كامى).

نائب أيو، والد حاكم كي وزوج أوتسوسيمى (أيونوسوكى).

ابنة معالي وزير شؤون المراسم (أساجاو).

شابة، زوجة والد حاكم كى (أوتسوسيمي).

شقيق أوتسوسيمي الأصغر 12 أو 13 عاماً (كوجيمي).

تشوجو، وصيفة أوتسوسيمي.

جينجي المتألق: كان الاسم مؤثراً، لكن هفوات حامله العديدة الجديرة بالاستنكار لم تكن كذلك، وفي ضوء إسداله ستر الكتمان على أساليب الشهوانية، خوفاً من أنها في غمار وصولها إلى مسامع الأجيال المقبلة ستكتسب سمعة غير حميدة، فإن من كشف أسراره للعالم بأسره كان ثرثاراً رهيباً. على أية حال، فإن الرأي كان يعنيه، وقد تظاهر بالجدية إلى حد كبير بحيث أنه لم يطلق شائعة واحدة تتسابق في الوصول إلى الأسماع، وكان حرياً بالملازم كاتانو[1] أن يضحك ساخراً منه!

بينما كان جينجي لا يزال نقيباً، فإنه لم يكن يشعر بأنه في بيته إلا في القصر، ولم يكن يذهب إلى دار معالي الوزير إلا بين الحين والآخر. وقد تشكك أهل الدار في أن خواطره كلها «في تشابك يدعو لليأس»[2] تدور حول امرأة أخرى، ولكنه بالفعل لم يكن ممن يؤثرون العلاقات العابثة، المبتذلة أو المرتجلة، لقد كانت طريقته هي الحب النادر، المفعم بالصعوبة وانكسار القلب، حيث أنه أقدم في بعض الأحيان على القيام بأمور لم يكن ينبغي عليه القيام بها.

مضت أمطار الصيف المبكر تسقط وتنهمر، بينما تواصلت العزلة[3] في القصر، وامتدت، بحيث أنه بقي هناك وقتاً أطول من المعتاد، على الرغم من أنه في دار معاليه كان هناك ضيق وقلق، فإنهم كانوا ما زالوا يرسلون إليه الملابس من كل نوع، وعلى أحدث طرز، وأمضى أصهاره كل وقتهم في القصر في الغرف المخصصة له.

كان أحد هؤلاء الأصهار،[4] وهو ابن معاليه ونقيب، شأن جينجي، صديقاً مقرباً يقاسمه الموسيقى وغيرها من الهوايات عن طواعية أكثر من أي شخص آخر، وكانت دار وزير الميمنة[5]، حيث كان الشاب يُعامل بمزيد من العناية بسرور بالغ، تثير كآبته، وكان له ذوق مميز في المغامرات الرومانسية في أماكن أخرى.

---

(1) كاتانونو شوشو بطل عاشق لم تصل قصته إلينا.

(2) من آيسي مونوجاتري 1 (حكايات آيسي، القرن العاشر). «أيها الثوب المصبوغ في نقوش بالزهور الأرجوانية النضرة من سهول كاسوجا، كذلك فؤادي كله في تشابك يدعو لليأس».

(3) مو نو يمي، وقت للاعتكاف داخل الدار لتجنب المؤثرات الشريرة.

(4) تونوتشوجو، أمين السر (تو) من مكتب الحجاب، والنقيب (تشوجو) من حرس القصر.

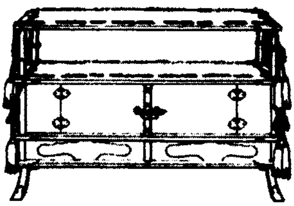
(5) حمو تو نو تشوجو.

وحتى في الدار جعل غرفته تُرتب بأسلوب رفيع، وفي روحات جينجي وغدواته واصل مرافقته بشكل مستمر، ولأن الاثنين كانا معاً ليل نهار للدراسة والموسيقى، التي كان فيها ماهراً كمهارة جينجي نفسه، إلى أن رفع الكلفة بصورة طبيعية مع جينجي، وأبلغه بكل ما يدور في ذهنه، وعامله كصديق مقرب.

مضى المطر ينهمر طوال نهار كئيب، وصولاً إلى مساء مطير بالقدر نفسه، لم يكن هناك أحد في غرفة الإمبراطور، وبدت غرفة جينجي هادئة على غير العادة، فيما كان الاثنان عاكفين على القراءة بجوار المصباح. عندما التقط النقيب أمين السر بعض الرسائل المكتوبة على ورق مختلف الألوان من رف خزانة قريبة، وأبدى فضولاً فيما يتعلق بها، قال جينجي متظاهراً بالرزانة: «يمكنك إلقاء نظرة على الرسائل التي لا أهمية لها، على الرغم من أن بعضها يمكن أن يكون محرجاً».

أبدى النقيب أمين السر تذمره، قائلاً: «إنني أتلقى رسائل عادية تماماً من سيدات ينتمين إلى مرتبة أو أخرى، في غمار تراسلي معهن، أما الرسائل الجديرة بالقراءة فهي التي تُرسل عندما تكون كاتبتها غاضبة، أو عندما يكون الغسق مرخياً سدوله، وهي تنتظر في قلق قدوم حبيبها».

بالطبع، وكما كان يعرف حق المعرفة، فإن جينجي ما كان ليترك الرسائل المهمة، أي التي لا بد من الاحتفاظ بها في السر والكتمان، ملقاة على الرف، معرضة للعيان، إنما كان سيبادر إلى حجبها في مكان ما، بعيداً عن الأنظار، الأمر الذي يعني أن هذه الرسائل التي وقعت في يديه محدودة الأهمية. هتف مندهشاً، وهو يلقي نظرة على كل منها، مخمناً هوية المرسلة، ومصيباً حيناً ومفارقاً الصواب حيناً آخر[1]: «يا له من تنوع!». بدا ذلك أمراً طريفاً لجينجي، لكنه أفلح بردود موجزة وبطريقة أو أخرى في تضليل صديقه وفي إخفاء ما أراد حجبه.



الخزانة

قال جينجي: «إنك الشخص الذي لا بد أن لديه مجموعة، وأود أن أراها، وعندئذ فإنني سأفتح الخزانة بكاملها لك».

(1) مثل هذه النوعية من الرسائل لم تكن موقعة.

«لا أتصور أن لديَّ أي رسائل ترغب في الاطلاع عليها». ثم انتهز النقيب أمين السر الفرصة ليطرح ملاحظة بقوله: «لقد أدركت أخيراً كيف أنك نادراً ما تجد امرأة خالية من العيوب، امرأة كاملة. ولا شك أن هناك الكثير ممن يبدون واعدات، فيكتبن بخط مناسب، ويقدمن لك في معرض الرد قصيدة مقبولة بصورة تامة، وإجمالاً يبذلن جهداً كافياً على مستوى المرتبة التي يشغلنها، ولكن كما تعلم فإنك إذا أصررت على صفة بعينها، فإنك نادراً ما تجد امرأة مناسبة، وكل امرأة سعيدة أعظم السعادة بإنجازاتها وتتجاوز الأخريات وهلم جرا. وبينما الفتاة تحت عين أبويها المعجبين بها، وتعيش حياة الرفاهية متألقة بالمستقبل الواعد، فإنه يبدو أنه كاف أن يسمع الرجال بموهبة واحدة من مواهبها، لينجذبوا إليها، وطالما أنها جميلة وبريئة وشابة بما فيه الكفاية بحيث لا يكون في ذهنها شيء آخر، فإنها قد تعكف على تعلم هواية رأت الأخريات يستمتعن بها، وفي حقيقة الأمر فإنها قد تصبح بارعة فيها، وتقوم النسوة اللواتي يعرفنها[1] بحجب نقاط ضعفها والترويج لأي خصال مقبولة قد تتوافر لديها، بحيث تقدم هذه الخصال في أفضل ضوء ممكن، فكيف يمكن لأي أحد أن يسيء الظن بها، وليس هناك سبب يدعو للشك في أنها على خلاف ما تبدو عليه، ولكنك عندما تمعن النظر بشكل أكبر ليتبين ما إذا كان هذا كله صحيحاً، فإنني على يقين من أن بمقدورك أن ينتهي بك الأمر إلى خيبة الأمل فحسب».

تنهد على نحو مثقل بالاحتمالات، وعندما سأله جينجي، الذي توصل فيما يبدو إلى بعض من هذه الاستنتاجات ذاتها، باسماً: «لكن هل تفترض أن أية فتاة يمكن ألا يكون لها شيء يزكيها؟».

«من الذي سيكون من الحماقة بحيث توقع به فتاة لا أمل فيها على ذلك النحو؟ إنني على يقين من أن الفتاة الفاشلة فشلاً مطلقاً والتي ليس لديها شيء يزكيها والفتاة التي تبلغ من السمو ما يجعلها أعجوبة هما نادرتان بالقدر نفسه. عندما تكون فتاة من منبت رفيع[2]، الجميع يدللها[3]، ويظل الكثير مما يتعلق بها محتجباً، بحيث أنها تبدو بصورة طبيعية مثالاً

---

(1) وصيفاتها.

(2) شيناتا كاكو «مولودة في مجتمع رفيع الشأن». يشمل مفهوم «شينا» كلاً من المرتبة الرسمية والتميز الاجتماعي العام للعائلة.

(3) كما في إشارة سابقة، فإن الوصيفات المحيطات بها، وهن وصيفات موهوبات، يكرسن أنفسهن لصقل أي مقدرة

للكمـال. واللواتـي ينتمين إلى المنبت الوسـط[1] هن اللواتي وسـطهن يمكنك أن ترى ما الذي يتعين على الفتاة أن تقدمه حقاً، وتجد السبل لتمييز إحداهن من الأخريات. وأما فيما يتعلق بمتواضعات المنبت[2] فهن لا أهمية لهن».

أثار إلمامه الجلي بالموضوع الذي يتحدَّث عنه فضول جينجي: «إنني أتساءل عن هذه المستويات التي حددتها، على الرغم من ذلك، المستوى الرفيع، الوسط، المتواضع، كيف يمكنك أن تحدد من ينتمي إلى ماذا؟ فالبعض يولد رفيع القدر، ومع ذلك يسـقط ويغوص ليغدو نكرة، بينما يعلو شـأن سـادة مهذبين من العامة[3] ليصبحوا نبـلاء بارزين، ويفاخروا بالنحـو الـذي رفعوا به شـأن عائلاتهم، ويصروا علـى ألا يتنازلوا عن أي شـيء لأي أحد. كيف يمكنك الفصل بين هذين الاثنين؟».

عندئذ أقبل رئيس إسطبلات الميسرة ومساعد فوجيوارا لشؤون الاحتفالات للمشاركة فـي هذه الخلـوة، فرحب بهمـا النقيب أمين السـر باعتبارهما عاشـقين مغامريـن كما هما متحدثـان عظيمان، وانغمسـا مباشـرة في مناقشـة محتدمة حـول كيفية التمييز بين النسـاء اللواتي ينتمين إلى مسـتوى بعينه والنسـاء اللواتي ينتمين إلى مسـتوى آخر، وسـردا بعض القصص المدهشة.

بادر النقيب أمين السر إلى القول: «فيما يتعلق بموضوع أولئك اللواتي يرتفعن عالياً من دون أن يولدن عند ذلك المسـتوى، فإن المجتمع لا يسـاوره الشعور نفسه بالفعل حيالهن علـى الرغم من مرتبتهن، بينمـا يتعلق بمن كن في مرتبة رفيعة ولكنهن يفتقرن إلى ما يكفل لهن الاستمرار في هذه المكانة، فإن الزمن قد أدار لهن ظهره وتردين إلى أن لم يعد لديهن شـيء غير كبريائهـن، وهن يعانين من بـؤس لا يعرف الانتهاء. وأحسـب أن المجموعتين كلتيهما تنتميان إلى الدرجة الوسطى.

تتمتع بها.

(1) ناكانو شينا، تشمل هذه المرتبة بصفة خاصة بنات الوصفاء الخصوصيين أو حكام الأقاليم، أي بنات السادة المنتمين إلى المرتبتين الرابعة والخامسة.

(2) شينا نو كيزامي تو إيو كيفا من المفترض أن هذه المرتبة تشمل بنات رجال في مراتب دنيا من الهيكل التراتبي البيروقراطي الرسمي. ومثل هاته النسوة كن أدنى شأناً من أن يلتفت إليهن شبان كهؤلاء.

(3) ناوبيتو، سادة من المرتبة الرابعة أو الخامسة.

حتى في وسط من يعرفون بالحكام، الذين تتمثل وظيفتهم في إدارة المقاطعات، والذين تعد درجتهم بالتأكيد ثابتة، فإن هناك بالفعل مستويات مختلفة، وهذه الأيام يمكنك أن تجد أعداداً كبيرة منخرطة في صفوفهم. إن ما يبهج العين، أكثر من أي نبيل كبير عادي، هو رجل ينتمي إلى المرتبة الرابعة، مؤهل لأن يكون خبيراً[1] ويحظى بسمعة طيبة، راسخة، من أصل لا تنقصه الجدارة، يوحي سلوكه بالمرونة والثقة بالنفس. ويتباهى بيته بضروب الفخامة وتربى بناته كلهن، اللواتي يغمرهن الحب والثراء المتألق، على نحو راق، والفتيات من هذه النوعية يتميزن في خدمة البلاط على نحو يفوق ما يتخيلونه».

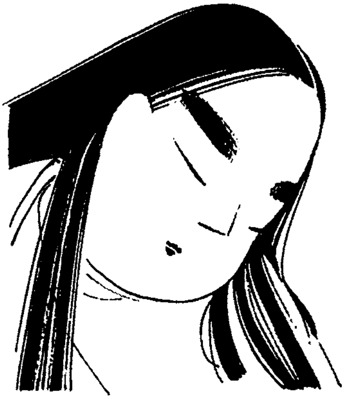
قال جينجي مبتسماً: «أحسب أن جوهر الأمر هو وضع العين على أب يتمتع بالإمكانيات»، فقال النقيب أمين السر متذمراً: «لست أدري كيف يمكنك قول ذلك، فهو لا يبدو من طبعك على الإطلاق!».

أشار رئيس الإسطبلات قائلاً: «عندما تطابق مرتبة فتاة عند الميلاد مع سمعتها، وحينما تنال احترام الجميع، ولكنها في شخصها وسلوكها تظل مخيبة للآمال، فمن الجلي أنك لا تملك إلا التساؤل في حزن عن السر في أنها أصبحت على تلك الحال. وبالطبع، عندما تطابق خصالها الشخصية مكانتها، فإنك تعتبره أمراً مسلماً به ولا تندهش. أما الأسمى من بين ذوات المستوى العالي فهن يتجاوزن إدراكي، ويجدر بي ألا أقول شيئاً عنهن.

على أية حال، فإن الفتاة الفاتنة حقاً هي تلك التي لم يسمع أحد بها قط، الفتاة الجذابة على نحو غريب التي تعيش منفردة، محتجبة في دار عتيقة متداعية ترامت نباتاتها وأعشابها، ولأنك لم تتوقع أية فتاة مثلها من قبل قط، فإنك تتساءل ما عساها تفعل هناك، ولا تملك إلا أن ترغب في معرفتها بصورة أفضل. أبوها رجل مسن، بدين، بائس، ومحيا أخيها ليس بالذي يجعل المرء ينحاز إليه مقدماً كذلك، وها هي هناك في مسكن النساء، بعيدة في الخلف، حيث لا تتوقع شيئاً غير مألوف، معتصمة بالكبرياء، روحها مليئة بالحيوية، وتضفي لمسة من التميز على كل ما تقوم به، وحتى إذا كانت لها حدود في نهاية المطاف فكيف يمكن لمفاجأة كتلك ألا تدخل البهجة على نفس أي إنسان؟ وهي إذا

(1) هيسانجي، رجل من المرتبة الرابعة، إما أن يكون استشارياً في السابق (سانجي) أو مؤهلاً لهذا المنصب الاستشاري (كان هناك ثمانية) هو شخص مميز معين في هذا المنصب لا يعلوه إلا المستشار والوزير.

قورنت بفتاة خالية من العيوب حقاً، فإنها بالطبع لا تعلو إلى مستواها، ولكن بالنسبة لما هـي عليه فإن من المتعـذر تركها تمضـي بعيداً». ألقى جينجي نظرة سـريعة على مسـاعد شـؤون المراسـم، الذي بدا أنه يحمل هذا القول على أنه إشارة إلى أخواته اللواتي يحظين برعاية جيدة، حيث أنه اعتصم بالهدوء.


شعر معقود وراء الأذنين

حـدَّث جينجي نفسـه قائـلاً: «آه، هلـم الآن، إن من النـادر بما فيه الكفاية العثور على فتاة كهذه بين رفيعات المنبت!». لم يكن يرتدي فوق الأثواب البيضاء الناعمة ذات الطبقـات إلا عباءة غير مرتبطة عنـد العنق[1]، وإذا تمـدد هناك في ضوء المصباح، قبالة أحد الأعمدة، فقد بدا وسـيماً للغايـة، بحيـث كان يمكن للمـرء أن يتمنى لـو أنـه امرأة. وبالنسـبة له فـإن الأكثر سـمواً بين ذوات المستوى الرفيع لم تكن تبدو جيدة إلا قليلاً.

واصلـوا الحديـث عـن امـرأة ثم عـن أخرى، إلى أن أشـار رئيـس الإسـطبلات بقوله: «الكثيرات مناسـبات للغاية بالنسـبة لعلاقة غرامية، ولكنك عندما تكون بسـبيلك لاختيار امرأتـك للأبـد، فإنك قد لا تجد بسـهولة ما تنشـده، ومن المحتمل أن يكـون من الصعب بالقـدر ذاته العثور على رجل قدير حقاً يرفع شـأن البلاد عاليـاً في خدمة جلالته، ولكن أياً كان الجهد الذي يقتضيه هذا النوع من المناصب، فإن الأمر يقتضي أكثر من شخص واحد أو اثنيـن لتولـي زمام الحكم، وذلك هو السـبب فـي أن من هم فوق يسـاعدهم من هم في الأسـفل، وهو السر في أن المرؤوسين يطيعون رؤساءهم ويوقرونهم عن طواعية. فكِّر في الشـخص الوحيد الذي لا ثاني له الذي يدير دارك الصغيرة، وعندئذ فإنك سـتدرك كم من الأشياء المهمة يتعين إنجازها على الوجه الصحيح. وحتى إذا سلَّمت بأنها إذا تمتعت بهذه الصفة فإن من المحتم أن تفتقر إلى تلك، وأن عليك أن تأخذ الجيد من السيء، فإن قلائل للغاية هم الذين يمكنهم أن يتدبروا أمورهم بصورة مشرفة، وهكذا فإنني حتى إذا لم أوص

(1) ربما كانت أرديته البيضاء وغير المنشاه تتألف من رداءين وعباءته الرسمية الصيفية (نوشي) ربما كانت خفيفة بما يكفي لكي تكون شفافة تقريباً. ويبدو أنه لم يكن يرتدي ما هو قرين لها عادةً، أي السروال الملموم (ساشي -نوكي).

بمتابعة النساء بلا انتهاء للمقارنة بينهن جميعاً، فإنني لا ألوم الرجل الذي ينطلق للقيام باختياره، والذي ، لكي يساعد نفسه على الوصول إلى قرار، يتطلع حوله قليلاً ليجد امرأة يحبها حقاً، امرأة لا تحتاج إلى أن يبلغها بكيفية القيام بكل شأن من شؤون الحياة. والأمور قد لا تمضي قدماً على الدوام بصورة كاملة، ولكن الرجل الذي لا يستطيع حمل نفسه على التخلي عن امرأة بعد أن تغدو امرأته، يستحق الاحترام، ودأبه هو بالمثل التقدير للمرأة التي يثق بها. وعلى الرغم من ذلك، فإن من الصحيح أن تجربتي مع الأزواج لم تظهر لي أمثلة جديرة بالإعجاب، أو ملهمة بصفة خاصة، وأتمنى، أيها السيدان النبيلان[1]، يا من تنتقيان وتختاران من بين الأرقى أي ذروة من ذُرى الكمال يقتضي الأمر لكسب رضاكما.

طالما أن الفتاة تحظى بقدر كاف من الجمال والشباب، فإنها تتجنب أي شيء قد يسيء إلى سمعتها، وهي حتى عندما تكتب رسالة فإنها تأخذ وقتها في انتقاء كلماتها، وتكتب بحبر شاحب بحيث تترككما مذهولين وتواقين إلى شيء أكثر وضوحاً، ثم عندما تقتربان منهما بما فيه الكفاية ليتناهى إليكما صوتها الخافت، فإنها تتحدَّث بصوت هامس لا يكاد يُسمع، وتبرهن على أنها خبيرة في إبقاء نفسها محتجبة بعيداً. وإذا أخذتما هذا على أنها غوايات أنثوية عذبة، فإن العاطفة ستمضي بكما إلى الوقوع في يدها، وعندئذ فإنها تتظاهر بالخجل. وهذا، فيما أظن، هو أسوأ عيب يمكن أن يكون في فتاة.

الواجب الرئيسي للزوجة هو أن تعنى بزوجها، وهكذا فإنه يبدو لي أن المرء يمكن أن يكون بخير حال، من دون أن تكون الزوجة بالغة الحساسية، متفانية دوماً بشأن أقل الأشياء شأناً وبعيدة عن التسلية. ومن ناحية أخرى، فإنه مع ربة بيت منكبة على العمل ورثة الثياب تبقي خصلات شعرها الجانبية مشدودة وراء أذنيها، ولا تقوم بشيء إلا بالعمل المنزلي، فإن الزوج الذي يغادر الدار في الصبح ويعود إليها ليلاً، والذي لا يمكنه التوجه إلى الغرباء لتجاذب أطراف الحديث حول كيف يمضي فلان الفلاني في مسيرته علناً أو سراً أو حول أي شيء، طيب أو سيء، وربما يكون قد تصادف أن لفت نظره، وهو يميل إلى أن يتوقع بعض التفهم من المرأة التي تقاسمه حياته، ويجد، بدلاً من ذلك، عندما يحس بالميل إلى أن يناقش معها الأمور التي جعلته يضحك أو يبكي أو ربما يتقيد بالغضب من أجل الحق،

(1) جينجي وتو نو تشوجي النقيب أمين السر.

وهي تقتضي الآن منصرفاً لها، أن كل ما يستطيع القيام به هو أن يشيح بناظريه، وأنه عندما يند عنه ما يوحي بما يعتمل في داخله من مرح أو يتنهد تنهيدة حزينة، فإنها تكتفي بالنظر إليه شاردة وتسأله: «ما الأمر يا عزيزي؟»، كيف يمكنه ألا يتمنى أن يكون في مكان آخر؟ ربما لم تكن فكرة سيئة أن يتخذ المرء لنفسه زوجة طفولية تماماً، قابلة للتشكيل، وتجعل خصالها جيدة بقدر ما تستطيع. وهي قد لا تحظى بثقتك كاملة، ولكنك ستعرف أن تدريبك لها قد أحدَّث فرقاً. ومن المؤكد أنها طالما كانت بالفعل إلى جوارك، فإن بوسعك أن تترك أساليبها الجميلة تقنعك بأن تضرب صفحاً عن عنفوانها، ولكنك ستظل تشعر بالأسى لافتقارها للكفاءة، إذا حدث، عندما تكون بعيداً، أن تبعث إليها برسالة حول شيء عملي أو طريف يحتاج إلى إنجاز، وتوضح إجابتها أنها لا تعرف شيئاً عنه، ولا تفهم شيئاً أيضاً. وفي بعض الأحيان، فإن الزوجة ليست رقيقة ولا ودودة بصفة خاصة وتتصرف بصورة جيدة عندما تحتاجها بالفعل». لم تؤد مناقشة رئيس الإسطبلات المتكاملة لموضوعه إلى نتيجة حاسمة باستثناء تنهيدة عميقة.

واصل حديثه قائلاً: «أحسب، في نهاية المطاف، أنه ينبغي أن يستقر المرء على امرأة يعتمد عليها بصورة كاملة، هادئة، ومستقرة، طالما أنه ليس فيها ما يعيبها بصفة خاصة، ولا يهتم أبداً بالمكانة ولا بالمظهر. وإذا كان لها بجانب ذلك أي فطنة أو إنجاز، فما عليك إلا أن تكون ممتناً، وإذا كانت تفتقر إلى أي شيء بعينه، فلا تسع إلى جعلها تكتسبه، وبشرط أن تكون جديرة بالثقة، ومتسامحة بصورة متميزة، فإنها ستكتشف جاذبية أنثوية بصورة سطحية بطريقتها الخاصة.

«وقد تتصرف المرأة بتواضع جميل، وتتحمل أموراً تستحق اللوم، كأنها لم تلحظها، وباختصار فإنها تعمد إلى الانعزال المتكلف، إلى أن تجد شيئاً أكثر مما تتحمله في نهاية المطاف، وعندئذ تنطلق لتخفي نفسها في قرية جبلية بعيدة، أو عند شاطىء مهجور، مخلفة وراءها رسالة صارخة، قصيدة تمزق الفؤاد وتذكاراً ليتم تذكرها به. وقد اعتادت الوصيفات على قراءة قصص من هذا النوع لي عندما كنت صبياً، وقد ضايقتني هذه القصص كثيراً، في حقيقة الأمر، كانت مأساوية للغاية لحدٍّ أنها كانت تبكيني، ولكن الآن يبدو هذا الأمر متسماً بالحماقة وعلى شيء من الافتعال، فلنقل إن بطلتنا لها مظلمة قانونية، فإنها تظل

متخلية عن زوج لا شك في أنه مولع بها، وتهرب بعيداً كأنها لا تعرف شيئاً عن مشاعره، وكل ما تكسبه من مضايقته واختبار عاطفته هو ندم يدوم طول العمر. وهو شيء أحمق.

«يواصل الناس إبلاغها بإعجاب كم كانت محقة في التصرف على هذا النحو، إلى أن يتم دفع الأمر قدماً، وفجأة تغدو راهبة. وعندما تقرر الإقدام على ذلك، فإنها تكون هادئة تماماً، ولا تستطيع تخيل النظر إلى الوراء نحو حياتها القديمة. يقول كل من يعرفونها عندما يجيؤون لزيارتها: آه يا عزيزتي، إنني آسف فلم تكن لديَّ فكرة عن مدى عمق شعورك نحو هذا الأمر. وفي غضون ذلك ينفجر الزوج الذي لم تكرهه قط حقاً باكياً، عندما يعلم بهذا كله، الأمر الذي يدفع العاملين في دارها ووصيفاتها الموغلات في العمر إلى القول: ها هو زوجك يهتم بك في نهاية المطاف، والآن انظري ما الذي جنته يداك! وهي تضع يدها على شعرها عند جبينها، وتشعر باليأس عندما تجده قصيراً للغاية، فتفقد سيطرتها على نفسها، وتبدأ في البكاء من جديد، وتتداعى مراراً في كل مرة تجد سبباً يدعوها للشعور بالندم، إلى أن يشعر بوذا نفسه بخيبة الأمل حيالها. وبقدر ما أفهم، فإن الاعتصام في تردد بالدين ملاذاً يحتمل بصورة أكبر أن يجعلك تضل سبيلك في تناسخ شرير من احتمال البقاء في مستنقع هذه الدنيا.

«لنفترض أن هذين الزوجين لديهما كاريزما قوية بما فيه الكفاية بينهما بحيث أن الزوج يجد زوجته ويستردها قبل أن تجعل من نفسها راهبة، فإنهما عندما يعودان معاً، من المحتم أن يساور القلق كلاً منهما حول ما يعتزم الآخر القيام به، وذلك على الرغم من العاطفة المتجددة التي تجيء من عيشهما معاً كل هذا الوقت الطويل. بجانب ذلك، فإن من السخف بالنسبة للزوجة أن تتشاجر مع الزوج الذي تزيغ عيناه. وحتى إذا كان كذلك، فإن بمقدورها على الدوام أن تثق بأنه سيظل زوجها طالما أن شعوره الأول نحوها لا يزال يعني أي شيء بالنسبة له، بينما انفجار مشاعرها على ذاك النحو قد يبعده عنها للأبد. وينبغي على الدوام أن تكون حصيفة، وأن تلمِّح عندما يكون لديها شعور يدفعها للغضب منه، بأنها تعلم بجلية الأمر، وتطرح القضية برفق، وفي وقت كان يمكنها أن تتشاجر معه بدلاً من ذلك، لأن ذلك من شأنه أن يجعله يقدرها أكثر فحسب. وفي معظم الأحيان فإن موقف الزوجة هو الذي يساعد على أن تنقضي خيالات الزوج، قد يكون رقيقاً منها أن

تكون متسامحة تماماً وأن تدعه يفلت بكل شيء، ولكن ذلك من شأنه فحسب أن يجعلها تبدو غير جديرة بالاحترام. وكما يقولون، فإنه أمر سيء للغاية أن ينطلق بعيداً قارب غير مشدود للمرسى[1] ألا توافقون على ذلك؟».

أوما النقيب أمين السر موافقاً: «من المحتم أن الأمر سيكون صعباً بصفة خاصة عندما يتشكك أحد الزوجين في الآخر، وهو كان لولا ذلك سيحبه ويؤثره. ولكن على الرغم من أن الطرف الجريح، الذي لا لوم عليه، قد يكون على استعداد لأن يضرب صفحاً عن الأمر، فإن الأمور قد لا تمضي في يسر. وعلى أية حال فإن أفضل علاج هو الصبر عندما يطرأ شيء ما بين الزوجين». ساوره الشعور بأن هذه الملاحظة تنطبق جيداً بصفة خاصة على أخته[2]، ومن هنا فإنه شعر في آن بالضيق وخيبة الأمل، لأن جينجي بدأ يغفو، ولم يكن لديه ما يضيفه في هذا الصدد.

بعد أن عين رئيس الإسطبلات نفسه حكماً في هذه الأمور، واصل إبداء إلمامه بها، فيما واصل النقيب أمين السر الذي كان تواقاً لإنهاء حديثه مقاطعته متعجلاً.

قال رئيس الإسطبلات منغماً حديثه: «فكروا في هذا كله من منظور الفنون. خذوا، على سبيل المثال، النجار الذي يبدع ما يطيب له من الخشب، فهو قد ينتج لوقت قصير أشياء طريفة، من دون اللجوء إلى طراز محدد، ومن أجل الاستخدامات العابرة والبسيطة فقط، قطعاً ساذجة على نحو لافت تواصل التناغم على نحو جميل مع الطرز السائدة بحيث تجتذب الأنظار بصورة بهيجة، ومع ذلك فإن المرء يظل يميز بينه وبين المعلم الحقيقي الذي يعمل بنجاح في إطار الأشكال المعترف بها، منتجاً قطع أثاث تحظى بالتقدير على وجه الدقة لأنها في القالب الصحيح».

«أو خذوا مثالاً آخر. بحلول الوقت الذي يعتقد فيه أن فناناً بارعاً في التصوير يُعد مؤهلاً لتصميم عمل كامل، فإنه ليس من اليسير التحديد عبر نظرة واحدة ما إذا كان أفضل من فنان آخر أم أسوأ. ومن شأن تجسيدات مدهشة لما لا يمكن العين أن تراه ـ أشياء من قبيل جبل هوري، أو وحوش بحرية هادرة وسط بحار عاصفة، أو وحوش الصين الضارية، أو

(1) صورة من قصيدة عن الزواج من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 3564).

(2) أوي، زوجة جينجي.

وجـوه الهـولات التي لا تُرى[1] - أن تدهش الناظر حقـاً، لأنها مقنعة على الرغم من أنها لا تشبه شيئاً حقيقياً، ومع ذلك فإن الجبال والغدران العادية تماماً، والأشكال اليومية للدور، التـي تبدو جميعها كمـا يعرفها المرء تماماً والمنفذة كأشـكال مسـالمة ومرحبة فتطلق في تناغم مع التلال المنحدرة في نعومة، كثيفة الأشجار والملتفة في نطاق بري، وفي المقدمة حديقة تحفها الأسوار النباتية، بموضوعات من هذه النوعية، وهناك الكثير منها، فإن الفنان الأعظـم ينجـح بصورة متألقة فـي التصوير في الأسـلوب الفني، بينما الفنـان الأقل مقدرة يمنى بالإخفاق.

«وبالطريقة نفسها فإن الخط الذي بلا عمق قد يقدم ضربة فرشاة ممتدة من هنا وهناك، وبصفة عامة يجتذب اهتمام المرء، إلى أن يبدو من النظرة الأولى بارعاً على نحو مؤثر في النفـس، ولكـن على الرغم من أن الكتابة البديعة حقاً قد تفتقر إلى الجاذبية السـطحية، فإن نظـرة ثانية إلى الاثنين معاً سـتوضح إلى أي مدى هي أقرب إلى مـا ينبغي أن تكون الكتابة عليه. تلك هي المسـيرة الحقيقية للأمور في كل ميدان من ميادين الجهد مهما كان صغيراً أو محـدوداً. وهكذا كما تـرون فإنني لا أثق بالإفصاح الجلي عـن العاطفة، الذي قد تعمد إليـه المـرأة في بعض الأحيان. ولسـوف أبلغكم كيف تعلمت هـذا، وذلك على الرغم من أنني أخشى أن القصة غير محتشمة بعض الشيء».

دنـا من جينجي، الذي أفاق، بينما جلس النقيب أمين السـر في مواجهته بصورة تعكس توقيراً له، وقد أسـند ذقنه على يده، ربما بدا رئيس الإسـطبلات واعظاً يستعد للكشف عن حقيقة الوجود، وهو الأمر الذي كان بالتأكيد طريفاً، ولكن بحلول ذلك الوقت كان هؤلاء الشبان متلهفين للمشاركة في أكثر لحظات حياتهم حميمية.

اسـتهل حديثه: «منذ وقت طويل، عندما كنت في مقتبل العمر، كانت هناك إنسانة تعني لي الكثير، ولـم تكن حسـناء باهرة الجمال، كما قلت لكم، ولما كنت شـاباً يافعاً وأميل إلى الاستكشاف، فلم تكن لديَّ النية للبقاء معها للأبد، لأنها على الرغم من كونها مقربة مني، إلا أنني أحسست بأنني يمكنني اختيار من هي أفضل منها، وهكذا فإنني بين الحين والآخر

(1) مؤثرات من الأسلوب الصيني في الرسم. هوري ب(نجلاي في التقاليد الصينية) هي جزيرة رائعة كانت تقطنها كائنات خالدة.

عمدت إلى التسرية عن نفسي في مكان آخر. وقد دفعها هذا إلى ذروة الغيرة التي لم أكن أرتاح لها على الإطلاق، وتمنيت لو أنها ستتوقف عنها فحسب، وتكون أكثر صبراً، ولكن بدلاً من ذلك، فإن نوبات شكها العنيفة أصبحت مصدر ضيق بالغ إلى حد أنني غالباً ما وجدت نفسي أتساءل لماذا كانت حريصة على الاحتفاظ بي بهذه الشدة، حيث أنني لم أكن حقاً بمثابة جائزة ثمينة. وعلى الرغم من ذلك أحسست بالحزن عليها، وبدأت في التعديل من سلوكي في نهاية المطاف».

«كان من طبعها أن تصب كل موهبتها في أن تنجز من أجل زوجها أشياء كانت تتجاوز قدرتها حقاً وأن تكون حذرة فيما يتعلق بظهور عيوبها بما يسيء إليها، ومن هنا فقد اعتنت بي أشد العناية، بحيث لا تتيح لي أبداً مبرراً لعدم الرضا عنها. وقد كنت اعتقدت أنها شديدة العناد، ولكنها كانت تقوم بكل ما أطلبه وتلاطفني كثيراً، وخوفاً من أن يضايقني افتقارها للحسن الباهر، فقد جعلت نفسها حسنة الطلعة بقدر ما تستطيع، وحجبت نفسها على استحياء عن الغرباء، خوفاً من إحراجي، وفي غضون ذلك، ظلت منتبهة لمطالبي للغاية، فيما واصلنا الإقامة معاً، بحيث أنني وجدت نفسي مسروراً منها كثيراً، باستثناء هذا العيب فيها الذي لم يكن بوسعها التحكم فيه».

«ثم حدَّثت نفسي بأنها تبدو حريصة أشد الحرص على إرضائي. ولا بد لي أن ألقنها درساً، لسوف أهددها، وأعالجها قليلاً من هذا العيب، وأقلل من سلاطة لسانها. وافترضت أنها ما دامت على هذا القدر الكبير من الإخلاص، فإنها سوف تصلح من سلوكها إذا تظاهرت بأنني قد ضقت بسلوكها ذرعاً، وأنني تواق لهجرها، فتظاهرت عامداً بالبرود الشديد، وعندما استبد بها الغضب، ومضت توجه لي الاتهامات، على نحو ما تفعل دائماً، قلت: «إذا واصلت التصرف على هذا النحو، فلا تلقي بالاً إلى قوة الصلة التي تربطنا، وسوف أهجرك ولن أعود مجدداً أبداً. وإذا أردت التخلص مني، فعليك بالتمسك بهذه الشكوك السخيفة التي تساورك. أما إذا أردت أن أبقى معك للأبد. فعليك بالصبر واحتمال الأمور التي قد تضايقك، وإذا غيرت موقفك، فسوف أعجب بك أشد الإعجاب، وعندما تستقر أوضاعي على الوجه الصحيح، ويكون لي بعض الثقل في الدنيا، فلن تكون لك

منافسة»[1].

«سـعدت بهـذه العظـة التي ألقيتهـا، ولكنني عندما بـدأت في تفصيل القـول بمزيد من الجسـارة، ابتسـمت ابتسـامة مريرة، وواتتها الوقاحة لتقول لي: (لست أهتم أدنى الاهتمام بمسـايرتك في السـنوات التي ليسـت لك خلالها مكانة أو الانتظار إلى أن تصبح شـخصاً ذا حيثيـة. لا، لسـت أكترث بهذا على الإطلاق، ولكننـي أكره فكرة إمضاء عام بعد آخر في احتمال قسـوتك على أمل عبثي يتمثل في أن تقوم اعوجاجك، وهكذا فإن أوان الفراق قد آن).

عندئذ اسـتبد بيَّ الغضب حقاً، وبدأت في قول أشـياء فظيعة لم يكن بمقدورها تقبلها. وبـدلاً مـن ذلـك اجتذبت أحـد أصابعـي نحوها وعضتـه، وعندئـذ هيمنت علـيَّ نوبة من الغضب، وصحت بصوت راعد: (لا أسـتطيع الظهـور في المجتمع على هذا النحو! بيئتي ومرتبتـي التي يبـدو أنك لا تقدرينها كثيـراً، كيف تتوقعين مني على وجه الدقة، يا سـيدتي الرائعة، أن أبقي رأسي مرفوعاً على الإطلاق؟ بقدر ما أستطيع تبينه، فإن كل ما بقي لي هو أن أغادر الدنيا!) وهلم جرا.

واصلت الصياح: حسناً للغاية، اعتباراً من اليوم انتهى أمرنا معاً، شرعت بالمغادرة، وقد التوى إصبعي الجريح. قلت:

(أصابع ملوية لتعد المرات التي كنا فيها معاً

تظهر أن غضبك هذا ليس هو الأول[2]

بالكاد يمكنك ضبط أعصابك معي!)

فانخرطت في البكاء ودمدمت:

(تتحدَّث عن غضبي بينما في أعمق خواطري أحصي نوبات غضبك

أعتقد أنني هذه المرة سأنزع للمرة الأخيرة يدي من يديك).

خضـت وإياها شـجاراً محتدمـاً، وعلى الرغم من أننـي لم أقصد بالفعـل هجرها، فقد

(1) «سأعترف بك زوجة لي».

(2) في اليابان يحني المرء أصابعه لكي يعد. وهذه القصيدة والرد عليها يعتمدان على العديد من التلاعبات بالكلام.

مضيت أتجول هنا وهناك أياماً عديدة من دون أن أرسل إليها سطراً. ولم أدرك إلا في وقت متأخر من إحدى الليالي التي تجمد فيها المطر على نحو بائس، بعد تجربة عامة استعداداً لمهرجان كامو الخاص[1]، فيما كنا جميعاً نغادر القصر، أنني ليست لي دار أتوجه إليها إلا دارها، ولم ترق لي على الإطلاق فكرة قضاء الليل في القصر، وكنت أعرف كم يمكن أن تكون باردة صحبة امرأة متكلفة، وهكذا انطلقت إليها، على سبيل إلقاء نظرة عليها فحسب لتبين حقيقة مشاعرها، وتبديد الجليد وقرض أظافري من فرط الشعور بالحرج، ولكنني كنت لا أزال أفترض أنها في ليلة كهذه سترحب بي في نهاية المطاف. كان مصباحها خافت الضوء مقلوباً إلى جهة الحائط، وكان ثمة ثوب سميك مريح، ترك ليكتسب الدفء على هيكل مبخرة كبيرة معلقة بالسلاسل، وكل الستائر التي تتوقع أن تكون مرفوعة كانت كذلك، وبدا كل شيء كأنها تتوقع عودتي في هذه الليلة. حدَّثت نفسي: حسناً، حسناً، وداخلني السرور كثيراً إلى أن لاحظت أنها هي نفسها لم تكن هناك. ولم أر إلا خادماتها المألوفات فحسب، اللاتي أجبن بأنها قد انتقلت تحت جنح الظلام إلى دار أبويها. ولم تكن قد تركت قصيدة مؤثرة، ولا كلمة قصيرة مشجعة، ولا أي دليل كائناً ما كان على إمعان التفكير أو وضع الأمور موضع الاعتبار. فأحسست بالخذلان، وعلى الرغم من أنني لم أستطع أن أصدق حقاً أن شكواها المجردة من الرحمة ستجعلني أكرهها فحسب، إلا أنني أحسست بالضيق بما يكفي لجعل هذه الفكرة تساورني. ومع ذلك فإن الرداء الذي تركته لأرتديه كان أجمل في إبداعه من ذي قبل، وألوانه أكثر إشراقاً، وحتى بعد أن اندفعت من الدار كالعاصفة، فقد ظلت تقوم على احتياجاتي.

على الرغم من ذلك، فإنني لم أستطع تصور أنها جادة في التخلي عني، وبذلت قصارى جهدي لمصالحتها، ولكنها بينما لم ترفضني تماماً، فإنها أرعبتني باحتجاجها وإرسالها ردوداً رصينة الصياغة، ووصل موقفها إلى حد القول: (لست أستطيع الاستمرار معك على نحو ما كنت، ولن أعود إليك، إلا إذا أصلحت من شأنك). وكنت لا أزال غير مصدق أنها ستهجرني، ولكي ألقنها درساً لم أقل شيئاً عن رغبتي في التغير، وبدلاً من ذلك اصطنعت مظهر الاستقلال العنيد، وقد آلمها ذلك إلى حد أنها قضت نحبها. وقد علّمني ذلك أن هذه

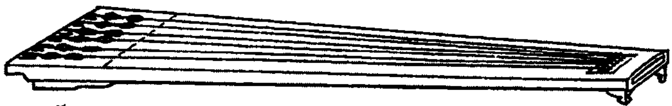
(1) كامو نو رينجي ماتسوري، في اليوم الأخير من الطير في الشهر الحادي عشر.كان موسيقيو القصر يعزفون الموسيقى من أجل الربة، وكانت جلسات التدريب تعقد في القصر.

الأمور ليست مزحة.

إنني أتذكرها باعتبارها مثالاً للمرأة التي يمكن الاعتماد عليها، وكانت جديرة بمناقشة أي شيء معها، سواء أكان خاطراً عابراً أم شيئاً مهماً، وفي صنع الملابس كان يمكن أن تكون السيدة تاتسوتا، وفي الحياكة كانت في مرتبة تاناباتا[1]، وجعلتها مهارتها فيهما كليهما أعجوبة.

استغرق رئيس الاسطبلات في التذكر.

أشار النقيب أمين السر لكي يخفف من جو الحوار بقوله: «كان حرياً بي أن أقبل بإخلاصها في الحياكة، وليس لديَّ شك في أن صباغتها الرائعة كانت جائزة حقيقية، فأبسط براعم الخريف ووريقاته تُعدُّ كئيبة وكالحة عندما لا تناسب ألوانها هذا الفصل من السنة، وذلك هو السبب في أن اختيار زوجة يعد أمراً بالغ الصعوبة والمشقة».



آلة الواجون الموسيقية

واصل رئيس الإسطبلات حديثه: «على أية حال، كنت أزور في الوقت نفسه امرأة موهوبة للغاية، كانت تنظم القصائد بفطنة ورهافة أصيلتين، وتكتب بخط منساب جميل، ولها لمسة جميلة في العزف على الكوتو، ولها أسلوب بديع في كل ما تقوم به، ولما لم يكن هناك ما يعيب مظهرها أيضاً، فقد احتفظت بلومي لنفسي لأتعايش معه، وواصلت سراً رؤية هذه المرأة إلى أن أصبحت متعلقاً بها تماماً. وبعد أن ماتت المرأة التي حدَّثتكم عنها، أحسست بالطبع بالحزن البالغ، ولكن الآن تركت كل ذلك ورائي، وصرت ألتقي بالمرأة الأخرى في غالب الأوقات، إلى أن لاحظت على نحو ما لم ألحظ من قبل أنها تميل إلى أن تكون مغرورة ولعوباً، وبالتالي فإنها لم تكن من منظوري جديرةً بالثقة، وبعد ذلك تراجعت زياراتي لها، وفي غضون ذلك اكتشفت أنها كان لها حبيب آخر تقابله سراً.

(1) تاتسوتا هايمي. ارتبطت «سيدة تاتسوتا» بجمال أوراق الخريف الملونة، ومن ثم فقد كانت الربة الراعية للصباغة. وكانت تاناباتا، النجمة النساجة التي تلتقي نجم راعي القطيع، محبوبها السماوي، مرة كل عام في ليلة مهرجان تاناباتا (اليوم السابع من الشهر السابع) راعية للحياكة من بين أمور أخرى.

ذات ليلة أنارها القمر على نحو جميل، كنت بسبيلي إلى الانصراف من القصر، عندما انضم إليَّ في عربتي أحد الوصفاء القائمين على خدمة الإمبراطور. وكنت أنا نفسي أعتزم قضاء الليلة في دار المستشار الكبير[1]، ولكن رفيق الطريق أصر على أنه معني بدار تنتظره فيها إحداهن في ذلك المساء عينه، وكان المكان في الطريق ذاته الذي تقيم هي به. كان بمقدورك رؤية البحيرة من خلال فتحة في سور الحديقة، وبدا من العار المضي قدماً وتجاوز دار آثرها حتى القمر[2]، ولذا ترجلت من العربة بدوري.

لا بد أنه قد رتب الأمر كله معها من قبل، لأنه كان منفعلاً عندما جلس في شرفة الرواق، أحسب أنها كانت كذلك، قرب البوابة. ومضى لبعض الوقت يتأمل القمر. كانت زهور الأقحوان قد اتخذت مظهرها الخريفي على نحو جميل[3]، ومضت وريقات الخريف تتساقط قربنا على أجنحة الريح، وقد بدت جميلة للغاية. أخرج ناياً من إحدى طيات ثوبه، وشرع يعزف ويغني مقطوعات من «لسوف تنال الظل»[4] وهلم جراً، بينما صاحبته على نحو يوحي بالخبرة من خلال العزف على «واجون» كانت قد أعدته ودوزنته. لم يكونا سيئين على الإطلاق. تردد مقام «ريتشي» الذي عزفته بنعومة امرأة من وراء ستائر حاجبة[5] كأنه ذروة أسلوب الأداء وكان التأثير في سنا القمر المتألق مبهجاً حقاً.

انتقل رفيق الطريق المبتهج حتى وصل إلى ستائرها الحاجبة، وداعبها بقوله: (لا يبدو أن آثار أقدام قد قلبت الوريقات الساقطة في حديقتك)[6]، ثم التقط زهرة أقحوان.

(مع كل جمال دار مفعمة بالموسيقى وقمر جميل

هل عزفت بنجاح للإيقاع بذلك الرجل القاسي)؟

---

(1) ربما كان المقصود أباه.

(2) القمر منعكس في بحيرة الحديقة.

(3) كانت زهور الأقحوان التي ذوت بفعل الصقيع تحظى بتقدير كبير.

(4) أغنية سايبارا شعبية: «لا بد لك من الوقوف عند ربيع أسوكاي، فلسوف تنال الظل، والماء بارد، والعين لا تقع إلا على الأفضل..». ويلمح المغني إلى أنه يأمل في قضاء الليل هناك.

(5) تنسدل الستائر بين غرفتها والشرفة. وآلة الواجون الموسيقية (الكوتو الياباني) لها ستة أوتار، ومقام ريتشي هو مقام «صغير» للغاية في الإحساس.

(6) «يا إلهي، يبدو أنك وحيدة تماماً هذا المساء».

ما كنت لأحسب أبداً أنك تفعلين ذلك! واصلي العزف على الرغم من هذا. لا ينبغي أن تكوني خجولةً الآن ولديك جمهور يتوق إلى المزيد.

على كل هذه الثرثرة المجردة من الحياء ردت بمكر:

(ليست لديَّ كلمات أعزفها لأبقي إلى جانبي موسيقى ناي

تنضم بمثل هذه التناغمات إلى الريح البرية السوَّاحة)[1]

لم تدر بأي مظهر بعيد عن الذوق الرفيع كانت تظهر فعزفت (سونوكوتو) من مقام «بانشيكي» واصلت العزف بأفضل أسلوب حديث، وعلى نحو جميل أيضاً، ولكنني كنت قد نفرت منها تماماً فأساليب الاستدراج التي تتبعها الوصيفة، التي تلتقيها مراراً، قد تكون لها جاذبيتها طالما أنك تواصل رؤيتها ولكنك عندما تزور امرأة لا تقصد نسيانها حتى لو كنت لا تراها كثيراً فإن أي شيء سخيف أو متسيب فيها يمكن أن ينفرك، وذلك هو السر في أنني جعلت تلك الليلة عذري لإنهاء صلتي بها.

عندما أتأمل هاتين التجربتين، فإنني ألاحظ أنني حتى في ذلك الوقت، عندما كنت في ميعة الصبا، وجدت أن ذلك النوع من الاندفاع غير المبرر غريب ومثير للضيق. ومن المؤكد أنني في المستقبل سيساورني ذلك الشعور بشكل أكبر، وربما لا تسعدان، أنتما أيها السيدان النبيلان، إلا بالهشاشة الرقيقة والمطواعة لقطرة الندى المقدر لها السقوط من الزهرة المقطوفة أو بالبرد الذي يذوب عندما يجمع من الوريقة المتألقة[2]. ولكنني أعرف أنكما ستفهمانني عندما تريان سبع سنوات أخرى تنقضي[3]. أرجو أن تعملا بنصيحتي المتواضعة، وأن تحذرا المرأة المطواعة، سهلة المنال، فأي انزلاق منها يمكن أن يجعل زوجها يبدو أحمق».

---

(1) الريح تشير بتواضع مفعم بالدلال إلى عزفها هي.

(2) هذان التشبيهان كلاهما يشيران إلى شابة متأهبة للذوبان بفعل لمسة واحدة بين أحضان خاطب ودها. و«الزهرة» هي «الهاجي» الشعرية التي تزهر سعفاتها المنحنية أزهاراً حمراء وردية قائمة أو بنفسجية أو بيضاء في الخريف، بينما «الوريقة المتألقة» هي تامازاسا، وهي نوعية من «الخيزران القزم» والإشارة إلى «هاجي» تحيل إلى كوكينشو 223.

(3) فيما يبدو أنه أكبر من جينجي بسبع سنوات. وعلى الرغم من أنه بدأ الحديث إلى تو نو تشوجو، فلا بد أنه بدأ بمخاطبة جينجي الأرفع مرتبة عندما استيقظ هذا الأخير.

أومأ النقيب أمير السـر موافقاً كالمعتاد، بينما ابتسـم جينجي ابتسامة ساخرة، في موافقة باديـة، وأشـار بقولـه: «يبين ممـا قلته أنك فـي المرتين كلتيهمـا جعلت من نفسـك أمثولة بديعة»، وضحكوا جميعاً.

قال النقيب أمين السـر: «سأروي لكم حكاية شخص أحمق[1]. كنت قد بدأت في رؤية امـرأة سـراً، بعد أن بدت لي جديرة حقاً بالعناء، وعلى الرغـم من أنني قد افترضت أن هذه العلاقـة الغراميـة لن تدوم، إلا أنني كلما ازددت معرفة بهـا غدوت أكثر ارتباطاً وتعلقاً بها، ولم يرجع ذلك بالضرورة إلى أنني كنت أزورها كثيراً، ولكنني لم أنسها قط، وامتدت الأمور بيننا طويلاً بما يكفي لكي أدرك أنها وثقت بي. وكانت هناك، بالطبع، أوقات افترضت فيها أنهـا قـد تكون واقعة في قبضة الغيـرة، ولكنها بدا أنها لم تلاحظ شـيئاً، ولم يحدث قط أن أعربت عن شكواها من أنني نادراً ما أزورها، حتى عندما تنقضي أوقات طويلة بين الزيارة والأخـرى، وبدلاً من ذلك تصرفت كأنني كنت أنطلق من دارها كل صباح وأعود إليها كل مسـاء. وقـد تأثرت بهذا كثيـراً إلى حد أنني وعدت ألا أهجرها أبـداً. وكانت يتيمة الأبوين وهـو الأمـر الذي جعل حياتها صعبـة، وكان أمراً محبباً ذلك النحـو الذي من خلاله كانت توضح لي بين الفينة والأخرى أنني بالنسبة لها الرجل المنشود.

ذات مـرة، وكنت لـم أرها لفترة طويلة وجدتها هادئة للغايـة (بحيث أنني اعتبرت ذلك أمراً مسلماً به) أفلحت زوجتي، على نحو ما، كما اكتشفت في وقت لاحق فحسب، في أن تبعـث لهـا ببعض التهديدات المقنعة والمقيتة إلى حد بعيد، ولم أكن قد تخيلت أي شـيء من هذا القبيل قط، وفي أعماقي لم أكن نسـيتها قط، ولكن كان ذلك بالنسـبة لها أمراً صعباً للغايـة، لأنهـا لم تتلـق مني إلا الصمت في فتـرة طويلة للغاية فضلاً عـن ظروفها المؤلمة، وكما ترون، الطفلة التي أنجبتها كذلك، وأخيراً عمدت إلى إرسال قرنفلة إلى....» كان قد أوشك على الانخراط في البكاء.

تساءل جينجي: «ولكن ما الذي قالته في رسالتها؟».

«آه، كما تعلم، لم تقل الكثير حقاً».

---

(1) يختلف الشراح حول ما إذا كان «الأحمق» (شيريمونو) هو تو نو تشوجو أم المرأة.

(نعم حل الخراب بسور الشجيرات الريفي الجبلي ولكن بين الفينة والأخرى

دع حنوك يمس هذه القرنفلة الصغيرة بالندى العذب)[1].

دفعني هذا التذكار إليها مباشـرة، وكانت صريحة معي وواضعة ثقتها بي كعهدها، لكن التعبيـر الذي كسـا محياهـا كان بالغ الحزن، وفيما جلسـت في دارها الفقيـرة محدقة نحو الخارج عبر الحديقة التي كساها الندى وهي تبكي في تناغم مع نحيب الجداجد، ساورني الشعور بأنني حتماً في حكاية قديمة من نوع ما، فرددت:

(ما كان بمقدوري أبداً أن أختار أحد الألوان العديدة المزدهرة في مرح بالغ

إلا المنثورة التي أشعر بأنها الأجمل على الإطلاق)[2].

نحيـت «القرنفلة» جانباً مؤقتاً لكي أسـكن أولاً مشـاعر أمها بـ«ما مـن ذرة غبار» وهلم جراً، فردت في رقة:

(بالنسبة لمنثورة تنظف فراشاً مهجوراً بأكمامها الندية،

فإن الخريف قد أقبل مبكراً للغاية ومعه أحزان عواصفه)[3].

لم أر أي مؤشر يدل على أنها غاضبة مني على نحو جاد، لأنها حتى عندما بكت حجبت في خفر دموعها عني كأفضل ما تستطيع، وجعلني ترددها الكبير في تركي أدرك أنها تعرف أنني قد أهملتها متيقناً أن كل شيء على ما يرام، بحيث أنني بقيت بعيداً مدةً طويلة، اختفت خلالهـا مـن دون أن تتـرك أثراً. ولا يمكن أن تكـون الحياة تعاملها برفـق إذا كانت لا تزال

---

(1) «إنني أنا الريفية الساذجة أعرف أنني لا أستحق إلا بالكاد عطفك، ولكن تذكر على الأقل، في بعض الأحيان، طفلتنا العزيزة. «القرنفلة الصغيرة» (ياماتو ناديشكو) هي تاماكازورا في المستقبل. كوكينشو 695. «آه، لكم أفتقدها، ولشد ما أتوق إلى رؤيتها، قرنفلة ياماتو المزهرة على سور الشجيرات الريفي!».

(2) «إنك الوحيدة التي أهتم بها حقاً». توكوناتسو «المنثورة» و(ناديشكو) «القرنفلة» هما الزهرة ذاتها. ولكن الكلمتين لهما ارتباطات مختلفة، حيث أن ناديشكو تشير إلى الطفلة، بينما تشير توكوناتسو إلى الأم. وهذا في جانب منه تنويع على «توكو» (مرقد العشاق) في كوكينشو 167، من نظم أوشيكوتشي نو ميتسوني، الذي يلمح إليه تو نو تشوجو بعد سطر أو سطرين: «ما من ذرة غبار سأسمح لها بأن تلوث هذا الفراش أيتها المنثورة المزهرة من أول رقاد لنا».

(3) كما المنثورة (السيدة) تبللهما الدموع. وتشير «تنظف فراشاً مهجوراً» إلى «ما من ذرة غبار سأسمح لها» في كوكينشو 167، وهي القصيدة التي استلهمها تو نو تشوجو. وربما كانت عواصف الخريف هي لامبالاة تو نو تشوجو وتهديدات زوجته.

حية. ولو أنها كان قد تشبثت بي بأية طريقة واضحة بينما كنت أحبها لما سمحت لها أبداً بالاختفاء على نحو ما فعلت، وبدلاً من إهمالها لكنت أحسنت رعايتها وواصلت رؤيتها بلا انتهاء. لقد كانت «القرنفلة الصغيرة» بالغة العذوبة، وأتمنى أن أستطيع على نحو ما العثور عليها، ولكنني حتى الآن لم أصادف أثراً دالاً واحداً.

هذا توضيح صغير لما كنتم تتحدثون عنه، لقد كانت هادئة للغاية بحيث أنني لم أدر قط أنها تتألم، ومضى إحساسي الدائم بها إلى الضياع تماماً، وعندما أبدأ في نسيانها فإنها ربما لا تزل تفكِّر فيَّ، وتمر بها أمسيات تحترق خلالها ندماً، على الرغم من أنها ليس لديها من تلومه إلا نفسها، وهي مثال كامل للمرأة التي لا يمكنك الاحتفاظ بها طويلاً ولا تستطيع الاعتماد عليها.

إجمالاً، فإن المرأة السليطة، على الرغم من أنها لا تُنسى بسهولة، العيش معها ثقيل الوطأة بحيث أن أي شخص ربما كان حرياً به أن يضيق بها ذرعاً، والمرأة البارعة دوماً بعزفها على الكوتو هي مزعجة بخلاعتها الفجة، وهناك كل الأسباب الداعية أيضاً للشك في المرأة الهشة التي حدَّثتكم عنها لتوي[1]. وهكذا، وفي نهاية المطاف، فإن من المستحيل اختيار امرأة بعينها وترك أخرى. تلك هي الحال مع النساء، فكل منهن من المحتم أنها ستكون متعبة بشكل أو بآخر. أين ستعثر على امرأة لديها كل الخصال التي كنا نتحدَّث عنها وليس بها أي عيب؟ علقوا قلوبكم بكيتشيجوتين[2] نفسها، وسوف تجدونها ورعة متصلبة، ولسوف تظلون حزانى كذلك!» انفجروا ضاحكين جميعاً.

استحث النقيب أمين السر مساعد شؤون الاحتفالات بقوله: «هلم، لا بد أن لديك قصة جيدة فدعنا نسمعها!».

«كيف يمكن لكم أيها السادة النبلاء أن تهتموا بأي شيء قد يقوله رجل لا حيثية له مثلي؟». ولكن النقيب أمين السر دمدم فحسب قائلاً: «هلم، هلم!»، وظل يلح عليه إلى أن

---

(1) إنه يعتقد أن اختفاءها ربما يتضمن وجود رجل آخر.

(2) آلهة لحسن الطالع. ربما من أصل هندي. كانت أيقونتها شائعة في المعابد البوذية، حيث كانت الحكايات تروي عن وقوع الرهبان في غرامها.

شرع في القول بعد قدر مناسب من إمعان التفكير: «كنت لا أزال طالباً في المعهد[1] عندما عرفت امرأة شديدة الذكاء، وشأن المرأة التي أرادها رئيس الإسطبلات، فإنكم يمكنكم الحديث عن الشؤون العامة معها، وكان إدراكها لكيفية عيش الحياة مؤثراً في النفس، وفيما يتعلق بأي موضوع فإن معرفتها الهائلة لا تترك شيئاً يضاف إلى ما لديها.

«وقد بدأ الأمر كله عندما كنت أزور دار أستاذ معين لمتابعة دراساتي. وبعد أن نما إلى علمي أن لديه العديد من البنات، انتهزت الفرصة للتعرف على هذه الابنة، وهو أمر ما إن اكتشفه حتى أقبل حاملاً أقداح الخمر ومتحدثاً بطريقة خطابية على نحو تلميحي: «استمعوا فيما أنشد عن دربين في الحياة»[2]. ولم تكن لديَّ مثل هذه الأمنية، ولكنني مع ذلك أفلحت على نحو ما في الاستمرار في لقائها حتى لا أجرح مشاعره.

كانت تعاملني أفضل معاملة، وحتى بينما كنا نرقد مستيقظين في الليل، تتابع تثقيفي أو ترشدني في أمور مفيدة بالنسبة لرجل يعمل في خدمة الحكومة، وما من رسالة منها كان يشوبها حرف واحد من حروف «الكانا» تلك، حيث صيغت بلغة نموذجية في طابعها الرسمي[3]، وفي ضوء هذا كله ما كان بوسعي هجرانها، لأنها هي التي علمتني كيف أستطيع تجميع القصائد الصينية مقصومة الظهر وما إلى ذلك[4]، ومن أجل ذلك فإنني أظل ممتناً لها للأبد. غير أنه فيما يتعلق بجعلها زوجتي العزيزة فإن رجلاً متواضع القدرات الذهنية مثلي ما كان يمكن إلا أن يشعر بالحرج إذا كانت شاهدة على جهودي الخرقاء. ولا شك في أنكم، أيها السادة النبلاء، تحتاجون إلى هذا النوع من الإرشاد الزوجي على نحو يقل عن حاجتي إليه[5]، إنني أقر بأن هذا كله كان حماقة مني، وكان ينبغي أن أقطع صلتي

---

(1) دايجاكو، مدرسة لتدريب الموظفين من ذوي المراتب الدنيا. وكان الطلاب يدرسون الشعر الصيني، الفلسفة والتاريخ.

(2) عظة عن الزواج مستمدة من قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 75..) أقداح الخمر بدورها ترد في القصيدة، التي تشدد على حكمة الزواج من عروس من بيت متواضع.

(3) كانت النسوة يكتبن بصفة أساسية «الكانا» التي تعتمد على الصوتيات. أما الرجال فكانوا يكتبون بلغة صينية متميزة بهذا القدر أو ذاك. وهذا التجنب للكانا (رسائلها مكتوبة كلية بالرموز الصينية) يحدِّث تأثيراً رسمياً وذكورياً على نحو غريب.

(4) «مقصومة الظهر» (كوتشي أوري) اصطلاح من اصطلاحات نقد الشعر.

(5) كان جينجي وتو نو تشوجو يشغلان مرتبتين رفيعتين للغاية، بحيث أنهما لم يكونا بحاجة للإنجاز ليشقا طريقهما قدماً.

بهـا، ولكـن في بعض الأحيـان يجتذبك القدر فلا تملك له رداً، وإني لأحسـب أن الرجال هم الحمقى».

«ولكـن يـا لها من امرأة فـذة». أراد النقيب أمين السـر أن يختتم ما رواه. عرف مسـاعد شـؤون المراسـم أنه سـيتعين عليه القيام بذلك، ولكنه كان ما زال يجعِّد أنفه قبل أن يذعن لما طُلب منه.

«حسناً، لـم أكـن قد رأيتهـا خلال مـدة طويلة عندمـا ذهبت إلـى هناك مجدداً لسـبب مـن الأسـباب. ولم تكن فـي غرفتها المعتادة، وإنمـا بدلاً من ذلك حدَّثتني من وراء سـتار سـخيف. هـل هي غيرى إذن؟ هكذا رحت أتسـاءل، وقد بدا لي هذا الهـراء طريفاً، وكنت واعيـاً تمامـاً بأن تلـك ربما تكون الفرصة التـي تطلعت إليها. ولكن لا، لـم تكن مثالي في العلم هي المرأة التي تنغمس في شـكاوى طائشـة، فقد كانت تعرف الدنيا وأساليبها معرفة دقيقـة للغاية بحيث لا تتيح لي المجال للشـعور بالضيق منهـا. وبدلاً من ذلك أعلنت على وجه السـرعة: بعـد أن وهنت أخيراً بفعل أكثر أشـكال التوعك إثارةً للضيـق، فقد تناولت لأغراض علاجية «اليوم سـاتيفوم»[1] وأخشـى أن نَفَسي أكثر إيذاء من أن يسمح لي بالقيام على العناية بك بطريقتي المعتادة. غير أنني بينما لا أسـتطيع مخاطبتك وجهاً لوجه، فإنني آمل أنك ستبلغني بأي خدمة أستطيع أو أؤديها لك».

كانـت تلـك خطبةً رنانة. تـرى بمَ كان عسـاي أن أرد عليها؟ اكتفيـت بالقول: (طيب). نهضت، شـرعت فـي الانصراف. أحسـب أنها كانت تأمـل بما هو أفضل مـن ذلك، لأنها هتفت بي: (عُد، عندما تزول هذه الرائحة!).

كرهت التظاهر بأنني لم أسـمعها، ولكن هذا لـم يكن وقتاً للتردد، وإلى جانب هذا فإن الرائحة كانت قوية حقاً، وهكذا تطلعت نحوها في يأس، ورددت:

(عندما شباك العنكبوت هذا المساء أنذرت بوشك وصولي

كم هو غريب منك إبلاغي بقولك: عد بعد انتهاء أيام ثومي[2]!

(1) الثوم.

(2) يتضمن هجومه وردها كلاهما تنويعاً على هيرو «الثوم» (وهيروما) «النهار». وتشير الحكايات الشعبية الشعرية إلى أن المرأة يمكنها أن تحدد ما إذا كان محبوبها سيأتي من عدمه بمراقبة سلوك عنكبوت.

أي نوع من الأعذار هذا؟)

لذت بالفرار بعد نطقي هذه الكلمات لأسمعها تردد:

(إذا كنت أعني لك ما يكفي لقدومك كل ليلة

فلماذا تعكر أيام ثومي صفوك؟)

آه، نعم، كانت بليغة للغاية. هكذا اختتم المساعد حديثه.

افترض الشبان النبلاء المذهولون أنه لا بد قد اختلق هذه القصة، وانفجروا ضاحكين. صاح النقيب أمين السر: «لا يمكن أن يكون هناك وجود لمثل هذه المرأة، كان يمكنك بالمثل أن تصادق شيطاناً. إنه أمر بالغ الغرابة»! فرقع بأصابعه[1]، وحدِّق في المساعد في حنق صامت، وأخيراً قال مصراً: «هلم، لسوف يتعين عليك الإتيان بما هو أفضل من ذلك!»، غير أن المساعد تمسك بموقفه وقال: «كيف تتوقع مني ما هو أفضل من ذلك؟».

تدخل رئيس الإسطبلات: «ليس بمقدوري احتمال الطريقة التي يتوق بها متوسطو الموهبة، رجالاً كانوا أو نساء، أعظم التوق إلى استعراض المعرفة المحددة التي قد تتوافر لديهم، فليس هناك على الإطلاق ما هو جذاب في استيعاب مادة ثقيلة مثل «التواريخ الثلاثة» و«الأعمال الكلاسيكية الخمسة»، وفضلاً من ذلك لماذا ينبغي لأي أحد لمجرد كونه امرأة، أن يكون جاهلاً تماماً بما هو مهم في الدنيا سواء أكان عاماً أو خاصاً؟ وأي امرأة لها عقل على الإطلاق من المحتم أنها ستتذكر العديد من الأمور حتى إذا لم تكن من المثقفات بالفعل، وهكذا فإنها في نهاية المطاف تكتب حروفاً صينيّة متصلة، وتملأ رسائلها إلى منتصفها، حتى الرسائل التي تبعث بها إلى نساء أخريات، حيث تكون في غير موضعها بصورة يائسة، فتحدِّث نفسك: آه، لا! لو كان بمقدورها أن تكون أكثر أنوثة فحسب! وربما لا تكون قد قصدت أن تصبح الرسالة على ذلك النحو، ولكن الحال تنتهي بالرسالة إلى أن تُقرأ من قبل المرسل إليه بصورة متصلبة، رسمية، ويبدو أن ذلك هو ما قصدته منذ البداية. الكثير من الوصيفات الأكبر سناً يفعلن ذلك، كما تعلمون.

«المرأة التي تتصدى لنظم الشعر تصبح حريصة عليه للغاية إلى حد أنها تملأ البيت

---

(1) إيماءة لوم أو ضيق.

الأول ذاته بالتلميحات إلى الأعمال العظيمة المنتمية إلى الماضي إلى أنه يغدو الحصول على قصيدة منها مصدر ضيق حقيقي، بينما تدور في ذهنك أمور أخرى، وليس بمقدورك إلى حد كبير أن تحجم عن الرد على قصيدتها، ويبدو مظهرك سيئاً إذا حالت الظروف الآنية دون قيامك بذلك».

«خذ المهرجانات، على سبيل المثال، فلنقل إننا في صبيحة مهرجان السوسن الرقيق، وتنطلق إلى القصر بسرعة بالغة إلى حد أن كل شيء يغدو ضبابياً أمام ناظريك، وهي تهديك إحدى روائع قريحتها، التي تتوهج بتوريات تستعصي على التصديق[1]، أو أن الأوان قد آن للاحتفال بمهرجان الأقحوان، وتقدح زناد ذهنك للوصول إلى قصيدة صينية حافلة بالتلاعب بالكلمات، وعندئذ تأتيك قصيدة حزينة منها مليئة بـ«ندى الأقحوان»[2]، وهي كالمعتاد بعيدة عن كل ما حولك. وفي أوقات أخرى أيضاً، فإن طريقتها في إرسال قصيدة لا علاقة لها بالموسم إليك، والتي قد تقر فيما بعد بأنها بالفعل لا بأس بها على الإطلاق، من دون أن تتمهل للتفكير في أنك قد تكون عاجزاً حتى عن أن تلقي عليها نظرة، هذه الطريقة لا يمكن القول إنها ذكية تماماً، وهي تحسن صنعاً بالإحجام عن استعراض فطنتها وذوقها عندما يتركك فشلها في إدراك ظروفك متسائلاً عن السر في اضطرارها للقيام بذلك أو صاباً الشتائم على الورطة التي أوقعتك فيها. إن على المرأة التظاهر بالجهل بما تعرفه، وعندما ترغب في الحديث عن موضوع ما فإنه يتعين عليها أن تترك بعض جوانبه من دون التطرق إليها».

في غضون ذلك، استغرق جينجي في التأمل بأمر سيدة نبيلة واحدة فحسب[3]، وبمعايير المناقشة التي دارت هذا المساء فإنها لم يكن لديها أكثر مما ينبغي أو أقل مما يجب من أي خاصية على الإطلاق، وقد ملأت هذه الفكرة ذهنه بالاندهاش، وأفعمت نفسه بالحنين

---

(1) القصائد التي تنظم لهذه المناسبة تحفل بالتنويعات على أيام «السوسن الرقيق» وغيرها من الكلمات المرتبطة بهذه المناسبة، والأمر نفسه ينطبق في هذا الموضع على حديث رئيس الإسطبلات.

(2) كانت السيدات يبللن قطعة صغيرة من القماش المقصب بأشكال زهور الأقحوان بالندى المستمد من هذه الزهور، ويقمن بمسح وجناتهن بها لتليين التجاعيد النابعة من الإيغال في العمر، حيث أن ندى الأقحوان يهب الشباب الخالد، وينظمن قصائد تتناول أحزان الإيغال في العمر.

(3) فوجيتسوبو.

اليائس.

لـم يصل النقاش إلى خلاصتة، وتراجع أخيراً إلى ثرثرة غير مترابطة اسـتمر فيها هؤلاء الشبان حتى الفجر.

أخيـراً غدا الطقـس صحواً، فمضى جينجي مباشـرة إلى دار معاليـه متخوفاً من أن مثل هـذه العزلة الطويلة في القصر قد تغضب حماه. كان مظهر المكان وسـلوك السـيدة النبيلة هنـاك مميزيـن على نحو يثير الإعجاب، حيث لا سـبيل إلى رصد خطـأ في أي منهما على أي نحـو. وبـدا لجينجي أنها قـد تكون الزوجـة المثالية، التـي تنتمي للنوعيـة التي أبرزها باعتبارها كنزاً ليلة البارحة.


الستائر القائمة

روَّح عـن نفسـه بالثرثـرة مـع وصيفات شـابات مميـزات بصفـة خاصـة، مثـل شـوناجون وناكاتاسوكاسا، اللواتي ابتهجن لرؤيتـه مرتديـاً ملابـس خفيفـة علـى ذلك النحو بفعل الحر. ثم ظهر معاليه، وتجاذب أطـراف الحديـث مـع زوج ابنته عبر سـتار ثابت، حيث لم يكن جينجي في زي يناسب اللقاء، بينما كان مسـتنداً إلى متكأ، ومصعِّراً خده، ومدمدماً: «أليس الجو حاراً بما يكفي بالنسبة لـه؟» (وأضـاف عندمـا ضحكـت النسوة): «اخفضن أصواتكن!». كان صورة من الدعة التي لا تعرف الهموم.

حينمـا خيَّم الظلام، أشـارت امرأة قائلة له: «الليلة أغلق الإله الأوسـط هذا الاتجاه من القصر».

«هذا صحيح، يا مولاي، هذا هو الاتجاه الذي ستتجنبه عادة»[1].

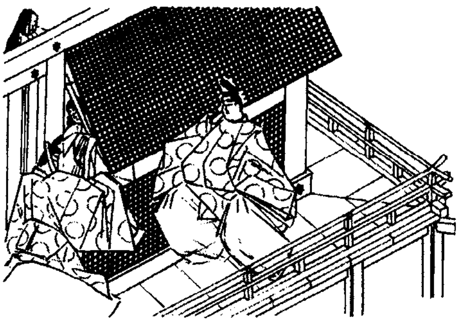
«لكـن نيجو[2] في الاتجاه نفسـه! كيف أتجنبـه؟ فضلاً عن هذا فأنا مرهـق تماماً». رقد جينجي استعداداً للنوم.

«آه، لا، يا مولاي، لا ينبغي أن تفعل هذا!».

«يقيم حاكم كي، وهو في خدمة معاليه، في دار بالقرب من ناكاجاوا[3]، والمكان جميل وبارد، وقد قام أخيراً بتحويل الغدير ليخترق أراضيه».

رد جينجـي: «سـيكون ذلك ملائمـاً تماماً، فأنا متعب للغاية، ولسـت أكثـرث بموقعه، طالما أنهم سيسمحون لثوري بولوج البوابة»[4].

لا بـد أنـه كانت هنـاك دور عديدة يمكنـه أن يمضي في حرص إليها لكـي يتجنب ذلك الاتجـاه، ولكنـه بعد أن وصل إلى دار حميه لتوه عقب غياب طويل، لم يرغب في السـعي إلى صحبة سيدة أخرى للقيام بذلك.



المصراع الشبكي

أذعـن حاكـم كـي لأمـر جينجـي، ولكنه تـأوه فيمـا هـو ينسـحب، وقـال: «أجبـرت صعوبـة واجهها نائب أيو في داره كل نسـائه علـى الانتقال إلى داري، وهكـذا فإن مكاني الصغير مزدحم للغاية بحيث أنني أخشى من أن مكانته قد تتعرض لبعض الإساءة».

سمعه جينجي: «لسوف أكون أسعد حالاً

(1) الإله الأوسط (ناكاجامي)، أحد الآلهة في حكايات ين ـ يانج الشعبية، وكان يتحرك في دورة تضم ستين يوماً. وبعد أن يمضي هذا الإله الأيام الستة عشر الأولى في السماء، كان يهبط إلى الأرض، ويجوب النطاق، حيث يقضي =خمسة أيام أو ستة أيام في كل اتجاه من الاتجاهات الثمانية. ويتجنب المرء «إيمو» الرحيل في اتجاه «موصد» فوتاجارو من قبل هذا الإله. والجهة التي أعد جينجي للإنطلاق إليها تنتهك هذا المحظور، والآن لا بد له من أن يتجنب تاجاو الاتجاه «الموصد»، بأن يلوذ بمكان آخر، يقع في اتجاه آخر من نقطة انطلاقه (القصر).

(2) مسكن جينجي. في «الجادة الثانية».

(3) غدير، لم يعد له وجود الآن، في الجزء الشمالي الشرقي من المدينة.

(4) لم يكن يسمح إلا لسيد نبيل عظيم القدر بالانطلاق بعربته التي يجرها ثور عبر بوابة أحدهم.

بوجودهن من حولي، وكنت أخشى قضاء الليلة بعيداً عن الدار بلا نساء، فما عليك إلا أن تنزلني وراء ستارهن القائم».

أعربت إحدى الوصيفات عن موافقتها قائلة: «أصبت. أتوقع أن تكون الدار مناسبة وجميلة»، وتم إرسال عداء ليعلن وصول جينجي. وهكذا بادر جينجي بالانطلاق مسرعاً في تكتم شديد إلى هذا المقصد المختار عمداً، بحيث أنه كتم أمر رحيله عن حميه، ولم يصطحب معه إلا أقرب رفاقه إليه.

تذمر أهل دار كي قائلين: «هذا أمر مفاجىء للغاية»، ولكن حاشية جينجي تجاهلوه، وتوصل رجاله إلى كنس الجناح الشرقي من الدار الرئيسية، وقاموا بتهويته وتجهيزه كأفضل ما كان بمقدورهم.

كان الغدير قد تم إنجاز تحويله من حيث تدفقه على نحو جميل[1]، وكان هناك سور من الأغصان، على نحو ما هي الحال في الريف، وقد زُرعت الحديقة بعناية، وانساب النسيم بارداً، ومضت الحشرات تصدر صريرها هنا وهناك، والحُباحب تندفع بسرعة في كل الاتجاهات. وكان المكان مبهجاً، فجلس مرافقو جينجي يحتسون الخمر ويطلون على الغدير، الذي برز للعيان من تحت طريق الجسر[2] وبينما انطلق المضيف مسرعاً في أرجاء المكان بحثاً عن المرطبات[3]، استرخى جينجي، ومضى يحدِّق نحو الخارج محاولاً سبر أغوار الليل، متذكراً ما كان قد سمعه البارحة عن نساء الطبقة المتوسطة، ومفكراً في أن ذلك لا بد أن يكون من نوعية الأمكنة التي تعيش فيها مثل هاته النسوة.

كانت قد تناهت إلى سمعه شائعة تفيد أن المرأة الشابة المقيمة هنا[4] تتسم بالغرور، وانتابه قدر كاف من الفضول بشأنها يدفعه إلى إصاخة السمع إلى أن طرقت سمعه أصوات دالة إلى الغرب، حفيف الثياب الحريرية وأصوات الصبايا البهيجة. نعم، سمع صوت

---

(1) كان يتدفق باتجاه الشمال - الجنوب بين المسكن الرئيسي وجناحه الشرقي، ومن هنا فإنه إلى جوار المكان الذي يقيم فيه جينجي.

(2) وأتادونا، بين المسكن الرئيسي والجناح الشرقي.

(3) إشارة إلى أغنية شعبية يترك فيها مضيف لضيوفه آنية مليئة بالخمر و«ينطلق مسرعاً لإحضار عشب بحري يؤكل من الشاطىء».

(4) أوتسوسيمي. زوجة نائب أيو.

ضحك مكتوم بدا له على نحو ما موحياً بوعي من أطلقنه بذواتهن.

كانت مصاريعهن الشبكية قد رُفعت، ولكن عندما قام كي على نحو يوحي بعدم الموافقة بإنزال هذه المصاريع، تسلل جينجي إلى حيث كان ضوء المصباح ينفذ من شق في الباب المنزلق، ليرى ما يمكن أن تقع عليه عيناه. لم يكن هناك فراغ كبير يتيح له مجالاً للرؤية، ولكنه واصل الإصغاء، وأدرك أنهن لا بد قد تجمعن في مكان قريب داخل الغرفة، لأنه كان بمقدوره سماعهن يتهامسن إحداهن مع الأخرى، حوله فيما يبدو.

«إنه لا يزال في ميعة الصبا. ومن العار أنه بالغ الجدية ومستقر تماماً بالفعل».

«مع ذلك فإنني أسمع أنه يتردد سراً على سيدات واعدات بطريقة ملائمة له».

اندهش جينجي، الذي كانت كل خواطره منصرفة إليها، لتصورهن يبادرن عقب ذلك إلى مناقشة ذلك الأمر على النحو نفسه، ولكنه لم يسمع شيئاً آخر له أهميته، فتخلى عن التنصت. كن يتحدثن عن قصيدة كان قد أرسلها مع بعض أزهار الجريس إلى ابنة معالي وزير شؤون المراسم[1]، وذلك على الرغم من أنهن قد أخطأن بعض الشيء فيما يتعلق بهذه القصيدة. حدَّث نفسه قائلاً: «حسناً، إن لديها الكثير من وقت الفراغ وميلاً إلى الشعر. ولست أحسب، على أية حال، إنها جديرة بإلقاء نظرة عليها».

عاد حاكم كي مع المزيد من المصابيح، ورفع فتيل المصباح، وقدَّم له المرطبات[2].

تساءل جينجي: «ماذا عن الستائر إذاً؟ إنه مضيف لا يرعى حقوق الضيافة ذلك الذي لا يفكِّر في هذا الأمر!»[3].

«لم يتم إبلاغي، يا مولاي، بشيء فيما يتعلق بما يدخل السرور على نفسكم». هكذا احتج كي مبدياً توقيره. رقد جينجي كأنما ليغفو قليلاً قرب الشرفة، وأوى مرافقوه إلى

---

(1) استمد من أزهار الجريس هذا الاسم التقليدي للسيدة أساجاو التي تظهر بشخصها للمرة الأولى في «قلباً لقلب». وهي ابنة عم جينجي مباشرة، حيث أن أباها هو الأخ الأصغر للإمبراطور.

(2) كودامونو، فاكهة أو مكسرات بصفة أساسية.

(3) «إنه مضيف لا يراعي حقوق الضيافة ذلك الذي لا يجعل امرأة تتأهب للقاء ضيفه». يلمح جينجي إلى أغنية سايهارا: «كل الستائر مسدلة في داري، هلم، يا مولاي، هلم، فابنتي ستكون لك..» ثم تأتي الأغنية على ذكر قنفذ البحر (كاسي). وهي قوقعة ساد الإحساس بأنها تشبه الفرج.

أماكنهم كذلك.

كان لمضيف جينجي أبناء لطفاء، رأى جينجي أحدهم بالفعل يعمل وصيفاً متدرباً في غرفة الإمبراطور الخاصة، وكان أبناء نائب أيو هناك أيضاً. وقد تميز أحد الفتية وهو صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من العمر، بميزة خاصة ينفرد بها. وفيما كان حاكم كي يرد على أسئلة جينجي حول أي الفتية ابن من، أبلغه بأن هذا الصبي كان الابن الأصغر من أبناء المشرف على حرس البوابة الراحل. وأوضح الأمر قائلاً: «لقد مات أبوه، الذي كان مولعاً به للغاية، عندما كان صغيراً في السن، وهو الآن تحت رعاية أخته الأكبر منه سناً. وآمل أن أدرجه في خدمة غرفة الإمبراطور الخصوصية، حيث أنه يظهر استعداداً للدراسة وهو شديد الذكاء بصفة عامة، ولكن الأمور يبدو أنها لا تسير على ما يرام».

«يؤسفني سماع ذلك، وأخته هذه.. هل هي زوجة أبيك؟».

«نعم، يا مولاي!».

«إذاً فلديك زوجة أب كانت الأقل احتمالاً لأن تصبح كذلك، فحتى جلالته سمع بأمرها، وقد كان يقول منذ بعض الوقت: (ألمح أبوها إلى أنه يفكِّر في أن يبعث بها لخدمة القصر.. ترى ما الذي صار إليه أمرها).

وتنهد بأسى متزايد قائلاً: «إنك لا تعرف أبداً ما الذي ستجلبه الحياة».

«وجودها هنا مفاجأة. لا، عندما يتعلق الأمر بالحب والزواج، فإنه من المستحيل اكتناه سر المستقبل، ومن سوء الطالع أن ميل المرأة بصفة خاصة يصعب التنبؤ به».

«هل يرعاها النائب؟ لا بد أنه يقدرها أعظم تقدير».

«من المؤكد أنه يفعل ذلك، يا مولاي، فهو يبدو أنه يهيم به هياماً، وعلى الرغم من ذلك فإنني مثل الآخرين[1] أكره أن يغرق في هواها على هذا النحو».

«إنه لن يتركها من أجل أي منكم، على الرغم من موقفكم، لا لشيء إلا لأنكم تسيرون وفق أحدث الصرعات، وليس هناك شيء يفتقر إلى الأناقة عندما يتعلق الأمر بنائب أيو،

(١) أبناء نائب أيو الآخرين.

بل إنه هو نفسه يهيم بسيدة أنيقة معينة. أين هي على أية حال؟».

«لقد أرسلتهن جميعاً إلى قاعة الخادمات، يا مولاي، على الرغم من أنهن ربما لم يتمكن جميعهن من الذهاب إلى هناك».

غرق مرافقو جينجي، الذين كانوا قد غدوا سكارى بحلول ذلك الوقت، في النوم في الشرفة. ورقد جينجي بدوره، ولكن النوم جافاه، حيث أن كرهه للرقاد وحيداً قد أبقاه مستيقظاً، يصغي للأصوات التي تتناهى إليه من وراء الباب الواقع إلى الشمال، وفُتن بأن هذا هو الموضع الذي تحتجب فيه الآن السيدة التي كانا يتحدثان عنها، فنهض في صمت ووقف بجوار الباب مصيخاً السمع.

«عفواً، أين أنت». كان ذلك هو الصوت المبحوح على نحو جذاب الصادر عن الفتى الذي كان قد لفت نظره في وقت سابق.

«راقدة هاهنا. هل نام ضيفنا؟ كنت قد اعتقدت أنني بجواره، ولكنه بعيد للغاية بالفعل». كان صوت المتحدثة الناعس يحمل نبرةً هامسة كصوت الفتى، وأدرك جينجي أنها لا بد أن تكون أخته الكبرى.

همس الفتى: «لقد مضى للرقاد في الجناح. الجميع يتحدَّث عن طلعته، وقد رأيته بالفعل، وما يقولونه صحيح، فهو شديد الوسامة!».

ردت ناعسة، وقد بدا صوتها منبعثاً من تحت الأغطية: «كنت سأسترق بنفسي نظرةً إليه لو كنّا في النهار».

حدَّث نفسه بصبر نافد: «آه، هلمي، سليه عني أكثر من ذلك قليلاً! لسوف أنام هنا، ومع ذلك فإن الغرفة شديدة العتمة» بدا أنه يرفع ذبالة المصباح.

لا بد أن أخته ترقد في موضع شاقولي على الجانب الآخر من الباب الذي وقف جينجي قربه. سمعها تقول: «أين تشوجو؟[1] إنني أحس بالخوف عندما لا يكون أحد قربي».

«لقد مضت إلى الحمام في قاعة الخادمات، وقالت إنها ستعود على وجه السرعة». تناهى

---

(1) إحدى وصيفاتها.

هذا الرد من النسوة اللواتي رقدن على أرضية منخفضة عنها بمقدار درجة واحدة[1].

عندما بدا كل شيء هادئاً، اختبر المزلاج، فوجد أن الباب ليس موصداً من الناحية الأخرى. وفي المدخل كان هناك ستار، وعلى ضوء المصباح الخافت لمح ما بدا أنه خزائن ملابس متناثرة في الغرفة فتلمس طريقه بينها إلى حيث هو موضعها، ووجد نفسه أمام قوام ناحل رقدت صاحبته وحيدة تماماً، وقد أزعجتها الخطى المقتربة منها قليلاً، ولكنها حسبتها الوصيفة التي كانت تريدها، إلى أن تشبث بملابس الفراش[2].

«لقد ناديت تشوجو[3]، كما ترين، وقد عرفت أن توقي المكنون لك قد ألهم مكافأته».

اضطربت تماماً، وظنت أنها تعاني من كابوس، وصاحت، ولكن الأغطية التي كانت تغطي وجهها كتمت الصوت.

«هذا أمر مفاجيء للغاية، بحيث أنك يقيناً ستأخذينه على أنه نزوة من جانبي، وهو أمر أتفهمه تماماً، لكنني أردت بالفعل أن تعرفي أن خواطري كانت منصرفة إليك طوال سنوات. أرجو أن تلاحظي بأي شغف انتهزت هذه الفرصة، واحكمي إلى أي حد لم أخفق في أن أكون شغوفاً بك».

تحدَّث برفق بالغ إلى حد أنها لم تستطع الصراخ بخشونة هاتفة: «ثمة رجل هنا»!، لأنه حتى لو كان شيطاناً ما كانت لترغب في مقاومته، ولكن الصدمة والاستياء من سلوكه انتزعا منها قولها في همس مكروب: «لا بد أنك أخطأت المرأة المقصودة!».

فيما هي توشك على الإغماء أثارت في نفسه الشفقة والحنان، فشعر بأنه معجب بها أشد الإعجاب. وقال: «لو داخلك الشك فحسب في الرغبة التي جاءت بي إليك! أعدك بأنني لن أسرف في الأمر معك، ولكن لا بد لي من أن أحدثك عن مشاعري».

التقطها التقاطاً، حيث أنها كانت ضئيلة الجرم، وكان قد حملها حملاً إلى الباب المنزلق،

---

(1) إنهن يرقدن في غرفة الجناح، باتجاه شاقولي عبر الغرفة من جينجي، والجناح أكثر انخفاضاً بمقدار عرض عمود خشبي.

(2) كان الناس ينامون تحت الأردية.

(3) إنه يتظاهر بانتحال اسم المرأة لنفسه، و«تشوجو» تعني «النقيب» ربما كانت ابنة نقيب أو زوجة نقيب. وجينجي «تشوجو» في حرس القصر.

عندما صادف شخصاً آخر يفترض أنها تشوجو التي كانت قد نادتها. كانت تشوجو، التي أجفلها تعجبه، تتلمس طريقها نحوه، عندما لفتها نفحة من عطره الفوّاح، ففهمت جلية الموقف. وعلى الرغم من أنها قد صُدمت، ودُهشت، إلا أنها لم تجد ما تقوله. ولو أنه كان شخصاً عادياً لانتزعت سيدتها منه عنوة، ولكن حتى ذلك كان يمكن أن يكون مخاطرة، لأن الجميع كان سيعرف عندئذ ما يجري، ولذا مضت وراءه خافقة القلب، بينما سبقها هادئاً إلى الغرفة الداخلية[1].

«تعالي لاصطحاب سيدتك عند الفجر»، قالها، وجعل الباب ينزلق وراءه منغلقاً.

كان يمكن للسيدة أن تلقى حتفها من جراء تصورها ما يمكن أن تفكر فيه تشوجو. تصبب منها العرق، وبدا واضحاً للغاية أنها مبتئسة إلى حد أن جينجي شعر بالأسف عليها، ولكنه أفلح في تهدئتها، كما هي الحال دوماً، في أن يستحضر من مصدر خفي فيضاً من البلاغة الرقيقة ليكتسبها إلى جانبه.

استبد بها الحنق: «هذا أمر يستعصى على التصديق. ربما أكون هينة الشأن، ولكن حتى أنا لا يمكن أن أخطىء في فهم سلوكك الحافل بالازدراء وأحسبه أي شيء آخر يتجاوز نزوة عابرة، إن لك مكانك في الدنيا ولي مكاني، وليس بيننا شيء مشترك».

ضايقه أن جرأته قد أثارت ازدراءها حقاً، وأدرك كم هي محقة في حنقها، فبادر إلى الاحتجاج: «لست أعرف شيئاً عن مكاني ومكانك في الدنيا، لأنني لم أفعل شيئاً كهذا من قبل قط، ومن القسوة من جانبك أن تنظري لي على أنني مغامر مغمور، ولا بد أنك قد سمعت عني ما يكفي لكي تعرفي أنني لا أفرض على أحد الاهتمام بي، وأنا نفسي يدهشني هذا الجنون، الذي أكسبني رفضك الذي يمكن فهمه تماماً. وكل ما يمكنني التفكير به هو أن القدر قد جمعنا».

جرب بجدية كل السبل للتقرب منها، ولكن فرادته ذاتها لم تزد مقاومتها إلا تصلباً، وظلت على عنادها، مصممة على أنه ما من مخاطرة بأن تبدو باردة وقاسية ينبغي أن تثبط همتها عن رفض الاستجابة له. وعلى الرغم من أنها مطواعة بطبيعتها، إلا أنها استجمعت

(1) ليس من الواضح أي غرفة هي المقصودة هنا، ولكن الإمكانية الأكثر ترجيحاً هي قسم منفصل من الغرفة نفسها، ربما «معتزل» (نوريجومي) منفصل تماماً عن الغرفة بجدران مخصصة لذلك.

من قوة الشخصية ما جعلها تحاكي الخيزران اللدن الذي لا ينكسر.

أحسَّ جينجي بالصدمة حيال فزعها ونفورها من إصراره، ومسَّت دموعها فؤاده، وآلمه أن يكون موضع اتهام، ولكنه يعرف أن من شأن الحزن أن يستبد به لعدم نيله إياها. قال على نحو يوحي بالاتهام عندما رفضت محاولة تهدئتها: «لماذا ينبغي أن تكرهيني بشدة على هذا النحو؟ عليك أن تدركي أن غرابة هذا كله ذاتها تؤكد الصلة التي تجمعنا، وليس بمقدوري تحمل بقائك على مثل هذا القدر من الابتعاد، كأنك لا تعرفين شيئاً عن أمور الدنيا!».

«لو أنك أظهرت لي مثل هذا الاستحسان عندما كنت على ما اعتدت أن أكون عليه، قبل أن أصل إلى وضعي الراهن التعيس، لربما كنت علقت آمالاً طائشة وأدخلت العزاء إلى نفسي بتصورات اليوم الذي تحسن فيه الظن بي، في نهاية المطاف، ولكن فكرة قضاء ليلة معك ذاتها، عندما لا يكون هناك ما هو أكثر من ذلك، تزعجني أشد الإزعاج. لا، لابد لك من نسيان أن هذا قد حدث على الإطلاق»[1].

لا عجب في أن ذلك كان شعورها، ولا شك أنه قد بذل قصارى جهده لطمأنتها ولإقناعها بأن مخاوفها ليست في موضعها.

صاح ديك، وبدأ أهل الدار في الاستيقاظ. صدر صوت آخر معرباً عن الدهشة من بين رجال جينجي: «ما أطول ما غفونا!»، وعلى آخر: «جهزوا عربة سمو الأمير!. ظهر الحاكم كذلك، واحتجت إحدى النسوة: «إنه هنا لمجرد تجنب أحد المحظورات فحسب، وليس هناك من سبب يدعوه للمسارعة في الرحيل مجدداً في منتصف الليل!»[2]. عانى جينجي من جراء التفكير في أن مثل هذه الفرصة قد لا تسنح مجدداً أبداً، وأنه ليس بمقدوره زيارة الدار عامداً، وأنه حتى مراسلتها ربما كانت مستبعدة.

كان الضيق الذي استبد بها شديداً لدى قدوم جينجي إلى حد أنه أفلتها، لكنه عاد فاجتذبها إليه ثانية. «هل يمكنني أن أظل على اتصال بك؟ إن كلاً من عدائك الذي لم

(1) لا ينبغي أن تتصور أن ما سمحت لنفسك به قد شكل أي نوع من السابقة بالنسبة للمستقبل. وما أقدمت عليه لم يكرس علاقة بيني وبينك.

(2) على نحو ما تكون عليه الحال لو أنه كان قد جاء تلبية لموعد سري.

يسمع به أحد والشعور الذي أكنه لك سيتركان ذكريات متوهجة بالحيوية وسيكونان أعجوبة للأبد». لم تمنحه دموعه إلا فتنة جديدة.

مضت الديكة تصيح في إصرار. قال في يأس:

«ربما أقبل الفجر ولكن متى يمكنني مواصلة الشكوى من قسوتك

ألا بدَّ لصياح الديك من إيقاظي قبل أن أحقق مبتغاي؟»[1]

لما كانت مشاعرها قد جُرحت بفعل الهوة بينهما، حيث أنها كانت من هي عليه، فقد ظلت بعيدة عن التأثر بملاطفاته، وبدلاً من ذلك انصرفت خواطرها إلى مقاطعة أيو البعيدة وإلى زوجها الذي كانت عادة تنحيه جانباً بقدر كبير من الكره والازدراء، وارتجفت خوفاً من أن يلمح هذا المشهد في حلم. ردت قائلة:

«الآن وقد أطل الفجر على البؤس الذي لا زلت أندبه،

فإن الديك نفسه يرفع عقيرته لينشر نواحي في الآفاق».

الآن انتشر النور تماماً، فأوصلها جينجي إلى باب الغرفة، وأبقى الباب مغلقاً فيما هو يودعها، لأن الدار كانت تضج بالحركة في داخلها وخارجها، وحزن لأنهما كانا يوشكان على الافتراق، فيما ظن، للأبد. ثم أسدل عليه عباءته، وحدَّق باتجاه الجنوب عبر الحاجز. وإلى الغرب ارتفعت مصاريع محدثة ضجة، لا بد أن نسوة كن يختلسن نظرة إليه. ولا شك أن الأكثر حساسية منهن كن مبتهجات بقوامه الذي يلفه الغموض، الذي يمكن أن يلمحنه عبر الستار المنخفض الذي يقسم الجزء الخاص به من الشرفة عن الجزء الخاص بهن. كان القمر لا يزال يمضي متمهلاً، عالياً، واضحاً على الرغم من شحوب سناه، محولاً الظلال الكئيبة إلى فجر جميل. وبالنسبة لمتأمل فإن السماء الخاوية توحي بقصة حب، بينما لمتأمل آخر تشير إلى لا مبالاة متحفظة. اعتصر الألم فؤاده وهو يفكِّر في أنه لم يستطع أن يوصل لها كلمة واحدة، وفيما هو يغادر، راح يتطلع للوراء مراراً.

لم يستطع النوم في الدار مجدداً، وتمثل ما عذبه، أكثر من عجزه عن رؤيتها مرة أخرى،

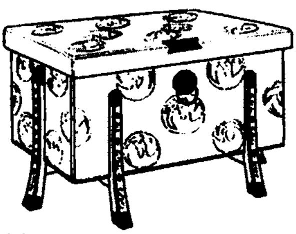
---

(1) تتضمن قصيدة جينجي تلاعباً بكلمة (توري) «ديك» (وتوري أيئينو) «قبل تحقيق (مبتغاي)». وتستغل قصيدتها بالمثل توري كاسانيتي («مراراً وتكراراً أنوح على الديك..»).

في مشاعرها تجاهه، لم يكن مرد الأمر إلى أي شيء متميز فيها، وإنما كان يعرف أنها كانت تمثل بصورة جميلة الدرجة الوسيطة التي كانوا يناقشونها، بكل جاذبيتها، وقد فهم على أي نحو صادق كان الرجل ذو التجربة العريضة يتحدث.

في هذه الأيام، أمضى كل وقته في دار معاليه. وإذ استبد به القلق طويلاً حيال مشاعرها في غياب أية رسالة منها استدعى حاكم كي، وقال: «هل تعطيني ذلك الفتى الذي رأيته في ذلك اليوم نجل المشرف الراحل؟ لقد توسل إليَّ، وأود أن ألحقه بخدمتي الخاصة، ولسوف أقدمه لجلالته بنفسي».

«إنك تمنحنا شرفاً عظيماً، يا مولاي. ولسوف أنقل طلبكم إلى أخته الكبرى».


خزانة

أفلح جينجي في أن يسأل بقلب خافق: «هل أنجبت إخوة أو أخوات لك؟».

«لا، يا مولاي، لقد مرَّ عامان على التحاقها بعائلتنا، ولكنني أحسب أنها تحس بالندم على أنها لم تفعل ما أراده أبواها، وأنها لا تحب وضعها الراهن».

«يا للعار! إن الناس يتحدثون عنها بالخير، هل صحيح أنها جميلة؟».

«أتوقع ذلك، يا مولاي، فهي تبعدني عنها بحيث أنني لست أقرب إليها مما ينبغي أن يكون عليه ابن الزوج».

بعد خمسة أيام أو ستة، أحضر كي إلى جينجي شقيق زوجة أبيه، ولم يكن الفتى وسيماً بصورة صارخة، ولكنه كان رشيقاً، وكان تميزه جلياً للعيان. واستدعاه جينجي لحوار ودود للغاية، وقد سرّ الفتى كثيراً وتأثر بطريقته الصبيانية، وأجاب على أسئلة دقيقة عن أخته بأفضل ما في وسعه إلى أن جعل تماسكه المثبط للهمة من المتعذر على جينجي الاستمرار في طرح الأسئلة، ومع ذلك فقد أفلح جينجي في إيصال رغبته[1].

دُهش الصبي عندما تبين له أخيراً مقصد جينجي، ولكنه كان أصغر سناً من أن يتفهم

(1) أن يحمل الصبي رسائله لتوصيلها.

حـق الفهم ما يترتب عليه، وأدى وصوله حاملاً رسـالة جينجي إلى انهمار دموع الغيظ من عيني أخته، فقد أفزعها تصور ما قد يدور بخلده، وفتحت الرسـالة بحيث حجبت محياها، وكانت طويلة للغاية.

«حتى فيما أحزن عليَّ عدم معرفتي ما إذا كان ذلك الحلم[1] يعني ليلة أخرى»

يبدو أن وقتاً لا نهاية له ينقضي فيما أظل مسهداً.

في الليل يجافيني النوم»[2].

كان خطه جميلاً على نحو فذ بحيث أن عينيها غمرتهما غشـاوة، ورقدت لتتأمل القدر الغريب الذي اقتحم حياتها التي كانت بغير ذلك حياة كئيبة.

عندما بلغت استـدعاءات جينجي الأخ الصغير في اليوم التالي، أعلمها بأنه ذاهب إليه، وطلب ردها.

«أبلغه بأنه لم يكن ثمة أحد هنا ليتلقى مثل هذه الرسالة».

اكتفى بالضحك: «كيف يمكنني قول ذلك؟ لقد أوضح الأمر بجلاء تام».

أدركـت أن جينجـي أبلغـه بكل شـيء، فتجمدت فـي موضعها: «سأشـكرك على عدم كونك وقحاً، فعليك إذاً ألا تذهب».

انطلـق لشـأنه، علـى الرغـم مـن ذلـك، قائلاً: «إنـه يريدنـي. ليـس بمقـدوري تجاهله ببساطة».

كان كـي يحـب النسـاء حباً جمـاً بحيث لـم ينظر إلـى زواج امـرأة أبيه بحسـبانها عاراً عظيماً، وكان تواقاً على الدوام لإرضائها، وهذا هو السر في رعايته الكبيرة لأخيها الصغير واصطحابه معه إلى كل مكان.

استدعى جينجي الفتى للمثول بين يديه: «انتظرتك اليوم كله بالأمس. يبدو أن الاستمرار

---

(1) يوم، لقاء العاشقين.

(2) شويشو 735 من نظم ميناموتو نو شيتاجو: «أي عزاء أناله من حنيني إليك، بينما لا يسعني الرقاد ومن ثم لا أحلم بك أبداً».

معي لا يعني شيئاً بالنسبة إليك».

تضرج الفتى احمراراً.

«حسناً. أين هي الرسالة؟».

أوضح الصبي ما كان قد حدث، فقال جينجي: «الأمر لا رجاء فيه. أليس كذلك. إنها صعبة المراس». سلمه رسالة أخرى.

واصل الحديث: «قد لا تدرك هذا، لكنني كنت ألقاها قبل وقت طويل من ذلك العجوز نائب أيو. وربما حسبتني في ذلك الوقت أضعف من أن تعتمد عليَّ، ولذا قد عثرت لنفسها على رجل ذي حيثية ليعنى بها، وهي الآن تهزأ بي. ومع ذلك كن ابناً لي، فزوجها الرائع ذاك لن يعمر طويلاً». بدا طريفاً له أن الفتى صدقه بجدية بالغة وتأثر كثيراً بما قاله له.

أبقى أخاها معه طوال الوقت، وصحبه حتى إلى القصر، وجعل القائمين على أمر خزانة ملابسه يعدون ملابس له، وعامله الصبي حقاً معاملة الابن لأبيه. وكانت هناك على الدوام رسالة يتعين عليه إيصالها. غير أن القلق ساورها من أنه أصغر سناً من أن يقوم بهذه المهمة وأنه إذا فقد، لسوء الطالع، رسالة، فقد تجد أن متاعبها الراهنة قد أضيف إليها صيت سيء لا يليق بمن هم في مثل وضعها، ومن ثم فقد أبقت رسائلها رسمية، معتقدة أن ما يشكل حسن الطالع يعتمد، في نهاية المطاف، على المكان الذي يقف فيه المرء في الدنيا. ولا يرجع موقفها هذا إلى أنها لم تتذكر شكله وسلوكه الغريبين على نحو ما كانا في تلك المرة الوحيدة التي رأته فيها في العتمة، ولكنها خلصت إلى أن سعيها لإرضائه لا يمكن أن يصل بها إلى شيء.

عكف جينجي على التفكير فيها بلا انتهاء، بضيق مختلط بالحنين، ولم يستطع الامتناع عن تذكر كيف أن حزنها قد أثر فيه، وكان يمكن أن يخاطر بالتسلل لرؤيتها، ولكن مع وجود هذا العدد الكبير من الناس فإن سلوكه المعيب قد يُكتشف، وذلك من شأنه، كما أدرك بكثير من الانزعاج، أن يكون أمراً كارثياً بالنسبة لها.

بينما كان يمضي يوماً إثر آخر في القصر، كما هي الحال دوماً، جاء محظور يتعلق بالاتجاه لصالحه مجدداً، فتظاهر بالرحيل العاجل إلى دار معاليه، وانعطف في الطريق

متجهاً إلى دار حاكم كي. ونظر كي الذي فوجىء بالزيارة إليها على أنها تقدير عظيم للغدير الذي كان قد حوَّل مجراه ليتخلل حديقته.

كان جينجي قد احضر أخاها الصغير إلى الدار في ذلك الأصيل. وفي المساء استدعاه مجدداً، حيث كان تحت أمره ليلاً ونهاراً. وكانت أخت الفتى قد علمت منه بالأمر كذلك. ولم تستخف بالاهتمام الذي كشفت عنه تلك الحيلة، ولكنها لم تكن ترغب في القيام برعونة بتسليم شخصها المتواضع كاملاً له، أو أن تضيف متاعب جديدة إلى تلك التي انهالت عليها بالفعل من جراء لقائهما الأول الذي يشبه الحلم. لا، إنها بحزم لن تقع ضحية أحابيله ولن تستقبله، وهكذا فإنها بمجرد استدعاء جينجي لأخيها الصغير، أعلنت أنها كرهت البقاء قريبة للغاية من الموضع الذي ينزل به في الدار وأنها على أية حال ليست في أتم عافية. وقالت: «لسوف أنتقل إلى مبعدة من أجل جلسة تدليك هادئة»، ومضت لتلوذ بغرفة تشوجو الواقعة على امتداد طريق الجسر.

جعل جينجي، الذي كان قد أحكم خططه، حاشيته تأوي إلى المضاجع في وقت مبكر، وبعث إليها برسالة قصيرة، ولكن أخاها لم يستطع العثور عليها. وبعد أن بحث عنها في أرجاء الدار كافة مضى إلى طريق الجسر، وقابلها هناك مصادفة في نهاية المطاف. صاح بها الفتى، وهو موشك على البكاء تقريباً من فرط الغضب والإحباط: «لسوف يعتقد أنني لا يُعتمد عليَّ على الإطلاق».

وقالت أخته: لن أقبل منك اتخاذ هذا الموقف الفظيع. يقولون إن صبياً لا ينبغي أن يحمل مثل هذه الرسائل أبداً. أبلغه بأنني متوعكة، وإنني قد أبقيت النسوة معي من أجل جلسة تدليك، ولسوف يتساءل الجميع عما تفعله هنا».

على الرغم من ذلك، فإنها في قرارة نفسها أحست بأنها قد تستقبل جينجي في سرور، مهما كان ذلك نادراً، لو أنها لم تكن الآن قد استقرت بالنسبة لباقي حياتها، وإنما كانت لا تزال في دارها، حيث تتواصل ذكرى أبويها الراحلين وطموحهما بالنسبة لها. وعلى الرغم من تصميمها، فقد عانت أشد المعاناة من التفكير في أنه لا بد أن يجد رفضها المطلق له وقحاً بصورة جامحة. غير أن الأوان قد فات بالنسبة لمثل هذه الأفكار، وحسمت رأيها على أن تظل بعيدة عن الاستجابة في عناد حتى النهاية.

رقد جينجي منتظراً ومتلهفاً لاكتشاف ما قد يتوصل إليه أخوها الصغير، وفي الوقت نفسه كان عصبياً حيال كونه صغيراً للغاية إلى هذا الحد. وعندما علم أنه ليس هناك أمل، جعله عنادها المدهش يمقت وجودها مقتاً بالغاً إلى حد أن بؤسه بدا جلياً على نحو مؤلم. ولزم الصمت لبعض الوقت، وراح يتنهد تنهيدات متطاولة فحسب. كان مجروح الفؤاد إلى حد بعيد، وكتب أخيراً:

«أنا الذي لم أعرف قط ما الذي تعنيه شجرة الوزَّال أتعجب الآن حيث أجد

أن الطريق إلى سونوهارا يمضي بي بعيداً عن دربي»(1).

ليس لديَّ ما أقوله».

كانت بدورها لا تزال يقظة، وقد ردت:

«أصابها الأسف لاشتهار مولدها في دار متواضعة،

تذوي شجرة الوزَّال التي لمحتها سريعاً واحتجبت عن الأنظار»(2).

لم يعجبها جعل أخيها يجوب الدار على هذا النحو، واستبد بها الضيق بشأن ضيق جينجي بحيث جافاها النوم لأنها كانت تخشى من أنه قد يثير الشك.

راح رجال جينجي يغطون في نومهم كالمعتاد بينما سلم هو وحده نفسه لتفكير عبثي، حانق. أثار غيظه أن مقاومتها المدهشة قد تصاعدت إلى هذا الحد البعيد بدلاً من أن تختفي، وغلبه الحنق والشعور بأن جرحاً قد أصابه، وذلك على الرغم من أنه قد علم تمام العلم أن قوة الشخصية كانت هي ما اجتذبه إليها في المقام الأول.

مضى يحدِّث نفسه: فليكن. ولكنه ظل بعيداً عن الاقتناع للغاية إلى حد أنه سرعان ما عاد يقول: ولا بأس، إذن خذني إلى حيث تختبىء».

«لقد أغلقت على نفسها غرفة صغيرة، والعديد من النسوة معها، ولن أجرؤ». هكذا رد

---

(1) سونوهارا (في مقاطعة شيناتو) ترتبط بشجيرة تدعى هاهاكيجي («شجرة الوزَّال») شبيهة بالمقشة. تصف كوكين روكوجو 3019 (معدلة قليلاً باعتبارها شينكو كينشو 997) من نظم ساكانوي نو كورينوري - تصف هاها كيجي بأنها تبدو للعيان من بعيد، ومع ذلك فإنها تحتجب عن العيان مع اقتراب المرء منها.

(2) فوسيا، ترتبط باسم سونوهارا، وربما كانت اسم مكان، أو كلمة تعني مسكناً خفيضاً ومتواضعاً.

أخوها، راغباً على نحو يائس في أن يكون بمقدوره القيام بما هو أفضل من ذلك.

«حسناً إذن، فإنك، على الأقل، لن تهجرني».

جعل جينجي الصبي يرقد معه. وقد قدَّر الصبي شباب سيده ولطفه كثيراً إلى حد أنهم يقولون إن جينجي وجده ألطف كثيراً من أخته القاسية.

3

أوتسوسيمي

شرنقة زيز الحصاد

تعني «أوتسوسيمي» شرنقة زيز الحصاد بعد طرحها. فـي هذا الفصل يواصـل جينجي سـعيه وراء ترويض المـرأة التـي عصيـت عليه فـي الفصل السـابق، ومن جديـد تلـوذ بالفـرار متخلصـة مـن ثـوب نسـائي في غمـار قيامها بهذا، فيلتقطـه جينجي ويبعث إليها بهذه القصيدة:

تحت هذه الشجرة، حيث تطرح زيز حصاد الليل إهابها الخاوي

لا يزال حنيني يمضي إليها من أجل كل ما أعرف أنها عليه.

وهي تكتب تعقيباً خاصاً على رسالته:

«تماماً كما أن قطرات الندى تستقر على جناحي زيز الحصاد المختبئة في هذه الشجرة

كذلك سراً، آه سراً، يبتل هذان الكمان بدموعي» .

الصلة بالفصلين السابقين

يواصل «شرنقة زيز الحصاد» أحداث «شجرة الوزّال»

الشخوص

جينجي، نقيب في حرس القصر، العمر 17 عاماً.

الفتى، شقيق أوتسوسيمي الأصغر، العمر 12 أو 13 عاماً (كوجيمي).

زوجة نائب أيو (أوتسوسيمي).

السيدة من الجناح الغربي، أخت حاكم كي (نوكيبانو أوجي).

امرأة عجوز في خدمة أوتسوسيمي.

استعصى النوم على جينجي، فقال: «لم ترفضني امرأة على هذا النحو قط. لقد عرفت الليلة أخيراً أن الحب يعني المعاناة، وأشك في أنني يمكنني احتمال عاره طويلاً».

بكى الصبي الراقد إلى جواره، وحدَّث جينجي نفسه بأنه بالغ الرقة. ولما كان ضئيل الجرم، أهيف إذ تمسه اليد، قصير الشعر، فإنه كان يشبه أخته، وربما كان هذا هو السبب في أن جينجي وجده لطيفاً للغاية. وكان جينجي يعرف أي مشهد غير اعتيادي سوف يتسبب فيه إذا أصر على البحث عنها، ولذا أمضى الليل وهو يدينها من صميم قلبه، وطلب من أخيها أقل من المعتاد، وغادر الدار بينما كان الظلام الدامس لا يزال سائداً، فشعر الفتى بالأسف وخيبة الأمل من أجله.

ساورتها بدورها مشاعر ندم مريرة، ولكنها لم تتلق كلمة منه. ربما كان قد تعلم درسه، ولكن مع ذلك فسوف يكون من القسوة من جانبه أن يتخلى عنها الآن، على الرغم من أن المتاعب كانت ستثور ما لم يتخل عن سلوكه المتهور. وحدَّثت نفسها بأن الأوان قد آن بالتأكيد لوضع نهاية لهذا فيما يمكنها القيام بذلك، ولكنها وجدت نفسها غالباً ضائعة وسط تأملات مفعمة بالقلق.

لم يعرف جينجي الذي ضاق ذرعاً بالأمر كيف يستطيع أن ينهيه الآن، كما لم يحب أن يلعب دور الأحمق، واستمر في قوله لأخيها الأصغر: «إنها قاسية وهي مقيتة، ولكنني خسرت كل معركة خضتها لإبعادها عن تفكيري، وليس بمقدوري احتمال الأمر. عليك بالعثور على وقت مناسب، وأن ترتب على نحو ما أن أتحدَّث معها». لم يدر الفتى كيف يمكنه القيام بذلك، ولكنه سعد بأن جينجي طلب منه ذلك.

راح يتحين فرصة لذلك، بطريقته الصبيانية، وعندما مضى حاكم كي إلى مقاطعته، وفي وقت متأخر من أحد الأيام عندما كسا الغسق درب العاشق[1]، وتراخت نساء الدار وحدهن، فاصطحبه جينجي إلى الدار في عربته الخاصة. وداخل جينجي القلق حول ما قد يحدث عقب ذلك، حيث كان الصبي صغيراً للغاية، ولكنه لم يستطع كبح جماح نفسه، واندفع ليخوض غمار المخاطرة، مرتدياً ملابس مجردة من الزخرف والأبهة، للوصول

(1) كوكين روكوجو 371، من نظم أوياكي نو إراتسومي: «الغسق يكسو الدرب، آه، يا محبوبي انتظر، أن يعود القمر ولسوف أرقبك فيما ترتحل!».

إلى هناك قبل أن يغلقوا البوابة.

مضى الفتى بالعربة عبر مدخل مهجور، وجعل جينجي يترجل منها. ومن حسن الطالع أن الحراس تجاهلوه تقريباً، حيث كان صبياً، ولم يقولوا شيئاً.

أوقف جينجي عند البابين المزدوجين الواقعين إلى الشرق[1]، ومضى جنوباً محاذياً الركن ليطرق وينادي عند المصاريع الشبكية، ثم دخل المكان. سمع جينجي النساء الأكبر سناً يجأرن بالشكوى: «يمكنك رؤية ما بالداخل مباشرة!».

تساءل: «الطقس حار.. لماذا أنزلتن المصاريع؟».

«لقد أقبلت السيدة من الجناح الغربي[2] هذا الأصيل، وهما تلعبان لعبة الداما».

حدَّث جينجي نفسه: «آه، أريد أن ألقي نظرة عليها، وهي جالسة قبالة شريكتها في اللعب. وتسلل بين الستائر الحاجبة[3]. لم تكن النسوة قد أحكمن بعد إغلاق المصراع الذي دخل عن طريقه الصبي، وبقيت فتحة من دون إغلاق، فمضى جينجي إليها، وتطلع إلى الداخل ناحية الغرب. كان الطرف الأقرب إليه من الستار مطوياً وربما فسر الحر سبب أن الستار الذي يُفترض به أن يحجب الرؤية عنه قد طُوي فوق حامله بحيث



لعب الجو

(1) الطرف الشرقي للدار الرئيسية، كان هناك إيسو مادو (بابان متماثلان يتحركان على مفاصل يفتحان باتجاه الخارج) عند كل ركن. وهذان البابان يفضيان عن طريق الجسر إلى الجناح الشرقي.

(2) أخت حاكم كي، التي يعرفها القراء باسم نوكيبا نو أوجي «القصبة عند الطنف».

(3) إنه يمضي بمحاذاة الشرفة إلى حيث دخل الصبي، ولكن ما بقي جرت مناقشته بصورة مفصلة، وهو يستعصي على إعادة تصوره بصورة مقنعة. والبعض يعتقد أن الستائر الحاجبة تنسدل خارج المصاريع التي تفتح إلى الداخل، بحيث أن جينجي ينسل بينها وبين مصراع تم إنزاله مجدداً بعد دخول الصبي ولكن هذا بدوره يترك أسئلة بلا ردود. ويتساءل المرء كذلك عن السر في أنه كان من الممكن للصبي أن يصرف الأنظار بطلب السماح بالدخول عبر مصراع موصد، فيما كان بمقدوره أن يدخل ببساطة عبر الأبواب.

أُتيح له مجال جيد للرؤية.

كنّ قد وضعن المصباح وراءهنّ، وكان الخاطر الأول الذي طرأ على ذهنه هو أن المرأة التي جلست قرب العمود المركزي للغرفة[1] مديرة ظهرها إليه لا بد من أن تكون مقصده. وبـدا أنها ترتدي قمصاناً نسـوية من قمـاش التويل حريري الملمس، مـزدوج الطبقات، ذا لـون بنفسـجي محمر قاتـم، مع رداء من نوع ما فوقه، ولم يترك رأسـها الصغيرة وجسـدها الناحل انطباعاً بارزاً، وكانت تحول بين شـريكتها في اللعب وبين رؤية محياها، كما بذلت قصارى جهدها لإخفاء يديها الناحلتين على نحو صارخ[2].

كانت منافستها تواجه الشرق باتجاه جينجي، وكان بوسعه رؤيتها كاملة. وكانت ترتدي زوجاً من القمصان النسوية البيضاء وما بدا أنه رداء خارجي بنفسجي، تلبسه من دون إحكام إلى حد أن صدري قميصيها كانا مكشوفين وصولاً إلى رباط سروالها القرمزي، وهو مظهر غير مفهوم في أحسن الأحوال. بدت طويلة، فاتحة البشرة للغاية، بديعة الانحناءات، يلفت جبينها وطلعتها النظر، لها فم شـهي وعينان رقيقتان، وبدا مظهرها فاتناً، ولم يكن شـعرها البديـع، الكثيـف طويلاً، لكنه كان ينسـدل على كتفيها في خصلات، وفـي حقيقة الأمر لم يكن فيها شيء يود المرء تغييره، وكان النظر إليها ممتعاً، فلا عجب في أن أباها كان فخوراً للغايـة بهـا، وذلك علـى الرغم من أنه خطر ببال جينجي أن سـلوكها يمكـن أن يحتاج إلى القليـل مـن كبح الجماح، ولم تبد كئيبـة ولا مضجرة كذلك، لأنها مع اقتـراب نهاية اللعبة عندمـا يسـتمر المجال حتى آخر مسـاحة لم تحصل عليهـا أي من اللاعبتيـن، بدت بارعة الغاية وحريصة على الفوز.

قالت منافستها بهدوء: «رويدك لحظة، هذه المساحة خارج اللعب، دعينا نكمل بالقيام بالتبادل!».

«آه، يا عزيزتي، لقد خسرتُ. ألم أخسر! الآن كم قطعة لدينا هنا في الأركان؟ يا للأسى! عشـرون، ثلاثـون، أربعون». مضـت في العـدّ، وقد أحنـت أصابعها، وكأنهـا تحصي كل

---

(1) لا بد أن جينجي كان يتطلع عبر الجناح، على الرغم من أنه في الظلام (باستثناء المصباح الزيتي) فإن هذا يجعل كل ما يراه بعيداً.

(2) إنه يرى يديها عندما تنقل حجراً من أحجار لعبة الداما، ولكن بخلاف ذلك تدس يدها في كمَّي ردائها.

أحواض الينابيع الحارة في أيو[1] كانت تفتقر بالفعل إلى لباقة معينة.

واصلت منافستها بعناية بالغة حجب فمها، بحيث أن محياها لم يظهر إلا بالكاد، لكن نظرة جينجي المحدِّقة لم تتحول بعيداً عنها، ولمح جانب وجهها مع عينيها المنتفختين قليلاً وأنفها الذي يتسم تكوينه بقدر كافٍ من عدم الوضوح بحيث يضفي عليها مظهراً أكبر من عمرها، فإنها لم تكن حسناء بديعة المنظر، وإذا شئنا ألا نبالغ في الأمر لقلنا إنها كانت تميل إلى أن تكون عادية، لكن أساليبها الرائعة في التصرف عوَّضت ذلك، وبدا جلياً أن لديها ما يجعلها تفوق شريكتها الأكثر حسناً.

مع ذلك فإن شريكتها كانت تحظى بالحيوية والجاذبية، وتمتعت الوفرة المتزايدة لضحكها المرح بجاذبية مفعمة بالحيوية جعلتها مبهجة بطريقتها الخاصة. حدَّث جينجي نفسه: «نعم، إنني وغد!» ولكنه رأى بعينيه المتجولتين في المكان فيها امرأة أخرى لن ينساها سريعاً. ولم تكن النساء الأخريات اللواتي عرفهن ممن يتركن أنفسهن إلى النسيان، وكان كل ما رآه هو تعبير بارع على محيا نُحي جانباً، وقد تمنى، وهو الذي لم يتح له من قبل قط التجسس على نسوة يمضين في حياتهن اليومية، أن يرقب هاتين المرأتين للأبد، وذلك على الرغم من شعوره بالذنب لرؤيتهما بوضوح من دون معرفة من جانبهما بذلك. ولكنْ أخاها الصغير شرع يقترب، فكان عليه التسلل بعيداً.

كان جينجي يستند على الباب المفضي إلى طريق الجسر[2]. أوضح له الصبي الموقف بعصبية: «كانت زائرة، يا مولاي، وليس بمقدوري الاقتراب منها».

«هل تقصد أنها ستردني الليلة خائباً من جديد؟ هذا أمر فظيع، وليس بوسعي احتماله».

«آه، لا، يا مولاي، لسوف أتدبر شيئاً ما عندما تنصرف الزائرة».

حدَّث نفسه: «حسناً، ربما بمقدوره إحضارها. إنه ليس إلا صبياً فحسب، ولكن لديه من الإحساس ما يكفي لإدراك ما عليه الأمور ولتقدير مشاعر المرء».

(1) كانت هناك أغنية عن أحواض استحمام لا حصر لها في ينابيع دوجو الحارة في أيوا، مقاطعة أبيها.

(2) الباب الواقع بين الشرفة وطريق الجسر المفضي إلى الجناح الشرقي. على الجانب الآخر بالنسبة لجينجي من الشرفة هناك البابان المزدوجان المفضيان إلى الدار الرئيسية.

بـدا أن اللعبة قد انتهت، لأنهما سـمعا حفيف الحرير وصوت أنـاس يغادرون المكان. «ترى أين السيد الصغير؟ لسوف أغلق هذا المصراع». وأعقب ذلك ضجيج الإغلاق.

قـال جينجـي: «لا بد أنها قد أوت إلى فراشـها. الآن امض وانظر ما الذي يمكنك القيام به!».

كان الصبي يعرف أن أخته أشدّ انضباطاً من أن يمكن ثنيها عما تعتزمه بمعسول القول، ولذا خطط لإحضار جينجي إليها، عندما تصبح بمفردها بشكل أو بآخر.

«هل أخت كي هنا أيضاً؟ دعني ألق نظرة عليها!».

«لكنني لا أستطيع ذلك، يا مولاي، فهناك ستار أمام المصراع».

آه، نعم، ولكن على الرغم من ذلك.. سـاور جينجي الشـعور بالذنب، وعلى الرغم من طرافة الموقف، فإنه لم تكن لديه رغبة في أن يدع الصبي يعرف ما رآه. وبدلاً من ذلك راح يتحدَّث عن مدى توقه للوقت اللاحق من تلك الليلة.

طـرق الصبي هـذه المرة الباب المزدوج، كـن جميعاً قد أوين إلى الفـراش. أعلن وهو يفرش حشـية: «لسـوف أنام هنا قرب الباب المنزلق، هلمي أيتها الريح، امنحيني نسمة!». لابـد أن النسـوة الأكبر سـناً قد تزاحمن منصرفـات إلى الممر الواقع إلى الشـرق، ومضت الفتاة الصغيرة التي أدخلته الحجرة لتنام هناك بدورها.

تظاهـر الصبي لبعض الوقت بالنـوم، ثم وقف حاجباً قرب المصباح، وتقدم في السـير أمـام جينجـي في العتمة، فتبعـه جينجي خوفاً من حـدوث كارثة، ورفع السـتار القائم عند حافة الحجرة، وانسلّ إلى الداخل بهدوء بالغ، باستثناء أنه في الصمت كان من الصعب أن يحتجب حفيف ثيابه عن الآذان.

كانت قد حاولت أن تكون سـعيدة بأنه قد نسـيها، ولكن راح، أخيراً، يحوم كثيراً حول تلـك التجربـة الغريبة الشـبيهة بالحلم، بحيث أنهـا لم يكن بمقدورهـا أن تغفو[1]. وخلال النهار كانت تتذكر ما جرى في حزن، بينما في الليل غالباً ما رقدت وقد جافاها النوم، ولم

---

(1) شويشو 727، قصيدة حب شتوية (على الرغم من أن الوقت الآن في الصيف) تتحدَّث عن السهاد والدموع المتجمدة.

يكـن الوقـت ربيعاً، ومع ذلك فها هي ذي غارقة في الدموع للأبد[1] وفي غضون ذلك، فإن شـريكتها في لعبـة الداما، التي كانت قد قررت أن تمضي الليلـة معها، راحت تثرثر إلى أن دلفت إلى الفراش، وبدا أنها قد غرقت مباشرة في نوم عميق.

تطلعـت أخـت الصبي بناظريها إلى أعلـى، عندما تناهى إليها الحفيـف والعبق الفاغم، وفـي الظلام لمحت حركة عبر الرداء المبسـوط فوق عارضة السـتار القائـم[2]، لم تتوقف لتفكّـر في غمار فزعها، وإنما نهضت، وانسـلت بعيداً في صمـت، وليس عليها من الثياب إلا قميص نسوي من حرير رقيق.

أقبـل، وأحس بالارتيـاح إذ وجدها راقدة وحدها. كانت اثنتان من خادماتها نائمتين في الخارج، عند المستوى الأكثر انخفاضاً[3]، وعندما أزاح الغطاء جانباً ليشاركها الفراش، بدا له أنها أكثر حضوراً مما كان يتوقع، ولكن على الرغم من ذلك فإن الحقيقة لم تنكشف له، وتمثـل ما نبهـه في النهاية في عمق نومها، وعلى الرغم مـن تجمده الناجم عن الصدمة في موضعـه، فقد أدرك أنه إذا قُدِّر لهذه الشـابة يوماً أن تخمن الخطـأ الذي وقع فيه فإن جرحاً سـيصيبها، كما أنه سـيبدو مغفـلاً. دع جانباً الآن متابعة السـيدة التي جاء مِـن أجلها، لأنها سـتراوغه مراراً، وتحسـب أنه أحمق لمحاولته متابعتها، وخلص إلى أنه إذا كانت هذه هي الفتـاة الجميلـة التي رآها في ضوء المصبـاح، فليكن ما يكون! وهو ما لـم يكن راجعاً إلى جدية شخصيته.

أفاقـت الفتاة أخيراً مسـتاءة ومندهشـة، وبدت خائفة كذلك، ولكنهـا لم تفصح عن أي مؤشـر يوحـي بالانزعاج العميق أو الباعث على الضيق، وشـجَّع افتقارهـا للخبرة التواطؤ اللعوب، فتمالكت أعصابها. آثر جينجي ألَا يكشـف عن هويته، لكنه كان يعرف أنها ما إن تبـدأ في التسـاؤل عما يفعله هناك، فإن اسـتنتاجها، الذي كان يكترث بـه، قد يلحق الضرر بتلك المرأة القاسـية، التي حمت اسـمها بضراوة، ومن هنا فقد قدَّم لها تفسـيراً رقيقاً للسر

(1) إتشيجو نوسيشو جو - شيو 132 فوجيوارا نو كوريماسا «أرقد في الليل مسهداً، وأمضي النهار في أحلام اليقظة، ذلك أن عيني هاتين لا تستمتعان بالربيع». تتلاعب القصيدة بلفظة «كونومي» التي تعني «عينَّي» و«البراعم على الأشجار».

(2) قبل المدخل إلى فراش المرأتين المحاط بالستائر (ميتشوداي).

(3) على أرضية الجناح إلى الشمال (كيتابيساشي)، سمك عمود العتبة أسفل مستوى الغرفة.

فـي أن ذلـك المحظور قد جلبه إلى هنا مراراً، ولكن على الرغم من كل جرأتها فإنها كانت أصغر سناً من أن تتفهم جلية الأمر.

لم يكرهها، لكنه بالمثل لم ير فيها مايجتذبه إليها، وظل منشـغلاً بسلوك معذبته الداعي إلـى الجنـون. ترى أين عسـاها تختبىء الآن؟ لا بد من أنهـا تعتقد أنه أبلـه تماماً. وقلة من النساء لديهن مثل هذا العناد، وتمنى لو أنه استطاع تحويل أفكاره باتجاه آخر. وفي غضون ذلـك، فـإن البراءة الفتية للمرأة الشـابة أثَّرت فيه كثيراً إلى حد أنه علـى الرغم من تحفظاته تعهد لها بأن يمنحها حبه بكثير من العاطفة المتأججة.

راح ينغِّم حديثه قائلاً: «اعتاد الناس القول إنه أكثر رومانسـية أن نظل على ما نحن عليه الآن مـن أن نكـون علانيين، فأحبيني إذن مثلما أحبك. وفي نهاية المطاف، فإن لدينا سـبباً يدعونـا للحرص، وكما تعلمين فإنني لسـت في وضع يسـمح لي بالتصرف حسـبما أريد، ويؤلمنـي كذلـك أن أتصـور الكيفية التي قد يعـارض بها بعض الناس حبنـا. كوني صبورة لطفاً ولا تنسيني!».

ردت علـى سلسـلة ابتهالاته بصـورة لا تعرف الختل ولا الخداع: «مـن المحرج للغاية التفكير في كيفية إحساس الآخرين بالأمر إذا علموا به. ليس بوسعي الكتابة لك».

«سـيكون أمراً كارثياً، بالطبع، إذا اكتشف أحد الحقيقة، ولكن بوسعنا مواصلة الاتصال عبر وصيفنا الخصوصي الصغير، وعليك بالتظاهر بأن شيئاً لم يحدث».

وبقولـه هـذا غادرهـا، وحمـل معه الـرداء الذي لا بـد أنها قـد تخلصت منه فـي غمار هربها[1].

كان الصبي نائماً على مقربة، واسـتيقظ في يسـر عندما قام جينجي بإيقاظه، بعد أن كان قلقاً لدى رقاده حول الكيفية التي ستمضي بها الأمور.

بينما فتح الباب في رفق، تردد صوت امرأة عجوز تنادي: «من ذاك؟».

«يا للإزعاج!»، «إنه أنا».

---

(1) الكوتشيكي الخفيف الذي كانت أوتسوسيمي راقدة تحته.

شرعت في القدوم نحو الباب قائلة: «إلى أين تمضي في منتصف الليل؟».

أحس بالكره نحوها. «لا، لا، سأخرج قليلاً فحسب!» دفع جينجي أمامه.

كشف القمر، الذي كان لا يزال متألقاً في سماء الفجر، كشف عن وجود شخص ثان فجأة. قالت العجوز: «من تلك التي معك؟ آه، لا بد أنها ميمبو. إنك تزدادين طولاً مع الوقت يا ميمبو! أليس كذلك!». كانت المرأة التي حسبتها معه تتعرض دوماً للمداعبة بشأن طول قامتها. دمدمت وهي تجتاز الباب: «وفي وقت قصير للغاية ستصبح في مثل طولها!».

حدَّث نفسه بأنه عليه المبادرة بالتحرك، لكنه لم يستطع دفعها لتعود إلى الحجرة. تمدَّد جينجي راقداً على الأرضية قبالة الباب المفضى إلى طريق الجسر ليحتجب عن الأنظار.

أقبلت العجوز نحوه مباشرة. «هل كنت في خدمة سيدتي البارحة؟ لقد كنت راقدة في غرفتي[1]، بفعل ألم شديد في البطن بدأ أول أمس. لكنها نادتني، على أية حال، لأنها تريد المزيد منا معها، ولذا فقد مضيت البارحة، في النهاية، وكان هذا أمر صعباً بالنسبة إليَّ». مضت تئن من دون توقف لتلقي الرد على ما قالته: «آه، الألم يشتد، سأتحدَّث معك فيما بعد!». ومضت مبتعدة.

أفلح جينجي، أخيراً، في مغادرة الدار. ولا بد أن هذه الليلة علمته جيداً أن التسكع على ذلك النحو كان حماقة حافلة بالمخاطر.

عاد إلى نيجو مع أخيها الصغير، الذي ركب مؤخرة عربته، ووصف ما وقع، مبدياً أسفه على الثقة في غلام يافع السن، ومطرقعاً أصابعه من فرط الضيق من حماقتها، فسُحق الصبي، ولم ينبس بكلمة.

تابع جينجي تذمره: «يبدو أنها تكرهني كثيراً إلى حد أنني بدوري أصابني الاشمئزاز من نفسي. عندما أكتب لها ألن تبعث إليّ على الأقل برد مهذب؟ ليس بمقدوري حتى أن أتلقى منها المجاملة التي تبديها لنائب أيو!». مع ذلك فقد وضع ثوبها تحت ردائه خلال الليل، وجعل أخاها يرقد إلى جانبه، ومضى يتجاذب أطراف الحديث معه، حيناً حول

(1) ليس على الأرضية أكثر انخفاضاً، وإنما في الجزء من الدار المخصص للخادمات.

الجرح الـذي عانى منـه، وحيناً آخر حول اهتمامـات حميمية متعلقة بهمـا. قال على مهل وبوقـار: «أنت لطيف للغاية، لكن أختـك تلك مقيتة إلى حد أنني قد لا أتمكن من مواصلة محبتي لك». غمر الصبي شعور بالبؤس.



صندوق الكتابة

حـاول جينجـي لبعـض الوقـت النوم، مـن دون أن يكلل سـعيه بالنجـاح، ثم دعـا على عجل بدواة، وكتب على ورق مما يوضع في طيـة الثوب الأمامية[1] بأسـلوب أقرب إلى ممارسـة الكتابة منه إلى أسلوب رسالة بالمعنى الدقيق.

«تحت هذه الشجرة. حيث تطرح زيز الحصاد إهابها الخاوي

لا يزال حنيني يمضي إليها من أجل كل ما أعرف أنها عليه»[2]

وضـع أخوهـا الرسـالة في طية ثوبـه الأمامية، وحملهـا إليها. لم يحـب جينجي تصور مشـاعر تلـك الفتاة الأخرى، ولكنـه بعد التفكير في أمرها، لم يرسـل إليها شـيئاً، واحتفظ بالرداء، الذي كان يذكره بالأخرى ليكون غطاء له، وجلس غارقاً في تأمله.

كانت أخت الفتى في انتظاره عندما وصل إلى الدار، وأوضحت له جانباً مما يعتمل في ذهنها: «انظر صنيعك! ربما أكون قد أفلحت في التستر عليه إلى حدّ ما، ولكن ما من شيء يمكن القيام به حيال الشـكوك التي تساور الناس، لقد وضعتني في موقف دقيق! وما الذي يمكن أن يفكر فيه هو حيال الطريقة الطفولية التي رقعت بها هذا الأمر؟

علـى الرغم مـن هذا، فـإن أخاها الواقع بيـن نارين قد أبرز رسـالة جينجـي، فأخذتها، وقرأتها في نهاية المطاف. جلد الشـرنقة ذاك الذي طرحته، راحت تتسـاءل في قلق عما إذا كان مالحاً قليلاً كرداء الصياد[3] وغرقت في لجة التشوش.

---

(1) تاتوجامي. ورق يُحمل مطوياً في الطية الأمامية لرداء المرء. وكانت رسائل الحب تكتب عادة على ورق خفيف ملون (أوسايو).

(2) تخرج يرقانة زيز الحصاد من الأرض، وتطرح إهابها القديم، ثم تتسلق الشجرة باعتبارها زيز الحصاد مكتملة النضج، تاركة وراءها جلدها أو إهابها القديم.

(3) في غمار خوفها في أن رداءها قد تفوح رائحة العرق منه، فإنها تفكر في جوسينشو 718 من نظم فوجيوارا نوكوريماسا «كتب عندما بعث الشاعر في طلب رداء كان قد تركه في دار سيدة». وقد خشي أن السيدة ربما وجدت الثوب الذي نسيه الصياد ملحاً قليلاً.

أما فيما يتعلق بالشابة من الجناح الغربي، فلم يكن لديها من تفضي إليه بمكنون صدرها، وهكذا عادت إلى هناك وقد غمرها الخجل، وغرقت في كآبة لا يدري بها أحد. وانتظرت في قلق بينما الصبي يجوب أرجاء الدار، ولكنه لم يجلب لها شيئاً. وعلى الرغم من أنها لم تستطع أن تعرف على وجه الدقة مدى سوء تصرفه، إلا أنها لا بد قد عانت من درجة ما من الكبرياء الجريح.

في غضون ذلك، وعلى الرغم مما أبدته معذِّبة جينجي من لا مبالاة، إلا أنها قد حوّمت حول ذكرى إخلاصه البادي لها، ومع أن الماضي كان تجاوز مرحلة الاستدعاء، إلا أنها تمنت كثيراً أن تغدو مرة أخرى على نحو ما كانت إلى حد أنها كتبت على امتداد حافة رسالته:

«تماماً كما أن قطرات الندى تستقر على جناحي زيز الحصاد المختبئة في هذه الشجرة،

كذلك سراً، آه سراً، يبتل هذان الكمان بدموعي» .

4

يوجاو

حسناء الشفق

يوجار («حسناء الشفق»، على نحو أكثر حرفية «وجه المساء») هي نبتة معترشة يقدمها الفصل بهذه الطريقة: «نبتة معترشة متألقة الخضرة، تبتسم أزهارها البيضاء لنفسها، كانت تتسلق في مرح على ما بدا أنه سور جانبي» قرب بداية الفصل تبعث امرأة يلفها الغموض إلى جينجي بمروحة لتلائم بعض زهور اليوجاو، التي كان قد قطفها لتوه. وهو يجد قصيدة على المروحة:

«بفعل التخمين أدرك أنك قد تكون هو حقاً، الندى الفضي الخفيف يجلب في رداء من بهاء زهرة الحسناء الشفق».

فيرد:

«دعيني إذاً أقترب وأتبين ما إذا كنت هي التي منحتني إياها الغسق المتوهج لأتملاها في زهرة الشفق الحسناء».

الصلة بالفصول السابقة

تبدأ الأحداث في «حسناء الشفق» في فصل الصيف، عندما يكون جينجي في السابعة عشرة من عمره، وتستمر حتى الشهر العاشر. ويبدو أن جينجي قد استمد إلهامه فيما يتعلق بمتابعة كل من أوتسوسيمي ويوجاو من حوار «تصنيف النساء في ليلة مطيرة» الوارد في «شجرة الوزَّال».

الشخوص

جينجي، نقيب في حرس القصر، العمر 17 عاماً.

مرضعة جينجي، زوجة نائب دازايفو، راهبة الآن (ديني نو مينوتو).

كوريميتسو، أخ لجينجي في الرضاع وموضع سره.

الخبير، الأخ الأكبر لكوريميتسو.

امرأة شابة، في حوالي الـ19 من العمر (يوجاو).

سيدة زيز الحصاد (أوتسوسيمي).

ابنة نائب أيو (نوكيبا نو أوجي).

نائب أيو (أيو نوكي)

ملاذ روكوجو، أرملة ولي عهد سابق (روكوجونومياسودوكورو).

تشوجو، وصيفة في خدمة ملاذ روكوجو.

الوكيل.

ابنه، عضو في حرس القصر.

النقيب أمين السر، صديق جينجي وشقيق زوجته (تونوتشوجو).

زوجته، ابنة وزير الميمنة (شي نوكيمي).

ابنته من يوجاو، «القرنفلة» 3 (تاماكازورا).

طبيب، معلم سابق لجينجي

فـي الأيام التي كان جينجي يقوم خلالها بزيارات سـرية في روكوجو، قرّر القيام بزيارة مرضعته العجوز، زوجة نائب دازايفو، في الطريق إلى هناك، حيث أنها كانت مصابة بمرض عضال، وقد رُسمت راهبة. وكانت دارها في جوجو[1].

عندما وجد البوابة التي كان ينبغي أن يدخل عبرها موصدة، بعث في طلب كوريميتسو[2]، وبينما كان في الانتظار، راح يتأمل مشـهد الجادة الذي لا يسـتهوي العين. كانت هناك في الجوار دار ذات جدران جديدة من خشـب السـرو المضفـور، يعلوها صف من المصاريع ذات أنصاف الألواح. وكانت أربعة أو خمسة من هذه المصاريع مفتوحة، ومن خلال ستائر حاجبة شـاحبة للغاية، لطيفة المنظر، لمح مقدمات الرؤوس الجميلة للعديد من الشـابات اللواتـي كنّ يحدِّقـن فيه[3]. وبدا أنهنّ طـوال القامة على نحو مدهـش، إذا حكم المرء من الأرضية التي وقفن عليها. وراح يتسـاءل عمن عسـاهن يكنّ وعن السـر في تجمعهن على ذلك النحو.

بعد أن جعل عربته متواضعة المظهر، ولم يصطحب معه مرافقاً يسـبقه في مسيرته، كان واثقاً من بقائه بعيداً عن رصد العيون له، ومن ثم فقد مضى يحدِّق إلى خارج العربة قليلاً[4]. كانت البوابة التي انفتحت كلوح مصراع[5] تفضي إلى فضاء جد صغير. كان المكان صغيراً وفقيـراً حقـاً، فتأثر جينجي، وتذكر «أي دار هي التي لنا إلى الأبد؟»[6] وأدرك أن تلك الدار قد تكون قصراً كذلك[7].

---

(1) «الجادة الخامسة» بين القصر وروكوجو، «الجادة السادسة».

(2) هذا الاستخدام لاسمه الشخصي يوحي بعلاقته الوثيقة وتبعيته لجينجي.

(3) الدار هي «إيتايا»، أي مسكن متواضع مسقوف بالألواح، وليس بلحاء شجر السرو أو القرميد. وحتى ارتفاع مستوى الصدر له هيجاكي، أي أسوار مكسوة بقطع رفيعة ومتقاطعة من خشب السرو (هينوكي)، ثم ترفع هذه الأسوار باتجاه الأعلى بمصاريع نصفية «هاجيتومي»، يمكن أن تُفتح إلى أعلى وتُثبت في وضعية أفقية وهي مفتوحة. وكل لوح منها يغطي المجال الكامل (كين) بين عمودين من أعمدة البناء. وربما كانت الألواح «الأربعة أو الخمسة» تغطي عرض الدار كله. ويوضح شحوب الستائر الحاجبة كونها جديدة.

(4) ربما يفترض أن يتم من خلال نافذة العربة «مونومي» أو عبر حافة الستارة الحاجبة (سوديري) التي تغطي المدخل الخلفي للعربة.

(5) كانت البوابة مرتبطة بقطعة متعارضة أفقية، وتفتح بصورة عمودية، وتدعم بعمود مخصص لذلك.

(6) كوكينشو 987: «في كل هذه الدنيا، أي دار هي التي لنا إلى الأبد؟ داري هي التي سآوي إليها الليلة».

(7) كوكين روكوجو 3874: «لم أحتاج قصراً؟ إني أوثر الرقاد معك حيث تنمو الأعشاب كثيفة».

كانت نبتة معترشة متألقة الخضرة، تبتسم زهورها لنفسها، تتسلق في مرح فوق ما بدا أنه سور جانبي. غمغم شارداً: «كلمة أتبادلها معك، أنت أيتها المقبلة من بعيد»[1]، عندئذ ركع أحـد رجالـه على إحدى ركبتيه، وقـال: «مولاي، إنهم يدعون تلك الزهرة البيضاء حسـناء الشفق[2]. والاسم يجعلها تتردد كما لو كانت منسوبة إلى سيد نبيل أو سيدة نبيلة، ولكن ها هي تزهر على ذلك السور البائس!».

مـن المؤكد أن بيـوت الجيران كانت متداعيـة ومتهالكة، تميل على نحـو بائس في كل اتجاه، وتحف بها طنف بارزة الأسنان، ولكن النبتة المعترشة مضت تتسلق فوقها جميعها. قال جينجي: «يا للزهور البائسة، امض واقطف لي بعضها!».

مضى رجلـه إلى البوابة المفتوحة، وقام بذلك، وعندئـذ أقبلت خادمة صغيرة، جميلة، ترتدي سروالاً طويلاً من الحرير الأصفر غير المطبوع، عبر باب منزلق، عادي لكنه لطيف الشكل، ونادته قائلة: «هاك، أعطه الزهور على هذه، فسوقها واهنة للغاية». وسلمته مروحة بيضاء يفوح منها العطر كثيفاً.

فُتحت البوابة الأخرى عندئذ على وجه الدقة، وخرج منها السـيد كوريميتسـو، وجعله الرجـل يعطي الزهـور لجينجي. قال كوريميتسـو معتذراً: «مولاي، لقـد وضعن المفتاح، لسـوء الطالـع، في غير موضعه، ولذا تسـببن في الكثير من المتاعـب لكم. وما من أحد في هذا الحي يحتمل أن يعرفكم. ومع ذلك فإن الطريقة التي تقف بها عربتكم في الخارج هنا في هذه الجادة متواضعة..». أدخل العربة عبر البوابة، وترجل جينجي منها[3].

كان الخبير، شـقيق كوريميتسـو الأكبر وشـقيق زوجته حاكم ميكاوا وأخته قد تجمعوا كلهم في الدار، فأسعدهم وصول جينجي، وجعلهم ممتنين له أشد الامتنان.

---

(1) كوكينشو 1007 (سيدوكا): «كلمة أتبادلها معك، أنت أيتها المقبلة من بعيد، يا من تحدقين في الرُحب، تلك الزهرة البيضاء المتفتحة هناك.. ما اسمها؟».

(2) يوجاو (بصورة أكثر حرفية «وجه المساء»). يشير تابع جينجي إلى أن ذلك الاسم يجعل الزهرة تبدو كما لو كانت «شخصاً» (هيتو)، أي أنها «أحدهم»، بمعنى أنه تميز اجتماعياً. وفي هذا السياق فإن يوجاو يشير إلى جينجي نفسه أو إلى المرأة التي يستمد الفصل عنوانه منها، ومن هنا فإن «الحسن» يقصد به الإيماء إليهما معاً.

(3) يدخل جينجي من البوابة هذه مستقلاً عربته، على نحو ما فعل في دار حاكم كي، لأن الناس في الدارين أدنى مرتبة منه.

نهضت الراهبة من رقدتها، وجلست في موضعها. وقالت وقد اغرورقت عيناها بالدمع: «بالنسبة لي لم تعد لشيء أهمية لكن ما جعل من الصعب التخلي عن الدنيا هو التفكير في أنك عندئذ ستضطر لرؤيتي في إهاب بالغ الغرابة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني أحسب بأني في حالة أفضل الآن بعد أن تلقيت التعاليم وأبهجتني هذه الزيارة التي قمتم بها لي، ويمكنني أن أتطلع في سلام إلى سنا أميدا[1]».

تحدَّث جينجي بدوره باكياً: «أقلقني وأحزنني أن مرضك قد استمر طويلاً بلا انقطاع، ولكنني أحس بأسف شديد لأن من الجلي أنك تخليت عن الدنيا. أرجو أن تواصلي العيش لتريني وقد ارتفعت إلى مرتبة أعلى. وما إن أفعل ذلك حتى يمكنك أن تحققي سريعاً بقدر ما يطيب لك الأرقى من بين الميلادات التسعة في الفردوس. وهم يقولون إن المرء لا ينبغي أن يظلَّ متشبثاً بالدنيا».

من شأن عيني شخص محب كالمرضعة أن تريا كمالاً غير محتمل حتى في الابن الأقل موهبة، فلا عجب إذاً أنها أحست بأنه قد شرفها أن تكون في خدمته الحميمية، وأن تتمنى أن تجنبه ألم فقدانها، وهذا هو السر في أنها لم تستطع منع نفسها من البكاء. مضى أبناؤها الذين شعروا بأشد الحرج وراحوا يرمقون بعضهم بعضاً بنظرات جانبية حيال هذا الإفصاح غير اللائق عن الانفعال الشديد أمام جينجي، كأنما لم يكن بمقدور أمهم، في نهاية المطاف، التخلي عن الدنيا التي يفترض أنها قد نبذتها.


المشعل اليدوي

تأثر تأثراً عميقاً، وقال: «عندما كنت صغيراً، تركني كل من كان ينبغي أن يحبوني،[2] كان لديَّ، بالطبع، أناس يعتنون بي، ولكنك كنت عندئذ من أُحسّ أنها الأقرب إليّ بصفة خاصة. والآن وقد كبرت ولم يعد باستطاعتي أن أكون معك

(1) كانت قد أخذت عهداً بالتمسك بقواعد السلوك البوذية (الوصايا)، وهي تتطلع إلى المضي إلى فردوس بوذا أميدا. وهناك تسع درجات محتملة للميلاد في رحاب الفردوس. وتقتضي أقل هذه الدرجات شأناً انتظاراً طويلاً، بشكل أو بآخر، قبل أن تستطيع الروح أن تشاهد بصورة كاملة بهاء أميدا.
(2) ربما أمه، التي ماتت في عامه الثالث، وجدته التي ماتت في عامه السادس.

على الدوام أو أن أزورك كما أحب، فإنني لا زلت أفتقدك عندما أكون بعيداً عنك وقتاً أكثر مما ينبغي. لكم أود ألا يكون هناك فراق نهائي»[1]. وواصل الحديث في حنو، وفي غضون ذلك تضوعت الغرفة بكاملها بعبق كمي ردائه اللذين راح يمسح بهما عينيه، إلى أن سلم أبناؤها، الذين كانوا قبل هنيهة وقد استنكروا سلوك أمهم، عن طواعية بأنها تمتعت بحظ عظيم في حياتها، وغرقوا جميعاً في الدموع.

بعد أن أمر بأداء المزيد من الطقوس من أجلها، جعل كوريمتسو يجلب مشعلاً صغيراً استعداداً للمغادرة. ولدى تفقد المروحة التي قدمت إليه في وقت سابق، وجد أنها تضوع بالعبق الذي تؤثره صاحبتها، وقد نقشت عليها بصورة بديعة هذه القصيدة:

«بفعل التخمين أدرك أنك قد تكون هو حقاً، الندى الفضي الخفيف

يجلب في رداء من بهاء زهرة حسناء الشفق»[2]

كانت الكتابة محجوبة قليلاً، ولكن رشاقة الخط وتميزه أدهشاه على نحو مبهج.

سأل كوريمتسو: من التي تقيم في تلك الدار الواقعة إلى الغرب؟ هل استفسرت عن ذلك؟.

حدَّث كوريمتسو نفسه: «هاهو يعاود مسيرته!»، ولكنه حافظ على هدوئه، واكتفى بالإجابة في اقتضاب: «لم يمض عليَّ يا مولاي هنا إلا خمسة أيام أو ستة، هذا صحيح، لكنني كنت أكثر انشغالاً برعاية أمي من أن أعرف أي شيء عن الجيران».

«إنك تكره استفساري، أليس كذلك؟ مع ذلك فإنني أعتقد أن لديَّ سبباً يدعوني إلى المزيد من تمحيص أمر هذه المروحة، وأريدك أن تستدعي شخصاً على معرفة بالحي لتبين جلية الأمر».

مضى كوريمتسو إلى الداخل، وراح يطرح الأسئلة على الوكيل، وبالفعل عاد ليقول: «يبدو أن هذا المكان يعود إلى نائب حاكم فخري، وهو يقول إن الزوج قد رحل إلى الريف

(1) كوكينشو (كذلك آيسي مونوجاتري، الفقرة 84) من نظم أريوارا نو ناريهيرا: «ليته لم يكن هناك في الدنيا فراق نهائي، بالنسبة لابن يود لو عاشت أمه ألف عام».

(2) «إنك جينجي، ألست كذلك؟» إنه الندى، وهو الزهرة.

وإن الزوجة، وهي شابة تحب الأشياء الجميلة، غالباً ما تزورها أختها، حيث أن الأخت في الخدمة بمكان آخر. ربما كان ذلك هو كل ما يتوقع من خادم مثله أن يعرفه».

حدَّث جينجي نفسه: «فهمت. لا بد أنها المرأة الشابة الملحقة بالخدمة. ومن المؤكد أنها قد أعطتني هذه القصيدة التي نظمتها كأنما هي تعرف إلى أين تقودها خطاها! وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن تحديد هويتها».

مع ذلك فقد أعجبته كثيراً الطريقة التي بادرته بالخطاب بها، ولم تساوره رغبة في إهدار هذه الفرصة، حيث أنه في مثل هذه الأحوال يميل إلى الاندفاع. وعلى رقعة من ورق يسهل طيه كتب بخط لا يشبه خطه:

«دعيني إذاً أقترب وأتبين ما إذا كنت هي التي منحتني إياها الغسق

المتوهج لأتملاها في زهرة الشفق الحسناء»

جعل الرجل الذي كان قد تلقى المروحة يحمل الرسالة.


طيّ الورق

كانت قد عرفت الملمح الجانبي لمحياه في التو، على الرغم من أنها لم يسبق لها أن رأته من قبل قط، ولم تفوت هذه الفرصة للاتصال به، لكن صمته الذي امتدَّ طويلاً ضايقها، فابتهجت أشد الابتهاج عندما وصلها رده، ثم أجرت مناقشة طويلة للغاية مع نسائها إلى حدّ أن مبعوث جينجي أحسّ بالضيق، وعاد إلى مولاه.

انطلق جينجي في حرص بالغ. ولم يحمل مرافقوه إلا مشاعل خافتة الضوء. وقد كانت مصاريع الدار موصدة، وضوء المصباح المنسل عبر الصدوع أكثر تراجعاً بكثير، وأشد تذبذباً من وهج الحباحب.

لم يكن ثمة ما هو مألوف فيما يتعلق بالأجمات أو الحديقة في المسكن الذي كان جينجي منطلقاً إليه، والسيدة التي أقامت هناك كانت تعيش حياة قوامها اليسر والرفاه. وطمس أسلوبها الراقي، الذي لم يبد مميزاً في أي وقت كما هو الآن، كل ذكرى للسور المكسو بالنبتة المعترشة الذي كان قد غادره قبل قليل، وظل راقداً حتى وقت متأخر من

صبيحة اليوم التالي، وغادر الدار مع الشروق، وأوضح مظهره في نور الصباح السر في أن الجميع يتغنى بمديحه.

مرَّ اليوم مجدداً بتلك المصاريع، ولا شك في أنه قد مرَّ من ذلك الطريق من قبل، أما الآن وهذا اللقاء العابر يتأرجح في ذهنه فقد راح يتساءل عندما يمر من هناك عمن عساها تقيم في تلك الدار.

ظهر كوريمتسو، بعد أيام قلائل، وأقبل نحو جينجي مباشرة: «أمي الآن أضعف من ذي قبل، وقد عكفت على القيام بما أستطيعه من أجلها. وبعد أن تحدَّثت معها لآخر مرة، استدعيت شخصاً يعرف الدار المجاورة وسألته عنها، ولكنه لم يبلغني بشيء واضح. ويبدو أن سيدة ما قد أقبلت للإقامة هناك من دون أن تُعرف هويتها، ولكنه قال إن العاملين بالدار لم يتم إبلاغهم بشيء عنها. وبين الحين والآخر، ألقي نظرة عبر السور، وقد رأيت بالفعل شابات يرتدين نوعاً من الميدعة، الأمر الذي يشير إلى أنهن يخدمن سيدة نبيلة. وكانت شمس الأصيل تتألق بالأمس منسلة إلى داخل الدار، فرأيت بوضوح امرأة جميلة جالسة لتكتب رسالة. وقد بدت حزينة، وراحت الأخريات من حولها يبكين في هدوء». ابتسم جينجي، وحدَّث نفسه بمدى توقه إلى معرفة من عساها تكون.

أحس كوريميتسو بأنه على الرغم من مكانة جينجي الرفيعة، فسوف يكون من العار ألا يقوم ببعض التجاوزات، أخذاً في الاعتبار عمره والاستجابة المفعمة بالإعجاب التي يلقاها من النساء، وفي نهاية المطاف فإن أولئك الذين يحتلون مرتبة متدنية بحيث لا تمنحهم الدنيا مثل هذه الحريات يحلمون على الرغم من ذلك بالنساء الجذابات. واصل حديثه: «تدبرت أمر ذريعة صغيرة، وبعثت برسالة قصيرة تحسباً لإمكانية اكتشاف شيء ما، وتلقيت رداً على الفور، مكتوباً بيد قديرة، وبحسب ما يمكنني تبينه، فإن هناك بعض النسوة الفاتنات».

«عليك بمتابعة الأمر إذاً. سيكون أمراً مخيباً للآمال عدم معرفة من عساها تكون». هذه هي نوعية الدار التي كان قد سمع بها تُنحى جانباً باعتبارها «منبتاً متواضعاً»، ولكن أبهجه أن يتصور نفسه وقد عثر على امرأة تضارع كنزاً غير منتظر هناك.

كان الرفض المدهش الذي لقيه جينجي من جانب سيدة جلد شرنقة زيز الحصاد قد أفضى به إلى الاعتقاد بأنها ليست من البشر، ولو أنها أصغت إلى حديثه بشكل أفضل لكان قد رضي بإساءة التصرف التعسة تلك من جانبها، ولكنه في ظل الظروف الراهنة راح يركز وبلا توقف وبضيق بالغ على كراهيته للاستسلام للهزيمة، لم يكن قد انصرف بفؤاده إلى أي امرأة عادية على هذا النحو، ولكن بعد تلك الليلة المطيرة، التي قُضيت في تجاذب أطراف الحديث حول المستويات المختلفة من النساء، فإن الفضول فيما يبدو قد ألهمه اهتماماً شاملاً بهن جميعاً. ومن المؤكد أنه قد شعر بالأسف بالنسبة لتلك الفتاة الأخرى، الفتاة التي راحت ببراءة تترقَّب عودته، ولكنه أحرجه أن يتصور الأولى وهي تصغي ببرود تام لما دار بينهما، وفضل أن يعرف نواياها الحقيقية أولاً.

في غضون ذلك، عاد نائب أيو إلى المدينة، وسارع إلى جينجي لإبداء تقديره. ومن الطبيعي أن بشرته كانت اكتسبت سمرة بفعل رحلته البحرية، وبدا مقيتاً تماماً في ناظري جينجي. ومع ذلك فقد كان كريم المنبت وعلى قدر كاف من الوسامة، على الرغم من أن مظهره كشف سنوات عمره، وكان بالتأكيد يمضي في مشيته على نحو جيد. وأراد جينجي أن يسأله عندما تحدَّث عن مقاطعته كم مغطساً من الينابيع الحارة وجد هناك، ولكنه بدلاً من ذلك أحس بالارتباك على نحو غريب، وتداعت إلى ذهنه ذكريات عديدة. وكان غريباً ومن قبيل الحماقة من جانبه أن يكون هذا هو شعوره أمام رجل ناضج وذي شدة، وتذكر تحذير رئيس الإسطبلات، المناسب بما فيه الكفاية بالنسبة لحالته، من الانغماس كثيراً مع النساء. وعلمه الشعور بالذنب حيال نائب أيو أنه من منظور الزوج فإن رفضها له أمر يدعو للإعجاب، مهما كان مثيراً للضيق بالنسبة لجينجي نفسه.

لدى معرفة جينجي بأن نائب أيو يعتزم الآن العودة إلى مقاطعته مجدداً، وهذه المرة بصحبة زوجته، جُن جنونه، وأشرك أخاها الصغير في مؤامرة تتحدى كل الظروف لتدبير لقاء آخر معها. يا للأسى، في ضوء وضعه، فإنه لم يكن من المحتمل حتى بمساعدتها أن يصل إليها من دون أن ترصده العيون، وفي حقيقة الأمر فإنها قد اعترضت على عدم التوافق بينهما، ووجدت الفكرة نفسها مهيمنة بحيث تصبح مستبعدة تماماً. ومع ذلك فقد عرفت كم سيكون مخيباً للآمال على نحو مؤلم أنه نسي أمرها تماماً، ومن هنا فقد كانت

تـرد عليه بجـرأة عندما يكتب لها، مزينة القصائد التي تضمنها في أقصر رسـائلها بتعبيرات جذابـة بصـورة أصيلة ليتذكرها بها وبتقديم نفسـها لـه باعتبارها امرأة جديـرة بحبه إلى أن وجد، على الرغم من غضبه لرفضها إياه، أن من المسـتحيل أن ينسـاها في نهاية المطاف. أما فيما يتعلق بالمرأة الأخرى، فقد اعتبر أن من الأمور المسـلم بها أنها سـترحب به حتى ولـو اقترنـت بنبيل بارز في غضون ذلك، وهكذا فإن الشـائعات المختلفة التي ثارت حول ذلك الموضوع لم تثر ضيقه.

الآن جاء الخريف، وأثقلت كاهله المتاعب التي لم يجد أحداً يلومه على حدوثها سوى نفسـه، وثبطـت همته عن الزيارات كافة إلـى دار معاليه، عدا زيـارات متقطعة، الأمر الذي جعل السيدة المقيمة هناك تزداد ضيقاً به.

في غضون ذلك، وبعد التغلب على التحفظ الذي كانت تبديه السيدة النبيلة العظيمة في روكوجو[1] كان قد تغير، ومال لسـوء الحظ إلى معاملتها كأي امرأة أخرى. ويتساءل المرء عن السر في أنه لم يبق في صدره شيء من العاطفة الطائشة التي كانت قد تملكته عندما بدأ مغازلتها في أول الأمر. أما هي نفسـها التي عانت أشـد المعاناة من الاكتئاب، فقد خشيت، في الوقت نفسـه، من أن شـائعات حول علاقة غرامية، وهي محرجة بالفعل بسبب الفارق في السن، ستشق طريقها عما قريب للانتشار، وأمضت ليال عديدة مريرة، عندما لا يحضر إليها، غارقة في اليأس حيال متاعبها.

ذات صباح ضبابي، عندما كان جينجي الذي لم يفق من النوم تماماً بسبيله إلى الانصراف اسـتجابة لدافع ملح، وإن كان ذلك مصحوباً بالتنهدات، رفعت الوصيفة تشـوجو مصراعاً شـبكياً، ونحت ستار سيدتها جانباً، كأنما لتقول: «سـيدتي، ودّعيه رجاء!». رفعت رأسها، وتطلعـت للخارج، كان يقف هنالك، أمام ألوان الحديقة كافة كأنما لم يرغب في أن يغيب عنه جمالها. لا، ليس هناك نظير له.

اصطحبته تشوجو باتجاه الرواق[2]. كانت ترتدي ثوباً ممتد الذيل من الشاش الحريري

---

(1) الطريقة التي تنسل بها هذه السيدة، ملاذ روكوجو، إلى الحكاية كأن القارىء يعرفها بالفعل مثيرة للاهتمام بما فيه الكفاية بحيث أنها دفعت إلى تأملات في الكيفية التي تم بها تأليف هذه الفصول الأولى من الحكاية.

(2) ربما الرواق المفضي إلى البوابة الوسطى التي سيدخل عربته منها.

المربوط عند خصرها فوق طيات من قماش بلون زهرة النجمية[1] يتماشى مع هذا الفصل من السنة بصورة كاملة، ومضت في سيرها برشاقة بديعة. تطلع في لمحة سريعة إلى الوراء وأجلسها قرب الحاجز عند ركن البناء. بدا اهتمامها الجميل به وطول خصلاتها الجانبية[2] معجزة في ناظريه:

«ما كنت لأشتهر بالوقوع في خفة على كل زهرة،

لكن زهرة الجريس هذه سيكون محزناً ألا أقطفها هذا الصباح»

«ما الذي تقترحينه؟» قالها، ممسكاً بيديها، لكنها ردت بفطنة لا تفتقر إلى الخبرة:

«إسراعك بالابتعاد قبل أن تبرد سُدُم الصباح يوضح الأمر بجلاء،

ولذا فعليَّ القول إن فؤادك لا يكترث إلا قليلاً بزهرتك»

هكـذا فإنهـا قلبت قصيدته لتشـير إلى سـيدتها. مضى صبي تابع جميل ووسـيم يرتدي سروالاً ربما يكون قد تم تفصيله لهذه اللحظة، والذي كان الآن مبتلاً بندى الفجر، يتجول وسـط الزهور، وجلب له زهرة جُريس زرقاء. وكان حرياً بالمرء أن يرغب في تحويل هذا المشهد إلى لوحة.

أياً كان من يتصادف أن تقع عيناه على جينجي، فإن من يراه كان يسلب لبه. وبعد لمحة من البهاء الذي يحيط به، فإن الرجال من كل المسـتويات (ذلك أن أكثر الحطابين خشـونة ربمـا يتطلع إلـى التوقف في غمار عنائه تحت شـجرة مزهرة)[3] كانـوا يتمنون أن يعرضوا عليـه ابنـة حبيبة، بينما الأعظـم قدراً والذي له أخـت يعتقد أنها جديرة بذلك كان يسـاوره الطموح إلى أن يضعها في خدمة جينجي، ومن هنا فإنه كان مستحيلاً بالنسبة لامرأة نشأت وسط رعاية كبيرة مثل تشوجو، وأتيحت أمامها مناسبات تلقي القصائد منه وللاقتراب من دفء حسـنه ألا تنجذب إليه. ولا بد أنها بدورها قد استشـعرت الأسـى لأنه لا يحضر إلى

(1) ربما حققت طيات القماش بلون زهرة النجمية (شيون) (اللون الأزرق البنفسجي البسيط) (شيون) القريب من لون زهرة الجريس.

(2) كامي نو ساجاريبا، خصلات قصت بما يجعلها قصيرة فوق الأذنين لتؤطر الوجه.

(3) تنتقد المقدمة اليابانية لكوكينشو «الافتقار إلى الصقل» في شعر أوتومو نو كورونوشي: «الأمر، إن صح التعبير، يشبه حطاباً يتوقف بحمله من الحطب تحت شجرة مزهرة».

الدار بوتيرة أعلى.

آه، نعم، لا بد أن يُقال أيضاً أن كوريميتسو قدَّم لجينجي صورة بديعة لما عرفه من التجسس، على نحو ما أُمر، عبر سور الجيران. قال محدثاً جينجي: «ليست لديَّ أية فكرة عمن عساها تكون، وبقدر ما أستطيع القول فإنها تحتجب عن الجميع، وليس لدى خادماتها الكثير مما يشغلهن، ويبدو أنهن يعبرن بين الحين والآخر إلى الجزء الجنوبي من الدار ـ الجزء الذي به المصاريع ذات أنصاف الألواح ـ وتمضي الأصغر سنّاً منهن لإلقاء نظرة عندما يسمعن قرقعة عربة. والمرأة التي أحسب أنها سيدتهن لديها من الجرأة ما يجعلها تفعل الشيء نفسه[1]. وما رأيته من محياها يوحى بأنها جميلة. وأخيراً مرت عربة يصحبها مرافقون أمام الدار، فصاحت صبية صغيرة من التابعات كانت ترقبها: «انظري، يا أوكون، انظري، إنها عربة مولاي تمر أمام الدار!». وعندئذ أقبلت امرأة أكبر سناً بكثير منها هاتفة بها: «صمتاً..!» وأومأت لها لتلزم الهدوء. سألتها: «كيف لك أن تعرفي ذلك»، وأضافت: «هلمي، سأنظر بنفسي!». مضت بسرعة عبر ما اعتقد أنه طريق جسر، لكن أطراف ملابسها تشابكت، وتعثرت، وأوشكت على السقوط أرضاً. صاحت: «مؤكد أن إله كازوراكي لك يشيد ذلك الجسر بصورة جيدة[2]»! وأعتقد أنهما قد توقفتا عن المراقبة عقب ذلك. وقالت الفتاة: «إن النبيل الذي يستقل العربة كان يرتدي عباءة فوق ملابسه، ولكي تبرهن أنه كان النقيب أمين السر[3] ذكرت أسماء العديد من المرافقين والأتباع الذين رأتهم معهم».

«أتمنى لو أنني رأيت عربته بنفسي». راح جينجي يتساءل عما إذا كانت يمكن أن تكون المرأة التي لم يستطع النقيب أمين السر نسيانها.

واصل كوريميتسو حديثه، مبتسماً حيال لهفة جينجي الواضحة لمعرفة المزيد: «إنني أحرز تقدماً طيباً في خطب ود إحدى النساء هناك، والآن فإنني أعرف الدار جيداً، ولكن النسوة الشابات لا يزلن يتحادثن فيما بينهن وكأنهن هناك بمفردهن، وأنا أسايرهن مدَّعياً

---

(1) يبدو أن الجسر بين المباني يتألف من ألواح فحسب، والكلمة المستخدمة في الأصل، وهي هايواتاروا (يزحف عبر) توحي بأنها تعبره في خوف.

(2) رفض إله جبال كازوراكي، الذي أمره ساحر ببناء جسر حجري من نطاق جبلي آخر، العمل نهاراً، وهكذا فإنه لم يفرغ من مهمته قط.

(3) تو نو تشوجو.

تصديق ذلك. وهن يعتقدن أن سرهن في أمان، وعندما يهدد طفل بالتفوه بشيء[1]، فإنهن يدارين هذه الصعوبة بالحديث، ويواصلن تظاهرهن بأنهن بمفردهن».

«أعطني المجال لإلقاء نظرة عبر ذلك السور في المرة المقبلة التي أزور فيها أمك». وبالحكم من المكان الذي تقيم فيه، الآن على الأقل، فلا بد أنها تنتمي إلى تلك الدرجة الأدنى التي استبعدها صديقه على نحو فظ للغاية. حدَّث جينجي نفسه قائلاً: «نعم، ماذا إذا كان هناك حقاً اكتشاف مبهج على نحو مفاجىء يمكن التوصل إليه هناك؟».

حشد كوريمتسو، الذي لم يستطع تحمل إصابة مولاه بخيبة الأمل، خبرته الواسعة في التودد للنساء من أجل التوصل إلى وسيلة تتيح له، أخيراً، تقديم نفسه للدار. ومع ذلك، فإن كل ذلك يعد بمثابة قصة طويلة، ومن هنا فإنني أحجبها كالمعتاد.

بعد أن أخفق جينجي في اكتشاف من عساها تكون، حجب هويته وتابعها في تنكر بالغ[2] وبحماسة بالغة بحيث أن كوريمتسو أعطاه جواده وسار على قدميه بجانبه. وأعرب عن شكواه قائلاً: «ينبغي أن أكون آسفاً لجعل العيون تقع على العاشق المتيم، وهو يدنو من الدار مترجلاً، كمن يغرق في العمل اليدوي الشاق». ولكن جينجي، الذي لم يستودع سره شخصاً آخر، ولم يصطحب معه كذلك إلا الرجل الذي كان قد مرر إليه زهور حسناء الشفق والتابع الصغير الوحيد الذي لم يكن بمقدور أحد بالدار معرفة محياه، بل إنه تجنب زيارة الدار المجاورة خشية تخمين من عساه يكون في نهاية المطاف.

في غمار حيرتها، دفعت بمن يقتفي أثر حامل رسائل جينجي، وحاولت أن تكتشف إلى أين كان جينجي نفسه يمضي بعد أن يغادرها فجراً، كل ذلك على أمل اكتشاف مقر إقامته، ولكنه هو ورجاله أفلحوا على الدوام في الإفلات من رجالها، حتى على الرغم من أن التفكير فيها كان يشغل باله كثيراً إلى حد أنه لم يستطع مفارقتها، وكان يظهر على الدوام إلى جوارها، وقد عذبته حماقته التي لا تليق به.

من شأن مثل هذه العلاقة العاطفية أن تقود أكثر الرجال ثباتاً ووقاراً إلى أن يضل طريقه،

(1) إنهن يتحدثن إلى سيدتهن حديث الند للند، ولكن الأطفال يبدؤون في بعض الأحيان في مخاطبتها بلغة التوقير والتفخيم.

(2) تنكر على هذا النحو ليخفي مرتبته، وفي هذه الحالة يحجب محياه أيضاً، فيما يبدو.

ولكـن حتـى الآن أفلـح جينجـي في السـيطرة على نفسـه، ولـم يقترف شـيئاً يسـتحق عليه التقريـع. ومع ذلـك فقد كان أمراً مدهشـاً أن مغادرتها في الصباح أو الابتعاد عنها سـحابة النهار فحسـب جعلاه على قدر كافٍ من البؤس بحيث يتسـاءل عمـا إذا كان قد فقد عقله، وأن يكافح ليذكر نفسـه أنه ما من شـيء فيما يتعلق بها يقتضي هذا الشـغف بها. وعلى نحو مـا يوحي به سـلوكها، فقد بدت في ميعة الصبـا، حيث كانت رقيقة على نحو ملحوظ، ولـم تكن تستسـلم للتفكير العميق، ومع ذلك فقد كانت تعرف بعض الشـيء عن أحوال الدنيا، وما كان يمكن أن تكون من منبت رفيع للغاية. ومراراً مضى يتساءل عما يراه فيها.

حـرص على أن يرتـدي ملابس متواضعة تلفها عباءة صيد، وعلـى تغيير زيه، وعلى ألا تـرى محيـاه، ولـم يجئ إليها قـط إلا بعد أن يأوي جميع من في الـدار غيرها إلى مراقدهم. وبدا شـديد الشـبه بمخلوق يغير هيئته من مخلوقات الأزمنة الغابرة[1] إلى حد أنه سبب لها ضيقاً شديداً، وذلك على الرغم من أن سلوكه معها وحاسة اللمس لديها قد جعلاها تتساءل أي سـيد نبيل عظيم هو. ومضت تفكر في أن العاشق الكبير هو الذي ينبغي أن تشكره على هذا، حيث دار شـكها حول كوريميتسـو، ولكن هذا الأخير ادعى الجهل فحسب، ومضى يـزور الـدار بلا هموم كأنه لا يعرف من الأمر شـيئاً، إلى أن غلبتها الحيرة، وغرقت في كآبة غريبة.

افترض جينجي أنها تختبىء بصورة مؤقتة فحسـب، وراح يتساءل أين عساه ينشدها إذا اختفت بعد أن أوقعته في حبائلها على هذا النحو البريء، وأثار شـعوره بالقلق أنه لن يقدَّر له أبداً أن يعرف في أي يوم قد تمضي بعيداً أو إلى أين، لسـوف تغدو مجرد ضوضاء عابرة إذا أخفق في العثور عليها وقبل فقدانها، ولكنه لم يصدق للحظة أن بمقدوره نسـيانها بهذه السـهولة. وقد كانت كل ليلة يبعده الحرص عنها فيها بمثابة ابتلاء شديد بالنسبة له إلى حد أنـه فكَّـر في إحضارها إلى نيجـو، كائناً من كانت، وإذا أدى التهامـس الناجم عن ذلك إلى إثارة الحرج له، فليكن ما يكون. وعلى الرغم مما في أعماقه فقد راح يتسـاءل أية صلة من الماضي أمكن أن تثير عاطفة عاتية على هذا النحو وغير مألوفة بهذه الشدة.

---

(1) في أسطورة جبل ميوا، على سبيل المثال، يزور عاشق خفي شابة كل ليلة. وأخيراً تقوم بربط خيط في ملابسه، وتجد أنه إله الجبل الذي يأخذ شكل الحية.

قال: «هلمي، أريد أن نتحدَّث بهدوء في مكان يمكننا أن نكون فيه وحدنا».

احتجَّت بسذاجة: «لكن ذلك سيكون أمراً غريباً للغاية. إنني أتفهم شعورك، ولكن مثل هذا التصرف لا يقوم به أحد. هذه الفكرة تضايقني». فكَّر جينجي مبتسماً: «لا شك في أنها تضايقك». قال برفق: «نعم، لا بد أن أحدنا ثعلب، لذا دعيني أسحرك!».

تركته يمضي حسبما طاب له، واستسلمت تماماً. غير أن طواعيتها المطلقة، مهما بدت غريبة، كانت آسرة إلى حد بعيد. لا بد أنها «زهرة المنثورة» التي وصفها، كما يتذكر الآن، النقيب أمين السر، ولكنها إذا كانت تختبىء، فلا بد أن لديها أسبابها، وقد أحجم عن الضغط عليها في هذا الصدد، ولم ير مؤشراً يدل على أنها قد تنفجر غاضبة منه وتختفي. ولم يتوقع مثل هذا التغيير إلا إذا أهملها بشكل سيء، بل إنه تصور، رغم إرادته، أن قليلاً من البرود من جانبه قد يضيف إلى جاذبيتها.


لوح الدعك

في الليلة الخامسة عشر من الشهر الثامن[1]، تدفق سنا البدر عبر كل شق في الدار المسقوفة بالألواح، لدهشته، حيث أنه لم يكن قد رأى مسكناً مثل هذا من قبل قط. ولا بد أن الفجر كان قريباً، لأنه سمع رجالاً غرباء في الدور المجاورة يحيي أحدهم الآخر فيما هم يستيقظون.

«الجو شديد البرودة».

«لا وجود لآمال كبار في أنشطة الأعمال هذا العام. لن أذهب إلى الريف أبداً[2]! يا لها من حياة، أيها الجار، أنت يا من تسكن في الجانب الشمالي هل تسمعني؟».

أحرجتها بشدة هذه الثرثرة الدائرة في كل الأرجاء حولهما من جانب أناس ينهضون من نومهم، ويتأهبون للقيام بأعمالهم البائسة، فقد كان المكان من شأنه أن يجعل أي إنسان

(1) ليلة اكتمال البدر الكبرى في العام كله. وفي التقويم القمري فإن هذا اليوم يحل في الخريف.

(2) ربما كان المتحدِّث يقوم عادة بشراء الأرز في الريف لبيعه في المدينة.

يُعنى بالمظاهر يرغب في أن تنشق الأرض وتبلعه، ولكنها ظلت على تماسكها، ولم يصدر عنهـا رد فعل علـى أي صوت، مهما كان مؤلماً، مزعجاً، أو محزناً، واحتفظ سـلوكها برقة سـاذجة للغاية إلى حد أن الضجة الكريهة كان يمكن ألا تعني كذلك شـيئاً بالنسبة لها على الإطـلاق، ولهذا فقد سـامحها جينجي عـن طواعية بأكثر مما كان حرياً به أن يسـامحها لو أنهـا كان قـد غمرها الخجل بوضوح. طاخ! طاخ! دوى صـوت هاون ضرب الأرز، وكأنه عند وسـادتها تقريباً[1]، إلى أن فهم أخيراً ما الذي تعنيه «المسـؤولية المقيتة»، ولما لم تكن لديه فكرة عن سـبب هذه الضجة، فقد أدرك فحسـب أنها جديدة بالنسبة إليه إلا أنها ضجة مختلطة لا تبين.

بلغ دوي الدق مسـامعه خافتاً من كل الجوانـب، وكانت الإوزات البرية تردد صيحاتها في السـماء. وأيقظته هذه الأصوات وغيرها على انفعال حاد بصورة مؤلمة[2]، جعل الباب القريـب ينزلق لينفتح، ومعاً نظرا إلى الخـارج. كانت الحديقة الصغيرة تزهو بأجمة جميلة من أشـجار الخيـزران تألق النـدى عليها مثلما فـي كل مكان. وراحت الحشـرات من كل الأنـواع تصـدر صريرها. وبالنسـبة لجينجـي الذي نادراً ما سـمع حتى صـوت زيز حصاد داخـل الجدران، فإن هذه الجوقة من الأصوات كانت شـيئاً جديداً وملتبسـاً في مسـامعه، وذلـك على الرغم من أن حبه للسـيدة قد جعله يميل إلى أن يكون متسـامحاً. كانت نحيلة على نحو جذاب في تواضع ردائها الرقيق الرمادي، البنفسـجي الشاحب، وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة شـيء مذهل فيما يتعلق بها، إلا أن رشـاقتها وطريقتها في الحديث قد أثرت فيه بعمق، وقد كان يمكنها أن تضيف إلى ما لديها لمسةً من الزهو، ولكنه كان لا يزال يريد بشدة أن يبقى معها في أجواء أقل تقييداً للحرية.

«هلمـي، دعينـا نقضي بقية الليـل على نحو مريح في مكان قريـب. كان من الصعب أن نلتقي في أي مكان آخر إلا هنا».

---

(1) ربما كان ذلك تبييض الأرز.

(2) هذه الأصوات، على العكس من الضجة السابقة، ذات طابع استحضاري على الصعيد الشعري. شيروتاي نو (ثلجي) هو نعت نبيل لـ«كورومو» (الرداء). صوت الطرق على الرداء فوق كتلة التنظيف (كينوتا) لغسل وإعادة تألقه كان معناه الخريف واقتراب العام من نهايته، وربما امرأة تحت القمر تنادي حبيبها المفقود. وهذا المؤثر هو مؤثر صيني أصلاً. وصيحات الإوز المهاجر تتحدَّث أيضاً عن الخريف والوداع.

احتجت في براءة: «ولكنني لست أرى كيف.. هذا مفاجىء للغاية». بغض النظر عن وعوده بأن حبهما سيتجاوز هذه الحياة، فإن ثقتها المطواعة قد تبددت على نحو لا سبيل إلى تفسيره، ولم يستطع أن يصدق أنها تلم بأمور الدنيا، ومن هنا فقد ألقى بالحذر إلى الرياح، وجعل أوكون تستدعي خادمه، وجهَّز عربته. ومنحت هذه الحماسة البادية وصيفاتها القلقات ثقةً به، في نهاية المطاف.

سيطلع الفجر عما قريب. ما من ديكة كانت تصيح، وكل ما سمعوه هو صوت الرجل العجوز يتمدد بكامل جسمه على الأرض، ولا شك أن ذلك في معرض الاستعداد لرحلة روحية إلى الجبل المقدس[1]، وبدا أن الجهد الذي بذله في إلقاء نفسه على الأرض والنهوض مجدداً كان مؤلماً. وراح جينجي يتساءل ما الذي يرغب فيه بشدة في هذا العالم الشبيه بالندى إلى حد أنه أصر على أداء هذه الصلوات المجهدة.

راح العجوز ينشد: «مبارك أنت أيها المرشد الذي سيأتي زمانه»[2] فتأثر جينجي: «أصغي إليه إنه بدوره يفكر فيما يتجاوز هذه الحياة:

«دعي خطاك تسلك الدرب الذي يجتازه هذا الرجل بإخلاص بالغ

وفي ذلك العهد الذي لم يحن أوانه فلتصلي من شأن الرابطة التي تجمعنا!»

وقد تجنب الأبيات العتيقة عن «قاعة العمر الطويل» حول «الاشتراك في جناح»[3] إلى ابتهال لترحيبهما معاً بعهد ميروكو. وكانت تلك قفزة كبرى إلى المستقبل.

«كثيرة هي الأحزان التي توضح أي مصير تطالبني الحيوات الغابرة باحتماله

حتى لم أعد أثق على الإطلاق في التحسن في أزمة مقبلة».

كان ردها، على نحو ما قالته، مفعماً باليأس.

---

(1) إنه «يمس الأرض بجبينه»، أي أنه يقوم بعمليات سجود متكررة. وكانت الرحلة الروحية إلى ميتاكي (الآن سانجو-جا - تاكي، 5676 قدماً، في هضبة أومينا) تقتضي تطهيراً صارماً، وتستقطب كلاً من النبلاء والعامة. وكان الجبل آنذاك مقدساً بصفة خاصة بالنسبة إلى ميروكو، بوذا المستقبلي.

(2) نامو توراي دوشي، دعاء لميروكو، الذي سيهبط إلى عالم متجمد بعد دهور عدة من الآن. ويبتهل القائم بهذه الرحلة من أجل أن يولد في عصره وأن يصغي إلى تعاليمه.

(3) إيماءات بالغة الوضوح إلى «أغنية الحزن الذي لا ينتهي»، حيث في «قاعة العمر الطويل» يقسم العشاق على أنهم في العالم الآخر سيكونون كالأشجار التي تتقاسم الأغصان أو الطيور التي تشترك في جناح واحد.

بينما سعى إلى إقناعها، حيث أنها لم تستطع حسم رأيها للانطلاق بمثل هذه الجرأة، تحت البدر المائل نحو الاحتجاب، انزلق البدر فجأة وراء السحب واتشحت سماء الفجر بجمال عظيم. سارع بالخروج كما هي عادته دوماً، خوفاً من أن يفضح النهار أفعاله في الدنيا، وحملها في يسر إلى العربة واستقلتها أوكون بدورها.

سرعان ما وصلوا داراً معينة[1]، وبينما انتظروا المشرف عليها، راحوا يحدقون في أشجار السرخس على امتداد طنف البوابة العتيقة التي غطاها الظلام. كان كل شيء يعمه الظلام تحت الأشجار. جثم الضباب ندياً وثقيلاً، وبالكاد تبلّل كمّا جينجي لأنه كان قد أسدل ستائر العربة. قال: «لم يسبق لي من قبل أن فعلت أي شيء يشبه هذا قط! إنه يرهق الأعصاب. أليس كذلك؟

«هل يمكن أن يكون آخرون قد ضلوا طريقهم أيضاً ذات مرة هكذا؟

إنني لم أعرف من قبل قط هذه الجولات عند الفجر».

هل قمت بهذا من قبل قط؟

ردت في خجل:

«القمر جوّاب الآفاق ليس على يقين مما يتوقعه من حافة الجبال

قد يخبو ويختفي وسط السماء[2]

فيما أخشى».

بدا أمراً طريفاً بالنسبة له أن يراها مضطربة وخائفة على هذا النحو، وافترض أن كل ما في الأمر أنها تفتقد الجمع الذي يحيط بها على الدوام.

أدخل العربة، وجعل عريشها يستند إلى الحاجز[3]، بينما كان يجري ترتيب غرفتهما في الجناح الغربي. عادت أوكون إلى التفكير في الماضي، لأن الطريقة التي اندفع بها

(1) تُذكِّر بكاوارا نو إن (شاطىء النهر) التي شيدها مينا موتو نو تورو (822، 895) والتي أصبحت فيما بعد عقاراً إمبراطورياً. وكانت كاوارا نو إن ساحة لقصة أشباح شهيرة، ويطابق موقعها الوصف الوارد في الحكاية.

(2) «حافة الجبل» (حيث يأفل القمر) هي جينجي، والقمر هو المرأة، التي لا تعرف إلى أي حد تمضي نوايا جينجي حيالها.

(3) حول الشرفة، ترتيب مؤقت، حيث أن عريش العربة يستند عادة على مسند مخصص له يعرف باسم (شيجي).

المشـرف إلى الدار عارضاً خدماته من غير أن يُسـأل عنها قد أوضحت أي نوع من الرجال هو عاشق سيدتها.

غادروا العربة فيما شرع النهار يعيد إلى الدنيا الشكل واللون، وكان المكان قد رتب لهم على نحو جميل، على الرغم من وصولهم المفاجىء.[1]

قال المشـرف على شـؤون الدار، وهو تابع مقرب من مستوى خفيض في خدمة معاليه كذلـك: «أرى أنـه ليس معكم أحد آخر، يـا مولاي وهو ما يجعل الأمـور بالغة الصعوبة». ودنا، وسأل بواسطة أوكون عما إذا كان ينبغي عليه أن يستدعي حاشية مناسبة[2].

أسـكته جينجي سـريعاً: «لقد جئت إلى هنا عامداً لأحتجب عن العيون، فلا تفه بكلمة عن هذا لأي أحد!» سارع الرجل إلى تجهيز وجبة إفطار، على الرغم من أنه كان يفتقر حقاً إلى الطاقم اللازم لتقديمها.

لـم يكن جينجـي قد نام بعيداً عن داره على مثل هذا النحو مـن قبل قط، وأكد لها مراراً أنه سـيحبها زمناً يفوق في طوله تدفق نهر أوكيناجا . وكانت الشـمس عالية عندما استيقظا، وقام بنفسه برفع المصاريع. امتدت الحديقة المهجورة والمهملة إلى البعيد، وقد تطاولت أجماتهـا في كآبة مترامية. وافتقرت الحديقة القريبة من الدار والشـجيرات إلى أية جاذبية. وشـابه الامتـداد الأكثر رحابـة برية خريفيـة، واختنقت البحيـرة بالأعشـاب المائية. وكان المكان مثيراً للقلق على نحو غريب، ومعزولاً أشد العزلة، وذلك على الرغم من أنه بدا أن هناك بناء خارجياً آهلاً بالسكان على مبعدة.

قال: «المكان مخيف، ولكن لا عليك، فالشـياطين لن تزعجني». كانت تشـعر بالضيق الشـديد لأنـه لا يزال يحجب محيـاه عنها، وقد وافقهـا على أن ذلك ليـس بالأمر الطبيعي الآن، وقال:

---

(1) المشرف على شؤون الدار يحتل مرتبة أكثر تدنياً من أن تسمح له بمخاطبة جينجي بصورة مباشرة، وحديثه السابق أيضاً كان لا بد له من أن يكون حديثاً غير مباشر.

(2) في مانيو شو 4482 من نظم أومانو فوهيتو كونيهيتو، تؤكد القصيدة لسيدته أنه سيحبها حتى إذا توقف نهر أوكيناجا عن التدفق. وهذا الاسم الذي يمكن حمله على أنه يعني «النفس الطويل» يتم ربطه في القصيدة بطائر الغوَّاص المائي «نيو» الذي يمسك أنفاسه ليتغذى تحت الماء.

«الزهرة التي ترينها الآن حاجبة أسرارها في ندى المساء

تألقت لأول مرة أمام عينيك في رسالة منذ زمن طويل

هل يسعدك تألق الندى؟».

رمقته بنظرة جانبية، وغمغمت:

«النور الذي رأيته يفعم قطرات الندى التي زينت آنذاك حسناء الشفق

لم تكن إلا حيلة من وهج النهار الأخير الآخذ في الانحسار».

ابتهج كثيراً. عندما خفّ توتره بات وسيماً، وفي هذا الموضع بالذات كان جميلاً على نحو رهيب. قال: «آلمتني الطريقة التي واصلت بها الابتعاد عني كثيراً إلى حد أنني اعتزمت ألا أسفر عن وجهي أبداً. أخبريني باسمك الآن، فأنت تفزعينني»[1].

«ولكن، كما ترى، فإنني لست إلا ابنة غوَّاص»[2]. هكذا ردت في اعتدال، رافضة كما هو دأبها إبلاغه بالمزيد.

«ليكن، أحسب أن الخطأ خطأي أنا»[3]. أمضى بقية اليوم يلومها حيناً، ويهمس في أذنيها بأعذب الطرائف حيناً آخر.

أفلح كوريميتسو في العثور عليهما، وجلب لهما المرطبات، وتجنب الوقوف في خدمة جينجي بنفسه، لأنه لم يرغب في سماع ما ستقوله أوكون له. بدا له أمراً طريفاً أن جينجي عمد إلى إحضارها إلى هنا، وإذ افترض أن حسنها يستحق كل هذا العناء، فقد هنأ نفسه بمرارة بالغة (حيث كان بمقدوره أن يظفر بها لنفسه) على سخائه بالتنازل عنها لمولاه.

بينما كان جينجي يحدِّق في السماء التي غمرها المغيب والمفعمة بالسلام على نحو لا يصدق، تذكَّر أنها تكره العتمة داخل الدار، فرفع الستائر الحاجبة الخارجية[4] ورقد إلى

(1) يتلاعب جينجي بالكلمات بما يفيد فزعه من أن تكون ثعلبة.

(2) واكان روي شو 722 (كذلك شينكو كينشو 1703) رداً على ترقب من جانب سيد نبيل «ليست لي دار، لأنني ابنة غوَّاص أقيم إلى جوار شاطىء المحيط الذي تنكسر عليه الأمواج الشهباء».

(3) يقر رد جينجي قولها «إنني ابنة غوَّاص» بالتلاعب بكلمة «واريكيرا»، والتي تعني «خطأي»، ولكنها كذلك تعني اسم كائنٌ يُزعم أنه يعيش في أعشاب البحر.

(4) تلك الستائر الواقعة بين الجناح والشرفة.

جوارهـا، تطلعـا أحدهمـا إلى الآخر في وهج الشـفق، وعلى الرغم من قلقها، فقد نسـيت همومها، واستسـلمت له قليلاً على نحو آسـر. كانت قد رقدت بجواره طوال النهار متألقة الصبا والعذوبة في غمار خوفها الخجول.

أنـزل المصاريع الشـبكية فـي وقت مبكر، وأمر بإضـاءة المصباح. قـال متذمراً: «هو ذا نحـن قريبـان بقدر ما هو ممكن، ولكنك فـي قرارة فؤادك لا تزالين تحجبين نفسـك عني. وليس بوسعي احتمال ذلك».

كان يعرف بأيّ قلق شـديد يبحث جلالة الإمبراطور عنه، على الرغم من أنه لم يسـتطع تصور أين يمكن أن يبحث الرجال عنه. ما أغرب هذا الحب! وماذا عن روكوجو! أي حالة تمـر بها السـيدة المقيمة هناك الآن! حركت فيه الشـعور بالذنب في المقـام الأول، وتفهم غضبهـا أيـاً كان قُدِّر الألـم المواكب لهذا الغضب. وكلمـا زاد تركيزه الممزوج بالولع على البـراءة البعيدة من التصنـع الماثلة أمامه، تاق بصورة أكبر إلـى تخليصها قليلاً من الكبرياء التي تعتصم بها والتي تثير قلقه.

في وقت متأخر من المسـاء أخذته سـنة من النوم، فتراءت له امرأة جميلة جالسـة قرب وسـادته. قالت: «إنك أعجوبة بالنسـبة لي، لكنك لا تهتم بزيارتي، لا، إنك تجلب مخلوقة مضجرة إلى هنا وتبدد نفسك في العطاء لها. وهذا أمر مقيت منك وخطأ جسيم». وشرعت تهز المرأة الراقدة إلى جواره لتوقظها.

اسـتيقظ مـن نومه، مدركاً لحضور جاثـم، مفعم بالخطر. كان المصبـاح قد انطفأ. وفي انزعاج استل سيفه من غمده ووضعه إلى جواره، ثم أيقظ أوكون. أقبلت عليه وقد بدا جلياً أنها خائفة بدورها.

أمرها: «اذهبي، وأيقظي الحارس عند طريق الجسر، واجعليه يحضر مشعلاً صغيراً!».

«لكن كيف يمكنني القيام بذلك، يا مولاي، في هذا الظلام؟».

«لا تكوني سخيفة!». ضحك جينجي، وصفق بيديه فتردد الصدى غريباً وموحشاً.

لـم يسـتطع أحد سـماعه، ولم يجئ أحـد. مضت ترتعش بعنـف على الرغـم منها، بدأ يتصبب منها العرق، وبدا كأنها قد غُشي عليها.

قالـت أوكـون: «إنها على الدوام مخلوعة الفؤاد هكذا علـى أية حال. ما أفظع ما تمر به الآن حتماً!».

أشـفق عليها جينجي، هي الناحلة التي تميل إلى قضاء أيامها محدِّقة في السـماء. قال: «لسوف أوقظه بنفسي. الأصداء المزعجة هي كل ما أحصل عليه رداً على تصفيقي. انتظري هاهنا. ابقي إلى جوارها!».

جرَّ أوكون جراً إليها، ثم مضى إلى البابين المزدوجين الغربيين، ودفعهما ففتحهما، لم يكن هناك وجود للضوء على طريق الجسـر كذلك. كان النسـيم قد هب فأطفأ المشـاعل، والرجال القلائل القائمون على خدمته ـ ابن المشـرف على شـؤون الدار (شـاب اعتاد أن يبعثـه في قضاء المهام) والوصيـف الصغير للغرفة الخصوصية[1] ورجله المعتاد ـ غارقون في النوم. لبىَّ ابن المشرف على الدار نداءه.

«اجلـب مشـعلاً صغيـراً، اجعل رجلي ينقـر وتر قوسـه[2]، وواصلوا إطـلاق صيحات التحذير. ما الذي تقصدونه بالنوم في مكان منعزل كهذا؟ ظننت أن السيد كورِيميتسو هنا. أين هو؟».

«كان فـي خدمتكم، يا مولاي، ولكنه غـادر عندما لم تكن لديكم أوامر تصدرونها إليه، وقال إنه سـيعود ليكون في انتظاركم عند الفجر». اختفى الشـاب باتجاه مسـكن المشرف على الدار، وهو ينقر وتر قوسـه بحنكة (كان ينتمي إلى حرس القصر) ويصيح مراراً حذار من النار!»[3].

فكَّر جينجي في القصر، حيث تسلم الوصفاء الخصوصيون مهامهم بكل تأكيد، وحيث نوبة الحراسة تعلن الآن حكماً[4]. لم يكن الوقت متأخراً حقاً.

عـاد إلـى الداخل مجـدداً، وتلمَّس طريقه إليهـا. كانت لا تزال ترقد مـع أوكون الممدة

(1) شاب وُصف في موضع سابق بأنه «تابع واحد لا يستطيع من في الدار معرفة محياه».
(2) لطرد الروح المؤذية.
(3) صيحة تحذير تؤدي أغراضاً متعددة.
(4) في ساعة الخنزير البري (حوالي التاسعة مساءً) يعلن الوصفاء الخصوصيون الذي يستهلون عملهم في الغرفة الخصوصية أسماءهم للموظف المسؤول، ثم يعلن الحراس الذين يستهلون نوبتهم أسماءهم بالمثل.

إلـى جوارهـا. هتف موبّخاً أوكـون: «ما هذا؟ إن خوفاً مثل خوفك هـو حماقة. في البيوت الخاوية، تصدم الثعالب وأيما شيء آخر الناس بجرعة وافرة من الخوف، نعم، ذلك هو كل ما هنالك. ولن نجعل أمثالها تهددنا طالما أنا هنا». جعلها تجلس في موضعها.

«لم أرقد على هذا النحو، يا مولاي، إلا لأنني أشـعر بوعكة شـديدة، ولا بد أن مولاتي المسكينة مرعوبة تماماً».

«نعم، ولكن لم ينبغي أن يسـتبد بها الرعب؟». جسها، فألفاها لا تتنفس. هزها، ولكنها كانت بلا حراك، وبدا جلياً أنها قد غُشـي عليها، ورأى، عاجزاً عن فعل شـيء، أن روحاً قد تلبستها، هي التي كانت أقرب إلى سذاجة الطفولة.

جـاء المشـعل الصغير، ولـم تكن أوكون في حالة تسـمح لها بالحراك. أسـدل جينجي الستار القريب[1].

أصـدر أمـره: «قرِّبـه!». كان الرجـل، المتردد في الدنـو بصورة أكبر من مـولاه في هذه الأزمـة، قد امتنع عن دخـول الغرفة. أضاف: «أقول لك اجلبه إلـى هنا، ليكن عندك بعض العقل!».

عندئذ في ضوء المشـعل رأى جينجي عند وسـادتها، قبل أن يختفي الشبح، المرأة التي تراءت له في الحلم. على الرغم من الدهشة والرعب، حيث كان قد سمع بمثل هذه الأمور، على الأقل في الحكايات القديمة، فقد أصابه الاهتياج الشـديد لمعرفة ما وقع لها، إلى أن تخلى عن الوقار تماماً، وجثم إلى جوارها، يناديها عسـاها تصحو، لكنها غدت باردة على نحو متزايد، ولـم تعد تتنفس.

لـزم الصمت، لم يكن هناك من يشـير عليه بما يفعله. وكان ينبغـي أن يتذكر أنه في مثل هـذه الأوقات يحتـاج المرء بصفة خاصة إلى كاهن[2]. ولكن علـى الرغم من رغبته في أن يكـون قويـاً، إلا أنه كان أصغر سـناً من أن يواجه مثـل هذا الموقـف، وأدت رؤيته لها وقد فقدهـا تماماً إلى إفقـاده صوابه. صاح وهو يضمها بين ذراعيـه: «آه، يا حبيبتي، عودي إلى

---

(1) لكي يحجب نفسه والسيدة عن الرجل الذي يحمل المشعل.

(2) باعتباره طارداً للأرواح الشريرة.

الحياة! لا تفعلي بي هذا الشـيء الرهيب!» وأفسـح فزع أوكون السابق المجال لعاصفة من البكاء مثيرة للإشفاق.

استجمع شجاعته، متذكراً كيف أن شيطاناً قد هدَّد أحد الوزراء في شيشيندين[1]. ومضى يوبـخ أوكـون: «لا، لا، لا يمكـن أن تكون قد رحلت حقاً! ما أعلـى ما تتردد الأصوات في الليل. صمتاً! صمتاً!».

لقد جعلته النكبة مشوشاً تماماً.

نادى ابن المشـرف على شـؤون الدار «لقد هوجم شـخص ما هنا على نحو غريب من قبل روح ويبدو مصاباً بمرض عضال. ابعث برجلي مباشرة إلى السيد كوريميستو واجعله يحضـر تـواً. وإذا تصـادف أن الخبيـر هنـاك فأبلغه سـراً بالحضور بـدوره. وعليـه أن يلزم الحرص، وأن يحجبا هذا الأمر عن أمهما، فهي لا توافق على مثل هذه المغامرات».

تدبر أمر هذا بقدر كاف من البراعة، ولكنه كان يتعذب، وأسـبغت فكرة أنه ربما تسـبب فـي موتهـا[2] على المـكان ألواناً مـن الفزع تتجـاوز الوصـف. لا بد أن الوقـت قد تجاوز منتصف الليل، واشـتد عصف الريح، فقد مضت أشجار الصنوبر تهتز بجلبة شديدة، كأنها غابة بكاملها، وأطلق طائر مخيف صيحات حادة، فراح جينجي يتساءل عما إذا كانت هذه الصيحـات صادرة عـن بومة. كانت الدار كئيبة للغاية، شـديدة الانعـزال، وقد لفها صمت ثقيل. راح يسـائل نفسـه في أسى لا طائل من ورائه: «آه، لماذا، لماذا اختار أن يقضي الليلة في هذا المكان الفظيع؟» تشبثت به أوكون، التي غدت شديدة التوتر، مرتجفة كأنها توشك على أن تلاقي حتفها. وأمسـك بها، وهو يتسـاءل على نحو بائس عما عسـاه سيحدث لها. كان هـو وحـده الذي ظل صافي التفكير، والآن وصل بدوره إلى أنه لم يعد يملك في الأمر حيلة.

تذبـذب ضوء المصباح، بينما من الامتدادات الغارقة في الظلال عبر السـتار القائم بينه

---

(1) تفيد الأسطورة أن المستشار تاداهيرا كان يمر بمقر الإمبراطور في شيشيندين في وقت متأخر من إحدى الليالي، عندما أمسك شيطان بطرف غمده، وهدده، فاستل سيفه، وصاح: «كيف تجرؤ على التدخل في أمر مبعوث لجلالة الإمبراطور؟»، فلاذ الشيطان بالفرار.

(2) لا يزال يبدو أنه يعتقد أنها لا تزال على قيد الحياة بصورة ما.

وبين الغرفة[1]، تناهى صوت ارتطام ووقع أقدام «أشياء» تسير، وأحس بها مقبلة وراءه. لو أن كوريميستو يجيء سريعاً فحسب! ولكن كوريميستو يصعب رصده، وجعلت الآماد الزمنية المترامية التي مرت بينما خادم جينجي يبحث عنه تلك الليلة تبدو كألف ليلة.

أخيراً، جعلت صيحة ديك بعيدة الأفكار تنطلق مدوية في رأسه. ما الذي يمكن أن يكون قد جاء به إلى هنا ليخاطر بحياته في غمار مثل هذه الكارثة؟ الآن بدا أن طيشه في هذه العلاقات الغرامية قد جعل منه عبرة للأبد. دع جانباً محاولة إخفاء هذا الأمر، فإن الحقيقة ستظهر للعلن دوماً ولسوف يسمع بها جلالة الإمبراطور، وستكون على لسان الجميع، ولسوف ينشرها رعاع المدينة في كل مكان. ولن يعرفه الجميع إلا على أنه أحمق.

وصل كوريميتسو أخيراً. كان في خدمة جينجي على الدوام سواء أكان ذلك في منتصف الليل أم عند الفجر، غير أنه في تلك الليلة من بين كل الليالي كان مقصراً ولم يلب نداء مولاه. جعله جينجي يدخل عليه، على الرغم من استيائه، وكان لديه الكثير مما يستحق أن يرويه إلى حد أن الكلمات قد خانته في البداية. أدركت أوكون أن كوريميتسو كان هنالك، فبكت لتذكرها كل ما حدث. وانهار جينجي بدوره. فبينما كان وحيداً احتمل الأمر كأفضل ما يستطيع، واحتضن حبيبته بين ذراعيه، ولكن وصول كوريميتسو جلب له راحة أثارت حزنه، ولبعض الوقت لم يملك إلا أن يبكي ويبكي.

أخيراً كفكف دمعه، وقال: «حدث شيء بالغ الغرابة هنا، شيء فظيع يتجاوز الكلمات في لحظة رهيبة للغاية، اعتقد أن المرء يرتل الكتب المقدسة، ولذا أرسلت في استدعاء أخيك للقيام بذلك ولإقامة الصلوات».

رد كوريميتسو: «لقد عاد إلى الجبل[2] أمس، ولكن هذا كله غريب تماماً. هل يمكن أن صحة سيدتي لم تكن على ما يرام؟».

«لا، لا، على الإطلاق».

بدا جينجي الذي عاد إلى البكاء مجدداً، بديع الحسن على نحو لا يعرف النقصان إلى

---

(1) يبدو أن جينجي وأوكون والسيدة في الجناح والستار المطوي بينهم وبين الغرفة.

(2) جبل هابي.

حد أن كوريميتسو بدوره غلبه الحزن، وانخرط في البكاء، ففي نهاية المطاف، وفي غمار هذه الأزمة، كانوا بحاجة إلى شخص ناضج، شخص ذي خبرة كبيرة بالدنيا، فقد كانوا جميعاً أصغر سناً من أن يعرفوا حقاً ما الذي يتعين عليهم القيام به.

قال كوريميتسو: «المشرف على الدار هنا لا بد ألا يكتشف الأمر، وإلا كانت تلك كارثة. وربما كان من الممكن الوثوق به هو نفسه، ولكن الأتباع المحيطين به سينشرون القصة. ولا بد لكم، يا مولاي من مغادرة هذه الدار في التو».

«لكن كيف يمكن لأي مكان آخر أن يضم عدداً أقل من الأشخاص؟».

«نعم، ذلك صحيح، ففي داري ستبكي النسوة الحزينات ويأخذن في النواح، وهناك منازل عديدة بحيث أن الجيران جميعاً سيلاحظون ما يجري، وسرعان ما يعرف الجميع. أما في معبد بالجبل فإن هذا النوع من الأمور ليس بالأمر المجهول، وفي مكان كذلك قد يكون من الممكن تجنب لفت الأنظار».

ثم واتت كوريميتسو فكرة فقال: «لسوف أمضي بها إلى التلال الشرقية، إلى حيث تقيم وصيفة كنت أعرفها بصفتها راهبة. وقد كانت مرضعة أبي، وهي طاعنة في السن للغاية. والحي يبدو مزدحماً، لكن المكان هادىء تماماً بالفعل ومحتجب عن العيون». أمر بجلب عربة جينجي، حيث جعل طلوع النهار الناس في الدار يعودون إلى أعمالهم.

لم توات جينجي القوة لرفعها بين ذراعيه، وقد كان كوريميتسو هو الذي لفها في حصيرة مبطنة ووضعها في العربة. وكانت نحيلة للغاية إلى حد أنه اجتذب إليها بأكثر مما نفر منها. ولم يكن لفها لفاً محكماً، فتبدى شعرها، وجعل هذا المشهد عيني جينجي تغرورقان بالدموع، ودفعه إلى حزن بالغ إلى حد أنه عقد العزم على أن يبقى معها حتى النهاية.

غير أن كوريميتسو لم يقبل بذلك، وقال: «لا بد لكم، يا مولاي، من الركوب والعودة إلى نيجو قبل أن يخرج الكثير من الناس». وحمل أوكون في العربة كذلك، ثم أعطى جينجي جواده، وانطلق على قدميه، بعد أن رفع أسفل سرواله الذي لملمه إلى أعلى[1]. كان

(1) كانت ساقا السروال الملموم تربطان عادة عند الكاحلين بقيطان، ولكن حرصاً على سهولة الحركة فإن كوريميتسو يرفع القيطان إلى أسفل ركبتيه مباشرة.

موكباً غريباً، ولكن حالة جينجي المفعمة باليأس أبعدت عن ذهن كوريميتسو أي تفكير في نفسه[1]. ووصل جينجي إلى داره غائب الذهن عما حوله ومحتفظاً بوعيه بالكاد.

«أيـن كنتم، يا مولاي؟»، أرادت النسـوة معرفة الرد، وأضفـن: «إنكم لا تبدون في خير حال». ولكنه مضى مباشـرة إلى فراشـه، الذي تحفه السـتائر، وضم يده إلى قلبه، وأسـلم نفسه لعذابه.

مضى يسـأل نفسـه فـي معاناة شـديدة: كيف أمكننـي ألا أمضي معها فـي العربة؟ كيف سيكون شعورها إذا أفاقت؟ ربما ستفترض أنني انتهزت هذه الفرصة لألوذ بالفرار وسوف تكرهني. شعر بالغثيان، واستبد الصداع برأسه.

تسـاءلت وصيفاتـه عن السـر فـي أنه لم يسـتيقظ على الرغـم من أن الشـمس قد علت فـي السـماء. وعلى الرغم من تقديمهـن لوجبة الإفطار، فإنه رقد هناك فحسـب، غارقاً في المعاناة، كسـير الفؤاد. وفي غضون ذلك أقبل المبعوثون ـ الوصفاء الشـبان من دار معالي الوزير[2] من لدن جلالة الإمبراطور، الذي قلق كثيراً لعدم العثور عليه بالأمس. ومن داخل ستائره الحاجبة دعا جينجي النقيب أمين السر: «ادخل ولكن، ابق واقفاً!»[3].

قال موضحاً: «في الشهر الخامس، مرضت مرضعة سابقة لي مرضاً عضالاً إلى حد أنها قد حلقت شـعرها، وتلقت التعاليم، وقد بدا أن ذلك جعلها في حالة أفضل، ولكن مرضها تجـدد أخيـراً وتفاقم، طلبت في حالتهـا الواهنة تلك أن أراها للمـرة الأخيرة، وقد مضيت إليها لأنها، في نهاية المطاف، كانت قريبة مني منذ كنت وليداً. واعتقدت أنها ستتألم إذا لم أزرهـا. ولسـوء الطالع أن إحدى خادماتها والتي لم تكـن في صحة جيدة قد قضت نحبها، قبل أن يسـتطيعوا إبعادها عن الدار. وخوفاً مما سـيعنيه هذا بالنسـبة لي تركوا اليوم يمضي قبل أن يبعدوها، ولكنني اكتشفت جلية الأمر، وهكذا ففي شهر مليء بالطقوس المقدسة،

(1) قبل إزعاج الاحتكاك بالموت والحرج الناشيء من مشاهدته يسير على قدميه، بينما كان ينبغي لرجل في مكانته أن يمضي راكباً.

(2) إخوة زوجته.

(3) جينجي في الغرفة، حيث لا تزال الستائر الحاجبة مسدلة. وكان من شأن تو نو تشوجو، لو أن جينجي كان قد سمح له بالجلوس، أن يتعرض للتلوث نفسه من (الاحتكاك بالموت) على نحو ما حدث لجينجي، وكان سيمرره إلى عائلته، القصر، وهلم جراً.

فإن هذه المشقة المزعجة تعني أنني لا أستطيع بضمير مرتاح أن أمضي إلى القصر[1]. إنني أعتذر عن الحديث معك على هذا النحو، ولكنني أعاني من الصداع منذ طلوع النهار، ولا بد أنني أعاني من نوبة برد».

رد النقيب أمين السر: «لسوف أبلغ جلالة الامبراطور بهذا، وقد كان هناك عزف للموسيقى البارحة، وبحث عنك في كل مكان ولم يبد مسروراً على الإطلاق».

تحدَّث الآن عن نفسه: «ما هو حقاً هذا التلوث الذي علق بك؟ أخشى أنني أجد أن قصتك يصعب تصديقها».

أحس جينجي بوخزة نذير: «وفر على جلالته التفاصيل، وما عليك إلا إبلاغه بأنني قد تأثرت ببعض الحزن كأشد ما يكون. وفي غمار بؤسه رفض استقبال أي أحد. استدعى الحاجب مراقب الحسابات[2]، وجعله يبلغ جلالته رسمياً تقريراً عن حالته. أما بالنسبة لمعالي الوزير فقد كتب يقول إنه، للسبب الذي ذكره، ليس بمقدوره المثول في البلاط.

أقبل كوريميتسو تحت جنح الظلام. كانت هناك قلة من الناس لأن كل زوار جينجي قد غادروا من دون الجلوس لدى تحذيرهم مما أصابه من تلوث. استدعاه جينجي إلى غرفته: «أخبرني، هل تيقنت تماماً من أنه لم يكن هناك أمل؟». ضغط بكميه على عينيه، وانطلق يبكي.

اغرورقت عينا كوريميتسو كذلك بالدموع: «نعم، يا مولاي، أعتقد أن كل شيء قد انتهى. لم أستطع البقاء طويلاً، وقد رتبت مع الكاهنة العجوز الطيبة التي أعرفها القيام غداً بما ينبغي إنجازه، حيث أنه يوم مناسب»[3].

(1) هذا الموت (المزعوم) يعني أن كلاً من جينجي وأهل الدار قد تعرضوا للتلوث. ويتعين على جينجي البقاء في الدار في إطار نوع من الحجر لمدة ثلاثين يوماً، حتى منتصف الشهر التاسع، وهو شهر حافل بشكل خاص بطقوس الشنتو. وفضلاً عن ذلك، فإن الموفد الإمبراطوري لحضور طقس مهم في (آيسي كانامي- ساي) قد غادر في الحادي عشر من الشهر، وبهذه المناسبة فإن الكهنة البوذيين والأشخاص الذين يلزمون الحداد يحظر عليهم دخول القصر.

(2) كورودو نو بن، أخ أصغر لتو نو تشوجو. ربما يكون جينجي قد تشكَّك في تونو تشوجو، الذي لا يصدقه، وأراد أن يتيقن من أن رسالته ستصل على الوجه الصحيح.

(3) للجنازة بحسب التقويم.

«ماذا عن وصيفتها؟»

«أشك في أنها سيقدر لها البقاء على قيد الحياة بعد هذا. فقد بدا صبيحة اليوم أنها على استعداد لإلقاء نفسها من فوق صخرة في غمار توقها للانضمام إلى سيدتها، وقد أرادت أن تعـرف من في دار سـيدتها بالأمر، ولكنني نجحت في إقناعها بـأن تكون صبورة وأن تفكر جيداً في الأمور».

تأثر جينجي كثيراً: «إنني أشعر بمرض عضال بدوري، وأتساءل ما سيصير إليه أمري».

«لستم بحاجة، يا مولاي، إلى التفكير على هذا النحو، فكل الأمور تمضي حسبما ينبغي لها، ولن أدع أحداً يعرف بالأمر، وأعتزم الاهتمام بكل شيء بنفسي».

«أحسـب أنك على حـق. لقد كنت أحاول إقناع نفسـي بذلك أيضـاً، ولكن من المؤلم للغاية أن تشعر بالذنب حيال التسبب بصورة حمقاء في وفاة شخص. لا تقل شيئاً لشوشو[1] أو لأي شـخص آخر!»، وواصل الحديث للتأكد من أن كوريميتسـو سـيلزم الصمت بشأن هـذا الأمـر: «لا توافق أمـك بصفة خاصة بقوة على هذه النوعية مـن الأمور، وإذا عرفت به فلن أستطيع مواجهتها أبداً». فأكد كوريميتسو على نحو بعث في نفسه الارتياح التام أنه قد أبلغ رهبان المعبد قصة مختلفة تمام الاختلاف.

«كم هذا غريب! ما الذي يمكن أن يجري؟». غمغمت النسوة فيما هن يصغين لنتف من هذا الحوار. «إنه يقول إن تلوثاً قد أصابه وإنه لا يسـتطيع الذهاب إلى القصر؟ ولكن لماذا يئنان ويتهامسان على ذلك النحو؟».

«واصل هذا العمل الطيب إذن». أعطى جينجي التوجيهات لكوريميتسو بشأن الشعائر المقبلة.

رد كوريميتسـو، ناهضـاً مـن جلسـته: «ولكن، يا مـولاي، ليس هذا بالوقت المناسـب للتباهي الذي يلفت الأنظار».

لـم يسـتطع جينجي احتمـال رؤيته ينصرف. «لـن تحب هذا، أعرف ذلـك، ولكنني لن

(1) وصيفة، ربما كانت أخت كوريميتسو.

أعرف السلام إلى أن أرى جثمانها مرة أخرى. لسوف أمضي إلى هناك معك».

أعـرب كوريميتسـو عن اعتقاده بأن هذا الأمر حافل بالمخاطـرة، ولكنه رد: «فليكن، يا مـولاي، إذا كانـت تلك هـي رغبتك، لا بد أن تبدأ على الفـور، إذاً، وأن تعود قبل أن تنتهي الليلة».

بدَّل جينجي ثيابه، وارتدى عباءة الصيد التي كان قد ارتداها أخيراً في جولاته السـرية، ومضى قدماً، كان مكتئباً والحزن يثقل كاهله، وراح يتسـاءل بعد هذا اللقاء مع الخطر عما إذا كان ينبغـي عليـه حقاً القيام بالرحلة الحافلة بالمخاطر، ولكن عذابات الحزن دفعته إلى الاسـتمرار، فلـو أنه لم ير جثمانها الآن، فمتـى في كل الدهور المقبلة سـينظر إليها مجدداً على ما كانت عليه؟.

كمـا هي الحـال على الدوام، اصطحب معه خادمه وكوريميتسـو، بدا الطريق ممتداً بلا انتهاء، وتألق قمر الليلة السـابعة عشـر[1] على نحو باهر للغاية إلى حد أنه على امتداد ضفة نهر كامل لم تظهر أضواء مرافقيه[2] إلا بالكاد، وكان بأسه بالغاً إلى حد أن المشهد المترامي نحو توريبينو لم يزعجه على الإطلاق[3]، وأخيراً بلغ مقصده.

كان ثمة ما يثير القلق في الحي، ودار الراهبة المسقوفة بالألواح، إلى جوار المعبد الذي ترتل فيه ترانيمها، تبعث الكآبة في النفس. لاح ضوء مصباح خافت عبر الشـقوق، وسـمع بكاء امرأة في الداخل. في الخارج، مضى راهبان أو ثلاثة رهبان يتجاذبون أطراف الحديث بيـن نوبـات من الترديد الصامت لاسـم أميدا[4] كان الطقس الديني الـذي يتصدر الليل في المعابـد القريبـة قد تم الانتهـاء منه وخيم هدوء عميـق، بينما باتجاه كيو ميـزو كانت هناك أضـواء ومسـاكن كثيفة. مضـى راهب جليل، هو ابـن الراهبة العجوز، يردد ترانيم مقدسـة على نحو يثير الرهبة في النفوس. أحس جينجي بالرغبة في البكاء حتى نفاد دموعه.

---

(1) القمر بعد اكتماله بدراً بليلتين.

(2) حملة المشاعل الذين ينطلقون ركضاً أمامه.

(3) ينطلق جينجي نحو نهر كامو، متجهاً إلى الطرف الجنوبي للتلال الشرقية. في البعيد، إلى يساره باتجاه الشرق، يرى أرض توريبينو المتقدة، حيث سيتم حرق جثمان يوجاو.

(4) النينبوتسو، وهي صيغة للنداء باسم أميدا، كانت تردد عادة بصوت مسموع، ولكن ليس في حالة جنازة. وبوذا أميدا يرحب بالأرواح في فردوسه.

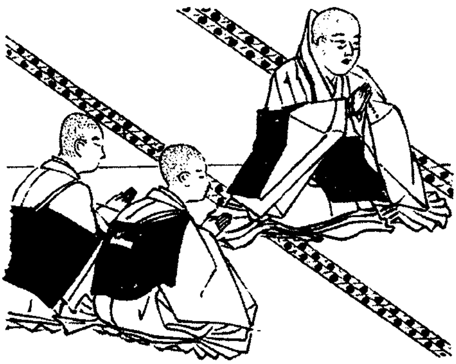
ولج المكان ليجد المصباح وقد أُبعد إلى الجدار[1]، وأوكون جاثمة وراء الستار، وأدرك حزنها الذي ينفذ إلى النفوس. لم يخالجه الخوف. كانت «هي» جميلة كعهدها أبداً، ومع ذلك فلم يفصح مظهرها عن تغير. أمسك بيدها، وهتف ضارعاً، منتحباً: «آه، دعيني أسمع صوتك من جديد! أي صلة خالدة بيننا كان يمكن أن تجعلني أهواك هذه الفترة القصيرة للغاية من أعماق فؤادي، لا لشيء إلا لتدعيني على نحو قاس للحزن؟». دهش الرهبان الذين لم يعرفوا من عساه يكون بسبب دموعه المنسابة، وبكوا معه.

دعا جينجي أوكون للمجيء إلى نيجو، ولكنها لم ترد إلا بقولها: «أي دار يمكن أن تكون لي، يا مولاي، الآن وقد فقدت السيدة التي لم أتركها طوال السنوات المنقضية منذ كنا طفلتين معاً؟ لكني أرغب في أن تعرف أخريات ما جرى لها. وأياً كان مدى فظاعة ذلك، فليس بوسعي تحمل اتهامهن لي بأنني لم أبلغهن بجلية الأمر». وواصلت حديثها وسط دموع مريرة: «لست أتمنى إلا اللحاق بدخانها والصعود معها، إلى السماء!».

قال معزياً: «إنك، بالطبع، تتمنين ذلك، ولكن تلك هي الحياة، كما تعلمين، ولم يحدث أن كان هناك فراق قط بغير ألم. وسيحل الأوان بالنسبة لنا جميعاً، عاجلاً أم آجلاً، فتجلدي، وثقي بي!». وأضاف على نحو مضطرب: «ومع ذلك، فإنني حتى فيما أتحدَّث الآن يساورني الشك في أن مجال الحياة سيمتد أمامي طويلاً».

تدخل كوريميتسو في الحديث: «يا مولاي، سرعان ما سيطلع الفجر، وينبغي أن تشرع في العودة إلى الدار».

بقلب مثقل، تطلع جينجي مراراً إلى الوراء، فيما هو ينطلق مبتعداً.


رهبان يناجون أميدا

كانت الرحلة ندية للغاية[2]، وبدا له أنه كان يضرب عاجزاً عن الرؤية في ضباب الصباح الكثيف. كانت ممدة هناك على نحو ما كانت ترقد في حياتها تحت ردائه القرمزي ذاك، الرداء الذي كان قد وضعه عليها البارحة لقاء

(1) بعيداً عن الجثمان، الذي سُجي للسهر عليه.
(2) «الندى» يعني الدموع.

أحـد أرديتها. ماذا كانت الرابطة التي تصلهما حقاً؟ على امتداد الطريق حاول التوصل إلى ذلك. كان كوريميتسـو إلى جواره مجدداً لمسـاعدته، لأنه في حالته الراهنة لم يكن مقعده بالآمـن تمامـاً، ولكن حتى على الرغم مـن ذلك، فإنه انزلق إلـى الأرض مع وصولهم إلى ضفة نهر كامو.

قـال من أعماق معاناته: «ربما قد تضطر لتركي هنا بجانب الطريق، فلسـت أدري كيف سأصل إلى الدار».

أدرك كوريميتسـو، الـذي اسـتبد به القلق، أنه لـو لم تخنه فطنته، لما تـرك جينجي يصر على القيام بهذه الرحلة. فغسـل يديه في النهر، وابتهل في ذروة متاعبه لكانون كيوميزو[1]، ولكن لم يمنحه المزيد من الحكمة فيما يتعين عليه القيام به. استجمع جينجي شتات نفسه بحزم، وابتهل في فؤاده للبوذات[2]، وبما تمكن كوريميتسو أن يقدمه له من عون أفلح على نحو ما في العودة إلى نيجو.

اسـتنكرت وصيفاته هذا التسـكع الغامض في أغوار الليل، وأعربن عن شكواهن في ما بينهن: «هذا النوع من الأمور لا يبدو جيداً، وأخيراً مضى في الانطلاق بمزيد من القلق في هـذه الجولات السـرية، وبالأمس بدا حقـاً مريضاً مرضاً عضالاً، لماذا تحسـبن أنه يجوب الآفاق على هذا النحو؟».

فيمـا رقد هنالك، لم يبد حقاً في حالة سـيئة للغاية، وبعد يوميـن أو ثلاثة أيام كان واهناً للغايـة. وقـد تأثـر جلالته بعمق لـدى علمه بحالته. وسـرعان مـا تردد صـوت المعالجين الصاخب في كل مكان، بينما تواصلت بأعداد تتجاوز الحصر إقامة الطقوس والابتهالات وعمليـات التطهير من الدنس والتلوث. ومضت البلاد بأسـرها تنـوح على جينجي، الذي كان كمـال بهائـه يثيـر التوجـس بالفعل، والـذي بدا الآن أنه مـن غير المحتمـل أن يمتد به العمر.

---

(1) ربما كان لا يزال بمقدور كوريميتسو أن يلمح كيو ميزو ديرا إلى الشرق. والمعبد مكرَّس لشكل من أشكال كانون، بوذيساتفا الشفقة والمخلص من الخطر.

(2) البوذات (بوتوكي) التي ابتهل إليها جينجي يمكن أن تكون واحداً أو كثيرين. وهو بدوره ربما كان يفكِّر في كانون كيو ميزو.

خلال معاناته استدعى أوكون إلى جانبه، ومنحها غرفة قريبة منه، وألحقها بخدمته. وأفلح كوريميتسو في تهدئة مخاوفه، على الرغم من القلق الذي أخذ بخناقه، وساعد أوكون على أن تجعل نفسها مفيدة، آخذاً في الاعتبار أنها، في نهاية المطاف، ليس لها من ملاذ آخر تلجأ إليه. واستدعاها كلما شعر بأنه أفضل قليلاً، وأسند إليها أموراً تقوم بها، وسرعان ما تعرفت بطاقم العاملين لديه جميعاً. وعلى الرغم من أنها ليست بالحسناء بارعة الجمال، إلا أنها في حدادها القاتم[1] بدت شابة لطيفة المظهر تماماً.

قال لها فيما بينهما: «إنه لأمر غريب كيف أن الوقت المحدود الذي أمضيناه أنا وهي معاً يبدو في النهاية أنه قصَّر عمري كذلك. ولو قُدِّر لي أن أحيا طويلاً لرغبت في القيام بكل ما في وسعي من أجلك، لأخلصك من ألم فقدان السيدة التي وثقت بها كل تلك السنين، ولكن والحال على ما هي عليه، فإنني بسبيلي إلى اللحاق بها سريعاً. لكم أود ألا تكون الأمور على هذا النحو!». جعلها مرأى دموعه المنهمرة تنسى أحزانها ولا تتوق إلا لأن يعيش عمراً مديداً.

لم تزدد أمور داره إلا اضطراباً، فيما أقبل من القصر مبعوثون يزيد عددهم على قطرات المطر المنهمرة من السماء. وقد شعر بالأسف الشديد لمعرفته بأنه يسبب لجلالته مثل هذا القلق، وبذل قصارى جهده لاستعادة قوته. وزاره معاليه بصفة يومية وربما بفضل مساعداته المفعمة بالاهتمام اختفى اعتلال جينجي بعد عشرين يوماً أو يزيد من المرض العضال، وبدا أنه يشق طريقه إلى استعادة عافيته.

في تلك الليلة انتهت العزلة التي فرضها على جينجي تلوثه، وعاد إلى مسكنه في القصر بتأثير الإجلال والتقدير لجلالته الذي أحس بقلق بالغ عليه. وأقبل معاليه لزيارته هناك مستقلاً عربته، واستفسر ملحاً عن فترة عزلته. وأحس جينجي لبعض الوقت كما لو كان هذا كله غير واقعي وأنه عاد إلى الحياة في عالم مجهول.

بحلول اليوم العشرين من الشهر التاسع، كان قد أصبح في خير حال، حقاً إنه بدا ناحلاً كأشد ما يكون النحول، ولكن لذلك السبب عينه فإن حسنه قد اكتسب بهاء جديداً ومتميزاً

(1) كان من شأنها بصورة معتادة أن ترتدي ملابس من اللون الرمادي الفاتح، ولكن صلتها الوثيقة بيوجاو اقتضت ظلاً أكثر دكنة من ظلال اللون الرمادي.

وكان معرَّضاً كذلك لنوبات من الكآبة الشاردة وانهمار الدموع، الذي أثار الفضول وأفسح المجال لشائعة قوامها أن روحاً لا بد قد تلبسته.

في وقت مبكر من مساء هادىء استدعى أوكون ليتجاذب أطراف الحديث معها. قال: «ما زلت لا أفهم لماذا منعتني من معرفة من عساها تكون؟ كان يمكن أن يكون قاسياً من ابنة غواص، لو أنها كانت كذلك حقاً، أن تتجاهل حبي الواضح وأن تبعدني عنها كل هذا البعد».

«لماذا كان ينبغي أن ترغب في إخفاء من عساها تكون عنك يا مولاي؟ متى كان ينبغي أن ترى من المناسب أن تخبرك باسمها الذي لا أهمية له على الإطلاق؟ لقد جئت إليها منذ البداية متخفياً في إهاب بالغ الغرابة إلى حد أنها، على نحو ما قالت هي نفسها، لم تستطع أن تصدق تمام التصديق أنك حقيقي. إن إصرارك على حجب هويتك عنها جعل من الواضح لها بما فيه الكفاية من تكون، ولكن ما آلمها هو أنك بدا من الواضح للغاية أنك لا تنشد سوى لهوك وتسليتك».

«أي صراع إرادات تعس هذا؟ لم تكن لديَّ رغبة في البقاء بعيداً عنها ولكن، كما ترين، فلا يزال لديَّ قدر محدود للغاية من الخبرة بهذه النوعية من العلاقات العاطفية بحيث إن الآخرين ربما ينتقدونني. وفي مركزي فلا بد لي من أن أكون حريصاً بشأن العديد من الأمور، خوفاً من اللوم من جلالته في المقام الأول. وليس لديَّ من حرية الحركة ما يسمح لي بالمضي في التودد لأي امرأة أشاء، لأن ما أقوم به كائناً ما كان يمكن أن يجعلني عرضة للتقريع. ومع ذلك، فقد كنت لا أزال منجذباً إليها على نحو بالغ الغرابة بعد ذلك اللقاء العرضي في المساء الأول بحيث أنني جازفت بزيارتها، في نهاية المطاف، وهو الأمر الذي أفترض أنه كان برهاناً كافياً على أن العلاقة بيننا مقدرة مسبقاً. كم كان الأمر كله محزناً! كم كان مريراً! لماذا امتلكت فؤادي هذا الامتلاك الكامل إذا كان مقدراً لي ولها حقاً أن يبقى أحدنا مع الآخر مثل هذا الوقت القصير؟ أخبريني بالمزيد عنها! لماذا تحجبين أي شيء الآن؟ إنني أُعدّ أيقونات كل سبعة أيام تكريماً لذكراها، فلمن ينبغي في قرارة نفسي أن أكرسها؟»[1].

(1) كانت طقوس لإرشاد الروح إلى بعث حسن الطالع تُقام كل سبعة أيام خلال الأيام التسعة والأربعين الأولى بعد

«حسناً للغاية، يا مولاي، لست أرى سبباً يدعوني لعدم إعطائك الردود التي تنشدها. كل ما رغبت فيه هو تجنب القيل والقال، بعد وفاة سيدتي، عن أمور أبقتها هي نفسها طي الكتمان خلال حياتها. لقد مات أبواها وهي لا تزال صغيرة. كان أبوها، الذي عُرف بالنقيب ذي المرتبة الثالثة[1] شديد الحب لها، ولكن يبدو أنه قد عانى كثيراً من جراء إخفاقه في التقدم في الحياة العامة، وفي النهاية ثبطت همته للغاية بحيث عجز عن مواصلة الحياة. وتصادف بعد موته أن سعادة أمين السر الذي كان آنذاك ملازماً[2] بدأ في الحضور لمقابلتها، وواصل القيام بذلك بإخلاص تام ثلاث سنوات. ومع ذلك فإنها في الخريف الماضي تلقت تهديدات مفزعة من دار وزير الميمنة[3]، وقد أخافتها هذه التهديدات كثيراً حيث كانت شديدة الحساسية، بحيث أنها لاذت بالهرب لتختبىء في دار مرضعتها في الجزء الغربي من المدينة، وقد كانت الحياة هناك شاقة للغاية، وأرادت الانتقال إلى التلال، ولكن في هذا العام أصبح ذلك الاتجاه موصداً بالنسبة لها[4]، فتجنبته باللجوء إلى المكان البائس الذي صادفتها فيه، أخيراً، لاستيائها البالغ، وقد كانت خجولاً للغاية بصورة استثنائية بحيث أنها أحست بالحرج من أن تُشاهد وهي تعيسة، وتظاهرت بأنها خلية البال عندما كانت معك».

هكذا إذن كان الأمر! الآن تفهم جينجي ما كان، ومست ذكراها وتراً حساساً في نفسه بعمق يفوق أي وقت مضى. «لقد سمعت النقيب أمين السر ينوح على فقدانه طفلة، فهل كانت هناك طفلة؟».

«نعم، يا مولاي، ولدت في الربيع قبل الماضي، وهي طفلة صغيرة جميلة».

الوفاة، وبعد ذلك على امتداد فواصل زمنية متباعدة. وكانت أيقونات جديدة للربانيات البوذية المعنية تعد لكل طقس خلال فترة التسعة والأربعين يوماً الأولى.

(1) سانمي نو تشوجو. كان قد احتل المرتبة الثالثة من مراتب البلاط «سانمي» وشغل منصب نقيب في حرس القصر، وكان هذا الجمع بين الجانبين أمراً غير مألوف، لأن النقيب لا يشغل عادة المرتبة الرابعة. ومع ذلك، حيث أن رجلاً يحتل المرتبة الثالثة كان نبيلاً بارزاً، فإن يوجاو تكون من الناحية النظرية قد ولدت لعائلة من الطبقة العليا، التي ناقشها الشبان في تلك الليلة المطيرة.

(2) ملازم في حرس القصر. وهو يبدو بصورة موجزة حاملاً هذا اللقب في «شجرة البولفينية».

(3) يوضح تو نو تشوجو في «شجرة الوزَّال» أن هذه التهديدات أرسلتها إليها زوجته «شي نو كيمي» الابنة الرابعة لوزير الميمنة، التي لا تزال تقيم في دار أبيها.

(4) ربما «عقبة كبرى» (أوفو تاجاري) ناشئة عن تحركات ربة تعرف باسم تايشوجون ماو تينو.

«أين هي؟ لا ينبغي أن تحدثي أحداً بأمرها، كل ما عليك هو أن تعطيني إياها، ستكون فرحة كبرى أن تكون لديَّ تذكاراً لأمها التي كانت تعني الكثير بالنسبة لي». وواصل الحديث: «ينبغي حقاً أن أبلغ النقيب أمين السر، ولكن عندئذ فإنني يتعين عليَّ احتمال تقريعاته التي لا معنى لها. ولست أرى ما يمنعني من إحضارها. أرجو أن تلفقي قصة ما للمرضعة التي لا بد أنها تحتفظ بها الآن وأن تحضريها إلى هنا».

«سأقوم بذلك بكل سرور، يا مولاي. فلست أحب أن أفكر فيها وهي تكبر بعيداً في غربي المدينة. لقد تركتها سيدتي هناك لا لشيء إلا لأنها لم يكن لديها شخص آخر للقيام على العناية بها على الوجه الصحيح».

بينما كان شفق مسالم يخفت متحولاً إلى مساء تحت سماء جميلة، أطلقت زيز الحصاد صريرها بصورة متعثرة من الحديقة الآخذة في الاحتجاب عن العيون، وهنا وهناك مضت ألوان الخريف تتوهج. مضت أوكون تتلمس بناظريها هذا المنظر، الذي يشبه لوحة إلى حد بعيد، وراحت تبدي دهشتها حيث تجد نفسها في وسط هذا المحيط البهيج، واحمرَّ وجهها خجلاً لتذكر الدار ذات زهور حسناء الشفق.

أعاد صوت حمامة مبحوح انطلق من وسط أشجار الخيزران إلى ذاكرة جينجي، بوخز من الألم المقترن بتوهج العاطفة، نظرة الفزع في عينيها، عندما تردد صوت حمامة في تلك الليلة في الدار العتيقة «كم عمرها؟ أحسب أنه كان من الواضح على نحو كاف من نحولها الشديد أنها ليست مقدراً لها أن تعيش طويلاً».

«أعتقد أن سيدتي كانت في التاسعة عشرة من عمرها. وقد تركني موت مرضعتها يتيمة، وعندما أتذكر كم كان والد سيدتي عطوفاً وكيف رباني مع ابنته فإنني لا أعرف كيف سأواصل العيش. والآن أتمنى لو لم أكن مقربة منها على هذا النحو. لقد أمضيت سنوات طويلة معتمدة على سيدة كانت، في نهاية المطاف، بالغة الهشاشة!».

«النحول هو الذي يمنح المرأة جاذبيتها. لست أكترث بامرأة تصر على تقدير ملكاتها الذهنية، وأفضل امرأة مطواعة، ربما لأنني أنا نفسي لست بشديد الذكاء أو الثقة بالنفس، امرأة قد يسهل على الرجل استغلالها إن لم تلزم الحرص، ولكنها مع ذلك واعية وسعيدة

بما فيه الكفاية بحيث تفعل ما يريده زوجها. وإنني أعرف أنني سأزداد حباً لمثل هذه المرأة كلما عاشرتها مدة أطول وأشكلها حسب مشيئتي».

قالت أوكون التي انخرطت في البكاء: «إنني آسفة أشد الأسف، يا مولاي، عندما أفكر بأي قدر من الكمال كانت سيدتي تطابق المثال الذي تتطلع إليه».

كانت السحب قد انتشرت في السماء، وتحول النسيم إلى برودة، فغمغم جينجي في يأس شارد:

«عندما تبدو لي السحب على الدوام دخاناً يرتفع من محرقتها

بأي ولع ترتاح نظرتي المحدقة حتى في سماء المغيب!»

لم تحر أوكون رداً، وحدَّثت نفسها بقلب مفعم ألماً: لو أن سيدتي كانت لا تزال على قيد الحياة فحسب!

في غمار التذكر اعتز جينجي حتى بالضجيج المنبعث من خشبات القصار، التي كان قد وجدها شيئاً لا يُحتمل في ذلك الحين. فمضى يدندن لنفسه فيما هو راقد استعداداً للنوم: «الليالي بالغة الطول الآن»[1].

كان الفتى الصغير من دار نائب أيو لا يزال يمضي من حين لآخر للقيام بخدمته، ولكنه لم يعد يجلب لأخته النوعية ذاتها من الرسائل، فخلصت في تعاسة إلى أن جينجي قد تخلى عنها. ومع ذلك، فقد شعرت بالأسف لأن المرض داهمه. وكانت مغادرتها الوشيكة في الرحلة الطويلة إلى مقاطعة زوجها تسبب لها بؤساً شديداً إلى حد أنها اختبرت جينجي لتتبين ما إذا كان قد نسيها حقاً. كتبت تقول: «إنني أدرك أنك لست في خير حال، ومع ذلك فليس بمقدوري التعبير على الوجه الصحيح عن أمنياتي لك.

لم تستفسر منذ وقت جد طويل عن السر في أنني لم أسأل عنك

ربما ستفهم اضطراب خواطري بأسره

(1) من قصيدة من نظم باي جويي عن حزن زوجة تضرب بخشبات القصار، بينما يستبد بها الحنين إلى زوجها الغائب (هاكوشي مونجو 1287).

لكن تعبير «إنها أنا صحيح تماماً»[1].

كانت رسالتها مفاجئة، لكنه لم يكن قد نسي شعوره نحوها. «لا شيء أحيا من أجله الآن؟ هل هذه كلماتك أم كلماتي.

ذات يوم تعلمت منك كم يمكن أن تكون قاسية في هذه الدنيا، شرنقة زيز الحصاد هذه،

والآن انظري كم أتعلق بكل كلمة من كلماتك!

الأمل الذي بقي لي واه للغاية!». كان الخط المتعرج الذي سطرته يده المرتجفة فاتناً للغاية. أسعدها وآلمها في آن أنه لم ينس جلد الشرنقة الذي خلفته وراءها في غمار فرارها، ولكنها لم تكن قد قصدت أن تجتذبه ليغدو أقرب منها، على الرغم من دفء هذا التبادل للرسائل، وإنما كانت رغبتها الوحيدة أن تذكره بأنها، في نهاية المطاف، كانت جديرة باهتمامه بها.

سمع جينجي أن المرأة الأخرى قد قبلت بالملازم الحاجب، وتساءل في غير ارتياح عما يمكن أن يفكّر فيه الرجل الآخر[2]. وفي الوقت نفسه أراد أن يعرف كيف تمضي أمورها، ولذا كتب لها من خلال الصبي: «هل تعرفين شدّة توقي إليك؟.

لو أنني لم أربط تلك العقدة الصغيرة حول القصبة قرب الطنف،

أي عذر كان سيكون لي الآن للإعلان عن شكواي الندية؟[3]

وربط الرسالة إلى قصبة طويلة، وحذّر الصبي، داعياً إياه لالتزام الحرص. مع ذلك، فيما راح يؤكد لنفسه برضا عن الذات يستحق التوبيخ، فإن الملازم سيكون متسامحاً إذا لفتت الرسالة انتباهه وأدرك هوية مرسلها.

كان الملازم بعيداً عندما سلمها الصبي الرسالة. وامتزج انزعاجها لإهمال جينجي

---

(1) شويشو 894، عتاب لحبيب قاس: «ليس أنت من يزعم أنه يعاني كثيراً، لكنني أنا التي ليس لديها الآن ما تحيا من أجله».

(2) ربما دُهش، حيث أنه وجد أنه ليس أول عاشق لزوجته.

(3) «العقدة الصغيرة حول القصبة» هي الليلة الوحيدة التي أمضاها العاشقان معاً، وربما تشير كذلك إلى عقدة سروال الفتاة التي شوهدت في ضوء المصباح. ومن هذه القصيدة يأتي اسمها التقليدي نوكيبا نو أوجي (القصبة قرب الطنف).

بالسرور لأنه تذكرها، وأعطت الصبي رداً كان عذرها الوحيد بشأنه هو أنها دبجته على وجه السرعة:

«همسات في الريح تغمغم عن صلات مضت تركت القصبة المتواضعة

مصابة بالكآبة وشبه أسيرة للصقيع»[1]

عوضت عن خطها البائس بلمسات مكثفة تفتقر إلى أي جودة رفيعة على الإطلاق.

استعاد ذكرى محياها في نور المصباح. آه، يا لشريكتها تلك، الجالسة في أناقة بالغة قبالتها، لقد كانت هي التي لا يستطيع إبعادها عن خاطره! ومع ذلك فإن هذه المخلوقة المفتقرة للبراعة قد مضت قدماً في تألق وثقة بالغين إلى حد أنها جعلت من نفسها بدورها ذكرى بهيجة أيضاً. لا، لم يكن قد تعلم درسه بعد، وبدا معرضاً كعهده أبداً لمخاطر الغواية.

في اليوم التاسع والأربعين[2]، رتب أمر قراءة السوترا من أجلها في قاعة اللوتس[3]، في جبل هالي، مقدماً الأردية الكهنوتية وجميع اللوازم الأخرى التي قد يتطلبها الأداء السخي لهذا الطقس، وحتى النص وزخارف المذبح كانت من أرقى نوعية، وأنجز الخبير، شقيق كوريميتسو الأكبر، وهو رجل جليل، الأمر كله على نحو جميل.

طلب جينجي من طبيب، هو معلم سابق كان يعرفه حق المعرفة، أن يحضر ويؤلف ترتيلة تكريسية[4]، وعندما كتب ما يود أن يدرج فيها، من دون ذكر لاسم الراحلة، وإنما مشيراً إلى أنه حيث أن إنسانة عزيزة عليه قد قضت نحبها، فإنه الآن يعهد بها إلى رحمة أميدا، فقال الطبيب: «إنها كاملة على ما هي عليه، يا مولاي، ولست أرى شيئاً يمكن أن يُضاف». انهمرت دموع جينجي، على الرغم من الجهد الذي بذله للسيطرة على نفسه وكبت حزنه.

---

(1) كنت سعيدة بتلقي رسالتك بعد صمت طويل، لكنها لا يمكن أن تخفف حزني، وبصفة خاصة الآن بعد أن تزوجت، ولم أعد سيدة نفسي.

(2) بعد موت يوجاو.

(3) هوكيدو، مكرسة للطقوس التي تتمحور حول سوترا اللوتس بالغة الأهمية.

(4) جانمون، وثيقة رسمية باللغة الصينية، عادة ما يقوم خبير بصياغتها.

تساءل الطبيب: «من عساها كانت؟ إذ يغيب عني أي مؤشر لهويتها، فليس بمقدوري إلا التعجب إزاء شموخ المصير الذي قادها إلى أن تلهم مثل هذا الحزن لنبيل رفيع الشأن مثلكم».

دعا جينجي بسروال كان قد أمر سراً بتجهيزه كتقدمة[1]، وغمغم:

«وسط دموع منهمرة اليوم أعقد لمرة أخيرة تكة سروالها

آه، في أي عهد من قابل الأيام سأفكها مجدداً؟»

أدرك أنها حتى الآن كانت قد مضت تجوب الآفاق من دون أن يقر لها قرار، وابتهل لأميدا في انفعال غامر من أجلها، وراح يتساءل أي درب سلكته أخيراً[2].

خفق قلبه سريعاً عندما رأى النقيب أمين السر، وأراد أن يبلغه بأن «القرنفلة الصغيرة» تكبر، ولكن خشيته من تقريع صديقه أبقته صامتاً. وفي دار زهور حسناء الشفق تاقت النسوة إلى معرفة إلى أين مضت سيدتهن، ولكنهن لم يستطعن اكتشاف شيء، وكل ما استطعن القيام به هو النواح على غرابة ما جرى، حيث أنهن لم تبلغهن كلمة حتى من أوكون. ورحن يتهامسن فيما بينهن بأنه بالحكم من خلال سلوك السيد النبيل فلا بد أنه كان.. من تعرفن ولا داعي لذكر اسمه، وذلك على الرغم من أنه لم يكن بوسع أحد التيقن من ذلك، وهكذا قدمن شكواهن إلى كوريميتسو، ولكن هذا الأخير تجاهلهن، وادعى الجهل التام بالأمر، وتابع أموره كذي قبل، تاركاً إياهن أكثر حيرة من ذي قبل، فخلصن إلى أنه كان الابن العاشق لحاكم إحدى



مروحة من القصب

(1) كان من المعتاد تقديم ملابس ومتعلقات أخرى خاصة بالمتوفين إلى المعبد، ولكن بما أنها لدى وفاتها لم يكن لديها شيء إلا ما كانت ترتديه، فإن جينجي أمر بإعداد طاقم جديد من الملابس كتقدمة.

(2) طوال الأيام التسعة والأربعين الأولى تهيم الروح في «حالة انتقالية» (تشوو) ثم تمضي للبعث بحسب الكارما الخاص بها «أي درب» المراد به أي عالم من العوالم الستة الخاصة بالتناسخ، عوالم الكائنات السماوية، البشر، الشياطين المتحاربة، البهائم، الأشباح المتضورة جوعاً، أو الجحيم.

المقاطعات والذي نقلها سريعاً إلى المقاطعات خوفاً من النقيب أمين السر.

كانت الـدار ملكاً لإحدى بنات[1] المرضعة المقيمة في غربي المدينة. وبدموع منهمرة اتهـم أبنـاء هذه المرضعـة الثلاثة أوكون، فهي بالنسـبة لهم كانـت غريبة، بأنهـا لـم تبلغهم بحقيقة ما جرى لسيدتهم لأنها لا تكترث بأمرهم. وكانت أوكون نفسها تعرف حق المعرفة التوبيخ الذي سـينهالون به عليها، ومنعها إصرار جينجي على إبقاء الأمر سـراً حتى من أن تسأل عن الطفلة الصغيرة، التي ظلت جاهلة لهذا السبب، على نحو مؤلم بمصيرها.

علَّـق جينجـي الأمل على الدوام على أن يحلم بحبيبتـه المفقودة، ولكن بدلاً من ذلك. وفـي الليلـة التي أعقبت طقس اليوم التاسـع والأربعين، لمح المـرأة التي كانت قد ظهرت إلـى جوارهـا في الـدار المهجورة، تماماً علـى نحو ما كانت آنذاك، وأدرك برعشـة فزع أن المأساة قد وقعت بالتأكيد لأنها كانت ترتاد ذلك المكان المتداعي، وقد أولعت به.

شـرع نائب أيو في الرحيل إلى مقاطعته، في أوائل الشـهر العاشر، وبعث جينجي بهدايا وداع سخية بصفة خاصة، «حيث أن السيدات يرحلن معك». وجعل كذلك هدايا خاصة ـ أمشـاطاً جميلة بصورة غير مألوفة، مراوح وفيرة، وصولجانات دقيقة لتقدمة[2] تُبعث سـراً إلى سيدة معينة في القافلة[3] ـ جنباً إلى جنب مع ردائها ذاك، الذي كان يحتفظ به.

«كان هذا ذكرى منك إلى أن نلتقي مجدداً،

لكن دموعي في كل ذلك الوقت جعَّدت الأكمام».

هكذا كتب يقول، جنباً إلى جنب مع أمور أخرى كثيرة يعد تسـجيلها أمراً مرهقاً بحيث يحول دون القيام بذلك.

عاد مبعوث جينجي الرسـمي بلا رسـالة منها، ولكنها بعثت مع أخيها الصغير رداً حول الرداء:

الآن وقد نُحي جناحا زيز الحصاد، وبدلنا ثياب الصيف ،

(1) وصفت في السابق بأنها زوجة لنائب حاكم فخري.

(2) رايات من القماش متعدد الألوان (نوسا) لتقديمها لآلهة الطريق (ساي نو كامي) الذين يحمون المسافرين.

(3) أوتسوسيمي.

لا يمكنني الامتناع عن البكاء لرؤية هذا الرداء من جديد».

واصـل جينجـي التفكير في أن عنادها غيـر المألوف كان هو، في نهايـة المطاف، الذي أبعده عنها.

كان اليـوم هـو أول أيـام فصل الشـتاء، وبالطبـع مضى المطـر البارد ينهمر من السـماء المتشحة بالأسى. أمضى اليوم محدِّقاً أمامه في اكتئاب، مغمغماً:

«إحداهن ماتت، واليوم لا بد لأخرى أن تمضي في طريقها،

مرتبطة بغاية لست أدريها، بينما يتداعى شفق خريفي».

أوشك أن يفهم الآن إلى أي حد يمكن أن يكون الهوى المكتوم مؤلماً.

لقد تجاوزت في صمت محن جينجي وأرزائه، تقديراً لجهوده المفعمة بالتصميم على حجبها، ولم أكتب عنها إلا الآن فقط لأن سـادة نبلاء وسـيدات نبيـلات بعينهم قد انتقدوا قصتي لأنها تشـبه القص الخيالي، راغبين في معرفة السـر في أنه حتى أولئك الذين عرفوا جينجي أفضل من غيرهم قد حسـبوه إنسـاناً كاملاً، لمجرد أنه كان ابن إمبراطور. ولا شك في أنني يتعين عليَّ الآن التماس عفو الجميع لما بدر مني من تجاوز في رسم صورة خبيثة له.

5

واكامورا ساكي

مورا ساكي الصغيرة

تعني كلمة واكا «صغير»، بينما مورا ســاكي نبتة تعطي جذورها صبغة أرجوانية، وتعني أيضاً الصبغة ولونها. وفــي الشـعر فإن أرجـوان مورا ســاكي يعـادل الصلة الوثيقة والعاطفة المستمرة. وفي هذا الفصل يصادف جينجي طفلة صغيرة تشـبه إلى حد بعيد فوجيتسـوبو (هــي ابنة أخيهــا) والتي تعد بالنسـبة له مورا ســاكي، والتي يرغب فيها في التو لنفسه.

«كم سأكون سعيداً لقطف ثم احتياز تلك النبتة البرية

الطالعة من الجذر نفسه لمورا ساكي!»

بمرور الوقت تعني مورا ســاكي الفتاة نفسها، وتحمل بشكل أو بآخر اسمها.

الصلة بالفصول السابقة

يبدأ «مورا ساكي الصغيرة» في الربيع، عندما يكون جينجي في عامه الثامن عشر، بينما ينتهي «حسناء الشفق» في العام السابق، لكن هناك صلة سردية محدودة بينهما.

الشخوص

جينجي، نقيب في حرس القصر، 18 عاماً.

رجل تقي.

نيافته، كبير كهنة مميز (كيتايامانوسوزو).

ابن حاكم هاريما، تابع لجينجي (يوشيكيو).

حاكم سابق لهاريما، حوالي 50 عاماً (أكاشي نونيودو).

ابنته، 9 أعوام (أكاشي نو كيمي).

كوريميتسو، أخ لجينجي من الرضاع وموضع سره.

صبية في حوالي العاشرة (مورا ساكي).

راهبة، جدة الصبية وأخت كبير الرهبان، تجاوزت 40 عاماً (كيتايامانوأماجيمي).

شوناجون، مرضعة مورا ساكي.

معالي وزير الحرب، والد مورا ساكي، 33 عاماً (هايوبوكايو نو ميا).

النقيب أمين السر، شقيق زوجة جينجي وصديق عظيم له (تونوتشوجو).

مراقب حسابات الميسرة، أخ غير شقيق لتو نو تشوجو (ساتشوبين).

جلالة الإمبراطور، والد جينجي (كبريتسوبو نو ميكادو).

معالي وزير الميسرة، حمو جينجي، 52 عاماً (ساديجين).

زوجة جينجي، 22 عاماً، أوي.

سمو الأميرة فوجيتسوبو، 23 عاماً.

أوميوبو، وصيفة فوجيتسوبو.

كان جينجي يعاني من نوبات متواترة من الحمى، وقد تُليت عليه جميع أنواع الرقى، وأُقيمت له كافة أشكال طقوس العلاج[1]، ولكن بلا طائل، فقد واصلت الحمى معاودته، ثم قال أحدهم: «يا مولاي، هناك ناسك متميز في معبد بالتلال الشمالية. وفي الصيف الماضي، عندما انتشرت الحمى، ولم تفلح الرُقى في تقديم العون، قام بشفاء الكثيرين في التو، أرجو أن تجربه سريعاً، سيكون من الخطورة السماح للحمى التي تعاودك بأن تصبح أكثر تفاقماً». بعث جينجي يستقدمه، ولكنه رد بأنه لما كان الآن متقدماً في السن ومنحني الظهر فإنه لا يغادر كهفه أبداً.

«إذاً فسوف اضطر في هدوء بالغ لمقابلته». وانطلق قبل طلوع الفجر مع أربعة أو خمسة من أتباعه المقربين.

كان المكان بعيداً إلى حد ما في الجبال. وكانت البراعم قد اختفت من المدينة الآن، حيث أن ذلك كان في وقت متأخر من الشهر الثالث[2]، ولكن في الجبال كانت أشجار الكرز في سمت ازدهارها، وكلما ازداد إيغالاً في مسيرته، غدت حجب الضباب أكثر جمالاً، إلى أن غدا المشهد، بالنسبة له، هو الذي تحد مكانته من ارتحاله كثيراً جداً بحيث أن هذا كله كان جديداً، مصدراً للدهشة.

أثَّر في نفسه المعبد كثيراً كذلك. كان الرجل الورع يحيا قرب قمة عالية وسط صخور وعرة. ارتقى جينجي إلى هناك من دون أن يعلن هويته، وقد ارتدى ثياباً عادية بسيطة، ولكن العيون ما كانت لتخطئه.

هتف الرجل الورع في انفعال مهذّب: «آه، هذا شرف عظيم للغاية! لا بد أنك السيد النبيل الذي رغب في مثول راهب مثلي بين يديه، لقد فقدت كل اهتمام بهذه الدنيا، وتخليت عن ممارساتي العلاجية كلية، ما الذي أحضرك كل هذه المسافة يا مولاي؟». ابتسم فيما عيناه تستقران على جينجي.

---

(1) «الرُقى» (ماجيناي) هي سحر للشفاء يقوم به اختصاصيون من مكتب الطب. «طقوس العلاج» كاجي هي طقوس بوذية يقوم بأدائها الرهبان.

(2) أواخر مايو على وجه التقريب وفقاً للتقويم الشمسي.

برهن على أنه رجل ورع للغاية. ارتفعت الشمس عالية، بينما مضى يعد الطلاسم[1] الضرورية، وجعل جينجي يبتلعها، ومضى قدماً بالطقس.

عندما مضى جينجي إلى الخارج لحظة، وفحص ما يحيط به، ألفى نفسه على مرتفع يطل على مساكن الرهبان عند سفح طريق ملتف ومنحدر، كانت هناك دار جميلة يحيطها، شأن المساكن ولكن بصورة أكثر تنسيقاً، سور من أغصان الأشجار، وقد شيدت هذه الدار مع أروقتها في أجمة بديعة.

سأل: «من الذي يقيم هناك؟».



وصيفة

«ذلك يا مولاي هو الموضع الذي أحسب أنه نيافته[2].. قد اعتزل فيه الناس هذين العامين الماضيين».

«من المؤكد أنه مكان لشخص ذي طبيعة تميل إلى العزلة. من المؤسف أنني لا ألبس الملابس المناسبة للقائه. ويقيناً أنه سيكتشف أنني هنا».

شاهد جينجي بوضوح العديد من الصبيات التابعات الجميلات وهن يتقدمن لتقديم الماء المقدس، وقطف الزهور، وهلم جراً[3].

أعرب مرافقوه عن دهشتهم أحدهم للآخر: «هناك امرأة تقيم هناك!».

«بالتأكيد لا يحتمل أن نيافته يجعل امرأة تقيم معه!».

«من عساها تكون؟».

مضى البعض هابطين إلى أسفل ليطلوا من قرب على الدار. وذكروا أنهم شاهدوا بعض

(1) قطع من الورق مكتوب عليها باللغة السنسكريتية مقاطع صغيرة من أسماء الآلهة المناسبة.

(2) رجل دين من مرتبة رفيعة، وهو نفسه من النبلاء، ومن هنا فهو ليس بالذي يرغب جينجي في أن تقع عيناه عليه وهو يرتدي ملابس غير ملائمة. ويتجنب النص الإتيان على اسمه.

(3) يبدو أنهن يضعن الماء المقدس (أكا) على رف بسيط للتقديم (أكادانا) يبرز عادة في ما وراء شرفة الدار. «الزهور» ربما كانت اليانسون النجمي المعتاد (شيكيمي).

الصبيات الصغيرات الجميلات، وصيفات شابات، وتابعات صغيرات.

كان جينجي يتساءل، فيما الشمس تصعد نحو كبد السماء ومضى يواصل أداء الطقس، عما ستكون عليه الحمى التي كانت تعاوده نوباتها، عندما أشار أحد الرجال بقوله: «بدلاً من الاكتفاء بالقلق فحسب، يا مولاي، ينبغي عليكم أن تبعدوا الأمر عن ذهنكم على نحو ما». وهكذا مضى جينجي إلى الجبل الواقع وراء المعبد، وراح يطل باتجاه المدينة.

حجب السديم المشهد المترامي إلى البعيد. وبدت الأشجار المزهرة في كل مكان كأنما هي تلتف بالدخان. قال: «كل شيء يبدو كلوحة مرسومة فحسب، وما من أحد يقيم هنا يمكن أن يرغب في المزيد!».

«لكن يا مولاي، ليس هذا شيئاً بعد. كم ستكون لوحتكم أكثر جمالاً لو أنكم كان أمام عينكم الجبال وبحار المقاطعات الأخرى!». أعلى شخص آخر من شأن جبل فوجي وقمة أخرى[1]، ثم مضوا موغلين في حديثهم للترفيه عنه بشكل أكبر بوصف القرى الساحلية الجميلة والشواطىء الصخرية في المقاطعات الواقعة إلى الغرب.

«من بين الأماكن الأقل نأياً، أحسب أن ساحل أكاشي في هاريما يستحق تناولاً خاصاً ولا يرجع ذلك إلى أن أي ملمح فيه يعد شيئاً فذاً، ولكن الإطلالة على البحر هناك تعد إلى حد ما أكثر هدوءاً وسكينة من أي مكان آخر. حاكم سابق للإقليم، وهو نبيل سلك الآن درب الحياة الدينية[2] ويعتني أشد العناية بابنته، قد أنشأ مؤسسة مثيرة للإعجاب هنا. وكان حرياً به أن يشق طريقه بنجاح في الحياة الدنيا، لأنه ينحدر من صلب وزير، ولكنه لما كان غريب الأطوار، فإنه لم يختلط بالمجتمع قط، وقد استقال من منصب نقيب بحرس القصر، وطلب بنفسه إسناد منصب الحاكم إليه[3]، وقد أصبح إلى حد ما مثار ضحك في إقليمه على الرغم من ذلك كله، وكان أشد إثارة للشعور بالحرج من أن يعود إلى المدينة، وهكذا فقد حلق شعر رأسه بدلاً من ذلك، ولم يتقاعد في أية بقعة محمية في التلال، لأنه

(1) ربما جبل أسما، وهو في وسط هونشو كذلك.

(2) إنه راهب مبتدىء «نايودو»، أي شخص أدى القسم التمهيدي، ويرتدي الملابس البوذية، ويعيش في داره حياة الإخلاص للدين.

(3) استقال من منصب يشغل من يحتله أدنى المرتبة الرابعة، ليشغل منصباً يشغل من يحتله أعلى المرتبة الخامسة.

استقر على الشاطىء مباشرة، وهو الأمر الذي يُعد غريباً للغاية.

ومع أنه من الصحيح بالتأكيد أن الإقليم يوفّر العديد من الأماكن الملائمة للتقاعد، فإن قرية في قلب الجبال من شأنها أن تكون مكاناً شديدة الوحشة بالنسبة لزوجته وابنته الشابة، وفضلاً عن ذلك، فإنني أتوقع أنه يشعر بقدر أكبر من الراحة هناك هو نفسه. وعندما مضيت إلى المقاطعة منذ بعض الوقت مضيت لإلقاء نظرة على مسكنه. وربما لم يتخذ مكاناً في المدينة بنفسه قط، ولكن المساحة الشاسعة للأرض التي امتلكها تجعل من الجلي أنه قد رتب الأمور ـ فقد كان الحاكم في نهاية المطاف ـ لكي يقضي بقية حياته في ترف ودعة، وهو يبذل قصارى جهده للإعداد للحياة المقبلة[1]، وفي حقيقة الأمر فإنه يعد راهباً أفضل مما كان نبيلاً».

قال جينجي: «نعم، ولكن ماذا عن ابنته؟».

«إنني أدرك، يا مولاي، أن لها نصيبها من الجمال والشخصية، ويترامى إلى سمعي أن حاكماً بعد آخر قد أظهر باحترام الاهتمام بها، ولكن أباها رفض الجميع، وهو يقول: «لا أمانع في تراجعي إلى هذه المرتبة المتواضعة، ولكن ابنتي هي كل ما لديَّ وفي ذهني أمور أخرى بالنسبة لها. (وهو يبلغها بقوله): إذا قُدِّر لك العيش من بعدي، وإذا منيت آمالي بالنسبة لك بالفشل، وإذا لم يتحقق المستقبل الذي أنشده لك، فإن عليك أن تغرقي نفسك في البحر! (وهم يقولون أن تلك هي الوصية الصارمة التي يكررها على مسامعها)».

بدا ذلك أمراً طريفاً حقاً بالنسبة لجينجي.

قال أحدهم ضاحكاً: «لا بد أنها كنز نادر إذاً، إذا كان أبوها يقصد أن يتخذها الملك تنين البحر زوجة له».

«وفِّر عليَّ هذا الطموح الكبير!».

كان الشاب الذي راح يتحدَّث عنها، وهو ابن الحاكم الحالي للإقليم، قد تم ترفيعه هذا العام إلى مرتبة تعلو الحاجب[2]. قال أحدهم: «إنك محنك بما فيه الكفاية في أمور الحب،

---

(1) من أجل البعث في فردوس بوذا أميدا.

(2) المرتبة الخامسة، وهي درجة دنيا. وفي فصل «سومو» يظهر باعتباره يوشيكيو.

وربما تتمنى أن تخالف وصية أبيها بنفسك. أليس كذلك!».

«آه، نعم، إنني على يقين من أنه يدور على الدوام حول دارها!».

«إليك عني! لا بد أنها فتاة ريفية أياً كان ما تقول. انظر إلى المكان الذي نشأت فيه، في نهاية المطاف، وليس حولها إلا أبواها العجوزان ليعلماها أي شيء!».

«لا، لا، حيث يبدو أن أمها من منبت ممتاز، وبفضل صلاتها أفلحت في الحصول على وصيفات شابات جميلات وصبيات تابعات من أرقى العائلات في المدينة، وهي تربي ابنتها على أسلوب رفيع المستوى».

«وهو ما كان ليشعر بمثل هذا الأمان البالغ بالنسبة لإبقاء ابنته هناك إذا كان الحاكم الذي عهد إليه بمسؤولية الإقليم ليس من النوع شديد العناية والتدقيق».

قال جينجي متأملاً: «إنني أتساءل ما الذي يعنيه أن طموحاته بالنسبة لها تمتد امتداد الطريق كله إلى قرار البحر. لا يمكن أن يكون الوضع هناك طريفاً للغاية، مع وجود كل ذلك العشب البحري[1]». أثار ذلك فضوله بشكل حاد، وضمن ذوقه، الذي يميل إلى غير المألوف، إنه سيتذكر قصتها، على نحو ما لاحظ رفاقه بجلاء.

«يبدو أن الحمى التي كانت تعاودكم لم تتجدد اليوم، يا مولاي، حتى على الرغم من أن الشمس ستغرب قريباً، ينبغي عليكم البدء بالعودة».

لكن الراهب الموقر اعترض: «يبدو، يا مولاي، أنكم قد وقعتم كذلك تحت تأثير إحدى الأرواح، وأفضل أن نواصل طقوسنا الليلة في هدوء قبل أن تعودوا».

وافق الجميع، وسرَّ جينجي كذلك، حيث أنه لم يسبق له أن أمضى الليل بعيداً على هذا النحو من قبل قط. قال: «حسناً، لسوف أبدأ رحلة العودة عند الفجر».

نظراً للافتقار إلى ما هو أفضل للقيام به خلال ما بقي من النهار الطويل. ذاب في سُدم الشفق الثقيلة عند سور الأغصان الذي كان قد لفت نظره، ثم أرسل الآخرين عائدين،

(1) تتلاعب إشارة جينجي، كما هي الحال بالنسبة لقصائد عدة، بالمقطع «ميرومي» الذي يشير إلى كل من العشب البحري ولقاء العاشقين. لسوف يكون مصير الفتاة كئيباً إذا انتهت إلى الغرق وسط العشب البحري، ولا بد أنها كئيبة إذا كان هذا هو ما تفكر فيه.

ومضى يحدِّق عبر السور مع السيد كوريميتسو.

كانت هنالك، أمامه مباشرة في الجانب الغربي من الدار، مشغولة في الابتهال أمام أيقونة بوذا الخاصة بها[1]، راهبة. كانت الستائر الحاجبة مرفوعة قليلاً، وبدا أنها تقدم زهرة قرباناً، وكانت تستند إلى أحد الأعمدة ونص كتابها المقدس على مسند[2] أمامها، وقد راحت ترتل بصعوبة جلية. وبدا واضحاً أنها ليست من عامة الناس. كانت قد تجاوزت الأربعين من عمرها، وبدت شديدة النحول، ذات بشرة بيضاء متألقة، وكانت مع ذلك لا تزال تحظى بخدين مستديرين وعينين رائعتين وشعر مقصوص بصورة أنيقة[3] للغاية بحيث أنه بدا بالنسبة لجينجي أكثر عصرية على نحو بهيج في أسلوبه مما لو تركته مسترسلاً.

مضت امرأتان ناضجتان أنيقتان وبعض الفتيات التابعات يدخلن الغرفة ويخرجن منها. وبينهن أقبلت راكضة صبية في العاشرة من العمر أو نحوها، ترتدي ثوباً ورديا رقيق الكشكشة[4] فوق رداء أبيض، وخلافاً للأخريات بدت تحمل وعداً بأن تكون في المستقبل حسناء بارعة الجمال، وانسدل شعرها كأنه مروحة مفتوحة وراءها، فيما هي تقف هنالك، وقد احمر وجهها من البكاء. تطلعت إليها الراهبة: «ماذا دهاك؟ هل تشاجرت مع إحدى الصبايا؟». بدتا متشابهتين للغاية إلى حد أن جينجي حسبهما أماً وابنتها.

قالت الصبية الحانقة: «إينوكي أطلقت عصفوري الصغير! وكنت وضعته في القفص الخاص به[5] ورتبت له كل شيء».

قالت إحدى المرأتين الناضجتين: «هكذا أفلحت تلك المخلوقة السخيفة في أن تتسبب لنفسها بتوبيخ آخر. إنها لا أمل فيها!». واصلت حديثها، وهي تنهض استعداداً للمغادرة: «وإلى أين مضى العصفور؟ كان قد كبر وأصبح مخلوقاً صغيراً عزيزاً. آه، آمل

(1) جيبوتسو، أيقونة بوذا التي هي بؤرة الابتهالات الخاصة من جانب شخص ما.
(2) كايوسوكو، قطعة أثاث شائعة تستخدم من هنا كقمطر للقراءة.
(3) ربما كان شعرها مقصوصاً بحيث لا ينسدل كثيراً على كتفيها (أما - سوجي)، على نحو ما جرى به العرف بالنسبة لراهبة تلزم دارها.
(4) يامابوكي، الطبقة العليا منه في لون المغرة (أوسو كوتشيبا) والسفلى صفراء اللون.
(5) قفص مستعمل كبديل مؤقت، حيث أنه بالفعل (فوسيجو)، أي نوع من الإطار الموضوع فوق مبخرة، والذي يمكن عندئذ وضع رداء عليه لتعطيره بالبخور.

أن لا تنقض عليه الغربان!» كانت امرأة جميلة المحيا، ذات شعر طويل، بديع. وكانت فيما يبدو مسؤولة عن الصبية، حيث أن الأخريات كنّ ينادينها بالمرضعة شوناجون.

احتجت الراهبة: «آه، هلمي، يا لك من طفلة صغيرة! إنك لا تفهمين شيئاً، أليس كذلك! ها أنا أتساءل عما إذا كان سيقدر لي العيش هذا اليوم أو الذي يليه، ولكن ذلك لا يعني لك شيئاً؟ أليس كذلك! وكل ما تفعلينه هو مطاردة العصافير. آه، يا عزيزتي، وأنا أواصل إبلاغك بأن ذلك يعد خطيئة[1]. تعالي هنا!».

جلست الصبية الصغيرة، كان محياها لطيفاً للغاية. وكان قوسا حاجبيها الخفيفين، وجبينها الذي رفعت عنه إلى الوراء شعرها على نحو طفولي وخط الشعر نفسه، كل ذلك بدا جميلاً إلى أبعد الحدود. حدَّث جينجي نفسه مفتوناً: إنها المخلوقة التي أود رؤيتها عندما تكبر! وقد بكى حقاً عندما أدرك أن شبهها الشديد بتلك السيدة التي استأثرت بمجامع قلبه هو الذي جعل من المستحيل أن يبعد ناظريه عنها.

قالت الراهبة وهي تمسد شعر الصبية: «إنك تكرهين مجرد تمشيطه، ولكن يا له من شعر جميل! إن نزعتك الطفولية تقلقني حقاً. وليس الجميع على هذا النحو في سنك يقيناً. كانت الراحلة أمك في العاشرة عندما فقدت أباها، وقد فهمت بصورة كاملة ما حدث. كيف ستتدبرين أمرك إذا قُدِّر لي الرحيل فجأة؟ راحت تبكي بمرارة شديدة إلى حد أن جينجي الذي كان يرقبها استشعر بدوره موجة من الأسف. وعلى الرغم من أن الصبية الصغيرة كانت طفلة إلا أنها مضت ترمق الراهبة جادة، ثم تطلعت إلى أسفل، وأحنت رأسها. انساب شعرها للأمام، فيما هي تفعل ذلك، متألقاً ببريق جميل. قالت الراهبة:

«عندما لا يكون بمقدور أحد القول أين ستنمو النبتة الصغير أخيراً،

فإن قطرة الندى التي ستغادرها سريعاً لا تدرك كيف يمكنها الرحيل».

غارقة في الدموع وبصيحة تعاطف ردت امرأة:

«يا للحسرة، هل تقصد القطرة حقاً أن تذوب منداحة قبل أن تعرف

(1) الخطيئة البوذية المتمثلة في الإمساك بكائن حي وحبسه.

أين ستنمو النبتة الصغيرة الرقيقة أخيراً ليعلو جذعها؟»[1].

أطلّ نيافته مقبلاً من موضع آخر بالدار: «هذا الجانب يبدو مفتوحاً لأي أحد ليطل عليه. واليوم ليس باليوم المناسب لك للجلوس قرب الشرفة، فقد علمت للتو أن النقيب جينجي موجـود مع الرجل الورع في موضع بأعلى الجبل، حيث يسـعى لعـلاج من حمى تعاوده. وقـد أقبل في هـدوء بالغ بحيث أنني لم أدر بالأمر. وعلى الرغم مـن وجوده هنا، فإنني لم أزره بعد».

«مـا أفظـع هذا! هـا نحن هنا جميعاً فـي فوضى، وربمـا رآنا أحدهم بالفعل». أُسـدلت الستائر الحاجبة.

«هذه فرصة إذا أحببت رؤية جينجي المتألق، الذي تتغنى الدنيا بأسرها بمديحه، وطلعته من البهاء بحيث تجعل الناسـك ينسـى زهده ويحس بالشـباب من جديد. حسناً، يجب أن أمضي لتحيته). سمعه جينجي، وعاد إلى حيث كان ينزل.

يا لها من فتاة رائعة تلك التي عثر عليها! إن رفاقه المتلهفين للغاية على النسـاء، والذين يمضـون للاستكشـاف على الدوام، قد يصادفـون لقياتهم النادرة، ولكنـه عثر على كنز في جولة بالمصادفة! سـاوره شـعور بالابتهاج. يا لها من صبية رائعة! من عسـاها تكون؟ الآن يساوره الحنين إلى متعة أن تكون معه ليلاً ونهاراً، لتعوضه عن غياب النبيلة التي أحبها.

كان راقداً عندما أقبل تابع من أتباع نيافته مستفسـراً عن كوريميتسـو. وكان المكان من الصغر بحيث أنه سمع كل شيء.

قال التابع نيابةً عن نيافته: «علمت لتوي أن سموه أكرمنا بزيارة، وعلى الرغم من الطابع المفاجـيء لهـذه الأنباء، فإنني ينبغـي أن أقوم على إرضائه، ولكن يؤلمني أن سـموه الذي يعلم أنني في عزلة بالمعبد هنا قد اختار على الرغم من ذلك أن يبقى أمر وصوله سراً، وكان ينبغي عليَّ حقاً أن أعرض عليه النزول في مقري المتواضع. الأمر كله يثير القلق».

---

(1) «كيف يمكن أن تتوفي قبل أن تعرفي ما الذي سيحل بحفيدتك؟». «النبتة الصغيرة» (واكاكوسا) صورة تعيد إلى الذاكرة آيسي مونوجاترى 90، القسم 49.

رد جينجي[1]: «قبيل منتصف هذا الشهر، بدأت أعاني من حمّى تعاودني، ودفعتني ضراوة هجماتها المتكررة إلى قبول النصيحة بالقدوم إلى هنا على جناح السرعة، غير أنني أبقيت زيارتي طيّ الكتمان لأنه بدا لي أنه سيكون أمراً مخجلاً إذا قُدِّر لتدخل رجل ورع على هذا النحو أن يمنى بالفشل، واقترنت هذه المراعاة له بحرص خاص من جانب شخص مثلي. ولسوف أقبل بسرور إذا كانت تلك رغبتك».

أقبل نيافته سريعاً، الأمر الذي أحرج جينجي. وعلى الرغم من أنه كان راهباً، إلا أن منبته أهله لأعظم قدر من التقدير من جانب المجتمع، وجعل الزي العادي البسيط الذي يرتديه جينجي يحس بعدم الارتياح.

حدَّث نيافته جينجي أولاً عن حياة العزلة، ثم ألح في دعوته: «إنه كوخ عادي من أغصان الشجر[2]، يا مولاي، ولكنني سأطلعك على غديره البارد على نحو بهيج». تضرَّج وجه جينجي احمراراً بفعل التفكير في عبارات الإطراء المسرفة التي وصفه بها مضيفه لنساء داره اللواتي لم يكن قد رأينه بأنفسهن، ولكن الاهتمام بالصبية الصغيرة التي استوقفت نظره شجَّعه على الذهاب.

كان المكان، الذي بدا مشيداً على نحو جيد للغاية، يتباهى بالنباتات والأشجار المألوفة. أُضيئت المشاعل على امتداد الغدير، وتألقت الأضواء في القناديل[3] أيضاً، لأنه في هذا الوقت من الشهر لا يطل القمر. كانت الغرفة الواقفة إلى الجانب الجنوبي[4] قد أعدت له على نحو جميل، وملأ الهواء عبق بخور نادر بديع، وكان عطر جينجي فيما هو يمر قريباً لا يشبه أي عطر آخر بحيث أذهل من هن بالدار.

تحدَّث نيافته عن التحوّل وعن الحياة المستقبلية، بينما راح جينجي يمعن التفكير في خطيئته[5] المخيفة، الطريقة التي نحَّا بها هذا الانشغال الآثم كل شيء آخر من ذهنه،

---

(1) من خلال كوريميتسو.

(2) وصف قياسي لمسكن متواضع، ومن هنا يجيء التعبير القياسي عن التواضع.

(3) المشعل (كاجاريبي) خشب أضرمت فيه النار داخل قفص حديدي، يستخدم لإضاءة حديقة ليلاً. أما القنديل «تورو» الذي يحتوي مصباحاً زيتياً فهو يُتخذ من الخشب أو الخيزران أو المعدن ويعلق من الطنف.

(4) «مقدمة» الدار، وتخصص عادة للضيوف.

(5) عشقه لفوجيتسوبو.

واحتمـال أن يعذِّبـه طـوال أيامه كافة، والأسـوأ من ذلـك العذابات التي تنتظـره في الحياة الآخـرة. لكم تمنى أن يعيش كما يحيا مضيفه! ولكن المشـهد البديع الذي رآه تحت ضوء النهار كان لا يزال يستقطبه.

«هل لي في سـؤال نيافتك أية سـيدة تقيم هنا؟ لقد تراءى لي حلم تمنيت فيه استشارتك في أمر وقد تذكرته الآن فحسب».

ابتسم مضيفه: «بالنحو غير المتوقع الذي دخل به حلمك حوارنا، يا مولاي، إنني أخشى أن ردي سـيكون مخيباً للآمال بالنسـبة لـك. ربما لا تعرف بأمر المستشـار الكبير المفتش الراحـل لأن وقتاً طويلاً قد انقضى على موته. وأرملته هي أختي، وقد أدارت ظهرها للدنيا بعـد أن رحل، وعندمـا بدأت صحتها تخذلهـا، أخيراً، لجأت إليّ، ولما كنت أنا نفسـي لا أزور المدينة، فقد عزلت نفسها هنا».

غامـر جينجي بالقول: «مع ذلك فقد سـمعت أن ابنة المستشـار الكبير لا تزال على قيد الحياة. ولست أقصد شيئاً عابثاً، بالطبع، وإنما استفساري جاد تماماً».

«نعـم، كانت له ابنة، ولا بد أن عشـر سـنوات أو أكثر قد انقضت منـذ موتها. وقد رباها المستشار الكبير الراحل بعناية بالغة، على أمل تقديمها لجلالته، ولكنه مات قبل أن يستطيع القيـام بذلك، تاركاً الراهبة الراهنة لترعاها كأفضل ما تسـتطيع بمفردها. وفي غضون ذلك سمح أحدهم[1] لمعالي وزير مكتب الحرب[2] بمعاشرتها سراً. غير أن زوجة معاليه سيدة عظيمـة للغاية، وقد جعلتها النتيجة البغيضة المترتبة على ذلك بائسـة بصورة مسـتمرة إلى حـد أنها ماتت فـي النهاية. آه، نعم، لقد رأيت بعينيَّ كيف يمكن للمرء أن يمرض من جراء خيبة الأمل والأسى».

حـدَّث جينجـي نفسـه: آه، إذن فالصبية ابنتها. أحسـب أن معاليه أيضـاً هو الذي يجعل الصبيـة شـبيهة بهـا «هي»[3]. الآن، غـدا أكثر توقاً مـن ذي قبل إلى جعلها ملـك يمينه، فقد كانـت منحدرة من أبوين مميزين، وهي مرحة، ولا تظهر أي ميل مضجر إلى الرد بشراسـة

---

(1) ربما كانت وصيفة في خدمة الفتاة وأمها.

(2) الأخ الأكبر لفوجيتسوبو.

(3) فوجيتسوبو.

على محدثها. لشد ما يحب أن يجعلها إلى جواره وأن ينشئها على نحو ما يهوى!

قال وهو لا يزال حريصاً على التيقن ممن عساها تكون: «هذا كله أمر محزن. ألم تترك الابنة طفلاً يحفظ ذكراها؟».

«بلى، لقد فعلت ذلك، ليس قبل وقت طويل من موتها، حيث تركت ابنةً أخرى. أخشى أنها مصدر قلق كبير لجدتها، التي تبدو شديدة القلق عليها، مع دنو حياتها من ختامها».

قال جينجي لنفسه: كنت محقاً إذن!

«أرجو أن تغفر لي جرأتي، ولكن هل لك في أن تتكرم بأن تنصح جدة الصبية بأن تعهد بمستقبل حفيدتها لي؟ فلديَّ بعض الأفكار الخاصة بي، وعلى الرغم من أنني، بالطبع، أتردد على بعض السيدات، إلا أنهن فيما يبدو لا يناسبنني على نحو ما ينبغي، حيث أنني أقيم بمفردي. وقد تعزو أكثر النوايا شيوعاً لي، وبالتالي تشعر بأنها ليست بعد في عمر مناسب، ولكن إذا كانت تلك هي الحال فإنك تلحق ظلماً بي».

«يا مولاي، إن خطبتك ينبغي أن تكون موضع ترحيب بالغ، ولكن الصبية لا تزال صغيرة في السن وبريئة للغاية، بحيث أنني لست أدري كيف يمكنك أن تتقدم لخطبتها حتى ولو على سبيل المداعبة لتكريمها بتلك الطريقة. على أية حال فإنني لست أستطيع اتخاذ قرار في هذا الشأن، حيث أنني لست من يربي صبية لتبلغ حد الأنوثة. ولسوف أعطيك رداً بعد أن أناقش الأمر مع جدتها». تحدَّث بجفاف، ووجد مضيفه الشاب أن الطابع الرسمي لأسلوبه كان يحظر الاسترسال بحيث أنه لم يجد رداً. واصل نيافته الحديث: «آن الأوان لأن أشغل بنفسي القاعة التي تضم أميدا، فأنا لم أنجز بعد صلاة المساء[1]. وسأكون رهن إشارتك مجدداً عندما تنتهي». صعد إلى القاعة.

أحس جينجي بأنه ليس على ما يرام بالمرة، وفضلاً عن ذلك فقد شرع المطر في التساقط قليلاً، وشرعت ريحٌ جبلية باردة في الهبوب، وعلت البركة تحت الشلال إلى أن غدا صوت انهمار الماء أعلى من ذي قبل. وما كان يمكن للارتفاع المخيف والانخفاض للأصوات الناعسة التي ترتل الكتب المقدسة أن يخفقا في مثل هذا المكان في التأثير في

(1) سويا، صلاة دورية كانت تدوم من السادسة مساءً إلى العاشرة ليلاً.

أكثر الزوار ابتعاداً عن التأثر، فلا عجب في أن جينجي الذي كان لديه الكثير ليفكر فيه، لم يستطع النوم.

كان نيافته قد أتى على ذكر صلاة المساء، ولكن الليل كان، في حقيقة الأمر، قد أوغل في مسيرته. وبدا جلياً أن الراهبة ووصيفاتها في الغرفة[1] لم يكن قد أغفين بعد، لأنه على الرغم من جهودهن لالتزام الهدوء إلا أنه كان بمقدوره سماع فرقعة خرزات المسبحة قبالة مسند اليد وكذلك حفيف أثواب الحرير التي تصدر الصوت الأكثر إبهاجاً لأذنيه. ولما كنَّ قريبات للغاية، فقد فتح ثغرة في صف الستائر التي تحيط بمروحته، وطرق بطرقته على راحته محدثاً صوتاً قصيراً حاداً. وعلى الرغم من أنهنّ قد فوجئن، إلا أنهن وجدن من العبث التظاهر بأنهن لم يسمعنه، حيث أنه سمع صوت وصيفة تنسل نحوه، مغمغمة، مرتبكة، بعد أن تراجعت قليلاً: «كم هذا غريب! لا بد أن سمعي يخذلني!».

بدأ جينجي في الحديث، متغلباً عليها برهافة صوته الشابة: «لقد سمعت القول إنه حتى في الظلام فإن بوذا دليل لا يخطىء».

«دليل إلى ماذا؟ إنني لا أفهم».

«من الطبيعي أن مثل هذا الخطاب المفاجىء من جانبي يثير حيرتك، ولكنني آمل أن تنقلي هذه الرسالة نيابة عني:

منذ ذلك الوقت الذي لمحتُ فيه الوريقات الرقيقة للنبتة الصغيرة،

فإن كمَّي رداء الرحالة الذي أرتديه مبتلتان بالندى بلا انتهاء».

«لكن، يا مولاي، ما من أحد هنا يحتمل أن يفهم أي شيء من مثل هذه الرسالة، كما لا بد أنك تعلم. فإلى من إذن تريدني..؟».

«أرجو أن تمنحيني أسباباً خاصة بي للتعبير عن نفسي بهذه الطريقة».

عادت الوصيفة للحديث مع سيدتها الراهبة، التي صدمت وحارت في أمرها في آن. حدَّثت نفسها: آه، الرحمة! من المؤكد أنه عصري في أساليبه! لا بد أنه قد استقر في ذهنه

(1) يبدو أنهن في الجانب الغربي من الدار، بينما جينجي في الجناح في الجانب الجنوبي منها. ويبدو أنه لم تكن تفصل بينهم إلا الستائر المطوية.

أن صبيتنا خبيرة بما فيه الكفاية بهذا النوع من الأمور! ولكن كيف أفلح في سماع ما كنا نقوله عن «النبتة الصغيرة»؟ وفي غمار حيرتها لم ترد عليه لوقت طويل للغاية إلى حد أنها خشيت أنها تبدو بعيدة عن التهذيب.

«آه، لا تقارن قطرات الندى التي تتجمع لليلة على وسادتك

بتلك التي تبلل في هذه الجبال أردية عديدة تغطيها الأُشنة[1]

فهنا لا يجف الندى أبداً».

ردّ جينجي قائلًا: «إنني أخشى أن أكون حديث العهد بالتخاطب بهذه الطريقة عبر شخص آخر، لديَّ شيء أريد أن أناقشه معك بجدية، إذا غفرت لي جرأتي».

قالت الراهبة لوصيفاتها: «من المؤكد أنه جرى تضليله، ووجوده هنا مخيف للغاية إلى حد أنني لا أعرف كيف أرد».

«ولكنك، يا سيدتي، تشعرينه بعدم الارتياح».

«حسناً، نعم. أحسب أنه سيكون أمراً مختلفاً لو أنني كنت أنا نفسي امرأة في مقتبل الشباب. أما والحالة هذه فليس بوسعي تجاهله عندما يكون على هذا القدر الكبير من التعجل والإلحاح». أقبلت إلى جينجي بنفسها.

استهل جينجي حديثه: «قد تتصورين بعد خطابي المفاجىء أنني لا أنشد إلا متعتي، ولكن كما يعرف بوذا يقيناً، فإنني لا أكنَّ مشاعر من هذا النوع في فؤادي». لما كان الحذر الهادىء في سلوكها كبح جماحه، فإنه لم يستطع في البداية أن يعبر عما يريد قوله.

«لا، يا مولاي، كيف استطعت أن تفترض أني أستخف بمشاعرك الآن فيما نتجاذب أطراف الحديث على غير توقّع؟».

«آلمني أن أعرف المصاعب التي تواجهها حفيدتك، وآمل أن تسمحي لي لطفاً بأن أحتل مكان الأم التي أعتقد أنها قد فقدتها. وقد كنت أنا نفسي صغيراً للغاية عندما انتزع

(1) «لا تقارن دموع زائر عابر لهذه الجبال بالدموع التي يسفحها من أمضى حياته بأسرها بين جنباتها!». إنها تتجاهل الارتباطات الرومانسية بالندى (دموع العاشق الذي يعلق الآمال في قصيدة جينجي).

مني أولئك الذين كان يمكن أن يقوموا على تربيتي، وقد غدت الحياة التي عشتها منذ ذلك الحين بلا جذور على نحو غريب. ووضعها ووضعي متشابهان للغاية إلى حد أنني تقت إلى أن أرجوك أن تقدري هذا القدر الكبير الذي نتقاسمه، وهكذا فقد انتهزت هذه الفرصة النادرة، مخاطراً بمضايقتك للحديث معك بصراحة».

«ينبغي لكلماتك أن تجعلني سعيدة، يا مولاي، ولكن الحذر يكبح جماحي، لأنني أخشى أنك في بعض الأمور لم يتم إبلاغك بما هو صحيح. هاهنا حتماً إنسانة أنا وحدي مسؤولة عنها، مهما كانت محدودية جدارتي بهذه المسؤولية، ولكنها لا تزال صغيرة إلى أبعد الحدود، وبما أنني لا أستطيع أن أتصور كيف استطعت تجاهل هذه الصعوبة، فإنني لا أرى سبيلاً إلى أخذ اقتراحك على محمل الجد».

«إنني أفهمك تماماً، ولكنني لا أزال أهيب بك ألا توصدي الباب في وجه ما أطلبه. وأرجو بدلاً من ذلك أن تمعني النظر في الطبيعة الاستثنائية لرغبتي بالغة الإخلاص!».

غير أنها ظلت مقتنعة بأنه لا يدرك ما في كلامه من التعارض، ولم تتضمن ردودها تنازلاً عن موقفها. وفي غضون ذلك كان نيافته قد عاد. راح جينجي يفكر، وهو يعيد إغلاق الفجوة بين الستائر: حسناً، إنه أمر مريح أن نكون قد طرقنا الموضوع.

دنا الفجر، وتناهت إليهم الأصوات المؤثرة في النفس التي ترتل «الاعتراف» في «قاعة تأمل اللوتس» على جناحي الريح نزولاً من الجبل، مختلطة بضجة الشلال. قال جينجي:

«تكتسح الريح السوَّاحة التي تهب هابطة من الجبل الحلم بعيداً[1]،

ثم تبدأ الدموع في التدفق عند صخب الشلالات».

وقال نيافته:

«غدير الجبل المتدفق سريعاً الذي لدهشتك بلَّل كميك

لا يبرر المتاعب في قلب طهَّره منذ زمن بعيد»

أحسب أنني معتاد عليه فحسب»

(1) «حلم العواطف الذي يحجب رؤية الحقيقة». يشيد جينجي بمضيفه.

كانت السماء التي شرع النور يكسوها، مثقلة بالسديم، ومضت الطيور الجبلية تغرد في كل مكان. شكّلت زهور، لم يكن بمقدور جينجي أن يذكر اسمها، بساطاً للأرض بألوان عديدة من البتلات الدمقسية، التي وقفت عليها الغزلان أو راحت تتجول متجاوزة إياها، وهو مشهد بالغ الروعة إلى حد أن كل تفكير في الحمّى التي تعاوده قد ذاب بعيداً. فقد أفلح الرجل الورع في أداء شعائر حمائية له، على الرغم من الصعوبة التي يواجهها في الحركة. كان صوته المبحوح غير مميز تماماً، لكن ترتيله لـ«الداراني»[1] أوحى بقداسة مؤثرة في النفس.



فارجا أحادية الرأس

مثل الذين قدموا من المدينة لمرافقته على الدار بين يديه الآن، وأعربوا عن سرورهم لأن الحمى التي كانت تعاوده قد انحسرت، ونقلوا إليه تمنيات جلالته بالصحة كذلك. طاف نيافته أعماق الوادي ليتحف جينجي بكل أنواع الفواكه والنعم غير المعروفة للعالم على امتداده.

أشار، وهو يقدم الخمر لجينجي: «يا للحسرة، يا مولاي، إن نذري البقاء في الجبل على مدار هذا العام يمنعني من مصاحبتك على النحو الذي أود، لولا ذلك، القيام به».

رد جينجي: «بينما يظل قلبي في هذه الجبال، فإن إعراب جلالته عن قلقه لا يترك أمامي خياراً إلا العودة. وبراعم هذا العام لن تذوي قبل أن أعود مجدداً.

سأمضي الآن وأصف للجميع في البلاط هذه الكرزات الجبلية.

ليسبقوا الرياح في القدوم والتأمل» .

كان أسلوبه في الحديث آسراً تماماً.

أجاب نيافته مجاملاً:

«أخيراً رأيت زهرة الأودومبارا، ذلك هو شعوري،

حتى لم تعد عيناي تستسيغان براعم الكرز الجبلية»[2].

(1) كان طقس الحماية يتركز، شأن طقوس عدة أخرى، على ترتيل الداراني، وهي ترتيلة قوية ذات طابع صوفي ترتل بالنطق الياباني لترجمة صينية عن السنسكريتية.

(2) تتفتح زهرة الأودومبارا مرة كل ثلاثة آلاف عام، عندما يظهر حاكم متسم بالكمال، ويوحد الدنيا بأسرها في حقيقة بوذا.

ابتسم جينجي: «الماثل أمامك لا يمكن أن يكون الزهرة التي تتحدَّث عنها، لأن تلك الزهرة تتفتح مرة واحدة وفي وقتها المناسب».

رفع الرجل الورع قدح الخمر بدوره وقال:

«بعد أن فتحت على مصراعيه لمرة واحدة في هذه الجبال بابي الصنوبري المتواضع،

فإني أرى محيا زهرة لم أشاهدها من قبل قط!»[1]

مضى يتأمل جينجي مغرورق العينين، وأعطاه «فاجرا»[2] أحادية الطرف لتكفل له الحماية.

ثم قدَّم نيافته لجينجي هداياه الخاصة، التي اختيرت بأقصى قُدِّر من الاهتمام، مسبحة من بذور شجرة البو المزخرفة، حصل عليها الأمير شوتوكو من كودارا ولا تزال في صندوقها الأصلي، صيني الطراز، ومقدمة في كيس من الشاش متصل بفرع من الصنوبر خماسي الإبر، ومرطبانات من اللازورد قاتم الزرقة، تحتوي عقاقير طبية منوعة، مرتبطة بأنواع من رذاذ الوستارية وبراعم الكرز[3]. وكان جينجي قد أرسل بالفعل يستقدم الهدايا المنوعة، الرسمية وغير الرسمية، التي يكافىء بها الرجل الورع والرهبان الآخرين، الذين رتلوا الكتب المقدسة من أجله، وقام الآن بتوزيع الهدايا المناسبة للكافة، بمن في ذلك الحطابين المحليين. وودعهم، في نهاية المطاف، بعدما قدَّم ما هو ضروري للترتيل المستقبلي للكتب المقدسة.

مضى نيافته إلى الدار، وكرَّر على مسامع الراهبة ما كان جينجي قد أبلغه به، ولكن تعقيبها الوحيد كان: «ليس بوسعنا، على أية حال، الرد عليه الآن. إذا لم تكن رغبته قد تغيرت في غضون أربع سنوات أو خمس، عندئذ ربما..».

---

(1) يبرز الباب «الصنوبري» المفارقة بين دوام الخضرة الثابتة والجمال العابر الذي تتمتع به الزهرة.

(2) توكو، أداة طقوسية بوذية باطنية ورمز البصيرة الفائقة. ولنوعيات أخرى منها ثلاثة أطراف مستدقة أو خمسة أو أكثر من ذلك، أو شعب.

(3) وصل البوذا إلى الاستنارة تحت شجرة بو، التي حظيت بذورها بتقدير كبير لاستخدامها كحبات للمسابح. وقد كرَّس الأمير شوتوكو (574، 622) البوذية في اليابان بعد إدخالها الرسمي من كودارا (وهي مملكة كورية قديمة). ومرطبانات الأدوية (التي ترتبط بياكوشي، بوذا الشفاء) تصنع من الروري، وهو من الناحية النظرية اللازورد (حجر أزرق) ولكن من الناحية العملية، على الأقل في اليابان، كانت تصنع غالباً من الزجاج.

من هنا فإن الرد الذي تلقاه جينجي أكّد معارضة الراهبة فحسب، وعن طريق فتى صغير في خدمة نيافته بعث يقول:

«الآن وقد لمحت لون الزهرة من خلل الغسق المتكاثف،

لست أحتمل تركها فيما سدم الصباح لا تزال تنهض»[1].

وقد ردت عليه الراهبة بخط بديع تقول:

«رغبتك في ألا تترك الزهرة التي تقدرها أبداً

أمر ستكشف عنه سدم سماء المستقبل».

كان جينجي يهمّ بدخول عربته حين جاء وفد من النبلاء الشبان أرسلهم نيافته لمقابلته، معربين عن شكواهم من أنه قد اختفى من وسطهم. وأصر النقيب أمين السر ومراقب حسابات الميسرة وأشقاء زوجته على الالتفاف حوله والاعتناء به.

قال النقيب أمين السر موجهاً اللوم له: «كان سيسعدنا أن نصحبك في رحلة كهذه، ولم يكن لطيفاً للغاية منك أن تتركنا وراءك. على أية حال، كان سيغدو أمراً مخجلاً للغاية لو أننا انعطفنا وشرعنا في العودة من دون لحظة راحة تحت هذه البراعم الرائعة».

جلسوا جميعاً على الأُشنة، في ظل صخرة تقيهم الريح، وأداروا فيما بينهم أقداح الخمر، بدا الغدير الذي تتساقط مياهه من ورائهم شلالاً جميلاً. التقط النقيب ناياً من طية ثوبه، وعزف عليه، بينما غنى مراقب حسابات الميسرة «إلى الغرب من معبد تويورا..»[2]، وهو يطرق بمروحته بخفة محدثاً الإيقاع. كان هؤلاء النبلاء الشبان رائعين جميعاً، ولكن حُسن جينجي الذي لا نظير له، والمؤرق حقاً فيما هو يجلس مستنداً إلى الصخرة، وهو ليس على ما يرام تماماً، جعل من المستحيل أن تنصرف العيون إلى أي أحد غيره.

كان أحد رفاق النقيب أمين السر، كالمعتاد، عازفاً على الهيتشيريكي، بينما عهد بالعزف

(1) «الآن وقد رأيت الصبية الصغيرة، فإنني لا أرغب في أن تفصلني عنها اعتراضات القائم على أمرها».

(2) من أغنية سايبارا رائعة بعنوان «كازوراكي».

على الشو[1] إلى شاب آخر له ذوق رفيع. جلب نيافته آلة الكين[2] الخاصة به إلى جينجي، وقـال: «اعـزف قليلاً، يـا مـولاي، إذا كان ذلك يرضيك، فإننـي أود أن أقدم مفاجأة سـارة لطيور هذه الجبال».

احتج جينجي بأنه لا يشعر بأنه في حالته الطبيعية، لكنه عزف ما يكفي لتجنب عدم تلبية ما طُلب منه، ثم انطلق الجميع في سبيلهم.

بكـى أدنـى الرهبان مرتبـة والخدم الشـبان لرؤيته وهو يرحـل، بينما مضـت الراهبات الطاعنـات في السـن في الـدار واللواتي لم يشـاهدن نظيراً له من قبل قـط، بالطبع، يؤكدن بعضهن للبعض الآخر أنه لا يحتمل أن يكون منتمياً إلى هذه الدنيا. قال نيافته بذاته مندهشاً، وهـو يجفـف الدمع المنهمر من عينيه: «آه، من المحزن التفكير في كارما ذلك الذي يمكن أن يكون قد جعله يولد بمثل هذه الطلعة في الأيام الأخيرة وفي بلادنا البائسة هذه!»[3].

ومن منظور الصبية الصغيرة ذات النزعة الطفولية، فإن جينجي كان بالغ الروعة إلى حد أنها قالت: «إنه ألطف منظراً بكثير من أبي!».

أشـارت إحـدى الوصيفـات: «لماذا لا يكـون صبية صغيـرة بدلاً من ذلـك؟». أومأت برأسـها، وبـدت مسـرورة للغاية من الفكـرة. عندما كانـت تلعب بإحدى الدمى أو ترسـم صـورة، كانـت تتظاهر بـأن الشـخص المعني هو جينجـي، وتكسـو الدمية بأرديـة جميلة وتحدث ضجة كبرى بشأنها.

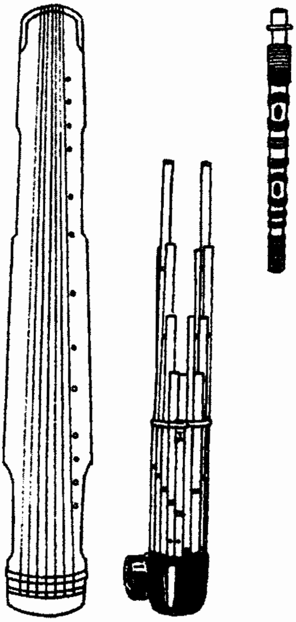
مضـى جينجـي إلى القصـر أولاً، وأطلع جلالـة الإمبراطور على كل ما جرى، واسـتاء جلالته لرؤيته ناحلاً على هذا النحو، واستفسـر عن مسـتوى تميز الرجل الورع، وتأثر بما فيه الكفاية بوصف جينجي المطوّل بحيث أشـار بقوله: «أعتقد أنه يسـتحق رفعه إلى مرتبة

(1) ربما حرص تو نو تشوجو، المعروف بتمكنه من الناي المستعرض (فوي) على الارتحال مع مصاحبين مناسبين في العزف. والهيتشريكي آلة موسيقية صغيرة تتخذ من الخيزران، والشو مجموعة من الأنابيب الخيزرانية الدقيقة تنهض من صندوق هوائي واحد ينفخ العازف فيه.

(2) آلة ذات سبعة أوتار من عائلة الكوتو. وهذه الآلة التي تحظى بتقدير كبير في الصين، علا شأنها في اليابان في أوائل القرن العاشر، ويبرز إلى حد كبير ميل كبير ميل جينجي إليها في فصول مثل «سوما» و«أكاشي» في أنه فيما يبدو لم يكن يعزف عليه كثيراً في زمن المؤلفة.

(3) «الأيام الأخيرة» للتعاليم البوذية وموتسو كاشيكي هي نو موتو «اليابان الصغيرة البائسة».

الخبير. كم هو غريب أنه عاش حياة ممارسة العلاج طوال هذه السنين من دون أن يلفت انتباهنا!».



كن وشو وهيشيريكي

أقبل معاليه في تلك اللحظة، وقال: «فكرت في أنني ينبغي على الأقل أن أحضر للقائك، فهلم، تعال واقض عدة أيام هادئة معنا، لسوف أصحبك إلى الدار على الفور». لم يستشعر جينجي حماساً يُذكر لهذا الاقتراح، ولكنه ترك نفسه يُجرب. ودعاه معاليه إلى ركوب عربته الخاصة وبتواضع استقلها وراءه، فتأثر جينجي في نهاية المطاف باهتمامه.

كان كل من في الدار ينتظرون بشغف قدومه، وقد أمر معاليه بتنفيذ العديد من الأشياء منذ زيارة جينجي الأخيرة قبل بعض الوقت للدار، لجعل المكان يبدو أكثر فخامة من ذي قبل. وتسللت ابنته لتحتجب بعيداً، كما هي عادتها دوماً، ورفضت الظهور إلى أن أقنعها أبوها أخيراً بالقدوم، وهنالك قعدت حيث أجلستها وصيفاتها، ساكنة وكاملة، كسيدة في لوحة.

راح جينجي يفكر: كان بمقدوري أن أحاول الحديث معها حول ما يدور في خاطري، أو أن أحدثها عن رحلتي إلى الجبال، وكان حرياً بذلك أن يكون أمراً جميلاً للغاية، لو أنها عندئذ أبدت نوعاً من الاستجابة الطيبة، ولكن لا، إنها لن تحير رداً وستظل باردة ومنفردة. كانت الهوة القائمة بينهما قد اتسعت على مدار السنين، إلى أن شعر بالاستفزاز بحيث قال: «أتمنى أن أراك بين الحين والآخر تعاملينني بطريقة عادية. على سبيل المثال، كان مرضي عضالاً وينذر بموتي، ولم تكلفي نفسك عناء السؤال عن صحتي، لا يُعدّ هذا جديداً من جانبك، ولكنني لا أملك إلا الشعور بأنني قد جُرحت».

أخيراً تكلمت: «هل كان مؤلماً حقاً أن تلقى التجاهل؟»[1] رمقته بنظرة جانبية باردة

(1) لم يتم تحديد القصيدة التي تقتطف أوي هذا المقطع منها. وربما يستجيب بعدم الموافقة لأن القصيدة تتعلق بالعشاق الذين يختلسون الهوى، وليس بزوجين.

أكدت الطابع المتجهم لجمالها.

«أنت نادراً ما تتكلمين وحين تفعلين ذلك تقولين أغرب الأشياء! هذه بالكاد هي علاقة أحدنـا بالآخر. يا لها من طريقة في الحديث! إنني أواصل تجريب هذا وذاك على أمل أنك قد تغيرين رأيك وتتخلين عن رفضك لي طوال الوقت، ولكن بقدر ما يسعني القول، فإنك لا تزدادين لي إلا كرهاً. حسناً. ذات يوم ربما..».

مضـى إلى فراشـهما الذي تحفه السـتائر، ولكنهـا لـم تحذ حذوه على الفـور. حار فيما يمكـن أن يقولـه غيـر ذلك، ومضى ـ حيث أنه من دون شـك كان يشـعر بأنه ليس في مزاج طيـب ـ يدَّعـي أن النعـاس أخذ منه كل مأخذ، مفضلاً أن يقلب فـي ذهنه كل المتاعب التي جلبها الحب له.

كان لا يـزال حريصـاً على أن يرقب «النبتة الصغيرة» وهي تكبر، ولكن كان هناك الكثير مما يتعين قوله بالنسـبة لرأي الراهبة، الذي قوامه أنها صغيرة في السـن للغاية. قال محدِّثاً نفســه: هذا الأمر أكثر دقة وحساسـية من أنْ يفتح مع أحد. ما الذي سـيتعين عليَّ القيام به لاصطحابهـا إلى الـدار والاسـتمتاع بصحبتها على الـدوام؟ إن معالي وزير الحرب سـيد مهذب لطيف بما فيه الكفاية، ولكنه ليس فيه شيء بعينه يجعله مميزاً. فلماذا إذاً يبدو الشبه كبيراً للغاية بين الصبية وبينها «هي»؟ أحسب أن ذلك يرجع إلى أنهما كليهما قد انحدرا من الإمبراطورة نفسـها[1]. وقد جعلته هذه الصلة الحميمية يحسـن رأيه بصدد حتمية أن تكون من نصيبه.

بعث في اليوم التالي برسـائل إلى التلال الشـمالية. ولا شـك أن الرسـالة التي بعث بها إلـى نيافتـه قد ألمحت إلى رغبته. وإلـى الراهبة كتب يقول: «أحسسـت بأنني موثق اليدين بفعل أسـلوبك الذي يميل إلى النأي والابتعاد، ومن سـوء الطالع أنني لم أوفق في قول كل ما أرغب في قوله ولسـوف أكون سـعيداً، إذا قُدِّر لرسالة موجزة كهذه أن تقنعك بأن آمالي لا تفتقر إلى الجدية..» وهلم جراً. وأدخل الرسالة وأدرج حاشية معقودة»[2].

(1) «لماذا تبدو الصبية شبيهة للغاية بفوجيتسوبو؟ ربما لأن معالي وزير الحرب وفوجيتسوبو هما ابنا الإمبراطورة نفسها». والصبية هي ابنة أخ لفوجيتسوبو.

(2) رسالة تودد مرحة إلى الصبية. وكانت هذه النوعية من الرسائل (موسوبي بومي) تُكتب على قطعة من الورق ثم

«طيفك لا يفارقني الآن أبداً، أيتها الكرزة الجبلية،

على الرغم من أنني تركت في رعايتك فؤادي كله

إننـي أحس بالقلق الشـديد عندما تهب رياح الليل»[1]. خطـف خطه، بالطبع، والطريقة العفوية التي أنجز بها الرسالة عيني الراهبة العجوز[2].

ما أشد صعوبة هذا كله! أي رد عساي أبعث به إليه؟ كتبت تقول: «إنني أعترف بأنني لم أُعـط كبير وزن للكلمات التي تشـرفت بتلقيها منـك، والآن وقد طابت لك العودة إلى هذا الموضـوع، فإنني أجد مـن الصعب صياغة رد، ومن المؤكد أنه لا طائـل من وراء متابعته، حيث أنها لا تستطيع حتى كتابة رسائلها بالكانا[3] بصورة صحيحة بعد. وفي نهاية المطاف فإنه:

محدود هو الوقت المنقضي فيما البراعم تتشبث بالغصن على تل تكتسحه الرياح

منذ تركت قلبك، ومثل هذه الأوقات تنقضي سريعاً.

إنني أشعر بالقلق عليها بصورة متزايدة». ورد نيافته على النحو نفسه.

بعـث جينجي الـذي مُني بخيبة الأمل بكوريميتسـو إلى هناك بعد يوميـن أو ثلاثة أيام. قـال: «المـرأة التي يدعونها بالمرضعة شـوناجون ينبغـي أن تكون في الـدار، فاعثر عليها، وتبادل معها حديثاً طيباً».

«إنه لا تفوته واحدة». أليس كذلك! مضى كوريميتسو يتذكر متأملاً اللمحة غير المناسبة التي رأى فيها الصبية، وكيف بدت صغيرة السن للغاية.

أعـرب نيافتـه عـن اغتباطـه العميق لـدى تلقيه رسـالة أخرى. طلـب كوريميتسـو لقاء شـوناجون، وأمضى بعض الوقت معها، وأبلغها بما لدى جينجي، ووصف جانباً من حياة

تُطوى لتغدو رفيعة للغاية وتُعقد.

(1) شويشو 29، من نظم الأمير موتويوشي: «أنهض قبيل الفجر لرؤية براعم برقوقتي، والقلق يساورني حول ما فعلته رياح الليل». ويخشى جينجي من أن «رياح الليل» ربما تثير بتلات البراعم، أي تمضي بالصبية إلى ما يتجاوز مطاله.

(2) يبدو أنه هناك العديد من الراهبات العجائز، ربما كن وصيفات سابقات حول جدة الصبية الصغيرة.

(3) الرسائل المستندة إلى المقطع الصوتي، الذي تبدأ به دروس الكتابة.

هذا الأخير. وكان متحدثاً لبقاً، وجعل الأمر يبدو مقنعاً للغاية، ولكن الصبية كانت صغيرة للغاية إلى حد أن القائمين عليها ظلوا منزعجين حيال ما يدور في ذهن جينجي.

كانت رسالة جينجي توحي بالشعور بالإخلاص، وكما هي الحال في السابق، احتوت على حاشية صغيرة: «أود مع ذلك أن أرى كتابتك المتعثرة[1] هذه.

آه، يا جبل أساكا! لا سبيل إلى أن يكون كل حبي لك سطحياً

ولكن لماذا يذوب الوجه في الربيع منداحاً إلى البعيد عندما اقترب؟[2]»

ردت الراهبة:

«يتحدثون عن ربيع عندما يقترب منه المرء فإنه لا يعرف إلا الندم،

قريبة الغور هي مياهك، فكيف تستطيع الكشف عن محياها؟»[3]

نقل كوريميتسو الرسالة ذاتها إلى جينجي. كتبت المرضعة شوناجون في ردها الخاص تقول: «سننتقل عما قريب إلى دار سيدتي في المدينة، طالما أن حالتها الصحية تتحسن، وأتوقع أنها سترغب في المزيد من الاتصال بك من هناك». لم يجد جينجي ذلك أمراً مشجعاً.

لم تكن الأميرة فوجيتسوبو في حالة صحية طيبة، وكانت قد انسحبت من القصر، وأحس جينجي بتعاطف عميق مع جلالته، الذي كان حزنه المفعم بالقلق جلياً، ولكنه مضى الآن يتوقع على نحو محموم فرصة لنفسه، ولم يعد يخرج على الإطلاق. وفي القصر أو الدار أمضى ساعات النهار في أحلام يقظة وساعات الليل في مطاردة أوميوبو . كيف دبرت

(1) إنها لا تزال تكتب حروف الكانا بصورة منفصلة، بدلاً من كتابتها معاً بصورة متصلة.

(2) لا بد أن الصبية الصغيرة تعرف القصيدة التي يلمح جينجي إليها، حيث أن أي طفل يتعلم الكتابة كان عليه القيام بنسخها. وهما كلاهما يتلاعبان باسم المكان أساكا - ياما (جبل أساكا) وكلمة أساشي (سطحي). (والقصيدة الأصلية) مانيوشو 3829، وترد كذلك في المقدمة اليابانية لكوكينشو تقال في العصور القديمة على لسان سيدة بلاط جميلة لنبيل صارم من الشمال: «يا جبل أساكا، سطحي هو الربيع الذي يعكس صقاله محياك، ولكن ليس كذلك فؤادي هذا في غمار الرغبة». وما تعلنه يؤدي إلى صفاء مزاج الزائر.

(3) «لست أستطيع تصديق أنك جاد، وليس بمقدوري أن أعطيك حفيدتي». كوكين روكوجو 987: «يا للحسرة على أنه ينبغي عليَّ جلب الماء من نبع جبلي ضحل للغاية إلى حد أنه يبل كميَّ فحسب».

أوميوبو[1] أمر لقائهما هو شأن يتعذر الإفصاح عنه، ولكن بالنسبة لجينجي المسكين فإنه حتى تلك اللحظات المختلسة[2] معها بدت غير واقعية تماماً. وبالنسبة لجلالتها فإن ذكرى ذلك الحدث الأخير، الأكثر تعاسة، كانت مصدراً لمعاناة مستمرة، وقد حسمت رأيها على أنه ما من شيء من هذا النوع سيحدث مجدداً، ومع ذلك وعلى الرغم من ضيقها الجلي فقد ظلت حريصة ورقيقة، حتى وهي تواصل مقاومته بكبرياء متأصلة بعيدة عن مطال أي من النساء الأخريات بحيث أن جينجي لم يستطع إلا التساؤل في ألم مبرح عن السر في أنه لم يكن ممكناً قط العثور على أدنى عيب فيها.

كيف كان بمقدوره إبلاغها بكل ما كان يتعين عليه قوله؟ لا بد أنه قد تمنى ألا ينتهي الظلام[3]، ولكن يا للحسرة، فقد غدت الليالي قصيرة، والوقت الذي أمضياه معاً لم يسفر في نهاية المطاف إلا عن الألم.

قال منتحباً:

«هذا القدر اقتسمناه معاً، ولكن ليالي لقائنا ستكون نادرة للغاية،

والآن ونحن نحيا هذا الحلم، فإني أخشى أنه قد يبتلعني!»

ردت جلالتها في إشفاق على هذا قائله:

«سرعان ما سيتداول الناس حكايتنا، على الرغم من أنني تركت حلمنا

يمضي بي إلى أن نسيت أي بؤس حل بي».

لم يستطع جينجي أن يلومها على معاناتها مثل هذا العذاب، وقد أسف أشد الأسف على أنه كان سبب هذا العذاب. وقد لملمت أوميوبو عباءته وهلم جراً وأحضرته إليه.

---

(1) الوسيطة المعتادة بين جينجي وفوجيتسوبو. والمقطع الصوتي الاستهلالي «أو» يوضح أنها تجري في عروقها دماء إمبراطورية. و«ميوبو» كان لقباً تحمله امرأة متوسطة المرتبة تعمل في خدمة القصر.

(2) يتضمن التعبير الأصلي الفعل «ميرو»، أي (يرى) الذي يومىء إلى الحميمية الجنسية. والفقرة مكبوحة الجماح في التعبير عن حرص، وذلك بسبب مكانة فوجيتسوبو السامية. و«الحدث الأخير الأكثر تعاسة» الوارد ذكره بعد ذلك مباشرة لا يظهر في الحكاية إلا في هذا الموضع.

(3) يتحدَّث الأصل عن كورابو نو ياما، وهو اسم مكان يتردد في السمع كما لو كان يعني «الجبل المظلم» والذي يظهر في الشعر لذلك السبب.

عندما عاد إلى الدار مجدداً، رقد ومضى يبكي طيلة اليوم. وقد أدرك أنها ترفض كالمعتاد قراءة أي رسالة يبعث بها، وعلى الرغم من أن ذلك كان حقاً ما درجت عليه عادة، فإن الألم الذي أثاره أوشك أن يودي به. وعلى امتداد يومين أو ثلاثة أيام ظل موصداً بابه عليه، من دون أن يتوجه إلى القصر إلى أن استشعر جلالته القلق عليه مجدداً وعلى ما يمكن أن يكون قد حل به، وهو الأمر الذي لم يدفع جينجي إلا إلى الشعور بالفزع.

استمرت جلالتها في النحيب على بؤس ما قدرته لها الأيام، وفي غضون ذلك تفاقم شعورها بالمرض، بحيث أنها لم تستطع أن تحسم رأيها فيما يتعلق بالعودة إلى القصر مباشرة، وذلك على الرغم من توالي دفق من المبعوثين من هناك يهيبون بها أن تبادر إلى ذلك. لا، إنها حقاً تشعر بأنها ليست على طبيعتها، وانحدرت بها تخميناتها الصامتة حول ما قد يعنيه ذلك إلى اليأس مما سيؤول إليه مصيرها.

أخذ نهوضها من فراشها يتناقض تدريجياً، خلال حر الصيف، وبحلول الشهر الثالث كانت حالتها قد أصبحت من الوضوح بحيث لاحظتها وصيفاتها، وغلبها الفزع مما قُدِّر لها، وإذ لم يدرين بالفعل ما حدث، فقد أعربن عن دهشتهن لأنها لم تبلِّغ جلالته بعد. وقد فهمت وحدها جلية الأمر. ولم تشك نساء مثل أميوبو أو بن، أختها بالتبني، اللتين قامتا على خدمتها عن قرب لدى استحمامها، وبالتالي كانت أمام أبصارهن كل المؤشرات الدالة على حالتها، في أن خطأً قد وقع، ولكن لم يكن بمقدورهن مناقشة الأمر، وتركت أوميوبو لتفكِّر بمزيد من العذاب في أن قدر سيدتها قد ضرب ضربته في نهاية المطاف. وبالنسبة لجلالته فإنه يُفترض أن أوميوبو قد أبلغته بأن روحاً مؤذية قد أضفت الغموض على حالة جلالتها[1]، بحيث أن الأمر مضى في البداية من دون ملاحظته. هذا هو، على أية حال، ما اعتقدته وصيفات جلالتها. كان جلالته شديد القلق عليها، وسلسلة الرسائل المتواصلة التي قام بإرسالها أوحت بمزيج الخشية واليأس.

تراءى لجينجي نفسه حلم بالغ الغرابة إلى حدّ أنه استدعى مفسراً للأحلام. وفي غمار

(1) من خلال التسبب في مرض صرف الانتباه عن أعراض الحمل. وفي العمل التاريخي المعاصر بصورة بصورة تقريبية «إيجا مونو جاتري» (حكاية حظوظ مزهرة) قد تتابع إحدى الوصيفات طمث سيدتها، وتحصي الأيام، وتبلغ الرجل المعني. وعادة ما كانت لدى الإمبراطور فكرة واضحة عن متى تحمل فوجيتسوبو ومتى يتوقع قدوم وليدها.

الرد على أسئلته تلقى تفسيراً يتجاوز حدود كل الاحتمال.

«أرى، أيضاً، يا مولاي، أنك ستعاني من انتكاسة وأن شيئاً سيقتضي التزام جانب الحذر».

أحس جينجي بالاضطراب، فقال: «إنه ليس حلمي، وإنما وصفت حلماً تراءى لشخص آخر، فلا تقل كلمة عنه إلا بعد أن يتحقق!».

كان يتساءل عن جلية الأمر، عندما سمع بخبر جلالتها، وأدرك أنه ربما يعرف جوهر ما يجري. ولكن رغم كل توسلاته، التي ازدادت حرارة وشغفاً، فقد كان الخوف والذنب مسيطرين على أوميوبو بحيث لم تستطع أن تدبر أي شيء من أجله، وقد توقفت الآن كلية رسائل حبيبته النادرة التي كانت لا تضم إلا سطراً واحداً.

لم تعد إلى القصر حتى الشهر السابع. وقد أظهر لها جلالته عاطفة متجددة بعد أن منحتها استدارة في القوام وطلعة أضرت بها المعاناة حسناً لا نظير له حقاً. وكالمعتاد أمضى جلالته كل وقته في الغرف المخصصة لها، ولما كان ذلك هو موسم الموسيقى، فقد كان على الدوام يستدعي جينجي لخدمته وللعزف على «الكين» أو الناي. وبذل جينجي قصارى جهده لإخفاء مشاعره، ولكن عندما كان يخفق في ذلك، وتخونه لمحة من عذابه، فإن جلالتها، على الرغم من بذلها لقصارى جهدها، كان يتغلب عليها حشد من الأفكار المثيرة للانزعاج.

كانت الراهبة في المعبد الجبلي قد تماثلت للشفاء بما يسمح لها بالنزول إلى المدينة. وقد اكتشف جينجي المكان الذي تسكنه، وبعث إليها برسائل متتابعة. ولم يكن من غير الطبيعي أن موقفها قد ظل بلا تغيير، وفي ضوء الأحزان الشاغلة للبال التي سيطرت عليه خلال الأشهر القليلة الماضية، فإنه لم يكن أمامه مجال للتفكير في أي شيء آخر.

في أواخر ذلك الخريف، كان يشعر بالبؤس البالغ والتشاؤم. وذات ليلة أنارها البدر على نحو جميل حسم رأيه، أخيراً، واستقر على زيارة السيدة التي كان يراها سراً، عندما تقلب الطقس وبدأ مطر بارد بالهطول. كان في طريقه إلى منطقة قرب روكوجو وكيوجوكو[1]،

(1) هذان شارعان. والمواقع في المدينة كانت تُحدد من حيث صلتها بأقرب تقاطع.

وهو مكان بعيد، حسبما بدا له، حيث أنه كان قادماً من القصر، عندما لمح داراً لم تمتد لها يد العناية وسط ظلمة أشجار عتيقة.

أوضح كوريميتسو، الذي كان بصحبته، كما هي الحال دائماً: «تلك هي دار المستشار الكبير المفتش الراحل، وقد قيل لي إن سيدتي الراهبة معتلة للغاية الآن، وهم بالكاد يعرفون ما ينبغي عمله».

«يا لها من أخبار حزينة! كان ينبغي حقاً أن أزورها في وقت سابق. لماذا لم يبلغوني بجلية الأمر؟ عليك بالدخول وإبلاغها تحياتي!».

بعث جينجي برجل لإبلاغ من في الدار بوصوله، وأبلغه بأن عليه أن يقول إن جينجي قدم خصيصاً للزيارة، ومن هنا فإن الرجل أعلن لدى دخوله الدار أن جينجي قد أسعده القيام بزيارة لهم.

انزعجت النسوة، وقلن: «يا لسوء الحظ! على امتداد عدة أيام كانت صحة السيدة مصدر قلق، وهي ليست في حال تسمح لها باستقباله». وعلى الرغم من ذلك، فما كان بوسعهن تركه ينصرف ببساطة، ولذا فقد رتبن غرفة بالجناح الجنوبي ودعونه للدخول. «هذا مكان لا يليق بكم، يا مولاي، لكن سيدتي ترغب على الأقل في شكركم. إنها لسوء الطالع غرفة كئيبة للغاية لا تعد مناسبة لاستقبالكم في هذه الزيارة غير المتوقعة بالمرة»[1]. وافق جينجي على أن الغرفة غير مألوفة حقاً بالنسبة لمثل هذه المناسبة.

استهل حديثه بالقول: «لقد فكرت كثيراً في زيارتك، ولكنك لم تمنحيني إلا أملاً محدوداً للغاية، بحيث أنني أحجمت في النهاية عن ذلك، ومرضك، الذي لم أكن قد علمت به، يثير قلقي إلى أبعد الحدود».

ردت الراهبة: «أمر طيب للغاية حقاً أن تهتم لأمري الآن، أنا التي لم أكن غريبة قط عن الصحة المتداعية، إلى حد أنني أدنو أخيراً من نهايتي، وأعتذر لأنني لم أتحدث إليك بنفسي. وعليك بالاقتراب منها عندما تغادر مرحلة الطفولة، إذ تصادف أنها بقيت على

---

(1) يبدو أن جينجي تم استقباله ليس في الدار الرئيسية، وإنما في أحد الأجنحة، ولكن المعنى الدقيق للفقرة غير مؤكد.

استعداد لذلك كما هي حالك الآن. إنني أخشى أن تركها على هذا النحو من دون أحد يحميها قد يعرقل انطلاقي على الدرب الذي أتوق إلى المضي فيه»[1].

كانت قريبة للغاية، بحيث أن صوتها الواهن قد تناهى بين فينة وأخرى إلى أذني جينجي. كانت تقول لوصيفاتها: «هناك كل المبررات للشعور بالامتنان باهتمامه، كما تعلمن، لو أن حبيبتنا الصغيرة كانت كبيرة بما يكفي لتشكره على النحو اللائق»[2].

تأثر كثيراً بحيث رد قائلاً: «لكن لماذا أظهر افتقاري للاحتشام على هذا النحو لو أنني كنت أهتم بها اهتماماً عابراً فحسب؟ هناك رابطة لا يُسبر لها غور بينها وبيني، وقلبي يرفرف حولها، في لحظة رؤيتي لها، بسرعة رهيبة للغاية إلى حد أنني لا أستطيع تصديق أن هذه الصلة نابعة من الحياة الراهنة وحدها». وواصل حديثه: «إنني أدرك أن المزيد من التوسل سيذهب هدراً. ولكن لو أنني سمعت صوتها فقط!».

«ولكنها، يا مولاي، لا تعرف أنك هنا، وقد آوت إلى فراشها».

في تلك اللحظة دنا وقع أقدام قادماً من داخل الدار، وتردد صوت صبية صغيرة: «جدتي، يقال إن جينجي هنا، السيد المهذب الذي كان في المعبد الجبلي! لماذا لا تستقبلينه؟»[3].

هتفت النسوة اللواتي أصابتهن الصدمة: «صمتاً!».

«ولكنها قالت إن رؤيتها له ستجعلها تحس بأنها أحسن حالاً بكثير!».

كانت تلك الأخبار موضع ترحيب، ولكن أخذاً في الاعتبار ما أصاب النسوة من حرج، فقد تظاهر جينجي، على الرغم من سروره، بأنه لم يسمع شيئاً، ووصل بزيارته إلى خاتمة سليمة قبل أن يغادر.

في اليوم التالي، بعث إلى الراهبة برسالة قصيرة مفعمة بالمجاملة، ومرفقة كالمعتاد برسالة أصغر مطوية بإحكام:

«منذ أصغت هاتان الأذنان إلى تلك الصيحة الواحدة الصادرة عن الكركي الصغير،

---

(1) درب البعث في الفردوس.

(2) إنها تحادث نساءها، بمن فيها من تتحدَّث إلى جينجي على لسانها.

(3) لو أنها كانت قد استقبلته شخصياً، لكانت قد استطاعت رؤيته من خلال الستائر.

انتابني اليأس لأن قاربي سيعلق بالقصبات .

وبذلك الحب ذاته دوماً..»[1]. كان قد كتب عامداً بخط يوحي بالصبا وشديد الجاذبية إلى حد أن كل الوصيفات أهبن بالصبية الصغيرة بوضعها مباشرة في كتاب الإملاء الخاص بها.

صاغت شوناجون الرد: «السيدة التي زرتها لا يبدو من المحتمل أن يمتد بها العمر أياماً طويلة أخرى، ولهذا فإنها ستنتقل في التو إلى المعبد الواقع في الجبال. ولسوف ترغب في شكرك على رسالتك اللطيفة، حتى ولو لم يكن بوسعها القيام بذلك في هذه الحياة». تأثر جينجي بالغ التأثر.

لسوف تتحول خواطره من ليلة خريفية إلى تلك التي قلقلت فؤاده بصورة مستمرة، ومن المؤكد أنه قد تاق أكثر من أي وقت مضى إلى أي صلة بها. وتذكر ذلك المساء الذي تحدَّثت فيه الراهبة عن عدم قدرتها على ترك النبتة الصغيرة تذهب، وتاق إليها، وذلك على الرغم من أنه أحس بفؤاده يُعتصر اعتصاراً خشية من أنه إذا حصل عليها بالفعل فإنه قد يجدها مخيبة للآمال، وغمغم:

«كم سأكون سعيداً لقطف ثم احتياز تلك النبتة البرية،

الطالعة من الجذر نفسه لمورا ساكي»[2].

في الشهر العاشر، كان من المقرر أن يشق جلالته طريقه إلى قصر سوزاكو[3]، وكان قد اختار راقصين أولئك الأبناء الذين ينتمون إلى أعظم البيوتات، النبلاء الكبار أو الوصفاء الخصوصيين، الذين أظهروا أية جدارة بمثل هذه الأمور، وقد انشغل الجميع من أمراء ووزراء فما دون ذلك بالتدرب على أدوارهم.

---

(1) تعرقل مقاومة الراهبة تقدم جينجي. في كوكينشو 732 يحتج العاشق مشيراً إلى أن «قاربه الصغير» سيعود دوماً إلى الحب نفسه.

(2) المورا ساكي، اسم الفتاة في وقت لاحق، تشير إلى فوجيتسوبو. وقد ارتبطت المورا ساكي، وهي نبتة شائعة في السهوب، بالحب بسبب الصبغة الأرجوانية التي تستخلص من جذورها. ومقطع فوجي («الوستارية») في رسم فوجيتسوبو يربطها باللون نفسه. كوكينشو 867: «بسبب ساق واحدة من المورا ساكي، فإنني أحب كل النباتات والأعشاب في سهل موساشي».

(3) مسكن شيده الإمبراطور ساجا (حكم ما بين عامي 809 ـ 823) وشغله الأباطرة المتقاعدون.

تذكر جينجي مدى طول المدة التي انقضت منذ آخر مرة راسل فيها السيدة في الجبال، فبعث بمبعوث إلى هناك. وكان الرد الوحيد الذي تلقاه هو من نيافته، الذي كتب يقول: «لقد لفظت أنفاسها الأخيرة في العشرين من الشهر الماضي، بحضوري، وعلى الرغم من أن الموت يصيبنا جميعاً، فإن موتها يعد خسارة فادحة» وهلم جراً. أحس جينجي عميقاً بمدى هشاشة الحياة، وهو يقرأ هذه الرسالة، ومضى يتساءل في قلق عن حال الصبية الصغيرة، التي أقلق مستقبلها الراهبة الراحلة أشد القلق. ترى هل افتقدت جدتها وهي لا تزال في هذا العمر الصغير؟ تذكر، ولو على نحو غامض فحسب، فقدانه أمه، وحرص على البقاء على اتصال مع الصبية الصغيرة. ولم تخل الردود التي تلقاها من شوناجون من التعاطف.

ما إن تناهى إلى سمعه أن عزلة الحداد[1] قد انقضت، وأن أهل الدار قد عادوا إلى المدينة، حتى ترك بعض الوقت ينقضي، ثم مضى بنفسه ذات ليلة هادئة لزيارتها. كانت الدار مكاناً كئيباً، متداعياً، يوشك أن يكون مهجوراً، وكان بمقدوره أن يتصور في يسر كيف أنه قد يخيف طفلة. تم المضي به إلى الغرفة المعهودة كذي قبل، وهنالك وصفت له شوناجون المنخرطة في البكاء كيف حلت نهاية سيدتها إلى أن ابتل كمّاه بالدموع.

واصلت شوناجون حديثها: «إذن أدرك أنه من المقرر أن تذهب إلى دار معاليه، ولكن أمها كرهت على الدوام القسوة التي عانت منها هناك، وقد اعتقدت سيدتي نفسها أنه على الرغم من أن الصبية بالتأكيد ليست طفلة وليدة، إلا أنها في عمرها الحرج ذاك، ووسط كل إخوتها، غير الأشقاء، فإنها قد تُعامل باعتبارها مصدراً للضيق أكثر من أي شيء آخر، حيث أنها لا تدرك بصورة إيجابية بعد ما هو منتظر منها. وفي حقيقة الأمر، فإن هناك مبرراً قوياً للاعتقاد بأن سيدتي كانت على حق، وفي وقت كهذا فإنه يتعين علينا بالتالي أن نرحب بالاهتمام الذي تلطفتم بالإعراب عنه، مهما كان عابراً، وألا نصرّ كثيراً على التكهن بشأن مشاعركم المستقبلية حيالها. وعلى الرغم من ذلك، يا مولاي، فإننا نشعر بحيرة حول ما ينبغي القيام به، لأنها غير مناسبة لكم على نحو يدعو لليأس، وهي بالفعل أقرب إلى

(1) إيمي، ربما كانت ثلاثين يوماً، على الرغم من أنها ربما تكون عشرين يوماً (تبدأ في هذه الحالة في اليوم العشرين من الشهر التاسع)، وخلالها يظل من يلزم الحداد مقيماً في الدار لا يبرحها. وكان اللون الرمادي المميز لملابس الحداد يُرتدى لفترة أطول كثيراً.

الطفولة مما ينبغي أن تكون عليه في عمرها هذا».

«ولكـن لماذا يتعيـن عليك أن تكوني على مثل هذا القدر من التردد في قبول التأكيدات التـي قدمتهـا لك بالفعل بصورة متكـررة؟ إن كون طفولتها ذاتها تجتذبنـي هو أمر يوحي - حيث لا يمكنني الوصول إلى أي فهم آخر - بأن الصلة بيني وبينها هي صلة غير عادية حقاً. وأود إبلاغها بذلك، ليس بصورة غير مباشرة، وإنما شخصياً.

ربما القصبة الصغيرة التي تنمو على شاطىء واكا ليست من نصيب أحد بعد،

ولكن الآن والموجة عالية هل يمكن أن تنزلق عائدة للبحر؟

لن يجدي ذلك على الإطلاق»[1].

«ما كنت لأجرؤ على أن أطلب ذلك منك، يا مولاي.

لو انحنت القصبة المتألقة على شاطىء واكا لملاقاة الموجة المقتربة،

من دون أن تعرف مقصدها، فلا شك في أن طرقها ستكون متقلبة

ما أصعب هذا!».

غفـر لهـا جينجي إلى حد ما إحباطها له، حيث أنها تحدَّثـت بعقلانية نابعة من التجربة. مضى يدندن لنفسه: «لم لا يأتي ذلك اليوم أبداً؟»[2] مذهلاً الوصيفات الأصغر سناً.

كانت الصبية الصغيرة راقدة، تبكي جدتها، عندما صاحت رفيقاتها في اللعب مندهشات: هاهنا سيد مهذب يرتدي عباءة! لا بد أنه معاليه!».

نهضت، ونادت: «شـوناجون! أين السيد المهذب الذي يرتدي العباءة؟ هل أبي هنا؟». كان صوتها عذباً ورقيقاً، فيما هي تقترب.

قـال جينجـي: «لا، إننـي لسـت معاليه، ولكن ذلـك لا يعني أنـك لا ينبغـي أن تحبيني

---

(1) «قد لا ترغبين [المراد الموجة] في أن أراها، ولكني لا أقصد تهوين الأمر عليك بالاستسلام». المؤثر الرئيس في هذه القصيدة والقصيدة التالية، بكل ما فيها من تلاعب بالكلمات، هو المؤثر المتعلق بموجة عاتبة، تندفع نحو موضع للرغبة على الشاطىء.

(2) من جوسينشو 731، من نظم كوريماسا: «أضيق ذرعاً في قرارة نفسي، ولكن على امتداد سنين وسنين لم لا يأتي هذا اليوم أبداً الذي ألتقيها فيه أخيراً؟».

بدوري. تعالي هنا!»[1].

تعرفت على صوت السيد المهذب الذي كان قد اجتذبها، وأسفت لأنها قد تحدَّثت، وبدلاً من ذلك، مضت مباشرة إلى مرضعتها. قالت: «هلمي، إنني أشعر بالنعاس!».

«لماذا ما زلت تحتجبين عني؟ ارقدي على حجري إذن! اقتربي قليلاً!».

دفعتها شوناجون نحوه: «ترون، يا مولاي، كم هو قليل ما تفهمه في عمرها هذا!».

جلست الصبية الصغيرة في براءة، ومد يده تحت الستار الحاجب ليلمسها، استشعر وفرة بديعة عندما لمست يده طرف خصلات شعرها، الذي تناثر في ثراء على ملابسها الرقيقة، وتصور جمال شعرها. وبعد ذلك أمسك بيدها، وعندئذ شمخت بأنفها، وتراجعت لوجود غريب على مثل هذا القرب الشديد منها، وأعربت لشوناجون عن شكواها: «ولكنني أريد الذهاب للنوم!».

انسل مباشرة وراءها: «ولكنني أنا الذي سيحبك الآن، فكوني لطيفة معي!».

ذهلت شوناجون: «ما الذي تفعله يا مولاي؟ آه، رحماك! أؤكد لك أنه لا أهمية لكيفية حديثك معها، فلن تحصل على شيء منها على الإطلاق!».

«ما الذي يهمني إذا كانت لا تزال صبية صغيرة؟ كل ما عليك هو الانتظار ورؤية كم أحبها أكثر من أي إنسانة أخرى على الإطلاق!».

إنهمر البَرَد بشدة، وحمل الطقس نذر ليلة سيئة. «كيف يمكنكن العيش على هذا النحو بمفردكن فيما عددكن محدود للغاية؟». بدأ جينجي بالنحيب. لم يكن بالإمكان تركهن. «عليكن بإنزال المصاريع الشبكية! هذه الليلة تبدو ليلة مقيتة، وقصدي حمايتكن، فتجمعن كلكن!».

بقوله هذا، انطلق بخطى واسعة نحو فراش الصبية الصغيرة، الذي تحيط به الستائر، كأنما كان ذلك أكثر الأمور طبيعية في العالم[2]، تاركاً الوصيفات المصدومات والمذهولات

---

(1) يبدو أن جينجي جالس في الجناح، وتفصله ستارة قائمة عن النسوة الموجودات في الغرفة. والضوء الوحيد الموجود، وهو منبعث من مصباح زيتي، يصور من الجانب الذي توجد فيه النسوة.

(2) يبدو أنه يحملها إلى الفراش معه، على الرغم من أن النص لا يقول ذلك.

متجمـدات في موضعهن. لم تسـتطع شـوناجون التدخل بلوم أحد علـى الرغم من قلقها، ولـم تحـر إلا الجلوس في موضعها، مطلقـة تنهيدة إثر أخرى. بـدأت الصبية ترتعد خوفاً، فقام جينجي، الذي أخذ قلبه في الذوبان عندما وجد بشرتها الجميلة باردة على هذا النحو، بلفها في قميص آخر.

أدرك تمـام الإدراك مدى خروجه عن المألوف في سـلوكه، ولكنه على الرغم من ذلك بـدأ فـي محادثتها برقة عن أمور ظن أنها سـتروق لها. «هلمي معي، وسـوف أصحبك إلى حيـث هنـاك الكثير من الصور الجميلـة ويمكنك اللعب بالدمى!». تحـدَّث برقة بالغة إلى حـد أنهـا بطريقتها الطفولية كفت عن أن تكون خائفة إلى هذا الحد. ولكنها لـم تسـترخ قط بما يكفي للنوم العميق، وواصلت التقلب في فراشها في قلق.

تـردد زفيـف الريح طـوال الليل، بينما مضـت الوصيفات يتهامسـن فيمـا بينهن. قالت شوناجون التي ظلت قريبة للغاية من الصبية التي عُهد إليها برعايتها: «صحيح، كما تعلمن، أننـا كنا سـنصبح بائسـات من دونه، ولـو أنها فقط كانت كبيرة في السـن بمـا يكفي لتكون ملائمة له!».

غـادر جينجـي الدار قبل طلوع النهـار، فور تراجع حـدة الريح قليلاً، وقد بدا مسـروراً للغاية من نفسه. قال: «كانت بالفعل في خاطري على الدوام، أما الآن فسوف أشعر بالقلق عليهـا أكثـر من ذي قبل. أريد أن آخذها إلى حيث أقضي ليالـيّ وأيامي الكئيبة، فلا يمكنها الاستمرار في العيش على هذا النحو، ومن العجب أنها لـم تكد تموت جزعاً!».

ردت شـوناجون قائلـة: «يبـدو أن معاليـه يتحدَّث عن اسـتقدامها للإقامـة معه كذلك. وأحسب أنه يقصد القيام بذلك بعد مرور تسعة وأربعين يوماً على وفاة سيدتي».

«إنني على يقين من أنه سيرعاها، ولكن لا بد أنه غريب بالنسبة لها مثلي، فهي لـم تعش معه أبداً، في نهاية المطاف. وأنا نفسي قد عرفتها منذ وقت قصير للغاية، ولكن على الرغم من ذلك فإنني أكثر ارتباطاً بها منه». مضى يمسـد شـعرها، وتطلع إلى الوراء نحوها مراراً عديدة فيما هو يغادر الدار.

كانت السماء المثقلة بالضباب، جميلة على نحو غير مألوف، واكتسى كل شيء باللون

الأبيـض بفعل الصقيع، وهو مشـهد يفعم بالسـرور نفس العاشـق المرهق، ولكنه بالنسـبة لجينجي لـم يكن كافياً تماماً. وقد تذكر أن إحدى من كان يتردد عليهن سراً تقيم في الطريق الـذي يجتـازه، فجعل أحد الرجال يطـرق بوابتها، لكن أحداً لـم يسـمع الطرق فاضطر إلى جعل تابع يغني مرتين بصوت حسن:

«عند أول ضوء للفجر، وفيما السدم الطالعة تلف السماء وتعترض النظر،

لا أستطيع إرغام نفسي على المرور قرب بوابة حبيبتي»[1]

عند هذا أطلت خادمة لطيفة المظهر وردت:[2]

«إذا كان من الصعب المرور قرب بوابة لاحت عبر السديم

فيقيناً أن مدخلها الغامض لا يعترض طريقك»[3]

ثم عادت إلى الدار مجدداً. ولـم يخرج أحد منها مرةً أخرى، ولـم تواته رغبةً في التراجع، ولكنه أحس بأنه مكشوف تحت السماء التي شرع النور يغمرها، فواصل السير في طريقه.

رقد مبتسـماً لنفسـه، مسـتحضراً الذكرى الأثيرة لتلك الصبية الصغيـرة البهيجة. كانت الشـمس قد علت في السماء، عندما استيقظ لكتابة رسالة المجاملة[4]، وكان ما يتعين عليه قوله غير مألوف إلى حد كبير بحيث أنه وضع فرشـاته من يده، وغرق في الأحلام. وبعث مع الرسالة بعض الصور الجميلة.

تصـادف أن هـذا كان اليـوم الذي جاء فيـه معاليه لرؤيـة ابنته، وكانت الـدار قد تداعت بصورة ملحوظة في السـنوات الأخيرة، وجعلها كونها داراً كبيرة وعتيقة أكثر وحشة. فراح يتأمل المشـهد الممتد أمامه: «كيف أمكن لطفلة أن تقضي لحظة في مكان كهذا؟ لا بد لي

(1) تنسج قصيدة جينجي على منوال تعبير مستمد من أغنية سايبارا تدعى «بوابة حبيبتي» (إيمو جا يادو).

(2) نيابة عن سيدتها.

(3) «المدخل الغامض» الموصد (كوسا نو توزاشي) مستمد من جوسينشو 899، 900، حوار مشابه بين فوارا نو كانيسوكي وامرأته لا يرد ذكر لاسمها.

(4) الرسالة (كينو جينو نو فومي) التي كان يبعث بها عاشق إلى محبوبته بعد العودة إلى بيته قادماً من دارها في الصباح الباكر.

مـن إحضارها معي إلى الدار[1]، ليس هناك من سـبب يدعوك للشـعور بعدم الراحة هناك، لسـوف تصحبين مرضعتك، التي ستكون لها غرفة خاصة بها، وهناك أطفال تلعبين معهم، ينبغي أن تكوني سعيدة تماماً».

استقدمها إليه، وداعبت أنفه الرائحة العبقة التي كانت ملابسها قد التقطتها من ملابسه، فقال مندهشـاً: «يا لها من رائحة جميلة!» وعاد ليضيف في أسـى: «ومع ذلك فإن ملابسك كلها مجعدة»[2]. واصل القول: «يا للأسف إنها أمضت كل تلك السنوات مع سيدة عجوز ومريضة! لقد أهبت بها أن تجيء، وأن تعرف من في داري، ولكنها لسـبب ما قاومت هذه الفكرة، وقد كان هناك بعض التردد في داري كذلك[3]. يؤسـفني أنها لا بد لها من الانتقال إلى هناك في وقت كهذا».

«لكـن هل لا بد لها من ذلك حقاً معاليكم؟! من المؤكد أن هذه الدار موحشـة بالنسـبة لها، ولكنها ينبغي أن تقضي فيها بعض الوقت، فمن المؤكد أنه سيكون أفضل لها أن تنتقل بعد أن تكون قد نضجت قليلاً. إنها تفتقد جدتها على الدوام، ولن تذوق طعم الزاد». كان ذلك صحيحاً أيضاً، فقد كانت الصبية الصغيرة نحيلة بصورة مؤلمة، وذلك على الرغم من أن هذا لم يمنحها إلا المزيد من الرشاقة الساحرة.

«ولكـن لـم أنت منزعجة كل هذا الانزعاج؟» علّق معاليه الآمال على تهدئة مشـاعرها. «لقد مضت جدتك، وما من حداد سيعيدها، وفي نهاية المطاف فأنا معك».

عندما انصرف، غرقت في البكاء على نحو لا يفلح معه عزاء ولا تهدئة. لم يزعجها على الإطـلاق مـا قد تحمله لها الحياة في مقبـل الأيام، وكل ما تعرفه هو أن السـيدة التي كانت معها كل لحظة على مدار السنين لم يعد لها الآن وجود، وعلى الرغم من أنها كانت طفلة، فإن ألم فقدانها قد اجتاح كيانها، ولـم تعد تلهو كما اعتادت، وإذا نسـيت خلال النهار، فإن الليل كان يردها إلى حزنها. وتسـاءلت وصيفاتها كيف يمكنها أن تواصل العيش على هذا النحـو، وبذلن كل ما في وسـعهن لتهدئتها، لا لشـيء إلا ليفشـلن في ذلـك وينخرطن هن

(1) هذا المقطع حديث موجه إلى الوصيفات. وبعد ذلك يخاطب ابنته مباشرة.
(2) إنها تفتقر إلى مظهر الملابس المنشاة، التي يفترض أن أهل الدار ليس بمقدورهم توفيرها.
(3) لم ترد زوجته رؤية ابنة خليلته.

أنفسهن في البكاء.

حوالي المساء، بعث جينجي بكوريميتسو إلى الدار حاملاً رسالة: «كنت أود القدوم بنفسي، ولكن لسوء الطالع فإن جلالته قد استدعاني، وقد أزعجني أن أدرك وضعها، وهو يثير قلقي الآن كثيراً».

وقد أصدر أمره لكوريميتسو بحراسة الدار.

قالت شوناجون: «هذا تصرف فظيع منه! إنني على يقين من أن الأمر لعبة بالنسبة له: ولكن يا له من شيء يقوم به عند البداية ذاتها[1]. ولو أن معاليه علم به لا تهمنا نحن المكلفات بخدمتها بالحماقة المطلقة. لا تنس. لا ينبغي أبداً أن تكون من الحماقة بحيث تلمح له أدنى تلميح إلى ما حدث». يا للحسرة، بالنسبة للصبية الصغيرة لم يكن أي من هذا يعني أي شيء على الإطلاق.

قالت شوناجون مشيرة خلال سردها لمخاوفهن على مسامع كوريميتسو: «عندما تصبح أكبر سناً، فإنني أشك في أنها ستهرب من المصير الذي يريده لها، ولكن في الوقت الراهن فإن اقتراحه يبدو لي غير مناسب البتة. وفي حقيقة الأمر فإنني لا يمكنني أن أتصور ما الذي يقصده بكل الأمور الغريبة التي يقولها. ولست أدري ما عساي أفعل. اليوم فحسب جاء معاليه إلى هنا، وشدد علينا بأننا ينبغي علينا ألا نجعله يقلق عليها وأن نبقيها تحت أنظارنا طوال الوقت. ولست أدري في أي درب أسير. والآن أشعر بالقلق على نحو يزيد عن ذي قبل بكثير حول ما قد يقوم به أحدهم معها». أحجمت شوناجون عن الشكوى بصورة أكثر وضوحاً لأنها لم ترد الإيحاء بأفكار غير مناسبة لكوريميتسو. أما كوريميتسو نفسه فإنه لم يستطع فيهم ما الذي تتحدَّث عنه.

أحس جينجي بدقة بورطة شوناجون، عندما عاد كوريميتسو ليبلغه بما سمعه، ولكن فكرة زيارتها بانتظام ظلت تضايقه، لأنه إذا علم الناس بما هو بصدده، فمن المؤكد أنهم سيدينون غرابة أطواره المثيرة للشكوك، ولم ترق له هذه الفكرة على الإطلاق. وخلص

(1) يستبد بها الغضب لأن جينجي، بعد أن رقد مرة واحدة وإن كان على نحو عفيف مع الصبية، لن يفعل ذلك في الليلتين التاليتين، ليكرِّس علاقتهما بالطريقة المعتادة في الزواج. وجينجي يقر بهذا الالتزام، ولكن الصبية صغيرة للغاية بحيث أنه على الرغم من نواياه المستقبلية يبدو أنه لا يأخذ الأمر بجدية بالغة في الوقت الراهن.

إلى أنه لا بد له من أن يمضي بها إلى داره، فبعث برسائل متكررة، وأرسل كوريميتسو إلى هناك بعد مغيب الشمس، كذي قبل، ليقول إن عليهن أن لا يفسرن الأمر خطأً إذا حالت صعوبات معينة بينه وبين القدوم إلى الدار شخصياً.



حياكة

أوضحت شوناجون الأمر بقولها «إننا مشغولات للغاية لأننا قد سمعنا لتونا من معاليه أنه يعتزم، على حين غرة، اصطحابها إلى داره غداً. وفي نهاية المطاف، فإنني أكره مغادرة هذا المكان العتيق، المتداعى، الذي أقمت فيه طويلاً، والأخريات يشعرن بالضيق كذلك». لم يبق لديها ما تقوله أكثر من ذلك، وبدا أنها ليست منشغلة إلا بحياكتها[1]. وعاد كوريميتسو إلى جينجي.

كان جينجي في دار حميه، ولكن السيدة المقيمة هناك رفضت، كالعادة، استقباله. فمضى يعبث في إحباط بآلة الواجون الوترية[2]، ويدندن لنفسه بصوت جميل: «في هيتاشي هنا لديَّ حقل لحراثته»[3]. ثم وصل كوريميتسو، فاستدعاه جينجي، وسأله عما لديه من أخبار.

أثار ما أبلغه به كوريميتسو انزعاجه الشديد، فلو أنها مضت إلى دار أبيها، فإن أية محاولة لنقلها من هناك، ستبدو شيئاً غير لائق، وسوف يُتهم باختطاف طفلة بريئة. لا، لسوف يضطر لإسكات وصيفاتها في الوقت الراهن، واصطحابها قبل أن يحدث ذلك.

قال: «لسوف أمضي إلى هناك قبل طلوع النهار. ستكون العربة مفيدة للغاية على نحو ما هي عليه، ولسوف أريدك أن تحضر رجلاً أو رجلين». غادر كوريميتسو لينفذ ما طلبه منه.

الآن مضى جينجي يراوح في مكانه، وفكَّر في قلق في أنه إذا اكتشف أحد جلية الأمر، فإنه سوف يعتبر فاسقاً، وأن الرجل من شأنه أن يعتبر عادياً بحالته إذا افترض الناس أن

(1) ربما كانت تعد ملابس جديدة للصبية لترتديها في دار أبيها.

(2) أوزوما (جوتو)، أي الواجون، «الكوتو الياباني» ذو الأوتار الستة.

(3) أغنية شعبية، ترفض فيها فلاحة عاشقها: «في هيتاشي هنا لديَّ حقل لحراثته. لمن جئت في هذه الليلة المطيرة قاطعاً الطريق كله عبر السبخة والجبال؟». إنه يفكِّر في أوي.

المـرأة التـي يـدور حولها الأمـر ناضجة بما فيـه الكفاية بحيـث تعرف ما يجـري وأنها قد تصرفـت بالتنسـيق معـه، وأنه لن يكون له عذر ينتحله لنفسـه إذا اكتشـف معاليـه الحقيقة. ولكـن علـى الرغم من دوامـة المخاوف هذه، إلا أنه لم يكن بوسـعه أن يدع الفرصة تفلت من يديه، وبالتالي فقد اسـتعد للمغادرة بينما الليل لا يزال متشـحاً بالظلام. وكانت السيدة هناك مستاءة كالمعتاد، ولم تصفح عنه.

«تذكرت لتوي: شيئاً عاجلاً لا بد لي من العودة لمتابعته. لن أتغيب طويلاً». لم تدر حتى وصيفاتها متى غادر الدار. وفي غرفته ارتدى عباءة، ثم انطلق مبتعداً بالعربة وكوريميتسـو وحده إلى جواره.

جعل أحد رجاله يطرق البوابة، وفتح له خادم لا يدري من الأمر شيئاً، أمر بإدخال عربته فـي هدوء، ثم طرق كوريميتسـو البابيـن المزدوجين، وتنحنح. خرجت شـوناجون عندما تعرفت صوته. قال: «سموه هاهنا».

«لكنهـا نائمـة! يبدو أنه قد خرج في وقت متأخر للغاية». لقد اعتبرت أمراً مسـلماً به أن جينجي كان في طريقه إلى داره قادماً مكان آخر.

أوضح جينجي: «بلغني أنها سـتنتقل إلى دار أبيها، ولديَّ شـيء أريد أن أخطرها به قبل أن تذهب».

أثار اسـتياءها بدخوله مباشـرة. «ولكن هناك عجائز ذوات مظهـر غير لائق راقدات في الداخل هاهنا!».

«أحسب أنها لا تزال نائمة. هلمي، لسوف أوقظها من نومها، لا عذر يبرر النوم في مثل هذا الفجر المتشح بالسديم بمثل هذا الجمال». دلف مجتازاً ستائرها، ولم يتح لهن الوقت حتى للصياح.

كانـت الصبيـة الصغيرة راقدة هناك، غائبة عن كل شـيء. وضع جينجـي ذراعيه حولها ليوقظهـا، وعندمـا أفاقت كان النعاس لا يـزال يغلبها بحيث أنها حسـبته أباها جاء ليمضي بهـا. ولـم تدرك خطأها إلا بعد أن رتب جينجي شـعرها وقال: اسـتيقظي! إنني هنا من قبل معاليـه!. وفي غمار ذهولها غلبها الخوف، قال وهو يخرج حاملاً إياها بين ذراعيه: «الآن،

الآن يمكن أن أكون أباك».

صاحت تايفو، شوناجون، والأخريات: «ما الذي تفعله يا مولاي؟!».

«أخطرتها بالفعل أنني أريد أن أصحبها إلى حيث يمكنني أن أكون على نحو مريح بصورة أكبر معها، لأنني لا أحب عدم تمكني من المجيء إلى هنا غالباً. والآن يتناهى إلى علمي بما يثير انزعاجي أنها تقرر نقلها إلى دار أبيها، الأمر الذي سيجعل من الصعوبة بشكل أكبر أن أبقى على اتصال بها. أريد أن تجيء إحداكن».

ردت شوناجون المضطربة أشد الاضطراب، قائلة: «مولاي، ليس اليوم على وجه التحديد ملائماً لهذا! ما الذي تريدينا أن نبلغ به معاليه عندما يحضر إلى هنا؟ لسوف يسير كل شيء في مجراه يقيناً مع حلول الوقت المناسب، إذا أردت تحقيق ما تنشده، ولكن والحال على ما هي عليه، فإنك لم تترك لنا لحظة لنفكر فيها، وأنت تضعنا في موقف مستحيل».

«حسناً، إحداكن ربما يمكنها المجيء والانضمام إليها في وقت لاحق». بهذا، ولدهشتهن المطلقة، أمر بإحضار عربته. كانت منزعجة وغارقة في البكاء. وارتدت شوناجون، التي لم تستطع فعل شيء لإيقافه أفخم ما لديها من ملابس، ودلفت إلى العربة، حاملة معها الثياب التي كانت عاكفة على حياكتها البارحة.

لم تكن دار نيجو بعيدة، فبلغتها العربة قبل طلوع النهار. وأمر جينجي بالوصول بها إلى الجناح الغربي، وترجل منها. ورفع الصبية الصغيرة، مترجلاً بها، وهي بين ذراعيه.

ترددت شوناجون: «لا زلت أحس كأنني في حلم. ما الذي تريديني أن أفعله؟».

«افعلي مايحلو لك. الآن وقد أحضرت سيدتك الصغيرة إلى هنا، فسوف أعيدك إلى الدار هناك، إذا أردت ذلك».

بابتسامة مريرة ترجلت شوناجون من العربة بدورها. كان الطابع المفاجىء للأمر كله قد أذهلها، ومضى قلبها يدق مصدراً ضربات متسارعة. بكت لدى تفكيرها في استياء معاليه، وفي مستقبل الصغيرة التي ترعاها، وفي المقام الأول في محنة الصبية المثيرة للشفقة الآن وقد خسرت كل من كان بوسعها أن تثق فيهم، ولكنها سيطرت على مشاعرها

بقدر ما تستطيع، على الرغم من دموعها، بحيث لا تثقل هذه اللحظة[1] بحزن جالب لسوء الطالع.

كان الجناح مفتقراً إلى فراش محاط بالستائر وغير ذلك من قطع الأثاث المماثلة، حيث أن جينجي لم يخصصه لإقامته، فاستدعى كوريميتسو، وجعله يجلب سريراً من هذا النوع إضافة إلى الستائر وهلم جراً. وبغض النظر عن ذلك لم تكن هناك حاجة إلى ما يتجاوز إسدال الستائر القائمة وترتيب المكان قليلاً، وبعث إلى الجناح الشرقي في طلب ملابس النوم، ورقد في الفراش.

مضت الصبية الصغيرة تتساءل في خوف عما يعتزمه بشأنها، ولكنها أفلحت في منع نفسها من النحيب. وقالت بلهجة طفولية: «أريد أن أنام مع شوناجون».

كان جينجي حازماً. «لا، ليست تلك هي الطريقة التي ستنامين بها من الآن فصاعداً». رقدت، باكيةً بتعاسة. أما مرضعتها، التي لم يغمض لها جفن على الإطلاق، فجلست في موضعها، وقد أصابها الدوار.

تطلعت شوناجون حولها مع مقدم النهار، فذهلت ليس بفعل فخامة البناء وقطع أثاثه فحسب، وإنما تحت تأثير كل شيء حتى الرمل في الحديقة، الذي حاكى سريراً من الجواهر، وبدا كأنما النور ينبعث منه، وبدأت في الشعور بأنها متطفلة على المكان، وذلك على الرغم من أنه لم تكن هناك بالفعل نساء أخريات، وحدهم حراس الدار كانوا متمركزين خارج الستائر الحاجبة، حيث لم يكن جينجي ينزل في هذا الجناح إلا الضيوف بين الحين والآخر. وكان أحد هؤلاء الحراس قد سمع أن جينجي قد أحضر سيدة إلى الدار، فهمس: «من عساها تكون؟ لا بد أنه شديد الحرص عليها!».

أحضر ماء الاغتسال وطعام الإفطار[2]. وكانت الشمس عالية في السماء عندما نهض جينجي من الفراش. وقال لشوناجون: «لسوف تحتاج إلى وصيفاتها، ولا بد لها هذا المساء من استدعاء الوصيفات اللواتي تفضلهن». وبعث إلى الجناح الشرقي يستقدم

(1) اللحظة التي تبدأ فيها الصبية التي عُهد إليها برعايتها حياتها الجديدة مع جينجي.

(2) أونكايو، الأرز المطهو.

بعـض الأطفـال. أضـاف: «أريـد الصغيرات بصفـة خاصة». وهكـذا أقبلت أربـع صبيات صغيرات جميلات.

كانت راقدة مرتدية قميصاً نسـوياً، وأصر على أن تنهض من فراشـها. قال: «ينبغي أن لا تكونـي غيـر ودودة على هذا النحو. هل كنت سـأهتم بك بهذه الطريقـة إلا إذا كنت تعنين الكثير بالنسبة لي؟ إن المرأة يجب أن تكون رقيقة ومطيعة». وهكذا بدأ تعليمها.

بـدت أكثـر جمالاً مما كانـت عليه من قبـل، وراح جينجـي يثرثر معها بصـورة جذابة، ويغمرهـا بـكل أنواع اللوحات واللعـب الجميلة، التي كان قد جلبها من الجناح الشـرقي، ويفعل كل ما يستطيع لإدخال السرور على نفسها. وفي النهاية نهضت من فراشها، ونظرت بالشـكل اللائق إلى ما كان يطلعها عليه. شـكلت صورة آسرة، وهي ترتدي ثوبها الرقيق ذا اللون الرمادي الداكن[1]، وتتألق في ابتسـامات بريئة، إلى حد أن جينجي وجد نفسه يبتسم بدوره وهو يرقبها.

مـع مضـي جينجي إلـى الجناح الشـرقي، مضت لإلقـاء نظـرة[2] على بحيـرة الحديقة وأشـجارها. كانـت الحديقـة القريبة، التي مسَّـها الصقيع مسـاً رفيقاً، جميلـة كما لو كانت لوحة، وأقنعتها الحركة السريعة للسادة ذوي المرتبة الرابعة والخامسة الذين كانوا يتدفقون دخـولاً وخروجـاً[3] بأنها قد جاءت إلى مكان جميل للغاية. وفي وقت جد قصير، شـغلتها الصور والستائر الفاتنة.

لـم يمـض جينجي إلـى البلاط يوميـن أو ثلاثـة أيام، حيث كرَّس نفسـه بـدلاً من ذلك لجعلها تشـعر بأنها في دارها، وكتب وصوَّر لها كل أنواع الأشـياء ليطلعها عليها، وذلك لا شـك بقصد وضع هذه الأشـياء مباشـرة في كتاب[4]، وإدراجها ضمن مجموعة جذابة إلى حد بعيد.

(1) كانت تلزم الحداد على جدتها. ومدة الحداد في هذه الحالة هي ثلاثة أشهر.

(2) من خلال الستائر الحاجبة.

(3) كان من يحتلون المرتبة الرابعة يرتدون ملابس سوداء، ومن يحتلون المرتبة الخامسة يرتدون ملابس حمراء.

(4) نماذج للخط.

أخرجـت «الحديث عن سـهل موساشـي يثير شـكواي..»[1] جميلة بصورة اسـتثنائية، والتي كان قد كتبها على ورق مورا ساكي ملون، وأضاف بخط أصغر:

جذرها لا يُرى، ومع ذلك فإنني أحبها كثيراً، القريبة لتلك النبتة

التي وضعها ندى سهل موساشي بعيداً للغاية عن منالي!»[2]

قال: «هلمي الآن! اكتبي قصيدة!»

«لكنني لا أعرف كيف أكتب بصورة جيدة». تطلعت إليه ببراءة خلابة.

ابتسـم. «مع ذلك، فإنك لا يمكنك الإحجام عن الكتابة كلية. لسـوف أعلمك». كانت طريقتها في الابتعاد وأسـلوبها الطفولي في الإمسـاك بالفرشاة يخلبان لبه على نحو يجعله يتساءل عما دهاه.

«آه، ارتكبت غلطة!» حاولت في حرج أن تحجب ما كتبته لكنه أصر على أن يلقي نظرة عليه:

«لست أدري السر في شكواك وذلك يزعجني،

من عساها تكون القريبة التي تعنيها وأي نبتة تقصد؟»

مـن المؤكد أن الخطوط السـخية لحروفها كانت غير ناضجـة، ولكنها تفصح عن وعد عظيم بما هو آت[3]. وشـابه خطها بصورة وثيقة خط الراهبة الراحلة. وبدا له أنها سـتكتب عمـا قريـب على نحو جميـل، طالما أن لديهـا كتاباً حديثـاً لتعليم الخط. أما فـي ما يتعلق بالدمى فقد صنع لها بيت دمية إثر آخر، ووجد ألعابه معها تسرية كاملة عن همومه.

---

(1) كوكين روكوجو 3507، التي كان جينجي قد كتبها: «لم أذهب إلى هناك قط، ولكن الحديث عن سهل موساشي يثير شكواي، ومع ذلك، آه، ما من علاج، اللوم يقع على المورا ساكي». تلمح القصيدة إلى كوكينشو 867 وغيرها كثير حوال المورا ساكي في سهل موساشي العظيم. والمورا ساكي تشير إلى المرأة التي يرغب فيها الشاعر، وهي في حالة جينجي المراد بها فوجيتسوبو، التي يعيد اسمها إلى الأذهان (لأن المقطع فوجي يعني «الورستارية») كذلك لون صبغة المورا ساكي.

(2) يمكن كذلك لاستهلال القصيدة أن يُقرأ ليوحي بالمعنى التالي: «إنها أصغر من أن تُضاجع». وهي تعقب على القصيدة المذكورة في التو وتشير إلى قصيدة أخرى، وردت في موضع أسبق من هذا الفصل: «كم سأكون سعيداً لقطف ثم احتياز تلك النبتة البرية الطالعة من الجذر نفسه لمورا ساكي». والنبتة التي لا تطال هي فوجيتسوبو.

(3) خطوطها عريضة فوكويوكا ني بطريقة يقال في الشروح القديمة إنها من خصائص خط الطفل.

بالنسبة للوصيفات اللواتي لم يحضرن معها، فقد كان أمراً شديد الإحراج ألا يكون لديهن ما يقلنه عندما وصل معاليه، وأراد أن يعرف ما الذي حل بابنته. وكان جينجي قد أمرهن بالإبقاء على السر طي الكتمان في الوقت الراهن، كما أن شوناجون التي وافقت على ذلك شدَّدت عليهن بضرورة التزام الصمت. فقلن لمعاليه فحسب أن شوناجون قد مضت بابنته بعيداً لإخفائها عن الأنظار في مكان لا يعرفنه. وقد اضطر لافتراض أنه بما أن الراهبة الراحلة لم توافق قط على إرسال حفيدتها إليه، فإن مرضعة الصبية قد أخذت على عاتقها في نوبة هائلة من الحماسة أن تعرض للخطر مستقبل الصبية التي عُهد بها إليها بالكامل، وذلك عن طريق تهريبها بعيداً بدلاً من الاعتراض على أوامره صراحة، وعاد إلى داره باكياً. وقال على نحو أصابهن بأعظم الاضطراب: «أعلمنني، لطفاً، إذ بلغتكن أخبار عنها في أي وقت!». كما أجرى كذلك استفسارات بلا طائل في مسكن نيافته. وأحس بالأسف لفقدانه ابنةً جذابةً على هذا النحو الملحوظ، وواصل افتقادها، بل إن زوجته أحست بخيبة الأمل، حيث أن عداءها لأم الصبية قد انحسر الآن وكانت تطلع إلى الاستفادة بأقصى قدر من السلطة التي تتمتع بها.

بمرور الوقت تجمعت الوصيفات حول سيدتهن الصغيرة، وغرقت رفيقاتها في اللعب وهن صبيات صغيرات ملحقات بالخدمة كتابعات أو أصغر من ذلك[1]، بسرور في الألعاب مع رفيقة لعب بارزة وذات أسلوب راق. وكانت السيدة الصغيرة لا تزال تبكي جدتها في الأمسيات عندما يبتعد عنها صديقها وتنفرد بنفسها[2]، ولكنها لم تحتفظ بذكرى خاصة لأبيها. ولما كانت لم تعتد قط على العيش معه على أية حال، فإنها لم تكترث الآن إلا بأبيها الثاني، الذي أصبحت مرتبطة به بعمق. وكانت تمضي مباشرة على الدوام للترحيب به لدى قدومه إلى الدار، وتتجاذب أطراف الحديث معه على نحو جميل وترتاح بين ذراعيه، ولم تكن على الإطلاق متحفظة أو خجولاً معه. مع استمرار الأمر على هذا النحو فقد

(1) رفيقاتها في اللعب هن «واروابي» (فتيات تابعات في مثل عمرها أو أكبر) و«تشيجو» (فتيات أصغر سناً لا يؤدين خدمة بعد).

(2) إنها تدعى كيمي («السيدة الصغيرة») للمرة الأولى، وليس واكا جيمي («الآنسة الصغيرة»)، بينما يدعى جينجي أوتوكو جيمي («السيد المهذب الشاب»). وهذا الربط بين كيمي وأتوكو جيمي يقر بوضعية الاثنين باعتبارهما زوجين.

كانت رقيقة وعذبة معه بقدر ما يمكن أن تكون.

من شأن المرأة أن تكون مهووسة للغاية ومتعجلة أشد التعجل في تضخيم أدنى تقصير، بحيث يكرهها الرجل، ويخشى من أنه أياً ما كان يفعله فإنه قد يطلق سيلاً من اللوم، إلى أن يصبح انفصالاً لم يرغب أي منهما فيه حقيقة، لكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لجينجي ورفيقته البهيجة. وما من ابنة في وقت وصولها إلى هذا السن يمكنها أن تكون متحررة مع أبيها وترقد في حميمية إلى جواره أو تصحو منتعشة معه في الصباح على نحو ما تفعل هذه السيدة الشابة مع جينجي، إلى حد أن جينجي نفسه لا بد أنه مضى يعرب عن دهشته لقدرته على أن يغرق بعاطفته هذا الكنز النادر.

6

سويتسوموهانا

القِرْطم

سويتسـومو («القرطـم») زهـرة صفـراء أو برتقاليـة، تعطي صبغـة قرمزية. وهذا الفصل، الـذي يعد اللون القرمـزي طابعـاً قويـاً فيه، يبرز امـرأة معروفـة للقراء باسـم سويتسـو موهانـا، واسـمها مشـتق مـن قصيدة لجينجي يقول فيها:

«ليس هذا باللون الذي يبعث فيَّ الدفء، فما الذي أقصده إذاً

بترك كميَّ يحتكان بزهرة قرطم في سمت احمرارها؟»

والفصل يوضح المعنى الخفي الذي قصده جينجي.

الصلة بالفصول السابقة

يغطـي «القرطم» حوالي الفترة نفسـها، أي العـام الذي يصل فيه جينجي إلى الثامنة عشـرة من عمره، التـي يغطيها «مورا سـاكي الصغيرة». ولكن ما من صلة سـردية بين الاثنيـن تظهر حتى نهاية الفصل. وهو يمتد إلى الشهر الأول من العام التالي.

الشخوص

جينجي، نقيب في حرس القصر، 18 عاماً.

تايفو، وصيفة شابة.

سمو ابنة أمير هيتاشي (سويتسو موهانا).

النقيب أمين السر، شقيق زوجة جينجي وصديق عظيم له.(تونوتشوجو).

معالي وزير الميسرة، حمو جينجي، 52 عاماً إلى 53 عاماً (ساديجين).

ناكاتسوكاما، وصيفة في خدمة معالي وزير الميسرة.

جيجو، وصيفة سويتسوموهانا.

مورا ساكي، 10 إلى 11 عاماً تقريباً.

على الرغم من انقضاء الشهور، لم يستطع نسيان تلك التي ما زال يهواها، والتي رحلت مثلما الندى على زهرة حسناء الشفق، وتلك السيدات الفخورات العنيدات، اللواتي نأين على الدوام عنه[1] كن مزعجات للغاية حتى تاقت نفسه بصفة خاصة إلى من مست شغاف قلبه بالاستسلام له بصورة مطلقة.

لكم تاق، هو العنيد كعهده أبداً إلى العثور على امرأة أثيرة ورقيقة، لا تنتمي إلى نسب رفيع تعتد به، ولا يشعر معها بأنه من المطلوب منه الالتزام بأفضل سلوك مهذب يستطيع اعتماده! لم يفتقر إلى أنباء عن أي مرشحة محتملة، وربما يفترض المرء أنه لو رصد أي مؤشر واعد آخر لبعث إليها على الأقل بكلمات تشجيعية. من الذي يمكنه الآن أن يشك في أن عدداً محدوداً للغاية من النساء هن اللواتي رفضنه أو استقبلنه بلا مبالاة؟ إن النسوة اللواتي اعتصمن عامدات بالبرود منين بالإخفاق، في سمت قسوتهن في معرفة حقيقة مكانتهن، كما أنهن لم يواصلن غالباً شموخهن لأنهن سرعان ما يتداعين على نحو مخز إلى الزواج من شخص لا حيثية له أو آخر، وقد أسقط من اهتمامه الكثيرات لذلك السبب.

وبين الحين والآخر، كان يستعيد ذكرى «شرنقة زيز الحصاد» بمزيد من الضيق. ولا بد أن سيدة القصبة[2] بدورها قد دهشت في بعض الأحيان لتلقيها رسالة منه، عندما يهب نسيم مُوات باتجاهها. وكان حرياً به أن يراها مجدداً في يسر في ضوء المصباح. وعموماً فهو لم يكن بالرجل الذي ينسى امرأة عرفها يوماً.

كانت ابنة المرضعة سايمون، المفضلة لديه بعد المرضعة ديني[3]، تعمل في الخدمة بالبلاط الآن، حيث كانت تعرف باسم تايفو، مايوبو المفوض[4]. وقد كان أبوها، مفوض الحرب، ينحدر من الأصل الإمبراطوري. وفي بعض الأحيان كان جينجي نفسه يزورها لتنجز له مهمة أو أخرى، حيث كانت شابة تميل كثيراً إلى اللباقة. وعندما لا تكون في القصر فإنها تقيم في دار أبيها، بعد أن مضت أمها إلى المقاطعات كزوجة لحاكم تشيكوزين.

---

(1) بصفة خاصة أوي وروكوجو.

(2) أوتسوسيمي «شرنقة زيز الحصاد» (ونوكيبا نو أوجي) «القصبة». كان «القصبة» (أوجي) و«النسيم» (كازي) مرتبطين تقليدياً، حيث أن النسيم إذ يحرك القصبات ربما يعلن زيارة عاشق.

(3) السيدة العجوز، التي أصبحت راهبة الآن، التي زارها جينجي في مستهل «حسناء الشفق».

(4) تايفو نو مايوبو، «مايوبو التي هي ابنة (المفوض) تايفو».

تصـادف ذات مـرة أن أبلغت تايفو جينجـي كيف أن الإبنة الأخيرة والأثيرة لدى سـمو حاكم هيتاشي[1] تعيش في ظروف محزنة بعد موت أبيها.

«يا للعار!». طلب جينجي الذي ثار اهتمامه سماع المزيد.

«إنني لا أعرف إلا القليل عن شخصيتها أو شكلها، فهي خجول ومتحفظة للغاية بحيث أنني عندما أزورها في المسـاء، فإنني أتحدَّث إليها من وراء السـتائر وهلم جرّا. وصديقها الحقيقي الوحيد في ما يبدو هو آلة الكين الموسيقية الخاصة بها.

«ذلـك واحد من (الأصدقـاء الثلاثة)، على الرغم من أنني بمقدوري التفكير في صديق آخر قد لا يناسبها[2]. دعيني أسمعها لطفاً! لقد كان سمو الأمير والدها يعزف ببراعة شديدة بحيث أنني لا أستطيع تصور أنها ليست أفضل من أي عازفة أخرى».

«أتسـاءل عما إذا كانت موسـيقاها سـوف تثير اهتمامك حقاً». هكذا ردت، على الرغم من أنها تحدَّثت بطريقة أُريد بها استثارة اهتمامه».

«إنك تحاولين إغوائي. أليس كذلك! لسـوف أمضي إلى هناك سـراً في إحدى الليالي، عندما يحتجب القمر[3]. لا بد لك من المجيء معي».

لم ترد تايفو التورط إلى هذا الحد في الأمر، ولكنها مع ذلك مضت إلى هناك ذات مساء ربيعي بديع، عندما غمر الهدوء كل شيء في القصر. كان أبوها قد أقام في مكان آخر، ولم يكـن يـزور هذا المكان إلا بين الحين والآخر. ولكن تايفو، لم تشـعر بالارتياح قط في دار زوجة أبيها، ولذا فقد أصبح حضورها مألوفاً هناك[4].

وصل جينجي، على نحو ما كان قد قال، في أجمل سـاعة بالنسـبة لبدر الليلة السادسـة

---

(1) أمير كان قد حمل لقب حاكم مقاطعة هيتاشي. وكما في حالة كازوسا وشيموسا، فإن حاكم هيتاشي الذي يحمل هذا اللقب كان أميراً، لكن المنصب كان يحمل معه عائداً من دون الاضطلاع بواجباته، ونائب الحاكم وحده هو الذي كان يمضي إلى المقاطعة.

(2) احتفى باي جويي في إحدى قصائده (هاكوشي مونجو 2565) بـ«أصدقائه الثلاثة»، آلة الكين الموسيقية، الخمر والشعر. وصداقة الخمر ليس من شأنها أن تناسب سيدة نبيلة.

(3) ليلة ربيعية متسمة بالكمال، على الصعيد الشعري، حيث يطل فيها قمر يحجبه السديم أحياناً.

(4) اعتاد والد تايفو، فيما يبدو، الإقامة في دار سويتسوموهانا، الأمر الذي يشير إلى أنه ربما كان أخاً أكبر لها.

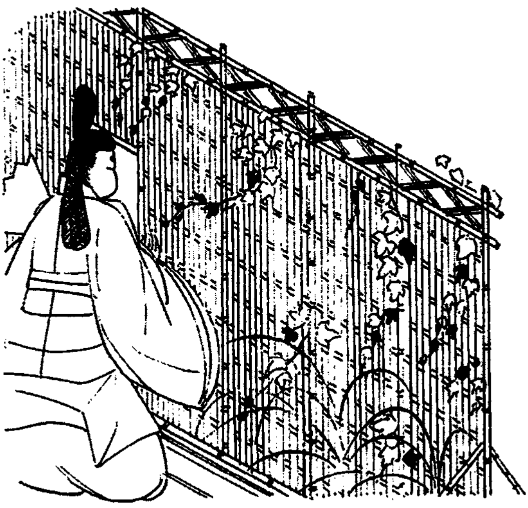
عشـر[1]. صاحت تايفو: «يا للأسـف! هذه ليست على الإطلاق من نوعية الليالي التي تبرز نغم آلة موسيقية».

«اذهبي إليها على الرغم من ذلك، ودعيها تعزف قليلاً، لسوف أكره المغادرة مجدداً من دون سماعها تعزف على الإطلاق».

تركتـه تايفو في غرفتهـا المرتبة عفوياً بصورة مريحة، ومضت فـي طريقها، وقد غمرها شـعور بالذنـب والعصبية، إلى الدار الرئيسـية. كانت المصاريع الشـبكية لا تزال مرفوعة، ومضت سـمو الأميرة تحدِّق باتجاه الخارج في شـجرة برقوق ذات عبق بديع. بدت الليلة مواتيـة بالنسـبة لتايفو: «لم أسـتطع مقاومة ما تعد به هـذه الليلة الجميلة للغاية، يا سـيدتي عندمـا أدركت كم سـيتردد صوت آلـة الكين الخاصة بـك بديعاً، وأسـفت للغاية لأني في مجيئي وذهابي مرات عديدة لم أتمكن أبداً من سماعك تعزفين على الإطلاق».

ردت سـموها: «إننـي أدرك أن بعض الناس يقـدرون آلة الكين الموسـيقية حقاً، ولكن كيـف يمكـن لعزفي أن يثير اهتمـام أي أحد يتردد علـى مقر جلالته؟». أرسـلت في طلب آلتها الموسيقية، وارتجفت تايفو بفعل التفكير في كيف سيبدو عزفها بالنسبة لجينجي.

عزفـت برهافـة بالغـة، وكان عزفـاً جميـلًا، ولم يكن مرد الأمـر أنها عازفة قديرة بأي حال، وإنما كانت آلتها مميزة فـي نغمها بحيـث أن جينجي لم يشـعر بالانزعـاج حيـال مـا سـمع. أن يربـي نبيـل عظيـم ابنته برقة بالغـة على أنماط سـلوك قويمة وجرى التخلـي عنها منذ زمـن طويـل، فـي دار محزنـة ومهملـة للغاية، وكل ذلك من أجل لا شـيء! آه، أي ألـوان من الأسـى والنـدم لا بد أنها



الحاجز الساتر

(1) قمر بعد ليلة واحدة من اكتمال البدر.

تستشعرها وتخالجها! في الحكايات القديمة، هذه هي على وجه الدقة نوعية الأماكن التي تقدم الساحة لكل أنواع المشاهد المؤثرة! شجعته مثل هذه التأملات على أن يرغب في الاقتراب منها، لكن الخوف من أنها قد تتهمه بالوقاحة جعله يتردد في نهاية المطاف.

لم ترغب تايفو، التي لم تغب عنها فطنتها أبداً، في أن يحصل على جرعة وافرة من عزف الأميرة، وقالت: يبدو أن السماء تحتشد بالغيوم، يا مولاتي، وقد قال ضيف لي أنه سيزورني، وقد يشك في أنني لا جدوى مني بالنسبة له. وفي القريب، عندما يتوافر لي الوقت.. دعيني أنزل المصاريع!». ومضت تايفو خارجة من دون أن تشجعها على العزف أكثر من ذلك.

أبدى جينجي تذمره: «لقد توقفت قبل أن تبدأ تقريباً، ولم يتح لي الوقت حتى للتوصل إلى ما إذا كانت جديرة بالاستماع إليها من عدمه! يا له من أمر مضجر!». لقد استقبلت موسيقى سموها بصورة طيبة.

واصل القول: «دعيني أقف في موضع أقرب إذا لم يزعجك هذا!» أدركت تايفو أنه قد اهتم بالأمر.

ردت قائلة: «أعتقد أنني أفضل عدم القيام بذلك. إن الحياة البائسة التي يتعين عليها أن تعيشها مثيرة للاكتئاب للغاية بالنسبة لها، ووجودها كله مثير للحزن حقاً. ولست أدري كيف يمكن أن آخذ على عاتقي..».

أقر بأنها ربما كانت محقة، فالمرء يمكنه المضي قدماً في يسر تام مع نساء أقل مرتبة منذ البداية، ولكن مرتبتها الرفيعة ذاتها أثارت تعاطفه، ولذا فقد أهاب بتايفو أن: «انقلي بعضاً من مشاعري إليها على الرغم من ذلك»، ثم تأهب في هدوء للمغادرة، حيث أنه بلا شك كان لديه موعد غرامي في مكان آخر.

«غالباً ما أفكر، يا مولاي، كم هو طريف أن جلالته يشعر بالقلق الشديد حول أخذك للأمور مأخذ الجد بأكثر مما ينبغي. وهو لن يراك متنكراً هكذا أبداً»[1].

التفت جينجي إليها باسماً، وقال: «من الأفضل لك ألا تطرحي عيوبي كأنها لا شأن لها

(1) يرتدي جينجي ملابس أدنى مما يليق بمقامه، حتى لا يدرك أحد هويته.

بعيوبك. وإذا كان عيبي هو ما تسـمينه بالسلوك الماجن، فإنني أعرف امرأة شابة ستتعرض لضغوط كبيرة للدفاع عن نفسها!» كان غالباً ما يغيظ تايفو بالقول إن أساليبها تتسم بالخفة، فغدت أكثر ارتباكاً من أن تقول المزيد.

انسلّ مبتعداً باتجاه الدار الرئيسية، على أمل أن يتناهى إليه صوت من السيدة الموجودة بالداخل. وعندما وصل إلى بقعة محجوبة عن الأنظار، حيث ما زالت تقف أجزاء متداعية مـن السـور، اكتشـف أن رجلاً آخـر كان يقف هناك طـوال الوقت. ترى من عسـاه يكون؟ لا شـك في أنه شـخص جسـور يضع عينه على هذه السـيدة، حسـبما مضى يحدِّث نفسه، وهـو يتـوارى في الظلال، ولكن لا، لقد كان النقيب أمين السـر، ففي وقت سـابق من ذلك المسـاء كانا قد غادرا القصر معاً، وبعد أن افترقا ولم يذهب جينجي إلى دار حميه ولا إلى نيجـو، تـاق النقيب إلى معرفة إلى أين يمضي بحيث أنه تبعه على الرغم من ارتباطه بموعد غرامي هو نفسه. ولم يتمكن جينجي من معرفة هويته على صهوة الفرس الذي يركبه، وقد التـف بعبـاءة مما يرتدي في رحلات الصيد. وقد ثار اهتمامه لدى رؤية جينجي يدخل داراً جديدة تماماً بالنسـبة له، فوقف هناك يصغي للموسـيقى، ثم جثم على افتراض أن جينجي سـرعان ما سيغادر المكان. وكان جينجي، الذي لم يعرف هويته بعد، والذي لم يرغب في أن يعرف هويته أحد، يوشـك على التسـلل في هدوء مبتعداً عندما وجد نفسـه أمام النقيب وجهاً لوجه.

«لقد شعرت بالضيق البالغ، يا مولاي، عندما غادرتني، بحيث أنني قررت مرافقتك.

كنا معاً عندما ابتعدت خطانا عن قصر الجبل،

ولكنني أرى، في هذه الليلة السادسة عشر، أن البدر يحتجب حيث سيأفل».

بـدا الموقف طريفاً ومثيراً للضيق في آن، بالنسـبة لجينجي، عندمـا أدرك هوية محدثه، فأعرب عن تذمره بمرارة قائلاً: «يا له من أمر تفعله معي!.

قد يحدِّق المرء يقيناً في ألق يضيء كل شيء،

ولكن من الذي يرغب في المضي إلى جبل إيروزا حيث يأفل»[1].

(1) مقطع إيروسافي اسم المكان إيروسا ياما يمكن أن يُقرأ ليعني «لحظة الأفول» وكذلك لتحقيق تورية بشأن «يدخل» داراً.

«ما الذي ستفعله لو أن أحداً غيري تبعك بهذه الطريقة؟ عندما تهيم على هذا النحو ستكون أكثر أمناً في وجود مرافق لك. ينبغي ألا تتركني وراءك، حيث يمكن أن يقع حادث محرج عندما تكون بالخارج متنكراً تحت جنح الليل».

كره جينجي أن يتم اكتشافه على هذا النحو، وهنّأ نفسه على إخفاق النقيب أمين السر حتى الآن في رصد مكان «قرنفلته الصغيرة»[1] الآن وقد أصبحا في حالة نفسية طيبة يغلب عليها المرح، فإنهما لم ينطلقا كل منهما إلى مهمته الموعودة، وإنما ركبا العربة معاً في الطريق إلى دار معاليه، تحت بدر تحفه الغيوم على نحو بهيج، وهما يعزفان بصورة منسقة على الناي.

انسلا إلى الدار صامتين، حيث أنهما لم يرسلا الرجال أمامهما لإفساح الطريق لهما، وبدّلا ملابسهما، فارتديا عباءتين أنيقتين في رواق مهجور، ثم انطلقا في العزف على الناي، وقد ظهرا كتجسيد للبراءة، وكأنهما قد وصلا لتوهما قادمين من القصر. وجلب معاليه الذي ما كان ليفوت حفلاً موسيقياً نايه من طراز كوما[2] وعزف عليه بصورة جميلة، حيث كان موسيقياً ضليعاً، ودعا بآلات موسيقية وجعل العديد من الوصيفات البارعات في الموسيقى يعزفن وراء الستائر. وكانت ناكاتسوكاسا[3] بارعةً للغاية في العزف على آلة البيوا، ولكنها هي التي صدَّت بازدراء النقيب لم ترفض ملاحظات جينجي الرقيقة في زياراته المتباعدة، ثم على نحو محتم رأت اتصالها به يصبح أمراً معروفاً للجميع، وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى إكسابها استياء حماة جينجي[4]. والآن كانت مستندة إلى أحد الأعمدة، وقد بدا عليها



آلة البيوا الموسيقية

(1) ابنته من يوجاو.

(2) كومابوي، ناي أقصر وأرفع من يوكوبري، الذي يعزف عليه الشابان.

(3) وصيفة.

(4) أوميا، زوجة وزير الميسرة، أم أوي وتونو تشوجو، وهي عمة جينجي كذلك.

جلياً أنها ليست سعيدة وتشعر بعدم الارتياح، وقد غمرها الشعور بالبؤس إزاء فكرة الابتعاد إلى حيث لن يقدر لها أن تلقاه أبداً.

تذكر السيدان الشابان الموسيقى التي كانا قد سمعاها تُعزف على آلة الكين، وتحدثا مطولاً عن مدى اختلاف تلك الدار الحزينة، وحلم النقيب بالسيدة الرقيقة والجميلة التي سيبدأ في التودد إليها هناك بعد كل سنواتها الطويلة التي أمضتها وحيدة، والتي سيقع في هواها بعد ذلك على نحو طائش للغاية، بحيث أن الدنيا بأسرها سوف تتحدَّث عن الأمر، وهو سيترنح على حافة الحماقة، وتذكر بمزيج من الضيق والانزعاج الطريقة المفعمة بالثقة بالنفس التي ينطلق بها جينجي متجولاً.. ترى هل يترك فرصة كهذه تنزلق من بين يديه على هذا النحو؟

سرعان ما مضيا كلاهما، فيما يبدو، يكتبان لسموها، ولم يتلق أي منهما رداً، الأمر الذي أثار ضيقهما، كان ذلك شيئاً فظيعاً للغاية منها! إن أي سيدة تقطن مكاناً كهذا ينبغي في بعض الأحيان أن تعبر عن مشاعرها، بالإعراب عن الأحزان التي تعرفها معرفة وثيقة من خلال الحالات سريعة الانقضاء التي تمر بها النباتات أو الأشجار أو السماء. اضطرب النقيب على نحو يفوق جينجي حيال كونه أمراً كئيباً ووقحاً من جانبها أن تظل منغلقة على نفسها، مهما كانت جادة وغارقة في التفكير.

استفسر على نحو كئيب من جينجي الذي لم يكن يستطيع أن يخفي عنه شيئاً: «هل تلقيت أي رد منها؟ لقد بعثت إليها بسطر لأتبين ما الذي سيحدث، ولم أتلق منها إلا صمتاً غريباً».

حدَّث جينجي نفسه: من المؤكد أنه كان يتودد إليها، ورد بابتسامة: «ربما لم أتلق منها رداً، لأنني لم أكن مهتماً بأمرها حقاً». شعر النقيب بالضيق البالغ لتجاهله.

عندما جاوبه جينجي بمثل هذه اللامبالاة، فقد اهتمامه بمغامرة لم تكن تعنيه كثيراً على أية حال، ولكنه افترض أنه إذا كان النقيب يمطر سموها الآن بالرسائل، فإنها سوف تستجيب لمن يبعث إليها برسائل أكثر من غيره. وكانت فكرة مدى سرورها من نفسها بعد أن نحت جانباً أول من خطب ودها أكثر مما يستطيع احتماله، ولهذا فقد استدعى تايفو

لإجراء مشاورة جدية معها.

قال: «إنه أمر مثير للضيق إلى أبعد الحدود من جانبها أن تنحيني جانباً على هذا النحو من دون حتى أن تستمع إليَّ. ولا بد أنها تشك في أنني لا أريد إلا أن أسلي نفسي، في حين أنني في حقيقة الأمر لست عابثاً على الإطلاق. والأمور لا يمكن إلا أن تمضي في المسار الخاطىء عندما يفترض الطرف الآخر أسوأ الاحتمالات، وينتهي الأمر بأن يكون خطأ هذا الطرف. وكنت أعتقد أن إنسانة ذات استعداد حسن، تحيا في سلام من دون أبوين أو إخوة أو أخوات يزعجونها، ستكون أكثر جاذبية من هذا بكثير».

«آه، لا، يا مولاي، إنني أشك في أنها ستلائمك وليس بمقدوري تخيل كونها.. (الملاذ الرقيق من المطر)[1] الذي يدور في ذهنك، فقلة من الناس على مثال هذا القدر من الخجل والانطواء بشكل يائس». وأبلغته بما كانت تعرفه عن هذه السيدة.

«إنها، فيما يبدو، ليست باللماحة ولا البارعة. وعلى الرغم من ذلك فإن الشبيهات بالأطفال والبريئات هن اللواتي يلفتن النظر أكثر من غيرهن». لم يكن قد نسي ذلك. مرَّ الربيع والصيف، وظلَّ على معاناته من نوبات الحمى التي تعاوده، وظل غارقاً في حزنه الدفين.

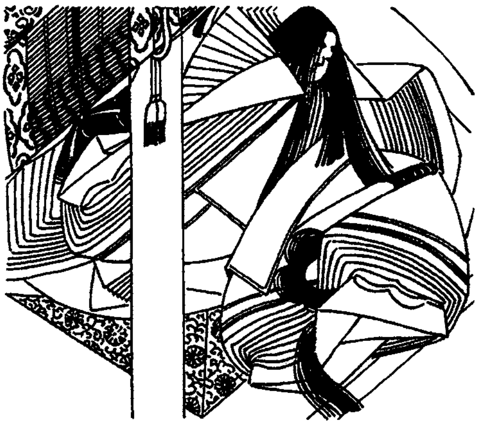
في ذلك الخريف، وبينما مضى به تذكر هادىء وملح إلى أن يتذكر بالمزيد من التوق والحنين حتى دوي الضربات على خشب القصار وتلك الضجة الأخرى التي أزعجت أذنيه كثيراً، كتب في غالب الوقت إلى دار أمير هيتاشي، وعندما ظل بلا رد يتلقاه أحس بالغضب الحانق على السيدة لافتقارها المتسم بالجلافة للتجربة، وأقسم على رفض الهزيمة، وشرع يضغط بقوة على تايفو، وقال لها غاضباً: «ما الذي يجري؟ لم يسبق لي أن رأيت شيئاً مثل هذا من قبل قط!».

تعاطفت معه: «لم يحدث ولو مرة واحدة أن أشرت إليها إلى أنك لست جديراً بها. وكما أرى الأمر، فإن خجلها الذي يقعدها عن الحركة هو السبب في أنها لا تستطيع إجبار نفسها على الرد عليك».

---

(1) تعبير من أغنية سايبارا عن الحب.

«تماماً! ذلك هو بالضبط ما قصدته بافتقارها إلى التجربة! إن الفتاة قد تكون خجولاً طالما أنها لا تزال تعرف القليل عن الحياة، أو أنها أصغر سناً من أن تفعل ما يطيب لها، ولكنني ينبغي أن أعتقد أن هذه السيدة ستعطي كل الأمور ما تستحقه من التفكير. وأنا نفسي، لسبب ما، أحس بفتور الهمة والتواني، وسوف أكون مغتبطاً تماماً بالحصول على رد منها بما يفيد المعنى نفسه. إنني لست بسبيلي للاحتيال، وإنما كل ما أريده هو الجلوس لبعض الوقت في شرفتها المتداعية. كل ما هنالك هو أنني لا أستطيع أن أفهمها، وهذا هو السر في أنني أريد أن ترتبي الأمر لي، بدون إذنها إذا دعت الضرورة، ولن أتهوّر أو أقوم بأي شيء يتسم بالحماقة».


وثار

كانت تايفو قد أتت على ذكر سموها له في تلك الليلة، عندما كانا معاً وحدهما تقريباً، لا لشيء إلا لأنه كان لا يزال من عاداته في ذلك الوقت أن يجمع بلا مبالاة مصطنعة الأخبار عن أي سيدة نبيلة على الإطلاق. ولم تحب أن يضغط عليها الآن بمثل هذا التعجل القاتل، فقد كانت سموها تفتقر إلى كل من التجربة والروعة، وفي نهاية المطاف فإنها تعاني (هكذا كانت تايفو تخشى) من عدم التزام تايفو الحرص والحذر. وعلى الرغم من ذلك فإنه قد يكون من غير المناسب صم الأذنين عند نداءاته.

كانت الدار العتيقة قد تداعت حتى في حياة أبيها بحيث أن أحداً لم يكن يتردد عليها، والآن تقلص الجهد الذي يبذله الزوار وهم يشقون طريقهم عبر أعشاب الحديقة بحيث أنه عندما حدثت أعجوبة الأعاجيب وبدأت رسائل جينجي الرائعة في الوصول ابتسمت وصيفاتها المثيرات للشفقة ابتسامات متلهفة وأهبن بها: «أوه يا سيدتي، ردي عليه، ردي!».

يا للحسرة، إن سيدتهن الخجول على نحو يدعو لليأس ما كانت حتى لتقرأ هذه

الرسـائل. حدَّثت تايفو التي لا تكترث لشـيء والمحبة للهو نفسها قائلة: حسناً، إذاً، عندما يحل الوقت المناسـب، ويتحدَّث إليها عبر السـتائر، إذا لم يعجبها، فليكن، فسـوف ينتهي الأمر عندئذ، ولكن إذا مضت الأمور بصورة طيبة وبدأ في الزيارة، فإن أحداً لن يوقفه. ولـم تحدِّث أحداً بكلمة في هذا الشأن، بل ولـم تفاتح أباها فيه. بعد العشرين من الشهر الثامن، وذات ليلـة بـزغ فيهـا القمر في وقت متأخر للغايـة إلى حد أن انتظار مطلعه بـدا بلا انتهاء، عندما كان الضوء الوحيد ينبعث من النجوم، والريح تصدر زفيفها وسـط أشجار الصنوبر، شـرعت السـيدة تتحدَّث باكية عـن الماضي، فرأت تايفو أن اللحظـة مواتية، ولا بد أنها قد بعثت عندئذ برسالة إلى جينجي، لأنه سرعان ما وصل، وكالمعتاد في سرية تامة.

بزغ القمر أخيراً، لا لشـيء إلا لينير له على نحو كئيب سـوراً متداعياً ممتداً، كان يحدِّق فيـه عندمـا بـدأت سـموها، بدعوة ملحة مـن تايفو فـي العزف علـى آلة الكين الموسـيقية الخاصـة بهـا. لا لـم يكن عزفها سيئاً. تمنت تايفو الطائشـة وقد مازج القلـق أمنيتها لو أن موسـيقاها كانت توحي بالحداثة على نحو يتيح سهولة تلقيها. وتسلل جينجي إلى الداخل بغير انتظار، حيث لم يكن هناك من يراه، واستدعى تايفو.

اصطنعت الدهشة حيال خبر وصوله: «هذا أمر مربك للغاية، إنني أدرك أنه هنا للحديث معك يا سـيدتي، فهو مسـتاء منك على الـدوام، كما ترين، ولأنني أواصـل تذكيره بأنني لا أسـتطيع عمل شـيء له، فقد درج على القول بأنه يعتزم المجيء وإيضاح الأمر لك بنفسـه. كيف أرد عليه؟ إنه ليس حراً كالآخرين في القيام بما يشاء ويهوى، ومن المؤكد أنه يستحق بعض الاهتمام من أجل ذلك. أصغي لما يريد قوله مع وضع ستار بينكما إذا أردت!».

أصاب الحرج سـموها كأنه الصاعقة، فصاحت منسـلة في فزع سـاذج نحو أبعد أركان الدار: «لكني لست أدري كيف أحادث الناس!».

ابتسمت تايفو: «يؤلمني أن أراك تتصرفين مثل طفلة يا سيدتي، من المقبول تماماً لأرفع السيدات شأناً أن تحتفظ ببراءة صبيانية طالما أن والديها برعيانها. ولكن ليس من المناسب لك في وضعك الراهن أن تظلي للأبد منغلقة على نفسك».

قالت سـموها، التي لم تكن تستطيع على الإطلاق أن تجبر نفسها على أن تقول لا لأي

شـيء: «حسـناً، إذا كنت تقصدين أن أصغي فقط وألا أرد، فلا بد لنا من إغلاق المصاريع الشبكية وما إلى ذلك بصورة مناسبة»[1].

ذكَّرتها تايفو بأسلوب بارع: «لكن سيكون من قبيل الافتقار للذوق أن نتركه في الشرفة. أما فيما يتعلق بأي شـيء يتسم بالجسـارة أو التجـاوز، فإنه لن..». أحكمـت تثبيت الباب المنزلـق بيـن الغرفـة والحجرة الصغيـرة المنتمية للجناح[2]، ورتبت وسـادة في الممشـى ليجلس عليها جينجي.

لم تكن لدى سموها أدنى فكرة عن كيفية الحديث مع أي شخص مثل جينجي، فأسلمت نفسها على الرغم من مخاوفها الجدية للاعتقاد بأن تايفو تعرف ما هو أفضل لها. وبحلول ذلك الوقت مضت عجوز، ربما كانت مرضعتها، وقد سـيطر عليها النعاس للرقاد. وظلت وصيفتان أو ثلاث أصغر سناً، واللاتي مضين، في إطار حرصهن على إلقاء نظرة على طلعة جينجي التي يشـاد بها على نطاق واسـع، يجهزن أنفسـهن في عصبية للحظة الكبرى. وما أن غيرن ملابسـهن وارتدين ملابس مناسبة، وجهزن أنفسـهن بصورة مناسبة، حتى مضت السيدة نفسها لمقابلة زائرها من دون أي لمحة لأي شيء من هذا التوقع.

أضفى الزائر مسحة ساحرة على تنكره، بحيث أن تايفو تاقت إلى استعراضه أمام إنسانة قادرة على تقديره. حدَّثت نفسـها قائلة: يا للشـاب المسـكين! ما من شـيء له هاهنا. ومع ذلـك فإنها على الأقل يمكنها الشـعور بالارتياح لأن سـموه يتصرف بوقـار ولن يقوم بأي شـيء خارج عن المألوف خلال وجوده بالدار. وسـاورها شـعور بالقلق حول أن ما فعلته لتجنب التوبيخ المستمر من جانب جينجي قد يجلب الآن الحزن للمرأة التي أثَّرت محنتها فيها أعظم تأثير.

افتـرض جينجـي من مرتبة سـموها أنها لن تتباهـى بثياب تجاري الصرعـات الحديثة، وإنما ستفصح بدلاً من ذلك عن سلوك مميز على نحو رفيع، وما أن اقتربت أكثر قليلاً، بناء على إصرار تايفو، حتى اشـتم الرائحة الجميلة التي وصلته عندئذ، وأقنعه تمالكها لنفسـها والتزامها الهدوء، بأنه كان محقاً، وبفصاحة بالغة أبلغها بالحنين الذي غرسته في نفسه منذ

(1) المصاريع بين الجناح والشرفة.

(2) فوتاما، مساحة أصغر مقتطعة من الجناح.

وقت طويل للغاية، لا لشيء إلا ليقابل بصمت مطبق أشد تأثيراً من ذي قبل.

راح يئن محدِّثاً نفسه: عليك بالاستسلام! وقال بصوت عالٍ:

«آه، كم من المرات ألفيت نفسي وقد قضى عليَّ مثل هذا الصمت،

ولم تبق عليَّ إلا خاطرة واحدة، هي أنك لم تقولي أبداً: لا تتحدث!

أخبريني بأن عليَّ الانصراف إذا كان لا بد لك من ذلك. إن هذا الشك مؤلم للغاية»[1].

كانت شابة تدعى جيجو، هي ابنة مرضعة سموها، في حالة من المعاناة بسبب الحرج بحلول ذلك الوقت، بحيث أنها تحركت وراء سيدتها وردت:

«لن أقرع جرساً أبداً[2] كأنما لأقول إن النقاش انتهى،

ولكنها حيرة في الإجابة؟ ـ هنالك أجد نفسي مندهشة».

بدا مثل هذا الصوت الشاب والمفتقر إلى الثقل (حيث أن جوجو تحدَّثت لا كوسيطة وإنما كسيدتها بنفسها) مألوفاً للغاية في نغمته، أخذاً في الاعتبار بمن تكون سموها. «الآن غمرني أنا الصمت». رد جينجي المندهش:

كونك لا تتحدثين يعني أكثر بكثير من أي كلمات - هذا أعرفه تمام المعرفة،

مع ذلك فإن التزامك الصمت محنة يصعب احتمالها».

واصل الحديث عبر دفق من المجاملات أو الثرثرات أو الأمور الجدية، لكن شيئاً لم يفلح في غمار الإحباط حيال هذا الدليل على أنها لا بد أن تكون غريبة الأطوار على نحو ما أو أن مشاعرها مرتبطة بآخر، أزاح الباب المنزلق جانباً، ودخل الغرفة.

كم هذا فظيع! وقد وعد بأنه لن يفعل ذلك! استشعرت تايفو ألماً بالغاً بالنسبة لسموها إلى حد أنها حوَّلت عينيها، ومضت منصرفة إلى غرفتها. اغتفرت الوصيفات الشابات سلوكه، فقد كان حسن طلعته الفائق شهيراً للغاية، ولم يستطعن حمل أنفسهن على إثارة أي اعتراض جدي، وذلك على الرغم من أن الأمر كله كان مفاجئاً للغاية، ولم تكن

(1) إعادة صياغة للمعنى السردي لـ«تاماداسوكي كوروشي»، وهو تعبير متأنق للغاية مستمد من كوكينشو 1037: «ألا تقولين لي فحسب إنك لا تحبينني؟ لماذا ينبغي للحب أن يكون متذبذباً على هذا النحو؟».

(2) يقرع لإغلاق جدل مذهبي، خلال طقس المخاطبات الثماني (مي ـ هاكو).

سيدتهن مستعدة له بصورة تثير الإشفاق. وتجمدت سموها نفسها بفعل الخجل والكبرياء الجريح، وهو الأمر الذي لم يلمها جينجي عليه، حيث أن هذه اللحظة كانت لحظة مست فيها بيسر أرق مشاعره، وحيث أنها كانت لا تزال تعيش حياة متحجبة وفاضلة للغاية، ومع ذلك فإنه وجد سلوكها أيضاً غير مألوف ومثير للإشفاق على نحوٍ ما. ما الذي يمكن أن يكون قد اجتذبه فيها؟ مضى يئن، واستأذن في الانصراف في وقتٍ متأخر من تلك الليلة. رقدت تايفو من دون أن يغمض لها جفن، مصغية لمؤشرات على الكيفية التي تمضي بها الأمور، ولكنها لم توقظ أحداً لتوديعه، لأنها لم ترد أن تفصح عن تورطها في الأمر. وقد تسلل مبتعداً بهدوء بالغ حقاً.

عاد إلى نيجو، ورقد ليتأمل طويلاً إحباطات الحياة التي لا تعرف الانتهاء، وليرثي أي امرأة لها مثل مكانة الأميرة التي لا يستهان بها ليس لديها إلا هذا القليل لتقدمه.

كانت ضروب البؤس هذه لا تزال تدور في رأسه عندما وصل النقيب أمين السر. قال: «من المؤكد أنك أويت إلى فراشك متأخراً، يقيناً لا بد أن هناك سبباً لذلك».

نهض جينجي: «كنت أبالغ في الانغماس في رفاهية الرقاد بمفردي. هل جئت من القصر؟».

رد صديقه بأنفاس لاهثة: «نعم، كنت هناك قبيل قليل. اليوم هو النهار الذي سيتم فيه اختيار الموسيقيين والراقصين لمسيرة جلالته إلى قصر سوزاكو. وقد سمعت بالأمر البارحة، وأنا في طريقي الآن لإبلاغ معاليه. ويتعين عليَّ أن أعود إلى هناك مباشرة».

«حسناً، إذاً سأذهب معك». أمر جينجي لهما معاً بطعام الإفطار، وبعد تناوله استقلا عربة واحدة، على الرغم من أن العربة الأخرى قد تبعتهما.

لاحظ النقيب بلهجة يغلب عليها اللوم: «إنك لا تزال تبدو كمن لم يفق من النوم بعد. وأضاف ببعض الغيظ: لديك الكثير مما تخفيه».

كان هذا يوماً يتقرر فيه الكثير من الأمور، وأمضى جينجي بقيته في القيام على أمور البلاط.

تذكَّر في نوبة من الشعور بالذنب أنه مدين لها على الأقل برسالة[1]، وبعث لها برسالة أخيراً في المساء. وعلى الرغم من تحول الطقس إلى ماطر وعدم تمكنه حقاً من مغادرة القصر، فإنه ربما لم يرد أن تكون له أي صلة بـ«الملاذ الرقيق من المطر».

في دار سموها، أحست تايفو بالأسف البالغ، عندما مرَّ الوقت الذي يتوقع فيه أن تصل رسالة. وقد ظلت هي نفسها تشعر بالخجل بصورة عميقة، ولم يخطر ببالها قط أن تلوم جينجي، حتى عندما وصلت رسالته الصباحية في المساء. كان قد كتب يقول:

«لم أر أي مؤشر لانقشاع سديم الماء

لكن لتزداد الأمور سوءاً فإن المطر ينهمر الليلة مدراراً!

ما أشد قلقي مع مرور الوقت فيما أنتظر انقشاع الغيوم!». أهابت الوصيفات بسيدتهن أن ترد عليه أياً كان الأمر، على الرغم من خيبة أملهن المريرة حيال هذا الدليل على أنه لن يحضر.

وقد كانت جوجو هي التي استحضرت تأخر الوقت لتوحي لها بالكلمات كذي قبل:

«فكِّر لطفاً في من تنتظر القمر[2] في الليل المظلم

وذلك على الرغم من أن كآبتك لها سبب آخر غير كآبتها».

بتشجيع من كل الحاضرات، كتبت سموها هذه القصيدة على ورق مورا ساكي عتيق للغاية إلى حد أن لونه تحول إلى الرمادي، وذلك بحروف محدودة على نحو مزعج، عتيقة الأسلوب ومتوازنة بشكل دقيق من أعلاها وأسفلها[3]. ولم تكن جديرة بإلقاء نظرة عاجلة عليها، فنحَّاها جينجي جانباً، ولم يحب التكهن فيما يتعلق بما تفكِّر فيه بخصوصه. وفي غضون ذلك، مضت سموها تندب حظها. من دون أن تعرف أبداً أنه على الرغم من أنه

---

(1) يتعين إرسالها بعد أن يكون رجل قد أمضى الليل مع امرأة، على الرغم من أنه في هذه الحالة كان إرسال رسالة فحسب يعني معادلة العلاقة بصورة خاطئة على أنها صلة غرامية. وكانت مرتبتها رفيعة للغاية بحيث أنه كان يتعين على جينجي أن يعود لقضاء ليلتين أخريين ليؤكد الزواج.

(2) جينجي.

(3) تحول الورق إلى لون الرماد «آبي» المستخدم كمادة لتثبيت اللون. وتحديد الحروف بعيد عن الإيحاء بالأنوثة، وتوازنها يفتقر إلى الشخصية.

يشعر بالندم الآن حقاً لأنه فاز بها، فإنه يتفهم واجبه ويعتزم القيام به حتى النهاية.

أصـر معالي وزير الميسـرة علـى اصطحاب جينجي إلـى الدار معه، لـدى انصرافه من القصـر في وقت متأخر من تلك الليلة. وتجمع أبناؤه الذين كانوا يتطلعون إلى هذه الرحلة الإمبراطورية للحديث عنها، وشغلوا أنفسهم كل يوم بإجراء تجارب كلٍ منهم على رقصته الخاصـة. ولـم يكن ضجيج الآلات الموسـيقية أعلـى منه الآن في أي وقت سـابق، حيث كان كل منهم حريصاً على التميز، كما لم تكن آلاتهم الموسـيقية بالآلات العادية، ذلك أن صوت «الهيتشيريكي» الأكبر «الساكوهاتشي» كان يملأ الجو، بل إنهم دحرجوا طبلاً كبيراً إلى الحاجز، ومضوا يقرعونه بأنفسـهم[1]. وكان جينجي مشغولاً للغاية بحيث أنه لم يفلح فـي اختـلاس وقت إلا لهذه السـيدات، اللواتي كن أكثر أهمية بالنسـبة له، وسـمح بتوقف كل اتصال بدار أميرة هيتاشـي. وشـارف الخريف على الانتهاء فيما آمال سـموها تنحسـر وتتراجع.

أقبلـت تايفو لرؤية جينجي، عندمـا اقترب موعد الرحلة الإمبراطوريـة والهواء يمتلىء بالموسيقى خلال التجارب.

سألها على نحو مفعم بالشعور بالذنب: «كيف حالها؟».

أبلغتـه تايفو: «لا مبالاتـك الكاملة بها مؤلمة للغاية لأولئك اللواتـي يحطن بها يومياً». أوشكت أن تنخرط في البكاء.

أدرك كيف أنه خان ثقة تايفو في أنه لن يعامل سـموها بأقل من أعظم التقدير، وأزعجه تخيل رأي تايفو فيه. أما فيما يتعلق بسموها نفسها فإنه لم يستشعر إلا الرثاء لها عندما تخيل مدى صمتها وعزلتها. قال متنهداً: «ليست لديَّ لحظةٌ أوفرها هذه الأيام». أضاف بابتسامة: «الأمـر ليـس بيدي حقاً. إنها تعرف القليل للغاية حقاً عـن أحزان الحب، كما ترين، بحيث أننـي أرغب في جعلها أكثر حكمة فقط». ابتسـم، فدفعت جاذبيته المفعمة بالشـباب تايفو إلى الابتسـام بدورها. وحدَّثت نفسـها: الأمر ميؤوس منه، فهو في السن التي تجعل النساء يعانين فحسب، ولا عجب أنه في غالب الأوقات لا يكترث ولا يفعل إلا ما يروق له.

(1) كان هذا الطبل الكبير يحفظ عادة في خارج الدار، ويقرعه الخدم.

على أية حال، فقد جدد زياراته بين الحين والآخر لدى انتهاء هذا الوقت المفعم بالمشاغل.

الآن أصبح مشغولاً للغاية برعاية قريبة مورا ساكي الصغيرة[1]، بعد أن أصبحت منتمية لـه، بحيث أنه أصبح يزور روكوجو بصورة أقل، وفيما يتعلق بتلك الدار المتداعية، فإنه لم يستطع على الرغم من تعاطفه أن يجد الإرادة الضرورية للذهاب إلى هناك، أو مع مرور الأيام يشعر بأية رغبة كبيرة في أن يسبر أغوار التحفظ غير المألوف لساكنة تلك الدار، لكن حالته المزاجية تغيرت بعد ذلك، ووصل إلى افتراض أنها قد تظل لديها فضائل تعلي من شأنها، وأن لمسها في الظلام ربما ترك أسراراً معينة متعلقة بها دون انكشاف، وإنه يريد أن يراها بالشكل المناسب، غير أنه سيكون من الفظاظة إلقاء الضوء المباشر عليها،[2] وبالتالي فإنه ذات مساء عندما لم يكن أحد يتوقعه هناك انسل داخلاً، وحدَّق من خلال ثغرةً بين مصراعين شبكيين.

يا للحسرة، فهو لم يرها على الإطلاق، ذلك أن الستائر القائمة على الرغم من أنها بالية بصورة مؤسفة، إلا أنها بقيت في موضعها طوال هذه السنين ولم تنح جانباً، وبالتالي فإنه لأسفه الشديد لم ير أمامه إلا أربع وصيفات أو خمس وصيفات، وكن قد انسحبن من غرفة سيدتهن، ومضين الآن يتناولن على نحو ينفطر له القلب وجبة بلا طعم ولا نكهة من منضدة وضعت عليها أوانٍ صينية مزعجة سيلادونية[3] اللون بشكل أو بآخر، ولكنها في حالة مثيرة للإشفاق. وعلى مبعدة في الحجرة الركنية[4] جلست نسوة مرتجفات بفعل البرد في ثياب بيضاء بائسة على نحوٍ لا سبيل إلى التعبير عنه، وقد وضعن مآزر متسخة على خصورهن، وبدون موغلات للغاية في العمر. ومع ذلك بدا له أمراً طريفاً أن يلاحظ أنه بتلك الأمشاط في شعرهن فوق الجبين ـ كانت الأمشاط توشك على السقوط ـ فإن لهن نظيراتهن في غير هذا الموضع، في نهاية المطاف، في «سرادق الموسيقى الخاص بالنساء» أو «قاعة المرآة

(1) مورا ساكي، ابنة أخ لفوجيتسوبو.
(2) بتوجيه المصباح كله إليها.
(3) كان اللون السيلادوني (اللون الرمادي الأخضر الفاتح المزجج) يدعى «اللون المعكوس» (هيسوكو) وفقاً للعرف الصيني، وكانت أرفع طبقات النبلاء هي التي تستخدمه.
(4) ركن في الجناح.

المقدسة»[1]. وبالنسبة له فإنهن لم يكن يشبهن النسوة المكلفات بخدمة سيدة نبيلة.

صاحت إحداهن والدموع ملء عينيها: «آه، يا للرحمة، الطقس بارد للغاية هذا العام! هذا هو ما تحصلن عليه عندما يمتد العمر!».

«لماذا حسبت على الإطلاق أن الحياة صعبة عندما كان سموه الراحل لا يزال حياً؟». كانت هذه المرأة ترتجف بشدة بحيث أنها قفزت من الأرض تقريباً. «انظرن إلى الطريقة البائسة التي نعيش بها الآن!».

كانت شكاواهن المثيرة للإشفاق مؤلمة للغاية، فتراجع جينجي، وطرق المصراع، وكأنه قد وصل تواً. وبقولهن «عفواً» وصيحات مماثلة، أصلحن من شأن المصباح، وفتحن المصراع على آخره، وسمحن له بالدخول إلى الحجرة.

لم تكن جيجو هناك، أخيراً، حيث كانت من بين الشابات اللواتي يخدمن كاهنة كامو. وهذه المرة بدون جميعهن أكثر غرابة، وأشد خروجاً عن المألوف، بحيث ساوره الشعور كأنه لم يعرف المكان. ومضت الثلوج التي أثارت الشكاوي التي أعربن عنها في التساقط بكثافة أكبر من ذي قبل. وبدت السماء مدلهمة، وراحت ريح قاسية تهب، ولم يتحرك أحد لإشعال المصباح عندما انطفأ، فاستعاد اللحظة التي تعرض فيها للخطر وعزّا نفسه، خلاصاً من الأقفار المماثل في التفكير في أن هذا المكان كان على الأقل أصغر ومأهولاً بشكل أفضل، ولكنه علم أنه خلال هذه الليلة المخيفة فإنه لن يحظى إلا بالقليل من النوم، وكانت للمشهد جاذبيته، عناصره التي تخاطب القلب وسحره الغريب، ولكنه أحس بأنه قد خُدع عندما ظلت مستعصية على التواصل معه وبعيدة عن الاستجابة بحيث أنه لم يستمتع بها على الإطلاق.

بدا أن الفجر قد طلع أخيراً، قام برفع المصاريع بنفسه، وأطل إلى الخارج عبر الحديقة

---

(1) بحلول زمان المؤلفة. وربما في وقت أسبق، لم تعد الوصيفات يرفعن شعرهن إلى أعلى باستخدام مشط. وكان «سرادق الموسيقى الخاص بالنساء» (نيكايوبو) مخصصاً لتدريب موسيقيات القصر وراقصاته، بينما كانت «قاعة المرآة المقدسة» (نايشيدوكورو)، في أونميدين، هي المكان الذي تحفظ فيه المرآة المقدسة (إحدى الشارات الإمبراطورية الثلاث). وكان كل من السرادق والقاعة تسكنهما وصيفات عجائز تنتمي أساليبهن إلى الماضي بشكل أو بآخر.

التي كستها الثلوج. لم تكن آثار أقدام قد انسلت إلى الامتداد الرحب، الخالي، والموحش على نحو يبعث الرعدة في الجسم.

قال مستشعراً إن رحيلاً سريعاً سيكون بالغ القسوة: «انظري إلى مدى جمال السماء الآن!». أضاف ببعض الضغينة: «إن المسافة التي تبقينها بيننا مؤلمة للغاية».

لم يكن النور قد بزغ تماماً، وقد بدا شاباً وسيماً بفعل تألق الجليد، إلى حد أن هذا المشهد جلب الابتسامات إلى وجوه العجائز، فشجعنها قائلات؛ «اخرجي إليه، يا سيدتي[1]، لا بد لك من ذلك! أن يكون المرء لطيفاً يحدث فارقاً كبيراً» هندمت نفسها بشكل أو بآخر، حيث أنها على الرغم من خجلها، لم يكن بمقدورها أن تقول لا أبداً، عندما يقال لها ما الذي يتعين عليها القيام به، وانسلت خارجة نحوه. تظاهر بأنه لا ينظر إليها، وحدَّق في الحديقة، ولكنه اختلس العديد من النظرات سعيداً (آه، يا للأمل الأحمق!) لو أن حميميتهما الراهنة كانت قد جلبت أي شيء جذاب على الإطلاق!

أولاً، كان طولها وهي جالسة غير مألوف، وقد بدا جلياً أنها طويلة للغاية. حدَّث نفسه في قنوط: كنت أعرف ذلك! بعد ذلك أتت الكارثة الحقيقية، أنفها. وقد لحظه على الفور. كانت تشبه مطية البوذيساتفا فوجين[2]. كان طويلاً وممتداً ذلك الأنف، معقوفاً قليلاً قرب النهاية، مع احمرار عند الطرف، رعب حقيقي. ومن حيث اللون كانت أشدّ بياضاً من الثلج، وفي حقيقة الأمر مزرقة قليلاً، وكان جبينها عريضاً بصورة لافتة للنظر[3]، وذلك على الرغم من أنه أسفل ذلك الجبين بدا وجهها وكأنه يمتد ويمتد طويلاً على نحو غير مألوف. كانت نحيلة إلى حد كونها ناتئة العظام بصورة مؤلمة، وحتى من خلال ردائها كان بمقدوره أنه يلمح تربيع كتفيها المعذَّب. لماذا أصر على اكتشاف كيف تبدو في مجملها؟ ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، فقد بدا مرآها غير مألوف إلى حد أنه لم يستطع إبعاد ناظريه عنها. كان شكل رأسها وتسريحة شعرها يناظران مثيليهما اللذين أعجب بهما في أجمل السيدات اللواتي عرفن، ولاحظ كيف أن شعرها امتد قدماً أو نحو ذلك وراء طرف ردائها.

(1) من الفراش المحاط بالستائر.
(2) الذي كان يمتطي فيلاً أبيض.
(3) أو «ينتأ»، الفعلان لفظان متجانسان.

قد يكون من القسوة تناول زيها، لكن حكايات الحب العتيقة تبدأ على الدوام بوصف ملابس شخصية ما. فوق ثوب شاحب للغاية بلون الوردة المحظورة[1] ارتدت ثوباً قاتماً وفوق هذا الأخير وضعت معطفاً من جلود السمور[2] المعطرة بصورة ثرية ومتألقة، ولا شك في أنه زي مميز في أزمنة غبرت، ولكنه غريب على نحو صادم بالنسبة لسيدة لا تزال في نهاية المطاف في مقتبل العمر. وأوضح وجهها إلى أي حد ستعاني من البرد من دون الفراء، فأحس بالأسف عليها.

شعر بدوره بأن الكلام خانه، عندما لم يحصل على رد، ولكنه حاول تجاذب أطراف الحديث معها، ليختبر صمتها. حتى الطريقة التي وضعت بها يدها على فمها في غمار حرج حاد كانت عتيقة للغاية وبعد العهد بها إلى حد أنها ذكّرته بطريقة الموظفين الرسميين في موكب في مناسبات احتفالية في رفع أذرعهم، وكانت الابتسامة المصاحبة الصادرة عنها مربكة تماماً. استشعر في الحال ألماً وتعاطفاً، فاستعد على عجل للرحيل.

قال على سبيل انتحال العذر: «لسوف أسعد كثيراً لو أنك، أنت يا من لا يعتني بك أحد، قُدّر لك أن ترحبي بالرجل الذي هو لك الآن[3]. إن رفض الإذعان مثير لخيبة الأمل للغاية..

عندما تذيب شمس الصباح دلاّت الجليد على امتداد الطُنُف،

لماذا تتجمد المياه بالداخل الآن بهذه الصلابة؟»

لكنها لم تمنحه إلا (إحم) وابتسامة، وكان إخفاقها المفرط في العثور على رد محزناً للغاية إلى حد أنه غادر المكان.

كان واضحاً حتى في الليل، عندما يخفي الظلام ألف عيب آخر، أن البوابة الوسطى حيث تنتظر عربته كانت معوجة ومترامية بصورة خطرة، والآن في هذه العزلة الحزينة

(1) أوسو («ناصل») كوريناي، قرنفلة ناصلة، لطيفة الحمرة في هضبة كوريناي. كان الطرف الأكثر قتامة منها «محظوراً» (كينجيكي) على الكافة إلا الإمبراطور والعائلة الإمبراطورية. وكوريناي مستمدة من صبغة نبات القرطم (سويتسوموهانا).

(2) كان جلد السمور القادم من سيبريا يحظى بتقدير النبلاء في أوائل العهد الهاييني، ولكنه بحلول زمن الحكاية لم يعد صرعة مفضلة.

(3) «الرجل الذي بدأ في لقائك»، «رجلك» أو «زوجك».

حيث لا شيء يبدو دافئاً إلا أشجار الصنوبر في معاطفها الجليدية الثقيلة، أعطت الدار على نحو ملحوظ الشعور بأنها قرية جبلية. ولا شك في أن هذا هو ما عناه أولئك الأشخاص بقولهم: «دار عتيقة أفرطت نباتاتها في الامتداد». حدَّث نفسه؛ آه، لكم أود أن تأتي إنسانة عزيزة للغاية لتقيم هاهنا، ثم أفتقدها وأشعر بالقلق عليها، وقد تبعد ذهني عن هذا الحنين المحرم. يا له من عار أن من تقيم هنا لا بد أن تفسد مكاناً لا ينقصه شيء بألا يكون لديها ما تقدمه. من عساه غيري يتحملها؟ لئن كنت أنا وإياها قريبين الآن، فلا بد أن ذلك لأن أباها الراحل والمضطرب قد بقي معها بروحه وقادني إليها.

جعل جينجي رجلاً من رجاله يسقط الجليد عن شجرة برتقال مثقلة، كانت شجرة صنوبر قد سقطت عليها أيضاً، كأنما في معرض التحدي، وبكتل عظيمة متساقطة ومحدثة دوياً من الجليد[1]. كم تاق إلى امرأة، حتى وإن لم تكن مبهجة تماماً يمكنه أن يستمتع معها على الأقل بالمسامرة المعتادة.

ولم تُفتح البوابة التي كان على عربته أن تجتازها، وبعث إلى القائم على أمرها الذي يحتفظ بالمفتاح. أقبل رجل موغل في العمر على نحو ملحوظ، تصحبه امرأة قد تكون ابنته أو حفيدته ـ ما كان بإمكان المرء أن يحدد أيهما يمكن أن تكون ـ والتي برزت ملابسها المتسخة قبالة الجليد. وبدا واضحاً أنها شبه متجمدة، وقد تشبثت بنوع كريه من الصناديق ملفوف في كمها يضم بضع جمرات متقدة. عندما أخفق العجوز في فتح البوابة، مضت لتقدم له عوناً لا جدوى منه. وفتحها رجال جينجي في النهاية.

«من ير هذه الثلوج المتراكمة في قسوة على هذه الرأس العتيقة،

يبلل بدموع غزيرة كُمِّيه الباردين هذا الصباح

وجسم الأصغر عارٍ من الثياب».

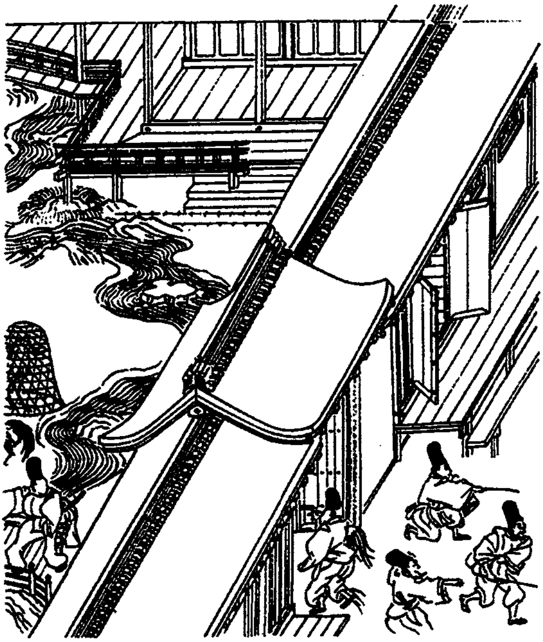
هكذا راح يهمهم، مبتسماً، فيما ذكرى تلك المرأة الباردة، بأنفها المحمر، ترد فجأة على باله[2]. ترى أي تشبيه سيجده النقيب أمين السر لذلك الأنف لو أنه أطلعه عليه؟ لقد

---

(1) بصياغة حرفية بشكل أكبر: «بدا الجليد المتساقط مثل سوي الشهيرة». جوسينشو 683 من نظم توسا: «هل كماي صنوبرة جبل سوى الشهيرة التي تهبط الأمواج إليها من السماء كل يوم؟»».

(2) يستمد جينجي قصيدته من قصيده من نظم باي جويي (هاكوشو مونجو 0076) عن ضروب المعاناة التي يتحملها

كره تصور أن يصادف هنا صديقه الذي كان يقتفي خطاه على الدوام.


البوابة الوسطى

كان يمكـن أن يتخلى عن سـموها فـي ذلك الوقـت وفـي هـذا المكان، لـو كانت امـرأة عادية، وليـس فيها ما يميزها بشـكل أو بآخر[1]، ولكن الآن وقـد رآهـا بالفعل، فـإن تعاطفـه معها كان أكثـر قـوة مـن ذي قبـل، وبعـث إليها برسـائل مسـتمرة جنباً إلى جنب مع هدايا عمليـة تماماً، ليس قطع فراء السـمور، وإنمـا الحرائـر، والأقمشـة الحريريـة المضلعـة، والبطانـات القطنيـة، أو الملابـس للوصيفـات العجائز، بل وكذلـك (حيث أن فطنته قد شـملت الجميع رفيعـاً أو وضيعاً) لحـارس البوابة العجوز. وشـعر بالارتيـاح لأن كل هذا النزوع العملي لـم يبد أنه يضايقها علـى الإطلاق، وقـرر أن يعنى بها بهـذه الطريقة من الآن فصاعداً. وشـملت هداياه الأكثر غرابة أشياء لا يجرؤ أحد عادة على أن يعطيها إياها.

لم تكن هداياه الأكثر غرابة أشياء لا يجرؤ أحد عادة على أن يعطيها إياها.

لـم تكن تلك التي نحت «شـرنقة زيز الحصـاد»، على نحو ما رآها فـي لحظة راحة من الجانب في ذلك المسـاء، بالمـرأة ذات الطلعة البهية على الإطلاق، لكن سـلوكها عوَّض عـن ذلـك وأكثر منه، وهـي لم تثر اسـتياءه. هل يمكن أن تكـون ابنة أمير امـرأة أقل قيمة؟ كان ذلـك صحيحاً، فهذه الأمور لا علاقة لها بالمرتبة والمكانة. لقد كانت قوة شـخصيتها

الفلاحون. ثم يهمهم بيتاً من الأصل. فيه «الأصغر» صبي، وليس المرأة الماثلة أمامه. والأنف يرد على البال لأن الأبيات التي تلي ذلك من نظم باي جويي تتحدَّث عن الكيفية التي تؤلم بها الأنوف الفلاحين ألماً شديداً في البرد.

(1) حيث أن رجلاً آخر سيظهر ليعنى بها.

الداعيـة للجنون من التأثير بحيث أنه كان هو من خسـر فـي نهاية المطاف. مضت ذكريات كهذه تجول بخاطره عندما كانت المصادفة تستدعيها.

بلـغ العـام نهايتـه. وكان جينجي في غرفتـه بالقصر عندمـا أقبلت تايفـو. كان يحب أن ترجل شعره لأنها لم تغازله قط، ولكن كان يداعبها غالباً أو يطلب منها بعض المجاملات الشخصية، وقد كانت تحضر بلا استدعاء عندما يكون لديها ما تبلغه به.

«لديَّ شيء غريب أحدثك به، ولكنني أخشى أنني لست أدري كيف أحدثك به». هكذا قالت، ولزمت الصمت، باسمة.

«أي شيء تقصدين؟ يقيناً أنه ليس لديك ما تخفينه عني».

«آه، لا، يـا مـولاي، بقدر ما يتعلق الأمـر بأية متاعب خاصة بي، فإنـك بالطبع في غمار تلطفـك سـتكون أول.. ولكـن هـذا الأمـر بالـغ الصعوبة فـي طرحـه، كما تـرى» خذلتها الكلمات.

قال مختبراً إياها: «إنك تقودينني إلى طريق الظلام مجدداً».

قالت: «لك رسالة من سموها». وقدمتها إليه.

«إذن ماذا كان اللغز في الأمر؟».

غـاص قلـب تايفـو في صدرها لمجرد تسـلمه الرسـالة، فقـد كانت مكتوبـة على ورق ميتشـينوكوني سـميك[1] معطـر بكثافـة ومـن المؤكد أن خط سـموها قد تحسـن. جاء في قصيدتها.

«أيها الرداء من كاثاي البعيدة! ينقلب فؤادك عليَّ بقسوة بالغة، أيها الحبيب،

أنظر إلى كميَّ وتبين كم هما مبتلان بالدموع!»[2]

---

(1) ورق أبيض يصنع بصفة خاصة في شمال اليابان (ميتشينو كوني، أو ميتشينوكو) من لحاء الشجر، وهو خيار غريب بالنسبة لرسالة حب.

(2) «الرداء من كاثاي البعيدة» (كاراكورومو) «كلمة وسادة» زخرفية لا ترتبط من حيث المعنى بباقي القصيدة. وينبغي أن يكون لها ارتباط تقليدي بالمقطع الذي يليها، ولكن الجهد الذي تبذله لتحقيق ذلك لا يكلل بالتوفيق. وباقي القصيدة مبتذل تماماً.

فيما عكف على قراءة هذه الكلمات، من دون أن يفقه لها معنى، وضعت تايفو بين يديه خزانـة ملابـس عتيقة الطـراز، وفكت القماش الـذي لُفت فيه. «يا مولاي، من المسـتحيل النظر إلى محتويات هذه الخزانة من دون أن تأخذ المرء الرعدة، لكن سموها أصرت على أن تحصل عليها لترتديها في عيد العام الجديد، ولم أستطع جعلها تستردها. ربما كان عليَّ أن أنحيهـا جانبـاً، ولكن ذلك كان سـيعني تجاهـل رغبتها الصريحة، وهكـذا فإنك بعد أن تلقي نظرة..».

«كان الصـواب سـيجافيك تمامـاً لو أنـك نحيتها بعيـداً. إن مثل بعد النظـر هذا يجلب الفرحة إلى تلك التي فوق كميها المبللين ما من وسادة حب تحمل رأسها»[1]. لم يحر بعد ذلك قولاً.

مضـى يئن محدِّثاً نفسـه: يا للسـماء! يا لها مـن قصيدة فظيعة! لا بـد أن هذه هي أفضل قصيدة استطاعت نظمها معتمدة على نفسـها، وأحسـب أن جوجو هي العلَّامة التي تقوم عادة بإعادة وضع لمسـاتها على قصائدها وترشـد فرشـاتها. مضى يتأملها بابتسامة، مفكراً بأن هذا الوقت ربما كان هو أوان الحديث عن «العرفان الهائل» في ضوء الجهد الذي لا بد أنها قد بذلته. تضرَّج وجه تايفو التي كانت ترقبه احمراراً.

في خزانة الملابس، قدمت نفسها للعيان على نحو مضجر للغاية عباءة حمراء برقوقية، عتيقة وبائسـة على نحو لا يحتمل، وتحمل اللون ذاته في ظاهرها وباطنها[2]. حدَّث نفسـه مسـتحيل! ثم فرد الرسالة وكتب على نحو عفوي على إحدى حافاتها هذه الكلمات، التي قرأتها تايفو من مكانها بجواره:

«ليس هذا باللون الذي يبعث فيَّ الدفء، فما الذي أقصده إذاً

بترك كميَّ يحتكان بزهرة قرطم في سمت احمرارها؟[3]

(1) حديثه الساخر بصورة دقيقة يقتطف من مانيوشو 2325 ويشير إلى قصيدة سويتسوموهانا كذلك.

(2) كان يفترض أن يكون ظاهر العباءة الرسمية وباطنها مختلفين.

(3) سويتسوموهانا («القرطم») تعني حرفياً زهرة مقطوفة من الطرف في إشارة إلى الطريقة التي تُقطف بها الزهور، وهانا («زهرة») لفظة مجانسة لـ«أنف».

مع ذلك فقد أعجبت كثيراً بعمق تدرج لون الزهرة»[1].

أشفقت تايفو على السيدة، عندما أدركت أن اللمحات العديدة في ضوء القمر التي رآها جينجي خلالها قد أعطته مبرراً وجيهاً للشكوى من زهرة القرطم، ولكنها استمتعت بقصيدته على أية حال.

«الرداء قد يكون شاحباً، حيث غُمس مرة واحدة في الصبغة القرمزية،

لكن، آه، احرص على الأقل على ألا تلحق الضرر باسمها!»[2]

هكذا غمغمت بوحي البديهة، وأضافت: «هذا كله يثير القلق كثيراً».

لم تكن قصيدتها بالرائعة الفريدة (حدَّث نفسه بمرارة). ولكن لو أن سموها كان بمقدورها أن تنظم شيئاً على هذا المستوى فحسب! من المؤلم أن يتلقى المرء مثل هذا الهراء من إنسانة رفيعة النسب على هذا النحو، وأخذته الرعدة خوفاً من أن تلحق بها هذه القصيدة العار.

وصلت وصيفات كثيرات. «من الخير أن نخفيها. من ذا الذي سمع بمثل هذا الشيء؟»[3].

مضت تايفو تنوح: لماذا أطلعته عليها على الإطلاق؟ ربما كان سينظر إليَّ الآن بدوري على أنني مثيرة للضجر تماماً! انسلت مبتعدة، مجروحة المشاعر.

في اليوم التالي، أطل على غرفة جلوس الوصيفات فيما كانت تايفو في مناوبة خدمة لجلالته، ونادى: «ها هو! ها هو ردي المطلوب من الأمس. يا له من وقت تكبدته في إنجازه!». ألقى به إليها. تاقت الوصيفات الأخريات إلى معرفة ما هو. راح يدندن فيما هو

---

(1) جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو إنيو واكا 448): «كنت قد حسبت القرطم زهرة عميقة الظل، غير أنها نصلت كثيراً، بحيث أنها غدت كئيبة للغاية!». ربما يشير عمق الظل إلى انحدار السيدة من أصل إمبراطوري يتوقع المرء منه الأفضل، والصبغة المتخذة من القرطم تشحب سريعاً.

(2) «على الرغم من أنك تهتم بها قليلاً، إحرص على ألا تسيء إلى سمعة سيدة رفيعة المنبت بهجرانها». إن الرداء الذي يُغمس مرة واحدة في صبغة القرطم (هيتوبانا جورومو) هو لهذا السبب رداء شاحب للغاية، مثل عاطفة جينجي المتقلبة. والقصيدة تتضم تلاعباً بكلمة هانا «الزهرة» و«أنف».

(3) سمع بامرأة ترسل إلى الرجل الذي يعيلها ملابس رسمية.

يغادر المكان. «وداعاً لعذراء جبل ميكاسا التي تشبه كثيراً احمرار البرقوق»(1).

بدا هذا لتايفو طريفاً للغاية. أما من لم يكن في أجواء الطرفة فقد طالبن بمعرفة ما الذي تضحك عليه في قرارة نفسها. ردت «آه، لا شيء ربما تصادف ذات صباح حقيقي أنه رأى إحداهن في ثوب قرمزي حريري، وقد بدا أنفها باللون نفسه. لم أحب كثيراً هذا المقطع من الأغنية».

رددن عليها من دون أن يفهمن جلية الأمر: «ستعين عليك المجيء بما هو أفضل من ذلك! ما من واحدة فينا لها أنف أحمر! لا بد أنه لمح ساكون نو تايفو أو هيجو نو أو نيمي»(2).

تجمعت الوصيفات بجناح جلالته جميعهن لإبداء إعجابهن برد جينجي، عندما ألقته تايفو على مسامعهن:

«إلى الليالي المفعمة بالوحدة عندما يفصل ثوب بيننا، هل تريدين حسب قولك

إضافة أثواب أخرى لمزيد من المباعدة بيننا؟»(3)

كان مكتوباً على ورق أبيض، وزاد من لطفه أنه مكتوب بصورة عفوية.

في مساء اليوم الأخير من العام، أوصلت تايفو خزانة الملابس نفسها إلى سموها، لكنها الآن امتلأت بمجموعة من الأردية النسائية، التي كانت في الأصل قد أُعطيت لجينجي، رداء عنبي اللون، ثوب في لون ورد كيريا أو شيء من هذا القبيل. وبدا جلياً أنه لا يوافق على اللون الذي كانت سموها قد بعثت بها إليه، ولكن الوصيفات العجائز أعلن مع ذلك:

(1) هذه النتفة من أغنية (المأخوذة فيما يبدو من أغنيتين مختلفتين) ربما يمكن أن تُقرأ بالطريقة التالية: تادا أومي نو هانا («حمرة خجل البرقوق») هي خطأ ناسخ في نقل تادارامي نوهانا التي يمكن أن تعني ليس فقط «زهرة تادارامي (الحمراء)» وإنما «الأنف الأحمر للعذراء (المقدسة) التي تحمي كير الحداد». وهذا «الأنف الأحمر» يمكن إذاً أن يشير إلى «هوتو» العذراء («موقد» ولكن أيضاً «جنس») و«عذراء جبل ميكاسا» من شأنها أن تخدم مزار كاسوجا، ولما كانت الآلهة الرئيسية لهذا المزار جاءت أصلاً من مقاطعة هيتاشي، فإن هذا التعبير أيضاً ربما يشير إلى ابنة أمير هيتاشي. وفي حقيقة الأمر، حيث أن إلهة كاسوجا ربما تم ربطها في القرن الحادي عشر، كما هي الحال لاحقاً بعمل كير الحداد، فإن التعبيرين كليهما ربما يومئان إلى الأنف الأحمر ـ أي الجنس – الخاص بعذراء الكير، سويتسوموهانا.

(2) ربما كانتا من زميلاتهن الوصيفات.

(3) «عندما تنقضي ليال عديدة من دون لقائنا، أتطلبين مني البقاء بعيداً من أجل المزيد من هذه الليالي؟».

«حسناً، الثوب القرمزي كان أكثر مهابة بكثير، وكان جيداً كهذه الثياب، وفضلاً عنه فإن قصيدة سيدتنا كانت جميلة النظم، وتعطي معنى متكاملاً، بينما قصيدته توحي بالبراعة فحسب». أما بالنسبة لسيدتهن فإن تلك القصيدة كانت قد كبدتها عناء كبيراً للغاية إلى حد أنها نسختها للحفاظ عليها.

كان على السادة الانطلاق في جولة من الرقص والغناء هذا العام[1] بعد الأيام الأولى من العام الجديد، وكما هي الحال دائماً فقد امتلأت الأجواء في كل مكان بالأغنيات التي كانوا يتمرنون على الشدو بها، ولكن على الرغم من كل هذا الضجيج، فقد انصرف تعاطف جينجي إلى الأميرة التي تعاني من الوحدة. وبعد المهرجان الذي يُقام في اليوم السابع[2]، انسحب من الوقوف بين يدي جلالته، وتظاهر بأنه سيأوي إلى غرفته بالقصر، ثم ظهر في وقت متأخر من تلك الليلة في دارها. كان المكان أكثر إيحاء بالحياة الآن، وبدت هي نفسها أقل تصلباً وجحوداً، فراح يتساءل عما إذا كانت هي نفسها قد استطاعت فتح صفحة جديدة.

تأخر في الانصراف عامداً إلى أن علت الشمس في السماء، وعندما فتح البابين المزدوجين الواقعين إلى الشرق، انهلت أشعتها إلى الداخل بلا عائق، حيث أن سقف الصالة المقابل كان قد سقط متداعياً، وسمح الضوء المنعكس عن صقيع في صورة ذرور بأن يرى في يسر داخل الغرفة، وكانت قد تقدمت للأمام قليلاً، ورقدت الآن ترقبه وهو يرتدي عباءته. كان ميل رأسها وانسياب شعرها بعيداً عنها جميلين. رفع المصراع الشبكي، محدثاً نفسه بأنه كم سيكون سعيداً لو أن مقدم العام الجديد قد دفعها للأمام قليلاً، ولكنه لم يرفعه حتى النهاية، حيث أنه قد تعلم درسه، وبدلاً من ذلك جلب مسنداً للذراع ليدعمه،

---

(1) أوتو كو توكا. في اليوم الرابع عشر، كان على قائد فريق الغناء، الراقصين، والموسيقيين الذين يتم اختيارهم من بين الوصفاء الخصوصيين ونبلاء الدرجة الأدنى جيجي المضي في أرجاء أراضي القصر راقصين ومغنين أغنيات سايبارا. وكانت النسوة يقمن بهذا كل عام» (أونا دوكا) ولكن جعل الرجال يقومون به كان شيئاً استثنائياً. وقد اختفت هذه العادة عام 983.

(2) مهرجان الجياد الزرقاء ذات الغبرة (أومانو سيتشي) وهو فعالية صينية أصلاً. كان واحد وعشرون جواداً. يجلب مرآة الحظ الحسنا، يتم استعراضها أمام الإمبراطور والبلاط. وحتى عهد موراكامي (حكم بين عامي 946 967) الذي يتطابق في الحكاية مع خلف الإمبراطور الحالي، كانت الجياد حقاً جياداً ذات غبرة زرقاء، ولكنها بعد ذلك كانت جياداً شهباء.

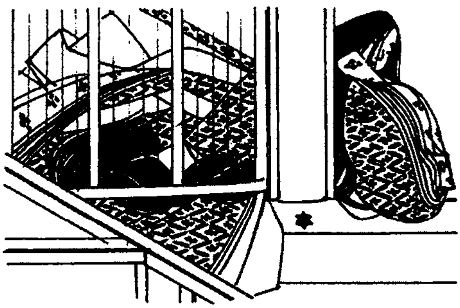
ثم انطلق ليهندم خصلاته الجانبية المضطربة. وجلبت له امرأة صندوق الأمشاط الصيني، وخزانة تمشيط الشعر التي تتماشى مع منضدة مرآة بالغة القدم. نعم، إنها لديها بعض الأدوات الخاصة بزينة الرجال، وهي منمقة للغاية بحيث تغدو مضحكة. واليوم ارتدت ملابسها التي بدت فيها أقرب إلى السيدات الأخريات، بعد أن ارتدت بحسب محتويات خزانة الملابس المرسلة إليها على وجه الدقة. غير أنه لم يلحظ ذلك، وإنما لاحظ غرابة ردائها ذي التطريز الممتع.

«اتركيني أستمع لصوتك أحياناً، على الأقل هذا العام. ولا تكترثي بالهازجة التي طال انتظارها[1]. ما أتطلع إليه حقاً هو تغيير فيك»..

«ترنيمات الربيع». هكذا ردت أخيراً، مترددة.

ضحك، «هكذا، أرأيت؟ إنني على يقين أن هذا كان بفعل العام الجديد!»[2].

غادر الدار، مدمدماً: «لا بد أنني أحلم»[3]، بينما استندت إلى أحد الأعمدة، ومضت ترقبه وهو يمضي في سبيله. كانت قد وضعت يدها على فمها، لكنه كان لا يزال يلمح الازدهار الثري لتلك الزهرة المحمرة وغزت ذهنه فكرة مفادها: ذلك يجعلها مرعبة للغاية!


شابة بثوب طويل

لاحت له مورا ساكي الصغيرة[4] جميلة على نحو شهي عندما عاد إلى نيجو، فسعد بالاستمتاع باللون القرمزي كثيراً في نهاية المطاف. جعلها ثوبها الطويل، البسيط، المجعد

(1) كان شعراء مثل سوسي، في شويشو، ينتظرون عودة «أوجيسو» من الجبال في الربيع: «بعد فجر العام الجديد، ما ينتظر المرء سماعه هو صوت الهازجة».

(2) كوكينشو 28: «على الرغم من أن كل الأشياء وسط شدو الطيور الربيعي، فإني أوغل في العمر فحسب». إنها تتقدم بشكوى مبتذلة من أن جينجي يهملها.

(3) كوكينشو 970، وفيها يعرب الشاعر عن دهشته وبهجته حيال زيارة غير متوقعة.

(4) مورا ساكي نوكيمي، الاستخدام الأول لـ«مورا ساكي» كشبه اسم للفتاة نفسها أكثر منه كإيماءة إلى فوجيتسوبو.

بصورة بهيجة، والذي يتألق بلون براعم الكرز[1] والمقترن بعفوية تصرفاتها ساحرة. والتزاماً بعادات جدتها عتيقة الطراز لم يتم صبغ أسنانها بعد باللون الأسود[2] لكنه جعلها تحظى بلمسات التجميل، وكان خط حاجبيها جذاباً للغاية[3]. وراح يتساءل من كل قلبه لماذا يقضي هذا الوقت الممتد في مغامراته الحمقاء بدلاً من البقاء في الدار مع هذه الرفيقة العزيزة. وفي غضون ذلك شرعا كلاهما في اللعب بالدمى كالمعتاد.

رسمت صوراً ولونتها، وبعثرتها في أرجاء المكان مبتهجة في غمار انفعالها. ورسم جينجي صورة خاصة به، حيث صوَّر سيدة ذات شعر طويل للغاية، وعند طرف أنفها وضع لمسة من اللون الأحمر[4]. نعم، كانت لا تزال قبيحة المنظر، حتى في الرسم. وإذ لاحظ في مرآة قريبة مدى وسامته[5]، فقد وضع على أنفه لمسة حمراء متوهجة، وتطلع في المرآة ثانية، لا، ما من جمال له يبقى مع وجود «ذلك» في منتصف وجهه. ضحكت سيدته الصغيرة في فرح إزاء هذا المنظر.

«كيف سيكون شعورك إذا كنت مشوهاً بهذه الطريقة؟».

«كنت سأكره ذلك». بدأت في القلق حول أن هذا اللون الأحمر سيبقى ملتصقاً به.

ادعى أنه يمحوه، وأعلن جاداً: «لن يمحى! يا لها من حيله فظيعة أوقعت نفسي في حبائلها! ما الذي سيقوله جلالته؟».

أقبلت، وأزالت اللون برقة عنه، فداعبها قائلاً: «مهلاً، مهلاً، لا تمضي في تلويثي مثل هيتشو[6]! لا يزال بمقدوري تدبر أمري باللون الأحمر». كان يشكلان ثنائياً بهياً.

---

(1) أبيض فوق أحمر كوريناي (مما يعطي تأثيراً أحمر وردياً شاحباً).

(2) من حيث المبدأ. كانت أسنان المرأة الشابة تسوَّد عند الزواج فحسب، وذلك باستخدام خليط من المواد عُرف باسم «هاجورومي».

(3) بحلول ذلك الوقت، كان شعر حاجبيها الطبيعيين قد نُزع، ورُسم حاجبان على مستوى أعلى منهما.

(4) بيني، لون التجميل المستمد من صبغة القرطم.

(5) مرآة برونزية موضوعة على قائم.

(6) كان هيتشو، العاشق الكوميدي المنتمي إلى الفولكلور الهاييني. يأخذ زجاجة ماء معه عندما يمضي للتودد إلى محبوبته، بحيث يمكنه افتعال انهمار الدموع الحساسة من عينيه بحسب مقتضى الحال، إلى أن عثرت زوجته على الزجاجة، ووضعت حبراً فيها. وعندما عاد هيتشو إلى الدار في الصباح التالي، رأى شيطاناً أسود المحيا في صقال المرآة.

كانت الشمس متألقة ودافئة، وأشجار البرقوق وسط كل الأشجار المزهرة، التي تتمايل في غمام الربيع، هي الأكثر وعداً على نحو بالغ الوضوح بالانطلاق في الازدهار الكامل. وأزهرت في وقت مبكر بصفة خاصة شجرة البرقوق القريبة من الدرج المفضي إلى الحديقة، وكانت بالفعل تحمل لمسة من اللون.

تنهد جينجي الحائر:

«لست أدري لماذا، لكنني لا أستطيع القول إنني أحب أية زهرة قرمزية

على الرغم من أنني أكن وداً كبير لنثار البرقوق المتطاول

آه، ما أغربني!».

ترى ما الذي حدث لكل هاته السيدات في نهاية المطاف.

7

موميجي نوجا

تحت وريقات الخريف

تعني «جا» احتفالاً (يوبيلًا) يُقام لشخصية عظيمة بمناسبة بلوغه عمراً متقدماً بصورة موفقة. والشخصية المعنية هنا هي شخصية امبراطور سابق (والد أبي جينجي أو ربما أخوه الأكبر، وربما كانت المناسبة هي بلوغه عامه الأربعين أو الخمسين. ويُقام الاحتفال تحت وريقات الخريف المتألقة (موميجي).

الصلة بالفصول السابقة

يبدأ «تحت وريقات الخريف» في خريف العام الذي يبلغ فيه جينجي عامه الثامن عشر، ويتداخل مع الجزء الأخير من «القرطم» وبشكل أقل مع الجزء الأخير من «مورا ساكي الصغيرة». ويستمر وصولاً إلى خريف العام التالي، عندما يبلغ جينجي التاسعة عشرة من عمره.

الشخوص

جينجي، نقيب في حرس القصر، 18 إلى 19 عاماً.

جلالة الإمبراطور، والد جينجي (كيريتسوبو نو ميكادو).

سمو ثم جلالة الإمبراطورة، فوجيتسوبو، 23 إلى 24 عاماً.

النقيب أمين السر (تونو تشوجو).

والدة ولي العهد، الزوجة كوكيدين.

ولي العهد، 21 إلى 22 عاماً (سوزاكو).

زوجة جينجي، 22 إلى 23 عاماً (أوى).

سيدة جينجي الصغيرة، 10 إلى 11 عاماً (مورا ساكي).

معالي وزير الحرب، والد مورا ساكي وشقيق فوجيتسوبو، 33 إلى 34 عاماً (هايوبو كايو نوميا).

أوميوبو، وصيفة فوجيتسوبو المقربة.

شوناجون، مرضعة مورا ساكي.

معالي وزير الميسرة، 52 إلى 53 عاماً (ساديجين).

ابن فوجيتسوبو الوليد (رايزي).

سيدة من البلاط، 57 أو 58 عاماً عندما كان جينجي 19 عاماً (جين نو نيشي).

تمت رحلة جلالته إلى قصر سوزاكو بعد اليوم العاشر من الشهر العاشر، وكان قد تقرر أن تكون هذه الجولة متألقة بصورة استثنائية، وأصيبت سيداته بخيبة أمل لأنهن لن يشهدنها، ولما كان لا يريد لفوجيتسوبو أن تفتقدها، فقد رتب أمر القيام بتجربة كاملة بحضورها.

أدى النقيب جينجي رقصة «أمواج البحر الزرقاء». ومن المؤكد أن شريكه النقيب أمين السر، نجل معالي وزير الميسرة، قد برز في المظهر والبراعة، ولكنه إلى جانب جينجي لم يكن إلا شجرة جبلية عادية بجوار شجرة كرز مزهرة. ومع تدفق الموسيقى ووصول الفقرة إلى ذروتها في النور الصافي لشمس أواخر الأصيل، منح تألق ملامح جينجي ورقصه الخطى المألوفة بهاء ينتمي إلى عام آخر. وكان يمكن لإنشاده للشعر أن يكون صوت «كالافينكا» الصادر عن بوذا في الفردوس[1]، وبلغ من عمق ابتهاج جلالته أنه مضى يمسح دموعه، ويبكي كل النبلاء والأمراء الكبار. وعندما انتهى إلقاء الشعر، حينما طوَّح بكميه مجدداً ليفردهما[2]، وعلت الموسيقى مجدداً في معرض الاستجابة له، توهج محياه بحسن أشد بهاء.

حتى في لحظة انتصاره، أشارت أم ولي العهد بمرارة قائلة: «بحسنه هذا، فإن الآلهة في الأعلى لا بد أن تحبه، كم هذا بغيض!» حدَّثت الوصيفات الصغيرات اللواتي سمعنها أنفسهن بأنها امرأة مقيتة.

كانت فوجيسوبو تعرف أنها كان يمكن أن يعجبها رقصه أكثر، لو أنه لم يكن شديد الإلحاح في رغباته، وأحست بأنها قد تراءى لها في الحلم من قبل مشهده هذا. مضت مباشرة للاعتناء بجلالته خلال الليل.

أشار بقوله: «رقصة أمواج البحر الزرقاء كانت أبرز ما في التجربة اليوم. أليس كذلك؟ كيف بدت لك؟».

«كانت جميلة للغاية». كانت أكثر ارتباكاً من أن ترد بما هو أفضل.

---

(1) «شعر» (إي) الرقصة هو قصيدة باللغة الصينية تُنسب إلى أونو نو تاكومورا. (802 ـ 852) وكانت الموسيقى تتوقف بينما يقوم الراقص الرئيسي بإنشادها. وغالباً ما كان صوت بوذا يقارن بصوت كالافينكا. وهو الطائر الذي يشدو في الفردوس.

(2) أشار الراقص إلى لحظة ذروة «الشعر» بتطويح كُمَّيه بحيث يلفهما حول ذراعيه.

«لم يكن شريكه سيئاً على الإطلاق. في الرقص والإيماء. والمرء يعجب بالراقصين المحترفين المشهورين[1] ولكنهم يفتقرون إلى تلك الرشاقة التي تأتي طواعية. وربما سيكون الأداء تحت أشجار الخريف هبوطاً مفاجئاً، بعد أن مضت أيام التجرية بصورة جيدة للغاية، ولكنني جعلتهم يقدمون أفضل ما لديهم بحيث ترين العرض كله».

كتب لها جينجي صباح اليوم التالي: «كيف وجدت العرض؟ كنت مضطرباً طوال الوقت على نحو يفوق ما يمكن للمرء تصوره.

«لم تجعل مني تعاستي إلا بالكاد الرجل الذي يقف ويرقص،

هل حزرت ما قصدته عندما لوحت بكمي هذين؟

لكنني ينبغي ألا أقول المزيد».

ردت، حيث لم يكن بمقدورها أن تمحو من خاطرها ذلك الجمال وتلك الرشاقة الباهرة:

ذلك الرجل من كاثاي الذي لوح بكميه قديماً فعل ذلك بعيداً[2]

لكن كل رقصة رقصتها بدت لعينيَّ رائعة

آه، نعم، للغاية».



كالافينكا

غمره الابتهاج بتلقيه رداً منها، ابتسم لرؤية أنها بمعرفتها حتى بالرقص، وبطريقتها في الإشارة إلى البلاد الواقعة عبر البحار، قد كتبت بالفعل كإمبراطورة. ففتح الرسالة، وراح يتأملها كأنها كتاب مقدس.

صحب البلاط بكامله جلالته في الجولة ذاتها، وكذلك ولي العهد. جابت مراكب الموسيقيين أرجاء البحيرة، كما هي الحال دائماً، وكانت هناك كل أنواع

---

(1) راقصون تتوارث عائلاتهم هذه المهنة، ويتخصصون في أداء البوجاكو.

(2) «أمواج البحر الزرقاء» جاءت من صين التانج. والقصيدة تومي إلى قصة تدور حول لحظة سحرية في أداء الراقص الصيني.

الرقصات من كوما وكاثاي[1]. وجعلت الموسيقى الصادرة عن الآلات الموسيقية والطبول السماء تموج بالأنغام. وقد اضطرب جلالته بما فيه الكفاية بفعل سحر قوام جينجي عند المغيب في ذلك اليوم السابق إلى حد أنه أمر بقراءة الكتب المقدسة من أجله في المعابد هنا وهناك، وتعاطف كل من سمعوا بالأمر معه تماماً، عدا أم ولي العهد التي اعتقدت أن هذه الإيماءة مبالغ فيها بصورة عبثية. وكان جلالته قد دفع إلى دائرة الموسيقيين[2] بكل شاغلي المناصب ذوي الموهبة المعترف بها من بين الوصفاء الخصوصيين أو متقلدي المراتب الأقل شأناً. وعُهد إلى مستشارين ـ أحدهما محافظ حراسة البوابة اليسرى، والآخر محافظ حراسة البوابة اليمنى - بالمسؤولية عن موسيقى الميمنة والميسرة[3]. وقد اختار كل سيد مهذب مدرساً من الطراز الأول، وراح يتدرب مجتهداً في الدار.

تحت أشجار الخريف السامقة، انبعثت من حلقة تضم أربعين رجلاً موسيقى لا توصف من الآلات، اختلطت مع زفيف الريح، فيما هي تكتسح، كالعاصفة، منحدر الجبل، بينما من خلال رفرفة الوريقات المتألقة المتساقطة، توهجت رقصة «أمواج البحر الأزرق» بجمال لا يضاهى. عندما سقط معظم الوريقات عن غطاء رأس جينجي، تاركة إياه وقد كسفت طلعته البهية محياه، التقط محافظ حراسة البوابة اليمنى زهور أقحوان ليضعها محل الزهور الموضوعة أمام جلالته، وفي الضياء المتراجع بدا أن السماء ذاتها تميل إلى البكاء، حيث أرسلت لمحة خفيفة من المطر بينما جينجي في مجده، مكتسياً بزهور أقحوان غدت تميل الآن إلى أجمل الظلال، وهو يعرض روائع مهارته. بعثت خطواته الختامية الرعشة في الجمع ممن لم يستطيعوا تصور أن ما رأوه ينتمي إلى هذا العالم. وبين الحشد المذهول المحتمي تحت الأشجار، المختفي وسط الصخور، أو القابع وسط الوريقات المتساقطة على جانب الجبل، فإن من لديهم عيون للنظر عكفوا على البكاء.

كانت أعظم فقرة بعد «أمواج البحر الزرقاء» هي «ريح الخريف» التي رقصها الأمير

(1) كوريا والصين القديمتان. كان هناك مركب مزين بصورة كبيرة للموسيقى «الكورية» وآخر للموسيقى «الصينية».

(2) كايشيرو. برز الراقصون بعد ارتداء أزيائهم داخل الدائرة.

(3) كانت الموسيقى الصينية هي «موسيقى الميسرة»، والموسيقى الكورية هي «موسيقى الميمنة». ونادراً ما كان مثل هؤلاء المسؤولين ذوي المناصب الرفيعة يتولون المسؤولية عن الموسيقى.

الرابع (الذي كان لا يزال فتى)، نجل الزوجة شوكيودين[1]. تراجع الاهتمام الآن بعد أن انتهت أفضل الرقصات، وسط شعور الجمهور بأن ما قد يعقب ذلك ربما يفسد المتعة السابقة.

في ذلك المساء، تقلد النقيب جينجي المرتبة الثالثة، الدرجة العليا، بينما رُقي النقيب أمين السر إلى المرتبة الرابعة، الدرجة الدنيا[2]. وإذا كان كل نبيل بارز لديه سبب يدعوه للابتهاج[3] كل بحسب الرتبة التي أسبغت عليه بالقدر المناسب له، فإن ذلك مرده أن ترقي جينجي قد ارتقى به إلى أعلى. فأي قدر من السعادة سمح له بأن يفتن كل العيون وأن يجلب مثل هذه البهجة إلى كل قلب!

كانت سموها قد انسحبت من البلاط، وكرّس جينجي نفسه، كما هي الحال على الدوام للبحث عن فرصة لرؤيتها، مخضعاً نفسه للمزيد من الشكوى من حميه. ولم يكن هذا كل ما هنالك، حيث أتت وصيفة على ذكر اختطافه لـ«النبتة الصغيرة» على أنه جلب لامرأة لتقيم معه في نيجو، ولم تسعد سيدتها بذلك على الإطلاق. وقد تفهم تماماً شعورها، حيث أنها لم تحط علماً بشيء من الظروف، ولكن لو أنها قد باحت بما يثقل كاهلها صراحة له فحسب، مثل أي امرأة عادية، لربما أوضح لها الأمور وهدأ مخاوفها، بينما أنها في حقيقة الأمر كانت شديدة الإصرار على إساءة تفسير كل ما يقوم به بحيث أنه ما كان أحد يستطيع أن يلومه للسعي إلى ملاذ في ألوان من الترفيه مثيرة للريبة. وهو لم يجد في شخصها ما ينقصها أو ما يفتقر إليه، فهي المرأة الأولى التي عرفها، وقد وثق في أنها حتى إذا كانت قد فشلت في الوقت الراهن في تقدير احترامه لها، فإنها ستغير رأيها بمرور الوقت. وقد أظهر قيمته الاستثنائية في هذا التمسك الذي لا يعرف الانحراف بهذا الاعتقاد.

كلما ازدادت سيدة جينجي الصغيرة تعوداً عليه، ازداد تحسن سلوكها وجمال مظهرها، وغدت تكون بأحضانه الآن وكأنما ذلك أكثر الأمور طبيعية في الدنيا. وكان لا يزال ينزلها الجناح البعيد نفسه من الدار لأنه لم يشأ بعد أن يعرف العاملون في الدار من عساها تكون،

---

(1) لم يرد ذكر الزوجة شوكيودين التي اتخذها والد جينجي في أي موضع آخر من الحكاية.

(2) تعد مرتبة تو نو تشوجو الجديدة مرتفعة بالنسبة لنقيب في حرس القصر، ومرتبة جينجي غير مألوفة إلى حد بعيد.

(3) حيال ترقيته.

وهنالـك جعـل غرفتها تُرتب بصورة جميلة، وصار يزورها ليـلاً ونهاراً، ويعطيها كل أنواع الدروس، كما كتب نماذج من الخط وجعلها تتدرب عليها، وساوره الشعور نحوها كما لو كانت ابنته بالتبنّي. وألحق بها مكتباً يُعنى بشـؤونها المنزلية وطاقماً من العاملين خاصاً بها بحيث تتم العناية بها بالصورة الملائمة.

لم يستطع أحد، باستثناء كوريمتسو، معرفة ما الذي يعتزم القيام به. وكان معالي الوزير والدها لا يزال لا يعلم من الأمر شيئاً. وعندما تتذكر الماضي، على نحو ما تفعل غالباً، فإن جدتها كانت هي من تفتقده، وقد أنسـتها صحبة جينجي أحزانها، ولكن على الرغم من أنه في بعض الأحيان كان يقضي الليل معها، إلا أنه كان بصورة غالبة مشـغولاً بالاسـتدعاءات هنـا وهنـاك، وكان يغـادر تحت جنـح الظلام، وعندئذ تثيـر رقته حين تقول لـه إلى أي حد ترغـب في ألا ينصرف. وكان يضايقه أشـد الضيق أن يراهـا حزينة، بعد أن يكون قد أمضى يوميـن أو ثلاثـة أيام في القصر أو فـي دار حميه، فكان يحس كما لو أنه مسـؤول عن طفلة بلا أم، فيتردد في الرحيل على الإطلاق. وقد أدخلت أنباء عن هذا كله السـرور على نفس نيافتـه، وذلـك على الرغم مـن الطابع غير المألوف لوضـع الفتاة. وعندمـا كان نيافته يقيم صلاة تذكارية من أجل جدتها، كان جينجي يقدم أفضل القرابين.

كان جينجي حريصاً على سماع أخبار فوجيتسوبو، وزار دارها في سانجو التي اعتكفت بها، وقد رحبت به هناك وصيفة من قبيل أوميوبو، تشـوناجون وناكاتاسوكا. وأثار حنقه أن يعامـل بهذا القدر من الوضوح على أنه ضيف، لكنه كظم مشـاعره، وراح يتجاذب أطراف الحديث في تكاسل معهن عندما قدم معالي وزير الحرب[1].

استقبل معاليه جينجي عندما علم بأنه هناك، وإذ كان متألقاً ومتراخياً على نحو رومانسي، فقد تكهن جينجي بينه وبين نفسـه فيما يتعلق بماهية صحبته لو أنه كان امرأة، فأصبح لديه سبب مزدوج ليشعر بالقرب منه، والانغماس في حوار ودي معه. وبدوره لاحظ معاليه إلى أي حد أصبح جينجي أكثر انفتاحاً ومرونة من المعتاد، وأعجب كثيراً بطلعته، ولما لم يكن يدرك أن جينجي هو زوج ابنته، فقد مضى بخياله المحلق في بهجة تصوره امرأة بدوره.

---

(1) الأخ الأكبر لفوجيتسوبو ووالد مورا ساكي.

استشعر جينجي الحسد، عندما مضى معاليه تحت جنح الظلام عبر الستائر الحاجبة إلى أخته. ومنذ وقت طويل كان أبوه قد سمح له بالحديث معها شخصياً وليس عبر وسائط، والآن لم يسعه إلا الشعور بالحرج لإبعادها له على هذا النحو عنها.

قال بلهجة رسمية متصلبة: «كنت مهملاً في عدم زيارتك بصورة أكثر تواتراً، ولكن من سوء الطالع أنني أميل إلى أن أكون مهملاً في غياب أي مهمة عاجلة. وإذا احتجتيني لأي سبب، فسوف يسعدني أن أضع نفسي في خدمتك». ثم غادر الدار، ولم تستطع أوميوبو التوصل إلى شيء أفضل من أجله، حيث بدا جلياً أن سموها كانت أقل ترحاباً على نحو دافئ مما كانت عليه في الماضي، وأثار استياءها الواضح شعور أوميوبو البالغ بالخجل والأسى إلى حد أن كل توسلات جينجي اللاحقة لها مضت بلا طائل. ما أسرع ما انتهى الأمر! مضى كل عاشق يبكي في صمت، في عذاب يمتد بلا انتهاء.

من ناحية أخرى، فإن شوناجون دُهشت لرؤية مثل هذين الزوجين السعيدين أمامها، ولهذا شعرت بأنها لا بد لها من شكر بركات بوذا، الذي وجهت إليه سيدتها الراحلة العديد من الأدعية في خضم قلقها على حفيدتها. ولا شك أن السيدة المقيمة في دار معاليه كانت عظيمة حقاً، والأخريات الكثيرات اللواتي يؤثرهن جينجي يمكن بسهولة أن يثرن المتاعب عندما تكبر الصغيرة، ولكن اهتمامه الخاص بالصبية التي ترعاها كان مطمئناً إلى حد كبير.


مطاردة الشياطين

في اليوم الأخير من الشهر[1]، جعل جينجي سيدته الصغيرة تنزع ثياب الحداد، قال: «هلمي، هلمي، بالنسبة لوالدة والدتك فإن ثلاثة أشهر كافية»، ولكنها كانت قد نشأت من دون أن تعرف لها راعياً غيرها، وبعد ذلك لم ترتد ملابس ذات ألوان فاتحة وبراقة، وإنما ارتدت ملابس تخلو من الأشكال ذات الألوان «القرمزية أو الأرجوانية أو

(1) أيضاً اليوم الأخير من العام. كان التزام الحداد على أحد الجدين لجهة الأم يدوم ثلاثة أشهر، ولجهة الأب يدوم خمسة أشهر. وكانت جدة مورا ساكي قد توفيت في حوالي الثاني عشر من الشهر التاسع.

الذهبية» وبدت شديدة الأناقة فيها أيضاً.

أقبل جينجي وهو في طريقه لأداء تحية الصباح[1]. قال بابتسامة مظفرة: «تبدين هذا الصباح بالغة النضج أكثر من أي وقت مضى»[2].

كانت منشغلة بالفعل في ترتيب دماها، ووضع مجموعتها من أدوات التجميل على زوج من الخزائن ذات الثلاثة أقدام وملء الحجرة بمجموعة من البيوت الصغيرة التي كان جينجي قد أعدها لها. أعلنت بجدية. «لقد كسرت إينوكي هذه فيما هي تطرد الشياطين بعيداً[3] وأنا أقوم بإصلاحها».

«كم هي مهملة! لسوف آمر بإصلاحها من أجلك على الفور، فلا يفترض بنا قول أي شيء حزين اليوم[4]، ولذا ينبغي ألا تبكي».

فيما هو يغادر الدار، اجتذبها حضوره الباهر وسط حاشيته الكبيرة إلى قرب الشرفة مع وصيفاتها لمشاهدته وهو ينطلق، وبعد ذلك ألبست دمية «جينجي» التي تلهو بها ملابسها وجعلتها تنطلق إلى القصر.

أرادت شوناجون تعنيفها على أنها لا تفكِّر إلا في ألعابها. «عليك أن تنضجي هذا العام بعض الشيء على الأقل، فالصبية التي يزيد عمرها عن عشر سنوات لا ينبغي أن تلهو بالدمى، ولديك زوج الآن، ولا بد لك من أن تكوني رقيقة ولطيفة معه، كزوجة صالحة. إنك حتى لا تحبين أن أرتب لك شعرك!».

هكذا فلديَّ زوج الآن، لديَّ زوج. والرجال الذين تناديهن كل هاته النسوة بأزواجهن ليسوا جديرين بالنظر إليهم، ولكن زوجي شاب وسيم! كانت الفكرة اكتشافاً بالنسبة لها. ومع ذلك فإن إضافة عام جديد إلى عدد أعوام عمرها بدا بالفعل وكأنه أحدث فارقاً. وكان طاقم العاملين في الدار يصاب بالذهول عندما يتبين أنها لا تزال طفلة، ولكنهم لم يتصوروا

(1) تشوهاي، عندما يقوم رجال البلاط المتجمعون بتحية الإمبراطور في صبيحة اليوم الأول من العام. وجينجي يتفقد مورا ساكي في اليوم الذي أعقب توقفها عن ارتداء زي الحداد.
(2) لأنها أكبر سناً بعام عما كانت عليه بالأمس.
(3) أثناء طقس طرد الشيطان «تسوينانو جي» الذي كان يُقام في الليلة الأخيرة من العام.
(4) «اليوم علينا ممارسة كوتويمي»، أي الامتناع عن استخدام ألفاظ تحمل نذراً سيئة، بما في ذلك صوت البكاء.

قط مدى البراءة التي يرقدان بها معاً.

كالمعتاد، وجد جينجي السيدة المقيمة في دار معالي وزير الميسرة كاملة بصورة مثبطة للهمة عندما انصرف إلى هناك من القصر، ودفعه افتقارها إلى الدفء إلى أن يشير بقوله: «كم سأكون سعيداً إذا قُدِّر لك هذا العام أخيراً أن توافقي على الانسجام معي قليلاً!». ولكنها الآن وقد عرفت أنه أحضر امرأة لتقيم معه، فقد اقتنعت بأن لديه خططاً رفيعة القدر لهذه القادمة الجديدة، ولا شك في أنها نظرت إليه على أنه حرج أكثر إثارة للأسف من ذي قبل.

تظاهرت بعناء بأنها تجهل الأمر، واستجابت لبهجته، في نهاية المطاف، بطريقتها الملازمة لها. وبما أنها كانت أكبر منه بأربع سنوات، فقد كانت تحظى بوقار أكثر إيحاء بالاعتزاز بالنفس بل وبجمال ناضج يجعل حسنه يتوارى إلى جانبه. كيف يمكن أن ينقصها شيء؟ راح جينجي يفكر: من الجلي أن سلوكي المستهتر هو الذي نفّرها مني، وقد دفعها اعتزازها البالغ بكونها ليست ابنة وزير فحسب وإنما ابنة أرفع الوزراء شأناً وابنة من لا تقل شأناً عن كونها أميرة، إلى إدانة كل سقطة له، بينما واصل من جانبه التساؤل عن السر في انكماشها على نفسها على هذا النحو وعن السبيل إلى محاولة اجتذابها إليه. على هذا النحو كانت المسافات التي تباعد بينهما.

في غضون ذلك، استهجن معالي وزير الميسرة إساءة التصرف من جانب جينجي، ولكنه مع ذلك كان ينسى استياءه في كل مرة يرى فيها زوج ابنته، ويبذل كل ما في وسعه كي يرضيه. وفي صبيحة اليوم التالي بينما كان جينجي يتأهب للمغادرة، وعندما ألفاه قد ارتدى ملابسه، أحضر له بنفسه حزاماً حجرياً شهيراً[1]. ودار حوله ليسوي رداءه،



أحد السادة يرتدي حزاماً حجرياً

(1) سيكيتاي، يُرتدي مع عباءة رسمية كاملة (هو)، وهو حزام جلدي أسود مع صف مزدوج مربع أو دائري من الحجر أو اليشب أو القرن، مثبت فيه بحيث يظهر عند ظهر من يتمنطق بالحزام (كانت طية من الهو تغطي المقدمة). وقد

ولم يبق إلا أن يساعده على انتعال حذاءه. كان ذلك أمراً مؤثراً للغاية.

قال جينجي: «إنني أتطلع لارتداء هذا في المأدبة الخصوصية[1] وما يماثل ذلك من المناسبات».

«آه، لديَّ ما هو أفضل منه، كل ما هنالك أنني حسبت أن هذا غير مألوف قليلاً». وأصر على أن يتمنطق به جينجي. وفي حقيقة الأمر، فإن العناية بجينجي بكل الطرق كانت متعته في الحياة، ولم يطلب بالمقابل إلا أن يرحب بمثل هذا الرجل ويودعه، مهما كان ذلك نادراً.

انطلق جينجي في جولة زياراته الخاصة بالعام الجديد، وذلك على الرغم من أنها لم تكن جولة طويلة حقاً، حيث شملت جلالته، ولي العهد، نيافته، ثم بالطبع فوجيتسوبو في دارها بسانجو.

أشارت وصيفات فوجيتسوبو أمام سيدتهن: «اليوم هو أعجوبة تسحر العين، وكلما زاد نضجه أصبح أكثر جمالاً على نحو مخيف». أدت لمحة عاجلة اختلستها منه عبر الستائر إلى تأجيج مشاعرها.

كان أمراً مقلقاً أن يمر الشهر الثاني عشر من دون أية إشارة للحدث المرتقب[2]. وقد تطلعت كل وصيفات سموها إليه في هذا الشهر، على الأقل، وواصل جلالته استعداداته على أساس الافتراض نفسه، غير أن الشهر انقضى من دون أن يحدث شيء. وسرت شائعة مفادها أن اللوم يقع على كاهل روح ما، وفي غضون ذلك استبدَّ اليأس بسموها،



اختلاس النظر عبر الستارة القائمة

اختلف اللون والقماش بحسب اختلاف مرتبة من يتمنطق بالحزام. وقد اقتضت مرتبة جينجي الجديدة اليشب الأبيض.

(1) ناين، مأدبة يقيمها الإمبراطور في يوم الفأر، الذي يوافق اليوم الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين أو الثالث والعشرين من الشهر الأول. وكان الضيوف ينظمون الشعر خلالها باللغة الصينية.

(2) ولادة طفل فوجيتسوبو.

لأنها عرفت أن ذلك قد يقضي عليها للأبد[1]. وأحسـت كذلك بأنها في حال سـيئة للغاية. وأمر جينجي الذي سـاوره شـك أقل فأقل حول جلية الأمر بإقامة الطقوس في العديد من المعابـد[2] مـن دون إيضاح السـر في ذلك. ولما كانـت الحياة تفتقر إلـى اليقين في أفضل الأحوال، فقد عذَّبه احتمال أن حبهما قد ينتهي بمأساة، إلى أن وضعت بعد قليل من اليوم العاشـر في الشـهر الثانـي صبياً، وبالنسـبة لجلالتـه وكذلـك لوصيفاتها فقد أفسـح القلق المجال للسـعادة. أما هي شـخصياً فقد تخوفت من الحياة التي تنتظرها، ولكن الأنباء التي أفادت أن الزوجة كوكيدين كانت تهمهم باللعنات عليها ذكرتها بأن أخبار موتها قد لا تثير إلا الضحـك، ومنحها هذا القوة تدريجياً على اسـتعادة صحتها. أما جلالته فلم يطق صبراً على رؤية الوليد.

زار جينجـي، الـذي كان لديه سـببه الخاص الـذي يدعوه للتخـوف، الأم الجديدة، في لحظـة لـم يكن لديهـا زائر آخر يشـغلها. قال: «جلالتـه حريص على أن يـراه، وقد حدَّثت نفسي بالقيام بذلك وأن أنقل له ما رأيته» ولكنها على نحو مفهوم ذهبت إلى القول إن ذلك سـيكون أمراً مربكاً في الوقت الراهن، ولن تسـمح به. وقد كان الوليد بالفعل يشبه جينجي نفسـه بصورة مدهشـة ومخيفة. وكان من المسـتحيل أن يغيب الشـبه عن العيون. وراحت سـموها، بضمير مثقل، تتسـاءل كيـف يمكن لأحد أن يخفق بعد نظرة واحـدة إليه في تبين واستهجان إثم وجدته هي نفسها بغيضاً. بم سيصفونها عندما تتضح الحقيقة لعالم متلهف لرصد أقل هفوة؟ أفضى بها التفكير في هذه الأمور إلى اليأس.

عندمـا أفلح جينجـي في الحديث مع أوميوبو، ملأ أذنيها بالتوسـلات الحارة[3]، ولكن مـن دون أي احتمـال لإحراز النجاح، وتوسـل بيأس بالغ لرؤية الوليـد إلى حد أن أوميوبو احتجـت: «لمـاذا ينبغي أن تصـر خلافاً لكل منطق، يا مولاي؟ من الطبيعي أنك سـتراه في وقت لاحق». لكن طريقتها في الحديث أفصحت عن أساها.

لم يكن بوسـع جينجي الحديث بوضوح حول مثل هذا الأمر الخطير: «ألن يسـمح لي

(1) أو ربما «أنها قد تموت في الولادة».

(2) لضمان ولادة آمنة.

(3) توسلات موجهة عبرها إلى فوجيتسوبو.

أبداً بالحديث معها بنفسي؟». انبعث يبكي على نحو يثير الإشفاق.

«ما الذي يمكن أن تكون الصلة التي ربطتنا منذ أمد بعيد

حتى نبقى متباعدين في هذه الحياة؟

كل ما هنالك أني لست أدري».

لما كانت أوميوبو تعرف سيدتها حق المعرفة، فلم يكن بوسعها صرفه من دون رد:

«خواطر تكسر الفؤاد لها عندما تكون بجواره، ولك ألا تعرف الحزن،

آه، هذا، إذاً، المقصود بظلام الفؤاد»[1]

همست: «أي عار أن أياً منكما لا يعرف السعادة!».

هكذا حيل بين جينجي وبين الاتصال بها، فابتعد من جديد، ولكن سموها، التي خشيت من مخاطر النميمة، وحذرت منها، تراجعت عن ألفتها مع أوميوبو التي كانت مفعمة بالود يوماً، وواصلت معاملتها بصورة رصينة، بحيث لا تثير الأقاويل، ولكن لا بد أنها أفصحت أحياناً عن استيائها، الأمر الذي فاجأ أوميوبو وأحزنها.

في الشهر الرابع، ذهب الأمير الصغير إلى القصر. وكان قد كبر أسرع من معظم الأطفال، واستطاع بحلول ذلك الوقت أن يجلس من تلقاء نفسه ومن دون مساعدة. غاب عن جلالته تماماً الشبه الفذ والذي لا تخطئه العين حقاً بينه وبين أبيه، وافترض أنه أمر بديهي أن يشبه الوسيمون بعضهم بعضاً، وتعلق بالطفل أشد التعلق، وكان قد ساوره الشعور نفسه نحو جينجي، ولكن في النهاية عندما غدا جلياً أن من يحيطون به لن يتحملوا مثل هذه الخطوة، أحجم عن جعل جينجي ولياً للعهد، وقد كان ذلك بمثابة خيبة أمل لازمته طويلاً، لأنه آلمه أن يرى كل حسن جينجي في سن النضج وتميزه يهدران على رجل من العامة. ومن ناحية أخرى، فإن ابنه الجديد كانت له أم من أرفع المراتب، وقد تألق بضياء باهر يعادل ما يتمتع به جينجي، ولذا فقد أحبه حب جوهرة خالية العيوب، الأمر الذي شكّل بالنسبة لسموها سبباً آخر للحزن والعذاب المتواصلين.

---

(1) «بجواره» تعني إلى جوار الطفل حديث الولادة. تلمح أوميو بو إلى جو سينشو 1102 من نظم فوجيوارا نو كانيسوكي، حول الظلام في فؤاد أب يغمره القلق على ابنه.

عندما زار جينجي مسكن سموها كالمعتاد، للمشاركة في عزف الموسيقى، أطل جلالته وهو يضم الصبي بين ذراعيه. قال: «لي الكثير من الأبناء، ولكنك الابن الوحيد الذي رأيته نهاراً وليلاً منذ كنت صغير هكذا. وأحسب أن الطريقة التي تذكرني بتلك الأيام هي التي تجعله يبدو لي شديد الشبه بك. ربما كان الأطفال حديثو الولادة كلهم على هذا النحو». كان ببساطة شغوفاً بوليده.

أحس جينجي بنفسه وقد غمره الشحوب، وتناوبه الفزع والضياع والبهجة والإشفاق حتى أوشك على الانخراط في البكاء. وكان الوليد المستجيب للمناغاة والمبتسم مثيراً للإعجاب على نحو رهيب إلى حد أن جينجي ساوره، على الرغم من نفسه، الخاطر البعيد عن التواضع القائل إنه إذا كان «هذا» هو ما بدا عليه، فلا بد أنه كنز حقاً. ومضت سموها تتقلب في غمار المعاناة، وانقلب سرور جينجي بالوليد إلى عذاب هائل بحيث أنه بادر بالانصراف.

في الدار من جديد رقد في فراشه، وبعد السماح لأسوأ ضروب معاناته بالانقضاء، قرَّر الذهاب إلى دار حميه. برزت أزهار المنثور هناك متألقة على امتداد الحديقة الخضراء. أمر بقطف زهرة منها، وبعث بها إلى أوميوبو مع ما لا بد أنها كانت رسالة خافية قال فيها:

«في هذه أراه، ومع ذلك فإنني حتى في فؤادي لا أستشعر عزاء،

على القرنفلة الصغيرة الجميلة هناك لا يستقر إلا الندى الأثقل[1]

تمنيت كثيراً أن تتفتح الزهرة، ولكن كل شيء في هذه الدنيا بلا أمل»[2]. ولا بد أن هذه الرسالة قد جاءت في الوقت المناسب، لأنه عندما أرتها أوميوبو لسيدتها، وأهابت بها أن ترد عليه بـ«كلمة أو كلمتين فحسب، يا سيدتي، هاهنا على البتلات[3]، وقد تأثرت سموها

(1) شينكوكينشو 1494، من نظم كيشي جوو: «أرى الشبه غير أني لا أحس بمقدار ذرة من العزاء - ماذا عساي أفعل بهذه القرنفلة الصغيرة؟».

(2) «المنثورة» (توكو ناتسوم) و«القرنفلة» (ناديشكو) هما زهرة واحدة، ولكن الكلمتين لهما ارتباطات مختلفة. «تمنيت كثيراً أن تتفتح الزهرة» من جوسينشو 199، الذي يقتطفه جينجي أيضاً في شعره. والقصيدة تدور حول غرس ناديشكو تنهض على نحو يبعث العزاء في نفس شخص محبوب كثيراً، هو في هذه الحالة الوليد.

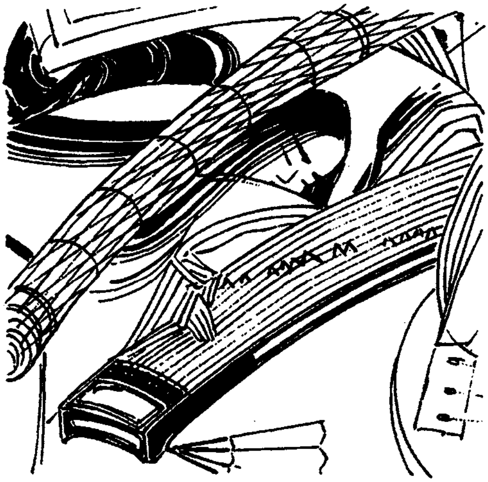
(3) كوكينشو 167، قصيدة رومانسية حول ناديشكو من نظم أوشيكوتشي نو ميتسوني: «لن أدع ذرة غبار» (تُرجمت هنا على أنها «كلمة أو كلمتين) تستقر على هذه القرنفلات حيث رقدت أنا ومحبوبي».

نفسها بعمق بالغ، فكتبت ببساطة بحبر خفيف، كأنما خطها قد تبدد في منتصف السطر:

«آه، أعرف حق المعرفة أنه لا يستدعي إلا المزيد من الندى الذي يبلل كميَّ

مع ذلك لا يطاوعني قلبي على ازدراء هذه القرنفلة الصغيرة الجميلة».

نقلت أوميوبو سعيدة هذه الرسالة إلى جينجي، الذي كان راقداً يحدِّق منفطر القلب في الفضاء، مقتنعاً بأن رسالته ستمضي بلا رد كالعهد دائماً. تتابعت دقات قلبه متسارعة، وجعلت انطلاقة البهجة الدموع تشرع في الانهمار من عينيه.



سو نو كوتو

عندما لم يمنحه الرقاد هنالك في كآبة الشعور بالارتياح، مضى ينشد السلوى، كما يحدث غالباً، في الجناح الغربي. انسل إلى الداخل، وقد ألقى رداء على نحو عفوي على كتفيه وتدلت خصلات شعره مدهشة، وهو يعزف على نايه معزوفة رقيقة. هنالك كانت سيدته الصغيرة متكئة على مسند للذراع، رقيقة وجميلة، كأقصى ما يمكن أن يكون، أحس أنها يرطبها الندى نفسه كتلك الزهرة الأخرى[1]. وسواء أكانت تقاوم أم لا، فقد خطر لها أن تجعله يتألم لأنه لم يجيء إليها مباشرة لرؤيتها، عندما عاد إلى الدار، هكذا فإنها كان متجهمة.

جلس قرب الشرفة، وقال: «تعالي هنا!».

دمدمت: «عندما يكون المد مرتفعاً»، ووضعت كمها على نحو ساحر على فمها[2].

«عجيب. متى بدأت اقتطاف القصائد على هذا النحو؟ ليس أمراً جيداً أن يرى الناس

---

(1) «المنثورة» أو «القرنفلة الصغيرة» في تبادله للقصائد مع فوجيتسوبو.

(2) شويشو 967 (كذلك مانيوشو 1398) من نظم ساكانوي نو إراتسومس. «أهو عشب بحري على الشاطىء يغطى عندما يكون المد مرتفعاً؟ أراه قليلاً وأفتقده كثيراً!». حركة مورا ساكي تنم عن الشعور بالحرج.

أحدهم الآخر كل الوقت»[1].

دعا بآلة كوتو لتعزف عليها. أشار بقوله: «إن السونو كوتو آلة مربكة لأن الوتر الأكثر علواً في الطبقة ينقطع بسهولة بالغة، محولاً الآلة إلى طبقة الهايوجو الصوتية». لم تستطع الحفاظ على تجهمها بعد أن دوزن الآلة واختبرها بأنغام قلائل ودفع بها إليها، وعزفت بصورة جميلة حقاً. كانت لا تزال صغيرة تماماً، وقد أضافت الطريقة التي اضطرت بها للانحناء إلى الأمام للعزف لمسة[2] آسرة للغاية.

فتن جينجي، فعلمها المزيد من الموسيقى بالعزف على نايه، وكانت سريعة التعلم، تحفظ أصعب المعزوفات بعد سماعها مرة واحدة، وقد اغتبط بأن توهج ذكائها قد حقَّق كل آماله، وعندما سلى نفسه بالقيام بأداء جميل للغاية لمقطوعة «هوسوروجيسيري» على الرغم من غرابة اسم المقطوعة، صاحبته في العزف بطريقة توحي بأن صاحبها في مقتبل العمر، لكنها جميلة للغاية وموافقة للإيقاع.

أُضيئت المصابيح، وشرع الاثنان في التطلع إلى اللوحات عندما بدأ رجال جينجي، الذين قيل لهم إنه سيخرج، بالتنحنح لتذكيره بذلك، ولاحظ أحدهم أن المطر سينهمر، وعندئذ وكالمعتاد دائماً أصبحت حزينة ومكتئبة. وتوقفت عن النظر إلى اللوحات، ورقدت ووجهها إلى الفراش، الأمر الذي فتن جينجي إلى حد أنه مسَّد شعرها الجميل المنساب كالشلال، وقال: «هل تفتقدينني عندما أغيب؟».

أومأت موافقة.

«إنني أفتقدك أيضاً، وأكره أن أمضي يوماً كاملاً من دون رؤيتك. ومع ذلك فطالما أنك لا تزالين طفلة فلا بد لي أن أثق بصبرك وأحاول ألا أضايق أناساً آخرين يمكن أن يجرحوا بسهولة. وكما ترين فإن الأمر برمته مربك، وذلك هو السر في أنني أواصل القيام بهذه الزيارات حالياً. وعندما تكبرين فإنني لن أذهب إلى أي مكان. والسبب في أنني لا أريد أن

(1) بفضل المعاني المزدوجة المستمدة من كوكينشو 683، فإن كلمات جينجي تمد نطاق صورة شاطىء البحر الواردة في القصيدة التي اقتطفتها مورا ساكي: «تمنيت لو نلت ما فيه الكفاية من عشب البحر» (ميرومي تعني أيضاً «لقاء مع عاشق» الذي يغوص عليه أهل البحر)، فيما يقولون، صباحاً ومساء في آيسي».

(2) تشد اليد اليسرى الوتر، وترخيه اليد اليمنى، لتخفيف حدة الصوت.

يغضبوا مني هو أنني آمل في أن أعيش حياة طويلة وسعيدة معك!».

لم تؤد تأكيداته المليئة باللهفة إلا إلى إحراجها، وبدلاً من الرد اكتفت بوضع رأسها في حجره وأغفت، فذاب فؤاده، وأعلن لرجاله أنه لن يخرج في نهاية المطاف. ونهضت الوصيفات وأحضرن له وجبة المساء في المكان.

«لن أخرج بعد ذلك». قالها بعد أن أنهضها، وعندئذ شعرت بالتحسن، ونهضا، وأكلا معاً.

«نم هنا إذن!» قالتها وهي لم تمس إلا بالكاد طعامها، حيث أنها كانت لا تزال تتشكك في أنه ربما يخرج. ولم يدر كيف يمكنه أن يغادر مثل هذه الرفيقة حتى في الرحلة الأخيرة والأكثر جلالاً من بين كل الرحلات.

انتهى به الأمر إلى احتجازه على هذا النحو مرة بعد أخرى، إلى أن بلغ الأمر مسامع حميه. وراحت الوصيفات تسأل إحداهن الأخرى: «من تكون؟».

«كيف يمكن أن يعامل سيدتي على هذا النحو؟».

«حتى الآن لم يشر أحد إلى من عساها تكون».

«ما من امرأة طيبة أو ذات تربية قويمة على الإطلاق تحتكر لنفسها بهجة صحبته بهذه الطريقة».

«لا بد أنها امرأة تصادف أن قابلها في القصر، هو حريص للغاية الآن عليها إلى حد أنه يبقيها بعيدة عن العيون خوفاً من الانتقاد».

«يقولون إنها صبيانية وبعيدة عن النضج».

وقد سمع جلالته بدوره بوجود مثل هذه المرأة، فقال لجينجي: «آلمني كثيراً أن أعلم أن معالي وزير الميسرة مستاء للغاية، وأنا متعاطف معه تماماً لأنه الرجل الذي قام بكل شيء ليحول الطفل الذي كنته إلى الرجل الذي أنت عليه الآن، ولست أعتقد أنك أصغر سناً من أن تقدر لطفه. لماذا إذن تعامله بمثل هذا التجاهل؟».

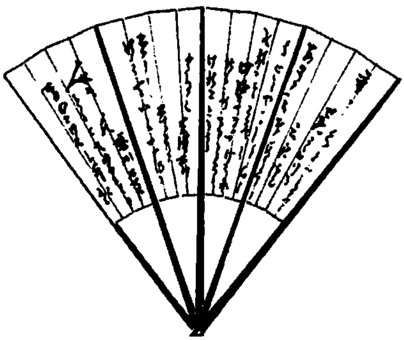
تبنى جينجي موقف الدفاع المفعم بالندم، ولم يرد.

مضى جلالته يتأمل مواسياً: «أحسب أنها لا تعجبه»[1].

وعلى نحو ما أشـار لاحقاً: «على الرغم من ذلك، فإنه لم يظهر أي مؤشـر لإلقاء الحذر في وجه الريح وفقدان صوابه حيال إحدى وصيفات أو حيال أية امرأة أو أخرى حقاً. ترى أية أمكنة مظلمة كان يرتادها فجلب على نفسه كل هذا الضيق؟».

علـى الرغـم من مرور السـنوات، فإن جلالته نفسـه لم يفلح حتى الآن فـي التخلي عن اهتمامه بهذا الشيء عينه، وكان لديه ميل خاص إلى الوصيفات الجميلات والحاذقات[2]، ومـن هنا جاء حضور الكثيرات منهن في طاقم القائمين على خدمته. ونادراً ما كان اقتراب جينجي على نحو عفـوي تماماً من أي منهـن يُقابل بالصد، ولكنه ربما وجدهن يسـيرات المنـال للغايـة، لأنه بدا غيـر مهتم بهن على نحو غريـب، وحتى عندما تلقـي إحداهن بين الفينة والأخرى شـباك غوايتها عليه فإنه كان يرد بكياسـة ولطف، ولكنه لـم يسـيء التصرف حقاً قط، الأمر الذي نجم عنه أن بعضهن قد اعتقدن أنه مضجر تماماً.

كانت هناك سـيدة من سـيدات البلاط توغلت في مسـيرة العمر، من منبـت رفيع، ذكية متميـزة ويحترمهـا الجميع، ومع ذلك فقد كانت مغناجة إلى حد كبير، وثار فضول جينجي لمعرفـة السـر في أنه عندمـا تكون امرأة خفيفـة في أسـاليبها فإنها تكون متحللـة تماماً في سـنوات كهولتهـا. ولدى قيامـه بجس نبضهـا صُدم لاكتشـافه أنهـا لـم تعتقد أن تقربه منهـا غير لائق على الإطلاق، ولكن المغامرة بدت طريفة بالنسـبة له بما يكفـي لمواصلتها، وذلك على الرغم من أنه لأسـاها الشـديد احتفظ بمسـافة بينه وبينها خوفـاً من إطلاق القيل والقال حول صلته بسيدة في سن الكهولة.



مروحة

ذات مرة، عندما انتهت من تمشـيط شعر جلالته، دعا بالقائمة على خزانة الملابس، وخرج معها، تاركاً إياها مع جينجي وحدهما في الغرفة،

---

(1) المراد هنا أوي.

(2) أونيبي ونايو كورودو، نوعان من الخادمات الصغيرات في طاقم القائمات على خدمة الإمبراطور، وكانت أونيبي (أو أونيمي) تساعد فيما يتعلق بملابسه.

كانـت متجملـة أكثر من المعتاد، وذات مظهر لطيف، وشـعر جميل، وبدا ثوبها متألقاً على نحـو باهـر، وأفصح هذا كله على نحو يثير ضيق جينجي عـن رفضها إظهار حقيقة عمرها، ولكنـه لم يسـتطع مقاومـة جذب طرف ثوبها، ليرى ماذا سـيكون عليـه رد فعلها، من وراء مروحـة كثيفـة الزخرفـة أطلقت نظـرة فاترة مـن عينين مكحلتيـن غائرتين فـي محجريها، قابعتين وسط عشين من التجاعيد.

حدَّث نفسه بأنه ما من امرأة في مثل عمرها ينبغي أن تحمل مثل هذه المروحة. قدَّم لها مروحته في إطار مبادلة[1] والتقط المروحة وفحصها.. على ورق من الحمرة بحيث يجعل وجهـه يتوهج رأى صورة لأشـجار سـاقطة مرسـومة بالذهـب. على أحـد الجانبين كتبت بصورة عفوية وبأسـلوب عفا عليه الزمـن ولكنه لا يزال من الممكن تمييزه هذه الكلمات: «عتيق هو العشب تحت الأشجار»[2].

هـذا كلـه جيد للغاية، ولكن يا لها من فكرة مقيتة! أشـار بابتسـامة: «ما نجـده لدينا هنا، حسـب رؤيتي، هو «الغابة في الصيف»[3]. أحس بقدر كاف من الاسـتغراب لمجرد حديثه معها، بحيث يخشى أن يراه أحد، لكن شيئاً من مثل المخاوف لم يرد لها على بال.

قالت بخبث مجرد من الحياء:

«عندما تأتي سأجتث لجوادك الأصيل وليمة من العشب الطازج،

حتى وإن كانت من الوريقات الدنيا بعد أن مرَّ الموسم الأفضل».

رد عليها:

«لو شققت طريقي عبر الأجمة لربما شوهدت، حيث يبدو لي

أن العديد من الجياد تحب الأرض هناك، تحت أشجار الغابة.

الأمر حافل بالمخاطر» نهض من موضعه لينطلق.

---

(1) لكي يمكنها حجب محياها عنه، على نحو ما تقتضي الأخلاق.

(2) كوكينشو 892: «عتيق هو العشب تحت الأشجار في أواراكي، ما من جواد يرعى هناك، ما من أحد يأتي ليجزه». يتعرف جينجي هذه القصيدة باعتبارها إعلاناً بأنها تواقة إلى رجل.

(3) سانيكيرا شو 28، من نظم فوجيوارا نوسا نيكيرا: «أسمع هتاف الواقواق، لا بد أن غابة أواراكي هي مأواه الصيفي».

أمسكت بكمه، وصاحت عبر دموع درامية: لم يحدث في حياتي قط أن جعلني أحد أشعر بمثل هذه التعاسة! آه، يا للعار، بعد كل تلك السنين!».

«سأكون على اتصال بك في وقت لاحق. هناك أمور أخرى، كما ترين..». أفلت منها، وواصل المسير، ولكنها تشبثت به، ومضت تندب غاضبة غدر الزمان[1].

في غضون ذلك كان جلالته قد انتهى من تبديل ملابسه، ومضى الآن يرقب المشهد من خلال المدخل. حدَّث نفسه ضاحكاً: يا له من ثنائي غريب! وأشار ضاحكاً بينه وبين نفسه: «إنني أسمع شكاوى مستمرة حول افتقارك للاهتمام بالنساء، ولكنك لم تدع هذه تهرب منك!». لم تبذل جهداً حقيقياً للدفاع عن نفسها، على الرغم من حرجها، ربما لأنها كانت ممن يسعدن لاشتهار أمر علاقة عاطفية لهن، طالما أن العاشق يستحق ذلك.

حسناً، قال النقيب أمين السر لنفسه عندما سمع كيف أن الجميع تلهف شوقاً لمعرفة المَزيد فيما يتعلق بهذه الحادثة: إنني أفاخر بأنني لا أترك ركناً من دون أن أكتشفه، ولكنني بالتأكيد لم أفكِّر فيها. ثم أقام علاقة عاطفية معها، في غمار رغبته في أن يتذوق بنفسه شهوانيتها التي لم تنضب. حدَّثت نفسها: إنه طريدة واعدة قد تعوض عن قسوة جينجي، ولكن فيما يبدو لم تكن تريد إلا جينجي، وهو خيار مترف! وقد أبقى النقيب أمين السر ما يقوم به طي الكتمان بحيث أن جينجي لم يكتشف أمره قط.

ما إن تصادف سيدة البلاط جينجي حتى تبدأ مباشرة في الحديث عن مظلمتها، وكان عمرها يثير شفقته للغاية إلى حد أنه رغب في تهدئتها، ولكن الفكرة كانت على الصعيد العملي داعية للكآبة الشديدة، وعلى امتداد وقت طويل لم يفعل شيئاً، ثم ذات مرة عندما كان يجوب أرجاء «أونميدن» تحت غطاء الغسق بعد انهمار للمطر لطف الجو، وإذا بها هنالك تعزف على آلة «البيوا» الموسيقية عزفاً جميلاً، ولم يكن هناك من يعزف عليها خيراً منها، حيث كانت تنضم إلى فرقة العازفين من الرجال أمام جلالته، وجعلت مشاعرها الجريحة موسيقاها مؤثرة بصورة خاصة. مضت تغني بصوت بالغ الرقي: «هل أترك

(1) «هناك أمور أخرى، كما ترين» (أوموإنياجارا زويا) يتضمن مقاطع من اسم ناجارا (جسر)، غالباً ما يرد ذكره في قصائد تتضمن الأسى للإيغال في العمر. وردها، هاشيباشيرا («عمود الجسر»)، الذي ترجم هنا لمراعاة معنى السياق بـ«ندب غدر الزمان» مأخوذ من قصيدة ربما من قبيل شويشو 864.

مصيري لزارع الشمام؟». ولم يكن جينجي مغتبطاً تماماً[1]. راح يتساءل، وهو يصغي للغناء، عما إذا كانت مشاعره قد تشبه مشاعر ذلك الآخر قبل وقت طويل في جاكوشو[2]. ثم توقفت، وقد أحكم الانفعال قبضته عليها، فيما يبدو.

دنا منها، وهو يغني برقة «الكوخ الشرقي»، وخلال غنائها ذكرت هذا البيت «افتح الباب وتعال!»[3]. حدَّث نفسه بأنها امرأة استثنائية. وبعد ذلك جاءت تنهيدة.

«ما من أحد هناك، يقيناً، يقف مبتلاً، آه، ما أقسى

ما يعاني كوخي الشرقي المتواضع في المطر المنهمر!»

اعترض على تحمل اللوم كله عن متاعبها، وراح يتساءل عما جنته يداه ليستحق هذا.

«زوجة رجل آخر تجلب من المتاعب أكثر مما تستحق، فماذا عن هذه وتلك

في كوخها الشرقي أتخلى عن احتيازها».

اعتزم أن يتجاوزها ويمضي في سبيله، لكنه أحس بأن في ذلك قسوة بالغة، بحيث أنه غيرَّ رأيه، وأخذ يمازحها بالانغماس في ثرثرة حصل منها على بعض البهجة.

أخذاً في الاعتبار أن جينجي بدا أنه يتردد سراً على أنواع النساء كافة، على الرغم من مظهره البريء، فإن النقيب أمين السر ضاق ذرعاً بتظاهره بالجدية الممتزجة بالوقار وبعظاته الدائمة، ومضى يتآمر بلا هوادة لضبطه متلبساً. والآن أحس بالابتهاج لأنه وجد هذه الفرصة، وراح يتحين فرصة على أمل إفزاع جينجي وإزعاجه بما يكفي لتلقينه درساً.

كانت ريح باردة تهب، في وقت متأخر من إحدى الليالي، عندما استنتج النقيب أمين

---

(1) تتساءل فتاة في أغنيتها السايبارا بعد أن تودد إليها زارع شمام عما إذا كانت تقول نعم. ويحملها جينجي على محمل أنها تعني «هل أتخلى عن ذلك الرجل» (جينجي) «الذي يرفضني وأستغني عنه بشخص آخر؟».

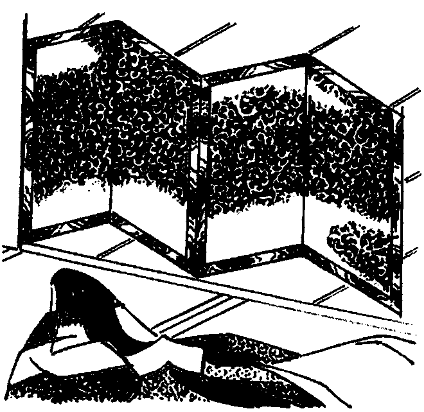
(2) في قصيدة «عن سماع فتاة تغني ليلاً» من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 498)، والتي تصف الانطلاق في رحلة في أيزهو (جاكوشو) وسماع امرأة على مركب قريب تغني أغنية تجرح الفؤاد، تبين أنها بكاء من فرط الورع والتقى.

(3) في أغنية سايبارا تحمل اسم «أزومايا» «الكوخ الشرقي» يصل رجل إلى باب امرأة وسط المطر المنهمر. ويطالب بالسماح له بالدخول. وترد المرأة بالداخل. بأن الباب غير موصد، وتدعوه إلى الدخول. وفي «أزومايا» شكل من الكوخ المكسو بالأعشاب مرتبط بشرقي اليابان. وقد ألهمت هذه الأغنية القصيدة التي منحت فصل «أزومايا» عنوانه.

السر أن الاثنين لا بد قد غرقا في النوم، وانسل إلى الغرفة، فسمعه جينجي حيث أنه لم يكن قد اعتزم أن يغط في نومه، ولكنه لم يتعرفه، وافترض أن المتسلل هو مدير معين للصيانة والذي لم يستطع فيما يبدو نسيانها قط.

أعلن وقد أزعجه أن يتم العثور عليه من قبل رجل راشد في موقف يتهدد بالخطر على نحو غير لائق: «حسناً، لا يعجبني هذا على الإطلاق، إنني راحل. ولا شك في أنك كنت تعرفين تمام المعرفة أن هذا السيد آت[1]، ولم أحتمل وضعي في موضع الأحمق». وبهذه الكلمات لمّ عباءته، وتراجع إلى وراء ستار.

أخفى النقيب أمين السر سروره، واندفع بخطى سريعة إلى الستار، الذي فتحه جينجي لتوه، وبضجة كبرى طواه إلى أعلى مجدداً، محدثاً جبلة موحية بالخطر بصفة خاصة. وفي غضون ذلك فإن السيدة التي لعبت دور الحسناء المعتزة بنفسها على الرغم من سنها، والتي كانت تعرف شيئاً عن أزمات كهذه الأزمة بعد أن اجتازت العديد منها في السابق، لم تكن أشد فزعاً من أن تكبح جماح المتطفل على نحو حازم، وانما مضت ترتجف خوفاً مما قد يفعله بجينجي. وكان بوسع جينجي أن يلوذ بالهرب مسروراً من دون أن يعرف أحد هويته، ولكن تصوره نفسه من الخلف وهو يبادر بالهرب وملابسه ترفرف حوله وقد مال غطاء رأسه، جعله يتوقف، حيث أدرك كم سيبدو سخيفاً.


حاجز

لكي يمنع جينجي من معرفة هويته، قام النقيب أمين السر باستعراض سخيف بعد ذلك، قوامه الحنق الممتزج بالجنون واستل سيفه من غمده، وعندئذ هتفت السيدة: «آه، لا، يا عزيزي، لا!»، ومضت تلوي يديها المتشابكتين ضارعة أمامه. وكان قصارى ما يستطيع القيام به هو ألا ينفجر ضاحكاً. وكان تظاهرها الخادع بالشباب الرائع جيداً للغاية في مجمله. كان مشهد امرأة

---

(1) حرفياً «إنني على يقين من أن سلوك العنكبوت كان واضحاً تماماً». وفي القصيدة الواردة في كوكينشو 1110 من نظم الأمير سوتوري التي ذهبت مثلاً فإن «سلوك العنكبوت» ينبىء بوضوح عن زيارة عاشق.

متفجعة في السابعة والخمسين أو الثامنة والخمسين من عمرها وقد وقعت في قبضة الفزع بين شابين رائعين في العشرين من عمريهما كان عبثياً بصورة مطلقة.

الآن فضح التنكر التفاخري الذي استعان به النقيب أمين السر هويته لجينجي، الذي ساوره الشعور بأنه أحمق تماماً وأن هذا الأداء بكامله استهدف خداعه. وإذا بدا له الأمر طريفاً للغاية، الآن وقد عرف من يكون خصمه، فقد أمسك بذراع النقيب التي تحمل قبضتها السيف، وقرصها بشدة، فغضب النقيب، ولكنه مع ذلك تهاوى وانفجر ضاحكاً.

قال جينجي: «على الرغم من ذلك، قل لي جدياً، هل أنت واثق من أنك عاقل؟ يا لها من حيلة تحتالها عليَّ! على أية حال سوف أرتدي عباءتي». ولكن النقيب أمين السر أمسك بها، ورفض أن يتركها.

«ليكن، وأنت كذلك إذاً!». قالها جينجي وانتزع حزام النقيب لينزع عنه العباءة. وراحا يتصارعان، فيما جاهد النقيب لمنعه من النجاح إلى أن انشقت عباءة جينجي.

«الآثام التي تخفيها سرعان ما يعرفها الجميع، الآن وقد أدى تجاذبنا

إلى تمزيق العباءة التي غطت العديد من الخطايا.

ارتدها الآن وسيعرف الجميع جلية الأمر!»[1]! هكذا تحدَّث النقيب. همهم جينجي:

«مثل هذه العباءة الصيفية قد لا تخفي أي شيء، أعلم ذلك حق العلم،

ولكن أي صديق بائس أنت إذ تكشفني على هذا النحو!»[2]

وانطلق كلاهما بعيداً، وملابسهما ترفرف حولهما، أفضل الأصدقاء.

رقد جينجي ليخفف من حنقته لاكتشاف أمره. أما فيما يتعلق بسيدة البلاط الحانقة فإنها، في صبيحة اليوم التالي، أعادت السروال والحزام اللذين خلفاهما وراءهما، مع رسالة:

---

(1) يحفل هذا التبادل للقصائد بالتلاعبات بالكلمات. وتومىء ملاحظة تونو تشوجو إلى كوكين روكوجو 3261 التي تحدَّث عن رداء أحمر عندما يلبس كرداء خارجي فإنه يظهر للكافة اهتمامات مرتديه العاطفية.

(2) «إذا لم تكن ترغب في أن يعرف الجميع صلتك بهذه السيدة، فقد كان ينبغي عليك أن تفكر مرتين قبل الدخول على هذا النحو علي».

«ما من شكوى تند عني يمكن أن تخفف بؤسي، الآن والموجة المزدوجة

التي ألقت بنفسها على الشاطىء قد انزلقت مجدداً إلى البحر[1]

النهر جاف»[2].

إنها لا تعرف الحياء! كانت المخاطرة التي دارت بذهن جينجي قاسية، ولكنه كان لا يزال حزيناً لأنه ضايقها، ولهذا فقد رد ببساطة:

«لا تكترثي بتلك الموجة وهجومها الصاخب، بوسعي أن أدع ذلك يمر،

ولكنني سأرفع شكوى ضد ذلك الشاطىء المرحب» .

كان الحزام عائداً للنقيب أمين السر، وقد لاحظ أنه قاتم أكثر من عباءته، ولاحظ أيضاً أنه فُقد من العباءة الشريط الخارجي لأحد الكمين[3]. قال لنفسه: يا له من أمر مثير للسخرية. وكان قد بدأ يشعر بالتحسن. أحسب أنه المحتم أن تتحامق عندما تنزلق إلى هذه النوعية من الأمور.

بعث النقيب أمين السر من حجرته بالقصر إلى جينجي بالقطعة الناقصة من الكم ملفوفة في ورقة، مع نصيحة بإعادة حياكتها. تذمر جينجي قائلاً لنفسه: كيف أفلح في اقتناص هذه؟ لو أنني لم أحصل على حزامه.. لف الحزام في ورق مماثل وبعث به، وفي طيه هذا الشعر:

«خوفاً من لومك، وخشية من أن ينشق الحزام، وكذلك أنت وهي،

لم أنظر مرة واحدة إلى لون ورقته الباهرة[4]**»**.

همهم النقيب:

---

(1) «لا جدوى من شكواي على الرغم من أنني أود أن أشكو الآن وقد مضيتما بلا عودة». توحي صورة الأمواج التي تنكسر على شاطىء برغبته إيروتيكية.

(2) نهر دموعي.

(3) هاتا سودي. قطعة مستعرضة من القماش تضيف المزيد من الطول إلى الكم.

(4) «حتى لا تلوموني إذا نبذتك تلك المرأة، فإنني لم ألمس حزامك الأزرق هذا». القصيدة تتضمن تلاعباً بـ«تمزيق» الحزام (الارتباط) وتستعير مرتين (على سبيل المثال هانادانو أوبي «الحزام الأزرق») من أغنية السايبارا التي يقتطف تونو تشوجو بدوره مقطعاً منها في رده.

«الآن ولم يمض غيرك مسرعاً بحزامي ذاك

فلن أخليك من لومي على التفريق بيننا.

سيحل بك حنقي في نهاية المطاف».

انطلقا كلاهما عندما علت الشمس في السماء للوقوف في خدمة جلالته. وتظاهر جينجي ببراءة مطلقة، بدت شيئاً طريفاً إلى حد كبير بالنسبة لصديقه، لكن اليوم كان حافلاً بالمذكرات والمراسيم، ولم يسمح مرأى كل منها بمثل هذه الجدية الصارمة لهما بما يزيد على تبادل الابتسامات الخفيفة.

أقبل النقيب أمين السر إلى جينجي، خلال فترة هدوء مؤقتة في المراسيم، وقال بنظرة خبيثة: «إنني على يقين من أنك قد تعلمت الآن ألا تحجب الأسرار».

«لماذا ينبغي عليَّ ذلك؟ إن من أشفق عليه هو من لم يحصل على شيء من وراء كل ذلك الانتظار الطويل. ومع ذلك، وبجدية أقول إن الشائعة منتشرة». وأقسم كل منهما للآخر على التزام الصمت[1].

درج النقيب أمين السر بعد ذلك على الإتيان على ذكر هذه المحادثة، كلما أتيحت له الفرصة، وهكذا فرض على جينجي بمزيد من التوهج والحيوية ما هو مدين به لتلك المرأة المضجرة. وفي غضون ذلك، بقي جينجي بعيداً عنها وحريصاً على تجنبها، خوفاً من أن تخضعه من جديد لشكواها المأساوية من أنه قد أساء إليها على نحو ظالم.

حجب النقيب أمين السر هذا كله عن أخته، ولكنه احتفظ لنفسه بفكرة إبلاغها به كتهديد يشهره في وجه جينجي، عندما تستدعي مناسبة ذلك. وحتى إخوة جينجي غير الأشقاء، الذين ولدوا لأعظم نساء أبيه، كانوا يحبونه ويكنون له أعظم التقدير باعتباره الابن الأثير عند جلالته، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للنقيب أمين السر، الذي نهض بجسارة لملاقاة كل تحد يطرحه عليه جينجي، وظل مصمماً بوضوح على ألا يتم تجاوزه،

---

(1) «الشائعة منتشرة» مستمدة من كوكين روكوجو 2108 «على الرغم من أن الشائعة منتشرة انتشار العشب البحري الذي يجمعه أهل البحر، طالما أننا يحب أحدنا الآخر، دع الدنيا تتحدَّث كما تشاء!». «أقسم كل منهما للآخر على التزام الصمت» صياغة للمعنى السردي مستمدة من كوكينشو 1108.

وقد كان هو وحده الأخ الشقيق لأخته من بين إخوته الآخرين. نعم، لقد كان جينجي ابن الإمبراطور، ولكنه هو نفسه الابن الأثير لأبرز وزراء جلالته ولأميرة، ولذلك السبب فإنه لم يشعر على الإطلاق بأنه أقل شأناً من جينجي، فشخصه يجمع كل الخصال المنشودة، وما من سمة من سمات الامتياز تنقصه[1].

اتخذ التنافس بين هذين الاثنين بعض المنعطفات الغريبة، التي سيكون مضجراً وصفها كلها.

يبدو أنه في الشهر السابع تم رفع فوجيتسوبو إلى مرتبة إمبراطورة، وأصبح جينجي مستشاراً. وسرعان ما سيتحرك جلالته باتجاه تحقيق رغبته في التنازل عن العرش، وعقد العزم على جعل الأمير الصغير ولي العهد التالي، غير أن أقارب الأمير من جهة أمه كانوا جميعاً من نسل إمبراطوري، وبالتالي فهم مستبعدون من الحكم، وبالتالي فقد رغب جلالته على الأقل في أن يجعل مكانة أمه حصينة لكي يقوي وضعه.

ضاعف هذا كله من ضيق الزوجة كوكيدين، كأقصى ما يمكن، ولكن جلالته أكد لها «حكم ولي العهد آت عما قريب، وعندئذ سوف تصبحين الإمبراطورة الأم، وليس هناك ما يدعوك إلى القلق». وكما يتوقع المرء، فإن الناس كانوا يشكون حقاً من أن جلالته ليس بمقدوره أن ينحّي ببساطة السيدة التي كانت أم ولي العهد، والتي كانت زوجته الشرعية على مدار عشرين عاماً، ليعين سيدة أخرى إمبراطورة فتتجاوزها في المكانة.

كان جينجي، المستشار الجديد، في حاشية جلالته في الليلة التي دخلت خلالها القصر في موكب رسمي. وقد تألقت من كانت أمها إمبراطورة بحسن جوهرة، حتى بين الجمع رفيع الشأن المؤلف من الإمبراطورات السابقات، وحظيت بتقدير لا مثيل له من جلالته حتى أن الجميع أبدى أعظم تقدير لها كذلك. فلا عجب إذاً إذا فكَّر جينجي الذي اعتراه اليأس فيها في محنتها، وعرف أنها الآن قد مضت بعيداً وحقاً عن مناله. وكان ذلك أكثر مما يطيقه على وجه التقريب.

«لا يمكن أن تكون هناك نهاية للظلام في فؤادي الذي يحجب كل الأشياء،

(1) يتعلق إيجاز هذا الإعلان وطابعه غير المباشر بجلال المناسبة.

الآن فيما عليَّ أن أرقبها وهي تمضي لتحيا وسط السحب»[1].

هكذا همهم لنفسه. وبالنسبة له كان الأمر مأساة.

كلما كبر الصغير، قلت قدرة المرء على التمييز بينه وبين جينجي، ولكن على الرغم من أن ذلك قد عذَّب جلالته، فإنه ما من أحد غيره فيما يبدو قد لاحظ ذلك. وفي حقيقة الأمر، فإن المرء يتساءل كيف يمكن لأحد أن يولد وسيماً مثل جينجي وفي الوقت نفسه لا يبدو شبيهاً به. وبالنسبة للجميع فإنهما كانا مثل ضوء الشمس والقمر في كبد السماء.

(1) إلى «مسكن السحاب» (كوموي) تعبير نبيل عن القصر.

8

هانا نو إين

تحت براعم الكرز

يبـدأ هذا الفصـل بحفل (إيـن) لتكريم شـجرة الكرز المزهرة (هانا)

الصلة بالفصول السابقة

تقع الأحداث في «تحت براعم الكرز»
في الربيع، الذي يأتي عقب الأحداث
التي تروى في «تحت وريقات الخريف»

الشخوص

جينجي، مستشار، 20 عاماً.
جلالة الإمبراطور، والد جينجي (كريتسوبو نو ميكادو).
جلالة الإمبراطورة، 25 عاماً (فوجيتسوبو).
الزوجة كوكيدين، أم ولي العهد.
النقيب أمين السر (تونوتشوجو).
معالي وزير الميسرة، 54 عاماً (ساداجين).
امرأة شابة، الابنة السادسة لوزير الميمنة (أوبوروزوكيو).
كوريميتسو، أخ لجينجي من الرضاع وموضع سره.
يوشيكيو، ابن حاكم هاريما وتابع مقرب من أتباع جينجي
سيدة جينجي الصغيرة، 12 عاماً (مورا ساكي).
معالي وزير الميمنة، جد ولي العهد (أودايجين).

بعد قليل من العشرين من الشهر الثاني، أقام جلالة الإمبراطور حفلاً على شرف شجرة الكرز المنتصبة أمام شيشيندين[1]. وإلى ميمنته ومسيرته كانت هناك مساحتان[2] مسيجتان للإمبراطورة وولي العهد اللذين رغب جلالته في أن يكونا حاضرين لإدخال السرور على نفسيهما. وقد كانت الزوجة كوكيدين تنزعج عندما تلقت جلالتها مثل هذا التقدير، ولكنها حضرت الحفل، حيث ما كانت لتفوتها هذه الفعالية.

كان اليوم جميلاً والسماء صافية، والطيور تغرد لإبهاج القلب، عندما قام من يتباهون بمهاراتهم من الأمراء والنبلاء البارزين وغيرهم، بقدح زناد أذهانهم، وشرعوا في نظم الأشعار الصينية[3]. وكالمعتاد دوّى صوت جينجي منشداً: «لقد تلقيت الشكل الذي يرمز لـ(الربيع)»، وتلاه النقيب الأمين العام. وقد كان عصبياً فيما يتعلق بالكيفية التي سيبدو بها بعد جينجي، ولكنه حافظ على مظهر بهيج، وتردد صوته بكبرياء مؤثرة في النفس. وبدا معظم الباقين متوترين وغارقين في أنفسهم. ومن الطبيعي أن من ينتمون إلى المراتب الأقل كانوا أعظم انبهاراً بعبقرية جلالته وولي العهد، التي برزت حتى في ذلك الوقت، عندما كان هناك الكثيرون للغاية ممن يبرعون في هذا اللون من الفن، وقد تقدموا في إجلال عبر الامتداد بالغ النظافة للفناء العريض، لا لشيء إلا ليجعلوا من مهمتهم البسيطة عملاً مؤلماً. وقد تأثر جلالته بألوان الأداء المتمرس من المعلمين الكبار في ملابسهم العتيقة، وقد استمد بهجة عظيمة منهم كذلك.

كان، بالطبع، قد رتب الرقصات بصورة كاملة. وكانت الرقصة التي تدور حول طائر الهازجة في الربيع[4] فاتنة مع دنو المغيب، وبعدها قام ولي العهد، الذي تذكر جينجي تحت وريقات الخريف، بإعطائه غطاء رأسه المتخذ من البراعم، وأهاب به أن يرقص

(1) ساكون نو ساكورا، شجرة كرز بالقرب من الدرج الواقع عند الجانب الأمامي (الجنوبي) الشيشيندين. كانت نوعية الحفلات المماثلة للحفل الذي أقيم تحت وريقات الخريف تحظى بالحماس بصفة خاصة حوالي قرن قبل زمن المؤلفة.

(2) تسوبوني، مساحة تسيج بإسدال الستائر حول أماكنها.

(3) كان السادة يتقدمون بحسب المرتبة، وكل منهم يرسم رمزاً واحداً للروي (كما في اليانصيب) من الرموز الموضوعة على مائدة، ثم قبل التراجع كان كل منهم يعلن اسم قبيلته، منصبه، ورمز رويه. وكانت قصيدته تطور هذا الروي.

(4) «أنشودة هازجة الربيع» (شونودين)، مقطوعة بوجاكو «صينية».

مجـدداً، ونهض جينجي الذي لم يكن بمقدوره الرفض وبسـهولة عفوية راح يؤدي الجزء الـذي يرد فيـه الراقص كميه إلى الـوراء. وكان التأثير لا نظير له. ونسـي وزيـر الميمنة كل استيائهِ وبكى.

قال جلالته: «هلم، أين النقيب أمين السر..؟». ورقص النقيب أمين السر على نحو بالغ الجمال عندئذ رقصة «حديقة الزهور وأشـجار الصفصـاف» بانهماك يفوق جينجي وعلى نحو يكشف عن إجراء تجارب جيدة، بحيث أنه لدهشة الجميع تلقى هدية من جلالته هي رداء خلعه عليه.

ثم رقص كبار النبلاء حتى المساء، بدون ترتيب محدد، ولكن ما من أحد برز في تفوق الأداء أو تواضعـه. وعنـد أوان إلقاء القصائد، لم يسـتطع «المنشـد» اختتام قصيدة جينجي لأن الجميع كرَّر كل بيت وعقَّب عليه في إعجاب، بما أن المعلمين الكبار قد تأثروا أعمق التأثر، وقد سُر جلالته بلا شك، حيث أن جينجي كان ذروة كل مناسبة من هذا النوع.

تسـاءلت الإمبراطورة، بينما هي تتأمل قوام جينجي، كيف اسـتطاعت أم ولي العهد أن تكرهه كل هذا الكره، ومضت تندب أنها هي نفسها قد أحبته أكثر مما ينبغي.

«إذا كان بمقدوري بنظرة عادية أن أرى تلك الزهرة كالآخرين

لماذا يخطر لي أن أجد فيها أي عيب؟»

هكذا غمغمت لنفسها. ويتساءل المرء كيف يمكن لأحد أن يبوح بكلمات لم يقصد إلا أن يوجهها لنفسه.

انتهى المهرجان في وقت متأخر من تلك الليلة. وما إن انسحب كبار النبلاء، وانصرفت الإمبراطـورة ولـي العهد، ورقد الجميع في سـكون في غمار جمال سـنا القمـر المتألق، حتى بقي جينجي في غمار سكره بعيداً عن الرغبة في التسليم بأن الليلة قد انقضت. كانت وصيفـات جلالته جميعـاً قد غرقن في الندم، فانسـل إلى جناح فوجيتسـوبو، على أمل أن يواتيـه الحـظ في هذه السـاعة العجيبـة، ولكن الباب الـذي كان يمكن من خلالـه أن يدنو منها[1] كان موصداً، وهكذا واصل سيره، متنهداً، ولكن من دون أن يردعه شيء، إلى جناح

(1) بصورة أدق الباب الذي يفضي إلى حيث قد يجد أوميوبو ويقنعها بأخذه إلى خليلته.

كوكيدين المترامي، حيث وجد الباب الثالث مفتوحاً[1]. لم يبد أن ثمة أحداً في الجوار، حيث أن الزوجة كوكيدين كانت قد مضت مباشرة لتكون في خدمة جلالته. وقد كان الباب المفضي إلى الغرف الداخلية مفتوحاً بدوره. ولم يكن هناك صوت يُسمع.

حدَّث جينجي نفسه: هذه هي الكيفية التي يوقع الناس بها أنفسهم في المتاعب[2]. ودلف صامتاً إلى القاعة. لا بد أن الجميع كان غارقاً في النوم. ولكن هل يمكن أن يكون الأمر كذلك؟ سمع صوتاً فتياً وجميلاً، ويقيناً أنه لم يكن صوت وصيفة عادية «ليل بلا نظير وقمر ملتف بالسديم..»[3] أمسك سعيداً بكمها.

«آه، لا، من أنت؟» بدا جلياً أن الخوف قد استبد بها.

«ما من شيء يدعو للخوف.

كونك تعلمين حق العلم جمال الليل الموغل يدفعني لافتراض

أن ما يربطك بالقمر الأقل ليس صلة عابرة!».

ما إن أتم قوله هذا حتى أحاطها بذراعيه، وجعلها ترقد، وأوصد الباب، وقد أسبغ عليها حنقها واستياؤها جاذبية حلوة.

صاحت، مرتجفة: «رجل، ثمة رجل هنا!».

«بوسعي التصرف كيفما يطيب لي، والاستغاثة لن تنقذك. ما عليك إلا التزام الهدوء!».

عرفت صوته، وأحست أنها أفضل حالاً قليلاً، ولم ترغب في أن تبدو باردة أو فاترة، على الرغم من شعورها بالصدمة. ولا بد أن السكر أخذ منه، لأنه أحس بأنه لا بد له من أن يحصل عليها، وقد كانت شابة ومطواعة بما فيه الكفاية بحيث أنها ربما لم تفكِّر جدياً في

---

(1) جناح كوكيدين يقع مقابل جناح فوجيتسوبو، إلى الشرق.

(2) ربما كان انتقاد جينجي، الذي ينطبق عليه، موجهاً إلى تراخي أهل بيت الزوجة كوكيدين. وكان له رأي سيء في عاداتهم.

(3) شينكو كينشو 55، من نظم أوي نو تشيساتو: «ما من شيء يقارن بقمر ملتف بالسديم في ليل ربيعي، لا يتألق ولا تلفه السحب». أوبوروزوكيو (ليل بقمر ملتف بالسديم) هو الاسم الذي عُرفت به منذ ذلك الحين.

مقاومته.

أبهجته كثيراً، واستبد به الضيق لأنه سرعان ما وجد انبلاج الصبح يداهمه، أما هي نفسها فقد بدت ممزقة. قال ضارعاً: «أخبريني باسمك! كيف يمكنني الاستمرار في الاتصال بك؟ يقيناً أنك لا تريدين أن تكون هذه هي النهاية!».

ردت بلطف عذب:

«لو أنني بمصيري الحزين اختفيت الآن تواً، فهل تأتي حقاً

آه، إني أتساءل، ساعياً ورائي عبر اليباب العشبي للسبخات»[1].

«إنني أتفهم. اصفحي عني لطفاً!

بينما أكافح لمعرفة أين ينبغي أن أسعى إلى مقر قطرة نداي.

فإن الريح، فيما أخشى، ستهب عبر السبخة التي يصدر منها الحفيف[2]

فلنكن صرحاء مع بعضنا. أم أنك تؤثرين أن تروغي مني؟».

ما إن بدأ الحديث، حتى شرعت الوصيفات في النهوض محدثات جلبة، وكان هناك الكثير من الذهاب والمجيء بين جناح كوكيدين وغرف جلالته[3] وكانا كلاهما في خطر فاكتفى بأن قدَّم لها مروحته أمارة، وأخذ مروحتها، ومضى مبتعداً.

كان بعض النسوة في جناح كيريستوبو[4] مستيقظات، فتهامسن، وإحداهن تلكز الأخرى، وهن يتظاهرن بالنوم طوال الوقت: «من المؤكد أنه يواصل استكشافه السري. أليس كذلك؟».

ودلف إلى الجناح، ورقد في الفراش، لكن النوم جافاه. يا لها من فتاة جميلة! لا بد أنها إحدى الأخوات الأصغر لزوجة الإمبراطور، الأخت الخامسة أو السادسة، فيما أحسب،

(1) «لو أنني اختفيت (مت)، فهل لن تسعى ورائي لأنني لم أخبرك باسمي؟».

(2) «طلبت منك إبلاغي بهويتك فقط لأنني إذا جئت باحثاً عنك، فإن الناس قد يلحظون الأمر ويدينوننا».

(3) توشك الزوجة كوكيدين على العودة، وتسبقها بعض الوصيفات، بينما تخرج وصيفات أخريات من غرفها لملاقاتها.

(4) غرف جينجي الخاصة في القصر.

حيث أنها لم تعرف رجلاً من قبل. وكان قد سمع أن زوجة الأمير النائب[1] والأخت الرابعة، اللتين لم يكترث بهما النقيب أمين السر كثيراً، كانتا كلتاهما جميلتين، ولو أنها كانت واحدة منهما لكان الأمر يقيناً أقرب إلى اللهو والمرح. أما فيما يتعلق بالأخت السادسة فإن أباها كرّسها لولي العهد، نعم لسوف يكون ذلك من سوء الطالع. كان الأمر كله بالغ الصعوبة، ومن غير المحتمل أن يكتشف أي الأخوات كانت حتى ولو حاول ذلك. وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تبد توّاقة لإنهاء الأمر. فلماذا إذن لم تترك لي أي سبيل لمراسلتها؟ ولا شك أن تأملاته هذه قد أكدت اهتمامه بها، ولكن على الرغم من ذلك فإنه عندما فكّر فيها لم يستطع منع نفسه من الإعجاب بالوضعية الصعبة على نحو رائع فيما يتعلق بالوصول إليها بالمقارنة بأخواتها.

كان من المقرر أن يُقام الحفل الثاني[2] اليوم، وانهمك في أداء مهامه من الصباح حتى الليل. وقد عزف على آلة السونو كوتو. وكان الحفل أكثر تألقاً ومسلياً بصورة أكبر من الحفل الذي أُقيم بالأمس.

تاق إلى أن يعرف ما إذا كانت هي التي ترتبط بقمر الفجر[3] ستغادر القصر الآن، فعهد إلى يوشيكيو[4] اليقظ بلا حدود وكوريميتسو بالمراقبة. وعندما استأذن جلالته للانصراف، قدما له تقريرهما، وقالا: «غادرت عربات عديدة البوابة الشمالية لتوها[5]، حيث كانت تنتظر على نحو لائق. وكان أقارب سيدات جلالته هناك. وعندما اندفع الملازم من المرتبة الرابعة ومراقب حسابات الميمنة[6] خارجين لتوديع الجمع، أدركنا أن الزوجة كوكيدين لا بد أن تكون هي المغادرة، وقد كان في الجمع كذلك العديد من السيدات المميزات للغاية.

(1) أخ أصغر لجينجي، أمير نائب للإمبراطور في كيوشو (دازاي نو سوتشي).
(2) جوين، «حفل ملحق» يُقام لحلقة أصغر من المرتبة الأرفع. وغياب المراتب الأدنى يجعل الحفل أقل اتساماً بالطابع الرسمي وأكثر فخامة من الحفل الأول.
(3) أوبوروزوكيو، ويطلق عليها جينجي أرياكي «قمر الفجر» من خلال الارتباط بـ«القمر الذي يلفه السديم» وكذلك لأن هذا هو الوقت من الشهر القمري (الليلة العشرون وما بعدها) التي يطل فيها قمر أرياكي، الذي يشير إليه من جديد في قصيدة لاحقة.
(4) يوشيكيو، ابن حاكم هاريما، والرجل الذي يقوم في فصل «مورا ساكي الصغيرة» بإبلاغ جينجي بأمر العجوز وابنته في أكاشي.
(5) كيتا نو جين (يقال لها كذلك ساكوهاي مون) البوابة الشمالية لمجمع القصر.
(6) اثنان من أخوة الزوجة كوكيدين لا يرد لهما ذكر في الحكاية في غير هذا الموضع.

وبالإجمال كانت هناك ثلاث عربات».

تسارعت دقات قلب جينجي. كيف له أن يعلم أيهن كانت؟ ماذا لو اكتشفت معاليه حموه جلية الأمر وأثار ضجة كبرى حوله؟[1] لسوف يكون ذلك أمراً لا يحظى بالترحيب بالمرة، طالما أنه لا يعرف إلا القليل للغاية عنها. وعلى أية حال، فإنه لا يستطع احتمال جهله الراهن، ورقد في غمار المعاناة من الإحباط الناجم عن حيرته إزاء ما يتعين عليه القيام به. فكَّر في إعزاز في سيدته الصغيرة. لا بد أنها تشعر بالضجر الشديد، وربما كانت غاضبة أيضاً، حيث أنه لم يرها طوال أيام!

كانت المروحة التذكار ثلاثية الطبقات، كرزية اللون[2]، وقد رسم على جانبها الملون قمر يلتف بالسديم منعكساً على الماء على جانبها الملون، ولم تكن بالعمل الفني الأصيل، ولكنها موضع ترحيب لأنه من الجلي أنها كانت أثيرة عند صاحبتها. وقد أزعجه حديثها عن «اليباب العشبي للسبخات». وقد كتب على المروحة، التي احتفظ بها عقب ذلك:

«كل ذلك الذي أحسه الآن لم أستشعره من قبل فيما القمر عند الفجر

يذوب بعيداً أمام عينيَّ إلى سماء تترامى بلا حدود»

مرَّ وقت أطول مما ينبغي منذ زار معاليه حميه، كما يعرف حق المعرفة، لكن القلق على سيدته الصغيرة انعقد له لواء الفوز، فمضى إلى نيجو ليرفع معنوياتها. وكلما رآها أكثر بدت له أجمل، كما كانت تتمتع بذكاء وجاذبية استثنائيين. ومن المؤكد أن كمالها الذي لا تشوبه شائبة قد جعلها الفتاة المناسبة له. لكي يجعلها تنضج حسبما يريد لها، وهو الأمر الذي تاق بشدة للقيام به. وكان مصدر القلق الوحيد هو أن وجود معلم لها قد يجعلها معتادة أكثر قليلاً من المطلوب على الرجال، وقد أمضى جينجي اليوم في إبلاغها بما كان بصدده أخيراً وإعطائها درساً في العزف على آلة الكوتو الموسيقية، وعلى الرغم من أنها كانت حزينة كعهدها عندما خرج مجدداً، فإنها أصبحت معتادة على ذلك الآن، ولم تتشبث به كما كانت تفعل في السابق.

---

(1) باعتباره زوج ابنته.

(2) «ثلاثية» لأن المروحة بضلوعها الثمانية المتخذة من خشب السرو تُطوى إلى ثلاث قطع معاً. والمروحة بيضاء من جانب وقرمزية من جانب آخر.

في دار معاليه، رفضت السيدة المقيمة هناك رؤيته على الفور، وفي غمار كسله أطبق عليه حشد من الخواطر، فمضى يعزف على آلة السونوكو الموسيقية، ويغني «لا يغمض لي جفن في يسر...»[1].

انضمَّ إليه معاليه، وحدَّثه بمدى استمتاعه بالأمس القريب. قال: «في عمر متقدم، شهدت عهود أربعة أباطرة مستنيرين، ومع ذلك فإنه من خلال جودة الشعر وتناغم الموسيقى والرقصات لم يسبق من قبل قط أن بدا وقر السنين خفيفاً على كاهلي على هذا النحو. ولدينا الآن الكثيرون للغاية ممن هم خبراء في الفنون كافة، وإنني على يقين من أنك أنت الذي اخترتهم وأرشدتهم، بل إنني أنا، الرجل الذي أوغل في العمر، أحسست بأنني أود أن أخرج من بين الصفوف وانغمس في إحدى الرقصات».

«لم أقم بشيء على الإطلاق لتجهيزهم، وإنما واجبي أن أجد لهم أفضل المدربين، أياً كانوا، وفي رأيي فإن رقصة «حديقة الزهور وأشجار الصفصاف» قد فاقت في تألقها باقي الرقصات إلى حد أن الأداء يظل الأفضل في كل العصور، ولو أنك قد غامرت باستعراض مهارتك في تحد للسنين فإن مجد عهد جلالته سيزداد تألقاً على نحو باهر».

وصل مراقب حسابات الميسرة والنقيب أمين السر والآخرون، وجلسوا مستندين إلى المتكأ، ودوزنوا آلاتهم الموسيقية معاً، ومضوا يعزفن في انسجام على نحو جميل جداً.

تذكرت سيدة القمر الملتف بالسديم ذلك الحلم الهش بحزن بالغ. وكان أبوها قد قرر تقديمها إلى ولي العهد في الشهر الرابع، وقد ملأها انتظار حدوث ذلك باليأس. وفي غضون ذلك فإن حبيبها، الذي ظن أنه يعرف كيف يتابعها إذا رغب في ذلك، لم يكتشف بعد أي الأخوات هي، وبالإضافة إلى ذلك فقد تردد في ربط نفسه بعائلة لم يلق منها إلا الاستهجان، ثم بعد العشرين من الشهر الثالث عقد وزير الميمنة مسابقة في الرماية بالسهام شارك فيها العديد من النبلاء البارزين والأمراء، وأعقبها في التو حفل لبراعم الوستارية.

كان موسم براعم الكرز قد انتهى، لكن لا بد أن شجرتين من أشجار معاليه قد أجمعتا على الانتظار[2]، حيث أنهما كانتا في ازدهار متأخر ومجيد. وكان قد أمر بتزيين داره، التي

(1) من أغنية سايبارا، والمغنية شابة عاشقة على العكس من أوي تماماً.

(2) كويكينشو 68، من نظم آيسي: «آه، يا شجرة الكرز في قرية جبلية وما من أحد يعجب بك، تمهلي ففي التفتح إلى

أعيد بناؤها أخيراً، وذلك للاحتفال بانضمامهما للحاشية[1]. وكان كل شيء على أحدث طراز، وفي تناغم مع ذوق معاليه الخاص بالزهور.

كان معاليه قد وجه الدعوة إلى جينجي كذلك في أحد الأيام، عندما التقيا في البلاط، وقد أصابه عدم حضور جينجي بخيبة أمل بصورة كبيرة، حيث أن غيابه ألقى على الحفل من منظوره حجاباً كئيباً كثيفاً، ومن هنا بعث بالملازم من المرتبة الرابعة لإحضاره، حاملاً معه رسالة:

«لو أن الزهور التي تزين داري كانت تشبه في تدرج لونها كل الأخريات،

فلماذا إذن أنتظر بشغف بالغ الترحيب بقدومكم؟»

أبلغ جينجي، في القصر، جلالته بقوله: «من المحقق أنه راض عن نفسه!»، فأشار جلالته بابتسامة: «اذهب، إذن، حيث أنه يبدو حريصاً للغاية على حضورك! وفي نهاية المطاف فإنه سيحضر الأميرتين هناك، ومن ثم فإنك لست بالغريب بالنسبة إليه»[2]. تأنق جينجي في ملبسه بمزيد العناية، وكانت الشمس قد غربت بحلول الوقت الذي وصل فيه ليحظى بالترحيب.

كان يرتدي ثوباً في لون الكرم تحت عباءة في لون براعم الكرز، من الحرير المطرز بالأشكال الزخرفية[3]. وبين العباءات الرسمية التي ارتداها الجميع غيره، فإن زيه عكس التألق المترف الذي يحظى به أمير، وكان دخوله الوقور موضع اهتمام الجميع، بل إن البراعم نفسها ارتبكت، واستغرق الجمع بعض الوقت ليستعيد حركته من شدّة الذهول.

عزف عزفاً جميلاً، وكان الوقت قد تأخر كثيراً لدى مغادرته، متذرعاً بأنه احتسى الكثير من الخمر بحيث لم يعد في خير حال. وكانت الأميرة الأولى والأميرة الثالثة في الدار

أن تتبدد الأزهار في الأماكن الأخرى!».

(1) ابنتان إمبراطوريتان (أونا إتشي نوميا وأوناسان نو ميا، الأميرة الأولى والأميرة الثانية) للزوجة كوكيدين، ومن هنا فإنهما حفيدتا الوزير.

(2) هما أختان غير شقيقتين لجينجي وكذلك حفيدتان للوزير.

(3) عباءته الرسمية (نوشي) لها بطانة «في لون براعم الكرز» (ساكورا) مناسبة لشاب في الربيع. وتحتها إيبي مصبوغ (شيتا - جاساني)، مما يرتدى عادة تحت العباءة الرسمية (هو) لمناسبة وقور من مناسبات البلاط. والعباءة الرسمية أقل صرامة، ولونها لا يوحي بمرتبة مرتديها، وجينجي يتباهى بوضعه الرفيع.

الرئيسية، ومضى ليجلس قرب الباب، الذي ينفتح من هناك نحو الشرق، وكانت المصاريع الشبكية مرفوعة، وكل النسوة قرب الشرفة، حيث أن ذلك كان الركن الذي تبرعم فيه الوستارية، وتدلت أكمامهن على مهل تحت الستائر، كأنما ابتهاجاً بالعام الجديد، لكن جينجي لم يسغ ما يفعلن، ولم يجد خواطره إلا منصرفة إلى فوجيتسوبو.

قال: «شعرت، ابتداء، بأنني لست على ما يرام، ثم أُجبرت على احتساء الخمر إلى أن حل بي المرض تماماً، فهل يمكن أن يسمح لي بالاحتجاب في صحبة سموهن إذا لم يكن من التجاوز البالغ أن أطلب ذلك؟» ودفع بنفسه نصف المسافة عبر الستار في المدخل المزدوج.

صاحت إحداهن: «آه، لطفاً! يقيناً إن قليلات الأهمية مثلنا هن اللواتي يطلبن الحماية من العظماء!».

أدرك جينجي أن السيدات، على الرغم من أنهن لسن من مرتبة رفيعة للغاية، إلا أنهن لسن بالوصيفات العاديات كذلك، فقد بدا تميزهن في المظهر جلياً، وكان عبق البخور يملأ المكان، ووشى حفيف الثياب الحريرية بالثراء البالغ، فقد كانت تلك دار تؤثر المظهر العصري على الجاذبية الأكثر عمقاً للذوق الجيد، غير الصارخ، ولا شك في أن الأخوات الأصغر قد احتللن الدهليز لأن سمو الأميرات رغبن في التطلع إلى الحديقة من هناك.

كان ينبغي ألا يقبل التحدي، ولكنه أدخل السرور عليه، وراح يتساءل بقلب تسارعت دقاته أيهن عساها تكون. راح يغني بأقصى ما يستطيع من براءة، وهو لا يزال يستند إلى أحد الأعمدة: «يا للحسرة، مروحتي لم تعد ملكي، حيث حلت بي محنة[1]».

«يا له من رجل عجيب من كوما!». بدا أن من ردت عليه لم تفهمه.

لم تحر أخرى رداً، ولكنها راحت تتنهد وتتنهد فحسب، فمال نحوها، وأمسك يدها عبر الستار القائم، وقال بلمحة من تخمين:

«كم أمضي حزيناً لأجوب منحدرات جبل إيروسا، حيث يغيب الهلال

---

(1) إنه يسيء عن عمد اقتطاف أغنية سايبارا «رجل من كوما سلبني حزامي، آه، يا لندمي المرير!..» حيث يحل «المروحة» محل «الحزام».

تواقاً لرؤية القمر الواهن الذي رأيته آنذاك!.

لم ينبغي أن يكون الأمر كذلك؟».

لا بد أن ذلك كان كثيراً جداً بالنسبة لها لأنها ردت:

«لو أن فؤادك كان صادقاً ومستقيماً حقاً هل تضل طريقك

حتى في ظلام الليل والقمر لا وجود له في السماء؟».

نعم، كان ذلك صوتها. ابتهج، على الرغم من أنه في الوقت نفسه[1]..

---

(1) أويوروزوكيو، ابنة عدو سياسي، وعد بها ولي العهد. وقد كره جينجي بالفعل نزوع عائلتها السطحي، وربما كان يشعر بخيبة الأمل حيال السهولة التي منحت نفسها بها له.

9

أوي

قلباً لقلب

ينمو نبات أوي (وبصورة أدق فوتابا أوي) الذي يعد نباتاً مقدساً بالنسبة لمعبد كامو، في الغابة، ويتكون من زوج من الأوراق العريضة التي تأخذ شكل القلب التي تنمو من ساق واحدة. ويقوم الناس في مهرجان كامو بتجميل أغطية رؤوسهم وعرباتهم بها وكذلك بالغار (كاتسورا). والكلمة في هجائها العائد إلى المرحلة الهايينية (أفوهي) يمكن كذلك أن تقرأ باعتبارها تعني «يوم لقاء العشاق». وهذا التلاعب بالكلمة وكذلك شكل النبات يوحيان بالترجمة «قلباً لقلب».

كما يوحي عنوان الفصل، فإن «أوي» يشير بصفة خاصة إلى تبادل للقصائد في المهرجان بين جينجي وسيدة البلاط العاشقة. وإذ رأت جينجي مع امرأة أخرى (مورا ساكي) في عربته، فقد كتبت تقول:

«آه، ما أقسى ذلك! اليوم عندما أنبأني حديثنا قلباً لقلب بأن الرب

بارك لقاءنا، أدركت أن أخرى تتزين بهاتيك الوريقات» .

وهو يرد قائلاً:

« سأقول إن رغبتك في التزين بزهرة القلب للقلب كانت عابثة للغاية عندما يجمع هذا الملتقى الرجال من قبائل لا تحصى» .

وقد قُبل «أوي» باعتباره عنواناً للفصل بسبب الحادث الذي وقع على نهر كامو في اليوم السابق، والشخص المسؤول عن الحادث، في المقام الأول، ليست إلا زوجة جينجي، وهي معروفة للقراء باسم أوي.

الصلة بالفصول السابقة

هنــاك هــوة زمنية قوامها عامان بيــن «تحت براعم الكــرز» و«قلباً لقلب». وفي هذه الفتــرة تنازل والد جينجي عن العرش، وأصبح ابنه من الزوجة كوكيدين، ســوزاكو، إمبراطوراً، وغدا ابن فوجيتســوبو الذي ولدته لجينجي ولياً للعهد.

الشخوص

جينجي، قائد الميمنة، 22 إلى 23 عاماً.

جلالة الإمبراطورة، 27 إلى 28 عاماً (فوجيتسوبو).

نيافة الإمبراطور المتقاعد، والد جينجي (كيريتسوبو إن).

الإمبراطورة الأم، الزوجة كوكيدين.

ولي العهد، ابن فوجيتسوبو، 3 إلى 4 أعوام (رايزي).

ملاذ روكوجو، 29 إلى 30 عاماً (روكوجو نو مياسو دوكورو).

كاهنة آيسي العليا، ابنتها، 13 إلى 14 عاماً (أكيكونومو).

سيدة أزهار الجريس، سموها (أساجاو).

زوجة جينجي، 26 عاماً (أوي).

راهبة كامو العليا، الابنة الثالثة لكوكيدين (ساجين).

سمو الأميرة أم أوي وتو نو تشوجو (أوميا).

معالي وزير شؤون الاحتفالات، والد أساجاو (شيكيبو كايو نو ميا).

سيدة جينجي الصغيرة، 14 إلى 15 عاماً (مورا ساكي).

شوناجون، مرضعة مورا ساكي.

سيدة من البلاط، المعجبة بجينجي الموغلة في العمر، في أوائل الستينات (جين نونايشي).

معالي وزير الميسرة، والد أوي وتو نو تشوجو، 56 إلى 57 عاماً (سادايجين).

النقيب من المرتبة الثالثة، شقيق أوي (تونو تشوجو).

ابن جينجي وأوي، من الميلاد إلى العام الثاني (يوجيري).

تشوناجون، وصيفة في دار معاليه.

أنيكي، تابعة لأوي.

كوريميتسو، أخ لجينجي في الرضاع وموضع سره.

بن، شوناجون، في خدمة مورا ساكي.

سيدة خزانة ملابس الإمبراطور (أوبوروزوكيو).

وزير الميمنة، والدها، جد الإمبراطور (يوداجين).

جعل تغير العهد كل الأمور عبئاً على كاهل جينجي، وربما تفسر مرتبته الرفيعة[1] السر في أنه قد تخلى الآن عن علاقاته العاطفية العابرة بحيث أنه ضاعف بالنسبة للكثيرات الأحزان الناجمة عن الإهمال، حتى فيما كان هو، كأنما في معرض القصاص، ينوح على ما يلقاه في حبه من قسوة[2]، فقد كانت حبيبته على الدوام إلى جوار نيافته، حتى لكأنها من العامة، وبدا أن هذا قد أثار استياء الإمبراطورة الأم، التي واصلت البقاء في القصر، وتركتها في سلام. وبين الحين والآخر كان نيافته يقيم حفلاً موسيقياً جميلاً، أو شيئاً من هذا القبيل، يجعل البلاط بكامله يتحدَّث عنه، بحيث أنه ازداد تألقاً عن ذي قبل، ولكنه افتقد على نحو محزن ولي العهد، الذي كان افتقاره للدعم الفعال يثير قلقه، ودفع طلبه من جينجي أن يقوم على رعايته بالقائد الجديد إلى مزيج من الفرحة والانزعاج.

آه، لقد اختيرت ابنة ولي العهد الراحل التي أنجبتها له ملاذ روكوجو لتكون راهبة آيسي العليا، وقد طرحت أمها، التي ساورها الشك في إخلاص جينجي لها، على وجه السرعة قلقها على شباب ابنتها كسبب يدعوها للنظر في المضي إلى آيسي بنفسها.

أشار نيافته، في معرض حديثه مع جينجي، حول علمه بخطتها، بقوله: «كان سموه المغفور له يقدرها إلى حد كبير ويهتم بها أعظم الاهتمام، وقد وجد أنه مما لا يطاق أن تعاملها باستخفاف كما قد تعامل أي امرأة أخرى. إنني أعتبر الراهبة العليا ابنتي، ومن هنا فإنني سأقدّر امتناعك عن الإساءة لأمها، من أجل خاطر أبيها وخاطري، فمثل هذا الانغماس في اللذات بلا حدود يشكل مخاطرة بإثارة استهجان واسع النطاق». أُجبر جينجي على الموافقة حيال الاستياء من موقفه، فالتزم صمتاً مرتبكاً.

واصل نيافته الحديث: «لا تتسبب أبداً في أن تعاني امرأة من الإذلال، وإنما عليك أن تعامل كل امرأة بلباقة وتتجنب إثارة حنقها!».

استأذن جينجي منسحق الفؤاد في الانصراف، وقد أفزعه أن يتصوره وهو ينهال عليه

---

(1) خلف سوزاكو، ابن الزوجة كوكيدين، والد جينجي كإمبراطور. وقد أدى هذا إلى وضع الجناح الذي يمثله الزوجة كوكيدين وأبوها وزير الميمنة في السلطة. وفضلاً عن ذلك، يبدو أن والد جينجي، كإيماءة أخيرة، قد عينه قائداً للميمنة، ومن ثم فإنه لا بد له الآن من التحرك بصحبة حرس مرافق مؤلف من ثمانية حراس.

(2) حبه لفوجيتسوبو، كوكينشو 1041: «كأنما رداً على عدم حبي لمن تهواني، فإن من أعشقها لا تحبني».

باللوم لو أنه قدِّر له أن يعلم بالوقاحة الكاملة لعاطفته المحظورة.

أوضحت معرفة نيافته بسوء تصرفه وإبداء رأيه حيال هذا الموضوع إلى أي حد مؤلم تعرض اسمه واسم هذه السيدة للخطر في غمار هذه العلاقة العاطفية، وقد ضاعف بصورة موحية بالشعور بالذنب من اهتمامه بها، ولكنه لم يظهر أي مؤشر لاعترافه بصلتهما علناً. أما هي فقد ظلت متحفظة بصورة مستمرة بفعل الخجل من الفارق بين عمريهما، وقد رد على ذلك بما يعادله من التحفظ. وبحلول ذلك الوقت بلغ خبر العلاقة العاطفية سمع نيافته، واشتهر أمرها لدى الكافة، ولكنها كانت لا تزال تعاني بشدة من لامبالاته النسبية حيالها.

دعمت الأخبار المتعلقة بهذا كله إصرار سيدة أزهار الجريس الزرقاء[1] على أن لا يحدث لها شيء من هذا القبيل، ونادراً ما أعطته أبسط الردود، وعلى الرغم من ذلك، فإنه غالباً ما حدَّث نفسه بأن ذلك غير مألوف منها، وأنه من المألوف منها أيضاً ألا تتخلص منه كلية.

في دار سموه لم تكن هناك إشادة بذوق جينجي، الذي بدا جلياً أنه لا يقر له قرار على امرأة واحدة، ولكن السيدة المقيمة هناك لم تلمه كثيراً على ذلك في قرارة نفسها، ربما لأن الطريقة التي كان يتباهى بالأمر بها لم تكن جديرة بالتعليق عليها. ولسبب مؤثر للغاية لم تكن في خير حال على نحو محزن[2]، وقد شعر جينجي بالاندهاش منها وبالتعاطف معها. وقد ابتهج الجميع، لكنَّ أبويها أقاما طقوس التوبة، خوفاً من الابتهاج قبل الأوان بكثير[3]. وقد أبقته هذه الأمور منشغلاً بصورة تامة، وعلى الرغم من أنه لم ينس قط السيدة المقيمة في روكوجو، فهو لا شكّ في أنه قد زارها بمعدل أقل من السابق.

في غضون ذلك استقالت الكاهنة العليا لمزار كامو، وكانت من حلت محلها الابنة الثالثة لنيافته التي أنجبتها له الإمبراطورة الأم. وقد حزن والدها لرؤية حياتها تأخذ هذا المنعطف الغريب، حيث كانت أثيرة لديهما، وما من أحد غيرها يملأ مكانها. وعلى

---

(1) أساجاو.

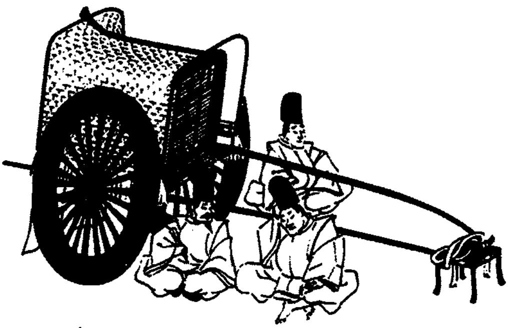
(2) بسبب أعراض الحمل.

(3) ألوان التقشف الطقوسية التي يقوم الآخرون نيابة عنها بها لضمان ولادة آمنة.

الرغم من أن الطقوس المصاحبة لم تكن بالشيء غير المألوف، فقد تم القيام بها بكثير من الفخامة والنشاط. وعندما آن أوان المهرجان[1] تلقت المراسم المعتادة العديدة من الزخرفات التجميلية. وكانت هناك كل أنواع المشاهد التي يمكن رؤيتها. وبدا أن تميز سموها الشخصي يفسر الأمر كله.

في يوم التطهير[2] شارك كبار النبلاء في الأعداد المطلوبة[3] ولكن ذلك اقتصر على أفضلهم مظهراً وأكثرهم نيلاً للتقدير. وقد اتسموا جميعاً بالكمال في لون ثيابهم ضافية الطول، ونمط سراويلهم الخارجية[4] وحتى في اختيارهم لجيادهم وسروجها. وقد شارك جينجي كذلك بمقتضى مرسوم خاص من نيافته. وقد أعدت عربات الفرجة قبل وقت طويل، وغُصت جادة أتشيجو بالناس، وتعالت الأصوات على نحو فظيع، وكانت منصات المشاهدة التي أقيمت هنا وهناك مزينة بإسراف، كل بحسب ذوق صاحبها، بل إن أكمام الأردية المنسدلة من تحت ستائرها كانت أعجوبة للناظرين.

نادراً ما كانت السيدة المقيمة في دار معاليه تخرج لمثل هذه الأحداث، ولم تكن قد فكرت في الخروج هذه المرة، حيث لم تكن تميل إلى ذلك، لكن وصيفاتها الأصغر سناً أعربن عن احتجاجهن قائلات: «آه، هلمي يا سيدتي، لسوف نستمتع بالانسلال إلى هناك اعتماداً على أنفسنا! العالم كله يتوق إلى اختلاس



عربة ومنصة العريش

(1) مهرجان كامو في يوم الطائر (توري) الوسيط في الشهر الرابع، ويعد من المناسبات السنوية الكبرى في المدينة.

(2) بشكل دقيق التطهير الثاني، ويتم القيام به في يوم الحصان (أوما) أو الخروف (هيتسوجي) الذي يسبق يوم المهرجان بمعناه الأوسع نطاقاً.

(3) بحسب الإنجي شيكي، فإن التطهير الأول كان يقتضي إرسال استشاري واحد كمبعوث إمبراطوري، بينما كان التطهير الثاني يقتضي مستشاراً كبيراً ومستشاراً واستشاريين.

(4) كانوا يرتدون زياً مدنياً كاملاً، مع عباءة رسمية من لون يتفق مع مرتبتهم، وأردية ضافية الطول من لون مفارق وسروالين مفتوحين من عند الرجل (السروال الداخلي من الحرير الأحمر السادة والسروال الخارجي من القماش المقصب).

نظـرة من سـمو القائد[1] فـي المهرجان اليوم، وهـم يقولون إنه حتى أفقر حطاب سـيكون هنـاك لرؤيتـه. بل إن بعض الناس سـيجلبون عائلاتهـم من مقاطعات بعيـدة! لا يمكنك يا سيدتي أن تفوتي هذا الاحتفال!».

عندما سـمعت سـموها ذلك، أشـارت لابنتها قائلة: «لقد أصبحت أفضل حالاً أخيراً، وتبدو وصيفاتك وقد استبد بهن الشـعور بخيبة الأمل». ومن هنا فقد علم كل من في الدار فجأة أنها ستشهد المهرجان، في نهاية المطاف.

كانت الشمس قد علت في مسارها بالفعل عندما انطلقت بأقل قدر ممكن من الضجيج. وتوقفـت قافلتها المهيبة من العربات، حيث أنه بحلـول ذلك الوقت كانت كل الأماكن قد شُـغلت، ولم يبق موضع يمكن أن تحتله. رصد سـائقو خيلها بقعة تشغلها عربات سيدات رفيعـات المقام، ولكنها خالية من أي حشـد من الأتباع، وشـرعوا فـي إخلائها. وبين هذه العربـات كانـت هناك عربتـان منفذتان بأسـلوب السـلال، نال منهمـا البلى قليـلاً، ولكن سـتائرهما متألقة، انسلت من خلالها لمحة من الأكمام وأطراف الأردية والسترات بأجمل الألـوان، والتـي كانـت ترتديها من جلسـن في الداخل. وبـدا جلياً أن من تشـغل العربة قد رغبت في ألا ترصدها العيون. «هاتان العربتان ليستا من العربات التي يمكن أن تنحَّى بعيداً علـى هـذا النحو!» هكذا تحدَّث سـائقو خيلهـا مصرين بصوت عالٍ، ولم يسـمحوا لأحد بالمسـاس بهما. ولكن بحلول ذلك الوقت كان الشـبان من الجانبين كليهما قد اسـتبد بهم السـكر والجلافة، وخرجوا عن نطاق السـيطرة. وعبثاً مضى المرافقون الشخصيون الأكثر توازناً من دار معاليه يحذرونهم.

كانـت مـلاذ روكوجو، أم راهبة آيسـي العليا (وهي مـن كانت بالعربة) قد جاءت سـراً لتسـري عن نفسـها. ولـم يقل سائقو خيلها شـيئاً عمن عسـاها تكون، ولكن الطرف الآخر عرفهـا، بالطبع. صاح الرجال من دار معاليـه: «لا تقبلوا مثل هذا الهراء من أمثالهم!. لا بد أنهم يعتمدون على الحماية من سـمو القائد» أحـس بعضهم، رجال جينجي، بالقلق حيال رؤية ما يجري، ولكنهم تظاهروا باللامبالاة، لأنه سيكون من الصعوبة البالغة أن يتدخلوا.

---

(1) جينجي.

بحلول الوقت الذي أصبحت كل العربات في مواضعها، كانت عربتا ملاذ روكوجو قد دُفعتا وراء عربات أقل الوصيفات شأناً، ولم أكن أمامها مجال للمشاهدة على الإطلاق، لم يكن الحنق قد استبد بها فحسب، وإنما أُخرجت عن طورها بحيث عُرفت هويتها، في نهاية المطاف. وبتكسير مساند عرائش عربتها، واستناد هذه العرائش كيفما اتفق على عجلات العربات الأخرى، بدت مثيرة للسخرية للغاية إلى حد أنها أحست بالندم على حماقتها، وراحت تتساءل عن السبب في قدومها على الإطلاق. وكان يمكن أن تغادر المكان في سرور من دون مشاهدة الموكب، ولكن لم يكن هناك مجال أمامها للانصراف، ولا بد أن إصرارها قد تداعى، في نهاية المطاف، عندما سمعت صيحات «ها قد أقبلوا!»، وأدركت أن حبيبها القاسي سيمر غير بعيد عنها، وقد مرَّ بالفعل، ولشجنها الممرور، من دون أن يلقي نظرة واحدة نحوها[1].

وراء ستائر العربات التي زُينت بإسراف يفوق المعتاد، كانت نسوة شغوفات عديدات قد بدون بمظهر متألق إلى حد أن جينجي تظاهر بالتجاهل، ولكنه ابتسم لبعضهن، ونظر إليهن بطرف العين. وقد برزت العربات القادمة من دار معاليه، فمرَّ رزيناً أمامها، وأفصح الإجلال والاحترام العميقان اللذان أظهرتهما معيته لملاذ روكوجو عن الهزيمة المخزية التي حلت بساحتها واستشعرت لذعها.

«نظرة هاربة كأنما صدرت عن محيا ينعكس في غدير مقدس

تبلغني بقسوة جديدة أنني لا أهمية لي على الإطلاق!».

لم تحب أن يراها أحد وهي تبكي، لكنها عرفت إلى أي حد ستندم لتفويتها فرصة رؤية الجمال والحضور المتألقين، اللذين تجليا في هذه المناسبة.

اتسم مرافقو جينجي بالكمال في الزي والسلوك، كل منهم بحسب مقتضيات مركزه، وانطبق ذلك بصفة خاصة على النبلاء البارزين، ولكن ألق ذلك الضوء الوحيد بدا أنه يجعلهم جميعاً في وضعية الخسوف ولم يكن من المألوف أن يقوم شخص خصوصي

(1) بصورة أكثر التزاماً بالنص الحرفي «وربما لأن هذه لم تكن حتى ساسانوكوما، فقد مرّ من دون إشارة للتعرف..» كوكينشو 1080، منسوبة إلى الربة في آيسي: «في ساسانوكوما، قرب نهر هينوكوما، توقف، ودع جوادك يشرب، حتى أتطلع إليك!».

من حرس القصر بحراسة القائد، ولكن هذا الموكب كان استثنائياً إلى حد كبير بحيث أن ذلك المنصب تم شغله من قبل أحد حراس الميمنة بالقصر. وكانت بقية حاشية جينجي على القدر نفسه من التألق في المظهر والتجهيزات المترفة إلى أن بدا أن الأشجار نفسها والأعشاب لا بد لها من أن تنحني أمام جمال ينعقد الإجماع على الإعجاب به على هذا النحو. وكانت الطريقة التي تقبل بها نساء محترمات تماماً يعتمرن قبعات عميقة[1] أو راهبات ليست الدنيا بالنسبة إليهن إلا خبثاً، متحايلات ومتعثرات لرؤيته، جديرة بأن تثير صيحات الاستفظاع المترعة بعدم الموافقة، باستثناء أنه اليوم ما كان بمقدور أحد لومهن. فغرت نسوة ذوات أفواه مجعدة وثياب نسائية فوق شعرهن[2] أفواههن حياله، وقد ضممن راحاتهن أو ضغطنها إلى جباههن في افتتان أبله، بينما ابتسمت فلاحات ساذجات في ابتهاج غافلات عن أي خاطرة حول كيف يبدون هن أنفسهن. بل إن بنات الحكام البائسات، وهن فتيات أدنى مستوى من أن يلاحظهن، كن هناك في عربات هُربت ببراعة، معتزات بما حققنه ومهنئات أنفسهن. نعم، كانت هناك مشاهد مسلية تقع عليها العين. بالطبع، كانت هناك الكثيرات ممن تودّد إليهن سراً، واللواتي بمقدورهن الآن أن يتنهدن فقط لأنهن لا يعنين له إلا القليل للغاية.

مضى معالي وزير شؤون المراسم يتابع الموكب من منصة. حدَّث نفسه وقد غمره شعور بخشية غامضة: كلما كبر غدا أكثر وسامة على نحو يأخذ الألباب، يقيناً إنه لا بد له من أن يستقطب حتى عيون الآلهة! وبالنسبة لابنته[3]، التي عرفت حق المعرفة من الرسائل التي تلقتها من جينجي طوال كل هذه السنين مدى محدودية شبه عواطفه بعواطف الرجال الآخرين، فقد كان حرياً بجينجي أن يكون مبهجاً بقدر كاف حتى ولو كان مظهره عادياً، وراحت تتساءل فيما هي تستشعر جاذبيتها كيف يمكن أن يكون جميلاً على هذا النحو المتألق كذلك. ومع ذلك، فإنها لم ترغب في قدر أكبر من الحميمية معه. وقد أشادت به

(1) تسوبو سوزوكو، الزي المناسب لسيدة محترمة خارج الدار. كانت ترخي قميصاً على رأسها وشعرها ثم تعتمر قبعة عميقة عريضة الحواف، وكانت ترفع تنوراتها قليلاً لتتمكن من السير.
(2) نسوة أكثر تواضعاً في المكانة من أن يرتدين تسوبو سوزوكو يضعن شعرهن تحت ردائهن الخارجي عندما يكن خارج الدار.
(3) أساجاو.

وصيفاتها الشابات إلى أن تمنت أن يتوقفن.

لم تكن هناك متنزهات من دار معاليه في يوم المهرجان بمعناه الأوسع نطاقاً[1]. وتلقى جينجي بشعور بالصدمة والاستياء من رجاله الصورة الكاملة للشجار الذي حدث في اليوم السابق حول مكان العربات. حدَّث نفسه: واحسرتاه، فهي على الرغم من مكانتها تفتقر إلى الرقة واللباقة، ولا يمكن أن تكون قد قصدت حدوث ما جرى حقاً، ولكنني أعتقد أنها لا ترى كبير مبرر لتفكير إحداهما في الأخرى بحرارة ودفء بحيث أن رجالهما قد أخذوا على عواتقهم التصرف على النحو الذي لجؤوا إليه. و«الملاذ» متحفظة وشديدة الحساسية بطبيعتها، ولا بد أن ما جرى كان بالنسبة لها تجربة فظيعة.

انطلق مباشرة ـ وقد استبد به القلق ـ لزيارتها. لكن ابنتها، كاهنة آيسي، كانت لا تزال بالدار، وقد طرحت تبجيل شجرة الساكاكي المقدسة كعذر لإبعاده[2]. وقد تفهم الأمر تماماً، غير أنه لم يستطع الحيلولة دون أن يهمس لنفسه: «ولكن لماذا؟ إنني أتمنى لو كان بوسعهما كليهما أن تكونا أقل غيظاً إحداهما من الأخرى!».

في ذلك اليوم سعى إلى العثور على ملاذ في نيجو، الذي انطلق منه لمتابعة المهرجان. عبر إلى الجناح الغربي[3] وجعل كوريميتسو يأمر بإعداد العربة. «هل أنتن أيتها الوصيفات ذاهبات أيضاً؟»[4]. هكذا تساءل، ومضى يرقب، وكله ابتسام، بينما كانت السيدة الصغيرة تعد نفسها للخروج على نحو جميل للغاية حقاً. قال: «أقبلن إذاً، فلنشاهده سوياً!».

كان شعرها أجمل من أي وقت مضى، فأشار وهو يمسده: «يبدو أنك لم تشذبيه منذ دهور. أتصور أن اليوم هو يوم مناسب لذلك[5]. دعا بخبير في التقويم، وأمر بسؤاله

(1) في ذلك اليوم كانت الكاهنة العليا تمضي إلى مزار كامو.

(2) لدى تعيين الكاهنة العليا كانت تنتقل إلى مقر خاص في القصر، وهناك تمر بالتطهير حتى الشهر السابع من العام التالي، حيث كانت تمضي أخيراً إلى آيسي. غير أن انتقالها في هذه الحالة يبدو أنه قد تأخر. وفي غضون ذلك تم تطهير دارها، ووُضعت فروع من شجرة الساكاكي المقدسة عُلقت عليها رايات من القماش أو الورق عند الأركان الأربعة والبوابة، لتميز المكان باعتباره مطهراً طقوسياً.

(3) حيث تقيم مورا ساكي.

(4) يخاطب جينجي رفيقات مورا ساكي في اللعب مداعباً باعتبارهن فتيات كبيرات.

(5) يوم ميمون بحسب التقويم.

عن الساعة المناسبة. «أقبلن الآن أيتها الوصيفات!»، قالها، وهو يتأمل الصورة البهيجة التي قدمتها الطفلات. برز مفرق شعرهن الفاتن الممتد في جرأة قدماً بشكل حاد قبالة سراويلهن الخارجية ذات الزخارف الدمقسية.

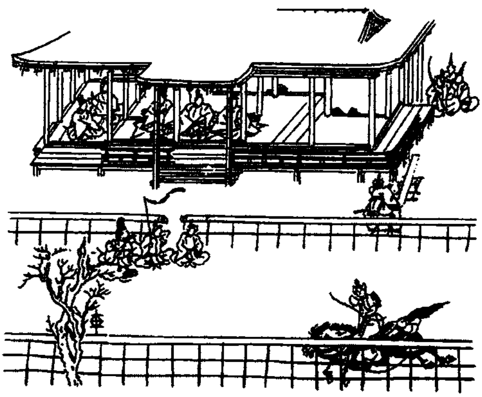
«لسوف أمشط شعرك بنفسي. ولكن آه، ما أشد كثافته! ترى إلى أي طول سيمتد نموه!». لم يدر ما عساه يفعل بعد ذلك. «الناس ذوو الشعر الطويل للغاية يبدون مع ذلك وقد جعلوه قصيراً عند الجانبين، ولكنك ليست لديك خصلات نافرة على الإطلاق! أخشى أنك لن تظهري بمظهر جميل للغاية!»[1]. عندما فرغ من مهمته تمنى أمنية «الألف قامة»، بينما تابعته شوناجون في سرور وامتنان عميق.

قال:

«خصلات من أعشاب بحر ثرية من أعماق محيط لم يُسبر له غور، طولها ألف قامة،

أنت ملكي وحدي، أراك كل يوم فيما تكبرين[2]».

كتبت على رقعة من الورق، وقد بدت في آن كبيرة وفي الوقت نفسه يانعة للغاية وصغيرة بحيث أن رؤيتها تثير الشعور بالبهجة:



ركوب الخيل في السرادق

(1) يقول جينجي إن السيدات ذوات الشعر الطويل تظل لهن مع ذلك خصلات جانبية أقصر (هيتاي جامي، الشعر الذي يتدلى من الصدغين على الخدين) لكن هيتاي جامي في حالة مورا ساكي تبدو طويلة كباقي شعرها. وإعرابه عن حزنه لأنها «لن تظهر بمظهر جميل» ليس جدياً.

(2) يبدو أنه كان من المألوف تمني أن ينمو شعر صبية ليمتد بطول «ألف قامة». وقصيدة جينجي تقارن في معرض المديح شعر الفتاة الصغيرة بعشب البحر، وهي تقدم تلاعباً على ميرو (نوع من العشب البحري) و(وميرو) «أري»، بمعنى «أمتلك» [زوجة]).

«كيف لي أن أعرف ما إذا كانت ألف قامة تقيس حبك أيضاً

بينما أمواج المد دائبة التغير تمتد وتنحسر في قلق بالغ؟»

لم يكن هناك اليوم من جديد موضع لعربة واحدة أخرى. ولم يعرف جينجي إلى أي مكان يمضي، فانتظرت العربة قرب سرادق أرض الركوب[1]. أشار بقوله: «الازدحام فظيع هنا، مع وجود كل عربات كبار النبلاء هذه». وراح يتساءل عما إذا كان عليه أن يمضي قدماً، عندما برزت مروحة تشير لأحد رجاله من عربة بديعة تنسدل منها وفرة من الأكمام المتألقة.

استفسرت شاغلة العربة: «ألا تحب أن تركن عربتك هنا؟ إنني أتنازل لك عن مكاني».

تساءل جينجي أي نوع من النسوة المغناجات يمكن أن تكون، ولكن بما أن هذه البقعة كانت جيدة حقاً، فقد أمر بدفع عربته إليها. ورد قائلاً: «إنني أحسدك على التوفيق في العثور عليها».

عند هذا كسرت قطعة من مروحة مزينة على نحو جميل[2]، وكتبت عليها:

«آه، ما أقسى ذلك! اليوم عندما أنبأني حديثنا زهرتنا قلباً لقلب بأن الرب

بارك لقاءنا، أدركت أن أخرى تتزين بهاتيك الوريقات»

لا ينبغي أن أفرض نفسي..»[3].

عرف الخط، فقد كان خط السيدة من طاقم البلاط. كيف ستلعب دور الشابة المرحة على الرغم من سنوات عمرها! أحس بما يكفي من الضيق لكي يدمدم:

---

(1) كانت أرض الركوب ([ساكون نو] بابا) تقع قرب تقاطع إتشيجو ونيشي نو توين، وكان السرداق (أوتودو) القائم هناك يقع حيث جلس النقباء والملازمون خلال وقائع ركوب يابوسيمي، التي جرت في اليومين الثالث والخامس من الشهر الخامس. ومن أجل المهرجان فإن الكاهنة العليا كان من المقرر لها أن تهبط من مقرها المؤقت الواقع في شمالي المدينة، وتمضي شرقاً على امتداد إتشيجو وصولاً إلى مزار كامو.

(2) ربما كانت هيوجي، متخذة من قطع من خشب شجر السرو (هينوكي). وربما كتبت على إحدى هذه القطع.

(3) تعبير «لا ينبغي أن أفرض نفسي» الذي يشكل استمرارية للحالة المزاجية التي تعبر عنها القصيدة يعتمد على مفردات خاصة بمهرجان مقدس.

«سأقول إن رغبتك في التزين بزهرة القلب للقلب كانت عابثة للغاية،

عندما يجمع هذا الملتقى الرجال من قبائل لا تحصى».

ردت، وقد جُرحت بعمق:

«لكم أندم على يوم رغبت فيه بالتزين بزهرة القلب للقلب، هاتيك الوريقات الخؤون،

التي بما لا يتجاوز الاسم تحرك خفقات أمل حمقاء!»

أصيبت سيدات كثيرات بخيبة الأمل لإدراك أن إحداهن معه وأنه لم يبادر حتى إلى رفع الستائر، وحدثن أنفسهن: في ذلك اليوم كان على حق تماماً، ولكنه اليوم يقيناً يقوم بنزهة عابرة. من عساها تكون؟ إذا كانت معه فلابد أنها تستحق أن تراها العيون.

يا له من اشتباك مقيت حول زهرة القلب للقلب! أحس جينجي بالضيق. من المؤكد أن أي امرأة أقل تجرداً من الحياء من تلك المرأة كان حرياً بها أن تبدي الاحترام للسيدة الجالسة بجواره وأن تحجم عن إلقاء أجوبة سريعة متسمة بالاندفاع.

لم يكن قد سبق لملاذ روكوجو من قبل قط أن عرفت على امتداد كل السنين مثل هذا البؤس والاضطراب. أما فيما يتعلق بحبيبها القاسي فقد تخلت عنه ويئست منه، ولكنها كانت تعرف كم ستفتقده لو أنها قطعت بالفعل صلتها به ومضت إلى آيسي، وقد خشيت كذلك من أن تتعرض للسخرية لقيامها بذلك، غير أن فكرة البقاء في نهاية المطاف تركتها خائفة من التعرض مجدداً للاحتقار الفظيع، الذي عانت منه بالفعل. «هل أنا فلينة معلقة بخيط الصياد؟»[1]. هكذا راحت تسأل نفسها في غمار المعاناة ليلاً ونهاراً، وربما كان هذا هو السبب في أنها عاشت مريضة طال بها المرض، وقد بدا ذهنها لها كما لو كان قد شرد عنها.

لم يشدِّد جينجي قط على أن من الجنون بالنسبة لها أن تمضي إلى آيسي، لكنه جادل فقط قائلًا: «إنني أتفهم تماماً أنك ينبغي ألا ترغبي في رؤيتي، باعتباري إنساناً لا قيمة له. ولكن حتى إذا كنت الآن قد ضقت ذرعاً بي، فسوف يكون مع ذلك أكثر رقة من جانبك أن

(1) كوكينشو 509: «هل أنا فلينة معلقة بخيط صياد، يصيد في خليج آيسي، فأعجز عن اتخاذ قراري؟».

تواصلي استقبالي». وقد أحدث هذا عاصفة التطهير[1] الذي شهدته فحسب، لتخفف عن نفسها عناء التردد، الذي غدا بالنسبة لها مقيتاً أكثر من ذي قبل.

في دار معالي وزير الميسرة كانت روح، فيما يبدو، تجعل السيدة في حالة سيئة للغاية، الأمر الذي أفزع عائلتها، ومن ثم فإن هذا لم يكن بالنسبة لجينجي وقتاً يتابع فيه المغامرات في مكان آخر، ولم يفلح إلا في لحظات شاردة في زيارة نيجو. وآلمه بعمق إن إنسانة حظيت باهتمامه تعاني بهذه الطريقة، خاصة في حالتها الدقيقة بالفعل، وجعل العديد من الصلوات والطقوس تُؤدى من أجلها في جناحها داخل الدار.

أقبلت أرواح وأشباح حية عديدة[2] وأفصحت عن هويتها بشكل أو بآخر، لكن واحدة منها رفضت الانتقال إلى الوسيط، وبدلاً من ذلك تشبثت بالسيدة نفسها، وعلى الرغم من أنها لم توقع بها ضرراً عظيماً، إلا أنها لم تغادرها قط. وكانت مقاومتها حتى لأكثر المعالجين قدرة عنيدة على نحو غير مألوف.

بعد تمحيص كل النساء اللواتي كانت لجينجي صلة بهن، بدأ الناس في التهامس بأن ملاذ روكوجو والسيدة المقيمة في نيجو هما وحدهما اللتان تستقطبان أعمق مشاعره، بحيث أن أياً منهما قد تكون شديدة الغيرة، ولكن العرافة التي تم القيام بها بناءً على إصرار معاليه لم تفض إلى التوصل لشيء واضح. ولم تكن أي من الأرواح الأخرى معادية بصورة خاصة، فقد بدت إحداها مرضعة متوفاة، بينما كانت الأخريات كيانات أخرى أزعجت عائلتي أبويها على امتداد أجيال، لكن هذه الأرواح لم تكن خطيرة، ومضت تعلن عن حضورها بصفة عشوائية فحسب بسبب حالة الضعف التي ألمت بها. أما هي فلم تحر إلا البكاء والمزيد من البكاء. وفي بعض الأحيان تقيأت، ومضت تعاني معاناة لا سبيل إلى احتمالها إلى حد أن أبويها تساءلا في خوف وحزن عما حلَّ بها.

توالت الاستفسارات من نيافته، الذي جعلت عنايته المفرطة الرحيمة، المعبر عنها في الصلوات التي كانت لطفاً منه قد جعلها تُقام من أجلها، إنقاذها يبدو أمراً أكثر إلحاحاً. وقد

---

(1) بصورة حرفية «شلالات غدير التطهير العنيفة» (ميسوجيجاوا، الغدير الذي يتدفق أمام مزار كامو).

(2) «الأرواح» (مونونوكي) هي أرواح الموتى، أو الكائنات الأخرى الفائقة للطبيعة، وهي بصفة عامة كيانات مثيرة للمتاعب. «الأشباح الحية» (إيكيسوداما) هي أرواح أشخاص أحياء مفعمة بالحقد والغل.

انزعجت ملاذ روكوجو عندما علمت أن الدنيا بأسرها تخشى على حياة السيدة النبيلة. ولم يخمن أحد في دار معاليه أن ذلك الشجار الصغير حول موقف العربات قد أجَّج في فؤادها لهيب تنافس كان قد ظل حتى الآن هاجعاً على مدار سنين عديدة.

أقنعها مزاجها المعتكر بأنها ليست على حالها الطبيعية، فانتقلت إلى مكان آخر للقيام بطقوس شافية. وجعلت هذه الأخبار جينجي يتساءل بتعاطف قلق أي حالة ذهنية دفعتها إلى القيام بهذا دفعاً، وعقد العزم على المضي لزيارتها، فذهب بحذر بالغ، حيث أنها لم تكن هذه المرة في دارها. ومضى مطولاً يسألها الصفح عن إهماله غير المقصود لها في الفترة الأخيرة، وناشدها في هذا الصدد، ورسم لها صورة لحالة السيدة التي داهمتها المحن.

أوضح جاداً: «إنني أنا نفسي لا أشعر بالقلق للغاية إلى هذا الحد، ولكنني تأخذني الرأفة بأبويها، اللذين يشعران بالقلق على نحو يائس. وهكذا، كما ترين، فقد حدَّثت نفسي بأنني ينبغي عليَّ البقاء إلى جوارها في الوقت الحالي. وسأكون ممتناً إذا نظرت إلى سلوكي بمزيد من التسامح». وقد أدرك أنها كانت تعاني أكثر من المعتاد، وآلمه أن يرى ذلك.

كان قوامه الراحل، في الفجر بعد ليلة حفلت بما تجاوز ما سبقها، ساحراً للغاية بحيث أنها لم تستطع مفارقته، ولكن الآن وقد أصبح لديه سبب يدعوه لتكريس نفسه أكثر من أي وقت مضى للمرأة التي تحظى بالولاء الأول منه، فلا شك في أنه سيمنحها كل عاطفته. وهذا الانتظار الذي لا نهاية له لن يعني إلا البؤس، وزيارته بين الفينة والأخرى لن تثير إلا يأساً جديداً. وكانت هذه الخواطر تتداعى في ذهنها عندما تلقت رسالة منه، رسالة فحسب، وقرب المغيب: «بدت أفضل قليلاً، ولكنها فجأة سلكت منعطفاً بالغ الحدة نحو الأسوأ بحيث أنني لم أستطع الابتعاد».

بالنسبة لها، كان هذا عذراً آخر من أعذاره، فردت قائلة:

«أعرف حق المعرفة أنه ما من كم لا يبتل من جراء مستنقع الحب،

غير أنني في حمأة ذلك الحقل أعاني في ألم عاجز

كم هو صحيح ذلك البيت عن النبع الجبلي!»[1]

بالنسبة لجينجي، كان خطها يبرز من بين أية مجموعة من الخطوط. حدَّث نفسه: آه، لماذا ينبغي أن يكون الأمر على هذا النحو؟ لقد وقع على نحو حافل بالعناء بين تردده في التخلي عن كل من روحها ومظهرها وعدم قدرته على أن يلزم نفسه بها. ووصلها رده بعد أن حل الظلام بوقت طويل: «وحدهما كماك هما اللذان ابتلا؟ هكذا فإن مشاعرك بلا عمق..

سطحي، إذاً، هو حقل معاناتك، ومختلف تماماً عن حقلي، ذلك أنني منغمس تماماً

في الحمأة العميقة لمستنقع الهوى

أتراني لم أرد عليك بشخصي لا لشيء إلا لأنك تعنين القليل للغاية بالنسبة لي؟».

في دار معاليه، نشطت الروح أشد النشاط، وتعرضت السيدة للمعاناة. وسمعت ملاذ روكوجو أن البعض يصفون هذه الروح بأنها شبحها الحي أو روح سمو أبيها الراحل، ولكنها لدى التأمل في الأمر لم تجد في نفسها إلا بؤسها وما من رغبة على الإطلاق في رؤية السيدة وقد لحق بها الضرر، وذلك على الرغم من أنها سلمت بأن روحاً تضرب هائمة في كرب، على ما نحو يُقال إن الأرواح تفعل. وعلى الرغم من سنوات قضتها في سبر أغوار اليأس إلا أنها لم يسبق لها من قبل قط أن أحست، على نحو ما تشعر الآن، بأنها قُضي عليها تماماً، وبعد التطهر، عندما بدا في غمار تلك الحادثة الحمقاء كأنها قد أُفردت وحدها لتتلقى الازدراء، ولتُعامل كأنما ليس لها وجود، عرفت أن ذهنها، الذي شرد منها لوقت قصير غدا بعيداً حقاً عن مطال سيطرتها، وربما كان هذا هو السر في أنها قد حلمت مراراً، لدى إغفائها، بأنها قد مضت إلى حيث كانت هذه السيدة (كما افترضت) ترقد في ثيابها المترفة، ومضت تدفعها وتجذبها وتضربها بعنف مميت غريب عن ذاتها اليقظة. ومرة إثر أخرى ساورها الشعور بأنها غريبة عن نفسها وأنها ويا للهول قد مضت تضرب

(1) تطور قصيدة روكوجو تلاعباً بلفظه كويجي («حقل أرز مليء بالطين [يغمره الماء]» و«درب الهوى»)، وملاحظتها الأخيرة تعني: «صحيح أنك لا تكترث بي». كوكين روكوجو 987: «ما أشد مرارة أسفي على اغترافي الماء من النبع الجبلي الذي كان سطحياً للغاية بحيث أنني بللت كميَّ فحسب».

هائمة بعيداً عن جسمها، إلى أن أدركت أنها حتى لو كانت على خطأ، فإن الدنيا تتحدَّث بابتهاج عن أي شخص تنسج الحكايات الحسنة عنه في كل مكان. وعرفت أن الحديث سيدور عنها في أرجاء الدنيا. لا شك أنه من الأمور المألوفة بما فيه الكفاية أن يترك المرء وراءه غلاً لا يبقى نشطاً ومؤثراً بعد موته، وهذا وحده ـ عندما يُقال عن شخص آخر ـ من شأنه أن يثير الاشمئزاز والخوف، ولكن أن يكون مصيرها المأساوي أن يُقال أي شيء بمثل هذه الفظاعة عن نفسها وهي لا تزال على قيد الحياة! لا، إنها عاجزة عن أن تظل مرتبطة بمثل هذا الحبيب القاسي للغاية. هكذا كانت أفكارها، ولكن حالتها كانت حالة «محاولة النسيان بأقصى ما يمكن»[1].

كان من المقرر أن تمضي الكاهنة العليا إلى القصر في العام السابق[2]، لكنها صعوبات مختلفة حالت بينها وبين القيام بذلك حتى هذا الخريف، وتقرر أن تنتقل في الشهر التاسع مباشرة إلى المزار القائم على الأرض السبخة[3]، الأمر الذي كان معناه أن الاستعدادات للتطهير الثاني كان يتعين أن تنطلق بصورة عاجلة في الوقت نفسه، ولكن ملاذ روكوجو حلَّ عليها تعب غريب، وأمضت جلَّ وقتها في تأمل قانط، الأمر الذي أثار قلقاً عميقاً من جانب مساعدي الكاهنة العليا، الذين أقاموا صلوات من كل نوع[4]. ومع ذلك فإن حالتها لم تكن تنذر بكارثة بالفعل، واجتازت الأيام والشهور من دون أن تبدو عليها أي أعراض واضحة. وغالباً ما كان جينجي يزورها، ولكن السيدة التي كان يدين لها بالإخلاص استبد بها المرض إلى حد أنه ظل مشغول البال بصورة بالغة.

لم يكن الأوان قد آن، ولم تكن عائلتها متأهبة، عندما بدأت فجأة تفصح عن مؤشرات جلية لقرب وضعها لحملها وتعاني من الألم، وجرى التكليف بأداء صلوات أقوى

---

(1) من قصيدة ملغزة (جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو إنيوواكا 76) مبنية على التبعات العديدة للفعل أومو: «محاولاً النسيان بأقصى ما يمكن، أتذكر فحسب، لماذا عندما يحاول المرء النسيان فإنه لا ينسى؟».

(2) كانت كاهنة آيسي تُعين عن طريق العرافة في مستهل العهد الجديد، وكانت تطهر نفسها أولاً على ضفة نهر كامو التطهير الأول ثم تدخل شوساي – إن (قاعة التقشف الأول) داخل مجمع القصر. وفي خريف العام التالي تقوم بالتطهير التالي، ثم تدخل المزار القائم على الأرض السبخة، وكانت تمضي إلى آيسي في الشهر التاسع من العام التالي، بعد المزيد من التطهير في نهر كاتسورا.

(3) نونوميا، مزار مؤقت مبني لهذا الغرض على سبخة ساجا (ساجانوا) إلى الغرب مباشرة من المدينة.

(4) لو أنها أصبحت مريضة بصورة غامضة، فإن وجودها سيلوث المجال المقدس الذي تشغله ابنتها.

بأعـداد كبيـرة، ولكن تلك الـروح الواحدة الأكثر عناداً أبت الخـروج، إلى أن دهش أقوى المعالجين عندما وجدوا أن جهودهم تذهب سـدى. وعلـى الرغم من ذلك فإن هجومهم كان مـن الضـراوة بحيث أن الـروح بكت في بؤس وصاحت: «آه، كونوا أرق حاشـية معي لطفاً! لديَّ شيء أود أن أقوله للقائد!».

تهامست النسوة فيما بينهن: «ألم أقل لكنّ؟ الآن سنعرف جلية الأمر!».

أدخلن جينجي إلى داخل الستائر التي أحاطت بمرقدها. بدا جلياً للغاية أنها تحتضر إلى حد أن معاليه وسموها قد انسحبا قليلاً، حيث أدركا أنها قد تكون لديها كلمة أخيرة تحدثه بها. مضى الرهبان ينشدون سوترا اللوتس، ولكنهم عندئذ خفضوا صوتهم، محدثين تأثيراً باهراً. رفع السـتار وأطل إلى الداخل. كان حرياً بأي شـخص، وليس زوجها فحسـب، أن يتأثـر لرؤيتها راقدة هنالـك، بالغة الجمال وببطن كبيرة جداً، ولمـا كانت زوجته حقاً، فقد غلبه بالطبع الإشفاق والندم. امتد شعرها الطويل، الغزير، المجعد عند طرفه إلى جوارها، فـي مفارقة جلية مع ردائها الأبيض. حدَّث نفسـه بأنها أقرب إلى القلب وأجمل مما كانت عليه في أي وقت مضى.

أمسـك بكفها. «هذا فظيع! يا له من شيء يُرتكب ضدي!». عندما أسكته البكاء، رفعت إلـى محيـاه نظرتهـا المحدِّقة الآخذة في الانحسـار، التي كانت في الماضـي مفعمة باللوم والرفض، وتحدرت الدموع من عينيها. كيف كان يمكن ألا يتأثر بعمق؟

بكـت علـى نحو مثير للإشـفاق للغاية إلى حد افتـرض معه أن خواطرهـا انصبت على أبويها الغارقين في الحزن، وكذلك على الألم النابع من مغادرتها له. قال مهدئاً: «ينبغي ألا تفكـري أكثر من اللازم في هذا كله، فلسـوف تكونين على ما يـرام في نهاية المطاف. على أية حال، فإنه مهما كان ما يحدث، سوف نلتقي أنا وأنت مجدداً. الناس يلتقون. تذكري أي رابطة وثيقة تربطك بمعاليه وسـموها، لأنها سـتظل بلا انفصام علـى امتداد حيوات مقبلة، ولسوف تكونين معهما مجدداً».

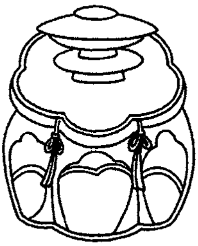
رد عليه صوت رقيق: «لا، لا، إنك لا تتفهم جلية الأمر. كل ما هنالك هو أنني تمنيت أن تأمرهـا بتخفيف الخناق عني قليلاً، لأنني أعاني أشـد الألم. لم أرد القدوم على الإطلاق،

ولكـن كمـا تـرى فإنه مـن الصحيح حقاً أن روح شـخص ما يتخبـط في غمـار المعاناة قد تضرب في الآفاق بعيداً.

روحي هذه التي تمضي، متنهدة ومتعذبة، تضرب في عليين،

آه، أوقفوها الآن، اربطوا عقدة حيث يلتقي الهدبان»[1].

لم يكن الصوت ولا الأسـلوب لها، وإنما كانا لشـخص آخر. وبعد لحظة صدمة، أدرك أنه بحضرة ملاذ روكوجو. يا للحسـرة، فإن ما نحّاه جانباً حتى الآن باعتباره شـائعة مغرضة روَّجها الجاهلون برهن الآن على أنه صحيح على نحو جلي، ورأى باشـمئزاز أن مثل هذه الأمور تحدث حقاً. «إنني أسـمع صوتك، لكنني لا أعرفك. لطفاً، أوضحي لي من عسـاك تكونيـن!». في مواجهـة فزعه المفهوم، لم تكن الإجابة محل شـك. أخذته الرعدة لتصور الوصيفات اللواتي أقبلن على سيدتهن آنذاك.



كوب ماء للحمام على حامل

عندما هدأت حدة صرخاتها قليلاً، جلبت أمها ماءً علاجياً ساخناً، تأهبـاً لاحتمـال نجاتهـا، ثـم تم رفعهـا عاليـاً، وسـرعان مـا وضعت حملهـا[2]. ولـم تعـرف بهجـة أبويهـا حـدوداً، ولكـن الأرواح التي طردهـا المعالجـون[3] أحدثـت عندئذ ضجة وحشـية، قوامها الحنق المفعـم بالغيرة. وكان ما بقي ممـا ينتظر قدومه[4] لا يزال مصدر قلق عظيـم. وعندما انتهى كل شـيء في نهاية المطاف بصـورة طيبة، ولا شك في أن ذلك يرجع إلى الصلوات العديدة التي تجددت بأعداد تتجاوز الحصر، جفف رئيس دير رهبان الجبل وكبار الرهبان الآخرين عرقهم ظافرين وانصرفوا مسرعين.

الآن أفسح القلق الحاد والعام المجال للهدوء، وفي النهاية تنفس أبواها الصعداء. وأمر

(1) قصيدة - رقية قديمة يتعين تكرارها من قبل شخص رأى شبحاً، تأمر المتحدِّث بعقد الهدبين المتداخلين عند مقدمة ردائه أو ردائها.

(2) رفعتها وصيفاتها لتتخذ وضع الإقعاء المعتاد في ذلك الحين. وكان الماء العلاجي الساخن يقدم للولادة.

(3) طردها المعالجون (كتبة بوذيون من الذكور)، إلى وسيطات مرافقات، من خلالهن يقوم المعالجون بالتحقيق معها وطردها (أوبويبا شيناي) كانت تقام في المساء الثالث والخامس والسابع والتاسع بعد الولادة. وكان الضيوف يجلبون هدايا من الطعام والملابس للوليد.

(4) ما بعد الولادة.

معاليه بإجراء جولة من طقوس الحماية، ولكن السعادة هيمنت، وجعل الابتهاج الاستثنائي الجميع يتخلون عن حذرهم. وشهد نيافته وسمو الأمراء وكبار النبلاء جميعاً احتفالات الميلاد الرائعة، التي أضفت الحيوية على الأمسيات المتتابعة[1]. وقد كانت هذه الأحداث متألقة ومرحة لأن الوليد كان فوق ذلك صبياً.

هزت هذه الأخبار ملاذ روكوجو هزاً، فأعربت عن دهشتها في صمت: كان يُفترض أنها تدنو من الموت، والآن ها هي قد وضعت حملها من دون جهد يذكر! كانت لا تزال تشعر بأنها غريبة عن نفسها، وانبعثت من ملابسها رائحة بذور الخشخاش[2]. وللتخفيف من حدة هواجسها حاولت غسل شعرها وتبديل ملابسها، ولكن الرائحة ظلت عالقة بها إلى أن أصبحت تنظر إلى نفسها باستفظاع، وبالطبع تنوح في قرارة نفسها (حيث لم يكن هذا بالموضوع الذي يمكن أن تناقشه) على ما لا بد أن الآخرين يقولونه عنها. وفيما كانت تقوم بذلك غرقت في حالات ذهنية أكثر اضطراباً.

أخذت الرعدة جينجي، الذي بات الآن أقل قلقاً بقليل عن ذي قبل، وهو يتذكر تلك اللحظة الفظيعة التي خاطبته فيها الروح على نحو مفزع للغاية. وقد عرف أنه كان قد أخطأ بإهمالها هذا الوقت الطويل، ولكنه ساورته شكوك جدية حول طبيعة مشاعره في حضورها، وبعد تأمل الأمر بعناية (حيث لم يرغب في أن يكون قاسياً) اكتفى بأن يبعث إليها برسالة فقط.

كان أبواها ما زالا قلقين، حيث خشيا عواقب مثل هذا المرض الخطير. وأحجم جينجي في لباقة عن القيام بجولاته الخاصة. لم تكن قد أصبحت بعد على قدر كاف من العافية يتيح لها استقباله كما كانت تفعل عادة. وكان الصبي الوليد بالغ الوسامة، وفي حقيقة الأمر أنه كان وسيماً على نحو يثير القلق، حتى أنه سرعان ما أسر لبَّ جينجي. وقد ابتهج معاليه لأن الأمور سارت على ما يرام، في نهاية المطاف، لولا القلق على أن ابنته لا يزال يتعين أن تسترد عافيتها، ولكنه عزا ذلك إلى صعوبة التغلب على كل ما عانته، وفي حقيقة الأمر أنه لم يكن لديه من الأسباب ما يدعوه إلى التخوف كثيراً.

---

(1) الحفلات.

(2) كانت بذور الخشخاش تنثر على نار جوما المقدسة خلال الطقس، الذي يقام للتغلب على روح وقهرها.

وحين رأى جينجي مدى الشبه الكبير بين الصبي وولي العهد، فقد استسلم لذكريات أثيرة، ومضى لزيارة القصر. قال عاتباً: «إنني أحس بالذنب لأنني لم أر جلالته لوقت طويل للغاية، أما الآن فإنني أمضي لزيارته أخيراً، وآمل أن أقترب قليلاً للحديث معك، فمن القسوة البالغة منك أن تواصلي إبعاد نفسك عني على نحو ما تفعلين» [1].

ردت إحدى الوصيفات: «حقاً، يا سيدي، ليس هناك ما يدعوكم أنتم وسيدتي إلى أن تتحفظا في حضرة بعضكما، وعلى الرغم من أن سيدتي مرهقة للغاية، إلا أنه ما من سبب يدعو لوجود ستارة تفصلكما».

أعدت الوصيفات مقعداً قرب المكان الذي رقدت فيه، ودلف إلى هناك ليتجاذب معها أطراف الحديث. وكانت حتى في غضون ذلك بالغة الوهن، على نحو ما أوضحت ردودها. ومع ذلك فإن ذكرى الاعتقاد بأنه قد فقدها حقاً بدت حلماً، وفيما هو يحدثها عن مخاوفه بشأنها آنذاك، داهمته الذكرى الكئيبة لكيفية أنه، بينما كانت راقدة هناك وكأنما فارقتها الحياة، انبعث منها على حين غرة ذلك الدفق من الحديث. قال: «آه، لديَّ الكثير لأحدثك به، لكنهم يبلغونني، كما ترين، بأنك لست في حالة تتيح لك سماعه. عليك بتناول دواءك». استرسل في الحديث، وبسبل أخرى جعل نفسه مفيداً للغاية إلى حد أن وصيفاتها تأثرن كثيراً، وتساءلن متى استطاع أن يتعلم هذا كله. أثار مرآها وهي راقدة هناك، بالغة الحسن، ومع ذلك شديدة النحول والوهن إلى حد أنها بدت بالكاد في صفوف الأحياء، حبه وأعمق مشاعر تعاطفه. وبدا له الشعر المسترسل على امتداد وسادتها وما من خصلة واحدة في غير موضعها أعجوبة، وراح يحدِّق فيها، فألفى نفسه عاجزاً عن إدراك كيف أنه كان بوسعه على امتداد هذه السنين أن يجد أي عيب فيها.

«سأزور نيافته أيضاً، ثم سأرجع بسرعة بالغة، وسأبقى معك سعيداً على هذا النحو طوال الوقت، ولكن سموها تلازمك دائماً، وأخشى أنني قد حلت بينها وبين القدوم إليك حرصاً منها على مراعاة مقتضى الحال. وعلى الرغم من ذلك، فإنه في غرفتك المألوفة، وعندما تكونين قد استرددت صحتك تدريجياً.. من أسباب عدم تحسن صحتك أنك تعاملين نفسك أكثر من اللازم كأنك طفلة صغيرة». عندما فرغ من حديثه، خرج في ثيابه

(1) إنه يتحدَّث إلى أوي عبر وصيفة.

الرائعة، بينما رقدت هي هنالك، ومضت ترقبه يمضي وقتاً أطول من المعهود.

غادر معاليه بدوره إلى البلاط، حيث أن تعيينات الخريف كان ينبغي أن تُعلن[1] وانطلق معه أبناؤه كافة، الذين كانت لهم طموحاتهم الخاصة.

عـمَّ الهـدوء الـدار، حيث لم يكـن فيها أحـد إلا بالكاد، وفجـأة دهمتها نوبـة عنيفة من التقيؤ. وقبل أن يكون بالإمكان إخطار القصر كانت قد رحلت. انكمش كل من كانوا هناك في غمار الصدمة، وبغض النظر عن أمسـية قائمة التعيينات، فقد بدا جلياً أن هذه النازلة قد وضعت نهاية للإجراءات. لم يسـتطع معاليه اسـتدعاء كبير رهبان دير الجبل أو أي راهب كبيـر آخـر، لأن الليل كان قـد حل عندما علا الصـراخ، ومضى أهل الـدار، الذين كانوا قد ظنـوا أن الخطر قد انحسـر، يتعثـرون في أرجائها، كأنما فقدوا البصـر في غمار فزعهم. لم يجد المبعوثون الذين أقبلوا متزاحمين من قريب وبعيد من يحادثونه، لأن الاضطراب ساد كل شـيء، وبدا حزن الأبوين المفعم يأسـاً مخيفـاً حقاً. كانت الروح قد تلبسـتها كثيراً في الماضـي إلـى حد أنهما راحا يرقبان الأمـر يومين أو ثلاثة أيام دون نـوم[2] إلى أن أقنعتهما مؤشرات التغير أخيراً، في غمار بؤسهما، بالتخلي عن الأمل.



إحراق الجثث

(1) كانت التعيينات تُعلن في كل ربيع وخريف، وكان وزير الميسرة، وهو المسؤول غير الإمبراطوري الأرفع في البلاط، يتولى رئاسة هذه الفعالية.

(2) كانت الوسادة المكان الذي ترتاح فيه الروح. ولو أنها تم تحريكها، لربما أخفقت الروحَ في العثور على الجسم ثانية إذا عادت الحياة.

كان جينجي قد عانى ضربة بعد الأخرى فأصبحت الحياة بالنسبة له شيئاً لا يحتمل، ولم تثر التعازي التي قدمها أقرب الناس إليه إلا نفاد الصبر المفعم بالضيق. وكانت التعبيرات عن الحزن والتعاطف من نيافته لا تزال شرفاً عظيماً، وقد بكى معاليه بلا انتهاء، مع أنه لا يزال لديه ما يدعوه إلى الابتهاج. وبإلحاح من جانب من حوله أمر بإقامة طقوس من كل نوع، في حال عودة ابنته إلى الحياة، وفي غمار عذابه أصر على المضي قدماً في ذلك، حتى عندما بدت آثار التغير بالغة الوضوح، ولكن بعد المرور العبثي لعدة أيام استسلم للمقادير، في نهاية المطاف، وحملوها إلى توريبينو وسط مشاهد من الحزن الفاجع.

على الرغم من أن الأرض المحيطة بالدار رحبة، إلا أنها ازدحمت بالمعزين الذين قدموا من مناطق قريبة ونائية، وكذلك بالرهبان من معبد إثر آخر، والذين مضوا إلى هناك ليرددوا «اسم أميدا». أقبل مبعوثون من جلالته ومن ولي العهد، دع جانباً نيافته، ومضوا وسط المبعوثين الذين قدموا من لدن آخرين، وعبّروا جميعاً عن أعمق الحزن.

لم يستطع معاليه النهوض. قال باكياً في خجل أمام العديد من المعزين المتعاطفين معه: «الآن، في سني هذه، فقدت ابنة قلبي ميعة صباها. وكل ما أملكه هو أن أتلوى على الأرض ألماً». تواصلت الطقوس الصاخبة طوال الليل، لكنه عندما عاد إلى الدار، قُبيل الفجر تماماً، لم يحمل معه إلا بقايا قليلة بائسة[1].

غالباً ما تنهال ضربات مثل هذه، ولكن بلا شك لأن جينجي لم يعرف منها إلا القليل ـ ربما ضربة واحدة ـ[2] فقد التهمته في غمار حزنه على رحيل زوجته نيران الحنين[3]. وكان القمر لا يزال عالياً في السماء عند الفجر، حيث مضت الليلة الثانية عشرة من الشهر الثامن، مانحاً الكثير من الإشفاق على السماء التي شرع النور يغمرها، عندما راح جينجي، في توافق دقيق مع مشاعر معاليه الذي رآه يجوب المكان تحت جنح ظلام مغموراً بحزن الأب، يحدِّق عالياً، محزوناً، ويغمغم:

«لا، ليس بمقدوري أن أحدد أين ينبغي لعينيَّ أن تنشدا عالياً الدخان الذي رأيته يتصاعد،

(1) عندما عادت العائلة إلى الدار، حمل تابع الرماد في وعاء خاص.

(2) ربما وفاة جدته، أو وفاة يوجاو.

(3) إيماءة مقصودة كذلك إلى النار التي التهمت جثمان أوي.

لكن السماء بأسرها فوقي تدفعني إلى خواطر الفقدان الحزينة».

عندما عاد إلى دار معاليه، جافاه النوم، وانداحت في خاطره صورها على نحو ما عرفها على مرِّ السنين، وراح يتساءل في ندم عبثي عن السر في أن الضيق استبد بها على هذا النحو الهائل حيال كل مغامرة من مغامراته العابرة، التي قام بها بينما كان يفترض راضياً عن نفسه أنها ستغير رأيها فيه بالفعل، وفي أنها قد دأبت حتى النهاية على كرهه بشدة. وبدا له كالحلم ارتداء ثياب رمادية، ودفعته الخاطرة المتمثلة في أن اللون الرمادي الذي كانت ستتشح به لو أنه مات قبلها[1]، كان يمكن أن يكون أكثر قتاماً إلى القول:

«قد لا أفعل المزيد، ولون رداء الحداد الذي أرتديه رمادي فاتح،

لكن دموعي على كميَّ تجمعت في برك عميقة».

مضى ليردد «اسم بوذا»، وقد بدا أشد حسناً من أي وقت مضى، وقد تجاوز ترتيله الرصين لفقرة من الكتاب المقدس «آه، يا سيدي فوجين، يا من ترى الكون الظاهر بأسره»[2] ترتيل أكثر الرهبان دربةً. ومن شأن مشهد وليده أن يدفع دموعاً جديدة إلى «أعشاب الذكرى»[3]، ومن ذلك فإنه من دون هذا التذكار؛ منحته هذه الخاطرة بعض الراحة.

كانت حالة سموها قد تراجعت للغاية إلى حد أنها لم تعد تنهض من فراشها على الإطلاق، إلى أن بدت بدورها على مشارف الموت، وفي نهاية غمار اضطراب كبير أمر معاليه بإقامة الصلاة من أجلها كذلك. وأمر بالصلوات في ذكرى رحيل الفقيدة[4]، حيث كانت الأيام تنقضي سراعاً وجلها تتسم بالجلال البالغ لأن الأمر كله كان مفاجئاً إلى حد كبير، فلا عجب أنه لزم الحداد على ابنته، متأملاً كيف أن من شأن الأب أن يحب حتى أقل أبنائه قرباً من قلبه. وقد كان وزوجته يشعران بالحزن لأنهما لم يرزقا بابنة أخرى، وبالنسبة

(1) الزوجة التي تلزم الحداد على زوجها كانت ترتدي ملابس ذات لون رمادي أكثر قتامة مما يرتديه زوج يلزم الحداد على زوجته، وكان حداد الزوجة على زوجها يستمر عاماً، بالمقارنة بثلاثة أشهر، هي مدة حداد الزوج على زوجته.

(2) عبارة صينية تُقال في معرض مديح البوذيساتفا فوجين، ترتبط بصورة وثيقة بسوترا اللوتس. وهي تشير إلى رؤية مستنيرة لطبيعة الوجود.

(3) جوسينشو 1187، من نظم كانيتادا انو هاهانو مينوتو: «لولا الطفل الذي أنجبناه، كيف أنزع الآن أعشاب الذكرى؟». هذه «الأعشاب» هي شينوبو، وهي نبتة يتجانس اسمها مع الفعل الذي يعني «يتذكر بإعزاز».

(4) الصلوات التي تقام كل سبعة أيام على امتداد الأيام التسعة والأربعين اللاحقة للوفاة.

لهما فإن هذه المأساة قد تجاوزت فقدان أثمن الجواهر.

لـم يمـض جينجـي إلى أي مـكان. لم يمـض حتى إلى نيجـو، ولكن انطلاقـاً من عمق حزنه أمضى الأيام والليالي في صلاة لا تنقطع. ولم يرسل إلى مقاصده السرية إلا الرسائل فحسـب. أما فيما يتعلق بملاذ روكوجو. فإن كاهنة آيسـي العليا تقيم الآن في مقر حراسـة بوابة الميسـرة[1]، وقد طالب بأن يسـود المكان أشـدُّ الهدوء تجنباً لأي تواصل معها. وقد وضع شـهوات الدنيا، التي بدت شـائنة للغاية بالفعل، موضع الازدراء التام، وحدَّث نفسه بأنـه مـن دون هذه الصلة الجديدة فإنه سـيرتدي الرداء الذي طالما تاق إليـه[2]، غير أنه في كل مـرة يمضـي ذهنـه فـي هـذا المنعطف، فإنه يشـرع في التفكير في مـدى افتقاده سـيدته الصغيرة التـي تقطـن الجنـاح الغربـي لـه. وكان لا يـزال يحـس بفـراغ إلـى جـواره مهمـا احتشـدت النسـاء حولـه فيمـا هـو راقـد في فراشـه الذي تحيطه الستائر وحيداً وغالباً ما كان يرقد مسـتيقظاً وهو يغمغم:


سرير ذو ستائر

«هـل الخريف هو وقت فقدان المرء لمحبوبته؟»[3]، ويصغي، وقد غاص فؤاده بين جنبيه، إلى الرهبان الذين كان قد اختارهم لتميز أصواتهم وهم يرددون «اسم بوذا أميدا».

آه، كم كان حزيناً زفيف الريح فيما الخريف يمضي! هكذا حدَّث نفسـه وهو يرقد لمرة وحيـداً ومؤرقـاً حتى طلـوع فجر ملتف بالضبـاب، ولكن عند ذاك وصلت رسـالة مكتوبة على ورق داكن يجمع بين اللونين الأزرق والرمادي، وقد رُبطت بها زهور أقحوان نضرة،

(1) المبنى الذي كان يتم تحويله عند الضرورة إلى شوساي - إن، حيث تقضي الكاهنة فترة التطهير.
(2) ثوب كاهن، و«الصلة الجديدة» هي ابنه المولود حديثاً.
(3) كوكينشو 839، من نظم ميبو تاداماين، تتحسر على القسوة الخاصة لفقدان محبوب في الخريف، الذي كان يعد فصل فراق حزين، حتى بالنسبة للأحباء.

ووضعهـا إلى جـواره من حملها إليـه، وغادر مـن دون أن يتفوه بكلمة واحـدة[1]. وأدخل الأقحوان البهيج السرور إلى قلبه، ولاحظ أن الخط هو خط ملاذ روكوجو.

«هل فهمت صمتي؟

الأخبار المحزنة التي تتناهى إليَّ، أن حياة يمكن أن تنقضي سريعاً هكذا،

تجلب الدمع إلى عينيَّ،

لكن خواطري تتجه أولاً إلى أكمام من أحزنهم الموت

قلبي مُترع، كما تعلم، تحت هذه السماء».

كان خطها أجمل من أي وقت مضى. ولم يكن بوسـعه أن ينحِّي الرسـالة جانباً، ولكن تظاهرها بالبراءة أثار اشـمئزازه. ومع ذلك فإن فؤاده لم يسـمح له بأن يمتنع عن إرسال رد، وكره أن يتصور الضرر الذي سيلحق بسمعتها، إذا حجبه عنها. ربما كان مقدراً للسيدة التي فقدهـا أن تلقـى هذه النهاية على نحو ما، ولكن لماذا تعين أن يرى السـبب ويسـمعه بمثل هذا الوضوح البالغ؟ نعم، كان ممروراً، رغم أنه لم يعتقد أن بمقدوره أن تسـاوره المشاعر نفسها أبداً حيال ملاذ روكوجو من جديد.

بعد تردد طويل، حيث أن تطهر كاهنة آيسي كان يمكن أن يشكِّل صعوبة أخرى كذلك[2] خلص إلى أنه سيكون من القسـوة ألا يرسـل رداً على رسـالة بُعثت بهذه المباشرة الجلية، فكتب على ورق يجمع بين اللونين البنفسـجي والرمـادي يقول: «لقد دام صمتي حقاً وقتاً طويـلاً للغايـة، ولكنني على الرغم من أنني فكرت فيـك، فقد عرفت أنك في وقت الحداد هذا سوف تتفهمين الوضع.

من يتوانون ومن يرحلون سريعاً يعيشون مثل قطرات الندى،

ومن الحماقة أن يكرِّس المرء فؤاده لعالمهم

لا بـد أن تدعي هذه الأمور تمضي. لسـوف أختتم رسـالتي، حيث أننـي بقدر ما أعرف

---

(1) لم يقل حامل الرسالة من التي أرسلتها ربما لأن المرسلة تمثل طقوسياً وضعاً نقياً يمنعها من التراسل على نحو صريح مع شخص يلزم الحداد.

(2) قد لا تكون رسالة من شخص يلزم الحداد (ومن هنا فإن الموت يلوثها) مما يُسمح بدخوله إلى مسكن الكاهنة.

أحسب أنك قد لا تقرأين هذا الذي كتبته».

تصادف أنها كانت في الدار، وقرأت رسالته في خلوة. وفي صحوة ضميرها فهمت تلميحاته الحذرة، وأدركت بمزيد من المعاناة أنه كان محقاً تماماً. لقد كان سوء حظها هو الأعظم. كيف سيتلقى نيافته الأمر عندما تنتشر الشائعة؟ لقد كان هو وولي العهد الراحل[1] من بين كل الأخوة، قريبين بصفة خاصة أحدهما من الآخر، ولقد وافق بسرور عندما توسل إليه ولي العهد الراحل على أن يعنى بكاهنة آيسي الحالية، كما ضغط على أم الكاهنة غالباً لتبقى في البلاط، على الرغم من أنها كانت قد رفضت ذلك خوفاً من تبعاته، والآن لدهشتها ها هي تجد نفسها واقعة في شراك الهوى، كأي فتاة غريرة، ويقيناً ستجد سمعتها وقد لاكتها الأفواه على نحو مؤذ. على هذا النحو كانت الخواطر التي دارت في ذهنها كالدوامة، تاركة إياها في أسوأ حال كالسابق.

لما كانت قد اشتهرت بالجاذبية الآسرة والذوق النادر، فقد طارت شهرتها وحلقت عالياً، حتى بعد انتقالها إلى المزار الواقع في السبخة، فألهمت أساليبها الأصلية على نحو رائع أكثر الوصفاء الخصوصيين تدقيقاً أن يكرِّسوا أنفسهم صباحاً ومساء للمضي عبر الطريق المكسو بالندى إلى بوابتها. ولم تدهش الأنباء التي تدور حول هذا جينجي على الإطلاق، أخذاً في الاعتبار عبقريتها التي لا موضع للشك فيها. وقد أقرَّ طواعية بأنها ستُفتقد بصورة مؤلمة إذا سئمت الدنيا وشقت طريقها إلى آيسي.

انقضت الطقوس التذكارية طقساً بعد آخر، لكن جينجي ظل في عزلته في دار معاليه حتى اليوم الأخير، وغالباً ما كان يزوره النقيب من الدرجة الثالثة[2]، الذي آلمه الضجر غير المألوف لحياته، ليناقش معه الأحداث الأخيرة ليرفه عنه بالثرثرة الماكرة المألوفة، وعندئذ كانت سيدة طاقم العاملين في البلاط سيئة الصيت تتيح بصفة عامة المجال لتندرهما. صاح جينجي موجهاً اللوم له: «يا للمسكينة! ينبغي ألا تسخر من الجدة الموقرة!»[3]. وعلى

---

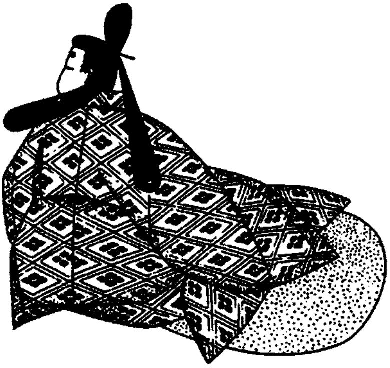
(1) زوجها.

(2) تو نو تشوجو الذي رُقي، فيما يبدو، إلى المرتبة الثالثة. وكان النقيب منصباً يحتل شاغله الدرجة الرابعة، ولكن شاباً رفيع المنبت بصفة استثنائية كان يمكن أن يُرقى إلى مرتبة أعلى. وربما لم يعد أميناً للسر.

(3) أوبا أوتودو، لقب للسيدة العجوز، ورد في «تحت وريقات الخريف». وقد كان والد جينجي هو الذي أطلقه عليها، بحسب فقرة وردت في «زهرة الجريس الزرقاء».

الرغم من ذلك فقد استمتع بكل كلمة. وتبادلا بتحرر فيما بينهما الحكايات عن مغامراتهما العاطفية بما في ذلك قصة تلك الليلة السادسة عشرة الملتفة بالسحب في الخريف، إلى أن ينتهي استعراضهما الصاخب لهذه الدنيا وطرقها الحزينة بالدموع غالباً.

كان مطر بارد[1] ينهمر في وقت متأخر من أصيل كئيب عندما أقبل النقيب، وقد بدا رائعاً على نحو طروب بحيث يبزّ الجميع. وكان قد بدَّل ملابسه، وارتدى عباءة للخروج وسروالاً من لون رمادي فاتح على نحو يفوق السروال الذي كان يرتديه في الموسم الذي انقضى لتوه[2].


شملة رداء صيفي

استند جينجي إلى الحاجز قرب الباب الغربي لغرفته، ومضى يحدِّق إلى الخارج عبر الحديقة التي ذوت بفعل الصقيع. مضت الرياح العاتية تهب، والمطر ينهمر، وبدا له أن دموعه تتسابق مع المطر وهو يغمغم، وقد أسند ذقنه إلى يده: «هل تحولت إلى مطر على سحابة؟ لن أعرف أبداً...»[3] وإذا مضى النقيب يحدِّق فيه وقد انصرف ذهنه كعهده أبداً إلى المتعة، فقد عرف أنه لو كان امرأة فإن روحه ستظل مع جينجي بدلاً من أن تمضي إلى عالمها الآخر. وكانت ثياب جينجي في حالة بعيدة للغاية عن الطابع الرسمي، وأعاد إحكام قيطان عباءته عندما جلس النقيب إلى جواره. وكانت عباءته صيفية ذات لون قاتم أكثر من لون عباءة زائره، يرتديها فوق رداء قرمزي بسيط تماماً[4]. ولم يستطع النقيب إبعاد عينيه عنه، ومضى بدوره يحدِّق محزوناً في الفضاء. استطرد، كأنما يحادث نفسه:

(1) مطر شيجوري الذي يتساقط في أواخر الخريف وأوائل الشتاء.

(2) في اليوم الأول من الشهر العاشر (الأول من الشتاء) كان رجال البلاط يرتدون ملابس جديدة. وعلى الرغم من أن نو تو تشوجو لا يزال يلزم الحداد، فإنه جعل حالة مزاجية أقل قتامة تسيطر على ملابسه.

(3) من قصيدة للشاعر الصيني ليو مينجدي المنتمي إلى القرن التاسع، مدرجة في مجموعة ونزوان (مونزين في التقاليد اليابانية). وتلتقط قصيدة تو نو تشوجو التالية الإشارة نفسها.

(4) اللون القرمزي (كوريناي) كان يمكن في يسر أن يُرتدى تحت اللون الرمادي لحداد خفيف نسبياً.

«من بين كل هذه السحب التي تنداح عبر السماوات المخضلة متحوّلة إلى مطر،

أيها ينبغي أن أحدق فيها بنظرة الحداد؟

ما من أحد سيعرف أبداً إلى أين مضت».

«السماء ذاتها حيث تحولت من كانت لي إلى سحابة ومطر،

يعمها القتام وأمطار الشتاء تزيد كآبة السماء الغامرة عمقاً».

كان من الجلي أن جينجي محزون كأعمق ما يكون الحزن.

لم يتفهم النقيب جلية الأمر تماماً، حيث أن جينجي لم يُظهر من قبل قط مثل هذا الإخلاص لشقيقته. كان نيافته قد اضطر للحديث معه، ويقيناً أن اهتمام معاليه وكذلك النفوذ الكابح للصلة العائلية الرفيعة مع سموها[1] هما اللذان منعا جينجي في النهاية من هجرها، وذلك على الرغم من أن النقيب غالباً ما أتيحت له المناسبة ليلحظ تعاسته بتعاطف. وقد أسف لفقدها أكثر من أي وقت مضى وهو يرى الآن أن جينجي كان يقدرها أعظم التقدير. وساوره في غمار حزنه الكبير الشعور كأنما النور قد احتجب عن الدنيا.

كانت زهور الجنيتانا والقرنفل تتفتح وسط الأعشاب الذاوية، فدعا جينجي ببعضها. وبعد انصراف النقيب، أرسل سايشو (مرضعة وليده) بإحداها إلى سموها مع هذه القصيدة:

«هذه القرنفلة الصغيرة العزيزة الباقية في نهاية المطاف في سياجي الشتوي

ستكون لي رمزاً للخريف الذي عبر[2].

بالنسبة لك لا يمكن أن تكون جميلة كالتي فقدتها». ومن المؤكد أن الوليد كان شديد العذوبة بكل ابتساماته البريئة.

مضت دموع سموها تنهمر مدرارة أكثر من سقوط الوريقات من الأشجار التي عصفت بها الريح، ولم تملك إلا البكاء وهي تقرأها.

---

(1) كانت أم أوي وتو نو تشوجو أخت والد جينجي.

(2) «القرنفلة الصغيرة» (أو القرنفلات، ناديشكو) تعبير عن ابن جينجي، و«الخريف الذي عبر» إشارة إلى زوجته وموتها.

«لست بحاجة إلا لرؤية القرنفلة الصغيرة الأجمل في سياجها الذاوي

لكي يذوب كمّاي هذان مجدداً في مطر من دموع».

بدا لجينجي، الذي استبدت به الحيرة، أن سموها سيدة زهرة الجريس الزرقاء ستدرك كم كان حزيناً هذا اليوم، وعلى الرغم من أن الظلام كان قد أرخى سدوله بحلول هذا الوقت. فقد بعث إليها برسالة قصيرة. كانت الرسالة الأخيرة قد جاءت منذ وقت طويل، ولكن رسائله كانت على ذلك النحو الآن، ولم يكن لديها ما يزعجها في قراءتها. كان قد كتب على ورقٍ في لون سماء اليوم يقول:

«لم يحدث قط أن سقطت على كمَّي المبللين قطرات ندى كهذا المساء

على الرغم من أنني سبق أن عرفت فصول خريف عديدة حزينة

الأمطار الباردة تسقط دائماً..»[1].

كان قد اعتنى عناية شديدة بخطه، فبدا أجمل من أي وقت مضى، وأجمعت الأميرة والوصيفات على أنها ليست بمقدورها أن تتخلف عن الرد، فكتبت تقول: «حلقت خواطري غالباً إليك، ولكنني لم أستطع...[2].

منذ سمعت أنك حتى مع ارتفاع سدم الخريف تركت وحيداً،

مضت خواطري المحزونة إلى المطر المنهمر من السماوات الشتائية»

كان ذلك كل ما هنالك، وبالنسبة إليه، فإن الخط الباهت كانت له جاذبية عميقة. كان من النادر بالنسبة لامرأة أن تتحسَّن في أي أمر اعتادته منذ وقت طويل، وأذهله كم هو صحيح في حالتها أن «البعد هو سر الجاذبية الدائمة»[3]. وهي قد تكون بعيدة، ولكنها لم يحدث قط أنها لم ترد على النحو الذي ينبغي أن ترد به، وقد اعتقد أن هذا هو السر في أن الإحساس الذي يكنه كل منهما للآخر سيتواصل، ذلك أنه يقيناً ضروب المظاهر والتكلف التي تجعل امرأة تتكلف أمام الجميع لا تظهر إلا أسوأ أوجه القصور فيها. قال لنفسه: لا،

(1) جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو إينو واكا 514: «أمطار الشهر العاشر الباردة تهطل دائماً، ولكن كمّي لم يبتلا من قبل قط كالآن».

(2) لم أستطع بصورة جيدة للغاية الكتابة لك.

(3) يبدو أن هذا مقتطف من قصيدة مفقودة.

ليست تلك هي الكيفية التي قصد بها أن يربي السيدة الشابة في الجناح الغربي. لم ينسَ قط مدى افتقادها له، ولكنه أحس كأنه أخذ طفلة يتيمة، وأسعده أنه خلال غيابه عنها فهو على الأقل ليس بحاجة إلى طرح أي شكوك ومخاوف قد تساورها بشأنه.

بعد حلول الظلام دعا بالمصباح، واستدعى أفضل الوصيفات ليحادثنه. وعلى امتداد سنوات كان يستشعر ضعفاً حيال الوصيفة المسماة تشوناجون، ولكنه لم يحاول الدنو منها، خلال وقت الحزن هذا: «لقد رأيتكن جميعاً أكثر مما اعتدت، ويمكنكن التيقن من أنني سأفتقدكن عندما لا نكون معاً. وبغض النظر عن فقيدتنا، فإنني أجد فكرة المستقبل مؤلمة من العديد من الجوانب».


وصيفة في ثوب كازامي

ردت إحداهن بدموع متجددة: «إذا لم نقل شيئاً عن الظلام الذي نشعر بأنه يطبق علينا منذ رحيل سيدتنا المسكينة، فإن فكرة أنك بدورك، يا سيدي، ستغادرنا الآن للأبد..». لم تستطع إكمال ما أرادت قوله.

تطلع إليهن بإعزاز. «أغادركن للأبد؟ ما أشد ما تحسبنني قاسياً! لو كان بمقدوركن الصبر فحسب، فإنكن ستدركن سريعاً إلى أي حد كنتن مخطئات. آه الحياة تنقضي سراعاً!» كانت عيناه المخضلتان بالدمع المحدقتان في المصباح جميلتين للغاية.

بدت بنت صغيرة، هي يتيمة كانت سيدتهن الراحلة مولعة بها بصفة خاصة، حزينة للغاية. قال باكياً في مرارة متعاطفاً معها: «أتيكي! لا بد أنني من سيتعين عليك أن تحبيه الآن». بدت رقيقة للغاية في رداء طفولي مصبوغ بلون رمادي أكثر قتاماً من ثياب الوصيفات الأخريات، ورداء فوقي أسود وسروال في لون الوريقات الذهبية[1].

واصل حديثه: «آمل أن أولئك اللواتي يرغبن من بينكن في تكريم الماضي سيبقين مع

(1) إنها ترتدي أكومي (غالباً ما ترتديه الفتيات الصغيرات) تحت كازامي (رداء رسمي للفتيات) واللون الرمادي الأكثر قتامة ينقل الشعور بحداد أكثر عمقاً.

ابننا الصغير، حتى ولو كان ذلك يعني الاضطرار لاحتمال حياة بالغة الهدوء، ولسوف أشعر برغبة أقل في العودة إلى هنا لو أنكن جميعاً غادرتن المكان ولم يبق أحد من أهل الدار الذين عرفتهم يوماً». وعلى الرغم من ذلك فإنه ما من أحد ساوره الشك في أنه لن يجيء إلا نادراً، على الرغم من حديثه عن المستقبل، فزاد حزنهن عما كان عليه قبلاً.

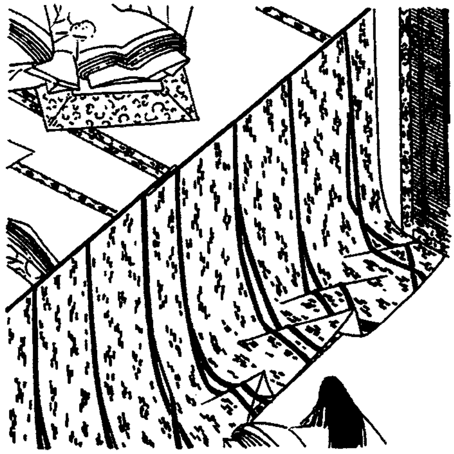
منح معاليه كل وصيفة، ببساطة بالغة ووفق ما تستحقه بحسب مرتبتها ومكانتها، الكماليات التي كانت ابنته تؤثرها في الاستخدام اليومي، وأعطى بعضهن تذكارات أعظم قيمة.

انطلق جينجي، الذي عرف أنه ليس بمقدوره أن يبقى معتكفاً بالدار على هذا النحو للأبد، لزيارة نيافته. انهمر مطر بارد بينما كانوا يجلبون عربته ويجمعون رجاله، كأنما كانت السماء نفسها تبكي، وتخللت الريح أوراق الشجر مصدرة زفيفها على نحو عاصف حتى أن الوصيفات استبدَّ بهن الشعور بالانزعاج، وحتى الوصيفات اللواتي كانت أكمامهن قد جفت أخيراً أغرقنها الآن بالدمع مجدداً. ومن المفترض أن رجاله قد مضوا إلى نيجو ليكونوا في انتظار وصوله، حيث أنه سيقضي الليلة هناك، وعلى الرغم من أن هذه يقيناً لن تكون المرة الأخيرة له في دار معاليه، فإن من بقوا استبد بهم الأسى. وبالنسبة لمعاليه ولسموها كان رحيله لا يعني إلا الحزن والأسى.

كتب جينجي رسالة إلى سموها يقول فيها:

«أود أن أكون في خدمة نيافته اليوم، حيث أنه أعرب على نحو رقيق عن قلقه بشأني. وعلى الرغم من استيائي لبقائي على قيد الحياة بعدها كل هذا الوقت، فإنني متأثر أشد التأثر لاضطراري للخروج على الإطلاق، ومن شأن الحديث أن يتجاوز قدراتي، ولذلك السبب فقد أحجمت عن توديعكم بنفسي».

اغرورقت عيناها بالدمع عندما قرأت الرسالة، ولم تستطع الرد. وقد كان معاليه



ستائر قائمة

هو الذي جاء إليه مباشرة، وقد غلبه التأثر الشديد بحيث لم يبعد كمه عن عينيه. وشاركته الوصيفات الحاضرات الحزن. وكان مشهد جينجي وهو يبكي تأثراً لحزنه مؤثراً للغاية، ولكنه بدا وسيماً للغاية وهو منخرط في البكاء.

كافح معاليه لبعض الوقت للسيطرة على مشاعره. «في عمري المتقدم هذا، فإن أي شيء قد يجلب الدمع إلى عينيَّ، ومن هنا فإنه مما يتجاوز طاقتي أن أهدئ المشاعر التي لا تترك كميَّ جافين أبداً، وذلك هو السبب في أنني ليس بوسعي أن أحسن المثول بين يدي نيافته، ذلك أنني أعرف كيف أنني لا يحتمل أن أسيطر على مشاعري جيداً. أرجو أن توضح هذا له، إذا وجدت لحظة للقيام بذلك، فمن الصعب فقدان ابنة على هذا النحو، بينما لم يعد في عمر المرء إلا سنوات قليلة». كان الجهد الذي اقتضته منه السيطرة على نفسه جلياً على نحو مؤلم.

رد جينجي جاهشاً بصورة متكررة: «حقاً ليس بوسع المرء أن يعرف من سيرحل أولاً ومن سيرحل أخيراً أبداً، ولكن معايشة مثل هذه الخسارة هي محنة لا تشبه أي محنة أخرى، لسوف أصف حالتكم لنيافته، وإنني لعلى يقين من أنه سيتفهم الأمر».

«امض إذن قبل أن يحل الظلام، لأنني لا أرى مؤشراً إلى أن المطر سيتوقف».

تطلع جينجي حوله، ورأى من خلال الأبواب المنزلقة المفتوحة أو وراء الستائر الحاجبة حشداً مؤلفاً من حوالي ثلاثين وصيفة يرتدين ملابس ذات درجات رمادية متباينة ما بين فاتحة وقاتمة، وقد بدا الحزن العميق جلياً على وجوههن الباكية، فتأثر أشد التأثر.

قال معاليه: «إنه لعزاء أنك ستزور هذه الدار في بعض الأوقات، حيث سيبقى بها من لا ترغب في إهماله، ولكن أولئك النسوة اللواتي لا يفهمن إلا القليل من جلية الأمر يستبد بهن الحزن، ومن ذا يلومهن؟ إنهن يتصورن أنك سترحل الآن عن دارك للأبد، واحتمال فقدان بهجة حضورك بين الحين والآخر، وهي البهجة التي عودتهن هذه السنوات عليها، يزعجهن أكثر من الحزن الناجم عن خسارتنا المشتركة. إنك لم تكن على وفاق معها أبداً». واصل حديثه، باكياً: «يا للأسى، لطالما ضممت جوانحي على الأمل. هذه أمسية حزينة، إنها كذلك حقاً».

«يوضح لي حزنهن محدودية معرفتهن بي، فربما كانت هناك حقاً أوقات حرمتها خلالها صحبتي، حتى فيما كنت أعتبر أن من المسلم به أن كل شيء سيكون على ما يرام بشكل من الأشكال، ولكن الآن لديّ قدر أقل من الأسباب التي تدعوني لإهمال هذه الدار مقارنة بذي قبل، ولسوف ترون، أعد بذلك».

ثم استأذن في الانصراف. ومضى معاليه إلى غرفة جينجي بعد توديعه. كانت على حالها دوماً، حتى أدق تفاصيل أثاثها، ولكنها بالنسبة لمعاليه فإنها كانت خاوية مثلما جلد الشرنقة.

كانت هناك محبرة متروكة أمام الفراش المحاط بالستائر، ولا بد أن الوصيفات قد ابتسمن من خلال حزنهن وهن يرينه عاكفاً على فحص وريقات التدريب على إجادة الخط المتروكة غير بعيد، وقد مضى يجفف دمعه فيما يقوم بذلك. وقد كتب جينجي قصائد عتيقة مؤثرة في النفس باللغتين الإنجليزية والصينية بخط لين سريع، وحروف مربعة وذات طابع رسمي، وبأساليب عدة وغير مألوفة. هتف معاليه محدثاً نفسها: ما أجمل خطه! ورفع ناظريه نحو السماء. ولا بد أنه كان حزيناً للغاية حقاً لفقدان جينجي كزوج لابنته.

حيث كتب جينجي البيت: «من سيشاركني الآن وسادتنا وأغطيتنا..»[1] أضاف:

«لا بد أن روحها الراحلة تحس بحزن أعمق على هذا الفراش الذي اقتسمناه،

بينما لا يزال يتجاوز قدرتي أن أغادره وأمضي بعيداً»

وبجوار «الزهور الصقيعية البيضاء»:

«الآن وقد رحلت، أرقد ليال عديدة أزيح الندى،

على فراشك الجُريسي الذي لا يكسوه الآن إلا التراب»[2]

لا بد أنه كانت في ذهنه زهور قرنفل البارحة، لأنه بين الأوراق كانت هناك زهور قرنفل ذاوية.

---

(1) بيت (مثل «الزهور الصقيعية البيضاء» الذي يأتي عقب ذلك). من «أغنية الحزن الذي لا ينتهي» لباي جويي.

(2) هنا، كما في مواضع أخرى، تتلاعب («زهرة المنثور»)، توكوناتسو بلفظة توكو («فراش»). والندى هو دموع جينجي.

قال معاليه عندما أطلع سموها عليها: «يستعصي عليَّ فهم خسارتنا، لكنني أستمد العزاء مـن الفكرة القائلة إن أحزاناً كهذا الحزن تحـل بنا جميعاً وإن الصلة القديمة[1] التي جلبتها لنـا لوقـت قصير لا لشـيء إلا لتدخل الألم في قلوبنا فيما يبدو ربما كانت أشـد قسـوة مما كانـت أعظم لطفـاً. وعلى الرغم من ذلك، وفيما الأيام تمضـي وأفتقدها بصورة أكبر، فإنه يبدو أمراً صعباً للغاية أن القائد سـرعان ما سيغدو غريباً. عندما كان يمكث بعيداً ولا يعود يوماً أو يومين، كنت أتطلع إلى عودته، وما إن يختفي نوره من حياتي حتى يسـتعصي عليَّ أن أعـرف كيف سـيكون بمقدوري أن أواصـل الحياة». انخرط في البـكاء علناً إلى حد أن وصيفات سـموها الأكثر نضجاً قد غلبهن الحزن، وفي هذا المسـاء البارد على نحو مقيت انخرطن بدورهن في البكاء.

في غضون ذلك تجمعت الوصيفات الأكبر سـناً معاً هنا وهناك في حوار حزين. أشـرن بقولهن: «تماماً كما قال معاليه، لست أشك في أن العناية بالسيد الشاب مصدر عزاء كبير، ولكـن حتى هـو لا يمكنه أن يعوضنا عن السـيدة التي رحلت عنا». قالـت أخريات: «إنني أعتـزم الذهـاب إلـى الدار بعـض الوقت، ولسـوف أعود فـي وقت لاحـق». وكانت هناك مشاهد مؤثرة عديدة فيما كان الجميع يودع بعضهم بعضاً.

أشـار نيافته، متعاطفاً، عندما زاره جينجي: «إنك نحيل بصورة فظيعة، أحسـب أن ذلك يرجـع إلى كل تلـك الأيام التـي أمضيتها صائمـاً»[2]. وجعل جينجي يتناول طعام العشـاء بحضوره، وأمطره بأكثر لفتات الاهتمام تأثيراً في النفس.

عندمـا زار جينجـي جلالـة الإمبراطـورة، تطلعت إليـه الوصيفات هناك فـي اندهاش. وسـألته عن طريـق أوميوبو: «كيـف كانت حالك طوال هـذا الوقت الذي كان بالنسـبة لي أيضاً مترعاً بالحزن؟».

«لقـد عرفت على وجه العموم مدى تقلـب الحياة، ولكن رؤية ذلك بعينيَّ هاتين أدخل الضيق والتقزز في نفسـي، وحتى اليوم فإن رسـائلك الرقيقة هي وحدها التي أبقت عليَّ».

---

(1) من حيوات سابقة.

(2) خلال الأيام التسعة والأربعين الأولى بعد الوفاة، كان من يلزم الحداد يعيش على أبسط أنواع الطعام، ويتجنب بصفة خاصة اللحم والتوابل.

كان أسلوبه في الحديث ممتزجاً باللطف على نحو حزين أكثر مما كان عليه في الماضي. وفي غمار التزامه الحداد، وهو مرتدٍ عباءة رسمية بلا زخارف فوق رداء رمادي مسترسل الذيل، وقد رُفعت إلى أعلى أطراف غطاء رأسه، بدا أعظم بهاءً وحسناً مما كان عليه وهو مرتدٍ أكثر ملابسه ترفاً وفخامة. وقد تحدَّث عن مدى قلقه لعدم رؤية ولي العهد على امتداد هذا الوقت الطويل، وكان الليل قد أوغل في مسيرته عندما استأذن أخيراً في الانصراف.

كانت كل غرفة في نيجو متألقة تماماً، وانتظر العاملون في الدار جميعاً، رجالاً ونساءً، مقدمه. وقد عادت الوصيفات البارزات جميعهن، وأعادت إلى ذاكرته في طفرة مفاجئة رؤية كل منهن وقد ارتدت أفخم ملابسها، وتزينت كأفضل ما يكون، الصحبة المفعمة بالحزن التي غادرها لتوه. بدَّل ملابسه، ومضى إلى الجناح الغربي مباشرة. كانت الستائر وقطع الأثاث الخاصة بالموسم الجديد متألقة ومرحة[1]. وبدت الوصيفات الشابات والتابعات الصغيرات بأجوائهن وأساليبهن الرشيقة في أبهى منظر، وأدخل ترحيب شوناجون الحار السرور كثيراً على نفسه.

كانت سيدته الشابة في ملابس شديدة البهاء. «انظري أي فتاة كبيرة غدوت بعد أن طالت غيبتي عنك!». رفع ستارتها الصغيرة الحاجبة ليراها، وبدا مرآها وهي تشيح في خجل تجسيداً للكمال. وأفصح له الملمح الجانبي لوجهها في سنا المصباح، شعرها وكل شيء، عن أنها ستشبه تمام الشبه تلك السيدة الأخرى التي تاق لها توقاً شديداً، فغمره الشعور بالبهجة.

جلس بجانبها، ووصف لها ما وقع خلال غيابه عنها[2]. قال: «أتطلع كثيراً إلى إخبارك بكل شيء حول ما جرى، لكن كل ذلك سيكون كثيراً للغاية الآن. لسوف أرتاح قليلاً أولاً ثم أعود. لسوف أراك كثيراً الآن بحيث أنك قد تسأمينني!».

سعدت شوناجون بسماع هذا كله، ولكنها كانت لا تزال تشعر بالقلق عليه. ربما لم يكن هذا لطيفاً منها، ولكنه ارتبط بالعديد من السيدات العظيمات إلى حد أنها خشيت أن سيدة جديدة قد تظهر الآن وتقضي على كل شيء.

---

(1) تم تغيير الستائر وقطع الأثاث الأخرى نظراً لمقدم الشتاء، الذي بدأ في اليوم الأول من الشهر العاشر القمري.
(2) إنه يخاطبها بتهذيب بالغ، على الرغم من لهجة حديثه الحميمية.

عاد جينجي إلى غرفته الخاصة، حيث جعل الوصيفة تشوجو تدلك ساقيه قبل أن يغفو. وفي صباح اليوم التالي بعث برسالة إلى ابنه الصغير. وملأه الرد الحزين بالكآبة.

لما لم يكن لديه الكثير مما يشغله الآن، فقد ظل مكتئباً للغاية، ولكنه على الرغم من ذلك لم يستطع السيطرة على تطلعه للانطلاق في زيارات مسائية عابرة. كان مصدر سروره أن يرى سيدته الشابة قد غدت كل ما يرغب فيه، ولما كان قد قرَّر أن الأوان قد آن بشكل أو بآخر، فقد بدأ في القيام بتلميحات دالة، ولكنها لم تظهر أي مؤشر لفهم ما يعنيه.

أمضى أياماً بطولها معها، قضى خلالها الوقت في لعبة «الداما» وألعاب تخمين الشخصية[1]، وكانت فطنتها ورشاقتها عظيمتين للغاية، وكل إيماءة منها تدخل إلى النفس سروراً بالغاً إلى حد أنه بعد كل تلك السنين من الاحتمال فيما جاذبيتها لا تقدم شيئاً إضافياً، لم يعد بوسعه الاحتمال أكثر من ذلك، وهكذا وعلى الرغم من وخز ضميره فإنه ذات صباح، عندما لم يكن هناك شيء بخلاف ذلك في طرق تعاملهما يشي بالتغيير، نهض في وقت مبكر بينما لم تنهض على الإطلاق.

مضت وصيفاتها تسأل كل منهن الأخرى في قلق: «ما الأمر؟ لا بد أنها ليست في خير حال».

قبل أن يغادر الغرفة، وضع صندوقاً لأدوات الكتابة بجوارها داخل ستائرها[2]. أخيراً، عندما لم يكن هناك أحد قربها، رفعت رأسها، ووجدت رسالة معقودة على وسادتها. فتحتها من دون أن تفهم شيئاً. وقرأت:

«آه، أي مسافة أبقتنا مفترقين على نحو غريب، عندما ليلة إثر أخرى

رقدنا معاً جنباً إلى جنب في ثيابنا المتداخلة».

بدا أنه عجّل بالأمر في يسر بالغ، ولم تكن قد شكَّت في أن لديه مثل هذه النوايا، ولم تستطع إلا التساؤل في مرارة عن السر في أنها في غمار براءتها قد وثقت في شخص لديه

(1) تتضمن لعبة تخمين الشخصية (هين - تسوجي) تخمينات شخصية محتجبة بصورة جزئية، أو اختلاق شخصيات جديدة بإضافة عناصر إلى أجزاء معينة.

(2) لكي تتمكن من الرد على القصيدة، التي تركها إلى جوار وسادتها. بعد الليلة الأولى التي يقضيها زوجان معاً، كان يفترض أن يترك الرجل للمرأة قصيدة، وكان يُفترض أن ترد عليها.

مثل هذه الأفكار الفظيعة.

عاد قرابة الظهيرة: «يبدو أنك مريضة. ماذا دهاك إذن؟ اليوم لن يكون طريفاً إذا لم نستطع أن نلعب لعبة الداما». اختلس النظر للداخل، كانت لا تزال راقدة وملابس النوم فوق رأسها. انسحبت الوصيفات فيما دلف إليها: «لماذا لا تحادثينني؟ إنك في نهاية المطاف لا تحبينني. أليس كذلك؟ لا بد أن وصيفاتك يتساءلن عن هذا كله». أزاح الأغطية عنها، ووجدها غارقة في العرق، وحتى الشعر المنسول عند جبينها كان غارقاً في العرق: «آه، يا عزيزتي، لا يمكننا أن نعاني من هذا! يا لها من ضجّة تحدثينها!». كانت لا تزال غاضبة منه على الرغم من محاولته لتهدئتها، ورفضت أن ترد عليه بكلمة واحدة. قال وملء حديثه اللوم: «حسن للغاية إذن. لن أجيء بعد الآن، فأنا أحس بأنني غير مرغوب فيَّ». فتح صندوق أدوات الكتابة، وتطلع بداخله، ولكن لم يكن شيء بداخله. يا لها من فتاة صغيرة! مضى يتأملها بشغف. أمضى اليوم بأسره محاولاً استرضاءها، ولم يزدها رفضها الاستسلام إلا تألقاً.

في ذلك المساء جُلبت لهما كعكات خنزير وليد[1]، ولم يكن هذا الحدث بالأمر المبالغ فيه، حيث كان جينجي في مرحلة حداد، ولم تقدم الكعكات إلا هناك في الجناح الغربي. وعندما رآها بكل ألوانها تُقدم في علب جميلة من خشب السرو، خرج إلى مقدمة الدار، ونادى كوريميتسو: «اجلب لي كعكات كهذه مساء الغد، وإن لم يكن بعدد كبير للغاية، فاليوم لم يكن حسن الطالع»[2].

لاحظ كوريميتسو ـ الذي كان لمّاحاً دوماً ـ ابتساماته، وأدرك المعنى الذي يقصده في التو، ولم يطرح أسئلة، وإنما قال بوجه جاد الملامح تماماً: «بالتأكيد، يا مولاي، يتعين على

(1) كعكات أرز دبقة، كل منها على شكل خنزير بري صغير (إينوكو موتشي) يتم تناولها جلباً للحظ الحسن، في ساعة الخنزير البري (حوالي الساعة التاسعة إلى حوالي الحادية عشر ليلاً) في يوم الخنزير البري الأول في الشهر القمري العاشر. وكان الأرز يخلط بمكونات مثل السمسم، والكستناء أو البرسيمون، بحيث أن الكعكات كانت تجيء بسبعة نكهات وألوان مختلفة.

(2) كانت تقدم للعروسين كعكات أرز بيضاء في الليلة الثالثة التي يقضيانها معاً بعد إبرام زواجهما. غير أن يوم الخنزير البري (الليلة الثانية فحسب في هذه الحالة) لم يكن باليوم الجالب للحظ الطيب بالنسبة لاستهلال أي شيء مهم كالزواج.

الزوجين الجديدين بالطبع اختيار اليوم المناسب لتناول هذه الكعكات، كم عدد كعكات الفأر الوليد التي ينبغي أن أقدمها؟»[1].

«حوالي ثلث عدد كعكات اليوم سيكفي». استأذن كوريميتسو الذي فهم ما يقصده تماماً في الانصراف، وحدَّث جينجي نفسه بأنه من المؤكد يعرف كيف يتصرف. ولم يقل كوريميتسو شيئاً لأحد، وإنما قام بإعداد الكعك بنفسه في الدار.

كان جينجي، الذي بذل قصارى جهده لاسترضاء السيدة الأثيرة لديه، يحس بالطرافة البالغة للموقف، كأنما قد خطف عروساً لتوه. إن ما اعتادت أن تعنيه بالنسبة لي ليس شيئاً بالمقارنة بما تعنيه لي الآن! راح يفكر. كم هو جامح هذا الفؤاد! ليس بمقدوري احتمال ليلة واحدة بعيداً عنها!

في حرص، وفي وقت متأخر من الليل، جلب كوريميتسو الكعك الذي أمر جينجي بإعداده. وكان يدرك تمام الإدراك أن شوناجون، التي كانت أكبر سناً، قد تحرج سيدة جينجي الشابة، ولهذا فقد قام باستدعاء ابنتها بن، وقال لها: «خذي إليها هذه بهدوء!» وسلمها الكعك في علبة مرطبان بخور[2]. «لسوف يحتفلان بحدث سعيد، وعليك بوضع هذه بجوار الوسادة. الآن عليك بالحرص، وبتجنّب أي خطأ!».

قالت بن مندهشة، وهي تأخذها منه: «لكنني لم أقترف أي خطأ من هذا القبيل»[3].

«عليك أن تتجنبي بالفعل تلك الكلمة في الوقت الراهن. لا تستخدميها فحسب!»[4].

كانت بن أصغر سناً من أن تستوعب ما قصده، لكنها قامت بتوصيل الكعك، حيث دفعت به عبر الستارة الحاجبة لينزلق إلى جوار وسادتيهما. ولا شك أن جينجي كان كالمعتاد هو الذي أوضح مغزى الكعك.

لم تدر الوصيفات شيئاً عن هذا كله، ولكن عندما أمر جينجي بإخراج العلبة في وقت

---

(1) يأتي يوم الفأر بعد يوم الخنزير البري، ولكن «كعكات الفأر الوليد» (نينوكو [نو موتشي]) لم يكن لها وجود، والاصطلاح هو من اختراع كوريميتسو.

(2) لا بد أن بن وراء ستارة. والعلبة تكفل إخفاء المحتويات.

(3) إنها تخطىء في فهم ما قصده كوريميتسو، فلفظ أدا «خطأ» يمكن أن يعني بصورة محددة شيئاً لعوباً أو داعراً.

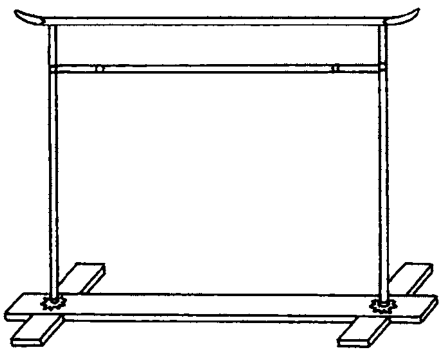
(4) لفظة أدا مثقلة بحمولات النذير بصورة بالغة بحيث يتعين عدم استخدامها في وقت الزواج.

مبكر من صبيحة اليوم التالي، أدركت الوصيفات الأكثر قرباً من سيدتهن ما حدث. من أين يمكن أن تكون تلك الإطباق قد جاءت؟ كانت القوائم الصغيرة المنحوتة رقيقة للغاية والكعكات ذاتها بديعة الإعداد، كان كل شيء جميلاً كأقصى ما يمكن أن يكون[1]. انخرطت شوناجون التي لم تكن قد حلمت أبداً بأن جينجي سيمضي إلى هذا الحد[2] في البكاء امتناناً حيال هذا البرهان الذي لا حد له على إخلاصه.

تهامست النسوة فيما بينهن: «إننا مع ذلك نتمنى لو أنه أبلغنا بالأمر في هدوء. ترى ما الذي كان يمكن أن يذهب إليه فكر ذلك الرجل الذي يستعين به في مهامه؟».

بعد ذلك كان جينجي يفتقدها، ويقلق عليها، عندما يمضي دقيقة في القصر أو في دار نيافته، بحيث أن مشاعره كانت مفاجأة حتى بالنسبة له هو نفسه. ولم يكن مفتقراً للحساسية بالنسبة للشكاوي المريرة التي توجه إليه من السيدات اللواتي كان يزورهن، ولكنه كان متردداً للغاية في جرح مشاعر زوجته الجديدة من خلال الابتعاد عنها ليلة واحدة إلى حد أنه رتب الأمور بحيث توحي بأنه مريض. وكان الرد الوحيد الذي يبادرهن به هو: «لسوف أشرع في الخروج عندما أغدو متأهباً من جديد لمواجهة الناس».

كانت سيدة خزانة الملابس لا تزال تمنح قلبها لجينجي وحده، ولم تعجب الإمبراطورة الأم[3] على الإطلاق المشاعر التي أعرب معاليه الأب عنها فيما يتعلق بهذا الموضوع، حيث كان يقول: «في نهاية المطاف، لست أدري وجه الخطأ في حصولها على ما تريده الآن وقد وفهمت أن زوجته تلك المعتدة بنفسها لم يعد لها وجود». أما الإمبراطورة الأم، التي لم يكن هناك بالنسبة لها ما هو مشين في دخول أختها



إطار للملابس

(1) كانت «كعكات الليلة الثالثة» تقدم على أطباق فضية، مع عصي للتناول فضية، وهذه الأخيرة توضع على شكل طيور الكركي.. الخ.

(2) إلى حد الزواج من مورا ساكي بصورة رسمية نسبياً.

(3) أوبوروزوكيو وكوكيدين (إيما كيساكي، «الإمبراطورة الجديدة») أخت أوبوروزوكيو الأكبر وخصم جينجي، الذي لا سبيل إلى استرضائه.

سلك الخدمة في القصر، طالما أنها تفعل ذلك بكبرياء واعتداد، فقد صممت على تقديم الأخت لجلالة الإمبراطور.

وجد جينجي ـ الذي كان مولعاً بهذه الأخت ـ هذا الاحتمال مخيباً للآمال تماماً، ولكنه لم يكن الآن في حالة مزاجية تسمح له بتقسيم مشاعره. ولماذا يقوم بذلك؟ كان قد تعلم، من خلال دفع ثمن باهظ، أن يلزم الحذر، فالحياة قصيرة بما فيه الكفاية بوضعها الراهن، هكذا راح يتأمل، وبالإضافة إلى هذا فقد قمت باختياري، وما كان ينبغي أن أشعل نيران الغيرة.

أما فيما يتعلق بملاذ روكوجو فإن محنتها قد أثرت فيه كثيراً، ولكن الأمور لن تمضي بصورة جيدة أبداً إذا اعترف بارتباطه بها رسمياً، بينما كانت هي على وجه الدقة المرأة المناسبة لمناقشة الأمور معها بين الفينة والأخرى، آه لو أنها تركته يواصل مقابلتها على نحو ما كانت الحال عليه في الماضي! ولم يستطع حمل نفسه حتى في ذلك الوقت على هجرانها.

خطر بباله أن المجتمع كان لا يزال يجهل هوية محبوبته الجديدة، وأن ذلك قد انعكس عليها بصورة بائسة، فقرر بناءً على ذلك أن يبلغ معاليه أباها بجلية الأمر. ودعا نخبة مختارة إلى حفل ارتداء الثوب ضافي الطول، وهو الحفل الذي خطط لإقامته على نحو أكثر فخامة من المألوف، وقد سار كل شيء على ما يرام، باستثناء أنها الآن أصبحت تكرهه كراهية حادة. فقد أسفت بمرارة بالغة على إعطائه كل تلك السنين من الثقة والعاطفة إلى حد أنها لم تعد تنظر في عينيه مباشرة بطريقة مناسبة. ولم تظهر إلا البغض الشديد في مواجهة أدنى ملاحظة من جانبه. وقد بدا له التغير الذي طرأ عليها طريفاً ومؤلماً في آن. وراح يتذمر بقوله: «هاتيك السنون، عندما كنت مولعاً بك أشد الولع، قد مضت كلها هباء والطريقة التي تبعدين نفسك بها عني تؤلمني أشد الألم». وعلى هذا المنوال أقبل العام الجديد.

في اليوم الأول من العام، زار أولاً، كالمعتاد، نيافته، ثم جلالته وولي العهد. وبعد الاستئذان في الانصراف من القصر، مضى إلى دار معاليه. وسواء أحل العام الجديد أم لم يحل فقد كان معاليه غارقاً في تأملات بائسة، وتغلب وصول جينجي في

ذلـك الوقـت على وجه الدقة على كل جهد بذله للتحكم في مشـاعره. بدا أن السـنين التي تمر قد أضفت على جينجي المزيد من جلال الحضور والحسن الأكثر بريقاً وتألقاً عن ذي قبل.

عندما ترك معاليه ليزور غرف السيدة التي فقدها، غلبت بهجة هذه الزيارة النادرة على الوصيفـات المقيمـات هنـاك. وقد وجد أن ابنـه الصغير قد كبـر كثيراً، وكانت ابتسـامات الصبـي الحاضـرة مؤثرة للغاية، فقد شـارك ولـي العهد في عينيه وفمـه، الأمر الذي أعطى جينجي بارقة من نذير حول أن الآخرين قد يندهشون حيال هذا الشبه. وكان كل شيء على نحـو ما كان عليه، وثمة أردية معلقة كعهدها على مشـاجبها، ولكن غياب أي شـيء يتعلق بامرأة أضفى كآبة على المشهد برمته.

تلقى رسـالة قصيرة من سـموها، حيث كتبـت تقول: «كنت أكافح اليوم للسـيطرة على حزنـي، لكنني لم يعد بوسـعي القيام بذلك الآن، وقد كنـت طيباً بما فيه الكفاية للقيام بهذه الزيـارة». واصلت رسـالتها قائلـة: «اغرورقت عيناي كثيراً بالدمع كل هذه الشـهور بحيث أن الملابـس التـي أعددتها لك، على نحو مـا اعتدت دوماً أن أفعل، قد تبـدو كئيبة للغاية، ولكنني آمل اليوم على الأقل أن تتلطف بارتدائها».

انضمـت قطع الملابس الرائعة التي أُرسـلت بصحبة هذه الرسـالة إلـى القطع الأخرى المعلقـة على المشـاجب. كان الثوب ضافـي الذيل الذي أرادت أن يحصل عليه اسـتثنائياً للغايـة من حيـث اللون والإتقان الحرفي، إلى حد أنه عرف أنـه ليس بمقدوره أن يدعه من دون أن يبـدي إعجابـه به، فارتداه. وأدرك باندفاعه العاطفي كم كان يمكن أن تشـعر بخيبة الأمل لو أنه لم يجيء. فكتب يقول في معرض الرد: «جئت لأذكرك بأن الربيع هاهنا، لكن الكثير من الذكريات تنداح الآن في أعماقي بحيث أنني لا أعرف ماذا أقول:

«على امتداد سنوات طويلة جدَّدت في هذا اليوم تدرج الألوان المتألقة التي أرتديها،

الآن وقد ارتديتها مجدداً، فإنني أحس بدموعي تنهمر كالمطر.

إن فؤادي لينفطر».

ردت قائلة:

«ليس هناك جديد في مقدم العام، مطر قديم فحسب

الدموع التي تسفحها أم موغلة في العمر على كل ما فقدته»

وكان لديهما حقاً سبب يدعوهما للحداد.

10

ساكاكي

الغصن الأخضر

تبرز الساكاكي، وهي شجرة دائمة الخضرة، عريضة الأوراق، في طقوس الشنتو، ومن هنا فإنها تبرز المشهد الأكثر التصاقاً بالذاكرة في هذا الفصل، وهو مشهد زيارة جينجي لملاذ روكوجو في المزار القائم في السبخة. وهي تلومه عندما يصل، وتمرِّر غصناً من شجرة ساكاكي تحت مصاريعها:

«عندما لا تنهض أشجار سدر سامقة كأنما لتجتذب العين من خلال السور المقدس،

فأي سوء فهم غريب قادك لالتقاط غصن ساكاكي؟»

وهو يرد:

هذا كان موضع عذراء المزار، التي أعرف، والذكريات الأثيرة

جعلت من عبق الساكاكي السبب الذي يحدوني لالتقاط الغصن».

لقد منح غصن الساكاكي الخاص به هذا الفصل عنوانه.

الصلة بالفصول السابقة

يأتي «الغصن الأخضر» عقب «قلباً لقلب» في سياق سردي متصل، من الفصل التاسع من ذلك العام، عندما كان جينجي في الثالثة والعشرين من العمر، إلى الصيف بعد عام ونصف العام، عندما يبلغ الخامسة والعشرين من العمر.

الشخوص

جينجي، قائد الميمنة، 23 إلى 25 عاماً.

ملاذ ركوجو، 30 إلى 32 عاماً (روكوجو نو مياسودوكورو).

كاهنة آيسي العليا، ابنة ملاذ ركوجو، 14 إلى 16 عاماً (أكيكونومو).

الإمبراطور المتقاعد الراحل، يموت وجينجي في الـ 23 من عمره (كيريتسوبو إن).

جلالة الإمبراطورة، ثم نيافتها معتزلة العالم، 28 إلى 30 عاماً (فوجيتسوبو).

ولي العهد، نجلها، 5 إلى 7 أعوام (رايزي).

جلالة الإمبراطور، 27 إلى 29 عاماً (سوزاكو).

الإمبراطورة الأم، ابنة وزير الميمنة (كوكيدين).

معالي وزير الميمنة، جد الإمبراطور (يوداجين).

معالي وزير الحرب، شقيق فوجيتسوبو ووالد مورا ساكي، 38 إلى 40 عاماً (هايوبو كايو نو ميا).

أوميوبو، وصيفة في خدمة فوجيتسوبو.

سيدة خزانة الملابس، ثم سيدة طاقم العاملين، ابنة وزير الميمنة (أوبوروزوكيو).

معالي وزير الميسرة، يستقيل عندما يصل عمره 59 عاماً وجينجي 25 عاماً (ساداجين).

سيدة جناح جينجي الغربي، 15 إلى 17 عاماً (مورا ساكي).

شوناجون، مرضعة مورا ساكي.

سيدة زهور الجُريس الزرقاء، كاهنة مزاركامو العليا (أساجاو).

تشوجو، وصيفة في خدمة أساجاو.

تشوناجون، وصيفة في خدمة أوبوروزوكيو.

الملازم فوجيوارا، شقيق الزوجة شوكيودين.

بن، وصيفة في خدمة فوجيتسوبو.

معلم الانضباط، خال جينجي.

أمين السر مدقق الحسابات، ابن أخي الأمبراطورة الأم.

كبير رهبان الجبل، عم فوجيتسوبو.

النقيب، شقيق زوجة جينجي الراحلة، أوي (تو نو تشوجو).

الابن الثاني للنقيب، 8 إلى 9 أعوام عندما كان عمر جينجي 25 عاماً (كوباي).

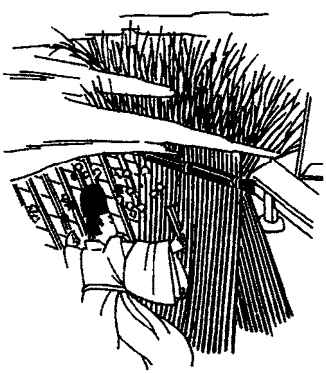
مع اقتراب رحلة كاهنة آيسي العليا، ساور أمها، ملاذ ركوجو، شعور بالبؤس بصورة متفاقمة. فالآن لم يعد هناك وجود لابنة معاليه، التي طالما ضاقت ذرعاً بمرتبتها الرفيعة، وقد مضى الناس يحدِّث أحدهم الآخر بأن أوانها قد آن، وتطلعت وصيفاتها إلى المستقبل بشغف، ولكنها عندما تأملت صمت جينجي اللاحق ومعاملته البائسة لها، أدركت أنه لا بد أن شيئاً قد حدث حقاً فأحزنه، ومن هنا فقد نحّت مشاعرها جانباً للاستعداد لرحيل حاسم.

لم يحدث من قبل قط أن مضت كاهنة إلى آيسي مع أمها، ولكن «الملاذ» تعللت بالقلق على حال ابنتها، وتمسكت أشد التمسك بأن تترك وراءها حياتها المضطربة، حتى فيما شرع جينجي، الذي أحس بخيبة الأمل من جراء أنها تعتزم الرحيل حقاً، في إرسال رسائل مفعمة بالتعاطف إليها. وقد أحست بأنها عاجزة عن استقباله بشخصه. ولا شك في أنها قد ذكّرت نفسها على نحو صارم بأنه على الرغم من أنه قد يعتقد أن هذا القرار خال من الشفقة، إلا أن مقابلته ستجعل الأمور أشد صعوبة بكثير بالنسبة لها بحيث أنها قد لا تلتزم بالرحيل.

بين الحين والآخر كانت تمضي إلى الدار لقضاء بعض الوقت هناك، ولكنها فعلت ذلك بهدوء بالغ بحيث أن جينجي لم يعرف قط متى يجدها هناك. ولم يكن حراً في زيارتها حيث تقيم في الوقت الراهن، وبالتالي انقضت الأيام والشهور من دون أن يقوم بزيارة لها. وفي غضون ذلك بدأ نيافته يشعر غالباً بأنه ليس على ما يرام، وذلك على الرغم من أنه لم يكن مريضاً بصورة تنذر بالخطر، وأثقل ذلك كاهل جينجي بأمر آخر يتعين عليه الاهتمام به.

جعله القلق من أنها قد تدين قسوته والخوف من أن آخرين قد يوافقونها بالفعل في ذلك، يقرر في نهاية المطاف المضي إلى المزار القائم في السبخة. وكان يعرف أنها ستغادر قريباً، فقد كان ذلك اليوم هو السابع من الشهر التاسع، وكان لديها حقاً الكثير مما يشغلها، ولكن مناشداته المتكررة بأن تمنحه لحظة سواء أجلس أم لم يجلس ـ جنباً إلى جنب مع رغبتها في تجنب الظهور بمظهر من تنأى بجانبها أكثر مما ينبغي ـ تغلبت على مخاوفها، وأقنعتها بأن نعم، يمكنها أن تتجاذب أطراف الحديث معه طالما أنها تبقى على

شيء ما بينهما، وبهذه الحالة المزاجية شرعت فيما بينها وبين نفسها تتطلع إلى قدومه.



حاجز من الأغصان

ما إن مضى عبر الامتداد الهائل للسبخة حتى غلبته الكآبة، كانت زهور الخريف تحتضر، وبين أجمات نبات السُعادي الذاوي كان صرير الحشرات خفيضاً ومحدوداً. وخلال تنهد الريح الحزين وسط أشجار الصنوبر، تناهت إلى سمعه في بعض الأوقات أصوات آلات موسيقية، وذلك على الرغم من أنها كانت خافتة للغاية إلى حد أنه لم يستطع أن يحدد أي موسيقى كانت. وتمتع المشهد بجمال بالغ على نحو فائق، وكان الأتباع العشرة أو يزيدون الذين صحبوه في مسيرته يرتدون ثياباً متواضعة المظهر، ولكنه ارتدى ثياباً فخمة، على الرغم من الطابع الخاص لرحلته، وبدا أنيقاً بما يكفي لمنح المشهد جاذبية جديدة بالنسبة للشبان الذين مضوا بصحبته. وسأل نفسه عن السر في عدم قدومه من قبل، وندم على أنه لم يفعل ذلك.

في داخل سور خفيض وهش من الأغصان المقطوعة، تناثرت مبان متباعدة مسقوفة بألواح خشبية، خفيفة البناء[1]. وأثارت التوري[2]، التي لم ينزع خشبها مهابة قدسية نحّت مخاوفه جانباً، وأضفت نحنحة الكهنة[3] هنا وهناك أو أحاديثهم مع رفاقهم على المكان جوّاً ينتمي إليهم كلية. توهج مقر النار[4] على نحو خافت. وبوجود عدد محدود للغاية من الناس في أرجاء المكان، هيمن سكون عميق، وأثرت فيه الفكرة القائلة إنها قد أمضت أياماً وشهوراً هنا وحيدة مع همومها، فمضت به إلى التعاطف الشديد.

احتجب في بقعة مناسبة إلى جوار الجناح الشمالي[5] وأعلن زيارته، وعندئذ توقفت الموسيقى، وسمع أصوات حركة واعدة في الداخل. لم تظهر مؤشراً يدل على استقباله

(1) كانت المباني مؤقتة، حيث أن المزار كان يعاد بناؤه، بحسب الحاجة، في بقعة جديدة.

(2) بوابة مزار الشنتو، وكانت تتخذ عادة من الخشب المصقول، أما هذه البوابة فإنها تؤكد الطابع المؤقت للمزار.

(3) ربما كتحذير مع مقدم جينجي.

(4) ربما حيث كانت تعد قرابين الطعام.

(5) حيث تقيم روكوجو. وتشغل ابنتها الدار الرئيسية.

بشخصها، ولم يحس بالسرور على الإطلاق لتبادل العبارات المألوفة معها عبر وسيطة. قال ملحاً: «لن تصري على إبقاء الجبل المقدس بيننا، لو أنك عرفت فقط كم هو صعب بالنسبة لي أن ابتعد في إطار مسعى شخصي. وكما تعلمين فإن الكثير أصبح واضحاً بالنسبة لي الآن».

دفعت مناشدته وصيفاتها إلى التدخل من أجله لدى سيدتهن. قلن: «نعم، يا سيدتي، من العار تركه واقفاً فحسب هناك، لا بد للمرء من أن يشعر بالأسف عليه».

حدَّثت نفسها: آه، لست أحب المشهد الذي أبدو به، وليس بمقدوره أن يحسن الظن بي بسبب هذا المشهد، وأفضل ألا أخرج له على الإطلاق. لم تمتلك شجاعة معاملته ببرود مع ذلك، وفي نهاية المطاف خرجت وسط تنهدات مترددة، فأبهجته برشاقة قوامها[1].

«أتساءل عما إذا كان هنا[2] يمكن السماح لي بالصعود إلى الشرفة». قالها، ومضى فاستقر هناك، وفي سنا القمر المتألق اتسمت حركاته بجاذبية لا تتسم بها حركات أي شخص آخر. وإذ غدا الآن أكثر ارتباكاً من أن ينتحل أعذاراً لبقة يبرِّر بها صمته الطويل، فقد مرَّر إليها تحت الستار الحاجب فرع شجرة ساكاكي كان قد التقطه، وقال: «هذا هو اللون الدائم[3] الذي قادني إلى انتهاك السياج المقدس، ومع ذلك فإنك الآن وعلى نحو قاس..».

ردت قائلة:

«عندما لا تنهض أشجار سدر سامقة كأنما لتجتذب العين من خلال السور المقدس،

فأي سوء فهم غريب قادك لالتقاط غصن ساكاكي»؟[4].

أجابها:

---

(1) لا تزال ستارة حاجبة تفصلهما، لكن جينجي يلمح شكلها العام من خلال الستارة.

(2) في الدار وليس في الحرم بمفهومه الواسع.

(3) لون الساكاكي دائمة الخضرة وقلب جينجي الوفي.

(4) «لماذا قدمت ولم تعطيني غصن الساكاكي هذا فيما ليست لديَّ رغبة في الرد؟». من كوكينشو 982 تُعزي إلى إلهة ميوا، التي تعد شجرة الأرز (سوجي) مقدسة بالنسبة لها: «مسكني المتواضع عند سفح جبل ميوا، هلم، إن كنت تحبني، إلى البوابة حيث تشمخ أشجار الأرز».

هذا كان موضع عذراء المزار، التي أعرف، والذكريات الأثيرة

جعلت من عبق الساكاكي السبب الذي يحدوني لالتقاط الغصن»[1].

على الرغم من الطابع المهيب للأشـياء المحيطة بهما، فقد قطع نصف المسـافة تحت الستار الحاجب، وهنالك بقي في موضعه، منحنياً على العتبة التي تشكل مدخل الغرفة.

على امتداد سـنوات، وبينما كان باسـتطاعته مقابلتها وقتما يريد وفيما كانت هي نفسـها تفكّر فيه بمزيد من الحنين، جعله الرضا عن الذات المفعم بالكبرياء لا مبالياً بها على نحو ما، ثم أطفأ ذلك الاكتشاف الصادم لعيبها حماسه الأخير لها، وأبعده عنها. غير أنه الآن أثر فيـه أعظـم التأثير كل ذلك الـذي أعاده إلى ذاكرته من رحاب الماضـي، ذلك اللقاء النادر، وانخـرط في البكاء عاجزاً عن التحكم في مشـاعره على ما خلفاه وراءهما وما قد يأتي في قابـل الأيام. أثّر فيه أكثـر فأكثر عدم تحكمها في الانفعالات التي بـدا أنها قد عقدت العزم على ألا تفصح عنها، وتوسل إليها أن تتخلى عن خطتها في نهاية المطاف.

فيما طرح أمامها شـكواه بأسـرها، وعيناه على سـماء ربما غدت أجمل الآن وقد غاب القمر، ذابت كل المرارة المتراكمة في فؤاده، ولم تندهش، هي التي تخلت عن كل تشـبث به، عندما وجدت مشاعرها تغلي رغم ذلك، وفي غضون ذلك مضى أبناء العائلات الكبيرة ينفقون الوقت أحدهم مع الآخر، بينما هم يتجولون في الأراضي المجاورة، مجسدين في غمار قيامهم بذلك مشهداً ذا تألق لا نظير له.

ما من أحد بمقدوره أن ينقل كل ما جرى تداوله بين هذين الاثنين، اللذين عرفا معاً مثل هذه الأحزان التي لا حصر لها، وبدا أن روعة السـماء التي مسـها الفجر أخيراً قصد بها أن تكون لهما وحدهما. قال جينجي:

«كثير من قطرات الندى يصحب أي وداعٍ مصحوب بالتردد عند انبلاج الفجر،

ولكن ما من أحد رأى مثيلاً لهذه السماء الخريفية».

---

(1) يبدو أن عذراء المزار» (أوتوميجو) تشير إلى روكوجو نفسها، على الرغم من أنها تناسب بشكل أفضل ابنتها. إنها إنجو («كلمة مرتبطة») بالساكاكي. والقصيدة تستلهم شويشو 1210 من نظم كاكينو موتو هيتومارو، وشويشو 577.

في غمار مراوحته في مكانه وعدم رغبته في المغادرة، أمسك بيدها في رقة بالغة. كانت ريح ثلجية تهب، وعبَّرت أنشودة صرار الصنوبر المتعثرة بصورة صادقة للغاية عن المناخ النفسي للحظة، بحيث أنه حتى من يخلو قلبه من الهموم ما كان يمكن له أن يسمعها من دون أن يعتصر فؤاده، فلا عجب إذن في أن أياً منهما لم يستطع في غمارة عذابه العميق التوصل إلى كلمات وداع. ردت قائلة:

«لم يحدث وداع في الخريف قط إلا ولمسه الحزن،

ولكن آه، لا تبكي معي يا صرارات الصنوبر على السبخة!»

انتبه جينجي، الذي كان يعرف بطلان كل أحزانه، إلى قدوم الفجر، وغادر المكان في نهاية المطاف. كان الدرب الذي مضى عليه إلى الدار مكسواً بالندى إلى حد بعيد، بينما حزنت، هي التي لم تعد على إصرارها السابق، على رحيله. وبشخصه الذي تراءى للعيان في سنا القمر منذ وقت جد قريب، وبعبقه هذا الذي بقي غير بعيد، تخلت وصيفاتها اللواتي غمرهن السحر عن حذرهن، ومضين في كيل الثناء له. رحن يسألن إحداهن الأخرى باكيات: «آه، كيف يمكن لسيدتي أن تنطلق في هذه الرحلة عندما يعني القيام بذلك هجران مثل هذا السيد المهذب؟».

أدت رسالة جينجي الصريحة على نحو غير معهود إلى جعل رغباتها تتطابق مع رغباته، ولكن يا للحسرة، لم تستطع أن تعيد النظر مجدداً في خططها. وقد كان قادراً على الاستعانة بمثل هذه البلاغة في خدمة طموحه الرومانسي، حتى إن لم تكن العلاقة من النوع الذي يثير اهتمامه كثيراً، بحيث أن الأسف والإشفاق لا بد أنهما قد ألهماه عندما فكَّر في أن سيدة تعني الكثير بالنسبة له كانت توشك على المغادرة والمضي في طريقها.

قدم الملابس الخاصة بالرحلة لها، بل لوصيفاتها كذلك، وأيضاً قطع الأثاث ذات التصميم الأروع والأكثر فخامة، لكن هذه الأشياء لم تعنِ شيئاً بالنسبة لها. وكلما اقترب اليوم الموعود تواصل حزنها ونحيبها، كأنما كانت الفكرة جديدة بالنسبة لها، فيما يتعلق بالصيت القاسي الذي ستخلفه وراءها والقدر الحزين الذي ينتظرها الآن. وكانت الكاهنة العليا نفسها صغيرة في العمر بما يكفي لكي تكون مسرورة لأن هذا الرحيل الذي تأجل غالباً سيحسم أمره أخيراً. ولا شك من أن البعض قد انتقدوا الخطوة التي لا سابقة لها التي

كانت أمها توشك على أن تخطوها، فيما تعاطف آخرون معها. إن من تتيح لهم مرتبتهم اتقاء كل اللوم في كل ما يفعلونه هم محظوظون حقاً. يا للحسرة، فمن تبرز بين الأخريات لا يمكنها التصرف وفق رغباتها إلا نادراً!

في اليوم السادس عشر، أجرت كاهنة آيسي العليا طقس التطهير في نهر كاتسورا[1]. وقد اختار جلالته سادة من أصول أرفع ويحظون بسمعة أكبر ليكونوا وفداً إمبراطورياً مرافقاً[2] وفرقة من النبلاء البارزين. ولا بد أن رغبات نيافته قد لعبت دورها كذلك في هذا الأمر.

جاءت رسالة من جينجي، فيما كانت الكاهنة تنطلق، رسالة مليئة بالمناشدات المعتادة التي لا نهاية لها. وكانت مرفقة براية من قماش أرجواني قاتم[3]، وموجهة إلى «الكاهنة العليا، إجلالاً وتقديراً»[4] كتب جينجي يقول: «كما تعلمين، سيحجم إله النار[5].

غير أن الآلهة العظام الذين يحرسون بلاد الجزر الثماني هذه، إن أخذتك الشفقة،

تحكم لصالح ثنائي يعني الفراق بالنسبة لهما ألماً بالغاً

ليس بمقدوري التفكير فيك من دون تمني ألا تذهبين».

كانت لديه ردود أيضاً على الرغم من كل ما ينبغي القيام به. وقد جعلت الكاهنة ردودها تُكتب على يد سيدة شؤون الدار:

«لئن أصدرت آلهة الأرض في عليين حكمها،

لسارعت لاستنكار الخفة التي تتحدَّث بها»

كان يمكن لجينجي أن يمضي مسروراً إلى القصر لمشاهدة ما سيعقب ذلك[6]، ولكنه حدَّث نفسه بأنه قد يبدو غريباً منه أن يودع سيدة تهجره، ومن هنا فقد تخلى عن الفكرة،

---

(1) إلى الغرب من كيوتو.
(2) وفد من أربعة نبلاء، على رأسهم مستشار أو استشاري، كان يصحب الكاهنة إلى آيسي باسم الإمبراطور.
(3) راية تقص وفق نمط متعرج من قماش يتخذ من لحاء شجرة التوت، استخدمت في الطقوس الشنتوية.
(4) كاكيما كومو، صيغة للتعبير عن الاحترام استخدمت في صلوات الشنتو.
(5) كوكينشو 701 تحتج بأنه حتى إله الرعد الرهيب يحجم عن قطع العلاقات بين العشاق.
(6) وداع الكاهنة للإمبراطور ورحيلها الرسمي.

وغرق في تأملاته، وجعله رد الكاهنة العليا، الذي اتسم بنغمته العالية للغاية، يبتسم. ثار اهتمامه، وراح يتخيلها جذَّابة على نحو يتجاوز سنوات عمرها. وإذ أغوته ـ كما هي الحال على الدوام ـ التعقيدات الغريبة، فقد أحس بالندم الآن لأنه لم يرها لنفسه، بينما كانت صغيرة بما يجعل ذلك ممكناً في يسر، وأكد لنفسه أن تقلبات الحياة قد تسمح بمرور الوقت بأن يلتقيها في نهاية المطاف.

اجتذب الاختلاف الشخصي بين الأم والابنة العديد من العربات التي يتمتع أصحابها برؤية المشهد. وصلت الاثنتان في ساعة القرد[1]. وبالنسبة لـ«الملاذ» في محفتها، كان أمراً محزناً أن ترى القصر مجدداً بعد هذه السنين العديدة، وفي ظل الظروف بالغة الاختلاف عما رباها أبوها بطموحه الكبير فيما يتعلق بها على توقعه بإعزاز[2]. وكانت قد تزوجت ولي العهد الراحل في السادسة عشرة من عمرها، وترملت في العشرين. والآن وهي ترى مقر جلالته من جديد فإنها في الثلاثين[3]، وخطرت لها هذه القصيدة:

«لا، لست أرغب اليوم في أن أرثي مجدداً حياة عرفتها يوماً،

لكنني عميقاً في أغوار فؤادي أحس بحزن غامض، شامل»

كانت الكاهنة العليا في الرابعة عشرة، وكانت جميلة للغاية بالفعل، وقد أضفت عليها عناية أمها الحريصة جمالاً مثيراً للاضطراب للغاية إلى حد أن فؤاد جلالته قد تقلقل في موضعه، فسفح دموع الانفعال الحاد، عندما وضع مشط الفراق في شعرها [4].

انتظم صف من عربات العرض[5] أمام المكاتب الثمانية، في انتظار بروز الكاهنة، وشكَّل تدلي الأكمام منها عرضاً متألقاً، أثار بالنسبة للكثير من الوصفاء الخصوصيين

(1) الساعة الثالثة إلى الساعة الخامسة عصراً على وجه التقريب.

(2) كانت قد جاءت آخر مرة إلى القصر في محفة باعتبارها إمبراطورة المستقبل.

(3) تختلف هذه السن مع التسلسل الزمني بالنسبة للشخصيات الأخرى في الحكاية. وإذا كانت هي بتاريخها في الثلاثين من عمرها الآن، فإن جينجي سيكون في الرابعة عشرة من عمره فحسب.

(4) عندما تنطلق الكاهنة في رحلتها، فإن الإمبراطور يضع «مشط الفراق» في شعرها بهذه الكلمات: «لا تيممي وجهك نحو المدينة ثانية!»، فلسوف تبقى في آيسي إلى أن يتنازل الإمبراطور عن العرش.

(5) إيدا شيجوروما، عربات كانت الوصيفات يسمحن لأكمامهن بالتدلي من تحت ستائرها الحاجبة، في عرض رائع للألوان.

وداعاً مؤلماً[1]. وقد انطلقت ليلاً، وعندما جلبها المنعطف من نيجو إلى توين إلى أمام دار جينجي في نيجو، مضى ليرسل إلى أمها هذه القصيدة التي أرفقت بغصن ساكاكي:

«امضي إذاً إذا أردت، وتخلي عني اليوم، ولكن أكمامك تلك

هل سيتركها نهر سوزوكا مبتلة برذاذه؟».[2]

كان الظلام حالكاً آنذاك، والاضطراب حول «الملاذ» بالغاً إلى حد أن جينجي لم يتلق رداً إلا في اليوم التالي من وراء الحاجز[3]:

«سواء بلل الرذاذ المتقافز من نهر سوزوكا كميَّ أم لا،

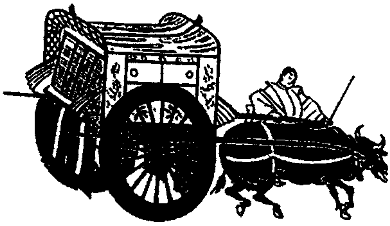
خواطر من ستتبعني على امتداد الطريق إلى آيسي؟».

أوحى خطها في هذه الرسالة القصيرة بتميز ورشاقة عظيمين رغم كل شيء، ولكن جينجي تمنى لو أنها أظهرت تعاطفاً أكثر قليلاً مع مشاعره. لف ضباب كثيف العالم في هذا الفجر الحزين، فيما مضى يحدِّق أمامه، ويغمغم محدِّثاً نفسه:

«لسوف أدع نظرتي المحدِّقة تستقر حيث مضت. هذا الخريف على الأقل،

أيتها السدم، لا تحجبي عني قمة أوساكا!»

لم يمض إلى الجناح الغربي، وإنما اختار بدلاً من ذلك أن يمضي اليوم في التأمل وحيداً. ترى أي عذابات عرفتها في رحلتها!



عربة عرض

بحلول الشهر العاشر، اشتد المرض بنيافته إلى حد الخطورة، وتاقت الدنيا بأسرها إلى أن تراه يسترد عافيته فحسب. واستبد القلق على نحو حاد بجلالته، وزاره بنفسه. تحدَّث نيافته في حالته

(1) ستصحب هاته السيدات الكاهنة إلى آيسي، وبعضهن لهن عشاق لن يروهن مجدداً لوقت طويل. المكاتب الثمانية (هاسشو) هو مجمع يضم مكاتب الإدارات الحكومية الثماني الكبرى كان يتواصل مع «قاعة الدولة الكبرى»، وهي المبنى الاحتفالي الكبير في مناطق القصر.

(2) «سرعان ما تبكين ندماً على تركي». كان لا بد من عبور نهر سوزوكا في الطريق إلى آيسي.

(3) حاجز أوساكا، ممر خفيض، له بوابة لتحصيل رسوم العبور عند القمة، يقع خارج المدينة مباشرة على الطريق الرئيسي المفضي شرقاً. ويشير اسمه إلى أوساكا «تل اللقاء».

الواهنة مراراً عن ولي العهد، ثم انتقل إلى موضوع جينجي. قال: «لا تحجب عنه شيئاً، عظم شأنه أوهان، وإنما انشد دعمه في الأمور كافة، على نحو ما فعلت طوال حياتي. وعلى الرغم من شبابه، فإنني أعتقد أنك لست بحاجة إلى التخوف من أن تعهد إليه بالحكم، فهو يحمل ميزة من ولد ليحكم، وذلك هو السر في أنني أخذاً في الاعتبار بتعقد موقفه لم أجعله أميراً، وإنما قررت بدلاً من ذلك أن أجعله يخدم البلاد كأحد العامة. وإنني لأرجوك ألا تتجاهل نيتي هذه!».

كانت وصاياه الأخيرة المؤثرة عديدة، لكن النساء لا شأن لهن بنقلها، والقليل الذي قيل عنها هنا يُعد أكثر مما فيه الكفاية. وقد استشعر جلالته حزناً عميقاً، ووعد بصورة متكررة بألا ينتهك رغبات أبيه. وقد كان وسيماً للغاية وناضجاً بصورة مقبولة، إلى حد أن نيافته تطلع إليه بثقة ممزوجة بالسعادة، ثم كان لا بد من أن تنتهي الزيارة، فأسرع جلالته عائداً إلى مقره، مثقلاً بالنذر الحزينة أكثر من أي وقت مضى.

كان ولي العهد قد رغب في مصاحبة جلالته، ولكن قيامه بذلك كان من شأنه أن يثير جلبة بالغة إلى حد أنه غيَّر موعد زيارته إلى يوم آخر، وكان قد كبر كثيراً وغدا جذاباً بالنسبة لمن في مثل عمره[1]. وقد أحب أباه كثيراً إلى حد أن سعادته البريئة عندما رآه مجدداً قد شكّلت مشهداً مؤثراً في النفوس. وقد اضطرب نيافته كثيراً لرؤية الإمبراطورة تنخرط في البكاء. وأصدر توجيهاته لولي العهد بشأن نطاق عريض من الأمور، ولكن مستقبل صبي صغير للغاية على هذا النحو كان لا يزال يثير قلقه بشدة. وفيما يتعلق بجينجي أيضاً. فقد وجه نصائح متكررة حول كيفية خدمة البلاد، بالإضافة إلى تأكيدات حول العناية بولي العهد. ولم يستأذن ولي العهد في الانصراف إلا في وقت متأخر من المساء، ولم تسبب زيارته حركة واضطراباً يقل عما تسببت فيه زيارة جلالته. وحتى عندئذ لم يكن بمقدور نيافته احتمال ترك ابنه الصغير يمضي لشأنه.

اعتزمت الإمبراطورة الأم زيارة نيافته بدورها، لكن وجود جلالته إلى جواره جعلها توقف ما اعتزمته، وبينما هي على تذبذبها، رحل في هدوء. غمر الحزن البلاط، وعلى الرغم من تنازله عن العرش، فإنه كان قد واصل الإمساك بمقاليد الحكم تماماً على نحو

(1) إنه في الخامسة من عمره الآن.

مـا كانت عليه الحال خلال عهـده. والآن وفيما جلالته صغير السـن للغاية، وجد جلالته، معالـي وزيـر الميمنة، متوتر ونافـد الصبر للغاية، فإن كبار النبـلاء والوصفاء الخصوصيين مضوا يئنون في غمار تصور ما ينتظرهم عندما يثوب معاليه إلى رشده.

غمر الحزن جلالته وجينجي على نحو أقوى. وغني عن البيان أن الجميع قد تأثر بعمق لرؤية جينجي، الأكثر تألقاً بين أمراء أبيه، وهو يؤدي بولاء بالغ الطقوس التذكارية. واتسم حسنه بالكمال، حتى في غمار الحداد بما يفرضه من ملابس رمادية. وكان مشهد الفناء في العـام الماضـي قد أقنعه بأن هذه الدنيا ليسـت إلا خبثاً، وقد تعلم هذا العام الدرس نفسـه، ولكـن على الرغم من أن هذه الخسـارة قد أكّدت له ما عقـد العزم عليه[1] فإن أموراً عديدة كبحت جماحه.

ظلـت زوجات نيافته ونسـوة أخريات فـي مقره حتى اليوم التاسـع والأربعين، ولكنهن تفرقن بعد انقضاء هذا اليوم. وفي اليوم العشرين من الشهر الثاني عشر، تحت سماء خفيضة كأنها تهدد بإغلاق الدنيا، وجدت جلالتها نفسـها مثقلة بكآبة تتجمع على نحو عنيد. ولما كانت تعرف ما تضمره الإمبراطورة الأم حق المعرفة، فقد أدركت كم هو مؤلم ما سـتكون عليه سـكنى قصر خاضع لإدارة هذه السـيدة، ورأت أنه ليس بوسعها أن تبقى للأبد على ما هـي عليـه. غارقة في ذكرى ذلك الحضور النبيل الذي كانت على صلة حميمية به كل تلك السنين. والآن، فيما كل الأخريات تمضين إلى مواطنهن، لم يعرف حزنها حدوداً تقيده.

تقرر أن تنتقل إلى مقرها في سانجو، وأقبل معالي وزير الحرب لاصطحابها إلى هناك. كان الثلـج يهـب على أجنحة ريح صرصر، وبحلول وقت وصـول جينجي، كان مقر نيافته الراحل يوشـك على أن يكون مهجوراً. وبدأ فـي الحديث عن الماضي، ولاحظ معاليه أن شـجرة الصنوبر ذات الإبر الخمس أمام غرف جلالته قد أثقلها الثلج وأن أغصانها السفلى قد ماتت، فقال:

«يا للحسرة، تلك الصنوبرة العظيمة التي أوحى ظلها العريض بثقة كبيرة هجرتها الحياة

ذلك أن أيام العام الأخيرة قد أقبلت والإبر السفلى تتهاوى»[2]

---

(1) أن يهجر الدنيا.

(2) «الإبر السفلى» هم أهل دار أبيه الذين يتفرقون.

لم تكن هذه القصيدة رائعة من روائع الشعر، لكنها عبرَّت عن المشاعر على نحو جيد للغاية بحيث أن دموع جينجي قد بللت كميه.

أضاف جينجي وقد رأى البحيرة متجمدة من شاطىء لآخر:

«ذلك المحيا الذي رأيته صافياً في مرآة هذه البحيرة المتجمدة الناصعة،

لن أراه من جديد أبداً، وقد أفعمت نفسي حزناً» .

قالت أوميوبو:

«سرعان ما ينتهي العام، والربيع هناك بين الصخر يقع سريعاً في قبضة الجليد،

والأشكال التي عرفناها جيداً تحتجب عن عيوننا».

ساهم آخرون كثيرون بقصائد من إبداعهم، لكن المرء ليس بوسعه أن يسجلها كلها.

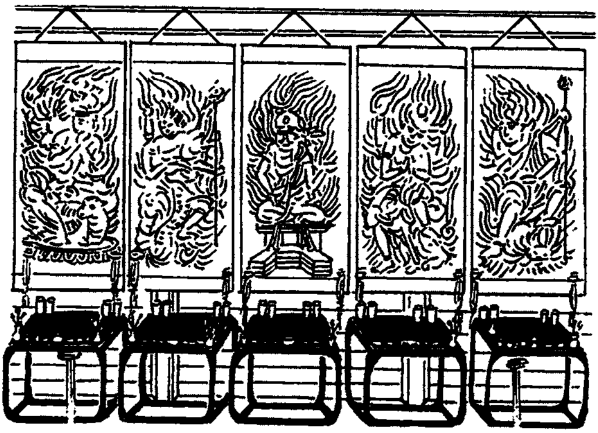
سار نظام التشريفات الخاص بعودة جلالتها حسب العرف المتبع، وربما كانت حالتها الذهنية هي التي جعلت هذا الانتقال حزيناً على نحو غير مألوف، فقد ساورها الشعور عندما وصلت بأنها أبعد ما تكون عن العودة إلى موطنها، وبأنها قد انطلقت حتماً في رحلة، لأنه خطر ببالها أنها لم تعد طوال هذه السنين.

حل العام الجديد، ولكن من دون أي مظهر احتفالي، فقد ساد الهدوء، ولم يجنح جينجي إلا إلى العزلة في داره. وعندما آن أوان قائمة التعيينات[1]، كانت الجياد والعربات التي ازدحمت، بالطبع، عند بوابته في عهد أبيه، بل وتزاحمت بصورة أكبر في السنوات الأخيرة، قد غدت قليلة ومتباعدة، وغدت قليلة أيضاً أطقم الشراشف التي أُخرجت لأتباعه في نوبات خدمتهم، وبدلاً من ذلك فإن مشهد عدم قدوم أحد إلا القائمين على الدار الموثوق بهم، والذين بدا جلياً أنه ليست لديهم مهام كثيرة عاجلة يتعين القيام بها، ذكَّر جينجي على نحو غير سار بأن ذلك هو ما ستكون عليه الأمور من الآن فصاعداً.

---

(1) جيموكو، قائمة التعيينات (بصفة عامة بمناصب بالأقاليم) والترقيات كانت تُعلن في الشهر الأول. وكان المرشحون يتدفقون على جينجي سعياً وراء اكتساب عطفه.

في الشهر الثاني، عُينت سيدة خزانة الملابس سيدة لطاقم العاملين في القصر[1]، وذلك بعد أن انتقلت من سبقتها إلى شغل هذا المنصب من خلال الحداد على نيافته الراحل لتغدو راهبة. وإذ تميزت في طبائعها، وارتفعت في المرتبة التي تشغلها، فإنها من بين كل نساء جلالته قد حظيت بأعظم التقدير. وقد اعتبرت الإمبراطورة الأم التي قضت المزيد والمزيد من الوقت في مقرها، أوميتسوبو القصر الذي تتخذ منه مقراً لها، بينما شغلت سيدة طاقم العاملين الجديدة جناح كوكيدين في القصر الإمبراطوري. وهي التي كانت يوماً تذبل في غمار الكآبة في جناح توكادين[2]، أصبحت الآن تعيش على نحو بهيج، وسط عدد لا يحصى من الوصيفات، غير أنها في قرارة فؤادها كانت حزينة، حيث لم تستطع نسيان ما كان قد بدأ على نحو غير متوقع، ولا بد أن مراسلاتها السرية مع جينجي قد استمرت. وقد خشي من العواقب إذا عُرفت العلاقة التي تربطهما. ولكن تلك الخاصية المألوفة التي تميزه ربما جعلته أكثر تلهفاً من أي وقت مضى. وقد كبحت الإمبراطورة الأم بمزاجها الحاد جماح نفسها فيما كان نيافته على قيد الحياة، ولكنها الآن بدا أنها عقدت العزم على الثأر لكل المشاعر المريرة التي حملتها تجاهه، ولم يواجه بشيء إلا بخيبة الأمل، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن بالأمر المفاجىء، فإن كونه في حالة خصومة على هذا النحو بالغ الغرابة مع الدنيا قد سلبه أي رغبة في الظهور وسط الناس.



طقس المذابح الخمسة

كان معالي وزير الميسرة قد ثبطت همته بالمثل، ولم يبذل جهداً يذكر للظهور في القصر. وكانت الإمبراطورة الأم قد

(1) ارتفع شأن أوبوروزوكيو لتصبح نايشي نوكامي. ومن حيث المبدأ فإن شاغلة هذا المنصب كانت تشرف على العاملات في القصر واحتفالاته ونقل الالتماسات والمراسيم. أما من الناحية العملية فإنها كانت زوجة أقل مرتبة إلى حد ما للإمبراطور.

(2) السرادق الواقع إلى الشمال من كوكيدين، ومن هنا فإنه أكثر بعداً عن الإمبراطور وأقل تمتعاً بالمزايا.

استاءت منه لحجبه ابنته الراحلة عن ولي العهد آنذاك وإبقاءها لجينجي بدلاً منه، وضاقت به ذرعاً. وكانت علاقاته مع معالي وزير الميمنة أيضاً شائكة على الدوام، وبينما كان الحظ قد ابتسم له في عهد نيافته الراحل، فإن الأزمنة قد تبدلت، وغدا وزير الميمنة هو من يصرِّف الأمور كيفما طاب له، فلا عجب أن شعر حمو جينجي السابق بالمرارة.

زاره جينجي كعادته دوماً، وكان أكثر اهتماماً بالنسوة اللواتي كن قد خدمنه هناك ذات يوم، وأظهر الكثير من الإخلاص لابنه الصغير، وقد فاجأ هذا كله النبيل العجوز وأسعده للغاية، بحيث أنه واصل القيام نحوه بكل ما في وسعه فعله من أجله. وفي وقت من الأوقات فرضت مكانة جينجي الرفيعة على وقته مطالب عديدة للغاية، ولكن الآن وقد فقد اتصاله مع العديد من السيدات اللواتي كان يزورهن، كما تخلى كذلك عن مغامراته السرية الأكثر عبثاً باعتبارها مما لا يليق به، فقد أصبحت حياته الترفيهية مناسبة له تماماً.

أُعجبت الدنيا بأسرها بحسن الطالع الذي تمتعت به السيدة المقيمة في جناح جينجي الغربي. وعزته شوناجون في أحاديثها الخاصة بصورة كاملة إلى صلوات سيدتها، الراهبة الراحلة. وقد بعث معاليه بالرسائل إلى ابنته كيفما طاب له، ولا شك في أن ذلك قد أثار استياء زوجته، حيث أن البنات اللواتي ظنت هذه السيدة أن الأقدار سترتفع بهن عالياً قد منين بالفشل، وبدلاً من ذلك أصبحن مصدراً لخيبة الأمل فحسب. وكان المصير السعيد لمحبوبة جينجي بمثابة خيال في حكاية فحسب.

أجبر الحداد كاهنة مزار كامو العليا على الاستقالة، وحلت محلها سيدة زهرة الجُريس. وقد خولت سوابق محدودة لحفيدة إمبراطور أن تخدم ككاهنة كامو، ولكن يُفترض أنه لم تكن هناك ابنة إمبراطور مؤهلة لذلك. ولم يكن جينجي قد تخلى عنها، على الرغم من مرور الوقت، وقد أحس بالأسف لرؤية حياتها تتخذ مثل هذا المسار غير المألوف. وكان من المفترض أن يكتب لها، وأن رسائله كالسابق من خلال تشوجو. ولم يؤثر فيه تغير الأقدار، ولكنه الآن كان يراوح على نحو مؤلم بين علاقتين متقلبتين، لم تمنحاه عزاء يذكر.

كان جلالته يحسن الظن بجينجي، على نحو ما أمره أبوه على فراش موته أن يفعل، ولكن

حداثة سنه جعلته أضعف وألين عريكة من أن يعارض أي شيء تدبره أمه الإمبراطورة الأم أو معاليه جده، ومن هنا فقد بدا أن أساليب عمل البلاط تثير استياءه إلى حد كبير.

جلبت الحياة على جينجي متاعب متلاحقة، ولكن بفضل تفاهمه السري مع سيدة طاقم العاملين في القصر، فإن الاثنين لم يفترقا كلية على الرغم من المخاطرة. وقد شاهد جينجي جلالته يلج رحاب العزلة في بداية طقس المذابح الخمسة، وفي التو بدا لقاءهما كعهده دائماً، حلماً. وقد أفلحت تشوناجون في أن تمضي بها من دون أن ترصدهما عين إلى القاعة التي تذكراها جيداً. كان هناك الكثيرون في ذلك الوقت، وقد خافا من أن يكونا على هذا القرب الكبير من الشرفة. وهي لا يمكن أن تكون لا مبالية به، فلم يحدث قط أن أضجر أولئك الذين يرونه يومياً، وقد كانت هي نفسها في قمة ازدهارها الأنثوي، وعلى الرغم من افتقار معين للرزانة، فإن الشباب والرشاقة البهيجين لمظهرها قد جعلاها مرغوبة تماماً.

لا بد أن الفجر كان قد انبلج تقريباً، عندما تنحنح رجل إلى جواره مباشرة وصاح: «في خدمتكم يا مولاي!». وأدرك جينجي أن ضابطاً آخر من ضباط حرس القصر كان مختفياً غير بعيد، وأن بعض الثرثرة في صفوف زملائه أدت إلى إرسال هذا الشخص لتبين جلية الأمر[1]. وكان ذلك مسلياً بالنسبة له، لكنه كان كذلك مصدر ضيق. وسمعا ذلك الشخص يبحث عن رئيسه في كل مكان، ويهتف: «ساعة النمر، الربع الأول»[2] وقالت وقد بدت جميلة في غمار انزعاجها القليل:

«فؤادي وحده يفسر الأسباب العديدة لبلل كميَّ،

عندما يحذرني صياح الديك من الفجر ومن انسلالك بعيداً»[3]

رد جينجي:

---

(1) خلال النصف الأول من الليل يتولى المناوبة حراس ميسرة القصر، وفي النصف الثاني تحل مناوبة حراس ميمنة القصر. والحارس الذي أرسل بشكل يحمل مداعبة هزلية إلى ضابطه الأعلى، المشغول فيما يبدو مثل جينجي، كان حرياً به أن يعلن اسمه كذلك. وجينجي الذي يتولى قيادة حرس ميمنة القصر يعرفه، وهو يخشى للحظة أن يكون الرجل قد أرسل إليه.

(2) الساعة الثالثة بعد منتصف الليل تقريباً.

(3) قصيدتها، شأن رد جينجي، تحقق تلاعباً بلفظة أكو، «بزوغ (النهار)» «والحذر من».

«أتقصدين إنني ينبغي أن أعيش حياتي على هذا النحو وسط تنهدات لا نهاية لها؟

لن يحل فجر أبداً من دون أن يكون قلبي معك».

سارع بالانطلاق بعيداً. مع التفاف كل شيء بالغمام على نحو جميل تحت قمر الفجر، جعلته دقة تنكره بلا نظير فيما هو يجتاز ـ يا للحسرة، من دون أن يدرك ذلك ـ الملازم فوجيوارا، الأخ الأكبر للزوجة شوكيودين[1]، الذي كان قد خرج لتوه من جناح فوجيتسوبو، وكان يقف إلى جوار مصراع، على مبعدة محدودة من ضياء القمر. كان يمكن لجينجي في يسر أن يغدو موضع تندر.

دفعته مثل هذه الأمور، في بعض الأحيان، إلى الإعجاب بتلك التي نأت بنفسها عنه، وأبقت مثل هذه المسافة الكبيرة بينهما، ولكن بقدر ما كان الأمر يتعلق برغباته فإنه غالباً ما كان يميل إلى جعل هذا الحرص ينقلب ضدها. أما هي نفسها فقد كانت تحس بأنها أكثر ارتباكاً وأشد مفارقةً للمكان من أن تمضي إلى القصر، وضايقها أنه لم يعد بمقدورها أن ترى ولي العهد. ولما كانت تفتقر إلى أي شخص آخر يمكنها أن تمنحه ثقتها، فإنها لم تتطلع إلا إلى جينجي في كل الأمور، وغالباً ما دفعها عدم توفيقه في التخلي عن هوسه إلى اليأس. وفي غضون ذلك كانت ترعبها الفكرة القائلة إن نيافته الراحل لم يلحظ شيئاً، وفي غمار الخوف من أن تلميحاً ما إلى الحقيقة قد ينتشر في أي لحظة، الأمر الذي يحمل عواقب وخيمة بالنسبة لولي العهد (حيث أنها لم تكترث بما يمكن أن يعنيه ذلك بالنسبة لها)، فقد أمرت بأداء الصلوات، ولجأت إلى كل وسيلة ممكنة للابتعاد عن طريق جينجي، على أمل أن يقلع عن هذا الهوس. وعلى الرغم من ذلك، وبمرور الوقت، وعلى نحو أفزعها، وجد طريقه إليها في نهاية المطاف، وذلك بعد التحايل الذكي إلى حد أن أحداً لم يدر بالأمر. كان الأمر كالحلم.

تحدَّث على امتداد وقت طويل للغاية بحيث أنه ما من أحد كان بمقدوره أن يكرر كل ما قاله، ولكنها حجبت على نحو صادق أي رد على ما قاله، إلى أن أثارت آلام حادة في الصدر انزعاج أوميوبو وبن، وهما الوصيفتان الأقرب إليها، فبادرتا إلى العناية بها على

(1) هويتا هذه الزوجة وأخيها غير واضحتين. ولكنها من المحتمل بصورة معقولة أن تكون أم الإمبراطور الذي يتزوج ابنة جينجي، وهو من المحتمل أن يكون هيجيكورو.

وجه السرعة. وقد أعمته المرارة واليأس كثيراً عن كل تفكير في الماضي أو المستقبل بحيث أنه فقد صوابه، ولم يغادر المكان حتى عندما داهمه الفجر.


ستارة

في غمار الفوضى، وبينما الوصيفات القلقات متجمعات حول سيدتهن التي استبدَّ بها الألم، وجد جينجي المذهول نفسه وقد دُفع على نحو عاجل إلى معتزل[1]. اندفعت النسوة مضطربات لإبعاد ملابسه عن العيان. كانت جلالتها قد غُشي عليها من فرط المعاناة، وفي حقيقة الأمر كانت مريضة تماماً. وصل معالي وزير الحرب ووكيل شؤون الدار، وانزعج جينجي لسماعهما يدعوان بصوت عال براهب. ولم تفق إلا بعد أن أوشك النهار على الانتهاء تقريباً، ولم تدر بأن جينجي لا يزال في غرفة قريبة، وكانت وصيفاتها خائفات أشد الخوف من مضايقتها، بحيث أنهن لم يبلغنها بذلك.

كانت قد انتقلت إلى غرفة جلوسها النهارية، وقد انصرف معاليه، معتقداً أنها قد غدت الآن في حالٍ طيبة، وأنها بمفردها تقريباً، وكانت معظم وصيفاتها قد ابتعدن في حرص وراء ستائر مسدلة، حيث أنها لا تبقى بجوارها عادة إلا قلة منهن.

همست أوميوبو وبن إحداهن للأخرى: «كيف يمكننا إخراج سموه من هنا؟ سيكون الأمر فظيعاً للغاية لو أن مولاتي غُشي عليها مجدداً الليلة».

في غضون ذلك، فتح جينجي صامتاً باب المعتزل الذي كان مواربا بالفعل، وأقبل على جلالتها عبر فتحة في الستارتين. جعلت بهجة مثل هذا المشهد بالغ الندرة الدموع تشرع في الانهمار من عينيه[2]. كانت تحدِّق في الخارج، ممعنة التفكير في كيف أنها لا تزال تحس بالمرض يدهمها، وكم هو قليل الوقت الذي بقي لتحياه، فأتاحت له في غمار ذلك لمحة جانبية من جمال يستعصي على الوصف. كانت هناك إلى جوارها فاكهة لتتناولها إذا

(1) نوريجومي، حجرة محاطة بالجدران تماماً، تشكِّل استمرارية للغرفة، لها بابان مزدوجان يدوران على مفصلات، يمكن أن تستخدم كغرفة نوم أو كمخزن.

(2) ربما لم يكن قد رآها نهاراً منذ ما قبل بلوغه مبلغ الرجال.

رغبت في الأكل. وقد رُتبت في غطاء صندوق[1]، وجعلتها طريقة الترتيب تبدو مغرية بما فيه الكفاية، ولكنها لم تنظر إليها قط، فهي إذ غرقت على هذا النحو في القلق على المسار الذي تمضي فيه حياتها، بدت له واهنة على نحو مؤثر للغاية. وأعاد إليه مفرق الشعر في رأسها، شكل رأسها، شعرها المسترسل، كل هذا بطريقته الجميلة أعاد إليه ذكرى السيدة المقيمة في الجناح الغربي بداره.

كان قد بدأ، بعد كل هذه السنين الطويلة، في نسيان كيف تشبه إحداهما الأخرى على نحو فذ، وساعد هذا التذكار الجديد على إدخال العزاء على نفسه. وفي الكبرياء النبيلة أيضاً لم يكن هناك من سبيل للتمييز بينهما، ولكن ربما لأنه أحبها هي الماثلة أمامه بعمق بالغ ولمدة طويلة للغاية، فقد رأى الآن أنها نضجت لتصل إلى درجة أعظم من الكمال، وأزعجه الاقتناع بأنها حقاً لا نظير لها إلى حد أنه انسل تحت ستائرها، وأحدث ثوبه حفيفاً، وأخبرها عبقه بأنه هاهنا، في غمار الخوف والدهشة غاصت إلى الأرضية ووجهها إلى أسفل، هتف وقد أصابه الإحباط واستبدَّ به الغضب: «انظري إليّ على الأقل. ألن تفعلي ذلك؟» وجذبها إليه. انزلقت منسلة من ثوبها الخارجي لتروغ منه، لا لشيء إلا لتكتشف في فزع أنه قد أمسك بشعرها كذلك مصادفة، وبقلب يغوص بين جنبيها عرفت قوة قدرها.

الآن انهار التحكم في النفس الذي كان جينجي قد كافح للاحتفاظ به، وإذ شرد منه العقل، فقد انهمر عليها بحديث عن ألوف من ألوان البؤس والشكاوى، في طوفان من الدموع، ولكن النفور هيمن عليها، ولم تكلف نفسها عناء الرد. قالت: «لست أحس بأنني بخير، وأفضل أن أرد عليك في وقت آخر». ولكنه ألح عليها بترديده الذي لا ينتهي لما ألم به من كرب. ولا شك في أن بعض كلماته قد أثرت فيها، وليس مرد الأمر أن هذا كله لم يحدث من قبل، ولكنها خشيت أشد الخشية من تكراره مجدداً بحيث أنها على الرغم من مشاعرها الرقيقة نحوه أفلحت في إقناعه بتجاوز أي شيء أسوأ إلى أن طلع الفجر أخيراً.

أحس جينجي بالخجل لأنه عصاها عامداً فسعى إلى تهدئة روعها، توسل إليها قائلاً: «لن أفعل شيئاً قد أندم عليه، لو كان باستطاعتي في بعض الأحيان أن أحدِّثك بكل ما

(1) غالباً ما كانت الفاكهة والمكسرات تقدم في غطاء صندوق لأدوات الكتابة.

أعانيه فقط على هذا النحو». لا بد أن حباً كحبهما ممزوج بالألم وأن مشاعرهما تفوق أي مقارنة.

أهابت به الوصيفتان كلتاهما على نحو يائس أن يبادر إلى الانصراف الآن وقد غمر النور الكون. وفي استياء لرؤيتها وقد أوشكت على أن يُغشى عليها، قال: «لسوف أموت سعيداً من جراء الخزي النابع من جعلك تسمعين أنني لا أزال على قيد الحياة، لو لا أن خطيئتي تلك سوف تستمر إلى ما يتجاوز هذه الحياة». كان يتحدَّث انطلاقاً من فكرة حالمة مثيرة للقلق:

«إذا لم تكن هناك نهاية ـ اليوم وإلى الأبد ـ لما يفرقنا،

فإني أتساءل كم حياة سأمضيها في بؤس».

استطرد: «وتشبُّثي سيقيدك بالأغلال كذلك».

ردت مطلقة تنهيدة:

«اتركني، إن أردت، مثقلة بمرارتك على امتداد الحيوات المقبلة،

لكن اعلم أن عدوك الحقيقي قلبك، قلبك أنت وحدك» .

كانت بساطة كلماتها تتجاوز كل مديح، لكن احترامه لمشاعرها وخوفه على مركزه دفعاه الآن، وقد أصابه الدوار، إلى الانصراف.

كيف يمكن أن تواتيه الجرأة على الإطلاق على الظهور أمامها مجدداً؟ ولكي يدعها تعرف مدى أسفه فإنه لم يبعث إليها حتى برسالة. لم يزر أياً من جلالته أو ولي العهد، واعتكف في داره، حيث أبقاه التفكير في قسوتها سجين عذابات الحنين الحزينة إلى أن أحسَّ بالمرض يداهمه، حيث أوشكت روحه حقاً على أن تفارق جسمه. وراح يسائل نفسه في بؤس لماذا تتراكم النوائب والأرزاء في الحياة بعضها على بعض، وخلص إلى أنه لن يقبل هذه المحن بعد الآن، غير أنه سرعان ما تذكر كم هي عزيزة سيدته الشابة، وكم هو عذب ورقيق اعتمادها عليه، وكم هو مستحيل عليه فراقها.

ترك أثر ما جرى جلالتها في حال سيئة، وقد فهمت من أوميوبو التي هيمن عليها الحزن أن جينجي قد اعتزل الناس في داره، ولم يبعث برسالة إليها. وقد خشيت أن يكون جينجي

قـد انقلـب عليها بصـورة حافلة بالنذر، وأنـه إذا أُتيح له مـا يكفي من الحيـاة الدنيا فإنه قد يعـرض عن هـذه الحياة، وخلصت في نهايـة المطاف إلى أنه إذا لم يتوقـف هذا الأمر فإن اسـمها سـتلوكه الأفواه بمـا ينال من شـرفها في عالم لم يجلـب عليها، على أيـة حال، إلا البؤس، وفضلت أن تتخلى عن لقب كانت الإمبراطورة الأم (هكذا قيل لها) تشـعر بأنه ما كان ينبغـي أن تحمله في المقام الأول. وجعلتها ذكرى الاهتمام الاسـتثنائي بها من جانب نيافتـه الراحـل تدرك كم تغيرت الأمـور بعمق. ولربما لن توفر على نفسـها مصير السـيدة سيكي[1]، لكنها يقيناً ستعاني من الهزء والسخرية على نطاق كبير.

جعلتهـا هـذه التأمـلات المريرة في قبح الحيـاة الدنيا ترفضها رفضاً، ولكن آلمها أشـد الألـم أن تجتاز هـذا التغير من دون أن ترى ولي العهد، إلى حـد أنها مضت أولاً في هدوء إلى القصر. وكان جينجي يحرص على الدوام على أن يكون في خدمتها في أقل المناسبات شـأناً، ولكنه فـي هذه المرة اعتذر بتوعك الصحة عن اللحـاق بمعيتها. وحرص على تلبية احتياجاتها بالصورة المناسبة كعهده أبداً[2]، ولكن من يتفهمون جلية الأمر شعروا بالأسف البالغ عليه.

كان ولي العهد قد كبر، وغدا صبياً صغيراً جميلاً، وجعلته رؤية أمه مجدداً رقيقاً للغاية، ولكـن على الرغم من أن حبها له قـد زعزع ما عزمت عليه، فإنها قد أدركت بما فيه الكفاية مـن الوضـوح أن تغيـر الأقدار قد ترك تأثيـره، وأنه لم يبق الآن إلا القليـل من البلاط الذي عرفته يوماً، وجعل التهديد الدائب بإثارة اسـتياء الإمبراطورة الأم من قبيل المخاطرة حتى زيارة القصر على هذه الشـاكلة، وكانت هناك حقاً لحظات مربكة بما فيه الكفاية بحيث أن الخوف على ابنها قد أثار انزعاجها بشدة[3].

«كيف سـيكون شـعور سـموكم إذا لم تروني وقتاً طويلاً ثم عقب ذلـك بدوت مختلفة

---

(1) السيدة كي (سيكي في التقاليد اليابانية) أحبها مؤسس عائلة الهان المالكة، الإمبراطور جوزو. وقد لقيت هي وابنتها مصرعهما على يد الإمبراطورة زوجة جوزو الغيور بعد موته.

(2) بإرسال أتباع وأعضاء من أهل داره لمساعدة فوجيتسوبو.

(3) عوملت في القصر بكراهية، وهي تخشى من مؤامرات لخلع ابنها من ولاية العهد. ويأتي شرح مبكر للحكاية على ذكر قصة ملكية الهان، التي تتحدَّث عن قيام أمبراطورة بدس السلم لولي العهد، خلال غياب الإمبراطور في رحلة صيد.

وفي هيئة ليست جميلة؟»[1].

تأمل محياها، ورد مبتسماً: «مثل شيكيبو[2]. ولكن كيف يمكن أن تظهري على ذلك النحو؟».

يا للحسرة، لقد كان أصغر سناً من أن يتفهم جلية الأمر. انخرطت في البكاء: «شيكيبو قبيحة المنظر لأنها طاعنة في السن. لا. لا. الأمر هو أنني سأقص شعري ليغدو أقصر من شعرها، وأرتدي ثوباً رمادياً مثل الرهبان في نوبة ليلية[3]، ولن يكون باستطاعتي رؤيتكم في أوقات متقاربة، على نحو ما أفعل الآن».

«لكنني سأفتقدك إذا غبت كل ذلك الوقت الطويل!»، دفعته دموعه إلى أن يشيح عنها باندفاعة من شعره الجميل. كلما كبر غدت عيناه أكثر رقة، كأنما انزلق وجه جينجي على محياه. وقد أثّر تسوس بسيط على أسنانه، فجعل داخل فمه داكناً، ومنحه ابتسامة آسرة للغاية إلى حد أنها كان يسعدها أن ترى مثل هذا الجمال فتاة[4]. وحملها هذا الشبه المحزن بأبيه، الذي كان عيبه الوحيد، إلى الخوف من الدنيا وعينها الميّالة إلى النقد القاسي.

افتقده جينجي بشدة، ولكن رغبته في جعل أمّه تندم على قسوتها دفعته إلى كبح جماح نفسه، إلى أن دفعه التخوف من أن هذا الكسل شيء لا يليق به إلى المسارعة بالانطلاق في رحلة عبر الحقول التي كساها الخريف، وفي غمار ذلك القيام بزيارة يورينين[5]. وأمضى يومين أو ثلاثة أيام في قاعة «معلم انضباط» معين[6] هو خاله، عاكفاً على قراءة الكتب المقدسة وأداء طقوس الورع، وخلال وجوده هناك أحس غالباً بالتأثر الشديد. وكانت كل الأوراق قد اصفرت الآن، ونسي المدينة تقريباً أمام جمال الحقول الخريفية.

---

(1) بشعر الراهبة القصير وزيها الكئيب.

(2) ربما كانت وصيفة موغلة في العمر. يوي نو سو، رهبان يؤدون الطقوس خلال الليل من أجل صحة الإمبراطور.

(3) يوي نو سو، رهبان يؤدون الطقوس خلال الليل من أجل صحة الإمبراطور.

(4) يبدو فمه كما لو كانت أسنانه قد سودت مثل أسنان فتاة.

(5) معبد يقع إلى الشمال من المدينة. وكان في الأصل دارة إمبراطورية، وكان الورعون من سكان المدينة يفضلونه ويؤثرونه.

(6) الدرجة الأولى على سلم من الدرجات تشغله الطبقة الأعلى من الرهبان البوذيين. وهذا اللقب يعني «معلم الفينايا»، كيان الانضباط الرهباني.

استدعى رهبان المعبد الأكثر موهبة، ودفع بهم إلى النقاش أمامه[1]. وفي مثل هذا المكان قضى الليل مستغرقاً في تأمّل بطلان كل شيء، ولكنه قرابة الفجر كان يتذكر تلك التي كانت بالنسبة له تعني المعاناة. وفي غضون ذلك تجمع الرهبان حوله مقدمين الماء المقدس قرباناً تحت قمر يمضي متوازياً، وناثرين زهور الأقحوان والوريقات الحمراء القاتمة والمتألقة، ولا شك أن تلك اهتمامات متواضعات، ولكنه أحس بأنها كافية لإزالة ضجر هذه الحياة، وبالطبع لضمان حياة مقبلة سعيدة. وواصل التفكير في النحو المقيت الذي بدَّد به وجوده. «كل من يرددون اسمه، سيضمهم إلى ذاته، ولن ينحيهم جانباً مرة واحدة»[2]. هكذا مضى مضيفه يرتل بلهجة سامقة بينما جينجي يسائل نفسه في شعور حاد بالحسد: لم لا أجعل هذه الحياة حياتي؟ لا شيء إلا ليقع على نحو شائن للغاية في قبضة أفكار مرتبكة عن محبوبته في الدار.

لم يغب عنها إلا نادراً كل هذه الأيام العديدة، وساوره من القلق ما يكفي لقيامه بإرسال دفق من الرسائل إليها. كتب على سبيل المثال يقول: «حدَّثت نفسي بأنني قد أدرك ما إذا كان باستطاعتي أن أتخلى عن كل شيء حقاً، لكن الوقت يمضي ببطء بالغ، وتشتد كآبتي عن أي وقت مضى. ولا يزال لديَّ المزيد من الأسئلة، ولست على يقين مما يتعين عليَّ القيام به. ماذا عنك؟».

حتى هذه الرسالة التي بعث بها، وقد كتبها على وجه السرعة على ورق ميتشينوكوني[3]، كان مرآها يبعث البهجة في النفس:

«بعد أن تركتك هناك، منحنية في وهن مثلما قطرة ندى ترتجف على وريقة،

فإنني أغدو طريد مخاوف عديدة عندما تهب الرياح الأربع» .

كان قد أضاف ذلك بإحساس عميق، فبكت قارئة الرسالة. وعلى ورق أبيض نحيل ردت تقول:

---

(1) كانت النقاشات الرسمية شائعة في حياة الرهبنة.

(2) فقرة باللغة الصينية من الكانمويوريوجو - كايو (سوترا في تأمل الحياة الخالدة) تشير إلى قسم أميدا بإنقاذ حياة كل من ينادون باسمه.

(3) ورق أبيض سميك يُتخذ من لحاء شجرة طويلة ورفيعة (ميومي)، وربما وجد جينجي هذا الورق العتيق أكثر اتفاقاً مع وضعه من ورق التورينو كو الملون الأقل سماكة، والذي يشيع استخدامه لكتابة مثل هذه الرسائل.

«آه، عندما تهب الريح، ما أسرع ما يتشابك خيط العنكبوت المتدلي فوق تلك الورقة الناحلة
ويرتجف فؤادي خوفاً من أن يتعرض للخيانة»[1].

كان ذلك كل شيء.

قال لنفسه، مبتسماً في غبطة حيال مدى جمالها: إن خطها يزداد جمالاً طوال الوقت. لقد تراسلا كثيراً، حتى أن خطها بدا شديد الشبه بخطه، على الرغم من لمسة إضافية من الرشاقة الأنثوية. يبدو أنني أبرزتها على نحو جميل من كل الجوانب.

كتب كذلك لكاهنة كامو، حيث أن النسيم كان أمامه طريق جد قصير ليهب فيما بينهما[2]. كتب مشيراً في مرارة بالغة لتشوجو[3]: «لن تعرف سيدتك أبداً كيف تُقت إليها تحت هذه السماوات غير المألوفة». وإلى الكاهنة نفسها كتب يقول:

«بعيد أنا كل البعد عن الإساءة للآلهة القديرة، لكن رداءك الآن
لا يمكن إلا أن يذكّرني بذلك الخريف البعيد»[4].

كل ما أريد القيام به، وإني لأعرف أن ذلك من الحمق، هو أن «أحيل الماضي إلى الآن»[5]، غير أنني أحس كأنما ينبغي أن يكون ذلك ممكناً..». كان قد كتب رسالته، المألوفة للغاية في لهجتها، على ورق صيني أخضر، وأرفقها في وقار بغصن ساكاكي.

ردت تشوجو: «لما لم يكن لديَّ الكثير مما يتعين عليَّ القيام به، فقد تركت ذهني يستقر على الذكريات، وعندئذ يا مولاي فإن خواطري غالباً ما تنصرف إليك، ولكن لا جدوى حقاً من ذلك». كانت رسالتها طويلة وعميقة التفكير.

كتبت الكاهنة على امتداد حافة قصاصة مقدسة طويلة وضيقة كعلم خفاق:

---

(1) «أنا التي ليس لديها غيرك، بكل تقلباتك المزاجية وقصص حبك، لا يمكنني الشعور بالأمان».
(2) أساجاو. الريح تحمل الرسائل بصورة رمزية. وأورينين كانت قريبة من آيسي.
(3) الوصيفة التي يراسل جينجي من خلالها أساجاو.
(4) يبدو أن جينجي يشير إلى لحظة بينه وبين أساجاو، لا يعرف القارىء بأمرها إلا من خلال هذه الإشارة. «الرداء» يحمل الإشارة إلى يوداسوكي، وهي قيطان تتخذ من مادة لحاء شجر التوت يربط من يخدمون المزار بها أكمامهم، لكي يشغلوا أنفسهم بالطقوس.
(5) آيسي مونو جاتري 65، التي تعبر عن الرغبة في «لف» (كما يلف المرء خيطاً) الماضي إلى الحاضر.

«تقول، منذ زمن بعيد، ما الذي حدث آنذاك بحيث أن ردائي الآن

يثير مثل هذه الذكريات ومن جديد يأسر فؤادك؟

أخيراً.. » لم يتسم خطها بطابع عظيم، ومع ذلك فقد أفصح عن مهارة قائمة على المران، وكانت حروفها المتصلة[1] مكتوبة على نحو جميل. وقد دفعه ذلك على نحو منطو على تدنيس المقدسات إلى تخيل زهرة الجُريس الآن جميلة أكثر من أي وقت مضى[2].

تذكَّر أن الموسم كان على وجه الدقة كموسم ذلك الوقت الحزين في المزار القائم في الأرض السبخة. وبطريقته الجديرة بالاستنكار وجّه اللوم إلى الآلهة على هذه المصادفة الغريبة. وكان غريباً منه أن تساوره الآن مشاعر الندم هذه، أخذاً في الاعتبار السنوات التي سمح بأن تنقضي بينما كان في وسعه أن يفوز بها إذا أراد ذلك حقاً، وقد أدركت هي نفسها اهتمامه الخاص بها، وبدا في ردودها المتباعدة أنها لم تبذل جهداً كبيراً لتثبيط همّته، الأمر الذي لم يكن جديراً بالإعجاب من جانبها.

سرَّ رهبان معبد الجبل كافة، حتى أقلّهم شأناً، لأن مكوث جينجي بين ظهرانيهم بينما عكف على قراءة اللفائف الستين[3] وسعى للحصول على العون في فهم المقاطع المثيرة للحيرة، بدا مكافأة لهم على صلواتهم وإيماءة تشريف لبوذا معبدهم[4]. ولا بد أن التأمل الهادىء في الدنيا وسبلها قد ثبط همته عن العودة إلى الدار مجدداً، ولكن التفكير في سيدة واحدة قيّده، فلم يتوان عن الانطلاق. وقبل المغادرة كلَّف الرهبان على نحو سخي بقراءة للكتب المقدسة في المعبد، ومنح الهدايا لكل مستحقيها، للرهبان على اختلاف مراتبهم ولسكّان الجبل المحليين.

واستعان بالأعمال المقدسة في مجملها. وتجمّع الحطّابون البائسون هنا وهناك منخرطين في البكاء لرؤيته في طريقه لمغادرة الجبل. وفي داخل عربته المجللة بالسواد

---

(1) سو. حروف صينية متصلة تستخدم من أجل القيمة الصوتية في أسلوب مانيو جانا في الكتابة.

(2) «زهرة الجريس الزرقاء» (أساجاو) تشير إلى الزهور التي بعث إليها بها ذات مرة، وتومىء، في السياق، إلى أنه رآها متجردة من كل زينة، ومن هنا إلى أنهما كانا عاشقين.

(3) كبان الكتابات المذهبية التي تؤثرها مدرسة تينداي البوذية.

(4) أيقونة أورينين الرئيسية.

كان يرتـدي ملابـس الحـداد[1]، بحيث أن المرء لا يـرى منه إلا لمحة خاطفـة، ولكن أقل لمحة أظهرت أنه لا مثيل له في الدنيا.

بدت محبوبته وقد ازدادت جمالاً خلال غيابه، وعندما وجدها حزينة وقلقة حيال حالة مشـاعره (ذلك أن الاضطراب البعيد عن الرصانة لمشاعره كان جلياً بلا شك بالنسبة لها)، تأثر بقصيدة عن «الوردة الذابلة» ومنحها قدراً أكبر من المعتاد من اهتمامه.

كانـت وريقات الخريـف التي بعث لها بها من الجبل أكثر تألقـاً في لونها من الوريقات المسـتمدة من حديقته، ولما لـم يكن بمقدوره أن يتجاهل رسالة قطرات الندى التي علقت بهـا[2]، واسـتنكر على أي حـال صمته الـذي دام طويلاً، فقـد بعث ببعضها إلـى جلالتها، ظاهرياً كإيماءة لطف وكياسة.

كتب لأوميوبـو يقـول: «دهشـت لعلمي بأن جلالتها في القصر، ولكن بينما كنت أرغب فـي أن تهمـل ولي العهـد، فقد فضـلت ألا أختصر الأيام التي خصصتها للتبتل والصـلاة، وهـذا هـو السـبب في أنه لم يصلـك مني شـيء كـل هـذا الوقت الطويـل. تذكرني رؤيـة أوراق الشـجر الخريفيـة بمفـردي بالإعجـاب بالقماش المقصب في الظلام[3]. أرجو أن تطلعي جلالتهـا على هذه الأغصـان عندما تجدين اللحظة المناسبة للقيام بذلك».

كانـت أغصانـاً بديعة حقـاً، وبينما قامـت جلالتها بتأملهـا، لاحظت الرسـالة الصغيرة المألوفـة، فامتقـع وجهها لأن وصيفاتها كن يشـاهدن ما يجري، وحدَّثت نفسـها كم أنه لا يزال مقيتاً مطاردته إياها على هذا النحو، ويقيناً أنهن سـوف يتساءلن عن السر في أن رجلاً حريصـاً تمامـاً يعمد فجأة إلى مثل هـذا التصرف. نالها قدر كاف مـن الضيق بحيث أمرت بوضـع الأغصـان في مزهريـة وتنحيتها بجوار أحـد الأعمدة الخارجية، ولـم تعطه إلا رداً مناسـباً وفـق الأعراف، اقتصرت فيـه على العموميات، وأعربت عن ثقتهـا في كل ما يقوله بشـأن ولـي العهد. ونقلت رسـالتها إليه يقظتها التـي لا تعرف التهاون، وقرأهـا بخيبة أمل

---

(1) على أبيه.

(2) وريقات الخريف تحمر بفعل قطرات الندى والمطر الباردة (الدموع) بحيث أن الوريقات المتألقة بصفة خاصة تستحضر الحب الحاد والتعس. إن جينجي يفكِّر في فوجيتسوبو.

(3) كوكينشو 297، من نظم كي نو تسورايوكي: «وريقات الخريف التي تتساقط في الجبال من دون أن يراها أحد تشبه القماش المقصب في الليل المظلم».

مريرة، ولكن لما كان قد فعل الكثير من أجلها على الدوام، فقد خشي الآن أن يثير الريبة، ومضى إلى القصر في اليوم الذي كان مقرراً فيه أن تغادره خلاله.

زار أولاً جلالته، الذي كان يستمتع بلحظة استرخاء، وتحدثا عن الأيام الخوالي. وبدا جلالته مثل أبيهما إلى حد كبير، على الرغم من أنه حظي برشاقة أشدّ رقة، وبدا محياه وادعاً وعطوفاً.

كانا سعيدين أشد السعادة برؤية أحدهما الآخر، وكان جلالته قد سمع بأمر علاقة جينجي بسيدة طاقم العاملين في القصر، ولاحظ بنفسه مؤشرات دالة على تلك العلاقة، ولكنه أحسَّ بأن هذه العلاقة في نهاية المطاف ليست بالجديدة، وحيث أنها قد دامت طويلاً بالفعل، فإن مواصلة الانغماس في شعورهما أحدهما حيال الآخر لن تحدث فارقاً. ولم ينطق بكلمة لوم واحدة. وبعد أن سأل جينجي عن نطاق واسع من الموضوعات، بما في ذلك فقرات من الأعمال الكلاسيكية التبس عليه معناها، شرعا كلاهما يوضح أحدهما للآخر قصائد الحب التي نظماها[1]، وانتهز جلالته هذه الفرصة للإشارة إلى كم بدت الكاهنة العليا جميلة في اليوم الذي انطلقت فيه إلى آيسي، وعندئذ أفضى إليه جينجي بقصة ذلك الفجر المدهش عند المزار القائم في السبخة.

أطل قمر الليلة الثانية عشرة أخيراً[2]، فألهم جلالته الإشارة إلى أن اللحظة تستدعي الموسيقى، ورد جينجي بأنه يؤثر المضي لمساعدة جلالتها، التي فهم أنها من المقرر أن تغادر القصر ذلك المساء. «لقد كلفني نيافته الراحل بالعناية بها، وبما أنه يبدو أنها ليس لديها من يقوم بالعناية بها غيري، فإن رفاهها يهمني حرصاً على ولي العهد».

قال جلالته: «لقد أهاب بي نيافته الراحل أن أتقبله كابن لي، أنا أحاول القيام برعايته، ولكنني لا أرى ما الذي يسعني القيام به أكثر مما أفعله. ويبدو خطه وما إلى ذلك في مستوى من النضوج يتجاوز سنوات عمره، وفي حقيقة الأمر أنه هو الذي يعد تشريفاً لي لأنني لا أحسن القيام بشيء على نحو ما أريد».

---

(1) أي الحديث عن شؤونهما العاطفية.

(2) في هذه الليلة في الشهر القمري التاسع، يبزغ القمر في حوالي العاشرة ليلاً.

رسم له جينجي صورة لأداء الأمير الصغير: «إنه ماهر، على وجه العموم، وهو يتصرف بطريقة ناضجة، لكنه لا يزال أمامه شوط طويل يتعين عليه أن يقطعه».

خلال انصرافه، التقى أمين مراقب حسابات معين، هو ابن المستشار الكبير فوجيوارا، الأخ الأكبر للإمبراطورة الأم، بالأعضاء المتقدمين من مرافقيه، والذين أفسحوا له الطريق في حرص. وكان مراقب الحسابات، وهو شاب ذكي يحظى بقبول كبير، في طريقه إلى مقر أخته في جناح ريكيدين[1]. وقد توقف للحظة وترنم على نحو صارم قائلاً: «امتد قوس أبيض عبر الشمس، فارتجف ولي العهد»[2].

لم يستطع جينجي المصدوم تأنيبه. وغالباً ما سمع عن عدوانية الإمبراطورة الأم المثيرة للانزعاج، وتظاهر بأنه لم يلحظ شيئاً، وذلك على الرغم من الضيق بأن قريباً وثيق الصلة قد واتته مثل هذه الوقاحة. واعتذر لجلالتها عن تأخر ساعة زيارته لها، حيث كان في خدمة الإمبراطور حتى لحظة مضت.

كان ثمة قمر متألق، وتذكرت جلالتها كيف أنه في مثل هذه الأوقات كان نيافته يدعو بالموسيقى، ويظهر إحساساً متدفقاً بالحيوية نحو الجمال. وقد ساورها الحزن لرؤية هذا التغير الكبير، حتى وإن كان القصر لا يزال على حاله. ومن خلال أوميوبو بعثت إلى زائرها بقولها:

«ربما عزلتني السُدُم ذات الطيات التسع عن الدنيا بأسرها حيث يمضي حنيني،

إلى القمر البعيد للغاية، المنطلق عالياً فوق السحب»[3].

كانت قريبة بما فيه الكفاية بحيث أن لمحة منها مهما كانت باهتة أثارت حنين جينجي القديم إليها، وبكى، ناسياً كل الألم الذي عانى منه. ردَّ قائلاً:

«لا يزال القمر المتألّق يلمع، كما عرفناه ذات خريف، قبل كل هاتيك السنين،

---

(1) زوجة إمبراطورية، ابنة أخ لكوكيدين وأبو روزوكيو وحفيدة وزير الميمنة.

(2) فقرة الشيجي هذه تلمِّح من طرف خفي إلى أن جينجي، حامي ولي العهد، يتآمر لإحداث تمرد، لكنه سيمنى بالفشل. وكان تابع موال معين تقد تآمر لاغتيال الإمبراطور الأول من عائلة كين المالكة باسم ولي عهد ين، ولكن السماء كشفت خطته بمد قوس قزح أبيض عبر الشمس، الشمس ترمز للإمبراطور، وقوس قزح الأبيض يرمز للأسلحة والمحاربين، وعندئذ خاف أمير ين من أن المؤامرة ستمنى بالفشل، وهو ما حدث بالفعل.

(3) «السُدُم ذات الطيات التسع» هي من ساءت نيتهم والذين يفصلون بين المتحدثة والإمبراطور (القمر).

لكن السُدُم التي تحجب سناه هي محن قاسية يتعين احتمالها .

يقولون إن السُدُم كالفؤاد[1]، ولا بد أنها كانت على حالها نفسها قبل سنوات طويلة».

لم ترغب جلالتها في مفارقة ولي العهد، وأسدت إليه نصيحة مسهبة حول ما ينبغي فعله وما لا يتعين القيام به. ولكنها أحسّت بخيبة الأمل، عندما وجدت أنه لم يستوعبها كلها على نحو جيد للغاية. وكان يأوي إلى فراشه مبكراً عادة، ولكنه بدا أنه يريد البقاء إلى أن تغادر القصر، وتأثرت بصفة خاصة لرؤية إحجامه عن التوسل إليها كي تبقى، وذلك على الرغم من حنقه لعزمها المضي بعيداً من جديد.

فكّر جينجي في تلميح مراقب الحسابات، ودفعه تأنيب الضمير إلى الشعور بالنفور من الدنيا. لم يكن قد راسل على امتداد وقت طويل سيدة طاقم العاملين في القصر. وكانت السماء تعد بأولى زخات مطر مطالع الشتاء، عندما بعثت له برسالة لأسباب خاصة بها:

«بينما يمضي الخريف تتأهب رياح مريرة للهبوب، ولا أزال على عذابي،

وحده صمتك، ولا شيء سواه، يهيمن يوماً إثر آخر» .

هكذا كتبت له. ولم يشعر بالاستياء ولأنها ساورها شعور بالغ من العمق، في أكثر المواسم حزناً هذا، ودفعها لإرسال رسالة سرية، ولذا جعل حامل الرسالة ينتظر، وفتح الصندوق الذي يحتفظ فيه بورقه الصيني، واختار رقعة بديعة على نحو خاص، وأعد فرشاته بعناية كبيرة. لكزت الوصيفات الحاضرات إحداهنّ الأخرى، وتساءلن عمّن عساها تكون السيدة المعنيّة، حيث أن كل إيماءة بدرت منه كانت إيماءة عاشق.

كتب يقول: «لقد يئست عندما أدركت أنه ما من مراسلة لك يمكن أن تفضي إلى خطوات أبعد. وبينما واصلت المعاناة[2].

هل دموعي، المنهمرة في غمار تذكر مفعم بالحنين سبب انعدام لقيانا

هي مجرّد مطر عادي أرسلته سماوات صدر الخريف؟

---

(1) في قصيدة كان يمكن لولا ذلك أن تكون مجهولة يوردها شرح مبكر جينجي مونو جاتري كوتشو شوكوشو نيو واكا 464 يقارن المتحدِّث بين السدم التي تحجب شجرة كرز نائية بفؤاد قاس لمن يبعد العاشق عن محبوبته.

(2) جوسينشو 1260: «بينما أواصل أنا الذي لا أهمية لي إلا بالكاد المعاناة فإن العهد قد بعد إلى حد أنني افتقدت».

لو أننا كنا على تواصل حقاً فحسب، فما كان أيسر نسياننا لهذا المطر الكئيب!».

ولقد أصبحت رسالة مشبوبة العاطفة. ولا بدَّ أن الكثير من السيدات الرائعات قد ظفرن باهتمامه على هذا النحو، وقد حرص على التيقن من ألاّ تكون ردوده مثبطة للهمة، على الرغم من أنه لم يشعر بارتباط عميق بأي منهن.

كانت جلالتها مشغولة، بصورة متعددة المظاهر، بالاستعدادت لطقس «القراءات الثماني»[1]، الخاص بها الذي تقررت إقامته في أعقاب الطقوس التي تقام لإحياء الذكرى الأولى لنيافته الراحل. تساقط ثلج ثقيل في يوم الذكرى، في أوائل الشهر الحادي عشر. وتلقت من جينجي هذه الرسالة:

«ها قد حال الحول على ذلك اليوم التعس الذي انتزع فيه منَّا،

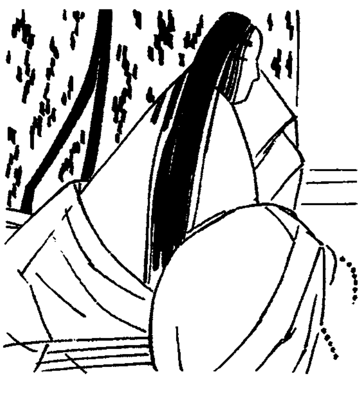
ولكن متى سنرى من جديد الإنسان الذي عرفناه حق المعرفة؟».

كان اليوم حزيناً للغاية بالنسبة لها أيضاً بحيث أنه تلقّى رداً:

«مواصلة العيش على هذا النحو عبء طالما استمرت،

ولكن لقاء هذا اليوم من بين كل الأيام مجدداً يجعله حاضراً بيننا مرة أخرى»

لم تكن بذلت جهداً لتجميل خطها، ولكنه بالنسبة له أوحى بالتميز الفائق.



شعر المربية القصير

وعلى الرغم من أنه لم يكن فذاً ولا مجارياً للصرعات على نحو مذهل، إلا أنه لم يكن شبيهاً بخط أي إنسان آخر. وقد تغلب على تفكيره فيها اليوم، وأسلم نفسه لمهام الصلاة، وقد بلّلته قطرات تركها الثلج المثير للذكريات والعواطف.

أقيم طقس «القراءات الثماني» بعد اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر بقليل. وكان حدثاً مهيباً. وبمقتضى الأمر الصادر من جلالتها، فإن لفائف النصوص

(1) مي – هيكو، طقس يستمر أربعة أيام يحتفي بسوترا الزهرة. في كل يوم كان نقاش رسمي، يدار في جلسات في الصباح وما بعد الظهر، يطور محتوى لفافتين من لفافات السوترا الثماني.

المقدسة قد كُرست كل يوم، باسطواناتها المتخذة من اليشب، أغطيتها من الشاش الحريري وكسوتها جميلة الزخرفة، التي كانت أروع من أي شيء وقعت عليه العيون. ولما كانت قد درجت كممارســة مألوفة على أن تحرص على إنجاز الأمور بصورة اســتثنائية في كمالها، فـإن ترتيباتها هذه المـرة كانت بمثابة أعجوبـة على نحو جلي. واســتدعت ترتيبات الذبح الأغطية ذاتها الموضوعة على مناضد المذبح إلى الأذهان الخواطر المتعلقة بالفردوس.

كُرِّس اليوم الأول للإمبراطور الســابق، والد الراهبة القائمة بأداء الطقس، واليوم الثاني للإمبراطـورة أمها، واليوم الثالث لنيافته الراحل. وفي اليوم المخصص للفيفة الخامســة[1] تغلب النبلاء البارزون على خوفهم من الإساءة[2]، وشهدوا إقامة الطقس بأعداد كبيرة، وقد أجادت جلالتها اختيار محاضرة اليوم للغاية بحيث أن الفقرات المألوفة، التي تبدأ بالفقرة التي تدور حول جمع الحطب وما إلى ذلك، كانت مبهمة بصورة عميقة[3]، وحمل الأمراء فـي الموكب قرابين متعددة الأنـواع[4]، ولكن تلك القرابين التـي أعدها جينجي تجاوزت على نحو فائق القرابين الأخرى.

وربمـا يبـدو أنني أكرر ألـوان المديح ذاتهـا له، ولكننـي لا أملك لذلك دفعـاً لأن مرآه أعجوبة في أي وقت يُتاح للمرء الحظ الطيب الذي يسمح برؤيته.

اختصت جلالتها نفسها بثواب اليوم الأخير، ودهش الجميع عندما أمرت بأن يُعلن لبوذا أنهـا ســتتنكر للدنيا وتتخلى عنها. وقـد ذُهل معالي وزير الحـرب وجينجي لهذا الإعلان. وقـد مضى معاليه للقياها في منتصف أداء طقس ذلك اليوم. وبعد أن شــدَّدت على أنها قد حســمت أمرها، استدعت كبير رهبان الجبل، وعندما انتهى الطقس، أبلغته بأنها ترغب في أن تتلقي التوصيات المناسبة.

---

(1) لفيفة رئيسية كانت تناقش خلال جلسة الصباح في اليوم الثالث.

(2) الإساءة إلى الزوجة كوكيدين ووزير الميمنة.

(3) كانت المحاضرة (كوجي) ذات أهمية محورية بالنسبة لنقاش كل يوم. ويصف الفصل من السوترا الذي يحمل عنوان «ديفاداتا» كيف خدم بوذا معلمه بقطف الفاكهة وجلب الماء وجمع الحطب إلى أن تلقى تعاليم سوترا اللوتس.

(4) ربما كان المجتمعون يتحركون في موكب حول بركة الحديقة تشبيهاً لها بالبركة في الفردوس، بينما يحملون حزماً من الحطب ودلاء من الماء وقرابين معلقة بأغصان من الذهب أو الفضة الاصطناعيين.

عمَّ الاضطراب عندما اقترب رئيس الرهبان وهو عمها، وقصّ شعرها[1]، وامتلأ مقرها بالنواح. إنه لأمر مؤثر في النفس على نحو غريب عندما يقوم أي شخص، مهما كان تواضع شأنه وأياً كان مدى وضوح إيغاله في العمر، باتخاذ الخطوة الكبيرة المتمثلة بالتنكر للدنيا والتخلّي عنها، وقد أدى قيام مثل هذه السيدة العظيمة من دون أن تلمح على الإطلاق إلى اعتزامها اتخاذ هذه الخطوة إلى منح أخيها المزيد من المبررات لسفح دموع مدرارة. وقد وجد الحاضرون الطقس نفسه مثيراً بقدر كاف للشجن، وغادروا المكان جميعاً وقد ابتلت أكمامهم.

شعر أبناء نيافته الراحل بحزن أكبر عليها، عندما استعادوا ذكرى أيامها الأفضل، وبعث كل منهم برسالة إليها يعرب فيها عن تعاطفه. بقي جينجي بعد انصراف الجميع، وقد ضاع منه ما يمكن أن يقوله، وسقط في حالة من الاضطراب المظلم، ولكنه مضى إليها بعد أن غادر الأمراء المكان، بحيث أن الناس كانوا سيتساءلون يقيناً عما ألم به.

عم الهدوء الدار أخيراً، وتجمعت النسوة هنا وهناك، يشهقن ويتمخطن، أعاد سنا القمر المتألق على الحديقة التي كساها الجليد إلى الأذهان على نحو لا يحتمل مشاهد من أيام عبرت وانقضت، ولكنه تمالك نفسه بما يكفي لكي يسأل: «ما الذي حملك على اتخاذ هذا القرار وجعلك على هذا النحو المفاجىء..؟»

ردت، على لسان أوميوبو، كالعهد دائماً، قائلة: «لم يكن هناك ما هو عاجل ومفاجىء في قراري، لكنني كنت أعلم أنه سيسبِّب اضطراباً، وقد خشيت من أن أتعثّر في المضي قدماً به».

خمَّن جينجي بالحدس وجودها وراء الستائر الحاجبة، وتناهى إلى سمعه حفيف الملابس الحريرية الصادر عن النسوة القائمات على خدمتها فيما هنّ يتحركن في هدوء حولها، وتأثر، على الرغم من أنه لم يدهش، لإدراكه من أصوات معينة أخرى أن حزنهن لم يهدأ بعد. في الخارج هبّت الرياح الضارية، ولكن في داخل ستائرها الحاجبة كان الهواء يضوع بشذاها «العميق الأسود»[2]، وبأثر من بخور مذبحها. واختلط عبق جينجي

(1) إلى ما بعد كتفيها بقليل.

(2) كوروبا، خليط من ستة أنواع من البخور يستخدم لتعطير الملابس، وبصفة خاصة في الشتاء.

الخاص على نحو جميل للغاية مع هاتين الرائحتين كلتيهما، بحيث أن المرء ما كان بوسعه إلاّ التفكير في الفردوس.

أقبل رسول من ولي العهد، وقد زعزعت ذكرى حديثها مع ابنها صلابتها بقوة بالغة إلى حد أنها لم تستطع الرد عليه، وقد كان جينجي هو الذي قدَّم ردها.

كانت الدار، بالنسبة له، أكثر صخباً من أن يتمكن من إبلاغها بكل ما رغب فيه. قال:

«على الرغم من أنني أتطلع بدوري لمنح فؤادي لتلك السماوات التي يتألق فيها القمر،

فإنني ينبغي أن أضرب في ظلام هذه الدنيا[1].

أود لو أن ذلك كان ممكناً، ولكن يا للحسرة.. إنني أحسدك على قرارك».

كان ذلك هو أفضل ما استطاع أن يقوله، بينما لم تستطع هي وقد التفت وصيفاتها حولها أن تنقل إليه شيئاً من معاناتها.

كان قلبها مليئاً بالمشاعر، ردَّت قائلة:

«ما تخليت عنه يشمل المتاعب المشتركة التي تطاردنا جميعاً،

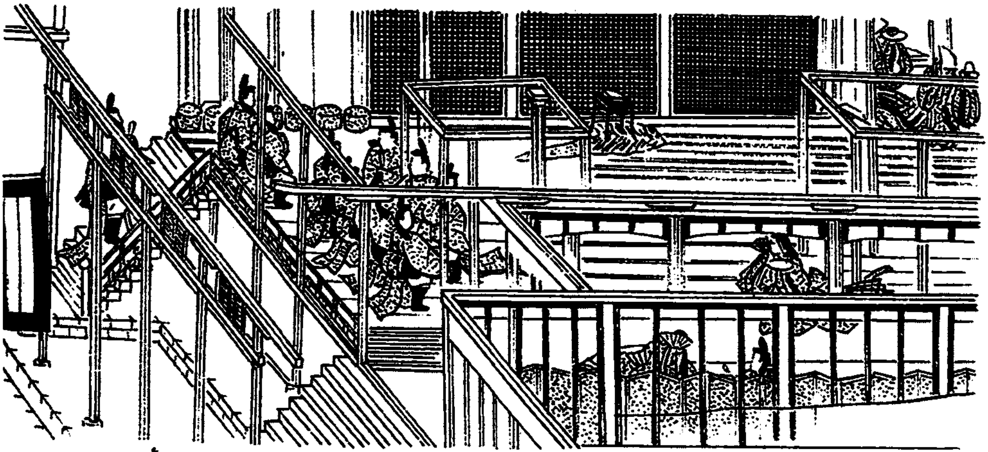
ولكن، آه، متى أتخلى حقاً عن الدنيا بأسرها؟ .

إن ضروب قلقها لا تزال تصيبني». لا شك أن مبعوثتها قد رتبت ما قالته. انصرف جينجي بقلب مثقل، وقد استعبده حزن بلا حدود.

عندما عاد إلى الدار مجدداً، رقد وحيداً في غرفته، لكنه لم يغمض له جفن، وفي كل مرة غزا الاشمئزاز من الدنيا نفسه ساوره القلق على ولي العهد. لقد كانت رغبة أبيه جعل أم الأمير الصغير، على الأقل، ترفع مكانة ابنها عالية أمام الجميع. لكن الآن وقد مضت بها تعاستها إلى هذا الحد، فإنها لن تستطيع استرداد مرتبتها السابقة أبداً، وماذا لو أنه بدوره تخلّى عن الأمير الصغير؟ هكذا تداعت الأفكار التي أبقته مؤرقاً ساعة وراء أخرى.

---

(1) يشير كل من جينجي وفوجيتسوبو في القصيدة اللاحقة، بتلاعب حريص بالكلمات، إلى طفلهما، ولي العهد.



المأدبة الخصوصية

أرادهـا أن تحصل علـى الملابس والأثاث الضروري لحياتهـا الجديدة هدية منه، ومن هنا فقد سـارع إلى تجهيز هذا كله قبل نهاية العام. وشـمل كرمه أوميوبو كذلك، حيث أنها أخذت على نفسـها الرهبنة مع سـيدتها. ويبدو أنه لم تصلني صـورة كاملة لهذا كله، حيث كانت ستتراكم تفاصيل أكثر تعدداً من أن تروى، وذلك أمر مؤسف لأن هذه هي على وجه الدقة المناسبة التي قد تؤدي إلى نظم شعر بديع.

أصبح بإمكان جينجي الآن زيارة نيافتها المتنسـكة بصورة علنية على نحو يفوق ما كان متاحـاً مـن قبل، كما أنه في بعض المرات تمكن من الحديث معها شـخصياً، ولم يكن مرد الأمـر أن ذلـك التوق المكنون قد فارقه، وإنما مرده أن ما يرغـب فيه قد أصبح أقل إمكانية الآن.

أقبـل العـام الجديد، وحمل معه حياة جديدة للبلاط، ولكـن أخبار المأدبة الخصوصية والاحتفـال المرح لم تفـض إلاّ إلى تكريس عزلة فوجيتسـوبو الحالية. وبينما واصلت في سـكينة ابتهالاتها وصلواتها، مضت قدماً بأفكارها حول الحياة الآخرة، سـاورها الشـعور كأنهـا تضـع خلفها أخيـراً كل ما أزعجها أشـد الإزعاج في السـابق. وإلى جـوار المصلى الصغيـر الذي كانت ترتاده دوماً، شـيدت مصلـى آخر خصيصاً، إلى الجنـوب من الجناح الغربـي، وقـد انتقلـت الآن إلى هـذا المكان شـديد العزلة لمتابعـة صلواتهـا التي عكفت عليها.

زارهـا جينجي هناك. لـم يكن مقدم العام الجديد قد مس مسـكنها الصامت المهجور، حيـث لم يعد المرء يصـادف إلا قلة من الأعضاء المخلصين من أهـل دار الإمبراطورة[1]، وقـد أحنـوا رؤوسـهم مكفهرين علـى نحو حزيـن. أقبلت الجيـاد الغبراء الزرقـاء وحدها كالمعتـاد[2]، ومضـت وصيفاتها لمشـاهدتها، فلا عجـب أن كبار النبلاء الذيـن كانوا يوماً يتجمعـون حولهـا يشـقون الآن طريقاً للتجمـع في المقـر الكائن على الجانـب الآخر من الجادة[3]. ولم يدهشها هذا، لكنه كان أمراً محزناً للغاية. وجلب مشهد جينجي، الذي قطع الطريق الطويل كله للعثور عليها ـ وهو مشهد رائع بما فيه الكفاية ليعادل مشهد ألف زائر ـ الدموع على نحو ما إلى عيون الكثيرين.

بـدا زائرها نفسـه متأثراً بعمق، وبعـد أن القى نظرة عاجلة حوله غـرق في الصمت. في حياتها الجديدة هذه كانت حواف ستائرها الحاجبة والستائر المدلاة حولها رمادية تميل إلى الزرقة، ومن خلال ثغرات بيتها لمح أكماماً ذات ألوان رمادية أو صفراء[4]، وهو مشهد لم يثر بالنسبة له إلا أعماقاً أعظم من الرشاقة والجمال. «الأكثر فطنة حقاً..» قالها مغمغماً[5]، وملاحظـاً فـي غمار تأمل حزين كيف أن المشـهد الخارجي وحـده ـ الآن وقد زال الجليد الهش عن البحيرة، أشـجار الصفصاف على الضفة ـ قد عكسـت المواسـم بصدق وأمانة.

(1) ميا زوكاسا، أعضاء طاقم العاملين في دار الإمبراطورة (تشوجو شيكي) الذين تصلهم صلة شخصية بفوجيتسوبو أو عائلتها.

(2) في اليوم السابع من الشهر الأول، كان واحد عشرون جواداً ساد الاعتقاد بأن مرآها يبعد سوء الحظ تُقاد أمام الإمبراطور ثم أمام الإمبراطور المتقاعد، كبار سيدات العائلة الإمبراطورية وولي العهد. وكانت هذه العادة صينية أصلاً. وكانت هذه الجياد غبراء مائلة إلى الزرقة حتى عهد موراكامي (946 – 967) والذي ينطبق على العهد الراهن في الحكاية، ولكنها بعد ذلك أصبحت جياداً شهباء. وكان هذا هو العرف الوحيد المتعلق بالعام الجديد الذي يتم الحفاظ عليه، عندما يلزم إمبراطور الحداد، وربما كان ذلك هو السبب في أن الجياد مضت إلى مسكن فوجيتسوبو بدوره، على الرغم من أنها الآن راهبة.

(3) مقر وزير الميمنة، الواقع على الجانب الآخر من نيجو (الجادة الثانية).

(4) الأزرق – الرمادي (أونيبي) كان عادياً بالنسبة لراهبة، ومن الإمكانيات الأخرى ارتداء اللون الرمادي (أوسونيبي) أو اللون الأصفر (كوتشيناشي)، وهذه الألوان ترتديها هنا الوصيفات اللواتي أدين القسم مع سيدتهن.

(5) «حقاً، إنها تظهر ذلك الذوق المتسم بالفطنة شأن تلك الراهبة الإمبراطورية قديماً». جوسينشو 1093، من نظم سوسي: «اليوم أرى بعيني جزيرة أشجار الصنوبر الشهيرة، وأجد السكنى هنا حقاً الأما الأكثر فطنة». أما في هذه= =القصيدة والقصيدة التي تليها تعني كلاً من «ساكن الشاطىء» و«الراهبة». وكانت جزيرة أشجار الصنوبر (ماتسو نو أوراشيما) تقع في خليج شيوجاما في شمالي هونشو. وقد كتبت سوسي هذه القصيدة على لحاء شجرة صنوبر من الجزيرة الاصطناعية في حديقة الإمبراطورة التي أصبحت لتوها راهبة.

وقد بدا متألقاً على نحو لا سبيل إلى وضع غيره معه موضع المقارنة في غمار قيامه بذلك. قال:

«الآن فيما أرى أن راهبة تقيم هنا، ململمة أحزان الطحلب البحري،

تنسكب من عينيَّ قطرات مالحة على جزيرة الصنوبرات هذه»[1].

وبما أن غرفتها الصغيرة للغاية تم التخلي عنها للمذبح، فإن ردها الخفيض تناهى قريباً للغاية:

«لم يعد هناك أثر من الدنيا على الإطلاق على جزيرة الصنوبرات هذه،

وإنها لمعجزة أن أي موجة ستجيء زائرة»[2].

ولم يستطع كفكفة دموعه، ولم يقل الكثير بخلاف هذا قبل انصرافه، حيث أحرجته النظرة المحدقة من الراهبات اللواتي تخلين عن الدنيا وهمومها.

صاحت الراهبات الموغلات في العمر، وهنّ يحدثن سيدتهن في إشادة باكية به: «يا لها من أعجوبة مطلقة تلك التي تبيَّن أنه يضمها في إهابه! عندما تكون الدنيا طوع يمينه ثم لا يكترث بها، فإن المرء يتساءل كيف يمكن لأي شخص محظوظ بهذا القدر أن يعرف الكثير عن الحياة، لكنه الآن غدا حكيماً للغاية وأي شيء على وجه التقريب يجعله حزيناً للغاية بحيث أن فؤاد المرء يشفق عليه». تدفقت الذكريات كالطوفان على ذهن سيدتهن أيضاً.

لم يتلق أتباع نيافتها ما يستحقونه عندما أُعلنت قائمة التعيينات، ولخيبة الأمل المريرة من جانب الكثيرين، فقد حُجبت الترقيات التي كان ينبغي أن تجيء بحكم طبائع الأمور، أو بحسبانها امتيازات عادية[3] لراعيتهم. ولم يكن هناك من سبب يدعو لأن تفقد مكانتها السابقة في وضعيتها الجديدة أو أن تُحرم من مستحقاتها الثابتة[4]، ولكن تلك الوصيفة

(1) «أحزان الطحلب البحري» هي ناجامي، «الحزن» وكذلك نوع من العشب البحري.

(2) «الموجة» هي الزائر، جينجي.

(3) امتياز عادي يتضمن فوائد عينية تعود على أشخاص في مكانة فوجيتسوبو من خلال مناصب في الأقاليم تسند إلى أتباعهم.

(4) تحظى أي إمبراطورة عادة برسوم الناتج والعمل المفروضة على ألف وخمس مئة دار.

كانت على الرغم من ذلك هي الذريعة للتغييرات العديدة التي حلت الآن عليها. وعلى الرغم من أنها تخلت تماماً عن هذه الاهتمامات، إلاّ أنها غالباً ما أحسّت بالألم لرؤية أتباعها وهم يعانون من المصاعب، كأنما استبعدوا تماماً، ولكن رغبتها الوحيدة التي تمنّتها من أعماق قلبها تمثلت في أن يمضي تسلم ولي العهد للعرش بلا مصاعب، حتى ولو كان ذلك على حساب القضاء عليها، وقد كرست لهذه الغاية ابتهالاتها المتزايدة. ولما كان لديها سبب كامن يدعوها إلى خشية ما هو أسوأ، فقد خففت من حدة مخاوفها بالابتهال لبوذا أن يدفع عن كاهلها عبء خطيئتها وأن يمنحها الغفران. أدرك جينجي حقيقة مشاعرها وتفهمها جيداً، فغالباً ما واجه أتباعه أنفسهم خيبات أمل مماثلة، ومن هنا فقد اعتزل في داره مشمئزاً من الدنيا.

ضاق معالي وزير الميسرة ذرعاً بما فيه الكفاية بالتغير الذي غزا الآن عالمه العام والخاص بحيث أنه قدَّم استقالته، لكن جلالته تذكر مدى عظم ثقة نيافته الراحل في هذا المستشار، وكيف أنه في أواخر عمره أوصى خلفه به باعتباره من أعمدة البلاد الراسخة، وبالتالي فقد اعتبره أعظم قيمة من أن يقصيه من منصبه. وعلى الرغم من أنه رفض الاستقالة بصورة متكررة، فإن معاليه أعاد في عناد تقديمها مراراً إلى أن تمكن أخيراً من الانسحاب إلى داره. والآن فإن ذلك الجناح الوحيد قد ازدهر على نحو لم يحدث من قبل قط. وتُرك جلالته وحيداً عندما أزاح الوزير كان ثقله يُبقي على توازن البلاد نفسه بعيداً عن شؤونها، وتأوه الحكماء في كل مكان من فرط الألم.

كان أبناء معاليه جميعاً قد تمتعوا بتقدير الدنيا، وعاشوا بلا هموم، ولكن الآن خمل شأنهم، ولم يحمل المستقبل للنقيب[1] إلا وعداً بالكآبة. وكان لا يزال يزور بين الحين والآخر ابنة وزير الميمنة الرابعة، ولكن المعاملة غير المميزة التي عاملها بها حدت بأبيها إلى إبعاده من قائمة المقربين إليه من أزواج بناته. ولم يؤد حذف اسمه من قائمة الترقيات الصادرة أخيراً، ربما على سبيل التحذير له، إلى إثارة ضيق على نحو ما كان حرياً به أن يستشعره. وبركون جينجي نفسه إلى التكاسل وبظهور الحياة بمظهر متقلب على نحو جلي في كل الأحوال فإن وضعه لم يثر دهشته، وبهذه الروحية زار جينجي غالباً وشاركه

(1) تو نو تشوجو.

كلاً من دراسته واستمتاعه بالموسيقى.

وإذ تذكر كيف كرّس نفسه بجنون لتحدي جينجي، فقد قام الآن بمنافسته مجدداً في كل الأمور مهما كانت ضئيلة. وقد كلف جينجي الرهبان بأداء أكثر الطقوس جلالاً وتأثيراً فيما يتعلّق بقراءة النصوص المقدسة في الربيع والخريف، بالطبع، ولكنه أمر بأدائها كذلك فيما يتعلّق بمناسبات أقل شأناً وغير منتظمة من نوعية مماثلة[1]، ودعا للمثول بين يديه أولئك الاختصاصيين الذين بدا أنهم لولا ذلك لما كان لديهم ما ينشطون له، بحيث يمضون الوقت في نظم الشعر الصيني وتخمين القوافي وما إلى ذلك[2]. وباختصار، فقد تراخى، وبدلاً من تقديم نفسه للخدمة في البلاط، فقد عمد إلى تسلية نفسه حسبما طاب له، بحيث أنه من المحتم أن البعض قد شرع في حديث السوء عنه.



العزف على الشو

ذات يوم كسول انهمر فيه مطر صيفي هادىء، أقبل النقيب مع حمال يحمل مجموعة مناسبة من الشعر. وأمر جينجي بدوره بفتح مكتبته. وبعد إصدار أوامره بجلب مجلدات عتيقة ونادرة ومثيرة للفضول من صناديق لم يتم فحصها من قبل قط، دعا في حرص من تميل اهتماماتهم إلى هذا الجانب. وبأمر من جينجي انقسم الكثيرون الحاضرون من المجمع الأدبي والعلمي ومن الوصفاء الخصوصيين إلى مجموعة ميسرة وأخرى ميمنة[3]. وأثارت الجوائز الرائعة المرصودة تنافساً محتدماً. وهيمنت القوافي الصعبة مع استمرار التنافس، وأوضحت طريقة جينجي في القيام بين الحين والآخر باقتراح القافية الصحيحة ـ حتى عندما يتعثر الاختصاصيون البارزون ـ ثقافته الاستثنائية. وغمغم الجميع في معرض الإشادة به: «كيف يمكن أن يحظى بكل هذه

(1) في القصر والبيوتات العظيمة، كانت القراءات الرصينة للدايها نايا - كايو فعالية ربيعية وخريفية منتظمة، لكن جينجي يبدو أنه أضاف فعاليات أخرى مماثلة من عنده.

(2) «الاختصاصيون» هم أساتذة المجمع التعليمي المخصص للشبان من أبناء الطبقة الارستقراطية. و«تخمين القوافي» (أنفوتاجي) كان يتضمن تخمين الكلمات التي تشكل القوافي في قصيدة صينية يجهلها المتسابق.

(3) الإجراء المتبع بالنسبة للمسابقات من كل الأنواع الشعر، التصوير، خلط البخور وهلم جراً.

الموهبـة؟ لا بـد أنه مقدر له أن يكون أفضل بكثير من الجميع في كل شـيء!». وفي النهاية خسرت الميمنة.

بعد يومين، أقام النقيب مأدبة الطرف الخاسـر. وكانـت مأدبة متواضعة بما فيه الكفاية، لكن صناديق خشـب السـرو كانت بديعة والجوائز متنوعة، ودعا الجمع نفسـه الذي انعقد سابقاً لنظم الأشعار الصينية وما إلى ذلك. وكانت الورود تحت الدرج بسبيلها إلى التفتح[1] وفي موسـم بمثل هذا الاعتدال، يغمره الهدوء والسكينة على نحو يفوق ما توحي به زهور الربيع والخريف، شارك الجميع سعداء في عزف الموسيقى.

قـام أحد أبناء النقيب، وهو صبي في الثامنة أو التاسـعة من عمـره، لم يبدأ إلا هذا العام فحسـب في التردد على الغرفة الخصوصية، بالغناء والعزف على «الشـو» على نحو جميل بحيـث اجتذب انتباه جينجي. كان الابن الثاني الـذي أنجبته ابنة وزير الميمنة الرابعة. وقد علّقت بالدنيا بأسـرها آمـالاً كباراً عليه، وعاملته بإعزاز، حيث بـدت عليه أمارات النجابة، كمـا أنـه كان بهـي الطلعة. وعندمـا احتدم عزف الموسـيقى قليلاً، قـدَّم أداء بديعـاً لـ«تاكا ساجو»[2]، فنزع جينجي أحد أرديته، وخلعه على كتفي الصبي[3]. فشعّ محيّاه، الذي توهّج بانفعال غير معتاد، حُسناً يتجاوز أي حسن في الدنيا، وتألّقت بشرته، على نحو بديع خلال العبـاءة الحريرية والقميص، إلى أن بكى الاختصاصيون المتقدمون في العمر، الذين كانوا يرقبونه من بعيد:

«لكـم أتـوق إليك، يا سوسـنتي!». هكذا انتهت أغنيـة الصبي، وقدَّم النقيـب قدحاً من الخمر لجينجي، وقال:

«الجميع تاق لرؤية تلك البراعم الأولى هذا الصباح وهي تبلغ كمال تفتحها،

غير أنني أتملى حسنك البديع كحسنها»[4].

---

(1) هذه العبارة تعيد إلى الذهن قصيدتين من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 0850)، وتستحضر المناخ النفسي للشعر الصيني. وقد أفضى الدرج إلى الحديقة من المبنى الرئيسي لمقر وزير الميسرة.

(2) أغنية سايبارا شعبية، يوجه فيها عاشق نداء حاراً إلى محبوبته.

(3) إيماءة تدل على تقدير خاص. وقد خلع جينجي على الصبي رداء يلبس تحت العباءة الرسمية.

(4) تقتطف قصيدة تو نو تشوجو من الأغنية التي غناها ابنه، بل إنها تومىء إلى الورود، التي وصفت بأنها «كانت بسبيلها إلى التفتح».

أخذ جينجي القدح مبتسماً:

«تلك الأزهار المتفتحة هذا الصباح في غير موسمها، في مطر الصيف

بدت منحنية وذاوية قبل أن يتجلّى جمالها

إنني لست على ما اعتدت أن أكون، كما تعلم». قالها ممازحاً، وفي عزم أخذ هذه التقدمة على أنها مجاملة خامرها السكر، ولكن النقيب اقتصر على توجيه اللوم إليه، وألح عليه باحتساء المزيد من الخمر. وكما حذر تسورايوكي[1]، فليس هناك معنى لإيراد كل القصائد المعيبة التي نُظمت في مثل هذه الأوقات، من هنا فإنني تجاهلتها مذعناً، وعلى نحو مناسب.

لم يتابع الضيوف بكل من اللغتين الصينية واليابانية إلا مديح جينجي، أما جينجي الذي غرق في تصورات مجده، فقد مضى إلى حد أن ألقى باسمه البيت القائل: «إنني ابن الملك بان، الأخ الأصغر للملك بو». كانت تلك لحظة عظيمة، ولكن ما الذي كان عساه أن يقوله عن الملك ساي؟ ربما كان هذا هو ما دفعه إلى التزام الصمت[2].

كان معالي وزير الحرب بدوره يزور جينجي غالباً، وقد عزف على نحو بالغ الجمال إلى حد أنه غدا شريكاً كاملاً لجينجي في عزف الموسيقى.

انسحبت سيدة طاقم العاملين بالقصر من البلاط. وبعد أن عانت طويلاً من حمى مستمرة، أرادت الحرية التي تسمح لها بأن تأمر بإجراء طقوس الشفاء. وقد ابتهجت عائلتها إذ وجدتها قد أصبحت في حالة أفضل بعد بدء الطقوس، وفي غضون ذلك وبالتنسيق مع جينجي أفلحت في استقباله بشكل أو بآخر كل ليلة.

كانت شابة فاتنة في ريعان ازدهارها، وقد غدت أكثر رشاقة الآن بسبب مرضها العارض

---

(1) لم يقدر لمثل هذا التحذير البقاء في أعمال الأديب الصيني المنتمي إلى أوائل القرن العاشر كي نو تسورايوكي.

(2) يعلن النبيل زوو في «الشيجي»: «إنني ابن الملك وين (بان في التقاليد اليابانية)، الأخ الأصغر للملك وو (بو في التقاليد اليابانية) وعم الملك تشينج (ساي في التقاليد اليابانية). وفي هذه البلاد لا يعرف الهوان سبيله إلي» وهؤلاء الأشخاص هم جميعاً من الملوك الحكماء في العهود الصينية القديمة. ويبدو أن الملك وين يتطابق مع الإمبراطور كيريتسوبو، والملك وو مع ابنه سوزاكو، والنبيل وو مع جينجي، وإذا كان الأمر كذلك، فإن الملك تشينج يعادل ولي العهد، الذي هو بالفعل ابن جينجي.

ونشيطة للغاية. وقد خاف جينجي من انكشاف الأمر، لأن الإمبراطورة الأم كانت في ذلك الوقت في الدار كذلك، ولكن كالمعتاد فإن الخطر لم يؤد إلاّ إلى تحفيزه لمواصلة زياراته في سرية تامة. ولا بد أن بعض الوصيفات قد لاحظن ما يجري، ولكنهن أهملن إبلاغ الإمبراطورة الأم خوفاً من أن يقعن في المتاعب.

لم يكن معاليه، بالطبع، يدري شيئاً عن هذا كله، عندما انهمر المطر مدراراً قُبيل الفجر ودوى الرعد، فأزعج أبناءه ومساعدي الإمبراطورة الأم. واحتشد الناس في كل مكان، وتجمعت الوصيفات غير بعيد في فزع، ولم يجد جينجي الذي غمره اليأس مهرباً قبل أن يحاصره ضوء النهار. وكان هناك من النسوة حتى في محيط فراش سيدتهن المحاط بالستائر ما جعل قلبه يخفق مسرعاً. واستبد الذعر بالوصيفتين اللتين تعرفان جلية الأمر.

عندما توقف الرعد، وخف انهمار المطر، مضى معاليه لزيارة الإمبراطورة الأم أولاً، ثم بينما أخفى المطر المفاجىء صوت مقدمه، دلف فجأة إلى غرفة ابنته الصغرى، ورفع الستائر[1].

مضى يثرثر لاهث الأنفاس: «هل أنت على ما يرام؟ لقد كانت ليلة فظيعة، وقد واصلت التفكير فيك، كان ينبغي عليَّ حقاً المجيء قبل ذلك. هل اطمأن عليك النقيب أو نائب الإمبراطورة الأم؟»[2]. حتى في غمار الأزمة، لم يستطع جينجي إلا الابتسام حيال الفارق، عندما قفزت إلى ذهنه صورة معالي وزير المسيرة. كان بوسع الرجل على الأقل أن يوفر ملاحظاته إلى أن يقطع الطريق كله وصولاً إلى الغرفة.

انزلقت سيدة العاملين في القصر خارجة عبر الستائر في ذعر، وقد تضرج وجهها بحمرة بالغة إلى حد أن أباها ظنها مريضة.

«ماذا دهاك؟ هذه الأرواح خطر داهم! كان ينبغي أن نواصل أداء تلك الطقوس وقتاً أطول». هكذا واصل الحديث إلى أن دهش لرؤية زنار بنفسجي كان قد برز من بين الستائر

---

(1) الإمبراطورة الأم في الدار الرئيسية وأبو روزوكيو في غرفة أحد الأجنحة. ويجيء الوزير مباشرة عبر حجرة الجناح إلى الستائر الحاجبة المسدلة بين هذه الحجرة وبين الغرفة.

(2) النقيب هو أحد أبناء الوزير، والنائب (ميانو سوكي) هو المسؤول الثاني في المرتبة الذي يتولى المسؤولية عن الطاقم الشخصي للإمبراطورة الأم.

معها، مشتبكاً بملابسها. وكانت هناك أيضاً رقعة من الورق مطوية وعليها نوع من الكتابة ملقاة بجوار ستارها المنسدل. قال وقد فزع لتأمله ما يوحيان به: «لمن هذين؟ ماذا يفعلان ههنا؟ أعطني تلك! التقطيها! وسوف أرى ممن هي».

عندئذ فحسب ألقت نظرة سريعة وراءها، ورأت الورقة بدورها. ما الذي تستطيع أن ترد به وليس هناك من سبيل لإخفاء الحقيقة؟ كان يتعين على رجل في مكانته أن يدرك حرجها، وأن يكبح جماح نفسه، أخذاً في الاعتبار ضيقها الشديد، حتى لو كانت ابنته، ولكن لا، لقد كان أكثر عصبية واشتعالاً في غضبه من أن يفعل ذلك. أمسك بالورقة، وأطل متجاوزاً الستار، فرأى وراءه شاباً متمدداً بلا حياء، حجب محياه الآن فحسب، وتحرك ليختبىء. وعلى الرغم من صدمته وحنقه، إلا أنه لم يستطع مطالبة الشاب بالكشف عن هويته. وحجب الغضب كل شيء عن ناظريه، فاندفع بخطى مسرعة نحو الدار الرئيسية، حاملاً معه الورقة. حدَّثت سيدة العاملين في القصر، التي أوشكت على أن يغشى عليها، نفسها بأنها تؤثر الموت على ما جرى، وندم جينجي على سلسلة من ألوان الهرب من المؤكد أنها الآن ستنتقل بإدانة واسعة النطاق، ولكنه قام بما في وسعه لتهدئتها في محنتها التي تجلت للعيان على نحو بالغ الوضوح.

لم يكتسب أبوها، الذي كان على الدوام رجلاً متصلباً وعاجزاً عن إجادة التصرف، من كر الأعوام شيئاً إلا وقر العمر، لم يكن بالرجل الذي يتردد الآن، فوضع كل شكواه أمام الإمبراطورة الأم.

«هذا هو ما كان يجري، كما ترين، فالكتابة التي تضمها هذه الورقة سطرها قائد الميمنة. وقد بدأ هذا كله منذ وقت طويل من دون إذني، ولكنني عفوت عنه، أخذاً في الاعتبار بهويته، وأبلغته بأنني سأتقبله في نهاية المطاف[1]، ولكنه نأى بجانبه عن هذا الاقتراح، وأساء التصرف على نحو بالغ، حتى أنني استأت أشد الاستياء. ومع ذلك فقد نحيت الأمر جانباً باعتباره قدراً مقدراً، وعرّفتها على جلالته في نهاية المطاف، واثقاً من أنه لم يعتبرها ممن تلطخ شرفهن. غير أن السحابة التي أظلتها منعتها من أن تحظى بمرتبة زوجة الإمبراطور، وهو ما يعد عاراً كبيراً، وهذه الحادثة الأخيرة تثير اشمئزازي بشدة أكثر من

(1) كزوج لابنته.

أي وقت مضى. إنني أعرف أن الرجال على هذه الشاكلة، ولكن هذا يوضح كم يعد القائد جديراً بالازدراء حقاً. إنهم يقولون إنه يملك الصفافة الآن بحيث يطارد كاهنة كامو، وإنه يراسلها سراً، ويثير شكوكاً معينة، وهو ما لا يعد على نحو جلي مخاطرة للبلاد فحسب[1]، وإنما لنفسه، بحيث أنه ما من أحد يمكنه أن يصدق هذا الجنون من جانبه، ويبدو أن الدنيا بأسرها مفتونة به كأنما هو لؤلؤة زماننا البهيّة».

كانت الإمبراطورة الأم أشد ضراوة منه، فيما يتعلّق بهذا الموضوع، فقالت: «ربما كان ابني الإمبراطور، لكن أحداً لم يمنحه أي إجلال قط. ووزير الميسرة ذاك لم يقدم ابنته الوحيدة الغالية له، هو الابن الأكبر وولي العهد، لا، وإنما أعطاها للابن الأصغر، المنتمي للعامة واليافع الذي لم يعرف النضج بعد. وعندما كنا نعلق آمالاً كباراً على إرسال ابنتنا للالتحاق بخدمة القصر، هل اعترض أي شخص على الوضع المثير للسخرية الذي تركها جينجي هذا فيه؟ لقد بدا أن الجميع معجب به أشد الإعجاب إلى حد أنها التحقت بالخدمة هناك على أي حال، على الرغم من أن خطتنا الأولى بشأنها قد مُنيت بالفشل، ولكنني شعرت مع ذلك بأنني ملزمة بضمان تمكن هذه البائسة من أن ترفع رأسها عالياً على النحو اللائق، ولو لمجرد جعل هذا الرجل البائس يدرك من عساه يكون، غير أنها الآن أخذت على عاتقها أن تتبع ميلها السري. وما يقولونه عن كاهنة كامو هو أمر صحيح تماماً بلا شك، نعم، هناك أسباب شتّى للخوف على جلالته، أخذاً في الاعتبار اعتماد هذا الرجل على تسلم ولي العهد العرش!».

وجد أبوها هذا التقريع المجرد من الرحمة مؤلماً للغاية إلى حد أنه راح يتساءل عن السبب الذي حدا به إلى إثارة هذا الموضوع على الإطلاق. قال في محاولة لتهدئة الأمور: «على أي حال، فإنني أرغب في الوقت الراهن ألا تمضي المعرفة بهذا إلى أبعد من ذلك، فلا تبلغي جلالته به. نعم، إنها مذنبة، ولكنني أحسب أنها تعتمد على ولعه بها في الإفلات من النبذ. فحذريها في خلوة. ولسوف اضطر إلى احتمال اللوم بنفسي إذا لم تصغ لما يقال لها».

---

(1) قام جينجي، في غمار متابعته لاهتمامه بأساجاو، بانتهاك حظر ديني مفروض على ذلك، وربما من خلال ذلك عرَّض البلاد للخطر، حيث أن مزار كامو يحمي المدينة، واستياء الربة قد يتسبب في كارثة.

غيـر أن محيا الإمبراطورة الأم لم يسـتعد الصفاء، فلم يكن بمقدورها احتمال سـخرية جينجـي اللاذعـة منهـا وتقليله من شـأنها بغزوه دارها على نحو شـيطاني بينما هي نفسـها موجودة بها، وجد قريبة منه، ومنحها هذا سبباً وجيهاً للبدء بالإجراءات الرامية إلى تحقيق سقوطه.

11

هانا تشيرو ساتو

الزهور المتساقطة

تعني هانا تشيرو ساتو «القرية التي تتساقط فيها الزهور». يزور جينجي سيدة هناك، ويقدم لها هذه القصيدة:

«اجتذبت الأشواق الوقواق إلى عبق شجرة البرتقال الرقيق

ليقبل ساعياً نحو القرية التي تتساقط فيها مثل هذه الزهور العبقة» .

الصلة بالفصول السابقة

تقع أحداث «الزهور المتساقطة» في وقت متأخر من الفترة التي يغطيها «الغصن الأخضر» في الشهر الخامس من العام الذي يعقب ترهبن فوجيتسوبو.

الشخوص

جينجي، 25 عاماً.

كوريميتسو، موضع سر جينجي.

امرأة، في دار قريبة من ناكاجاوا.

الزوجة ريكيدين.

أختها الصغرى (هانا تشيرو ساتو).

يبدو حزن جينجي المكنون الذي يستنفد قواه ملاصقاً له على الدوام لا يفارقه ولكن الآن والدنيا ذاتها لا تعني إلا ركاماً من الأحزان وخيبات الأمل، فقد نبذها كلها في يأس، على الرغم من أن الكثير للغاية كان لا يزال يناديه.

لم تكن السيدة المعروفة باسم ريكيدين[1] قد أنجبت لنيافته الراحل أبناء، وبعد موته غرقت في ضائقة مالية متزايدة، وبدا أن كرم جينجي الحريص هو وحده الذي يقدم لها الخلاص منه. وكان جينجي قد عرف أختها الأصغر في القصر لمدة قصيرة، ولما كان ما هو عليه فإنه لم ينسها، على الرغم من أنه لم يكن مولعاً بها كثيراً أيضاً، وهكذا فإنه الآن وقد أطبقت عليه المتاعب من كل الجوانب، فقد تذكر أي بؤس لا بد أن حياتها قد أصبحت عليه، وخلال انقطاع نادر في الأمطار الصيفية لم يستطع مقاومة زيارتها.

انطلق على نحو متواضع للغاية، من دون مرافقين يفسحون الطريق أمامه، وفيما هو يعبر ناكاجاوا تناهى إلى سمعه من دار صغيرة مشيدة بين الأشجار البديعة صوت عزف متألق على آلة الكوتو للحن من مقام «أزوما»، فأدخل الصوت السرور على نفسه، ولما كانت الدار جد قريبة من بوابتها، فقد انحنى قليلاً ليلقي نظرة. ومن شجرة غار عظيمة جلبت إليه الريح عبقاً حافلاً بذكريات مهرجان كامو[2]، وباندفاعة من الشعور تعرف في هذا المكان الفاتن على نحو غريب مكاناً قد زاره مرة من قبل.

حمل نفسه على التوقف، فقد مرَّ وقت طويل للغاية إلى حد أن السيدة بالدار قد لا تعرفه. ولكنه على الرغم من ذلك تردد في الانصراف. وفي تلك اللحظة تردد هتاف وقواق، وقد كان هذا تشجيعاً كافياً، فأمر أن تغير عربته مقصدها، وبعث بكوريميتسو إلى داخل الدار، كما هي الحال دوماً، ومعه:

«من جديد أقبل خاضعاً ليطفىء غلة الحنين وقواق الأيام الخوالي،

---

(1) أطلق عليها اسم سرادق القصر الذي أقامت فيه، وهو سرادق مناسب لزوجة إمبراطور.

(2) كان المشاركون في المهرجان يضعون في أغطية رؤوسهم وريقات «قلباً لقلب» (أوي) و«الغار» (كاتسورا)، ووريقات النوعين كليهما تأخذ شكل القلب.

إلى السور حيث غرَّد برهة من أغنية عابرة»[1]

كانت النسوة إلى الجانب الغربي مما اعتقد جينجي أنه الدار الرئيسية، وتنحنح كيريميتسو الذي عرف بالفعل أصواتهن، على سبيل التحذير، وأبلغ الرسالة التي يحملها. بدت النسوة في مقتبل العمر، ولا بد أنهن قد تساءلن من عساه قد أرسلها.

«أيها الوقواق، إنني أعرف جيداً الأنشودة التي تجلبها زيارتك، غير أن تلك الذكرى تدع مشيئة تلك السماوات المطيرة غائمة كعهدها»

هكذا ردت السيدة، عن قصد (في رأي كوريميتسو) مدعية عدم التأكد.

قال: «حسناً، إذاً، المرء يخطيء في السور»[2]، وعاود الانطلاق من جديد، الأمر الذي أثار استياء السيدة وخيبة أملها اللذين لم تفصح عنهما. مع ذلك فربما كان لديها سبب كاف يدعوها للحذر[3]، وهكذا لم يصر، وإنما بدلاً من ذلك راح يفكِّر كم هي جذابة، بين السيدات من هذه الدرجة، راقصة جوسيتشي من تسوكوشي[4]. ويبدو أنه قد اهتم كثيراً بكل حبيبة من حبيباته، حيث لم تمح السنوات المتعاقبة أبداً شعوره نحو أي سيدة، عرفها، على الرغم من أن ذلك أثار لدى الكثيرات أحزان الحرمان من الحبيب.

أحس بالتعاطف عندما وجد مقصده صامتاً ومهجوراً كما كان يتوقع. وقد زار أولاً الزوجة ريكيدين، وظل بصحبتها حتى وقت متأخر من المساء، متحدثاً عن الأيام الخوالي. وأدى بزوغ القمر في هذه الليلة العشرين إلى إضفاء المزيد من القتام على الظلال تحت الأشجار البادية للعيان، واستدعى عبق براعم البرتقال القريبة العديد من الذكريات الأثيرة. وأفصح أسلوب الزوجة عن سنوات عمرها، ولكنها احتفظت بلطفها الجمّ وكبرياء جاذبيتها. وفكَّر

(1) كاتاريشي (غرد..) ينطبق بصورة أكثر تواتراً على الناس، ويعني «يتجاذب أطراف الحديث»، وهو يشير بصورة مألوفة إلى ما يفعله العشاق معاً وقت انفرادهم.

(2) «لا بد أنني أخطأت الدار». يورد شرح مبكر هذه القصيدة جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو إينيو واكا 639: «كثيفة هي الوريقات، في الحديقة حيث سقطت بتلات الكرز، حتى ليخطيء المرء السور الذي زرع منذ أمد بعيد».

(3) ربما كانت قد اتخذت عاشقاً آخر منذ زيارة جينجي.

(4) ابنة موظف معين في تسوكوشي بجزيرة كيوشو تظهر في لمحة وجيزة في الفصل التالي. وقد كانت راقصة لمهرجان جوسيتشي.

كيف أن نيافته الراحل، الذي لم تكن أعظم السيدات الأثيرات عنده، قد قدَّر على الرغم من ذلك عذوبتها الرقيقة، ومرت أمامه رؤى تلك الأيام حتى انخرط في البكاء.

أطلق وقواق، ربما كان هو الذي سمعه من قبل، الهتاف نفسه. وقد افترض أن من الجذاب للغاية أن يكون الوقواق قد تابعه، وغمغم لنفسه: «كيف عرف؟»[1]. وقال للسيدة:

«اجتذبت الأشواق الوقواق إلى عبق شجرة البرتقال الرقيق

ليقبل ساعياً نحو القرية التي تتساقط فيها مثل هذه الزهور العبقة»[2]

ومضى قائلاً: «كان ينبغي عليَّ المجيء قبل وقت طويل، سعياً وراء تهدئة الذكريات التي لا تزال تصحبني، وكان القيام بذلك سيبعث العزاء من جوانب عدة، على الرغم من أنه أحزنني كذلك، فالناس يتغيرون كثيراً بمرور الزمن إلى حد أنه لم تعد هناك الآن إلا قلة يمكنني أن أتقاسم الماضي معهم، ولا بد أن لديك أقل من ذلك ليبعدك عن مشاغلك اليومية».

أظهرت كل المؤشرات أنها قد أسلمت نفسها للاكتئاب على نحو ما كان يمكن أن تفعل، وربما كانت طبيعة شخصيتها هي التي أضفت، من منظور جينجي، حزناً خاصاً على محنتها. اكتفت بالرد قائلة:

«ما من أحد يزور داري المتداعية هذه أبداً، والزهور وحدها

التي تزين الشجرة عند طُنفي تلهمك الحنين إلى القدوم» .

وعلى الرغم من ذلك قد ظلّت بالنسبة له سيدة بلا نظير.

أطل جينجي بحرص بالغ وعلى نحو عابر على الغرفة الغربية[3]، حيث لا بد أن الدهشة من زيارته وحسنه، الذي لا يزال نادراً، قد جعلاها تنسى أي شيء ربما كانت تحمله ضدّه.

---

(1) كوكين روكوجو 2804: «بينما كنا نتحدَّث عن الماضي، هتف وقواق (كيف عرف)؟ بصوت كنا قد سمعناه منذ زمن بعيد».

(2) تستلهم هذه القصيدة كوكينشو 139: (يعيد عبق براعم البرتقال التي تنتظر الشهر الخامس ذكرى كميِّ أحدهم قبل وقت طويل» ومانيوشو 1477 كذلك كوكين روكوجو 4417): «يهتف الوقواق ويواصل الهتاف لأيام عديدة في القرية التي تسقط بها براعم البرتقال».

(3) على الجناح الغربي من الدار الرئيسية. ويبدو أن السيدة هناك هي الهدف النهائي لزيارة جينجي.

وتحدَّث كما هي الحال بلطف بالغ إلى حد أنه كان يعني ما قاله.

لم تفتقر أي سيدة عرفها جينجي، مهما كان قصر علاقتهما، لأي وجه من أوجه التميّز خاص بها، كما أن أياً منهن لم تقدم له سبباً يدعوه إلى الندم على التودد إليها، وربما كان ذلك هو السبب في أنه ما من شيء فصل بينهن وبينه، وأنهم على الدوام كانوا على صلة طيبة للغاية. وقد كان فقدان من رغبن في المزيد من اهتمامه بهن أمراً تقبله باعتباره من طبائع الأمور. وقد كانت تلك التي دعاه الوقواق إلى دارها واحدة من اللواتي ابتعدن عنه إلى سواه لهذا السبب بالتحديد.

12

سوما

سوما

تقع سوما، وهي مساحة من الشاطىء تمتد وراءها تلال، الآن في أطراف مدينة كوبي، ويعيش هناك «أما» («أبناء البحر»)، وفي الشعر فإن «الأما» النموذجية هي امرأة في مقتبل العمر، تصنع الملح، يشف عن غرامها المتقد الدخان المتعالي من النيران، التي تستخدمها في إعداد الملح. وقد اشتهرت سوما كذلك باعتبارها المكان الذي نُفي إليه أريوارا نو يوكيهيرا (818 ـ 893)، وقد وردت على ذهن جينجي لهذا السبب عندما فكر في مغادرة المدينة.

هذا الفصل غني على نحو استثنائي بالتلميحات إلى الأدب المكتوب باللغة الصينية، وبصفة خاصة شعر أديبين منفيين شهيرين آخرين، هما باي جويي والسياسي والمثقف الياباني سوجاوار نو ميتشيزاني (846 ـ 902)

الصلة بالفصول السابقة

هناك ثغرة زمنية بين الصيف الذي ينتهي به «الغصن الأخضر» و«الزهور المتساقطة» وبداية «سوما» في الشهر الثالث من العام التالي. وينتهي «سوما» بعد عام عندما يكون جينجي في السابعة والعشرين من العمر.

الشخوص

جينجي، 26 إلى 27 عاماً.

سيدة جناح جينجي الغربي، 18 إلى 19 عاماً (مورا ساكي).

سيدة الزهور المتساقطة (هانا تشيروساتو).

نيافتها المعتزلة، 31 إلى 32 عاماً (فوجيتسوبو).

ابن جينجي، 5 إلى 6 أعوام (يوجيرو).

معالي وزير الميسرة السابق، 60 إلى 61 عاماً (ساداجين).

النقيب، عُين مستشاراً كذلك (تو نو تشوجو).

تشوناجون، وصيفة بدار معاليه.

سموها، أم أوى وتو نو تشوجو (أوميا).

سايشو، مرضعة يوجيري.

نيافته الراحل، والد جينجي، بعد موته (كيريتسوبو إن).

سمو الأمير النائب، أخ لجينجي (هوتارو أو سوتشي نو ميا).

الزوجة السابقة ريكيدين.

شوناجون، مرضعة مورا ساكي.

سيدة طاقم العاملين بالقصر (أوبوروزوكيو).

مساعد لحراس ميمنة القصر، أخ لحاكم كي.

أوميوبو، إحدى وصيفات فوجيتسوبو.

سمو ولي العهد، ابن فوجيتسوبو، 8 إلى 9 أعوام (رايزي).

يوشيكيو، ابن حاكم هاريما وأحد أتباع جينجي.

حاكم سيتسو، أحد أتباع جينجي.

نيافته، خال والدة مورا ساكي (كيتاياما نو سوزو).

ملاذ روكوجو، 33 إلى 34 عاماً (روكوجو نو مياسو دوكورو).

معالي وزير الميمنة (يوداجين).

جلالة الإمبراطور، 28 إلى 29 عاماً (سوزاكو).

مفوض شؤون المدينة (ربما كان كوريميتسو).

نائب دازايفو.

راقصة جوسيتشي، ابنته.

حاكم تشيكوزين، حاجب، ابن نائب دازايفو.

الراهب الجديد، حوالي 59 إلى 60 عاماً (أكاشي نو نايودو).

ابنته، 17 إلى 18 عاماً (أكاشي نو كيمي).

أم ابنته، في أوائل الخمسينات من العمر (أكاشي نو أماجيمي).

واجه نكداً متفاقماً في عالم معاد، وكان يعرف أن تجاهله للأمر سيثير ما هو أسوأ. كانت هناك «سوما»، نعم، ولكن بينما أقام أحدهم هناك منذ وقت طويل، فقد أدرك أن المكان الآن منعزل للغاية، وأنه لم يكن هناك كوخ صياد تقع عليه العين، ولم يكن مرد الأمر أن بمقدوره أن يعيش في وسط جموع حاشدة. ومن ناحية أخرى فإن مجرد كونه بعيداً عن المدينة من شأنه أن يجعله يقلق على الدار. وكان ذهنه في ارتباك لا حدود له.

تأمل مطولاً فيما كان ماضياً وفيما هو آتٍ، وتسبَّب له هذا بالكثير من الغم. الآن وقد مضى يفكِّر بالفعل في إبعاد نفسه عن الدنيا التي نبذها، فقد شعر أن هناك الكثير مما يستحيل عليه التخلّي عنه، وخاصة محبوبته، التي عانت المزيد مع كل يوم وليلة يمران. وقد كان يوم أو يومان يقضيهما بعيداً يجعلانه قلقاً عليها، حتى وإن كان على يقين من أن «الزمن سيجمعهما من جديد»[1]. أما هي نفسها فقد كانت بائسة، والآن استبد بهما اليأس حيث أنه سيغيب سنوات، وعلى الرغم من توقها إلى لم شملهما، فربما تغدر بهما الحياة ويكون مغادراً إلى غير رجعة. ومن هنا فقد راح يتساءل في بعض الأحيان عما إذا كان يتعين عليه أن يصحبها في هدوء معه، وسيكون من الخطأ أن يجلب معه سيدة جميلة للغاية إلى شاطىء شديد الكآبة، حيث لن يكون برفقتها إلا الريح والأمواج، وكان يعرف أنه لو فعل ذلك فإنه لن يجني إلا القلق. وكان يلمح وقد بدا جلياً أنه مجروح الفؤاد: «ما كنت لأكترث بأهوال الرحلة، لو كان بوسعي أن أكون معك فحسب».

لم يكن يزور سيدة الزهور المتساقطة إلا نادراً، ولكن الحزن استبد بها كذلك، لأن كرمه وحده هو الذي حافظ على حياتها الداعية للاكتئاب. وعانت العديد من السيدات اللواتي كان قد عرفهن حتى على نحو عابر من حزن دفين حيال احتمال رحيله.

تلقى رسائل خاصة متوالية كذلك من نيافتها المنعزلة، وذلك على الرغم من رغبتها في تجنب الشائعات المؤذية. وقد تمنى لو أنها أفصحت عن مثل هذا الاهتمام منذ وقت طويل، ولكن لا، هكذا راح يتأمل ممرور النفس، لقد قصد بحبه لها أن يعرف كل ألوان الألم فحسب.

(1) كوكينشو 405. من نظم كي نو تو مو نوري: «كما يتباعد النطاق التحتاني ليعود فيلتم ثانية، فإني أتوق إلى زمن يلم شملنا».

بُعيد العشرين من الشهر الثالث، خرج من المدينة. ولم يبلغ أحداً بساعة رحيله، وإنما غادر خفية عن الأنظار، من دون أن يصحبه أحد إلا سبعة أو ثمانية من الأتباع المقربين. ولمن يستحقون شيئاً منه اكتفى بأن يبعث إليهم برسائل مفعمة بالاهتمام، لا بد من أن بعضها، في الثراء المؤثر لبلاغتها، كان جديراً بالقراءة، ولكن الأمر برمته كان مثيراً للضيق بحيث أنني لم أستفسر عنه على النحو المناسب.

قبل يومين أوثلاثة أيام زار جينجي دار معاليه تحت جنح الظلام، وبدا دخوله المختلس في عربة عادية متواضعة تبدو كعربة امرأة[1] محزناً، وربما كان حلماً، وفي غرفتها لم يحسّ إلا بالوحدة والقنوط. وتجمعت مربيات ابنه والنساء اللواتي بقين لخدمته لكي يشاهدنه، وقد دهشن من زيارته، وانخرطت الأصغر سناً والأكثر انفعالاً منهن في البكاء على هذا البرهان على أساليب الحظ المتقلب. ومضى الصبي الصغير يركض في أرجاء المكان على نحو بالغ الروعة، قال جينجي وهو يأخذه في حجره، ويكافح على نحو جلي للسيطرة على مشاعره: «كم هو رائع منه ألا يكون قد نسيني بعد كل هذا الوقت!».

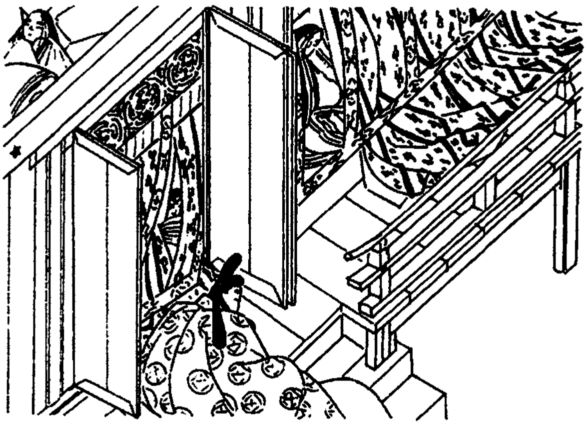
أقبل معاليه لاستقباله، وقال: «كنت قد علقت الآمال على المجيء والثرثرة على مسامعك حول هذا وذاك، بينما أنت في دارك، ولكن صحتي المتهالكة تمنعني الآن من الخدمة في البلاط، وقد أرغمتني على الاستقالة من منصبي، ولذا فقد حدَّثت نفسي بأنه قد لا يلقى ترحاباً أن أمضي متجولاً بصدد شؤون خاصة بي. ما من حاجة تدعوني للاكتراث بعد الآن بالدنيا، ولكنني أخشى بالفعل من الميل الشرير لهذه الأوقات. ورؤيتك على هذه الحال تذكرني بكم تمنيت ألا أعيش أبداً لكي أشاهد مثل هذا العصر بالغ الفساد. وما كانت أكثر خيالاتي إغراقاً في المبالغة يمكن أن تفضي بي إلى تصور هذا، إنني مذهول حقاً». وانخرط في بكاء مرير.

ردّ جينجي قائلاً: «يقولون إنه أياً كان ما يحدث لنا فإنه مكافأتنا من حيواتنا الماضية، الأمر الذي يعني باختصار أن كل هذا ينبع من ضروب إخفاقاتنا. وإنني لأدرك أنه في

(1) بستائر حاجبة داخلية مسدلة تماماً (شيتا سوداري، قطع مستطيلة من الحرير تنسدل داخل ستائر العربة الحاجبة بمعناها الأشمل).

المملكة الأخرى[1] أيضاً يُعتبر من الخطأ تماماً بالنسبة لأي شخص جلب عليه خطأ صغير سخط العاهل، أن يحيا على نحو ما يحيا الشخص المستقيم، حتى ولو كان مثلي لم يُجرد من مرتبته ولم يُعزل من منصبه. والقرار القاضي بإرسالي إلى منفى بعيد ـ حيث سمعت بأن قراراً قد اتخذ بهذا المعنى ـ يوضح فحسب كيف أن تهمة استثنائية قد أُلصقت بي. وأنا لا أجرؤ على تجاهل مثل هذا التقريع الرسمي لأن فؤادي نقي فحسب، ومن هنا فقد عقدت العزم على أن أعتزل الدنيا قبل أن أواجه عاراً أعظم». وواصل الحديث على هذا النحو ببعض الاستفاضة.

ثم تحدَّث معاليه عن الماضي وعن نيافته الراحل ورغباته الصريحة فيما يتعلق بجينجي، ولم يبعد كم عباءته عن عينيه قط. ولم يفلح جينجي نفسه في أن يكون أكثر شجاعة. وقد مزق فؤاده أن يرى هذا الصبي الصغير وهو يتعثر في براءة محتضناً أباه حيناً، وجده حيناً آخر.


شرفة، درابزين، وأبواب مزدوجة

قال معاليه: «لقد رحلت، أعلم هذا، لكنني لم أنسها قط. نعم، إنني لا أزال في حالة حداد عليها، ولكنني أستمد العزاء من التفكير في كيف أن ظروفك الراهنة كانت ستضايقها لو أنها بقيت على قيد الحياة، إنني لأشعر بالارتياح لأن رحيلها قد جنبها هذا الكابوس. وبالنسبة إلي، فإن الأمر المحزن أكثر من غيره هو التفكير في كيف أن ابنها، الصغير للغاية، قد تُرك مع عجوزين، وكيف أن وقتاً سوف ينقضي إلى أن يحظى بأبيه مجدداً. وفي الأيام الخوالي فإنه حتى الرجل الذي أساء التصرف ما كان ليلقى هذا المصير. نعم، الأمر كله قدر، والكثيرون في أراض أخرى عانوا مثلك، غير أنهم كانوا ضحايا الافتراء. لا، بالنسبة لي، فإن هذا كله أمر لا سبيل إلى

(1) الصين.

تصوره». مضى في الحديث وقتاً طويلاً.

ثـم انضم إليهما النقيب[1]، ومضوا في احتسـاء الشـراب إلى وقـت متأخر للغاية، حتى أن جينجـي قضى الليلة هناك، وجمع الوصيفـات حوله، وانهمك في الحديث معهن. وقد لزمت تشوناجون ـ التي كان يؤثرها في قرارة نفسه ـ الصمت وغمرها الأسى. وفي صمت رثى لحالها. وعندما عم الهدوء أخيراً، كرَّس نفسه لها وحدها. ولا بد أن ذلك كان السبب في قضائه الليل هناك في المقام الأول.

غـادر الـدار، في وقـت متأخر، مع مقدم الفجـر ومكوث قمر جميل في السـماء. وكان موسـم أزهـار الكرز الكبير قـد انقضى، وامتدّ سـديم عبر الحديقة الشـاحبة تحت أغصان آخـذة فـي النحول، ليتداخل هنا وهناك مع البراعم، ويسـفر عن مشـهد أجمـل من أي ليلة خريفية. راح يرقبه بعض الوقت، مستنداً على الحاجز. فتحت تشوناجون ـ التي لا شك في أنها أرادت أن تراه وهو يرحل ـ الباب المزدوج وجلست مطلة إلى الخارج.

قال: «تعلمين أننا قد لا نلتقي من جديد أبداً. لم أدر ما كانت عليه الدنيا، ولـم أحاول بما يكفي من الجهد أن ألقاك، بينما كان يمكن أن يكون ذلك يسيراً طوال هذا الوقت». بكت في صمت.

جاءت رسـالة من سـموها تحملها سايشـو، مربية ابنه: «لقد رغبت فـي الحديث معك شـخصياً لكنني ترددت في غمار معاناتي وحزني، وأسـمع أنك الآن تغادر في وقت متأخر مـن الليـل، وعلى نحو يخالف الأيام الخوالي[2]. بل إنك لم تؤخر رحيلك فيما لا يزال من هو عزيز عليك نائماً».

بكى جينجي، وغمغم محدِّثاً نفسه، كأنما لم يقصد أن يكون قوله رداً:

«الآن أمضي لأتبين ما إذا كانت النيران على ذلك الشاطىء حيث يحرق أهل البحر الملح،

(1) تو نو تشوجو.

(2) لم يكن جينجي مضطراً للمغادرة قبل الفجر عندما كانت أوي على قيد الحياة.

تبعث الدخان عالياً على نحو ما ينبعث في توريبينو»

وواصل حديثه: «أهذا إذن هو ألم الفراق عند الفجر؟[1] آه، أن تكون بجواري من تعرف ذلك الألم أيضاً!».



مائدة التقديم

ردّت سايشو، وقد تخضل صوتها بالدموع: «كلمة (فراق) قاسية دوماً، ولكنها هذا الصباح، يا مولاي، أقسى من أي شيء آخر».

لم يكن هناك مجال للخطأ بشأن العمق الأصيل لشعورها.

قال جينجي في معرض الرد على سموها: «لديَّ الكثير من الأمور لأحدثك بها، وإني أتوسل إليك أن تتفهمي أي عذاب أسكتني. إن رؤية النائم الصغير لم تفض إلا إلى جعل هذه الدنيا أكثر قسوة بالنسبة لي، ومن هنا فقد عقدت العزم على المضي سريعاً».

اختلست السيدات النظر إليه فيما يرحل. كان حرياً بالحسن والرشاقة المتجددين لقوامه الذي لفه الأسى، الذي تجلى للعيان بفعل القمر الماضي نحو الاحتجاب، آه، أن يدفعا بذئب أو نمر إلى البكاء، فلا عجب في أن أولئك الذين ظفروا بميزة معرفته منذ يفاعته قد صدموا لرؤية تغيره على هذا النحو.

آه، نعم، كانت سموها قد ردت:

«ستتزايد المسافات بينك وبينها بمرور الزمن،

فلن ترى بعد الآن السماوات التي التفّت بدخانها»

---

(1) جوسينشو 719، من نظم كي نو تسورايوكي: «أود بسرور أن أسألها: ما طعم ألم الفراق المفروض عند الفجر؟».

بعد رحيل أضاف أحزاناً جديدة إلى الأحزان القديمة، تخلت الوصيفات عن كل تحفظهن، وانخرطن في البكاء.

في الدار مجدداً وجد وصيفاته، اللواتي بدا أنهن لم يعرفن إلى الرقاد سبيلاً، وقد تجمعن هنا وهناك في أسى بالغ. لم يكن هناك أحد في مكتب الدار التابع له، فلا شك أن الرجال المقربين الذي يعملون في خدمته كانوا مشغولين بوداع أقاربهم، استعداداً لمصاحبته. وقد غدا من قبيل إساءة السلوك الخطيرة بالنسبة لأي شخص أن يزوره، وكان من شأن القيام بذلك أن يعرض من يقدم عليه للعقاب الصارم، بحيث أنه حيث كانت العربات والجياد تتزاحم في سبيلها للوصول إليه ساد الآن الصمت لا تشوبه نأمة، فأحس بغدر الدنيا. تجمع الغبار هنا وهناك على الموائد، ولفت بعض الحصر، كل هذا وهو لم يغادر المكان بعد. وكان بمقدوره تصور الإقفار المقبل.

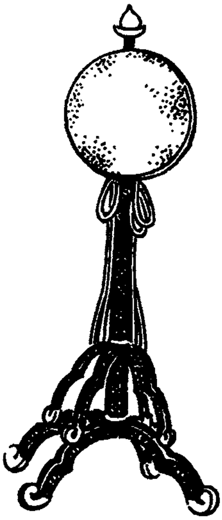
عبر إلى الجناح الغربي. كانت وصيفاتها الصغيرات قد تهاوين في قبضة النوم على الشرفة وفي مواضع أخرى، فقد أمضين ليلة حزينة مسهدة والمصاريع الشبكية مفتوحة، والآن فحسب أخذن في النهوض محدثات ضجة مهتاجة. راقبهن في حزن، كن جميلات للغاية في ملابس الخدمة الليلية الخاصة بهن، عندما كان لولا ذلك ما كان ليرمقهن بنظرة عاجلة، وفكّر في أنه مع مرور الأعوام فإنهن جميعاً سيمضين بعيداً.

قال: «لقد بقيت حتى وقت متأخر للغاية لأقوم بمهمة أو بأخرى، ولا بد أنك تتصورين أموراً غريبة كالمعتاد. وإني لأوثر ألا أغادرك على الإطلاق في وقت كهذا، ولكن الآن وأنا بسبيلي إلى الذهاب بعيداً فمن الطبيعي أن تكون لديَّ اهتمامات عاجلة عديدة، وليس بإمكاني البقاء هنا طوال الوقت. الدنيا قاسية بما فيه الكفاية على حالها، وليس بمقدوري احتمال أن يظن أحد بي الفظاظة والقسوة».

«أمور غريبة؟ هل يمكن أن يكون هناك ما هو أغرب مما يجري بالفعل؟». لم تضف إلى ذلك شيئاً.

لا عجب أنها قد حزنت أكثر من أي شخص آخر. لقد كان معاليه أبوها بعيداً للغاية إلى حد أنها أحبت جينجي منذ وقت طويل بدلاً منه، والآن منعه الخوف من الشائعات

مـن الكتابـة إليهـا أو زيارتهـا، الأمر الـذي كان مصـدر خزي بالنسـبة لها أمـام وصيفاتها، وجعلها تشـعر بالأسـف على أنه قد اكتشـف أساسـاً مكانها. وقد تصـادف أن عرفـت مـا أشـارت بـه زوجـة أبيهـا. «حظها لـم يدم طويلاً. أليس كذلك؟ إنها ملعونة. إنها تفقد كل من يحبها، في كل مرة». وقد جرحها هذا القول بصورة بالغة للغاية بحيث أنها عندئذ تخلـت عن كل اتصـال مع أبيها. لقد كانت فـي محنة محزنة حقاً، حيث أن جينجي كان كل ما لديها.



مرآة على منصب

واصـل جينجـي حديثـه: «إذا لـم يتـم العفـو عني فـي غضون سـنوات من الآن، فسـوف أسـتدعيك لتلحقي بي، نعم، حتى بين الصخـور[1]، وعلـى الرغـم من ذلك فلـو أنني قمـت بذلك الآن، لأثـار ذلك لغطـاً غير مستحب، فالرجل الـذي يعاني من اسـتياء مولاه ينأى بنفسه عن نور الشمس والقمر، وستكون إساءة خطيرة له أن يعيش كيفما طاب له. إنني لم أقترف جرماً، ولكنني أعرف أن هذه هي نوعية الابتلاء التـي يجلبها القدر، وما من سـابقة تسـمح لي بـأن أصحب امرأة أحبها معـي، لا، في عالم استبد به الجنون فإن هذا من شأنه أن يزيد الأمور سواءاً فحسب»[2]. وبعد أن تحدث، أغفيا إلى أن علت الشمس في كبد السماء.

أقبل الأمير النائب[3] والنقيب، فارتدى جينجي عباءة رسـمية لاسـتقبالهما، وهي عباءة بـلا زخارف، حيـث أنه لا رتبة له، ولكنهـا بعاديتها البالغة أبرزته في إهـاب أفضل. دنا من منصة المرآة يمشـط جدائله المنسـدلة على جانبي وجهه، فلاحظ رغماً عنه الجمال النبيل للمحيا الذاوي الذي رآه في المرآة. قال: «إنني أكثر نحولاً الآن فقط انظري إلى انعكاسي. الأمر صعب حقاً!». نظر إلى المرآة بعينين غائمتين بالدمع. لم يستطع احتمال الأمر.

«ربما أضطر للرحيل والتجوال بعيداً، بعيداً، ومع ذلك فللأبد

---

(1) من كوكينشو 952: «أين يمكنني العيش، بين الصخور، حتى لا أعود أسمع بالدنيا ومتاعبها؟».

(2) كان القانون الهاييني يسمح للرجل بأن يصطحب معه زوجته إلى المنفى، ولكن جينجي يقصد، فيما يبدو، أنه ما من أحد قام بذلك بالفعل.

(3) الأمير هوتارو، الأخ الأصغر لجينجي، وفيما بعد معالي وزير الحرب.

ستحتفظ مرآتك هذه بالحضور الذي أتركه معك»

«لو كان صحيحاً فحسب أن الصورة قد تبقى عندما يرحل الشخص،

فإن نظرة سريعة في هذه المرآة ستحمل العزاء حقاً» .

كانت جالسة وراء أحد الأعمدة لتخفي بكاءها، وذكَّره هذا المشهد من جديد بأنها هي وحدها، من بين كل النساء اللواتي عرفهن، كانت بلا نظير.

تابع سموه حديثهما الكئيب إلى أن غادر الدار عند الغسق.

كانت قرية الزهور المتساقطة بائسة. وغالباً ما كانت الزوجة السابقة المقيمة هناك تكتب له على نحو يمكن تفهمه، وقد عرف أن أختها ستتألم إن لم يزرها مرة أخيرة. وهكذا فقد انطلق في تلك الليلة متردداً من جديد، وكان الوقت جد متأخر عند وصوله إلى هناك.

سرت الزوجة كثيراً بزيارته. وقالت: «إنه لطف بالغ منك أن تشرفنا بزيارتك». غير أنه سيكون أمراً مضجراً أن ننقل باستفاضة كل ما قالته. لقد كانت مدينة له وحده بالتتابع الحزين لأيامها، وقد استشرف الدمار الأعظم الذي ربما ينتظرها الآن. كان السكون يخيم على الدار. وحدَّثه الامتداد الرحب للبحيرة في ضوء القمر الساجي والأعماق الغارقة في الظلال للأشجار على التل الذي يأخذ شكل الحديقة، وكل ذلك حدَّثه عن اليأس المخيِّم. وانصرفت خواطره إلى عيشه المستقبلي بعيداً وسط الصخور.

راحت السيدة المقيمة في الجانب الغربي من الدار تتساءل في حزن عما إذا كان سيجيء حقاً، عندما تناهى إليها عبر الفيض المؤلم لضوء القمر العبق الذي يسبق مقدمه، وانسلَّ داخلاً إليها. انزلقت في خفة خارجة إليه، ورفعت نظراتها المحدقة إلى الممر. وأقبل الفجر فيما هما لا يزالان يتجاذبان أطراف الحديث.

هتف جينجي مندهشاً: «يا لها من ليلة قصيرة! ويأتي هذا عندما أظن أننا قد لا نلتقي ثانية على هذا النحو أبداً! يا له من هدر ذلك الذي كانته هذه السنوات فيما لم يدر بيننا شيء! لسوف تكون سيرتي، ماضياً وحاضراً، على كل لسان، وفي غضون ذلك فإنني أبدو في نهاية المطاف كأنني لم أجد لحظة سكينة..». تحدَّث عن الأيام الماضية إلى أن علا صياح الديكة، وعندئذ استعد للانصراف خوفاً من أن ترصده العيون.

يا للحسرة، كان معنى القمر الماضي نحو الاحتجاب دوماً أنه بسبيله إلى الرحيل. «وجه غارق بالدموع»[1]، تألق حقاً من كميها الأرجوانيين الداكنين، وقالت:

«ربما كانا ضيقين، كماي هذان اللذان يرحبان بوجه القمر،

ومع ذلك فإنني أتوق كثيراً إلى الحفاظ على السنا الذي سأعشقه دوماً»[2]

دفعت قوة مشاعرها جينجي إلى الإشفاق عليها. وإذ دهمه الضيق فقد حاول أن يُسرِّي عنها:

«سيأتي وقت يتألق فيه القمر فيما هذه الحياة تدور وتدور،

لبعض الوقت، أشيحي بناظريك عن سماء تكسوها السحب!.

على الرغم من ذلك فإنني حزين بدوري لأن (دموع الجهل)[3] تجعل فؤادي مهموماً كذلك». وغادر الدار، فيما النهار يشرع في البزوغ.

رتب أموره. وبين الأتباع المقربين الذين قاوموا تحولات الزمن، حدَّد درجات من المسؤولية تجاه العناية بداره، كما اختار من سيصحبونه. وأبقى عن عمد الأشياء المخصصة لداره في القرية الجبلية[4]، الأغراض التي لا يستطيع الاستغناء عنها في حدود ما هو عادي وبسيط، وأضاف إلى متاعه صندوقاً من الكتب المناسبة، بما في ذلك «مجموعة القصائد»[5] وكذلك «كين». ولم يأخذ أثاثاً مترفاً معه ولا أثواباً متألقة، حيث سيحيا حياة ريفي في الجبل. وعهد إلى سيدة جناحه الغربي بطاقم وصيفاته وكل شيء آخر أيضاً، كل الصكوك الخاصة بكل أملاكه ذات القيمة من ضياع ومراع وهلم جراً. وفيما يتعلق بمخازنه ومستودعاته فقد بدت له شوناجون ممن يعتمد عليهن، ومن هنا فقد أصدر إليها

(1) انعكس القمر في دموعها، صورة مستمدة من كوكينشو 756 من نظم آيسي.

(2) كماها «ضيقان للغاية» (لا يتسمان بالجدارة) لأنها تعتقد أن قيمتها الشخصية والاجتماعية غير كافية للإبقاء على حب جينجي لها.

(3) جوسينشو 1333، من نظم مينا موتو نو واتارو: «دموع الجهل، يا للحسرة، بما ينتظرني تنهمر هاهنا أمام عينيَّ مباشرة».

(4) على الرغم من أن من الجلي للغاية أن سوما تقع قرب البحر، فإنها يشار إليها على أنها يامازاتو، «قرية جبلية»، حيث أن التلال تنهض وراء الشاطىء.

(5) لباي جويي. وقد حمل باي جويي آلة «كين» معه إلى المنفى كذلك.

تعليماته بالعناية بها، وأمدها لهذا الغرض بفريق من العاملين من الأتباع المقربين.

لم يبد اهتماماً كبيراً من قبل قط بناكاتا سوكاسا أو تشوجو أو مثلهما من وصيفاته، ولكن رؤيته كانت عزاء كافياً لهن، ورحن يتساءلن إلى أين سيتوجهن الآن طلباً للسلوان. قال: «سأعود يقيناً لو أنني فقط امتد بي العمر بما يكفي، ومن ترغب منكن في الانتظار لا بد لها من أن تخدم سيدتكن». وأمرهن جميعاً على اختلاف مراتبهن بالالتحاق بها.

من الطبيعي أنه بعث بهدايا جميلة إلى وصيفات ابنه الصغير وإلى قرية الزهور المتساقطة، ولكنه لم يبخل كذلك فيما يتعلق بالضروريات التي تلقى الترحيب.

تدبر أمر إرسال رسالة إلى سيدة العاملين في القصر[1]، وكتب فيها يقول: «لست مندهشاً لأنني لم أسمع شيئاً منك، لكنني أشد أسفاً وأعظم شعوراً بخيبة الأمل مما يمكن للكلمات أن تعبر عنه الآن، فيما أترك دنياي كلها ورائي:

هل الطريقة التي غرقت بها في نهر الدموع الحزين لأننا لم نستطع اللقاء
أطلقت الفيضان الهادر الذي يكتسحني الآن بعيداً؟

إنني أعرف عندما أعود بناظريَّ إلى الوراء أنني ينبغي أن أتحمل العواقب».

لم يطل في الكتابة، لأن الرسالة ستقوم برحلة حافلة بالمخاطر.

كان الضيق قد استبد بها، وأغرقت الدموع كميها، على الرغم من محاولاتها لكبح جماح نفسها:

«آه، يا نهر الدموع! لسوف يتبدد سريعاً الزبد الطافي على سطح ذلك الغدير،
قبل وقت طويل من اندياح التيار ضاحكاً فوق أجزاء ضحلة أكثر سعادة»[2]

كان ما كتبته من خلال دموعها جميلاً للغاية. وراح يتساءل عما إذا لم يكن حرياً به أن يحاول رؤيتها مرة أخرى، في نهاية المطاف، ولكنه بعد ذلك عدل عن هذه الفكرة، وبما أنها كانت محاطة بأقارب يمقتونه، وكانت هي نفسها قد لاذت بالصمت، فقد تخلى عن

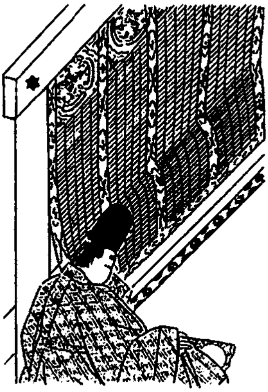
---

(1) أبوروزوكيو.

(2) «الجزء الضحل» (سي) يشير كذلك إلى «تغير الحظ» و«لقاء العاشقين».

أي محاولة بطولية لمراسلتها أكثر من ذلك.

عشية مغادرته المدينة، مضى إلى التلال الشمالية لزيارة قبر نيافته الراحل، ولكنه زار أولاً نيافتها المنعزلة، حيث أنه في هذا الوقت من الشهر فإن القمر سيكون لا يزال عالياً في السماء لدى طلوع الفجر. أجلسته أمامها مباشرة لا تفصلهما إلا الستائر الحاجبة، وحادثته بنفسها، فقد أقلقها أمر ولي العهد أشد القلق، ولا بد أن حوار اثنين مرتبطين بمثل هذا العمق أحدهما بالآخر كان مؤثراً للغاية.


ستائر

كان وعد حضورها الرقيق هو ما كان عليه دوماً، وقد أحس برغبة في أن يلومها على قسوتها، ولكن كل ما كان سينجم عن ذلك أن تكرهه لسلوكه هذا. هدّأ الصخب المتجدد في فؤاده، واكتفى بالقول: «هناك شيء واحد يعن على خاطري، الآن وقد حل بي عقاب تعذر التنبؤ به، شيء واحد لا زلت من أجله أخشى السماء في عليائها. لسوف أعطى عمري سعيداً لضمان تسلم ولي العهد العرش في يسر». ما كان بوسع المرء أن يلومه. وقد بلغ تأثر نيافتها، التي شاركته مشاعره بالكامل مبلغاً عميقاً إلى حد أنها لم تملك رداً. وانخرط في البكاء فيما هو يعاود التفكير في الماضي، مشكلاً في غمار ذلك تجلياً للجمال غير المتناهي.

قال:

«إنني ماض إلى مقبرة نيافته. فهل عندك رسالة له؟». لكنها لم تستطع الحديث على الفور، وبدا أنها تجاهد للتحكم في مشاعرها. قالت:

«الرجل الذي عرفته يوماً مضى، ومن يحيا يتحمل الكثير من الأحزان،

عبثاً أشحت عن هذه الدنيا لأعيش حياتي غارقة في الدموع».

كان قلباهما أكثر اضطراباً من أن يسمحا لخواطرهما المهتاجة بأن تعبر عن نفسها.

رد جينجي:

«عندما رحل بعيداً، اكتشفتُ كم يمكن أن يوغل الحزن والألم،

غير أن أحزان هذه الحياة تزداد وتزداد مجدداً».

ما إن بزغ القمر حتى مضى جينجي راحلاً، مع أقل من نصف دزينة من المرافقين وأقرب الخدم إليه فحسب. امتطى جواده[1]. وما من حاجة للقول إن كل شيء كان مختلفاً أشد الاختلاف عن جولاته في أيام أكثر سعادة، إلى حد أن من حوله كانت معنوياتهم شديدة الانخفاض.

كان أحدهم، وهو حاجب مساعد من حراس ميمنة القصر، قد عهد إليه بمرافقته في يوم التطهير ذاك، وقد حُرم من الترقية التي يستحقها، وحيل بينه وبين ولوج الغرفة الخصوصية، وجرد من كل وظائفه، وذلك هو السبب في أنه بصحبة جينجي الآن، وأعاد مرأى مزار كامو الأدنى في البعيد إليه تلك اللحظة، فترجل عن جواده، أمسك بلجام جواد مولاه، وقال:

«أتذكر الأيام التي كنا فيها جميعاً في غمار موكب نتزين بزهور القلب للقلب،

وسور كامو يجلب مرارة بالغة»[2]

كان بوسع جينجي أن يتصور مشاعر الشاب، فحزن عليه، حيث أنه في وقت من الأوقات كان يتألق على نحو يتجاوز الآخرين جميعاً، فترجل بدوره، وانعطف ليحيي المزار، ثم قال في معرض الوداع:

«الآن أودع الدنيا وأحزانها، ليت إله تاداسو

الأكثر حكمة يحكم على صدق الاسم الذي أترك ورائي»[3]

إذ مضى هؤلاء الشبان يرقبونه، وقد فتنهم حسنه، فقد أفعمت نفوسهم إعجاباً بنبله الذي يحرك المشاعر.

بلغ المقبرة، وهناك عادت إلى ذهنه صورة أبيه على نحو ما كان يوماً. وحده الحزن الذي لا يوصف بقي الآن وقد رحل، حتى هو الذي يسمو على كل المراتب. سرد جينجي

---

(1) في إقرار بالعار الذي يجلله، بدلاً من أن يستقل عربته.

(2) «السور» (ميزوجاكي) هو السور المقدس حول المزار. والمقطع سونو كامي (آنذاك) يعني أيضاً (يتذكر) تلك الرتبة بمرارة».

(3) يقع مزار كامو الأدنى في أجمة تاداسو، وهو الاسم المتجانس مع الفعل المستخدم للتعبير عن «يتأكد من الحقيقة».

منخرطاً في البكاء ما حل بساحته، لكن حكم أبيه ظل بعيداً لا سبيل للوصول إليه. يا للحسرة، ما الذي حل بكل وصاياه الوداعية؟

نمت الأعشاب على جانبي الطريق كثيفة بجوار المقبرة، التي كان جينجي قد وصل إليها عبر الندى المتجمع، وفي غضون ذلك كانت السحب قد حجبت القمر، وأثقلت ظلمة الغابة كاهله، وأحسَّ أنه لن يجد طريق العودة أبداً. وبينما هو يصلي ارتجف لتخيّل رؤية لأبيه على نحو ما كان في حياته أمام ناظريه.

«ما الذي يلمحه ظله عندما ينظر إليَّ، أنا الذي أمام عينيه

القمر في علاه، محياه الغالي، يحتجب وراء السحب؟»

عندما أقبل النهار في اكتماله، غادر قاصداً الدار، وهناك كتب كذلك إلى ولي العهد. كانت الرسالة ستمضي إلى أوميوبو في غرفتها، حيث أنه كان قد كلفها بتمثيله. «سأغادر المدينة اليوم، وأعظم ما يساورني الندم عليه هو أنني عاجز الآن عن زيارة سموّه[1]. أرجو أن تتفهمي مشاعري وأن تنقليها إليه.

متى ستقع عيناي مجدداً على المدينة مزدهرة في الربيع

الآن وقد غدوت أنتمي إلى التلال فلاحاً زمانه وراءه؟»

أرفق الرسالة بغصن كرز عار من الزهور.

تحول سموه إلى الجدية على نحو صبياني عندما تم اطلاعه عليها. وسألته أوميوبو: «أي رد ترغب في أن أعطيه إياه؟».

«أبلغيه كيف أنني أبدأ سريعاً للغاية في افتقاده وكيف أنني بوجوده بعيداً للغاية أتساءل...». تأثرت أوميوبو بردّه الصغير الحزين. عادت بذهنها إلى الماضي، عندما عانى جينجي كثيراً من أجل رغباته المستحيلة، وفي لقاءاته مع سيدتها، وساورها الحزن لظنها أنها هي التي جلبت هذا العذاب عليهما كليهما، بينما كانا ينبغي أن يعيشا بلا هموم، وأحسّت بأن اللوم يقع عليها وحدها.

(1) لما كان يقع تحت طائلة الحظر الإمبراطوري، فليس بمقدوره دخول القصر.

كتبت في معرض الرد تقول: «مولاي، ليس هناك ما يمكنني قوله. لقد حدَّثت سموه، من العار رؤيته حزيناً على هذا النحو». لا بدّ أن الطابع المتناثر لملاحظاتها قد عكس حالتها الذهنية المضطربة.

«محزن للغاية أن الزهور تتساقط سريعاً، أيها الربيع العابر،

أقبل من جديد لتبتسم للمدينة التي تجملها براعمك! .


رجل في ثياب الصيد

يقيناً سيأتي وقت..». في هذا المزاج السوداوي، واصل أهل دار سموه الحديث من خلال دموعهم. لم يكن بمقدور أحد وقع ناظراه على جينجي أن يرى محنته من دون أن يحزن عليه، وبالطبع فإن أولئك الذين عملوا في خدمته بصورة يومية، حتى الخادمات ومنظفي بيوت الخلاء[1]، الذين لم يعرفهم أبداً ولكن الذين تأثروا بلطفه، حزنوا بصفة خاصة على كل لحظة من غيابه.

من ذا الذي كان بوسعه أن يظل لا مبالياً به حتى في الدنيا الواسعة؟ لقد قام على خدمة جلالته ليلاً ونهاراً منذ كان في السابعة من عمره، ولم يحدِّثه أحد برغبة من رغباته دون أن يحققها، والجميع حظي بحمايته ونعم بسخائه. وقد كان بينهم الكثير من النبلاء العظام ومسؤولو البلاط، والنماذج الأقل لا حصر لها. وعلى الرغم من أنهم قد أقروا بالدين الذي يطوق أعناقهم، فإنهم لم يزوروه، حيث تخاذلوا بفعل المزاج الشرير لتلك الأوقات، وحزن الناس في كل مكان على مصيره، واستنكروا فيما بينهم أساليب البلاط، ولكنهم فيما يبدو لم يروا مبرراً للمخاطرة بحياتهم المهنية للإعراب عن تعاطفهم، ذلك أن الكثير منهم خيبوا أمله أو أغضبوه، وذكَّرته كل الأمور بمدى القسوة التي يمكن أن تكون هذه الدنيا عليه.

في اليوم الموعود، تحدَّث بهدوء مع محبوبته حتى حل الظلام، ثم انطلق في وقت متأخر من الليل، على نحو ما يفعل الناس. وكان قد أبقى زيّ سفره ـ عباءة الصيد وما إلى

(1) استخدم الرجال بيوت الخلاء والنسوة اللواتي استخدمن القصريات.

ذلـك ـ بسـيطاً للغاية. قال: «لقد بـزغ القمر، فهلمي امضي معي قليلاً، وودعيني! سـيكون هناك الكثير جداً مما سـأرغب في أن أحدثك به! وبشـكل ما فإنني لا أستشعر سلاماً عندما أكون بعيداً عنك يوماً أو يومين فحسـب». رفع السـتائر الحاجبـة ودعاها إلى الخروج إلى حافة الممشى، فغرقت في البكاء، ولفها الصمت، قبل أن تنزلق خارجة لتجلس، مثل خيال بديع في ضوء القمر. ما الذي سيصير إليه أمرها عندما يرحل عن هذا العالم الكئيب المحيط بهما؟ أثار هذا الأمر قلقه أشدّ القلق، ولكنه خشي أن يزيد ضيقها، وهي في حالتها تلك.

«حتى والناس أحياء، فإنهم يفترقون، ذلك ما لم أعلمه أبداً،

حتى وأنا أقسم لك أنني سأظل إلى جانبك حتى النهاية .

وداعاً للوعود». قالها محاولاً أخذ الأمر باستخفاف.

«لسوف أتخلى قريباً عن حياتي التعسة هذه لو أن الليل طال

قليلاً، فيما الوداع يطل علينا على حين غرة»

لم يسـاوره شك في أنها بالحق نطقت، ولـم يسـتطع احتمال مغادرتها، ولكنه لـم يرغب في أن يباغتهما الفجر، فسارع بالمغادرة.

صحبتـه صورتهـا على امتداد الرحلة، وركـب سـفينتة بقلب كسـير[1]. كانـت النهارات طويلة آنذاك، ومع رياح مواتية بلغ مقصده في ساعة القرد[2].

لمـا لـم يكن قد سـافر على هـذا النحو من قبل، ولو على سـبيل التريض، فقد استشـعر خليطـاً من الكآبـة والابتهاج. وكان المكان المدعو بقاعـة أوي خرباً على نحو حزين، فقد ظهرت أشجار صنوبره، وهي وحدها دلت على مكان البناء[3].

أهو قدري حتى على نحو يفوق قدره، هو الذي ترك اسمه في كاتاي،

---

(1) كان يتعين عليه المضي على جواده إلى فوشيمي ومن ثم يستقل مركباً ليمضي به في نهر يودو إلى نانيوا (أوساكا الآن)، وهي رحلة تستغرق يوماً. وربما أنه «استقل سفينته» في صباح اليوم التالي في نانيوا ليبحر الثلاثين ميلاً باتجاه الغرب التي تفصله عن سوما.

(2) حوالي الرابعة من بعد الظهر تقريباً.

(3) من غير الواضح ما الذي كانه هذا البناء أو كان عليه في وقت أبعد.

أن أواصل الترحال وألا أعرف أبداً موضعاً أدعوه داري؟»[1].

وإذ رأى الأمواج تغسل الشاطىء وتنزلق عائدة نحو البحر، فقد غمغم قائلاً: «بأي حسد..؟»[2] وعلى شفتيه ترددت القصيدة القديمة حديثة وصادقة للغاية إلى حد أن الأسى غمر رفاقه. تطلع إلى الوراء، لمح الجبال خلفه تذوب في غمار السُدُم، وشعر حقاً بـ: «ثلاثة آلاف فرسخ من الدار»[3]. لم يستطع احتمال القطرات المتساقطة من مجداف النوتي.

«ربما يحجب السديم فوق التلال داري عني، لكن ربما تلك السماء

التي تتحول عيناي في توق إليها كذلك وراء السحب هي سماؤها» .

أثقلت كل الأشياء عليه.

لسوف يقيم قريباً من الموضع الذي أقام فيه المستشار يوكيهيرا من قبله، مع «تساقط القطرات الملحية المتتابعة فيما الحزن يغمره»[4]. كان هذا الموضع متراجعاً قليلاً عن البحر، وسط التلال المهجورة. كانت الأجنحة المسقوفة بالقش وما بدا أنها دهاليز مسقوفة بنبات السُمَّار مشيدة بصورة جميلة. وفي أي وقت آخر، كان من شأن مسكن بهذه الجدة البالغة وهذا التطابق الشديد مع المخطط أن يبهجه، وعادت خواطره إلى مباهج الماضي.

استدعى مسؤولين من الضياع القريبة، وكان من المحزن رؤية النبيل يوشيكيو، وهو الآن تابعه الأقرب، يصدر الأوامر بخصوص كل ما يتعين إنجازه[5]. وفي وقت جد قصير

(1) إيماءة إلى الشاعر الصيني (كويوان 278 – 340 ق. م). الذي ضرب بدوره في المنافي.

(2) آيسي مونوجاتري 8 (القسم 7): «يحن فؤادي لعبور المسافة التي قطعتها، بأي حسد أرقب الأمواج وهي تعود!».

(3) من قصيدة لباي جويي (هاكوشي مونجو 0695).

(4) من كوكينشو 962، من نظم أريوارانو يوكيهيرا، القصيدة التي تقدم المرجعية الشعرية لمنفى جينجي في سوما: «إن سأل عني أحد، فقولوا إنه على شاطىء سوما تتساقط قطرات الملح والطحلب البحري، فيما الحزن يغمرني». و«قطرات الملح والطحلب البحري» هي دموع يوكيهيرا والماء شديد الملوحة الذي يتقاطر من أولئك الذين يجمعون العشب البحري على امتداد ساحل سوما. وكانت سوما معروفة بصانعي الملح فيها، وكان العشب البحري يستخدم في عملية إعداد الملح.

(5) ربما كان ذلك أمراً محزناً لأنه في العاصمة لم يضطر يوشيكيو من قبل قط إلى الحديث إلى أحد في مرتبة متدنية من قبيل مسؤول عن ضيعة. وهو أحد رجال جينجي ونجل حاكم مقاطعة هاريما المجاورة، التي تقع فيها أكاشي.

أُنجز العمل على نحو بديع. وتم تعميق قاع الغدير وغُرست الأشجار، وأحس جينجي دهشاً بأن بمقدوره بالفعل أن يقيم هناك. وكان حاكم المقاطعة[1] هو تابع آخر من أتباع جينجي المألوفين، وفي هدوء قام بكل ما في وسعه للمساعدة. واتسم المكان بالحيوية مع قدوم الزائرين، على الرغم من أن جينجي قد وصل لتوه، ولكنه كان لا يزال يشعر بالضياع في أرض غريبة، حيث لم يكن لديه من يناقش الأمور معه على الوجه الصحيح، وراح يتساءل كيف يمكنه أن يجتاز السنوات المقبلة.

أقبل الموسم المطير مع بدء الحياة في اتخاذ إيقاع عادي، وتحولت خواطر جينجي إلى المدينة، وإلى الكثيرين الذين يحبهم هناك، إلى سيدته العزيزة في غمار حزنها، إلى ولي العهد، وإلى ابنه الصغير اللاهي في غمار لعبة بريئة. وقد بعث بحملة الرسائل، وكان مما يتجاوز قدرته أن يكمل رسائله إلى مسكنه في نيجو، وإلى نيافتها المنعزلة، حيث غامت عيناه بالدموع. وقد كتب إلى نيافتها المنعزلة يقول:

«كيف، إذاً، هي حال الراهبة في كوخها البحري من السُمّار في ماتسوشيما

هذه الأيام فيما الدمع يتقاطر من رجل شاطىء سوما»[2]

وسط أحزاني السائدة، يقبع الماضي والمستقبل في الظلام، ويا للحسرة، ترتفع أمواج الفيضان عالية..»[3].

إلى سيدة العاملين في القصر كتب، كما هي الحال دائماً، كأنما يوجه حديثه على نحو خاص إلى تشوناجون، ولكنه كتب في طي رسالته: «الآن وفيما يتاح لي الكثير من الوقت للتركيز على الماضي، فإنني أتساءل:

بينما لا يغاقب الجميع، فإنني على شاطىء سوما لا أزال أفتقد مباهج العشب البحري،

ماذا عنك، أيتها الفتاة البحرية، التي لا تتقد نار ملحها خفيضة أبداً؟»[4]

---

(1) سيتسو، حيث تقع سوما.

(2) أما («الراهبة») تعني كذلك من يعيش من البحر. وماتسو شيما، شأن سوما، تشتهر شعرياً بصانعي الملح فيها. ومن هنا فإن هذا التلاعب بالألفاظ يربط حالة فوجيتسوبو بحالة جينجي باعتباره «رجل شاطىء سوما».

(3) فيضان دموعي. كوكين روكوجو 2345: «لأنك مضيت، تنهمر دموعي وتنهمر، وسرعان ما يفيض النهر على ضفتيه».

(4) «كان ينبغي أن أستوعب درسي، فحتى الآن أرغب في رؤيتك، أتريدين ذلك أنت حقاً؟». يشمل التلاعب

إن المرء يتخيل حقاً بلاغته المفعمة بالانفعال.

بعث إلى دار سموها وإلى المرضعة نيشو كذلك بتعليماته فيما يتعلق بتربية ابنه.

أثارت رسـائله في المدينة مشـاعر قوية لدى معظم من قرأوها. فرقدت سـيدة نيجو في التـو، وقـد هيمن عليها الحـزن وغمرها الحنين، ولـم تنهض مجدداً إلا بعد أن اسـتنفدت وصيفاتها قدراتهن في بعث العزاء في نفسها. أداة تزين كان يؤثرها في الاستخدام اليومي، آلـة كوتـو كان يعزف عليها، عبـق رداء كان يرتديه، هذه هي وحدها التـي كانت تعيد ذكراه إليها الآن، كأنما انداخ بعيداً عن دنياها، وترتبت على ذلك نتائج مشؤومة للغاية إلى حد أن شـوناجون طلبـت من نيافته الدعاء لها. وقد قام نيافته بـأداء طقس لحمايتها هي وجينجي، وتوسـل قائلاً: «آه، ألا فلتكف عن الحداد على نحو ما تفعل الآن ولتسـتمتع بحياة متحررة من الهم!».

أعـدت لـه ملابس مما يُرتـدى ليلاً ليسـتخدمها في بعـده عنها. كانت عباءة وسـراويل ملمومة من حرير غير مطرز بالغة الاختلاف وغريبة إلى حد أن المحيا الذي كان قد تحدَّث عنـه، المحيـا «القريب إلى الأبـد في مرآتك» (وقـد كان كذلك حقاً) لم يكـن مصدر عزاء وارتيـاح على الإطلاق. وفطر قلبها أن ترى دهليزاً سـلكه، أو عاموداً اسـتند إليه. وقد كان يمكن أن تكون تعيسـة حتى لو كان لها من العمر ما يكفي لإمعان النظر في الأمور بشـكل أفضـل ولمعرفـة المزيد عن الحياة، ولا عجب في أنها قد افتقدته بشـدة، أخذاً في الاعتبار بمدى قربها الكبير منه، وكيف أنه كان بالنسـبة لها أباً وأماً في سـنوات نشـأتها. ولو أنه لم يكـن بين الأحياء، لكانت تلك نهاية الأمر، ولشـرعت في النسـيان، ولكـن على الرغم من أنها كانت تعرف أن سـوما ليسـت بالبعيـدة، فإنها لم يكن بمقدورهـا أن تعرف مدى طول افتراقهما، ومن هنا فإنها لم تخفف من وقر حزنها.

غني عن البيان أن الحزن غمر نيافتها المنعزلة بدورها، وذلك بسبب ولي العهد[1]، كيف يمكن لتأمل الـ«كارما» الخاصة بها من حيوات سابقة أن يتركها لا مبالية؟ كان الخوف من

بالكلمات البحرية في القصيدة الاسم المحتجب لسوما. والتلاعب الرئيسي يدور حول ميرومي وهو نوع من الأعشاب البحرية، ولكن أيضاً لقاء «العشاق». ويشبه جينجي كذلك أوبوروزوكيو بصانعة ملح.

(1) إنها تخشى أن وضع ولي العهد سيعاني من غياب جينجي.

الشـائعات قد أبقاها حريصة طوال كل هذه السـنين، فلو أنها أظهـرت عاطفة نحو جينجي فـإن النتيجـة قد تكون تقريعاً، وغالباً ما تجاهلت عاطفته لتظل ملتزمة بالطابع الرسـمي بلا انفعال. ولكن على الرغم من عشق الدنيا القاسي للقيل والقال، فإن جينجي قد تدبر الأمور في نهاية المطاف بحيث أن شـيئاً لـم تتفوه به الألسـن، وقد قاوم عاطفته المفارقة للمنطق، وأبقـى العلاقـة بينهما محتجبة عن العيان بصورة لائقة. فهـل يمكنها ألا تتذكره بحب إذاً؟ كان ردها حاراً على غير المألوف: «على نحو متزايد أخيراً،

انصرف كل جهدها إلى سفح الدمع متتابعاً، في ماتسوشيما،

بينما سنواتها تنقضي، تراكم الراهبة وقود تنهيدات الخريف».

ردّت سيدة العاملين في القصر قائلة:

من هذا حبها، صانعة الملح ذات النار، لا تجرؤ على ترك العيون تراه،

وعلى الرغم من كل اتقادها فليس أمام الدخان منفذ.

لـن أكرر أمـوراً لا حاجة لأن تقـال..». كانت رسـالتها القصيرة مدرجة في طي رسـالة تشـوناجون، التي نقلت على نحو متوهج بالحيوية أسـى سـيدتها. وكانـت بعض الفقرات مؤثرة إلى حد أن جينجي قد بكى.

غالباً ما كانت رسـالة محبوبته، التي تأتي رداً على رسـالة طويلـة ومفعمة بالعاطفة منه، مؤثرة للغاية. وكانت قد كتبت تقول:

«ضُم إلى كميك، مبتلة أبداً من الدمع المنهمر، يا رجل الشاطىء،

الملابس التي أرتديها ليلاً، حيث يفصلنا الطريق المائي».

كانت الأشياء التي بعثت بها جميلة في كل من اللون واللمسات الأخيرة. وكانت بارعة للغايـة فـي كل المهـام التي تقوم بها إلى حد أنه لم يكن بوسـعه أن يرغب في المزيد، وندم بمـرارة علـى عدم وجودها معـه الآن والعلاقات الأخرى التي غرق فيها لم تعد تسـتقطب اهتمامـه، كان ينبغي أن يحيا في سـلام. مثلت صورتها أمامه ليلاً ونهـاراً، وطاردته ذكراها علـى نحـو لا يُطـاق، إلى أن فكّر فـي هدوء في إحضارهـا في نهاية المطاف، لا لشـيء إلا لينحي الفكرة جانباً باعتبارها شـيئاً ميؤوسـاً منه، ومضى مباشـرة إلى الممارسـة المستمرة

للصيام المطهر.

تلقـى من معاليه أخباراً عن ابنه الصغير أيضاً، وعلى الرغم من أنه اشـتاق إليه كثيراً، إلا أنه لم يبالغ في قلقه عليه، لأنه كان يعرف أنه سيراه من جديد، وأنه بين أياد أمينة. وربما لم يكن غارقاً في حزن الأب على ابنه.

آه، نعم، في غمار هذه الفوضى كلها غاب عني شـيء، فقد بعث جينجي كذلك برسول إلى مزار آيسـي. وتلقى رسـولاً من هناك كذلك. كانت[1] قد كتبت بقدر عظيم من الدفء. وأفصح خطها وحركة فرشـاتها عن تمكن ورشاقة اسـتثنائيين: «الأخبار عن الظروف التي تعيش فيها، والتي لا أسـتطيع إلا بالكاد تصديقها، تتركني، إن صح التعبير، غارقة في الليل الذي لا فجر له[2]، غير أنني أحسـب أنك تظل بعيداً وقتاً طويلاً، بينما أنا الغارقة بعمق في الخطيئة[3]، لن أحادثك مجدداً إلا في المستقبل، المستقبل البعيد[4].

فكِّر عندما تستطيع بصانعة ملح آيسي التي تلملم الأحزان،

أنت يا من تقيم على شاطىء سوما، حيث أسمع الدمع يتقاطر[5].

آه، إلى أين ستفضي هذه الحياة المؤلمة بشتى السبل؟». كانت رسالة مستفيضة.

«على الرغم من أنني أجوب الشاطىء مسرعة عند الجزر في خليج آيسي، فما من قوقعة

أو أي شيء يمكنني القيام به في غمار محنتي»[6]

كانـت قد جمعت فـي لُفيفة أربع صفحـات أو خمس من الورق الأبيـض، وكتبت فيها باستفاضة تحركها أحزانها، وكان هناك طابع جميل لضربات فرشاتها.

جعلت الفكرة القائلة إنه كان قد انقلب عليها في لحظة قاسية، عندما كانت تعني الكثير

---

(1) ملاذ روكوجو.

(2) ليل الخضوع للعواطف بحسب المفهوم البوذي.

(3) خطيئة عدم أداء الطقوس البوذية. في آيسي، كما في المزار المقام على أرض السبخة، كان الاتصال بالبوذية محرماً.

(4) عندما يتغير العهد، وتعود الكاهنة إلى المدينة.

(5) أوكيمي (تلملم الأحزان) تعني كذلك «تجمع العشب البحري».

(6) تحقق القصيدة تلاعباً بلفظة كاي، «المحارة» و«المكافأة».

للغاية بالنسبة له، وأنه قد جرحها وأبعدها عنه - جعلت رسالتها هذه التي جاءت في وقتها مؤثرة بصفة خاصة، وأحس بالامتنان البالغ وبالتعاطف الشديد إلى حد أن كل رسول منها كان يحظى بالترحيب، ويتم استبقاؤه أياماً عديدة ليعرف كل شيء عن حياتها. كان الرسول فرداً شاباً ومتميزاً من أفراد أهل منزل سيدته. وفي ظروف جينجي الراهنة المتدنية فإنه لم يبق رجلاً مثله بعيداً للغاية عنه، وبكى الرسول المنبهر حيال اللمحات التي نالها من حسن جينجي.

كتب جينجي رداً، يسهل تخيل كلماته: «لو أنني عرفت أنني سأغادر المدينة على أي حال، لقمت بما هو أفضل لاتباعك في نهاية المطاف». وما إلى ذلك. وإذ استبد به الضجر والوحشة، فقد كتب يقول:

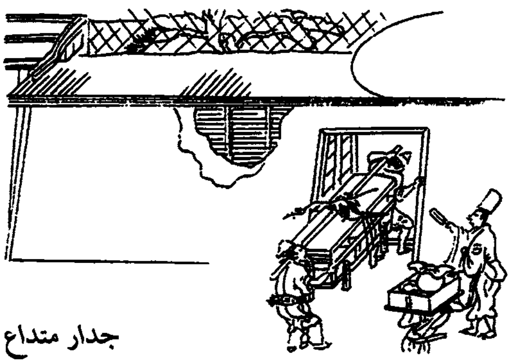
«لو أنني بدوري ركبت فحسب الزورق الصغير الذي تجدف به قاطنة آيسي
بخفة فوق الأمواج لما كنت عرفت الأحزان»[1]

«إلى أي مدى، في غمار عذابي هاهنا في سوما على الشاطىء، لا بدّ لي من الحلم والحزن
بينما القطرات الملحيّة تنهمر على ركام الهموم البحرية؟

ليس بمقدوري التغلب على عدم معرفتي متى سأحدثك مجدداً».

بهذه الطريقة بقي على اتصال بكل سيداته على نحو بعث العزاء في نفوسهن.

كان مسروراً ومحبطاً في آن لرؤية كيف أن سيدتي قرية الزهور المتساقطة قد نقلت كل منهما حالتها المزاجية في



جدار متداع

(1) تنويع جزئي على أغنية شعبية: «غرباء هم أهل آيسي، ولماذا؟ في زوارق صغيرة يجدفون فوق الأمواج، يجدفون فوق الأمواج».

رسالة حزن خالية من التصنع[1]، ولكن على الرغم من أن الرسالتين كانتا تبعثان على الشعور بالارتياح، فقد عمقتا شعوره بالأسى كذلك. كانت قد كتبت تقول:

«مراراً أحدق في نباتات السرخس الآخذة بطنف داري الكئيبة،

بينما يتساقط الندى قطرات لا تتوقف فيبل كمَّي المهجورين»[2].

وأدرك جينجي أنهما لا تحظيان بحماية في حقيقة الأمر إلا من أعشاب حديقتيهما. ولدى علمه بأن جدارهما المشيد بالطوب قد انهار في مواضع عدة خلال الأمطار المتطاولة، أمر أتباعه في المدينة بأن يجلبوا رجالاً من ضياعه الريفية القريبة لإصلاح الضرر الذي وقع.

أحست سيدة العاملين في القصر بالتعاسة على نحو بالغ إزاء الهزء بها، وتقدم معاليه أبوها، الذي كان شديد الإعزاز لها بشكاوي ملحفة للإمبراطورة الأم ولجلالته، لكي يعيد جلالته النظر في أمرها، فهي في نهاية المطاف لم تكن زوجة ولا ملاذاً، وإنما هي مسؤولة بالقصر فحسب، وبالإضافة إلى ذلك فإن هفوتها تلك قد سببت لها ما يكفي من المتاعب. وقد ظفرت بعفو جلالته، وأصبح باستطاعتها أن تذهب إلى البلاط مجدداً، على الرغم من أن رغبتها الوحيدة الآن تمثلت في من ظفر بقلبها.

مضت إلى القصر في الشهر السابع، وتجاهل جلالته الذي كان لا يزال يقدرها تقديراً عالياً، الأقاويل السيئة عنها، مراوحاً بين تقريعها على هذا الشأن أو ذاك، وبين تأكيد حبه لها، وقد فعل ذلك بجمال وإجلال عظيمين، ولكن يا للأسى، فإن فؤادها لم يسع إلا ذكريات جينجي.

ذات مرة عندما كانت الموسيقى تعزف، أشار جلالته بقوله: «غيابه يترك فراغاً. وأتوقع أن آخرين كثيرين يحسون بذلك الفراغ أكثر مني، وكأنما فقدت كل الأشياء سناها». ثم مضى قائلاً: «لم أنفذ وصية أبي، وهذه الخطيئة ستقع على كاهلي». تندت عيناه بالدموع، وعلى غير إرادة منها حدث ذلك لها أيضاً. «ليست لديَّ رغبة في أن يمتد عمري طويلاً، الآن وأنا أعرف أن الحياة لا تزداد إلا قسوة مع امتداد عمر المرء. كيف سيكون شعورك

---

(1) «محبطاً» بسبب غرابة قراءة مثل هذه الرسائل في مكان مثل سوما.

(2) «نباتات السرخس» هي شينوبو، نبتة مثيلة للسرخس، اسمها هو أيضاً الفعل المؤدي لمعنى «يتذكر بإعزاز» وتنمو شينوبو بسهولة في عشب سقف مهمل. ناجامي «يحدق» تعني أيضاً «المطر الطويل» (العائد لموسم المطر).

إذا قُدِّر وحدث شيء لي؟ ليس باستطاعتي احتمال أن مثل هذا الفراق سيضايقك أقل مما يضايقك فراق آخر أكثر عذوبة بالفعل. لا ليس بوسعي أن أحسن الظن في ذلك كتب يقول: (بينما لازلت أحيا...)[1].

كانت طريقته في الحديث رقيقة، وقد تحدَّث انطلاقاً من إحساس شديد الرهافة إلى حد أن دموعها أخذت تنهمر. قال: «آه، نعم، من أجل من منا تبكين؟». وواصل حديثه: «إنني آسف لأنك لم تنجبي لي أي أبناء بعد. إنني أود أن أقوم نحو ولي العهد بما طلب مني أبي، ولكنني أخشى من أن ذلك لن تترتب عليه إلا عواقب وخيمة. وقدَّم له أولئك الذين تضايقه طريقتهم في الحكم أسباباً عديدة للأسف على أنه لا يزال أصغر سناً من أن يحظى بقوة الإرادة».

في سوما، كان البحر بعيداً تحت الريح الخريفية الحزينة بصورة متزايدة، ولكن ليلة بعد أخرى بدت الأمواج على الشاطىء، التي تغنى بها المستشار يوكيهيرا في قصيدته عن الريح التي تهب على الممر[2] شديدة القرب حقاً، إلى أن أسبغ الخريف على مثل هذا المكان كآبته. غرق الجميع في النوم الآن، ولم يكن ثمة أحد مع جينجي، فرقد مستيقظاً وحيداً تماماً، مصغياً بوسادة مرفوعة[3] للريح التي مضت تعصف في الخارج، وبدت الأمواج وكأنها تندفع متدفقة إليه. انخرط في البكاء من دون أن يعرف ذلك، حتى ربما طفت وسادته مبتعدة[4]، خفضت الموسيقى، التي لم تدم طويلاً والتي انتزعها انتزاعاً من آلة الكين الموسيقية الخاصة به، معنوياته، حتى تخلى عن العزف، وغنى:

«الأمواج تتكسر على الشاطىء، ويرتفع هديرها لينضم إلى تنهدات حنيني

هل يمكن للريح إذاً أن تهب ممن يتوقون إليَّ كافة؟»

أيقظ صوته رفاقه، الذين جلسوا هنا وهناك شاردي الذهن، وخلب لبهم حسن غنائه،

---

(1) شويشو 685، من نظم أوتومو نو مومويو: «ما اهتمامي بالمستقبل إن مت عشقاً؟ توقي لرؤياك باق ما دمت حياً.

(2) إشارة مرتبكة إلى حد ما إلى كوكينشو 184 («الريح الخريفية الحزينة») وشين كوكينشو 1599، من نظم ميبو نو تادامي (الأمواج على امتداد الشاطىء تشارك في تنهد الريح).

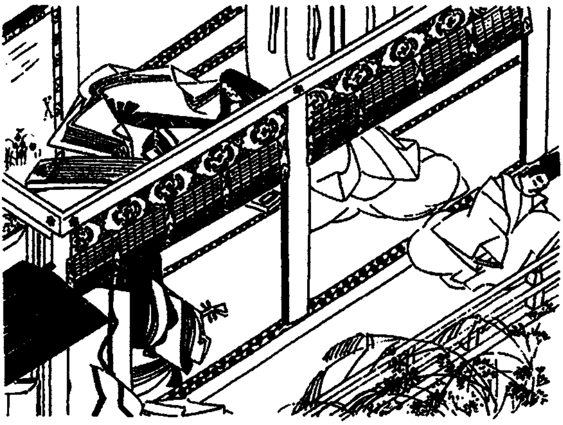
(3) وسادة خشبية أو خزفية قلبها جينجي بحيث تبقى رأسه أعلى من المعتاد.

(4) كوكين روكوجو 3241: «مع كل الدموع التي تنهمر على فراش من يرقد وحيداً، فحتى الوسادة الحجرية قد تطفو بعيداً».

ومضـوا يبكون بصمت. ما الذي يمكن أن تكون عليه مشـاعرهم حقاً الآن وقد غادروا من أجله وحده آباءهم وإخوانهم، والعائلات التي يعزونها أشد الإعزاز التي غالباً ما يفتقدونها ليفقـدوا أنفسـهم علـى هـذا النحو فـي البرية؟ أفعمتهـم هذه الخاطـرة ألماً، ومـا أن أدرك مـدى انخفـاض معنوياتهم بفعل حزنه حتى سـرى عنهم قاصداً بالحديـث والثرثرة خلال النهـار، وأضفـى الحياة على السـاعات بضم رقع الـورق الملون بعضها إلـى بعض لكتابة القصائد عليها أو الاسـتغراق في الرسم على الحرير الصيني البديع، وهو ما أدى إلى إبداع أقمشـة تزيينية للحواجز الفاصلة. وكان قد سمع ذات مرة وصفاً لهذا البحر ولهذه الجبال، وتصورها من بعيد، والآن وهي أمامه فقد رسم مجموعة مشاهد لا تضاهى لشاطىء جميل على نحو استثنائي.

أشـار رفاقه المتلهفون: «كم سيكون جميلاً استدعاء شـيبدا وتسونينوري، اللذين يقال إنهمـا أفضل فناني عصرنا وجعلهما يحولان هذه إلى لوحـات نهائية!»[1] كان رقيقاً للغاية وبهجة للناظرين إلى حد أن أربعتهم أو خمسـتهم قد نسـوا همومهم، ووجدوا خدمته عن قرب مسرة للنفوس.

ذات غسق جميل، ومع الازدهار المفعم بالعنفـوان للحديقة القريبة، دلـف جينجي إلـى شـرفة خارجية منحتـه إطلالـة علـى البحـر، وكان فائقاً جمال قوامه الساكن السماوي إلـى حد أنه قد بدا في هذه الوضعية غيـر منتـم إلـى هـذه الدنيـا علـى الإطـلاق. وفـوق رداء مـن الحرير الأبيض المضلـع والنجمي[2]، كان



الحديقة القريبة

(1) عاش مصور يدعى تسونينوري في عهد الإمبراطور موراكامي (حكم بين عامي 946 ـ 967) وربما كانت هذه هي الحال أيضاً بالنسبة لتشيبدا بدوره. وكان من شأن لوحات جينجي (المنفذة بالحبر فحسب) أن تكون بالنسبة لهذين الفنانين شيتاجاكي (رسمات تصميمية) للوحات الملونة النهائية.

(2) يبدو أنه كان يرتدي قميصاً من قماش التويل الحريري الأبيض (أيا) وسروالاً ملموماً من لون شوين.

يرتـدي عبـاءة ذات لون أزرق قاتـم، ولـم يعقد نطاقهـا إلا بصورة عرضية فحسـب، وتردد صوتـه مترنمـاً على مهل: «إنني تابع بوذا شـاكياموني..»[1]، فبدا أكثر جمالاً من أي صوت سـمعوه من قبل قط. ومـن مراكب تجذف في البحر تناهت جوقـة من الأصوات آخذة في الغنـاء. وبقلب خافق مضى يرقبهـا، قاتمة عند الأفق كأنها طيور صغيرة على صفحة الماء، وغـاص فـي حلم يقظة، فيمـا اختلطت صيحات من رفوف الأوز المحلقـة عالياً مع قعقعة المجاذيـف، إلـى أن غامت عينـاه بالدموع، فنحَّاها بيد شـاحبة على نحو بالغ الحسـن في مفارقة لمسـبحته السـوداء إلى حد أن الوصفاء الشبان الذين يتوقون إلى حبيباتهم في الدار قد أحسوا جميعاً بالعزاء والارتياح. قال جينجي:

«هل هذه الإوزات البرية الأولى جميعها رفيقات لكل من أحب بحيث أن صيحاتها في الأعالي

في تحليقها عبر السماء تثير فيَّ مثل هذا الأسى؟».

عندئذ قال يوشيكيو:

«كيف تنداح ذكرى وراء الأخرى في رف واحد عبر ذهني

على الرغم من أن الإوزات البرية لم تكن صديقات لي قط في ذلك العالم البعيد» .

وقال مفوض الشؤون المدنية[2]:

«لا بد أن الإوزات البرية التي تصيح، في غمار تخليها طائعة عن موطنها الخالد،

تجد خواطرها عائدة إلى ذلك العالم القابع فيما وراء السحب» .

وقال مساعد حراس ميمنة القصر:

«يقيناً أن الإوزات البريات اللواتي يغادرن موطنهن الخالد للتحليق عالياً في السماء

يجدن على الأقل أن مما يبعث العزاء ألا يتوانين في الانطلاق .

مـا الذي سـيحدث لتلك التي فقدت رفيقاتهـا». كان أبوه[3] قد مضى إلى هيتاشـي نائباً للحاكم، ولكنه اتخذ مظهراً جسوراً، قوامه عدم الاكتراث بما يجري.

(1) كلمات يحتمل أنها تستهل صلاة بوذية أو ترتيل نص مقدس.

(2) كوريميتسو فيما يبدو.

(3) نائب أيو.

تذكر جينجي عندما أطل بدر متألق أن الليلة هي الخامسة عشرة من الشهر[1]، وتاق إلى الموسيقى في القصر، دفعه تخيله مشهد سيداته كلهن وقد رفعن عيونهن إلى السماء إلى أن يحدِّق في محيا القمر. وغنّى: «ألفا فرسخ بعيداً، فؤاد صديق..»[2]، وكما حدث من قبل، فإن رفاقه لم يستطيعوا السيطرة على دموعهم. عادت إلى ذاكرته بتوق لا سبيل إلى التعبير عنه قصيدة نيافتها المنعزلة «ربما سديم تساعي الطيات»، بكى بحرقة لتذكره أوقاته معها. قالوا: «لقد تأخر الوقت كثيراً». ولكنه على الرغم من ذلك أبى الدخول.

«الطيف وحده يعزيني قليلاً، على الرغم من أن الزمان سيطول

إلى أن يعيدني مجدداً إلى مدينة القمر»[3]

تذكر جينجي بإعزاز كيف أن جلالته تحدَّث بحميمية عن الماضي وكيف أنه حينذاك بدا شبيهاً بنيافته الراحل، وواصل الغناء: «هو ذا الثوب الذي أعطانيه بجلال بالغ..»[4]. كان ذلك صحيحاً، فهو لم يفارق أبداً رداء نيافته الراحل، وإنما احتفظ به باستمرار معه[5].

«المرارة وحدها، لا، ليس ذلك بحال هو كل ما أستشعره في فؤادي،

ذلك أن الكمين الأيسر والأيمن معاً مبتلان تواً بالدموع»[6].

كان نائب دازايفو آنذاك في طريق عودته إلى المدينة، مسافراً على نحو باذخ مع عدد كبير من المرافقين، ولم يكن بوسعه أن يصحب معه بناته العديدات، ومن هنا فإن زوجته كانت تمضي بحراً، أقبلن على امتداد الشاطىء من مرفأ إلى آخر، وسررن بسوما، فقد كانت أجمل من أي مكان آخر، وجعلت أخبار وجود قائد[7] هناك في مثل هذه المحنة البنات الأصغر والأكثر عاطفية بتضرجن حمرة على النحو الأكثر رهافة لوجودهن على

---

(1) الليلة الخامسة عشر من الشهر القمري الثامن، ليلة البدر الكبير في العام كله.

(2) بيت من قصيدة لباي جويي (هاكوشي مونجو 0724) وقد كُتبت أيضاً عن الليلة الخامسة عشر من الشهر الثامن.

(3) كانت المدينة الإمبراطورية ترتبط شعرياً بالقمر.

(4) بيت من قصيدة باللغة الصينية لسوجاوارا نو ميتشيزاني، كُتبت في المنفى، وكان ميتشيزاني قد تلقى هدية عبارة عن رداء من الإمبراطور دايجو.

(5) ربما كان الرداء لأبيه، على الرغم من أنه يمكن كذلك أن يكون رداء أخيه.

(6) «إنني غاضب من الإمبراطور، ولكنني أفتقده كذلك، ومن هنا الدموع المريرة من جانب، ودموع الحب من جانب آخر».

(7) لقب جينجي السابق.

متن سفينة، إلى أن بدأن في التزين والتأنق بعيداً عن العيون. وكانت راقصة جوسيتشي تأمل على نحو يائس، ولا عجب، في أنهن لن يتجاوزن المكان، عندما وصلت من بعيد على جناحي الريح نغمات منبعثة من آلة الـ«كين» الموسيقية، وكان المكان والرجل وشجن الموسيقى من الروعة بحيث أن كل من كانت لديهم مشاعر مرهفة انخرطوا في البكاء.

بعث النائب برسالة معرباً عن تقديره واحترامه، وكتب يقول: «كنت قد اعتزمت القيام بخدمتكم فور عودتي من بعيد والتحدُّث معكم عن الأحداث في المدينة، ويؤسفني ويحزنني كثيراً أن أجد نفسي، لبالغ دهشتي، ماراً بهذه البقعة التي تقيمون فيها الآن. يا للحسرة، فلا بد من أن أستميحكم عذراً في الوقت الراهن، حيث أن الكثير من معارفي أقبلوا للترحيب بي، بمن في ذلك بعض أفراد عائلتي، وأخذاً في الاعتبار الإزعاج المحتمل، فإنني أعتقد أنه من الأفضل الإحجام، ولسوف أزوركم في وقت مناسب».

جاءت الرسالة عن طريق ابنه، الحاكم تشيكوزين، وقد صدم الشاب، الذي يدين لجينجي بتعيينه حاجباً، وغمره الحزن، ولكن عيوناً كثيرة تتابعه، وخشي الشائعات، وغادر مسرعاً. رد جينجي قائلاً: «الآن وأنا غائب عن المدينة، فإنني لم أعد أقابل من كنت وثيق الصلة بهم كما في السابق، وإنه لأمر طيب منك أن تقترب إلى هذا الحد». وانخرط الحاكم في البكاء خلال مغادرته، واجتذبت الصورة التي رسمها عن ظروف جينجي من النائب وكل من أقبلوا لملاقاته فيضاً من الدموع، التي نحت جانباً كل المظاهر.

أفلحت راقصة جوسيتشي بشكل ما في أن تبعث إليه بقولها:

«ألك عينان فترى فؤادي المتأرجح كأنه حبل

يُجر عاجزاً نحوك من خلال موسيقى الكين الذي تعزف عليه؟

آه، لا تلمني!»[1].

قرأ جينجي، الوسيم على نحو مذهل، هذه الرسالة باسماً، وكتب يقول في معرض الرد:

«إذا كانت أمنيتك أن يُشد فؤادك ويُرخى مثلي الحبل،

---

(1) كوكينشو 508: «آه، لا تلمني، فأنا في هذه الأيام مثل حبل السفينة المزدوج، يُرخى حيناً، ويُشد حيناً آخر!».

لـم أفكِّر يوماً في التقاط السـمك من البحـر!»[1]. كان هناك ذات يوم رجل ألقى شـعراً على مسـامع مشرف على إسطبل[2]، كانت أمنيتها الوحيدة آنذاك، بالطبع، أن تنزل إلى البر وتبقى.

مـع مرور الأيام والشـهور، توالت على الكثيريـن في المدينة، ومن بينهـم الإمبراطور، مناسـبات متتابعة للشعور بالأسـف على غياب جينجي. وفي هدوء بكى ولي العهد، الذي مـن الطبيعـي أنـه كان يفكِّر فيه باسـتمرار، وهو منظـر جعل قلب مرضعته يخفق بشـدة في معرض التعاطف معه، وكان الأمر كذلك بالنسبة لأوميوبو نفسها.

كانـت نيافتهـا قد ارتجفت دومـاً خوفاً على ولي العهد، وقد غـدا انزعاجها الآن عظيماً بعـد نفـي جينجي. وكان إخوته الأمـراء وكبار النبلاء الأقرب إليه قد استفسـروا جميعاً في بـادىء الأمـر عن صحته، لكن مراسـلاتهم الودودة معـه، والبرهان الناجـم عن ذلك على أنـه لا يزال يحظـى بتقدير الدنيا، قـد أدى إلى كلمات صارمة من جانـب الإمبراطورة الأم عندما سـمعت به، حيث قالت: «حسـب فهمي فإن من يقع تحـت الحظر الإمبراطوري لا يستسـيغ على الوجه الصحيح حتى مذاق الطعام. أما هو فإنه يقيم في دار بديعة، يسخر من البـلاط ويفتري عليه، ويجعـل متملقيه يتدفقون فـي حديثهم بالهراء الذي يردده، حسـبما يُقـال، من يقولون عن الغزال أنه جواد..»[3]. انتشـر الحديث عن متاعب في الأفق، وخوفاً من العواقب مالت مراسلات جينجي إلى الصمت.

جلب مرور الزمن على سـيدة نيجو قدراً أقل فأقل من العزاء والارتياح. وعندما مضت الوصيفـات التابعـات له من الجناح الشـرقي في أول الأمـر لخدمتها، تسـاءلن عما يمكن أن تـدور حوله هـذه الضجة الكبرى، ولكن كلما عرفنها بشـكل أكبـر اجتذبهن أكثر طيب

---

(1) كوكينشو 961، من نظم أونو نو تكامورا: «لم يخطر ببالي قط أن أتردى، منفياً إلى البراري، لألتقط خيط صياد وآخذ السمك من البحر!».

(2) عندما توقف سوجاوارانو ميتشيزاني في أكاشي، في طريقه إلى المنفى في كيوشو، خفف أحزان مشرف اسطبل هناك بقصيدة صينية.

(3) يتحدَّث «الشيجي» عن مسؤول شرير اختبر ولاء رجاله برؤية ما إذا كانوا سيوافقونه علناً على القول بأن غزالاً هو جواد.

معشرها وحسن خلقها وثبات شخصيتها وخوفها البالغ، ولم تغادر واحدة منهن الدار. وبين الفينة والأخرى كانت ترى الوصيفات الأكبر سناً شخصياً، ولم يدهشن لأنه أحبها أكثر مما أحب أي سيدة أخرى.

كلما قضى جينجي وقتاً أطول في سوما، قل شعوره بأن بمقدوره تحمل الأمر، ولكنه ظلَّ يذكِّر نفسه بأنه بما أن الحياة هناك كانت توبة قاسية حتى بالنسبة له، فإنه سيكون من الخطأ تماماً إحضارها إلى هناك بدورها. فقد كان كل شيء مختلفاً في سوما، ووجود أهالي الجبل، الذين شكلوا لغزاً بالنسبة له، كان بمثابة إهانة وإساءة. كان هناك دخان على الدوام تسوقه الريح، وقد افترض أنه ناتج من إشعالهم النار للحصول على الملح، ولكنه الآن وجد أن ما يسميه الناس حرق «الأغصان المقطوعة» يجري على المنحدر وراء داره.

وقد قال متعجباً:

«دائماً وأبداً، فيما أهالي الجبل يحرقون الأغصان في مواقدهم المتواضعة،

يوماً بعد آخر، ما أشد حنيني إلى أخبار محبوبتي في الدار!»[1]

أقبل الشتاء والجليد الذي تدفعه الريح. وبعينين مستقرتين على السماء المكفهرة، مضى يعزف على آلة الكين، بينما يوشيكيو يغني له، ومفوض الشؤون المدنية يعزف على الناي. وعندما يضع فؤاده في مقطوعة جميلة، فإن الآخرين يتوقفون لمسح دموعهم. مضت خواطره محلقة إلى تلك السيدة التي أُرسلت منذ زمن بعيد إلى أرض الهون[2]، وراح يتساءل كيف كان ذلك، أن يرسل المرء بعيداً المرأة الوحيدة التي يحبها، كانت الفكرة واقعية على نحو يبعث الرعدة إلى الأوصال إلى حد أنه غنى «حلم بعد الصقيع»[3]. تألق سنا القمر في الدار، منيراً كل ركن من أركان ملاذه البائس. أتاحت الباحة إطلالة على السماء المتشحة بالليل[4]، وأثار القمر المنكفىء شعوراً بالغ الحدة بالعزلة إلى حد أنه كرَّر

(1) القصيدة مبنية على تلاعب بلفظتي شيبا (غصن) وشيبا شيبا (غالباً).

(2) تم إقناع إمبراطور من ملكية الهان، عن طريق حيلة، بتقديم خليلة كان يحبها إلى حاكم من الهون.

(3) من واكين روي شو 703 قصيدة صينية حول الموضوع نفسه من نظم أوي نو أساتسونا. ووفقاً لحاشية مبكرة فإن «حلم بعد الصقيع» يعني حلم السيدة بالوطن، الذي تفيق منه بعد ليلة من الصقيع.

(4) ربما لأنه من هناك كان بوسع المرء التطلع إلى ما وراء الطنف. من واكين روي شو 536، قصيدة صينية من نظم ميوشي نو كيو يوكي.

لنفسه «باتجاه الغرب أرحل فحسب»[1]. وقال:

«إلى أين أمضي متسائلاً أي أرض مجهولة عبر أي دروب متشحة بالسحب؟

أجد نفسي تحت إطلالة القمر المحدقة فتمتلىء نفسي خجلاً» .

بينما رقد كما يحدث غالباً مسهداً تحت سماء الفجر، تأثر بتغريد طائر الزقزاق:

«بينما تطلق طيور الزقزاق المجتمعة على الشاطىء صيحاتها العديدة نحو الفجر،

أرقد وحيداً مسهداً من دون أن أعرف إلا لحظة سلام وحيدة».

لم يكن هناك مسهد غيره، وردد القصيدة لنفسه مراراً فيما هو راقد هنالك. وراح في جوف الليل يغسل يديه، ويردد اسم بوذا، وهو الأمر الذي كان بالنسبة لرفاقه رائعاً للغاية وملهماً كثيراً إلى حد أنهم لم يفارقوه قط، بل إنهم لم يقوموا بزيارات قصيرة لبيوتهم.

كان ساحل أكاشي قريباً بما فيه الكفاية[2]، إلى حد أن يوشيكو تذكر ابنة المترهبن[3]، وكتب إليها، لكنه لم يتلق إلا رسالة من أبيها، يقول فيها: «لديَّ شيء أريد أن أناقشه معك، وسأكون ممتناً لو أنك أعطيتني دقيقة من وقتك». ومع ذلك فإن يوشيكيو لم يوافق على ذلك قط، ومضى يتأمل على نحو مترع بالكآبة، فالذهاب لن يعني بالنسبة له إلا المغادرة خاوي الوفاض، بادي الحمق، ومن ثم فإنه لم يذهب إلى هناك.

كان المترهبن يتطلع إلى ذُرى لم يسمع بها أحد. وعلى الرغم من أنه في مقاطعته كان يُنظر إلى مصاهرته، فيما يبدو، باعتبارها جائزة كبرى، فإن ذهنه العجيب لم ينظر على امتداد السنين كافة في خطبة واحدة من هذا النوع، ولكنه عندما علم بوجود جينجي قريباً منه، قال لأم ابنته[4]: «إنني أسمع أن جينجي المتألق الذي ولد للزوجة كيريتسوبو يقيم في سوما مجللاً بالعار. وقد جلب قدر ابنتنا هذا الحظ الذي ساقه الريح إلينا. ولا بد أن ننتهز

(1) بيت من قصيدة صينية كتبها سوجاوارا نو ميتشيزاني فيما هو ماض إلى المنفى (المتحدِّث هو القمر): «باتجاه الغرب أرحل فحسب، هذا ليس بالنفي». والإحساس السائد في قصيدة جينجي يردد كذلك إحساس ميتشيزاني.

(2) على بعد خمسة أميال عبر الحدود بين مقاطعتي سيتسوو هاريما.

(3) «المترهبن» (نايودو) قام بأداء القسم الأولي ويعيش حياة الورع البوذي في داره. وهو لم تتم رسامته بصورة كاملة، وليس خاضعاً للانضباط الرهباني الجماعي.

(4) ليست «زوجته» لأنه راهب الآن.

هذه الفرصة لكي نقدمها له».

ردت أمه: «يا لها من فكرة! يقول القادمون من المدينة إن لديه بالفعل عدداً من النسوة المتميزات، وهو قد انتهك بالفعل سراً إحدى نساء جلالته. فهل من شأن أي شخص بمقدوره أن يطلق فضيحة كتلك أن يكون له أي اهتمام بفتاة ريفية بائسة؟».

استبد الغضب بالمترهبن، فدمدم بعناد واضح: «إنك لا تعرفين عم تتحدثين. إنني أختلف معك، لا بد لك أن تفهمي ذلك، لسوف يتعين عليَّ العثور على فرصة لإحضاره إليهنا».

أسفرت الطريقة التي اعتنى بها بكل من داره وابنته عن نتائج مذهلة.

اعترضت أمها: «ولكن لماذا يتعين أن نعلق آمالنا على رجل مهما كان رائعاً فإنه فيما يبدو قد نُفي جزاء لجرائمه. بالإضافة إلى ذلك، فإنه حتى إذا تعلق بها فإنه ما من شيء يحتمل أن يأتي من وراء ذلك».

كان رد المترهبن الوحيد دمدمة غاضبة: «في بلادنا أو في الصين، إن الناس الذين يبرزون عن غيرهم أو يختلفون على الإطلاق عن الباقين تنتهي الحال بهم دوماً إلى أن تظلهم سحابة. أي نوع من الرجال جينجي هذا؟ لقد كانت أمه الراحلة ابنة عمي المفتش المستشار الكبير. وعندما عرفت بأنها حسناء باهرة الجمال، أرسلوها إلى القصر، حيث اختارها جلالته من دون غيرها لتنفرد بالحظوة لديه، إلى أن ماتت مثقلة بغيرة الأخريات منها. غير أنه من حسن الطالع أن ابنها عاش بعد وفاتها. على المرأة أن تصوب عالياً، وهو لن يرفضها بازدراء لمجرد أنني أقطن الريف».

لم تكن ابنته باهرة الحسن، لكنها كانت رائعة على نحو جذاب، ولديها من الذكاء ما يجعلها تنافس أي سيدة عظيمة. وإذ كانت تعرف أن وضعها ينقصه الكثير، فقد اعتبرت أن من المسلم به أنه ما من نبيل عظيم سوف يكلف نفسه عناء الاهتمام بها، وأنها لن تحظى بقرين رفيع القدر أبداً، ولو أنها في نهاية المطاف عاشت بعد موت أبويها، فإنها ستصبح راهبة أو تغرق نفسها في البحر. وقد غمرها أبوها بألوان اهتمامه المفعمة بالإعزاز، وبعث

بهـا مرتيـن كل عام إلى سوميوشـي[1]، وكان ما يتوقعه في قرارة نفسـه هـو نعمة من الآلهة في سـوما، جلب العام الجديد أياماً متطاولة، خاوية، وبلغت شـجيرات الكرز التي غرسها جينجـي ازدهاراً واهنـاً. وداهمته ذكريات أثيرة تحت تلك السـماوات الصافية إلى حد أنه غالباً ما انخرط في البكاء. مرت الليلة العشرون من الشهر الثاني، فافتقد في يأس من أثاروا تعاطفه العام الماضي عندما غادر. نعم، الآن ستكون شجرة الكرز أمام شيشندين في بهائها. عاودته ذكرى كل شـيء الآن، نيافته في ذلك العام السـابق في الحفلة المقامة تحت براعم الكرز، وجمال ولي العهد آنذاك[2] ورشاقته والطريقة التي تغني بها بقصيدة جينجي:

«لم يغب عني قط أن أتذكر بحنين أهل القصر،

لكنني أذكرهم اليوم أكثر من أي وقت آخر عندما أعتمر براعم الكرز»[3]

كانت الحياة كئيبة للغاية. وكان النقيب[4]، نجل معاليه، وهو الآن مستشـار أيضاً، شـاباً رائعـاً بمـا فيه الكفاية بحيث يسـتحق تقديـراً عظيماً[5]، ولكنـه مع ذلك وجـد الدنيا كئيبة، وافتقد جينجي بصورة مسـتمرة، إلى أن حسـم رأيه بأنه لا يبالي إذا اكتشـف أمره ووجهت الاتهامـات إليـه، فظهر فجأة علـى باب جينجي. وأثـار مرأى صديقه في نفسـه من البهجة والأسى ما جعل دموع الفرح والحزن معاً تنهمر من عينيه.

بـدت دار جينجـي صينية على نحو يسـتعصي على الوصف، فلـم يكن المخطط وحده شـبيهاً بلوحـة فحسـب، وإنما علـى الرغم مـن تواضعها فإن السـور المضفـور حولها من الخيـزران ودرجه الحجري والأعمـدة الصنوبرية كانت جديدة على نحو بهيج[6]، وما كان المرء يمكن ألا أن يبتسـم حيال حسـن جينجي، حيث يبهر العيـن وهو يرتدي عباءة صيده وسـراويله الململومـة الرماديـة المزرقـة ذات الطابـع الريفـي المقصود، فـوق رداء زهري

(1) على الساحل قرب نانيوا، المزار الحالي تحيط به مدينة أوساكا.

(2) سوزاكو.

(3) في «تحت براعم الكرز»، عندما يعطي ولي العهد (جينجي) غطاء رأسه الخاص المتخذ من البراعم. ولغة قصيدة جينجي تومىء إلى واكان روي شو 25: «ليهنأ سكان قصر جلالته، لأنهم طوال اليوم يعتمرون براعم الكرز».

(4) تو نو تشوجو.

(5) أبوه، وزير الميسرة السابق، لم يعد في السلطة، لكنه أيضاً زوج ابنة وزير الميمنة.

(6) هذا الوصف مستمد من شعر باي جويي (هاكوشي مونجو 975).

مطـوَّب يميل نحو الصفرة، وكل ذلك على النمط البسـيط لفلاح من سـكان الجبل. وكان قـد جعـل أثاثـه بعيـداً عـن التـرف، وبـدت غرفتـه مفتوحـة أمـام العيـان. رقعتـا الداما والباكجامـون، وأدوات الزينـة المنوعـة، والأدوات الخاصـة بالتاجـي[1]، كلهـا كان قـد اختارها لتبقى متماشية مع الحياة الريفية، وأوضحت الأدوات البوذية أن ترداده بوذا لاسم بوذا لا ينقطع.



لعب الداما

حـرص جينجـي على التيقـن من أن تضـم وجبتهما أطايب الطعام المناسـبة للمـكان، حيث جلب أهـل البحر صيداً وفيـراً مـن المحـار، ودعاهـم للقـدوم وعرض هذا الصيد. وعندما جعل رفاقه يسـألونهم عن حياتهم على الشـاطىء، أبلغـوه بالمخاطـر التـي يتعرضـون لها والأحزان التي تنتابهم. وعلى الرغم من رطانتهم التي تسـتعصي علـى الفهم[2]، فقد أدرك متعاطفاً أن قلوبهم تتأثر مثلما يتأثر قلبه، وأن الأمر لا بد أنه كذلك. وخلع عليهم أردية، وفي غمار ابتهاجهم أحسوا كأنما لم يعيشوا حياتهم عبثاً[3].

اقتيـدت جياد جينجي بعدئذٍ إلى بقعة قريبـة، وعُلفت أرزاً غير مضروب من مبنى ظاهر للعيان على مبعدة يشبه بصورة غامضة صومعة غلال. غنى صديقه المفتون قليلاً من أغنية «أسـوكاي»[4]، وواصلاً الحديث، وسـط الدمـوع والضحك، عن ذكرياتهمـا. قال: «يجد معاليه براءة ابنك الصغير المطلقة شـيئاً محزناً للغاية إلى حد أنه يتنهد بشـأنها ليلاً ونهاراً»،

(1) الداما والباكجامون (سوجورمكو، لعبتان تمارسان على رقعة مخصصة لذلك. ويبدو أن التاجي تشمل حجارة تُلقى.

(2) سيزورو، استخدمت لأغنية هازجة الربيع، وتشير إلى حديث أجنبي على نحو يستعصى على الفهم.

(3) الأردية مكافأة عن المحار. وهذه الجملة تحقق تلاعبات على الكلمة التي تعني المحار (كاي) والعمل المتعلق بالغوص عليه (كاروكو).

(4) أغنية سايبارا: «لا بد أن تتوقف عند ربيع أسوكاي، حيث ستنال الظل، والماء بارد، والمرعى هو الأفضل..».

وتغلبت مشاعر جينجي عليه. ولسوف يكون من المستحيل تكرار حديثهما كله أو جانب منه. أمضيا الليل في نظم الشعر الصيني. مع ذلك فقد كان النقيب حساساً للشائعات، في نهاية المطاف، وعجَّل بالانصراف، الأمر الذي أضاف إلى ألم جينجي المزيد فحسب. أمسكا قدحيهما، وغنياً معاً: «دموع الأسى الثمل تملأ قدح خمر الربيع»(1). انخرط رفاقهما في البكاء، بدا كلاهما حزينين حيال مثل هذا اللقاء القصير للغاية.

في الضوء الأول للفجر لاح رف من الإوز عابراً السماء، فقال جينجي:

«متى سأمضي وفي أي ربيع لأعنى بمسقط رأسي؟

أي حسد يستبد بي الآن حين أرقب الإوز يحلق إلى موطنه!»(2)

كان النقيب لا يزال غير راغب في الذهاب، قال:

«بأسى مقيم يعرف الإوز البري أنه لا بد له من مغادرة موطنه الخالد

على الرغم من أنه قد يضل الطريق إلى مدينة البراعم»(3)

كانت الهدايا التي جلبها لجينجي من المدينة رائعة. وعندما افترقا، قدَّم له جينجي جواداً أسحم تعبيراً عن شكره. وقال: «قد تكون هذه هدية محرجة(4)، ولكنه كما ترى يصهل عندما تهب الريح»(5). كان الجواد أصيلاً.

قال زائره: «احتفظ بهذا لتتذكرني به!» وأعطاه بين أشياء أخرى ناياً بديعاً عظيم القيمة، على الرغم من ذلك كان هذا هو كل ما هنالك، حيث لم يتبادلا شيئاً قد يثير الانتقاد(6). وشيئاً فشيئاً علت الشمس في السماء، وانطلق صديق جينجي مسرعاً، ملقياً العديد من النظرات إلى الوراء. لم يبد جينجي إلا أكثر حزناً من قبل، فيما هو يرقبه يمضي بعيداً.

---

(1) بيت من قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 1107) كتبت عندما جاء صديق لزيارته في المنفى.

(2) مؤثر الإوز الراحل (الصديق الراحل) مستمد من قصيدة باللغة الصينية من نظم سوجاوارا نو ميتشيزاني.

(3) الإوز البري المراد به تو نو تشوجو، الذي يشبه جينجي بـ«الموطن الخالد» للإوز.

(4) حيث أنها من شخص يجلله العار.

(5) تومىء هدية جينجي المتمثلة في جواد أسحم إلى قصة تروى في الهان شو، وصهيل الجواد (عندما تهب الريح من جانب العاصمة) إلى قصيدة في مجموعة المختارات الصينية ونزوان. وكانت الهدية المعتادة لزائر راحل تسمى أومانو هانا موكي، هدية لـ«تحويل أنف الجواد نحو الوطن».

(6) بسبب الإسراف بالنسبة لشخص في المنفى أخذاً أو عطاء.

تساءل صديقه: «متى سأراك مرة أخرى؟ يقيناً لن يكون هذا مصيرك للأبد».

«أنت يا من تحلق عالياً قريباً للغاية من السحب، أيها الكركي المحلق في الأعالي،

أطل عليَّ من السماء، خالياً من اللوم كالشمس في الربيع»[1]

رد جينجي قائلاً: «نعم، إنني أحتفظ بالأمل، لكن رجالاً مثلي حتى الأكثر حكمة في الماضي لم يفلحوا حقاً أبداً في اللحاق بالدنيا، وفي حقيقة الأمر فإنني أظل مفعماً بالشك ولديَّ طموح جد محدود في رؤية المدينة ثانية».

رد النقيب قائلاً:

«وحيداً في السحب، أطلق في غمار عزلتي صيحات الوحشة،

مفعماً بالتوق إلى ذلك الصديق القديم الذي حلقت معه يوماً جناحاً لجناح .

الآن غالباً ما ينتابني الأسى، في نهاية المطاف، لتمتعي بميزة صداقتك، التي لا أراني جديراً بها». لم يكن رحيله يسيراً، وترك جينجي مفعماً بالحزن باقي اليوم.

في يوم الثعبان، الذي يوافق اليوم الأول من الشهر الثالث، أشار أحد الرفاق متطوعاً بالحديث من تلقاء ذاته: «يا مولاي، هذا يوم مناسب لمن يواجه متاعب، كالتي تتعرضون لها، للسعي إلى التطهر». وقد قام جينجي بهذا، حيث أنه أراد كذلك أن يلقي نظرة على البحر. وبعد حصوله على مساحة مسورة بالستائر، استدعى معلم الين - يانج الذي يجيء بانتظام إلى المقاطعة، وجعله يبدأ طقس التطهير. ساوره شعور بالتقارب فيما هو يرقب دمية كبيرة توضع في قارب وتُدفع لتطفو بعيداً[2]:

«إنني، من بُعث نحو رحابة بحر لم أعرفه قط،

مثلما تمضي دمية، لا يمكنني إلا أن أستشعر حزناً غامراً»[3]

وفيما جلس هناك في ألق النهار، فقد عكس حسناً يستعصي على الوصف.

---

(1) «أنت يا من تحظى بميزة التردد على القصر..». «السحب» تومىء إلى القصر (كوموي، مسكن السحب).

(2) هذا النوع من التطهير (هاري) يتضمن تحويل التأثيرات البوذية باتجاه دمية ثم ترسل طافية هبوطاً مع مياه نهر أو خروجاً إلى عرض البحر.

(3) القصيدة تحقق تلاعباً بلفظة هيتوكاتا (دمية) وهيتوكاتا ناكو (تماماً).

امتد المحيط ساجياً إلى البعيد، ومضت خواطره مرتحلة فوق ما كان وما قد يكون.

قال:

«لا بد أن حشوداً من الآلهة تستشعر أفئدتها الإشفاق عندما تطل عليَّ،
فليس فيما أتيته شيء يمكن لأحد أن يسميه جرماً»

بدأت الريح تهب فجأة، وأعتمت السماء، وانقطع أداء طقس التطهر، في غمار الفوضى التي أعقبت ذلك. وأعقب ذلك مطر غزير للغاية إلى حد أن الوصفاء المغادرين لم يتمكنوا في غمار الاضطراب من رفع مظلاتهم الواقية من المطر. ومن دون إنذار جعلت ريح مزمجرة كل شيء يطير، وعلت أمواج عاتية، الأمر الذي أثار فزعهم جميعاً. التمع البحر مثل لحاف حريري تحت تلاعب البرق، وتعالى دوي الرعد. وأفلحوا بالكاد في شق طريقهم عائدين، وقد ساورهم الشعور بأن صاعقة يمكن أن تنقض عليهم في أية لحظة.

«لم يسبق أن رأيت شيئاً مثل هذا قبل قط».

«تقدم العاصفة تحذيراً قبل أن تشرع في الهبوب! أما هذه فرهيبة وغريبة».

تتابع دوي الرعد متخللاً إعرابهم عن دهشتهم، وانهمر المطر بشدة بالغة إلى حد أنه كان يخترق ما ينصب عليه. وبينما مضوا يتساءلون مستائين إذا كانت الدنيا تقترب من نهايتها، مضى جينجي يرتل في هدوء كتاباً مقدساً. وعندما حلَّ الظلام توقف الرعد بعض الوقت، ولكن الريح واصلت هبوبها على امتداد الليل.

«لا بد أن صلاتي تلك قد أتت بنتيجة».

«كان يمكن للأمواج أن تغرقنا لو أن ذلك استمر وقتاً أطول!».

«سمعت أن أناساً فقدوا في غمار ما يسمونه بالموجة المدية، لكن ليس من جراء عاصفة كهذه قط».

حوالي الفجر، نالوا قسطاً من الراحة أخيراً. عندما أغفى جينجي بدوره فترة قصيرة، تراءى له طيف لم يتعرفه قائلاً: (لقد استدعيت إلى القصر. فلم لا تجيء؟). استيقظ من

نومـه، وأدرك أن التنين في ذلك البحر، وهو عاشـق كبير للجمـال، لا بد أنه قد وضع عينيه عليه[1]. شعر بوعيد رهيب أشعره بأن المكان الذي كان فيه أصبح لا يطاق.

(1) تلاحظ شروحات مبكرة أن الملك التنين، الذي تشتهر ابنته في الأسطورة، يرغب في زوج جميل لابنته.

13

أكاشي

أكاشي

أكاشي، مثل سوما، رقعة من الشاطئ تجاورها التلال. وقد كانت آنذاك في مقاطعة هاريما، بينما كانت سوما، التي لا تبعد عنها إلا خمسة أميال إلى الشرق، تقع في مقاطعة تيتسو. وقد فصلت الحدود بينهما هاريما عن «المقاطعات الداخلية» التي كانت، اسمياً على الأقل، تحت الحكم الإمبراطوري المباشر.

الصلة بالفصول السابقة

يتواصل أكاشي بعد «سوما» من دون انقطاع. وهو يبدأ في الشهر الثالث، عندما يكون جينجي في السابعة والعشرين من عمره.

الشخوص

جينجي، يُجرد من الرتبة أولاً، ثم يُرقّى إلى القائم بأعمال المستشار الكبير، 27 إلى 28 عاماً.

تابع من نيجو.

سيدة جينجي المقيمة في نيجو، 19 إلى 20 عاماً (مورا ساكي).

نيافة الإمبراطور الراحل، والد جينجي، بعد موته (كيريتسوبو إن).

مترهبن أكاشي، حوالي 60 إلى 61 عاماً (أكاشي نو نايودو).

يوشيكو، مستشار ميناموتو الأصغر، تابع جينجي.

ابنة مترهبن أكاشي، 18 إلى 19 عاماً (أكاشي نو كيمي).

أمها، أوائل الخمسينات (أكاشي نو أما جيمي).

جلالة الإمبراطور، 29 إلى 30 عاماً (سوزاكو).

الإمبراطورة الأم (كوكيدين).

المستشار، أبوها، وزير الميمنة السابق (يموت) (يوداجين).

ولي العهد، 9 إلى 10 أعوام (رايزي).

نيافة الإمبراطورة المنعزلة، فوجيتسوبو، 32 إلى 33 عاماً

راقصة جوسيتشي

سيدة قرية الزهور المتساقطة (هانا تشيرو ساتو).

أمطرت السماء، ودوى الرعد على امتداد أيام بكاملها، وتعددت ألوان البؤس التي عاشها جينجي بلا انتهاء، إلى أن جعل تاريخه ومستقبله التعسان من المتعذر عليه للغاية أن يتمسك بأهداب الشجاعة، وراح يتساءل في يأس: ماذا عساي أفعل؟ لسوف أكون أضحوكة أكثر من أي وقت مضى إذا دفعني هذا الطقس للعودة إلى المدينة قبل نيلي العفو عني. لا، بل دعني أضرب بعيداً في رحاب الجبال، على الرغم من أنهم إذا شرعوا عندئذ في القول إنني لم أستطع تحمل قليل من الريح وبضع موجات، فإن الأجيال المقبلة لن تعرفني إلا باعتباري أحمق.

واصل الطيف نفسه ملازمة أحلامه. وتعاقبت الأيام من دون انقطاع في مسير السحاب وتفاقم قلقه على المدينة، وخشي على نحو بائس في غضون ذلك أنه هو نفسه سيضل ضلالاً، لكن ما من أحد أقبل للعثور عليه، حيث كان الطقس أشد ضراوة من أن يسمح للمرء بأن يطل برأسه خارج داره.

على الرغم من ذلك فقد كافح أحدهم لشق طريقه من نيجو. مقنع الهوية إلى حد بعيد، وقد أغرقه المطر حد الابتلال الكامل. بدا دفق الشعور الدافىء من جانب جينجي نحو الرجل، الذي كان يمكن أن ينحيه بعيداً لو أنه قابله على الطريق، متسائلاً عما إذا كان بشراً حقاً، كأنما يقلل من شأن جينجي نفسه، وأوضح له مدى انخفاض روحه المعنوية.

كانت قد كتبت تقول: «ليس هناك توقف أبداً في هذه العاصفة المفزعة، وتبدو السماء نفسها كأنما أوصدت أبوابها في وجهي، حيث لا يمكنني حتى أن أحدِّق في الاتجاه الذي توجد به.

كيف لا بد أن الريح تهب حيث توجد عبر الشاطىء فيما التفكير فيك
يبعث أمواجاً لا تنتهي لتنكسر على كمّي المبللين» .

كانت رسالتها مفعمة بالتفاصيل الموجعة المحزنة. وما أن فتحها حتى بدا أن الظلام قد خيَّم عليه، وهدد الفيضان باقتحام الضفاف.

قال الرجل متعثراً في حديثه: «تتلقى المدينة بدورها هذه الريح وهذا المطر باعتبارهما

تحذيراً علوياً منذراً بالشر، وإني لأدرك أنه سيقام طقس الملك الكريم[1]، ذلك أن الشوارع لا سبيل إلى عبورها بالنسبة لكبار النبلاء وهم في طريقهم إلى القصر وأعمال الحكومة قد توقفت». أثارت الصورة التي رسمها والبعيدة عن الوضوح قلق جينجي، الذي استدعاه، وأخذ بطرح المزيد من الأسئلة عليه.

قال الرجل: «من الغريب والمخيف بما فيه الكفاية أنه، على امتداد أيام حتى الآن، لم يحدث انقطاع في المطر المنهمر، وأن الريح واصلت الهبوب عاصفة هوجاء، ولكننا لم يسقط علينا برد كهذا، كأنما ليخترق الأرض، ولم نعرف هذا الرعد الذي لا يتوقف». أفصح محياه وهو جالس هناك عن الفزع الخالص، فما ازدادت كآبتهم إلا عمقاً.

في فجر اليوم التالي، راح جينجي يتساءل إذا كانت الدنيا بسبيلها إلى الوصول لنهايتها، دمدمت عاصفة قوية، انداح المد، وبدا وسط هدير الأمواج الصاخب، كأن الصخور والتلال لن تبقى على حالها. تعالى الرعد، والتمع البرق بعنف بالغ، إلى حد أنهم خشوا أن تصيبهم صاعقة في أي وقت، ولم يبق أي منهم معتصماً بالهدوء. تأوهوا قائلين: «يا لقسوة التفكير في أنني قد أموت من دون أن أرى أبي أو أمي، من دون أن تقع عيناي على زوجتي وأطفالي الأعزاء!».

مع وجود رفاقه في مثل حالة الفزع هذه، استجمع جينجي شجاعته. وعلى الرغم من اقتناعه بأنه ما من شيء أتاه يقتضي منه أن يُنهي حياته على هذا الشاطىء، فقد أمر بتقدمة مؤلفة من خمس رايات متعددة الألوان[2] للآلهة، وتعهد بالعديد من التقدمات، منهمكاً في الصلاة في غمار قيامه بذلك: «آه، يا إله سوميوشي[3]، إن عالمك يضم كل هذه الأراضي القريبة. وإذا كنت إلهاً ماثلاً حقاً ها هنا بعيداً عن عليين، فإني أتوسل إليك أن تمنحني عونك!».

نسي رفاقه متاعبهم الخاصة، ليحزنوا في مرارة على أن مثل هذا السيد النبيل يواجه مثل

(1) نينو-إي، طقس بوذي مهيب يؤدى في القصر لحماية البلاد.
(2) قطع من الورق أو القماش في خمسة ألوان (الأخضر، الأصفر، الأحمر، الأبيض، الأسود).
(3) كانت عبادة سوميوشي قوية للغاية، على امتداد هذا الساحل. وكانت لسوميوشي، وهو راع لركوب البحر وللشعر، صلة قوية بالبيت الإمبراطوري.

هذا القدر الذي لا نظير له، واستجمع من لا يزالون مسيطرين إلى حد ما على مشاعرهم شجاعتهم، وتوسلوا للبوذات والآلهة أن تأخذ حياتهم لمولاهم: «نشأ في رحاب قصر إمبراطورنا، وانغمس في كل المباهج، ومع ذلك فقد مدَّ رحمته العميقة عبر أرجاء أرضنا ذات الثماني جزر[1]، ورفع إلى العلياء الكثير ممن كانوا يتعثرون! لقاء أي جريمة تبتلعه معجزة الماء والريح هذه الآن؟ آه، أيتها السماء والأرض، أرصدا مكمن العدالة! إنه إذ اتهم بلا إنصاف، جرد من رتبته ومنصبه، انتزع من داره ليضرب في الأرض بعيداً وليحزن على قدره فجراً وغسقاً تحت سماوات جهمة، فهل يلقى هذا المصير المشؤوم والآن يواجه نهايته ليكفر عن حيوات انقضت أم جرائم في هذه الحياة؟ آه، أيتها الآلهة، آه، أيتها البوذات، لئن كنت حكيمة، فإننا نضرع إليك أن تستجيبي لهذه، لصلاتنا المفعمة بالعذاب!».

التفت جينجي ناحية المزار[2]، وتعهد بالعديد من التقدمات، كما أمر بتقدمات كذلك للتنين ملك البحر وللآلهة الأخرى التي لا تحصى، وعندئذ ضاعفت السماء رعدها، وانقضت صاعقة على شرفة خارجية قبالة غرفه الخاصة، فاندلعت ألسنة اللهب، واحترقت الشرفة الخارجية، وأصاب الفزع الجميع، فذهلوا عما بين أيديهم. نقلوه إلى مبنى في الخلف، وكان يعتقد أنه المطبخ، حيث قبعوا جميعاً معاً على اختلاف مراتبهم منخرطين في البكاء والصياح لتعلوا أصواتهم على دوي الرعد. وانتهى اليوم تحت سماء في سواد الحبر المسحوق جيداً.

أخيراً هدأت الريح وتوقف المطر، ولاحت النجوم في السماء. وإذ حزنوا لرؤية جينجي مقيماً على هذا النحو الغريب، فقد نظروا في أمر نقله من جديد للدار الرئيسية. اعترض أحدهم: «إن بقايا الحريق بشعة على نحو فظيع، وهناك كل أنواع الناس ممن لا يزالون يسيرون على غير هدى، وبالإضافة إلى ذلك فإن كل الستائر الحاجبة قد أطاحت بها الريح بعيداً». وأضاف آخر: «ينبغي علينا الانتظار حتى الصباح».

بينما مضوا يتداولون في الأمر، فكَّر جينجي بما حدث، في غضون ذلك راح يضرع في

(1) اسم نبيل لليابان.

(2) مزار سوميوشي.

معاناة للبوذات. طلع القمر، وأوضح مؤشر المد المرتفع مدى اقتراب المد منهم على وجه الدقة. فتح بابه المتخذ من أغصان الأشجار، وتأمل الماء الذي كان لا يزال مضطرباً في عنف ومتراجعاً. في كل المنطقة المحيطة لم يكن هناك شخص حكيم واحد، وما من أحد منهم له صلة ألفة بالماضي والمستقبل، ويقدر على فهم هذه الأمور.

الآن تجمع أهل البحر المتواضعون حيث يقيم السيد النبيل، وعلى الرغم من غرابة رطانتهم، والتي وجدها عصية على الفهم، فإنه ما من أحد طردهم بعيداً. كانوا يقولون: «لو أن الريح استمرت أكثر من هذه، لابتلع المد كل شيء. لقد كانت الآلهة رحيمة».

بالنسبة لمشاعر جينجي، الذي كان يصغي إليهم، فإن «اليأس» كلمة شاحبة:

«لو أنني لم أحظ بالعون القدسي من تلك الآلهة العظيمة قاطنة البحر،

لكنت الآن تائهاً في رحابة المحيط»

كان شديد الإرهاق، بعد اضطراب العاصفة الذي لا ينتهي، إلى حد أنه غرق في النوم، من دون أن يقصد ذلك. بينما جلس هنالك مستنداً بجذعه، حيث لم تكن الغرفة مناسبة لرقاده، برز أمامه نيافته الراحل على نحو ما كان في حياته، أمسك بيده واجتذبه إليه، قائلاً: «ما الذي تفعله في هذا المكان الفظيع؟ هلم أبحر بعيداً عن هذا الساحل، حسبما يريدك إله سوميوشي أن تفعل».

ابتهج جينجي أشد الابتهاج، وقال: «منذ أن افترقت عن جلالتكم، عرفت الكثير من الأحزان، إنني ليسعدني أن أتخلص من حياتي على هذا الشاطىء».

«لا، ينبغي ألا تفعل ذلك. فكل هذا هو جزاء بسيط نابع من الكارما. وأنا نفسي لم أرتكب إساءة خلال عهدي، ولكنني أخطأت، على الرغم من ذلك. والتكفير عن تلك الخطايا يستغرقني الآن أشد الاستغراق بحيث أنني لم أكترث بالدنيا[1]، ولكن كان من المؤلم للغاية أن أراك في مثل هذه المعاناة. وقد غطست في البحر، وخرجت إلى الشاطىء، وعلى الرغم من تعبي، فإنني مسرع الآن إلى القصر لأحادث جلالته في الأمر».

---

(1) كان الإمبراطور دايجو (الذي يتوافق مع والد جينجي) مشهوراً بأنه قد عانى في الجحيم من جراء أعماله السيئة، التي شملت نفي سوجاوارا نو ميتشيزاني في 901. وقد رآه الراهب نيتشيزو هناك «مقعياً على قطع فحم متوهجة» في رؤية شهيرة سجلها نيتشيزو في 941.

ثم اختفى.

بكى جينجي، الذي لم يستطع احتمال مغادرته بكاء مراً، وصاح بأنه سيمضي معه، ولكنه عندما رفع ناظريه لم يكن ثمة أحد، وكل ما هنالك محيا القمر المنير. ولم يساوره الشعور بأن الأمر كان حلماً، لأن ذلك الطيف الرحيم بدا كأنه لا يزال معه، وفي غضون ذلك انسابت سحب جميلة عالياً عبر السماء. وكان قد تراءى له بوضوح بالغ ولوقت قصير المشهد الذي تاق له على مرِّ السنين، وكله افتقده دوماً، حتى في أحلامه، وبتلك الصورة العزيزة المتوهجة بالحيوية الآن في ذهنه، مضى يتأمل متعجباً كيف أن أباه قد مضى مسرعاً لينقذه من نكبة خطيرة ومن موت وشيك، إلى أن أصبح ممتناً للعاصفة، ففي ذلك الحضور الباقي أحس بثقة وبهجة لا حدود لهما. وبامتلاء فؤاده على هذا النحو نسي كل أحزان حياته الراهنة، وسواء أكان الأمر حلماً أم لم يكن كذلك، فقد أحس بأسى بالغ على أنه لم يرد على أبيه بشكل أفضل، إلى حد أنه أعد نفسه للنوم ثانية تحسباً لعودته، لكن الفجر أطل قبل أن يغمض له جفن.

كان رجلان أو ثلاثة رجال قد أرسوا مركباً صغيراً على الشاطىء، وراحوا الآن يقتربون من مقر المنفى. وسألهم رفاقه من عساهم يكونون، فقالوا: «جاء المترهبن والحاكم السابق إلى هنا قادماً من أكاشي. وسيكون ممتناً لرؤية مستشار ميناموتو الأصغر[1]، إذا كان موجوداً، ويمكن أن يفسر بعض الأمور».

لم يستطع يوشيكيو تصديق ما يجري: «عرفت المترهبن معرفة جيدة، عندما كنت في مقاطعته، وغالباً ما تجاذبت معه أطراف الحديث، على امتداد سنوات، ثم تباعدنا قليلاً، ولم نتبادل المراسلات منذ وقت بعيد. ترى ما الذي يمكن أن يكون قد جاء به في مثل هذا البحر العاصف».

تذكر جينجي حلمه، وقال: «اذهب وقابله!». وهكذا ذهب يوشيكيو للقاء المترهبن على متن مركبه. ولم يستطع تصور كيف أبحر الرجل سريعاً على هذا النحو في عاصفة عنيفة كهذه.

---

(1) يوشيكيو.

استهل المترهبن حديثه: «في حلم تراءى لي في أوائل هذا الشهر، أبلغني كيان غامض رسالة جليلة، وجدت من الصعب تصديقها، ولكنني عندئذ سمعت هذه الكلمات: «في اليوم الثالث عشر، سأعطيك إشارة أخرى، فأعد مركباً، وعندما يتوقف المطر، وتسكن الريح، أبحر إلى سوما!». وقد أعددت مركباً تحسباً للأحوال، ثم انتظرت إلى أن جعلتني الريح والمطر والرعد الضاري أخشى بما فيه الكفاية على مولاي إلى حد أنني قد التزمت الآن بالموعد المضروب، وجلبت إليه رسالتي، على الرغم من أنه قد لا يكترث بها، لأنه في الأراضي الأخرى كذلك غالباً ما أنقذ الإيمان بالأحلام البلاد. وتبعت ريح رهيبة مركبي عندما أبحرت، وأوضح وصولي مدى صدق حديث الإله، وإنني لأتساءل ما إذا كان سموه هنا أيضاً قد تلقى إشارة، وإني لأجرؤ على أن آمل أنك ستكون من الطيبة بما يكفي لإبلاغه بجلية الأمر.

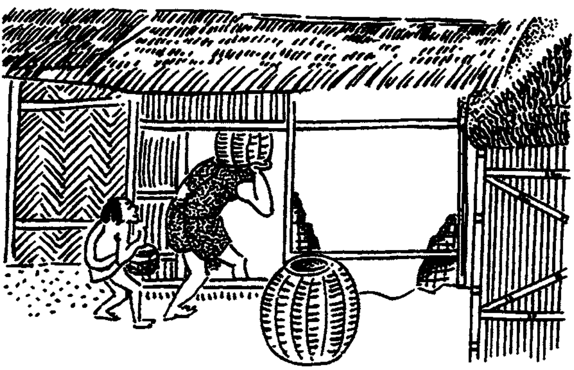
أبلغ يوشيكو في هدوء ما سمعه إلى جينجي، الذي أمعن النظر في الأمر. لم يشجعه أي من أحلامه أو حياة يقظته على الإذعان، وفي ضوء هذه التحذيرات الجلية تأمل ما مضى وما هو آت، راح يحدِّث نفسه: لست أرغب في التعرض للافتراء من جانب من سيتداولون قصتي، ولكنني إذا تجاهلت ما قد يكون حقاً عوناً إلهياً، فربما أصبح أضحوكة، وهو الأمر الذي يعد أسوأ كثيراً. والمرء يتجنب إغضاب الآلهة، ومن المؤكد أنه يتعين عليَّ أن أكون أكثر حذراً في الأمور الأهون شأناً كذلك، وأن أهتم بمن هم أكبر سناً مني، أو من هم أرفع مرتبة، أو يحظون باحترام يفوق ما أحظى به بصفة عامة. وكما أشار حكيم ذات مرة[1]، فلا لوم على من يستسلم للمقادير، والآن فحسب حاق بي خطر مميت، وشهدت الكوارث من كل الأنواع. لا، الأمر ليس مهماً، حتى وإن أساء إلى اسمي في نهاية المطاف. لقد وبخني أبي ومولاي، في النهاية، حتى في أحلامي. فهل بمقدوري أن أشك في الأمر أكثر من هذا؟

رد بهذا المعنى: «في هذه البرية، حيث أعد غريباً، قاسيت من كل المحن غير المألوفة، ومع ذلك فما من أحد جلب لي كلمات عزاء من المدينة. وقارب صيدك هو ملاذ آمن

(1) مصدر هذه العبارة الصينية غير واضح.

يلقى الترحيب[1]، عندما يكون صديقاي القديمان الوحيدان هنا هما الشمس والقمر في مسارهما عبر السماء! هل يمكن لشاطئك أن يقدم لي مكاناً هادئاً ألوذ به؟».

سُر المترهبن كثيراً، وأعرب عن شكره، قال رجال جينجي له: «على أية حال، يا مولاي، هلم إلى المركب قبل أن ينقضي النهار». وهذا هو ما قام به مع رفاقه الأربعة أو الخمسة المقربين. هبت الريح نفسها، وانطلق المركب مسرعاً طوال الطريق إلى أكاشي. ولم تستغرق مثل هذه الرحلة القصيرة إلا وقتاً محدوداً، ولكن المرء ما كان يستطيع إلا أن يتعجب من قوة الريح.



كوخ مسقوف بالقصب على الشاطئ

كان الساحل هناك استثنائياً حقاً، وكان عيبه الوحيد وجود ناس كثيرين. إلى جوار البحر أو وسط التلال، بدا للعيان على أرض المترهبن ههنا كوخ مسقوف بالقش على شاطىء البحر للاستمتاع بمشاهد من الفصول هناك، إلى جوار غدير يستدعي إلى الذهن الخواطر عن الحياة المقبلة. معبد ضيق لممارسة التأملات، ولاحتياجات هذه الحياة صفوف من مخازن الأرز مليئة بمحاصيل وفيرة من محصول الخزين تكفيه حتى نهاية عمره، وفي أماكن أخرى هناك كل ما يدخل على النفس السرور مما يوحي به الموقع والموسم. وكان قد نقل ابنته، أخيراً، إلى الدار الواقعة عند سفح التل، خوفاً من الأمواج الكاسحة، وكذلك لكي يتاح لجينجي أن يشعر بحرية الدارة المطلة على الشاطىء.

أشرقت الشمس على مهل، فيما كان جينجي ينتقل من المركب إلى عربة، وعند هذه اللمحة الأولى السريعة منه أحس المترهبن بقبضة الشيخوخة تنفك عنه والسنوات تمتد أمامه، فانحنى في التو لإله سوميوشي، وقد ارتسمت الابتسامات على شفتيه. بدا له سنا الشمس والقمر الآن ملك يمينه، فلا عجب أن أسرف أشد الإسراف في رعاية ضيفه.

(1) جوسينشو 1224، كي نو تسورايوكي: «لمن هو مبتل بفعل الأمواج، فإن قارب الصيد يقدم ملاذاً يرحب به».

كان موقع الدار، بالطبع، أسلوبها أيضاً، ومشهد أجمات الأشجار، الأحجار القائمة، الحديقة القريبة، الغدير الجميل، كل ذلك من شأنه أن يقتضي عبقرية استثنائية لإنصافه في لوحة.

كان هذا مكاناً أكثر تألقاً وترحيباً بكثير من ذلك الذي أمضى فيه جينجي الشهور الماضية. وكانت قطع الأثاث رائعة، وقد أقام المترهبن حقاً كأقوى النبلاء الكبار في المدينة. وفي حقيقة الأمر، أن نمط حياته قد فاق نمط حياتهم في الفخامة والتألق.

نال جينجي قسطاً من الراحة، ثم كتب إلى المدينة. كان المبعوث القادم من الدار لا يزال في سوما، ينوح على ألوان البؤس، التي كان قد خاض غمارها في رحلته الشاقة، فاستدعاه جينجي، وحمَّله بهدايا تتجاوز مكانته. وربما بعث بصورة مفصَّلة للأحداث الأخيرة لرهبان يتميزون بالبراعة في التشفع ولآخرين كثيرين كذلك. وبعث إلى نيافتها المنعزلة وحدها بوصف لنجاته من الموت بمعجزة.

كانت الرسالة المؤثرة بصورة عميقة الواردة من نيجو أكثر تأثيراً بالنسبة إليه من أن يرد عليها، وأفصحت الطريقة التي أبعد بها فرشاته مراراً عن إحساسه العميق. كتب يقول: «بعد أن نجوت من قائمة طويلة من الفظائع، فإنني أريد الآن أكثر من أي وقت مضى أن أضع هذه الدنيا وراء ظهري، ولكن المحيا الذي تحدَّثت عن رؤيته في المرآة ماثل أمامي دوماً، والخوف من أن هذا القلق قد يكون هو كل ما سأحظى به منك ينحي كل المتاعب الأخرى من ذهني.

كم يحلق شوقي طائراً، عبر أي آماد جديدة، الآن وقد انتقلت
بعيداً على امتداد ذلك الشاطىء الآخر إلى شاطىء لم أعرفه قط!

هذا كله يجعلني أحس بأنني في حلم، وطالما أنني لم أستيقظ منه، فإنني أتساءل أي هراء قد أتحدَّث به». كانت الارتحالات المطولة المفعمة بالمتاعب الجلية حقاً في كتابته هي على وجه الدقة ما جعلتها جديرة بنظرة مختلسة، ونظر إليها رفاقه على أنها برهان على إخلاصه الفائق. ولا شك أن كلاً منهم كانت لديه رسالته التعيسة التي يتعين عليه أن يبعث بها إلى الدار.

باتت السماء التي سبق لها أن أمطرت مدراراً الآن زرقة تامة، وبدا أهل البحر عاكفين على الصيد بروح معنوية عالية. وقد كانت سوما، حيث لم يكن هناك مأوى صياد في أي مكان قبالة الصخور، كئيبة للغاية، وبينما كره جينجي وجود الكثير جداً من الناس هنا، فإن هذه البقعة أتاحت جمالاً بالغ الروعة إلى حد أنه أحس بأنه في حال أفضل كثيراً.

بحسب كل مظاهره فإن مترهبن أكاشي كان مخلصاً أشد الإخلاص لعبادته، غير أنه كان لديه مصدر قلق واحد خطير، ابنته الوحيدة، التي كانت ترد في حديثه بانتظام يبعث على الأسى، عندما يكون مع جينجي. وكان جينجي قد لاحظ بالفعل وجودها باهتمام، وأدرك أن وجوده الذي لم يكن محتملاً ولا متوقعاً هنا قد يشير إلى رابطة مصيرية بينهما، ولكنه لم يقصد إلا التزام الورع بينما لا يزال العار يجلله، وقد خجل للغاية من تصور حبيبته في المدينة تتهمه بنكث الوعود، إلى حد أنه لم يفصح عن مثل هذه الخاطرة المضيفة. ولم يحل ذلك دون أن يتصور عرضاً وبصورة مفعمة بالحيوية تميز شخصها ومظهرها.

نادراً ما زار المترهبن جينجي، خشية من أن يفرض نفسه عليه، وأصرَّ على وجوده في مبنى خارجي على مسافة ما. وعلى الرغم من ذلك فإن أمنيته الوحيدة كانت أن يلازم جينجي من الصباح إلى المساء، وضاعف صلواته مجدداً للبوذات والآلهة كي تحقق له رغبته على نحو ما. وعلى الرغم من أنه في الستين من عمره، إلا أنه كان لا يزال رجلاً وجيه المظهر، ناحلاً على نحو لطيف، من جراء ممارسته للعبادة والزهد، لطيف المزاج، وربما لهذا السبب فإن خصاله القيمة، وكذلك معرفته بأساليب الماضي، قد سببت بما فيه الكفاية غموضه وغرابة أطواره، بحيث أن الحديث معه ساعد جينجي على التخفيف من ضجره.

راح شيئاً فشيئاً يتحف جينجي بحكايات من غابر الأيام، وهي حكايات لم يسبق لجينجي أن سمعها من قبل حقاً، حيث انشغل بشؤون البلاط، إلى أن وصل جينجي إلى الشعور بما يكفي في بعض الأحيان بالخجل من أنه لم يجيء من قبل ويلتق هذا الرجل. غير أنه على الرغم من حديث المترهبن الذي يواتيه في يسر، فقد كان أكثر خجلاً من أن يبادر، على نحو ما تاق للقيام به، إلى طرح ما في ذهنه. وبكثير من التنهدات أبلغ أم ابنته بمصدر قلقه وخيبة أمله.

أما فيما يتعلق بالسيدة الشابة نفسها، فإن مرأى جينجي في هذه الصحراء، حيث ما

مـن أحـد مهما كان عادياً بـدا مقبول المظهر علـى الأقل، علَّمها أخيـراً أن مثل هذا الرجل يمكن أن يكون له وجود، وأوضح لها بجلاء أين تقف هي نفسها، حيث نظرت إليه باعتباره متجاوزاً بكثير لقدرها. وعندما علمت بخطط أبويها التي يعدانها لها، بدت لها هذه الخطط منافية للعقل، وأحست بالعزلة أكثر من أي وقت آخر.

أقبل الشـهر الرابع، وحصل جينجي على ملابس رائعة وستائر للفراش تناسب الموسم الجديـد، وأثرت فيه لمسـات الاهتمام هـذه التي لا تتوقف، وأحرجتـه، ولكن مضيفه كان نبيلاً ومجاملاً بصورة جلية للغاية بحيث أنه ترك الأمر يمضي.

وصل دفق مستمر من الرسائل من المدينة. وذات مساء هادىء، وبينما القمر لا يزال في السـماء، والبحر الرحب كله ممتد أمامه، رأى بعيني الخيال البحيرة في حديقته، حيث كان يمكـث دوماً في داره، وجزيرة أواجي تطـل في البعيد، فبدا له حنين لا يوصف ملء الدنيا. فغمغم: «يا للحسرة، كم هو بعيد..»[1].

«آه يا له من مشهد عظيم! جزيرة أواجي تستدعي

كل ظل من الجمال والأسى الليلة تحت هذا القمر المتألق»[2].

أخرج آلة الكين الموسـيقية، التي لم يكن قد لمسها منذ وقت طويل من كيسها، وعزف القليل من الموسـيقى علـى أوتارها، بينما طغى الانفعال على نفـوس من كانوا يرقبونه في حزن. وبلغ أداؤه المفعم عاطفة والمتمكن لـ«كوريو» تلك الدار عند سفح التل عبر وشوشة أشجار الصنوبر وهدير الأمواج، الأمر الذي لا شك أنه قد أبهج الشابات المتألقات هناك. هنا وهناك وجد العجائز المتمتمون، الذين لا يستطيعون التفريق بين نغمة وأخرى، أنفسهم يجوبون الشاطىء في تحد للريح، فتخلى المترهبن في عجز عن صلواته، وأسرع إلى جوار جينجي.

قال من فرط البهجة: «أحسـب أن العالم الذي تركته ورائي سـوف يستقطبني، في نهاية المطاف. فلم أسـتطع الليلة منع نفسـي من رؤية الأرض التي أصلـي عليها وهي تبعث من

(1) شينكوكينشو 1515، من نظم أوشيكوتشي نو ميتسوني: «القمر الذي يبدو على أواجي، يا للحسرة، بعيداً للغاية الليلة ولا بد أنه الموقع ـ جد قريب». «الموقع» المراد به المدينة، التي ارتبطت في الأذهان بالقمر.
(2) قصيدة جينجي تومىء إلى قصيدة ميتسوني أعلاه وتكرر ثلاث مرات مقطع أوا من أواجي.

جديد». وجد جينجي ذهنه يعود إلى الوراء نحو الموسيقى في هذه المناسبة أو تلك، كوتو أحدهم، ناي آخر، صوت يعلو بالغناء، إلى المديح الذي غالباً ما تلقاه، وإلى الطريقة التي تم تفضيله بها والتي أُقيمت له بها الولائم من قبل الجميع، وبصفة خاصة من قبل جلالته ذاته وإلى الناس الذين تذكرهم وإلى حظوظه آنذاك. وبدا الحاضر شبيهاً للغاية بالحلم إلى حد أن الأوتار فيما كان يمسها ترددت أنغامها عالية على نحو غريب.

لم يستطع المترهبن إيقاف دموع الشيخوخة، وبعد أن بعث إلى الدار عند سفح التل في طلب بيوا وسونوكوتو، أصبح مغنياً عزفاً على البيوا[1]، وعزف مقطوعة أو مقطوعتين نادرتين وجميلتين. وعندما ألح الجميع على جينجي، عزف على السو نو كوتو قليلاً، تاركاً مضيفه مذهولاً بإنجازاته. وحتى الآلة الكئيبة تماماً قد يتردد صوتها رائعاً في زمانها، وهذه النغمات تتردد عبر البحر، فيما أعماق الظل المورق هنا وهناك تتجاوز في الجمال براعم الربيع أو ألوان الخريف، وقرقرات دجاجة الماء تستدعي التصورات المثيرة للاضطراب لـ«البوابة المفضلة الليلة»[2].

أبهجت الموسيقى الرقيقة التي عزفها المترهبن على آلات موسيقية بالغة الروعة في أنغامها جينجي. أشار في غمار الحديث بقوله: «على هذه الآلة[3] تتردد الموسيقى العابرة لامرأة جذابة بهيجة للغاية». وعلى هذه الملاحظة رد مضيفه بابتسامة غريبة: «أين يجد المرء عازفاً أكثر جاذبية من عزفك؟ بالنسبة لي، فإن مهارتي تضرب جذورها في الجيل الثالث من جلالته إنجي[4]، ولما كنت ممن لا رجاء منهم على هذا النحو وعاجزاً حقاً عن نسيان الدنيا، فإنني ألوذ بها عندما أغوص عميقاً في المتاعب. وأسلوبها يعيد للذاكرة سموه الذي علمني، ما لم تكن أذناي البائستان قد أساءتا سماع تنهد الريح بين أشجار الصنوبر. وإني لأتمنى أن يكون بمقدوري أن أرتب في حرص سماعك لعزفها». كان

---

(1) بيوا هوشي، موسيقى جوال في أردية بوذية يغني بمصاحبة موسيقى البيوا التي يعزفها.

(2) صيحة الكوينا نوع من (دجاجة السبخة أو طائر التِّفلق المائي) تتردد شبيهة بطرق أحدهم بخفة على بوابة، وربما ينصرف ذهن المستمع إلى شاب يزور محبوبته خلسة. وتورد الشروحات الأولى لهذه العبارة قصيدة كانت ستغدو مجهولة لولا ذلك (جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوسو إينو واكا 120).

(3) آلة سونو كوتو، والتي كان المترهبن يعزف عليها لتوه.

(4) الإمبراطور دايجو الذي يشمل عهده (897 - 930) مرحلة إنجي. (901 - 923) ومن هنا فلا بد أن المترهبن قد تعلم من أحد أبناء دايجو.

يرتجف، وبدا على حافة البكاء.



عازف البيوا

قال جينجي، مبعداً الآلة الموسيقية عنه: «بالنسبة لك إذاً، فإن آلة الكوتو الخاصة بي يمكن ألا تكون شيئاً[1].. لقد ارتكبت غلطة كبرى. وبشكل ما فإن آلة السونو كوتو تبدو دوماً كأنما كانت آلة موسيقية للنساء على نحو من الأنحاء. وفي عرف الإمبراطور ساجا[2] فقد كانت أميرته الخامسة هي التي برزت في عصرها، على الرغم من أن أحداً لم يمض قدماً بطريقتها. والناس الذين يتمتعون ببعض الشهرة اليوم لا يعزفون إلا بصورة عابرة، للترفيه عن أنفسهم، وأنا مسرور لأن شخصاً محتجباً ههنا قد أبقى على هذه الطريقة متدفقة بالحياة. ولكن كيف يمكنني سماعها؟».

«لست أرى سبباً يمنعك من سماعها، بل يمكنك أن تستدعيها لتعزف لك. في نهاية المطاف، حتى بين التجار استمع أحدهم ذات مرة للموسيقى القديمة بسرور[3]. وفي معرض الحديث عن آلات البيوا، فإن قلائل في الأيام الغابرة هم الذين أفلحوا في استخلاص صوتها الحقيقي، لكنها تعزف عليها بصورة جميلة للغاية، ولا ترتكب أخطاء في عزفها. وإني لأتساءل كيف تقوم بذلك. ويؤسفني سماع موسيقاها وسط تلاطم الأمواج الهائلة. ولكن في ضوء كل الأحزان التي يتعين على المرء احتمالها، فإن هذه الموسيقى غالباً ما تكون عزاءً عظيماً». أدخلت فطنته البهجة على نفس جينجي الذي أعطاه السو نو

(1) يشير المترهبن، فيما يبدو، بالقول: «ما لم تكن أذناي البائستان قد أساءتا سماع..» إلى قصيدة وردت في مبكر (لم تدرج في جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو إينو واكا): «هو الذي اعتادت أذناه، لأنه يقيم في الجبال، على سماع الريح في أشجار الصنوبر، لا يتعرف [موسيقى] آلة كوتو باعتبارها [موسيقى] آلة كوتو». والمترهبن يدعو نفسه في تواضع بأنه ريفي لا أمل يرجى منه. وجينجي يحمل قوله، بمزيد من التواضع المفعم بالتقدير، على أنه يعني أنه صوت آلة كوتو لا يعني شيئاً بالنسبة له لأنه معتاد على موسيقى الطبيعة الأرفع شأناً.

(2) حكم خلال السنوات 809. 823.

(3) وصف المنفي باي جويي في قصيدة له (هاكوشي مونجو 6030) الاستماع إلى امرأة تعزف على آلة البيوا في إحدى الليالي على متن قارب راس في نهر. وقد كانت من محظيات بلاط العاصمة في السابق ثم تزوجت من أحد تجار الأقاليم.

كوتو، واسترد البيوا.

عزف المترهبن على البيوا بصورة فائقة الجودة حقاً. وكان أسلوبه من الأساليب التي لم تعد تتردد في الأسماع، وكان تحكمه في الأوتار بالأصابع غريباً تماماً[1]. والرعشة التي يعطيها للأوتار تعطي نغمات عميقة صافية، وعلى الرغم من أن البحر قبالة آيسي كان بعيداً للغاية، فإن جينجي جعل أحد رجاله والذي يتمتع بصوت جميل يغني: «هلموا الآن جميعاً لجمع الأصداف على الشاطىء البكر!»[2]. وغالباً ما حمل «المصفقات»، وشارك في الغناء بنفسه، بينما نحّى المترهبن أصابعه عن الأوتار، وأشاد به. ودعا بأغرب أنواع المقبلات التي تقدم، وألح على ضيوفه لاحتساء الخمر، وسرعان ما غدت الليلة إحدى الليالي التي تُنفى فيها بعيداً كل الهموم.

تأخر الوقت. وكان نسيم البحر قد أصبح بارداً، وتألق القمر الموغل في مسيرته بضياء خالص. وعندما عمَّ الهدوء كل شيء، صب المترهبن حكاياته على مسامع جينجي، وشيئاً فشيئاً راح يصف خططه عندما انتقل أول الأمر إلى هذا الشاطىء، وتكريسه نفسه للعبادة بانتظار الحياة الأخرى، وعندما خلع القناع عن كل شيء، تطرق إلى ابنته نفسها. وعلى الرغم من أن ذلك بدا طريفاً لجينجي، فإنه غالباً ما تأثر كذلك.

واصل مضيفه الحديث: «إذا استطعت أن أسمح لنفسي بأن أقول ذلك، يا مولاي، فإنني أعتقد أن إقامتك القصيرة في أرض غريبة للغاية بالنسبة لك قد تكون ابتلاء تقصدته الآلهة والبوذات في معرض استجابتها الرحيمة لسنوات من الصلاة من قبل راهب عجوز. إنني أقول هذا لأنني على امتداد ثمانية عشر عاماً حتى الآن وثقت بإله سوميوشي، فقد ضممت جوانحي على طموحات معينة لابنتي منذ كانت صغيرة، ونحن نمضي مرتين في العام، في الربيع والخريف، في زيارة روحية لمزاره. وبعيداً عن صلواتي الخاصة من أجل الميلاد على زهرة اللوتس[3]، فإنني في كل ابتهالاتي على امتداد ساعات الليل والنهار لا أتوسل إلا من أجل تحقيق أهدافي السامية فيما يتعلق بها. ولا بد أنه جزاء لخطايا في حيوات سابقة

---

(1) آلة البيوا حافلة بذكريات القارة، وقد جاءت أصلاً من بلاد فارس.

(2) من «بحر آيسي» («آيسي نو أومى»)، وهي أغنية سايبارا.

(3) في الفردوس.

أنني أصبحت، كما ترى، ريفياً جبلياً لا يُرجى منه أمل. ولكن أبي شغل منصب الوزارة. نعم، وأنا نفسي أنتمي الآن إلى الريف، وأتساءل في حزن أي حياة تنتظر من سيجيؤون بعدي إذا قضينا على هذا المستوى المتواضع. ولكنني علقت أملاً منذ أن ولدت، فإني أريد أن يتزوجها نبيل عظيم من المدينة، وهذه الرغبة بالغة العمق إلى حد أنني قد أثرت أعداء كثيرين، وعانيت الكثير من الأسى بسبب المظاهر التي أحرص عليها. غير أنه ما من شيء من ذلك كله له أهمية بالنسبة لي. وأنا أحدِّثها بقولي: طالما بقيت على قيد الحياة، فسوف أبذل قصارى جهدي للعناية بك. أما إذا رحلت بينما لا تزالين على ما أنت عليه، فأغرقي نفسك إذن وسط الأمواج». ووسط نوبات متتابعة من البكاء، حدَّث جينجي بهذا وبالكثير غيره مما يتحدى إمكانية تقديم صورة كاملة له.

كان هذا وقتاً حافلاً بالمتاعب بالنسبة لجينجي، وقد أصغى دامع العينين لما يقال: «كنت أتساءل بأي جريمة اتهمت زوراً وأدنت لأضرب ضائعاً في أرض غريبة، ولكن كل ذلك الذي قلته الليلة يتركني على يقين، ويمكنني القول إنه يدعني متأثراً لأن هذه حقاً هي رابطة تنتمي إلى حياة من ماض عبر، وتتسم بالقوة. لماذا لم تبلغني بما رأيته بهذا الوضوح البالغ، لقد ضقت ذرعاً بالحياة الخؤون منذ خلفت المدينة ورائي، وإذ لم تعد تشغلني إلا ابتهالاتي شهوراً وأياماً، فإن روحي المعنوية قد انخفضت أشد الانخفاض. وقد حدَّثتني الشائعات البعيدة عن مثل هذه السيدة، ولكنني افترضت حزيناً أنها ستحجم عن ذلك، غير أنني الآن أدرك أنك ترغب في اصطحابي إليها. وسيصحبني سلوانها خلال هذه الليالي المفعمة بالوحدة.

استخف الطرب بالمترهبن، فقال:

«أتعرف كذلك ما الذي يعنيه الرقاد وحيداً؟ فكِّر، إذاً، في شعورها

وهي مسهدة عبر الليالي الطويلة الممتدة وحيدة على هذا الشاطىء![1]

وتصور لطفاً قلقي طوال كل هذه السنين!». وعلى الرغم من ارتجافه فإنه لم يفتقر إلى الكبرياء.

---

(1) تحقق القصيدة تلاعباً فيما يتعلق بـ«أكاشي»، اسم المكان و«الاستيقاظ خلال الليل».

«لكنها يقيناً معتادة على الشاطىء.

ما أشد ما يرهق الترحال عبر الكآبة الممتدة لليالي المسهدة

التي تمنع وسادة العشب حتى من لملمة الأحلام!»[1]

هـذا السـلوك العفوي من جانـب جينجي منحه فتنـة بالغة التأثير، وأضفـى عليه جمالاً يستعصي على الوصف.

واصل المترهبن الحديث عن أمور شتى، ولكن لا عليك من ذلك. بعد أن أخطأت في تبين القصد مما كتبته، فلا بد أنني جعلته يبدو أكثر غرابة وحماقة مما هو عليه بالفعل. وقد أحس بالارتياح إلى حد كبير لرؤية آماله في سبيلها إلى أن تعطي ثمارها.

فـي غضون ذلك، وقرابة ظهر اليوم التالي، بعث جينجي برسـالة إلى الدار الواقعة على سـفح التل. كان يدرك بحس مرهف أن السـيدة بمعاييرها التي اشـتهرت بأنها مثبطة للهمة قد تكون شـيئاً نادراً على نحو مذهل في هذه البرية التي يسـودها الجهل، وقد كتب رسالته بصورة جميلة للغاية على ورق كوري أسمر ضارب للصفرة:

«محدِّقاً في حزن في السماء المجهولة تماماً حتى أن القريب والبعيد يندمجان،

عبر السدم أسعى إلى الأشجار التي تعلو ملاذك الرائع

قلبـي المفعـم بالحنيـن..»[2] ربما كان ذلك هـو كل ما هنـاك. وكان المترهبن، بالطبع، هناك بالفعل، ينتظر بلهفة، وأمطر مبعوث جينجي بمقادير مدهشة من الخمر.

عندما استغرقت ابنته وقتاً طويلاً في الرد، مضى إليها ليحثها على إنجازه، لكنها رفضت الاكتراث به. فقد أذهلتها رسالة جينجي الخطية إلى حد أنها أحجمت عن كشف نفسها له، وجعلتها خواطر حافلة بالعذاب عن وضعه ووضعها في حالة سيئة للغاية، بحيث اضطرت للرقاد. وبادر أبوها، الذي بذل قصارى جهده، إلى كتابة الرسالة بنفسه.

«يا للحسـرة، لقد برهنت رسـالتك بالغة الرقة على أنها مؤثرة تماماً بالنسـبة لمن تنتمي

---

(1) تحقق هذه القصيدة تلاعباً على أكاشي وكذلك على الكلمات المرتبطة بالملابس. و«وسادة العشب» صورة مألوفة للسفر، بينما «الحلم» يومىء إلى الاتحاد الجنسي.

(2) كوكينشو 503: «تغلب عليَّ أخيراً قلبي المفعم بالحنين، على الرغم من أنني أقسمت ألا أظهر حبي».

بعمـق إلـى الريف. وهي مندهشـة للغاية بحيـث تعجز عن قراءتها. وعلـى الرغم من ذلك فإنني أعتقد:

أن استقرار نظرتك المحدِّقة، شأن نظرتها، على هذه السماوات نفسها التي طالما رأتها

يعني يقيناً أنكما متوحدان أيضاً في فؤاديكما .

لكنني ربما كنت تواقاً للغاية..». كتب هذه الرسـالة على ورق ميتشـينوكوني، بأسلوب عتيق الطراز، لكنه لا يفتقر إلى التألق والرشاقة. راح جينجي يحدِّث نفسه وقد صدم قليلاً: تواق؟ نعم، وابتهج مبعوثه بالهدية التي قدمت إليه، وهي رداء نسائي رائع.

كتـب فـي اليـوم التالي يقول: لسـت أعرف شـيئاً عـن مراسـيم تصدر من خـلال أمين سر[1].

«آه، على أي نحو قاسٍ يُطلب مني أن أعاني في سويداء قلبي

فليس هناك من يسألني: ما هو شعورك؟

الكلمـات لن تنبعث..»[2]. كان قد جعل خطه جميلاً جداً. وإذا لم يكن قد أثر فيها، فلا بـد أنهـا وهي الشـابة التي لا تزال في مقتبـل العمر كانت خجولاً للغاية. أمـا إذا كان قد أثر فيها، فلا شك في أنها لا تزال يائسة عندما تقارن بين نفسها وبينه، بحيث أن مجرد ملاحظته لها بما يكفي للتودد إليها، لم تجعلها إلا راغبة في البكاء. ومن هنا فقد ظلت بلا تأثر إلى أن كتبـت، أخيـراً، بناء على إلحاح أبيها اليائس، على ورق أرجواني كثيف العطر، وبحبر يبدو أسود حيناً، وشاحباً حتى ليوشك على الاختفاء حيناً آخر:

«رغبة فؤادك الحقة، اسمعني أسألك عن درجتها وما هو شعورك

هل يمكنك أن تعاني كما تقول من أجل من لا تعرفها؟» .

كان الخط والمقولة جديرين بأعظم سيدة في البلاد.

ذكَّـره هـذا كله على نحو بهيـج بالحياة في المدينـة، لكنه لم يكن يليق بـه أن يكتب في

---

(1) مراسيم يصيغها أمين سر بتوجيه من الإمبراطور، ومن هنا فإن الردود يكتبها شخص آخر.

(2) من قصيدة وردت في شرح مبكر، منسوبة إلى الإمبراطور إتشيجو، «يؤلمني قلبي، فالكلمات لن تنبعث، لتبلغ من لم أره قط بأنني عاشق».

أوقات متقاربة أكثر مما ينبغي، ومن هنا فإنه كل يومين أو ثلاثة أيام كان يتعلل بمساء مضن أو بفجر جميل (لحظات يحتمل أن تعجبها بدورها) وسرعان ما خلص ـ بما أنها أبعد ما تكون عن عدم الجدارة بالمراسلة ـ إلى أنه لا يرغب في أن تفوته معرفة إنسانة ذات كبرياء متأصلة للغاية على هذا النحو، ومع ذلك فإن حديث يوشيكيو الاستحواذي عنها ضايقه، ولم يحب القضاء على سنوات من الأمل أمام عينيّ الرجل. وبعد بعض التأمل، قرر أنه لن يمضي قدماً إلا عندما تتقدم نحوه. يا للحسرة، فهي التي تتجاوز كبرياؤها كبرياء أعظم السيدات ظلت متحفظة للغاية على نحو يدفع إلى الجنون، بحيث أمضيا أيامهما في سباق إرادات.

الآن وقد فصل الممر[1] بينه وبين المدينة البعيدة، فقد تزايد قلقه على حبيبته هناك، وراح يتساءل عما يتعين عليه حقاً القيام به. كان عدم حصوله عليها حقاً أمراً بعيداً عن الدعابة[2]. هل ينبغي أن يجعلها تأتي إليه سراً؟ راوح في تصميمه بين الحين والآخر، ولكنه حدَّث نفسه بأنه لن يظل هناك إلى الأبد، وأنه على أي حال لن يبدو الأمر جيداً إذا بقي طويلاً.

في ذلك العام، كانت هناك نذر نحس متوالية وقلاقل متكررة في القصر. وفي الليلة الثالثة عشر من الشهر الثالث، وهي الليلة التي التمع فيها البرق، وعلا زفيف الريح. وحلم جلالته بأن نيافته الراحل قد وقف أسفل درج القصر، محدِّقاً فيه على نحو مهلك، بينما تراجع هو نفسه أمامه، وقد استبد به الفزع. وقد كان لدى نيافته الكثير مما يريد قوله، ولا شك في أنه قد تحدَّث عن جينجي. وقد وصف جلالته حلمه في خوف وحزن للإمبراطورة الأم. فقالت: «المرء يتخيل كل أنواع الأمور في ليلة ينهمر خلالها المطر مدراراً وترعد السماوات. وينبغي عليك ألا تسمح للحلم بإثارة قلقك على نحو غير ملائم».

الآن ألم طارىء بعينيَّ جلالته، ربما لأنه تلقى نظرة أبيه المحدقة الغاضبة. وقد عانى على نحو لا يطاق. وصدر الأمر بالكفارات من كل الأنواع، في كل من القصر ودار الإمبراطورة الأم.

---

(1) سيكي (الممر، الحاجز) الوارد ذكره في قصيدة يوكيهيرا عن الريح، ومن هنا فإنه مرتبط شعرياً بسوما وأقليمها. ليس هناك شيء معروف عنه.

(2) كوكينشو 1025: «عندما لا أمضي لرؤيتها، لمجرد تبين ما إذا كان الأمر صحيحاً، فإنني أتوق إليها أشد التوق بحيث لا يغدو الأمر دعابة».

مات المستشار[1]، وقد كان ذلك أمراً طبيعياً بما فيه الكفاية في ضوء عمره، ولكن في معرض الإضافة إلى هذه السلاسل المتتابعة من الأزمات ألمت علة غامضة بالإمبراطورة الأم نفسها، وازداد ضعفها بمرور الوقت. وهكذا حلت أحزان متباينة بالبلاط.

غالباً ما كان جلالته يشير بقوله: «على الرغم من ذلك، فإني أحسب أن عقوبة ستنزل بنا، إذا كان جينجي قد جُلل بالعار فيما هو بريء فعلاً. إنني أميل إلى إعادته لمناصبه».

تصر الإمبراطورة الأم على الرد بضراوة قائلة: «لن تحظى بأي احترام من خلال القيام بذلك. ما الذي سيقوله الناس إذا قمت، حتى قبل مرور سنوات، بالعفو عن رجل دفعته إساءاته إلى التعرض لعقوبة النفي؟».

مرت الأيام والشهور، فيما جلالته على تردده، وفي غضون ذلك تفاقمت حالته وحالة الإمبراطورة الأم كلاهما.

في أكاشي، كان هناك جديد في رياح الخريف، كما هي الحال على الدوام. ووجد جينجي الرقاد وحيداً شيئاً بالغ الفظاعة، إلى حد أنه بين الحين والآخر بادر بالاتصال بمضيفه، والقول: «عليك بإيجاد مبرر أو آخر لإحضارها إلى هنا». حيث أنه لم يشعر بأن في مقدوره أن يذهب إليها، وهي نفسها لم تبد أية إشارة تشجعه على القيام بذلك. وكانت قد سمعت بأن الفتيات الريفيات البائسات هن اللواتي يستسلمن بحماقة على هذا النحو للحديث الحافل بالتملق من جانب سيد مهذب غادر المدينة لوقت قصير. وحدَّثت نفسها بأنه لا يحتمل أنه يكن احتراماً لها، وكل ما هنالك أنني سأثقل كاهلي بالحزن. أحسب أنني طالما ظللت بلا زواج، فإن أبويَّ، بطموحاتهما المستحيلة المتعلقة بي، سيظلان متعلقين على نحو محب بتصورات خيالية لمستقبلي، ولكنني أنا نفسي سأعاني من أجلهما. لا، يكفي تماماً بالنسبة لي أن أراسله على هذا النحو خلال وجوده على هذا الشاطىء. بعد سنوات من الاستماع لشائعات عنه، لم تتوقع قط أدنى لمحة من أي شخص مثله حيث تقيم بالفعل، ولكنها لمحته بالفعل، وسمعت على جناحي الريح موسيقى آلة الكوتو التي يعزف عليها، والتي يُقال إنها رائعة، وعرفت الكثير عن الكيفية التي يقضي بها وقته، وفكرت أنه

(1) وزير الميمنة السابق، جد الإمبراطور.

يكلف نفسه عناء ملاحظتها بما يكفي للتودد إليها أكثر مما ينبغي بالنسبة لإنسانة تبددت حياتها وسط أهل البحر على هذه الشاكلة. تلك كانت خواطرها، وكلما زاد شعورها بالحرج، قلت قدرتها حتى على التفكير في السماح له بالاقتراب منها.

شرع أبواها، اللذان رأيا صلاتهما التي استمرت طويلاً تقترب من إعطاء ثمارها، يتخيلان في قلق الحزن الذي سيعقب ذلك، الآن، وقد أعطياه في اندفاع ابنتهما، لو أنه قُدِّر له أن يسخر منها، فمهما كان نبيلاً عظيماً، فإن ذلك سيكون ضربة مريرة. نعم راحا يضطربان بصورة مستمرة: لقد وثقنا في البوذات والآلهة الخفية، في غمار جهلنا بمشاعره وبكارما ابنتنا[1].

غالباً ما كان جينجي يقول: «إنني أتوق كثيراً لسماع موسيقاها، في غمار هدير الأمواج التي تدافعت أخيراً، وسيكون أمراً مؤسفاً للغاية إذا لم أستطع تحقيق ذلك».

اختار المترهبن، في هدوء، يوماً مبشراً بالخير، وتجاهل احتجاجات أمها المتعددة، وحمل كل شيء على كاهله من دون أن يحدِّث مساعديه بالأمر، وقام بتجميل غرفتها إلى أن تألقت، وما إن طلع القمر الذي يوشك أن يكون بدراً[2]، حتى أشار إلى ضيفه قائلاً: «في مثل هذه الليلة الجميلة..»[3].

حدَّث جينجي نفسه قائلاً: إنك وغد. ألست كذلك؟، ولكنه ارتدى عباءة، واعتنى بهندامه، وانطلق خارجاً في ساعة متأخرة للغاية من الليل. كانت عربته معدة على نحو رائع، لكن ذلك بدا أمراً فيه قليل من التجاوز، وبدلاً من ذلك انطلق على صهوة جواد. ولم يصحب معه إلا كوريميتسو ورجلاً أو رجلين آخرين. وكانت مسيرة طويلة، وأطل من الطريق على امتداد الشاطىء المترامي. واستدعى القمر المطل من بحر أثير لدى عشاق الجمال[4] ذكرى السيدة التي افتقدها فحسب، إلى أن أحس كأنه سيواصل المسير ويمضي

(1) الكارما الذي سيحدد زوجها من حيث المبدأ.

(2) قمر الليلة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، قبل ليلتين أو ثلاث من اكتماله بدراً.

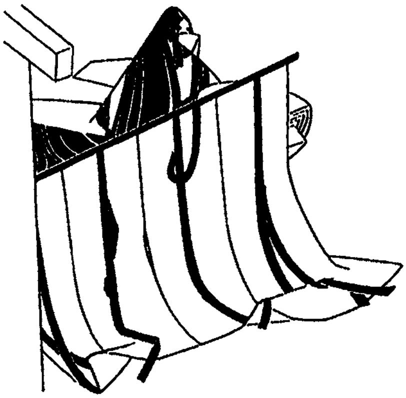
(3) جوسينشو 103، من نظم ميناموتو نو سانيكيرا: «في مثل هذه الليلة الجميلة، بأي قدر من السرور سأتقاسم القمر والزهور مع من يعرف جمالها مثلي».

(4) جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إينو واكا 126: «هلموا، يا عشاق الجمال، لرؤية القمر في أعماق المياه عند تاماتسوشيما!».

قدماً إليها. وغمغم محدثاً نفسه:

«في هذه الليلة الخريفية، أيها الجواد المطهم بسنا القمر، حلِّق عبر السماء
لعلي لبرهة أكون هناك مع من أحب!»[1]

كانت الدار، وهي دار بديعة، تحتل موقعاً رائعاً في قلب الأشجار. وكانت الدارة القريبة من البحر لافتة للنظر بغرابتها. أما هنا فقد أحس بقلب خافق بأن الحياة ستكون منعزلة، وأن المرء سيعرف كل ظل من ظلال الكآبة. دق جرس قاعة تأمل قريبة على نحو موحٍ بالحداد، بينما تنهدت الريح وسط أشجار الصنوبر، وبدت جذورها المتشبثة بالصخور متشحة بكبرياء مستمدة من ذاتها. وفي الحديقة القريبة ترددت أصوات حشرات عديدة الأنواع. تطلّع بعناية حوله. كان الجزء الذي تقيم فيه ابنة مضيفة من الدار قد شيد بعناية خاصة، وعبر الباب البديع انسل ضوء القمر، وبدا موارباً في سكون[2].


ستارة قائمة

بلغ ترددها في تعريض شخصها لأي من ملاطفاته من العمق حد أن محاولاته المترددة لتجاذب أطراف الحديث معها لم تقابل إلا بمقاومة مفعمة بروح الحداد. يا للمظاهر التي تبدو بها! هكذا حدَّث نفسه. إن أعظم السيدات وأكثرهن صعوبة في الوصول إليهن من شأنهن أن يستسلمن عن طيب خاطر، بعد كل هذا التودد، ولكن لا، إن ذلك لا ينطبق عليها. ترى هل تزدريني لأنني لا أحظى برضا الإمبراطور؟ استبد به الضيق، وأطبقت عليه هواجس عديدة. إن فرض الأمر عليها بلا قلب من شأنه أن يخالف الإحساس الراقي، ولكنه لن يحظى بمصداقية من جراء خسارته لسباق إرادات، كان حرياً بالمرء أن يتباهى به، في غمار اضطرابه وغضبه أمام شخص

---

(1) «الجواد الملون بلون القمر» تسوكيجي نو كوما هو جواد أغبر يجمع بين اللونين الرمادي والوردي.

(2) هذا الباب الموارب الذي انسل منه ضوء القمر بالفعل، والذي سيدخل منه جينجي نفسه بعد لحظة، أشيد به بحسبانه بابا ساميا على لسان فوجيوارا نو تيكا (1162 – 1241) الشاعر والباحث العظيم، والذي قام بتحرير نص جينجي الذي يُعد أساسياً بالنسبة لكل الطبعات اللاحقة.

يعرف حقاً شيئاً عن الجمال. احتك شريط على ستار قائم قريب بأوتار آلة سو نو كوتو، والتي استدعت صورة بهيجة لعزفها منفردة للترفيه عن نفسها. «ألا تسمحين لي على الأقل بسماع آلة الكوتو الشهيرة الخاصة بك؟». قالها متسائلاً، وقد تعددت محاولاته لاجتذاب رد منها:

«آه، أما من صديق عزيز يشاركني في بهجة تجاذب أطراف الحديث

لعلي استيقظ من حلم هذه الحياة»

ردت قائلة:

«كيف أستطيع، أنا التي تجوب الظلمة الحالكة لليلة بلا فجر،

أن أعرف ما الحلم لكي أجاذبك أطراف الحديث؟».

كان قوامها الملتف بالظلال شبيهاً إلى حد كبير بقوام الملاذ في آيسي. وبعد أن كانت في راحة بمفردها، لا تتوقع ضرراً، فإنها الآن تجد المفاجأة قاسية للغاية بالنسبة لها، فدلفت إلى الغرفة المجاورة، وعلى نحو ما ثبتت الباب المنزلق بصورة مأمونة للغاية، بحيث أنه لم يتحرك لفتحه بالقوة. ومع ذلك فإن هذا لا يمكن أن يكون نهاية الأمر.

كانت فارعة الطول وصاحبة كبرياء جامحة الهمة. وأحزنه إلى حد كبير أن يفكِّر في الطابع المستنبط للقائهما[1]. والآن وقد عرفها فمن المؤكد أن إحساسه بها قد غدا أكثر عمقاً. وبدت الليلة طويلة على نحو مرهق، وكأنها قد مرت في لحظة مسرعة نحو الفجر. وإذ حرص على الانصراف قبل أن يلاحظه أحد، فقد تركها بتأكيدات للحب تمس القلب.

جاءت رسالته في ذلك النهار وسط سرية تامة. يا للحسرة، ترى هل كان يعاني من تأنيب الضمير؟ لم ترغب في أن يعرف أحد بالأمر، ولم تقابل مبعوثه بترحيب احتفائي. لم يستطع أبوها تحمل ذلك إلا بالكاد.

بعد ذلك، كان جينجي يزورها في بعض الأحيان سراً. ولما كانت دارها بعيدة بعض

---

(1) مستنبط لأنهما جُمعا معاً بفعل مجموعة غير مألوفة إلى حد بعيد من المؤثرات. وما كان لهما أن يلتقيا أبداً لو أن الأمور سارت في مجراها المعتاد.

الشـي، فقد كبح جماح نفسـه، تحسباً لظهور أهل البحر المولعين بالقيل والقال في طريقه، وقد أكد ذلك على نحو محزن للغاية مخاوفها من أن المترهبن بدوره، في غمار التعاطف، قـد نسـي التوق إلى الفـردوس، ولم ينتظر إلا مؤشـرات زيارات جينجي. بـدا من العار أن يسود الاضطراب أفكاره حتى في ذلك الوقت.

عانـى جينجي وحزن لأن سـيدته المقيمة في نيجو قد يبلغها بشـكل مـا هذا كله، فتتألم لتخيـل أن فـؤاده قد ابتعد عنها، حتى في غمار مغامرة قوامها الحماقة، الأمر الذي لا شـك أنـه أوحـى بمدى حبه العميق لها. عندما كانت تتاح لها في الماضي المناسـبة لأن تلاحظ، وبطريقـة لا تتفـق معها بالمـرة، أن تحتج على أمور من هـذا النوع، فإنه كان يتسـاءل لماذا ترك تسـلية سـخيفة تثير غضبهـا، ويرغب في الرجوع عـن الأمر برمته. هكذا فـإن التفكير في السـيدة المعنية هذه المرة لم يثر إلا التوق إلى ألا ينطفىء شـيء، إلى أن كتب إلى نيجو بإسـهاب أكثر من المعتاد، وأضاف هذه الحاشـية: «ينبغي أن أضيف أنه على الرغم من أنه من المعاناة تذكر كيف أن حماقتي أكسـبتني في بعض الأحيان الاسـتياء من جانبك، عندما يثيـر ذلـك خيبـة الأمل حتى بالنسـبة لـي، فإنني قد سـاورني حلم صغير على نحـو فيه من الغرابـة ما يكفي. أرجـو أن تتفهمي من هذا الاعتراف الذي ليس له ما يسـتدعيه كيف أنني ملك لك بكاملي (لو أن وعودي)..»[1]. وواصل رسالته بقوله: «عند كل تفكير فيك:

غدران ملحية من الدمع تثب إلى عينيه ويبكي، رجل الشاطىء

في غمار جمعه لمسرات الأعشاب البحرية لم يتبع إلا نزوة عابرة».

ضمت رسالتها المكتوبة بعفوية آسرة، عند النهاية قولها: «جلب الحلم الذي أحسست بأنك ملزم بأن تذكره العديد من الخواطر إلى ذهني:

«ما أشد البراءة التي تركتك بها تنال كل ثقتي بأننا عندما نرتبط

فإن الأمواج لم تنداح عبر أي مرتفع تكسوه أشجار الصنوبر»[2]

---

(1) جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إينو واكا 475: «لو أن وعدي بألا أنساك أبداً قُدِّر له أن يهمل، فليحل بي قضاء ربة جبل ميكاسا».

(2) «إنك لن تكون أبداً بعيداً عن الإخلاص لي». كوكينشو 1093: «لو أنني برهنت على تقلبي وهجرتك، فلتغمر الأمواج تل سو الذي يكسوه الصنوبر».

أثـرت فيه هذه الإيمـاءة، البارزة عبر اعتدال لهجة رسـالتها، تأثيراً كبيـراً إلى حد أنه لم يسـتطع تنحية هذه الرسالة. وقد اسـتمرت هذه الحالة المزاجية، وتخلى عن ليالي الرحالة التي تكتنفها الأسرار.

أحست السيدة، التي لم تندهش حيال ذلك، بالرغبة حقاً في إلقاء نفسها في البحر. فهي تفتقـر إلى الجميع باسـتثناء أبويهـا العجوزين، وهي لـم تتوقع قـط أن تحظى بالتقدير الذي يتمتـع بـه الآخرون، ولكن خلال الشـهور والسـنوات الماضية لم يحدث شـيء، في نهاية المطاف، مما سـبَّب لها الشـعور بالعذاب. أما الآن وقد عرفت أي هموم يمكن أن تجلبها الحياة، فقد بدت لها هذه الهموم أسوأ بكثير من أي شيء كانت قد تصورته، ولكنها حافظت على رباطة جأشـها، واسـتقبلت جينجي بما يكفي من اللطف. وغـدت تعني له المزيد مع مرور الوقت، ولكنه شعر بالأسى البالغ، لأن سيدة أعظم منها كثيراً تمضي أعواماً من القلق المفعم بالانتظار، عاكفة على التفكير فيه، وفي غالب الأحوال كان يقضي ليله وحيداً.

رسـم مجموعـة متنوعـة من الصـور، وكتب خواطره عليهـا، بحيث يتاح لهـا أن تكتب ردوداً[1]. وتأثـر بهـا جميع من رأوها، ولا بد أن فؤاديهما قد تماسـا عبر السـماء على نحو مـن الأنحاء، فهي بدورها في نيجو عندما تثقل الأحزان كاهلها شـرعت في رسـم صورها الخاصة وفي تدوين لحظات الحياة الدالة كأنما في يوميات. ترى أي مستقبل ينتظرهما؟

حل العام الجديد، ولأسى البلاط الكبير الذي أعرب عنه عالياً، غدا جلالته بحاجة إلى علاج. كان من بين أنجاله ابن أنجبته له الزوجة شوكيودين، وهي ابنة وزير الميمنة الحالي. لكن الصبي كان الآن في عامه الثاني، ولا يزال صغيراً للغاية[2]. وكان النهج السـليم الذي يتعين عليه اتباعه هو التنازل عن العرش لولي العهد، وعندما فكَّر في من قد يحكم في خدمة البـلاد، عندئـذ صدمه العار الذي دمغ به جينجي، وضايقه إلـى حد أنه تجاهل احتجاجات أمـه، وأصـدر مرسـوماً بالعفـو عن جينجـي. وكانت الإمبراطـورة الأم قد بـدأت في العام الماضي في المعاناة من روح أطبقت عليها بالمحن، وأقلقت نبوءات متتابعة البلاط، بينما تدهورت مجدداً، في الآونة الأخيرة، الشـكوى من العين التي بدا أن الكفاءات المتشـددة

---

(1) كتب قصائد على الرسومات، تاركاً فراغاً لمورا ساكي كي تضيف قصائد من نظمها.

(2) على الحلول مكان ولي العهد.

قد خففت منها، الأمر الذي سبب لجلالة الإمبراطورة شعوراً بالغاً بالبؤس، إلى حد أنه بعد العشرين من الشهر السابع أصدر مرسوماً آخر يستدعي فيه جينجي إلى المدينة.

كان جينجي يعتمد على حدوث هذا بمرور الوقت، على الرغم من أن هذه الدنيا الغادرة لم تشجعه على التطلع إلى الأمام نحو ما قد يتبع ذلك، ولكن هذه اللحظة جاءت بصورة مفاجئة للغاية إلى حد أن بهجته اختلطت بحزنه لاضطراره الآن إلى التخلي عن هذا الشاطىء. وعلى الرغم من أن المترهبن قد وافق تماماً، إلا أنه وجد فؤاده مفعماً بالحزن حيال هذه الأخبار. غير أنه سرعان ما تغلب على هذه المشاعر، حيث أن تحقيق طموحات جينجي كان يعني كذلك تحقيق النجاح في الوصول إلى ما يرغب هو نفسه فيه.

بحلول ذلك الوقت، كان جينجي يقضي كل ليلة معها. وفي الشهر السادس، بدأت تظهر وتشعر على نحو محزن بأنها ليست على ما يرام[1]. الآن وهو يوشك على أن يغادرها، لسوء الطالع أنه يقدرها أكثر من ذي قبل، وأزعجه أن يراها وقد كتب عليها الحزن على نحو لا سبيل إلى تفسيره. وغني عن القول أنها هي نفسها قد استبد بها اليأس، ولم يكن بمقدار أحد أن يلومها على ذلك. وكان جينجي، بعد قيامه بهذه الرحلة الكئيبة على نحو غريب، قد وجد الراحة على الدوام في الاعتقاد بأنه سيعود ذات يوم، ولكن الآن وقد غدا هذا الاحتمال السعيد أمامه، فقد راح يفكِّر في حزن بأنه قد لا يرى هذا المكان ثانية أبداً.

ابتهج الرجال المنخرطون في خدمة جينجي، كل منهم بحسب ما تدفعه ظروفه إلى ذلك. وجاء جمع من المدينة الحزينة، وهو أمر بهيج، ولكن المترهبن أخذ يبكي ويبكي، وفي غضون ذلك حل الشهر الثامن. وتحت هذه السماوات الخريفية الحزينة، راح جينجي يتساءل في تعاسة عن السر في أنه لا يزال الآن،



استخراج الملح

(1) بفعل أعراض الحمل.

كما في الماضي، يسلم نفسه لهذه المغامرات التي لا يكتنفها الحرص، إلى أن مضى الذين يعرفون جلية الأمر يتذمرون قائلين: «انظر إلى ذلك! ها هو ذا يعاود سيرته القديمة!». وإذ مضى كل منهم يلكز الآخر، فقد أضافوا: «طوال هذه الشهور، ومن دون أن يبلغ أي أحد بجلية الأمر، كان ينسل خلسة لرؤيتها، والآن ها هو قد جعلها تعيسة في نهاية المطاف». مضوا يتهامسون، على نحو أثار انزعاجاً شديداً لدى شيكيبو، بأنه كان أول من أبلغ جينجي بأمرها.

مضى جينجي إليها في وقت أبكر مما تعود في المساء، حيث أنه تقرر أن يرحل بعد غد. كانت تلك هي المرة الأولى التي يراها فيها بوضوح تام، وقد أثَّر فيه للغاية اعتدادها الجلي بالنفس إلى حد أنه وجد من المؤلم أشد الإيلام أن يتركها وراءه. وتمنى لو أنها تجيء وتنضم إليه بطريقة مناسبة من نوع ما، وسعى للتخفيف عنها بتأكيدات تحمل هذا المعنى. ولم يكن مظهره وهيئته يحتاجان إلى وصف، ولكن عباداته وصلواته منحته نحولاً بديعاً، أضفى عليه جلالاً يستعصي على الوصف، وبينما صب أرق وعوده، وهو منخرط في البكاء ربما تساءلت عما إذا لم تكن هذه سعادة كافية، وعما إذا لم يكن عليها الآن أن تتخلى عن السعي للمزيد. وقد جعل حسنه ذاته جمالها غير الباهر يبدو جلياً على نحو مؤلم.

كان هدير الأمواج قد تغير، في غمار الريح الخريفية، وانساب خفيفاً الدخان المنبعث من حرائق تجهيز الملح، وكان كل ما أضفى على المكان طابعه حاضراً في المشهد.

«ها قد حل فراقنا، وعليَّ الآن أن أغادرك، ولكنني أبتهل أن الدخان

المنبعث من حرائق ملحك ههنا سينساب في اتجاه رحيلي» .

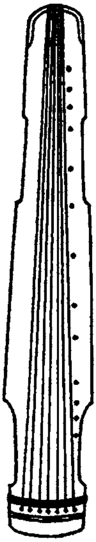
ردت قائلة:

«أحزان أعشاب البحر التي تجمعها صانعة الملح في كومة على حرائقها

ليست أكثر مما تجلبه الحياة، من دون رغبة لديها في الشكوى» .

وعلى الرغم من أنها لم تكن قادرة على الحديث إلا بالكاد من خلال دموعها، إلا أنها كان لا يزال بمقدورها أن تقدم له رداً بليغاً، عندما تمس الحاجة إلى هذا الرد.

أحس جينجي الذي كان قد تاق دوماً لسماعها تعزف له، بخيبة الأمل لأنها لم تقم بذلك. قال: «اعزفي قليلاً! إذاً، لأذكرك به!» دعا بآلة الكين الموسيقية، التي كان قد أحضرها من المدينة، وراح يداعب أوتارها برقة في لحن جميل ملأ أعماق الليل الصافي على نحو لا يقاوم. وكان هذا كثيراً على احتمال المترهبن، الذي التقط آلة السو نو كوتو الموسيقية، وجعلها تنزلق عبر الستائر إلى ابنته. لا بد أن دعوته قد انتزعت منها كذلك الدموع التي تدفقت غزاراً، فيما كشف عزفها الهادىء عما بمقدورها القيام به. كان أداء نيافتها المنعزلة في سمعه شيئاً لا نظير له في زمانه، حيث أن تألقها، الذي طالما منح المستمع دفقاً من السرور، قد نقل كذلك صورة لذاتها، وقد جعل ذلك موسيقاها شيئاً فائقاً. وبالمقابل فإن هذه السيدة قد تميزت بفضل تمكنها الذي لا تشوبه شائبة ونغمها الذي يجتذب السامع على نحو تُحسد عليه. وكانت موسيقاها تستدعي كذلك أحاسيس عميقة ومرهفة، بينما مضت تعزف مقطوعات لم يسمعها من قبل قط، متوقفة كثيراً بحيث لا يستطيع التحمل إلا بالكاد، فإنه تاق إلى المزيد، وراح يتساءل في مرارة عن السر في أنه على امتداد شهور لم يلح عليها لكي تمنحه هذا السرور.



الكن

راح يصب الوعود صباً فيما يتعلق بالمستقبل. قال: «لا بد لك من الاحتفاظ بآلة الكين هذه إلى أن نستطيع العزف معاً من جديد». ردت بصوت خفيض للغاية بحيث لم يستطع إلا بالكاد سماعها:

«تلك الهدية العابرة التي أعطيتني إياها لأصدق أنك ستظل وفياً

سأكرمها في خواطري بموسيقى مسترسلة من دموع»[1].

رد قائلاً:

«هذا الكوتو لك لعلك تتذكرينني إلى أن نلتقي من جديد

---

(1) تحقق القصيدة تلاعباً بلفظة هيتوكوتر (كلمة واحدة و«كوتو» [آلة الكين الموسيقية الخاصة بجينجي] ولفظة ني «موسيقى» و«صوت البكاء»).

وآمل ألا تغيري طبقة الوتر الأوسط[1].

لسـوف يرى أحدنا الآخر قبل أن يفقد دوزنته». واصل حديثه لتشـجيعها على الثقة به، لكنها غرقت على نحو يمكن فهمه في الدموع النابعة من العذاب حيال رحيله الوشيك.

فـي يـوم الرحيل، غادرها فـي الظلام قبل طلـوع الفجر. وحتى عندما لحـق بمن أقبلوا لمصاحبته، فقد وجد مع ذلك فسحة من الوقت ليرسل لها قوله:

«يا للأسى لأن الموجة ستعلو الآن وتنحسر تاركةً إياك

لأحزانك التي أستطيع تصورها بوضوح بالغ».

ردت قائلة:

«دار نباتات السُمَّار هذه، حيث عشت كل هذه السنين، ستغدو مقفرة،

آه، لكم أتوق إلى اتباع الموجة المنحسرة!»[2].

لقـد أفصحـت هذه الكلمات عما قصدتـه، وانهمر الدمع من عينيه، علـى الرغم من أنه حـاول أن يكفكفـه. وقد اعتقـد من لا يعرفون الظروف أن هذا أمـر طبيعي، على الرغم من طبيعـة المـكان، أخذاً في الاعتبـار أنه قد أقام فيه وقتاً طويلاً، وأنـه يغادره للأبد. ومثل هذا الدليـل على الارتباط الجدي لم يسـعد يوشـيكيو على الإطلاق. وكان الآخرون سـعداء، ولكنهم حزانى أيضاً، فاليوم سـيكون حقاً آخر أيامهم على شـاطىء البحر، وأشار حديثهم الـذي مضـوا يتجاذبـون أطرافه إلـى أنهم لديهـم بدورهم أسـبابهم التي تدعوهـم للبكاء، وعلى الرغم من ذلك فإنها ليسـت بالأسـباب التي يحتاج المرء إلـى المضي قدماً في تبين ملابساتها.

كانت استعدادات المترهبن لهذا اليوم جليلة حقاً، فقد حصل الجميع، وصولاً إلى أقل رجـال جينجـي مرتبة، على ملابس مـن أفخم الأنواع للرحلة[3]، ويتسـاءل المرء متى أتيح

---

(1) من غير الواضح ما هو الوتر الأوسط [أو الأوتار] بالنسبة لهذه الآلة، ولكنه على الصعيد الرمزي يربط العاشقين، ويؤكد انفصالهما في آن.

(2) «سأغرق نفسي في البحر راضية» أو «سأتبعك راضية إلى المدينة». كان عامة الناس على الشاطىء يقيمون في توماتيا، وهي بيوت مسقوفة بالأعشاب.

(3) لا بد أن كلاً منهم قد حصل على عباءة صيد وسراويل ملمومة.

لـه الوقت لإعدادها، وكان زي جينجي أكثر فخامة مـن أن تصفه الكلمات، ولحقت بركبه خزانـات ملابس لا حصر لها. وكانت كل هدية جديـرة بالتقديم في المدينة، وكل منها لها ميزتها، حيث أن مقدمها لم يهمل شيئاً.

وعلى عباءة الصيد التي قُدمت لجينجي ليرتديها، وجد الكلمات التالية:

«ربما ستزدري عباءة السفر في نهاية المطاف لأنها مالحة

حيث غالباً ما غُسلت بدمع موجة إثر الأخرى».

وعلى الرغم من معاناته، إلا أنه أفلح في الرد قائلاً:

«نعم، دعنا نتبادل شيئاً يمنح كلاً منا حضور الآخر،

رداء يكون بيننا إلى اليوم الذي نلتقي فيه من جديد»[1].

وارتداهـا تقديـراً للطفها، وبعث إليهـا بالأثواب التي كان يرتديها، وقد شـكلت تذكاراً حقاً بالنسـبة لها لتتذكره بها على نحو أفضل. كيف يمكن للعبق الصادر عن عباءته الرائعة ألا يتخلل خواطرها كذلك؟

قال المترهبن: «بعد أن نحيت هذه الدنيا بعيداً عني، فإني لا أزال أشـعر بالأسـف على أننـي ليس بمقـدروي المضي معك اليـوم». بدا حزينـاً، وقد جذب ركني فمه إلى أسـفل، ولكن الشباب الأصغر سناً لا بد أنهم كانوا يضحكون سعداء. قال لجينجي:

«سئمت الدنيا فأقمت إلى جوار البحر المالح سنوات وسنوات عدة،

غير أنه من الصحيح حتى الآن أنني لا أستطيع مبارحة هذا الشاطىء[2]

ربمـا إلى الحدود، على الأقل، حيث أن ظلمة الفؤاد سـتهيمن عليَّ يقيناً..»[3]. ومضى في القول مجاملاً: «اغفر لي جرأتي، لطفاً، ولكن إذا تصادف أنك فكرت فيها..»[4].

---

(1) يتوازى «رداء يكون بيننا» (ناكا نو كورومو) مع «العود الأوسط» (ناكا نو أو) الوارد في تبادل سابق للقصائد.

(2) «الشاطىء» هو كل من أكاشي و«هذا الشاطىء» (أي هذه الدنيا). في مفارقة لـ «الشاطىء الآخر»، الفردوس.

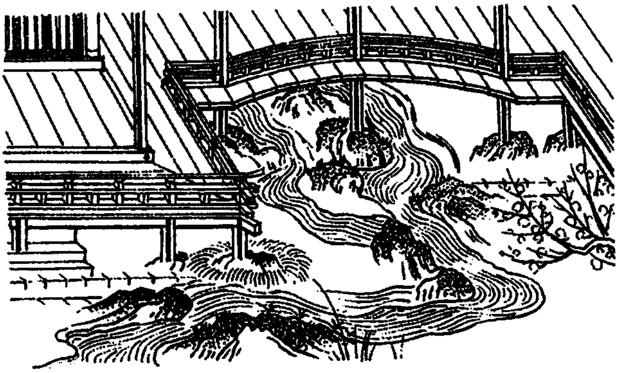
(3) الظلمة التي تهيمن على فؤاد أب يشعر بالقلق على طفلته. الحدود هي الحدود القائمة بين مقاطعة هاريما وسيتسو.

(4) «آمل أنها قد تتوقع رسالة منك».

تأثر جينجي بعمق بالغ، ومنح التضرج هنا وهناك محياه جاذبية لا سبيل إلى التعبير عنها. قال: «لديَّ مبرر وجيه لعدم نسيانها. وفي وقت جد قريب ستعرف مدى صدق قولي. ولكن من الصعب عليَّ للغاية أن أغادر دارك! ماذا عساني أصنع؟». كفكف دمعه، وأضاف:

«أكان حزن الانطلاق في ذلك الربيع بعيداً عن المدينة

أسوأ من هذا الحزن عندما أغادر في الخريف شاطئاً مألوفاً؟»



جدول في الحديقة

تغلبت مشاعر المترهبن عليه، ولم يملك إلا المزيد من البكاء، بل إنه لم يستطع الوقوف إلا بالكاد.

كانت حالة ابنته مما لا سبيل إلى وصفه، فهدأ من مشاعرها حتى لا تبدو للعيان، ولكن محنتها دفعت بها إلى ضيق مرير على نحو لا سبيل إلى دفعه، وبصورته أمام ناظريها على الدوام فإنها لم تملك، في نهاية المطاف، إلا الانخراط في البكاء.

لم تعرف أمها كيف تسري عنها، قالت: «لم فكرنا في التسبب لك بهذا البؤس؟ الخطأ يقع على كاهلي حيث أصغيت لشخص على مثل هذا القدر من الجنون».

قال أبوها: صمتاً، فلديه كل المبررات التي تدعوه لعدم إهمالها، وإنني لعلى يقين من أنها لا تزال في خاطره». وقال مضيفاً وموجهاً حديثه لابنته: «تجلدي، وتجرعي دواءك. يا لها من طريقة في التصرف!» غير أنه هو نفسه تداعى جالساً في أحد الأركان.

دانت مربياتها وأمها جميعهن أوهامه، وقلن: «على امتداد سنوات كان شغوفاً للغاية بأن يراها على نحو ما أراد أن تكون، وحسبنا أنه قد تدبر الأمر جيداً هذه المرة، ولكن لا، لقد حلت الكارثة بساحتنا فعلاً!». ضايقه حزنهن وأساها أشد الضيق إلى حد أن تشوشه

قـد تفاقـم، وأغفى في النهار، ونهض متوتراً في الليل، ليجلـس هنالك، عاكفاً على الصلاة وفاركاً يديه إحداهما بالأخرى، مدمدماً: «لقد اختفت مسبحتي لتوها!». وذات ليلة أنارها القمر، بعد أن سخر منه الخدم، خرج ليقوم بجولاته في المكان، فسقط في غدير الحديقة، وارتطم ظهره بصخرة بديعة المنظر، وآوى إلى فراشه ليسترد عافيته، وهو الأمر الذي منحه في النهاية شيئاً آخر ليفكِّر فيه.

ارتحل جينجي إلى نانيوا، حيث أدى طقس التطهر، وبعث برسول كذلك إلى سوميوشي، ليعلن أنه سيرفع تشكراته لسلامة الوصول وللبركات التي حلت به استجابة للعهود التي أخذها على نفسه[1]. وقد ازداد المسافرون بمعيته زيادة كبيرة بصورة مفاجئة، بحيث لم يسمح له ذلك بأن يمضي بنفسه، فاستحث الخطى ليدخل المدينة من دون التوقف للقيام بأية رحلات قصيرة إضافية.

عندما وصل إلى داره في نيجو، التقى أهل داره ومن سافروا معه في إطار ما بدا لهم شبيهاً بالحلم، وهنالك انهمر فيض من الدموع ودفق من الضحك. ولا بد أن محبوبته قد قدرت، في نهاية المطاف، الحياة التي لم تعن لها الكثير. وكانت قد نضجت لتغدو بارعة الجمال، ومما أضاف لها ميزة أخرى أن أحزانها قد جعلت شعرها يخف قليلاً بعد أن كان بالغ الكثافة، وقد غدا مغتبطاً الآن بأنها ستكون له دوماً على هذه الحالة، ولكنه حيال هذه الخاطرة خفق قلبه لتلك التي خلفها وراءه بغير إرادة منه. نعم، مثل هذه الأمور يبدو جلياً أنها لن تدع له سبيلاً للراحة.

شرع في الحديث عنها، وأثرت الذكريات كثيراً على مظهره، إلى حد أن السيدة الماثلة أمامه لا بد أنها قد أحست بالاضطراب، ذلك أنها بقولها: «لست أهتم بنفسي»[2] ألمحت تلميحاً خفيفاً أبهجه وفتنه. وبينما كانت رؤيتها فحسب تعني الوقوع في هواها، فقد راح يتساءل في دهشة كيف أفلح في قضاء هذه الشهور والسنوات كلها من دونها، وتدافعت في نفسه مجدداً مشاعر المرارة.

---

(1) في وقت العاصفة.

(2) شويشو 870، من نظم يوكون: «لست أهتم بنفسي التي نسيتها، وإنما أحزن على حياة من جعلني أؤدي هذا القسم».

سـرعان ما أُسـند إليه منصب جديد، هو منصب القائم بأعمال المستشار الكبير، مضت الوصيفات يتساءلن، بينما هو بين يدي جلالة الإمبراطور، كيف تسنى لرجل في مثل كبريائه أن يتحمل كل تلك السنين في مكان غريب. ومن جديد غمر الحزن النسوة اللواتي بعد بهن العهد في الخدمة منذ عهد نيافته الراحل، وانهمرت دموعهن، وعلت صيحاتهن، وأشـدن بجينجي أعظم الإشادة. بل أن جلالته أحس بأنه مستدعى لكبح جماح نفسه، وأقبل مرتدياً ملابـس خاصـة لهذه المناسـبة بعنايـة بالغة. وعلى الرغم مـن أنه بدا مهـزولاً إلى حد كبير بسبب مرضه الطويل، إلا أنه قد أحس أخيراً بأنه أفضل قليلاً، وقد تجاذبا أطراف الحديث في هدوء حتى أوغل الليل في مسـيرته. أطل بدر الليلة الخامسـة عشـر[1] عالياً في السماء، بديعاً سـاجياً، بينما انداحت في ذهن جلالته لمحات من الماضي، وربما في غمار الخشية مـن المسـتقبل بكى، وقـال: «ما أطول الوقت الـذي مرّ بي من دون موسـيقى وقد افتقدت رنين الآلات الموسيقية الذي كان مألوفاً للغاية!». فرد جينجي قائلاً:

«لم يستطع الطفل المهجور، الغارق في العذاب والعار قرب البحر

عاماً بعد عام، الوقوف على قدميه[2]».

تأثر جلالة الإمبراطور بعمق، وأحس بالخجل كذلك، فرد قائلاً:

«الآن وقد التقينا أخيراً حول السارية المقدسة،

ألا فلتنس المرارة التي نشبت عندما كنا مفترقين!»[3].

تحدَّث بلطف بالغ، شديد الجاذبية.

سـارع جينجـي إلى ترتيب أمر أداء طقـس «المخاطبات الثماني» لنيافته الراحل. وسُـر أشـد السـرور، عندمـا وجد أن ولي العهـد قد كبر بصـورة جميلة حقاً، وتطلـع إليه بعاطفة

---

(1) من الشهر الثامن. وقد شاهد جينجي هذا البدر في سوما قبل عامين فحسب.

(2) يشبه جينجي نفسه بالوليد الأول المشوه الذي ولد لا يزاناجي وإيزانامي، الزوجين الأصليين في أسطورة الخلق اليابانية. ولم تكن للطفل العلقة عظام، ولهذا السبب أرسل طافياً إلى البحر. نيهون شوكي 66، من نظم أوى نو أساتسونا: «ألا يشفق عليه أبواه؟ لقد بلغ الطفل العلقة عامه الثالث ولا يزال عاجزاً عن الوقوف».

(3) كان الطفل العلقة معيب الخلقة لأنه بعد أن دار أزاناجي وأزانامي في اتجاهين متقابلين حول السارية المقدسة،= =تحدَّثت أزانامي (الأنثى) أولاً لدعوة أزاناجي إلى التزاوج. وعندما كررا الدوران، وتحدّث أزاناجي (الذكر) أولاً، كان الأبناء الذين أنجباهم في أتم صحة.

مشوبة بالاحترام، وقد جعله نجاحه المتألق في دراساته قادراً بصورة جلية على الاضطلاع بالواجبات التي تُسند إلى العاهل. وما إن تمالك جينجي جأشه قليلاً حتى بادر بزيارة نيافتها المنعزلة بدورها، ولا بد أن حديثهما قد تطرق إلى العديد من الموضوعات المؤثرة.

آه، نعم، مع تراجع الأمواج بعث برسالة إلى أكاشي[1]. ويبدو أنها كانت رسالة مستفيضة، كُتبت خلسة: «كيف حالك، عندما الأمواج ليلة إثر أخرى..؟

تنصرف أفكاري إليك، فيما أتصور سدم الصباح تنهض على الشاطىء

بينما تمضين أنت في أكاشي الليالي المسهدة غارقة في الأسى» .

أحست راقصة جوسيتشي، ابنة نائب دازيفو، بأنها الآن قد ودعت بؤسها المكنون المفعم باليأس، وجعلت مبعوثها يعطي جينجي هذه القصيدة مع غمزة:

«سأجعلك ترى كيف وجدت الملاحة كميها وقد ذابا

عندما منحت فؤادها للحنين إلى شاطىء سوما».

حدَّث نفسه، مقوماً قدرات من بعثت بالرسالة: إنها تكتب أفضل كثيراً الآن. ورد قائلاً:

«لا، ينبغي أن يتاح لي السبيل لأقدم شكواي، فبعد رسالتك

لم يحل وقت يجف فيه كماي» .

دفعت بها رسالته غير المتوقعة إلى ذهنه على نحو مترع بالحيوية، فهو لا يزال يتذكر كم أحبها كثيراً، ولكنه في تلك الأيام بدا أنه أحجم عن هذه النوعية من الأمور.

اكتفى بالكتابة فحسب لقرية الزهور المتساقطة، بحيث أن السيدة هناك شكت في أمره، وأحست بالحرج أكثر من أي وقت مضى.

---

(1) مع رجال أكاشي الذين رافقوه إلى المدينة، وكانوا بسبيلهم الآن إلى الرجوع إلى هناك.

14

ميوتسوكوشي

الحج إلى سوميوشي

تـرد المقاطع مي ـ أو ـ تسـو ـ كو ـ شـي فـي المناظرة الشعرية، التي يتم غالباً تذكر هذا الفصل بها. ومعناها الأولـي هو «معلم القناة» (عصا توضع في قاع مجرى مائـي عريض لتحديد القنـاة الملاحيـة) ولكنها تعني كذلك «أمنح ذاتي كلها» (للحب).

لقـد مضى جينجي إلى مزار سوميوشـي، قرب نانيوا، ليشكر الإله على بركاته. وبمحض الصدفة تصل سيدة أكاشـي، في اليوم نفسـه، في طريقها إلى سوميوشي، ولكن الشاطىء شديد الازدحام بمعية جينجي الكبيرة بحيث أنها، في غمار شعورها بالضآلة، تمضي مباشرة إلى مرفأ نانيوا.

إذ يكتشـف جينجـي ما حدث، فإنه يمضـي إلى نانيوا للتنـزه، حيـث يلاحـظ قنـاة هـوري (اسـم شـهير في الشـعر) والتي تحددهـا صفوف «الميوتسوكوشـي»، وعندئذ يبعث إليها بقوله:

«أنا الذي منحت ذاتي كلها لحبك تلقيت مكافأتي، حيث أن العثور عليك هنا،

عند القناة عميقة، يبرهن على قوة ما بيننا».

وهي ترد قائلة:

«مفتقرة إلى أي جدارة، ليس لديَّ لقب لأطالب بالسعادة،

«ترى ما الذي يمكن أن يكون قد تملكني إذاً لأمنح ذاتي كلها للحب؟».

الصلة بالفصول السابقة

يتواصل «الحج إلى سوميوشي» بدون انقطاع في الأحداث بعد «أكاشي»، حيث يبدأ في الشهر العاشر، عندما كان جينجي في الثامنة والعشرين من العمر، ويمتد إلى الشهر الحادي عشر من العام التالي.

الشخوص

سموه، جينجي، يُرقى من مستشار كبير إلى وزير القصر، 28 إلى 29 عاماً.
الإمبراطورة الأم (كوكيدين).
جلالة الإمبراطور، ثم نيافته، 30 إلى 31 عاماً (سوزاكو).
نيافة الإمبراطور الراحل، والد جينجي بعد وفاته (كيريتسوبو إن).
سيدة العاملين في القصر (أوبوروزوكيو).
سيدة جينجي المقيمة في نيجو، 20 إلى 21 عاماً (مورا ساكي).
سمو ولي العهد، ثم جلالة الإمبراطور، 10 إلى 11 عاماً (رايزي).
نيافة الإمبراطورة المنعزلة، أمه، 33 إلى 34 عاماً (فوجيتسوبو).
الأمير شوكيودين، عُين ولياً للعهد، 2 إلى 3 سنوات.
أمه، الزوجة شوكيودين.
معالي المستشار، وزير الميسرة السابق، 62 إلى 63 عاماً (ساداجين).
النقيب الاستشاري، ثم القائم بأعمال المستشار (تو نو تشوجو).
ابنته، الزوجة كوكيدين، 11 إلى 12 عاماً.
ابنه، (كوباي).
ابن جينجي، 7 إلى 8 أعوام (يوجيري).
السيدة المقيمة في أكاشي، 19 إلى 20 عاماً (أكاشي نو كيمي).
ابنتها، المولودة تحت اسم (أكاشي هيميجيمي).
مرضعة الابنة.
المترهبن، حوالي 61 إلى 62 عاماً (أكاشي نو نايودو).
الزوجة السابقة ريكيدين.
سيدة الزهور المتساقطة (هانا تشيرو ساتو).
راقصة جوسيتشي.
معالي وزير الحرب، شقيق فوجيتسوبو ووالد مورا ساكي (هايوبو كايو نوميا).

مساعد حراس ميمنة القصر، ثم مراقب البوابة.
يوشيكيو، تابع جينجي.
كوريميتسو، المؤتمن على أسرار جينجي.
حاكم سيتسو، أحد أتباع جينجي.
ملاذ روكوجو، 35 إلى 36 عاماً (روكوجونو مياسو دوكورو).
كاهنة آيسي العليا، ابنتها، 19 إلى 20 عاماً (أكيكونومو).

غالباً ما أمعن جينجي التفكير في نيافته الراحل، بعد ذلك الحلم الواضح، وتمنى آسفاً أن يخلصه على نحو ما من خطاياه، التي تدنت به على هذا النحو الكبير. وما إن عاد إلى المدينة، حتى سارع إلى الإعداد للقيام بذلك، وفي الشهر العاشر أدى طقس «المخاطبات الثماني». وقد أذعن الجميع لرغباته، كما في السابق.

أخذت الإمبراطورة الأم، على الرغم من مرضها الخطير، على كاهلها أن تكبح جماح جينجي، ولم تتقبل في يسر إخفاقها في ذلك، ولكن جلالة الإمبراطور الذي استعاد ذكرى رغبات أبيه الأخيرة، وتنبأ بكفارات مؤكدة، أحس بارتياح كبير لرفع شأنه من جديد. والآن زالت متاعب العين التي، غالباً ما جثمت عليه، ولكن شكه في أن العمر سيمتد به طويلاً أثقل على كاهله، ودفعته معرفته بأن لديه وقتاً محدوداً إلى التعجيل باستدعاء جينجي ليبقى إلى جانبه بصورة مستمرة، وقد استمد شعوراً بالغ الجلاء بالرضا من مناقشة كل شيء بصراحة معه إلى حد أن سروره جلب السعادة إلى البلاط بأسره بدوره.

ومع اقتراب تنازله عن العرش، الذي خطط له بصورة سريعة، فقد انصرف تعاطفه إلى سيدة العاملين في القصر، التي كانت تجربتها في الحياة مؤلمة للغاية. قال لها: «لقد رحل معالي المستشار عن عالمنا، وصحة الإمبراطورة الأم تعطي كل المبررات للشعور بالقلق، والآن وفيما أشعر بأن أجلي قد دنا، فإنني أخشى أن أتركك معتمدة على نفسك في عالم شديد الاختلاف. ولم يسبق لك أن فكرت فيَّ على نحو ما فكرت في شخص آخر بعينه، ولكن عاطفتي الأعظم شأناً قد دفعتني دوماً للاهتمام بك في المقام الأول. ومن تفضلينه قد يسعد بك أيضاً، ولكنني لا أعتقد أن شعوره نحوك يقترب من إحساسي بك، وهو أقوى كثيراً، وهذا وحده أمر مؤلم للغاية». وشرع في البكاء.

تضرَّج وجهها بحمرة أرجوانية في غمار النضج الكامل والمنعش لحسنها، وانهمرت دموعها إلى أن نسي تجاوزاتها، ولم يعد ينظر إليها إلا بإشفاق وحب. قال: «أتساءل لماذا لم تنجبي لي ابناً. هذا أمر مؤسف للغاية. وأنا أعرف أنك ستلدين له ابناً، هو الذي تعد صلتك به أقوى، وهذه الفكرة تجعلني شديد الحزن حقاً، فهو في نهاية المطاف ما هو عليه لا أكثر من ذلك، وسيكون لابنك أب من العامة».

أثقلتها هذه الملاحظة وغيرها من جانبه حول المستقبل بالحزن والخجل، وشع محياه

بعذوبـة بالغة الجمال، وبرهن سـلوكه بوضوح بالغ على إخـلاص لا حدود له، والذي بدا أنـه يتعاظـم بمرور الأعوام إلـى حد أنه على الرغم مـن مزايا جينجي، فإنها لم تسـتطع إلا الإقـرار بالمعانـاة التـي جلبتها عليها اهتماماتـه الفاترة، إلى أن لـم تعد تعرف لماذا سـارت وراء ميولهـا الصبيانيـة وتسـبب في تلـك الفظيعة، وهـي فضيحة لـم تلحق الضرر باسـمها وحـده، وإنما باسـمه كذلـك. وأفضت بها مثل هـذه الذكريات وإلى أن تشـعر بالندم على الحياة التي عاشتها.

تم الاحتفال ببلوغ ولي العهد في الشـهر الثاني من العام التالي. وكان سـموه، الذي بلغ الآن الحادية عشرة من عمره، طويل القامة، ظاهر النبل، بالنسبة لسنوات عمره، وبدا محياه شـديد الشـبه بمحيا جينجـي، حيث تألقا كلاهما علـى نحو باهر للغاية، بحيث أشـاد بهما الجميـع، ولكـن أم سـموه انزعجـت، ولـم ترغب إلا فـي ألا يكون الأمر كذلـك. وقد نظر جلالة الإمبراطور إلى الفتى بسـرور، وأبلغه في لطف، من بين أمور أخرى أفضى بها إليه، أنه يعتزم التنازل له عن عرش البلاد عما قريب.

جرى التنازل عن العرش بعد العشـرين من الشهر نفسه، وبصورة فجائية بما فيه الكفاية بحيث أثار ضيق الإمبراطورة الأم. وسـعى جلالته لتهدئتها قائلاً: «لن أحظى بعد الآن بأي أهميـة، ولكنني أتطلـع إلى رؤيتك وقد غمرك هـدوء أكثر»، وتـم تعيين الأمير شـوكيودين وليـاً للعهد. وبـدأ العهد الجديد، وهو ما يعكس تغييراً عما قبل، وسـط لحظات من التألق الجديد. ورُقي جينجي من مرتبة المستشـار الكبير ليغـدو وزير القصر. وقد أُضيف منصبه إلـى المناصب الأخرى، حيث لـم يكن هناك منصب مألوف شـاغر[1]. وعلى الرغم من أنه كان مـن المتوقـع الآن أن يمسـك بزمـام الحكـم، إلا أنه تنـازل عن هذا الـدور، دور نائب الإمبراطور، لمعالي وزير الميسـرة السـابق، وذلك على أساس أنه ليس مؤهلاً لمسؤولياته العديدة.

قـال معاليه، رافضاً قبول المنصـب: «لقد أجبرني المرض على الاسـتقالة من منصبي،

(1) كانت المناصب التي تنص عليها مواد القانون هي منصبا وزير الميسرة ووزير الميمنة، وبالتالي فإن منصبي وزير القصر (ناديجين)، أوتشي نو أوتودو والمستشار (دايجو داجين، أوكيوتودو) كانا، بمعنى من المعاني، منصبين غير رسميين، على الرغم من أن العرف كان يقرهما، وكانا يشغلان عادة. ويتوقع الآن من جينجي أن يعمل نائباً للإمبراطور الصغير.

وأنـا الآن كذلك أكثـر إيغالاً في العمر، ولذلك فإنني أشـك في أن بمقـدوري بالفعل تدبر الأمر». على الرغم من ذلك فإنه في البلد الآخر[1] أيضاً فإن الرجال أنفسـهم الذين اختفوا فـي رحـاب الجبـال في عهود غيـر مسـتقرة ومضطربة قد أقبلـوا، على الرغم من شـعرهم الأبيـض وكل ذلـك، ليخدمـوا في زمن السـلم، الأمر الـذي جلب لهم التقديـر باعتبارهم حكمـاء حقيقيين[2]، وهكذا أجمع الكافة علناً وفي المجالس الخاصة على أنه لا يمكن أن يكـون هناك اعتـراض على تولي معاليه الزمام في ظل العهـد الجديد، وهو منصب كان قد تخلى عنه لأسباب تتعلق بوهن الصحة. وقد حدث ذلك من قبل، ولذلك فقد قطع تقاعده، وأصبح مستشاراً، وقد كان في ذلك الوقت في الثالثة والستين من عمره.

كان قد فرض على نفسه نطاقاً من العزلة، ويرجع ذلك في أحد جوانبه إلى أنه قد أحس أن الدنيا تقف ضده، ولكنه الآن قد ازدهر كعهده السابق، وعلا شأن جميع أبنائه الذين عانوا عندمـا كانـوا في عداد المغضوب عليهم. وأصبح الاستشـاري، على وجـه التحديد، قائماً بأعمال المستشار. وكانت الصبية التي أنجبتها له ابنة المستشار الرابعة في الثانية عشرة من عمرهـا، وكان يربيهـا بعناية ليقدمهـا لجلالته. أما الابن[3] الذي كان قد غنى «تاكا سـاجو» فقد وصل الآن إلى مرحلة البلوغ. وقد حسد جينجي صديقه القديم على كل الأبناء الذين واصل إنجابهم من أم أو أخرى، وما نجم عن ذلك من حيوية في صفوف أهل داره.

كان ابـن جينجـي، الذي أنجبته لـه ابنة معاليه، فتى وسـيماً بصورة اسـتثنائية، وقد تردد علـى الغرفتين الخصوصيتين لـكل من جلالته وولي العهد. وكان جداه لا يزالان يحسـان بالحـزن علـى ابنتهمـا الراحلة بصورة حادة، و ذلـك على الرغم من أنهـا الآن وقد رحلت عنهمـا، فـإن بهاء جينجي وحده هو الذي رفع معاليه عالياً للغاية إلى حد أن سـنوات يأسـه قد تبددت، مفسـحة المجال للمجد. وقد أقبل جينجي للزيارة في كل المناسبات، ذلك أن نواياه الحسـنة لم تتغير، ولطفه البارع في التعامل مع مرضعات ابنه وكذلك مع الوصيفات الأخريات اللواتي بقين في الدار على امتداد السنين قد جلب السعادة بلا شك للكثيرين.

---

(1) الصين.

(2) يقدم «شيجي» مثالاً على أربعة رجال حكماء وموغلين في العمر عادوا من التقاعد ليخدموا الإمبراطورة لو، إمبراطورة الهان، في غمار الجهد الذي بذلته لتأمين ارتقاء ابنها العرش.

(3) الذي سيدعى كوباي في قابل الأيام.

انصـرف تعاطفـه إلى النسـوة، اللواتـي انتظرنه بالمثل فـي نيجـو، وأراد أن يرفع الروح المعنوية التي غمرها اليأس والقنوط طويلاً لنسـوة مثل تشـوجو وناكا تسوكاسـا، فغمرهن بألوان الاهتمام، بحسب مكانة كل منهن، إلى حد أنه لم يُتح له مجال للقيام بزيارات لأماكن أخـرى. وأمـر بإعادة بناء فخمة للدار ـ التي كانت من تراث نيافته الراحل ـ إلى الشـرق من سكنه في نيجو، وأمر بتشييد غرف هناك وفي ذهنه أن يجلب سيدة الزهور المتساقطة لتقيم فيها، جنباً إلى جنب مع الأخريات اللواتي أزعجته محنتهن.

آه، نعم، إنه لم ينس قلقه على السيدة التي تركها في حالة دقيقة للغاية في أكاشي، وعلى الرغم من الشؤون الملحة، العامة والخاصة على السواء، التي منعته من أن يوليها الاهتمام الـذي رغب فـي أن يمنحها إياه، فقـد أدرك عندما أقبل الشـهر الثالث، أن اليوم المناسـب لوضع حملها قد يحل سريعاً، وفي اندفاعة من الشعور المكنون في قرارة الفؤاد بعث إليها برسول.

عاد الرسول سريعاً، وأبلغه جلية الأمر: «تم الوضع في اليوم السادس عشر، وقد أنجبت طفلة، وكل شيء على ما يرام».

غمرت السـعادة جينجي، عندما أدرك أنه قد ولدت له ابنة، وراح يتسـاءل في مرارة عن السبب في أنه لم يحضر أمها لتلدها في المدينة.

كان عراف قد أبلغ جينجي بأنه سينجب ثلاثة أبناء سيصبح أحدهم إمبراطوراً، وستصبح أخرى إمبراطورة، أما الابن الثالث وأقلهم مرتبة فسـوف يصل إلى أعلى مرتبة مدنية، وهي مرتبة المستشـار. وبحسـب مـا توحي بـه المظاهر، فإنـه كان على حـق. وكان الخبراء في الفراسـة قد تنبأوا بأن جينجي سـيعلو نجمه إلى أعلى مرتبة ويحكم البلاد، ولكن سـنوات التعاسـة تدنت كثيراً بآماله، إلى حد أن تسـلم الإمبراطور الجديـد العرش بنجاح قد جلب له السـرور والغبطة. وقد وافق على أن أباه قـد حالفه الصواب عندما نحاه عن خط توارث العرش، وقد سـعد أبوه به على نحو يفوق سـعادته بأي ابن آخر من أبنائه الكثيرين. ولكن فـي إطار تفكيـر لاحق في ذلك القرار القاضي بجعل جينجي مـن العامة قد أكد له الآن أن أبـاه لـم يكن هو الذي اتخذ مثل هذا القرار، لا ليس ممكناً القول من كان جلالته حقاً، لكن خبيـر الفراسـة لم يكـن على خطأ. وإذ تطلع جينجي إلى المسـتقبل، فقـد رأى في هذا كله

التأثير الهادي لإله سوميوشـي. نعم، مصيرها أيضاً كان مصيراً غير عادي، ومن المؤكد أن أباها غريب الأطوار قد ضم جوانحه على طموحات تتجاوزه على الوجه الصحيح. وعلى الرغم مـن ذلك فـأي عار وأي إهـدار أن تمكث مخلوقة مقـدر لها الارتفـاع إلى مثل هذا الذُرى إلى الدنيا في مكان ناء للغاية على هذا النحو! لسوف يتعين عليه أن يجلبها إلى هنا، عندما يعم الهدوء كل شيء من جديد. وأصدر أوامره بالإسراع في إعادة بناء دارته الواقعة إلى الشرق.

لـم يسـتطع تصـور العثور على أي إنسـانة جديـرة[1] في مـكان مثل أكاشـي، ولكنه في غضون ذلك سـمع بابنة وصيفة بارزة خدمت في عهد نيافته الراحل، وكان أبوها في وقت وفاته سـيداً لمكتب القصر واستشـارياً، والتـي ابتليت بفقدان أمها، ووضعـت ابناً في هذه الظـروف المثبطـة. ومن خلال الشـخص الـذي أبلغه بأمرهـا أفلح جينجي فـي الحصول بصـورة مرضية على موافقتها. كانت لا تزال شـابة، وينقصها النضـج، وقد اكتأبت بصورة محزنة بفعل حياة قضتها في الحزن في دار أقرب إلى الأطلال، فلم تتوقف لتفكِّر إلا بالكاد فيما عُرض عليها، حيث أحبت كثيراً فكرة أن تكون قريبة منه إلى حد أنها أعلنت أنها تحت أمره، وبادر جينجي الذي أحس بالأسف عليها، إلى إرسالها تواً إلى أكاشي.

كان قـد انسـل لرؤيتها بنفسـه، عندمـا أُتيحت له فرصـة للقيام بذلك. وعلـى الرغم من موافقتهـا المبدئية، فقد أخذ القلق يسـاورها حول ما يجدر بها القيـام به حقاً، ولكن زيارته المرضية هدأت مخاوفها، ووافقت على أن تحقق رغبته.

بدا يوماً ميمون الطالع، وأهاب بها أن تنطلق في التو. قال: «لسوف تظنين أن ذلك شيء فظ على نحو غريب من جانبي، ولكن لديَّ سـبباً محدداً[2] يدعوني لذلك، فكوني صبورة قليـلاً، وتذكـري أنني بدوري قـد تعذبت، حيث لم أفكِّر في أنني سـأمضي قط!». وواصل الحديث ليبلغها بكل شـيء عن المكان الذي تشـد الرحال إليه. كان قد سبق له أن رآها من قبل، لأنها غالباً ما كانت تقوم على خدمة أبيه، على الرغم من أن حظها قد تراجع على نحو

(1) بأن تكون مربية ابنته.

(2) إنه يعرف أن ابنته ستكون إمبراطورة في قابل الأيام، وهو حريص على أن تستهل المربية رحلتها في يوم ميمون الطالع بما فيه الكفاية، بحيث يتناسب مع مستقبل الوليدة.

محـزن منذ ذلك الحين. وكانت دارها أيضاً، علـى الرغم من أنها رحبة، متداعية بصورة لا توصف، والأشجار المحدقة بها موحية بكآبة شديدة، إلى حد أنه قد تساءل كيف أمكن لها أن تحيا هناك. ومع ذلك فقد كانت شابة وجميلة ولـم يستطع رفع عينيه عنها.

قـال مترثـراً: «إنني أحس بأنني أود إبقاءك هنا، في نهايـة المطاف، فماذا عنك؟» بدا لها من الصحيح أنه إذا تساوت الأمور، فمن الخير لها أن تسعى للإفلات من أحزانها في غمار خدمته الحميمية. قال:

«ليس الأمر كما لو كنا أقرب الأصدقاء على مرِّ السنين،

لكن احتمال الفراق رغم ذلك يثير الألم .

ربما يتعين عليَّ القدوم وراءك».

ابتسمت، وردت قائلة:

«شكواك هذه من أنك مرغم على الفراق على حين غرة

لا يمكن إلا أن تعني أنك تتوق إلى الذهاب حيث يمضي بك الحنين» .

استلطف كثيراً ردها البارع.

غـادرت المدينة مسـتقلة عربة. وأمـر جينجي بأن يصحبها تابع مقـرب منه، بعث به مع توجيهات بالتزام السـرية المطلقة. كان المتاع يفيض بالخنجر[1] والهدايا الأخرى المناسبة بصورة مماثلة، حيث لم يترك شـيئاً لم يقم به على وجهه الأكمل، وأبدى سـخاء اسـتثنائياً نحو المرضعة كذلك. وغالباً ما جعلت فكرة المترهبن وهو يداعب حفيدته جينجي يبتسم، ولـم يـدع عمـق اهتمامه المفعم بالولع بها أي شـك فيمـا يتعلق برابطة الكارمـا تلك. وقد توسل لأمها في رسالته ألا تهمل ابنتهما:

«ألا ليت هذين الكمين يمسانها بعنايتهما، ألا ليتها تحيا طويلاً

كالصخرة التي يمسها جناح الملاك، دهراً بعد دهر طويل»[2].

(1) كانت الوليدة رفيعة المنبت تتلقى خنجراً (ميهاكاشي) لدى ميلادها.

(2) يُعرِّف الفن الشعبي البوذي الدهر بأنه الوقت الذي يتطلبه الأمر لكي تتفتت صخرة يحتك بها جناح ملاك مرة كل ثلاث سنوات.

ارتحل الجميع بالمركب حتى مقاطعة سيتسو، ومن هناك واصل السير براً نحو هدفه.

حيا المترهبن المربية بآيات التوقير المفعم بالبهجة. وعندما انعطف باتجاه المدينة، جعلت فكرة اهتمام جينجي الأكثر سمواً الوليدة الصغيرة أكثر قرباً من القلب، ودفعته حتى إلى الشعور بالرهبة.

كانت جميلة بصورة بالغة العذوبة والكمال إلى حد يبعث في النفس الرهبة، ولا عجب أن جينجي في غمار حكمته رغب في أن يتيح لها كل ميزة يمكنه توفيرها. وكانت المربية قد أحست كأنها في حلم عندما انطلقت في رحلتها الغريبة، ولكنها حيال هذه الخاطرة ذاب انزعاجها، واعتنت بها أرق ما تكون العناية.

كانت أم الوليدة قد غاصت، على امتداد شهور، في الكآبة، وأحست بأنها تزداد وهناً بصورة مضطردة، إلى أن ساورها الشك في أنها لن تعيش طويلاً، ولكن هذه الخطوة الجديدة من جانب جينجي جعلتها تحس بأنها أفضل حالاً، فرفعت عينيها من جديد، ورحبت برسول جينجي بحرارة، ولما كان الرسول حريصاً على بدء رحلة العودة، فقد سطرت لجينجي بعض خواطرها:

«كمّاي البائسان هذان أضيق مما ينبغي، فليس بمقدوري أن أداعبها وحدي ،

وأتطلع إلى الصنوبرة السامقة لتلقي ظلها»[1]

أحس جينجي بجاذبية عجيبة، ولم يطق صبراً على رؤية ابنته.

حتى الآن لم يكن قد ذكر إلا القليل لسيدته بالدار، ولكنه لم يرغب في أن تسمع بأمور من آخرين، فقال في إشارة عابرة: «هكذا فالأمر يبدو كذلك. يا له من شأن غريب ومربك! كل اهتمامي منصرف إلى أخرى، والتي سيسعدني أن تحظى بنعمة على نحو مماثل[2]، والأمر كله مفاجأة محزنة ومضجرة أيضاً، حيث أنني أسمع أن المولود طفلة. وأحسب أنني ينبغي أن أتجاهلها حقاً، ولكنني لا أستطيع القيام بذلك. لسوف أبعث في إحضارها وأدعك ترينها، لا ينبغي أن تشعري بالضيق».

---

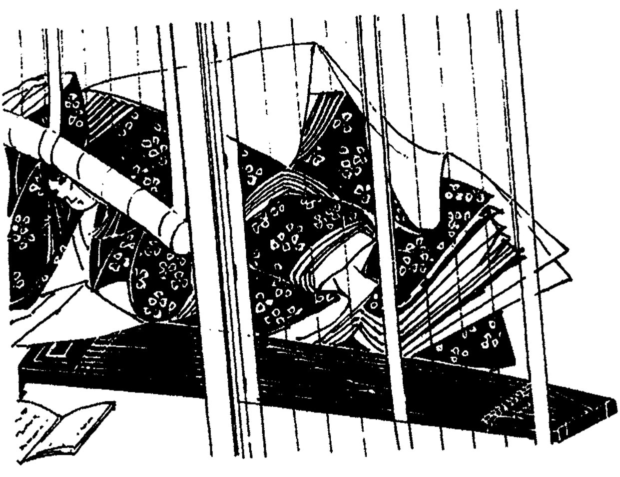
(1) جوسينشو 64: «آه، كم أتوق إلى كمين واسعين بما يكفي لتغطية السماء بأسرها، حتى أحفظ البراعم الربيعية من الرياح!». تحقق القصيدة كذلك تلاعباً بلفظ ماتسو، الذي يعني «شجرة الصنوبر» و«ينتظر».

(2) «أتمنى لو أنك رزقت طفلاً».

تضرَّج وجهها، وقالت وقد استبد بها الضيق: «لا تفعل ذلك، لطفاً! إنك تصطنع دوماً مشاعر على ذلك النحو من أجلي، عندما أضيق ذرعاً بها. ومتى تحسب أنني تعلمت أن تكون لي هذه المشاعر؟».

قال جينجي بابتسامة مشرقة: «آه، نعم، من يمكن أن يكون قد علمك؟ إنني لم أرك أبداً على هذه النحو، ها أنت غاضبة مني بشأن خيالات وهمية من ابتكارك لم تخطر لي على بال قط. الأمر صعب للغاية!» وكان على شفا البكاء.

حدَّثتها ذكريات حبهما أحدهما للآخر التي لا تنتهي عبر السنين والرسائل التي غالباً ما تبادلاها بأن كل علاقاته هي مجرد تسليات، وانداح الأمر بعيداً عن ذهنها.



سو نو كوتو

قال جينجي: «إنني إذا كنت قلقاً بشأنها فلأن لديَّ أسبابي التي تحدوني إلى الشعور بذلك، ولسوف تمضين إلى تخيل الأمور فحسب، إذا أخبرتك بها في وقت أبكر مما ينبغي». لزم الصمت لحظة، وأضاف: «لا بد أن المكان هو الذي جعلها تروق لي إلى حد بعيد، وأحسب أنها كانت شيئاً جديداً». وواصل الحديث ليصف الدخان في ذلك المساء الحزين، الكلمات التي تبادلاها، وإيماءة إلى ما رآه في محياها تلك الليلة، وسحر آلة الكوتو الموسيقية الخاصة بها، وتدافع هذا كله بشعور جلي للغاية إلى حد أن سيدته استقبلته استقبالاً سيئاً.

حدَّثت نفسها قائلة: ها أنا ذي، بائسة تماماً، وهو بغض النظر عما إذا كان ما يقوم به تزجية بسيطة للوقت من عدمه يمنح قلبه لأخرى! حسناً، إنني لا أعدو أن أكون ذاتي! أشاحت بوجهها بعيداً، وتنهدت، وقالت كأنما تحدِّث نفسها: «وقد كنا ذات يوم سعداء للغاية معاً!

«ليس كريشات العشاق المولعين الحائرة التي تتبع الريح نحو لم الشمل،

لا، وإنما كالدخان أنا نفسي أتمنى لو أنني رحلت منذ زمن بعيد»[1].

«ماذا؟ لم؟ يا له من شيء تقولينه!

من أجل من إذن على وجه الدقة عانيت كثيراً وضربت في التلال والبحار

غالباً على وشك الغرق في فيض لا ينتهي من الدموع؟.

آه، أتمنى لو كان بمقدوري أن أوضح لك كيفية شعوري حقاً! أحسب أن ذلك يقتضي عمراً، والمرء لا يعرف قط.. ذلك كله من أجلك كما ترين، إنني أريد بشدة أن أتجنب قيام نساء أخريات بإدانتي من أجل لا شيء». اجتذب آلة السونو كوتو الموسيقية الخاصة بها إليه، وانهمك على مهل في أداء المقدمة التمهيدية ليغريها بالعزف، ولكنها أبت أن تلمس الآلة، ربما لأنها استاءت حيال ما عرفته عن مهارة تلك الأخرى في العزف. وعلى الرغم من كل براءتها الهادئة وعذوبتها ونبلها، فقد كان لا يزال لها جانب عنيد، وعندما تجرح مشاعرها، كما هي الحال الآن، فإن حنقها يكتسب لمسة بالغة العذوبة بحيث أن كل ذلك لا يسفر إلا عن أن تروق له بشكل أكبر.

قدّر جينجي في حسابات أجراها مع نفسه، أن اليوم الخامس من الشهر الخامس سيكون اليوم الخمسين لميلاد ابنته، وفكَّر فيها بفضول مترع بالشغف والعاطفة. كم كان يمكن أن يكون الأمر أكثر إرضاء لو كان بمقدوره الاحتفال بميلادها هنا وكم كانت هذه المناسبة ستغدو أسعد! كم هو مخجل أنها جاءت إلى الدنيا في مكان يبعث على القنوط كذاك المكان! إنها ما كانت لتشغل باله على هذا النحو لو كانت صبياً، ولكنه أسف على عناء ميلادها في هذه الظروف، وفكَّر في أن مصيره الذي اعترته الشوائب كان هو مصيرها.

بعث بموفد يحمل تعليمات عاجلة بالوصول إلى هناك، وقد وصل الرجل حقاً في اليوم الخامس من الشهر، وكانت هدايا جينجي المختارة بعناية سخية على نحو رائع، وقد أدرج فيها هدايا عملية كذلك. وقد كتب يقول:

«أنى لها أن تعرف الصنوبرة البحرية الصغيرة التي تقبع حياتها كلها في الظل

(1) «أتمنى لو أنني كنت ميتة».

مهرجان السوسن البري الرقيق اليوم من يومها الخمسين؟[1].

قلبي طار إليها شوقاً، كما تعلمين، فاحسمي رأيك فيما يتعلق بالقدوم، لأنني ليس بمقدوري مواصلة العيش على هذا النحو. وأعد بألا تحتاجي إلى القلق على شيء». وكالمعتاد بكى المترهبن من فرط البهجة، وليس من المدهش أنه في وقت كهذا أغرقته السعادة في فيض من الدموع.

كان هو بدوره في أكاشي قد اعتنى بكل شيء على نحو رائع، ولكن من دون موفد جينجي فإن كل شيء كان يمكن أن يبدو كأن الظلام قد ابتلعه. وفي غضون ذلك كانت المربية سعيدة بصحبة هذه السيدة الأكثر كمالاً وجاذبية إلى حد أنها نسيت أحزانها. وتم إحضار وصيفات أخريات لسن أقل جدارة منها، بحسب ما سمحت الصلات العائلية، ولكنهن وقد خرجن على نحو محزن من الخدمة في الدور العظيمة بالمدينة، ولم يردن إلا الاستقرار هنا في هدوء «وسط الصخور»، بينما احتفظت المرأة بكل مكانتها واعتزازها بنفسها. وكانت الحكايات التي ترويها جديرة بالإصغاء إليها. وفيما يتعلق بموضوع سموه[2]، فقد فصلت القول بحماس امرأة عن مظهره، والتقدير الحافل الذي يلقاه من الجميع، إلى أن غدت سيدتها الجديدة، التي عنت الكثير بالنسبة له والتي أنجبت له ابنة، تقدِّر نفسها بصورة أرفع. وقد قرأتا رسالته معاً. قالت المرضعة لنفسها: «آه، البعض لديهن الحظ كله، بينما لا شيء منه لي!» ولكن استفسار جينجي الحصيف عنها أسعدها كثيراً، وأحست بأنها أفضل كثيراً، ردت السيدة قائلة:

«مجدداً في هذا اليوم، الخمسين بالنسبة لطائر الكركي الباكي في مرج

هذه الجزيرة، محتجباً عن العيون، ما من أحد سأل عنه[3].

لعلك تدرك أن وجودي الهش وقف على العزاء النادر النابع من رسالة منك، ذلك أن كل شيء يدفع بي نحو اليأس. ولسوف يسعدني أن أجد سبباً يدعوني إلى التطلع إلى

---

(1) بالتلاعب بالكلمات، الذي تم جعله واضحاً هنا، تنوح قصيدة جينجي على ميلاد ابنته في مكان ناء. «الصنوبرة البحرية» (يونيماتسو) هي بالفعل نوع من العشب البحري غالباً ما يقال له ميرو.

(2) جينجي. سيصبح هذا هو لقبه من الآن فصاعداً في هذه الترجمة.

(3) «الكركي» يُراد به الطفلة الصغيرة و«الجزيرة» هي الأم.

المستقبل».

قرأ جينجي رسالتها مراراً، وتنهد طويلاً وبصوت عال. رمقته سيدته بنظرة من طرف عينها، ثم حدقت حزينة أمامها، مغمعمة: «المركب الذي يجذف نحو البحر مبتعداً عن الشاطىء..»[1].

قال جينجي في ضيق: «إنك تقصدين تضخيم هذا الأمر حقاً. أليس كذلك؟ كل ما هنالك أنني أشعر الآن بالأسف عليها. وتلك الأيام التي ترد على ذهني عندما أفكِّر في طبيعة ذلك المكان، وأحدِّث نفسي قليلاً. وأنت لا تفتقدين الرسالة. أليس كذلك؟». لم يطلعها إلا على الغلاف الخارجي للرسالة فحسب[2]. كان الخط يتسم بطابع رائع يجعل أعظم السيدات تخجل من خطها، فأدركت السر في المشاعر التي يكنها جينجي لمن بعثت بالرسالة.

يا للحسرة، بينما مضى جينجي يسترضي سيدته، أهمل تماماً سيدة أخرى في قرية الزهور المتساقطة. وقد شغلته الشؤون العامة الآن، وشجعته ضوابط رتبته على التزام الحرص والحذر، ويدرك المرء أنه ما من شيء جاء منها قد أخرجه عن شعوره بالرضا عن الذات.

استجمع شتات نفسه، ومضى للقائها خلال الفترة المضجرة التي تنهمر فيها الأمطار طويلاً، عندما لم يكن هناك إلا القليل مما يشغله في الدار أو خارجها، ولم يستشعر خشية، فأهل الدار لا يعيشون إلا من سخائه في المناسبات العديدة، التي تتجه خواطره من بعيد إليهم خلالها، ولم يكن من المحتمل أن تنغمس في شكاوى مزاجية تستند إلى شعورها بأهميتها.

كانت الدار قد تداعت على نحو حافل بالنذر، منذ زيارته الأخيرة لها قبل سنوات. واستقبلته الزوجة السابقة، وكان الليل قد أوغل في مسيرته عندما مضى إلى الأبواب

(1) كوكين روكوجو 1888: «المركب الذي يجذف نحو البحر مبتعداً عن الشاطىء في كومانو يغادرني ويوغل في الابتعاد».

(2) كان حرياً بمثل هذه الرسالة أن تُغلف أولاً في مظروف رسمي (رايشي) ثم في غلاف خارجي (وازوتومي) يحمل اسم الشخص الذي تُوجه إليه الرسالة.

الغربية المزدوجة. تألق قمر شاحب منسلاً إلى الداخل، كاشفاً بهاء جينجي الساحر كله. كانت لا تزال جالسة، أكثر خجلاً وارتباكاً من عهدها، تحدِّق إلى الخارج من موضع قريب من الشرفة، وكان قوامها الهادىء مما يسعد العين أن تراه. تعالى صياح دجاجة ماء غير بعيد.

«لو لم تصح دجاجة ماء كأنما تطرق بوابتي، فما الذي سيدفعني
للسماح للقمر بالولوج إلى داري المتداعية على نحو حزين؟».

قالتها بتحفظ آسر ذكَّره فحسب بمدى إعزازه لكل من سيداته، وكيف أن اعتدالها ذاته يضعه في موضع صعب.

«دجاجة الماء، كما تعلمين، تجرب الطرق على كل البوابات، ولئن أزعجك هذا
فربما تجدين أنك تسمحين بدخول قمر بالغ الخفة واللهو».

هكذا رد على إشارتها، على الرغم من أنه لم يتشكك لحظة في أنها تتسم بأي استهتار في السلوك من هذا النوع. ولم يغفل عن إبداء تقديره لانتظارها الصبور له عبر السنين.

تحدَّثت عن الوقت الذي انضم فيها إليها «لتشيح بعينيك عن سماء متشحة بالسحب»[1]. وقالت: «لماذا تصورت أن ذلك هو أسوأ بؤس يمكن أن أعانيه؟ إن سوء طالعي الآن هو على حاله». وأوحت له طريقتها في الحديث بسحر هادىء. وكما هي الحال دوماً فقد استدعى من مصدر ما فيضاً من البلاغة ليطيب خاطرها.

لم يفلح هذا النوع من الأمور في أن ينسيه راقصة جوسيتشي، لكنه لم يكن من السهل أن يراها مجدداً، وذلك على الرغم من أنه تطلع بشغف للقيام بذلك، ولم يفلح في الابتعاد. كانت لا تزال تتوق إليه توقاً شديداً، في نهاية المطاف، وعلى الرغم من محاولات والديها المفعمة بالإعزاز لجعلها تغير رأيها، فقد تخلت عن فكرة أن تعيش حياة عادية[2]. وقد قصد من خطة البناء الممتد، بل إنه جمع سيدات مثلها ذات مرة معاً، أن تسمح له بالعناية بأي سيدة جديرة باهتمامه، في حالة ظهور مثل هذه السيدة في أفق حياته. وتقرر أن تكون

(1) خلال زيارته الوداعية لها في «سوما».

(2) قوامها الزواج.

الـدارة أكثـر ثراء في المعالـم البهيجة، وأكثر حداثه فـي طرازها من داره الحالية. وقد اختار رجـالاً مـن ذوي الذوق الرفيع من بيـن حكام الأقاليم، وعهد إلـى كل منهم بمهمة بغرض الإسراع في البناء.

حتى الآن لم تسـتطع سيدة العاملين بالقصر التخلي عن جينجي، وهو في غمار صعوبة تغيير عاداته بادلها شـعورها، ولكنها تعلمت درسها من التجربة المريرة، ولـم تشجعه كذي قبل، وعلى الرغم من عودته السعيدة، إلا أنه أحس على نحو غير مريح بالصدّ الذي يتعرض له، وافتقد صلة الحب التي ربطتهما.

عقـد نيافتـه[1]، الذي نظر إلى الحياة الآن بصورة متسـامحة، بين الحين والآخر لقاءات موسيقية بهيجة للغاية وما إلى ذلك من التجمعات، وواصلت زوجاته والسيدات المقربات منـه القيام على خدمته، ولـم يقـدر لأم ولي العهد وحدها أن تحظى بكبير عطف من جانبه، حيث تراجعت مكانتها في حياته العاطفية بفعل تأثير سـيدة العاملين بالقصر، ومن هنا فقد تحولت إلى الاعتماد على حسـن الطالع الذي لا يتخلـى عنها، وانتقلت للقيام على خدمة معاليه.

كان مقـر جينجـي في القصر هو، كالعهد سـابقاً، جنـاح كيريتسـوبو، وكان ولي العهد، الذي أقام في جناح ناشيتسـوبو[2] يلتقيه في كل مناسبة، بروح الحميمية النابعة من الجيرة، وقدَّم له جينجي يد العون.

لمـا لم يكن بمقـدور نيافتها المنعزلة أن تحصل على مرتبة جديدة بصورة مناسـبة، فقد تـم منحها تعويضـات إمبراطور متقاعـد[3]. وأُعيد تكليف ضباط أهل دارهـا بمهام تتوافق مع ذلك، وعاشـت نمط حياة رفيع الشأن، وظل شـغلها الشاغل العكوف على الابتهالات الدينيـة والاضطـلاع بالأعمـال التي تكفل لها الثـواب. وقد حال التخوف مـن الظهور في البلاط بينها وبين رؤية ابنها، في سنوات القلق والأسى المكثفين تلك، ولكنها الآن أصبح

(1) سوزاكو، الذي تنازل عن العرش أخيراً لرايزي.

(2) إلى الجنوب مباشرة من جناح كيريتسوبو.

(3) لما كانت فوجيتسوبو راهبة، فليس بمقدورها أن تحمل مرتبة ولقب الإمبراطورة الأم. وكانت في السابق تحظى بدخل من ناتج وعمل ألف وخمس مئة عائلة، والآن ها هو هذا الرقم يرتفع إلى ألفي عائلة.

بمقدورها القدوم في سعادة والمضي إليه كيفمـا طاب لها. وقد كانت الإمبراطورة الأم[1] هـي التي وجـدت الحياة مريرة للغايـة. وفي المناسـبات كان جينجي يعاملهـا بلطف مثير للحرج، ولم يؤد هذا إلا إلى جلب تخوف جديد من أنه بدوره سيثير لغطاً من التقول.

كان معالـي وزيـر الحـرب قد التزم، علـى مدار السـنين، بموقف غير مـوات، ولـم يعد جينجي، الذي دان استسـلامه لرأي البلاط، يبقي على الأواصر القديمة معه. وعلى الرغم مـن أنه بصفة عامة يبدي ترحابـاً بالجميع، إلا أنه في بعض الأحيان أظهر نحو معاليه بغضاً لاحظته نيافتها المنعزلة بأسف وإحجام عن الموافقة.

تشـارك المستشـار وجينجي الحكـم فيما بينهمـا بصـورة متوازنة، واضطلعا بسـلطاته كأفضل ما بوسعهما.

في الشـهر الثامـن، بعث القائم بأعمـال المستشـار[2] بابنته لخدمة جلالتـه. وقد كرَّس جدها نفسـه للإشراف على ذلك، فجاء الحفل الذي أقيم بهذه المناسبة على نحو ما يمكن لأي شـخص أن يتمنـاه. وكان معالـي وزيـر الحرب قد ربـى ابنته الثانية، التـي حظيت منه بأعظم قدر من الرعاية، وفي ذهنه الطموح نفسه. ولكن جينجي لم ير مبرراً يدعو لتفضيلها على غيرها. ما الذي كان يفكِّر فيه أبوها؟

فـي ذلـك الخريف، مضى جينجي فـي رحلة الحج إلى سوميوشـي. وتمثلت معيته في جمـع كبيـر، حيث أنه كان بسـبيله لإبداء الشـكر على الاسـتجابة لصلوات عديـدة، وقدَّم البلاط بأسـره، بمن في ذلك كبـار النبلاء والوصفاء الخصوصيين على السـواء، خدماتهم له فيما يتعلق بالرحلة.

تصـادف أن السـيدة من أكاشـي التـي قامت بالحج كل عـام، كانت قد قـررت الذهاب للحـج أيضـاً، ويرجع ذلـك في أحد جوانبه إلـى أنها لم تقم بالحج العـام الماضي أو حتى هذا الوقت من هذا العام بسبب حالتها[3]. وقد سافرت بحراً. ولدى وصولها إلى الشاطىء

(1) الزوجة السابقة كوكيدين، أم الإمبراطور المتقاعد الحالي.

(2) تونو تشوجو.

(3) لم يجعل حملها الرحلة بالغة الصعوبة بالنسبة إليها فحسب، وإنما كانت في حالتها تلك ملوثة، وبالتالي لا يليق بها الاقتراب من المزار.

وجدت المكان يعج بجمع هائل وصاخب من الحجاج، بينما كان موكب يحمل كنوزاً نفيسة للآلهة. كان عشرة موسيقيين، بدا جلياً أنهم قد اختيروا لحسنهم الفائق، يرقصون وقد ارتدوا جميعاً ملابس موحدة اللون. ولا بد أن رجالها قد سألوا أي حاج هذا الذي وصل، حيث أن خادماً متواضعاً على نحو ميؤوس منه قد انفجر ضاحكاً، وصاح: «انظروا، هاهنا قوم لا يعرفون حتى أن سموه موجود هنا لرفع آيات شكره!».

حدَّثت نفسها قائلة: آه، أخذاً في الاعتبار كل الأيام الموجودة، في كل شهور العام، فهذا أمر بالغ القسوة حقاً! إن رؤية مجده على هذا النحو من بعيد لا تجعلني إلا آسفة على كوني من أكون. نعم، إن لي به صلة شاءها القدر، ولكن أي كارما قاس هو ذاك الذي مُنيت به، عندما يتاح حتى لهذا الكائن البائس أن يتباهى متفاخراً بأنه في خدمته، وأنا التي تتوق إليه انطلق في جهل تام بهذا اليوم العظيم؟ غمرها هذا الدفق من التأملات بالأسى، فبكت في خفية عن العيون.

تدفقت العباءات الرسمية فاتحة وقاتمة بأعداد لا حصر لها، تحت خضرة أشجار الصنوبر العميقة، كأنما كُسيت بالزهور أو أوراق أشجار الخريف. وبرز الحجاب بملابس خضراء في لون أوراق الشجر وسط الوصفاء الشبان من المرتبة السادسة. ومساعد عرس القصر ذاك الذي كان قد تحدَّث بمرارة بالغة عن حاجز كامو، أصبح ينتمي الآن إلى مراقبة البوابة، وكان حاجباً كذلك، بحشده الخاص من المساعدين. وبدا يوشيكيو، وهو ضابط مراقبة بوابة كذلك، منطلقاً على نحو خاص، ولاح في عباءته الحمراء[1] شديد التألق حقاً. وأولئك الذين سبق لها أن رأتهم في أكاشي كانوا جميعاً متناثرين هنا وهناك، وقد تحولوا إلى التألق، وتخلصوا على نحو جلي من الهموم، بينما تنافس كبار النبلاء والوصفاء الخصوصيون أحدهم مع الآخر، وقد تألقت جيادهم وسروجها المطهمة، وبدوا لمن يشاهدونهم من أبناء الريف مشكلين مشهداً يخطف الأبصار.

لم يضايقها إلا أنها لاحظت عربة جينجي في البعيد، ولم تستطع أن تتبين الشخص الذي تاقت لرؤيته. وكان قد أعطى مرافقين يتألفون من الأتباع الشبان على غرار وزير

(1) اللون الخاص بالمرتبة الخامسة، وهو لون أسمى من اللون الأخضر المرتبط بالدرجة السادسة.

ضفـة النهر[1]، عشـرة منهم يتسـمون بالوسـامة، بل والقامـات الفارعة، ويرتـدون ملابس بهيجـة، وقد رُبط شـعرهم في خصلات تـوأم، عُقدت بقطع من قيطـان أبيض ضارب إلى اللـون الأرجوانـي القاتم عند الأطراف. وقد تمتعوا جميعاً بجاذبية منعشـة بصورة خاصة. وكان ابـن جينجـي الذي أنجبتـه له ابنة معاليه، وهو شـاب أنعم عليه أبوه بـكل المزايا، قد أحـاط به أتباعـه ومرافقوه، وقد ارتدوا زيـاً موحداً بحيث لا تخطئهم العين. وبدت سـماء مدينـة جلالته[2] نائية للغاية ومجيدة إلى أبعد الحـدود، بحيث أنها ناحت على افتقار ابنتها الأهمية، فلم تملك إلا التحول نحو المزار والانهماك في الصلاة.

وصـل حاكـم المقاطعة[3]، ولا شـك في أنه قد أعد اسـتقبالاً رائعـاً لجينجي، يفوق أي استقبال لوزير عادي. وأحست على نحو مؤلم بأنها لا مكان لها. والإله نفسه لن يلاحظها ولن يصغي إليها إذا اختلطت بالجمع، لتؤدي طقسها الصغير المضجر، ومن شأن الشروع مباشـرة فـي العودة أن يكون مخيباً للآمال كثيراً. لا، لسـوف ترسـو اليوم فـي نانيوا، حيث سيتاح لها على الأقل القيام بطقس التطهر. وبهذه الفكرة في ذهنها انطلقت بمركبها بعيداً.



رقصة من "الرقصات الشرقية"

(1) كان وزير ضفة النهر (كاوارا نو أوتودو ميناموتو نو تورو) (895 – 822) أول ابن لإمبراطور يتلقى لقب ميناموتو (أو جينجي).

(2) تعبير إيضاحي عن كوموى («مملكة السحاب»، «السماء») التي تومىء بصورة متواترة إلى العالم السامي للإمبراطور والبلاط.

(3) حاكم مقاطعة سيتسو، حيث يقع مزار سوميوشي (وسوما).

أمضى جينجي، الذي لم يعلم شيئاً عن هذا، الليلة في تقديم القرابين للإله بشتى الأشكال، ولم يدع إيماءة قد ترضيه حقاً إلا بادر بها على نحو يتجاوز الإعراب عن تشكراته على البركات، التي غمرته في الماضي، فقد جعل السماء تصدح حتى الفجر بالموسيقى الجميلة وإيقاعات الرقص. وأحس رجاله، من قبيل كوريميتسو، بالامتنان الصادق للعون الإلهي الذي تلقوه. وعندما خرج جينجي[1] لفترة قصيرة، مثل كوريميتسو بين يديه وقال:

«تذكر أجمة الصنوبر العظيمة هذه ههنا في سوميوشي بالكثير من المحن

عندما يرحل بي الفكر إلى تلك الأيام في ظل رعاية الإله»[2].

حقاً إنها تفعل ذلك، هكذا حدَّث جينجي نفسه، وتذكر بدوره:

«ما من أمواج عاتية كتلك التي تلاطمت على ذلك الشاطىء أمكنها أن تزعزعني

فتبعد عن الذاكرة ذكرى إله سوميوشي وعطاياه الجزيلة .

غامرة هي بركاته». هكذا رد محقاً.

أحس جينجي بالأسف البالغ، عندما علم بأن كل هذا الضجيج قد تسبب في إبعاد مركب آت من أكاشي، وتمنى لو أنه كان قد عرف بذلك في حينه. وقد فكَّر هو الذي عرف بركات الإله حق المعرفة في أن يطيب خاطرها برسالة على الأقل، فلا بد أنها تألمت. وانطلق خارجاً من المزار، ومضى في تجوال حمله بعيداً ونائياً. في نانيوا أدى أكثر طقوس التطهر مهابة وجلالاً. ودفعه مشهد قناة هوري[3] إلى التغني قائلاً: «لم يعد لي شيء الآن إلا محاولة لقائها في نانيوا..»[4]. ولا بد أن كوريميتسو، الذي كان بجوار عربته قد سمعه، لأنه في المرة التالية التي توقفت فيها العربة، قدَّم له فرشاة قصيرة المقبض، كان يحتفظ بها

---

(1) من السرادق الذي جلس فيه لمشاهدة الرقص.

(2) «تلك الأيام في ظل رعاية الإله» (كاميو، تعني حرفياً «عصر الآلهة») تشير إلى سوما وأكاشي، وتقر بالحماية الإلهية التي حظى بها جينجي هناك.

(3) قناة شهيرة في الشعر يُقال إنها حُفرت في عهد الإمبراطور تينمو (حكم في السنوات 673. 686).

(4) من جوسينشو 960، من نظم الأمير موتويوشي: «لما كنت تعيساً للغاية، فلم يعد لي الآن إلا السعي للقائها في نانيوا، على الرغم من أن ذلك يعني منح ذاتي كلها». تحقق القصيدة تلاعباً فيما يتعلق بالمقاطع مي ـ أو ـ تسو ـ كو ـ شي= = (منح ذاتي كلها) التي تشكل أيضاً الكلمة التي تعني «معلم القناة» (سارية تثبت في قاع مجرى ملاحي لتحديد القناة الملاحية). وفي الشعر ارتبط ميوتسوكوشي بقناة هوري.

في الطية الأمامية لردائه، تحسباً لاحتياج جينجي إليها، فسر جينجي، وكتب على ورقة من النوع الذي يُطوى:

«أنا الذي أمنح ذاتي كلها لقاء حبك أحظى بمكافأتي، حيث أجدك هنا،

عند موضع انطلاق القناة عميقاً، وهو ما يبرهن على قوة ما بيننا»[1].

أعطى الرسالة إلى كوريميتسو، الذي بعثها مع خادم عليم بالأسرار.

خفق قلبها، عندما رأت تابعه يقبل مسرعاً، لكن رسالته على الرغم من قصرها أثرت في نفسها بعمق، وفي غمار امتنانها انبعثت تبكي:

«أفتقر إلى أي جدارة، فليس لي من لقب يدعوني للمطالبة بأي سعادة

ترى ما الذي تملكني إذاً لأمنح ذاتي كلها لقاء الحب؟»[2].

بعثت برسالتها مربوطة براية مقدسة من طقوس تطهرها في جزيرة تامينو[3]. سرعان ما ستغرب الشمس. ولا بد من أن الحالة المزاجية التي أثارتها المشاهد الطبيعية، مع تدفق المد المسائي وترديد طيور الكركي لصيحاتها بأقوى ما في صوتها من قدرة، على امتداد الخليج الصغير، هي التي جعلت جينجي يتوق إلى أن يكون بصحبتها، في تحد للعيون التي ترمقه فاحصة:

«مبتلة الآن بالندى، كما في تلك الأيام التي عرفناها، لا تجد ملابس ترحالي

ملاذاً في اسم جزيرة تامينو»[4].

على امتداد الطريق، استمتع بمباهج الرحلة، وسط الموسيقى العذبة، لكن قلبه كان لا يزال معها في نهاية المطاف. تزاحمت الفتيات المعنيات على موكبه، وبدا كل الشباب المولعين بخطب ود النساء، بمن في ذلك كبار النبلاء، متطلعين إليهن في رضا وحبور،

(1) يضيع التلاعب الرئيسي الذي تحققه القصيدة فيما يتعلق بميو تسوكوشي في غمار الترجمة. وقد ذكرت «معالم القناة» الخاصة بقناة هوري جينجي بـ«منح ذاتي كلها».

(2) يتم تكرار التلاعب المتعلق بميوتسوكوشي، وهناك تلاعب آخر فيما يتعلق بمقاطع الاسم نانيوا.

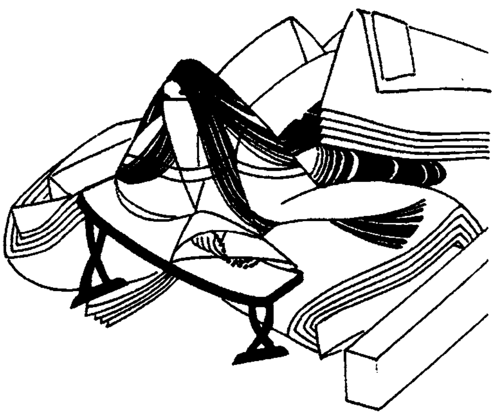
(3) اختفت منذ زمن طويل جزيرة تامينو، التي كانت تبرز في وقت من الأوقات قرب مصب نهر يودو.

(4) «أبكي شوقاً إليك على نحو ما كنت أفعل في أكاشي». المقطع مينو في اسم تامينو سيشكل الكلمة التي تعني (المعطف الواقي من المطر المتخذ من القش). ومن هنا فإن جزيرة تامينو لا تمنحني الحماية من ندى دموعي.

ولكـن تلك لم تكن حـال جينجي، حيث مضى يحدِّث نفسـه قائلاً: هلـم الآن، إن البهجة كلها، الشعور الصادق بكامله، ينبع من المستوى الرفيع لشريكة المرء، ومن شأن قليل من الطيـش، حتـى وإن قُصد به اللهو والعبث، أن يكون كافيـاً تماماً لجعل المرء ينفر. ولـم تؤد أجواؤهن وفتنتهن إلا إلى إبعاده عنهن.

تركـت تلك التي ملكت عليـه فكره موكبه يمضي، وقدمت قرابينهـا في اليوم التالي[1]، حيث كان يوماً مبشـراً بالخيـر. وأفلحت في نهاية المطاف وعلى أفضل نحو كان بوسـعها أن تـؤدي أمام الإله صلوات تناسـب وضعها، ثم هيمنت الكآبـة عليها من جديد، فأمضت يومـاً وليلـة تبكي بـؤس قدرها. ووصلهـا مبعوث منه، حتـى قبل أن تتخيل أنـه وصل إلى المدينـة. وكان جينجـي قـد قال لها: لسـوف أحضرك إلى هنـا عما قريب، ومـع ذلك فقد ترددت، فعلى الرغم من أن كلماته قد حملت احتراماً باعثاً على الطمأنينة، إلا أنها خشيت أن تكون تجربة حافلة بالمتاعب في انتظارها، ما إن تجدف مبتعدة عن الجزيرة[2]. وكانت تعـرف أن أباها شـديد القلق يقيناً من تركها ترحل، وذلك علـى الرغم من أنه كان صحيحاً أيضـاً أن فكـرة إهـدار عمرهـا هنـا قـد أزعجتها الآن أكثـر مما كانـت قد أزعجتهـا في أي سنوات مضت. فبعثت إلى جينجي برد حذر لا يحسم من الأمر شيئاً.

آه، نعم! بعـد أن عادت ملاذ روكوجو إلى المدينة، حيث آن الأوان لكاهنة آيسي جديـدة[3]، تكفـل جينجـي بأمورها على نحو سـخي، كعهده في السابق، وأمطرها بشـآبيب اللطـف والعنايـة إلـى حـد أنها شـعرت بالامتنان حقاً، وذلك على الرغم مـن أنها لم تشـجعه، حيث لـم ترغب في أن تختبـر إخلاصـاً برهـن فـي وقـت من



الاتكاء على ذراع مقعد

(1) في مزار سوميوشي.
(2) الجزيرة هي أواجي، قبالة أكاشي، والعبارة تشير إلى حشد من القصائد المتعلقة بالرحيل عن أكاشي.
(3) أقامت ملاذ روكوجو في آيسي حوالي ست سنوات. وقد أنهى صعود الإمبراطور الجديد إلى العرش المدة التي أمضتها ابنتها باعتبارها كاهنة آيسي.

الأوقات على أنه مشكوك فيه، وأن ذلك كائناً ما كان وضعه الآن لن يؤدي إلا إلى إثارة ضيقها من جديد. ولذلك السبب فإنه لم يقم بزيارتها بالفعل إلا نادراً. ولن يقدر له أبداً أن يعرف على أي نحو ربما تكون مشاعره قد تغيرت، حتى ولو مضى لاستعادتها واكتساب ودها من جديد. وبالإضافة إلى ذلك فقد بدا له أن تلك الجولات السرية لم تعد تليق به، وتمثل ما تاق إلى معرفته في الحالة التي أصبحت عليها الكاهنة التي نضجت.

من جديد عاشت ملاذ روكوجو حياة مترفة في دارها القديمة، ذلك أن جينجي حرص على تجديد تلك الدار وصيانتها، ولم يفارقها ذوقها ولا حاسة التمييز عندها، وتجمع حولها الكثير من السيدات المميزات والمثقفات، وعلى الرغم من وحدتها البادية للعيان، فقد كانت تحيا حياة بهيجة، عندما ألم بها على حين غرة مرض خطير، وغاصت في قرار يأس عميق إلى حد أن انزعاجها بشأن السنوات التي قضتها في مكان حافل بالخطيئة[1] جعلها تقرر أن تصبح راهبة.

دفع هذا النبأ جينجي المندهش إلى زيارتها، فحتى على الرغم من أنهما لم يعودا عاشقين، إلا أنها كانت لا تزال بالنسبة له إنسانة يؤثر تجاذب أطراف الحديث معها، وتمنى لو أنها لم تفعل ذلك. كانت تعبيراته عن التعاطف والقلق مؤثرة للغاية. قدَّمت له مقعداً قرب وسادتها، وردت على أسئلته متكئة على مسند الذراع، ولكن ذلك أوضح مدى ضعفها، وبكى جينجي بمرارة، وقد خشي أن يكون الأوان قد فات على طمأنتها على إخلاصه الذي لا يتزعزع لها.

تأثرت بعمق، حيث وجدته يهتم لأمرها كل هذا الاهتمام، وشرعت في الحديث عن كاهنة آيسي، قالت: «فكِّر فيها، لطفاً، عندما تحتاجك، لأنها الآن ستكون وحيدة، وكما ترى فإن وضعها محفوف بالمخاطر، وليس لها غيرك تتوجه إليه. وأنا نفسي لست بذات عون لها، ولكنني على الرغم من ذلك آمل أن أواصل العناية بها طالما بي قدرة على ذلك، إلى أن تستطيع الاعتماد على نفسها بشكل أو بآخر». تتابعت أنفاسها، وانخرطت في البكاء.

«لن أتخلى عنها أبداً، حتى وإن لم أكن قد سمعتك تتحدثين بهذه الطريقة، والآن قد

(1) مزار آيسي، حيث حال الحظر بينها وبين أي اتصال بالتعاليم أو الممارسات البوذية.

عقـدت العـزم على أن أقوم نحوهـا بكل ما أسـتطيعه. فليهدأ بالك فيما يتعلق بهذا الشـأن تماماً».


الخدّ على اليد

اسـتأنفت حديثها: «الأمر صعب أشـد مـا تكـون الصعوبـة، فحتـى إذا كان لديها شخص كالأب تثق فيه بصورة طبيعية تمام الثقـة، فإن فقـدان أمها قد يبرهـن على أنه محنة عظيمـة. وإذا ما قُـدِّر لراعيها عندئذ أن ينظر إليها بعيني عاشـق، فـإن العواقب بالنسـبة لها، في بعـض الأحيان، يمكن أن تكون قاسية، وبالنسبة للبعض فإنها يمكن أن تصبـح موضـع كراهية. إنني أعرف أن من عدم اللباقة أن أتصور مثل هذه الأمور. ولكن أرجـوك ألا تسـمح لنفسـك بالنظر إليها بهذه الطريقـة. وقد علمتني حياتـي أن المرأة تولد لتتحمـل العديـد مـن الأحـزان، وأود على نحو مـا أن أجنبها أقصى قدر أسـتطيعه من هذه الأحزان».

لـم يـدرك جينجي السـر فـي حديثها على هـذا النحـو، ولكنـه ردَّ قائلاً: «لقـد جعلتني السنوات الأخيرة أكثر حكمة بكثير مما كنت عليه، ويؤسفني أن أدرك أنك لا زلت تعتقدين أنني مستسلم لأساليب الماضي القائمة على التفريط. حسناً، كل شيء بأوانه..».

سـادت العتمـة خـارج سـتائرها، ولكنه مـن خلالهـا لمح ضـوء مصباح خافـت. إنني أتسـاءل.. هكذا حدَّث نفسـه، وتطلع خلسـة من خلال انفراج في السـتائر(1). كانت هناك، بـدا شـعرها القصير جميـلاً وفاتناً، وقـد اتكأت على مسـند للذراع، ولاحـت جميلة على نحـو مذهـل، تماماً كما لو كانت لوحة، نعم، لا بد أن الفتاة الراقدة إلى جوارها على امتداد السـتائر الواقعة إلى الشـرق هي الكاهنة. ومع تنحية السـتار القائم عرضاً على هذا النحو، كان بمقدوره أن يلمحها مباشـرة. وضعت ذقنها على يدها، وبدت حزينة للغاية. وفي هذا

(1) يبدو أنها ترقد في فراش محاط بالستائر، تُنصب عند مدخله الستارة، التي يحدِّق جينجي من خلالها.
(1) الامبراطور رايزي.

الضـوء الواهـن بدت جذابة للغايـة. وأوحت الطريقة التي انسـدل بها شـعرها على كتفيها وشكل رأسها بجاذبية آسرة، ولكنها كانت لا تزال ناحلة على نحو فاتن، واستشعر جينجي اندفاعـة اهتمـام حادة تجتـاح كيانه، وذلك على الرغم من أنه بعـد حديث أمها المطول آثر توخي الحذر.

قالت ملاذ روكوجو: «لست أحس بأنني على ما يرام بالمرة، وآمل أن تغفر لي إذا طلبت منك الانصراف». وبمساعدة إحدى الوصيفات تمددت في فراشها.

رد جينجـي: «إننـي آسـف، وكم كان يسـعدني أن أحـس بأنك أفضل مـع وجودي إلى جوارك. كيف تجدين نفسك؟».

كان بمقدورهـا أن تحس بأنه يمعن النظـر فيها، فقالت: «إنني أرتجف من جراء التفكير فيمـا يبدو عليه مظهـري، وكان طيباً منك للغاية أن تعودنـي الآن في وقت لا بد أنك تدرك أن مرضي لن يحتمل أن تزعجني طويلاً. والآن وقد حدَّثتك بقليل مما يجول في خاطري، فإنني أحسب أن باستطاعتي الرحيل في سلام».

«تأثرت كثيراً، وأحس بالامتنان، لأنك أدرجتني ضمن أولئك الذين هم جديرون بتلقي رغباتـك الأخيـرة. ولنيافته الراحل أبناء آخرون كثيرون كذلك، ولكنني نادراً ما أحسسـت بأننـي وثيق الصلة بهم، وبما أنه قد أسـعده أن يعتبرها ابنة له، فلسـوف أنظر إليها بالروحية ذاتهـا. والآن وقـد أصبحـت أكثـر نضجاً فإننـي أحس بخيبة الأمـل، حيث ليـس لديَّ من أرعاه».

سرعان ما انتهى حديثهما، وانصرف جينجي، وزادت الآن إلى حد ما التفاتاته السخية، وكتب إليها على نحو متواتر.

بعـد سـبعة أيام أو ثمانية، كانـت قد رحلت. وتركته هذه الضربة شـاعراً على نحو مؤلم بافتقـار الحيـاة لليقين، وألم به حزن بالـغ، بحيث أنه بدلاً من التوجه إلى القصر لم يشـغل نفسه إلا بالترتيبات التي يتحتم القيام بها، ولم يترك لفريق العاملين الموثوق بهم عند راهبة آيسي السابقة إلا قرارات جد معدودة ليقوموا باتخاذها.

مضى جينجي إلى هناك بنفسه، وبعث بتحياته إلى الكاهنة السابقة.

أرسلت، في معرض الرد، مع القيمة على شؤون دارها تقول: «أخشى أنني لست في حالة..».

رد قائلاً: «لسوف يسعدني أن تنظري إليَّ على أنني صديق، لأنني توصلت إلى اتفاق مع أمك في هذا الشأن»، واستدعى وصيفاتها، وأصدر إليهن التعليمات حول ما يتعين القيام به، وأوحت طريقته في التصرف بالثقة التامة، وبدا أنه قد غيَّر الموقف الذي طالما تبناه، وأمر بأداء الطقس على نحو غاية في المهابة والجلال، وساعده في ذلك عدد لا يحصى من العاملين في داره.

لزم الحداد، عكف على الصوم، وواصل الابتهالات وراء ستائر مسدلة، وكتب في معظم الأوقات إلى الكاهنة السابقة. وشيئاً فشيئاً تمالكت نفسها، وبدأت في الرد عليه بنفسها. وقد جعلها القيام بذلك تحس بالخجل، ولكن وصيفاتها شجعنها بتذكيرها مراراً بأن عليها أن لا تخيب أمله.

ذات يوم همى فيه الثلج وجمد المطر، وجد جينجي نفسه يتخيل كم هي حزينة وبائسة، فبعث إليها برسول يحمل رسالة مكتوبة على ورق بلون السماء الكابية، يقول فيها: «أتساءل كيف تبدو لك سماؤنا الآن تواً».

«السماوات مترعة الآن برقائق الثلج المدوِّمة ويلفني الحداد إذ أتصور

الراحلة لا تزال تجوب الأفق هائمة فوق دارك»

كان قد كتب الرسالة بعناية خاصة، ليلفت نظر الشابة، فبدت متألقة. ولم تستطع كاهنة آيسي التفكير في رد تبعث به، لكن وصيفاتها ألححن عليها، قائلات إنه سيكون من قبيل الفظاظة أن تعهد إلى غيرها بهذه المهمة، ولذا كتبت على ورق رمادي كثيف العطر بضربات فرشاة فاتحة أو قاتمة بحسب ما تقتضيه الأرضية:

«شأن ثلج لم يذب، أتأرجح مترددة، وفي عتمتي

أجد أنني ليس باستطاعتي التيقن من هويتي أو إلى أين أمضي» .

لم تكن يدها الحذرة، البريئة من الادعاء، استثنائية، لكنه لمح فيها جاذبية وكبرياء. ومنذ مضت إلى آيسي، ساوره شعور بأن ذلك ليس كل ما هنالك، والآن بدا له أنه ربما يتودد

إليهـا، وذلـك على الرغم من أن اللباقـة قد أفضت به إلى أن يكبح جماح نفسـه كذي قبل، حيث أن أمها، ملاذ ركوجو الراحلة، قد أفصحت له في قلق عن رغباتها الأخيرة حول هذا الموضوع، وكان يمكن لعموم الناس ـ على نحو يمكن تفهمه ويا للحسـرة ـ أن تسـاورهم مثل هذه الشـكوك. حدَّث نفسـه قائلاً: لا، لسوف يحرص على العكس من ذلك على تلبية احتياجاتهـا على نحو عفيف، وعندما يكبر جلالته بما فيه الكفاية ليتفهم الأمور أكثر قليلاً، فإنـه سـيدفع بها إلى القصر، حيث أن هذا النوع مـن الأمور غائب عن حياته من دون ذلك، وهو سيستمتع بوجودها تحت رعايته.

بعـث إليهـا برسـائل مطولة، رصينـة على نحو لا تشـوبه شـائبة، وزارها كلما سـنحت الفرصة. وكان يبادر إلى القول: «إذا سـمح لي بقول ذلك، فإنه سيمنحني سروراً عظيماً إذا سمحت لي بأن أكون موضع ثقتك، إحياء لذكرى أمك». ولكنها لما كانت بطبيعتها متحفظة وخجولاً للغاية، فقد انكمشـت حيال فكرة السـماح له بسماع صوتها على الإطلاق، مهما كان خافتاً، إلى أن يئست وصيفاتها من إقناعها، ولـم يستطعن إلا الأسى لنزعتها تلك. حدَّث جينجي نفسـه متأملاً: إن بعضهن، على سـبيل المثال القيمة على شـؤون الدار، ووصيفتها الرئيسـية ومن إليها، هن من قريباتها في العائلة الإمبراطورية، ومعظمهن يتمتعن بقدر كبير من الموهبة، وإذا ما وضعتها على نحو ما آمل بصورة ناجحة، فلسـت أرى سـبباً يدعو لأن تدخل السـرور على نفسـه[1] بصورة أقل من أي إنسـانة أخرى. ولكن لو أنني ألقيت نظرة أفضل على محياها! ربما لـم يكن موقفه بصورة تامة موقف الأب المخلص. وإذا عجز في النهاية عن حسم الأمر مع نفسه، فإنه لـم يبلغ أحداً بالمستقبل الذي خطط له فيما يتعلق بها. وقد أدهش اهتمامه الخاص بطقوس الجنازة إلى حد كبير أهل دارها وأسعدهم.

زادت وحدتهـا مع توالي الشـهور والأيـام، وأدى التتابع المتزايد لضـروب البؤس إلى انفضـاض مـن هم في خدمتهـا من حولهـا، وكان معنى الإقامة قـرب كايوجوكو في الحي الأدنـى مـن المدينة محيطاً مهجوراً، وكانت حياتها غالباً ما تمضي وسـط الدموع مع دوي الأجـراس المسـائية من معابد الجبل[2]. ولـم تكن كل أم، مهمـا كان إخلاصها، بالتي تبقى

(1) الامبراطور رايزي.

(2) الحي الأدنى من المدينة، إنها تقيم قرب تقاطع روكوجو شرق ـ غرب [وكايو جوكو] [شمال- جنوب] كان قليل السكان، وكايوجوكو تقع قرب المعابد العديدة التي شيدت على امتداد التلال الشرقية.

مستعصية على الفصل بهذه الصورة الكاملة عن ابنتها، أو تمضي معها خلافاً لكل السوابق إلـى آيسـي، وتركها ندمهـا المرير على أنها بعـد الإصرار على هذا النحو علـى محبة أمها، فإنهـا فـي نهاية المطاف لـم تمض معها فـي تلك الرحلة الأخيرة، تركهـا في حالة لا مجال معها للعزاء.

شـمل العدد الكبير من العاملين في دارها أناسـاً من ذوي المكانـة الرفيعة والمتواضعة علـى السـواء، ولكن ما إن حضـر جينجي، شـأن أب حريص على أداء واجبـه، حتى حث مربياتهـا على المبـادرة إلى أن يأخذن علـى عاتقهن توصيل محاولات التـودد إليها، حتى ضمنـت سـلطته التـي تدخل الروع فـي النفس الموافقـة العامة على حتميـة ألا يُجلب إلى انتباهها شيء غير لائق، ولـم يصلها حتى نفس واحد من التودد أو الغزل.

لـم ينس نيافته قط جمال كاهنة آيسي، الذي يوشك أن يكون مروعاً، في الحفل الوداعي الجليـل ذاك فـي قاعـة الدولة الكبرى. كان قد بعث يسـتحثها بقوله: «عليـك بالدخول في خدمتـي، وانضمـي إلى كاهنة كامو وأخواتـي الأخريات» وذكر الأمر لأمهـا أيضاً. غير أن الفكرة لـم ترق لها، لأنه بينما كان محاطاً حقاً بسيدات عظيمات للغاية، فقد ساورها الشك فـي أن ابنتهـا لديهـا التأييد المناسـب، وفضلاً عن ذلك فقد خشـيت من أن صحته الهشـة بصـورة متزايدة قد تثقـل كاهلها في نهاية المطاف بأعباء إضافيـة. والآن فيما وصيفاتها لـم يستطعن تخيل من قد يكون على استعداد لمساعدتها، فإن نيافته كان لا يزال يلح عليها من أجل القدوم.

عندمـا علـم جينجي بهذا، انكمش حيـال فكرة التجاوز الفظ لنيافته والظفر بها لنفسـه، ولكنهـا كانـت جذابة للغاية، وتـردد كثيراً في تركها تفلت، إلى حـد أنه طرق الموضوع مع نيافتها المنعزلة.

قال: «لست أدري ما الذي يتعين القيام به في هذا الشأن، كما ترين، فقد كانت أمها سيدة رفيعة القدر، شديدة الذكاء، ويؤسفني أشد الأسف أن الطريقة التي عكفت بها على إرضاء نفسـي قد جلبت عليَّ كلاً من الصيت السـيىء والرفض من جانبها. وبينما كانت على قيد الحيـاة، فإنها لـم تنح جانبـاً غضبها عليَّ، ولكن بما أنها عند النهاية ذاتها تحدَّثت عن كاهنه آيسي، فلا بد أنها قد بلغتها أمور طيبة عني، وخلصت إلى أنها يمكن أن تكون صريحة معي

فـي نهايـة المطاف، وذلك أمر محزن إلى أبعد الحدود. والمرء لا يمكنه نسـيان أمر محزن علـى هذا النحو حتى في أكثر الظروف اتسـاماً بالطابع العـادي والمألوف، وأنا أريد التأكد من أنها في موتها على الأقل يمكنها نسـيان مرارتها، وإنني لأتسـاءل عما إذا لم تكن فكرة جيدة بالنسـبة لجلالته، الذي لا يزال صغيراً على الرغم من أنه بالطبع ينمو ويعلو شـأنه، أن تكون في خدمته إنسانة أنضج منه قليلاً. وكما ترين فإن الأمر برمته وقف عليك».

«تلـك فكرة ممتـازة. واهتمام نيافتـه بها يجعل المـرء، بالطبع، يتردد فـي تخييب أمله، ولكـن بمقدورك أن تطـرح رغبات أمها الأخيرة كمبرر لإحضارها للقصر، كأنك لم تعرف من الأمر شيئاً. وفي الوقت الحالي فإن هذا النوع من الأمور يشغله أقل من ابتهالاته، وأشك حقاً في أنه سينزعج بصورة جدية عندما تبلغه بالأمر».

رد جينجي: «حسـناً، إذا كنت توافقين وعلى اسـتعداد للمبادرة بتقديم تأييدك، فسـوف أحادثها وأعلمها بالأمر. وقد أمعنت التفكير في هذا كله بعناية بالغة، وقد كنت صريحاً تماماً معك حول ما خلصت إليه، ولكنني أحس بعدم الارتياح حول ما قد يقوله الآخرون».

عنـد ذلك قرر أنه سـيدَّعي حقاً الجهل بنوايا نيافته والقيـام بنقلها إلى نيجو[1]. وأوضح الأمـر لسـيدته قائلاً: «ذلك علـى أي حال هو ما أعددت له، وهي فـي عمر يجعلها صاحبة طيبة لك». وقد سرت لذلك، وبدأت في الإعداد في استقبالها.

بـدا معالـي وزير الحرب عاكفـاً على العناية بابنتـه بحرص، على أمل أن يحقق سـريعاً النجاح نفسه. لكن نيافتها المنعزلة راحت تتساءل في تعاسة كيف سيقابل جينجي طموحه هـذا، وذلك في ضوء الصدع القائم بينهما. وقد غدت ابنة القائم بأعمال المستشـار تُعرف الآن باسـم الزوجـة كوكيـدن. وقـد تبناهـا معاليه كما لـو كانت ابنتـه، وعُني بها بأسـلوب متألـق[2]، وغدت رفيقـة لعب رائعة لجلالته[3]. وحدَّثت نيافتها المنعزلة نفسـها والآخرين بـأن ابنة معالي وزير الحرب لن تشـارك إلا في لعبة بالدمـى، إذا جاز التعبير، حيث أنها في العمر نفسـه، بينما وجود إنسـانة أكبر سـناً تُعنى به من شـأنه أن يكون موضع ترحيب بالغ.

(1) لكي يقدمها إلى القصر باعتبارها ابنته المتبناة.

(2) تبنى وزير الميسرة السابق حفيدته لكي يمنحها ثقل مرتبته الرفيعة كمستشار.

(3) رايزي في الحادية عشرة من عمره، وهي في الثانية عشرة.

وأبلغـت جلالتـه بما يتعين عليه توقعه. وفي غضون ذلـك، فإنه لا حاجة للقول إن جينجي لم يدخر وسـعاً في خدمة البلاد، وأظهر لكاهنة آيسـي إخلاصاً تاماً ولبقاً في كل الأوقات، بحيث أنها أصبحت تثق فيه في قرارة نفسـها. ولم يكن بوسـع نيافتها المنعزلة أن تقوم في يسـر بالوقوف علـى خدمة جلالته، حتى لـدى ذهابها إلى القصر، حيـث أن صحتها كانت هشة، بحيث أنه كان بحاجة ملحة إلى إنسانة ترعاه وتكبره إلى حد ما في العمر.

15

يوموجيو

يباب من الأعشاب

تعنـي كلمة «يوموجيـو» داراً متداعيـة تحيطها أراض تطاولت فيها نباتات مثل أعشاب «اليوموجيو».

الصلة بالفصول السابقة

يتطابق «يباب من الأعشاب» على وجه التقريب من الناحية الزمنية مع «سوما» وامتداد «الحج إلى سوميوشي»، وتتداخل المادة الأساسية لهذا الفصل مع «الحج إلى سوميوشي».

الشخوص

جينجي، القائد ثم القائم بأعمال المستشار الكبير، 28 إلى 29 عاماً.

ابنة أمير هيتاشي (سويتسوموهانا).

أخوها، راهب.

جيجو، أختها بالتبني

عمة سويتسوموهانا، زوجة نائب دزايفو.

شوشو، عمة جيجو ووصيفة سويتسوموهانا.

كوريميتسو، موضع سر جينجي.

فـي الأيـام التي كانت قطـرات الملح والأعشـاب البحرية تتسـاقط خلالهـا[1]، حزنت الكثيـرات فـي المدينـة أيضـاً، ومن المؤكـد أن المسـتقرات علـى نحـو آمـن[2] قد بدا أنهن يفتقدنه على نحو بالغ، لكن سيدة نيجو كان يمكنها أن تستشـعر السـلام والسـكينة، لأن مراسـلته أبقتهـا علـى اطـلاع علـى أخبـاره، وغالبـاً مـا جلـب التوالـي



حوض ماء

الحزين للفصول إليها العزاء المتمثل في أن تعد له ملابس مجردة من أي إشـارة إلى الرتبة مـن النوعية التـي يرتديها الآن. وعلى الرغم من ذلك فإن أخريـات لا يعرف أحد أنهن من بين حبيباته، اللواتي لم يشهدن رحيله إلا بعيني الخيال، عانين سراً أقسى ألوان العذاب.

عرفـت ابنـة أمير هيتاشـي العـذاب على نحو محـزن بعد موتـه، حيث لم يبـق لها أحد غيـره ليقـوم على العناية بهـا، إلى أن ظهر جينجي مـن رحاب المجهـول، ليقوم على نحو مفعـم بالـولاء على تلبية احتياجاتها، وعلى الرغم من أنه في غمار عظمته لم تكن مثل هذه الالتفاتات تتجاوز، من منظوره، أقل ما يمكنه القيام به، فإنها هي التي كان كماها حقاً أضيق من أن تتلقاها، قد أحسـت كأنما كل النجـوم تتألق من حوض مائها، ثم حدث الاضطراب في البلاط، وهو اضطراب ضايق جينجي، وأثار شعوره بالمرارة، إلا أنه بدا وكأنه قد نسيها تمام النسـيان، حيث أنه لم يشـعر على أي حال بأي ارتباط عميق بها، وما أن مضى بعيداً، حتـى انقطـع اتصاله بها تماماً. وسـاعد ما بقي من سـخائه في إقامة أودهـا لبعض الوقت، وسـط دموع منهمـرة، ولكن مرور الشـهور والأيام أفضى بها إلى محنـة تبعث على اليأس الشديد تعانيها وحيدة.

تهامسـت النسـوة اللواتي خدمنها طويلاً: «تأملن حظ سيدتي التعس! لقد جعل اهتمام سـموه بهـا الأمر يبدو كما لو أن بوذا قد أقبـل فجأة من أجلها، إلى أن صدق المرء مثل هذه

(1) بينما كان جينجي في المنفى في سوما.

(2) اللواتي على العكس من هانا تشيرو ساتو وسويتسوموهانا كن يحظين بمصدر آمن للدعم المادي.

الارتباطات، وحتى إذا كان هذا كله مما يمكن توقعه، فإن من المؤلم رؤيتها من دون أحد يقوم على رعايتها!». كانت سنوات من العيش على هذا النحو قد أفضت بسيدتهن في وقت من الأوقات إلى أخذ العزلة البائسة باعتبارها أمراً مسلماً به، ولكن لا بد أن الأوقات الأفضل التي أعقبت ذلك قد جعلت الحاضر مؤلماً على نحو لا سبيل إلى احتماله. وفي تلك الأوقات التحقت نسوة من مستوى رفيع بصورة طبيعية بأهل دارها، أما الآن فقد انصرفن لحال سبيلهن إحداهن عقب أخرى. وبعضهن لقين حتفهن، وتراجع عدد النسوة من مختلف المراتب مع مرور الوقت إلى أن لم يبق أي منهن إلا بالكاد.

أصبحت دارها المتداعية أبداً، بصورة متزايدة، وكراً للثعالب، وتعالى نحيب البوم ليلاً ونهاراً من أجمات موحشة على نحو صارم[1]، ومضت كائنات مروعة ـ أرواح أشجار وما إلى ذلك ـ والتي كان وجود البشر قد دفعها في وقت من الأوقات إلى الاختباء، تتجول جلية للعيان، وهو الأمر الذي ترتبت عليه عواقب كثيرة مؤلمة، إلى أن صاحت القلائل اللاتي بقين في خدمتها منزعجات: «لا، يا سيدتي، هذا أكثر مما يُطاق حقاً! هذا الحاكم الإقليمي، الذي يحرص أشد الحرص على أن تكون له دار منيفة، خلبت لبه أجمات أشجارك، وهو يواصل الاتصال بمساعديك ليتبين ما إذا كنت ترغبين في بيعها، ونحن نتمنى أن تفعلي ذلك، يا سيدتي، وأن تحسمي رأيك بالانتقال إلى مكان ما أقل إثارة للخوف، فنحن اللواتي بقينا معك لا نستطيع الاحتمال أكثر من ذلك!».

بكت سيدتهن، ورفضت الإصغاء إليهن. «يا لها من فكرة رهيبة! وبالإضافة إلى ذلك فإن الآخرين سيذهبون في الأمر مذاهب شتى. كيف يمكنني طالما بقيت على قيد الحياة أن أخون ذكرى أبي؟ إنني أعلم أن المكان غدا على نحو مخيف بحاجة إلى الإصلاح، ولكنه مصدر ارتياح كبير أن أفكِّر في أن هذه الدار، حيث لا أزال أشعر بوجوده، كانت داره!».

ظل بعض أثاث الدار، وهو عتيق الطراز ومستخدم على نحو جيد، متألقاً كعهده. وتقدم أشخاص من ذوي الادعاءات المضجرة بحب الفخامة، في غمار حرصهم على شراء هذا الأثاث، بالتماسات يمازجها اللطف والكياسة لهذا الغرض، وذلك على افتراض أن الفقر

(1) يشير هذا الوصف إلى مقطع في قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 0004).

لم يدع لها خياراً، مشيرين لدى قيامهم بهذا إلى الاهتمام الخاص بهذا الأثاث لأن سموه الراحل كلَّف فلاناً الفلاني أو علاناً العلاني بصنعه، وحاولت وصيفاتها مراراً إقناعها على أمل تخفيف حدة البؤس الذي يواجههن يوماً بعد الآخر. كن يقلن: «أي شيء آخر يتعين على المرء القيام به؟ تلك هي الحياة، في نهاية المطاف». لكن ردها الوحيد كان اللوم الحاد. وكانت تقول: «ترك أبي لي قطع الأثاث هذه في ضوء إدراكه أنني سأحافظ عليها، فكيف يمكن أن أسمح بأن تزين دار أحد النكرات؟ سيكون أمراً محزناً للغاية مخالفة رغباته». وما كانت لتسمح بذلك.

كان قدرها ألا تستقبل أحداً، مهما كان عابراً. وحده أخوها الجليل هو الذي كان يطل عليها، في المناسبات النادرة التي يجيء خلالها إلى المدينة، ولكنه هو بدوره كان عتيق الطراز للغاية، حتى إنه كان بمعايير الرهبان يبدو فقيراً على نحو يلفت الأنظار، وناسكاً صرف نظره عن الدنيا، وبالكاد كان يلاحظ اضطراره إلى شق طريقه بعناء للوصول إليها، وسط حشائش وأعشاب كثيفة، وفي حقيقة الأمر فإن الأراضي المحيطة بالدار قد اختفت تحت أعشاب رديئة، وارتفع نبات الأفسنتين الكثيف ليصل إلى الطنف، وسد الدُّبَّال البوابتين الشرقية والغربية كلتيهما، وعلى الرغم من أن الجياد والثيران قد شقت ممرات فوق الجدار الطوبي المتداعي، بل إن الفتية الرعاة، الذين كانوا يرعون قطعانهم هناك بلا تحرج في الربيع والخريف، سمحوا لأنفسهم بسلوك شنيع.

انهارت الشرفات الخارجية في الشهر الثامن من عام العاصفة الكبيرة، وجردت قاعات الخدم، التي كانت في وقت مسقوفة بألواح على نحو يثير الشفقة، حتى وصلت إلى الأطر العارية للبناء، ومن الخدم أنفسهم لم يبق بالدار خادم واحد. ولم يعد الدخان يتعالى من موقد الطهي، وتوالت الأرزاء أحدها بعد الآخر. ولا بد أن من يحيون على اللصوصية يفتقرون إلى الخيال، لأنهم حتى هم أنفسهم تجاهلوا دار هيتاشي،



راهبة مع سبحة

وتجاوزوها مفترضين أنه ليس بها ما يسـرقونه منها، ومن هنا فقد ظلت الدار الرئيسـية من الداخـل على نحو مـا كانت عليه دوماً، على الرغم من أعشـابها الكثيفـة. كان الغبار هناك وفيراً، حيث أنه ما من أحد كان يكنس أو ينظف، ولكن ههنا عاشت ابنة أمير هيتاشي أيامها الخالية من المرح والمقدرة عليها.

ألوان الترفيه البسيطة، مثل الحكايات والقصائد القديمة، هي التي ساعدتها على تزجية وقتهـا في دار كتلـك، وعلى إبعاد ذهنها عن هموم الحياة، ولكن هذه الأشـياء لـم تفلح في إثارة اهتمامها. وما من امرأة تحتاج إلى تكلف التهذيب لكي تسـتمتع بعزاء نقل مشـاعرها من خلال النباتات والأشـجار[1]، أو المراسـلة مع صديقاتها اللواتي يشاركنها أفكارها، أو عندما يكون لديها وقت فراغ، لكن هذه السـيدة كانت خائفة للغاية من الدنيا، على نحو ما رباهـا أبوها، بحيث أنها لـم تبد إيماءة لأحد قد تتبادل معه على الأقل الرسـائل بين الحين والآخر. ومن وقت لآخر فحسـب كانت تفتح خزانة عتيقة لتلهو بصور من حكايات، مثل «كاراموري»، «هاكويانو توجي» أو «كاجويا ـ هايمي»[2].

تتعلق بهجة القصائد القديمة بالاستمتاع باختيار القصائد ذات الموضوعات الجذابة[3] والشـعراء الفاتنيـن، والقصائـد التـي يسـهل فهمهـا. أمـا القصائـد المبتذلة، التـي يعرفها الجميع بالفعل، المكتوبة على ورق خشـن مما يسـتخدم فـي كل الأغراض، أو على ورق ميتشـينوكوني منتفخ، فهـي مضجرة تماماً، ولكن هذه هي القصائـد التي تفردها أمامها في المناسـبات النادرة، عندما تتطلع إلى أي قصائد على الإطلاق. وهي تحجم في ارتباك عن ترتيل الكتب المقدسـة أو أداء الابتهالات، كما يفعـل الكثيرون من الناس هذه الأيام، ولـم تكـن تلمس مسـبحة، على الرغم من أنه ما كان من أحد ليراهـا على أية حال[4]. هكذا كان نمط حياتها المتزمت.

(1) من حيث مشاهد الطبيعة وأصواتها.

(2) حكايات عتيقة كانت الأجيال السابقة تؤثرها. وقد فُقدت الحكايتان الأوليتان، والثالثة تعرف الآن باسم «حطاب الخيزران العجوز» (تاكيتوري مونوجاتري).

(3) داي، الموضوعات التي جرى التكليف بها، والتي كتب فيها العديد من القصائد.

(4) كانت تعتقد أنه مما لا يليق بسيدة أن تفصح عن أي اهتمام نشط بالبوذية، التي كان يُحكم عليها أيام أبيها بأنها أكثر جدية من أن تهتم بها امرأة.

كانـت أختها بالتبني، المدعوة جيجو، هي الوحيـدة التي لم تترك خدمتها بالفعل طوال كل هـذه السـنين، ولكن وفاة كاهنة كامو، التي كانـت جيجو غالباً ما تزورها، قد تركتها في ضائقة شديدة للغاية إلى حد أنها صارت تزور في بعض الأحيان خالة سيدتها، وهي سيدة تدنت بمرتبتها لتتزوج حاكم إحدى المقاطعات. وقد كانت هذه السـيدة تربي بناتاً تؤثرهن كثيراً، وخطر لجيجو أن هذه السـيدة قد تفضل من بين شـابات حسـنات المظهر على امرأة غريبة امرأة سبق بالفعل أن عرفت أبويها.

لم تبد سـيدة جيجو، النائية كعهدها، إيماءات ترحيب تذكر نحو خالتها. وكانت الخالة تشـير علـى نحـو مرير موجهـة حديثها إلى جيجو: «إنني أشـعر بالأسـف علـى ابنة أختي، ولكنني لا أسـتطيع حقاً القيام بأي شـيء لأجلها، أخذاً في الاعتبار بأن أمها كانت تزدريني وتعتقد أنني مصدر إحراج». غير أنها بين الحين والآخر كانت تبعث إليها برسالة قصيرة.

يحاول معظم الناس الذين يولدون في وضعية هذه الخالة في الحياة جاهدين في قرارة أنفسهم تبني مواقف من هم أفضل منهم. ولكن السقوط من مثل هذه المكانة الرفيعة للغاية لا بـد أنه كان قدرها حقـاً، حيث كان لها اندفاع مألوف، فهي تعرضت للازدراء بحسـبانها أدنـى مرتبـة أرادت لابنة أختهـا ـ من بين كل الأعمـال ـ أن تعمل خادمـة لبناتها. نعم، لقد مضت تحدِّث نفسـها قائلة: إن عـادات ابنة أختي عتيقة وتجاوزها الزمـن، ولكن أية مربية رائعـة سـتكون! وقـد كتبت تقـول: «تعالي وزوريني فـي بعض الأوقات، فالبعـض منا هنا يتوق لسـماع عزفك علـى الكوتو». وواصلت جيجو بدورها محاولة إثارة اهتمام سـيدتها بالذهاب، لكنها لم ترغب في مواجهة أحد، ولما كانت خجولةً إلى حد بعيد، فقد رفضت الرد، وهو ما اعتبرته خالتها أمراً فظيعاً.

فـي غضـون ذلك، عُين زوج الخالة نائبـاً لدازايفو، وحرصت علـى توفير كل متطلبات بناتهـا قبـل المضي إلى هناك معه. كتبـت محاولة الفوز بالحظوة عندهـا في غمار حرصها علـى أن تصحبهـا معها: «أخشـى أن أكـون قد فعلت لك أقـل مما كان ينبغـي عليَّ، ولكن كان مصـدر ارتياح لي على الدوام أن أعرف أنك قريبة مني، والقلق يسـتبد بي عليك، فيما نحـن، كما تعلمين، مقبلون على الرحيـل بعيداً». لم تتلق رداً، فمضت تتذمر في غل قائلة: «كم هذا مقزز منها! يا لها من مظاهر تلك التي تتمسـك بأهدابها! حسـناً، يمكنها أن تتعالى

كيف ما طاب لها، فالقائد[1] لن تؤثر فيه إنسانة تمضي عاماً إثر آخر مقيمة في برية موحشة كتلك!».

سرعان ما ابتهجت الدنيا بأسرها لتلقي جينجي العفو عنه وعودته إلى المدينة، وتنافس الرجال والنساء على إقناعه بإخلاصهم الدائم، وقد أثَّر فيه بطرق عديدة وعميقة هذا البرهان على التقدير من جانب الكافة، علت مراتبهم أو تواضعت. ووسط كل هذا الانفعال مرت الأيام والشهور من دون إشارة منه إلى أنه قد تذكر ابنة أمير هيتاشي.

حدَّثت نفسها، في غمار يأس أسود: هذه هي النهاية إذن. لقد صدمتني وأحزنتني تلك المعاملة التي لا تغتفر التي لقيتها، وصليت دوماً من أجل عودة الربيع إليه مجدداً. ولكن في النهاية، وعندما يحتفل، حسب فهمي، كل من هب ودب بترقيته، فإنني قُدِّر لي أن أسمع بالأمر فحسب، كأنه لا يعنيني. الآن أعرف أن حزني على معاناته لم يكن في حقيقة الأمر إلا حزناً على نفسي[2]. أي إهدار كان الأمر برمته! أمضت أيامها سراً منخرطة في البكاء.

قالت زوجة النائب لنفسها: الأمر مؤكد بما فيه الكفاية! من بحق السماء سيكترث لمثل هذه البائسة؟ يُقال إن من تعد خطاياهم هينة هم الذين تقودهم البوذات إلى الخلاص، ولكن في حالتها الراهنة فإنه أمر مؤسف أكثر من اللازم من جانبها أن تتعالى على الجميع وأن تتمسك بكبرياء اكتسبت في زمن أبيها وأمها! وتزايد إحساسها باليقين من أن ابنة أخيها حمقاء.

كانت لا تزال تواصل في نعومة القول: «احسمي رأيك فيما يتعلق بالأمر، فعندما تنقلب الحياة عليك، فإن الأوان يكون قد آن لتسعي وراء ملاذ آمن في الجبال[3]. وإنني لعلى يقين من أنك تحسبين أن الريف غير جدير بك، ولكنني أعدك بأنه ما من أحد هناك سيعاملك على نحو غير لائق!».

غمغمت وصيفات ابنة أختها إحداهن للأخرى في يأس: «آه، أتمنى أن تقوم سيدتي

(1) جينجي، عُيّن قائداً للميسرة فيما بين فصلي «تحت براعم الكرز» و«قلباً لقلب».

(2) كوكينشو 948: «هل يمكن للحياة أن تكون مقيتة بهذا القدر أم أنها أصبحت على هذه الشاكلة بالنسبة لي فحسب؟».

(3) في كوكينشو 951، فإن المتحدث، الذي أثقله الهم، يقرر أن «يقطع دروب يو شينو الجبلية».

بذلك! كيف يمكنها الحفاظ على معاييرها تلك، بينما ما من شيء في وصفها يشجع على الأمل في أي شيء أفضل كثيراً؟».

في ذلك الوقت، ارتبطت جيجو نفسها بشاب بدا أنه ابن شقيق النائب، وحيث أنه لم يكن راغباً في تركها وراءه، فقد مضت في تردد تستعد للرحيل. قالت مستحثة سيدتها على الانضمام إليها: «إنني أكره مغادرتك أشد الكراهية، يا سيدتي!». ولكن حتى في ذلك الوقت كانت سيدتها تعلق آمالها على رجل كف عن المجيء، منذ وقت طويل، وقالت لنفسها على نحو ما فعلت كل هذه السنين. ذات يوم، مهما كان بعيداً، فإن شيئاً ما سيذكره بي، وعلى الرغم من كل وعوده الأثيرة والرقيقة، فإنني مخلوقة قدرها سوء الحظ، نعم، لقد نسيني، ولكنه سيجيء لإنقاذي، إنني أعرف أنه سيفعل ذلك، ولو أن هبة ريح حملت إليه أخبار احتياجي البائس. وهذا هو السبب في أنها عندما كانت دارها بأسرها أقرب من أي وقت مضى إلى التداعي، فإنها أبت أن تستغني عن أدنى أداة نافعة، وأصرت بشجاعة على العيش كذي قبل تماماً. وإذ استسلمت غالباً للبكاء وبصورة متزايدة لليأس، فإن ملمحها البائس بدا كأن فلاحاً جبلياً قد ألصق على وجهها ثمرة عليق، وما من خطيب عابر كان بمقدوره أن يحتمل هذا المنظر. وعلى الرغم من ذلك، فإنني لن أقول المزيد، لأن ذلك من شأنه أن يكون بالغ التجرد من الشفقة ومغرقاً في القسوة والتجني.

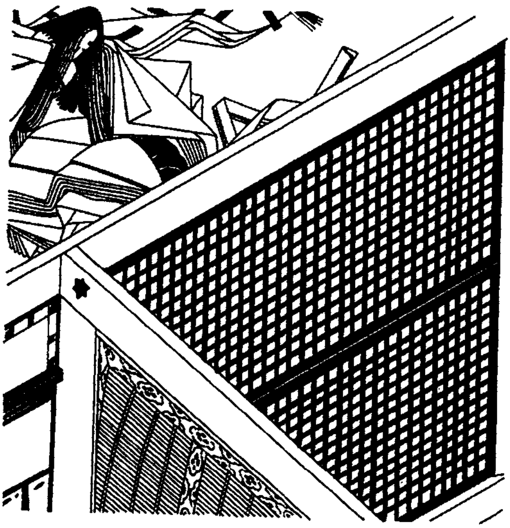
أقبل الشتاء، وتفاقم عوزها، وغلب على مزاجها القنوط الممزوج بالشرود. التفت الدنيا بأسرها في لهفة حول دار جينجي، لتشهد طقس «المخاطبات الثماني» الذي أقامه لنيافته الراحل. وعن قصد لم يقم جينجي باستدعاء رهبان عاديين، حيث لم يختر إلا أكثرهم علماً، ومن خلال عكوفهم الطويل على العبادة، أكثرهم قداسة، وكان معنى ذلك أن أخاها شهد الطقس كذلك.

جاء أخوها لرؤيتها، وهو في طريق عودته إلى داره. أوضح قائلاً: «جئت من طقس المخاطبات الثماني، الذي أقامه القائم بأعمال المستشار الكبير. وقد قام بكل شيء في نبل، مع لمسات جميلة خالية من القصور لبوذا أو بوذيساتفا. ويتساءل المرء لم ولد على

الإطلاق في دنيا تشوبها الخبائث الخمس»[1]. وغادر الدار بعد ذلك مباشرة. وقد كان رجلاً مقلاً في حديثه، ولم يتصرف مع أخته كما كان يمكن لأي شخص آخر أن يفعل، حيث لم يحدثها قط عن أي شيء أحمق أو دنيوي.

تلقت هذه الأخبار بأسى بالغ. وحدَّثت نفسها قائلة: حسناً، إذن، إنه بوذا أو بوذيساتفا بعيد عن الرأفة للغاية، فها أنا ذي قُدِّر لي البؤس، بينما هو يتجاهلني على نحو قاس، أحسب أنه إذاً قد مضى للأبد. وكانت غارقة في مثل هذه الخواطر عندما وصلت زوجة نائب دازايفو.

لم تكن هذه السيدة تميل إلى مثل هذه الألفة عادة، ولكنها اندفعت خارجة من دارها، وقد استبد بها الكبرياء، وبدت معنوياتها مرتفعة في عربة فارهة، ومسلحة بهدايا من الملابس وما إلى ذلك لإقناع ابنة أختها بالقدوم معها في نهاية المطاف. أمرت بفتح البوابة، ورأت أمامها في لمحة عاجلة خراباً لا حدود له. لقد كان جناحا البوابة الأيمن والأيسر قد تداعيا إلى درجة بالغة، بحيث أن الأمر اقتضى من العديد من الرجال والكثير من الضجيج والحراك للمساعدة في تحريكهما. ومضت تتساءل عندما دخلت: أين المسالك الثلاثة المطروقة، التي كانت قد سمعت أنها ينبغي أن تفضي إلى أشد الدور تعاسة وبؤساً؟[2].



المصراع الشبكي

أفلحت أخيراً في جعل عربتها تُجتذب عالياً إلى المصاريع الشبكية المرفوعة على الجانب الجنوبي، حيث أقبلت، وسط

---

(1) الخبائث الخمس (جوجوكو)، التي وفقاً لسوترا اللوتس، يتسم بها العالم الذي ولد فيه بوذا.

(2) إيماءة صينية. يصف مصدران متاحان للمؤلفة المسكن البائس بأنه له «ثلاثة مسالك» عبر حديقته. المصدر الأول قصيدة لشاعر التاريخ تاو يوا نيمينج، والآخر هو هامش في موجايو، وهو كتاب تعليم أولي ياباني عن الأدب الصيني.

استفظاع[1] ابنة أختها لما يجري، جيجو دافعة أمامها ستاراً قاتماً بالغ الاتساخ. ولم يبد مظهرها على نحو ما كانت عليه في السابق، ولكنها على الرغم من تأثير السنين فقد ظلت محتفظة ببهاء وتميز أصيلين، وكانت الزائرة، ويا للحسرة، تفضل رؤيتها مكان سيدتها.

استهلت الزائرة حدثيها: «إنني أعتزم المغادرة عما قريب.

لكنني لا أستطيع احتمال التخلي عنك في هذه الحالة الفظيعة! وكما ترين، فقد جئت من أجل جيجو. لقد كنت أكثر تحفظاً من أن تأتي لزيارتي، وأعتقد أنك لا بد لك على الأقل من السماح لي باصطحابها معي. ولكن ما جدوى بقائك وراء هذه الموجودات المثيرة للإشفاق؟». عند هذا الموضع من الحديث كان ينبغي على هذه السيدة أن تنفجر باكية، ولكن لما كان ذهنها منصرفاً إلى رحلتها بصورة كاملة، فإنها كانت بالفعل مفعمة بالمرح والحبور. أضافت: «لقد بدأنا في الابتعاد إحدانا عن الأخرى، لأن أمك نبذتني. بينما كان سموه الراحل على قيد الحياة، ونظرت إليَّ على أنني إساءة للعائلة، ولكنني لم أستطع الإحساس بذلك طويلاً. وقد بهرتني رؤية حسن الحظ الذي حِالفك وسمح لك بالتمتع باهتمام القائد، وكانت هناك مرات عديدة على مرِّ السنين لم أجرؤ فيها حتى على مخاطبتك، ولكن المرء لا يعلم أبداً ما الذي ستجلبه الحياة، والآن فإنني أنا التي تعدّ نكرة أفضل حالاً. ومن المؤلم رؤيتك تعانين على هذا النحو، بينما اعتدت أن تتجاوزيني بنظرك وتشيحين عني، وعلى الرغم من أنه كان مما يمنحني بعض هدوء النفس أن أقيم بجوارك، حتى وإن لم أتصل بك بصورة فعلية، وإنني لآسفة الآن لأنني سأمضي بعيداً، والقلق يستبد بي عليك أيضاً». لم تصل بها خطبتها تلك إلى شيء على الإطلاق.

«هذا لطيف للغاية منك، لكنني لست كالأخريات، ولست أرى كيف... لا، كل ما أريده هو أن أخبو على ما أنا عليه». لم تقل سموها شيئاً بعد ذلك.

«ربما يكون هذا شعورك، لكنني أشك في أن أي إنسانة أخرى يمكنها التخلي عن الحياة بأسرها للبقاء في مثل هذا المكان الرهيب. ومن الواضح أنه كان يمكن أن يكون لك قصر مناسب بدلاً من هذه الدار لو أن القائد كان متعلقاً بك، لكنني فهمت أنه في الوقت الحالي

---

(1) انزعجت سويتسومو هانا ليس لقدوم زائرة لها فحسب، وإنما لرؤية خالتها التي لا تمنحها مرتبتها حرية القيام بذلك تمضي بعربتها وصولاً إلى الجانب الجنوبي من الدار.

لا يفكِّر إلا في ابنة معالي وزير الحرب. ويُقال إنه قد تخلى عن كل السيدات اللواتي جعله خياله المحلق ينغمر في علاقات عابرة معهن. ويقيناً أنك لا تتوقعين أن يجيء ليزورك لأنك ههنا في هذا القفر البائس الذي تقيمين به تثقين في غفلة أنه سيفعل ذلك تحديداً!».

سلمت ابنة أختها أمام هذا الهجوم الكاسح بأنها محقة تماماً. انخرطت في البكاء بهدوء، وقد غمرها حزن مرير، غير أنها لم تبد أي مؤشر على تغيير رأيها، وبعد أن قضت خالتها اليوم مستعرضة كل الحجج، استعدت للانصراف فيما الشمس تميل للمغيب، قائلة: «حسناً، إذاً، على الأقل سآخذ جيجو».

انخرطت جيجو في البكاء، وقالت في حديث منفرد مع سيدتها: «حسناً، لسوف أمضي لقضاء اليوم فحسب، حيث أنها تريدني أن أفعل ذلك، لأودعها في رحيلها بأمان. هناك بعض الحقيقة فيما تقوله. ولكنني لا ألومك، يا سيدتي، لكونك غير راغبة بالمرة في الرحيل، ومن المؤلم للغاية أن أكون في حيرة بينكما على هذا النحو».

حدَّثت سيدتها نفسها وقد غمرها الحزن والغضب: هكذا حتى هي قد تتخلى عني! ولكنها لم تستطع قول شيء لإيقافها، ومن هنا فإنها لم تجرؤ إلا على البكاء بصوت أكثر ارتفاعاً.

كان الرداء المفضَّل الذي ربما كان يمكن أن تخلعه على جيجو كتذكار ملطخاً للغاية بالملح[1]، بحيث حال دون إهدائها إياه. وإذ افتقرت إلى أي شيء آخر تعطيها إياه إقراراً بسنوات خدمتها لها، فقد أخذت علبة جميلة ووضعت فيها خصلة من شعر رأسها يزيد طولها على تسعة أقدام وتبدو جميلة للغاية، وأضافت كذلك مرطباناً من البخور العتيق والعبق على نحو خاص، الذي يستخدم لتعطير الملابس. وقالت:

«اعتقدت يوماً بإعزاز أنها لن تسقط أبداً، هذه الجدائل الطويلة، المتألقة،

التي تخذلني الآن لدهشتي الحزينة وسرعان ما ستمضي بعيداً[2]».

---

(1) بالغ الاتساخ.

(2) تعادل القصيدة بين هدية سويتسوموهانا (سقوط الشعر) وبين الصلة بين سويتسوموهانا وجيجو نفسها. «الجدائل المتألقة تعبر بالمعنى الواسع عن تاماكازورا، وهي كلمة تعني بصفة عامة «الكرمة»، ولكنها مقسمة هنا إلى البادئة النبيلة شعرياً «تاماً» («جوهرة»، «شبيهة بالجوهرة»، «متألقة») وكازورا، مناظر (أو ربما مجرد معنى مرتبط)

لقد حسبت أنك ستظلين معي دوماً، مهما كان وضعي داعياً لليأس، حيث أن ماما[1] تركت لك وصيتها الأخيرة. ولست ألومك على الذهاب، لكنني أسأل من التي ستحل مكانك؟». أفسحت كلماتها المجال لعاصفة من الدموع.

لم تستطع جيجو الرد. قالت: «لا عليك من كلمات ماما الأخيرة، يا سيدتي، لأنني عشت معك عبر سنين من أسوأ محن الحياة، وإنني يتعين عليَّ الآن الانجذاب إلى رحلة لم أقصد القيام بها قط وأتركك لأمضي، بعيداً بعيداً..

على الرغم من أن هذه الجدائل المتألقة تخذلك الآن، فإنها لن تنقطع، على ذلك أقسم لك

بالآلهة التي تكلف نفسها عناء حراسة الطريق الذي يمتد أمامي.

إن ما لا أستطيع أن أعدك به هو أن أحيا».

همست الخالة: «هلمي، فالظلام يرخي سدوله!». استقلت جيجو العربة التي جُلبت للأمام، من دون أن تدري إلا بالكاد ما هي فاعلة، وتطلعت إلى الوراء مراراً، فيما هي تنطلق بها بعيداً.

حزنت ابنة سموه الراحل كثيراً على فقدان من لم تفارقها كل هذه السنين، حتى في أكثر الأوقات مدعاة لليأس. وفي غضون ذلك كانت وصيفاتها الهرمات اللواتي لا جدوى منهن يقلن: «حسناً، إنها محقة تماماً. كيف كان يمكن لها أن تبقى؟ إننا نحن أنفسنا لا يمكننا إلا بالكاد احتمال ذلك!». ومضت كل منهن تبحث الاحتمالات وتخطط للرحيل، وأصغت سيدتهن إليهن في يأس.

انقلب الطقس في الشهر الحادي عشر إلى هطول الثلج وجمد المطر، اللذين كانا في بعض الأحيان يذوبان في أماكن أخرى، ولكنهما في دار هيتاشي، المدفونة في الأعشاب التي حجبت شمس الصباح والأصيل ظلا عميقين كالثلج في الجبل الأبيض هناك في إيتشو[2] إلى أن لم يعد حتى الخدم يلوحون للعيان خارج الدار، وتعذبت سيدة الدار

للكلمة التي تؤدي معنى «جمة» أو «سقوط».

(1) مربية سويتسوموهانا، أم جيجو. ماما هي الكلمة الأصلية.

(2) هاكوسان («الجبل الأبيض»)، 8917 قدماً قمة باتجاه بحر اليابان من جزيرة هونشو، في مقاطعة إتشو القديمة، وهي الآن محافظة تویاما.

فـي غمـار لا مبالاة شـاردة، ولـم يكن لديها من يواسـيها بتعليق مـرح أو يلهيها عما هي فيه بالدموع أو الضحك. وفي الليل ذاقت في طيات فراشـها المتواضع المحاط بالستائر بؤس الرقاد وحيدة.

كان جينجي، في داره، منغمسـاً على نحو متزايد الوضوح في البهجة النادرة النابعة من صحبة حبيبته، ولـم يكن يرغب في التوجه إلى أي مكان آخر ما لـم تكن لديه أكثر الأسباب إلحاحـاً للقيام بذلك، ولـم يكن لديه دافع يذكر للقيام بزيارة ابنة أمير هيتاشـي، وذلك على الرغم من أنه في بعض الأحيان فكَّر فيها بما فيه الكفاية للتساؤل عما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة من عدمه، وفي غضون ذلك حل العام الجديد.

في الشهر الرابع، تذكَّر قرية الزهور المتساقطة، وانطلق إليها في هدوء، بعد وداع قصير لحبيبته. كان مطر البارحة يواصل الانهمار، بعد العديد من الأيام المطيرة، وأطل القمر في لحظة مميزة، فعادت إلى ذهنه ذكرى رحلته إليها منذ زمن بعيد، وراح يسـتعيد ذكرى تلك الليلة المقمرة على نحو شـهي، عندما مرَّ بدار متداعية لا شـكل لها تقع وسـط غابة حقيقية من الأشجار.

امتـدت تدفقـات غنيـة مـن بـراعـم الوسـتاريـة فـي سـنـا القمر من شـجرة صنوبر عملاقـة، وأفعم عبقهـا المـترع بالشـجن، الذي حملته الريح علـى جناحيها الهواء كله من حوله، وبدا مناسبـاً للغايـة لرائحـة براعم البرتقـال[1]، إلـى حـد أنـه انحنـى مائـلاً خارج العربـة، ورأى الأوراق الوفيـرة لشـجرة صفصـاف باكيـة تمتد مـن دون عائق عبر جدار طينـي منهار. حدَّث نفسـه قائلاً: لقد سبق لـي أن رأيت هذه الأجمة من قبـل، وتعرَّف دار سـموه الراحل. الآن بلغ التأثر منه مبلغه، فأوقف عربته. كان كوريميتسـو بصحبته في هذه الرحلة السـرية، شـأن كل رحلاته المماثلة، وبادر إلى المثول بين يديه، فدعاه جينجي إلى الدنو منه أكثر.

«هذه هي دار سموه أمير هيتاشي. أليس كذلك؟».

«بلى، يا مولاي!».

(1) أعادت ذكرى الماضي بصورة متوهجة بالحيوية، على نحو ما تفعل براعم تاتشيبانا.

«أتساءل عما إذا كانت السيدة التي أقامت هنا يوماً لا تزال ضائعة في أحزانها. كان ينبغي عليَّ أن أزورها، ولكن هذا النوع من الأمور مصدر إزعاج بالغ. امض وتأكد من الوضع هناك، فسوف أبدو سخيفاً إذا أخطأت هوية من أزوره».

كانت ابنة سموه الراحل، على الرغم من قنوطها، تتدبر أمرها كأفضل ما بوسعها. وذات يوم أخذتها سنة من النوم، فتراءى لها أبوها في الحلم، وبعد أن أفاقت، جثم على صدرها حزن بالغ إلى حد أنها أمرت بتنظيف الحافة الخارجية للجناح، التي كان الماء قد تدفق إليها من الطنف ـ ورتبت غرفها، وغمغمت على نحو ما كان حرياً بأي إنسان أن يفعل، على الرغم من أن ذلك لم يكن مألوفاً بالنسبة لها.

«عندما يبتل كماي هذان دوماً بدموع ذرفت حداداً على خسارتي،

فإن قطرات جديدة من الطنف المدمر لا بد لها الآن من أن تغمرها مجدداً!»

كانت تلك اللحظة موجعة للقلب بلا حدود حقاً.

دخل كوريميتسو، وجاب أرجاء المكان، بحثاً عن أصوات بشر، ولكنه لم يجد إشارة إلى سكنى المكان، فحدَّث نفسه: بالتأكيد إنه أمر جيد للغاية الإطلال بهذا الاتجاه من الطريق، لكن ما من أحد يبدو أنه يقيم هنا. وكان يوشك على العودة إلى جينجي، عندما رأى في دفق من سنا القمر مصراعين شبكيين مرفوعين، والستائر الحاجبة وراءها تتحرك. وأثارت فيه فكرة العثور على قاطني المكان في نهاية المطاف رعدة خوف، ولكنه دنا وسعل على نحو مهذب، وهو ما رد عليه صوت عجوز، بعد نحنحة تمهيدية: «من؟ من هناك؟».

أفصح كوريميتسو عن اسمه. وتساءل: «هل لي في الحديث مع المرأة المعروفة باسم جيجو؟».

«أخشى أنها مضت بعيداً، ولكن غيرها يمكن أن ترد عليك ذلك». غدا الصوت الآن أضعف وأكثر ارتجافاً، ولكنه تعرف فيه صوت عجوز كان قد سمعه من قبل.

أثار الوصول المختلس لرجل رشيق يرتدي عباءة صيد، دهشة بالغة في تلك العيون التي لم تعتد على مثل هذا المشهد، إلى حد أنها ربما رأت فيه ثعلباً أو مخلوقاً سحرياً من

نوع ما. دنا كوريميتسو أكثر، وقال: «سأكون ممتناً لمعرفة ما إذا كانت سموها لا تزال على نحـو مـا كانت عليه عندما عرفها مـولاي لآخر مرة. إنني أعتقد أن مـولاي لا يزال حريصاً على زيارتها. وقد كان يمر غير بعيد هذا المسـاء، عندما توقف ههنا. أي رد أحمله إليه؟ ما من حاجة بكن إلى الخوف».

ابتسـمت النسـوة: «هل كان يمكن لسيدتي أن تظل مقيمة في برية الأعشاب هذه لو أنها كانـت مختلفة بأي حـال عما اعتادت أن تكونـه؟ عليك بإعمال ذهنـك وإبلاغه بما يروق لـك. أما بالنسـبة لنا، نحن الموغلات في العمـر، فإن الوقت الذي مرَّ علينـا هنا كان محنة قاسية وغريبة على نحو يتجاوز أي شيء يمكنك تصوره». بدا أنهن راغبات أشد الرغبة في تجاذب أطراف الحديث.

رغب كوريميتسـو في الحيلولة دون هذر لا موضع للترحيب به، فقال: «حسـناً، لسوف أبلغ مولاي بجلية الأمر». وعاد إلى جينجي.

«ما الذي جعلك تسـتغرق كل هذا الوقت الطويل؟ حسـناً. ما الذي وجدته. أهي مجرد خربة مريرة من الأفسنتين فحسب، أليس ثمة ما بقي من الماضي؟».

«شـققت طريقي إلى الدار، يا مولاي، بأفضل ما اسـتطعت، وكانت عمة جيجو، المرأة العجـوز التـي اعتـادوا مناداتهـا بشوشـو هي التـي ردت علـيَّ. وكان صوتها علـى حاله». ووصف كوريميتسو كل ما وجده.

استبدَّ الضيق الشديد بجينجي، وراح يتساءل عما يمكن أن يكون الأمر عليه بالنسبة لها كل هذا الوقت وسط مثل هذه الأجمات الكثيفة. وندم أشد الندم على القسوة المتمثلة في عدم زيارته لها حتى الآن. وقال: «ما الذي يتعين عليَّ القيام به. إن جولة تحت ستار التكتم كهذه تحفل بالغرائب. فهذا هو الوقت الوحيد الذي يمكنني بالفعل القدوم فيه. وإذا كانت على حالها تماماً، فإن هذا هو على وجه الدقة ما يتوقعه المرء منها». غير أنه تردد في ولوج الـدار مباشـرة. لقـد أراد بصورة ملحَّـة أن يبعث إليها برسـالة متألقة، لكنـه تخلى عن تلك الفكرة إشـفاقاً على مبعوثه، الذي إن لـم يكن ركود قريحتها قد تغير، فإنه سينتظر بصورة لا متناهيـة رداً منهـا. وبالإضافة إلى ذلك فإن كوريميتسـو قد أكد له أنه لن يسـتطع عبور تلك

الأجمات. وقال: «لا ينبغي أن تمضي ما لم نشذب الأجمات قليلاً».

غمغم جينجي محدثاً نفسه:

«الآن ما دمت هنا فسأمضي إليها بنفسي عبر اليباب الخالي من الدروب

لأتبين ما إذا كانت كل هذه الأعشاب قد تركتها مثلما هي آنذاك».



مظلة

وترجل من العربة، في نهاية المطاف، وعند ذلك مضى به كوريميتسو إلى الداخل، مزيحاً العشب من أمامه بسوط ركوبه. قال: «لديَّ مظلة، يا مولاي!»، حيث أن القطرات المتساقطة من الأعالي بدت شبيهة بأمطار الخريف. وأضاف: «الندى تحت هذه الأشجار أكثر بللاً من المطر حقاً»[1]. وتبللت ساقا سروال جينجي الملموم إلى حد التشبع بالماء. ومن البوابة الوسيطة التي كانت مهتزة بما فيه الكفاية حتى في هاتيك الأيام لم يبق شيء على الإطلاق، وكلما أوغل في الميسرة في تلك الأراضي، ازداد وعيه بذاته، على الرغم من أنه قد ساعده على تجاوز ذلك أنه لم يكن هناك أحد يمكن أن يراه.

انكمشت ابنة سموه الراحل حيال حضوره، على الرغم من أنها اكتشفت أنّها كانت على صواب في اعتقادها بأنه سيجيء مجدداً ذات يوم، ولم تستطع إلا بالكاد حمل نفسها على استقباله. ولم تكن قد ألقت نظرة عابرة قط على الملابس التي جلبتها زوجة نائب دزايفو، التي كرهتها، ولكن عندما جلبتها وصيفاتها، وقد بدت معطرة على نحو جذاب من جراء إيداعها خزانة تفوح بالعبق، استسلمت لتغيير ملابسها في نهاية المطاف، ونحّت تقريباً ذلك الستار المتسخ الذي كانت تسدله.

(1) أدرك كوريميتسو الشبه بين موقفهما وبين الموقف الوارد في «الكوخ الشرقي» («أزومايا»)، وهي أغنية سايبارا شعبية ورومانسية، والجملة تومىء إلى «الكوخ الشرقي» مرتين. والصياغة التي يستخدمها تعيد إلى الأذهان كذلك كوكينشو 1091 حول الموضوعة ذاتها: «يارجلي الحسناً، أبلغ سيدك أنه لا بد أن تكون لديه مظلة، فالندى تحت الأشجار في مياجينو أكثر بللاً من المطر».

دلف جينجي إلى الداخل، واستهل الحديث: «كان قلبي، على الأقل، وفياً لك خلال كل سنوات الصمت هذه. غير أن خيبة أملي حيال غياب أي كلمة منك جعلتني أرغب حتى الآن في اختبار إخلاصك أكثر قليلاً. غير أنني لم أستطع المرور بأجمة لافتة للنظر على هذا النحو سواء أكانت أشجارك أرزاً أم لم تكن[1]. وهكذا، وكما ترين، فقد خسرت في نهاية المطاف». أبعد الستار جانباً قليلاً، ولكنها هي الخجولة كعهدها دوماً لم تحر رداً. ومع ذلك فإن طريقة مجيئه إليها برهنت على أنه جاد. وفي النهاية استجمعت الشجاعة لتمنحه رداً خافتاً.

«لقد قادني الأسى النابع من معرفتي مدى طول الفترة التي أمضيتها مختفية بين هذه الأجمات، مضافاً إلى إخلاصي الذي لا يتغير، إلى القدوم إليك مبتلاً بالندى. غير أنني لست أعرف شيئاً عما تريدينه في الأمر، وإنني لأتساءل في هذا الصدد ما هي مشاعرك، ربما آمل أنك ستغفرين لي إهمالي لك عبر السنين. وإذا لم أفلح بعد ذلك في إدخال السرور على نفسك، فسوف أعترف حقاً بخطيئة نكثي لعهدي». يبدو أنه ألقى على مسامعها العديد من مثل هذه الخطب الرقيقة، وإن لم تكن نابعة من القلب تماماً لكي يجتذبها ويبعدها عن فتورها.

كان يمكن أن يبقى، لكن حالة المكان وحالتها هي التي تدعو للشعور بالصدمة تطلبا منه العديد من الأعذار البليغة، وبدلاً من ذلك تأهب للمغادرة. لم تكن شجرة الصنوبر القائمة في أرضها قد زُرعت عن قصد، ولكنها أثرت فيه بارتفاعها السامق، الذي بلغته على مدار الأعوام[2]، ودفعته تأملاته في الطابع الذي يشبه الحلم الذي تتسم به الحياة إلى أن يقول:

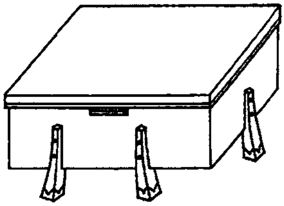
«كان ما لفت نظري، عندما أغرتني الوستارية المترفة بالتوقف،

---

(1) كوكينشو 982: «سكني المتواضع تحت سفح جبل ميوا، هلم إن كنت تحبني إلى البوابة حيث تشمخ أشجار الأرز!». والمتحدِّث هو إله ميوا، الذي تعد شجرة الأرز (سوجي) مقدسة بالنسبة إليه.

(2) تومىء الجملة حتى هذا الموضع إلى جوسينشو 1107، من نظم أوشيكوتشي نو ميتسوني: «بالطبع، من غرس الصنوبرة أوغل في العمر، ومع ذلك ما أطول ما بلغته الشجرة في غضون ذلك!». وتومىء الصنوبرة (ماتسو) التي غدت سامقة إلى إدراك جينجي لمدى انتظار «ماتسو» سويتسوموهانا في صبر لعودته.

صنوبرتك التي بدا أنها تتحدَّث عن إنسانة يغمرها الشوق غير بعيد[1].



الخزانة العطرة

عديدة هي السنون التي انقضت، عندما يحصيها المرء، ويا للحسرة، فقد تغير الكثير في المدينة. عما قريب، عندما يتوفّر الوقت، لا بد لي من أن أحدثك بكل شيء حول أنني بدوري قد تعذبت بعيداً في البراري[2] وإنني لأدرك أنك ليس لديك سواي من يسمع شكواك عن المعاناة التي احتملتها، موسماً إثر آخر على امتداد السنين. الأمر غريب، كما تعلمين».

«عاماً طويلاً إثر آخر، غمرني الشوق، بلا طائل دوماً. هل هذه الزهور إذن هي كل ما جعلك تنظر في هذا الاتجاه وتلاحظ داري أخيراً؟».

هكذا ردت، وأوحت لمحة عاجلة لحركتها الرصينة، مضافة إلى عبق كميّها بأنها قد نضجت منذ تلك الأيام.

تألق القمر، الذي كان بسبيله إلى الأفول الآن، منسلاً إلى الداخل، حيث لم يعد شيء يشبه طريق الجسر، فيما وراء البابين المزدوجين الواقعين إلى الغرب، ولم يعد هناك وجود للطنف الناتيء كذلك. تطلع حوله في الضوء، ورأى غرفة مجهزة على نحو ما كانت منذ بعيد، وأكثر فخامة من أي شيء أوحى به ظاهر الدار الموغلة في «أعشاب الذكرى»،[3] وتتابعت في ذهنه صور الحكايات القديمة، وراح يتساءل في حزن عن سنواتها ههنا من دون ما يوحي بالتغيير. وأثَّر فيه سلوكها المحتشم على نحو صارم باعتباره سلوكاً يليق بمرتبتها على نحو يثير الإعجاب، وأسف كثيراً لأنه بعد الاعتماد الشغوف على هذا السبب في عدم نسيانها فإنه لم يتصل بها، على امتداد هذا الوقت الطويل، بعد أن استغرقته متاعبه، إلى أن حسبت بلا شك أنه جاحد. وقد كانت سيدة الزهور المتساقطة بالمثل لا تميل كثيراً

(1) تحقق القصيدة تلاعباً فيما يتعلق بماتسو «شجرة الصنوبرة» و«ينتظر»، كما تومىء كذلك إلى كوكينشو 982.

(2) كوكينشو 961 من نظم أونو نو تاكومورا: «لم أفكِّر قط في السقوط إلى هذا الحد منفياً إلى البراري لأرفع شص صياد وألتقط السمك من البحر!».

(3) كوكينشو 200: «هنا في داري العتيقة الملتفة بأعشاب الذكرى يفعمني صرير صرار الصنوبر بالأسى». و«أعشاب الذكرى» هي شينوبو، وهي نوع من السرخس الذي ينمو في سقف مكسو بالعشب، ويوحي اسمه بـ«أذكرك بإعزاز».

إلـى تألـق المظهر، وأعفتـه المقارنة الذهنيـة الآن بين الاثنتين، على الأقل فـي ناظريه، من حشد من الخطايا.

أقبل موسـم المهرجان والتطهر، وجُلبت إلى جينجي أنواع الهدايا كافة «لمساعدته في استعداداته»، لكنه أعطاها جميعها لمن تستحق من سيداته، وقد عني بصفة خاصة بابنة سمو أمير هيتاشـي، حيث وجه أقرب أتباعـه لتلبية احتياجاتها، وبعث بالخدم لإزالة الأعشـاب من الأراضي المحيطة بدارها، وأمر بإصلاح الثغرات البشـعة في سـور حديقتها بسـور من الألواح الممتدة. ولم يزرها لأن ذلك لن يعزز مصداقيته، إذا علمت الدنيا بأسرها على أي نحـو وجدهـا. وبدلاً من ذلـك كتب لها مطولاً ليقول (حيث أنـه كان يبني قريباً من نيجو): «ذلـك هو المكان الـذي أعتزم نقلك إليه. أرجو أن تعثري علـى بعض الفتيات الصغيرات اللطيفات ليقمن برعايتك». وشـملت عنايته حتى إمدادها بالخدم، وكان من السخاء البالغ بحيث أن بريتها العشـبية لم تتسـع إلا بالكاد لهذا السـخاء. والتفتت وصيفاتها المبتهجات نحو مقر إقامته وهن شاخصات نحو السماء.

بقدر ما يعرف الجميع، فإن جينجي لم يكن يهتم ولو اهتماماً عابراً بنوعية النسـوة التي تمتلىء بهن الدنيا، وإنما كان يسـعى وراء النسـوة اللواتي كان يبدو أنهن يقدمن شـيئاً أكثر من المألوف، شـيئاً راق له، ومع ذلك فها هو ذا، والمرء لا يملك إلا التسـاؤل عن السر في ذلك، يهتم كثيراً بسيدة أخفقت جاذبيتها بكل الحيل في استقطاب أحد حتى من هو عادي ومبتذل. ولا بد أنه كان مرتبطاً بها في ماضٍ بعيد.

الآن عـاد بعـض الأعضـاء السـابقين فـي فريـق العاملين لديهـا على أدنى المسـتويات وأرفعهـا. والذيـن كانـوا قد تجنبـوا في ازدراء في وقـت من الأوقات خدمة سـيدة حل بها الفقر، وتركوها بأسرع ما في مقدورهم. وكان آخرون قد أصبحوا معتادين للغاية على مثل هذه البيوت الشـبيهة ببيوت حكام الأقاليـم، الذين لا يدري بهم أحد. وهكذا ألهم الجميع العودة في الحال إلى سابق عهدهم.

لـم يـزدد جينجـي إلا حكمة مـع ارتفاعه إلـى ذُرى جديدة مـن المجد، ورتـب الأمور بصورة جيدة للغاية، بحيث أحدث تغييراً رائعاً، حيث غدت دارها حافلة بالناس على نحو مناسـب. وحيث انتشـرت في يوم من الأيام الأعشـاب الضارة، فألقت حجاباً كثيفاً تمجه

العين، تدفق الآن غدير حوّل مجراه حديثاً، بينما ألقت الأشجار الصغيرة قرب الدار ظلالاً منعشة، ورصد العاملون الصغار في الدار الذين لحظتهم العيون بالكاد حتى الآن، ولكنهم كانوا متحمسين لخدمته ـ رصدوا بوضوح اهتمامه العميق، بحيث أبدوا نحوها أعمق الاهتمام وأعظم الرعاية.

لقد تعذبت عامين في دار أبيها، ثم أعادها جينجي إلى الحياة في جناحه الشرقي[1]. وكان من النادر بالنسبة له أن يقوم بالفعل بزيارتها هناك، ولكنها كانت قريبة للغاية، بحيث أنه أطل عليها كلما صادفها في طريقه على الإطلاق، ولم تكن معاملته لها بالمسيئة حقاً.

كان حرياً بي أن أفصّل القول قليلاً حول مدى دهشة زوجة نائب دازايفو عندما عادت إلى المدينة، وحول جينجو التي على الرغم من سرورها البالغ، إلا أنها اتقدت بحمرة الخجل، حيال تخاذلها وعدم انتظارها لمدة أطول قليلاً، ولكنني الآن يعتريني الصداع على نحو سيء للغاية، بحيث أنني لا سبيل أمامي للقيام بذلك، وإنني لأخشى أنه ستتعين عليَّ العودة إلى ذلك في وقت آخر، عندما أتذكر المزيد[2].

(1) الذي كان قد شيده لتوه في مقره في نيجو.

(2) كُتبت هذه الفقرة كأنما قيلت بصورة مباشرة لشخص أرفع وأسمى مرتبة بكثير.

16

سيكيا

عند الممر

تعني كلمة «سيكيا» موقع الحاجز (الذي يحتشد فيه مرسى الحاجز) ويومىء من طرف خفي إلى حاجز أوساكا، الواقع بين كيوتو ومقاطعات الشرق. وهذه البقعة هي المشهد العام في هذا الفصل القصير.

الصلة بالفصول السابقة

تقع أحداث «عند الممر» في حوالي نهاية الفترة التي يغطيها «الحج إلى سوميوشي» من الشهر التاسع إلى الشهر العاشر أو الشهر الحادي عشر.

الشخوص

جينجي، وزير القصر، 29 عاماً.

نائب حاكم هيتاشي، نائب حاكم أيو سابقاً (أيو نو سوتي).

زوجته، سيدة شرنقة زيز الحصاد (أوتسوسيمي).

حاكم كاواتشي (حاكم كي سابقاً) ربيب أوتسوسيمي (كي نوكامي).

أخوه الأصغر، مساعد لحرس ميمنة القصر.

الثاني في رقابة بوابة الميمنة، الأخ الأصغر لأوتسوسيمي (كوجيمي).

في العام الذي أعقب انقضاء أجل نيافته الراحل، عُيّن نائب حاكم أيو نائباً لحاكم هيتاشي[1]، ودعا زوجته، سيدة شرنقة زيز الحصاد، إلى القدوم معه إلى مقاطعته، وغالباً ما كانت خواطرها تنصرف إلى جينجي، حيث نما إلى علمها من بعيد أنه في طريقه إلى سوما، لكن لم يكن أمامها من سبيل حتى إلى أن تبعث برسالة إليه، ولما كانت حذرة من الرياح التي تهب على جبل تسوكوبا[2]، فقد مرت الشهور والسنون من دون أن يتبادلا كلمة، ولم يكن هناك مدى زمني محدد لنفيه، ولكنه أخيراً عاد للإقامة في المدينة، وفي خريف العام الذي أعقب ذلك عاد هيتاشي نفسه إليها.

مضى جينجي في رحلة حج إلى أيشياما وفاء بنذر، في اليوم نفسه الذي كان من المقرر فيه وصول هيتاشي إلى الحاجز[3]. وكان حاكم كي السابق وكذلك أبناء هيتاشي الآخرون قد أقبلوا من المدينة للترحيب بمقدم أبيهم، مدركين أن الطريق سيغص بمن فيه لأن سموه سيشغله الركب إلى الانطلاق عند الفجر في قافلة كثيفة من العربات التي تقل النساء. علت الشمس في كبد السماء. وازدحم الطريق بعدائي جينجي المرافقين لموكبه عند شاطىء أوتشيدي[4] حتى قبل أن يستطيعوا التنحي جانباً، معلنين أن مولاهم قد اجتاز أواتا[5]، وهكذا فإنه على ارتفاع أعلى، قرب الحاجز ترجلوا جميعاً، ونزعوا عن الثيران نيرها، ووضعوا العربات هنا وهناك تحت أشجار السدر، وانسحبوا بمزيد من التوقير إلى تحت الأشجار ليتيحوا له المجال للمرور. كان قد سُمح لبعض العربات بالتأخر وأرسل البعض الآخر إلى المقدمة، ولكن حتى على الرغم من ذلك، فإن ركب هيتاشي كان لا يزال كبيراً على نحو جلي. وتدلت الأكمام وأطراف التنانير بألوان راقية من عشر من المركبات، وذكَّر تألقها، البعيد تمام البعد عن طابع الأقاليم، جينجي بعربات النزهة في مناسبات مثل رحيل

(1) كنائب للحاكم (سوكي) حيث أن حاكم هيتاشي هو أمير يشغل هذا المنصب باعتباره منصباً لا يقوم شاغله بأي عمل، أو بعمل لا يتكافأ مع عائده الكبير.

(2) كوكينشو 1098: «آه، لكم أتوق إلى أن أبعث لها كلمة على جناح الريح، التي تهب على التلال والجبال، جبال كاي الركينة». يقع جبل تسوكوبا في هيتاشي وليس في كاي، وهو يقر بأن أوتسوسيمي تقيم في هيتاشي. وعدم الثقة في الريح يعني عدم الثقة في أي رسول محتمل.

(3) حاجز أوساكا بين المدينة وبحيرة بيوا عند ممر خفيض يعبره الطريق المفضي إلى المقاطعات الشرقية. وكان إيشيا ماديرا معبداً بوذياً يقع في الجانب الجنوبي من بحيرة بيوا ومقصداً أثيراً للحجاج القادمين من المدينة.

(4) على امتداد الشاطىء الجنوبي لبحيرة بيوا، داخل مدينة أوتسو الحالية.

(5) مدِخل المدينة، إن صح التعبير، عند الطرف الغربي للطريق الذي يجتاز معبر أوساكا.

الكاهنة العليا إلى آيسي. وقد لحظها كل رجل في الركب الكبير الذي انطلق في هذه الرحلة النادرة والفخمة فيما هو يمر بها.

كان ذلك في اليوم الأخير من الشهر التاسع[1]. توهجت وريقات الخريف بألوان عديدة، واجتذبت العين أماد من الأعشـاب التي جعلهـا الثلج تذوي، بينما مرَّ الموكب المتألق في عبـاءات الصيـد المطـرزة أو مصبوغة الياقات مسـرعاً، متجـاوزاً مأوى حـراس الحاجز. وخفـض جينجي سـتار عربته الحاجب، واسـتدعى الأخ الصغير الذي بعـد به العهد. وقد أصبح الآن الثاني في رقابة بوابة الميمنة. وقال بكلمات أُريد بها شقيقة الشاب: «إنني على يقين من أنك لن تنسي سريعاً أنني جئت إلى الحاجز للقائك». وانداحت في ذهنه ذكريات مؤثـرة مـن كل الأنواع، ولكنه اضطر إلى إبقاء تلميحاتـه في حدود ما هو حميد، ولا يلحق بأحد ضرراً.

كانـت هي بدورها قد احتفظت بالذكريات القديمة في فؤادها، والآن تصاعد حزن هذه الذكريات في أعماقها مجدداً.

«أجيء وأذهب، فلا أجد حاجزاً لدموعي هذه

ربما تبدو لك النبع دائم التدفق لهذا المنحدر»[2].

كانت تعرف أنه لن يتفهم أبداً، وغلبها حزن مفعم بالشعور بالعجز.

أقبـل الثانـي في رقابة بوابـة الميمنة الآن للقـاء جينجي في طريق عودة هـذا الأخير من إيشـياما. واعتذر عن عدم مواصلة السـير في طريقه قدماً[3]. وكان قبل سنوات مضت وهو لا يزال صبياً مقرباً للغاية من جينجي وأثيراً لديه إلى حد أنه حتى اعتماره قلنسوة المنصب للمرة الأولى ظل متمتعاً بحمايته التي لا تدخر وسعاً، لكنه عقب ذلك عندما انقلبت الدنيا على نحو غريب فسادها الاضطراب، دفعه الخوف من الشائعات إلى المضي إلى هيتاشي،

---

(1) اليوم الأخير من أيام الخريف.

(2) كان «نبع» حاجز أوساكا (سيكي نو شيميزو) معروفاً في الشعر. جوسينشو 1089 من نظم سيميمارو (شخصية أسطورية ترتبط بالحاجز) هو المصدر بالنسبة لـ«أجيء وأذهب»: «انظروا، آه، انظروا! يجيؤون ويذهبون في طريقهم، بينما يلتقي الأصدقاء والغرباء عند حاجز أوساكا». تكتب «أوساكا» بحروف تعني «منحدر اللقاء».

(3) اعتذر عن عدم قيامه بمصاحبة جينجي إلى إيشياما.

الأمر الذي أثار استياء جينجي بعض الشيء، وذلك على الرغم من أنه أبقى مشاعره طي الكتمان.

وعلى الرغم من أنه لم يعد يلقاه لقاء مفعماً بالدفء والمودة، إلا أنه ظل يعتبره في عداد أتباعه المقربين. وقد كان الأخ الأصغر (حاكم كي) السابق (حاكم كاواشي الآن)، الذي فقد منصبه في حرس القصر، ومضي مع جينجي إلى سوما، هو الذي منحه هذا الأخير عطفه الخاص. واستوعب الآخرون الدرس، وإذ عكفوا على التفكير في الماضي، فقد مضوا يتساءلون عن السر في أنهم نظروا مجرد نظر في الإذعان للرأي السائد.

استدعى جينجي الثاني في رقابة بوابة الميمنة، وأعطاه رسالة ليسلمها. يا لها من ذكرى بعد العهد بها، هكذا حدَّث الشاب نفسه، وهو يتأمل الأمور التي كان يتعين أن يكون قد نسيها منذ عهد بعيد!

كان جينجي قد كتب يقول: «فهمت، أخيراً، كم هي قوية الرابطة التي تصل أحدنا بالآخر، فهل فهمتها أنت أيضاً؟

ليس لديَّ شك في أننا سنلتقي، في نهاية المطاف، على طريق أومي،

غير أن هذه المياه كانت أكثر عذوبة من أن تخون أملي الأثير[1].

كان مقيتاً الرقيب التعس ذاك!»[2].

قال جينجي: «إنني أشعر بعدم الارتياح، بعد أن توقفت عن الاتصال بها طوال هذا الوقت، لكنني غالباً ما أفكِّر فيها، كما تعلم، وأشعر أن الأمر كله حدث البارحة. أحسب أن هذا الميل العاطفي من جانبي لن يؤدي إلا إلى انقلابها عليَّ أكثر».

أعطى الرسالة إلى الشاب، الذي مضى إلى أخته بها، وقال لها: «ردي عليه! لقد افترضت

---

(1) يبدأ هذا النسيج مزدوج المعاني بتلاعب بلفظة أو (أوآو) «يلتقي»، «يتجمع» (وأوميجي) «طريق أومي». وذكر أومي (المقاطعة) يستحضر أومي نو أومي، «بحيرة أومي» (بحيرة بيو ا)وهذه البحيرة التي هي بحيرة ماء عذب ليس بها كاي «محار» ولكن كذلك «منفعة مرغوبة».

(2) «الرقيب» هو «رقيب الحاجز» (سيكيموري)، شخصية قياسية في شعر الحب، حيث يرمز لأي شخص يفصل بين العشاق. وهو هنا يشير في آن إلى زوج أوتسوسيمي وإلى حاجز أوساكا الذي مرّر جينجي منه عربة أوتسوسيمي.

دائمـاً أنـه أقل اهتماماً بي مما اعتاد أن يبديه، وإنه لأمر رائع أنه يعاملني بلطف كأن شـيئاً لم يتغير، وإنني أفهم أن مثل هذه الانشـغالات قد لا تكون جذابة بالنسـبة لك، لكنك لا يمكن أن تتجاهليه فحسب. والمرأة قد يمكن أن يُغتفر لها إذعانها لسيد مهذب».

وعلى الرغم من أنها كانت أكثر شعوراً بالحرج على نحو عميق مقارنة بذي قبل، وأقل ثقة على كل الأصعدة، فلا بد أنها قد استسلمت للمفاجأة، حيث ردت قائلة:

«آه، ماذا عساه يكون حاجز أوساكا بحيث أنه في هذا المكان فحسب

لا بد للمرء أن يشق طريقه ملتفاً بالحداد عبر غابة الأسى؟[1]

أظن أنني لا بد غارقة في الحلم».

كان جينجي قد وجدها مستعصية على النسيان، نظراً لكل من محنتها المؤثرة في النفس ولأسـاليبها التي تبعث علـى الجنون معاً، لكنه بين الحين والآخر كان يهزّ عنادها بإرسـال رسـائل جديدة إليها. وفي غضون ذلك، عانى هيتاشـي أشـد المعاناة من هزال صحته، ولا شـك في أن ذلك كان بسـبب توغله في العمـر، بحيث أن تعليماته الوحيـدة لأبنائه تعلقت بزوجته رفيعة النسـب، وقد اسـتحثهم صباحاً ومساء بالقول: «عليكم بتلبية رغباتها في كل شيء، واخدموها تماماً على نحو ما فعلتم في حياتي». وإذ رأى جينجي محنتها فيما يتعلق بالاحتمال المحزن المتمثل في إمكانية فقد زوجها، الأمر الذي من شأنه أن يضيف المزيد مـن مصيرهـا الحزين بالفعل، فقد تشـوق ـ حيـث أن للحياة مداها وما مـن حزن يمكن أن يمنـع انقضاءهـا ـ إلى أن يكون بمقدوره أن يترك روحه معها، وغالباً ما راح يفكِّر ويتحدَّث عن هذا الحزن والقلق، حيث أنه لم يكن يدري بنوايا أبنائه حيالها، لكن قلقه لم يجده نفعاً، وسرعان ما مات.

تظاهر أبناؤه لبعض الوقت بأنهم يحترمون رغباتها، لكن حسن نواياهم لم يكن إلا شيئاً على السـطح فحسـب، وكانت هناك لحظات مؤلمـة عديدة، ففي نهايـة المطاف تلك هي حال الدنيا، وقد أمضت حياتها تنوح على سوء حظها الذي فرض عليها العزلة والوحشة.

---

(1) تحقق القصيدة مرة أخرى تلاعباً فيما يتعلق بلفظة ناجيكي («أحزان»)، التي تشير إلى فكرة العديد من «الأشجار» (كي).

انفرد حاكم كاواتشي، الذي كان يضع عينه عليها طوال الوقت، بإظهار أي قدر من الاهتمام. قال: «لقد تحدَّث أبي بمشاعر مليئة بالإحساس عنك. وإنني لأدرك كم أن هذا غير مناسب، ولكن أرجو ألا تترددي في إبلاغي، إذا كان بمقدوري القيام بأي شيء من أجلك». وكشفت مبادراته المليئة بالإطراء بصورة مريحة عما يفكِّر فيه، وحدَّثت نفسها بأن أي امرأة سيئة الطالع مثلها تواصل الحياة على هذا النحو ستضطر لسماع المزيد من هذه الفظائع، وهكذا فإنها من دون أن تحدِّث أحداً في الأمر أصبحت راهبة، وأذهلت هذه الخطوة المفاجئة وصيفاتها.

غضب الحاكم أشد الغضب، وصاح بها: «ليكن، ربما ما من حاجة لك بي، ولكن أمامك سنوات طويلة، وأنني لأتساءل كيف ستتدبرين أمورك!»

إن أحد التعليقات على هذا الموضوع يتمثل في القول: «يا له من أمر مضجر ومثير للإزعاج!».

17

إيواسي

مسابقة التصوير

تعني كلمة «إيواسي» مسابقة تصوير يقوم فيها جانبان متنافسان بتقديم أزواج من الصور للحكم عليها. ولم يُعرف أن مثل هذه المسابقة قد أُجريت قبل كتابة الحكاية، ولكن المسابقة التي تجري في هذا الفصل تتبع النمط السائد الخاص بالمسابقات الشعرية، وبصفة خاصة تتبع نموذجاً موثقاً بصورة كاملة أُجري في القصر في الشهر القمري الثالث من عام 960

الصلة بالفصول السابقة

تقع أحداث «مسـابقة التصوير» في الفترة من الربيع إلى الخريف، بعد عام أو نحو ذلك عقب الوقت الذي يغطيه «الحج إلى سوميوشي»

الشخوص

جينجي، وزير القصر، 31 عاماً.

سمو كاهنة آيسي العليا السابقة، الزوجة آيسي، 22 (أكيكونومو).

نيافة الإمبراطورة، المنعزلة، 36 عاماً (فوجيتسوبو).

نيافة الإمبراطور المتقاعد، 33 عاماً (سوزاكو إن).

سيدة شؤون دار أكيكونومو

جلالة الإمبراطور، 13 عاماً (رايزي).

الزوجة كوكيدين، ابنة تو نو تشوجو.

معالي وزير الحرب (هايوبو كايونوميا).

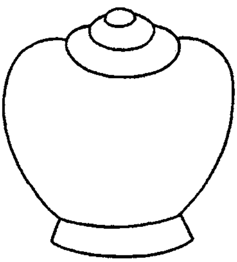
محبوبة جينجي، 23 عاماً (مورا ساكي).

هايمي وجيجو وشوشو، وصيفات الميسرة جانب أوميتسوبو في المسابقة.

ديني وتشوجو وهايوي، وصيفات الميمنة، جانب كوكيدين في المسابقة

الأمير نائب الإمبراطور، أخ لجينجي (هو تارو أو سوتشي نوميا).

حظي التحاق كاهنة آيسي السابقة بخدمة القصر بدعم نيافة الإمبراطورة المنعزلة عن طواعية، ولكن جينجي أحس بالقلق من أنه ليس لها أحد على وجه التحديد لينجز من أجلها كل ما يتعين إنجازه، ومن هنا فقد أحجم عن مناقشة هذا الأمر مع نيافته، ولما كان قد قرَّر إحضارها لبعض الوقت إلى نيجو، فقد تظاهر بدلاً من ذلك بأنه لم يعلم عن الأمر شيئاً. غير أنه بصفة عامة اضطلع بمسؤولياته الأبوية نحوها.



قارورة البخور

أصيب نيافته بخيبة الأمل بصورة شاملة، ولكنه حفظاً للمظاهر تخلى عن مراسلتها. غير أنه عندما أقبل اليوم الموعود أمر بأن تُهدى إليها أجمل أطقم الملابس مع صندوق للأمشاط، وصندوق لمستحضرات التجميل وصندوق لقوارير البخور، وجميعها فريدة من نوعها، مع مقادير من أنواع البخور وعطور الملابس تفعم الهواء بالعبق على مسافة تتجاوز مئة خطوة[1]، ولا شك في أن فكرة أن جينجي ربما يرقب الأمر قد جعلته يبذل قصارى جهده.

على أنشوطة الهدية التي تجمِّل صندوق أمشاط الزينة رأى ما يلي مكتوباً:

«هل قدَّرت الآلهة، عندما آن أوان الرحيل ووضعت في شعرك

مشط الوداع الأخير[2]، ألا نلتقي مجدداً؟» .

دفعه هذا إلى التوقف طويلاً، وأحس بالأسف الشديد، وأوضحت له تصورات فؤاده المجنحة أنها بالتأكيد قد خلبت لبّ نيافة، في تلك المناسبة، عندما غادرت المدينة قاصدة آيسي. ترى ما هو شعوره حيال إحباط آماله بهذه الطريقة الآن بعد عودتها عقب كل هذه السنين، وتحديداً في الوقت الذي غدا بمقدوره التطلع إلى تحقيقها؟ ترى هل تستبد به المرارة في تقاعده بعد تخليه عن العرش؟ مضى جينجي يحدِّث نفسه في تأملاته قائلاً: لسوف أشعر بالضيق لو أنني كنت مكانه. ما الذي كان بوسعه دفعي إلى فرض هذا الأمر وجعله تعيساً على هذا النحو؟ ساوره شعور بالغ السوء. نعم، لقد كان في وقت من الأوقات

---

(1) «مئة خطوة» هي المقياس الذي يُضرب به المثل في تميز عطر ما.

(2) مشط الوداع الذي أعطاه سوزاكو لأكيكونو عندما غادرت إلى آيسي (الفرع الأخضر).

غاضبـاً تمامـاً من نيافتة[1]، ولكنـه كان بمقدوره أن يفكِّر بإعزاز فحسـب في طبيعته الرقيقة كذلك. وفي غمار حيرته تردى لبعض الوقت في وحشة كآبة عبثية.

«ترى أي نوع من الإجابة تفكِّر فيه؟ وماذا عن رسالة نيافته ذاتها؟». غير أن سيدة العاملين فـي القصـر كانت أكثر حـذراً على نحو عصبي مـن أن تقدم ذلك الرد. وقد سـمع جينجي الوصيفات في غمار احتجاجهن عبثاً على سيدتهن، التي لم تكن في خير حال آنذاك، ولم تكن في حالة مزاجية تتيح لها الرد، قائلات إنه من الفظاظة والافتقار إلى الدماثة من جانبها ألا ترد، وقد قاطع حديثهن قائلاً: «لا بد لك من ذلك حقاً، كما تعرفين، ولو مرعاةً للمظاهر فحسب». وعلى الرغم من حيرتها، فقد تذكرت على نحو مفعم بالحيوية كيف تأثرت وهي صبية بجماله الرشـيق وبدموعه المنهمرة، وحملت الذكرى معها خواطر حزينة للغاية عن أمها، إلى حد أنها أفلحت في نهاية المطاف في أن تكتب:

«عندما مضيت بعيداً، أصدرت إليَّ ذلك الأمر الأخير بألا أعود،

والآن ها قدت عدت من جديد والذكرى تفعمني حزناً»[2].

ربما كان ذلك هو كل ما قالته. وقد تلقى حامل الرسالة هدايا عديدة. أما جينجي، الذي أراد يائساً أن يعرف ما قالته، فإنه لم يستطع السؤال عن فحوى الرسالة.

كان مظهـر نيافتـه يمكن أن يدفع المرء سـعيداً إلى النظر إليه، كما لـو كان امرأة، ولكن سـموها[3] لـم تبد له غير جديـرة بالاهتمام، وكان حرياً بهما أن يشـكلا ثنائيـاً رائعاً، بل إن جينجـي خطر له أن يتسـاءل، على نحـو يفتقر للحرص والحذر، عمـا إذا لم تكن في قرارة نفسـها تأسـف لأن رجاءه قد خاب، حيـث أن جلالته في نهاية المطـاف لا يزال صغيراً في السن للغاية. وكانت هذه المخاطرة عذاباً، ولكن لم يكن هناك مجال للتراجع. وقد أوضح مـا يتعيـن إنجازه[4]، وأبلغ استشـاري الصيانة[5]، الـذي يؤثره، أن يقوم علـى تنفيذ أوامره،

---

(1) لأن سوزاكو (بتأثير من أمه) أرغم جينجي على المضي إلى المنفى.

(2) أعطى سوزاكو أكيكونومو المشط جنباً إلى جنب مع الوصية الطقوسية: «لا تيممي وجهك نحو المدينة مرة أخرى!».

(3) أكيكونومو.

(4) من أجل دخول أكيكونومو الرسمي إلى القصر.

(5) لا يظهر في أي موضع آخر من الحكاية. والرجل هو مدير الصيانة للقصر، وهو كذلك مستشار في مجلس

وانطلق إلى القصر.

أحجم جينجي، انطلاقاً من توقير نيافته، عن أي إيماءة أبوية مبالغ فيها، وحرص على التأكد من رفاهها فحسب. وكان مسكنها على امتداد فترة طويلة قد ازدان بالعديد من الوصيفات ذوات القدر الرفيع، وحتى من بقين بالدار غالباً تجمعن حولها الآن، بحيث أنها عاشت هناك بأسلوب جدير بالإعجاب. وقد عادت مشاعر جينجي القديمة نحو أمها إليه، ومضى يحدِّث نفسه: آه، لو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة فحسب، فكم كانت ستغدو سعيدة للانطلاق بابنتها بعيداً على هذا النحو بنفسها. لقد كانت أعجوبة بأي معيار، وكان غيابها خسارة كبيرة. لا، لن تكون هناك امرأة مثلها أبداً! لقد كان تميزها النادر ماثلاً إلى حد أن العديد من الأشياء كانت تعيد ذكراها إلى الأذهان.

كانت نيافتها المنعزلة في القصر بدورها. وقد لفتت الأخبار، التي أفادت أن شخصية لها أهميتها الخاصة كانت فيَ طريقها إلى القصر، اهتمام جلالته بطريقة جذابة. وكان كبيراً بالنسبة لسنه، وقالت له أمه: «نعم، إنها سيدة رائعة للغاية، ويتحتم أن تكون مهذباً معها».

كان، في قرارة نفسه، يشعر بالقلق من أن فتاة كبيرة السن قد تشكل صحبة مزعجة بالنسبة له. وقد وصلت في وقت متأخر للغاية من تلك الليلة، وبدت متحفظة للغاية، وهادئة وصغيرة الجسم للغاية ونحيلة إلى حد أنه حدَّث نفسه بأنها بارعة الجمال. وكان في ذلك الوقت قد اعتاد على صحبة السيدة كوكيدين، التي استمتع بقضاء وقته معها وأحس بالارتياح معها، ولكن هذه القادمة الجديدة بدت معتزة بنفسها على نحو شديد الإزعاج، وعاملها جينجي بطابع رسمي حافل بالتوقير إلى حد أنه وجد من الصعب أن يسيء الظن بها، وبالتالي فقد قسم لياليه مناصفة بينهما، وذلك على الرغم من أنه لدى انطلاقه نهاراً بحثاً عن التسلية الصبيانية، كان يمضي عادة إلى كوكيدين. وكان القائم بأعمال المستشار قد ضم بين جوانحه طموحاً معيناً، عندما قدَّم ابنته إلى جلالته، ولم يسعده أن يجدها الآن في تنافس مع هذه القادمة الجديدة.

أمعن نيافته المقيم في قصر سوزاكو التفكير في الرد على قصيدته المنقوشة على صندوق

الدولة.

المشط، وأدرك كم هو صعب التخلي عنها، ثم ظهر جينجي، وشرع الاثنان في تجاذب أطراف الحديث، الذي تصادف أن أتى خلاله على رحيل الكاهنة العليا إلى آيسي، حيث كان قد أشار إلى ذلك الموضوع من قبل بصورة عابرة، وذلك على الرغم من أنه قد حجب اهتمامه بها، وتابع جينجي هذه المسألة ليعرف المزيد عن مشاعره، من دون أن يوحي بأنه على علم بها بالفعل، وساوره الشعور بالأسف، عندما أدرك مدى قوة هذه المشاعر، وتاق إلى رؤية أي سمة من سمات جمالها، وأحس بالغيظ لأنه لم يستطع هو نفسه رؤيتها، فقد كانت أشد حرصاً في سلوكها من أن تسمح بأي تحرر نابع من اندفاع الشباب في هذا السلوك، وإلا لكان الآن قد تمكن من أن يلمحها لمحة عاجلة، وكانت الإيماءات الواهنة التي لمحها من مظهرها مشجعة تماماً بحيث أنه تصورها خالية من العيوب.

لم يستطع معالي وزير الحرب إجبار نفسه على القيام بأي خطوة لصالحه، حيث استولت هاتان السيدتان بصورة تامة على اهتمام جلالته، وأمضى وقته واثقاً من أن جلالته يقيناً لن يرفض ابنته، عندما يغدو أكبر سناً مما هو عليه الآن.

أحب جلالته فن التصوير، وفضله على أي شيء آخر، وربما لأنه أحبه كثيراً على هذا النحو، فقد كان بارعاً للغاية فيه. وكانت الزوجة آيسي ترسم على نحو جميل للغاية بدورها، وهكذا انتقل اهتمامه إليها. وكانت الطريقة التي أنجزا بها اللوحات أحدهما للآخر تعني أنه غالباً ما كان يمضي لرؤيتها، وكان يبدي اهتماماً مفعماً بالسرور بالوصفاء الخصوصيين، الذين يفضلون هذا الفن نفسه، وفتنته بصورة أكبر هذه السيدة الجميلة التي لم تكن لوحاتها تمرينات مستمدة من كتاب النسخ، وإنما من إبداعها كلية، والتي كانت وهي متكئة على نحو جميل بجواره تتوقف بجدية لتمعن التفكير في ضربة فرشاتها التالية، ولهذا فإنه كان يزورها بصورة متواترة، ويؤثرها كثيراً عن ذي قبل.

دفعت هذه الأخبار القائم بأعمال المستشار، الذي كان على الدوام جريئاً للغاية ومسارعاً لمواجهة التحدي، إلى إعمال ذهنه (هل هناك من يتفوق عليَّ؟)، واستدعى مصورين خبراء، وجعلهم يقسمون على التزام الصمت، وجعلهم يبدعون أجمل اللوحات على أروع أنواع الورق. وقال لهم: «تتمتع صور المشاهد المستمدة من الحكايات بأقصى جاذبية، وتمنح متأملها أعظم قدر من السرور». واختار أجمل الحكايات وأكثرها تسلية،

وجعـل المصوريـن ينجـزون لوحـات تصور وقائعهـا. كما جعـل ابنته تطلـع جلالته على لوحات عن المهرجانات الشهرية التي تُقام على مدار العام، المنفذة بقطع حرير من نصوص مصاحبـة. وعندما أراد جلالته الاطلاع عليها مع الزوجة آيسـي، رفضت الزوجة كوكيدين إبرازهـا على الإطلاق، وعمـدت وصيفاتها إلـى إخفائها، ولم يتركن جلالتـه يأخذها إلى المنافسـة. وعندما سـمع جينجي بالأمر ضحك، وقال: «القائم بأعمال المستشـار صبياني تماماً في قرارة نفسه، ولن يتعلم أبداً».

قـال: «مـن الخطـأ تمامـاً من جانـب القائـم بأعمـال المستشـار أن يضايقـك على هذا النحـو بإخفائهـا عمداً وإبعادها عنـك. وعلى الرغم من ذلك فإن بعـض لوحاتي تعود إلى أوقـات مبكرة، ولسـوف تكون لك». وفي داره أمر بفتح خزانـات مليئة باللوحات القديمة والحديثة، وقام مع محبوبته بعناية باختيار اللوحات الأكثر توافقاً مع الذوق الحديث. وقد كانـت اللوحات، التي تدور حول موضوعات مثل «أغنيـة الحزن الذي لا ينتهي»، أو قصة أوشوكون، جذابة ومؤثرة، ولكنها كانت بمثابة نذير سوء، وهكذا قرر استبعادها مؤقتاً[1].

أخـرج سـجل رحلاتـه مـن صندوقـه، وانتهـز الفرصة ليطلـع حبيبتـه عليـه، كان حرياً بـه أن يسـتدر عن طواعية الدموع من أي شـخص لديه أقـل إلمام بأحزان الحيـاة، حتى لو كان المطلـع عليه على إطلاع بالكاد على الظروف، وبالنسـبة لهذيـن الاثنين فقد أعاد إلى الأذهان الكابوس الذي لا يُنسى، والذي لا يزال متوهجاً بالحياة، والذي غمرهما معاً. وقد أطلعته على مدى تعاستها لأنه لم يطلعها على هذا السجل من قبل. قالت:

«بدلاً من النحيب وحيدة، على نحو ما فعلت آنذاك، كان ينبغي لي بدوري المضي

لأرى بنفسي هذا المكان الذي يقضي فيه أهل البحر أعمارهم.

كان حرياً بقلقي أن يكون أقل كثيراً».

تأثر جينجي بما قالته، فرد:

«لا تزال أكثر حضوراً منها في تلك الأيام الحزينة المنقضية عندما عانيت منها

---

(1) تدور القصتان كلتاهما بصورة مأساوية حول عاشقين منفصلين، ومن هنا فإنهما تحملان نذير سوء لأي ثنائي متوافق بصورة رائعة.

تلك المحن تعود إلى ذهني حاملة معها الكثير من الدموع».

لا بد له على الأقل من اطلاع نيافتها المنعزلة، على الأقل، على هذه الصور، واختار اللفائف التي يحتمل بصورة أقل أن تكون معيبة، والأكثر قدرة في الوقت نفسه على نقل صورة واضحة عن «تلك الشواطىء»[1]. مضى يمعن التفكير في تلك الدار في أكاشي.

ضاعف القائم بالأعمال جهوده، عندما علم بأن جينجي يقدم لوحاته الخاصة، وكان أكثر اهتماماً من أي وقت مضى بتميز اللفائف والأغلفة والقيطان. كان ذلك في اليوم العاشر أو نحوه من الشهر الثالث، وهو وقت بديع، تمتد فيه سماوات رائقة وأمزجة بعيدة عن التحفظ، ولما لم يكن هناك مهرجان يُقام الآن في القصر، فقد أمضت السيدتان وقتهما من غير أن يشغلهما شيء آخر، إلى أن رأى جينجي أنه بدوره يمكنه القيام بشيء لاستقطاب اهتمام جلالته كذلك، فبدأ في تجميع اللوحات بصورة عاجلة. وكان لدى كل منهما الكثير منها. ولما كانت الرسوم الإيضاحية للحكايات هي الأكثر جاذبية وقدرة على استقطاب الاهتمام، فإن فريق أوميتسوبو التابع للزوجة آيسي[2] أنجز لوحاته لكل أعمال الماضي التقليدية العظيمة، بينما حبذ جانب كوكيدين الحكايات التي كانت رائعة ومبهجة والمنتمية إلى عصره ذاته، بحيث أن لوحاته هي الأكثر حداثة على نحو متألق، وأمضت وصيفات جلالته اللواتي لديهن ما يقلنه في هذا الشأن وقتهن في تقويم هذه اللوحة أو تلك.

كانت نيافتها المنعزلة بدورها في البلاط آنذاك، وأهملت ابتِهالاتها لتتأمل لوحات كل طرف، حيث أنها لم تستطع مقاومة الرغبة في رؤيتها. وعندما سمعت نساء جلالته يناقشنها بتلك الطريقة. فقد قامت بتقسيم المتنافسات إلى فريقين، هما الميسرة والميمنة، وعلى جانب أوميتسوبو كانت هناك هابي وجيجو وشوشو، بينما على الميمنة كانت هناك ديني وتشوجو وهايدي، وبتعبير آخر الوصيفات الأسرع والأكثر حذقاً في عصرهن. وأبهجتها مساجلاتهن المفعمة بالحيوية. وفي الجولة الأولى وضعت حكاية «حطاب الخيزران

---

(1) سوما وأكاشي. وتعبيراً أورورا (تلك الشواطىء) مستمد من شويشو 477 الذي يورد اسميهما كليهما.

(2) «فناء البرقوق»، مسكن أكيكونومو في القصر. وكانت أشجار البرقوق الأحمر والأبيض المبرعمة تنمو إلى جواره.

العجـوز»، وهي بمثابة الجد الأعلى للحكايات كافة، في مواجهة فصل «توشـيكيجي» من «الشجرة الجوفاء»[1].

«من المؤكد أن الحكاية التي تدور حول الخيزران قديمة بما فيه الكفاية، وهي تفتقر إلى اللمسـات المفعمة بالحيوية، ولكن الأميرة كاجويا تظل للأبد ناصعة لا تلوثها هذه الدنيا، وهي ترقى إلى ذُرى نبيلة تبلغ من السمو حد أن قصتها تنتمي إلى عهد الآلهة، وهي تتجاوز كثيراً أي امرأة سطحية الذهن» [2]. هذا هو ما بادرت وصيفات الميسرة إلى إعلانه.

دمدمت الميمنة بأن السماوات التي عادت إليها الأميرة كاجويا سامقة للغاية حقاً بحيث تتجاوز إدراك أي شـخص، وأنه بما أن رابطتها بالأرض تتضمن شجرة خيزران، فإن المرء يـدرك أنهـا في حقيقة الأمر كانت من منبت جدير بالازدراء. وقد أنارت دارها، نعم، ولكن نورها لم يسـطع قط إلى جـوار الألق الإمبراطوري[3]! لقد أنفق آبي نو أوشـي ألوفاً وألوفاً مـن القطـع الذهبية، واختفى كل مـا أراده من جلد فأر النار في هبة سـخيفة من الدخان[4]. وقضى الأمير كوراموتشي، الذي يعرف كل شيء عن هواري، على فرعه المزيف المرصع بالجواهر[5]. وقد زعمن أن هذه الأمور قد شابت جمال الحكاية.

---

(1) «حطاب الخيزران العجوز» (تاكيتوري مونوجاتري) هي عمل قصير أقرب إلى الحكايات الخرافية غير محدد التاريخ. توشيجيكي هو بطل الفصل الأول من العمل الرومانسي الطويل العائد إلى القرن العاشر المعروف باسم «الشجرة الجوفاء» (أوتسوبو مونوجاتري).

(2) كاجويا – هيمي («الأميرة بالغة التألق»، البطلة) يجدها حطاب الخيزران العجز، وهي وليدة صغيرة، داخل موضع انبثاق الأغصان من شجرة خيزران. وقد ولدت إلى الأرض من القصر في القمر، وفي نهاية القصة تعود إلى السماء، بعد أن ترفض العديد من الخاطبين، بمن في ذلك الإمبراطور. وتبدأ الفقرة الأصلية بسطر مليء بالتوريات المتعلقة بـ«يو» («العمر» و«موضع انبثاق الأغصان من شجرة خيزران») و«فوشي» («عبور» ومجدداً موضع انبثاق الأغصان من شجرة خيزران»).

(3) لم تتزوج من الإمبراطور قط، وألقت بسناها على الأرض بأسرها.

(4) حادثة في الحكاية. يخطب ود كاجويا خمسة خطاب، وهي تعهد إليهم جميعاً بمهمات بالغة الاستحالة، بحيث أنهم يخفقون بصورة مضحكة في إنجازها، فهي تطلب من آبي الجلد المدبوغ الخاص بـ«فأر النار» الذي لا يمكن لنار أن تحرقه، وبتكلفة باهظة يقوم آبي بشراء الجلد المدبوغ لفأر نار مزعوم، والذي يتعالى دخان حريقه لدى قيامها باختباره.

(5) كانت مهمة كوراموتشي هي أن يجلب من هوراي، وهو جبل فردوسي بعيد في البحر، غصناً من أشجار الجواهر التي تنمو هناك، وبدلاً من ذلك فقد جعل الحرفيين يصنعون له غصناً، وأقبلوا مطالبين بأجرهم، فيما كان يقدم الغصن لكاجويا هيمي على وجه الدقة.

كانت اللوحات من إبداع كوزي نو أومي والخط من إنجاز كي نو تسورايوكي[1]. وقد رُسم مجملها على ورق معد لأغراض عملية متعددة، يدعمه قماش صيني مقصب، مع غلاف أحمر بنفسجي وبكرة من خشب الورد، وسناد عادي مألوف[2].

أعلنت الميمنة: «الآن، قهرت رياح وأمواج قوية توشيكيجي، ودفعت به إلى بلاد مجهولة، ولكنه على الرغم من ذلك وصل إلى حيث أراد الذهاب، ونشر المعرفة بتمكنه المدهش في أرجاء الأراضي الأجنبية وكذلك بلادنا، وحقق الشهرة التي طالما تطلع إليها، تلك هي القصة التي تحدثنا بها الحكاية. والطريقة التي تجمع بها اللوحات كلاً من الصين واليابان وكل أنواع الحوادث الفاتنة بدورها تجعلها لا نظير لها»[3]. وكان العمل على ورق أبيض بغلاف أخضر وبكرة يشبية صفراء. وتألقت على نحو رائع بأسلوبها، حيث أنجز اللوحات نسونينوري، وأبدع الخط ميتشيكيزي[4]. ولم تحر الميسرة رداً.

عقب ذلك طُرحت «حكايات آيسي» في مواجهة «جوسانمي»[5]، ومرة أخرى كان من الصعب التوصل إلى قرار. وفي هذه المرة أيضاً كان عمل الميمنة متألقاً ومسلياً، وجعلته مشاهده المنتمية إلى عالم مألوف لهم جميعاً، والذي يبدأ بصور من القصر ذاته، أكثر جاذبية على نحو سار.

اعترضت هايي في وهن:

«في جهل صارخ بالأعماق الرائعة لبحر آيسي العظيم،

---

(1) كوزي نو أومي مصور نشط في العقدين الأوليين من القرن العاشر، وهو ابن كوزي نو كانوكا. وكان كي نو تسورايوكي (الذي توفي عام 946) الشاعر الأكثر تأثيراً في بلاط أوائل القرن العاشر.

(2) كانت سنادات الميسرة في النطاق الأحمر، وسنادات الميمنة في النطاق الأخضر أو الأزرق. ويبدو النمط نفسه في مسابقة الشعر التي أُجريت عام 960 (راجع مقدمة الفصل) وكذلك في ألوان القسمين (الميسرة للمقطوعات «الصينية»، الميمنة للمقطوعات «الكورية») الخاصين بأعمال الاستعادية من رقص البوجاكو.

(3) خلال جولاته التي حملته بعيداً وصولاً إلى بلاد فارس. وأحرز توشيجيكي التمكن المطلق من العزف على آلة الكوتو الموسيقية.

(4) تنتمي هاتان الشخصيتان كلتاهما بصورة تقريبية إلى حاضر هذا المشهد. وقد عاش المصور تسونينوري من عام 946 إلى عام 967، وعاش الخطاط العظيم ميتشيكيزي من عام 894 إلى عام 966.

(5) حكايات آيسي (آيسي مونوجاتري) عمل كلاسيكي يعود إلى القرن العاشر، وتأثيره جلي في «حكاية جينجي» نفسها. أما «جوسانمي» فهو عمل مفقود.

هل يتعين على الأمواج الآن الإطاحة بكلمات عتيقة وكئيبة فحسب؟»[1]

هل يُقلل من شأن اسم ناريهيرا عبر حكايات التحلل المألوف مستلة بألوان جميلة؟

ردت ديني:

«بالنسبة للقلب النبيل الذي يتطلع إلى التحليق عالياً، سامقاً وسط السحب،

فإن أعماق ألف قامة تبدو بعيدة للغاية في الأسفل»[2]

أعلنت نيافتها المنعزلة: «أياً كان مدى روعة طموحات ابنة الحارس[3]، فإن اسم ناريهيري لا ينبغي أن يُزدرى

«بعد نظرة عاجلة حقاً، فإن كل ذلك قد يبدو عتيقاً للغاية، ولكنه رغم السنين

هل يتعين علينا أن نراكم السخرية من صياد آيسي؟»[4]

أَجَّجت حجج السيدات المفعمة بالانفعال نقاشاً لا يعرف الانقطاع حول كل لفيفة. وفي غضون ذلك، فإن السيدات الأصغر سناً، اللواتي ليست لديهن فكرة حقاً عن جلية الأمر، كن متلهفات لإلقاء نظرة عليها، لكن أياً منهن، سواء كن من وصيفات نيافتها المنعزلة أو وصيفات سموها[5]، لم تر أي شيء على الإطلاق، لأن نيافتها المنعزلة حافظت عليها جميعها فبقيت طي الكتمان.

انضم إليهن جينجي، وقال وقد أسعدته الروح التي تحدَّثت بها كل متحدثة في معرض الدفاع عن قضيتها: «يمكننا كذلك أن نحسم أمر الفوز والهزيمة أمام جلالته نفسه». وقد كانت تلك في حقيقة الأمر فكرته طوال الوقت، وذلك هو السر في أنه قد أبقى بعض

(1) «هل لا بد لمن يناصرون الحديث والذين لا يعرفون شيئاً عن روعة «حكايات آيسي» (آيسي بجوار البحر) «أن يسلموا الآن هذا العمل للنسيان؟». ناريهيري (أدناه) هو الشخصية المحورية للعمل.

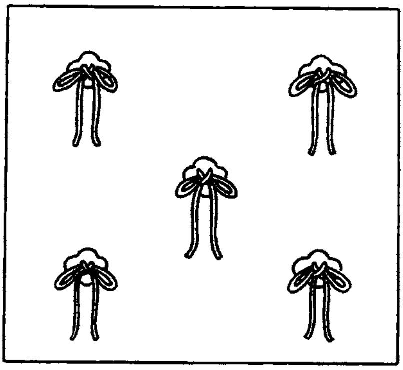
(2) «جوسانمي أرفع شأناً بكثير في الموضوع من حكايات آيسي». يتم استدعاء بطل جوسانمي، فيما يبدو، لمرتبة =سامية («سامقاً وسط السحب») من قبل الإمبراطور، الأمر الذي يجعل مغامرات ناريهيري تبدو بالمقارنة بذلك جديرة بالازدراء.

(3) المراد بها، فيما يبدو، بطلة جوسانمي.

(4) على ناريهيري. تحقق قصيدة فوجيتسوبو تلاعباً فيما يتعلق بالكلمات المرتبطة بالحب والبحر، ويفترض دفاعها عن ناريهيري المنفي ضمناً دفاعاً عن جينجي المنفي أخيراً.

(5) وصيفات أكيكونوما.

الأعمال الاستثنائية على سبيل الاحتياط، وبين هذه الأعمال، لأسباب منوطة به، كان قد وضع لفيفته عن سوما وأكاشي.



عقد الهدية على صندوق بخور

لم يكن القائم بأعمال المستشار أقل حرصاً. وكان قد أصبح صرعة في تلك الأيام القيام برسم لوحات طريفة على الورق[1]. وعلى الرغم من تحذير جينجي من أنه لن يكون من طبائع الأمور رسم لوحات جديدة الآن، وأن عليهم التمسك باللوحات الموجودة بالفعل لديهم، فإن القائم بأعمال المستشار قطع أشواطاً بعيدة في إعداد غرفة سرية أسند فيها إلى المصورين إنجاز إبداعهم.

عندما سمع نيافته بهذا، أعطى لوحات للزوجة آيسي، وهي لفائف أبدعها العديد من المبدعين القدامى، والتي تتضمن مشاهد بهيجة من المهرجانات السنوية، والتي كان جلالته إنجي قد ترك تعليقات بخطه وإضافة إلى اللوحات الأخرى التي كان هو نفسه قد أنجزها عن الأحداث البارزة في عهده، أضاف لوحة تم إبداعها تحت إشرافه المشدد بريشة كينموتشي[2]، تصور الطقس الذي أقيم في قاعة الدولة الكبرى، والذي استقطب اهتمامه في اليوم الذي رُسمت فيه آيسي كاهنة. كانت أعمالاً متألقة. وكان صندوقها الجميل المشغول من خشب الصبر وأنشوطاته الجميلة صرعة رائجة. وقد نقلت الرسالة المرافقة له شفهياً على لسان نقيب حرس ميسرة القصر[3]، الذي كان في الخدمة في قصر نيافته. وعلى المشهد الوقور على نحو رائع الذي يظهر محفة الكاهنة العليا إلى جوار قاعة الدولة الكبرى، كان قد كتب:

«نعم، على نحو ما أنا الآن، يقصيني الجبل المقدس، لكن ذلك لا يعني

---

(1) كامي، لوحات تتحول إلى لفيفات، في مفارقة للوحات معدة للستائر أو للأبواب المنزلقة التي تقسم المساحات في الدور، ولفظ «القيام» يشير إلى تركيب العمل على سناد وكذلك تصويره.

(2) كوزي نو كينموتشي، معاصر لتسونينوري.

(3) ساكون نو تشوجو، وهو لا يظهر مرة أخرى.

أنني أستطع أن أنسى لحظة واحدة كل ما استشعرته آنذاك في فؤادي»[1]

كان سيكون أمراً لا يغتفر من جانبها ألا ترد، ولذا فقد تغلبت على ترددها في القيام بذلك. كسرت قطعة من المشط الذي كانت قد تلقته منه آنذاك، ولفتها في ورقة صينية شاحبة الزرقة، وبعثت معها قولها:

«الآن يبدو لي ههنا في داخل الجبل المقدس أن الأشياء كافة قد تغيرت،

وأفكِّر باشتياق في حضور الآلهة»[2].

أعطت حامل الرسالة هدايا رائعة.

تأثر نيافته كثيراً بتلقيه هذا، وتمنى لو كان بمقدوره حقاً أن يعيد الأيام الخوالي. ومن المؤكد أنه استشعر ضغينة حيال جينجي، بسبب هذا الموضوع، وهي لا شك ترجع إلى ما كان هو نفسه قد قام به. وكان قد ورث لوحاته من أمه، ولا بد أن الزوجة كوكيدين قد تلقت الكثير من لوحاتها بالطريقة نفسها[3]. وكانت سيدة العاملين في القصر[4] مولعة أشد الولع باللوحات بدورها، وكانت قد أمرت بإبداع أعداد كبيرة منها من أجل مجموعتها.

تم تحديد اليوم، وأُعدت الترتيبات على نحو جميل، ولكن في خفة مع ذلك، حيث أُعدت على عجل، وقُدمت لوحات الميمنة والميسرة إلى جلالته. كان مقعده قد أُعد في غرفة جلوس الوصيفات، مع الطرفين أمامه إلى الشمال والجنوب. وجلس الوصفاء الخصوصيون على شرفة جناح كورودين[5] كل منهم على الجانب الآخر من الوصيفة التي يؤثرها. وعلى الميسرة، استقرت صناديق اللفائف، المتخذة من خشب الورد، والمكسوة بحرير صيني في لون الليمون الهندي على قوائم من خشب السَّبَّان موضوعة على قماش الدمقس الصيني الأرجواني. وارتدت ست فتيات تابعات أثواباً في لون براعم الكرز فوق

(1) يومىء «الجبل المقدس» (شيمناوا) أولاً إلى واجب أكيكونومو الكهنوتي في المزار، الذي أبعدها عنه، وثانياً إلى الأرجاء المقدسة من القصر الإمبراطوري، التي لا سبيل إلى الوصول إليها فيها مجدداً.

(2) «إلى الأيام التي خدمت خلالها الآلهة في آيسي».

(3) كانت أمه، الزوجة كوكيدين التي تظهر في الفصول الأولى، ابنة وزير الميمنة والأخت الكبرى لأم الزوجة كوكيدين الحالية.

(4) أوبوروزوكيو، إحدى الأخوات الأصغر للزوجة كوكيدين.

(5) البناء الواقع إلى الغرب مباشرة من سريودين، وتفصل بينهما مساحة ضيقة من الحديقة.

أردية حمراء وفي لون الوستارية فوق أردية قرمزية. ويبدون رائعات ومدربات بصورة جميلة. واستقرت لفائف الميمنة داخل صناديق من خشب الصبر على قوائم من خشب عبق، موضوعة على قماش دمقس كوما أخضر، وكان تصميم القوائم كذلك القيطان الذي تثبت به الدمقس مع القوائم بديع الأسلوب. وارتدت الفتيات التابعات أردية في لون الحور وورد الكريا فوق أردية خضراء. وقد مضين جميعاً لوضع قوائمهن وصناديقهن أمام جلالته. وانقسمت وصيفات جلالته إلى مجموعتين، أمامية وخلفية، وقد ارتدت كل مجموعة ملابس بحسب مجموعتها[1].

كان نيافته والقائم بأعمال المستشار موجودين بدعوة من جلالته. وكان الأمير النائب بدوره هناك في ذلك اليوم[2]. ولا بد أن جينجي قد أهاب به سراً أن يجيء، نظراً لولعه بالتصوير، لأنه لم توجه دعوة عامة، وكان في القصر عندما أحضرته كلمة من جلالته إلى التجمع. وقد عمل كحكم. وكان بعض اللوحات رائعاً حقاً، وجد من المستحيل أن يقرر أيها أفضل. وكانت مشاهد الفصول الأربعة، التي رسمها المبدعون القدامى، باقتدار هائل وبعين راصدة، أعمالاً لا تُضاهى، ولكن نطاقها كان محدداً في نهاية المطاف، ولم تستطع نقل الثراء الكامل للجبال والمياه، وبحيث أن اللوحات الحديثة الأكثر سرعة في زوال تأثيرها، وهي أعمال قائمة على الفهم الإنساني وغوايات الفرشاة، برهنت على أنها متوهجة بالحياة ومسلية، تماماً مثل تراث الماضي، وبرزت متألقة بطريقتها. وإذا أُخذ في الاعتبار النقاش الذي ثار حولها، فإن لوحات الميمنة والميسرة جميعها أثارت بهجة كبرى في نفوس الجميع.

جلست نيافتها المنعزلة داخل أبواب غرفة طعام الإفطار[3]. وقد سُر جينجي للغاية، مفكراً في مدى عمق خبرتها بمثل هذه الأمور، وعندما أبدى تردداً كانت غالباً ما تقول

(1) ارتدت نسوة المجموعة الأمامية ملابس ذات درجات مختلفة من اللون الأحمر، وارتدت نسوة المجموعة الخلفية ملابس ذات درجات مختلفة من اللون الأخضر. «الميسرة» (اللون الأحمر، أكيكونوميو) أرفع شأناً من «الميمنة» (اللون الأخضر، كوكيدين).

(2) الأخ الأصغر لجينجي، الذي يعرف تقليدياً بالأمير هوتارو، بسبب دوره في فصل «الحُباحُب».

(3) غرفة أساجاري المجاورة لغرفة جلوس الوصيفات الواقعة إلى الشمال. كانت هناك أبواب فاصلة منزلقة بين الغرفتين.

كلمة أو كلمتين، تماماً كما يليق بها، وظلت المسابقة من دون حسم حتى الليل.

كانت لدى الميمنة دورة إضافية، وعندما برزت لفائف سوما، تسارعت ضربات قلب القائم بأعمال المستشار. وادخر جانبه بدوره شيئاً خاصاً للنهاية، ولكن هذا الذي أبدعه عبقري في الفن على مهل، ومن دون أن يزعجه شيء، كان متفوقاً على أي شيء آخر. وبكى الجميع، وكان سموه[1] في مقدمتهم. فقد أفصحت لوحات جينجي بمباشرة كاملة، تفوق في حيويتها أي شيء كانوا قد تخيلوه خلال تلك السنين، عندما أشفقوا وحزنوا عليه، عن كل ما دار في ذهنه، كل ما شاهده، وكل تفاصيل تلك الشواطىء، التي لم يروها هم أنفسهم قط. وكان قد أضاف هنا وهناك سطوراً في مخطوط ممتد، باللغة اليابانية أو الصينية، وعلى الرغم من أن هذه السطور لم تجعل من هذا العمل يوميات حقيقية، إلا أنه كانت بينها قصائد مؤثرة للغاية، بحيث أن المرء تاق إلى رؤية المزيد. ولم يفكِّر أحد في أي شيء آخر. وساد الانفعال والابتهاج، الآن وقد انتقل كل اهتمام باللوحات الأخرى إلى هذه اللوحات. وقد رد السؤال على نفسه، لقد فازت الميمنة.


حمل كأس نبيذ

كان الفجر يطل، وأقداح الخمر تُدار، عندما بدأ جينجي يتحدَّث عن الماضي في غمرة اندفاعة عاطفية: «من يفاعتي الباكرة انكببت على دراساتي، وربما اعتقد نيافته الراحل أنني أحرز بعض المعرفة حقاً، لأنه وجه إليَّ تحذيراً. قال: (ما يتم الاعتراف به باعتباره تعلماً يفرض إجلالاً له ثقله. وأتوقع أن ذلك هو السر في أن ما يتابعونه حتى مداره الأقصى نادراً للغاية ما يتمتعون بحسن الطالع وطول العمر. ومن يولد في مقام عال أو على الأقل في وضع مشرف بين نظرائه، لا ينبغي أن يمضي إلى أبعد مما ينبغي). وقد علمني الفنون الدراسية الفائقة، لكنني وجدت نفسي هنالك، فلست بارعاً بصفة خاصة، ولست متمتعاً بأي موهبة خاصة. وعلى الرغم من ذلك، فإن التصوير كان شيئاً مختلفاً، لأنني غالباً ما

(1) الأمير هوتارو.

تقت إلى التصوير حسبما يروق لي، مهما بدا أنه وسيلة غريبة وكسول لتزجية الوقت، وعندما وجدت فجأة أنني الآن أصبحت ريفياً جبلياً، وأدركت حقيقة المحيطات العاتية، ارتقيت إلى ذُرى لم أكن قد حلمت بها من قبل. غير أنني ظللت بعيداً عن الرضا، لأن هناك حداً لما يمكن للفرشاة أن تنقله، ولم يكن بمقدوري إطلاعكم على هذه اللوحات من دون مناسبة معقولة، وأحسب أنني ربما أوصف بالغرور لقيامي بذلك».

رد جلالته قائلاً: «ما من فن أو تعلم ينبغي المضي فيه قدماً بفتور. ولكن لكل منها أساتذة محترفون، وأي فن جدير بالتعلم سيكافأ بالتأكيد على نحو سخي بشكل أو بآخر على الجهد الذي بُذل في دراسته. وفن الفرشاة ولعبة الداما هما اللذان يكشفان على النحو الأكثر بروزاً الموهبة الطبيعية، لأن هناك أناساً مجتهدين يصورون أو يلعبون بصورة جيدة للغاية ومن دون تدريب تقريباً. ومع ذلك، فهناك من بين ذوي النسب الرفيع أناس موهوبون بصفة خاصة، يبدو أنهم يحبون كل الفنون، ويبدعونها جميعها بشكل جيد للغاية أيضاً. من من بين أمراء نيافته الراحل وأميراته لم يتعلم الكثير منه مباشرة؟ وقد اعتاد أن يتحدَّث عن أمير سدد له حقاً اهتمامه الخاص به وأتقن كل الفنون، فناً وراء الآخر ـ الرسائل، لا حاجة بنا لذكرها، ولكن العزف على الكين كذلك، الذي تمتع فيه بموهبة رائعة، والناي، البيوا، والسونوكوتو أيضاً. وما من أحد يختلف مع هذا التقدير، ومن هنا افترضت أنك قد تلاعبت كذلك بالفرشاة على نحو ما تدفعك الروح، ولكنه من المدهش أن أجد أنك قد أخجلت تماماً أروع فناني الماضي!». تدفقت كلماته تباعاً، وربما كانت الخمر هي التي جعلت الدموع، عند هذا الإتيان على ذكر نيافته الراحل، تتدفق من عيون الجميع.

بزغ القمر، وكان قد تجاوز يومه الثاني عشر[1]، وبينما ظلت الغرفة في الظل، فإن السماء كانت جميلة للغاية، بحيث أن جلالته بعث في استقدام الآلات الوترية من المكتبة. تلقى القائم بأعمال المستشار آلة الواجون الموسيقية، وعزف ببراعة جينجي على وجه التقريب. وعزف سموه على السونوكوتو. وعزف جينجي على الكين. وعزفت شوشو على البيوا. ودعا جلالته أفضل الوصفاء الخصوصيين إلى مواكبة الإيقاع[2].

(1) في ذلك الوقت من الشهر القمري يبزغ قبيل الفجر على وجه التقريب.

(2) ربما بعصيهم (شاكو) أو بمراوحهم المطوية.

وكان ذلـك جميلاً بصورة كاملة. ومع طلوع الفجر ووسـط تغريد الطيور، برزت ألوان الزهـور والوجوه مـن الظلمة إلى نـور يوم جديد جميـل. وقدمت نيافتهـا المنعزلة الهدايا للموسيقيين. وتلقى سموه ثوبين مرة أخرى[1].

غرق جينجي في التفكير عندئذ في تقرير ما يفعله بلوحاته هذه، وطلب أن تُهدى لفائف الشواطىء إلى نيافتها المنعزلة، وعندما طلبت أن ترى اللوحات التي جاءت قبلها وبعدها، أعلمهـا بأنها سـتحصل عليها لاحقـاً واحدة إثر أخرى. وقد ابتهج لرؤية سـرور جلالته بها بدوره.

مع اعتناء جينجي بالزوجة آيسـي، على هذا النحو، لا بد أن القائم بأعمال المستشار قد ارتجف خوفاً من أن تعاني مكانة ابنته. غير أن اليأس لم يستبد به حقاً، لأنه استطاع أن يدرك في قرارة نفسـه بوضـوح بالغ أن جلالته، الذي كان على الدوام مولعـاً بها، قد ظل مخلصاً لها حتى الآن.

كان ذلك عهداً متألقاً على نحو فذ، حيث تطلع جينجي إلى إضافة لمسـات جديدة إلى مهرجانات البلاط ـ لمسـات سـتتوارثها الأجيال بعد ذلك ـ وواصل مسيرته بأسلوب راقٍ حتى في مباهجه الصغيرة. كانت الحياة لا تزال تبدو حنونة بالنسبة له، وكانت أعمق أمنياته يقينـاً أن يديـر ظهره للدنيـا، في نهاية المطاف، بعـد أن رأى جلالته وهو ينضـج قليلاً، فقد أشـارت كل أمثلـة الماضي التي عرفها إلى أن مـن ارتقوا إلى ذُرى رفيعة للغاية لا يمتد بهم الأمـد طويلاً. وفي هذا العهد ارتفعت رتبته وشـهرته إلى ما يفوق جدارته. نعم، لقد صمد إلى ما بعد العدم النابع من سـقطته المؤلمة، ولكنه كان لا يزال يشـك في أن مجده سـوف يـدوم. ودفعته رغبته في أن يعزل نفسـه بعيداً في سـلام، ليعد نفسـه للحيـاة المقبلة، وربما ليطيل أمد الحياة الراهنة (حسبما يدرك المرء) إلى تأمين بقعة هادئة في التلال، وإلى تشييد معبد هناك، وإلى تطويب نصوص وأيقونات مقدسة، ومع ذلك فإن توقه إلى جعل أبنائه ما أراد لهم أن يكونوا، قد ثبط همته عن التحرك على نحو عاجل. وليس من اليسـير سـبر غور ما قصده لاحقاً.

---

(1) بعد أن تلقى ثوباً لقيامه بدور المحكم بالفعل.

18

ماتسوكازي

الريح في أشجار الصنوبر

تعني «ماتسوكازي» الريح في أشجار الصنوبر. ويربط فصل «أكاشـي» السيدة من أكاشي ودارها وموسيقاها بهـذا الصوت، ويظهر ذلك ثانية عندما تنتقل إلى أوي قرب المدينة، وتعزف الموسيقى هناك. فتقول أمها:

«هنا في الدار العتيقة، التي عدت إليها وحيدة، وفي إهاب متغير،
أسمع عبر أشجار الصنوبر زفيفاً مألوفاً».

الصلة بالفصول السابقة

تقع أحداث «الريح في أشجار الصنوبر» خلال العام نفسه الذي تقع فيه أحداث «مسابقة التصوير» وخلال الوقت نفسه تقريباً، في الخريف.

الشخوص

سمو وزير القصر، جينجي، 31 عاماً.
سيدة الزهور المتساقطة (هانا تشيروساتو).
السيدة من أكاشي، 22 عاماً (أكاشي نو كيمي).
المترهبن، أبوها، حوالي 64 عاماً (أكاشي نو نايودو).
القائم بالأعمال في أوي
كوريميتسو
الراهبة، أم سيدة أكاشي، 55 إلى 56 عاماً (أكاشي نو أماجيمي).
ابنة جينجي، 3 سنوات (أكاشي نو ها يميجيمي).
مربيتها.
مساعد في حراسة البوابة.
جلالة الإمبراطور، 13 عاماً (رايزي).
الحاجب مراقب الحسابات.
النقيب أمين السر.
مراقب حسابات الميسرة الكبير.
مشرف الحراسة.
سيدة جينجي، 23 عاماً، مورا ساكي.

انتهى الآن الجناح الشرقي من دارة جينجي، وأحضر السيدة الملقبة بسيدة الزهور المتساقطة لتقيم هناك. على امتداد طريق الجسر من جانبه الغربي[1] إلى الدار الرئيسية وفر مقراً مناسباً لمكتب الدار والأتباع. واحتفظ بالجانب الغربي من الجناح للسيدة من أكاشي. وكان قد أمر بجعل الجانب الشرقي كبيراً بصفة خاصة، وقسمه إلى مساكن منفصلة، بحيث يمكنه أن يجمع هناك كل السيدات اللواتي كانت اهتماماته بهن، مهما كانت عابرة، قد شجعتهن على التيقن من رابطة دائمة تصلهن به، وقد شيد كل مسكن بجاذبية رائعة. وترك الدار الرئيسية شاغرة. وحرص على التيقن من أنها مخصصة بصورة مناسبة لساكنة غالباً ما كان يزورها.

ظل على تراسل بصورة مستمرة مع أكاشي، وواصل الإهابة بالسيدة المقيمة هناك لكي تجيء إلى المدينة، ولكنها ظلت على وعيها بصورة حساسة بوضعها. وبعد أن كانت قد سمعت كيف أن السيدات الأعظم ذاتهن يمكن أن تعانين من الإهمال، حتى وإن لم يكن قد تم التخلي عنهن كليةً، فقد سألت نفسها أي تقدير تحظى به لكي تمضي إلى مثل هذه الصحبة، وخشيت من أن تجعل افتقار ابنتها للأهمية مشهداً محرجاً. وراحت تحدِّث نفسها: أي بؤس سيتمثل في جعل الجميع يضحك مني للتدني إلى مجرد انتظار الزيارة العابرة منه! وعلى الرغم من ذلك، فإنه سيكون عاراً كبيراً لو أن النشأة في مكان كهذا حالت دون اعتبار ابنتها منتمية إليهم، ولن تستطيع أبداً رفض دعوة جينجي في التو. وتعاطف معها أبواها، وهكذا فإن إلحاق جينجي نفسه لم يسبب لهما إلا حزناً أكثر حدة.

تذكروا أنه منذ زمان بعيد كان جد أمها، الأمير ناكاتسوكاسا[2] قد امتلك عقاراً على ضفاف نهر أوي[3]، وهو عقار غدا أطلالاً بعد زمانه في غياب أي خلف حقيقي له، وبناءً على هذا فقد استدعوا قائماً بالأعمال من نوع ما، والذي أقام على الدوام هناك. أبلغه المترهبن بقوله: «بعد أن قررت أن الأوان قد آن للتخلي عن الدنيا، اعتدت على الغياب الذي أجده هنا، ولكن الآن، في شيخوختي اقتضى مني أمر ما أن أسعى إلى دار في المدينة

(1) حيث تقيم هاناتشيروساتو. تشير الحقيقة القائلة إنها قريبة من مكتب شؤون الدار والتابعين إلى أنها تتولى المسؤولية عن دارة جينجي الشرقية.

(2) يحدد شرح مبكر هوية الشخص بصورة تحمل تكهناً بأنه كانيكيرا (987 ـ 914) وهو ابن الإمبراطور دايجو.

(3) امتداد لنهر كاتسورا في شمال غربي كيوتو، قرب أراشياما.

مجدداً، ولما كان التعرض المفاجىء لوهج المجتمع سيكون أمراً مربكاً ومثيراً للضيق لقوم ريفيين، فقد خطر ببالي أن أمضي إلى دار سموه العتيقة تلك، ولسوف أبعث بكل ما هو مطلوب، وأود منك لطفاً أن تشرف على الإصلاحات، وأن تجعل المكان مما يمكن سكناه بشكل أو بآخر».

«مرت سنوات طويلة الآن منذ أقام أي مالك هناك. والدار نمت حولها النباتات بصورة فظيعة بحيث أنني قد انتقلت إلى قاعة الخدم، وبالإضافة إلى ذلك فإن المعبد الذي يشيده سموه غير بعيد، قد جعل المكان حافلاً بالضوضاء على نحو فظيع، فهناك العديد من القاعات الرحبة التي تُشيد، وتعكف أعداد كبيرة من الرجال على العمل بها. وإذا كان الهدوء هو ما تنشده، فإنني أشك أن ذلك هو الموضع الذي ستجده فيه»[1].

«لا. لا، على الإطلاق. هناك أمر أعتمد على حسن نية سموه في إنجازه. وسأهتم، بالطبع، بكل ما يتعلق بتشييد الدار، وأود ألا تهدر وقتاً في الإشراف على العمل التمهيدي».

رد القائم بالأعمال بنظرة حافلة بالتحدي وبأنف آخذ في الاحمرار: «ربما لم أكن أملك الدار، لكن في غياب أي خلف عشت حياة منعزلة وفي سلام هناك، على امتداد سنوات طويلة. وقد تدهورت حالة حقول الدسكرة العامرة والغامرة بصورة سيئة للغاية إلى حد أن مفوض الشؤون المدنية الراحل قد منحني إياها، بناءً على طلبي، وهي ملكي الآن، أقسط ثمنها بشكل مناسب لطفاً منه». وقد خشي أن تمتعه بالعائد يتعرض للتهديد.

«لست مهتماً على الإطلاق بالحقول وما إلى ذلك. فاعتبرها ملكاً لك كذي قبل. والصكوك وهلم جراً موجودة هنا، ولكنني تخليت عن الدنيا وأساليبها، بل إنني لم أحاول العثور عليها على امتداد سنوات، أما الآن فسوف أعيد ترتيب كل ذلك». كانت إشارته إلى جينجي قد جعلت القائم بالأعمال يتجمد في موضعه، ثم بعد ذلك وصلت مقادير عظيمة من مواد البناء، وبدأ الرجل في العمل على وجه السرعة.

لم يكن جينجي يدري شيئاً عن هذا كله، ولم يستطع سبر غور السر في ترددها في القدوم

---

(1) من المفترض أن الملكية الشرعية للعقار قد انتقلت إلى سلالة الأمير ناكاتسوكاسا، ومنهم الراهبة أكاشي، ولكن لما كان المكان قد ظل وقتاً طويلاً من دون أن يُطالب به أحد، فإن القائم على رعايته يشعر بأن الحق في التصرف فيه يعود إليه.

إلى المدينة. وساوره الشعور بالقلق حول أنه إذا واصلت ابنته الصغيرة الإقامة هناك بتلك الطريقة، وحيدة، فإن الحديث عن ذلك في وقت لاحق قد يلحق الضرر بسمعتها بصورة إضافية. وعندما انتهى العمل في أوي فحسب، أبلغ المترهبن جينجي بأن هذا المكان قد خطر بباله، وعندئذ أدرك جينجي أن هذا الأمر له علاقة بعدم استعدادها للاختلاط بالمجتمع، وتأثر كثيراً بحرصها الحذق.

بعث جينجي بالنبيل كوريميتسو إلى هناك، للتيقن من أنّ كل شيء مرتب جيداً، حيث أن كوريميتسو كان هو الذي يصطحبه في جولاته السرية.

أبلغه كوريميتسو: «الموقع جميل للغاية، ويبدو تماماً كما لو أن المرء يطل من هناك على البحر». خطر ببال جينجي أن المكان لن يكون غير مناسب على الإطلاق، فالمعبد الذي يشيده يقع إلى الجنوب من دايكاكوجي وقاعاته. على سبيل المثال القاعة الواقعة وراء الشلال، تنافس في بهائها قاعات دايكاكوجي[1] ذاتها. وفي غضون ذلك، في أجمة جميلة من أشجار الصنوبر بجوار النهر، فإن داراً بسيطة، وبعيدة عن الادعاء، تمثل كل جاذبية قرية جبلية. وحرص جينجي على الاهتمام حتى بأثاث الدار الداخلي.

بحرص كبير بعث أكثر أتباعه قرباً منه إلى أكاشي. وقد جعلتها فكرة أن الأوان قد آن، وأنها ليس بمقدورها تأجيل الأمر أكثر من هذا، حزينة لترك هذا الشاطىء المألوف، أحست بالأسف بصورة يائسة على أبيها، الذي سيظل وحيداً بمفرده تماماً. استبد بها الحزن، وراحت تتساءل عن السر في أنه يبدو مقدراً عليها أن تعاني من الآن فصاعداً بطرق عديدة، إلى أن حسدت النسوة اللواتي لم يمسهن اهتمام جينجي. وبالنسبة لأبويها، فإن حسن طالع هذه الرحلة، التي تم القيام بها بمثل هذه الرفقة، كان معناه التحقق السعيد لأقدم صلواتهما وأقربها إلى قلبيهما، ومع ذلك فإن انفصالهما الوشيك قد أثر في أبيها على نحو لا يطاق تماماً، بحيث أنه أمضى أياماً وليالي شارداً، يردد لنفسه مراراً: «أتراني لن أرى هذه الصغير من جديد أبداً؟».

استبد الحزن بأمها أيضاً. من هناك يحتجزها حيث أن سنوات عديدة انقضت منذ عاشت

(1) معبد لا يزال قائماً في منطقة ساجا بغربي كيوتو. وكان هذا المعبد أصلاً دارة تعود إلى الإمبراطور ساجا، وغدا معبداً في عام 876، وظل تحت الرعاية الإمبراطورية.

هي والمترهبن تحت سقف واحد؟ ومع ذلك فقد كان من المثير للاضطراب الافتراق عن شخص عاشت معه طويلاً على هذا النحو، حتى إذا كان من النادر بالفعل أن يجدا الكثير مما يمكن أن يفعله أحدهما مع الآخر، وعلى الرغم من عناده وتجاوزات حالاته المزاجية، فإن ذلك هو في نهاية المطاف المكان الذي قصدت أن تحيا فيه ما بقي من أيامها. ومن هنا فقد كان الرحيل المفاجىء مؤلماً. وبالطبع، غمر السرور الوصيفات الشابات، اللواتي كن مكتئبات للغاية هنا، وعلى الرغم من ذلك فإن الكثيرات بللن أكمامهن مع انكسار كل موجة خيال فكرة أنهن لن يعدن أبداً إلى هذا الشاطىء الجميل.

حل الخريف، وبدت كل الأشياء ثقيلة على القلب. وأقبل اليوم الموعود، وهبت الرياح الخريفية باردة في الفجر، بينما أصدرت الحشرات المنشغلة صريرها، وجلست السيدة محدِّقة في البحر. كان أبوها قد استيقظ قبل وقت طويل من الساعة المعتادة لابتهالاته في أواخر الليل، ومضى الآن يبكي، وهو عاكف على هذه الابتهالات. بذل الجميع قصارى الجهد لتجنب الكلمات سيئة الطالع، لكن الأمر كان حقاً أكثر مما يستطعن احتماله. وبالنسبة للعجوز، فإن الطفلة الصغيرة الساحرة تماماً كانت مثل جوهرة تنير الليل. ولم يكن قد سمح لها من قبل قط بالابتعاد عنه، وقد تشبثت به بإعزاز. والآن كان ثوبه الغريب يثير نفوره، وهو يضرب على غير هدى، غارقاً في دموع تعسة لم يستطع السيطرة عليها. كيف يفلح في اجتياز لحظة واحدة من دونها:

«لا أحتمل إلا بالكاد احتمال أنها من أجل مستقبلها المشرق تبتعد،

ولا يسعني إيقاف دموع الشيخوخة هذه!

آه، لا ينبغي لي!» قالها ومضى يمسحها ليحجبها عن العيان.

ردت الراهبة:

«كنت معي يوماً عندما قدمنا من المدينة، أتراني هذه المرة

سأشق طريقي وحيدة على امتداد المسالك عبر السبخات؟».

لا عجب أنها انخرطت في البكاء. وعندما أمعنت التفكير في السنوات التي أمضياها معاً كافة، وكل تعهداتهما أحدهما للآخر، بدا لها من الحماقة البالغة أن تدير ظهرها للعالم

الذي خلفته وراءها لا لشيء إلا للوعود العارضة من أحدهم!

توسلت إليه ابنته:

«ما الذي آمله من عالم يحجب عني متى قد أتوقع
في هذه الحياة، ما إن أرحل، أن أراك مجدداً؟.

أبقنا سوياً هناك لطفاً!». لكنه أوضح أن شيئاً أو آخر قد جعل ذلك مستحيلاً، حتى فيما كان محياه يفصح عن مدى إثارة هذه الرحلة للضيق في نفسه.

«عندما فكرت للمرة الأولى في إدارة ظهري للدنيا، كان مجيئي إلى هذه الأرض الغريبة من أجلك، ذلك أنني علقت الآمال على أنني هنا يمكنني أن أربيكِ يوماً إثر الآخر كما يطيب لي، لكن أموراً عديدة أقنعتني بمدى تواضع الاحتمالات القائمة أمامي، وليس مرد ذلك إلى أن العودة إلى المدينة للالتحاق بالصحبة الملتبسة للحكام السابقين من شأنها أن تزيح الأعشاب عن بابي المثير للشفقة. لا، فإنني أنكمش من جعل كل من هب ودب يعرفني فحسب باعتباري أحمق، ومن جلب العار فحسب على أبي الراحل. وسرعان ما غدا واضحاً لي أن رحيلي كان معناه قيامي بالتخلي عن كل شيء إلى الأبد. وقد اعتقدت أنا نفسي أنني فعلت ذلك حقاً إلى أن تبدئي في النضج وتفهمي ما يجري حولك، لأنك كلما فعلت ذلك أكثر زادت مساءلتي لنفسي، في العتمة التي لا نهاية لها لقلب الأب، كيف أمكنني أن أخفي مثل هذا الكنز هنا في هذه البرية البائسة. نعم، لقد تضرعت للبوذات وللآلهة، كل ما طلبته منها هو أنك أنت على الأقل لا يجرك أبوك الميؤوس منه لتقضي عمرك في كوخ فلاح. وقد بكيت على حالي بطرق عديدة، حتى عندما بدأت العجائب تحدِّث مطلة من المجهول، ولكن عندئذ جاءت طفلتنا الصغيرة إلى الدنيا مع قدر سليم في نهاية المطاف[1]. وسيكون من الخطأ البالغ، بالنسبة لطفلة واعدة إلى أبلغ الحدود، أن تقضي شهورها وأيامها هنا على هذا النحو، قرب البحر، بحيث أنه لا أهمية لكوني سأفتقدها بصورة يائسة، فأنا في نهاية المطاف تخليت عن الحياة الدنيوية للأبد. غير أنكما أنتما الاثنتان مقدر لكما بلا شك أن تنيرا الدنيا، فلا تهتمي، إذاً إذا، جلبها القدر لتسبب

(1) يتحدَّث المترهبن عنها بتهذيب يفوق كثيراً تهذيبه في الحديث عن زوجته أو ابنته.

المتاعب لفلاح مثلي. إنني أفكِّر فيها باعتبارها مخلوقة ولدت في عليين، هوت لتعاني لوقت قصير فحسب فظائع الدروب الثلاثة[1]. وبهذه الروح فإنني أستاذن منها للانصراف للأبد، فلا تجشمن أنفسكن عناء الحداد عليَّ، حتى إذا سمعتن بأنني لم يعد لي وجود، ولا ترتجفن فرقاً بفعل الفراق الذي لا يمكن لأحد تجنبه!». وتوالت كلماته متتابعة: «على الرغم مما أنا فيه من ضعف، فسوف أصلي من أجل طفلتنا الصغيرة في ابتهالاتي كافة، ليلاً ونهاراً، حتى الليلة ذاتها التي أستحيل فيها دخاناً». اربدَّ وجهه مفصحاً عن ألمه.

كان من شأن قافلة عظيمة من العربات أن تستقطب اهتماماً أكثر مما ينبغي، ومن شأن مجموعات أصغر أن تكون أكثر تعذراً في تدبير أمرها، ولهذا السبب فإن مرافقي السيدة، الذين فضلوا المرور من دون أن يلحظ أحد الركب، قرروا أنها ينبغي أن تمضي في هدوء بحراً. وانطلقت السفن في ساعة التنين[2]. وبينما حجبتهم سدم الشاطىء الصباحية، التي أثرت كثيراً في الشاعر القديم، على مهل عن عيني المترهبن[3]، حدَّث نفسه في حزن وحنين أن فؤاده لن يعرف السلام مجدداً أبداً.

بعد كل هذه السنين، وجدت الراهبة عودتها مما يغلب على المرء مشاعره، فانخرطت في البكاء:

«عندما لم تحن هذه الراهبة، في قرارة فؤادها، إلا إلى الرحيل لذلك الشاطىء البعيد،

فإن مركبها يجدف الآن عائداً من جديد إلى كل ما كانت قد تخلت عنه»[4].

قالت ابنتها:

«آه، كم من المرات سأجتاز الخريف، مع مجيئه وذهابه

قبل أن أشق طريقي إلى موطني مجدداً على الخشب الطافي؟»[5].

---

(1) عوالم الانتقال الأدنى: البهائم والأشباح الجائعة والجحيم.

(2) حوالي الساعة الثامنة صباحاً تقريباً.

(3) كوكينشو 409: «فؤادي مع السفينة التي توغل مبتعدة، معتمة خلال سُدُم أكاشي وتختفي وراء الجزيرة».

(4) «الشاطىء البعيد» هو شاطىء الفردوس، وربما شاطىء أكاشي، حيث عاشت حياة قوامها الورع. والقصيدة تحقق تلاعباً فيما يتعلق بلفظ أما (راهبة) و«امرأة»[أو رجل] البحر».

(5) بغض النظر عن كونه سفينة ببساطة، فإن «الخشب الطافي» (أو كيكي) يومىء كذلك إلى أسطورة صينية تدور حول رجل يركب قطعة من الخشب مضياً في نهر عظيم إلى منبعه في جبال كونلون الأسطورية.

هبت ريح مواتية، ووصلوا في اليوم المقصود. وكانوا قد ارتحلوا في هيئة متواضعة، حيث لم يرغبوا في أن يلفتوا الأنظار إليهم. كانت الدار جميلة، والمشهد هناك يشبه بصورة قريبة مشهد البحر المألوف لديها، بحيث أنها أحست كأنها لم تنتقل على الإطلاق[1]، وعادت إلى ذهنها أوقات بعد بها العهد في رحاب الماضي[2]، مع العديد من الذكريات المؤثرة. وبدت شرفات الدار الخارجية جميلة للغاية، وأدخلت مشاهدة الغدير في الحديقة البهجة إلى النفس. ولم تمنح الدار الشعور بأن أحداً قد سكنها من قبل، ولكنها ستصبح رائعة للغاية عندما يستقرون فيها. وكلَّف جينجي أتباعه المقربين منه بالترحيب بهم ترحيباً لائقاً. أما فيما يتعلق بقيامه بزيارتهم بنفسه فقد انقضت أيام فيما هو يفكِّر كيف يتحرر من مشاغله للقيام بذلك. ولم يؤد هذا إلى التخفيف من اكتئابها، حيث أحست بالفشل، وافتقدت موطنها أشد الافتقاد، بحيث أنها انتقلت إلى العزف على آلة الكين الموسيقية، التي كان قد تركها لها، وحيث أنها لم يكن بمقدورها أن تخفي أسفها، فقد مضت لتعزف قليلاً في مكان منعزل من الدار، وعندئذ انضمت الريح التي تتخلل أشجار الصنوبر بلا حرص إليها في موسيقاها. فنهضت الراهبة التي كانت راقدة في حزن، وقالت:

«هنا في داري العتيقة، التي عدت إليها وحيدة، وفي إهاب متغير،

أسمع عبر أشجار الصنوبر زفيفاً مألوفاً»[3].

وقالت السيدة:

«في حنين موحش إلى الصديقات اللاتي اعتدت معرفتهن في الموطن الذي أحببت،

أتعثر في نغمة ريفية لا يمكن لأحد فهمها».

على هذا النحو أمضت أيامها الموحشة. والآن استبد القلق عليها بجينجي أكثر من أي وقت مضى، ولكنه خشي أن الذهاب إليها على رؤوس الأشهاد لن يؤدي إلا إلى معرفة محبوبته، التي لم يبلغها بعد بالأمر حقاً، بالحقيقة من شخص آخر، ومن هنا فقد قال

(1) النهر عريض وضحل في هذا الموضع، ودارها شأن تلك الدار في أكاشي تحيطها أشجار الصنوبر.
(2) عندما أقام جد أمها هناك.
(3) ليست الريح ذاتها فحسب (كما هي الحال في أكاشي) وإنما موسيقى ابنتها و«إهابها المتغير» هو إهاب الراهبة.

لها: «لديَّ مهمة يتعين عليَّ القيام بها في كاتسورا[1]، وأخشى أن أياماً أكثر مما أردت قد انقضت، وهناك شخص ما قرب ذلك المكان يتوقع قدومي أيضاً، والأمر يزعجني قليلاً. كما أنني يتعين عليَّ الإشراف على توقير البوذا في معبد سبخة ساجا[2]، وكل ذلك من شأنه أن يستغرق مني يومين أو ثلاثة أيام».

كانت تعرف أنه كان يقوم فجأة ببناء دارة مطلة على نهر كاتسورا، وتشككت في أنه ينزل المرأة من أكاشي هناك. ولم يعجبها ذلك بالمرة. فقالت بضيق بادٍ للعيان: «لا شك أنك ستمضي وقتاً طويلاً بما يكفي لكي تحتاج إلى مقبض جديد لفأسك[3]. لسوف يطول انتظاري!».

«ما أسرع ما تغضبين دوماً! ويترامى إلى سمعي أن الجميع يقول إنني مختلف تماماً عما اعتدته!». ارتفعت الشمس في كبد السماء، فيما كان يحاول استرضاءها.

مضى إلى القادمة الجديدة سراً، ملتزماً الحذر البالغ، من دون أن يصحب معه إلا رجاله الموثوقين. وكان الغسق قد حل لدى وصوله. وحتى وهو يرتدي عباءة صيد عارية من الزخرف، كان يشع بهاء لا ينتمي إلى هذه الأرض. أما الآن في عباءة رسمية مختارة بعناية فقد بدا وسيماً على نحو أخاذ للغاية، بحيث أن النور تألق وسط مخاوف السيدة المعتمة بشأن طفلتها. وكانت اللحظة مؤثرة بصورة عميقة. كيف استطاع أن يأخذ باستخفاف هذه اللمحة الأولى من ابنته؟ ما أشد المرارة التي أسف بها على كل الوقت الذي أمضياه متباعدين أحدهما عن الآخر! لقد بدا الابن الذي أنجبته له ابنة معاليه رقيقاً للغاية، حسبما قال الجميع، ولكن ذلك يرجع إلى أن الأوقات تميل بهم إلى رؤيته على ذلك النحو. في هذا العهد بمقدور المرء أن يحدد بنظرة سريعة واحدة الطفل الواعد بمستقبل متألق،

(1) كاتسورا على امتداد نهر أوي. ويبدو أن جينجي يبني داره هناك، على الرغم من أن هذه هي أول إيماءة في الحكاية إليها.

(2) ساجانو، الموقع العام كذلك لمزار السبخة (الغصن الأخضر). ويُفترض أن معبد جينجي يقع عند حافة السبخة، قبالة التلال التي تحدها.

(3) نروي قصة صينية كيف أن حطاباً صادف في أعماق الجبال اثنين من الخالدين، وهما يلعبان لعبة الداما الجو، واهترأ مقبض فأسه، فيما هو عاكف على المشاهدة، ووجد لدى عودته إلى الدار أن سبعة أجيال قد انقضت أعمارها.

وقد كانت طفلته الصغيرة، بكل براءتها وابتساماتها الآسرة، فاتنة بصورة مطلقة. ولم تكن المربية في أفضل حالاتها، عندما مضت إلى أكاشي، ولكنها الآن أكثر جمالاً مما كانت عليه في أي وقت. وحدَّثت جينجي بكل ما حدَّث منذ مغادرته، وتعجب في حزن من أن ابنته قد عاشت كل هذا الوقت الطويل بجوار أكواخ صانعي الملح أولئك.

«هذا المكان بدوره منعزل للغاية، ومن المتعذر عليَّ المجيء إلى هنا. أرجو أن تنتقلي في نهاية المطاف إلى حيث أود أن تكوني!».

ردت السيدة بقدر كافٍ من المعقولية: «إنني أفضل التأقلم مع الحياة هنا أولاً».

أمضيا الليل بطوله يتبادلان مواثيق الحب بكل السبل.

أصدر جينجي للقائم بالأعمال وبعض أتباعه الجدد توجيهاته بالاهتمام بما ينبغي إنجازه. وأقبل الرجال من مزارعه القريبة جميعاً لزيارته، حيث أنه سيزور داره المطلة على نهر كاتسورا عقب ذلك. وقد أوعز بترتيب الحديقة القريبة من الدار بالشكل الصحيح، في المواضيع التي سُحقت فيها النباتات أو كُسرت. وأشار بقوله: «كل الأحجار القائمة هنا وهناك سقطت أو اختفت. ولكن أي مكان جميل سيصبح إذا تمت رعايته بحرص! وعلى الرغم من ذلك سيكون من العار احتمال متاعب أكثر مما ينبغي فيما يتعلق به، فلن تبقى هنا إلى الأبد، والمغادرة لن تكون إلا شيئاً مؤلماً. لقد كانت كذلك بالنسبة لي»[1]. وواصل الحديث بصورة حميمية عن الماضي وسط الدموع والضحك، وبدا بالغ الحسن وهو يقوم بذلك. واختلست الراهبة نظرات عاجلة منه ونسيت سنواتها، وأحست بأن حزنها يذوب، فعلت الابتسامات شفتيها.

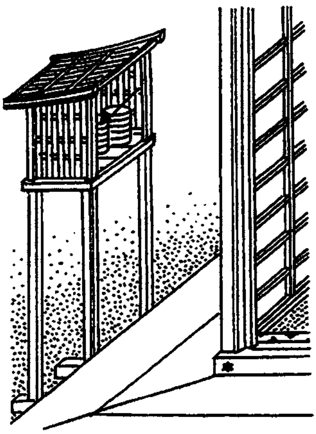
مضت السيدة، وقد فتنت وابتهجت، ترقبه يسير الهوينى في رشاقة في ردائه[2]، مصدراً أوامره بإدخال تحسينات على الغدير، الذي برز من أسفل طريق الجسر الشرقي، وعندئذ لاحظ جينجي رف الماء المقدس، وتذكر: «هل سيدتي الراهبة هنا أيضاً؟ إن ردائي غير لائق!». دعا بعباءته الرسمية ومضى إلى ستارها القائم.

---

(1) مغادرة أكاشي.

(2) نزع جينجي عباءته الرسمية. والرداء (أوتشيكي) هو طبقة الملابس التي تلي العباءة الرسمية.

تحدَّث بلطف بالغ: «أحسب أن من الآثار الجليلة لعكوفك على العبادة إحضار ابنتك من دون أن تتعرض لأي إساءة[1]. كان الإخلاص العظيم أمراً ضرورياً لمغادرة موطنه، حيث تمتعت بسلام عظيم، والعودة إلى هذا العالم المتقلب. وبوسعي أن أتصور جيداً كيف أن المترهبن الذي ظل هناك يفكِّر فيك».



رفّ المياه المقدسة

«إنه لعزاء كبير لي في شيخوختي أنك قد أدركت بحدسك إلى أي حد تثير اضطرابي هذه العودة إلى العالم الذي غادرته يوماً، ولكنني بينما أبتهج لأن شتلة الصنوبر[2]، التي أحببتها على ذلك الشاطىء الصخري، قد ضمنت الآن مستقبلها، فإنني لا أملك إلا الشعور بالقلق حول أن التربة التي ضربت فيها جذورها هشة للغاية»[3]. انخرطت في البكاء. لم يكن ما أدركه جينجي عن شخصها مفتقراً للجدارة والتميز بأي حال، ومن هنا فقد شجعها على مواصلة الحديث عن الماضي وعن طريقة حياة الأمير. وفي غضون ذلك تناهت إلى سمعهم غمغمة الغدير، الذي جرى إصلاحه، كأنها شكوى يجري بثها[4].

قالت:

«من كانت هذه دارها بالفعل تنسى الآن أموراً كثيرة،

لكن الغدير الصافي يواصل ثرثرته مثلما سيدة الدار».

وأعجب جينجي بالتألق الذي تراجع به صوتها إلى حد التلاشي من دون اصطناع.

«ما من غدير متهافت مثل هذا يمكن أن يحتفظ بذكرى الماضي البعيد،

ربما يحس في نهاية المطاف أن السيدة لم تتغير».

---

(1) أي من دون كارما بائس، راجع لإساءات ارتكبت في حيوات سابقة.

(2) رمز أدبي شائع لطفل. وشجرة الصنوبر دائمة الخضرة تعد بقوة دائمة.

(3) «أن مكانتي غير المميزة ستهدد مستقبلها بالخطر».

(4) لأن الغدير كان هنا في زمان الأمير، وقد عرفه معرفة جيدة، ومع ذلك فإن جينجي والكاهنة يتجاهلانه.

آه، يا لي!». وقف جينجي هناك مكتئباً للغاية، وقد بدا لها أجمل من أي إنسـان آخر في الدنيا.

مضى إلى معبده، حيث لم يأمر بالابتهالات المعتادة لفوجين والتضرعات لأميدا أوشاكا التي ستقام في اليومين الرابع عشر والخامس عشر والأيام الأخيرة من الشهر فقط، وإنما العديد من الصلوات الأخرى التي أراد أن تُقام. وأصدر كذلك تعليمات بتزيين القاعات وتوفير الأثاث للبوذات. وعاد تحت قمر متألق.

في تلك الليلة عاد إليها عندئذ من رحاب الماضي، ولم تتردد في الاحتفاء بذلك، حيث قدمت له آلة الكين الموسيقية الخاصة به، ولم يستطع منع نفسه من العزف عليها قليلاً، حيث غرق في انفعالات حارة. ولم تكن الدوزنة قد تغيرت، فساوره الشعور نفسه الذي غلبه حين ذاك.

«أنت يا من تركت مخلصة دوزنة هذا الكين على نحو ما كانت آنذاك،

«هل سمعت في موسيقاه كل ذلك الذي لا تزالين تعنينه بالنسبة لي؟».

ردت قائلة:

«في غمار ارتياحي لثقتي بأنك قد وعدتني بأن قلبك لن يتغير،

ألحقت موسيقاي الباكية بصوت أشجار الصنوبر»

أوضح كون جانبها من النقاش متميزاً إلى أي حد تجاوزت كل ما يمكن للمرء أن يتوقعه منها، وقد فُتن جينجي بمظهرها وسلوكها، الذي نضج إلى حد كبير، ولم يستطع إلا بالكاد إبعاد عينيه عن ابنته. راح يتساءل: ماذا عساي أفعل؟ سيكون عاراً فظيعاً أن يدعها تنشأ على هذا النحو في غمار الغموض، وقد تتعرض سمعتها للضرر في يسر في وقت لاحق[1]، ما لم أحضرها إلى نيجو وأوفر لها كل السبل على نحو ما آمل أن أقوم به. وعلى الرغم من ذلك لم يقل شيئاً من هذا كله، لأنه خشي كثيراً من مشاعر أمها المحتملة، تندّت عيناه بالدموع. وكانت الصبية في البداية خجولاً قليلاً معه، حيث كانت لا تزال صغيرة للغاية، لكنها سرعان ما أنست إليه، وكلما أقبلت عليه معانقة، ومضت تثرثر وتضحك، بدت أكثر

(1) لأنه قد يُقال عنها إن أمها كانت امرأة ريفية، متواضعة المرتبة.

جمـالاً على نحو رائـع. وكان جديراً بالمرء أن يراه وهي بين ذراعيـه، ونقلت هذه الصورة بجلاء حظيهما الاستثنائيين.

تعين عليه العودة إلى المدينة في اليوم التالي، وكان عليه الذهاب من هناك مباشـرة في طريـق العودة، حيث أنه تأخر قليلاً في الاسـتيقاظ، لكن الكثير من الناس كانوا قد تجمعوا عند دارته القريبة من نهر كاتسورا، وظهر حشد من الوصفاء الخصوصيين عند أوي كذلك. هتف، وهو يرتدي ملابسه متعجباً: «يا له من أمر مضجر! كان ينبغي ألا يحضروا للقائي هنا». لقـد اقتضى إلحـاح العمل منه أن يغادر، وهو ما أحس بالأسـف لقيامه به، وفيما وقف إلى جوار الباب، وقد بدت عليه البراءة الشاردة، أقبلت المرضعة خارجة والطفلة بين ذراعيها، فداعب ابنته برقة، وقال: «أعرف أن الرحيل من قبيل الأنانية من جانبي، ولكنه سيكون من المؤلم للغاية ألا أكون معك، ومع ذلك ماذا عساي أفعل؟ إنك بعيدة للغاية!».

ردت المرضعـة: «حين أجهل موقفكم مني في المسـتقبل، يا مولاي، فإنني الآن أحس بقلـق أشـد مما كنت عليه في تلك السـنين، عندما كنت أعرف أنه ليـس بمقدوري رؤيتكم على الإطلاق!».

مدت الصبية الصغيرة يدها بحب إليه، فيما يشرع في الرحيل، فانحنى على إحدى ركبتيه بجوارهـا: «غريـب هو مقدار أحزانـي. إنني أكره الرحيل أشـد الكره. أين أمـك؟ لماذا لم تأت بصحبتك لتودعني؟ ذلك هو ما من شأنه أن يجعلني أحس بشعور أفضل!». ابتسمت المرضعة ونقلت رسـالتها إلى سـيدتها، التي كانت في حقيقة الأمر راقدة في فراشها بتأثير الحزن الغامر، وبالكاد كان بمقدورها أن تتحرك، وأحس جينجي بأنها قد بالغت في القيام بدور السيدة العظيمة. وكان الأمر صعباً للغاية على وصيفاتها أيضاً، وهكذا فقد أقبلت في نهايـة المطاف متـرددة أعظم التردد. كان لملمحها الجانبي شـبه المحتجب وراء سـتارتها تميزه الرائع، وكان من شأن رشاقة أسلوبها أن تتجاوز أسلوب أميرة في التصرف. واستدار جينجي لينحي ستارها جانباً، ويتجاذب أطراف الحديث معها على انفراد، وعلى الرغم من جهودها للسيطرة على نفسها، فإنها في هذه المرة شاهدته بالفعل وهو يرحل. كان في ذروة حسـنه الذي لا تشـوبه شـائبة. وقد كان على الـدوام طويلاً، ولكن قوامـه الآن امتلأ بعض الشـيء، في تناغم مع طوله، وحدَّثت نفسـها بأنه قد اكتسب مهابة أثقل عن ذي قبل. وربما

كان ولعها به هو الذي منحه مثل هذا البهاء الساحر، حتى أطراف سراويله الملمومة.

كان الحاجب، الذي عُزل في وقت من الأوقات من منصبه[1]، قد أُعيد إلى المنصب، وقد أصبح الآن مساعداً في حراسة البوابة، وكان قد تلقى هذا العام قلنسوة المنصب، وكان شخصاً لطيفاً، مختلفاً تماماً عن نفسه في السابق. ودنا من جينجي ليحمل سيفه.

قال ملمحاً لدى رؤيته في لمحة عاجلة لوصيفة في الداخل: «هذه الأيام لم تنس، ولكنني أردت التصرف بحرية. رقدت مستيقظاً عند الفجر في ريح ذكرتني بالريح هناك على الشاطىء، ولكنني لم آمل في إبلاغك الأمر».

دمدمت قائلة: «عندما يتماثل (الجبل طية على أخرى)، مع (يمضي وراء الجزيرة)، وعندما أحدِّث نفسي فقط: (منذ وقت بعيد حتى شجرة الصنوبر)، فإنه لسرور حقاً أن ألتقي إنساناً لم ينسَ»[2].

استبدت به الدهشة، وحدَّث نفسه قائلاً: من المؤكد أنني قد تفهمت جلية الأمر، وقد كنت مولعاً بها للغاية! رد في جفاف: «وقت آخر، إذاً»، ومضى ليكون في خدمة جينجي.

أفسح مرافقو جينجي الطريق له بصيحات عالية، عندما انطلق ركبه بأسلوب عظيم، وركب النقيب أمين السر ومشرف الحراسة في مؤخرة عربته.

كان الضيق قد استبد بجينجي: «إنني أكره الطريقة التي قمتما بها باقتفاء أثري إلى هنا، فيما كنت أفضل كثيراً المضي من دون أن يلحظني أحد».

---

(1) جنباً إلى جنب مع جينجي، عندما أمضى هذا الأخير المنفى في سوما.

(2) يبدو أنك تجد من الصعب الوصول إليَّ في أوي على نحو ما كنت في أكاشي، كنت أفكِّر في أنه لم يعد هناك من يهتم بي:

1 ـ «الجبل طية على أخرى» مستمد من جوسينشو 1172: «كلما أقام المرء وقتاً أطول حيث الجبال، طية على أخرى، تتوجها السحب الشهباء، زاد استعداده للبقاء».

(أوي بعيدة مثل أكاشي، ونحن مرتاحون هنا للغاية، فلا عجب في أنك لم تكتب لي!)

2 ـ «يمضي وراء الجزيرة» مقطع مستمد من كوكينشو 409: «كيف يذهب فؤادي إلى المركب الذي يختفي في سُدُم الصباح ويمضي وراء الجزيرة؟».

3 ـ «منذ وقت بعيد حتى شجرة الصنوبر» من كوكينشو 909: «من الذي يتعين أن أدعوه صديقاً فيما حتى منذ وقت طويل لم تعرفن صنوبرة تاكاساجو؟».

«كان هنـاك قمـر بالغ الجمال البارحة، حتـى أننا ندمنا على عـدم المجيء معك، وهذا الصباح شـققنا طريقنا إلى هنا، عبر السـدم، وبدت الألوان في الحقول بديعة، وذلك على الرغم من أن الوقت لا يزال مبكراً على الدمقس على التلال»[1].

«كان بعضنـا مشـغولاً بالقنـص بالصقـور، وقـد ابتعـدت عنهـم. ترى ما الـذي حدث لهم؟».

انطلق جينجي نحو الدارة المطلة على نهر كاتسورا، حيث تقرر أن يقضي بعض الوقت مجدداً اليوم. وكانت الحاجة المفاجئة لاستقباله قد ملأت المكان بنشاط محموم، وذكرته رطانة صيادي طائر الغاق المائي، لدى استدعائهم، بأهل البحر. وقد وصل الوصفاء الشبان الذيـن بقوا في الحقول الآن، وقدموا هداياهـم الرمزية المؤلفة من طيور صغيرة رُبطت بها وريقات شجرة الهاجي.

أُديـرت عليهـم الخمر مراراً، حتى أصبحـت ضفة النهر تمثل خطراً كبيـراً، بحيث أنهم فـي غمـار سـكرهم جميعاً أمضـوا اليوم في الـدار، وسـاهم كل منهم بنصيبه من الأشـعار الصينية، وبدأت الموسـيقى تتردد في الأسـماع، عندما أطل قمر متألق. بدا المشهد متدفقاً بالحيويـة. كانت البيوا والواجون هما الآلتان الوحيدتان الوتريتان، ولكن كان هناك العديد مـن عازفي النـاي المحنكين، الذيـن اختزلت موسـيقاهم الجميلة المناخ النفسـي للحظة بينما غنت الريح معهم على امتداد النهر، وعلا القمر في الليل الخالي من الهموم.


آلة واجون الموسيقية

في وقت متأخر، وصل أربعة أو خمسـة مـن الوصفاء الخصوصيين، وقد كانوا مناوبيـن في الغرفـة الخصوصية، وعندما عزفت الموسـيقى، أشـار جلالته بقوله: «هذا هو اليوم السادس من الشهر، ويفترض أن العزلة في القصر قد انتهت، وكنت علـى يقين من أنه سـيجيء إلى هنا، فما الذي يفعلـه الآن؟». وعندما علم بموضع جينجي، أمر بأن يحمل الحاجب مراقب الحسابات رسالة إليه:

«حيث أن مكانك ذاك يقع عبر النهر ويتباهى بقمر متألق،

فلا شك أن شجرة كاتسورا تشعر هناك بأنها في موضعها تماماً[2].

(1) ألوان وريقات الخريف.

(2) في الفن الشعبي لشرقي آسيا فإن شجرة كاتسورا (التي تشبه شجرة غار) تنمو في القمر، والكلمة تحقق تلاعباً

إنني أحسدك». أعرب جينجي عن اعتذاره. وارتقى الجمع ذُرى جديدة من النشوة، مستلهماً الموسيقى، التي تجاوزت في هذا الموضع في جلالها الحفل المقام في القصر.

لما لم تكن لدى جينجي مكافأة يقدمها لحامل الرسالة، فقد بعث إلى أوي يستقدم شيئاً لا يتسم بالإغراق في الفخامة. فجُلب إليه ما هو متاح، ووصل في خزانتي ملابس، وخلع على كتفي الحاجب رداء نسوياً، وقد اضطر الحاجب إلى العودة من فوره، وعهد إليه جينجي برده:

«الاسم وحده هو الذي يوحي بالقرب من ذلك الضياء المجيد،

ففي هذه القرية الجبلية تمتد السدم ثقيلة فجراً وغسقاً».

وربما كان يقصد أنه يعلق الآمال على تلقي زيارة إمبراطورية.

لا شك في أنه قد ذرف دموع الابتهاج المفعم بالنشوة، وهو يدندن: «في السماء تنمو»[1]، متذكراً جزيرة أواجي وكيف أن ميتسوني أشار إلى أن: «لا بد أنه الموقع»[2].

«هكذا تقلبت الشهور، وهنالك عالياً في السماء، ودانياً بحيث يُمس

يتألق القمر الذي رأيته آنذاك محتجباً فوق جزيرة أواجي»[3].

أضاف النقيب أمين السر:

«سنا القمر المتألق الذي حجبه سوء الطالع برهة بمثل هذه السحب الكثيبة

يسطع الآن أخيراً من جديد والدنيا يمكن أن يعمها السلام»[4].

فيما يتعلق باسم المكان (كاتسورا) حيث يوجد جينجي. وتومىء القصيدة كذلك إلى أن شجرة كاسورا هي جينجي.

(1) من القصيدة التي كانت المصدر بالنسبة لرسالة جينجي إلى الإمبراطور، كوكينشو 968 من نظم آيسي، وقد كتبت أيضاً في كاتسورا: «حيث أن هذه القرية [كاتسورا، راجع الهامش أعلاه] تنمو في السماء، فإن كل ثقتي هاهنا تنصب في سناها [على سبيل المثال في العطف الإمبراطوري]».

(2) يتذكر جينجي رؤيته لأواجي عبر البحر الذي أناره القمر، ويمضي إلى تذكر القصيدة ذاتها التي كان يفكِّر فيها آنذاك (شينكو كينشو 1515، من نظم أوشيكوتشي نو ميتسوني): «القمر المطل على أواجي بدا نائياً على نحو بعيد، الليلة- لا بد أنه المشهد - يبدو قريباً للغاية». وهو يبكي فرحاً إزاء المفارقة بين ذلك الحين، عندما كان في المنفى، والآن، فيما الإمبراطور «قريب للغاية» ويقدره كثيراً.

(3) يفكر جينجي في قصيدته في «أكاشي»، «آه، يا له من مشهد عظيم..».

(4) القمر هذه المرة هو جينجي.

كان مراقب حسابات الميسرة الكبير، وهو أكبر سناً قليلاً من الباقين، قد خدم نيافته الراحل بصورة حميمية:

«تخلى بدر منتصف الليل عن مقره الفخور عالياً فوق السحب،

في أي واد مظلم بعيد يحجب للأبد سناه؟»[1].

كان هناك آخرون كثيرون في حالات مزاجية متباينة، ولكن ذلك كله أمر يثير الإطناب فيه الكثير من الإزعاج. وكان من شأن المرء أن يحب إمضاء ألف عام عاكفاً على تأمل جينجي والإصغاء إلى حديثه الهادىء الودود، وغير المترابط إلى حد ما ـ ربما كان مقبض فأس المرء قد تحلل ـ ولكن جينجي كان قد وعد نفسه بألا يتأخر مجدداً اليوم، وسارع إلى الدار، خلع رداء على كتفي كل من الحاضرين بحسب مراتبهم، فشكلت ألوان الأردية وسط زهور الحديقة صورة بالغة الجمال حقاً. أحس بعض الأعضاء المشاهير في حراسة البوابة، وهم رجال بارعون في الرقص والموسيقى، بالحاجة إلى إضافة لمسة أخرى بأداء متوهج بالحيوية لـ«جوادي هذا»[2]، ولتقديم مكافأة لهم نزع الوصفاء الأردية التي خلعت عليهم، والتي استقرت على أكتافهم مثل دمقس الخريف حين تنثره الريح. وكانت الضجة المصاحبة لرحيل جينجي مدوية إلى حد أن أخبارها انتشرت على امتداد الطريق حتى أوي[3]، حيث غلب الحزن على السيدة في صمت، وأحس جينجي بالأسف لعدم قدرته على أنه يبعث برسالة إليها.

ارتاح قليلاً، لدى عودته إلى الدار، ثم أبلغ سيدته بأمر أوي: «يؤسفني أنني قد بقيت وقتاً أطول مما قلت إنني سأقضيه هناك، فقد أقبل شباني المندفعون أولئك في أعقابي وجعلوا من المستحيل عليَّ أن أبادر بالمغادرة، ولست أحس بأنني على ما يرام هذا الصباح أيضاً». أوى إلى الفراش، وكان بمقدوره أن يخمن أنها غاضبة منه كالمعتاد، ولكنه لم يبد اكتراثاً، وقال معاتباً إياها: «لن يجدي هذا، كما تعلمين، في المرتبة ليس هناك وجه للمقارنة بينكما أنتما الاثنتين، وتذكري في نهاية المطاف أنك تظلين أنت ذاتك». ويمكن للمرء أن يتخيل

---

(1) هذا القمر هو الإمبراطور كيريتسوبو (نيافته الراحل).

(2) أغنية سايبارا مناسبة لرحيل نبيل على صهوة جواد: «جوادي هذا يريد علفه، نعم، يريد علفه. سأجلب له عشبة، نعم، سأجلب ماءه سأحضر عشبة.

(3) أوي وكاتسورا يفصلهما ميلان ونصف الميل.

بسهولة إلى من كان يكتب مع مقدم الليل، مبتعداً عنها على ذلك النحو، قُبيل الانطلاق إلى القصر. ووشت لها نظرات سريعة مختلسة بأن رسالته كانت ضافية، ولم تعجب الطريقة التي مضى يهمس بها عندما أرسلها وصيفاتها.

بقي في الخدمة بالقصر، على امتداد المساء كذلك، ولكنه لكي يرضيها انسحب من الوقوف بين يدي الإمبراطور في وقت متأخر من الليل.

جاء الرد على رسالته، وقرأه من دون أن يحاول إخفاءه، قال لها حيث أن الرسالة لم يكن فيها ما يثير ضيقها: «أتلفي هذه الرسالة، لطفاً، كم الأمر صعب في مجمله! ليس هذا بالموضوع الذي يمكنني تركه مهملاً بعد الآن». فيما مال على مسند ذراعه، تطلع فؤاده في توق إلى المرسلة، وراح يحدِّق في المصباح صامتاً.

هنالك جثمت الرسالة مفتوحة، لكن سيدته لم تبد أي اكتراث، «يا لعينيك المسكينتين هاتين! لا بد أنهما تتقدان تطلعاً لإلقاء نظرة!» ابتسم، واكتسحت جاذبيته كل شيء أمامها. تحرك نحوها، وواصل حديثه: «الآن وقد رأيت بالفعل الطفلة الصغيرة العزيزة، فقد أدركت أي رابطة وثيقة تصلني بها، وكل ما أتمناه هناك حاجة أقل إلى الحذر إذا ما أُريد لها أن تكلل بالنجاح. أرجو أن تمعني النظر في الأمر بنفسك في ضوء ذلك، وأن تحسمي رأيك. ما الذي يتعين علينا القيام به؟ هل تعتقدين أن بوسعك رعايتها؟ إنها الآن في سن الطفلة العلقة[1]. وبراءتها ذاتها تجعل من المتعذر نسيانها، وأود الاحتفال بإلباسها السروال، وأرجو أن تقومي بعقد سروالها، إذا لم يكن في ذلك ما يزعجك»[2].

«كل ما في الأمر أنني لا أستطيع التظاهر، كما تعلم، بعدم الملاحظة عندما تصبح ضيق الصدر معي حول مشاعر لا أكنها حقاً. وإنني على يقين من أنني سأحقق إنجازاً طيباً للغاية من خلال مثل هذه الطفلة الصغيرة. يا له من عمر جميل ذلك الذي تعيشه!». منحته ابتسامة واهنة. لقد كانت تحب الأطفال، وقد أرادت بشدة أن تكون لها هذه الصبية لتهتم

(1) في العام الثالث من عمرها. وربما يقصد كذلك أن ابنته تحتاج إلى دعم خاص لكي «تقف على قدميها».

(2) يريد جينجي أن يعطيها «إلباس السروال» (هاكاما جي) وهو طقس عبور يتم فيه إلباس طفل أولاً سروال هاكاما. وكان عقد رباط السروال محورياً بالنسبة لهذا الاحتفال، وكان القيام به يعد مقابلاً للتصرف كراع رسمي للطفل المعني.

بها ولترعاها.

كان جينجي لا يزال يتساءل عما يتعين عليه القيام به. هل يحضرها إلى نيجو؟ كان من الصعب عليه للغاية الذهاب إلى هناك، ويبدو أنه قد وعدها بأن يزورها مرتين كل شهر، لدى ذهابه لحضور الطقوس في معبده في سبخة ساجا. كان ذلك أفضل من زيارة نجوم تاناباتا مرة كل عام، ولكن على الرغم من أنها قد رضيت بهذا الترتيب إلا أنه ما كان بوسعها إلا أن تحزن.

19

يوسو جومو

خيوط سحابة

عنوان هذا الفصل مستمد من قصيدة ألقاها جينجي
في رثاء فوجيتسوبو:

«خيوط السحابة الرفيعة تلك الممتدة هنالك فوق الجبال يحيطها سنا الغروب،

تبدو كأنها ترغب في مطابقة تدرج لونها مع أكمام أقارب الراحلة»

الصلة بالفصول السابقة

تبدأ أحداث «خيوط سحابة» في شتاء العام الذي غطاه (ربيعاً وخريفاً) «الريح في أشجار الصنوبر»، وينتهي في الخريف التالي.

الشخوص

سمو وزير القصر، جينجي، 31 إلى 32 عاماً.
السيدة المقيمة في أوى، 22 إلى 23 عاماً (أكاشي نوكيمي).
الراهبة، أمها، منتصف الخمسينيات (أكاشي نو أما جيمي)
مربية ابنة جينجي.
ابنة جينجي، 3 إلى 4 أعوام (أكاشي نو هيميجيمي).
السيدة المقيمة في جناح دار جينجي الغربي، 23 إلى 24 عاماً (مورا ساكي).
السيدة المقيمة في دارة جينجي الشرقية (هانا تشيروساتو).
تشوجو، إحدى وصيفات جينجي، الآن إحدى وصيفات مورا ساكي.
والد السيدة المقيمة في أوى، حوالي 64 إلى 65 عاماً (أكاشي نو نايودو).
معالي المستشار، وزير الميسرة السابق، 65 إلى 66 عاماً (سادايجين).
نيافة الإمبراطورة المنعزلة، أم الإمبراطور، 36 إلى 37 عاماً (فوجيتسوبو).
جلالة الإمبراطور، 13 إلى 14 عاماً (رايزي).
راهب بارز معين.
معالي وزير المراسم، والد أساجاو (يتوفى) (شيكيبيو كايو نوميا).
القائم بأعمال المستشار، ثم المستشار الكبير وقائد الميمنة (تو نو تشوجو).
سمو الزوجة آيسي، ابنة ملاذ روكوجو، 22 إلى 23 عاماً (أكيكو نومو).

غدت أوي أشد كآبة مع مقدم الشتاء، وأمضت السيدة أيامها هناك شاعرة بالضياع التام. أبلغهـا جينجـي بقوله: «لا يمكنك الاسـتمرار على هذا النحو، ولا بد لك من أن تحسـمي أمرك للانتقال بجواري». ولكنها كانت تعاني اضطراباً عظيماً، لأنه إذا كان الذهاب لن يعود عليهـا إلا بالمزيد من مثل هذا البؤس، فإنها سـتغرق في حفرة من اليأس، وماذا سـتجديها الدموع عند ذاك؟[1].

طـرح الموضوع بجدية: «حسـناً، ماذا عـن صبيتنا الصغيرة إذاً. مـن العار أن تكون هذه هـي الحيـاة الوحيدة التي تعرفها، وإنـه من المهين كذلك، في ضوء ما أعتزمه بالنسـبة لها. لقد سمعت السيدة المقيمة بجناح داري الغربي بها، وهي غالباً ما تسأل عنها، وما أن تربط الصداقـة بينهمـا، فإنني أعتـزم إقامة طقس ربط السـروال على نحو يبقى فـي ذاكرة الناس طويلاً».

جعلت حقيقة أنها تشككت في ذلك منذ وقت طويل الأمر يبدو أسوأ فحسب. أياً كانت المعاملة التي قد تلقاها هناك، فمن المؤكد أنه لا يتوقع أن يكون بمقدوره أن يخفي الحقيقة للأبد. ومن الطبيعي تماماً أنها فكرت في الأمر ملياً، ولكن جينجي طمأنها.

قال: «لا تخشـي شـيئاً، فليس هناك ما يدعو للقلق». واصل حديثه ليبلغها بالمزيد حول كم أن السـيدة جديرة بالإعجاب: «تلك السـيدة لا تزال من دون أطفال، كما تعلمين، بعد كل هـذه السـنين، وهـي تحس بخيبة أمـل بالغة إلى حـد أنها تصر على رعاية كاهنة آيسـي السابقة[2] حتى الآن، وهي ناضجة تماماً. ويمكنك التيقن من أنها لن تهمل باستخفاف أي طفلة تستحيل كراهيتها كهذه الطفلة».

حدَّثت نفسها: نعم، لا بد أن قوة القدر قد جمعتهما معاً، ولا بد أنها أعجوبة بين النساء إذا كانت أسـاليبه القديمة ـ أسـاليب دارت حولها الشـائعات منذ عهد بعيد، ويعجب معها المرء من التي استطاعت إقناعه بالاستقرار ـ قد انتهت الآن وبعد العهد بها. وهي قد تنزعج إذا حاولـت أنـا، بينمـا لـم يكن بمقدوري الوقـوف إلى جوارها، أن أدفع بنفسـي قدماً على الرغـم مـن ذلك. ولكن فلنضرب صفحـاً عما يحدث لي، لأنه من المؤكـد أن رغباتها هي

(1) من جوسينشو 705، شكوى امرأة كان مصيرها هو ما تخشاه السيدة القادمة من أكاشي.
(2) أكيكونومو، وهي أصغر بعام من مورا ساكي.

التي يمكن أن تحسم مصير ابنتي، وإذا كان الأمر كذلك، فإنني ينبغي أن أتخلى عن ابنتي، بينما هي لا تزال أصغر من أن تفهم. وعلى الرغم من ذلك فسوف أقلق كثيراً إذا تخليت عنها! إنها وحدها هي التي تخفف كآبة أيامي. ولست أدري كيف سأحيا من دونها! وما الذي سيحضره إلى هنا إذاً؟ جعلتها حيرتها تعيسة للغاية حقاً.

تحدَّثت أمها الراهبة معها، انطلاقاً من فهمها العميق، فقالت: «هذه حماقة، نعم، سيكون من المؤلم ألا تكون معنا بعد الآن، ولكن تذكري أن ذلك لصالحها، ليست اللامبالاة هي التي تجعله يتحدَّث على هذا النحو، ثقي به فحسب، ودعيه يصحبها. إن مرتبة الابن الإمبراطوري يبدو أنها تأتي من أمه، وأتوقع أن يكون السبب في أن سموه ليس إلا مسؤولاً رسمياً فحسب، على الرغم من خصاله الفذة، هو أن المستشار الكبير الراحل كان أقل درجة مما ينبغي[1]، بحيث أنه دُعي بابن سيدة مقربة من الإمبراطور. ومن الجلي أنه ليس لأمثالنا أن نقيس أنفسنا بالمقارنة بأمثال هؤلاء الناس. وفي حقيقة الأمر فإن أم طفل، حتى وإن كانت أميرة أو ابنة وزير، يفضل أن تكون الزوجة الرسمية للأب[2]، وإلا فإن الناس سينظرون نظرة متدنية إلى ابنها، ولن يكون بمقدور الأب نفسه أن يعامله على قدم المساواة. وفيما يتعلق بابنتك، فإن من الواضح للغاية أنه في مثل هذه الصحبة الراقية فإن صبية مثلها سيتم تجاهلها. والصبية التي قام أبوها بإعطائها هذه الدرجة الإضافية من العناية على وجه الدقة، بالطريقة المناسبة لوضعه، هي وحدها التي لا تحتاج أبداً إلى خشية ازدراء الآخرين. وفيما يتعلق بطقس ربط السروال هذا، فإنه ما من متاعب تقع على كاهلك وأنت غائبة على هذا النحو في هذه التلال، يمكنها أن تمنحه أي بريق كائناً ما كان، وما عليك إلا أن تتركيه يقوم بما يعتقد أنه الأفضل، ولترقبي كيف سيبلي بلاءً حسناً».

أعطى الحكماء الذين استشارتهم على الدوام الرد نفسه، وهو أن ابنتها ينبغي أن تمضي إلى نيجو، ولهذا فقد شرعت في الاستسلام. وقد شاركهما جينجي الرأي، ولكنه تعاطف معها كثيراً، بحيث أنه لم يستطع حمل نفسه على متابعة الموضوع.

استفسر: «ما الذي ستفعلينه بشأن عقد سروالها؟» وردت: «بقدر ما يسعني أن أرى فإنني

(1) ليس وزيراً على وجه الدقة، وبالتالي فإن ابنته لم تعين زوجة قط.

(2) ليس إحدى النساء الأخريات اللواتي قد ينجبن له أطفالاً، واللواتي تقتضي علاقته بهن اعترافاً اجتماعياً أقل.

أقل شأناً بكثير، بحيث أنني قد أعرِّض مستقبلها للخطر، إذا أبقيتها معي، ومع ذلك فإنني لا أستطيع الحيلولة دون الشعور بأنها في عالمك قد لا تلقى إلا السخرية». تعاطف جينجي معها أكثر من أي وقت مضى. وأوعز باختيار يوم[1]، وفي هدوء أمر بإجراء الاستعدادات الضرورية لاستقبال ابنته. وكانت أمها لا تزال تتردى في غمار اليأس، فيما يتعلق بترك ابنتها تمضي.، ولكنها تماسكت من أجل ابنتها.

تساءلت باكية: «هل تتركينني بدورك أيتها المرضعة؟ لقد كان حديثك مصدر ارتياح كبير لي على امتداد كل هذه الأوقات، عندما كان الحزن أو الضجر يستبدان بي، ولسوف أحس بغيابك بالقدر نفسه».

ردت المرضعة، وقد غرقت في الدموع بدورها: «لا يمكن إلا أن يكون القدر وحده هو الذي جلبني إليك، على مثل هذا النحو غير المتوقع، ولن أنسى كل لطفك، كما لن ينقطع اتصالي بك أبداً، يا سيدتي، حيث أنك ستكونين من الطيبة بحيث ستفتقدينني. وذات يوم قريب ستحضرين بدورك أيضاً، إنني أعرف هذا، ولكنني لا بد لي من أن أغادرك الآن، وإنني أتساءل على أي نحو ستكون الحياة هناك، حيث لم أتخيل قط أنني سوف أمضي يوماً!».

كان الشهر الأخير من العام قد أقبل، وانقلب الطقس بارداً مثلجاً، وتفاقم حزنها. مضت تنوح: على أي نحو غريب ولدت لأحتمل أحزاناً عديدة! ومضت أكثر من أي وقت تداعب ابنتها وتثير ضجة حولها. وذات صباح عندما أدى الثلج المتساقط إلى إعتام السماء، وغرقت في التفكير في كل ما كان وما سيكون، جلست هي التي نادراً ما دنت من الشرفة مرتدية العديد من الأردية ذات اللون الأبيض الرقيق، محدِّقة في الجليد على امتداد حافة الماء، وبدا لوصيفاتها أن كيانها الغارق في تفكير عميق، خطوط شعرها، وملمحها من الخلف، كل ذلك جعل منها صورة للسيدة الأعظم في البلاد. تنهدت على نحو جذاب، ومسحت دمعة، وهي تقول: «لسوف أفتقدك كثيراً في أيام كهذا اليوم.

قد يكون الثلج عميقاً، والدروب عبر التلال ضائعة على ضفاف السحاب،

---

(1) عن طريق عراف وبحسب التقويم السنوي.

لكن واصلي القدوم إلى هنا لطفاً وابقي على اتصال!» .

بكت المرضعة وقالت مواسية:

«حتى لو كان مقصدي جبال يوشينو وثلجها الدائم،

فكيف يمكنني ألا أبقى على اتصال وفؤادي يحلق إليك؟» .

أقبل عندما ذاب الثلج قليلاً. كانت تنتظره عادةً في شغف، ولكنها هذه المرة كانت تعرف ما تتوقعه، وأحست بعذاب لم تجد إلا نفسها لتلومها عليه. حدَّثت نفسها قائلة: الأمر كله مرده لي، فما كان ليصر لو أنني رفضت. آه، ما كان ينبغي أن أوافق أبداً! وعلى الرغم من ذلك فقد كبحت جماح هذه الاندفاعات المتقلبة. وذكَّرها مشهد ابنتها، وهي جالسة بعذوبة بالغة أمامها، بأن هذه الصبية الصغيرة لا يتعين النظر إليها باستخفاف. وكان شعرها قد طال منذ الربيع ليصل إلى طول شعر راهبة، ومضى يهفهف الآن على نحو جميل للغاية، وبالطبع كان محياها وعيناها على قدر كبير من الجمال كذلك. وأحس جينجي بألم بالغ، وهو يتصور يأس أمها عندما تعرف أن ابنتها تنتمي إلى أخرى، بحيث أنه قضى الليلة يوضح لها مقاصده من جديد.

«لا، لا، كل ما أطلبه هو أن تعاملها معاملة أفضل مما تستحقه أمها التي لا قيمة لها». إنهار تحكمها في نفسها، وانفجرت في بحر من الدموع المثيرة للشفقة.

كانت الصبية الصغيرة متلهفة على نحو بريء لركوب العربة، وحملتها أمها إليها بنفسها. وكان حديثها الممزوج بلغة صبيانية قريباً من القلب للغاية، وعندما أمسكت بكم أمها، صائحة: «هلم، اركبي!» تغلبت مشاعر أمها عليها.

«الآن فيما أنتزع من شتلة صنوبري الصغيرة وسنواتها المقبلة،

متى سأراها بعينيَّ شجرة قوية؟» .

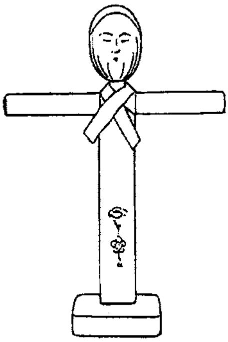
منعتها دموعها من قول المزيد.

حدَّث جينجي نفسه: بالطبع، يا للمخلوقة المسكينة! ورد مهدئاً:

«حيث أنها ضربت جذرها أولاً في مثل هذه التربة العميقة المغذية، فدعيها تضف من الآن فصاعداً

أعوامها الألف إلى سنوات صنوبرة تاكيكوما»[1].

علقت آمالها على كونه محقاً، لكن الأمر كان أكثر مما تستطيع احتماله.



الطفل الإلهي

كانت المربية والوصيفة الرائعة المعروفة باسم شوشو هما الوحيدتان اللتان استقلتا العربة، وقد جلبتا الخنجر والصبي الرباني[2] وما إلى ذلك معهما. واستقلت وصيفات أصغر سناً وجميلات عديدات وصبيات تابعات عربات مرافقة. وتقرر أن يصحبن الجمع إلى مقصده. وأحس جينجي بالذنب طوال الطريق إلى هناك لإيلامه على هذا النحو السيدة التي بقيت في الدار.

وصلوا بعد حلول الظلام، وما أن تم جذب العربة إلى موضعها، حتى جعلتهن روعة المكان، والتي تختلف أشد الاختلاف عما عرفته في الريف، يتساءلن كيف يمكن لهن العيش هنا من دون أن يجعلن من أنفسهن حمقاوات، ولكن غرفة الجناح الرئيسية على الجانب الغربي، كانت قد أعدت لسيدتهن الصغيرة وحدها فحسب، وزودت بقطع أثاث صغيرة، وجميلة للغاية. وشغلت المرضعة غرفة في الجانب الشمالي من طريق الجسر الغربي.

لم تبك الطفلة الصغيرة، التي كانت قد أغفت خلال السفر، عندما تم إنزالها من العربة. وفي غرفتها تناولت بعض المكسرات والحلوى، ولكنها عندما تطلعت حولها شيئاً فشيئاً، وافتقدت أمها، كان من الجلي على نحو جذاب من محياها أن دموعها سرعان ما ستنهمر، واستدعيت مرضعتها لطمأنتها والتسرية عنها. ولم يستطع جينجي إلا بالكاد احتمال تصور

(1) «مستقبلها الباهر هو مستقبلنا كذلك». شتلة الصنوبر هي الصبية الصغيرة. كانت صنوبرة تاكيكوما التي نمت قرب مقر حكومي في مقاطعة موتسو الشمالية النائية (بحسب جوسينشو 1041 من نظم تاتشيبانانو سمويميتشي) شجرة صنوبر واحدة ذات جذعين توأم (أيوي نو ماتسو)، رمزاً للإخلاص الزوجي. ويشير جينجي إلى نفسه والسيدة من أكاشي باعتبارهما زوجين.

(2) كانت الطفلة تتلقى خنجراً (ميها كاشي) عند الميلاد باعتباره طلسماً للحماية. وتمثلت أداة أخرى للحماية في الصبي الرباني (أماجاتسو)، وهو دمية تؤدي الغرض ذاته الذي تؤديه دمية التطهير الموصوفة قرب نهاية فصل «سوما». وكان من المفترض أن تنقل الطفلة إلى الدمية أي تأثير شرير يمكن أن يلحق الضرر بها. وهي تحتفظ بدمية الصبي الرباني إلى أن تبلغ عامها الثالث تقريباً.

الضجر الذي تواجهه أمها، هنالك وسط التلال، ولكن كان مصدر شعور كبير بالرضا بالنسبة له أنه بمقدوره الآن الاعتناء بابنته كيفما طاب له يوماً بعد الآخر. وراح يتساءل ممروراً لماذا لم تولد مثل هذه الصبية الصغيرة والعزيزة والكاملة في داره.

مضت ابنته تبكي لبعض الوقت، وقد افتقدت من كانت تعرفهم، ولكن بصفة عامة فإن طبيعتها كانت لطيفة وسعيدة، وصادقت على نحو جميل السيدة التي هيمنت على أهل دار جينجي، بحيث أن السيدة ابتهجت بأن تكون لديها مثل هذه الطفلة العزيزة. وكانت على الدوام تحتضنها، وتلعب معها، ومن الطبيعي أن المرضعة سرعان ما كانت تقوم على خدمتها بصورة حميمية كذلك. وأحضر جينجي مرضعة أخرى أيضاً، وهي سيدة رفيعة المقام يدر صدرها حليباً وفيراً.

لم يبالغ جينجي في شأن الاستعداد لحفل ربط السروال، ولكنه على الرغم من ذلك أبدى اهتماماً خاصاً به، وكانت قطع الأثاث كافة مصنوعة بصورة جميلة، كأنما أُنجزت لعرائس صغيرة. ولم يجتذب الضيوف اهتمام خاص، حيث أنه كان هناك على الدوام الكثير من الناس الذين يجيؤون نهاراً وليلاً. ولاحظ كيف بدت الصبية الصغيرة جذابة بصورة كاملة، وقد تقاطعت قيطان سروالها بتلك الطريقة على صدرها لتعقد كميها إلى الخلف.

افتقدتها السيدة المقيمة في أوي بشدة، وندمت على غلطتها، وكانت أمها أكثر ميلاً للبكاء، على الرغم من أحاديثها المقنعة. ولكنها ابتهجت حيال الطريقة التي اعتنى بها جينجي بحفيدتها. ترى أي هدايا يمكنها إرسالها؟ لم يكن بمقدورهما إلا أن يرسلا ملابس بأجمل الألوان إلى مرضعاتها ووصيفاتها. وكان جينجي يعرف كيف أن السيدة تتوق إلى زيارته، وتمنى أن يوفر عليها رؤية مخاوفها وهي تتأكد. ولذا فقد مضى إلى هناك في هدوء قبل انتهاء العام. وكانت الدار أكثر عزلة من ذي قبل، وضايقه للغاية أن يتصور مشاعرها بعد فقد الطفلة، التي كان الاعتناء بها قد استغرقها، فبعث إليها برسائل متتابعة. وكانت محبوبته قد تخلت الآن عن غيرتها الحقيقية، بعد أن سامحته إكراماً للطفلة الصغيرة العزيزة.

أقبل العام الجديد. وازدهر جينجي، الذي غدا أكثر تحرراً من الهموم، تحت سماوات صافية، وبين أولئك الذين توافدوا على دارته الرائعة التي لا تشوبها شائبة، كان هناك

موكب من النبلاء الأكبر سناً الذين قدموا للإعراب عن شكرهم له[1]، بينما أقبل النبلاء الأكثر شباباً في سعادة من دون سبب محدد على الإطلاق. وربما كانت لدى زوار آخرين أقل شأناً أحزانهم الخاصة، ولكن هذا الوقت كان من الأوقات التي يقبل فيها الجميع على الدنيا بوجه فخور يعكس البهجة. عاشت السيدة المقيمة في دارة جينجي الشرقية[2] بصورة مترفة أيضاً. ولم تسيء وصيفة من وصيفاتها ولا من فتياتها التابعات التصرف، وقد حرصت في يقظة على أن يكون سلوكها ملتزماً. وتمثلت فائدة رائعة من فوائد وجود جينجي قريباً منها للغاية في إمكانية قدومه لرؤيتها في أي وقت، عندما يكون في وقت فراغه، على الرغم من أن شيئاً لم يشر إلى أنه حاول أن يقضي الليل هناك. وفي غمار براءتها الهادئة النابعة من طبيعتها كانت شاكرة لحسن طالعها، وبقت على هدوء واثق من النفس بصورة رائعة للغاية، بحيث أن جينجي قام على رعايتها، موسماً إثر آخر، على نحو لا يقل عن رعايته لمحبوبته. وأقبل الناس عليها وخدموها سواء بسواء، لأنه كان من المستحيل إساءة الظن بها. وكانت النسوة اللواتي يعملن تحت تصرف سيدة الدار شديدات الرعاية على نحو رائع، إلى حد أنها ظلت على أرقى مستوى في كل الأمور.

ظل جينجي مدركاً على الدوام لكون الحياة كئيبة في التلال، وقرَّر المضي إلى هناك بمجرد انحسار ضغط ارتباطاته العامة والخاصة. وأعد نفسه لهذه الزيارة بعناية استثنائية، حيث ارتدى عباءة في لون براعم الكرز فوق رداء بديع على نحو يتجاوز الوصف، وقد عُطِّرت العباءة والرداء كليهما على نحو رائع، وجعله ضياء الشمس الغاربة الصافي يبدو أكثر جاذبية. وودعته محبوبته بفؤاد مضطرب. وتشبثت الطفلة الصغيرة على نحو صبياني بسرواله الملموم، معربة عن رغبتها في الذهاب معه، وتوقف متأثراً أشد التأثر، قُبيل خروجه عبر الستائر الحاجبة. «سأعود غداً»[3]، هكذا غنى ليحملها على الهدوء خلال مغادرته، وجعلت محبوبته، التي كانت تنتظر قرب باب جسر الطريق، تشوجو تحمل الرسالة التالية إليه:

---

(1) على ترقيات وتعيينات يعود الفضل فيها إلى رعايته لهم.

(2) هنانا تشيروساتو، سيدة الزهور المتساقطة.

(3) من أغنية سايبارا: «[الزوج]» أعد مركبك، يا رجل برعم الكرز، فعليَّ تفقد حقولي على الجزيرة ولسوف أعود غداً، نعم، سأعود غداً! [الزوجة] تقول غداً، ولكن من له امرأة هناك لن يعود غداً حقاً، لا، لن يعود غداً حقاً.

«إذا لم يكن هناك أحد على تلك الجزيرة يعطل قاربه،

فإني سأتوقع حقاً أن يعود زوجي غداً!».

سلمت الرسالة، في يسر العارف بجلية الأمر، وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساحرة:

«لسوف أمضي وأرى ونعم سأعود غداً ولن أكترث

إذا لم تكن من هناك على الجزيرة مسرورة على نحو خاص!»

كانت الطفلة الصغيرة التي انطلقت تعدو في أرجاء المكان في مرح من دون أن تفهم من الأمر شيئاً، قد فتنت سيدته كثيراً إلى حد أن كل شعورها ضد «تلك السيدة الأخرى» قد تبدَّد. لشد ما تحن أمها إليها! كان حرياً بي أن أفتقدها أشد الافتقاد لو أنني كنت مكانها! هكذا كانت تفكر، فيما هي تحدِّق في الطفلة، ثم تحتضنها في دلال، وتعطيها ثديها لترضع. وكان المشهد جديراً بأن تقع عليه العين، وهمست الوصيفات المحيطات بها إحداهن للأخرى: «ألم يكن من الممكن أن تكون هي أمها؟» و«آه، يا للعار إنها ليست أمها!».

عاشت السيدة المقيمة في أوي حياة هادئة ومميزة في آن. كانت دارها غير مألوفة، ولكن فيما يتعلق بها فإن جينجي عندما يراها كان يعجب بهيأتها وبالكبرياء الناضجة لسلوكها، التي وضعتها في مرتبة تلي أعظم نساء البلاد مباشرة. لو أنه كان من الممكن تجاوزها فحسب باعتبارها ابنة حاكم إقليم أخرى، لسعد الناس بما فيه الكفاية لتذكر أن تلك ليست هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا الشيء. وقد كانت شهرة أبيها كمهووس فظيع مشكلة، ولكنه كان لديه ما يكفي ليجعله شخصاً مقبولاً. ولم يرغب جينجي على الإطلاق في الاندفاع عائداً إلى الدار مجدداً، حيث أن هذه الزيارة كانت بلا شك بالغة القصر بالنسبة إليه كذلك. تنهد قائلاً: «أهو جسر متأرجح يعبر في الأحلام؟»[1]، ثم اجتذب إليه آلة سو نو كوتو قريبة، وشدد عليها إلى أن التقطت آلة البيوا الموسيقية الخاصة بها، وصاحبته قليلاً في العزف، حيث أنه تذكر كما يحدث غالباً صوت موسيقاها في تلك الليلة في أكاشي. وجعله عزمها يتساءل كيف أمكنها أن تتمكن من ناصية العزف على عدد كبير من الآلات

(1) جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إينو واكا 148: «هل عالمنا هذا جسر متأرجح يعبر في الأحلام بحيث أن عبوره ينبغي أن يجلب مثل هذه الأحزان؟». «الأحلام» تشير إلى اتصالات إيروتيكية، ويونو ناكا (عالمنا هذا) يومىء إلى أمور الحب. ويعني مقطع يوكي من يوكيكيهاشا الجسر المتأرجح كلاً من «عائم» و«حزين».

الموسيقية على هذا النحو، وعلى مهل حدثها بكل شيء عن ابنتهما الصغيرة.

غالباً ما كان يبقى في أوي، على الرغم من طبيعة المكان، وكانت هناك أيضاً أوقات يتناول فيها وجبة خفيفة من الفواكه والأرز المطبوخ على البخار هناك، وكان يأتي تحت غطاء رحلة إلى معبده القريب، أو إلى دارته المطلة على نها كاتسورا، وحتى إن لم يشر سلوكه نحوها إلى عاطفة جارفة، فإنه لم يعاملها باستحقاق، على نحو ما كان حرياً به أن يفعل حيال أي امرأة أخرى، فكان يفكِّر فيها كثيراً على نحو جلي. وقد أدركت هي نفسها تقديره لها، ولم تقم أبداً بما يمكن أن يُفسر على أنه مبالغة في التحرر من جانبها، ولم تبد أدنى لمسة ابتذال، ولم تتدنَّ بأية حال عن معاييره، وكانت صحبتها على الدوام مصدر ابتهاج. وكانت قد سمعت أنه يكون على راحته بدرجة أقل مع أعظم السيدات منه ما يكون معها، وإنه كان يبقي على وقاره معهن، ومن هنا فإنها ربما شعرت بأنها إذا اقتربت منه أكثر من ذلك، فإن من حوله قد ينحونها جانباً بحسبانها لا أهمية لها، وأن الحفاظ على احترامها لنفسها يكمن على وجه الدقة في اجتذاب هذه الزيارات النادرة منه.

على الرغم مما كان أبوها قد قاله في أكاشي، فقد تاق إلى معرفة كيفية معاملة جينجي لها، وكيف تمضي بها الأمور هي نفسها، حيث أن مبعوثيه أبقوه على اطلاع على هذه الأمور، وقد عرف بين الحين والآخر لحظة من العذاب، ولكنه عرف كذلك وبما فيه الكفاية غالباً لحظة من الفخر والابتهاج.

في حوالي هذا الوقت، رحل معالي المستشار[1]. وحتى جلالته لزم الحداد عليه، فقد كان له ثقل عظيم في الدنيا. وحزن آخرون كثيرون لفقده، وبصفة خاصة لأنه حتى خلال تقاعده القصير حلت المتاعب على البلاد. وحزن جينجي، وشعر بأسف كبير، لأنه يدين بوقت فراغه لتخليه لمعاليه عن الكثير من مسؤولياته، وخشي من الآن فصاعداً ضغطاً مضجراً من جراء واجباته[2]. ولم يشعر بالقلق على شؤون الدولة، لأن جلالته غدا الآن ناضجاً على نحو يتجاوز بكثير سنوات عمره. ولكن لم يكن هناك مرشح واضح لمساعدته،

(1) صهر جينجي السابق، ووزير الميسرة سابقاً.

(2) جينجي حالياً هو وزير شؤون القصر ونائب الإمبراطور (سيشو)، وكان قد عهد بواجبات نائب الإمبراطور إلى صهره الراحل.

ولم يستطع تصور من يمكنه تحمل هذه الواجبات ومنحه السلام الذي يتوق إليه أكثر من أي شيء آخر. وقد أزعجه هذا أشد الإزعاج. وقد ساهم في طقوس الجنازة بمزيد من التدبر والسخاء، على نحو يفوق أياً من أبنائه أو أحفاده.

في ذلك العام، ساد الاضطراب الدنيا، وأخرجتها عن رضاها عن نفسها سلسلة من التنبوءات عن أمور تتعلق بالدولة، وفي السماء تألق على نحو غريب نور الشمس والقمر والنجوم، بينما أوحت أشكال في السحب بنذير متواتر. وتضمنت مذكرات من خبراء في العديد من مجالات المعرفة ذكراً لأحداث غريبة ومثيرة للقلق. وقد عانى سموه وحده في قرارة نفسه من وجود فكرة لديه عن السبب في هذا كله[1].

كان المرض قد حل بنيافتها المنعزلة، منذ أوائل الربيع، وبحلول الشهر الثالث غدت حالتها خطيرة للغاية، إلى حد أن جلالته بادر إلى زيارتها. وقد كان أصغر سناً من أن يلزم الحداد بعمق على خسارة نيافته الراحل[2]، لكنه في هذا الوقت أفصح عن أسىً بالغ، إلى حد أن أمه أحست بتعاطف عميق معه. قالت: «لست أتوقع أن أنجو هذا العام، ولكنني لا أشعر حقاً بأنني في حال بالغة السوء، وحيث أنني لا أرغب في أن أبدو كأنني أعلن عن أي شعور مسبق عجائبي برحيلي، فإنني لم أبذل أي جهد يزيد على ما مضى من أجل سعادتي في الحياة المقبلة. وكنت قد حدَّثت نفسي بأنني ربما أزورك وأتحدَّث معك في هدوء عن الماضي. ولكنني نادراً ما أحسست بأنني في حال طيبة بما يكفي للقيام بذلك، ويا للحسرة، فإنني لم أفلح في نهاية المطاف في التخلي عن مخاوفي». تحدَّثت بضعف بالغ. كان هذا العام هو عامها السابع والثلاثون[3]، وتطلع إليها جلالته بأسف وحزن، فقد كانت على الرغم من ذلك في الازدهار الكامل لحسنها، وقد أقلقته بالفعل الشهور التي أمضتها طريحة الفراش، في عام يقتضي يقظة بالغة، وقد فزع لعلمه بأنها لم تتخذ أي إجراءات احترازية غير مألوفة على الإطلاق[4]. وكان قد أدرك حالتها أخيراً فحسب، وأمر

(1) الكوارث الطبيعية تحذير من اضطراب خطير في الحكم، فحكم الإمبراطور الحالي (رايزي) غير شرعي، حيث أنه بالفعل ابن جينجي.

(2) الإمبراطور كيريتسوبو، أبوه بحسب الظاهر والمعلن.

(3) عام اضطراب «ياكودوشي» خطر بصفة خاصة بالنسبة للمرأة، بحسب اعتقاد لا يزال سارياً.

(4) اجراءات لضمان طول العمر، مثل الصوم والتطهر والصلاة.

بإجـراءات مـن كل نوع تكفل إغاثتها. وبـدوره أحس جينجي بالقلق الشـديد من أنها على امتـداد شـهور افترضت، في رضا عـن الذات، أنها ليس لديها ما تشـكو منه غير الشـكوى المألوفة التي تعاني منها، ثم اضطر جلالته إلى إنهاء زيارته والعودة إلى قصره وسط العديد من الوداعات الحزينة.

حال الألم بين نيافتها المنعزلة وبين التعبير عما يخالجها بصورة جيدة. ولكنها أدركت، بنـاءً على تأمـل صامت ومتواصل، أنها بينما شـمخت علـى الآخرين جميعـاً في مصيرها الرفيـع ومجدها الدنيـوي، فإنها قد عانت أكثر منهم جميعاً في قرارة نفسـها كذلك. وعلى الرغم من كل شـيء. فقد بدا لها أنه من قبيل المأسـاة أن جلالته لم تكن لديه معرفة طفيفة قط بالحقيقة[1]، وساورها شعور بأن هذا الشيء سيثقل على روحها التعيسة للأبد.

من منظور مصالح بلاط جلالته فحسب، أحس جينجي بالحزن، لأن أعظم شخصيات هـذا البلاط قد تبعت إحداها الأخرى في مسـيرة الموت. وفي دخيلة نفسـه فإن حزنه كان يتجـاوز الحدود، ولـم تكن هناك صلاة أو طقس أهمل فـي التكليف بالقيام بأدائهما. جلبه العـذاب النابـع من عدم قدرته على أن يبلغها، مرة أخيرة، بكل ذلك الذي احتفظ به لنفسـه كل هذه السـنين العديدة، قرب سـتائرها القائمـة غير بعيد عن مرقدها، وهناك راح بسـائل وصيفاتها عن حالتها، وكانت كل المقربات منها هنالك، وأبلغنه بكل شيء.

قلـن: «لـم تكـف مولاتي مرة واحـدة عـن ابتهالاتها، خـلال كل هذه الأشـهر الأخيرة التـي ضعفت فيها صحتهـا، إلى أن دخلت منحدراً بالغ الخطـورة، بحيث أنها الآن ترفض حتى قطعة من ثمرة فاكهة، وليس هناك أمل بالنسـبة لها، لا أمل على الإطلاق». انخرطت الكثيرات منهن في البكاء.

تحدَّثـت نيافتهـا بصوت خافت للغاية إلى حد أن جينجـي لم يفهم إلا كلمات محدودة للغايـة ممـا نطقت به[2]: «أُتيحـت لي الفرصة غالبـاً لتقدير ما قمت بـه لجلالته، على نحو مـا طلـب منك نيافتـه الراحل، ولكنني أجلت قـول ذلك وقتاً طويلاً، لأننـي لم أعرف متى سيكون بمقدوري شكرك بحرارة على نحو ما وددت، والآن أخشى أن الأوان قد فات».

(1) حقيقة هوية أبيه.

(2) إنها تحادث وصيفة ستقوم بنقل كلماتها إلى جينجي.

لم يستطع جينجي الرد عليها، وبدت هيئته مثيرة للشفقة وهو يبكي. وراح يتساءل عن السر في أنه أظهر مثل هذا الضعف، بينما عيون الأخريات منصبة عليه، ولكنه في حقيقة الأمر كان قد تردى في هوة حزنه، وقد تغلب عليه عجزه ـ حيث أن الأماني لا طائل من ورائها ـ عن احتمال فقدان سيدة عرفها مثل هذا الوقت الطويل، سيدة سيفتقدها الجميع على نحو مؤلم كل بطريقته. قال: «لي فائدة محدودة، ولكنني بذلت قصارى جهدي على الدوام للقيام بما تمس الحاجة إلى إنجازه من أجله، ويعد بؤساً كبيراً أن أجدك في هذه الحال، في وقت علمني رحيل نيافته أن الكل باطل. ولست أظن أنني سأبقى طويلاً بعد ذلك». لفظت أنفاسها الأخيرة خلال حديثه، مثل وهج يحتضر، وتُرك وحيداً ليحزن عليها.

بين أولئك الذين كانت لهم أهميتهم المعترف بها حقاً، كانت هي التي احتضن لطفها الدنيا بأسرها، وعلى الرغم من أن قبول حماية القوي غالباً ما يعني استقطاب المتاعب كذلك، إلا أنها لم ترتكب أبداً أبسط هفوة من هذا النوع، حيث أنها لم تكن لتسمح لأحد في خدمتها بالقيام بأي شيء من شأنه إلحاق الأذى بالآخرين. وفيما يتعلق بالأعمال الطيبة، وفي ظل عهود الماضي الحكيمة، كان هناك أولئك الذين لدى الإهابة بهم بالقيام بذلك، يؤدون هذه الأعمال بعظمة وروعة، ولكن جلالتها لم تكن على هذا النحو. فقد أعطت كل ما كان بوسعها الاستغناء عنه من مواردها، أو العائد المستحق لها من وظائفها التي لا تؤدي مهامها، ومن دخول رتبها وتعويضاتها[1]، ولما كان سخاؤها ينبع على الدوام من القلب، فقد لزم الحداد عليها أكثر رهبان الجبل إيغالاً في صعوبة المراس[2]. وفي جنازتها ترددت في جنبات الدنيا صرخات الحزن الشامل. وارتدى جميع الوصفاء الخصوصيين السواد، وانتهى الخريف بالكآبة.

(1) تسوكاسا وكوبوري وميفو. ويعني تسوكاسا دخلاً للبلاط مستمداً من أتعاب دفعها أشخاص عُينوا فيما يُعرف بالوظائف العاطلة، وكان هذا الدخل يعاد توزيعه على شاغلي المناصب ذوي المراتب الرفيعة بمن في ذلك النساء. وكوبوري له مصدر مماثل. ويعني ميفو دخلاً مرتبطاً بمرتبة في البلاط، ومستمداً من عمل عدد محدد من البيوت.

(2) يامابوشي، ممارس بوذي متواضع المرتبة، غالباً ما يكون معالجاً، قد لا تكون تمت رسامته بصورة كاملة، وتدور ممارسته حول الجبال المقدسة.

بالنسـبة لجينجي، أعاد مشـهد شـجرة الكـرز أمـام داره الواقعة في نيجو ذكـرى الأيام الخوالي، مثل حفل تكريم البراعم[1]. غمغم محدِّثاً نفسه: «من أجل هذا العام، أتوسل»[2]، وانسـحب إلى معبده الخاص، خوفاً من أن يلحظه أحد، ليعكف على البكاء طوال النهار. تألقت الشـمس خيوطاً رماديةً من السـحب[3]. وكان هو الذي لم تعد لديه الطاقة لرؤية أي شيء، لا يزال متأثراً بعمق.

«خيوط السحب الرفيعة هذه المنتشرة فوق الجبال المتشابكة في سنا الغروب،

يبدو أنها ترغب في معادلة تدرج لونها بأكمام أقارب الراحلة».

قالها، ولكن يا للأسف لم يكن هناك من يسمعه.



راهب

ما أن انتهت الطقوس وعاد الهدوء، حتى ظل جلالته بلا عزاء. وقد حظي رجل دين بارز معين، كان قد خدم كلاً من نيافتها المنعزلة وأمها السامية كراهب ملحق بالقصر، بتقدير جلالته كذلك، حيث أنه كان أكثر الرجال قداسـة، وقد وفى بالعديد من النذور الإمبراطورية[4]. وفي السـبعين من عمره كان قـد مضى إلـى معتزل للإعداد لنهايتـه، ولكنه خرج منه مجـدداً للصـلاة مـن أجـل نيافتهـا المنعزلة، ثم اسـتجاب لدعوة جلالتـه لمواصلة البقاء في خدمته. وعندما اسـتحثه جينجـي بدوره على البقاء في الخدمة كذي قبل، وافق على ذلك، وقال:: «العناية الليلية[5] صعبة للغاية بالنسـبة لي الآن. ولكنني سأكرِّس فؤادي في القيام بها من أجلها، بحسب رغباتكم الأكثر سمواً».

(1) قبل اثني عشر عاماً، والوارد ذكره في فصل «تحت براعم الكرز».

(2) من كوكينشو 832، من نظم كاموتسوكي نو مينيو، ويتضمن إعراباً عن الحزن على وفاة فوجيوارانو موتوسوني: «آه، يا أشجار الكرز في سبخة فوكاكوسا، إذا كنت شفوقة، من أجل هذا العام، أتوسل، برعمي باللون الرمادي!».

(3) اللون الرمادي هو لون الحداد الرئيسي. الشمس الغاربة وراء الجبال تذكِّر جينجي بفردوس أميدا.

(4) كان قد أدى طقوساً وقام بممارسات أقسم الإمبراطور على القيام بها.

(5) تمثل واجب مهم من واجبات القائم بالخدمة في أن يظل مضطلعاً بالعناية طوال الليل، في غرفة قريبة من تلك التي يرقد فيها العاهل، بحيث أن هذا الأخير يحظى خلال رقاده بالتأثير الحميد لصلواته. وفي القصر كان الكهنة يؤدون هذه الوظيفة في فراغ صغير (فوتاما) يفصله حاجز فاصل عن وسادة الإمبراطور.

ذات ليلة هادئة، قُبيل الفجر مباشـرة، لم يكن هناك أحد آخر قائماً بالخدمة على مقربة، وكان بعـض القائميـن بالخدمة في طريقهم بالفعل للذهـاب إلى بيوتهم. وكان يتحدَّث مع جلالته في هذا الشـأن وذاك، متنحنحاً بين الفينة والأخرى، على نحو ما يفعل كبار السـن، عندما شرع في القول: «جلالتكم، لديّ أمور أود قولها، يصعب وضعها أمامكم، وأحسب أنني قد أجلب على نفسـي العقاب فحسب، إذا قمت بذلك، ومع ذلك فسيكون خطأ كبيراً بالنسبة لي ألا أقوم بذلك، وسوف أظل في رعب من عين السماء[1]، وفضلاً عن ذلك فلن يفيـدك بشـيء لو أنني أنهيت حياتي وهذه الأمور لا تزال حبيسـة فـي صدري». توقف عن الحديث، ولم يستطع حمل نفسه على المضي قدماً.

تسـاءل جلالته عما كان يقصده. أهو إذاً طريدة لندم موغل في الإيلام للغاية إلى حد أن مرارته قد تسـتمر بعد موته؟[2] يا للحسـرة، قد يكون راهب ما مقدسـاً ومع ذلك يضم هوة من الشر الغيور. قال: لقد أحسست بالاقتراب منك منذ كنت طفلاً، ويؤلمني أنك تكن مثل هذه الضغينة العميقة».

«أسـتميح جلالتكـم عفـواً، ولكـن طريقتـي هـي أن أنشـر لا أن أخفي أعمـاق الطريق الباطنـي، التـي كان حرياً ببوذا نفسـه أن يجعلنا نبقيها سـراً[3]. كيف يمكـن لقلبي أن يضم مثل هذه الأعماق المظلمة؟ لا، هذا موضوع بالغ الأهمية يؤثر على الماضي والمسـتقبل. والشـائعة الشريرة المتعلقة به، والتي قد تلحق الضرر بكل من نيافتهما الراحلين[4] وسموه الذي يحكم البلاد، قد تتسرب في نهاية المطاف. وراهب عجوز مثلي لا سبيل أمامه للندم مهما كانت المتاعب التي يجلبها على نفسه. إنني أتحدَّث عن هذا أمامك لا لشيء إلا لأن الحـراس[5] يرغبون في قيامي بذلك. يا مولاي العزيـز، لقد غمر البأس نيافتها الراحلة بعد

---

(1) لأن الإمبراطور سيواصل عندئذ تكريم الرجل الخطأ باعتباره أباه، وهكذا فإنه يقلب النظام الصحيح للعالم الإنساني، ويفتح المجال أمام اضطرابات لاحقة في عالمي السماء والأرض.

(2) ربما يكون رجل الدين البارز قد أضمر حنقاً بسبب عدم ترقيته بصورة كافية قط. وكانت هناك مرتبتان فوق المرتبة التي يشغلها رجل الدين البارز، على الرغم من أن الترقية إليهما في القرن العاشر كانت لا تزال نادرة.

(3) في البوذية الباطنية (ميكيو) يتم نقل معظم التعاليم من معلم إلى تابع أُعد على الوجه الصحيح، وتحذر النصوص الباطنية من إعطائها لمن لم يتم إعدادهم لذلك.

(4) الإمبراطور كيريتسوبو وفوجيتسوبو.

(5) الآلهة التي تحرس البوذات المستنيرة.

أن حملت بك، وأحست بأنها بحاجة إلى قيامي بأداء الصلوات، على الرغم من أنه لم يكن من شأني أن أحكم ما هي جلية الأمر. وقد تصاعد خوفها على نحو متزايد، عندما ساءت عاقبة كل شيء، واتهم سموه بصورة غير عادلة، فعهدت إليَّ بأداء المزيد من الصلوات، وعندما علم سموه بذلك أضاف المزيد من الصلوات من جانبه، وقد واصلت أداءها حتى جلوس جلالتكم على العرش. هذا هو ما أعرفه».

ألقت الصورة الحريصة التي رسمها بجلالته في غمار معاناة من الرعب، الدهشة، الأسف والخشية. وعندما ظل صامتاً، خشي الراهب العجوز من أن يكون قد أغضبه بالحديث، وشرع ينسل بعيداً، عندما ناداه جلالته مستدعياً إياه: «لو أنني لم أعلم بهذا قط لحملت الإساءة معي إلى الحياة المقبلة، ويقلقني قليلاً أنك لم تبلغني بالأمر من قبل قط. هل يعلم أي شخص آخر به؟».

«لا، يا مولاي. إنني وأميوبو الوحيدان اللذان لهما أي علم بالحقيقة. وهذا هو ما يخيفني[1]. وهذا هو السر في أن السماء تبعث الآن بالكثير من التحذيرات الكارثية على هذا النحو ولماذا تحفل الدنيا بمثل هذا الاضطراب. عندما كنت أصغر من أن تدرك جلية ما هنالك كان الأمر مختلفاً، ولكن الآن، قد بلغت سن النضج أخيراً، وأصبحت مؤهلاً لإدراك الأمور كافة، جليلها وهينها، فإن السماء تعلن إساءتك، وكل شيء يبدو أنه يبدأ بأبوي المرء، وإنني أخشى أنك قد لا تعرف أبداً طبيعة التجاوز الذي حدث، وهذا هو السر في أنني أبلغك ما كنت قد عقدت العزم على نسيانه». أطل النهار فيما كان عاكفاً على الحديث، باكياً، واستأذن في الانصراف.

ترنح ذهن جلالته تحت وقر الحقيقة الكابوسية، التي علم بها لتوه. ارتجف من أجل نيافته الراحل، وغلبه الإشفاق والاستياء لأن سموه يخدم البلاد باعتباره أحد العامة فحسب، وسبَّب هذان الهمان له معاناة بالغة للغاية إلى حد أنه لم يخرج إلا بعد أن علت الشمس في السماء. وقد جاء مرأى جينجي، الذي وصل في انزعاج عندما تم إبلاغه بأنه ليس على

(1) «لأن مسؤولية إبلاغك بجلية الأمر تقع على كاهلي وحدي». أوميوبو، وصيفة فوجيتسوبو سابقاً هي التي من خلالها وصل جينجي إلى فوجيتسوبو. وهي بحسبانها امرأة لن تتكلم أبداً، ولا يمكن اعتبارها مسؤوله بالطريقة ذاتها.

مـا يرام، صعباً في احتماله إلى حد بعيد، ولدى ملاحظة دموعه، افترض جينجي أنها دموع ذُرفت على نيافتها الراحلة، حيث أنه لزم الحداد عليها بعمق بالغ في ذلك الوقت.

في ذلك اليوم نفسه، رحل معاليه وزير شؤون المراسم، ولـم يضف هذا الخبر إلا المزيد إلـى حـزن جلالته على أن هـذه المتاعب قد حلت على الدنيا. وفـي ظل هذه الظروف ظل جينجي على مقربة من جلالته، بل لـم يكن بمقدوره حتى الذهاب إلى الدار. أشـار جلالته خـلال حوار هادىء: «يبدو عهدي بسـبيله إلى الانتهاء. إنني أحـس بأنني غريب وخائف، وقـد أثرت هذه القلائل على البلاد بأسـرها. وقد أحجمت حتـى الآن عن اتخاذ أي خطوة حاسمة، تقديراً لمشاعر نيافتها الراحلة، ولكنني كما تعلم أفضل حياة أكثر هدوءاً!..».

ردَّ جينجي: «ليس بمقدورك النظر في هذا، فالاضطرابات الراهنة لا صلة لها بالضرورة بما إذا كانت الحكومة منظمة بشـكل جيد من عدمه. وسـوء الطالع قد يحدث في ظل أكثر العهـود حكمـة. وحتى في كاثـاي فقد اندلعـت الاضطرابات بطريق الخطـأ في ظل حكم إمبراطـور حكيـم. وحدث ذلك فـي بلادنا أيضـاً[1]. وليس هناك حقاً من سـبب يدعو إلى القلق..»[2].

حشـد جينجي كل الحجج التي يسـتطيعها، ولكنني حري بي ألا أكـرر أياً منها[3]. وفي ثوب قاتم، يميل بصورة غير مألوفة إلى اللون الأسود، بدا شبيهاً تماماً بجلالته. وكان جلالته قد لاحظ منذ وقت طويل الشبه في مرآته، ولكن بعدما سمعه، وبعد التدقيق في محياه عن قرب أكبر، رغب بشـدّة في أن يفاتحه في الموضوع، لكن القيام بذلك كان من شـأنه بجلاء بالغ أن يثير ضيقه إلى حد أنه تراجع، على استحياء، عن الاقتراب من تناوله على الإطلاق، منطلقاً بدلاً من ذلك إلى موضوعات أكثر عادية، ناقشها معه بدفء شخصي على نحو غير مألوف. وبالنسـبة لعين جينجي اللماحة، فإن طريقته المراعية للمشـاعر بدت جديدة على نحو غريب، ولكنه لم يخطر بباله قط أن الحقيقة قد قيلت له بالفعل.

(1) ربما إشارة إلى نفي سوجوارا نو ميتشيزاني، الذي حدث في عصر إنجي (922؟ 901) في الحكم الرشيد للإمبراطور دايجو.

(2) المقصود وفاة المستشار ومعالي وزير شؤون المراسم.

(3) لأن أمور التاريخ والحكم ليس من شأن امرأة أن تناقشها.

كان جلالته تواقاً لسؤال أوميوبو، ولكنه لم يرغب في أن تكتشف أنه يعرف الآن سر أمه. حدَّث نفسه: لا، لسوف يلمِّح لسموه إلى جليه الأمر، ويسأله عما إذا كان التاريخ قدَّم أية أمثلة شبيهة، ولكن عندما لم تظهر مناسبة ملائمة، انغمس في دراساته بمزيد من الشغف، يفوق أي وقت مضى، لكي يقرأ بتمعن جميع أنواع الأعمال. وعلمته هذه الأعمال أنه في كاثاي كانت هناك اختلالات عديدة من هذا النوع، بعضها علني، والبعض الآخر خفي، وأنه ما من مثال من هذا النوع وجد في اليابان. وإذا كان شيء كهذا قد حدث، فكيف إذا كان قد أُخفي جيداً أمكن للمعرفة به أن تنتقل؟ نعم، كانت هناك حالات عديدة تم تعيين جينجي من الجيل الأول[1] مستشاراً كبيراً أو وزيراً فيها، ومضى الأمر إلى حد تعيينه أميراً، ثم في نهاية المطاف ارتقى إلى المرتبة الإمبراطورية[2]. وبحث جلالته إثارة مقدرة سموه الفائقة كمبرر للتنازل له عن العرش.

خلص، فيما بينه وبين نفسه، إلى أن جينجي سيتم تعيينه مستشاراً في إطار تعيينات الخريف، ولكنه عندما ذكر في هذا الصدد ما خطَّط له بالنسبة لنفسه، فإن جينجي المصدوم والمرعوب أبلغه بأنه لا مجال لأي شيء من هذا النوع. قال: «كان نيافته الراحل مسروراً لتفضيله إياي على أبنائه الآخرين، ولكن يقيناً لم يخطر بباله التنازل عن العرش لصالحي. كيف يمكنني الآن أن أتجاهل رغباته وأن أرتقي إلى مكانة تبعد عني كثيراً؟ لا، إن رغبتي الوحيدة هي أن أخدم البلاد على نحو ما قصد، وعندما تتقدم بي السن قليلاً أن أكرِّس نفسي لابتهالاتي في اعتزال هادىء». ولخيبة أمل جلالته الحادة، فقد تحدَّث عن هذا الموضوع على نحو ما فعل في السابق.

فضَّل جينجي تأجيل قبول تعيينه مستشاراً، على الرغم من تأكيد هذا القبول، ومن هنا فقد تلقى ترقية في الدرجة ومرسوماً يقضي بالسماح له بالقدوم إلى القصر والخروج

(1) ابن إمبراطوري، كان شأن جينجي الحكاية قد جُعل من العامة، وتم استبعاده من سلسلة من يحق لهم الجلوس على العرش.

(2) يورد شرح مبكر (كاكيشو، القرن الرابع عشر) الأباطرة كونين (781 - 709)، الذي حكم خلال السنوات 770 - 781 -، كانمو 806 737-)، الذي حكم خلال السنوات (781 - 608) وأودا 867 - 931)، الذي حكم خلال السنوات 887 - 897).

منه في عربة يجرها ثور[1]. ولم يرض هذا جلالته بحال، حيث أوفى أنه كان يعتقد أن جينجي ينبغي أن يصبح أميراً، ولكن جينجي تشكّك في أن أحداً في البلاط سيؤيد مثل هذه الخطوة. وإلى جانب ذلك، فإن القائم بأعمال المستشار قد أصبح لتوه مستشاراً كبيراً وقائداً للميمنة وما إن يرتفع عن ذلك خطوة، حتى يكون بمقدور جينجي أن يترك كل شيء له وأن يحيا في سلام بطريقة أو بأخرى.

أمعن جينجي التفكير في الأمر، وشعر بالأسف الشديد على نيافتها الراحلة، وبعد رؤيته الاضطراب الشديد الذي غمر جلالته، راح يتساءل عمن عساه يكون قد كشف السر له. وكانت أوميوبو قد انتقلت بعيداً لخدمة سيدة خزانة الملابس الجديدة، وكانت لها الآن غرفة في القصر[2]. وقد حادثها، وسألها عما إذا كانت سيدتها الراحلة يمكن أن تكون بالمصادفة قد ألمحت لجلالته إلى الأمر. فردت أوميوبو قائلة: «لا، كانت سيدتي خائفة من التفكير في أن أي إيماءة إلى الأمر قد تبلغ جلالته، حتى في غمار خوفها عليه من أن يعاني من جراء الإساءة». من جديد استشعر جينجي حنيناً جارفاً إلى مثل هذه السيدة الحكيمة بصورة فذة..

كان دعم جينجي للزوجة آيسي قد نجح بصورة رائعة، وحظيت بأعظم تقدير من جلالته. ولم يكن ينقصها شيء في جمالها ولماحيتها، ورعاها كما يرعى المرء كنزاً. وفي هذه المرة عاملها على نحو ما ينبغي للأب أن يعامل ابنته.

انهمر مطر خريفي في هدوء، عندما شق جينجي طريقه إلى حيث تقيم الزوجة آيسي، وتحرك قرب وفرة الحديقة من الألوان المثقلة بالندى، ليبل كميه، إحياء لذكرى كل ما كان. كان قد أعد نفسه بعناية، وبدا متألقاً تماماً في اللون الرمادي القاتم. وحجب جيداً

---

(1) كان من المألوف رفض التعيين في منصب بالغ السمو والرفعة (كمنصب المستشار أو نائب الإمبراطور) مرة أو مرتين قبل قبوله. وبدلاً من ذلك فإن جينجي يُرقى من المرتبة الثانية (المناسبة لمنصبه كوزير لشؤون القصر)، إلى المرتبة الأولى، الدرجة الأدنى، وهي المرتبة العادية بالنسبة للمستشار. وكان الإذن بدخول أراضي القصر في عربة يجرها ثور يمنح لأمير، نائب للإمبراطور، وزير رفيع الشأن للغاية، أو عضو بالغ الرفعة من أعضاء التراتبية البوذية.

(2) تمت قراءة هذه الجملة كذلك باعتبارها تعني أن أوميوبو نفسها قد عُينت سيدة خزانة الملابس. وسواء أكان هذا أو ذاك، فإن من المثير للفضول أن نجدها في الخدمة في القصر، بينما قد أصبحت راهبة، من وقت طويل، في الوقت نفسه الذي غدت خلاله فوجيتسوبو راهبة.

مسبحة صلاته ـ فهذه الأحداث المثيرة للقلق ترتب عليها الصوم مرات متتابعة، ومضى مباشرة عبر الستائر الحاجبة. حادثته بنفسها، من دون أن يفصل بينهما إلا ستار قائم.

استهل الحديث قائلاً: «اختفت كل التويجات من الحديقة. لقد كان هذا العام حزيناً للغاية، ولكنه من المؤثر أن الزهور على الرغم من ذلك تمتعت بألق موسمها». كان مصدراً للسرور أن يراه المرء مستنداً على هذا النحو إلى أحد الأعمدة، في ضوء الشمس الغاربة. وتحدَّث معها عن الماضي، وعن ذلك الفجر الذي وجد فيه أن من الصعب للغاية أن يغادر المزار القائم في السبخة.

لاحظت سموها مدى تأثره العميق. وأظهرت بدورها، ربما في معرض التعاطف، بوادر الدموع الأكثر جاذبية ورقة، وبدت أدنى حركة من حركاتها رهيفة ورشيقة على نحو باهر. يا للعار أنني لم أرها أبداً حقاً! تسارعت دقات قلبه في خبث.

«في الأيام الخوالي، عندما كان ينبغي أن أكون خلية البال، عرفت المعاناة بصورة مستمرة من جراء سلوكياتي العابثة، ومن بين من ألحقت بهن الأذى بإتيان أمور كان ينبغي ألا أقدم عليها، هناك بصفة خاصة اثنتان لم تستسلما لي قط، وماتتا وهما مفعمتان ألماً. كانت إحداهما، كما لعلك تدركين، هي أمك. وعند النهاية كان مزاجها سوداوياً، وهو الأمر الذي سأظل أشعر بالأسف عليه إلى أبعد الحدود، وكنت قد علقت الآمال على أنني قد أوفّر لها بعض العزاء بخدمتك على نحو ما فعلت، وباكتساب حسن النية من جانبك، ولكنني أخشى أن الدخان الذي انبعث من محرقتها ربما لا يزال باقياً على سواده حتى هذا الوقت». ولم يقل شيئاً عن السيدة الثانية.

واصل حديثه: «كل شيء أردت القيام به في تلك السنين، عندما لم يكن لي شأن يذكر، قد تحقق شيئاً فشيئاً. والسيدة المقيمة في الجناح الشرقي، التي أثارت ظروفها في وقت من الأوقات قلقي البالغ أصبحت في وضع آمن الآن. وبقدر ما هي لطيفة فإنني أنا وهي يفهم أحدنا الآخر، ولم يعد أحدنا يسبب المتاعب للآخر على الإطلاق. والآن وقد عدت فإن خدمة البلاد على النحو الذي أقوم به يعني القليل بما فيه الكفاية لي. وعلى الرغم من ذلك، هل لك في التلطف بأن تفهمي بأنني بينما أجد اندفاعي مما تصعب السيطرة عليَّ فإنني قد أحكمت السيطرة على نفسي في كل ما فعلته من أجلك. ولسوف أكون شديد الحزن إذا لم

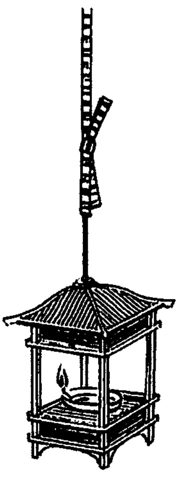
يكن بمقدورك أن تبادريني بكلمة تنمّ عن اللطف».

كانت سموها أكثر حرجاً من أن ترد.

انتقل بالحديث إلى موضوع آخر: «فهمت، آه، أنك بالغة القسوة! إن ما أريده الآن هو قضاء بقية عمري متحرراً من الأسى، وأن أكرِّس نفسي في عزلة للصلوات من أجل الحياة[1] المقبلة، ولكنني بالفعل آسف لأنني ليس لديَّ أي شيء حتى الآن أتذكر به هذه الحياة. في نهاية المطاف، لي ابنة، وعلى الرغم مما يشوبها من قصور وعيوب، فإنني أتوق إلى رؤية الكيفية التي ستكبر بها. اغفري لي ما سأقوله، ولكنني آمل أنك سترغبين في رفع مقام هذه الدار بمد العون لابنتي بعد رحيلي».

اجتذبته في رقة الطريقة التي ردت بها عليه ـ الإيماءة اللماحة في كلمة واحدة خالية من التصنع ـ وظل يتجاذب أطراف الحديث معها حتى المساء.

«بغض النظر عن آمالي الكبار هذه، فإنني أود الانغماس في مباهج الفصول، البراعم، ووريقات الخريف، والسماء تتبدل ألوانها. لقد قارن الناس منذ وقت طويل بين الغابات المزهرة في الربيع والتدرجات اللونية الجميلة لسبخات الخريف، ولا يبدو أن أحداً قرَّر قط أن يوضح أيها يستحق التفضيل بجلاء على غيرها. وإني لأسمع أنهم يقولون في الصين إنه ما من شيء يعادل زهور الربيع الموشاة، بينما في حديث ياماتو[2] فإننا نؤثر شجر الخريف، ولكنَّ عيني يفتنهما كل فصل بدوره، وليس بمقدوري التمييز بين المفضل في ألوان البراعم أو تغاريد الطيور. وفي خاطري أن أملأ الحدائق، مهما كانت صغيرة، بما يكفي من أشجار الربيع المزهرة للإيحاء بمزاج هذا الفصل من العام، أو أن أغرس أعشاب الخريف هنا، وأن أنقل معها صراري الليل، التي يذهب صوتها سدى في الحقول، ثم أعطي هذا كله لسيدة ما لتستمتع به. أيها تختارين؟».


قنديل معلق

لم تدرِ سموها ماذا عساها تقول. ولكنها لم يكن بمقدورها أن لا

(1) ربما كان يقصد طموحه لرؤية ابنته وهي الآن في الرابعة من عمرها تصبح إمبراطورة، وتلد وريثاً إمبراطورياً.
(2) الشعر الياباني، وبصفة خاصة شويشو 511.

تـرد عليه. «كيـف يمكنني الرد بأي طريقة مـن الطريقتين؟ ولكن بينهمـا، وعلى الرغـم من تعادلهمـا، فإنني سـأختار المسـاء، عندما أحس الشـاعر «بالمزيد على نحـو غريب» لأنني عندئذ سأحس بالقرب من الندى الذي يتبدد سريعاً»[1].

وجد جينجي تحفظها العفوي شديد الجاذبية، بحيث أنه لم يستطع منع نفسه من الرد:

«دعينا إذاً نتقاسم كل مشاعرنا الأرق، فههنا في فؤادي

أعرف، بدوري، كل حزن ريح المساء الخريفية.

هناك حقاً أوقات لا أستطيع احتماله فيها!».

ترى أين عسـاها تجد رداً؟ تظاهرت بأنها لم تفهم، وهو الأمر الذي لا شك أطلق لسانه في ألوان من اللوم العاجز، وأوشك على القيام بأمر أسوأ كثيراً، ولكن من الطبيعي أن الفزع اسـتبد بها، وأحجم هو نفسـه عن نواياه الصبيانية على نحو ممقوت. وبحلول ذلك الوقت كانت تسـتفظع حتى البهاء العميق لتنهداته. وأدرك أنها تتراجع بنعومة، شـيئاً فشيئاً، مبتعدةً عنه نحو الغرفة الداخلية. قال: «لقد اسـتقر في فؤادك بغض قاسٍ لي. أليس كذلك؟ وإنني أشـك في أن أي إنسـان لديه تعاطـف عميق على نحو أصيل سيسـاوره مثل هذا الشـعور. حسـناً. ولكن لا تكرهيني بعد هذا لطفاً! فذلك سيكون أمراً مؤلماً للغاية». ومضى مبتعداً. كرهت حتى العبير الرقيق الذي خلفه وراءه.

صاحت وصيفاتها، وهن يغلقن المصاريع: «إنه يستعصي عليَّ وصف ذلك العطر الذي لا يـزال عالقـاً بوسـادته! ترى كيف يفلح فـي أن يكون كأنما تفتحت فيـه براعم على فروع شجرة صفصاف ربيعية؟[2] رهيب، تلك هي جلية الأمر!».

مضى جينجي إلى الجناح الغربي، ولكنه بدلاً من الذهاب إلى هناك مباشرة، راح يحدِّق معتكر المزاج أمامه، ثم جلس قرب الشرفة. أمر بتعليق مصابيح على مسافة منه، واستدعى الوصيفات ليتجاذب معهن أطراف الحديث. ورغماً عنه لم يستطع مقاومة إدراك أن عادته

(1) من أمها. كوكينشو 546: «كل الأوقات سواء لأنني أحبك فيها جميعها، ومع ذلك، في مساء خريفي لكم أشعر بالمزيد على نحو غريب!».

(2) جوشويشو 82: «لكم يسعدني أن تكون لي براعم كرز تفوح منها رائحة براعم برقوق متفتحة على فروع شجرة صفصاف ربيعية!».

القديمـة، تكبـد ألوان المعاناة من أجل رغبات مسـتحيلة، كانت لا تـزال تواكبه. وكان هذا شـيئاً غيـر جدير به. ولـم يكن هذا راجعاً إلى أنه لـم يقم بما هو أسـوأ من ذلك كثيراً، ولكنه ذكَّر نفسـه بموضوع مغامراته المبكرة وأن الآلهـة والبوذات لا بد أنها قد غفرت له أخطاءه التـي ارتكبها في شـبابه الطائش، وذكَّرته هـذه الخاطرة بكيف أنه يفهم الآن بشـكل أفضل مخاطر هذا الدرب.

استشعرت سموها، وقد جللها الشعور بالخزي، الندم على أنها ردت عليه، كأنها كانت تعـرف الطبيعة المؤثرة للخريف، واتهمت نفسـها، في مرارة بالغـة، إلى حد أنها بدأت في الشـعور بأنها ليست على ما يرام. في غضون ذلك، ظل جينجي رابط الجأش بصورة تامة، وتصرف على نحو أبوي أكثر من ذي قبل. قال لمحبوبته: «إن فؤاد سموها يفضِّل الخريف على نحو مؤثر، بينما منحت أنت قلبك، على نحو يمكن تفهمه، للفجر في الربيع. وأود أن أقيم لك من أجل إدخال السرور إلى نفسك حفلات موسيقى تتناسب مع نباتات كل فصل وزهوره». وقال مجدداً: «لا يناسـبني أن أكون مشـغولاً للغاية بالأمور، سـواء أكانت أمور الحكم أم أموري الخاصة، فلا بد لي من أن أتدبر العيش كيفما يطيب لي. قال أيضاً: «إنني أحس بالقلق عليك، وأتصور أنك لا بد أنك تشعرين بوحدة بالغة».

مضى يتسـاءل بصورة مسـتمرة أيضاً عن حالها في تلك القريـة الجبلية، ولكنه وجد أنه مـن الصعوبـة البالغة الوصـول إلى هناك لأنه غدا أقـل حرية في التحـرك[1]. ويبدو أنها قد استسـلمت لفكرة أنها لا جدوى منها بالنسـبة لي. هكذا حدَّث نفسه. لماذا يتعين أن تكون مكتئبـة علـى هذا النحـو البالغ؟ لو أنها كانـت ترفض الانتقال إلى هنا لأنها تخشـى من أن تتعـرض لـلإذلال، فهي إذن لا تفهـم وضعها. كان لا يزال يشـعر بالأسـف عليها، ومضى لزيارتها تحت ستار تضرعاته الشهرية لأميدا.

مـن شـأن الحيـاة في مثـل هذا المـكان المنعـزل، بمـرور الوقـت، أن تحيل أي شـيء إلـى عـبء أكثـر كآبة، وهكذا فإنه كان عذاباً بالنسـبة لهـا أن تراه، لأن ذلـك يذكرها بمدى قـوة الصلـة المؤلمـة بينهمـا حقـاً. وقد وجد جينجـي، الـذي أدرك ذلك بوضـوح، أن من

(1) حدت ترقيته، التي تلقاها أخيراً، من حرية حركته من جديد.

المستحيل أن يدخل العزاء على نفسها. مشاعل صيادي السمك[1]، التي تتراءى من خلال الأشجار الكثيفة، تختلط على نحو جميل مع الحُباحُب على امتداد غدير الحديقة. قال: «كنت ستقدرين هذه النوعية من المشاهد أكثر من ذلك بكثير لو لم تكوني معتادة عليها بالفعل».

ردت قائلة:

«المشاعل التي تعيد التذكير بمشاهد لا يمكنني نسيانها، للأنوار عند البحر،

ربما كان معناها أن همومي أقبلت مبحرة ورائي فحسب.

على الأقل فإن أحزاني لا تزال هي نفسها».

قال في معرض رد اللوم إليها:

«لست تعرفين بعد أي ألسنة لهب من الإخلاص الصادق تتقد في فؤادي،

ربما كان هذا سر اهتزاز سنا مشاعلك.

من الذي قال لك إن الحياة حزينة للغاية؟». كان يحس بالسلام في هذه الأيام، ولذلك فقد استمتع بعطلاته القدسية، وبقي في أوي وقتاً أطول من المعتاد. وربما جعلها ذلك تحس بأنها أفضل كثيراً.

(1) كاجاريبي، نار حطب تُحتوى في أقفاص حديدية، يرفعها صيادو طائر الغاق المائي عالياً على النهر، لاجتذاب السمك.

20

أساجاو

زهرة الجُريس الزرقاء أساجاو (زهرة الجُريس الزرقاء)

هي زهرة مرتبطة منذ «شـجرة الـوزّال» بتودد جينجي إلـى الأميـرة، التي تبرز فـي الفصل الـذي يحمل هذا العنـوان. وشـأن عنـوان الفصـل، فإنها تشـير بشـكل خـاص إلى تبـادل للقصائـد بينها وبيـن جينجي، بعد فشله في خطب ودها.

الصلة بالفصول السابقة

يواصل «زهرة الجُريس الزرقاء» أحداث «خيوط سحابة»، حيث يغطي خريف العام نفسه وشتاءه.

الشخوص

سمو وزير القصر، جينجي، 32 عاماً.

سعادة كاهن كامو السابقة (أساجاو).

سمو الأميرة الخامسة، عمة أساجاو.

سينجي، وصيفة أساجاو.

سيدة العاملين في القصر السابقة، بمعية الأميرة الخامسة، 70 إلى 71 عاماً (جين نونيشي).

السيدة في جناح جينجي الغربي، 24 عاماً (مورا ساكي).

كانـت كاهنة كامو قد اسـتقالت لأنها في حداد[1]، وقد بعـث إليها جينجي، الذي كانت خاصيته كالمعتاد ألا ينهي خطباً للوداد كان قد بدأه، برسائل متابعة، لكنها تذكرت المتاعب التـي تعرضـت لها معه قبـلاً، وأبقت ردودها على نحو صارم في الإطار السـليم، فسـاوره شعور حاد بخيبة الأمل.

وقد سـمع، في الشـهر التاسع، بأنها عادت إلى دار أبيها في مومozونو، ولما كانت تلك الـدار هي مقر إقامة الأميرة الخامسـة، فقد مضى إلى هناك متعلـلاً بزيارتها[2]. وكان نيافته الراحل يُقدِّر كثيراً كلاً من سموهما، ويبدو أن جينجي كان لا يزال على اتصال بالعديد من مثل هذه السـيدات، كانتا تتقاسـمان الدار الرئيسية، شرقها وغربها. وإن كان المكان هادئاً، وبدا بالفعل أن حالة جينجي قد ساءت.

استقبلته الأميرة الخامسـة، وتجاذبت أطـراف الحديث معه. ولما كانـت عتيقة الطراز فـي سـلوكها، فقد كانـت تميل إلـى النحنحة. كانت زوجـة معاليه[3]، الأخـت الكبرى من الأختيـن، قد أفلحت دوماً على نحو يثير الإعجـاب في تجنب أن ينم مظهرها عن عمرها. ولكـن هـذه الأخت لم تفلح في ذلك، بصوتها الغليـظ الأجش، وهكذا كانت كل منهما ما صاغتها حياتها عليه.

قالت: «كان انقضاء أجل نيافته الراحل ضربة قاصمة، والآن وقد غادرني معاليه بدوره، فيمـا السـنون تجعلنـي أميـل أكثر فأكثـر إلى الغرق فـي الدمـوع، فإنني أمضـي متوانية في مسيرتي، من دون أن أدري ما إذا كنت أحيا أم لا، لكن هذه الزيارة الكريمة منكم قد تسمح لي بنسيان ما أنا فيه الآن.

قـال جينجي محدِّثاً نفسـه: لقـد أوغلت في العمر كثيـراً، ولكنه حافظ علـى الرغم من ذلك على أسـلوبه المعتاد فـي الحديث. قال: «بعد وفاة نيافته الراحـل، وتغير الدنيا بطرق عدة بحيث لم تعد على حالها، وجهت لي اتهامات ظالمة، فمضيت أضرب في أراض غير

(1) توفي والد أساجاو، معالي وزير شؤون المراسم، في الفصل السابق.
(2) يعتقد أن مومozونو هي بقعة تقع إلى الشمال من إتشيجو («الجادة الأولى») وإلى الغرب من جادة أوميا. والأميرة الخامسة هي عمة أساجاو (الأخت الأصغر لأبيها).
(3) والدة أوي (أوميا).

مألوفة، إلى أن أتاح حظ طيب نادر رضاء جلالته بالاعتراف بوضعي مجدداً، الأمر الذي لم يترك لي بعدئذٍ إلا وقتاً قليلاً لنفسي، بحيث أنني أحسست على الدوام بالأسف للحيلولة بيني وبين زيارتك والحديث عن الماضي».

«آه، كان ذلك فظيعاً، ولأسباب عديدة ضقت ذرعاً بالاستمرار في العيش على هذا النحو، من دون أن يتغير شيء، عندما أظهر كل من النكبتين[1] مدى قلة الثقة التي يمكن للمرء أن يمنحها للدنيا، ومع ذلك فإنني أعرف جيداً جداً من بهجة رؤية عودتك إلى مكانتك مجدداً مدى أسفي لعدم سماع المزيد عنك بعد تلك السنين». بدأت في الارتجاف: «أي رجل رائع المظهر أنت الآن! عندما عرفتك لأول مرة طفلاً أدهشني أن مثل هذا الضياء المتألق قد جاء إلى الدنيا، وعندما كنت أراك عقب ذاك كان الخوف يستبد بي عليك. يقول لي الناس إن جلالته يشبهك كثيراً، ولكنني لا يمكنني أن أصدق أنه تمكن مقارنته بك حقاً!».

مضت تثرثر وتثرثر، وحدَّث جينجي نفسه متفكهاً بأن المرء لا يشيد بأحد في وجهه على ذلك النحو: «على الرغم من ذلك، فإنني لست على الإطلاق ما كنت عليه في السابق، بعد كل تلك السنوات البائسة التي أمضيتها كريفي جبلي. وما من أحد يمكن أن يكون في وسامة جلالته، وهو يتبدي لي أعجوبة، لا، أخشى أنك على خطأ تماماً».

بكت مرة أخرى، وهي تقول: «حياتي هذه الممتدة حد السأم قد تدوم وقتاً أطول، لو كان بمقدوري أن أراك بين الحين والآخر فقط. إنني أشعر اليوم كأن الكهولة قد نُسيت، وكل هموم هذه الدنيا الحزينة قد تبددت. كانت الأميرة الثالثة[2] محظوظة للغاية لاكتساب هذه الصلة الجديدة القيمة بك[3]، وإني لأحسدها على كل هذا القرب منك. وغالباً ما كان معاليه الراحل يستشعر أسفاً مماثلاً»[4].

لفتت هذِه العبارة الأخيرة انتباهه، فقال مقطباً: «كان الحريّ بي أن أكون سعيداً الآن لو أنني تمكنت من خدمته بتلك الطريقة! ولكن أياً منهما لم يقبل بي».

---

(1) وفاة الإمبراطور كيريتسوبو ونفي جينجي.
(2) أم أوي، أوميا.
(3) يوجيري، ابن جينجي وأوي.
(4) على أن جينجي لم يتزوج ابنته، أساجاو، قط.

ألقى جينجي نظرة على امتداد الجانب الآخر من الجدار، فلاحظ بصفة خاصة كم كانت بديعة النباتات الذاوية، وتاق في كثير من التعاطف إلى معرفة كيف تمضي الحياة بها، وكيف تبدو في غضون الكآبة الممتدة لأيامها. ولم يعد بوسعه أن يقاوم أكثر من ذلك، فقال: «ينبغي حقاً أن أزور هناك أيضاً. لن يكون لطيفاً مني أن أدع الفرصة تنقضي بينما أنا هنا لرعايتك بالفعل». مضى قدماً إليها على امتداد الشرفة. كان الظلام قد حل. ولكن ما لمحه عبر الفتحات بين الستائر الحاجبة الرمادية والستائر السوداء كان مبهجاً تماماً، كما هي حال العبق اللطيف الذي انسل نحوه من الداخل. وسمح له بالدخول إلى الجناح الجنوبي، حيث أنه لم يكن بالإمكان تركه في الشرفة. حدَّثته سينجي، ونقلت رسائله.

قال لها بأسف: «يجعلني وجودي خارج الستائر الحاجبة أحس بأنني شاب من جديد. وحسبت أنك ستسمحين لي بالمرور عبرها، أخذاً في الاعتبار ولائي على امتداد كل سنوات خدمتك المقدسة».

ردت: «ذلك الماضي حلم كله، والآن وقد انتهى. فإنني أتساءل في النهاية عما إذا كان بمقدوري أن أوافق. آمل أنني قد يكون بمقدوري أن أتأمل أكثر مما فعلت حتى الآن ولاءك».

مضى جينجي يتأمل: نعم، إنها دنيا غدَّارة حقاً[1].

«فيما انتظرت صامتاً إلى أن أقر الرب أخيراً رغبتي،

كم من اللحظات المريرة جعلني فتورك أتحملها!

إنني أتساءل أي حظر إلهي تقصدين التعلل به هذه المرة. لقد حاقت بيَّ كل أنواع المتاعب، منذ اضطررت إلى تكبد تلك المحنة. ليس بمقدوري البدء في إخبارك..». كان يضغط عليها، وكان موقفه ألطف وأكثر حساسية مما كان عليه في الماضي إلى حد ما، وعلى الرغم من سنوات عمره، التي انقضت منذ ذلك الحين، فإن موقفه ظل مما لا يليق برجل في مكانته.

(1) تحدَّثت أساجاو لتوها عن كونه بالمعنى الحرفي «صعباً أن تقرر» (ساداميجاتاكو هابيرو ني) ما إذا كانت ستمنح أم لا جينجي الحرية التي يحس بأنها من حقه، والآن ها هو جينجي يلتقط الكلمة ذاتها، ولكن في تعبير ثابت (ساداميجاتاكي يو) مختلف تماماً في النتيجة والطابع العام.

ردت قائلة:

«لو أنني طلبت منك بأبسط الطرق كلمة عن أحزانك،

لا تهمني الرب بانتهاك حرمة قسمي».



حجر الحبر

قال محتجاً بفتنة ساحرة: «آه، إنك قاسية! لقد مضت ريح السماء بعيداً بخطاياي من تلك السنين».

«مولاي، كيف تحسب أن الآلهة تنظر إلى تطهرك؟»[1].

أحست سعادتها بالضيق كثيراً من هذا التفسير الذي أدلت به وصيفتها، فالسنوات الماضية لم تزد تحفظها العميق إلا تأكيداً، وجعل عدم قدرتها على الرد وصيفتها تحس بعدم الارتياح الشديد.

انبعث واقفاً، وهو يتنهد بعمق، وقال: «إنني أخشى أن حديثنا قد تحول إلى تودد للنساء. وهذا محرج في سني، وأعتقد أن معاملتك لن تخولني أن أطلب منك أن ترى الآن ما الذي أصبحت عليه»[2]. قال ذلك وانطلق بعيداً، تاركاً وراءه، كالمعتاد ضجيجاً حافلاً بالإشادة به. كان هذا موسم السماوات الجميلة، وعلى حفيف وريقات الشجر، مضت سعادتها تتأمل فترات تستغرقها من ماضيها، وتذكرت كم كان مسلياً تماماً في أوقات وكم كان مؤثراً بعمق في أوقات أخرى.

بعد أن غادر جينجي الدار بمثل هذا التجهم، كان من الطبيعي أن يرقد وقد جافاه النوم، وكان قد أمر برفع المصاريع في وقت مبكر، ومضى يحدِّق في غمام الصباح. ازدهرت أزهار الجُريس الزرقاء وحيدة هنا وهناك وسط الزهور المحتضرة، والتقط زهرة جميلة منها بصفة خاصة! وبعث بها إليها، وكتب يقول: «كان مجمل معاملتك لي مذلاً، وإني لأرتجف لدى تخيلي بأي عينين أبصرتني أغادر، ومع ذلك:

(1) كوكينشو 501 (أو آيسي مونوجاتري 119، القسم 65) : «هكذا حتى أقلع عن الحب، فقد سعيت إلى التطهر في نهر ميتاراشي الذي لم تتقبله الآلهة في نهاية المطاف».

(2) جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إينو واكا 157: «فيما أمر ببوابتك الآن، أقبلي وانظري ما الذي أصبح عليه الرجل الذي يهواك!».

أيمكن حقاً أن زهرة الجُريس التي عرفتها ولا يمكنني نسيانها،

لم تعد تعكس الازدهار الذي كان لها في أيام خلت؟

أحسب أنك ستنتظرين بعطف إلى سنواتي الكثيرة».

كانت رسالة حكيمة، حسنة المقصد، وأدركت أن عدم الرد عليها قد يورده حتفه. وفي غضون ذلك جلبت لها وصيفاتها محبرتها الحجرية.

كتبت تقول:

«نعم الخريف ولى، ومتشابكة في سور ضربته غمامات كثيرة

تشحب زهرة الجُريس الزرقاء وتذوي كأنما لم توجد هناك قط .

في عيني دموع، وصورتك تناسبني تماماً». كان ذلك كل ما هناك. ولم يكن هناك شيء مميز في الرسالة، ولكن لسبب ما وجد أن من المتعذر أن يدعها من يده، ربما كان ما أبهجه الخطوط اللينة لفرشاتها على الورق الأزرق الرمادي. المرء يوفق بين كلماته وطبيعة الكاتب وأسلوبه، والملاحظات التي تعد حميدة في وقت ما قد يتبين أنها مزعجة، عندما يسعى المرء بصورة محتملة إلى نقلها، وهذا هو السر في أن هناك العديد من الأشياء التي قمت بتجميعها معاً، والتي قد يجافيها الصواب في يسر.

ساور جينجي الشعور بأنه سيكون مما لا يليق به أن يتحول مجدداً إلى كتابة رسائل مفعمة بمشاعر الشباب إليها، ولكن فكرة إهدار كل هذه السنوات العديدة بينما هي تواصل الإحجام عن رفضه تماماً جعلته يقرر ألا يستسلم لليأس، ولجأ إلى التودد بالغ الحرارة[1].

مضى إلى جناحه الشرقي، واستقدم سينجي إلى هناك للحديث معها. امتدحت بعض نساء سعادتها ـ تلك النسوة اللواتي كن فيما مضى على استعداد لأن يمهدن أمام أي رجل دربه، حتى وإن لم يكن يتمتع بمكانة رفيعة ـ جينجي على نحو يتجاوز كل منطق، لكن سيدتهن كان قد سيطر عليها الفتور ناحيته منذ وقت طويل، والآن أصبح عمرها ووضعها يثبطان كل الاتصالات. وإذ كانت لا تزال ترد بالمثل على الرسائل التي تردها حول زهرة

(1) كل منهما ابنة الأمير.

صبيانية، فإنها مع ذلك كانت تخشى أي شيء قدُ يطلق الأقاويل من عقالها، ولم يرد منها ما يشير إلى لينها. وهكذا جعلتها استمرارية حزمها التي دامت طويلاً تبدو لجينجي بخلاف أي امرأة أخرى في الدنيا، ودافعة للإعجاب وللجنون في آن.

تسرب الأمر، على أي حال، وقال الناس: «إنه يخطب ود كاهنة كامو السابقة، والأميرة الخامسة لا تبدي اعتراضاً. هذان الاثنان يليق أحدهما بالآخر». وبلغ هذا الحديث مسامع السيدة المقيمة في الجناح الغربي. حدَّثت نفسها في أول الأمر: لا، لن يخفي عني هذا النوع من الأمور، ولكنها بدأت بعد ذلك في الانتباه له، وأزعجها أن تجده قلقاً على نحو غير معتاد. حدَّثت نفسها: هكذا فإنه ينحي جانباً، ضاحكاً، شيئاً يلزم حياله الجد التام! إنني مناظرة لها بحكم الميلاد، لكنها تتمتع بسمعة مميزة، وحظيت على الدوام بأعظم تقدير. لسوف أضيع إذا تحولت مشاعره إليها. هل سأنحى جانباً إذاً بينما لم تكن لي منافسة جدية من قبل قط؟ نالها في قرارة نفسها اضطراب عظيم. ربما لن يبعدني عنه كلية، ولكن حتى إن كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن تتحول كل هذه السنين من بقائي مقربة للغاية منه، بينما لم يكن فيَّ ما يقتضيه القيام بذلك، إلى ازدراء وإهمال. ولم تفصح عن شيء على الإطلاق، فيما كانت تحس بالألم الشديد. كان جينجي غالباً ما يجلس غارقاً في أحلام اليقظة قرب الشرفة، أو يبقى بعيداً في القصر، أو يمضي وقته في كتابة الرسائل بحيث أنه بدا هناك قدر كبير من الأقاويل. لو أنه يقول شيئاً فقط! هكذا مضت تحدِّث نفسها، وقد سيطر عليها الإحساس بالكراهية تجاهه.

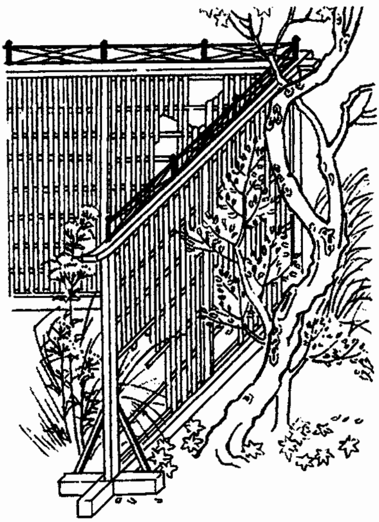
أُلغيت طقوس تكريم الآلهة(1). وذات مساء عقد جينجي العزم، وقد قهرته الساعات الخاوية، على القيام بواحدة مما يسمى بزياراته للأميرة الخامسة. كان الغسق جميلاً، والثلج يتساقط غزيراً، وكان قد أمضى النهار في ارتداء ملابس ناعمة على نحو جذاب بعناية خاصة، وتعطر حتى لفه العبير، ويتساءل المرء أكثر من المعتاد كيف يمكن لأي امرأة حساسة أن تقاومه.

مع ذلك فقد أتى لتحيتها. وقال وهو يرتكز على ركبة واحدة: «نما إلى علمي أن الأميرة الخامسة ليست بعافية، وفكرت في أن أعودها». ولكنها حتى لم تلق نظرة واحدة

---

(1) لأن البلاط كان في حداد على فوجيتسوبو.

عليه. وأوحى الملمح الجانبي لمحياها، وهي تلاعب صغيرتها بدلاً من النظر إليه، بأن هناك شيئاً ليس على ما يرام، فقال: «إنك تبدين على نحو غريب بخلاف ما أنت عليه عادة، في هذه الأيام. وأنا لم أفعل شيئاً. لقد بقيت بعيداً بعض الشيء لأنني حسبت أنك قد تجدين رداء حرق الملح ذاته كئيباً الآن[1]. ترى ماذا عساك تدركين من ذلك الآن؟».



سياج محطم في الحديقة

«الألفة غالباً ما تولد الازدراء». قالتها مؤكدة، وقد أدارت ظهرها نحوه، لم يحب تركها على هذا النحو، ولكنه انطلق خارجاً على أي حال، حيث أنه كان قد أبلغ سعادتها بقدومه بالفعل.

رقدت هنالك، محدِّثة نفسها: كم كانت ساذجة على الدوام. بدا جينجي أكثر وسامة من أي وقت في أرديته المتناسقة، وفيما راحت تراقبه وهو يمضي خارجاً، وقد أنار الثلج قوامه الرشيق على نحو رائع، اعتصر الألم فؤادها على نحو لا يحتمل، من جراء التفكير في أنه كان بسبيله إلى هجرانها حقاً.

لم يضم الجمع المرافق له إلا الأتباع الذين يمنحهم ثقته، أبلغهم بقوله: «لم أعد أكترث بالذهاب إلى أي مكان إلا القصر، لكن الأميرة الخامسة في محنة محزنة، وعلى الرغم من أن بمقدوري الوثوق بوزير شؤون المراسم في العناية بها وهي لا تزال على قيد الحياة، إلا أنها الآن، ويا للحسرة، ترغب في التحول إليَّ على نحو لا يمكن تفهمه». وقال الشيء نفسه لنسائه.

تهامسن فيما بينهن: «آه، هلم الآن! إنه عاشق كعهده أبداً، يبدو أن ذلك هو عيبه الكبير، ولسوف يعرِّض نفسه للمتاعب».

---

(1) «حسبت أنك ربما تسأمين قليلاً من رؤيتي طوال الوقت» يومىء جينجي إلى الفن الشعري الشائع المتعلق بالفتاة صانعة الملح المهجورة، التي يعد رداء حرق الملح الخاص بها «شيوياكي - جورومو» كذلك من خلال تلاعب بالكلمات هنا، توقها الإيروتيكي.

سيكون مما يحط من قدر جينجي أن يدخل من البوابة الشمالية، التي تعج بالحركة، ومن ثم فقد بعث برجل عبر البوابة الغربية الرسمية، ليعلن مقدمه، فأمرت سعادتها بفتحها، وقد أُخذت على غرة، حيث أنها لم تعد تنتظر قدومه في ذلك اليوم. لم يستطع حارس البوابة، الذي أخذته الرعدة، واندفع خارجاً، تحريكها في التو، ولم يبد أن هناك من يساعده في ذلك، فدمدم وهو يجتذبها محدثاً جلبة: «القفل نهشه الصدأ، ولهذا فإنها لن تنفتح»[1]. أحس جينجي بالشفقة عليه. وحدَّث نفسه قائلاً: ما أشبه الليلة بالبارحة، وكان ذلك قبل ما يزيد على ثلاثين عاماً. آه، يا للحياة! ولا زلت أتشبث بهذا المقر العابر وأهب فؤادي لجمال النباتات والأشجار[2]. راح يدندن لنفسه:

«إني لأرى الدار وقد آذنت بالاختفاء جد مسرعة وسط الأعشاب

وثلوج سنوات عدة تثقل سور الحديقة» .

انفتحت البوابة بعد الكثير من الشد والجذب، فدخل إلى الدار.

تجاذب أطراف الحديث حول الماضي، كالمعتاد مع سعادتها، في الركن الخاص بها من الدار، ومضت تثرثر وتثرثر على نحو متطاول حد السأم عن الأيام الخوالي، ولكن داعبه النعاس عندما لم يُثر شيء مما سمعه اهتمامه، وشرعت هي نفسها في التثاؤب. قالت: «النعاس يغالبني هذا المساء، فلا أكاد أستطيع الحديث إلا بالكاد». وربما كان الصوت الغريب الذي سرعان ما أعقب ذلك هو صوت غطيط. ساوره الشعور بالسرور، فانبعث واقفاً، وكان بسبيله إلى الخروج، عندما أقبلت أخرى، وهي تتنحنح بطريقة قديمة تماماً. قالت: «أستميحك عذراً. حسبت أنه ربما تم إبلاغك بأنني هنا ولكنني أرى أن ذلك ليس له تأثير لديك. لقد اعتاد نيافته الراحل الضحك مني ومناداتي بالجدة الفاضلة».

نبَّه هذا اللقب ذاكرة جينجي. نعم، كان قد سمع بأن هذه السيدة التي كانت تعرف بـ«سيدة العاملين في القصر» قد أصبحت منذ ذلك الوقت راهبة، وتؤدي صلاتها تحت

---

(1) تستحضر كلمات حارس البوابة قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشي رمونجو 2932).

(2) «هذا المقر العابر» هو مقر الروح المؤقت المتخذ من اللحم في هذه الحياة، ولكن من غير الواضح ما الذي يشير إليه «ما يزيد على ثلاثين عاماً». ربما كان التعبير الأصلي مما يذهب مثلاً للسرعة التي يتراجع بها الموت إلى رحاب الماضي («مات سعادته هذا الصيف، وها هي بوابته قد أوصدها الصدأ بالفعل»)

رعاية سعادتها، ولكنه دهش، حيث لم يكن خطر بباله قط أن يتساءل عما إذا كانت لا تزال على قيد الحياة. قال: «يسعدني كثيراً أن أسمع صوتك، حيث أن عهده ينتمي إلى الماضي، وكل تلك الذكريات البعيدة التي تدور حوله تجعل المرء حزيناً أشد الحزن! لطفاً اشمليني برعايتك كما ستشملين اليتيم الواقع إلى جوار الطريق!»[1].

مضى بها قوامه المقبل ملتفاً بالعتمة إلى هاتيك الأيام. تظاهرت بالخفر المنتمي إلى تلك الأيام الخوالي مجدداً. وانطلقت في هذرها مثرثرة بصوت بدا جلياً أنه ينبعث من فم أهتم مغضن. تكلفت الابتسام، قائلة: « شكوت دوماً..»[2]. يا للجرأة! لم يستطع الحيلولة دون ابتسامة حيال كونه الآن رجلاً تقدم به العمر، ولكن قدرها هزه إلى حد الشعور بالشفقة عليها في الوقت نفسه. لا شك في أن بعض الزوجات والمقربات اللواتي كن منافسات في ريعان شبابها قد اعتامهن الموت وأخريات نُحين في عجز ضائعات في دنيا قاسية. انظر في أي عمر كانت نيافتها الراحلة عندما طرق الموت بابها! لا، كانت الحياة بالغة القسوة. إنه هو نفسه لم يبق أمامه الكثير، وها هي الآن تبدو عجوزاً متصابية، لا تزال على قيد الحياة، تتابع في هدوء صلواتها. آه، يا لغدر هذه الدنيا! غير أن ما بدا عليه من شرود كان، بالنسبة للجدة، ناطقاً بعاطفة رقيقة، فأحست بأنها شابة من جديد وقالت:

«بعد كل تلك السنين لا زلت لا أستطيع نسيان ما تقاسمناه،

أو ذلك الاسم (أم الأم) الذي منحني إياه» .

قال في اشمئزاز:

«ما إن تبعثي، انتظري فرصتك وانظري ما إذا كان في هذه الحياة

مضى أحدهم موغلاً إلى حد نسيان أمه!

آه، الصلة بيننا دائمة، يقيناً! لا بد لنا من حديث هادىء في وقت آخر»[3] وبقوله هذا

(1) شويشو 1350، تنسب إلى الأمير شوتوكو: «يا حسرة المسافر، فهناك يتيم مسكين يرقد متضوراً على جبل كاتوكا!».

(2) «على الرغم من أنني موغلة في العمر، فإنك بدورك أكثر إيغالاً فيه. [وهكذا فإننا معاً الآن على المركب ذاته]». جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إنيو واكا 160: «شكوت دوماً مصيري الحزين، لكنني الآن لا بد أن أشكو مصيرك».

(3) كلا القصيدتين تحققان تلاعباً بشأن: «الجدة الفاضلة»، وذلك بالإيماء إلى شويشو 545، التي تتضمن الكلمات

غادر المكان.

كانـت المصاريع علـى الجانب الغربي من الدار موصدة، على الرغم من أن الوصيفات كـن قـد تركن مصراعاً أو مصراعين مفتوحين، حتى لا يظهرن بمظهر غير ودود. كان القمر قـد أطل، منيراً طبقة خفيفة من الثلج، وكانـت الليلة جميلة بالفعل[1]. تذكر متفكهاً أنه كان قد سمع ذكر هذه الابتسامات المتكلفة من عجوز باعتبارها لعنة.

فـي ذلـك المسـاء، خاطب كاهنة كامو السـابقة جـاداً، قـال طارحاً ما يقصده مباشـرة: «لـن أضايقـك بعد الآن لو أنك سـيطرت فقط على كرهك، وحدَّثيني هذه المرة فحسـب بنفسـك». ولكنها هـي التي منذ زمن بعيـد، عندما كانـت الدنيا تتجاهل سـعيدة افتقارهما للحذر بحكم شـبابهما، كانت لا تزال تنأى في خفر عن طموح أبيها الراحل[2]. لم تسـتطع بعد كل هذه السـنين، وفي عمرها هذا ورزانتهـا أن تمنحه كلمة واحدة بصوتها، وحافظت على هذا الإصرار بعناء بالغ إلى حد أن جينجي ضاق ذرعاً إلى أبعد الحدود. لم يكن ذلك راجعـاً إلى أنها كانت جافة بأي شـكل معه، وإنما أثار ضيقه الشـديد أن يتلقى ردودها عبر شخص آخر.

كان الوقـت قـد تأخر كثيراً بحلول تلك اللحظة، ومضت ريـاح عالية تهب، وأحس بما يكفي من التعاسة لكي يمسح دموعه على نحو لائق.

قال مشدداً:

«شديدة القسوة أنت، عندما لم أتعلم من قسوتك درساً آنذاك،

ها أنت تبتلينني الآن بهاتيك الطرق القديمة القاسية

أيا نو أويا («أم الأم»). بينما كانت كانت سيدة معينة في أومي، إلى الشرق تماماً من العاصمة، مرَّ حفيدها في طريق العودة إلى العاصمة من المقاطعات الشرقية. وعندما لم يتوقف حتى لرؤيتها، زاعماً أنه في عجلة من أمره بحيث لا يمكنه القيام بذلك، بعثت إليه تقول: «كان حرياً بك أن تزورني لو أنك فكرت فيَّ باعتباري أم أمك، ربما لم تكن حقاً ابن ابنتي».

(1) «بالفعل» (ناكاناكا) لأن موسم الليالي الجميلة يُفترض تقليدياً أن يكون الربيع أو الخريف.

(2) إلى تزويجها لجينجي. ولم ترغب في أن تعاني من مصير روكوجو، وبالنسبة لأميرة فإن الوضع المثالي كان البقاء بلا زواج.

إنني أعرف أن تلك غلطتي..»[1]. وغمغمت وصيفاتها كعهدهن دائماً بأن ذلك أمر جد مخجل.

«ما الذي يمكن أن يجعلني الآن أرغب في أن أهبك نفسي، رغم أنه قد يكون صحيحاً،

على نحو ما أسمع، أن بعض الآخرين يجدون مشاعرهم سريعة التقلب.

ليست طريقتي أن أفعل خلاف ما فعلته دوماً».

أعرب جينجي، الذي استبدَّ به اليأس، عن دفق من اللوم الممرور، وقد أحس بأنه شاب غر طوال الوقت. همس مبتهلاً: «لطفاً لا تخبري أحداً بكيفية سلوكي. ما من كلمة واحدة، لسوف أغدو أضحوكة أمام الدنيا بأسرها. يمكنني الحديث عن نهر إيسارا، ولكن ذلك قد يكون اجتراء يتجاوز الحدود»[2].

تساءلت الوصيفات عما عساها تكون جلية الأمور. «يا له من تصرف حياله!».

«لماذا تصر سيدتي على معاملة بمثل هذه القسوة؟».

«ما من شيء فيه يوحي بأنه سيفرض نفسه عليها في رعُونة».

«يا للمسكين!»

لم تكن هي نفسها قد فاتتها من قبل طبيعة جينجي السامية، أو جاذبيته الآسرة، ولكنها أحست بأنها إن أظهرت له تعاطفاً، فإن ذلك سيضعها في ناظريه إلى جوار هاتيك النسوة، اللواتي رفعن من قدره كثيراً، ويفصح عن افتقارها للشخصية الحازمة أيضاً. وفضلاً عن ذلك فإن روعته كانت تدخل الرهبة في النفس، ولن يليق بها أن تظهر الرقة نحوه. لا، لسوف تتراسل معه على نحو كاف لإبقاء الاتصال بينهما، وتبعث إليه بردود حكيمة، لسوف تواصل تجاذب أطراف الحديث باحترام معه، وبخلاف ذلك فإنها ستواصل صلواتها، لكي تمحو خطيئة كل تلك السنين[3]. لسوف يبدو من قبيل التقلب والتحول

(1) ناكاتسوكاسا شو 249: «لئن أحببت، فتلك غلطتي، أعرف ذلك، ولذا أعاني ولا أعرف ماذا عساني أفعل».

(2) كوكينشو 1108 تحقق تلاعباً بشأن مقاطع من هذا الاسم (اسم نهر في مقاطعة أومي) لإغلاق شفتي عاشق بعد ليلة مختلفة أمضاها العاشقان معاً.

(3) بعيداً عن التعاليم أو الممارسات البوذية. لم يكن بمقدور كاهنة كامو، شأن كاهنة آيسي، أن تكون لها أي صلة

فحسب أن تذعن له أو أن تبدو راغبة في ألا يكون لها شأن معه، وسيبادر الناس إلى التقول حول الأمر، حيث أنهم خبثاء في تقولهم، كما تعرف حق المعرفة، ولهذا فقد كانت حازمة مع وصيفاتها، وشددت على الحذر التام، وفي الوقت نفسه كرَّست نفسها بصورة متزايدة لصلواتها وابتهالاتها.

لم تكن تعرف إلا بالكاد إخوتها وأخواتها الكثيرين، لأنهم لم يكونوا إخوة من أم واحدة، وبالتالي فإن دارها غدت مهجورة بصورة متزايدة. وجعل هذا العاملين في دارها يجمعون على تأييد النبيل العظيم والمجيد، الذي غمرها بمثل هذه التعبيرات عن اهتمامه بها.

لم يتقد جينجي رغبة فيها، على وجه الدقة، لكن فتورها أثار جنونه، وكره الإقرار بالهزيمة. وكان في المظهر والسمعة تجسيداً لكل ما ترغب فيه أي امرأة، بالطبع، وقد أمعن التفكير في العديد من الأمور، وحقق بحلول ذلك الوقت معرفة بالناس أوسع نطاقاً وأكثر تدقيقاً من ذي قبل، وذكَّرته التجربة المتطاولة والمتنوعة بأن أي إساءة جديدة للتصرف من جانبه ستجلب عليه النقد يقيناً، ولكنه أحس بالقلق من أن الإخفاق قد يثير ضحكاً أعلى. ماذا أفعل؟ راح يتقلب على جمر الغضا، متغيباً ليلة بعد أخرى عن نيجو، وهو الأمر الذي لم يكن مما يستخف به على الإطلاق بالنسبة للسيدة المقيمة هناك[1]. وقد حاولت وجربت أساليب شتى، ولكن من الطبيعي أنه كانت هناك أوقات تدفقت فيها دموعها.

قال لها وهو يمسِّد شعرها، والتعبير المرتسم على ملامحه وقوامه الموحي بالاهتمام الرقيق يجعل المرء يرغب في رسمهما سوياً: «تبدين على خلاف عادتك على نحو غريب، ولست أستطيع تصور السر في هذا. يؤلمني أن أرى كيف يفتقد جلالته بشدة نيافتها الراحلة عندما رحلت، ومن دون المستشار كما تعلمين فقد شغلتني أمور ليس لديَّ من يقوم بها نيابة عني. وربما تتساءلين عن السر في محدودية وجودي هنا على نحو غريب، وإني لأتعاطف مع هذا الشعور، ولكن ليقر بالك، لطفاً. لقد نضجت تماماً الآن، ولكنك لا

بالأشياء البوذية.

(1) في كوكينشو 1025 يكتشف الشاعر أن انفصالاً تجريبياً عن محبوبته لتبين كيف ستكون المشاعر حياله «لم يكن مما يستخف به على الإطلاق».

تزالين نادراً ما تضعين الآخرين في اعتبارك، وهذه الطريقة على وجه الدقة في إساءة فهم مشاعرهم هي التي تجعلك محببة لديَّ كثيراً». مضى يرتب خصلة مبتلة من شعرها عند جبينها، ولكنها نأت بجانبها عنه أكثر، ولم تقل كلمة واحدة.

«ترى من الذي استطاع تنشئتك لتكوني مثل هذه الصبية المدللة؟». كان أمراً مؤسفاً للغاية أنه، فيما الحياة قصيرة على أي حال، يستبد الضيق بها فتحنق عليه! ولكن أحلام اليقظة اكتسحته بعيداً من جديد.

أمضى اليوم كله محاولاً جعلها في حال أفضل: «ربما أسأت فهم رسالتي الصغيرة إلى كاهنة كامو السابقة. وإذا كان الأمر كذلك فأنت مخطئة تماماً، على نحو ما سيتبين لك. ربما أداعبها في بعض اللحظات برسالة جذابة، لأنها كانت على الدوام مبتعدة كثيراً، وهي في بعض الأحيان ترد على رسائلي، حيث أنها هي نفسها ليس لديها الكثير مما يشغلها، ولكن ليس هناك ما هو جاد في أي من هذا، ولست أرى سبباً يحدوني إلى القدوم إليك باكياً وإبلاغك بكل شيء حول هذا الأمر. أرجو أن تفهمي أنه ما من حاجة تدعوك إلى القلق».

كان الجليد قد غدا عميقاً آنذاك، ومضى المزيد من الثلج يتساقط. وانعكس الضوء الآخذ في الخفوت من شجرة صنوبر وخيزران على أخرى بصورة جميلة، واكتسى محيا جينجي بوهج أكثر صفاء. «أكثر من بهاء الزهور وأوراق الخريف التي تأسر موسماً عقب آخر فؤاد الجميع، فإن السماء المتشحة بالليل في الشتاء، مع توهج الجليد تحت قمر متألق، هي التي في غياب كل الألوان تحدثني على نحو غريب، وتحمل خواطري إلى ما وراء هذه الدنيا، وليست هناك أعجوبة أو بهجة أسمى منها، ومن يصفها بأنها كئيبة لا يفقه شيئاً».


كرات الثلج

كان قد أمر بفتح الستائر الحاجبة، فأضاء القمر كل شيء أمامهم في لونه الوحيد، بينما ارتجفت الحديقة تحت وقر الجليد، وندت عن الغدير تنهيدات مثيرة للإشفاق، وامتد جليد مقفر عبر البحيرة. وأمر جينجي الفتيات الصغيرات الوصيفات بالنزول ودحرجة كرة ثلج. وتألقت أشكالهن الجذابة وخصلات شعرهن في سنا القمر، بينما بدت الوصيفات الأكبر سناً والأكثر معرفة جميلات في أرديتهن المنوعة الفضفاضة[1] وثياب خدمتهن الليلية ونطاقاتهن نصف محلولة، وفي غضون ذلك برز شعرهن المسترسل أطول من أثوابهن قبالة بياض الثلج، وكان مرأى الصغيرات مبهجاً، وهن يجرين سعيدات، ويسقطن مراوحهن، مسفرات عن وجوههن المفعمة بالإثارة[2]، وأردن أن يدحرجن كرة ثلجهن لجعلها أكبر، ولكنها ما كانت تتحرك من موضعها على الرغم من كل محاولتهن. وجلس بعضهن على الطرف الشرقي للشرفة، وهن يضحكن بصوت عال.

«قبل عام راكمن جبلاً من الثلج في حديقة نيافتها الراحلة، وليس مرد أهمية ذلك إلى أنه أمر مميز في حد ذاته، ولكن أصغر شيء كانت تقوم به كان على الدوام يبدو معجزة. ما أشد ما يفتقدها المرء في كل مناسبة! ولم أصل إلى معرفتها بصورة جيدة جداً قط، لأنها نأت عني كثيراً، لكنني أعتقد أنها كانت تحسن الظن بي خلال وجودها في القصر. وقد اعتمدت عليها، وواصلت الاتصال بها بشأن كل أنواع الأمور، وعلى الرغم من أنها لم تفرض نفسها قط، فإن تجاذب أطراف الحديث معها كان على الدوام شيئاً قيماً، وكانت تقول كل شيء، حتى أصغر الأمور، على نحو ما ينبغي. ولن نرى مثيلاً لها من جديد. وعلى الرغم من كل وقارها، فقد حظيت بتميز لا يمكن لسيدة أخرى أن تظفر به. بينما أنت التي على الرغم من كل شيء لديك الكثير من النبيلة مورا ساكي[3] فيك جانب صعب أيضاً، وإني لأخشى أنك ربما تكونين عنيدة قليلاً. ويبدو مزاج كاهنة كامو السابقة مزاجاً مختلفاً

---

(1) أكومي: رداء يرتديه الرجال البالغون بين القميص (هيتوي) والرداء الضافي (شيت جاساني) ولكن الأطفال يرتدونه فوق باقي ملابسهم.

(2) حتى الصبية الصغيرة كان يفترض بها أن تبقى وجهها محتجباً وراء مروحتها.

(3) «لديك الكثير من سجاياها، على الرغم من أنك لم تكبري مع أبيك [شقيق فوجيتسوبو]. في فصل «مورا ساكي الصغيرة» تم ربط النبتة المستخدمة في الصبغ واللون الأرجواني المعروفين باسم مورا ساكي من قبل جينجي أولاً بفوجيتسوبو بسبب استخدام هذه النبتة في الشعر ثم نُقل هذا الارتباط إلى الصبية الصغيرة التي غدت مورا ساكي.

للغايـة. وعندمـا أكون وحيداً، فإنني لا أحتاج إلى سبب محدد لتجـاذب أطراف الحديث معها، وهي الآن الوحيدة الباقية التي تبرز أفضل ما فيَّ».

«لكن سـيدة العاملين في القصر[1] بارزة في الذكاء والشـخصية! وما حدث غريب جداً أخذاً في الاعتبار أنها تنأى عن أي لمحة من الحرص».

«ذلـك صحيح، فهي تسـتحق الذكـر باعتبارها امرأة جميلـة وجذابـة. والآن فيما أفكِّر فيهـا، فهنـاك الكثير يتعين علـيَّ الندم عليه ونيـل الغفران عنه. تخيلـي إذن كم من ضروب الندم تثقل كاهل الشـخص الفاجر فيما هو يوغل فـي العمر! إنني، في نهاية المطاف، أنظر إلـى نفسـي باعتباري قد عشـت حيـاة أكثر هدوءاً من معظـم الناس». أثَّر فيـه الحديث عن سيدة العاملين في القصر، فأخذ في البكاء.


فتاتان في ثوب الأكومي

«تلـك المرأة فـي قريتها الجبلية، تلك التـي لا تفكرين فيها كثيـراً، تفهـم أكثـر ممـا يتوقع المـرء من امـرأة مثلهـا، ولكنها لا تنتمـي إلـى الطبقة ذاتهـا شـأن الأخريات، وإنـي لأتجاهل مطالبها[2]. فأنا لم أعرف أي امرأة لا قيمة لها تماماً قط. وعلى الرغـم من ذلك، فـإن قلائل في العالم هن الاسـتثنائيات حقاً! السيدة التي تعاني في الدارة الشرقية لا تزال جذابة في سلوكها كعهدهـا أبـداً. ولكن الأمر يقتضـي ما هو أكثر مـن ذلك. وقد أبقيـت عليها لأنني أحببتها كثيـراً على ما هي عليه، وبمزيد من الحـرص ظلـت على ذلك النحـو معي منذ ذلك الحين. وإنني على يقيـن من أننا لن نفترق أبداً، وأنا مولع بها».

واصـل جينجـي الحديث على هذا النحـو، حتى وقت متأخر من الليـل، حول الحاضر والماضي. وازداد القمر تألقاً على نحو بهي في السكون الرائع. قالت:

«تجمد الماء متحولاً إلى ثلج وسط الصخور فما عاد يتدفق،

---

(1) أوبوروزوكيو. المقصود بما حدث هو الفضيحة التي ثارت بشأنها هي وجينجي.

(2) لا تتضمن مناقشة جينجي، المفعمة بالتنحية جانباً على نحو لافت للنظر، للسيدة القادمة من أكاشي أي لغة مهذبة على الإطلاق.

والقمر المتألق هو الذي ينهض حراً في السماء»[1].

انحنت إلى الأمام قليلاً لتتطلع إلى الخارج، وكانت أجمل من أي امرأة في الدنيا. فجأة أعاد انسدال شعرها ومحياها إلى ذاكرته المرأى الأكثر روعة للمرأة التي كان قد أحبها، وتحوَّل فؤاده الذي كان منشطراً إلى حد ما من جديد إليها وحدها. تناهت إلى مسامعها صيحة بطة صينية[2]، فقال:

«وسط كل هذا الجليد الذي يعيد ذكريات أثيرة عن أزمنة ولت،

آه، أي كآبة جديدة تكمن في صيحة بطة صينية!» .

عندما دلف إلى داخل الدار مجدداً ورقد، كان ذهنه لا يزال منصرفاً إلى نيافتها الراحلة، فرآها على نحو معتم ـ لم يكن ذلك حلماً ـ وأدرك أنها غاضبة أشد الغضب: «لقد وعدت بألا تخبر أي أحد أبداً، ولكن ما أتيته أنا معروف الآن للجميع. إن العار يغمرني، ومعاناتي الراهنة تجعلك مقيتاً بالنسبة لي!». بدا له أنه يرد عليها عندما أحس بأن هناك من يجثم عليه واستيقظ ليسمع محبوبته تصيح: «ما الأمر؟ ماذا هناك؟». غمرته خيبة أمل مريرة، دق قلبه بعنف بالغ. وعندما سعى لتهدئة نفسه، وجد أنه كان يبكي، وأنه أغرق كميَّه في الدموع مجدداً.

رقد ساكناً، وإلى جواره محبوبته تتساءل عما دهاه، فغمغم قائلاً:

«آه، كم كانت عابرة الرؤية التي عنت لي بينما في غمار الأرق

في ليلة شتاء موحشة غرقت في حلم!» .

تاق إليها أشدّ التوق، حتى أنه نهض مبكراً، وأمر بأداء الطقوس في المعابد هنا وهناك، على الرغم من أنه لم يقل أبداً من أجل من تقام. كان عذاباً بالنسبة له أن يفهم أخيراً، بعد تفكير عميق، أن غضبها حيال ما أخضعها له كان عذاباً حقيقياً ونابعاً من قصد حسناً، وعلى الرغم من ابتهالاتها وكل ما فعلته للتقليل من شأن ما ارتكبته، فقد أخفقت بسبب تلك الزلّة الوحيدة في تطهير نفسها من دنس الدنيا، وتاق مراراً إلى المضي إليها في ذلك

---

(1) الماء هو مورا ساكي والقمر هو جينجي.

(2) يتزاوج البط الصيني الجميل، الذي يزين العديد من الحدائق المماثلة لحديقة جينجي، طوال العمر، مع الأنثى نفسها وبالتالي فإنه يعد في شرقي أسيا رمزاً للإخلاص الزوجي.

العالم الغريب، الذي من المحتم أنها موجودة فيه الآن، وجلب العزاء إليها هناك واحتمال الخطيئة عنها. غير أنه ظل حذراً لأن الناس من شأنهم أن يتساءلوا إذا دأب بصورة ملحوظة على إقامة الطقوس من أجلها، وقد يستشعر جلالته بدوره تأنيب الضمير. وفي غضون ذلك كرّس نفسه بإخلاص لترديد اسم أميدا. ومضى يبتهل: «لو أنني تقاسمت معها زهرة اللوتس فحسب[1]. ومع ذلك:

لو أنني تركت فؤادي يتابع هذا الحنين إلى السعي وراء المحبوبة التي فقدتها

فإني، إذا لم أجدها هناك، قد أضرب بنفسي ضائعاً في المخاضات الثلاث»[2] .

وهي خاطرة يقول البعض إنها مقيتة.

(1) في فردوس أميدا تبعث الروح هناك جالسة على عرش زهرة لوتس. تنهض من البحيرة أمام أميدا وقصره. وأصبح من المألوف بالنسبة للعشاق أن يبعثوا هناك على عرش لوتس واحد.

(2) نهر المخاضات الثلاث ميتسو نو سي عادة سانزو نو كاوا الذي يحيط بالعالم الآخر. ومن يعبرونه يقومون بذلك عن طريق إحدى المخاضات الثلاث: الضحلة أو الوسيطة أو العميقة بحسب وقر خطاياهم.

21

أوتومي

الصبايا العذارى

تشير «أوتومي» (الصبية العذراء) إلى فتاة تُختار لتكون راقصة جوسيتشي. وفي هذا الفصل يبعث جينجي بقصيدة تتضمن كلمة «أوتومي» إلى راقصة الجوسيتشي، التي ورد ذكرها بالفعل في فصلي «الزهور المتساقطة» و«سوما». وفي غضون ذلك يلاحظ ابنه، يوجيري، راقصة جوسيتشي أصغر سناً، ويبعث إليها برسالة تتضمن الكلمة نفسها.

الصلة بالفصول السابقة

ينتهي «زهرة الجريس الزرقاء» في الشتاء، ويبدأ «الصبايا العذارى» في الربيع التالي، ويستمر وصولاً إلى خريف العام الذي يليه.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 33 إلى 35 عاماً.

كاهنة كامو السابقة (أساجاو).

سمو الأميرة الخامسة، عمة أساجاو.

سمو الأميرة الثالثة، جدة يوجيري (أوميا).

القائد، ثم معالي وزير شؤون القصر (تونو تشوجو).

ابنته 14 إلى 16 عاماً (كوموي نو كاري).

زوج أمها، المفتش والمستشار الكبير (أزيتشي نو ديناجون).

الاستشاري، ابن جينجي، 12 إلى 14 عاماً (يوجيري).

أساتذة المجمع الدراسي.

مراقب الميسرة الكبير.

معلم يوجيري، الكاتب الرئيسي.

الزوجة آيسي، جلالة الإمبراطورة، 24 إلى 26 عاماً (أكيكونومو).

الزوجة كوكيدين، ابنة تونو تشوجو، 16 إلى 18 عاماً.

سيد التشريفات، معالي وزير الحرب سابقاً.

أخ لفوجيتسوبو، 48 إلى 50 عاماً (شيكيبو كايو نو ميا).

ابنة سيد التشريفات، زوجة الإمبراطور.

وصيفة أوميا.

جلالة الإمبراطور، 15 إلى 17 عاماً (رايزي).

المشرف على حراسة بوابة الميسرة، الأخ غير الشقيق لتونو تشوجو.

سايشو، مربية يوجيري.

سايشو، مربية كوموي نو كاري.

يوشيكايو، حاكم أومي.

كوريميتسو، حاكم تسو ومفوض الميسرة للمدينة.

ابنته، راقصة جوسيتشي، ثم سيدة العاملين بالقصر.

أخوها، تابع خصوصي.

نيافة الإمبراطور المتقاعد، 35 إلى 37 عاماً (سوزاكو إين).

الأمير النائب سابقاً، معالي وزير الحرب حالياً (هوتارو هايوبوكايو نو ميا).

سيدة العاملين بالقصر (أوبوروزوكيو).

السيدة المقيمة بجناح جينجي الغربي، 25 إلى 27 عاماً (مورا ساكي).

أقبل العام الجديد، وأقبلت معه نهاية فترة الحداد على نيافتها الراحلة، وتلونت الدنيا بألوان جديدة، ومضى تغيير الثياب بما يناسب الموسم الجديد[1]، على نحو متألق، وبالطبع مع حلول أوان مهرجان كامو أدخلت السماء في الأعالي البهجة على كل القلوب. ومع ذلك فإن كاهنة كامو السابقة وحدها مضت تحدِّق حزينة أمامها، وحمل النسيم الذي تخلل شجرة الغار القريبة في الحديقة إلى وصيفاتها الأصغر سناً ذكريات عديدة، ثم وصلت رسالة من جينجي، متضمنة الإعراب عن الظن بأنها لا بد من أن تكون مستمتعة بصفة خاصة بسلام يوم التطهير. كتب يقول: «اليوم

هل يمكنك تصديق أن أمواج نهر كامو ستعيد هذا اليوم

بينما تطهرين نفسك من لون الحداد الرمادي فحسب؟[2]».

كانت رسالة رسمية، مطوية باستقامة، كتبت على ورق أرجواني، وربطت بباقة من براعم الوستارية.

تأثرت بتوقيت الرسالة المناسب فردت قائلة:

«يبدو أنه بالأمس كانت الأثواب التي ارتديتها رمادية بلون الحداد،

وبالنسبة لي يعني مثل هذا النقاء أن كل الأمور انقضت،

الحياة شديدة الهشاشة». كان هذا كل محتوى الرسالة. عندما بدَّلت بالفعل ثياب الحداد، كان قد بعث إليها بثروة من الهدايا المنتقاة بحكمة في عناية سينجي، الأمر الذي أحرجها كثيراً، ولكن غياب أي رسالة خبيثة، تحمل الغواية، عن مصاحبة الهدايا أسكت أي اعتراض، حيث أنه قد اعتاد منذ وقت طويل على تقديم مثل هذه الهدايا لها في المناسبات

(1) التغيير إلى ملابس الصيف في اليوم الأول من الشهر الرابع.

(2) هل يمكنك تصور أنه عندما يقبل يوم التطهر مجدداً فإنك لن تقومي بدور فيه باعتبارك كاهنة كامو وأن تطهرك الوحيد سيكون التطهر المرتبط بالخروج من الحداد؟ كانت وفاة والد أساجا وقد أرغمتها على الاستقالة والتخلي عن وضعها باعتبارها كاهنة وارتداء ملابس الحداد. وتضمن الانتقال من ملابس الحداد إلى الملابس ذات الألوان العادية طقس تطهره الخاص. و«لون الحداد الرمادي» كان في العهود المبكرة يترجم إلى «فوجيجورومو» (« ملابس الوستارية»). حيث يُفترض أن الحداد كان يتضمن ارتداء ملابس خشنة منسوجة باستخدام نسيج لحاء الوستارية. ومقطع فوجي («الوستارية») من لفظ فوجيجورومو مرتبط ببراعم الوستارية التي ربُطت بالرسالة.

العامة. ويبدو أنها لم تعرف كيف ترفضها.

لم يدع هذه الفرصة تمر للقيام بشيء أيضاً من أجل الأميرة الخامسة، وقد تأثرت بدورها كذلك: «بالأمس فقط، أو هكذا حسبت، كان هذا الشاب صبياً فحسب. والآن هو ذا يرعاني شأن رجل ناضج! إنه وسيم للغاية، وتبين أنه في قرارة نفسه أفضل كثيراً من أناس آخرين!». ابتسمت وصيفتها الشابة حيال الطريقة التي امتدحته بها.

أشارت في حديثها إلى ابنة أخيها عندما التقتا: «إنني أدرك أن سموه كان حريصاً عليك على مرّ الأيام. ولا أقصد أن هذا كان جديداً عليه، لقد استبد الأسف بمعاليه الراحل لأن حياة سموه اتخذت ذلك المنعطف، بحيث لم يستطع الترحيب به، وغالباً ما أعرب عن أسفه البالغ لأنك تجاهلت تفضيله الخاص لك، وكانت هناك مرات كثيرة أعرب فيها عن أسفه لما فعلته[1]. ومع ذلك فإنني انطلاقاً من احترامي لمشاعر الأميرة الثالثة لم أقل شيئاً طالما كانت ابنة معاليه الراحل على قيد الحياة. وعلى الرغم من ذلك فإنني الآن، وبعد أن رحلت تلك السيدة الجديرة بالتقدير العظيم، لست أرى بأساً في أن تكوني ما يريده، وبصفة خاصة أن سموه بالغ التلهف مجدداً بحيث أن هذا يكاد يبدو لي قدرك المقدر». وواصلت الحديث مطولاً على هذا النحو الذي بعد به العهد، الأمر الذي أثار ضيق ابنة أخيها.

قالت بصورة صارمة بما فيه الكفاية بحيث تثبط همة الأميرة الخامسة عن الإصرار على المضي بحديثها قدماً: «من المؤكد أنني لا أعتزم الاستسلام له الآن، بعدما وجد معاليه الراحل أنني لا تلين لي قناة». أثارت خطوة جينجي المقبلة قلقها، لأن كل النسوة كن إلى جانبه، ولكنه لم يكن في عجلة من أمره إلى أن تؤثر التفاتاته المخلصة وعاطفته الجلية في موقفها فتجعلها تبدي اللين ناحيته، ويبدو أنه لم يفكّر قط في تحطيم مقاومتها عنوة.

عكف على الاحتفال ببلوغ ابنه من ابنة معالي الوزير الراحل مبلغ الرجال، وهو الاحتفال الذي اعتزم إقامته في نيجو، ولكن سموها[2] تاقت إلى حضور الحفل، وتقديراً

---

(1) الأسف لكونك أصبحت كاهنة كامو. بحيث لم يعد بالإمكان أن يكون جينجي زوج ابنته.

(2) أوميا (الأميرة الثالثة). والدة أوي وجدة يوجيري وأخت الأميرة الخامسة.

لهـا أقام الحفل في دارهـا، في نهاية المطاف. كان قائد الميمنـة وأخوال الفتى الآخرون[1] جميعـاً من كبار النبلاء، الذين يحظون بتقدير كبير من جلالة الإمبراطور، وسـاهم الجميع مـن ذلك الجانب مـن أقاربه بحماس في كل مـا قد تقتضيه هذه المناسـبة. وضجت الدنيا بأسرها. وامتلأت هرجاً ومرجاً، مع الاستعدادت المترفة للاحتفال.

في البداية، اعتزم أن يجعل ابنه نبيلاً في المرتبة الرابعة[2]، كما توقع الجميع، ولكنه غيَّر رأيـه عقب ذلـك، فقد كان الفتى صغيـراً للغاية، وعلى أي حال أحسـب بأنه الآن وقد غدا بمقدوره القيام بكل ما يطيب له، فإن الإيماءة المتضمنة في منحه هذه المرتبة ستكون بالغة الوضـوح. وقد انزعجت سـموها، ويا للمرأة المسـكينة! لم يكن بمقـدور المرء أن يلومها عندما عاد حفيدها إلى الغرفة المخصوصة ملتفاً باللون الأزرق الفاتح[3]، وقد طرحت هذا الموضوع في المرة التالية التي زارها فيها جينجي.

فـرد عليهـا قائـلاً: «إنني أفضل فـي الوقت الحالـي ألا أرفع مرتبته بأسـرع ممـا ينبغي. وأوثـر، لأسـباب عدة، أن أجعله يقضـي بعض الوقت في المجمع الدراسـي. وقبل عامين أو ثلاثة أعوام من اسـتهلال حياته العملية[4]، فإنه سـيكون قادراً بصورة طبيعية على خدمة جلالـة الإمبراطـور، وكمـا ترين، فإنه بحلـول ذلك الوقت سـيكون قد أصبح رجـلاً. وأنا نفسـي نشـأت في القصر، ولم أعرف شـيئاً عن أمـور الدنيا، وبدلاً من ذلـك أمضيت الليل والنهـار فـي خدمة أبي، ولم أتعلم إلا بالكاد ما ضمته كتب قليلة، ولم يقدر لي قط أن أفهم المعنى الأوسـع نطاقاً لما علمنيه في سـماحة وكرم بنفسـه، وفي غضون ذلك فإن معرفتي بالكلاسـيكيات وتمكنـي من العزف على الكوتو والناي ينقصهمـا الكثير مما يرغب المرء فيـه. ومن النادر بالنسـبة لابـن ماهر أن يتجاوز أبا يعـوزه البريق، وما تتوارثـه الأجيال إنما يمضـي ضارباً في طريـق الضلال على نحو خطر، ولعلك تدركين أن هذا هو ما دفعني إلى

(1) تونو تشوجو وإخوته غير الأشقاء.

(2) المرتبة التي تعطي تقليدياً لابن أمير أو إلى جينجي من الجيل الأول (ميناموتو) بعد بلوغه سن الحلم. ويوجيري هو جينجي من الجيل الثاني. ولكن سلطة أبيه ومكانته الاستثنائيتين تجعلان المرتبة الرابعة (الدرجة الأدنى) خياراً واضحاً بالنسبة له أيضاً.

(3) أساجي. لون أزرق متألق ولكنه فاتح تماماً يرتديه من يحتل المرتبة السادسة. وقد كان يوجيري يخدم فيما يبدو كتابع خصوصي.

(4) لم يكن الشاب الذي يدرس بالمجمع الدراسي في سلم الترقية الرسمي.

اتخاذ قراري ذاك. إن الابن الذي ينحدر من عائلة نبيلة، والذي تتم ترقيته حيثما طاب له، والذي يتباهى بمجده، لا يحتمل أن يحس بأن واجبه أن يتفانى في الدراسة، فهو يفضل أن يسري عن نفسه، ومن ينحنون أمامه يتزلفون له، حيث أن مرتبته تعلو حيثما طاب له. وذلك على الرغم من أنهم في غضون ذلك يسخرون منه سراً، وهم يتملقونه كسباً لرضاه، ويفعلون ما يأمر به إلى أن يصبح تدريجاً شبيهاً برجل عظيم، ولكن ما إن يحدِّث تغيير، ويرحل من يدين له بكل شيء، فإن وضعه يتراجع، تاركاً إياه عرضة للسخرية ومن دون صديق واحد في الدنيا. وفي نهاية المطاف، فإن التعليم هو ما يقدم أساساً ركيناً لمعايشة الروح اليابانية[1] وقد يكون متعجلاً الآن، ولكنه إذا كان يتطلع في النهاية إلى أن يصبح أحد أعمدة الدولة، فإنه سيحسن صنعاً، حتى بعد رحيلي. لا تهتمي بأن وضعه ليس آمناً تماماً الآن، لأنه طالما أتبنى هذه الطريقة في رعايته، لا يمكنني تصور أن أحداً سيسخر منه لكونه أحد طلاب المجمع الدراسي الذين يعضهم الفقر بنابه».

ردت سموها على أحاديثه على هذا النحو بتنهيدة: «إنني أتفهم كيف أنك أمعنت التفكير في الأمر، ولكنني أعرف أن القائد، على سبيل المثال، يهز رأسه أسفاً على فكرتك غير المألوفة هذه، والشاب نفسه يحس بالبؤس والتعاسة، لأنه حتى أبناء القائد والمشرف على حراسة بوابة الميسرة[2]، الذين اعتاد النظر إليهم باعتبارهم أصغر منه، قد ارتفعوا في المرتبة والأقدمية[3]، وهذا يجعل لونه الأزرق الفاتح مقيتاً بالنسبة له، وأنا عن نفسي أشفق عليه».

ابتسم ووجد ما تقوله جذاباً تماماً: «أرى أنه وجد شكوى من شكاوي الكبار مني. آه، يا للشباب الأحمق! الأمر راجع إلى سنّه. لسوف يتبدد شعوره بخيبة الأمل سريعاً، عندما يحظى ببعض التعليم، ويتفهم الدنيا أكثر قليلاً.

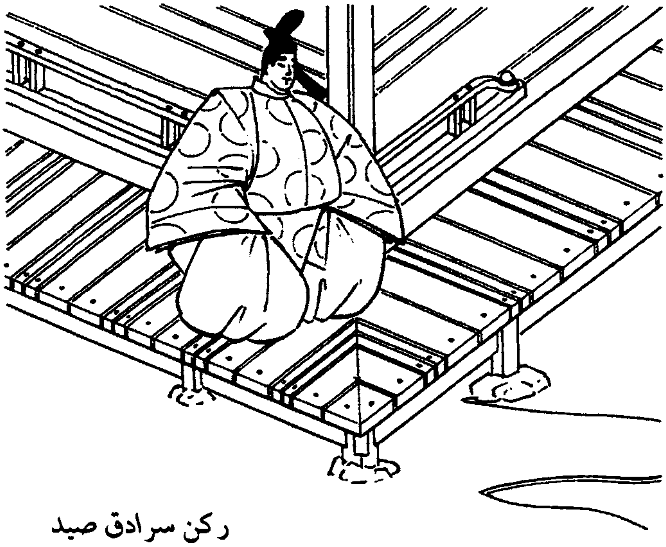
---

(1) التعليم (زاي) يعني دراسة الأعمال الكلاسيكية الصينية الأدب، الفلسفة، القانون. وبعد قرون لاحقة أصبحت ياموتو داماشي («الفطنة اليابانية») هي «الروح اليابانية» الأكثر رفعة وسمواً. وهذا هو أقدم ورود لها في الأدب الياباني الباقي بين أيدينا.

(2) سايمون نو كامي، يفترض أنه أخ أصغر غير شقيق لتو نو تشوجو، وعادة ما كان من تتم ترقيته يشغل الدرجة الدنيا من المرتبة الرابعة.

(3) كان من شأن أبناء أخوال يوجيرو أن يعينوا في المرتبة الخامسة لدى بلوغهم سن الحلم.

تلقى الفتى زيه الدراسي في المبنى الشرقي، حيث أُعد الجناح الشرقي لهذه المناسبة. اندفع كبار النبلاء والمقربون من الإمبراطور جميعاً ليكونوا هناك وقد غمرهم الاندهاش والفضول، ولكن لا بد أن يكون الأساتذة قد شعروا بالاستياء.



ركن سرادق صيد

«قوموا بالأمر على الوجه الصحيح، لا تقتروا في شيء، ولا تتراخوا في أي شيء يجعل هذه المناسبة فريدة». هكذا أمرهم جينجي.

برباطة جأش مفتعلة على نحو يائس، ارتدوا بلا حياء ملابس لا تناسبهم، والتي كانوا قد اضطروا لاستعارتها من مكان آخر، وبدا كل ما يتعلق بهم يشكِّل مشهداً جديداً، بما في ذلك طريقتهم في اتخاذ مجالسهم بأصوات جادة ومظاهر توحي بالتباهي، ولم يستطع النبلاء الأصغر سناً حجب ابتساماتهم، وكان جينجي قد اختار رجالاً هادئين قادرين على التحكم في مشاعرهم فحسب، ليصبوا لهم خمرهم، رجالاً لا يحتمل أبداً أن يستسلموا للمرح، ولكن على الرغم من ذلك فإن قائد الميمنة، سيد الشؤون المدنية والآخرين الذين واصلوا ملء أقداحهم قد تلقوا تقريعاً شديداً.

«يا للحسرة على الأخلاق، أيها السادة! إنكم تتجرؤون على خدمة جلالته، ومع ذلك فإنكم لا تعرفون رجلاً في مكانتي؟ إنكم جميعاً حمقى أيها السادة!».

اندفع الجميع ضاحكاً.

«صمتاً! لسوف يسود الصمت! إن سلوككم مشين أيها السادة، ولا بد لي من أن أطلب

منكم الانصراف!»[1].

كان مثل هذا التقريع طريفاً للغاية. ومن لم يكونوا قد سمعوا بأي شيء مثله قبل ذلك حسبوا أنه بمثابة نادرة، وابتسم كبار النبلاء الذين أقبلوا عبر المجمع الدراسي في رضا. وأحس الجميع بأنه شيء مدهش أن سموه قد اختار هذا المسار لابنه. هل كان هنا هرج ومرج في الحديث؟ لقد أوقفوا ذلك. هل كانت هناك ملاحظة ضاحكة؟ لقد تلقوا التقريع. ولكن مع إيغال الليل في مسيرته، ومع بروز التعبيرات التي تنم عن عدم الموافقة بشدة والمرتسمة على ملامحهم في ضوء المصابيح، اكتسبوا بدلاً منها حزناً مضحكاً على نحو يدعو للإشفاق، وجعل هذا، ضمن أمور أخرى، هذه المناسبة غريبة ومثيرة للفضول حقاً.

قال جينجي، وهو يرقبهم من وراء ستائره الحاجبة: «إنه ساذج كبير وأبله مثلي هو الذي يستحق لومكم». ولما سمع أن بعض الطلاب من المجمع الدراسي يغادرون المكان لأنه ليس هناك مجال يسعهم، أبقاهم في جناح الصيد[2]، وأمر بإعطائهم هدايا خاصة.

عندما انتهى الاحتفال، وشرع الجميع في الانصراف، دعا جينجي الأساتذة ومن لف لفيفهم من السادة لإبداع المزيد من الأشعار الصينية، فقاموا بنظم قصائد في صورة مقاطع شعرية ثمانية الأبيات موحدة القافية، أما جينجي والهواة الآخرون فنظموا مقاطع شعرية رباعية[3]، واختار أستاذ الأدب صياغة موضوع رائع[4]. وكانت الليالي آنذاك قصيرة، وحل النهار عندما أُلقيت القصائد بصوت عال. كان قارئ القصائد هو مراقب الميسرة الكبير[5]، وهو رجل وسيم، كان صوته وهو يلقي القصائد بديعاً على نحو رائع ومؤثراً في

(1) تتضمن لغة المتحدث، التي تختلف بصورة بارزة عن لغة رجال البلاط، كلمات وعبارات لا بد أنها كانت مميزة لما يتم تداوله في المجمع الدراسي.

(2) تسوريدونو، سرادق مشيد على ركائز مرفوعة فوق بحيرة حديقة مسكن من مساكن العصر الهاييني، ويتم ربطه بباقي الدار عن طريق ممشى مفتوح، وقد استخدم لقضاء أوقات يسودها الاسترخاء.

(3) يتألف القالب الشعري الذي عُهد به إلى الأساتذة المحترفين من أربعة مقطوعات شعرية مزدوجة الأبيات وموحدة القافية، يتألف كل منها من خمسة رموز. أما القالب الشعري الذي أُسند إلى الهواة فيتألف من أربعة أبيات يضم كل بيت منها أربعة رموز أو خمسة.

(4) كان الموضوع الذي يجري التكليف به (داي) يُصاغ عادة كبيت يتألف من خمسة رموز.

(5) كان شاغل هذا المنصب الذي يقتضي تلقي تعليم يشمل الأدب الصيني يحتل الدرجة العليا من الدرجة الخامسة.

النفس. وقد تمتع بتقدير كبير كباحث متعمق. امتدحت القصائد على اختلافها، بالعديد من الإشارات السامية، الكيفية النبيلة التي قام بها شاب، يؤهله نبل محتدة لأن ينشد المجد ومباهجه فحسب، بمصادقة الحباحب عند النافذة والثلج على الغصن[1]. وتمتع كل بيت من هذه الأبيات بتميز بالغ، على نحو ما أجمع الكافة في تلك الأيام مندهشين، إلى حد أن المرء كان حرياً به أن يرغب في أن تُعرف هذه الأبيات في بلاد كاثاي كذلك. وغني عن البيان أن سموه كان في قصيدته متمكناً بصفة خاصة، لكن القصيدة نقلت كذلك الإحساس بحب الأب لابنه على نحو مؤثر للغاية بحيث أن الحاضرين جميعاً بكوا وهم يرددونها. غير أن المرأة ليس من شأنها أن تكرر ما لا تستطيع معرفته، ولما كنت لا أرغب في إثارة الضيق، فقد حذفت القصيدة.

أعقبت ذلك رعاية جينجي لابنه خلال اجتيازه القبول بالمجمع الدراسي[2]، وعلى جناح السرعة خصص له غرفة في مقر سكنه، وبعد ذلك عهد به إلى معلم، وانهمك في حمله على العكوف على دراساته، بل أن الشاب كان نادراً ما يزور سموها[3]. وقد ساور جينجي الشك في أن ابنه سيتعلم أي شيء هناك، بسبب إفراطها في تدليله يوماً بعد آخر، ومعاملتها له كأنه طفل، وبدلاً من ذلك جعله يستقر في مكان وحيداً، ولم يسمح له بزيارتها إلا ثلاث مرات في الشهر.

اغتاظ الفتى من فرض العزلة عليه بهذه الطريقة طوال الوقت، وكلما استبد به الغيظ ازداد مقتاً لأبيه. ألم يكن هناك آخرون علا شأنهم وشغلوا مناصب رفيعة من دون أن يتعرضوا للمعاناة على هذا النحو؟ وعلى الرغم من ذلك فإنه كان جاداً على وجه العموم، ولم يكن فيه ما يوحي بالعبث والخفة، وانكب على العمل، وقرَّر على نحو ما أن يجتاز دراسة هذه الكلاسيكيات بأسرع ما يمكن، وأن يستهل مسيرة حياة ناجحة، بحيث أنه في غضون أربعة أشهر أو خمسة كان قد أنجز قراءة كل العمل الذي يحمل العنوان التالي

---

(1) نموذجان صينيان مكرسان للإخلاص في الدراسة، حيث يقرأ الشاب الذي لا يمكنه توفير الزيت لقنديله ليلاً في الصيف على ضوء الحُباحُب المحتجزة في حقيبة متخذة من الشاش، والآخر يقرأ في الشتاء على الضوء المنعكس على الثلج.

(2) نايو جاكو، حدث رسمي يقدم فيه الطالب المستجد الهدايا لمدرسه.

(3) جدته.

«سجلات المؤرخ».

أمر جينجي، الذي اقترح أن يُجرى له الامتحان الأساسي، بأن يتم اختباره في حضوره. وحضر القائد، كما في السابق وكذلك مراقب الميسرة الكبير، مفوض التشريفات ومراقب الميسرة. واستدعى جينجي الكاتب الكبير، وجعله يختار مقاطع صعبة من «السجلات»، مقاطع يحتمل أن الأساتذة سيركزون عليها في الامتحان، وطلب أن يقرأها الفتى بصوت عال، وهو ما قام به بطلاقة تامة وبفهم جلي للغاية بحيث يبعد عنه كل الشكوك في عدم الاقتدار. واقتنع الحاضرون جميعاً اقتناعاً تاماً بأدائه المتألق، وتأثروا لحد البكاء. وهتف القائد متأثراً وقد انخرط في البكاء على نحو يفوق أي شخص آخر: «لو أن معاليه كان حاضراً ههنا فحسب!».

عجز جينجي بدوره عن الحفاظ على رباطة جأشه، فقال وهو يجفف دموعه: «إنني أعرف أنني اعتقدت أن أناساً آخرين هم من الحمقى الكبار، ولكن الأب يخفق مع نضج ابنه، وليست أمامي كل تلك السنوات الطوال. حسناً، هذه هي حال الدنيا».

استشعر المعلم السرور والفخر حيال هذا المشهد. بدا وجهه بنظرته التي غلب عليها السكر ـ حيث أن القائد أبقى قدحه مترعاً بالشراب ـ ناحلاً على نحو فظيع. كان شديد الإيغال في غرابة الأطوار بحيث تعذر عليه الحصول على عمل يتكافأ مع ثقافته، وعاش في فقر وإهمال، لكن جينجي وقع اختياره عليه على ذلك النحو، لأنه رأى فيه شيئاً، فقد بدا أن الرجل قدره إنجاز أمور أعظم في المستقبل، أخذاً في الاعتبار بأنه يتمتع الآن بعطف جينجي على نحو يتجاوز وضعه الراهن، ومن ثم فإنه مدين للفتى الذي عهد إليه به بالتجدد المفاجىء لحياته.

تجمعت عربات لا حصر لها خاصة بكبار النبلاء عند بوابة المجمع الدراسي، في اليوم الذي مضى إلى هناك ابن جينجي ليتم امتحانه. وبدا أنه من المستحيل أن تكون هناك عربات أخرى من هذه النوعية في أي مكان آخر. وبدا الفتى، الذي حظي بالعناية وارتدى ثياباً فخمة على نحو رائع، أكثر تميزاً حقاً من الجمع الذي وجد نفسه فيه بكثير. فلا عجب

أنه أحس بالضيق لاحتلاله مرتبة بالغة التواضع وسط الحشد ذاته كذي قبل[1]. ومن جديد تـرددت الأصـوات العالية والزاجرة على نحو يبعث على الشـعور بالصدمة، ولكنه واصل القـراءة دون أدنى اهتزاز. وكان المجمع الدراسـي لا يزال مزدهراً آنذاك، على نحو ما كان فـي أيامه الأولى، وتهافت الناس من كل المراتـب على نيل التعليم الذي يقدمه، بحيث أن عـدد الدارسـين والمتعلمين والمؤهلين جيـداً كان في تزايد على نحو مسـتمر. وقد اجتاز ابـن جينجي امتحاناته في يسـر على كل المسـتويات، من الترشـيح المؤقت إلى الترشـيح وهلم جراً، وكرَّس نفسـه لدراسـات مميـزة للغاية بحيث ألهم معلميـه والطلاب الآخرين بـذل جهود أكبـر. وفي مقر إقامة أبيه كانت هناك مناسـبات عديدة لنظم الأشـعار الصينية، وكان الأسـاتذة وغيرهـم من المتعلمين فـي الدار على الدوام. وكان ذلـك هو العهد الذي يُتاح فيه للموهبة، أياً كانت طبيعتها، أن تتحقق وتنضج دوماً.

فـي غضون ذلك، كان الأوان قد آن لاختيار إمبراطورة. ألمح جينجي بالقول: «الزوجة آيسـي هي من كان نيافته الراحل سـعيداً بتكليفها بالقيام بتلبيـة احتياجاته». اعترض الناس علـى إمبراطـورة أخـرى لا تنتمـي إلى قبيلـة فوجيـوارا[2]، والزوجـة كوكيدين، فـي نهاية المطـاف، جـاءت إليـه أولاً. أليـس كذلك؟ اسـتبد القلق بكل مـن كان متعاطفـاً في قرارة نفسـه مع أي من الجانبين. وقد تمتع سـيد التشـريفات الحالي، الذي كان معروفاً في وقت مـن الأوقـات بمعالي وزير الحـرب[3]، في هذا العهد بتقدير يفوق ما حظي به في السـابق، وكانت ابنته قد جاءت بالفعل إلى جلالته حاملة معها آمالها الخاصة. وقد كانت هي نفسها زوجة من الأصل الإمبراطوري، ومن المؤكد أنها مقربة من جلالته، حيث أنها كانت قريبته من جهة أمه. وشدَّد تابعوه على أنها تبدو خياراً محتملاً للقيام على رعاية أمور جلالته الآن وقـد رحلـت أمـه، ومن هنا فقـد كان لكل جانب مطالبـه، ولكن اللقب حظيـت به الزوجة آيسي. وقد أدهش ذلك الناس إجمالاً لأن الحظ حاباها أكثر من أمها.

---

(1) عندما تلقى لقبه الدراسي.

(2) حرفياً «جينجي أخرى»، ولكن بما أن كلاً من فوجيتسوبو وأكيكونومو تنحدران من أصل إمبراطوري، فإن «جينجي» تشير هنا، على نحو ما يرد لاحقاً في فصل «أغصان الربيع». إلى أي شخص لا ينتمي إلى قبيلة فوجيوارا.

(3) والد مورا ساكي والأخ الكبير لفوجيتسوبو.

ترقى سموه إلى مرتبة المستشار، والقائد[1] إلى وزير شؤون القصر، وعهد إليه جينجي بشؤون الحكم كافة. وقد تميزت شخصية هذا السيد المهذب بالحزم والجلال، وكان حكيماً في تقديره. وكان قد اجتهد بصفة خاصة في دراساته، وأبدى حنكة في كل الأمور، العام منها والخاص، وذلك على الرغم من أن جينجي قد تفوق عليه في الألغاز الشعرية. وقد أنجب عشرة أبناء أو أكثر من أمهات مختلفات، وتباهى بيته بكل مجد بيت جينجي، حيث أن كل أبنائه كانوا يكبرون وأمامهم مسيرة حياة ناجحة. وكانت له من البنات زوجة الإمبراطور وابنة أخرى[2]، وهي فتاة من دم إمبراطوري لا يقل محتدها تألقاً عن أبنائه الآخرين. غير أن أمها كانت قد تزوجت من المفتش والمستشار الكبير، الذي أنجبت منه العديد من الأبناء، ومن ثم فقد أخذ ابنته منها، وعهد بها إلى سموها، حيث شعر بأن من الخطأ ترك زوج أمها يأخذها مع كل أبنائه الآخرين. وقد كانت جذابة في شخصيتها ومظهرها، على الرغم من أن تقديره له واهتمامه به كان أقل بكثير مما منح زوجة الإمبراطور.

كان ابن سموه قد نشأ معها، ولكنهما عاشا منفصلين[3]، منذ كانا في العاشرة من العمر، وعندما قال لها أبوها: «ربما تكونان، أنتما الاثنان، صديقين مقربين، ولكنك لا ينبغي أن تكوني على صلة حميمية بأي رجل». غير أن الفتى كان لا يزال يفكِّر فيها بطريقته الشابة، على الرغم من هذه المناسبة الجديدة بينهما، وكان على الدوام شغوفاً باللعب معها بالدمى أو انتهاز أي فرصة تتاح له من خلال سقوط البراعم أو أوراق الشجر في الخريف ليبعث إليها برسالة. وقد استجابت على نحو دافىء لعاطفته الصريحة، ولم تكن خجولة بصورة ملحوظة معه في الوقت الحالي. وقد ترددت النسوة اللواتي قمن على رعايتهما في التدخل، وقلن: «كل شيء على ما يرام، ولكنهما لا يزالان طفلين، كيف يمكن لأحد أن يكون بالغ القسوة بحيث يفرق بينهما، بينما كانا معاً طوال هذه السنين؟». ولكن بينما كانت الفتاة لا تزال صبيانية وبريئة، فإن الفتى ربما بسبب اللحظات العابثة التي تقاسمها معها، كائناً ما كانت تلك اللحظات، بدا على الرغم من أنه لا يزال في مقتبل عمره يعتبر التفريق بينهما شيئاً يصعب على النفس تحمله. ولما كانا لا يزالا في مقتبل العمر، فإنهما

(1) تونوتشوجو.
(2) كوموي نو كاري.
(3) في غرف منفصلة.

كانا في بعض الأحيان يفقدان الرسائل التي يتبادلانها، والتي كُتبت بخط لا يزال يفتقر إلى النضج، ولكنه يبدو واعداً على نحو جذاب، وهكذا فإن النسوة على الجانبين كانت لديهن فكرة ما عما يجري، وعلى الرغم من ذلك فلا شك في أنهن غضضن الطرف، لأنه في نهاية الأمر لماذا يعلن عما يجري؟

انتهت المآدب الاحتفالية[1]، ولم تكن هناك مهرجانات في البلاط يتعين الترتيب لإقامتها، وغدت الأمور هادئة أخيراً. وفي مستهل إحدى الأمسيات، وبينما كان المطر الموسمي البارد يسقط، والرياح المفعمة حداداً تهب عبر سعف «الهاجي»، أقبل معالي وزير شؤون القصر لزيارة دار أمه. وهناك بعث في طلب ابنته، وجعلها تعزف على الكوتو، وكانت سموها التي تعزف على كل الآلات الموسيقية عزفاً جيداً قد علمتها العزف عليها جميعها.

أشار معاليه بقوله: «ربما من شأن المرء ألا يفضل رؤية امرأة تعزف على البيوا[2]، ولكن يا للصوت الجميل الذي يصدر عنه! وقلائل في زماننا هم الذين تلقوا نقلاً أصيلاً لموسيقاه، ربما الأمير فلان الفلاني أو جينجي، هذا أو ذاك..». وأسقط البعض من الحسبان. «بين النساء، أسمع بأن من يحتفظ بها سموه في تلك القرية الجبلية رائعة في عزفها. وقد تعلمته من خبير بالطبع، ولكن على الرغم من ذلك، فإن المرء يتساءل كيف يمكن أن تكون متميزة هكذا من كانت على مثل هذا البعد من مصدرها[3]، والتي عاشت طويلاً كريفية جبلية. يبدو أن سموه يقدرها كثيراً، وغالباً ما يتحدَّث عنها. وفي الموسيقى، خلافاً للفنون الأخرى، فإن أفضل طريقة للتقدم هي العزف كثيراً مع الآخرين، لتجريب العديد من الأساليب الفنية. ومن النادر حقاً أن يصبح المرء متمكناً اعتماداً على ذاته.

أهاب بها سموها أن تعزف، فردت قائلة: «لم أعد أدري كيف أضبط المشط»، ولكنها مع ذلك عزفت على نحو جميل للغاية. أشارت بقولها: «من المؤكد أن تلك المرأة محظوظة، ولكن فيما عدا ذلك فإنها يبدو أنها تتمتع بطبيعة شخصية مميزة. وهم يقولون إن إنجابها له

(1) التي أقيمت للاحتفال بالترقية التي تمت أخيراً.

(2) بسبب الوضع الذي تقتضيه هذه الآلة الموسيقية ممن يعزف عليها.

(3) من مصدر التوارث الذي انحدرت الموسيقى عبره إليها، الإمبراطور دايجو.

الطفلة التي لم يحظ بها حتى ذلك الحين ثم اتخاذها لقرار إعطائها لسيدة عظيمة، بدلاً من الاحتفاظ بها والحكم عليها بالاندراج في النسيان، يوضح طبيعتها الاستثنائية». واصلت سموها الحديث لبعض الوقت، فيما هي تعزف.

أشار معاليه بقوله: «إن شخصية المرأة هي التي تكفل لها الاحترام»، وواصل الحديث ليناقش مثالاً إثر الآخر: «الآن، زوجة الإمبراطور ليس هناك ما يعيب مظهرها، بقدر ما يمكنني تقديره، وقد حظيت بتربية جيدة كأي سيدة نبيلة أخرى، ولكن شاء لها حظها أن تقلل من بهائها سيدة غير متوقعة بالمرة، وهو ما لا يمكنني أن أعتبره درساً قوامه أنه ما من شيء في الدنيا يمضي على نحو ما ينبغي. وأعتزم جعل هذه الفتاة تصبح ما أريده على الرغم من ذلك، حتى وإن كانت هذه الإمبراطورة ذات الأم المحظوظة تتابعها في السباق عن كثب. وما إن تشق طريقها حتى لا يكون هناك سبيل إلى وقفها فيما أخشى».

«لكن لم؟ لقد كان معاليه الراحل مقتنعاً بأنه في النهاية ستقدم هذه الدار فتاة يواكبها حظها[1] وكان حريصاً على التيقن من أن تحصل الإمبراطورة على أفضل فرصة ممكنة. وما كان هذا الظلم ليقع لو أنه كان لا يزال حياً». كانت غاضبة تماماً من جينجي فيما يتعلق بهذا الموضوع. فيما راحت تتأمل الانسدال الرشيق لشعر حفيدتها، والطريقة الجميلة التي انسدل بها، فيما هي تعزف بعذوبة وبراءة على السونو كوتو، بدا لها أن هذا المحيا الفاتن وهذه النظرات المختلسة، الخجول، والطريقة التي ضغطت بها يدها اليسرى على الأوتار، كل هذا اتسم بكمال يشبه كمال الدمية. وبدت لها الفتاة فاتنة بلا حدود. ونحّت الآلة الموسيقية بعيداً بعد مصاحبة حفيدتها في العزف قليلاً.

قرّب معاليه الآلة الموسيقية منه، وكانت حرية عزفه بالأسلوب بالغ الحداثة، على سبيل التغيير، ومن مقام الرايتشي، مصدر بهجة كبيرة. تساقطت الأوراق من الأشجار في الحديقة إلى أن لم يعد هناك المزيد منها[2]، بينما انحنت النسوة الموغلات في العمر مستندات إحداهن على الأخرى هنا وهناك وراء الستائر القائمة. غنى معاليه: «ومع ذلك

(1) يعد تو نو تشوجو لتزويج كوموي نو كاري من ابن سوزاكو وهو في التاسعة من عمره الآن. وذلك على الرغم من الخطر الذي تشكله ابنة السيدة القادمة من أكاشي («هذه الأم المحظوظة»).

(2) كأنما تأثرت بالموسيقى.

كم كان النسيم عليلاً!»[1] وأشار بقوله: «ليس لها عمق آلة الكين[2]. ولكن كم كانت هذه الأمسية مؤثرة! ألن تعزف مجدداً؟» عزفا معاً «رياح الخريف». وعندما غنى معاليه كذلك بصوت رائع، حدَّثت سموها نفسها بأنه رائع للغاية بدوره. وعندئذ وصل الشاب النبيل، كأنما ليضيف المزيد إلى بهجتهم.



ناي وآلات إيقاع

«تفضل بالدخول!»، جعل معاليه الشاب يجلس وراء ستار قائم. قال: «نادراً ما أراك هذه الأيام! ما الذي يبقيك عاكفاً على كتبك بهذا الدأب؟ لن يجديك نفعاً أن تعرف أكثر مما يتطلبه نبل منصبك، كما لا بد أن سموه يعرف، ولكني آسف للغاية لأنك تعزل نفسك بهذه الطريقة، وذلك على الرغم من أن لديه أسبابه حتماً التي تدعوه إلى ذلك». واصل حديثه: «عليك بالعزف على آلة موسيقية بين الحين والآخر! فالناي، في نهاية المطاف، يمنحنا حكمة القدماء أيضاً»[3].

كان عزفه جذاب الأسلوب ومبهجاً للغاية بحيث توقف العزف على الآلتين الأخريين، وبدلاً من ذلك أدّى معاليه في حرص «مصبوغة بزهور الهاجي»[4] وهلم جراً. قال: «لقد أفلت أبوك، الذي يحب بدوره هذا النوع من العزف من عبء واجباته الثقيله. أليس كذلك؟ بلى، في هذه الدنيا القاسية يحسن المرء صنعاً إذا علّق الآمال على أن يحيا كيفما طاب له». كان قد احتسى بعض الخمر. وفي غضون ذلك، أرخى الليل سدوله، فأنيرت المصابيح،

---

(1) من مقدمة لقصيدة واردة في «ونكزوان»، وهي مختارات صينية كان كل رجل من رجال البلاط يعرفها «أوراق الشجر تنتظر لتسقط، ومع ذلك كم كان النسيم عليلاً!».

(2) تتحدَّث طرفة تلي الفقرة المقتطفة تواً من «ونكزوان» عن أنه كيف أن نبيلاً بكى لدى سماعه عزف نبيل آخر على آلة الكين الموسيقية، وذلك على الرغم من أن العمق العاطفي للكين لم يكن كبيراً حقاً إلى ذلك المدى، ومن المفترض أن الدموع، شأن أوراق الخريف، تتساقط من تلقاء ذاتها ببساطة عندما تحين لحظة حدوث ذلك.

(3) يمكن للباحث المتعمق أن يعزف الموسيقى، حيث أن كونفوشيوس عزا إليها قيمة كبيرة.

(4) بيت من أغنية سايبارا.

وتناول الجميع الفاكهة والأرز المطهو بالماء الساخن[1]، ثم بعث بالفتاة إلى غرفة أخرى.

همست النسوة العجائز، واللواتي خدمن سموها بصورة حميمية: «هذان الاثنان مقبلان على خيبة أمل كبيرة». كان معاليه يبقيهما الآن منفصلين بصورة صارمة للغاية، بحيث أنه ما كان ليدع الشاب يسمع صوت عزف ابنته على الكوتو.

كان معاليه قد نهض، كأنما هو بسبيله إلى مغادرة الدار، لكي يتجاذب أطراف حديث خاص مع إحدى النساء، وبينما كان ينسل مبتعداً، تناهى إليه صوت هذه الهمسات. أصغى، وقد ثار اهتمامه، فقد كان الحديث يدور حوله.

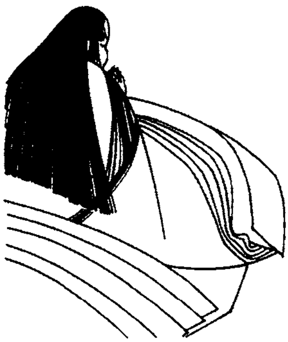
«إنه يعتقد أنه عليم ببواطن الأمور، ولكن ذلك هو قدر الأب».

«سيحدث أمر أو آخر في يوم من الأيام».

رحن يتغامزن: «يقولون إن الأب هو من يعرف ابنه. ولكنني لا أصدق ذلك».

حدَّث نفسه: «كم هذا فظيع! كنت أعرف ذلك! لا، الأمر لا يثير دهشتي، ولكنهما طفلان، وأنا لم ألزم الحذر. آه، الحياة ليست إلا إزعاجاً! تبينت أمامه ملامح الصورة الكاملة، ولكنه على الرغم من ذلك مضى مبتعداً في صمت.

كانت صيحات مرافقيه التحذيرية عالية للغاية، فقالت الوصيفات إحداهن للأخرى: «إذن فهو لم يغادر إلا الآن فحسب! في أي شق كان مختفياً؟ ما أعجب أن يكون لعوباً في عمره هذا!».



راهبة

استبد الندم بالمتهامسات على حديثهن: «عندما أقبلت تلك الرائحة الزكية القوية متمازجة مع النسيم، حسبت أنّها رائحة النبيل الشاب!».

راح معاليه، في طريق عودته، يفكِّر في أن الجميع سيفكِّر ويقول إن ارتباط هذين الاثنين، حتى وإن لم يكن كارثة فإنه

(1) يمكن أن تشمل «الفاكهة» (كودامونو) أيضاً المكسرات والحلوى المعدة، ويتألف «الأرز المطهو بالماء الساخن» (يوزوكي) من أرز بني مطهو في الماء الساخن.

على الرغم من ذلك ليس مشرفاً. قال لنفسه: آه، هذا يثير غضبي حقاً، عندما تخلص سموه من زوجة الإمبراطور بمثل هذه الضراوة، وكنت قد علقت الآمال على هذه الفتاة لأسبقه عن طريقها! كان على الدوام متفهماً على نحو جيد، عموماً، مع جينجي، وهو لا يزال متفاهماً معه، ولكنه تذكر تنافسهما الطويل بمرارة على مثل هذه الأمور، ولم ينل إلا قسطاً محدوداً من النوم في تلك الليلة. «لا بد من أن سموها قد لاحظت ما يجري. لا بد أنها كانت تسمح لحفيديها المحبوبين بأن يفعلا ما يطيب لهما». كان ذلك هو ما قالته النسوة، وقد أثار حنقه الشديد، واستبدَّ به الغضب إلى حد أنه لم يستطع كبح جماح الاندفاع الطائش إلى كشف النقاب عن هذا الموضوع.

زار سموها بعد يومين. وكان يسعدها أن يزورها على نحو متواتر، ولذا فقد كان قدومه بالنسبة لها مناسبة سعيدة، فرتبت جدائلها المنسدلة على جانبي وجهها، على طريقة الراهبات، ولبست رداء رسمياً، وحرصت على ألا تقابله وجهاً لوجه، حيث أنه على الرغم من كونه ابنها إلا إنها كانت تحمل له أعظم الإجلال(1).

بدا معاليه في حالة مزاجية معتكرة. استهل حديثه بالقول: «الأمر مربك بالنسبة لي، أعني زيارتي لك على هذا النحو، ولست أحب تصور ما لا بد أن النساء عندك يعتقدنه فيما يتعلق بي. إنني أعرف أنني لست على نحو ما ينبغي أن أكون تماماً، ولكنني آمل مواصلة لقائك طالما إنني على قيد الحياة، وأن أظل دوماً على اتصال بك عن كثب. غير أنه الآن، وبفضل ابنتي هذه التي لا يُرجى منها أمل، فقد حدث شيء أغضبني منك، وعلى الرغم من أنني أفضل كثيراً ألا أغضب منك، فإنني أخشى أنني لا يمكنني الحيلولة دون ذلك». جفف دموعه.

شحب وجه سموها تحت زينتها، واتسعت عيناها دهشة. وتساءلت: «فيم أثرت استياءك في عمري هذا». رقَّ قلبه لها، في نهاية المطاف.

لقد ائتمنتك على هذه المخلوقة الصغيرة، ولم يكن لي شأن بها قط. ولكن مع خيبة الأمل المتمثله في رؤية الابنة التي حافظت عليها وهي تخسر السباق المحتدم في البلاط،

(1) أبقت ستارة بينهما، على الأقل بصورة جزئية.

اعتمـدت علـى أن أجعل من هذه الابنة على الأقل شـيئاً يذكر، وهذه المفاجأة الأخيرة تعد ضربة كبيرة. وربما يكونان أوسـع الشـباب معرفة تحت الشـمس، لكنهمـا تربطهما علاقة القرابة، وسيجد الناس كل ذلك مضجراً قليلاً وكئيباً، الأمر الذي سيكون مؤسفاً بالنسبة له كذلك. وسيبدو من الأفضل بالنسبة له أن يلقى ترحيباً حاراً من عائلة مرغوب فيها إلى حد كبير ولا تربطه بها صلة قرابة. ولسـوف يكون لدى سـموه شـيء أو شيئان يقولهما كذلك، عندمـا يسـمع بهذا الاقتران الغريب بين ابني خؤولة. وحتـى لو كان الأمر لا بأس به، فعلى الأقل كان بوسـعك تركه يعلم، وإبداء ترحيب ظاهر، والقيام بشيء يضفي على الأمر روح المناسبة. ليس بمقدوري إلا أن أستنكر الطريقة التي سمحت بها لهذين الشابين بأن يفعلا ما يحلو لهما».

لـم تكـن سـموها تدري من جليـة الأمر شـيئاً، وقد صُدمـت بما سـمعت: «إنني أتفهم تمامـاً أنـك ينبغي أن تتحدَّث علـى هذا النحو، ولكنني ليسـت لديَّ أدنى فكـرة عما يفعله هذان الاثنان. وهذا أمر مستهجن حقاً، وهو كذلك بصفة خاصة بالنسبة لي، وإنني أستنكر اتهامـك لي كذلـك، فقد أبديت اهتماماً خاصاً بها منذ تعهدتها برعايتي، وقد علقت الآمال فـي دخيلة نفسـي على جعلهـا أعلى مرتبة حتى في أمـور ما كان لك أن تلحظهـا أبداً. ولم يحدث قط أن سـمحت للعاطفة بأن تعمي ناظري، فأرغب في السـماح بأي شـيء من هذا القبيـل، حتـى قبل أن يبلغا مبلـغ الرجال والنسـاء. ولكن من الذي أبلغك بهـذا؟ ينبغي أن تخجل من نفسك، حيث تلومني بهذه الطريقة بسبب شائعة روَّج لها متقولون أشرار، لأنها ليس لها أساس، وكل ما هنالك أنك تخاطر بتلويث سمعة الفتاة المسكينة».

«ليس لها أسـاس. هل هذا صحيح؟ كل النسـاء المحيطات بك يبدو أنهن يضحكن في سـريرتهن على هذا الأمر، وهـو ما يثير الحنق والقلق البالغ!». قـال هذه الكلمات، وغادر المكان. وأحس كل من يعرفون بجلية الأمر بالأسـف الشـديد حقاً، بل إن النسـوة اللواتي كن يتهامسن في ذلك المساء كن الأكثر ضيقاً، ورحن يتساءلن على نحو بائس عن السر في أنهن لم يمسكن عليهن ألسنتهن.

أطل معاليه على ابنته، التي لم تشكّ في أي شيء، والتي بدت عليها البراءة، وتأثر بمدى عذوبتهـا وجاذبيتهـا. راح يكيل اللوم للقائمـات على رعايتها: «إنها فـي مقتبل العمر نعم،

ولكنني ساذج كبير، لأنني أنا الذي لا يعرف شيئاً عن حماقتها الشابة كان لديَّ طموح كبير بالنسبة لها». لم يجدن رداً.

تنهدن جميعاً: «في هذا النوع من الأمور، يا مولاي، فإن الحكايات القديمة تشير إلى أنه حتى ابنة العاهل الأثيرة قد تضل الطريق، ولكن شخصاً على علم بدخائل الأمر بصفة عامة هو من يرتبه لها، وفي هذه الحالة فإنهما كانا معاً يوماً بعد آخر طوال سنوات، وقد اعتبرنا أنه من المسلم به أنهما صغيران للغاية، فليس بمقدورنا أن نتجاوز ما اعتقدته سموها السبيل الأفضل ونفصلهما بأنفسنا، ثم إنه يبدو أنه تقرر في العام قبل الماضي إبقاء كل منهما منفصلاً عن الآخر، وعلى الرغم من أن بعض الشبان يفلحون بشكل أو بآخر في النضج قبل الأوان سراً، فإن هذين الاثنين لم يبد عليهما من المؤشرات ما يدل على أن شيئاً من هذا قد حدث لهما، بحيث أن الأمر لم يخطر على بالنا».

«حسناً، عليكن بإبقاء هذا الأمر طي الكتمان، في الوقت الحالي، ولسوف يتسرب في نهاية الأمر، ولكن احرصن في الوقت الراهن على إنكار أنه قد حدث على الإطلاق، ولسوف أنقلها إلى داري، إن موقف سموها مخيب للآمال إلى أبعد الحدود، وعلى الرغم من ذلك فليس بمقدوري تصور أنكن تغاضيتن عن هذا».

رحبت الوصيفات بهذه الكلمات، بالرغم من حزنهن على الفتاة: «آه، لا، يا مولاي لم يحدث هذا قط، ما عليك إلا التفكير فقط كيف سيأخذ المستشار الكبير[1] هذا الأمر! إن السيد الشاب له جدارته تماماً، بالطبع، ولكن أي جاذبية هي التي تكمن في الاقتران بأحد العامة؟».

تحدَّث معاليه مع ابنته، ولكنها كانت ما تزال أقرب إلى أن تكون صبية صغيرة، ولم يصل إلى مداركها شيء مما قاله، وقد جعله هذا يتأثر إلى حد الانخراط في البكاء، وأجرى مشاورات سرية مع النسوة المناسبات للوصول إلى طريقة لمنعها من الوصول إلى إهدار حياتها، وفي غضون ذلك ادخر كل غضبه لسموها.

حزنت سموها عليهما كليهما بصورة عميقة، ولكنها ربما كانت مالت بشكل خاص

(1) زوج أم كوموي نو كاري.

إلى الفتى، الذي كانت عواطفه مما يقربه إلى القلب، لأنها لم تتفهم السر في حنق ابنها على هذا النحو الموحي بغلظة القلب، ولم يكن قد أبدى اهتماماً بالفتاة من قبل قط، وقد كانت الطريقة التي تولت بها رعايتها هي التي شجعته على أن يفكِّر في ولي العهد كزوج لها في المقام الأول، وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا كان قدرها أن تتزوج أحد العامة، فهل يمكن لأي شخص آخر أن يكون نداً له، إنه يمكن أن يتطلع إلى ذُرى تتجاوز كثيراً كل ما يمكن أن يتطلع إليه أمثالها! نعم لا بد أن ولعها به هو الذي جعلها تغضب كثيراً من معاليه، ترى إلى أي حد كان يمكن أن يمضي في غضبه لو أنها سمحت له بأن يسبر أغوار خواطرها!

الآن ها هو الفتى النبيل يصل من دون أن يتوقع أن يلقى توبيخاً، وفي الأمسية الأخيرة كان هناك عدد من الناس أكبر من أن يسمح له بالإعراب عن كل ما يعتلج في فؤاده، وهكذا فقد أقبل في وقت المغيب تقريباً، وقد استبد به الشوق أكثر من المعتاد، تكلفت سموها التي كانت عادة تحييه بسرور الابتسامات، وانطلقت في حوار جاد، أتاح لها مدخلاً لتقول: «إنني في موقف مؤلم لأن معاليه غاضب مني بشأنك، لقد أسلمت فؤادك على نحو بالغ الوداعة، ويؤسفني القول إن ذلك يسبب المتاعب للآخرين، وقد كنت أوثر ألا أخبرك بذلك، ولكنني حسبت أنك ينبغي أن تعلم بجلية الأمر».

فهم جلية الموقف في التو، حيث أن الأمر كان يشغل باله كثيراً، فاحمر خجلاً وقال: «ما الذي يحتمل أنك تقصدينه؟ لم أخالط الناس إلا قليلاً منذ اعتكفت في مكتب هادىء بحيث أنني لا يمكن أن أكون قد أتيت شيئاً يغضب أحداً مني».

أثار محياه الذي غمره الخجل شفقتها، فقالت: «حسناً، ولكن عليك أن تلتزم الحرص من الآن فصاعداً». انتقلت بالحديث إلى موضع آخر.

أدرك بمزيد من اللوعة أن مراسلة صديقته ستكون أمراً أكثر صعوبة مقارنة بذي قبل، فلم يتناول شيئاً من الطعام الذي قُدم له، وتظاهر بالخلود إلى النوم، لكنه كان يائساً، وما أن مضى الجميع إلى مراقدهم، حتى عمد إلى اختبار الباب المنزلق الفاصل[1]، ولم يكن موصداً من قبل قط، ولكنه أُحكم رتاجه هذه المرة ولم يصدر صوت من الداخل، فتلكأ

(1) المفضي إلى غرفة كوموي نو كاري، وربما كان في قسم فرعي من الغرفة، بينما هي في قسم فرعي آخر.

هنالك على نحو بائس، مستنداً إليه وفي غضون ذلك استيقظت الفتاة لتسمع صوت حفيف الخيزران ترحيباً بالريح وإوزة برية عابرة تطلق صيحة خافتة، وفي غمار احتدام عذابها الصبياني، غمغمت تحدِّث نفسها: «هل الإوزة المحلقة عالياً حزينة مثلي»[1].

اضطرب بعمق، عندما أحسَّ بحضور شاب على نحو عذب على الجانب الآخر من الباب المنزلق، قال: «افتحي الباب! هل كوجيجو معك؟» لكنه لم يسمع نأمة، كانت كوجيجو ابنة مربيتها، أحست بالحرج لأنها تركته يسمعها، وهي تحدِّث نفسها، وكانت بلا تفكير قد دست رأسها تحت الأغطية، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أن الفتاة الصغيرة قد أساءت فهم ما يدور في خاطره. مع وجود مربيتها والأخريات اللواتي رقدن قريباً منها لم تجرؤ على الحركة، وظلا كلاهما صامتين.

«عندما تمر الإوزات عالية في جوف الليل، منادية رفيقاتها،

ما أقسى إقبال الريح بدورها مصدرة الحفيف عبر الدغل!».

وأي برد قارس تجلبه معها!»[2] عاد متنهداً إلى سموها ورقد، وظل ساكناً تماماً خوفاً من أن تسمعه فتستيقظ.

في صبيحة اليوم التالي، خرج مباشرة من غرفته، وقد ساوره الخجل على نحو غامض، وكتب لها رسالة، ولكن اليأس استبد به لأنه لم يستطع العثور على كوجيكو ولا المضي إليها بنفسه، أما الفتاة فإنها لم تحس بالخجل إلا لأنها تلقت لوماً وتعنيفاً، وبخلاف ذلك ظلت متألقة وعذبة كعهدها، من دون أن تكترث بما قد ينتظرها أو لما قد يحس به الآخرون، بل إنها لم تعترض عندما ناقشت وصيفاتها الأمر فيما بينهن، فبالنسبة لها لم يكن الأمر يستحق كل هذه الضجة، ولكن من يعنيهن أمرها لمنها على عدم التزامها الحذر لوماً شديداً، إلى حد أنها لم يكن بمقدورها كذلك أن تبعث إليه بكلمة، وربما كان حرياً بأحد الكبار الناضجين أن يبتكر طريقة للقيام بذلك، لكن فتاها الشاب كان لا يزال أقل نضجاً

(1) كوموي نو كاري، تعبير من جينجي مونو جاتري كوتشوشاكوشو إينو وأكا 165 «هل الإوزة المحلقة عالياً في السماء المتشحة بالضباب حزينة مثلي؟ لماذا لا تنقشع كآبتي أبداً؟» وهذا هو مصدر الاسم الذي تعرف به المتحدثة تقليدياً.

(2) يردد هذا الانفعال أصداء كوكين روكوجو 423 بشأن ريح الخريف.

منها، فلم يستطع إلا أن يلزم الحداد.

ولـم يعـد معاليـه، الـذي كان غاضباً أشـد الغضب علـى سـموها، إلى الـدار منذ ذلك الحين، ولـم ينبس ببنت شـفة عن اكتشـافه لزوجته، وكل ما هنالـك أنه أوضح أنه في مزاج معتكـر تمامـاً، وذهب إلـى القول: «لقـد قامت الإمبراطـورة بدخول القصر دخـولاً مؤثراً فـي النفوس[1]، وزوجة الإمبراطور متشـائمة للغاية حول احتمالات مسـتقبلها إلى حد أنه يؤلمنـي أن أراهـا علـى هذا النحو، وسـوف أدفعها إلى الانسـحاب لنيل قسـط من الهدوء والراحـة، ووصيفاتها لـم يعرفن قط لحظة سـلام مع اسـتمرار اسـتدعاء جلالته لها بصورة مستمرة للقيام على رعايته وزيارتها ليلاً نهاراً، وأحسب أنهن يتعرضن لضغط كبير».

هكـذا جلب ابنته بصورة فجائية إلى الدار. وقد قـاوم جلالته منحها الإذن بالانصراف، ولكن معاليه تذمر إلى أن وافق جلالته، وأخيراً أفلح في انتزاعها من القصر انتزاعاً. قال لها ربما تجدين نفسك في مواجهة مهام لم يُقدر لها الاكتمال، فأحضري أختك إلى هنا، لكي تسري عن نفسك معها. إنها موجودة في دار سموها، حيث هي على ما يرام تماماً، باستثناء أنني أخشى أنها لـم يمكن بمقدورها تجنب أن تصبح على صلة بصحبة مزعجة، صحبة غير مناسبة لها بالمرة في سنها هذه. وأحضرها فجأة إلى داره.

مُنيـت سـموها بخيبة أمل بالغـة، وقالت: «كنت حزينـة ووحيدة للغايـة، بعد أن فقدت ابنتي التي ليس لي سواها، كانت رعايتي لهذه البنت مصدر بهجة كبرى لي. وحسبت أنني سـأعتني بها طوال مـا بقي لي من عمر، وعلقت الآمال علـى أن أحظى بروعة وجودها في كل يوم من أيام شـيخوختي. يا للحسـرة، إن قرارك المفاجىء باسـتبعادي هو ضربة مريرة لي!».

ردَّ عليها باحترام قائلاً: «كل ما فعلته هو القيام بتعبير طبيعي عن سخط لـم أستطع مقاومة الشـعور به. كيف يمكن أن يكون هناك أي تسـاؤل عن إبعادي لك؟ إن الابنة التي وضعتها في خدمة جلالته تتألم بسـبب احتمالات مسـتقبلها، وقد انسـحبت أخيراً من القصر لتلوذ بـداري، حيـث كنت أحسّ بالحزن لرؤيتها على كل هذا القـدر من فتور الهمة والغم، وكل

(1) دخولها الاحتفالي للقصر في مرتبتها الجديدة.

ما هنالك أنني حدَّثت نفسي بأنني سأحضر الفتاة إلى داري لبعض الوقت بحيث تتسليان معاً، وتُشعر زائرتي بأنها أفضل حالاً. وليست لديَّ رغبة في الاستخفاف بكل ما قمت به لرعايتها وتربيتها».

كان قد اتخذ قراره، ولم يكن ليغيره تحت وطأة أي شيء قد تقوله. وكل ما كان بوسعها أن تحس به هو أسف مؤلم وغائر في النفس. قالت باكية: «لشد ما يمكن للفؤاد أن يكون قاسياً. حتى هاذان الشابان حجبا أموراً عني. ومع ذلك، فلا عليك لأنك أنت نفسك بكل تفهمك الرائع قد انقلبت عليَّ، والآن ها أنت تنتزعها بعيداً. وأقول لك إنها لن تكون بمأمن هناك على نحو يفوق ما كانت عليه وهي معي».

عندئذ بالتحديد وصل الفتى، وكان يقبل متأخراً عادةً، مترقباً أي فرصة مهما كانت بعيدة المنال. وأشعره وجود عربة معاليه بتأنيب الضمير. فانسل مبتعداً ليلوذ بفرقته، وكان أبناء معاليه ـ ملازم الميمنة والمستشار الأصغر المسؤول الثاني في نوبة الحراسة والمستشار والمفوض ـ جميعاً حاضرين هناك، لكن أحداً منهم لم يسمح له بالمرور عبر ستائر سموها الحاجبة. وكان المشرف على حراسة بوابة الميسرة والقائم بأعمال المستشار، على الرغم من أنهما ولدا لأم أخرى، يزوران سموها بمزيد من الأدب والكياسة في ذلك الوقت، وكان كل أبنائه حاضرين، لكن بدا جلياً أنه ما من أحد يتمتع بما يداني ما يحظى به هذا الشاب من جاذبية وظرف، وكانت معاليها تؤثره على نحو يتجاوز الآخرين، وكانت حفيدتها هذه قد أصبحت الوحيدة المقربة لديها، والتي تؤثرها وتبقيها معها على الدوام. وقد ساورها الشعور بالوحدة المطبقة، بعد أن غادرت الفتاة دارها.

قال معاليه وهو يغادر الدار: «إنني ماض إلى القصر الآن، ولسوف أعود لاصطحابها حوالي المساء».

حدَّث نفسه قائلاً: أحسب أنه يتعين عليَّ تدبر أفضل المخارج من هذا الوضع السيىء. ولكنه ظل مع ذلك يمعن التفكير بشأن هذه المسألة. لا، ما إن يعلو شأن ذلك الشاب قليلاً، ويبدو ذا شأن، حتى أدرس جدية نواياه، وأوافق على الاقتران في نهاية المطاف، إذا تم الأمر على الوجه الصحيح فحسب. وعلى أي حال فإنه ما من توبيخ من جانبي بمقدوره أن يمنع هذين الاثنين من إحداث فضيحة صبيانية طالما ظلا هناك معاً، وليست سموها

هي التي ستضع حداً للأمر. وهكذا فإن قلق زوجة الإمبراطور هو الذي أعطاه العذر لنقل ابنته إلى داره، بعد أطروحات بارعة للأمر على الجانبين[1].

كتبت سموها لها تقول: «أحسب أن معاليه غاضب مني، ولكنني أعرف أنك أنت، يا عزيزتي، لا تزالين تدركين مقدار ما تمثلينه بالنسبة لي. تعالي لطفاً لزيارتي!» وهكذا أقبلت مرتدية أبهى ملابسها، وقد بدت بديعة الجمال. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، وعلى الرغم من أنه كان جلياً أنها لم تنضج بعد، إلا أنها كانت ذات طلة فاتنة وصبيانية تماماً.

بكت سموها وهي تقول: «كنت فتاتي المدللة الخاصة ليل نهار، ولم أدعك تغيبين عن ناظريَّ، ولسوف أفتقدك على نحو رهيب. كانت خيبة أمل بالغة بالفعل أنني لم يكن لديَّ إلا وقت محدود لرؤية إلام سيصير أمرك. وكم هو محزن أيضاً، الآن وأنت تغادرينني، أن أفكِّر في الموضع الذي تمضين إليه!». لم ترفع الفتاة رأسها قط خجلاً، ولكنها وقفت هنالك تبكي فحسب.

أقبلت مربية الفتى، وتدعى سايشو، وهمست: «سيدتي، لقد رعيتك كثيراً مثلما رعيت مولاي الشاب، ولذا أتمنى لو أنك لا تفارقينا! ففي بحزم، حتى وإن قرَّر معاليه تزويجك من شخص آخر!».

ازداد خجل الفتاة عن ذي قبل، ولم تفه ببنت شفة.

«تعالي، لا تبثي أفكارك في رأسها. لكل منا جميعاً قدره، وما من أحد يعرف إلى أين يمضي بنا».

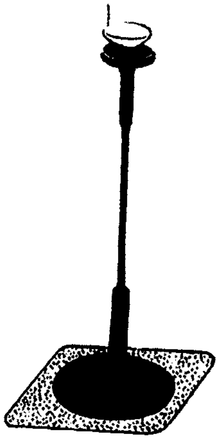
قالت، وقد جعلها الغضب حادة اللسان تماماً: «لا، سموك، يبدو أن معاليه يزدري مولاي. ولكن ما عليك إلا أن تسألي أي أحد عما إذا كان مولاي حقاً أقل جدارة من أي شخص آخر!».

كان الفتى يتطلع من وراء ستار. وكان عادةً يحس بالقلق من ضبطه متلبساً بذلك، ولكنه الآن كان عاكفاً على مسح دموع الأسى، عندما لاحظته مربيته باختلاجة شفقة حادة، وأفضت بخطة لسموها، وفي غمرة الارتباك عندما أرخت الظلمة سدلها جمعت

---

(1) عذر لنقل كوموي نو كاري إلى داره، بعد طرح الأمر على زوجته وأمه.

الاثنين سوياً.



شمعة على منصب

بدا كل منهما خجولاً في حضور الآخر، وأخذ قلباهما يدقان بسرعة. وفي البداية راحا يبكيان في صمت. قال: «أحس كأنه بوسعي الاستسلام، الآن ومعاليه يتصرف بكل هذه القسوة، ولكنني أعرف إلى أي حد ستفتقدينني إذا فعلت ذلك. لماذا تبعدينني عنك، فيما هذه الأيام القليلة الماضية كان يمكن أن تمنحنا فرصة للقاء؟». بدا فتياً للغاية وشديد الجاذبية.

ردت قائلة: «إنني على يقين من أنني أبادلك الشعور نفسه».

«هل تحبينني؟».

هزت رأسها هزة خفيفة موحية بالموافقة، بعيداً عن التصنع والتكلف.

أُنيرت المصابيح. وجعلت المؤشرات الدالة على وصول معاليه من القصر، وبصفة خاصة صيحات مرافقيه التي تلفت الأنظار، النسوة ينطلقن مسرعات، وهن يطلقت صيحات الدهشة. ارتجفت الفتاة خوفاً، ولكن فتاها العنيد نحّى جانباً أي توبيخ قد يُكال له، ورفض تركها تمضي لشأنها.

أقبلت مربيتها تبحث عنها. قالت عندما رأت ما يجري: «آه لا. لا يمكنهما فعل ذلك. الأمر صحيح. لا بد لمعاليه من أن يعلم بالأمر». وواصلت حديثها في همس غاضب: «هذا فظيع. إنه كذلك حقاً! كيف سيتلقى مولاي المستشار الكبير الأمر، دع جانباً ما سيقوله معاليه! إنه على ما يرام تماماً. ولكن ما أفظع التفكير في أن قدرها أن تستهل حياتها مع شخص في المرتبة السادسة!» تمكنا من سماعها بسهولة، حيث أن نواحها ترامى إليهما من وراء ستارهما».

حدَّث نفسه قائلاً: إن ما تقصده يعني أن مرتبتي لا قيمة لها. واستبد الحنق به على الدنيا إلى حد أن حماسه فتر إلى حد ما، فقد كان ما سمعه أكثر ما ينبغي. قال: «استمعي إلى ذلك!.

كيف يمكنها الاستخفاف بهذين الكمين الأزرقين اللذين لا بد لي من ارتدائهما،

اللذين اصطبغا بلون أعمق عبر أرجوان دموعي؟[1]

ما أعظم خجلي!».

يا للحسرة، من أحزاني الكثيرة تعلمت معرفة ألوان الحزن

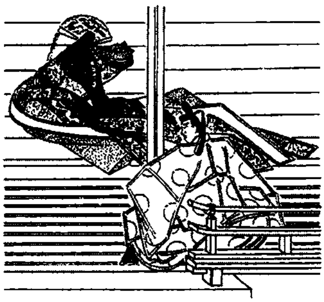
كيف أصبح الرداء بيننا مصبوغاً بمثل هذا العمق؟[2]».

لم تكد تتم حديثها حتى أقبل معاليه، فمضت مبتعدة رغماً عنها.

مضى الفتى ليرقد في غرفته، مختنقاً بالضيق المرير، الذي استبد به حيال تركه على هذا النحو. وقد انزعج أشد الانزعاج لسماع العربات الثلاث، وهي تسارع بالابتعاد في حذر إلى حد أنه تظاهر بالنوم، عندما بعثت معاليها تستدعيه، ولم يتحرك من موضعه. وكانت دموعه هي التي انسابت متدفقة. ولم يرغب في أن يرى أحد عينيه المتورمتين، ولما كان من المحتم أن ترسل معاليها في طلبه مجدداً، فقد هرب مسرعاً إلى حيث يمكنه الشعور بأنه أكثر تخففاً مما يثقل كاهله. وظل طوال الطريق إلى هناك يتقلب في شعوره بالبؤس. وظلت السماء التي كانت لا تزال على سوادها فوقه متشحة بالسواد الكثيف.

«كيف تطبق السماء، في فجر يضمه الجليد والثلج بهذه القسوة البالغة،

ويتكاثف الظلام في سبيل لا ينقطع من دموعي؟».



راقصة جوسيتشي

كان مقرراً أن يقوم سموه هذا العام بتقديم راقصة جوسيتشي، ولم يقم باستعدادات غير عادية لذلك، ولكن مع اقتراب الوقت المحدد انشغل مقر سكنه بالملابس الخاصة بالفتيات التابعات الصغيرات وهلم جراً[3]. وكان قد أمر بإعداد الثياب للنساء

---

(1) دموع الدم التي تُذرف (هكذا جرى العرف الأدبي) من قبل شخص يعاني من حزن بالغ بصفة خاصة.

(2) كيف أصبحنا مرتبطين أحدنا بالآخر أشد الارتباط؟ ناكاجورومو «الرداء بيننا» هو تعبير أدبي عن علاقة حب.

(3) كان مهرجان جوسيتشي يواكب طقس دايجوساي في عام صعود إمبراطور جديد إلى سدة الحكم أو طقس نينا ميساي، كما في هذه المناسبة. وكان يُقام في منتصف أيام الثور (أوشي)، النمر (تورا)، الأرنب (أو) والتنين (تاتسو) في الشهر الحادي عشر. وفي الحالة السابقة كان هناك خمس راقصات، وفي الحالة اللاحقة كان هناك أربع راقصات، ومن هاته الراقصات الأربع جاءت راقصتان في عام نيناميسي من بين كبار النبلاء واثنتان (ثلاث في عام دايجوساي) من بين الوصفاء الخصوصيين أو حكام الأقاليم. وفي يوم الثور كان الراقصات ومن يرافقونهن

اللواتي سيصاحبن الراقصة إلى القصر[1] في الجناح الشرقي، وأشرف على كل شيء في جناحه الخاص. وقدمت له جلالتها[2] أجمل الأشياء للمشرفات والفتيات التابعات الصغيرات. وكان معنى خيبة الأمل التي أثارها إلغاء مهرجان العام الماضي أن الوصيفات الخصوصيات قد بدون هذا العام متلهفات بصفة خاصة لإنجاز الأمور بصورة متألقة، ومضى الناس يتحدثون عن أن كل دار قدمت راقصة قد عقدت العزم بألف طريقة على أن تتفوق على الدور الأخرى كافة. وجاءت الراقصات من لدن المفتش والمستشار الكبير، المشرف على حراسة بوابة المسيرة، ومن بين الوصفاء الخصوصيين، ومن يوشيكيو، حاكم أومي الآن، ومن مراقب الميسرة الكبير، وجعلوا جميعاً راقصتهم تمكث في القصر، حيث أن جلالته أمر بأن تقوم الراقصات هذا العام على خدمته، وقد كان ذلك هو السبب في أن كل نبيل كان تواقاً لأن يتم اختيار ابنته.

استدعى جينجي ابنة النبيل كوريميتسو لتكون راقصته الخاصة، وكان هذا النبيل آنذاك حاكم تسو ومفوض الميسرة للمدينة، وقد اشتهرت ابنته بأنها رائعة الجمال. وقد كره كوريميتسو هذه الفكرة[3]، ولكن الآخرين أصروا، وقالوا: «يبدو أن المستشار الكبير يقدم ابنته التي أنجبها من امرأة أخرى غير زوجته[4]، فلماذا تخجل إذن من تقديم ابنتك؟». وفي نهاية المطاف وصل متردداً إلى قرار بإرسالها مباشرة إلى القصر. وجعلها تتعلم الرقص على نحو جميل للغاية في البيت، وأمعن التفكير في اختيار أفضل الوصيفات للقيام على رعايتها، وفي اليوم المقرر بعث بها قرابة المساء. وقد قام جينجي، في الدار، بإلقاء نظرة على التابعات الصغيرات لنسائه والمرافقات لهن، واختار أجملهن. ومن هنا فإن كلاً منهن، بحسب مرتبتها، نظرت إلى اختيارها على أنه شرف عظيم لها. وقرَّر أن يجعلهن يقمن بالمرور أمامه لكي يدربهن على تقديمهن لجلالته. وكن جميعاً جديرات بذلك،

من الوصفاء الخصوصيين يدخلون غرفة الجوسيتشي في جناح جونيدين. وفي اليوم الأخير (يوم التنين) كانت تقام مأدبة البلاط الكبرى المعروفة باسم تويو نو أكاري، وفي هذه المناسبة كانت راقصات الجوسيتشي يرقصن رقصة العذارى السماويات.

(1) دخول جناح جونيدين في يوم الثور.

(2) أكيكونومو.

(3) لم يرغب في عرض ابنته بهذه الطريقة.

(4) سوتوبارا، امرأة غير الزوجة الرسمية.

وتركـه مظهرهن ووجوههن حائـراً في اختيار الأفضل منهن، فقال ضاحكاً: «أتمنى لو كان بمقدوري أن أقدم لجلالته واحدة أخرى!». وجعل أساس اختياره النهائي الرشاقة وحسن السلوك.

جلس الطالب الشـاب كسـير الفؤاد، غارقاً في اليأس، من دون أن يلقي نظرة عابرة قط علـى الطعـام، أو حتـى من دون أن يبادر إلـى القراءة، إلى أن خرج في هـدوء، على أمل أن يتحسَّن مزاجه. وسعدت الوصيفات الأكثر شباباً لرؤيته بإطلالته ومظهره الرائعين وكبريائه المفعمة بالثقة ورشـاقته. ولأسـباب كامنة في قرارة ذاته لـم يسمح له جينجي بالاقتراب من سـيدة نيجـو، ولا حتى بالوصول إلى مصاريع مقـر إقامتها، وإنما أبقاه بعيـداً للغاية بحيث أنـه لـم يكـن يعرف كبـرى وصيفاتهـا. أما اليـوم فإنه، علـى نحو ما، بـدا وكأنه انسـل إلى الداخـل[1] في وسـط كل هـذا الهرج والمرج. وكانـوا قد أخرجوا الراقصة مـن عربتها إلى منطقة محاطة بالستائر، معدة خصيصاً لها في الممشى القريب من الباب المزدوج. اقترب منسلاً حتى وصل إلى الستائر، واختلس النظر من خلالها، وكانت هناك، راقدة مجهدة من وعثـاء الطريق. بدا أنها في مثل عمر صديقته تماماً، لكنها أطول قليلاً، وإذا كان هناك فارق بينهما، فإنها كانت أكثر لفتاً للنظر. كان المكان أكثر إعتاماً من أن يسـمح برؤيتها على نحو واضـح، ولكنها إجمالاً ذكَّرته كثيراً بصديقته، وعلى الرغم من أنها لـم تسـلبه لبه تماماً، إلا أن تأثره دفعه إلى أن يصدر حفيفاً من ثيابه. وكانت تتساءل في براءة عما يمكن أن يعنيه هذا الصوت، عندما قال:

«أنت يا من تتميزين بخدمة ربة تويو ـ أوكا،

لا تنسي كيف تُقت إلى المطالبة بك لتكوني لي[2].

داخل السـور المقـدس..»[3]. كان خطابه لها مفاجئـاً حقاً. تردد الصوت شـاباً مبهجاً،

---

(1) إلى الجناح الغربي، حيث تقيم مورا ساكي.

(2) سويشو 579 تأتي على ذكر «تويو- أوكا- هيمي» تظل هويتها بعيدة عن الوضوح بشكل مؤكد. ويبدو أن يوجيري يقصد أن الفتاة باعتبارها راقصة جوسيتشي هي الآن في خدمة الآلهة. و«مطالبته» هي شيمي، وهذه الكلمة لا تستخدم فقط للإحاطة بالحبال (المطالبة بامتلاك) قطعة أرض وإنما كذلك للحبل المقدس (شيميناوا) الذي يحدد مجالاً مقدساً.

(3) «أحببتك على الدوام». «داخل السور المقدس» («ميزوجاكي نو» تعبير مستمد من شويشو 1210 من نظم

ولكنها لم تستطع تصور صوت من هو، وكانت تحس بقليل من الانزعاج، عندما أقبلت النسوة المرافقات لها متعجلات لإحكام وضع زينتها، ودفعته كل هذه الضجة إلى المبادرة بالانصراف.

كان قد بقي بعيداً عن القصر لأنه ضاق ذرعاً بلون زيه الرسمي الأزرق الفاتح، ولكنه يمضي الآن إلى هناك لأن ألوان العباءات الجديدة كان مسموحاً بها بمناسبة مهرجان جوسيتشي. وبغض النظر عن فتنته الشابة، فقد بدا ناضجاً بالمقارنة مع من هم في مثل سنه، ومضى يتجول بروح مرحة. واهتم الجميع به، ابتداء من جلالته فمن دونه، وأعرب الكافة عن تقديرهم له.

استعدت كل راقصات الجوسيتشي على نحو رائع لدخولهن القصر، ولكن راقصتي جينجي والمستشار الكبير كانتا هما من استقطب سحرهما اهتمام الجميع، ولا شك في أن مرأى كل منهما كان مبهجاً، ولكن راقصة جينجي كانت هي التي ميزتها جاذبيتها حقاً، وكانت أعجوبة في جمالها المتألق، بحيث لم يكن بمقدور المرء أن يصدق أنها من هي عليه حقاً[1]، وربما كان ذلك هو السر في أن الجميع أشاد بها أعظم الإشادة. وكانت الراقصات أكبر سناً من المعتاد قليلاً، الأمر الذي جعل المهرجان مختلفاً بعض الشيء هذا العام.

أقبل جينجي بدوره ليلقي نظرة، وتذكر الصبية العذراء التي كانت قد لفتت نظره منذ وقت جميل، فكتب لها عند الغسق في يوم التنين[2]، وبوسعك أن تتخيل ما كانت عليه رسالته.

«لا بد أن تلك الراقصة الجميلة غدت أكثر حكمة، فالصديق الذي عرفته
عندما لوحت بكميّها الملائكيين غدا أكبر سناً الآن»[3].

هيتومارو. آه، أيتها العذراء، يا من تلوحين بكميك داخل السور المقدس على تل فورو، منذ أحببتك انقضت عهود طويلة». و«العذراء» الواردة في القصيدة تخدم إله إيسونوكامي، الذي يقع مزاره على «تل فورو».

(1) ابنة وصيف خصوصي فحسب.

(2) اليوم الذي كانت الراقصات تؤدين فيه رقصاتهن، بمناسبة مأدبة توبو نو أكاري.

(3) «غدا حكيماً تترجم بشكل أو بآخر إلى كاميسابينو» كبراً في السن والمكانة ليغدو شبيهاً بإله ويومىء هذا التعبير إلى الطابع المقدس لرقصة الجوسيتشي.

تأثرت المسكينة كثيراً، لأنه بعد كل هذه السنين كان لا يزال يحس بما يدفعه للتعبير عن مثل هذه المشاعر.

«حيث أنك ذكرت الأمر، فكل ذلك ماثل أمامي كأنما هو جديد،

لشد ما ذبت تحت عصابة الظل كالثلج على كميّك»[1]

جاء ردها جميلاً على ورق مزخرف باللون الأخضر[2]، ومكتوباً بخط متنكر، يبدو قاتماً حيناً وفاتحاً حيناً آخر، ويميل هنا وهناك نحو تواصل الكلمات. وحدَّث جينجي نفسه، بأن الرسالة التي تجيء من مثيلاتها تبعث البهجة في النفوس.

مضى الشاب يجوب أرجاء المكان منسلاً، الآن وقد استلطف إحداهن، لكنه لم يُسمح له بالاقتراب منها، وإنما تم إبعاده على عجل، ولما كان في سن الحياء والخجل، فقد استسلم متنهداً.

كان قد بدا أن جلالته يرغب في أن تقوم الراقصات على خدمته في التو، لكنهن تم صرفهن في الوقت الراهن. فمضت ابنة أومي إلى التطهير في كاراساكي وابنة تسو إلى نانيوا[3]. وقدَّم المستشار الكبير طلباً لإلحاق ابنته رسمياً بالقصر[4]، وتم توجيه اللوم إلى المشرف على حراسة بوابة الميسرة لتقديمه راقصة غير مؤهلة لاختيارها لمثل هذه المهمة، ولكنها بدورها تم الإبقاء عليها في خدمة جلالته. وعندما أشار تسو إلى أن منصب سيدة العاملين في القصر شاغر، بدا سموه سعيداً بما فيه الكفاية لتكريم تابعه وتقدير خدمته المفعمة بالولاء، الأمر الذي أحزن ابنه. وراح الشاب يحدِّث نفسه: لو لم تكن مرتبتي ما هي عليه، لوددت في سني هذا أن أطلبها لنفسي. لم تكن على كل ذلك القدر من الأهمية بالنسبة له، ولكن احتمال التخلي عنها حتى من دون أن يصارحها بمشاعره لم يؤد إلا إلى مضاعفة دموعه المنهمرة.

---

(1) يشير تركيب ألفاظ الأصل من طرف خفي بطرق مختلفة إلى رقصة الجوسيتشي.

(2) أوزوري نو كامي، ورق ربما كان مسطراً بطريقة تجعله مقاوماً للشمع. وكانت الثياب التي ترتديها الجوسيتشي توصف بأنها أوزوري.

(3) ابنة يوشيكو وكوريمتسو. كاراساكي قمة جبل عند الطرف الجنوبي لبحيرة بيوا، بينما تتطابق مانيوا بصورة تقريبية مع موقع أوساكا. وكانت طقوس التطهير المرتبطة بمهرجان جوسيتشي تقام في الموقعين كليهما.

(4) من المفترض أنها ستلحق بالقصر باعتبارها زوجة للإمبراطور.

كان أخ لهـا، هـو تابع خصوصي صغير، غالباً ما يجيء إلـى خدمته، وراح الآن يحادث الفتى بدفء غير معتاد: «متى تذهب راقصة جوسيتشي الخاصة بكم إلى القصر؟».

«هذا العام، يا مولاي، أو هكذا سمعت».

«إنها جميلة للغاية بحيث أنني أحببتها قليلاً، وأنا أحسدكم كثيراً على أنكم تظلون معها كثيراً، فهل لك أن تسهّل عليَّ رؤيتها من جديد؟».

«كيف يمكنني ذلك يا مولاي؟ فحتى أنا لا أستطيع رؤيتها كما يطيب لي. كيف يمكنني أن أتيح لسيد نبيل رؤيتها بينما لا يسمح لأي من إخوتها بالاقتراب منها؟».

«إذاً فرسالة على الأقل». وقدَّم له رسالة إليها.

كانـت تلك ضربة، حيث أن التابع قد تم تحذيره من مثل هذه الأمور، ولكن سـيده كان متلهفاً للغاية، وتغلبت الشفقة على الفتى الصغير، فحمل الرسالة ومضى بها.

سـرت أخته بالرسالة كثيراً، وربما كانت ماهرة بالنسبة لسنها، وكانت مكتوبة على ورق رفيع قاتم الخضرة[1]، وقد طُويت على نحو جميل، وأفصح الخط بوعد جميل.

«هل كان واضحاً بما يكفي في زخم النهار المتألق مدى تعلق فؤادي

بتلك العذراء الجميلة الراقصة وكميها الريشيين الملائكيين؟»[2]

كانا عاكفين على قراءتها، عندما أقبل والدهما عليهما، وفي غمار فزعهما لم يفلحا في إخفائها. فأمسـك بها، وطلب منهما تعريفه بمضمونها: «ما هذه الرسالة؟» فاحمرا إلى حد التضرج انفعالاً، ودمدم أبوهما: «إنكما لستما بسبيلكما إلى ما فيه الخير». ونادى ابنه الذي كان قد بدأ في التحرك تمهيداً للهرب.

«من الذي كتب هذه الرسالة؟».

«أعطانيها نجل سموه الشاب وأصر على ذلك».

---

(1) يومىء اللون إلى لون «عصابة الظل» (هيكييجي).

(2) «النهار المتألق» هو هيكييجي، مرادف لـ«عصابة الظل» الكمان الريشيان (أمانو هاسودى) هما في الخيال، كما راقصة جوسيتشي التي كان رقصها هو رقص كائن سماوي.

ابتسم أبوه ابتسامة عريضة. وقال مندهشاً: كم هي مبهجة جسارة هذا الشاب! إنك في مثل سنه، ولكنك لست جديراً بالكثير. أليس كذلك؟».

بعد الإشادة بكاتب الرسالة، أطلع أم ابنه عليها كذلك: «طالما أن النبيل الشاب كلّف نفسه عناء ملاحظتها، فإنني أفضل أن يحظى بها على أن أرسلها لخدمة القصر. وأعتقد أنه يمكننا الاطمئنان، أخذاً في الاعتبار بوضع سموه وكيف لم ينس امرأة عرفها قط. ولن أكترث بأن أكون كاهن أكاشي جديداً!». ومع ذلك فقد مضت الاستعدادات للمهرجان قدماً كذي قبل.

ما إن حُرم الشاب من الكتابة، حتى كرَّس فؤاده بمزيد من الإصرار للأكثر نبلاً من محبوبتيه فحسب، ومع مفاقمة الوقت لتوقه المفعم يأساً، لم يستطع إلا التساؤل عما إذا كان سيُقدَّر له أن يراها ثانية قط. ولم يرغب حتى في زيارة معاليها. وتدفقت في خاطره الذكريات عن المكان الذي عاشت فيه ولعبا فيه سوياً طوال تلك السنين، إلى أن فقد أي رغبة في زيارة الدار على الإطلاق. وبدلاً من ذلك فقد أوصد غرفته عليه.

قرَّر جينجي أن يعهد برعايته إلى السيدة المقيمة في الجناح الغربي من دارته الشرقية[1]. قال: «إنني أشك في أن سموها سيمتد بها العمر طويلاً، ولما كنت أنت قد عرفتيه منذ نعومة أظفاره، فإنني آمل أن تقومي على رعايته عندما ترحل». فوافقت عن طواعية، وانطلقت بدفء ورقة في القيام بهذه المهمة.

مضى الفتى يحدِّث نفسه، بعد أن نظر إليها نظرات سريعة وعابرة: من المؤكد أنها ليست بالحسناء بارعة الجمال! ومع ذلك فإن أبي لم يتخل عنها قط! لكم أود أن أكون أقل انجذاباً نحو محيا يجلب عليَّ كل هذا القدر من المعاناة! وكم أفضل امرأة رقيقة وهادئة مثلها! ومع ذلك فإنني أشفق على امرأة لا معنى لرؤيتها بالفعل. فلا عجب أن سموه، الذي يعرف باطنها ومظهرها، يحتفظ بالعديد من الحُجب[2] بينهما حتى بعد كل هذه السنين،

(1) هانا تشيروساتو.

(2) التعبير الأصلي، هامايو، مستمد من شويشو 668 التي تنسب إلى هيتومارو. وهامايو نبتة معمرة تنمو على التلال الرملية القريبة من شاطىء البحر، وأوراقها تمتد إحداها فوق الأخرى، طبقة فوق أخرى، ومن هنا فإن استخدامها هنا يشير إلى «العديد من الحُجب (الستائر، الستائر الحاجبة.. الخ) ونص القصيدة هو على وجه التقريب: «هامايو، متعددة الطبقات على شاطىء كومانو، متعددة الطبقات خواطري عنك، ومع ذلك لا نلتقي».

وذلـك علـى الرغم من أنه لكي يعوضها عن ذلك فإنه يقدم لهـا كل ما تحتاجه (ما أبرعه إذ يفكّـر في أمور كتلك!). ارتدت سـموها ثياباً مخالفة للسـائد[1]، لكنهـا كانت لا تزال تبدو جميلـة علـى نحو ما كان قد افترض أن أي امرأة ينبغي أن تكون عليه، بينما لم تكن السـيدة المقيمـة في الجنـاح الغربي تتمتع بأي قدر من الجمال، وقد بـدا أنها تفتقد القليل مما كان لديهـا منها بفعـل الإيغال في العمر، حيث كانـت ناحلة للغاية، وكان شـعرها خفيفاً للغاية بحيث، ويا للحسرة، كان المرء يميل للإقرار بما هو عليه.

مع إقبال السـنين وإدبارها، شغلت سموها نفسها بإعداد ملابس العام الجديد لحفيدها وحده. وأعدت العديد من الأطقم الجميلة، ولكن مرآها وحده أثار حزنه، تسـاءل: «لماذا أعددت الكثير على هذا النحو فيما قد لا أذهب إلى البلاط في عيد العام الجديد؟».

«لم لا، إنك تتحدَّث ككهل عاجز».

غمغم والدموع في عينيه: «قد، لا أكون عجوزاً، ولكنني أحس بأنني عاجز».

سـمعته سـموها آسـفة، وهي تعلم تمام العلم جلية الأمر. وبدت بدورها موشـكة على البـكاء. قالـت: «الرجل يمضـي في كبريـاء، حتـى وإن كان متواضع المرتبـة، لا ينبغي أن تسـتغرق فـي مثل هذه الأفـكار الكئيبة. ما هو العـذر التي تتعلل به لكونـك متقلب المزاج معتكراً؟ إنك تخاطر بنفسك فحسب»[2].

«ما الذي تقصدينه؟ إن الناس يقلّلون من شـأني بحسباني أنتمي إلى المرتبة السادسـة فحسـب، وأنا أعرف أنني لـن أظل كذلك إلى الأبد، ولكن مجـرد الذهاب إلى القصر يعد محنة. ما من أحد يحلم بالسخرية مني هكذا لو كان معاليه الراحل لا يزال على قيد الحياة. لـديَّ أبـي، بالطبع، ولكنه يبعدني عنـه بوضوح بحيث لا يمكنني التوجه إليه بسـهولة، ولا يمكنني مخاطبته على الإطلاق إلا في المقر الشـرقي، والسـيدة المقيمة في الجناح الغربي هناك طيبة للغاية معي، وما كنت لأواجه أياً من هذه المتاعب لو كانت لي أم بدوري».

انهمرت دموعه مدرارة، وأثّر مرآه، وهو يحاول حجبها، في سـموها بعمق بالغ إلى حد

---

(1) لأنها راهبة.

(2) لأنه بالسماح لنفسه بالغرق في التفكير الكئيب يستقطب الاهتمامات غير الحميدة من الأرواح التي تجوب الآفاق.

أنها أوغلت في البكاء أكثر. قالت: «كل من يفقد أمه، رفيعاً كان أو وضيعاً، يتأثر بالأمر مثلك ولكنك شأن أي إنسان آخر لك قدرك المقدر في الحياة، وإنني لعلى يقين من أنه سيأتي الوقت الذي يكف الناس فيه عن الاستخفاف بك، لا، لا ينبغي أن تكون فاتر الهمة. وعلى الرغم من ذلك، فإنني أتمنى لو أن معاليه الراحل قد عاش وقتاً أطول قليلاً! إنني أعرف أن نفوذ أبيك الواسع يظللنا، ولكن هناك العديد من الأمور التي أتمنى لو كانت خلاف ما هي عليه. وأنا أسمع الجميع يشيد بوزير شؤون القصر لشخصيته الاستثنائية، ولكنه يزداد نأياً عما كان عليه من قبل، ويؤسفني أنني عشت حتى أرى ذلك لأنه يغضبني أن أرى من هو مثلك، بكل مستقبلك الذي يمتد أمامك، وقد وقعت في شباك هذه الصعوبات، مهما كانت هامشيتها».

لزم جينجي السكينة والهدوء، في اليوم الأول من العام الجديد، ولم يخرج من مقر سكنه. واقتيدت «الجياد الزرقاء» إلى مقره بحسب العادة التي أرساها الوزير يوشيفوسا[1]. وفي أيام المهرجان[2]، أُضيفت روعة جديدة إلى ممارسات الماضي.

بعد الثالث عشر من الشهر الثاني، مضى جلالته إلى قصر سوزاكو[3] كان الأوان لا يزال مبكراً على إزهار براعم الكرز، ولكن الشهر الثالث سيكون شهر ذكرى نيافتها الراحلة[4]، وبدت البراعم المبكرة بالغة الجمال، إلى حد أن نيافته أمر بإعداد مقره على نحو جميل بصفة خاصة، وحرص كل من أصحاب الميسرة بمن فيهم كبار النبلاء والأمراء ـ على أن يكونوا في أفضل مظهر. وقد ارتدوا جميعاً أردية خضراء في لون أوراق الشجر فوق أخرى في لون براعم الكرز، وارتدى جلالته زياً أحمر، وكان المستشار هناك بمقتضى أمر إمبراطوري، ولما كان هو بدوره يرتدي ثوباً أحمر، فقد تألق أكثر من أي وقت مضى، كما بدا وجينجي شخصاً واحداً يصعب تمييز أحدهما عن الآخر. وتألق كل الحاضرين

(1) فوجيوارا نو يوشيفوسا (872ـ804) المسؤول الأول الذي يشغل كلاً من منصبي نائب الإمبراطور (سيشو، نائب لإمبراطور لم يبلغ الحلم) والمستشار (دايجودايجين).

(2) سيتشي نو هيبي، تلك الأيام من العام التي يقيم فيها الإمبراطور المآدب لرجال بلاطه. وخلال الشهر الأول فإن هذه الأيام تشمل الأيام الأول، السابع (يوم الجياد الزرقاء) والرابع عشر والسادس عشر (مهرجان المرح).

(3) قصر الإمبراطور المعتزل سوزاكو. وهو من حيث المبدأ الأخ الأكبر غير الشقيق لرايزي، ولكن الفارق في السن بينهما يجعله أقرب إلى أن يكون والداً.

(4) فوجيتسوبو، كان من شأن الحداد عليها أن يحول دون القيام بهذه الزيارة.

فـي الأردية والمظهـر. وكان نيافته بدوره قد نضج بصورة بالغة الروعة، وازداد وسـامة في المظهر وسرعة في الحركة. ولم يتم اليوم استدعاء أي من أساتذة المجمع الدراسي، وإنما استدعي عشرة من الطلاب، الذين اشتهروا بموهبتهم في نظم الشعر الصيني فحسب. وبدا الموضوع الذي أُعلن عنه كأنه لامتحان مكتب التشريفات[1]، وربما لأن ابن سموه كان سيتم امتحانه عاجلاً. وجلس أقل الطلاب في رباطة جأش شـاعرين بالحذر والعجز في قوارب في بحيرة الحديقة. وسرعان ما أقبلت المراكب التي تقل الفرق الموسيقية[2]، والمجدفون ينطلقـون بها تحت شـمس الغـروب، والعازفون عليهـا يعزفون مقدمات موسـيقية بديعة، أضافت إليها الرياح المقبلة من التلال أنغاماً رائعة خاصة بها، بينما راح النبيل الشاب يجترّ شـكواه مـن الدنيا، وهو يئن متمنياً لـو أن دربه لم يكن صعباً على هـذا النحو، وعندئذ كان سيرفه عن نفسه مع الآخرين.

عندما رقصوا رقصة «أنشـودة الربيع»، تذكر نيافته الحفل الذي أُقيم تحت براعم الكرز منذ زمن طويل، وقال وهو يدفع جينجي نحو سلسلة من الذكريات الأثيرة منذ ذلك العهد: «أتساءل عما إذا كان سنرى نظيراً لذلك الحفل أبداً».

حينما انتهت الرقصة، قدّم له جينجي قدحاً من الخمر.

«لا تزال الهازجة تغرد في عذوبة هاتيك الأيام الخوالي،

لكن البراعم التي أحبها لا تبدو على ما كانت عليه».

وقال نيافته:

«حتى في دار محتجبة عن القصر تساعي الطيات بالغمام الكثيف

لا يزال يتناهى شدو الهازجة معلنة مقدم الخريف».

قدَّم الأمير نائب الإمبراطور السابق، الذي غدا الآن معالي وزير الحرب، قدحاً لجلالته، وأضاف ببديهة حاضرة:

---

(1) كان هذا الامتحان يسمح للطالب بالانتقال من وضعية جيمونجو (المرشح المؤقت) وهي وضعية يوجيرو الراهنة إلى وضعية مونجوشو (المرشح المعتاد).

(2) كان هناك مركبان مزخرفان بصورة مكثفة، ولكل منهما مقدمة عالية على شكل حيوان أسطوري.

«أشجار الخيزران الجوفاء التي تستدعي مثل هذه الموسيقى العذبة من الأيام الخوالي
تدفع الآن هازجة الربيع إلى الشدو بأهازيج جديدة» .

«عندما يواصل طائر الربيع الشدو بحنين بالغ إلى الماضي،
هل يقصد أن البراعم تفتقر الآن إلى جمالها آنذاك؟»[1]

تحدث جلالته ببهاء مفرط.

حدث هـذا كله في دائـرة مغلقة، وسـط صحبة مختـارة، بحيـث ربما لـم تصلني بعـض القصائـد، أو ربما لم تدون أبداً.



رقصة "طائر الدخلة الربيعي"

دعـا جلالته بالآلات الموسـيقية الوترية، حيث أن العازفين كانوا أبعد من أن يتم سـماع موسيقاهم بصورة جيـدة، والتقط معالي وزير الحرب آلة البيوا، وأمسـك وزير شـؤون القصـر بآلة الواجون، ونيافته بالسـو نو كوتو، بينما تلقى سموه كالمعتاد آلة الكين. وما من كلمات يمكن أن تعبر عن بهاء موسيقاهم، حيث كانوا مبدعين رائعين، وعزفوا بكل ما يملكون من اقتدار، وكان هناك الكثير من الوصفاء الخصوصيين لتأدية مقاطع التنغيم[2]، فأدوا أولاً: «آه، يوم رائع!» وعقـب ذلك «رجل برعـم الكرز». وأنيرت المشـاعل هنا وهناك على الجزيرة تحت سـنا القمر الفاتن الملتف بالغمام، وبلغت موسيقى جلالته منتهاها.

زار جلالته في طريق عودته الإمبراطورة الأم، على الرغم من تقدم الليل، لكنه أحس بأن من الغلطة المرور قريباً منها من دون القيام بذلك. وقد جامله سـموه بمرافقته واستقبلتهما

(1) إشارة متواضعة، في معرض الرد على المديح الذي تم التعبير عنه في القصيدة السابقة، إلى أن عهد المتحدِّث أقل تألقاً من عهد سلفه.

(2) غنوا سوجا، وهو الأمر الذي ينبغي أن يعني أنهم غنوا سلاسل من المقاطع التي لا تتضمن كلمات (مثل تاريرا)، وكل مقطع هو اسم النغمة المتوافقة معه. غير أنه من خلال الحكم مما يأتي عقب ذلك فإنهم كانوا يغنون أغنيات.

جلالتها بسرور. وإذ لاحظ جينجي المؤشرات بالغة الوضوح الدالة على إيغالها في العمر فقد فكر في نيافتها الراحلة، وحدَّث نفسه أن بعض الناس يوغلون حقاً في العمر. وقد بادرته بالقول: «شخص طاعن في السن مثلي ينسى كل شيء، ومع ذلك فإن زيارتكم قد أعادت لي في نهاية المطاف ذكريات ذلك العهد البعيد». وشرعت في البكاء.

رد جلالته: «لم أعد أدرك مقدم الربيع الآن وقد فقدت هذين الإنسانين العزيزين[1]، ولكن اليوم أدخل العزاء في نفسي كثيراً. ينبغي في بعض الأحيان..».

أضاف سموه: «لن أهمل في خدمتكم».

من المؤكد أن دقات قلبها قد تسارعت حيال الضجيج المرتفع المصاحب لرحيل جلالته. تأسفت حيال ما اعتبرته فكرة مؤكدة عند جينجي عنها، وحزنت لأن قدره بأن يحكم من المستحيل الحيلولة دون تحققه.

طرأت على بال سيدة العاملين في القصر[2] في غمار تأملاتها الهادئة، العديد من ذكرياتها الخاصة. وربما كان جينجي لا يزال يسمح للريح بأن تحمل كلمة منه إليها. وعندما يكون لدى الإمبراطورة الأم ما تريد إبلاغه لجلالته، أو عندما كانت تشعر بالسخط على عوائد المناصب الشرفية المسندة إليها والفوائد العينية الممنوحة لها أو أي شيء آخر على الإطلاق، كانت تتوق إلى أن تعيد للوراء التردي المحزن الذي أرغمها عمرها الطويل على رؤيته، وأدانت كل شيء بمرارة. وكلما تقدم بها العمر غدا مزاجها أكثر اعتكاراً، إلى حد أنه حتى نيافته وجد صحبتها مما لا يطاق.

وفي ذلك اليوم، قدَّم التلميذ الشاب موضوعاً إنشائياً بديعاً، وأصبح مرشحاً مألوفاً. ولم يجتز الامتحان إلاّ ثلاثة من رفاقه فحسب، على الرغم من أن جلالته قد اختار شباناً طموحين متعلمين يستندون إلى سنوات من الدراسة. وعندما أُعلنت تعيينات الخريف، تلقى قلنسوة منصبه، ومُنح لقب الاستشاري. ولم ينس محبوبته لحظة، لكن خاله الوزير ظل يرصده بعين مفعمة بالكراهية إلى حد أنه ما من حيلة أفلحت في تحقيق لقائهما. وقد وجد سبيلاً لتوصيل الرسائل إليها، ولكن محنتهما ظلت محنة محزنة.

(1) الإمبراطور كيريتسوبو وفوجيتسوبو.

(2) أوبوروزوكيو.

أراد جينجي مكاناً هادئاً يقيم فيه، ويكون من الرحابة والفخامة بحيث يستوعب أي سيدات يقمن على نحو غير مريح في قرى جبلية نائية، ومن هنا فقد خصص أربعة تشو من الأرض[1] في روكو جو وكايوجوكو، حيث كان مقر جلالته القديم، وأمر بالبدء في العمل. ولسوف يكون العام المقبل العام الخمسين لمعاليه سيد التشريفات، ومن ثم كانت السيدة المقيمة في جناح جينجي الغربي تخطط لإقامة احتفال[2]. وافق جينجي تماماً على أنه ليس بالوسع إلغائه، ولهذا السبب عجّل بإتمام البناء، لأنه بدا له أن الاستعدادات يمكن أن تمضي قدماً بصورة رائعة في عقاره الجديد البديع. وما إن بدأ العام الجديد حتى كرَّس نفسه أكثر للاستعدادات للمأدبة[3]، ولاختيار العازفين والراقصات. وقامت السيدة المقيمة في جناحه الغربي بالاهتمام بتجميل اللفائف والأيقونات المقدسة والأردية الكهنوتية والمكافآت[4] وهلم جراً. وأسند مهمات إلى السيدة المقيمة في مقره الشرقي، فزادت العلاقات بينهما دفئاً وقرباً.

امتلأت الدنيا بالهرج والمرج حيال هذا الأمر، وسمع معاليه سيد التشريفات بهذا الأمر بدوره. حدَّث معاليه نفسه بمرارة يخالطها الشعور بالذنب: سموه طيب على الدوام مع الجميع، وقد أحرجني في مناسبات عدة، واستهان بمن هم في داري، وجعلني أتألم أشد الألم مرات عديدة نعم لا بد أن لديه سبباً يدعوه لكرهي. على الرغم من ذلك (هنا تحولت خواطره إلى بهجة) فإن طريقته في التفكير وفي إبلاغ العالم فيما يعكف على الإعداد لما يعتزمه، تأتي تشريفاً غير متوقع في موعد متأخر من عمري، حتى وإن كان الحظ الطيب الذي تتمتع به ابنتي التي يقدرها أكثر من أي شيء في الدنيا، ويحبها أكثر من جميع نسائه الأخريات، لم يصل إلى داري، غير أن زوجة معاليه اعترضت، وحسبت الأمر بكامله أمراً مزعجاً، وقد مقتت جينجي الآن أكثر لأنه لم يساعد ابنتها عندما مضت لخدمة الإمبراطور.

---

(1) حوالي 14 فداناً، ويبدو أن أم أكيكونومو، الملاذ روكوجو، قد تركت هذا العقار لجينجي، عندما عهدت إليه برعاية ابنتها.

(2) هو أبوها.

(3) توشيمي، مأدبة احتفالية تُقام بعد صلاة بوذية للدعاء من أجل طول العمر والسعادة لنبيل يجري تكريمه.

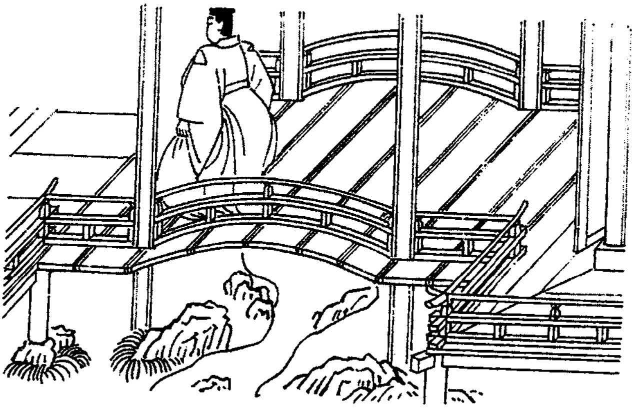
(4) روكو، الهدايا التي تُقدم للرهبان لقاء جهودهم. وتحرص مورا ساكي على الاهتمام بكل شيء له علاقة بالصلاة البوذية التي سبقت المأدبة.

انتهى العمل في عقار روكوجو الخاص بجينجي في الشهر الثامن، وحظيت جلالتها بالجانب الجنوبي الغربي، ولا شك في أن ذلك يرجع إلى أن ذلك كان الموضع الذي احتله مقرها في وقت من الأوقات. أما الجانب الجنوبي الشرقي فهو له، وأعطى الجانب الشمالي الشرقي للسيدة القادمة من دارته الشرقية، والجنوبي الغربي للسيدة الآتية من أكاشي. وجعل التلال والبحيرة القائمة تنقل من مواضعها كما تقتضي الضرورة، وغير أشكال الجبال والمياه لتناسب رغبات كل مقيمة بالعقار.

تباهى الجانب الجنوبي الشرقي بالتلال العالية وبكل أشجار الربيع، وبصفة خاصة ببحيرة جميلة. وفي الحديقة القريبة ـ أمام الدار ـ حرص على ألا يغرس قط أشجار الصنوبر ذات الإبر الخمس، أشجار البرقوق الحمراء، أشجار الكرز والوستاريه، وورود الكريا والأضاليا الصخرية وهي جميعها تكون في أفضل حالاتها في الربيع، وإنما غرس كذلك هنا وهناك بعض النباتات الخريفية. وفي الجانب الخاص بجلالتها غرس في التل القائم هناك بالفعل أشجاراً تتوهج بألوان الخريف السخية، وحوَّل الينابيع إلى غدران صافية، وأضاف الصخور إلى الجدول ليضفي العمق على خريره، واستحدث شلالاً، بينما أينعت الزهور، على امتداد المدى الرحب لمرجه المزروع حديثاً بكل نباتات الموسم. وكانت النتيجة خريفاً تتوارى منه خجلاً سبخات ساجا وأوي وجبالهما. أما الجانب الشمالي الشرقي بنبعه البديع فقد آثر الظل الصيفي، ونمت أشجار الخيزران الصينية في الحديقة القريبة لتزيد النسيم انتعاشاً، وأضفت أجمات أشجار سامقة أعماقاً مفعمة بالترحيب على الظل، كما في قرية جبلية، وتألق السور من الزترية المزهرة، وبين أغراس البرتقال، الذي يحمل عبق الماضي، القرنفل، الورود، والفاوانيا، نمت هناك أيضاً زهور الربيع والخريف. وقسمت الحافة الشرقية لهذا الجانب إلى أرض لركوب الخيل، أُقيم فيها سرادق وأُحيط بسور مجدول. وغرس نبات قصب الذريرة لينمو كثيفاً إلى جوار الماء من أجل مباريات الشهر الخامس[1]، وغير بعيد ضمت الإسطبلات أكثر الجياد أصالة. خصص القطاع الشمالي من الركن الشمالي الغربي لصفوف من المخازن. وعلى امتداد السور الفاصل نمت مجموعة كثيفة من أشجار الصنوبر، قُصد بها استعراض بهاء

(1) كان مهرجان نبات قصب الذريرة الذي يُقام في الشهر الخامس يتضمن فعاليات متعلقة بركوب الجياد.

الجليد. وكان هناك سور مضفور بزهور الأقحوان لاستقطاب ندى الصباح المتجمد في مطلع الشتاء، ونُقلت من رحاب الجبال أجمة من البلوط[1]، ذي التدرجات اللونية القاتمة وجمع متناثر من الأشجار المجردة من الأسماء.


الجسر المقوس

انتقل جينجي والسيدة الأثيرة لديه خلال الاعتدال الخريفي[2]، وكان قد أراد أن ينتقل الجميع في ذلك الوقت، ولكن جلالتها اعتقدت أن هذه الفكرة مغرقة في التباهي والتفاخر، وانتظرت قليلاً. ووصلت سيدة الزهور المتساقطة ـ التي كانت لطيفة ومتفهمة كعهدها أبداً ـ في الليلة ذاتها. كان كل ما تم القيام به من أجل الربيع في غير موسمه الآن، ولكنه مع ذلك كان لا يزال جميلاً. أقبلوا في خمس عشرة عربة، وتألق مرافقوهم بصفة أساسية من وصفاء من المرتبتين الرابعة والخامسة، بمن في ذلك من انتقاهم جينجي ممن ينتمون إلى المرتبة السادسة ومن بين الوصفاء الخصوصيين للإمبراطور. ولم يكن في ذلك تجاوز ولا مبالغة، وقد أبقى قافلته متواضعة، خشية من أن يجلب على نفسه الشؤم، ولم يكن فيها ما هو استعراضي أو موح بالتباهي بالذات. كما أنه لم يهمل السيدة الأخرى لأنه وضع الاستشاري في خدمتها[3]، وقام الاستشاري على رعايتها خير قيام، بحيث كان حرياً بالمرء أن يعتقد أنهما أم وابنها. وقد فُرشت الغرف في الجزء الخاص بالوصيفات بصورة أجمل كثيراً من المعتاد.

أقبلت جلالتها من القصر، بعد خمسة أيام أو ستة، وعلى الرغم من ذلك كان وصولها

(1) هاهاسو (ربما كان بلوط نارا) شجرة تُكرم في الشعر للون الأحمر القاتم لأوراقها في أواخر الخريف.

(2) كان الاعتدال الخريفي يتم الاحتفال به على مدار سبعة أيام. ويتمحور حول اليوم العاشر من الشهر القمري الثامن.

(3) هانا تشيروساتو ويوجيري.

مهيباً. وغني عن البيان أن الكثير من الحظ الطيب سار في ركابها. ولكن أكسبها تألقها ووقارها كذلك أعظم التقدير من الدنيا بأسرها. وبين جوانب الضيعة امتدت أسوار وممرات كان جينجي قد صممها لتشجيع التواصل الودي بينهن.

في الشهر التاسع، ظهرت بقع لونية خريفية، وأصبحت حديقة جلالتها جميلة على نحو يفوق الوصف. وذات مساء خريفي هبَّت فيه الرياح، نثرت جلالتها زهوراً متعددة الألوان ووريقات أشجار في غطاء صندوق، وبعثت به إلى مقر سكن سموه.

أقبلت التابعة الصغيرة الفارعة، وهي ترتدي ثوباً أرجوانياً قاتماً تحت ثوب تزينه أشكال نبات النجمية وثوب خمري فاتح، وهي تمشي بخطى رشيقة على امتداد المرات وفوق الجسور المقوسة. وعلى الرغم من الطابع الرسمي للمناسبة، إلا أن جلالتها لم تستطع مقاومة إرسال هذه الفتاة اللطيفة، التي منحتها خدمتها الطويلة في مثل هذه الصحبة مظهراً وسلوكاً أكثر تميزاً مما تتمتع به أي فتاة أخرى.

كانت جلالتها قد كتبت تقول:

«أنت يا من تنتظر حديقتك طوعاً أمام رغبتك لترحب بالربيع، انظري على الأقل
إلى هذه الوريقات الخريفية من داري التي حملتها الريح إليك» .

رحبت الوصيفات الأصغر سناً بمبعوثتها ترحيباً جميلاً. وفي معرض الرد قامت سيدتهن بنثر أرضية من الأُشنة في غطاء صندوق، ونثرت في الأُشنة حُبيبات صخرية متماسكة وغرست فيها صنوبرات[1] خماسية الإبر، وربطت فيها هذه الرسالة:

«إنها أشياء عابثة، وريقات خريف متناثرة في الريح، أود أن ترى
في الصنوبرة المتشبثة بالصخرة اللون الأزهى للربيع» .

كشف تفقد الصنوبرة عن كثب، وهي وسط صخورها، عن صنعة بديعة على نحو فائق. وقد ابتهجت جلالتها بهذا الدليل على سرعة بديهة المرسلة، وامتدحتها الوصيفات بدورهن.

---

(1) اصطناعية، فيما يبدو.

أشـار جينجـي بقولـه: «إنها تضعـك، كما تعلمين، فـي موضع لا بد له من الرد برسـالة وريقـات الخريـف هـذه. ويتعيـن أن تردي عليهـا بما يليق في موسـم زهـور الربيع. وإني لأتسـاءل عما إذا كانت الطريقة التي انتقدت بها وريقات الخريف تواً لن تثير ضيق السـيدة تاتسـورا، وقـد كان يمكـن لقصيـدة ردك أن تتمتع بقـوة أكبر لو أنك عمدت إلـى التراجع، ولذت بملجأ تحت البراعم». وإذ شـعَّ بالجاذبية الشـابة التي أسرت كل المقربين إليه، فقد قرَّب داره على نحو أكثر من المثال الأعلى الذي ينشده، وتدفقت الرسائل جيئة وذهاباً.

قـررت السـيدة المقيمـة في أوي أنها هي التي ليس لها كبير شـأن، يفضل أن تنسـل إلى الضيعة من دون أن يلحظها أحد، بعد استقرار السيدات ذوات النفوذ القوي، ووصلت إلى الضيعة في الشـهر العاشـر[1]، وحـرص جينجي على أن تمثل قطع أثاثهـا وعملية وصولها ذاتهـا رصيداً يُحسـب لها، ومـن أجل ابنتها لم يُحـدث فارقاً يذكر في المراسـم بينها وبين الأخريات، واستقبلها استقبالاً كريماً تماماً.

---

(1) الشهر القمري العاشر هو الشهر الأول في الشتاء، الذي يعد موسمها الأثير.

22

تاماكازورا

الإكليل

تستعصي كلمة «تاماكازورا» على الترجمة، ولكن الخيار المطروح هنا إلى الإكليل الذي يزين الرأس، وقد أصبحت هذه الكلمة الاسم التقليدي الذي تُدعى به تاماكازورا، لأن جينجي يستخدمه للإشارة إليها في قصيدة ترد في أواخر الفصل:

«نعم يتواصل حبي، تماماً كما تواصل منذ عهد بعيد، غير أنه، يا إكليلي،

قولي لي أي فرع طويل ومتأرجح في الريح قادك إليَّ!» .

الصلة بالفصول السابقة

يتداخل «الإكليل» مع الجزء الأخير من «الصبايا العذارى»، وهو يبدأ في العام الذي يبلغ خلاله جينجي الخامسة والثلاثين من العمر، ويستمر متجاوزاً نهاية «الصبايا العذارى» وصولاً إلى نهاية العام.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 35 عاماً.

يوكون، وصيفة مورا ساكي، وصيفة يوجاو سابقاً.

مربية يوجاو.

الفتاة، ابنة يوجاو، تدعى فوجيوارا روري ـ جيمي من قبل يوكون، 21 عاماً (تاما كازورا)

زوج المربية، المساعد دازايفو (دزايفو نو شوني).

المفوض المدقق، خطيب تاما كازورا، حوالي 30 عاماً (تايفو نو جين).

هايوتودا، نائب بونجو، الابن الأكبر للمساعد دازايفو.

الابن الثاني

أتيكي، تُدعى الآن هايوبو، الابنة الصغرى للمساعد دازايفو.

أختها الأكبر سناً.

صاحب المنزل في تسوبايتشي.

سانجو، وصيفة تاما كازورا.

الكاهن في هاسيديرا.

سيدة جينجي، 27 عاماً (مورا ساكي).

ابنة جينجي، سبع سنوات (أكاشي نو هيميجيمي).

سيدة الجانب الشمالي الشرقي من روكوجو، سيدة الصيف (هانا تشيروساتو).

النقيب، 14 عاماً (يوجيري).

القرطم (سويتسوموهانا).

على الرغم من مرور الشهور والأعوام، فإنه لم ينس حتى الآن امرأة أحبها في الماضي، على الرغم من أنها رحلت مثلما ترحل قطرة الندى من بهاء الأصيل، وبعد خبرة واسعة النطاق بقلوب العديد من السيدات وأساليبهن، فإنه تمنى لو كانت على قيد الحياة فحسب، وقد ظلت أوكون أثيرة عنده، على الرغم من أنها في حد ذاتها لم تكن مميزة، لكنها ذكَّرته بها، وكانت تعد من أقدم الوصيفات اللواتي خدمنه وأكثرهن ألفة، وقد خدمت السيدة المقيمة في جناحه الغربي منذ انتقاله إلى سوما، عندما أرسل نساءه إلى هناك، وكانت تحظى بالتقدير هناك لسرعته وحرصها، وعلى الرغم من ذلك، فإنها في قرارة نفسها كانت تعرف أن سيدتها ستعادل السيدة القادمة من أكاشي من حيث درجة تقدير جينجي لها، لو أنها كانت قد ظلت على قيد الحياة، وأخذاً في الاعتبار أنه استمرفي الاهتمام بنساء لا يعنين له إلا القليل، فإنها بدورها، وعلى الرغم من أنها لا تعد إلا بالكاد بين العظيمات، من المؤكد أنها كانت ستنتقل إلى ضيعة روكوجو، وقد سبَّب لها هذا الشعور بالحزن والأسف.

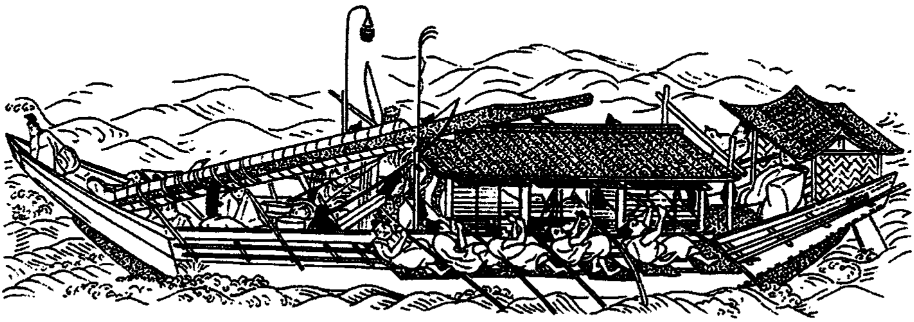
كانت أوكون قد احتفظت بسر جينجي، ولم تكن قد اكتشفت قط ما آل إليه مصير الفتاة الصغيرة في المنطقة الغربية من المدينة، وذلك استجابة لتحذيره بضرورة حماية اسمه، وحيث أن الأمر بأسره قد انتهى على أي حال، فإنها لم تقم بإجراء أي استفسارات، وفي غضون ذلك فإن زوج المربية أُطلق عليه اسم المساعد دزايفو. وانتقل ذووه معه إلى مقر عمله، وهكذا انتقلت الطفلة في الرابعة من عمرها إلى تسوكوشي.

بكت مربيتها ليلاً ونهاراً في غمار توقها لمعرفة إلى أين مضت سيدتها، وابتهلت في صلاتها إلى كل البوذات والآلهة، وبحثت في كل الأماكن المحتملة، لكنها لم تعرف شيئاً على الإطلاق من جلية الأمر، حدَّثت نفسها: حسناً، إذاً، ليس هناك أمل في الأمر على الأقل لدى ابنتها لأحفظ ذكراها بها، يا له من عار أن تأتي معنا هذه الطفلة الصغيرة في هذه الرحلة التي لا تليق بها! أرادت أن تبلغ والد الطفلة بالأمر، لكن بدا أن اللحظة المناسبة لم تحن قط.

في غضون ذلك، راحت هي والنساء المرافقات لها تذكِّر كل منهن الأخرى بقولها: «إننا لا نعرف إلى أين مضت أمها وماذا نقول إن سُئلنا؟».

«إنهـا ليسـت لها به صلـة على الإطلاق في نهايـة المطاف، وعلى أي حال فإنه سـيقلق فحسب إن احتفظ بها».

«أخشى أنه لن يسمح لنا قط بأخذها بعيداً إذا علم بجلية الأمر».



سفينة

هكـذا اتخذ القـرار، وعلى الرغم من ذلك، فإن الطفلة الصغيرة كانت جميلة وشـامخة الكبريـاء، وشـعرت مربيتها بأسـف بالغ عندما أخذتها على متن سـفينة غيـر مجهزة بالمرة لاسـتقبالها، ومضى المجدفون بالسـفينة بعيداً، وكانت الطفلة بطريقتهـا الصبيانية ما تزال تتذكر أمها، ومضت دموع مربيتها تنسال متتابعة، فيما الصغيرة تسألها عما إذا كانوا بسبيلهم إلى المضي إلى أمها، وقد افتقدت بناتها السيدة بدورهن، فاضطرت إلى مواصلة توبيخهن وتوبيخ نفسها كذلك، لأنهن يعرضن الرحلة للخطر[1].

«كانت سـيدتي شـابة الفؤاد، أتمنـى لو كان بمقدورنـا أن نوضح لها هـذا كله!». هكذا قالـت إحدى البنات، وهن يجتزن مشـاهد جميلـة بلا انتهاء، ولكن الأخـرى راحت تفكِّر فـي المدينـة على نحو مفعم بالحنين، وردت قائلة: «لو كانت ما زالت على قيد الحياة الآن لما انطلقنا بعيداً!»، وضعن رؤوسـهن جنباً إلى جنب في حسد حزين للأمواج الراجعة[2]، وانخرطن في البكاء لسـماع البحارة وهم يغنون بأصوات خشـنة: «ما أبعد ما انطلقنا وبأي قلوب مثقلة!».

«أي حبيبات يلزم بحارتنا الأقوياء الحداد عليهن أيضاً، حتى أنهم بأصوات حزينة

(1) لأن الدموع على متن سفينة تستدعي سوء الطالع.

(2) أيسي مونوجاتري 8 (القسم 7)«يتوق فؤادي كثيراً إلى قطع المسافة التي عبرناها، بأي حسد أرقب الأمواج فيما هي تعود!».

ينطلقون في غناء حزين، على امتداد شاطىء جزيرة أوشيما هنالك؟»

«في البحر الذي لا مسالك له ويمتد أمامنا وخلفنا إلى المجهول

أين، يا للحسرة، عسانا نسعى وراء السيدة التي نحن إليها؟»

هكذا أعربت كل «منفية إلى البراري»[1] عما يختلج في فؤادها.

«لـن أنسـى»، راحت المربية تكررها مع كل نفس تلتقطـه، فيما هم يدورون حول رأس كين[2]، وما أن وصلوا إلى هناك حتى ازداد بكاؤها، حيث مضت تفكِّر في المسـافة البعيدة التي قطعوها ليل نهار كانت ابنة سيدتها الصغيرة قرة عينها.، بل إنها في مرات نادرة حلمت بسـيدتها، وكانـت تتـراءى لها تلـك المرأة ذاتهـا[3] إلى جوارهـا، فتحس بالمـرض والغم الشديدين، حيث أنها عرفت بمزيد من الألم أن سيدتها لم تعد على قيد الحياة.

آن الأوان لكـي يقـوم المسـاعد دازايفو بحزم أمتعتـه مجدداً، بعد أن انتهت فترة شـغله لمنصبه، لكن الرحلة كانت طويلة للغاية، وكان شديد الانزعاج لافتقاره للرجال والإمكانات بحيـث أنه لم يغادر في التو، ثم سـقط في قبضة مرض عضـال، وعندما أحس بدنو الموت منه تأمل الوديعة الصغيرة التي عُهد بها إليه، التي كانت في العاشـرة من العمر الآن، والتي بدت بارعة الحسن على نحو مخيف «ماذا سيؤول إليه أمرها إذا تركتها بدورها؟ لقد بدا لي أنـه خطـأ فادح أن تكبر في هذا المكان التعس، ولكنني عزمت على اصطحابها إلى المدينة فـي الوقت المناسـب، وإبلاغ من يرغبون فـي المعرفة بجلية الأمر، وأن أراها تسـتقر على النحـو الجديـر بها، حيـث أن كل الإمكانات التـي تقدمها المدينة قد شـجعت آمالاً كباراً، والآن هـا أنا ذا أوشـك على أن ينتهي عمري ههنا في نهاية المطـاف»، وترك لأبنائه الثلاثة هذه الوصية: «لا تفكروا في أي شـيء آخر إلا العودة بهذه الصبية إلى المدينة، ولا تكترثوا

(1) كوكينشو 961 من نظم أونو نو تاكامورا «لم يدر بخلدي التردي إلى هذا المستوى المتدني، منفياً إلى البراري، بحيث أجتذب خيط صياد وألتقط السمك من البحر!».

(2) كين نو ميساكي، على شاطىء جزيرة كيوشي الشمالي «لن أنسى» مستمد من مانيوشو 1223، قصيدة تشكرات لإله بحر تُنشد لدى العبور الآمن لهذا الرأس الحافل بالمخاطر «على الرغم من أنني عبرت كين نو ميساكي المهيب، فإنني لن أنسى إله شيجا الجليل».

(3) المرأة التي كان جينجي قد رآها إلى جوار يوجاو ليلة وفاتها.

بالتزامكم نحوي!»[1].

لـم يكـن أي من العاملين في داره يعرف ابنة من هـي، حيث أنه وصفها بأنها حفيدة يقع عـبء تربيتهـا على كاهله، ولـم يدع نظر أحد يقع عليها، وقام علـى أمورها بأعظم قدر من العناية، وكان موته المفاجىء ضربة قاسية للغاية، بحيث أن زوجته لم ترد شيئاً إلا المغادرة، ولكنه كان له العديد من الأعداد المحليين الذين خشيت مؤامرتهم[2]، وبينما مرت سنوات غيـر حقيقيـة على نحو غريب، فإن وديعتهـا كبرت لتغدو فتاة في مقتبل العمر، فتاة ليسـت أجمـل من أمها فحسـب، ولكن ربما بسـبب مـا ورثته عن أبيهـا، فإنها بدت رائعـة التميز، وجمعت في شـخصها العذوبة والمظهر المبهر، وسـعى عدد كبير من الفرسان إلى خطب ودّهـا، عندمـا ذاع أمر جمالها الفاتن، ولكن ما من أحد فـي العائلة اكترث بذلك، حيث أن الفكرة ذاتها كانت غير مقبولة ومزعجة.

أوضحت مربيتها للجميع بلا استثناء: «نعم، لديها من الجمال ما يكفي، ولكن هناك ما يعيبها بحيث لا يمكن تزويجها، وأنا أعتزم بدلاً من ذلك جعلها راهبة، وإبقاءها معي طوال ما بقي لي من عمر».

انتشـرت الشـائعة في كل مـكان: «يقولون إن حفيدة المسـاعد الراحل بها مـا يعيبها. يا للعار!».

كان هـذا الحديث مثيراً للضيـق إلى أبعد الحدود، فقالت المربية: «لا بد لنا من المضي بها إلى المدينة على نحو من الأنحاء، وإبلاغ معاليه أبيها بأمرها، وأشك في أنه سيتجاهلها، أخـذاً فـي الاعتبار الكيفية التي اعتقد بها أنها رقيقـة وعذبة عندما كانت صغيرة» وفي غمار يأسها مضت ترفع صلوات عدة إلى البوذات والآلهة.

كان أبناؤها وبناتها قد شكّلوا الأواصر الخاصّة بهم التي تربطهم بالمكان، واستقروا فيه، وعلى الرغم من أنها هي نفسـها كانت في قرارة ذاتها متلهفة كعهدها للمضي إلى المدينة،

(1) الصلوات التذكارية التي يتعين أداؤها بفواصل زمنية منتظمة بعد وفاة شخص ما.

(2) ربما أدى تدقيق زوجها (في مسألة جباية الضرائب على سبيل المثال) إلى إثارة غضب القوى المحلية، وضمن عدم تحقيقه لنفع شخصي من قيامه بأداء عمله. وكان بمقدور أعدائه، في يسر، أن يجعلوا السفر مستحيلاً بالنسبة لأرملته.

إلا أن هـذه الأخيـرة بـدأت تبدو بعيدة للغايـة، وكلما عرفت الدنيا بشـكل أفضل، وجدتها مثيـرة مخيبة للآمـال، على نحو أكبر، وشـرعت في القيـام باعتكاف السـنوات الثلاث[1]. وبحلول العام العشرين من عمر السيدة الشابة كانت قد بلغت قمة نضجها ولاحت جميلة على نحو أخاذ.

كانـت المقاطعة التـي يقيمون فيها هي هيزين. وكان كل من يزعم أنه ذو شـأن هناك قد سـمع بحفيدة المساعد، ومضى يتابع أمرها ـ على الرغم مما تردد عنها ـ إلى درجة يتحول معها إلى مصدر ضيق بالغ، وكان أحد هؤلاء، وهو معروف بلقب المفوض المدقق، يحظى بعلاقات وصلات على امتداد منطقة هيجو. حيث كان له صيت سمع به القاصي والداني، وكان محارباً قوياً، ولكن ضراوته شملت لمسة من النزوع إلى التودد للنساء كذلك، وكان يحـب تجميع النسـاء الجميـلات. وقال عندما تناهى إليه أمر السـيدة الشـابة: «لا بأس بما يعيبها، ولست أكترث بمدى سوئه، لسوف أعنى بها، وأتجاهل هذا العيب».

أثـارت خطبته المفعمة بالإلحاح انزعـاج مربيتها، وعهدت بالأمر إلى من يبلغه بقولها: «لا. لا. مسـتحيل، لا يمكنها الاسـتماع إلى أي كلام من هذا القبيل، فهي توشك أن تصبح راهبـة». غير أن ذلك لم يؤد إلا إلى إثارته، ودفعه للحضور مباشـرة إلى مقاطعتهم، وهناك زار جميع أبنائها.

أبلغهـم بقوله: «إذا مضت الأمور حسـبما أشـاء، فإن نفوذي سـيكون رهن تصرفكم»، ومال اثنان منهم إلى الموافقة.

قـالا: «فـي البداية أجمعنا على أن هذا سـيكون أقل من قدرها علـى نحو محزن، ولكنه شـخص يمكننـا جميعـاً الوثوق من أنه سـيفعل الصواب بمشـورتنا، هل تعتقد أن بوسـعنا مواصلـة العيـش هنا إذا قُدِّر له أن ينقلـب علينا؟ إنها تنحدر من أصـل رفيع، نعم، لكنها لا تعنـي شـيئاً بالنسـبة لأبيها، وأي نفع لها إذا لـم يعلم أحد بجلية الأمـر؟ إنها محظوظة الآن لتلهفـه البالـغ عليهـا، ولا بد أن هذا هو ما قدمـت إلى هنا من أجله قاطعـة كل هذا الطريق وصـولاً إلـى هذه البـراري، فما جـدوى فرارها للاختباء منـه؟ ما من أحد يعـرف ما الذي

(1) الصوم والتطهر والصلوات من أجل بعث أكثر سعادة خلال الأيام الخمسين الأولى والشهرين الخامس والتاسع.

سيقوم به إذا حصل على الدعم الذي ينتظره ولن يقبل بالرفض رداً».

صدمت تحذيراتهم نائب بونجو، أكبر الأبناء الثلاثة، فقال:

«ذلك خطأ، وهو عار كبير، تذكرا ما حدَّثنا به والدنا، لا بد لنا من العثور على طريقة للمضي بها إلى المدينة في نهاية المطاف».

بكت البنات في استياء، وصحن قائلات: «ضربت أمها في الآفاق، واختفت من دون أن تترك وراءها أثراً، وعندما ينبغي علينا على الأقل التيقن من أنها ستحظى بالحياة التي تستحقها، فإن الفكرة ذاتها المتعلقة بأنها ستقضيها مع شخص من هذا القبيل تثير الانزعاج!». لكن الخطيب المعني لم يكن يدري شيئاً من هذا، فقد تخيل نفسه سيداً مهذباً رائعاً، وأمطرها في ابتهاج بالرسائل، ولم تكن كتاباته سيئة للغاية، وقد كان سعيداً للغاية بها، على الرغم من لهجته الريفية، دع جانباً الورق الصيني الملون الذي يستخدمه[1]، والبخور نفاذ الرائحة الذي كان يعطر الورق به.

وأقنع الابن الثاني باصطحابه إلى الدار، وكان رجلاً فارعاً ممتلئاً على نحو مهيب في حوالي الثلاثين من العمر، ولم يكن بالسيء المظهر، ولكن مواقفه كانت منفرة، وكانت سلوكياته الفظة تزعج من يشهدها، وكان لون جلده تجسيداً للصحة ذاتها، لكن صوته أجش على نحو ملحوظ، ورطانته يصعب تبنيها، وكان هذا المساء إجمالاً مساء ربيعياً غير مألوف، أخذاً في الاعتبار أن «المتودد الليلي»[2] قد جاء سراً كما يجدر به تحت جنح الظلام، وعلى الرغم من أن الوقت لم يكن خريفاً، إلا أن اللحظة اكتسبت عن جدارة صفة الغرابة»[3]، واستقبلته جدة السيدة الشابة على أمل تجنب جرح مشاعره.

استهل الحديث قائلاً: «كان المساعد الراحل سيداً مهذباً طيباً ووقوراً بحيث أنني تطلعت إلى التعاون معه، وقد أسفت حقاً عندما رحل قبل أن أتمكن من تناول الموضوع

(1) سلعة نادرة في المدينة على الرغم من أنها ربما كان من الأسهل الحصول عليها في كيوشو، حيث ترسو السفن التجارية القادمة من الصين.

(2) يوباي، عادة لا تقتصر بحال على المغامرات العاطفية التي يقوم بها نبيل مثل جينجي، ويبدو أنها كانت عادة شائعة في الريف كذلك.

(3) إشارة ضاحكة إلى كوكينشو 546: «كل الأوقات متساوية لأني أحبك فيها كلها، ومع ذلك في مساء خريفي، ما أشد الغرابة!».

الذي أحمله في قرارة نفسي معه. ولم أدع اليوم شيئاً يحول بيني وبين الاندفاع لأكون إلى جواركم، ولأضع نفسي تحت تصرفكم، وهو ما عقدت العزم عليه. إنني أتفهم أن السيدة الشابة المقيمة هنا تنتمي لأصل استثنائي فريد، وبالتالي لا أستحقها إلا بالكاد، ولسوف يتطلع خادمكم المتواضع إليها على الدوام في سريرته، ولسوف يبقيها في مكانة سامية تفوقه قدراً إلى الأبد. سيدتي، لا شك في أن ترددك الجلي ينبع من عدم الموافقة على ما سمعته فيما يتعلق بالارتباط بالعديد من النسوة غير الرفيعات القدر، ولكني أسألك: هل أرغب أبداً في تكريم أمثالهن؟ لا، حقاً، ولن تكون محبوبتي أقل قدراً بالنسبة لي من الإمبراطورة ذاتها». كان خطاباً قوياً ذلك الذي ألقاه.

«آه، لا، على الإطلاق! إن كلماتك مبهجة للغاية ولكنها كما ترى قُدِّر عليها أسوأ الأقدار، لأنها تحزن في سريرة نفسها لأن سبباً دقيقاً يمنعها من الزواج على الإطلاق، وأؤكد لك أن تعاستها مما يحزن المرء أن تراه العين».

«لا عليك من هذا! وسواء أكانت ضريرة أم مكسورة الساق، فسوف أشرف بنفسي على علاجها ذلك أن آلهة هذه المقاطعة وبوذاتها رهن استدعائي لها». وبعد هذا الإعلان المليء بالفخر أصر على حسم الأمر في نهاية المطاف.

ردت في محاكاة ناجحة للأساليب المتبعة في الريف: «على الرغم من ذلك، فإن هذا الشهر هو الشهر الأخير في الفصل»[1].

لدى مغادرته الدار توقف برهة ممعناً التفكير، حيث كان يرغب في التخفف من قصيدة تثقله:

«إذا برهنت على أنني غير وفي لمحبوبتي، فإنني أقسم

بإله مزار مرآة ماتسورا[2].

---

(1) الشهر الحالي هو الشهر الثالث، الأخير في الربيع، ربما أنه كان من المعتقد أن من سوء الطالع الزواج في الشهر الأخير من الفصل.

(2) القصيدة لا تتابع إكمال المعنى المقصود، وهناك شيء من قبيل: «انني أقبل عقاب الآلهة» غائب بين نصفيها ويبدو أن فضيلتها الكبرى، بالنسبة للمتحدث، أنها تحقق تلاعباً بالكلمات («على لفظة كاكيتي») بحسب الممارسة الشعرية المقبولة. وهذه المرأة الربانية محفوظة في كاجامي جينجا (مزار المرأة) في ماتسورا، كاراتسو الآن، على شاطىء كيوشو الشمالي.

الآن، تلك قصيدة[1]، إذا كان لي أن أقول ذلك لنفسـي» هكذا قال مبتسماً ببراءة ساذجة لا نهاية لها.

لم تبد المربية، التي كان رأسـها يدور، مسـتعدة للرد عليه بقصيدة، ولكن بناتها قلن لها عندمـا طلبـت منهن قصيدة، إنهن أكثر حيرة منها، وهكـذا بعد وقت جد طويل، كانت هذه القصيدة، التي ألقتها بصوت مرتجف، هي أفضل ما استطاعت نظمه:

«لو أن صلواتي النابعة من القلب عاماً بعد عام وصلت إلى لا شيء،

فإنني سأدين في يسر الإله والمرأة معاً» .

بدا أمامها هائلاً في التو: «لحظة واحدة! ما هذا الذي قلتيه؟» شحب وجهها خوفاً.

علـى الرغـم من ذلـك، ابتسـمت بناتها له مرحـات على الرغـم من انزعاجهـن، وقلن متعجلات: «ليسـت السـيدة الشـابة كغيرها من الناس، سـتكون خيبة أمل كبرى بالطبع إذا لـم تمـض الأمور علـى نحو ما تريد، لكنني أخشـى أن أمي المسـكينة مضطربـة للغاية في شيخوختها، وفهمت الأمر على وجه الخطأ».

أومـأ موافقاً، وقـال: «آه فهمت لا، لا، لقد كانت الصياغة ممتعـة! إننا هنا في المقاطعة يفترض أن نكون جميعاً من الريفيين السذج، ولكن لدينا أكثر بكثير من ذلك! ما هو الشيء الرائـع للغاية فيما يتعلـق بالناس القادمين من المدينة؟ إنني أعرف كل ما يتعلق بهذا الأمر، فـلا تنظـرن إليَّ من موقع المتكبر!». كان قد مال إلـى أن يلقي عليهم قصيدة أخرى، ولكن ربما كان ذلك أكثر مما ينبغي بالنسبة إليه، لأنه بادر إلى الانصراف.

ناقشـت المربية الأمر مع ابنها الأكبر، في غمار خوفها ويأسـها لمرأى الابن الثاني يفوز في النقاش، وكان الابن الأكبر قد ظل حائراً، محتجاً بأنه ليس بإمكانهم ترك هذا الشخص يحظـى بهـا، ولكنَّ أخويه اللذين ليـس له غيرهما وقفا ضده لأنه رفـض الانصياع لرغبات الرجل، وشدَّدا على أنهم سيقعون في مأزق إذا جعلوا منه عدواً لهم، وأن كل ما سيحاولون القيام به سينقلب ضدّهم، ويجعل الأمور أسوأ بالنسبة لهم، وفي غضون ذلك كانت السيدة

---

(1) بدلاً من أوتا (الكلمة اليابانية المخففة) فإنه يستخدم الأسلوب الصيني المشدد واكا، الذي يفوح بالجهود المتعلقة بالكتب المدرسية.

الشـابة نفسـها في حالة تثير الشـفقة، وكانت على يقين تام من أنه من الخير لها أن تموت، كل هـذا دفع مربيتها إلى القيام بتصرف عاجل فـي نهاية المطاف، وتركت ابنتاها زوجيهما اللذيـن ارتبطتـا بهما على مدار سـنوات طويلة، وانطلقتا معها، وانسـلت، من كانت تدعى اتيكـي ويقـال لها الآن هايوبـو، معها ليلاً لركـوب سـفينتهم[1]. وأوغلوا فـي الهرب بينما كان المفـوض المدقـق في هيجو، التي كان يخطط للعودة منها فـي اليوم المتفق عليه وهو العشرون من الشهر الرابع.

كانت للأخت الرابعة ـ بحلول ذلك الوقت ـ صلات عدة بحيث لا تسـمح لها بالرحيل معهم، وعندما آن أوان تبادل تحيات الوداع، وعرفت الأخت الأصغر أنها قد لا ترى أختها بعد الآن أبداً، أدركت إلى أي حد لم يزعجها كثيراً أن تغادر ما كان موطناً لها كل هذا الوقت الطويل، وكان موضع أسـفها الوحيد، والذي جعلها تنظر إلى الوراء محدِّقة، الساحل قبالة مزار ماتسورا والأخت الكبرى التي تغادرها. قالت:

«قُدماً نجدف، مخلفين أوكيشيما[2] ومتاعب ماضينا

غير أن قلوبنا تخفق لأننا لا ندري أيان نمضي».

وقالت السيدة الشابة:

«عبر دروب بحرية لا تنتهي تسرع سفينتنا إلى المجهول

بينما أتقلب كما شاءت الريح لي في بحر من الأحزان».

رقدت وقد دفنت رأسها في الفراش وغلبها الشعور بالعجز.

غمرهـم الخوف مـن أن يطاردهم، وقد عقد العزم على المضي قدماً، لدى انتشـار خبر فرارهم حسبما من المؤكد أنه سيحدث، وهكذا فقد تعمدوا طلب سفينة سريعة انطلقت بها

---

(1) تصاحب كل من الأختين أمها وتاما كازورا إلى ميناء ماتسورا، ولكن الصغرى هايوبو وحدها تبحر مع الجمع. إن «اسمها» مستمد، فيما يبدو، من لقب كان أخوها الأكبر يحمله في وقت من الأوقات، وهو الأخ الذي (كما توضح فقرة لاحقة)، كان آنذاك موظفاً في مكتب الحرب ومعروفاً بـ«هايوتورا» (أي مسؤول مكتب الحرب الذي هو الابن الأكبر المنتمي لقبيلة فوجيوارا).

(2) موقع أوكيشيما غير مؤكد، على وجه الدقة، ولكن سماته العامة تناسب السياق، حيث أن المقطع أوكي يعني كلاً منا «يطفو» و«حزين». وتتضمن قصيدة تاماكازورا اللاحقة التورية ذاتها.

الآن ريح هبت عقب ذلك قدماً بسرعة تحمل الخطر في طياتها، واجتازوا بسلام الساحل المرعد[1] «هل هذه سفينة قراصنة تلك السفينة الصغيرة التي تجد مسرعة في هذا الطريق؟ تعالى صوت متسائلاً، ولكنهم لم يستطيعوا منع أنفسهم من أن يخافوا، أكثر من القراصنة المغامرين، فكرة ذلك الرجل الفظيع وهو منغمس في مطاردة محتدمة:

«مع إطلاق محني عاصفة رعدية ههنا في صدري،

ليس هناك ما يخيف في الساحل المرعد!»[2].

حين عرفوا أنهم وصلوا إلى كاوا جيري تنفسوا الصعداء قليلاً، وكما في السابق فإن أصوات البحارة غير المألوفة ترددت مؤثرة للغاية، وهم ينشدون: «الرحلة إلى كاوا جيري من كاراتوماري»[3]. وأنشد النائب بونجو شارداً معهم، وتواصلت الأنشودة: «نسينا زوجاتنا العزيزات وأولادنا»، وحدَّث نفسه: نعم، تركتهم جميعاً ورائي، وما الذي سيحدث لهم؟ الرجال الذين كان حرياً بهم أن يقفوا إلى جانبهم أقبلوا معنا جميعهم، ترى ما الذي عساه يفعله في غمار مقته لي حتى بعد أن يطردهم من بيوتهم؟ آه، راح يفكّر، وقد أحس بدرجة ما من الارتياح، أي أحمق كنت عندما حزمت متاعي ومضيت من دون التفكير فيهم، سفح دموع الضعيف المغلوب على أمره، فيما واصل التفكير في محنتهم المحزنة، وترنم «عبثاً تخليت عن الزوجة والأطفال في أرض بربرية»[4].

سمعته هايوبو، فمضت خواطرها في الاتجاه نفسه. قالت لنفسها: نعم، لقد قمت بشيء غريب، فما الذي عنيته بالخيانة المفاجئة للرجل الذي كان سندي كل هذه السنين والهرب بعيداً؟ فلنسمه «الذهاب إلى الوطن» ربما، ولكني ليس لي وطن أمضي إليه ولا أصدقاء ولا أقارب أقصدهم من أجل سيدة شابة واحدة غادرت الأرض التي أقمت فيها

---

(1) يفترض أن المربية ألقتها.

(2) هيبيكي نو ناداً: ساحل هاريما، الذي شمل أكاشي. كان فيما يبدو، يعتبر خطراً بصورة خاصة. وهم يقتربون من موقع أوساكا الحديثة.

(3) مستمد، فيما يبدو، من أغنية شعبية. ربما كان كاراتوماري (ميناء كوريا أو ميناء الصين) على ساحل هاريما (مقاطعة هايوجو)، كاواجيري مصب نهر يودو الذي يفرغ مياهه في خليج أوساكا.

(4) بيت من قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشي مونجو 144). لقد هرب المتحدث الذي أخذه التبتيون أسيراً أخيراً لا لشيء إلا ليخطىء الصينيون، فيحسبونه تبتياً ويبعثون به إلى مستوطنة عقاب.

طويلاً لأمضي ضائعة تحت رحمة الريح والموج، وليس لديَّ ما أستطيع القيام به لمساعدة نفسي، ما الذي يمكنني القيام به لمساعدتها؟ غلبها اليأس التام، لكن الأوان قد فات، وكان كل ما يستطيعون القيام به هو الإسراع إلى المدينة.

قاموا بزيارة معارف قداميكانوا لا يزالون يقيمون في كوجو[1]، وحصلوا على أماكن للإقامة لديهم. ولكن حتى إذا كانت هذه هي المدينة، فإنها لم تكن منطقة يقيم فيها أفاضل الناس، ومضوا يضطربون وسط زوجات أصحاب الحوانيت المشعثات، وزوجات الباعة الجوالين إلى أن أقبل الخريف، وسرعان ما غلبهم اليأس معظم الوقت حيال ما أقدموا عليه وما ينتظرهم، بل إن النائب بونجو الموثوق به، أحس كأنه طائر مائي وقع على يابسة، ولم يستطع، وقد غمره الضياع، وتقطعت به السبل في هذه الأمكنة غير المألوفة، مواجهة العودة، ومع ذلك فإنه أحس بالأسف على حماقة المغادرة، وفي غضون ذلك فإن كل الرجال الذين قدموا معهم قد تفرقوا عنهم، ومضوا إلى أقارب لهم في أماكن أخرى، أو عادوا إلى مقاطعاتهم.



امرأة من السوق

أحزنه أن يسمع أمه يوماً بعد آخر وهي تندب عجزهم عن تدبر إمكانية الاستقرار. قال: «لكن لم؟ إنني مرتاح تماماً هنا، ومن المؤكد أنه ليس هناك بأس في الاختفاء هنا أو هناك في خدمة سيدتنا الشابة. أي مشاعر كانت ستستبد بنا لو أننا تخلينا عنها لأمثاله بغض النظر عن تحسن أحوالنا؟». أراد أن يدخل السلوى والعزاء إلى نفسها، فمضى يقول: «الآلهة والبوذات هي التي من شأنها أن تمضي إلى حيث يتعين عليها أن تذهب. ومزار ياواتا، وهو ليس بالبعيد

(1) «الجادة التاسعة» إحدى الجادات الكبرى بالمدينة المرقمة من الشرق إلى الغرب في قطاعها الجنوبي البعيد أو قطاعها «الأدنى».

عن هنا، هو نفسه كالمزارات القائمة هناك في ماتسورا وهاكوزاكي[1] حيث سبق لك أن أديت الصلوات، لقد وجهت لهم ابتهالات عدة فيما كنا نغادر هناك، والآن وقد عدنا إلى المدينة يتعين أن تمضي إلى هناك مباشرة وتقدمي آيات الشكر على المساعدة التي تلقيناها». هكذا انطلق في رحلة إلى ياواتا، حيث وجد شخصاً على معرفة جيدة بالمكان واستعان بكاهن ورع كان أبوه قد عرفه ذات يوم أميناً لأحد المعابد[2]، والذي كان لا يزال هناك، وهكذا وصل بحجهم إلى نهاية موفقة.

«بعد ذلك هناك البوذات، الذين من بينهم يُعد هاتسوسي شهيراً حتى في كاثاي بمنح أرفع النعم في اليابان بأسرها[3]، ومن المؤكد أن هاتسوسي سيسارع إلى منح البركات لسيدتنا حيث أنها عاشت في أرضنا دوماً، مهما كانت بعيدة»، وجعلها تنطلق من جديد.

كان قد قرَّر عامداً أن يقطعوا المسافة سيراً على الأقدام[4]، وقد كانت هذه التجربة غير المألوفة مرهقة ومؤلمة للغاية بالنسبة لها، ولكنها قامت بما طُلب منها، وسارت مترنحة، وهي تناشد البوذا العون[5]، أي خطايا تثقل كاهلي لكي أضرب على هذا النحو في أرجاء المدينة، لئن كنت تشفق عليَّ فخذني إلى أمي، حتى وإن لم تكن على وجه الأرض، ولئن كانت لا تزال على قيد الحياة فأرني محياها! لم تكن تتذكر أمها على الإطلاق، وقد

(1) مزار ياواتاهو إيوا شيميزو هاتشيمان في أوتوكو ياما، إلى الجنوب الغربي من المدينة مباشرة. ويعتقد المتحدِّث أن الإله نفسه يكرم في الأماكن الثلاثة جميعها (لا تميز الصياغة بين الإله والمبنى الذي يُكَّرم فيه) غير أنه بينما يكرَّس المزار القائم في هاكوزاكي على الساحل الشمالي لها تشيمان، فإن المزار القائم في ماتسورا ليس مكرَّساً له.

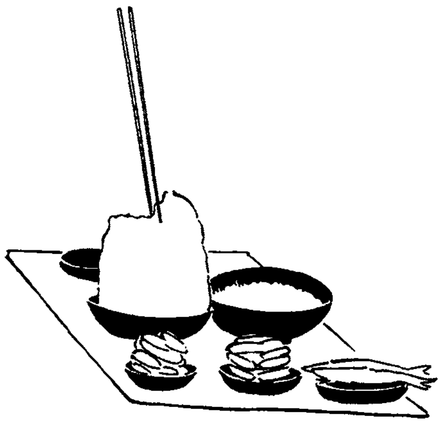
(2) أجوشي (إداري معبد من المستوى الثاني) في إيوا شيميزو وجوكوراكوجي، المعبد البوذي المرتبط بمزار إيواشيميزو هاتشيمان.

(3) هاتسوسي هو اسم المكان المرتبط بها سيديرا، وهو معبد في الجبال يقع على وجه التقريب إلى الشرق من نارا وهاسيديرا مكرَّس للبوذ يساتفا ذي الرؤوس الإحدى عشر (بوذيساتفا جويتشيمان). وفي اليابان كما في العالم الكاثوليكي فإن أيقونات مقدسة محددة يمكن أن تحظى بالتوقير باعتبارها تتمتع بقوى خاصة، وقد جعل بوذيساتفا هاسيديرا المعبد مركزاً بارزاً للحج.

(4) الأميال الخمسة والأربعون الممتدة من كيوتو إلى هاسيديرا يمكن قطعها سيراً على الأقدام في يومين، وفي ثلاثة أيام باستخدام عربة يجرها ثور. ولما كان من النادر أن تقطع سيدة نبيلة مسافة، يُعتد بها سيراً على الأقدام، فلا بد أن= =الحج اختبار لقدرة تاماكازورا على الاحتمال حقاً. غير أن السير على الأقدام كان يفصح عن قدر أعظم من التقوى والورع، مقارنة بالذهاب باستخدام عربة.

(5) بوذيساتفا هاسيديرا.

أمضت حياتها متنهدة عليها في حزن فحسب، ولكن حالتها اليائسة ضاعفت بؤسها مجدداً، ومضت متعثرة في هذه الحالة إلى تسوبايتشي[1]، وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة في ساعة الثعبان في يومها الرابع.



وجبة طعام على صينية

لم يكن ما قامت به يسمى مشياً إلا بالكاد، وقد ساعدوها على أفضل نحو يستطيعونه، لكن قدميها تعبتا كثيراً إلى حد أنها لم تعد قادرة على التحرك، ولم يعد أمامهم خيار إلا أن ينالوا قسطاً من الراحة، وقد تألف جمعهم من النائب الأكثر تمتعاً بالثقة، مع اثنين من حملة السهام، وثلاثة أو أربعة من الأتباع الصغار والسيدات الثلاث اللواتي اعتمرن قبعات واسعة بصحبة عدد ممن يتولون مهام النظافة وامرأتين كهلتين، ولم يكن عددهم بالكبير، ولم يختلطوا بغيرهم، وإنما اقتصروا على أنفسهم، وانتهزوا الفرصة للتزود بشموع المذبح وما إلى ذلك، وفي غضون ذلك شرعت الشمس تميل نحو الغروب.

غمغم مضيفهم، وهو أحد الكتبة في استياء[2]: «لديَّ أناس آخرون مقبلون، ما الذي تفعلونه هنا؟ هاته الخادمات يفعلن ما طاب لهن!». وكان جمع آخر قد وصل بالفعل.

بدوا بدورهم يمضون قاطعين المسافة راجلين، وكان هناك سيدتان نبيلتان، وفيما يبدو جمع كبير من الخدم والنساء. وكان هناك بعض السادة ذوي المظهر المميز أيضاً يشرفون على اقتياد أربعة جياد أو خمسة، وكانوا يحرصون على ألا يلاحظهم أحد، ومضى الكاتب الذي كان مصراً على إحاطتهم علماً بالمطلوب منهم، يهرش رأسه، فالجمع موجود هناك بالفعل، ولم يكن بمقدوره تغيير النُزل والانتقال إلى نزل آخر، أياً كان التعاطف الذي قد

(1) عند سفح جبل ميوا، على مسافة تقل حوالي ميلين ونصف الميل عن المسافة إلى هاسيديرا، وهي نقطة توقف معتادة بالنسبة للحجيج. وهي تصل حوالي الضحى.
(2) ربما كان المكان معبداً ونُزلاً كذلك.

يستشعرونه، ولذا حاولوا المساعدة بالانتقال إلى مؤخرة النُزل أو إلى غرف أخرى أو إلى أحد الجوانب، شكَّل حاجز قماشي[1] ستاراً يعزل السيدة الشابة، وبدا أن القادمين الجدد يشعرون كأنهم في دارهم، ولزم الجمعان كلاهما الحرص على ألا يزعج أحدهما الآخر.

في حقيقة الأمر فإن الجمع كان جمع أوكون، التي كانت تتوق دامعة إلى سيدتها الأولى، وتزايد شعورها بالارتباك والغربة مع مضي الأعوام، وكانت تقوم بهذا الحج بصورة منتظمة، وبعد الانطلاق بقدر كاف من الاستعداد، حيث أنها كانت معتادة تماماً على ذلك، أحست بالتعب في نهاية المطاف من السير على الأقدام، وكانت توشك على الرقاد عندما أقبل النائب بونجو إلى الحاجز القماشي المجاور لها حاملاً بنفسه صينية، ربما كانت صينية طعام، وقال: «أعطي هذه إلى سيدتي، لطفاً، إنني آسف للغاية، ولكن ليس هناك حامل طعام لتقديمه لها عليه».

حدَّثت أوكون نفسها: لا بد أنها تعلونا قدراً كائناً من كانت، وأطلت من خلال فتحة في الحاجز القماشي، شعرت أنها رأت هذا الرجل من قبل، ولكنها لم تستطع الجزم أين رأته على وجه الدقة، كانت قد عرفته عندما كان في مقتبل العمر، وقد غدا الآن أكثر سمرة بكثير مما كان عليه وأمتن بنية، بحيث أنها في نهاية المطاف لم تعرفه.

نادى: «سانجو، سيدتي تريدك»، وعرفت المرأة التي ردت عليه كذلك، حيث كانت[2] قد خدمت سيدة أوكون، وفي حقيقة الأمر خدمتها بصورة حميمية للغاية إلى حد أنها كانت ـ على نحو ما أدركت أوكون الآن بقوة انطباع الحلم ـ واحدة من اللواتي مضين مع سيدتهن إلى الدار التي ذهبت لتتوارى فيها، واستبد الشغف إلى أبعد الحدود بأوكون لمعرفة من تكون سيدتها الحالية، ولكن الترتيبات المتخذة لم تسمح لها برؤية من عساها تكون، حدَّثت نفسها قائلة: «حسناً، سيتعين عليَّ أن أسألها. ذلك الرجل لا بد أنه هو من اعتدت معرفته باسم هايوتودا، وإني لأتساءل عما إذا كانت ابنة سيدتي هناك. ونادت سانجو بانفعال عبر الحاجز القماشي، ولكن هذه الأخيرة كانت أكثر انشغالاً من أن تلبي النداء لانهماكها في تناول الطعام، وبلغ بها نفاد الصبر حد الغضب.

---

(1) زيجو ستارة طويلة مناسبة لتقسيم حجرة.

(2) على أمل لقاء تاما كازورا مصادفة.

قالت سانجو أخيراً: «إنني لا أتذكرك، ما أغرب أن تتعرف إحداهن من المدينة خادمة أمضت العشرين عاماً الأخيرة في تسوكوشي! هل أنت واثقة من أنك لا تخلطين بينها وبين شخص آخر؟». دنت منها أكثر. كانت ترتدي ثوباً فوق رداء حريري رقيق يحمل الطابع الريفي، وقد ازداد وزنها كثيراً.

ازداد إدراك أوكون لعمرها هي، ودفعت بوجهها عبر الحاجز القماشي: «انظري إليَّ ثانية! هل تعرفينني الآن؟».

صفقت سانجو: «هذه أنت! آه، ما أعجب هذا! آه، ما أعجب هذا! من أين جئت؟ هل سيدتي معك؟». وانفجرت في نوبة مأساوية من النحيب.

تذكرت أوكون ـ أمام ذكرى معرفتها وهي صبية - كل الأعوام التي انقضت منذ ذلك الحين الذي التقتا فيه آخر مرة: «أولاً هل المربية معك؟ ما الذي حدث لابنة سيدتي الصغيرة؟ وماذا عن أتيكي؟» لم تقل شيئاً عن سيدتها نفسها.

«إنهن جميعاً هنا! وابنة سيدتي كبرت الآن، ولكن عليَّ أن أخطر المربية».

استبدت الدهشة بالجميع، صاحت المربية: «لا بد أنني أحلم! كم هو غريب أن أعثر مجدداً على من اعتقدت أنها ميتة» أقبلت. إلى الحاجز القماشي.

نحَّين جانباً الحاجز القماشي وكل شيء آخر، مثل الستائر وما إلى ذلك مما يفصل الجميع عن بعضهم، ولكن في البداية لم يكن في وسعهما إلا البكاء صامتين. «ما الذي حدث لسيدتي؟ لقد كنت طوال هذه السنين أصلي وأصلي لمجرد أن أحلم بمكانها، لكننا كنا في مكان بعيد للغاية لا تبلغنا فيه أي أنباء، وقد أحزنني ذلك وتمنيت لو أنني لم أوغل في العمر، ومع ذلك كانت الطفلة التي تركتها وراءها عذبة للغاية وقريبة من القلب، ولذا تشبثت بالحياة، لأنني خشيت من أنها ستعرقل مسيرتي على درب الحياة الآخرة».

لم تحر أوكون جواباً الآن مثلما حدث منذ زمن بعيد. ردت قائلة: «لا عليك، لا عليك، لا معنى لسردي الأمر كله على مسامعك الآن، فسيدتنا قد ماتت». ما أن تفوهت بذلك حتى انخرطن ثلاثتهن[1] في البكاء.

---

(1) أوكون والمربية، وربما سانجو فيما يفترض.

استحث نائب بونجو جمعه لحزم الشموع الخاصة بالمذبح والانطلاق في المسيرة، حيث كانت الشمس توشك على المغيب، وافترق الجمعان في انفعال يفوق أي وقت مضى، واقترحت أوكون أن يمضي الجمعان معاً، ولكنّ الجمعين أحسا بأن ذلك لن يؤدي إلا إلى إثارة فضول مرافقيهم، وهكذا انطلقوا جميعاً حتى من دون إبلاغ النائب بما جرى، ومع الحفاظ على المظاهر من الجانبين، ولاحظت أوكون سراً أنّ سيدة شابة رائعة المظهر في الجمع الآخر، توحي ملابسها بالذوق السليم، وتلبس شيئاً يشبه قميصاً مما يُرتدى في أوائل الصيف، يغطي شعرها الذي لاح جميلاً أخاذاً من خلال الحرير، وبدا لها هذا المشهد مؤثراً وحزيناً في آن.

كان الجمع الأكثر تمرساً بالسير على الأقدام هو الذي بلغ المعبد أولاً، أما الجمع الآخر فقد وصل خلال صلاة المساء. حيث حرص على رعاية السيدة الشابة على أفضل نحو مستطاع، وكان المكان مزدحماً بالحجاج.

كان الموضع الذي شغلته أوكون قريباً من المذبح إلى يمين البوذيساتفا[1]، وكان الكاهن[2] الذي يرعى الآخرين قد جعل موضعهم بعيداً نحو الغرب لأنه لم يعرفهم بعد، ودفع ذلك أوكون إلى مشاورة من حولها ودعوة السيدة الشابة إلى الانضمام إليها في نهاية المطاف، وأوضحت الأمور للنائب، وتركت الرجال حيث كانوا، وأعادت السيدة الشابة معها.

قالت: «إنني أنا نفسي لا أهمية لي، ولكن حيث أنني أخدم المستشار الحالي، فبمقدوري التأكد من تجنب أي مضايقة، حتى عندما أسافر على هذا النحو من الحرص والاستخفاء، ذلك أن الحمقى البائسين في أماكن مثل هذه يزدرون الريفيين بلا حياء» وكانت تود كثيراً مواصلة الحديث، لولا الضجة المنبعثة من الصلاة نفسها، وقد ألهمتها الضجة القيام بدلاً من ذلك بتحية البوذيساتفا، وقالت في سريرة نفسها: «لقد قلت لك دائماً إنني أحن إلى العثور عليها، والآن وقد لمحتها لمحة عاجلة فإن صلاتي قد استجيب لها، ويبدو سموه

(1) بافتراض أن أيقونة بوذيساتفا ها سيديرا كانت تواجه الجنوب آنذاك، كما هي الآن، فإن الجمعين هما على يمينها كلاهما، ولكن جمع تاماكازورا أبعد عن الأيقونة من الجمع الآخر.

(2) أوشي، راهب شملت مهنته مساعدة الحجيج على أداء طقس مقدس. ويبدو أن الجمعين قد استعانا بأوشيين مختلفين.

حريصاً للغاية على العثور عليها، دعه يعرف لطفاً وامنحها السعادة رجاء».

كان الريفيون قد تجمعوا هناك من كل الأرجاء، وجاءت كذلك زوجة حاكم المقاطعة[1]. وأحست سانجو بالغيرة من روعتها، فمضت تبتهل مستغرقة، وقد ضغطت براحتيها على جبينها «أيها الرحيم، لست أسألك إلا هذا، إذا لم تتزوج سيدتي نائب دازايفو فدعها تصبح زوجة حاكم مقاطعة! وذلك سيفيدنا جميعاً أيضاً ولن نكون من ناكري الجميل».

اعتقدت أوكون أن هذه الصلاة مشؤومة، فقالت: «أي ريفية أنت، أي تقدير تحسبين أن النقيب[2] كان يحظى به كل هاتيك السنين؟ الآن وقد غدا وزيراً ودانت له البلاد بأسرها ومن المؤكد أنه يقدِّر سيدتنا أعظم تقدير، هل تتخيلين أن الحال سينتهي بها إلى أن تكون زوجة حاكم مقاطعة؟».

دمدمت سانجو قائلة: «امسكي عليك لسانك! وفّري عليَّ الحديث عن الوزراء، هل تقصدين القول إنه عندما مضت السيدة من دارة مساعد دازايفو تحج إلى كانزيونجي[3]، كانت قافلتها أقل فخامة من قافلة الإمبراطور؟ ما الذي تتحدثين عنه؟» واصلت صلاتها وراحتاها على جبينها كذي قبل.

كان الجمع القادم من تسوكوشي قد أعد للبقاء والاعتكاف ثلاثة أيام، وقامت أوكون التي لم تكن قد اعتزمت البقاء كل هذه المدة، باستدعاء راهب لإبلاغه أنها ستبقى المدة نفسها، وتطلعت إلى حديث هادىء مع السيدة الشابة، ولما كان الكاهن يحتمل أنه يعرف كل ما كانت أدرجته في التماساتها[4]، فقد أبلغته وكأنه من طبائع الأمور بقولها: «هذا من أجل فوجيوارا روري ـ جيمي[5] كالمعتاد. عليك بالاهتمام بصلاتك بمزيد من العناية، لقد عثرت عليها أخيراً، سأقدم آيات شكري لاحقاً» غلب التأثر على من سمعوها.

---

(1) مقاطعة ياماتو، حيث يقع مزارها سيديرا.

(2) لقب تو نو تشوجو عندما حملت أم تاما كازورا بها.

(3) المعبد الأكثر أهمية في كيوشو، وغالباً ما يوضع جنباً إلى جنب في المعتقد الجماهيري مع هاسيديرا، وكلاهما مكرسان للبوذيساتفا.

(4) مياكاشي - بومي، صلاة مكتوبة تقدم رسمياً من قبل كهنة مكلفين بصورة مناسبة.

(5) تاما كازورا، وهي من قبيلة فوجيوارا لأن أباها منها. روري جيمي (الآنسة روري) إما أنه اسم تاماكازورا في طفولتها أو شبه اسم ابتكرته أوكون.

رد الكاهن قائلاً: «ذلك أمر طيب للغاية، لا بد أنها هبة رداً على صلواتنا المتواصلة».

بيد أن الصلوات استمرت بصوت عال طوال الليل، وعند الفجر نزل الجميع إلى مقر كاهن أوكون، وربما كانوا قد قصدوا تجاذب أطراف الحديث من دون مقاطعة من أحد، بدت السيدة الشابة محرجة على نحو يثير الإعجاب لارتدائها مثل هذه الثياب المتواضعة.

استهلت أوكون الحديث: «لقد رأيت العديد من السيدات الساميات بحكم الصحبة التي أعيش في إطارها، ولكني اعتبرت من الأمور المسلم بها على امتداد سنوات أنه ما من واحدة منهن يمكن أن تعادل سيدتي الحالية[1] في مظهرها، والفتاة الصغيرة الموجودة لديها الآن هي بالطبع جميلة للغاية، وسموه يرعاها أحسن رعاية، وكذلك فإن سيدتي الماثلة هنا على الرغم من ارتدائها ملابس عادية للغاية تبدو رائعة الجمال، وقد تعرف سموه على كل إمبراطورة أو سيدة أقل قدراً يمكنك تخيلها منذ عهد أبيه، وعلى نحو ما يخبر سيدتي، فإن أم جلالة الإمبراطور وتلك الفتاة الصغيرة التي أتيت على ذكرها هما اللتان تذكرانه بما تعنيه «الحسناء» حقاً، أما فيما يتعلق بالمقارنة بينهما فإنني لم أعرف نيافتها الراحلة فقط، وابنته لا تزال في مراحل النمو فحسب، ومن هنا فإنه يتخيل ما ستكون عليه في وقت لاحق، وعلى الرغم من ذلك فإنني ما زلت أريد أن أعرف من التي تضارع سيدتي جمالاً، وسموه بدوره يحس على نحو جلي بأنها استثنائية في جمالها، على الرغم من أنه لم يكن بمقدوره أن يدرجها بصوت عال في قائمته لمن يمثلن ما تعنيه الحسناء، وهو يغيظها بقوله: «إنك جريئة لبقائك معي! إن مجرد رؤية هذين الاثنين يضيف المزيد إلى حياة المرء، ولم يحدث أن تصورت قط أن النظر إلى أي شخص آخر يمكن أن يكون له التأثير ذاته، ولكن هل تجعلها سيدتنا الشابة الماثلة هنا أقل جدارة؟ هناك حد في نهاية المطاف، وإنني أعتقد أنها متميزة على الرغم من أنها لا يمكن أن تشع نوراً من تاج جبينها لتعلن أنها أعجوبة!»[2]، راحت تتأمل السيدة الشابة المبتسمة، فيما ابتهجت المربية العجوز أعظم ابتهاج.

---

(1) مورا ساكي.

(2) على العكس من بوذا، الذي يكشف عن استنارته بهذه الطريقة، بحسب رايوجون – كايو.

ردت المربية قائلة: «لقد أوشكت أن أدع جمالها يذوي في ذلك المحيط بها الذي لا يعرف الشكر ولا الجميل، لكن ذلك بدا أمراً مؤسفاً للغاية، لقد تخليت عن الدار والمدفأة وتركت الأبناء والبنات الذين كانوا أملي في المستقبل، ومضيت نحو ما كان يمكن أن يكون بالنسبة لي مجهولاً كذلك، وجئت إلى المدينة يا عزيزتي، امضي بها مباشرة إلى حيث تنتمي. ومن المؤكد أنك أنت يا من تخدمين في دار عظيمة تتاح لك يقيناً الفرص لمقابلة معاليه أبيها، لطفاً، حادثيه واحرصي على أن يقر بأنها ابنته».

ظلت السيدة الشابة التي غمرها الحرج مشيحة عنهما.

«يا إلهي، لا، إنني أنا نفسي لست بذات حيثية، ولكن عندما يستدعيني مولاي لسبب أو لآخر، فإنني غالباً ما أتساءل بصوت عال محدثة إياه عما يمكن أن يكون حدث لها، وهو يصغي لما أقول، وهو يقول: «إنني أرغب في العثور عليها كما تعلمين، وإذا تصادف أن سمعت أي شيء..».

«سموه بالطبع سيد نبيل رائع، ولكنني أدرك أن لديه سيدات مميزات للغاية، وأنا أرغب في أن تتصلي بأبيها الفعلي أولاً».

أبلغتها أوكون، في معرض الرد، بما حدث: «لقد لزم مولاي الحداد عليها كثيراً، بحيث يصعب عليه التغلب على الأمر. وقال منذ ذلك الحين: أود كثيراً أن تكون معي! ويؤسفني أن لديَّ عدداً معدوداً من الأبناء، وسأبتهج إذا عثرت على التي هي من صلبي. وقد جعلني سوء تقديري أبالغ في الحذر، وتركت الكثير من الوقت ينقضي من دون التكفل بالبحث عنها، ثم سمعت اسم زوجك يذكر في معرض الحديث عن تعيينه مساعداً لدازايفو، ولمحته على عجل في اليوم الذي مضى فيه لاستئذان سموه في السفر، ولكنني لم أستطع محادثته. وعلى الرغم من ذلك، فقد افترضت أنك لا بد قد غادرتها في الدار القائمة في جوجو، الدار التي تضم زهور حسناء الشفق. ولكن ما أفظع ما جرى! ما أفظع الاعتقاد بأن قدرها شاء لها في نهاية المطاف البقاء في الريف!».

ظللن يتجاذبن أطراف الحديث طوال اليوم، ما بين الحديث عن الذكريات حيناً، وما بين ترديد «الاسم» حيناً آخر، أو ترتيل السوترات أحياناً أخرى.

أظللن من حيث كن على حشد الحجيج، وامتد أمامهن نهر هاتسوسي.

«لو أنني لم أقطع كل هذه المسافة للعثور على الموضع الذي تنهض فيه شجرتا الأرز

ههنا قرب نهر فورو؟ هل كنت سألتقيك أبداً؟[1]

ما أسعدني من جراء هذا!». هكذا حدَّثت أوكون السيدة الشابة، التي ردت من خلال دموع تليق بها إلى أبعد الحدود:

«لست أدري ما الذي كان عليه نهر هاتسوسي في الأيام الخوالي

لكن دموع فرحتي تنهمر إذ ألقاك اليوم».

إنها جميلة للغاية حقاً، ولكن كم كانت ستكون معيبة لو أنها اتسمت بالافتقار لحسن السلوك! كيف أفلحت في تربيتها على هذا النحو؟ اغتبطت أوكون وأحسَّت بالامتنان للمرضعة، ولكن سلوكها أفصح عن تميز وكبرياء يثيران الإعجاب في النفس. ومن المؤكد أنها تعطي المرء انطباعاً رفيع الشأن عن تسوكوشي، على الرغم من أن كل من أعرفهم من هناك يبدون قادمين من الريف مباشرة. لا لست أدرك جلية الأمر!».

عند حلول الظلام، مضوا جميعاً إلى المعبد، وأمضوا اليوم التالي هناك عاكفين على ابتهالاتهم. كانت الريح الخريفية، التي تهب صاعدة من الوادي في الأسفل، باردة على البشرة، ولكن كانت أفئدتهم المبتهجة تعج بالعديد من الخواطر. وكانوا قد خشوا من أنهم لن يرفعوا رؤوسهم عالياً من جديد، ولكنهم الآن وقد سمعوا من أوكون عن والد سيدتهم الشابة، وعن الطريقة التي ضمن بها النجاح حتى لأقل أبنائه شأناً، في أي أمر، وقد اعتقدوا، وبصفة خاصة السيدة الشابة نفسها، أنه حتى الأقل شأناً ما من حاجة تدعوه إلى الخوف.

قبل المغادرة، تبادلوا الأخبار عن أماكن إقامتهم، حيث أنه سيكون من الرهيب أن يفقدوا الاتصال فيما بينهم من جديد. ولم تكن تفصلهم مسافة كبيرة، حيث كانت دار أوكون قريبة من ضيعة روكوجو، وأحسوا أن ذلك يعزِّز الاتصال فيما بينهم.

---

(1) كوكينشو 1009 (ليست تانكا وإنما، هي سيدوكا أطول قليلاً) «قرب نهر هاتسوسي، نهر فورو عبر السنين تشمخ= شجرتا الأرز التوأم، ولعلنا نلتقي ثانية حيث تنهض الشجرتان». يبدو أن «فورو» هو اسم آخر لنهرها تسوسي.

سارعت أوكون إلى روكوجو، على أمل العثور على لحظة تشير فيها إلى سموه لما حدث. ولفتت رحابة المكان نظرها فور اجتيازها البوابة، ورأت حشداً من العربات مقبلاً أو منصرفاً. كان هذا قصراً من اليشب أُعد ليدخل الرهبة والدهشة في نفس الزائر المتواضع. وفي تلك الليلة لم تمض إلى سيدتها، وإنما رقدت غارقة في خواطرها.

في اليوم التالي، أبهجها أن يتم استدعاؤها بالاسم من بين كل النسوة اللواتي عدن إلى الدار بالأمس كباراً كن أم صغاراً. ورآها سموه كذلك، وكالمعتاد مضى يغيظها بلا رحمة: «ما الذي أبقاك بعيداً كل هذا الوقت؟ ليس هذا من عادتك. ذوو الوقار ينقلبون في بعض الأحيان، فيرفعون كعوبهم عالياً، فيما أظن[1]. لا بد أنك كنت تقضين وقتاً طيباً».

«انقضت سبعة أيام منذ غادرت، يا مولاي، ولكنني لست أدري كيف أمكنني القيام بذلك على وجه الدقة. وعلى الرغم من هذا فقد صادفت بعيداً في الجبال شخصاً أسعدني أن أراه».

«من عساه يكون؟».

ترددت أوكون في إبلاغه تواً، لأنها لم تقل أي شيء بعد لسيدتها، ولو أنها أبلغته سراً، وسمعت سيدتها بالأمر في وقت لاحق فإنها ربما تفترض أن أوكون لم تعد تكترث بها، فردت قائلة: «سأقول لك في التو يا مولاي!». وسمح لها وصول زوار جدد بقطع حديثهما.

أُنيرت المصابيح. وكان جينجي وامرأته جديرين تماماً بأن تقع عليهما العين على هذا النحو وهما معاً في هدوء في الدار. ولا بد أنها كانت في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين من العمر، وقد نضجت لتصل إلى ذروة جمالها. وحدَّثت أوكون نفسها بأنها قد اكتسبت نضارة جديدة، حتى خلال غيابها القصير هذا. وبعد أن كانت قد وجدت هذه السيدة الشابة الجديدة جميلة، فإنها لم تتوقع أن تعاني من المقارنة، أم ترى كان الأمر راجعاً إلى خيالها؟ فقد بدا أنها ترى الفارق بين من قُدِّر لها أن تحظى بحسن الطالع وبين من لم تعرف سبيلاً إليه.

---

(1) حرفياً، «ينقلبون فتية أغراراً» (كوماجايرو).

كان جينجي بسبيله إلى الرقاد، وناداها لتدلك ساقيه. أشار بقوله: «إنني أسمع أن الصغيرات لا يحببن القيام بذلك، فهو يقتضي الكثير من العمل. لا. الأمر يقتضي وجود اثنين من الموغلين في العمر ليساير أحدهما الآخر حقاً».

ضحك الجميع في تحفظ. «ذلك صحيح. من الذي يمكنه الشكوى حيال طلب سموه إسداء جميل؟».

«على الرغم من ذلك، فإنني أود لو أنه لم يكن مولعاً بالإغاظة على هذا النحو».

قال لأوكون ضاحكاً: «ربما لا تحب سيدتي أن يرتاح كبار السن أحدهم للآخر. ولو أنك سألتني لقلت لك إن هذا يمكن أن يفضي إلى المتاعب، وليس من طبعها أن تدع مثل هذا الأمر يمر!».

كان جذاباً ومسلياً. ولم تكن خدمته لجلالة الإمبراطور تشغله بأكثر مما ينبغي، وبالتالي فقد أخذ الحياة في يسر على نحو ما طاب له، وألقى النكات كثيراً، وأحب نصب الشراك للوصيفات كثيراً، إلى حد أنه عمد إلى إغاظة من تربطه بهن علاقة وثيقة منذ وقت طويل، مثل أوكون.

«من صادفت إذن؟ هل أحضرت معك نوعاً من الكهنة؟».

«يا له من شيء تقوله، يا مولاي، إن الشخص الذي عثرت عليه قريب من قطرة الندى التي تبددت سريعاً للغاية من حسناوات الشفق».

«فهمت. نعم، لا بد أنك سعيدة للغاية حقاً. أين كانت كل هذه السنين؟».

ترددت أوكون في إبلاغه بالحقيقة كاملة. «في قرية جبلية يا مولاي[1]! وناسها لا يزالون هم من كانوا عليه بشكل أو بآخر، وهكذا تمكنا من الحديث عن تلك الأيام، لم أستطع تحمل الأمر».

«انتظري! ليس هنا أمام من لا يعرف شيئاً عن هذا». كان حريصاً على أن يلزم الحرص.

---

(1) تشير أوكون ضمناً من خلال الحذف إلى أن تاماكازورا لم تكن على الأقل بعيدة للغاية عن المدينة.

تدخلت سيدة أوكون في الحديث: «آه. لا تكترث! فأنا أكثر نعاساً من أن أصغي!» وضعت كميها على أذنيها.

«ماذا عن مظهرها الآن؟ من المؤكد أنها ليست جميلة مثل أمها، أهي كذلك؟».

«لم أكن أظن أن هذا ممكن، يا مولاي، ومن منظوري فإنها كبرت لتصبح أجمل منها بكثير».

«ما أروع هذا! ما مدى جمالها في اعتقادك؟ أهو في جمال هذه؟».

«يا إلهي! لا، يا مولاي، ليست على هذا القدر من الجمال!».

أضاف بلهجة الأب: «حسناً. على الرغم من ذلك، فإنك تبدين سعيدة بها على نحو ملحوظ. لن أقلق عليها إذ كانت تبدو مثلي!».

بعد تلقي هذه الأنباء الأولية، استدعى جينجي أوكون مراراً: حسناً، إذن، لسوف أحضرها إلى هنا. على امتداد السنين، كانت هناك مناسبات للندم في مرارة على فقد أثرها، وحيث أن أخبارك تسعدني كثيراً، فسوف يكون أمراً محزناً ألا أحضرها إلى هنا، أخذاً في الاعتبار أنني لم أكن على اتصال بها كل هذا الوقت. لماذا نخبر معاليه أباها؟ إن لديه ما يكفي من الأبناء ليبقى منشغلاً على وضعه الراهن، وقد يتبين أن من قبيل الخطأ انضمامها إليهم الآن باعتبارها الأقل شأناً بينهم. أما أنا، من ناحية أخرى، فلديَّ عدد محدود للغاية من الأبناء، ويمكنني تماماً القول إنني قد اكتشفت على نحو غير متوقع ابنة أخرى. ولسوف أثير ضجة كبرى حولها، وأدفع الخطّاب إلى أن يجنوا بها».

أدخل هذا النوع من الحديث السرور على نفس أوكون كثيراً. «كما تريد، يا مولاي، إذا سمع معاليه بأمرها فمن غيرك سيبلغه بجلية الأمر؟ إن مساعدتك لها بطريقة أو بأخرى يمكن أن تساعد في اغتفار خطأ موت أمها».

«لا تزالين على اتهامك لي، أليس كذلك؟». ابتسم، لكنه شارف على البكاء. «لقد فكرت طوال كل هذه السنين في الوقت القصير الذي أمضيته أنا وهي سوياً. ولم أحب واحدة من السيدات المجتمعات هنا مثلما أحببتها. وقد أسفت كثيراً على أنه من بين الكثيرات اللواتي لا يزال بوسعهن الشهادة على صمودي، فإنك الوحيدة التي بقيت تذكرينني بها

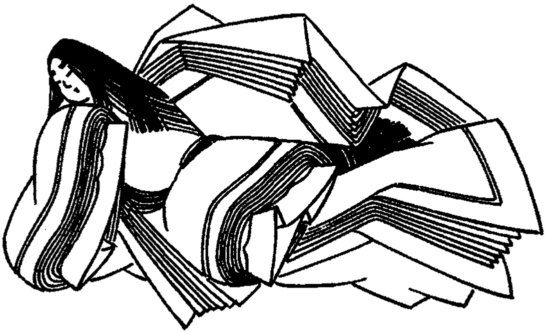
بعـد رحيلها. إنني لا أنسـاها أبداً، وكان حرياً بي أن أكون سـعيداً لـو أنها ما زالت على قيد الحياة!».

بعث برسالة إلى ابنتها. لم تكن ذكرى القرطم[1] الميؤوس منها مطمئنة للغاية، أخذاً في الاعتبار كيف أن الشـابة نشـأت في الريف، وأراد أن يتبين أولاً كيف سـيكون صادرة منها. وقد تبنى أسـلوباً جاداً في الكتابة وكتب على امتداد حافة الرسـالة. «من يخاطبك على هذا النحو

«لست تعرفينه، ولكن ما عليك إلا السؤال، وسرعان ما ستعلمين

أي صلة وثيقة يعلنها قصب ميشيما فرعاً بجانب آخر»[2]

حملت أوكون الرسـالة بنفسـها، ونقلـت كذلـك مـا قالـه جينجـي. وأحضـرت معهـا ملابـس للسـيدة الشابة وولكل من جاء معها.



امرأة في ثوب كوكيشي

لا بد أنه قد ناقش الأمر بأسره مع سـيدة أوكون، لأنه جمع هذه الهدايا من خزانة ملابسـه الرئيسـية، واختار هدايا يميزها لونها وتطريزها. وبالنسبة للريفيين فإنها لم تكن أقلّ من مدهشة.

وكان يمكن لأقل رسـالة من أبيها، حتى ولو كانت عذراً بسـيطاً، أن تدخل السعادة إلى قلب السيدة الشابة، ولكنها بدت حزينة، وأعلنت أنها لا يمكنها أن تنضم إلى صحبة رجل لا تعرفـه، غيـر أن أوكون أوضحت لها ما الذي سـيعنيه انتقالها إلى هنـاك، وانضمت إليها الأخريات لتشجيعها.

---

(1) سويتسوموهانا.

(2) هذه القصيدة متواصلة نحوياً مع النثر الذي يسبقها. وهي تؤكد الصلة المستمرة بين جينجي وتاماكازورا، وهي صعبة تماماً، ربما لأن جينجي يقصد بها نوعاً من الاختبار. وقد كان خليج (ميشيما الصغير ميشيما ـ إي) وهو بقعة على امتداد نهر يودوبين كيوتوونانيوا، مرتبطاً في الشعر بفروع القصب النامية بكثافة (ميكوري) والتي تقوم (صفوفها) سوجي العديدة بتقديم، أو تجميل، فكرة سوجي باعتبارها «صلة» بين شخصٍ وآخر.

«لسوف يسمع معاليه بأمرك، يا سيدتي، بالطبع سيسمع به لدى استقرارك هناك».

«الصلة بين الأب وولده لا تنفصم عُراها بمثل هذه السهولة».

«أوكون ليست بذات حيثية، ولم يكن بمقدورها أن تتخيل كيف ستعثر عليك، ومع ذلك فإن البوذات والآلهة قادتها إليك. أليس كذلك؟ من الواضح إذاً أنه في حالتك وطالما أنك وأباك تظلان في صحة جيدة..».

كما ذُكِّرت السيدة الشابة بأنها لا ينبغي أن تهدر وقتاً في التوصل إلى صياغة رد. كانت هذه الفكرة جارحة، لأنها تعرف إلى أي حد تبدو ريفية حتماً. أخرجت مربيتها بعض الورق الصيني المعطر، وحرصت على أن تكتب:

«من أين ينمو فرع هذه القصبة التعسة متواضعة القدر،

حتى تضرب جذراً بمثل هذا العمق في الأحزان التي تجلبها الحياة؟» .

وهذا كل شيء، بسطور واهنة خطها مضطرب وبعيد عن الثقة بالذات، ولكنه له تميزه. لا، هذا الخط لا سبيل إلى ازدرائه. ساور جينجي الشعور بالثقة عندما فكَّر في المكان الذي يمكن أن تقيم به، أدرك أنه ليس هناك جناح خال في الجانب الجنوبي الشرقي من داره، وإلى جانب ذلك فإن العدد الكبير من العاملين هناك يعني أنها ستكون على احتكاك بهم أكثر مما ينبغي. ومن المؤكد أن جناح جلالتها كان هادئاً بما فيه الكفاية، ولكنه خطر بباله أنها يمكن أن تبدو بسهولة موجودة هناك في خدمة جلالتها. لا، كان المكان بعيداً قليلاً، ولكنه قرَّر أن ينقل المكتبة الموجودة في الجناح الغربي من الجانب الشمالي الشرقي إلى مكان آخر. وكانت السيدة المقيمة هناك[1]، ستتقاسم معها عندئذ دارها، ولكنها كانت من اللطف والحرص بحيث بدا مؤكداً أنهما ستستقران معاً. حسناً، لقد تقرر ذلك.

أبلغ جينجي أخيراً السيدة التي تهيمن على أهل داره بالقصة كلها المتعلقة بما حدث في كل تلك السنين البعيدة. وقد لامته على أنه أبقاها طي الكتمان طوال تلك المدة.

رد قائلاً: «إنك ظالمة. هل كان يمكن أن أتطوع بسرد قصة كتلك حتى وإن كانت تدور حول من هي على قيد الحياة؟ لأنك غالية عندي فحسب، كنت حريصاً معك»، وبدا جلياً

(1) هاناتشيروساتو.

أن الذكرى قد استدعت حزناً بالغاً.

«غالباً ما لاحظت في حالة آخرين أيضاً مدى عمق اهتمام المرأة حتى عندما تكون المشاعر المقصودة ليست بذلك القدر من القوة، وعقدت العزم على ألا أنغمس في التودد للنساء، ولكن من بين النسوة اللواتي قُدِّر لي في نهاية المطاف أن أعرفهن، فيما كان ينبغي ألا أفعل ذلك، فإنها هي التي لا أزال أتذكرها باعتبارها لا نظير لها في عذوبتها المفرطة. ولو أنها كانت لا تزال على قيد الحياة اليوم، فمن المؤكد أنني سأضعها في المرتبة نفسها التي تحتلها السيدة المقيمة في الجانب الشمالي الغربي[1]. والناس جميعاً مختلفون للغاية، وقد كانت تفتقر إلى الروح وحضور البديهة، هذا صحيح، ولكن كم كانت نبيلة ومهذبة!»

«مع ذلك فإنني أشك في أنها كان يمكن أن تعادل أكاشي». كانت لا تزال تحس بوخزة غيرة من تلك السيدة، ولكن كانت الطفلة الصغيرة، التي تستمتع ببراءة عذبة إلى حديثهما، قريبة من القلب إلى حد أنها غيّرت رأيها مجدداً، وخلصت إلى أنه كان ممتعاً تماماً.

كان هذا كله في الشهر التاسع، ولكن لم يكن بوسع السيدة الشابة الانتقال طواعية بتلك الطريقة، حيث بدأت مربيتها البحث عن فتيات تابعات صغيرات مناسبات، ووصيفات شابات. وفي تسوكوشي كانت قد تمكنت من أن تدخل في خدمة الفتاة التي عُهد بها إليها، بقدر ما تسنح الفرصة، كل النساء المقبولات اللواتي انتقلن إلى هناك من المدينة، ولكن في تعجل واضطراب رحيلها تركتهن جميعاً وراءها، ولم تكن تعرف أي أخريات غيرهن. وفي النهاية كانت المدينة كبيرة للغاية إلى حد أنها جعلت نسوة من السوق يعثرن عليهن ويحضرنهن إليها. ولم تختبرهن أي شيء على الإطلاق عمن يكون والد السيدة الشابة.

نقلتها أوكون أولاً في هدوء إلى دارها هي في جوجو، حيث اختارت طاقم العاملين لديها، وأعدت خزانة ملابسها وما إلى ذلك. وانتقلت إلى روكوجو في الشهر العاشر.

عهد بها جينجي إلى السيدة المقيمة في الجانب الشمالي الشرقي، وأوضح لها الأمر بقوله: «فقدت إحداهن ممن كنت مولعاً بهن ثقتها بي، واختبأت في قرية جبلية بائسة، وكانت هناك طفلة صغيرة أيضاً. وقد أمضيت سنوات باحثاً عنها سراً وبلا طائل على

(1) أكاشي.

الـدوام إلـى أن كبـرت وأصبحت امرأة، وبلغتنـي أخبار عنها أخيراً من مصـدر غير متوقع، وكمـا تريـن فإنني في غمـار نقلها إلى هنا، ففي نهاية المطاف مـن الأفضل أن يحدث ذلك متأخراً من ألا يحدث أبداً».

واصـل حديثه متعجلاً: «لقد ماتت أمهـا. إنني أعرف أنني طلبت منك رعاية النقيب[1]. ولكـن مـن المؤكـد أن ذلك لم يكـن مصدر إزعـاج كبير. أرجـو أن تعامليها علـى نحو ما تعاملينه، وأحسـب أنها تفصـح عن تربيتها الريفية بالعديد من السـبل، فعلميها ما ينبغي أن تعرفه بحسب ما تفرضه الحاجة».

ردت فـي اعتـدال: «فهمت. لـم تكن لديَّ فكرة عن وجود أحد على تلك الشـاكلة. كم هذا جميل! كان أمراً مخيباً للآمال بالنسبة لك أن تكون لك ابنة واحدة فقط».

«كانت أمها شخصية شديدة اللطف، وأنا أثق كثيراً بدورك، كما ترين».

لم تكن النسـوة على علم بأن القادمة الجديدة هي ابنة جينجي، فراحت كل منهن تسأل الأخرى: «من التي مضى وأعاد اكتشافها هذه المرة؟ يا له من هاو صعب للجميع!».

أقبل جمعها في ثلاث عربات، وضمن وجود أوكون معهم ألا يظهروا بمظهر الريفيين. وكان جينجي قد زودهم بالحرائر منوعة الأشكال.

مضى مباشـرة لرؤيتها في ذلك المساء، وكانت النسوة التابعات لها قد سمعن كثيراً عن «جينجـي المتألق». ولكن بعد كل السـنوات التـي قضينها بعيداً عن الدنيا لم يتوقعن شـيئاً مميزاً، وتركتهن اللمحات المراوغة التي اختلسـنها منه عبر فتحات في السـتائر في أضواء مصابيح خافتةً مبهورات جميعاً إلى حد الخوف مما رأين.

«أرى أن هـذا البـاب للزوار المميزين وحدهم». قالها ضاحكاً لأوكون عندما فتحته له، ثـم جلس في غرفة الجناح الفاصل. «يا له من ضوء رقيـق! يقولون إن الابنة تحب أن ترى محيا أبيها. ألا توافقين على ذلك؟». جعل السـتار القائم ينزلق جانباً قليلاً، وكانت السـيدة الشـابة محرجة إلى أبعد الحدود، وأشـاحت بناظريها بعيداً، وقـد بدت جميلة للغاية وهي تفعل ذلك إلى حد أنه سُر كثيراً.

---

(1) يوجيري. هذه هي الإشارة الأولى إلى ترقيته، التي نالها أخيراً.

«امنحونا المزيد من الضوء! هذا الضوء ضعيف للغاية».

جعلت أوكون ضوء المصباح أقوى، وقرَّبته أكثر. «لا حياء عندك!». ضحك ضحكة خافتة.

«آه، نعم، هاتان العينان! ما أشد ما تجعلان كل العيون تافهة أمامهما!».

استهل الحديث بطريقة أبوية تماماً، من دون أن يظهر أي مؤشر دال على الحفاظ على المسافة الفاصلة بينهما: «لزمت الحداد في كل لحظة من اللحظات التي فقدتك فيها، وأحس كأنني أحلم الآن وأنت ماثلة بالفعل أمامي. يعود الماضي كالطوفان بصورة مؤلمة للغاية إلى حد أنني لا أعرف ماذا عساي أقول»، جفَّف عينيه، فقد أثرت الذكريات به حتماً وأحصى السنين. تحدَّث بصوت مفعم باللوم: «يقيناً لم يفترق أب وابنته قط طويلاً هكذا! أي حزن جلبته تلك المسألة لي! إنك لم تعودي في عمر يجعلك خجولة بصورة صبيانية، وأنا أريد أن أحدثك بكل شيء جرى! لم تلزمين الصمت على هذا النحو؟» كانت أكثر خجلاً من أن تتحدث، فغمغمت بصوت مفعم بالشباب ذكَّره بأمها. «لقد اختفيت قبل أن أستطيع الوقوف[1]، ومنذ ذلك الحين لم أشعر بما يتجاوز أنني على قيد نصف حياة».

ابتسم جينجي، وقال: «إذن فمن عساه غيري يشفق على مصيرك المحزن؟». بدا ردها مناسباً تماماً بالنسبة له. انصرف، بعد أن أصدر إلى أُوكون سلسلة من التعليمات.

ابتهج جينجي لشعوره بالسرور منها، وأبلغ السيدة التي تهيمن على أهل داره بكل شيء عنها. «كنت على تمام الاستعداد لاستنكار حالتها المحزنة، أخذاً في الاعتبار الطريقة التي رُبيت بها وسط الريفيين في الجبال، ولكن لا، على الإطلاق، فقد أثرت فيَّ بالفعل. ولا بد لي من أن أدع الناس يعرفون بأن لي فتاة كهذه هنا، وأثير حيرة أولئك السادة المهذبين - وزير الحرب على سبيل المثال - المولع للغاية بزيارتي. والخطَّاب جميعاً يبدون متألقين وفي خير حال عندما يأتون، ولكن ذلك يرجع فقط إلى أنه لم تكن هناك من هي مثلها هنا لكي تطردهم شر الطرد. لسوف أحدث ضجة كبرى هنا، ولسوف نرى مدى جرأتهم حقاً».

---

(1) نيهون شوكي 66، من نظم أوي نو أساتسونا: «ألا يشفق عليه أبواه؟ بلغ الطفل العلقة عامه الثالث وليس بمقدوره الوقوف بعد».

«تبدو أباً غريباً، فالفكرة الأولى التي تساورك هي أن ترهق الناس جميعاً. ينبغي أن تخجل من نفسك».

«نعم، كان يجب أن أثير ضجة حولك، وأختبرهم بالطريقة نفسها، لو أنني فكرت في ذلك آنذاك. أي أحمق كنت! لقد أفلتت مني فرصتي الكبرى!». ضحك، أما هي فتضرجت خجلاً على نحو مفعم بالصبا وبالجمال. أحضر محبرة حجرية قربه، وكتب مسرعاً:

«نعم، يتواصل حبي تماماً كما منذ عهد بعيد غير أنه إكليلي،

قولي لي أي فرع طويل ومتأرجح في الريح قادك إليَّ».

يا عزيزتي[1]!

وصف السيدة الشابة التي اكتشفها للنقيب بدوره، وعهد بها إلى رعايته، فمضى النقيب وفقاً لذلك لزيارتها. أعلن بقوله جاداً: «كان ينبغي أن ترسلي في طلبي، على الرغم من أنني لست جديراً بذلك إلا بالكاد، لأنني في خدمتك وليس بمقدوري إلا الاعتذار عن عدم تقديم نفسي لك بمناسبة انتقالك إلى هنا». كان خطاباً مؤلماً بالنسبة لمن يعرفون الحقيقة[2].

كانت غرفتها في تسوكوشي مؤثثة بصورة جميلة، ولكنهم رأوا الآن بجلاء أن ذلك المكان ينتمي إلى الريف تماماً، فالغرف هنا كانت مجهزة أحسن تجهيز، وكلها على أحدث طراز، وكان السادة الذين تقبلوا سيدتهم باعتبارها تنتمي إلى عائلتهم متألقين إلى حد أن سانجو أصبحت الآن تزدري المساعد دازايفو[3]. وكانت ذكرى موقف المفوض المدقق وسلوكه في حد ذاتها مما لا يجوز الحديث عنه. وأقرت السيدة الشابة بكل ما عناه لها إخلاص النائب بونجو، على نحو ما فعلت أوكون، التي غالباً ما كانت تأتي على ذكر هذا الإخلاص بدورها. واختار جينجي بنفسه العاملين في دارها ودربهم، خشية أن يؤدي أي تهاون إلى إحداث متاعب. وانضم إليهم النائب بونجو. الآن أصبح هو الذي أمضى كل

---

(1) في الأصل يؤدي لفظ تاماكازورا (الإكليل) بصفة أساسية وظيفة تجميل لـ«سوجي» (الفرع) الذي يظهر بنتائجه المعلقة بـ«الاتصال» في تبادل جينجي وتاما كازورا للقصيدتين.

(2) لأنه يتحدَّث كما لو كان يخاطب أختاً.

(3) الذي كانت قد وجدته مؤثراً في النفس للغاية، عندما كانت في تسوكوشي بجزيرة كيوشو.

هـذا الوقت الطويل في غياهب النسـيان في الريف يمضي داخـلاً، خارجاً، ليل نهار، ينجز الأمـور، ويصدر الأوامر، وقد أدخل ذلك على نفسـه أعظم السـرور. وكان اهتمام سـموه المفعـم بالعطـف البالغ بكل التفاصيل أعظم مما كان يمكن للمـرء توقعه في أي وقت من الأوقات.

مـع اقتـراب العام من نهايته، فكَّـر جينجي في أثاث القادمة الجديـدة إلى داره وملابس وصيفاتهـا، علـى نحو ما فعل بالنسـبة لأعظم سـيداته، وذلـك على الرغم مـن أنه افترض مسـتخفاً أن تربيتهـا قـد منحتهـا أذواقـاً ريفية إلى حد مـا. كان قـد اعتزم أن يقـدم لها هذه الأشياء، ولكنه عندما رأى كل الأشياء التي أمره بها النساجون في حرص وعلى نحو رائع، كل الأثواب الضافية والأردية الرسمية من كل لون وطراز، أشار محدثاً سيدة داره: «ما أكثر ما هنالك! لا بد لنا من أن ندع الجميع يحصل على البعض منها، بحيث لا يكون هنا شعور بالانزعـاج»، كان قد أخرج كل شـيء أعده القائمون على خزانة ثيابه أو أعدته هي نفسـها. وكانـت خبيرة عظيمة في مثل هذه الأمور، وصباغتها تقـدم ألواناً وظلالاً فائقة الروعة إلى حـد أنه نظر إلـى عملها باندهاش. تطلع إلـى الحرائر الأرجوانية القاتمـة الحمراء وما إلى ذلك، ووضعها في خزائن أو صناديق للثياب، وبمساعدة الوصيفات الخبيرات قسمها إلى مجموعات.

أطلت على المشـهد. وقالت: «هناك حقاً مجال محدود للاختيار. عندما تقدم مثل هذه الهدية، يتعين عليك أن تأخذ في الاعتبار مظهر من تهديه إليها، فمن الخطأ تماماً أن تجعل الثوب غير مناسب لمن يرتديه».

ابتسم جينجي، وقال: «إنك تحاولين اكتشاف ما تبدين عليه، أليس كذلك؟ من دون أن تفشي سر محاولتك هذه! حسناً. أيها ترتدين لنفسك؟».

كعهدها ردت في خفر: «لكنني لا أعرف إلا ما تبلغني به المرآة»[1].

حصلـت على ثوب رسـمي في لون الكرم مع أشـكال زخرفية حمـراء وردية على هيئة البرقـوق فـوق لون أحمر برقوقـي جميل، بينما كان ثوب طويل في لـون براعم الكرز فوق

---

(1) «اترك الأمر ذلك».

ثوب رقيق متألق من نصيب حبيبتها الصغيرة. وحصلت سيدة الصيف[1] على ثوب رسمي سماوي الزرقة «يوحي بألوان الشاطىء»، بديع النسيج ولكنه يعكس حرصاً في اختيار طبيعة اللون فوق ثوب أقحواني قاتم الحمرة، وخصص ثوباً طويلاً في لون وردة الكريا فوق ثوب أحمر صاف للمقيمة الجديدة في جناحها الغربي[2]، وتخيلت مرافقته مظهر السيدة الشابة متظاهرة طوال الوقت بأنها لا ترقب ما يجري. وبقدر ما استطاعت أن تتبين (حيث كان جينجي على حق تماماً) فإنها ربما كانت مثل أبيها وزير شؤون القصر، جميلة على نحو لا يقاوم، ولكنها تفتقر إلى الرشاقة.

لم ينم التعبير المرتسم على ملامحها عن شيء، غير أنه كان لا يزال مما يثير ضيق جينجي أن يراها مصممة على هذا النحو على المتابعة. قال: «آه، حلمي! إن تشبيهك ملابسهن بمظهرهن قد يضايقهن كثيراً، ومن المؤكد أن هذه ملابس بديعة، ولكن ألوانها لا بأس بها حتى الآن، بينما مظاهرهن وإن ضارعت الكمال لا يمكن إلا أن تنخفض كثيراً». وبابتسامة في سرية اختار للقرطم حريراً في لون الصفصاف مع زخرف على هيئة إكليل صيني[3]، وكان قماشاً بديعاً في هذا الإطار. راحت ترقبه بعدم موافقة على التميز الشخصي الذي يوحي به وهو ينحى جانباً لأكاشي ثوباً رسمياً أبيض، صينياً في طابعه مع طيور وفراشات تدف منطلقة بين فروع أشجار البرقوق، فوق ثوب متألق أرجواني اللون وللراهبة شرنقة زيز الحصاد[4] انتقى ثوباً بالغ الأناقة من اللونين الأزرق والرمادي، وكان قد انتقى لنفسه أردية ذات ورود صفراء ومفضلة لديه، وبعث إلى كل منهن رسالة يطلب منها فيها أن ترتدي هديته في اليوم[5]. نعم، لقد أراد سموه أن يرى كيف ستبدو كل منهن.

رددن بعناية كبيرة، وكافأن مبعوث جينجي باهتمام، ولكن القرطم التي تقيم في دارة

(1) هاناتشيروساتو.

(2) تاماكازوا. تظل طبيعة هذه الثياب غير محددة باستثناء «الرداء الذي يُلبس في الدار» الذي كان الأول فيما تلقته (كوتشيكي) و«الثوبين الضافيين» (هوسوناجا). ويقترح الشراح لفظ أوتشيكي أو لفظ كوتشيكي في معرض التعبير عن هذه الملابس جميعها.

(3) صفة «الصيني» ربما كانت تومىء إلى ذوق سويتسوما هانا وأساليبها العتيقة.

(4) أوتسوسيمي.

(5) اليوم الأول من العام الجديد.

جينجي الشرقية[1]، وبالتالي كان ينبغي أن ترد على نحو أكثر مرحاً وخفة[2]، حيث أنها كانت إلى حد ما الأكثر بعداً، التزمت على وجه الدقة بالعرف المرعي شأن السيدة الأنيقة والمناسبة التي هي عليها، وأسدلت على كتفي المبعوث رداء يحمل وردة كيريا يتيمة[3] بكمين شديدي القتامة.

كتبت رسالتها على ورق ميتشينوكوني كثيف العطر، وقد اصفر بحكم تقادم العهد: «عفواً، لكن هذه الهدية ليست بالضرورة ما أفضله:

عندما أرتديك، فإن المرارة تغدو مكافأتي، أيها الثوب الآتي من كاثاي النائية

لسوف أعيدك ثانية والآن وقد ابتل كماك بالدموع»[4].

كان نمط الكتابة عتيقاً على نحو ملحوظ. تجمدت ابتسامة مكفهرة على محيا جينجي، ولم يستطع إنزال الرسالة، وراحت تتساءل عما يدور بخاطره. منحته الصدمة والكآبة حيال ما تلقاه مبعوثه ملامح داكنة جداً، فانسل المبعوث مبتعداً. كانت الوصيفات جميعهن يتهامسن ويتضاحكن في انشغال. وأخذاً في الاعتبار كم كانت لا تحتمل بأساليبها العتيقة، فقد تمنى يائساً لو أنها لم تعط مبعوثه شيئاً على الإطلاق. وكانت نظرته توحي للرائي بنذر السوء.

قال: «ليس بمقدور أولئك الشعراء القدامى التخلي عن تعبيرهم (الثوب الآتي من كاثاي)» أو قولهم (كمان مبتلان بالدموع). هل كان بوسعهم ذلك؟ آه، أفترض أنني واحد منهم أيضاً. ولا شك في أن هناك شيئاً جديراً بالإعجاب فيما يتعلق بذلك الدرب الوحيد وعدم سماح المرء لنفسه بالانطلاق إلى أي نضارة في اللغة. وما عليك إلا أن تأتي على ذكر الوجود بصحبة أصدقاء، على سبيل المثال، وذلك في تجمع رسمي للشعراء أمام

(1) الدارة الشرقية المبنية حديثاً في مسكن نيجو.

(2) أقرب إلى خليلة منها إلى زوجة.

(3) الرداء هو أوتسو (فارغ) لأنه ليس معه قميص على نحو ما ينبغي أن يكون.

(4) تشبه قصيدة سويتسوموهانا، وهي دفق لا يرحم من التوريات العتيقة، القصيدة التي صاحبت هدية الثوب الذي بعثت به إلى جينجي في فصل «القرطم». والمراد بتعبير أعيدك ثانية إيصال معنى «أرجعك» في التو (إلى المرسل) «وأقلبك باطناً لظاهر» وهي طريقة مقبولة لتشجيع زيارة في الحلم من قبل من يهواه المرء.

جلالتـه من الحديث عن «التجمع في دائرة»[1]. وفي تنافسـات الحـب العتيقة الرائعة تلك يمكنك التيقن من أن كلماتك ستمضي مرتبكة لو صادفتك فحسب «أيها المعذِّب القاسي» عند الوحدة المقطعية الثالثة[2]. وضحك.

«لا يمكـن للمـرء أن يبـدو مختلفـاً للغاية عنهـم، إذا اسـتوعب كل الكتيبـات التعليمية والقوائم المتضمنة لأسماء الأماكن التي تحظى بالتقدير[3]، ولـم يبتعد قط في القصائد التي ينظمها عن الكلمات الورادة فيها. وقد أعطتني ذات مرة كتاباً كان سـموه أمير هيتاشـي[4]، وليـس أقـل قدراً من ذلك، هو الـذي كتبه على ورق عادي، وقد امتـلأ بفقرات صغيرة عن (جوهر الشـعر) أو (عيوب ينبغي تجنبها)، وقد كانت متقنة للغاية إلى حد أنني خشـيت من أن هذا الكتاب قد يصيب سـاذجاً مثلي بالشلل إلى الأبد، ولذا بادرت إلى إعادته. فقد كان إزعاجاً بالغاً، وبالنسـبة لشـخص يعرف كل شيء عن الشعر فإن شـعرها يعد عتيقاً تماماً». كان مزاحه على حساب السيدة المسكينة خالياً من الشفقة تماماً!

سـألته جـادة: «لكن لماذا أعـدت الكتاب؟ كان ينبغـي أن تقوم بنسـخه وإطلاع طفلتنا الصغيـرة عليـه. كانت لديَّ بعض الكتـب من ذلك النوع، ولكن الحشـرات التهمتها كلها، ومن يغفلونها لا يعرفون حقاً ما الذي يفعلونه».

«ليـس بمقـدوري أن أتخيل أي خير كان يمكن أن يأتي إليها مـن هذا الكتاب، فلا يليق بالمـرأة أبـداً أن تربط نفسـها على نحو وثيق للغاية بشـيء تحبه بشـكل خـاص، والمرء لا يمكنه كذلك أن يوافقَ على أن تكون جاهلة به تماماً، فهي لكي تدخل السرور على النفس ينبغي عليها أن تكون متزنة وهادئة وواثقة من نفسها فحسب».

لـم يظهر أي مؤشر يدل على أنّه بسبيله إلى نظم رد عليها.

«لقد كتبت تقول (لسـوف أعيدك ثانية)، سـيكون من الخطأ تماماً من جانبك ألا ترد لها الجميل».

---

(1) حرفياً «المقاطع ما تو إي إجبارية» ماتوئي تعبير نبيل شعرياً يعني «الجلوس في حلقة».

(2) «التوقف» (ياسوميدوكورو) هو الوحدة المقطعية الثالثة من القالب الشعري القياسي خماسي الوحدات.

(3) أوتاماكورا، أسماء الأماكن المسموح بإدراجها في الشعر.

(4) أبوها.

لما كان رقيقاً دائماً، فقد كتب لها شيئاً في نهاية المطاف، ولم تكن هناك حاجة إلى بذل جهد كبير في سبيل ذلك.

«تقولين إنك ستعيدين تلك الهدية ثانية، آه، لكم تنصرف خواطري

إلى الكميّن اللذين تفردينهما وحيدة على امتداد ليلة لا تنتهي إثر أخرى!

ما أعمق تفهمي لمشاعرك!».

23

هاتسوني

أنشودة الهازجة الأولى

عنوان الفصل الذي يعني «الأنشودة الأولى (في العام)» مستمد من قصيدة تبعث بها السيدة القادمة من أكاشي مع هدية العام الجديد إلى الابنة التي لم ترها منذ تبنتها مورا ساكي.

«هي التي على امتداد السنين تشبثت بأمل وحيد، آه، دعها اليوم

لا يستبد بها الحنين، وعلى الأقل تصغي إلى أنشودة الهازجة الصغيرة الأولى!» .

الصلة بالفصول السابقة

يأتي «أنشـودة الهازجـة الأولى» عقب «الإكليل» وينتهي «الإكليل» مع ختـام العام وجينجي في عامه الخامس والثلاثين، وتقع أحداث «أنشودة الهازجة الأولى» في الشهر الأول من العام التالي.

الشخوص

سمو المستشار جينجي، 36 عاماً.

سيدة جينجي، 28 عاماً (مورا ساكي).

تشوجو، وصيفة مورا ساكي.

ابنة جينجي، 8 أعوام (أكاشي نو هيميجيمي).

السيدة في الجانب الصيفي (هاناتشيروساتو).

الشابة في الجناح الغربي، 22 عاماً (تاماكازورا).

أكاشي، 27 عاماً (أكاشي نوكيمي).

سمو أميرة هيتاشي (سويتسوماهونا).

شرنقة زيز الحصاد (أوتسوسيمي).

النقيب، 15 عاماً (يوجيري).

الملازم المراقب (كوباي).

كانت السماء في عيد العام الجديد صافية وخالية تماماً من السحب. وفي أكثر الأسوار النباتية انخفاضاً كانت الخضرة تتألق الآن وسط الجليد، ولف غيم واعد من البراعم الأشجار، ومن الطبيعي أن قلوب الناس امتلأت حبوراً كذلك. أي مباهج إذاً كانت تقع عليها العين في الحديقة التي تناثرت على امتدادها نباتات كالجواهر أمام سكن جينجي؟ وعلى أي نحو بائس لا يسع الكلمات التعبير عن الجمال الذي تميزت به حدائق سيداته! أعادت الحديقة الممتدة أمام الجانب الربيعي، حيث اختلط عبق براعم البرقوق بالعبير المنبعث من داخل الستائر الحاجبة، أعادت بصفة خاصة إلى الأذهان أرض بوذا على قيد الحياة، وذلك على الرغم من أن سيدة المكان قد أقامت هناك في سلام وهدوء بلا تكلف، وكانت قد قدمت لفتاتها الصغيرة أفضل النسوة الأصغر سناً اللواتي كن في خدمتها، واللواتي كن أكبر سناً شيئاً ما، ومن ثم فإن اللواتي كن متألقات على نحو بهيج في السلوك والثياب تجمعن هنا وهناك، وهن يسلين أنفسهن بالاحتفال بحياة طويلة تنتظرهن، بل إنهن أحضرن كعكات مرآة[1] للإشادة بعام ثري بالوعد بألف عام آخر[2]. عندئذٍ بالتحديد أطل جينجي، فصحن وهن ينتزعن أيديهن من طية صدر أرديتهن[3] «آه، لا، لقد ضُبطنا».

«ما أجمل قيامكن جميعاً بالتأكد من حسن طالعكن! أتوقع أن تكون كل منكن قد نالت أمنياتها. عليكن بإخباري ببعض هذه الأمنيات، ولسوف أعنى بالصلاة من أجل تحققها». بدا شخصه الباسم من منظورهن اختزالاً لكل هناء العام الجديد.

ردت تشوجو[4] ذات اللسان الفصيح: «إننا نتحدَّث عن (الآن أرى) يا مولاي، وعما

(1) كعكات كبيرة مستديرة، تُعد من أرز لزج (موتشي) تقدم بصورة شائعة للآلهة في المناسبات الاحتفالية. ويمكن أن تكون هناك كذلك كعكة واحدة من هذا النوع.

(2) يبدو أنهن يغنين كوكينشو 356 ذات الطابع الذي يحمل التهنئة، والتي يتم اقتطافها بصورة جزئية في النص «احتفلت بعيشك السنوات الممتدة التي تحياها شجرة الصنوبر، لأني أرغب في جعل داري تحت ظلك الألفي». وكان «الاحتفال بطول الأيام» (ها ـ جيتيمي) يتم خلال الأيام الثلاثة الأولى من العام الجديد، ولهذه المناسبة يأكل المرء نطاقاً محدداً من الأطعمة، كان يشمل لحم الخنزير البري أو طائر التدرج أو الغزال أو طائر الشنقب وسمك الآيو.

(3) يبدو أن إبقاء اليد في طية صدر رداء المرء (فوتوكورودي) كان شيئاً بعيداً عن الطابع الرسمي المهذب، كإبقاء الرجل يديه في جيوبه.

(4) ورد ذكر تشوجو بصورة موجزة في فصل «قلباً لقلب» باعتبارها إحدى وصيفات جينجي. وهي الآن تخدم مورا ساكي. ويبدو أن ملاحظتها التي لا سبيل مطلقاً للومها عليها تلمح من طرف خفي إلى خيبة الأمل، لأن

توضحه المرآة. ما الذي يمكن أن نتمناه لأنفسنا؟»[1].

أبقت حشود من الزوار جينجي مشغولاً طيلة الصباح، ولكنه قرابة المغيب استعد لزيارة سيداته المختلفات. ولهذا الغرض تأنق بحيث بدا جديراً بأن تتملاه العيون، قال: «لقد حسدت النسوة هذا الصباح وهن يسلين أنفسهن معاً بتلك الطريقة، ولا بد لي من أن أطلع سيدتي على إحدى تلك الكعكات»، ومضى قدماً لينشد القصائد الاحتفالية لها، ناثراً كذلك بعض الملاحظات غير المحتشمة[2] قال:

«صفحة رقيقة من الجليد ذابت من مرآة بحيرة الحديقة،

وأرى شكلين لا نظير لهما منعكسين هناك.

إنهما يشكلان ثنائياً جميلاً حقاً».

«واضحين كأقصى ما يمكن للوضوح أن يكون، أرى هناك في مرآة البحيرة الأصلية

شكلين قُدِّر لهما أن يبقيا نقيين عشرة آلاف عام» .

هكذا تبادلا بقدر ما يطيب لك من العذوبة وعوداً بأن يكونا أحدهما للآخر إلى الأبد. كان اليوم هو يوم الفأر[3]، وهو حقاً اليوم الذي يتطلع فيه المرء إلى ألف ربيع.

عندما وصل جينجي إلى سكن ابنته، كانت الفتيات التابعات الصغيرات والخادمات يلعبن في الحديقة منتزعات نبتات الصنوبر، وكان من الجلي أن الوصيفات الصغيرات يتطلعن بنفاد صبر للانضمام إليهن، وكن يهدين إلى سيدتهن سلالاً ذات حواف وصناديق مقسمة يبدو أنها أُرسلت خصيصاً من الجانب الشمالي الغربي[4].

جينجي يهملها، والاستياء من مظهرها، الذي يوحي بالإيغال في العمر في المرأة. وموضوعة المرآة متصلة كذلك بـ«كعك المرايا».

(1) كوكينشو 1086، التي كانت تُغني خلال الاحتفال بطول الأيام: «هناك في أومي يشمخ جبل المرآة، والآن أرى فيه أعوام مولاي الألف». كاجسامي – ياما، « جبل المرآة» هو تل في مقاطعة أومي، قرب بحيرة بيوا.

(2) ربما لها علاقة بالأمل في أن تحمل مورا ساكي طفلاً تنجبه له.

(3) تصادف نادر لكون اليوم الأول من العام هو نفسه اليوم الأول للفأر في الشهر الأول. وكان الناس في هذا اليوم الأول للفأر ينزعون شتلات أشجار الصنوبر من جذورها، كإيماءة تشجع طول العمر، ويقطفون براعم الربيع الأولى.

(4) أكاشي.

جثمت الهازجة على نحو آسر على غصن رائع من صنوبرة خماسية الإبر، ولا بد أنها قد بدت بديعة بصورة خاصة[1].

(القرية التي لا أحد فيها يغرد)[2] هكذا كتبت السيدة تقول، وأحس جينجي، الذي أدرك المعنى المراد، بالأسف البالغ، وبدا كأن الحظر المفروض على الكلمات سيئة الطالع سيكون صعباً للغاية عليه[3].

«لا بد لك أن تردي عليها بنفسك، فليس بمقدورك أن تحجبي (أنشودتك الأولى) عنها». قدَّم لها محبرة حجرية، وتأكد من أنها ستكتب بنفسها. لم يضجر من مظهرها الفاتن حتى أولئك الذين رأوها يوماً بعد آخر، فساوره الشعور بالذنب والحزن لإبعاد أمها عنها كل هذا الوقت.

«سنوات كثيرة مرت منذ أُخذت منك، مع ذلك فإن الهازجة لا تزال

تعرف أنها لن تنسى الصنوبرة التي طارت منها».

على الرغم من أنها طفلة، إلا أنها قامت بمهمتها، وإن يكن على نحو ساذج»[4].

بدا الجانب الصيفي هادئاً للغاية، ربما لأن الموسم لم يكن موسمه، ونقل على نحو جميل طريقة حياة ساكنته[5] الخالية من الادعاء والمجللة مع ذلك بالجلال والوقار، ولم يؤد مرور الزمن إلى تقريب الاثنين أحدهما من الآخر وجعلهما أكثر ولعاً. ولم يعد جينجي

---

(1) الهازجة والغصن كلاهما اصطناعيان، وكان يمكن للغصن أن يكون مثبتاً بالسلال والصناديق، وفي الشعر تجثم= الهازجة (أوجيسو) عادة على شجرة برقوق مزهرة، بحيث أن وجودها على شجرة صنوبر يطرح عبارة محددة: إنها الطفلة الصغيرة التي هجرت أمها الطبيعية من أجل دار جديدة.

(2) «اسمح لي لطفاً بأن أسمع مباشرة قولاً من ابنتي»، تحقق القصيدة تلاعباً فيما يتعلق بالألفاظ ماتسو (شجرة الصنوبر وينتظر)، (فورو) (يمر [في معرض الحديث عن الزمن] و«عتيق»)، هاتسوني (الأغنية الأولى [للعام] الأول [يوم] الفأر) وهيكاريتي التي تومىء إلى العادة المتبعة في العام الجديد وقوامها انتزاع شتلات الصنوبر «القرية التي لا أحد فيها يغرد» مقطع مستمد من (جينجي مونوجاتري كوتشو شاكوشو 177): «اليوم على الأقل، آه، دعني أسمع أغنيتك الأولى، فأي جدوى من القرى التي لا تغرد فيها هازجة؟».

(3) بدا كما لو كان يوشك على البكاء. وقد كان الحديث والتصرف اللذان يحملان نذر السوء محظورين في الأيام الأولى من العام.

(4) قامت على نحو ما يقضي الواجب بالتلاعب بدورها باللفظ والتوريات التي استخدمتها من تراسلها.

(5) هانا تشيروساتو.

يصر على الحميمية بينهما، حيث اقتصرا على تبادل تأكيد تقدير أحدهما للآخر. وكان الستار يفصلهما، ولكنها تظل باقية هناك عندما ينحيه جينجي جانباً. كان ثوبها السماوي الأزرق متحفظاً، على نحو ما تنبأ، وكان شعرها قد عرف أياماً أفضل. وكانت مقبولة تماماً على نحو ما هي عليه، لكنه حدَّث نفسه بأنها ينبغي عليها حقاً أن تضع شعراً مستعاراً، فأي شخص آخر كان يمكن أن ينفر من مظهر كمظهرها، على الرغم من أنني أنا نفسي سعيد بالبقاء إلى جانبها على هذه الحال. ماذا لو أنها كانت أقل إخلاصاً ورفضتني؟ حينما يجمعهما مكان، كان يسعد في المقام الأول بإخلاصه لها، وكذلك بثبات فؤادها وعدم تقلبه. وتحدَّث مطولاً معها عن العام الذي انقضى لتوه، ثم مضى إلى جناحها الغربي.

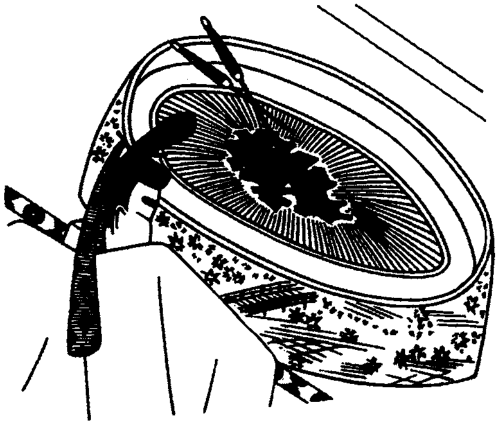
لم تكن السيدة الشابة قد استقرت هناك بعد، ولكن على الرغم من ذلك كان أسلوب حياتها بهجة للناظر، فقد شكلت تابعاتها من الفتيات الصغيرات صورة رشيقة، وكانت وصيفاتها كثيرات، وبينما لم يزد أثاثها على تلبية احتياجاتها، فإن الكماليات الأنيقة على الرغم من أنها لم تكتمل بعد، أضافت تميزاً إلى ما يحيط بها. وكانت هي ذاتها متألقة في ثوبها المختار بطريقة تنم عن كمال الذوق، والذي تميزه وردة الكيريا. وأبعد ألقها كل ظل عنها إلى أن أصبح كل شيء سناء وجمالاً، وما كان المرء يرغب إلا في التحديق فيها فحسب. وقد غدا شعرها ناحلاً عند أطرافه، ربما بسبب المحن التي عانت منها، وانساب بتألق جميل. وكانت مذهلة من كل الجوانب إلى حد أن جينجي أدرك ما كان سيفوته لو أنه لم يعرفها، وأدرك مدى محدودية قدرته على أن يدعها تمضي إلى حال سبيلها. وعلى الرغم من تعودها أن تكون معه على هذا النحو وجهاً لوجه، إلا أنها أحسَّت بعد كثير من التأمل في الأمر بأن العديد من الأمور لا يزال يحول بينهما، أمور مربكة بما فيه الكفاية بحيث أضفت على سلوكها تحفظاً بهيجاً.

قال: «يساورني الشعور بأنني قد عرفتك منذ زمن طويل. وكم يسعدني أن أكون معك، لأن أمنيتي، كما ترين، قد تحققت. أرجو أن تتمتعي بالراحة هنا، وأن تقبلي إلى هناك للزيارة أيضاً، إن أحببت، وهناك إنسانة صغيرة معينة هناك تتلقى دروسها الأولى في الكوتو، وآمل أن تنضمي إليها، ولن ينظر إليك أحد نظرة انتقاد أو يبدي لك أي افتقار للاحترام».

«سأفعل ما تقترح». هكذا ردت. وكان الرد الصحيح تماماً.

مع حلول الظلام لزيارة أكاشـمي. وعند فتح الباب من طريق الجسـر القريب، حمل إليه النسيم من وراء ستائرها عبقاً رقيقاً، وبدا له أن هذا هو المكان الذي يوجد فيه التميز الحق.

لم تكن هي نفسها مرئية. فتطلع حوله، متسائلاً أين عساها تكون، ولاحظ أوراقاً وكراسـات متناثـرة إلـى جـوار المحبـرة الحجريـة، فالتقطها، وألقـى عليها نظرة. كان هنـاك «كيـن» فـوق وسـادة موشـاة بالقصـب الصينـي، بينمـا احتـرق بخـور جيجـو فـي مجمـرة بديعة، معطـراً كل ما في المـكان، مختلطـاً بصـورة جميلة مع عبق «إيبي»[1]. وعكست أوراق التدريب المتناثـرة خطاً شـديد الروعة والأصالة، ولـم يكن ذلك راجعـاً إلى رغبتها في ادعاء البراعة في كتابة الأحرف المتصلة[2]، بل إنها كتبت ببسـاطة على نحو طبيعي ويدخل البهجة على النفـوس. كانت قصيدة الرد التي تدور حول شـجرة الصنوبر بمثابـة مصدر بهجة عالية لها إلى حد أنه وجد وسط القصائد القديمة المؤثرة:



مجمرة

«آه، يا لها من بهجة نادرة! من بين البراعم، حيث تقيم الهازجة الصغيرة

أقبلت مجدداً شجرة لصق أخرى إلى الوادي الذي عرفته أولاً!».

لقـد انتظرت طويلاً لكي أسـتمع إلى أنشـودتها!». كانت هناك أبيـات، مثل «داري إلى جـوار التل المزهر»[3]، الـذي كانت قد كتبته لتدخل العزاء إلى نفسـها. كان مظهر جينجي وهو يمسك بالأوراق مبتسماً كافياً لجعل أي أحد يتوارى خجلاً.

كان قد بلَّل لتوه فرشـاة وشـرع في الكتابة، عندما دلفت إلى الداخل، وحدَّث نفسه: كم

---

(1) كل من نوعي البخور المذكورين هما خلطات من مواد مختلفة وبصفة خاصة الأخشاب العطرية.

(2) الرموز الصينية المكتوبة بصورة متصلة لتمثل الأصوات المنطوقة.

(3) كوكين روكوجو 4385: «حيث أن داري إلى جوار التل الذي تبرعم عليه أشجار البرقوق، فإنني لا أسمع نادراً الهازجة تغرد». والهازجة وسط براعم البرقوق موضوع متواتر في الشعر الذي يتناول الربيع.

أنها لا تزال حريصة ومتحفظة في سلوكها، حقاً يا لروعة ما تبدو كذلك، ويا لشدّة اختلافها عن الأخريات. كانت ترتدي ثوباً أبيض، وزاد انسدال شعرها، الذي نحلت أطرافه قليلاً، من روعة رشاقتها، إلى حد أنه أمضى الليلة هناك. وذلك على الرغم من بعض الانزعاج الذي ساوره حول المتاعب التي قد يجد نفسه فيها في الدار، لا سيما استنكار الأخريات للحظوة التي نالتها. وبالفعل تفاقم اعتراض بعضهن عليها في الجانب الجنوبي الشرقي.

عاد إلى الدار قبل وقت طويل من حلول النهار. حدَّثت نفسها: لم يكن مضطراً حقاً للمغادرة بينما لا يزال الظلام مرخياً سدوله، لازمها الإحساس بالضيق بعد انصرافه بوقت طويل.

كانت تنتظره باستياء لم يبدُ غريباً عليه «لا أفهم»، هكذا استهل حديثه المرح في سعيه للتخفيف من ضيقها: «غلبني النعاس ببساطة، فواصلت النوم كصبي في مقتبل العمر، وكما ترين فإنك لم تبادري قط لإيقاظي!» عندما لم يفلح كلامه هذا في انتزاع رد فعلها منها، رقد من دون أن يعرف ماذا عساه يصنع غير ذلك، وتظاهر بالنعاس، إلى أن نهض أخيراً وقد علت الشمس في السماء.

أمضى اليوم متوارياً منها متحججاً بواجباته تجاه الضيوف المميزين[1]. وكالمعتاد أقبل لزيارته الأمراء وكبار النبلاء كافة. عُزفت الموسيقى، وكانت الهدايا والمكافآت منقطعة النظير. حيث حرص كل زائر على عدم السماح للآخرين بالتفوق عليه، ولكن لا، لم يرق أي منهم إلى درجة أن يقارن مع مضيفهم! وكان الكثيرون في تلك الأيام، إذا أُخذوا في حد ذاتهم، يعدون سادة مهذبين جديرين بالثناء والتقدير، ولكن، يا للحسرة، فإن مجرد وجوده طغى على بهائهم جميعاً. وحتى الناشئة الذين لم يرتفعوا بعد إلى مستوى استقطاب الاهتمام، كانوا يحرصون على أن يكونوا في أتم زينة وأحسن مظهر، عندما يزورون ضيعته، فلا عجب إذن أن النبلاء الشبان ذوي المرتبة الرفيعة، باهتمامهم الخاص[2]، كانوا أكثر حرصاً ويقظة منهم في السنوات العادية. وبينما دفع النسيم المسائي المعطر بالبراعم

---

(1) رينجي كايكو، أمراء ونبلاء كبار قدموا للزيارة، وذلك بصفة عامة في اليوم الثاني من العام، وكان من المتعين الترحيب بهم بصورة رسمية.
(2) التودد إلى تاماكازورا.

أخيراً أشجار البرقوق في حديقة جينجي إلى أن تبرعم، فقد ترددت أصداء الآلات الموسيقية بكل بهاء في الغسق الذي راح يجمع أطرافه، وعندما عزفوا «مولانا هذا»[1]، تردد الإيقاع عبر التصفيق رائعاً. وبين الحين والآخر كان سموه يشاركهم فيه، وابتداء من كلمة «ساكيجوسا» فصاعداً حتى النهاية تردد صوته ساحراً تماماً. وكما بدا جلياً للجميع فإن مشاركته ارتقت بالمظهر والصوت إلى ذُرى جديدة في أي مناسبة.

عندما تناهت جلبة الجياد والعربات إلى مسامع السيدات هنا وهناك، شعرن كأنما بتن يعرفن الآن ما لا بد أنه يبدو عليه داخل زهرة اللوتس التي لم تتفتح بعد[2]. وكان هذا ينطبق بشكل أكبر على تلك السيدات البعيدات في دار جينجي الشرقية، حيث تراجع ما يستقطب اهتمامهن على مدار السنين، ولكنهن في تفكيرهن كن يشبهن دارهن بمنتجع جبلي لا تمسه أحزان الدنيا[3]، فكيف يمكنهن لومه حقاً على إهمالهن؟ وقد عكفت من اختارت منهن الصلوات والابتهالات عليها، بينما من مال ذوقها إلى دراسة كتب «الكانا» من كل نوع تحققت أمنيتها كذلك، حيث أن ما تفضل جينجي بتوفيره سمح لكل منها بأن تحيا كما يطيب لها.

أقبل لرؤيتهما مع انتهاء يومه الحافل. ودفعه تقديره لمرتبة سموها أميرة هيتاشي لمعاملتها على أفضل وجه يستطيعه، مراعاة للاعتبارات الرسمية. كان شعرها البديع الذي تميزت به في شبابها قد عانى على مرِّ السنين، مما اضطره للإشاحة بناظريه في أسى أمام ملمح جانبي لوجهها أكثر شحوباً من أي بركة شلال. وقد رأى أن الرداء الأخضر الذي يكتسب لون الصفصاف يبدو حقاً كارثياً عليها، ربما بسببها هي لا لبشاعة الثوب نفسه.

(1) أغنية سايبارا بسيطة تبدأ بالقول «مولانا هذا، ثرواته مستحقة عن جدارة». وكلمة «ساكيجوسا» (التي سترد حالاً في المتن، وهي نبتة لم يتم تحديدها على وجه الدقة)، ترد في منتصف الأغنية، ويتواتر ورودها بعد ذلك كنوع من القرار.

(2) معظم الأرواح التي تمضي إلى فردوس أميدا تبعث لا إلى زهور لوتس متفتحة، وإنما إلى براعم لوتس مغلقة، وهي تضطر إلى انتظار تفتح الزهور أوقاتاً تطول أو تقصر. وفي غضون ذلك فإنها لا يمكنها إلا أن تسمع من بعيد الموسيقى التي تُعزف أمام عرش أميدا.

(3) كوكينشو 955 من نظم مونونوبي نويوشينا: «لئن تاق المرء إلى منتجع جبلي لا تمسه الأحزان الدنيوية لوجد أن المحبوب صلة تجمده في موضعه».

فقد لبسته فوق ثياب قاتمة، لا بريق لها، منشاة يابسة[1]، وبدت مصابة بالبرد على نحو يدعو للشفقة. ترى ما الذي يحتمل أن تكون قد فعلته بالثياب المبطنة التي جاءت مع هذا الرداء الرسمي؟ وحده لون أنفها هو الذي التمع قليلاً عبر هذا الضباب. تنهد على الرغم من نفسه، ورتب ستارها على نحو آمن بينهما. وعلى الرغم من ذلك فإنها لم تكن لديها فكرة عن السر في ذلك، وكان إيمانها الشديد بولائه مؤثراً في النفس يقيناً. قال محدِّثاً نفسه في هذه اللحظة النادرة من لحظات الاهتمام بها: يا للمسكينة، حتى في أمور كهذه فإنها غريبة الأطوار. حسناً، على الأقل فإن لديها إناء وقد ارتجف صوتها بدوره بفعل البرد، وهي تتجاذب أطراف الحديث معه.

لم يستطع احتمال الأمر، فقال: «هل لديك من يساعدك على إعداد ثيابك؟ في دار جميلة كهذه ينبغي أن تحظي بالراحة التامة وأن ترتدي ملابس ناعمة مريحة. وليس من المناسب أن تهتمي فقط بردائك الرسمي».

سواء أكانت كئيبة أم لم تكن، فقد ردت بابتسامة قائلة: «إنني مشغولة للغاية برعاية خبير دايجو[2]، كما تعلم؛ بحيث لم أتمكن من حياكة أي ثياب لي، بل إنه أخذ معطفي الفرو، ومنذ ذلك الحين وأنا أشعر بالبرد». يا لهما من ثنائي بديع ذلك الأخ وتلك الأخت بأنفيهما الأحمرين!

حدَّث جينجي نفسه: هذا كله حسن للغاية، ولكنها تمضي به إلى أبعد مما ينبغي قليلاً. انتهى به الأمر كالعادة إلى أن يبدي قلقه عليها بتلك الصورة العنيدة. قال: «لقد فعلت الصواب، فلا بأس بمنح ناسك جبلي معطفاً يقيه من تقلبات الطقس. ولكن لماذا لا ترتدين سبعة من تلك القمصان البيضاء؟ وليست هناك حاجة إلى التقتير فيها. وإذا حدث أنني نسيت شيئاً تحتاجينه، فعليك بإبلاغي لطفاً، فأنا لست سريعاً في التلقي، وفي بعض الأحيان تفوتني الأمور، وأحسب أن ذلك أمر طبيعي فحسب، أخذاً في الاعتبار كل المطالب التي تتصارع على انتزاع اهتمامي».

---

(1) تحت هدية جينجي كان ينبغي عادة أن تلبس ثلاثة أردية متوافقة معها (أوتشيكي) بدلاً من هذه الثياب الفظيعة المنشأة.

(2) أخوها، راهب من معبد دايجوجي، وهو معبد عظيم يقع إلى الجنوب الشرقي من المدينة.

أمر بفتح المخزن المقابل[1]، وتأكد من تلقيها الحرائر والأقمشة المقصبة، ولم يكن هناك ما يوحي بالإهمال في المكان، ولكن غيابه جعل السكون يخيم عليه، وتمثلت البهجة الوحيدة في الأشجار القائمة في الحديقة القريبة. وأدرك جينجي أنه ليس هناك من يتمتع بها أو بعبق شجرة البرقوق الأحمر المبرعمة.

«بعد أن أقبلت ثانية لرؤية الشجرة الربيعية التي أقمت فيها قديماً،

ألاحظ أمام عيني زهرة لا مثيل لها فيما رأيته من قبل[2]».

هكذا غمغم لنفسه، ومن غير المحتمل أن تكون أدركت ما يعنيه.

زار شرنقة زيز الحصاد كذلك، في أرديتها الرهبانية. كانت تعيش بلا تباه في غرفة متواضعة كُرِّست للبوذا فحسب، وتأثر لرؤية الدليل على ورعها، حيث كانت لفائف السوترات على المذبح بل والإمدادات البسيطة الخاصة بالماء المقدس[3] فاتنة الروعة، وأثبتت أنها ما زالت تتميز بذوقها الراقي. أخفت نفسها بدقة بالغة وراء ستارها، الذي يجمع بين اللونين الأزرق والرمادي. بحيث أن أطراف كميها وحدهما بألوانهما المتنوعة[4] أشعرته بحضورها، فامتلأت عيناه بالدموع.

قال: «كان ينبغي أن أتخيل جزيرة الصنوبرات من بعيد[5]، فكم كانت علاقتنا شاقة دوماً، وعلى الرغم من ذلك فقد أفلحنا على الأقل في أن نظل على هذا القرب في نهاية المطاف».

بدت الراهبة متأثرة كذلك. «ذلك يوضح أي رابطة قوية تربطنا، حيث أكون على هذا

(1) المخزن الذي ينتمي إلى دار نيجو الرئيسية.

(2) هانا (زهرة) تعني أيضاً «أنف». ويشبه جينجي نفسه بهازجة تزور شجرة برقوق مزهرة في الربيع.

(3) رف لتقديم الماء المقدس (أكادانا) مثل مزار صغير مرفوع على قوائم، يبرز خارج الشرفة مباشرة، مع حوض للماء إلى جواره على حامل كذلك.

(4) تحت هدية جينجي الرئيسية لها، اللون الأزرق الرمادي ذاته كلون الستار، وهي ترتدي كذلك أردية ملونة أعطاها إياها.

(5) كان ينبغي أن أتخيلك فحسب، وألا أجيء حقيقة «جوسينشو 1093، من نظم سوسي: «اليوم أرى بعينَّي جزيرة الصنوبرات الجليلة وأجد هاهنا الأما الأكثر فطنة حقاً». والأما تعني كلاً من «ساكن الشاطىء» و«الراهبة». ويومىء جينجي إلى القصيدة ذاتها في فصل «الغصن الأخضر»، في المرة الأولى التي يزور خلالها فوجيتسوبو بعد أن أصبحت راهبة.

النحو التام ماثلة بين يديك».

«يؤسفني أنك تستغفرين الآن أمام البوذا عن كل تلك الأوقات التي جعلتيني أعاني فيها. هل تدركين ما مررت به؟ إنني على يقين من أنك تعرفين أنه ليس الجميع يتمتعون باعتدال المزاج مثلي».

أدركت بحرج شديد أنه لا بد قد سمع بذلك البائس الذي وقع قبل سنوات[1]. «أي استغفار يمكن أن يؤلم أكثر من رؤيتك لما أصبحت عليه؟». بكت بكاء مريراً. بحلول ذلك الوقت كانت متواضعة على نحو أكثر عمقاً عما كانت عليه قبل وقت طويل، وجعلت الهوة ذاتها التي امتدت بينهما من المستحيل تصور التخلي عنها أبداً، ومع ذلك فليس بمقدوره أن يمازحها. وبدلاً من ذلك تحدَّث معها على نحو حميد فحسب، عن الماضي وآلامه، ملقياً نظرة على حيث كان لتوه، متمنياً لو أن من هناك كان بمقدورها على الأقل أن تتدبر أمر مثل هذه المحادثات.

عاشت الكثير من السيدات على هذا النحو تحت حمايته، وقد زارهن جميعاً، مؤكداً لكل منهن بحنان أنه على الرغم من صمته الطويل فإنه يفكِّر فيها. «همي الوحيد هو الفراق المحتوم (لست أدري كم من العمر بقى)»[2]. هكذا كان يقول، أو نحو ذلك. لقد أحبهن جميعاً، كلاً بحسب مكانتها. وكان حرياً به، وهو في مرتبته هذه، أن يتيه فخراً، وعن جدارة، ومع ذلك فإنه نادراً ما كان يشيد بنفسه، وقد عامل الجميع برقة وطيبة حسبما تقتضي المرتبة أو الدرجة، بحيث أن هذا القدر من الاهتمام من جانبه كان كفيلاً بإبقاء الكثيرات معه على مرِّ السنين.

كان هذا العام هو عام مهرجان مرح الرجال وقصفهم. وبعد أداء المشاركين فيه عروضهم أمام جلالة الإمبراطور، انطلقوا إلى قصر سوزاكو، ثم إلى روكوجو. كان الطريق طويلاً، ولم يصلوا إلى هناك إلا بعد انبلاج الصبح. أنار القمر طبقة الثلج الرقيقة التي تكسو الحديقة، وكان هناك بين الوصفاء الخصوصيين في تلك الأيام الكثير من العازفين

(1) عندما فرض ابن زوجها اهتماماته عليها، بعد وفاة زوجها، وأرغمها على أن تلوذ بالدين.

(2) سانيكير اشو 50، من نظم ابنة المير أتسويوشي: «لست أدري أي عمر بقي لي، ومع ذلك فإن فؤادي هذا لا يزال يؤمن بأنني لن أنساك أبداً».

المبدعيـن إلـى حد أن عزفهم على النايات تردد في الأسـماع جميـلاً للغاية، خاصة عندما عزفـوا أمام جينجي نفسـه. وقـد تم القيام مسـبقاً بترتيـب يتيح قدوم السـيدات الأخريات جميعـاً ومشـاهدة العروض أيضاً، واحتلت كل منهن مسـاحة محاطة بالسـتائر في الجناح الشرقي أو الغربي أو على امتداد طريق الجسر. وجاءت السيدة الشابة من الجناح الغربي[1] إلـى الجانب الجنوبي من الدار الرئيسـية، حيـث قابلت ابنة جينجي الصغيـرة، ولما كانت سيدة الدار معها، فإنهما تجاذبتا أطراف الحديث من دون أن يفصلهما إلا ستار قائم.

اقترب الفجر بحلول الوقت الذي وصل فيه المشاركون في المهرجان إلى الإمبراطورة الأم[2] فـي قصر سـوزاكو، وعلى الرغم من أن روكوجـو كان ينبغي أن يكون محطة للتزود بالمـاء فحسـب[3]، فإنهم قد تلقـوا هناك ترحاباً حافـلاً، أضاف الكثير لمـا يقتضيه ما درج العرف عليه. ازدادت سماكة الجليد على مهل تحت نور القمر المكتمل في الصبح الباكر. وأي سـحر شعَّ منهم، وهم في أرديتهم البيضاء فوق أردية أخرى ناعمة خضراء كوريقات الشجر، في حين لم تكن الريح الباردة في أعالي الصنوبر تنذر إلا بالإقفار؟ وكم تفتن أزهار القطـن بأغطية رؤوسـها العين، وهذا جعل الجو غاية في الروعة إلى حد أن المرء ساوره الشـعور بأن الأعوام تذوب. وبرز النقيب، نجل سـموه، وأبناء معالي وزير شـؤون القصر على نحو مقبول للغاية وسـط الباقين وتحت سـماء يغمرها الضوء تدريجياً، وسـط رقائق ثلج متناثرة في برد مُتفاقم، تأرجحوا كأنما هم رجل واحد، وهم ينشـدون «نهر الخيزران» بأصـوات عذبة، ويا له من عـار أنه ما من لوحة كان بالإمكان أن تنصفهم! أعادت الأكمام، وكل منهـا أجمـل من سـابقه، ممتدة من حيث جلسـت السـيدات، من خلال تألـق ألوانها وجمالهـا، وشـي الربيع المتوهم عبر غمامات الفجر. شـكل هذا كله مشـهداً يفعم النفس حبوراً على الرغم من غرابة القلنسـوات القبابية[4] والصخب وهراء البركات المقدمة على

(1) تاماكازورا

(2) الزوجة كوكيدين (خصم جينجي) التي ورد ذكرها في الفصول الأولى.

(3) ميزومومايا، حرفياً «الماء والعناية في الاسطبلات بالجياد». ولكن بصفة فعلية النبيذ وعصيدة الأرز الساخنة. وكانت الأماكن الأخرى على امتداد الطريق يُشار إليها باعتبارها إيمومايا، حيث كان الرجال يحصلون على وجبة غذائية.

(4) كوكوجي، قلنسوات عالية بشكل خاص، كان الراقصون يرتدونها (بصفة عامة رجلان من الدرجة السادسة يضعان قناعين قماشيين).

نحو عجيب[1]، والتي لا يمكن لأي منها أن تشنّف الأذن لدى سماعها. وقد انسلوا جميعاً بعد أن تلقوا أخيراً هداياهم من الملابس القطنية[2].

ما إن أطل النهار بتمام نوره حتى مضت السيدات إلى الدار مجدداً. ونال جينجي قسطاً من النوم، ونهض من رقاده عندما ارتفعت الشمس عالياً. أشار بقوله: «لم يكن صوت النقيب أقل جمالاً من صوت الملازم المراقب[3]. يا لكثرة النبلاء الجديرين بالتقدير الذين هم لدينا الآن! ربما تميز نبلاء الماضي بمتابعة التعليم، ولكن في الفنون التعبيرية ما كان يمكن أن يتفوقوا على نبلاء اليوم. أما في ما يتعلق بالنقيب فإن السبب في أنني قررت تعيينه مسؤولاً هو أني أردت إبعاده عن حماقتي وعبثي، وذلك على الرغم من أنني أعتقد أنه يمكن أن يواصل مسيرته بقدر أكبر قليلاً من العين الفارغة. وجديته الظاهرة ورباطة جأشه يجعلان التعامل معه أصعب». مضى يفكّر بصورة عاطفية للغاية في ابنه. «أود أن أجعل هاته السيدات يعزفن سوياً وقد تجمعن كلهن الآن». واصل حديثه وهو يتغنّى «عشرة آلاف ربيع»[4] قال: «لا بد لي من إقامة مأدبتي الختامية الخاصة»[5]. أخرج كل الآلات الموسيقية من الحقائب التي حُفظت فيها بعناية، ومسحها، ودوزن منها ما احتاج إلى ذلك. ولا شك في أن سيداته العديدات كن منتبهات لرغباته، وأعددن أنفسهن بكل طريقة ممكنة، حتى لا يخيبن أمله.

(1) كوتوبوكي، بركات تُمنح على نحو صاخب لاستحضار المحاصيل الجيدة والزيادة وما إلى ذلك في العام المقبل.

(2) هدايا تقليدية كان المشاركون في المهرجان يتلقونها، وبصفة خاصة عند القصر، وروعة هدايا جينجي إمبراطورية في طابعها.

(3) النقيب هو يوجيري، والملازم المراقب هو نجل تو نو تشوجو الذي يُعرف لاحقاً باسم كوباي.

(4) بانسوراكو، قرار أغنية يغنيها دائماً المشاركون في هذا المهرجان.

(5) جوين، المأدبة التي يقيمها الإمبراطور للمشاركين في هذا المهرجان، وعادة ما تُقام في الشهر الثاني أو الثالث.

24

كوتشو

الفراشات

يستمد عنوان الفصل الذي يعني «الفراشة» أو «الفراشات» من رسائل متبادلة بين مورا ساكي وأكيكونومو:

«هل ستنظر شذراً، يا صرار الصنوبر في العشب، مفعماً بالحنين إلى الخريف

حتى إلى هذه الفراشات من حديقة زهوري؟»

و

«هلم، يبدو أنهم يقولون، ولربما اجتذبتني فراشاتك بعيداً

لو أنه لم تمتد بيننا ضفة بعد أخرى من وردة الكيريا» .

الصلة بالفصول السابقة

يبدأ «الفراشات» متأخراً في الشهر الثالث، بعد حوالي شهرين من «أنشودة الهازجة الأولى»، ويمضي بقصة تاماكازورا إلى الشهر الرابع.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 عاماً

سيدة الجانب الجنوبي الشرقي، 28 عاماً، (مورا ساكي).

جلالة الإمبراطورة، 27 عاماً (أكيكونومو)

السيدة في الجناح الغربي، ابنة يوجاو،
22 عاماً (تاماكازورا)

معالـي وزيـر الحرب، أخ لجينجـي (هوتارو هايوبوكو نو ميا) النقيب، ابن تونو تشـوجو، 20 إلى 21 عاماً (كاشيواجي).

النقيب، ابن جينجي، 15 عاماً (يوجيري).

قائد الميمنة، 31 أو 32 عاماً (هيجيكورو).

ميروكو، وصيفة تاماكازورا.

هايوبو، ابنة مربية تاماكازورا.

كان اليوم العشرون من الشهر الثالث قد انقضى، وكانت زهور حديقة الربيع وزقزقة طيورها أجمل من أي وقت مضى، إلى أن بدأ الناس في التساؤل كيف استطاعت أن تبقى طويلاً على هذا النحو. جمال الأشجار على التلال، مشهد الجزيرة[1]، امتدادات الأشنة المتألقة، عندما بدا أن كل هذه العناصر تجعل النساء الأصغر سناً متوترات قليلاً، أمر جينجي بإعداد مراكب صينية الطراز وتجهيزها، وفي اليوم نفسه تم إطلاقها، واستدعي أناس من مكتب الموسيقى للعزف على متنها، وجاء عدد كبير من الأمراء وكبار النبلاء.

كانت جلالتها في الدار آنذاك، واعتقدت سيدة الجانب الجنوبي الشرقي أن الأوان قد آن للاستجابة لتحدي جلالتها لمن «تنتظر حديقتها لترحب بالربيع»[2]، وكان هو نفسه قد تحدَّث عن رغبته في أن يكون بمقدوره إطلاعها على كل زهورهما، ولكن حيث أنه لم يكن بمقدورهما القيام بالزيارة من دون سبب كاف، وليس فقط للتمتع بمشاهدة البراعم، فقد جعل عدداً من وصيفاتها الشابات ـ الشابات اللواتي يملن إلى الاستمتاع بالمغامرة ـ يركبن أحد المراكب ويجدفن على امتداد جنوبي البحيرة. ولم تحل الهضبة الصغيرة الدائرية، التي كان قد أقامها بين الحدائق لتكون بمثابة حدود فاصلة بينها، دون قدومهن والدوران حول قمتها الداخلة في البحر، وصولاً إلى سرادق صيد الأسماك الشرقي، حيث كان قد جمع نسوة أخريات من جانبه.



مقدم سفينة على هيئة تنين وطائر رخ

(1) التلال اصطناعية، والجزيرة هي التي تنتمي إلى بحيرة أي حديقة من مثل هذا النوع.

(2) قصيدة أكيكونومو إلى مورا ساكي قرب نهاية فصل «الصبايا العذارى».

تم تجميل المراكب التي جُعلت مقدماتها على شكل التنين والرخ[1] على نحو رائع على الطريقة القارية، وكان الفتية، الممسكون بالمجاذيف التي تحدد اتجاه حركة المراكب، قد ضفروا شعورهم في صورة جديلتين متماثلتين كما في الصين. وقد ابتهجت الفتيات المندهشات وسعدن لرؤية أنفسهن وهن ينطلقن مبحرات على سطح بحيرة رحبة على هذا النحو، وأحسسن كأنما نقلن إلى أرض مجهولة. وعندما وصلن إلى أسفل صخور هائلة من صخور جون الجزيرة الصغيرة، ودهشن عندما وجدن أقل الأحجار واقفة في موضعها كأنما هي لوحة مرسومة، واجتذبت الأشجار القريبة والبعيدة، التي تداخلت فروعها في حجب من القماش المقصب يلفها الغيم، أنظارهن نحو هدفهن البعيد، حيث امتدت أشجار الصفصاف بفروعها الخضراء المتألقة وبراعمها التي بثت عطوراً تفوق الوصف في الهواء. وابتسمت هنا أشجار الكرز، التي سقطت براعمها في أماكن أخرى، بكل جمالها، والتفت الوستارية حول الشرفات المفتوحة على التجمعات ذات الألوان عميقة التدرجات، زهرة إلى جوار أخرى. على أي نحو رائع انعكست ورود الكيريا في الماء وامتدت في وفرة بديعة من الضفة! انطلقت طيور الماء أزواجاً والغصينات في مناقيرها، بينما تركت البطات الصينية أثراً رائعاً على النسيج الذي أبدعته الأمواج على الحافة البرية، إلى أن أصبح المرء لا يتوق إلا إلى تحويل الأمر برمته إلى تصميم مرسوم كاللوحة[2]. وفي ذلك اليوم كان يمكن لمقبض فأس المرء أن يهترىء.

«عندما يهب النسيم، فإن الأمواج ذاتها تبدو مزهرة في ألوان بديعة

هل يمكن أن يكون هذا إذاً رأس ورود الكيريا الشهيرة»[3].

«لا بد أن البحيرة تعيد للأذهان في الربيع نهر أيدي المتلألىء،

لأن ورود الكيريا تتفتح في أعماقه أيضاً»[4].

---

(1) رايوتو جيكيشو مركبان (اثنان) بـ«رأس تنين» و«رأس رخ». كان التنين يربط تقليدياً بالماء. وكان الجيكي «الرخ» طائراً أسطورياً، قادراً على الصمود في مواجهة العواصف في البحر والتحليق عالياً للغاية.

(2) أزواج الطيور المائية والبط الصيني هي مؤثرات زخرفية للأقمشة الصينية. وتتضمن الفقرة كذلك أصداء تتردد في شعر باي جويي.

(3) هذه القصائد الأربع تلقيها الوصيفات على متن المركب «رأس ورود الكيريا» (ياما بوكي نو ميساكي) هو اسم مكان شعري مرتبط بمقاطعة أومى.

(4) كانت أيدي بدورها، وهي تقع بين كيوتو ونارا، معروفة باليامابوكي الخاص بها.

«لا، لن أسعى إلى الجبل الذي تحمله سلحفاة، فسوف تكون شهرتي

أنني اخترت الخلود هاهنا على متن هذا المركب»[1].

«مع انطلاق مركبنا عبر ألق الشمس في يوم ربيعي جميل،

تتحول كل قطرة تسقط من مجاذيفنا إلى زهرة!».

تلك كانت المباهج التي مضوا يسلون بها بعضهم بعضاً، وقد أوشكوا، في غمار ذلك، على أن ينسوا إلى أين هم ماضون ومن أين أقبلوا، لأنهم بالطبع كانوا مأخوذين بالماء الذي انعكس هذا كله على سطحه.

ترددت: أنشودة «الغزال الملكي» على نحو نبيل مع حلول الغسق، وعندئذ فحسب رسوا مترددين بالمراكب في سرادق صيد الأسماك، ونزلوا إلى الشاطىء. كان المكان مرتباً بصورة عادية وبسيطة للغاية، ولكن على نحو رشيق، ومثلت الشابات من كل جانب، واللواتي ارتدين أبهى حللهن بما يزيدهن فخراً وتباهياً ويجعلهن بارعات الجمال أيضاً، جمال الملابس البديعة المقصبة بوشي الزهور. كانت الرقصات التي أُديت جديدة ونادرة[2]. وكان جينجي قد اختار الراقصات بعناية خاصة، وتأكد من أنهن سيكرسن فنهن بأسره لإدخال السرور على السيدات اللواتي يتابعن رقصهن.

بعد حلول الظلام، كان لا يزال متلهفاً إلى المزيد، فأمر بإيقاد المشاعل في الحديقة القريبة، واستدعى العازفين إلى المنطقة المكسوة بالأُشنة أسفل الدرج[3]، وجعل كلاً من الأمراء وكبار النبلاء يأخذ آلة الموسيقى المفضلة، سواء أكانت آلة وترية أم نفخية. وبعد أن عزفت نخبة العازفين المحترفين من مقام «سو»[4]، شرع من يجلسون في موضع أرفع منهم في العزف الرائع على الكوتو وما إليه من آلات موسيقية، واجتذب عزفهم

---

(1) كانت هواري، الجزيرة الجبلية الخاصة بالخالدين، تستند إليظهر سلحفاة كبيرة.

(2) تؤدي راقصات البوجاكو رقصاتهن في خيمة من نوع ما «هيراباري» بين الدار والبحيرة.

(3) الدرج المفضي إلى الحديقة من الجانب الجنوبي للدار الرئيسية.

(4) أحد مقامات جاجاكو الستة، وقد كان يرتبط بالربيع، وقد استهل العازفون المحترفون عزفهم بعزف نتوري (مقطوعة قصيرة تستخدم لدوزنة الآلات الموسيقية) على آلتهم النفخية (على التوالي شو، هيتشيركي، الناي) وجلس النبلاء أعلى الدرج (العازفون المحترفون في موضع منخفض بالنسبة لهم) والتقطوا نغم المقطوعة بآلاتهم الوترية.

لمقطوعة «آه، أيها اليوم الرائع!» الخدم الأكثر جهلاً للإصغاء وسط الجياد والعربات المزدحمة قرب البوابة، وهم يبتسمون ابتسامات عريضة، كأنما الحياة أصبحت أخيراً جديرة بأن تُعاش. كان جمال السماء، النغم الصادر عن الآلات الموسيقية، المناخ النفسي المرتبط بالربيع ونمط العزف[1] الذي يعبر عنه، كل هذا أوضح للجميع يقيناً وعندما أفضى الانتقال في طريقة العزف إلى «بهجة الربيع» القيمة الأرفع لهذا الفصل من السنة، وامتد العزف خلال الليل. غنى معالي وزير الحرب «شجرة الصفصاف الخضراء» مرتين على نحو جميل للغاية. وانضم إليهم سموه، مضيفهم، كذلك. طلع الفجر، وأحست جلالتها بالأسف لسماع شقشقة الطيور. على الرغم من سنا الربيع، الذي تألق بلا انتهاء في الجانب الجنوبي الشرقي، فإن البعض شعر بالأسف، لأن السيدة المقيمة هناك ليس لديها أحد يتلقى أعمق آيات حبها[2]. وفي غضون ذلك تناثر الحديث في كل الأرجاء عن اهتمامات جينجي البادية بالسيدة التي لا تشوبها شائبة والمقيمة في ذلك الجناح الغربي من الجانب الشمالي الشرقي إلى أن حدث ما توقعه، ووجد الكثير من النبلاء أنفسهم وقد وقعوا في حبائل فتنتها. وقد بادر من لديهم مبرر إلى تقدير أنفسهم تقديراً عالياً إلى انتهاز كل فرصة تتاح لهم للإشارة إلى اهتمامهم وإلى إرسال كلمة لها عن هذا الاهتمام كذلك، ولكن لا شك في أنه كان هناك شبان ونبلاء كذلك يشتعلون بنيران الحب التي تحرق الصدور، وأصاب سهم الفتنة كذلك النقيب، نجل وزير شؤون القصر بدوره، لأنه لم يكن يعرف جلية الأمر.

لم يخف معالي وزير الحرب نواياه، بعد أن فقد زوجته التي دامت حياته الزوجية معها سنوات طويلة. وبدا مرآه طريفاً للغاية هذا الصبح، وهو ينطلق واضعاً الوستارية في غطاء رأسه، متعللاً بسكر مصطنع. وحرص جينجي، الذي سر لهذا المشهد في قرارة نفسه، على ألا يلتفت إليه.

قال معاليه، في أسى بالغ، عندما دارت أقداح الشراب لتصل إليه: «الآن حل الوقت لانصرافي، إذا لم يكن هناك سبب يدعوني للبقاء! فهذا كثير للغاية بالنسبة لي». ورفض

(1) كاريجوى، الانتقال من مقام «كبير» إلى مقام «صغير» أو العكس.

(2) ليست لمورا ساكي ابنة أنجبتها هي نفسها.

قبول المزيد من الشراب.

«صبغت فؤادي بعمق بالغ في تدرج المورا ساكي اللوني الفاتن

لماذا أكترث إذا كان الجميع يحسبني صنعت في هوة هذه الزهور الرقيقة؟»[1]

وقدَّم الوستارية لجينجي ليضعها في غطاء رأسه بدوره.

ابتسم جينجي ابتسامة دافئة ورد:

«احرص، إذن، فيما هذا الربيع يدوم، على ألا تبتعد عن هذه الزهور،

واحذر ألا تقفز إلى الهاوية!».

استبقى معاليه بإلحاح بالغ إلى حد أنه صرف النظر عن المغادرة، وأضاف المزيد من الجاذبية إلى مباهج هذا الصبح.

كان هذا اليوم هو أول أيام قراءة الكتب المقدسة لجلالته. ولم ينسحب الكثير ممن حضروا من أجل الموسيقى لحضور القراءة، وإنما وجدوا ركناً مناسباً لتغيير ملابسهم وارتداء زيهم المدني الكامل. وغادر البعض ممن لديهم ارتباطات في أماكن أخرى بالفعل. ومضى إلى هناك كل من اعتزم الحضور، وذلك في ساعة الحصان[2]، وعلى رأسهم جينجي نفسه. وأقبل كل الوصفاء الخصوصيين، وانضم معظمهم إلى جينجي نفسه. ومضت المناسبة قدماً بروعة تملأ النفس تأثراً.



راقصة على هيئة ملاك

بعثت سيدة الربيع على نحو بالغ

(1) بفضل إشارة إلى كوكينشو 867، فإن مورا ساكي (لون زهرة الوستارية (الذي يشير إلى أن تاما كازورا هي من الأقارب بحسب صلة الدم (من حيث أن المتحدِّث هو أخ لجينجي) وتتضمن القصيدة أيضاً توريات فيما يتعلق بفوتشي/ فوجي «الوستارية» و«الهاوية».

(2) الظهيرة على وجه التقريب.

الرقـة والـود بباقة مـن الزهور. وبـدت للعيـان ثماني فتيـات تابعات صغيـرات (كانت قد حرصت على أن يكن جميلات بصورة خاصة) وقد ارتدين ملابس تجعلهن في هيئة الطيور والفراشـات. وحملـت الفتيات اللواتـي اتخذن مظهـر الطيور براعم الكـرز في مزهريات فضيـة، وحملـت اللواتي اتخـذن مظهر الفراشـات ورد الكيريا في مزهريـات من الذهب، وكانـت الزهور هي الأكثـر كمالاً من نوعها في التألق. وانطلقن مـن وراء الهضبة الصغيرة المدورة، وهبَّ نسـيم مع مرورهن أمام جلالتها، ناثـراً بتلات قلائل من براعم الكرز. كان اليوم صافياً وهادئاً، والطريقة التي أقبلن بها من رحاب الغمامات مؤثرة على نحو فاتن.

كانـت خيمـة الراقصات قد تُركـت، عن عمد، حيث كانـت، وأُعد الممـر الواصل بين الجناحين لعازفي الموسيقى، ووضعت فيه في الوقت الراهن مقاعد من النوع الذي يطوى. وأقبلت الفتيات إلى الدرج، وقدمن زهورهن. وتلقى حاملو البخور[1] الزهور، ووضعوها قائمة إلى جوار آنية الماء المقدس. وكان ابن جينجي، النقيب هو الذي قرأ رسالة المانح.

«هل ستنظر شذراً، يا صرار الصنوبر في العشب، مفعماً بالحنين إلى الخريف

حتى إلى هذه الفراشات من حديقة زهوري؟»[2].

ابتسـمت جلالتها، وقد تعرفت الـرد على قصيدتها المتعلقة بوريقـات الخريف. قالت وصيفات الأمس بلهجة التأكيد، وهن لا يزلن مفتونات بالزهور: «يا مولاتي ما كان بالوسع أن تجدي عيباً هناك في جمال الربيع!». ترددت أنشودة «الطيور»[3] وسط شدو الهازجات الرقيـق، بينما مضت طيور الماء هنا وهناك على البحيرة تردد شـدوها الخاص، وكان تأثير الخاتمـة السـريعة بهيجـاً إلى أقصى الحـدود. بأي رشـاقة وخفة إذاً مضت الفراشـات في انطلاقهن ليصفقن بأجنحتهن عند السور أخيراً وسط ورود الكيريا الوفيرة!

مـرَّر القائـم علـى دار جلالتهـا والوصفاء الخاصـون الآخرون المسـموح لهـم بذلك

(1) وصفاء خصوصيون عُهد إليهم بتوزيع البخور على الرهبان المشاركين.

(2) «صرار الصنوبر» (ماتسوموشي) حشرة خريفية يُراد بها أكيكونومو. ترقى قصيدة مورا ساكي إلى إعلان للنصر في حروب الربيع والخريف.

(3) مقطوعة بوجاكو معنونة على نحو مناسب بـ«كاريوبينجا» («كالافينكا» باللغة السنسكريتية) على اسم الطائر الذي يغرد في الفردوس.

جوائزهـم أحدهم إلى الآخر[1]، وأعطوا للفتيـات الصغيرات التابعات مكافآتهن. حصلت الفتيـات اللواتـي اتخذن هيـأة الطيور على أثـواب رائعة بلون براعم الكـرز، بينما حصلت اللواتي اتخذن هيئة الفراشات على أثواب بلون وردة الكيريا. وبدا الأمر كأن هذه الأثواب قـد أُعـدت مسـبقاً. وحصـل العازفون، كل حسـب مرتبتـه، علـى رداء أبيـض أو لفافة من الحرير[2]، وكان النقيب قد حمل على كتفيه رداء طويلاً بلون الوسـتارية وكذلك مجموعة كاملة من الثياب النسائية.

كان هذا هو ردّ جلالتها «بالأمس كما تعلمين، كان يمكن أن أصبح عالياً[3].

«هلم، يبدو أنهم يقولون، ولربما اجتذبتني فراشاتك بعيداً

لو أنه لم يمتد بيننا جرف على جرف من وردة الكَيريا»[4].

وربمـا كان جوهر الأمر راجعاً إلى أنه علـى الرغم من تميزهما وإنجازهما، فقد وجدتا كلتاهما أن الجهد أكبر من أن تبذلاه لأن قصيدتيهما ليستا ما كان المرء يرغب في الحصول عليه منهما.

آه، لقد نسـيت، فوصيفات جلالتها، اللواتي كن في الجولة، تلقين كلهن بدورهن هدايا رمزية[5]. وكان هناك ما يفوق الوصف. واسـتمرت ضروب التسلية هذه ليلاً ونهاراً، حيث أن تلك السـيدات لم يكن لديهن من يدخلن السـرور عليهن إلا أنفسـهن، وبالتالي فإن من يبقين على خدمتهن عشن بدورهن حياة خالية من المنغصات. ومضى كل جانب في تبادل الرسائل مع الجانب الآخر.

كانت السـيدة المقيمة في الجناح الغربي وسيدة الجانب الجنوبي الشرقي قد ظلتا على اتصـال إحداهمـا بالأخرى منـذ التقتا في وقـت مهرجان المرح. ولا شـك في أن السـيدة الأولـى قد افتقرت من بعـض الجوانب إلى كمال عمق الشـخصية، ولكنها حظيت بطبيعة

(1) إنهم يتلقون هدايا من الملابس، التي يمررونها أحدهم للآخر على امتداد صف.

(2) كوشيساشي (موضوع في الزنار) لفافة من الحرير يدسها من يتلقاها في زناره قبل انسحابه.

(3) حيال عدم القدرة على أن تكون حاضرة. كوكينشو 498 «على أعلى غصن في شجرة برقوقي تغرد هازجة، وأنا بدوري كان يمكن أن أصبح عالياً، مترع بالحزن البالغ حبي».

(4) تحقق قصيدة أكيكونو تلاعباً بلفظة كو «هلم» وبلفظة كوتشو «فراشة».

(5) من مورا ساكي.

سامية كانت وليدة التجربة واسعة النطاق، وقد بدت لطيفة، وحيث إنه لم يكن فيها ما يدعو إلـى كرههـا، فإن كل السـيدات قـد تمتعن بصلات ودية معهـا. وكان عدد كبيـر من النبلاء يخطبـون ودها، ولكن جينجي تجنب اتخاذ أي قرار متسـرع. وبالنسـبة لـه فربما كان تردد معيـن علـى الدوام في التصـرف على نحو أبـوي نحوها هو الذي دعاه فـي بعض الأحيان على وجه السـرعة إلى التفكير في إبلاغ أبيها بأمرها. وقد جعلها تشـعر بالخجل الشديد أن النقيـب، نجل جينجي، قد وصل إلى موضع قريب منها، أي إلى السـتائر الحاجبة الخاصة بهـا، ودرج على أن يرد على ملاحظاتها بشـخصه، ولكن النسـوة المحيطات بها لم يجدن سـبباً يدعـو لمنعه من ذلك، وكان هو نفسـه أكثر جدية من أن يفكِّر فـي انتهاز هذه الفرصة للنيل منها.

أحس أبناء وزير شؤون القصر بما يكفي من التشجيع من القدوة التي قدمها لهم بحيث أعلنوا عن اهتمامهم بها، ومضوا متخذين مظاهر مأساوية، أثارت مشاعرها في سريرة نفسها، وإن لـم يكن بتلك الطريقـة[1]، وإنما لأنها كانت تتوق من قلبها إلى أن تحظى باهتمام أبيها الحقيقـي. ولم تلمح إلى هـذا لجينجي، وإنما تصرفت معه بألفة وثقة صبيانيتين آسـرتين. وقد رأى أمها ماثلة فيها على نحو بالغ الوضوح، على الرغم من الافتقار الواضح للتشـابه، ولكن كان من المؤكد أنها هي التي أفصحت عن قدر أكبر من حضور البديهة.

عندما آن الأوان للانتقال إلى الملابس الجديدة ذات الطراز الحديث الخاصة بالموسم الجديد[2]، فإن السماء ذاتها اكتسبت جاذبية غريبة. ولـم يكن جينجي مشغولاً، وأمضى وقته عاكفـاً على عزف الموسـيقى على اختـلاف أنواعها. وفي غضون ذلك، وصلت الرسـائل بأعداد متزايدة للسـيدة الشابة في الجناح الغربي، وقد أدخل هذا السرور على نفسه، حيث أنـه لم يتوقع أقل من ذلك. ولكن عادتـه المتمثلة في زيارتها في لحظات غير مألوفة لإلقاء نظـرة على هذه الرسـائل، ثم تقديم النصح لها حول أيهـا ينبغي أن ترد عليه، جعلت الحياة صعبـة بالنسـبة لها، حيث أن ذلـك كان معناه أنها لن يكـون بمقدورها أبـداً أن تحس بأنها مرتاحـة في دارها، وسـرعان ما أصبحت لديها مجموعة من الرسـائل المفعمة باللوم على

---

(1) ليس بطريقة رومانسية.

(2) في اليوم الأول من الشهر الرابع. اليوم الأول من الصيف.

نحو مرير من معالي وزير الحرب، وضحك جينجي من القلب عندما قرأها.

قال: «لقد كنت على الدوام قريباً منه، ومن بين كل الأمراء فإنه هو الذي يستحق محبتي، ولكن عندما يتعلق الأمر بأشياء كهذه، فإنه قد واصل ابتعاده عني، وهذا هو السر في أنني أجد أن من الطريف والمؤثر للغاية أن أرى أخيراً تدفقاته العاطفية هذه. ولا بد لك من الرد عليه. ولست أستطيع التفكير في مراسل أكثر جدارة منه لأي امرأة راقية التعليم. آه، نعم، هناك الكثير مما يؤهله لذلك!» ومضى يفصِّل القول في موضوع أخيه لكي يجعله مرغوباً فيه من جانب امرأة شابة، ولكنه لم يفلح إلا في جعلها تحس بعدم الارتياح.

بدا أن عذابات قائد الميمنة[1] العملاق والوقور تماماً تكرر السقطة التي عانى منها ما عاناه كونفوشيوس في جبل الحب[2]، الأمر الذي بدا لجينجي مضحكاً بطريقته الخاصة، ثم بينما مضى يوغل في التدقيق في الرسائل، صادف رسالة مكتوبة على ورق صيني أزرق معطر على نحو بديع ومطوي بما يجعل الرسالة رفيعة وصغيرة للغاية، فتساءل وهو يفضها: لماذا رُبطت هذه الرسالة في صورة عقد؟[3] كان الخط لطيفاً.

«لا يمكنك معرفة أن كل خواطري عنك، لأن الربيع المنسل

نابعاً من بين الصخور لا يترك لوناً تقع عليه العين» .

كان الخط حديثاً ورائعاً.

تساءل: «رسالة من هذه؟» لكنها لم تقدم له رداً واضحاً[4].

استدعى أوكون وقال لها: «أريدك أن تدققي في أمر كُتَّاب كل هذه الرسائل قبل أن يحصلوا على رد. فمن شأن شاب طائش هذه الأيام أن يرتكب غلطة كبرى، والأمر كله قد لا يكون خطأ الرجل. وقد حدَّثت نفسي بدوري: كم هو فظيع منها! لن أقبل بذلك! ثم

(1) هيجيكورو نو تايشو «القائد ذو اللحية السوداء» هو أخ للزوجة شوكويدين، وخال ولي العهد، وهو متزوج من أخت كبرى غير شقيقة لمورا ساكي.

(2) يبدو أن سقطة كونفوشيوس كانت مما يُضرب به المثل. غير أنه لم يُعرف عمل كلاسيكي يأتي على ذكرها.

(3) يتضمن سؤال جينجي تورية، فيما يتعلق بلفظة موسوبو «يربط» على نحو ما كانت رسائل الحب تُربط وموسوبورو («يُرفض»).

(4) هي من كاشيواجي، وهو بالفعل أخوها غير الشقيق.

وصفتهـا بأنها متبلـدة، أو إذا حدث أنها كانت أقل مرتبة بقليل مني فإنني أصفها بالوقحة، ولكـن عندمـا لا يكـون الرجل على هـذا القدر من الحـرص على أي حال، وهـي لا تزال تتجاهل على نحو مقيت رسـالة بسـيطة حول موضوع الزهور أو الفراشـات، فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى تشـجيعه، أو قد ينسـى كل مـا يتعلق بها. ومن الذي يمكـن أن يلومه؟ وليس مـن الجيـد كذلك القيام برد بارع على نحـو عفوي على ما لا يعدو أن يكون رسـالة عفوية وعملية تماماً، فذلك قد يفضي إلى المتاعب في وقت لاحق. وعموماً، فإن المرأة لا بد من أن تعانـي مـن جرائها في نهاية المطاف، إذا كانت مهملة بمـا فيه الكفاية بحيث تنغمس في إظهار حساسـيتها المرهفـة ولماحيتها المتألقة، وعلى الرغم من ذلـك، فإن معاليه والقائد همـا مـن الإغراق في العاطفة بحيث لا يعبران عن مشـاعرهما بصورة عابرة، ولن يناسـب سـيدتك أن تعاملهما على نحو يقل عما يسـتحقانه. أما فيما يتعلـق بالآخرين الذين يقلون عنهما، فعليك بالتأكيد أن تكوني لطيفة بما يتناسب مع ما تدركينه عن مدى جديتهم».

جلسـت السـيدة مشيحة عنه، كاشـفة عن ملمح جانبي مذهل. فوق ثوب طويل قرنفلي اللون[1]، ارتدت ثوباً رسـمياً متناغماً مع زهرة الموسم[2]، وكانت جلستها التي تميزت في نهايـة المطـاف بنوع من البـراءة الطبيعية، الأثر الوحيـد الظاهر لتربيتها الريفية، لا تشـوبها شـائبة في مرونتها، مع اقترابها أكثر فأكثر من معرفة الكيفية التي يتصرف بها الناس، وأدى اسـتخدامها المتـزن لأدوات التجميل إلى إضفاء التألق علـى مظهرها الرائع بالفعل بحيث أن مرآهـا كان يدخـل البهجة على من تقع عينه عليها. فحدَّث نفسـه: أي عار فظيع ترك أي شخص آخر يحظى بها!

في غضون ذلك، تطلعت أوكون مبتسمة، ومحدِّثة نفسها: لا، حقاً، إنه أصغر بالنسبة لها من أن يدعو نفسـه بأبيها! أي ثنائي هما على هذا النحو جنباً إلى جنب! قالت: «يا مولاي، أرجو أن تثق من أني لا أعطي سـيدتي رسـائل من أي نبلاء. وأحسـب أننا استلمنا الرسائل الأربـع التي كنت تتأملها منذ لحظة، الرسـائل فحسـب، لأننا نتردد في مضايقة المرسـلين بإعادتها إليهم، ولكن سـيدتي لن... على الأقل ليس من دون إذنك الصريح وحتى عندئذَ

(1) ثوب قرنفلي برقوقي «هوسوناجا» مبطن بلون أوراق الشجر الخضراء.
(2) كوتشيكي ببطانة دتزية (أونوهانا) (بيضاء ببطانة في لون العشب الأخضر [مويجي]) الدتزية تزهر في الشهر القمري الرابع في مجموعات طويلة من البراعم البيضاء الصغيرة.

بتحفظ بالغ».

«مـاذا إذاً عـن هذه الرسـالة المربوطة بهـذه العقـدة الصبيانية؟ من المؤكـد أنها مكتوبة بشكل جميل للغاية». حدَّق جينجي فيها مبتسماً.

أصـرَّ المبعـوث إصراراً تاماً علـى ترك هذه الرسـالة، يا مولاي. فالنقيـب، نجل معاليه وزير شـؤون القصر يعرف بالفعل ميروكو[1] الموجـودة لدينا بالخدمة هنا، وهي من قبلت الرسالة. وأؤكد لك أنه ما من أحد رآها.

«كـم هـذا لطيف! هؤلاء النبـلاء لا يزالون في مقتبل العمر، ولكـن المرء يقيناً لا يرغب فـي مضايقتهـم بتلك الطريقة. أشـك فـي أن هناك الكثيريـن حتى في صفوف كبـار النبلاء بمقدورهم مجاراته في التقدير الذي يتمتع به. وما من أحد من نظرائه يحظى بالحسن الذي يتمتـع به، حسـناً، من المحتم أنه سيكتشـف الأمر بمـرور الوقت. لا بدّ مـن إبعاده، ولكن بالطبـع لـن يكون ذلك بصورة مفاجئـة. وعلى الرغم من ذلك، يا لها من رسـالة جميلة!». لبعض الوقت لم يستطع تركها في موضعها.

قال للسـيدة الشابة: «إنني أخشى أنه ربما ساورتك أفكارك الخاصة حول حديثي معك على هذا النحو، ولكنك لا تزالين أصغر سناً وأقل استقراراً من أن تلفتي انتباه معاليه، وفي تقديـري أنه سـيكون حافـلاً بالمخاطر أن تذهبي إليـه وتلتحقي الآن بعائلتـه، بعد كل هذه السـنين، وإننـي على يقين من أنه سـتكون مناسـبة لائقـة تقابلينه فيها بطريقة مشـرفة، لدى اسـتقرارك كمـا تفعل الأخريـات. إن معاليـه يعيش وحيداً مـن حيث المبـدأ، ولكنه مولع للغاية بالسيدات، وهو يرتاد العديد من الدور المختلفة، أو هذا هو ما أسمعه، وهو يحتفظ بعدد كبير من النساء اللواتي يطلق عليهن بصورة غير سارة المحظية[2]، أو نحو ذلك. ومن شـأن زوجة قادرة على شـفائه من هذا النوع من الأمور من دون أن تحظى بدعمه أن تكون جيـدة جداً بالتأكيد. ومن شـأن امرأة لها مراوغتها الصغيـرة الخاصة بها[3] بالطبع، أن تدفع زوجها في يسـر إلى السـأم منها، وذلك شيء ستحتاجين إلى الالتزام بالحذر منه. إن القائد

---

(1) فتاة تابعة فيما يبدو.

(2) ميشيودو، اصطلاح يستخدم للوصيفة التي يتخذها سيدها نوعاً من الخليلة الصغرى.

(3) ميل إلى الغيرة.

يتودد إليك، لأن زوجته التي استمر زواجه بها كل هذه السنين قد تقدم بها العمر الآن، وقد استبد به السأم منها، ولكن من الطبيعي أن عائلتها تعترض، ولا يمكن القيام بالكثير في هذا الشأن، ولذا فقد عكفت على التفكير في هذا الموضوع بنفسي، على الرغم من أنني لم أخلص إلى أي نتيجة. وفيما يتعلق بهذا النوع من الموضوعات، فليس من اليسير على أي فتاة أن تُحدِّث أباها صراحة بما تفضل القيام به، ولكنك تجاوزت هذه السن، ولست أرى سبباً يدعوك إلى أن تحسمي أمرك، ولا بد من التفكير فيَّ على نحو ما كنت تفكرين في أمك الراحلة، حيث أنني أكره إن أراك تعيسة».

أثار كلامه الجدّي حيرتها الشديدة إلى حدّ أنها لم تستطع التفكير في أي رد. وعلى الرغم من ذلك فقد أحست أنه سيكون من السخافة ألا تجد رداً على الإطلاق. فغامرت بكل براءة بالقول: «لم يكن لي أبوان بقدر ما أتذكر، وأخشى أنني ليس بمقدوري أن يكون لي رأي».

تعاطف جينجي معها فقال: «حسناً، إذاً، ألا تقبلين راعيك باعتباره أباك كما يذهب القول السائر، وتقرين بالعمق الكبير للغاية لقلقي عليك؟»[1]. كانت الطبيعة الحقيقية لاهتمامه بها أكثر مدعاة للصدمة من أن يعترف بها. وبين الحين والآخر كان يسمح لتعبير موح بأن ينزلق إلى حديثه معها، ولكنها بدا أنها لم تلاحظ ذلك، وكان يتنهد أخيراً عندما يمضي منصرفاً عنها.

نما الخيزران الصيني في حديقتها قوياً واخضر فتياً، وتوقف جينجي الذي افتقد طواعيته المعطاءة ليتأمله.

«هل ينبغي لشجرة الخيزران العزيزة تلك، التي كانت فتية جداً عندما غرستها في حديقتي

أن تنمو على مرِّ السنين إلى حياة بعيدة عن حياتي؟»[2].

قالها رافعاً ستائرها الحاجبة: «أحسب أنني سأحمل هذا على الوجه السيء».

---

(1) يبدو أن «القول السائر» يعني شيئاً من قبيل: «عليك بتوقير الأب الذي رباك أكثر من الأب الذي أنجبك!» (يومى نو أويايورى سوداتى نو أويا).

(2) تحقق القصيدة تلاعباً فيما يتعلق بلفظة يو «مرور الزمن» و«مفصل [شجرة الخيزران]»، وفي هذا السياق فإن لفظة يو توحي بـ«علاقة حب».

انسلت خارجة إليه[1].

«أي هاتيك السنين ستجلب معها لشجرة الخيزران الصغيرة الوقت المناسب لتسعى أخيراً إلى الجذر الذي نمت منه في أول الأمر؟.

لا شك في أن المحاولة قد لا تجدي كبير نفع حقاً». هكذا ردت، فانصرف قلبه إليها طافراً، وعلى الرغم من ذلك ربما لم تصدق حقاً. راحت تتساءل قلقة وحزينة، آه، متى يطرح الموضوع مع أبي؟ ومع ذلك فمن المؤكد أنها كانت تقدر رقة جينجي، وقد افترضت أنها على الرغم من أنها قد دعت ذلك النبيل بأبيها! إلا أنها لا يمكن أن تكون قريبة منه مثل جينجي نفسه، حيث أنها لم تقض أي وقت معه، وفي حقيقة الأمر كلما قرأت أكثر في الحكايات القديمة وتعلمت منها حقيقة الناس وأسرار الدنيا، زادت خشيتها وتعمق شكها في أنه سيكون بمقدورها أن تلفت انتباه أبيها إليها.

ازداد افتتان جينجي بها إلى حد أنه مضى إلى الحديث عنها مع سيدة الدار: «يا لها من مخلوقة جذابة! لقد افتقرت أمها قبل كل تلك السنين إلى بعض الحيوية، ولكنها هي بقدر ما يسعني القول دافئة جذابة وما من حاجة تدعو إلى القلق عليها».

بالنسبة لسيدته، التي كانت تعرفه حق المعرفة، فإن هذا النوع من المديح كشف عن اهتمام جاد، فأدركت جلية الأمر. «ربما كانت سريعة البديهة في إدراك العديد من الأمور، ولكنني أشفق عليها إذا كانت في غمار براءتها تثق فيك أكثر من اللازم».

«هل ينبغي ألا أشجعها على ذلك؟».

«آه، هلم الآن! ألا تذكر البؤس الذي غالباً ما سببته لي أساليبك». وابتسمت.

إنها لا يفوتها شيء. أليس كذلك؟ واصل حديثه بصوت عال: «لكنك فهمت الأمر كله على وجه الخطأ. وهي نفسها ما كان يمكن أن تفشل في الملاحظة». أمسك عن قول المزيد، كان يعرف أن المتاعب أطبقت عليه، والآن وقد استطاعت النفاذ إلى أغواره، فقد مضى عبثاً يحاول حسم الأمر فيما يتعين عليه القيام به، متأملاً بأسف، في غضون ذلك، في وضعه المؤسف.

---

(1) إنه يرفع الستائر الحاجبة بين الشرفة والجناح وهي تنسل من الغرفة إلى الجناح.

مضى يفكّر على نحو مستمر في السيدة الشابة، وغالباً ما تسبَّب بالجلبة بشأنها، وذات مساء رطب للغاية بعد انهمار المطر طويلاً، تطلع خارجاً إلى خضرة أشجار البلوط المتداخلة وأشجار القيقب الصغيرة بإزاء خلفية من سماء مشجعة على نحو ما، وراح يدندن: «نقية ومتناغمة»[1]، ووجد خواطره تنداح إلى جمالها المنعش على نحو شهي، وانسل ماضياً إليها كالمعتاد.

كانت مسترخية، تمارس الكتابة، وأضفى الخجل لوناً بهيجاً على محياها عندما نهضت واقفة. اكتسحته النظرة العاجلة التي اختلسها من رشاقتها اللطيفة، عائدة به فجأة إلى الماضي، وأنشأ يقول بعاطفة جياشة: «إنني على يقين من أنك لم تدركي ذلك أبداً، ولكنني منذ رأيتك لأول مرة اقتنعت مرة إثر أخرى بأنني أراها أمامي[2]. هذا أمر مربك للغاية. ومن منظوري، فإن النقيب[3] لم يحظ بشيء من الجمال الذي عرفته يوماً، وافترضت أنك لن تشبهي أمك بهذه الشدّة أيضاً، ولكنني الآن أعرف أن مثل هذه الأمور تحدث في نهاية المطاف». امتلأت عيناه بالدموع. مضى يعبث ببرتقالة تصادف أنها كانت ضمن الفاكهة في غطاء صندوق قريب، وواصل الحديث:

«الآن فيما يذكرني هذا العطر: بكميَّها اللذين يفوحان بعبق البرتقال

لا يمكنني أن أصدق أنك لست هي!

لم أستطع نسيانها قط، وبعد أن بقيت بلا عزاء طوال كل هذه السنين، فإنني لا أستطيع منع نفسي من التساؤل، عندما أراك على هذا النحو، عما إذا كنت أحلم. هذا كثير للغاية بالنسبة لي. لا ترفضيني لطفاً!».

ظلت على رباطة جأشها، عندما أمسك بيدها، على الرغم من الانقباض الذي دفعها افتقارها إلى الخبرة إلى الشعور به على نحو طبيعي. ردت قائلة:

«إذا كانت هذه الثمرة تعيد هكذا ذكرى الكمين اللذين عرفتهما منذ زمن بعيد،

فلا شك في أنها بدورها ستنتهي قبل الأوان».

---

(1) من وصف لمنظر طبيعي ربيعي في قصيدة من نظم باي جويي (هاكوشى مونجو 1280).

(2) يوجاو. أم تاما كازورا.

(3) يوجيري.

نكست ناظريها خشية وخوفاً. فبدت جذابة بلا حدود. لم يؤد امتلاء يديها الشهي وروعة بشرتها الساحرة وقوامها بكاملها إلا إلى إثارة التوق الممتزج بالاضطراب في نفسه[1]. وفي هذه المرة تحدَّث قليلاً عن مشاعره، وراحت تتساءل مذهولة، عما ينبغي عليها القيام به، وبدأت في الارتجاف، ولكنه على الرغم من ذلك واصل الضغط عليها. «لماذا ينبغي أن تكرهيني كل هذا الكره؟ أؤكد لك أنني أعتزم إبقاء هذا كله طي الكتمان تماماً بحيث أن أحداً لن يكتشف الأمر. وكل ما عليك هو ألا يفصح سلوكك عن شيء. إنني مولع بك أشد الولع بالفعل بحيث أعرف أن إخلاصي المتجدد سوف يتجاوز أي إخلاص في العالم! هل أكون أقل بالنسبة لك من كل هؤلاء الآخرين الذين تتلقين الرسائل منهم؟ كما تعلمين فإنني أحس بالقلق عليك لأنه لا يمكن أن يكون هناك أي أحد آخر في أي مكان يهتم بعمق بالغ برفاهك على نحو ما أهتم به». كانت لديه طريقة غريبة للغاية في أن يكون والداً.

كان المطر قد توقف عن الهطول، ومضت الريح تتخلل أشجار الخيزران، وشجع ضوء القمر في هذه الليلة الجميلة أرق المشاعر، وفي غضون ذلك، كانت النسوة التابعات لها قد انسحبن إلى مسافة معينة، حيث خجلن من التطفل على حديث حميم. وكان على هذا النحو معها دائماً، ولكن مثل هذه الفرصة النادرة، ربما أيضاً العاطفة التي أثارتها كلماته، التي أفضى عبرها بمكنون فؤاده، كل ذلك دفعه إلى أن يخفي بمهارة حفيف ثوبه الناعم حتى ليكاد يذوب[2]، وأن يضطجع إلى جوارها. ساورها شعور رهيب، حيث تصدع فؤادها، وأرعبها ما قد تتخيله النسوة التابعات لها، وكانت تعرف أنه ما من كارثة كهذه كان يمكن أن تحل بساحتها لو أنها كانت مع أبيها الحقيقي، سواء أكان يقدرها تقديراً عالياً أم لا، وانهمرت دموعها، على الرغم من الجهد الذي بذلته لإخفائها، إلى أن بدت عليها التعاسة بصورة بالغة.

«جحود بالغ منك أن تحسي هذا الإحساس. أي امرأة ينبغي أن تستسلم على النحو المناسب، فيما يبدو لي، حتى ولو كادت غريبة تماماً، لأن هذه هي حال الدنيا. وأخذاً في الاعتبار العلاقة الممتدة والوثيقة بيننا، وليس بمقدوري أن أفهم لماذا تثير هذه الدرجة

(1) لما كان الفصل هو الصيف، فربما لم تكن ترتدي فوق خصرها إلا طبقة واحدة من شاش حريري، قاتم، شفاف تقريباً.

(2) ثوبه الخارجي، فيما كان ينزعه وربما كان قد تأكد من أنه يرتدي ثوباً غير منشى على نوع مريح.

مـن الألفة من جانبـي مثل هذا العداء. ولن أزعجك ثانيـة باهتمامي غير المرحب به. وكل مـا أرغب به هو السـلوى عن فيضـان الذكريات الذي يغمرني». وقـال أكثر من ذلك بكثير لهـا، بعطف ورقة، وأوغل في ذلك، حيث أنه كان أمراً غير عادي مدى عمق مشـاعره الآن كمـا كانـت في ذلك العهـد. وعلى الرغم من نفسـه، فإنه لم يسـتطع الحيلولـة دون إقراره علـى نحو مفعم بالندم بسـلوكه الشـهواني الأحمـق، وانصرف قبل أن يكـون وقت طويل من الليل قد انقضى، حيث أن النسـوة التابعات لها بدورهن سـرعان ما يتسـاءلن عما يفعله هناك. «سـأكون آسـفاً للغاية إذا كرهتني من الآن فصاعداً. الآخـرون لا يمكن إبعادهم في يسـر مثلي! وتقديري لك الذي لا حدود له يمنعني من القيام بأي شـيء يستحق اللوم. أود أن أحادثـك عـن هذا وذلـك، وأن أقوم بتهدئة توقـي لما حدث ذات يـوم. أرجو أن تردي علـيَّ بالـروح ذاتها». ولكن على الرغم مـن ابتهالاته الحارة، فقد ظلت متضايقة ومستاءة بعمـق. تنهـد، قائلاً: «لم تكن لديَّ فكرة أنك تكنين لي هذا الشـعور القوي. يبدو حقاً أنك تكرهينني. أرجو أن تتأكدي من أن أحداً لن يشك في شيء» ومضى مبتعداً.

فـي سـنها لم تكن وليدة الأمـس، ولكن بغض النظر عن جهلها بأسـاليب الرجال، فهي لـم تكـن تعرف أحداً يحظى بأدنى قدر من التجربة في الدنيا، وبالتالي فإن حميمية أكثر من هذا كانت لا تزال شيئاً يتجاوز أقاربها. وكان من الجلي أنها قد تأثرت على نحو جلي بهذا التحول، الذي يبعث على الشـعور بالصدمة في حظوظها، بحيث أن وصيفاتها اعتقدن أنها مريضة، ولم يستطعن تصور كيف يجعلنها في حالة أفضل.

«مولاي شديد العطف والاهتمام!».

همسـت هايوبـو[1] والأخريات: «من المؤكـد أنه حتى أبيك الحقيقي لن يكرِّس نفسـه على هذا النحو لرفاهيتك، يا سـيدتي!». ولكن سلوك جينجي المثير للدهشة كان قد جعله بحلول ذلك الوقت مقيتاً للغاية بحيث إنها لم تستطع إلا أن تنعي وضعها البائس.

وصلتهـا رسـالة منه في وقت مبكر مـن صباح اليوم التالي. كانت لا تـزال راقدة كما لو كانـت مريضة، ولكنها قرأتها في تردد، وعندمـا حملت إليها وصيفتها محبرة وما إلى ذلك

(1) أخت تاماكازورا من الرضاع (ابنة مرضعتها).

من أدوات، وناشدتها أن تكتب رداً سريعاً، نقلت ورقتها البيضاء الموحية ببراءة بادية للعيان الإحساس بالتجرد والانعزال، ولكنها مكتوبة على نحو جميل للغاية.

بـا لهـا من طريقة غير مألوفة لمعاملتي بها! لن يكون من السـهل نسـيان قسـوتك. ترى كيف بدا الأمر كله لوصيفاتك.

لم نرقد معاً في عناق العاشقين الكامل مرة واحدة، فلماذا إذاً أيتها النبتة الصغيرة

تذبلين على نحو حزين كأنما وقع أمر جلل؟

يا لك من طفلة!».

أثارت هذه الملاحظة الأبوية الأخيرة بصفة خاصة نفورها، وحيث أنه كان سـيبدو أمراً غريبـاً بالتأكيـد ألا ترد على رسـالته إطلاقاً، فقد اكتفت بأن كتبت على ورق ميتشـينوكوني تقول: «شـكراً لك على رسـالتك. إنني لسـت على ما يرام، ومن ثم فإنني آمل أن تغفر لي عدم قدرتي على الرد». لم يستطع جينجي إلا أن يبتسم لرؤية كيف أن لطفها أفصح عما يعد به جمالها، وبدا له على نحو جدير بالاسـتنكار، كالعهد به أبداً، أنها جديرة حقاً بالشـكوى المريرة من جانب عاشق مغرم بها.

ما أن كشف عن ألوانه، حتى لم يتوقف عند تلميحات «صنوبرة أوتا»[1]، وإنما كتب لها بدلاً من ذلك كثيراً للغاية وبإصرار بالغ إلى حد أنها شعرت وبصورة متزايدة بأنها محاصرة حتى أنها قد أطبق عليها واسـتنفدت حضور بديهتها، سـقطت مريضة على نحو مريع. ولم يعـرف إلا عـدد قليل للغاية مـن الناس جلية الأمر، وأخذاً في الاعتبـار بأن الجميع من غير هؤلاء، بعيداً وقريباً، قد أعجبوا أشد الإعجاب بأساليب جينجي الأبوية، فقد بدا لها أنه لو تسـربت أي شـائعة عن هذا الأمر، فإنها ستغدو أضحوكة للجميع، وستهدر سمعتها للأبد. قالت لنفسها في موجة عارمة من القلق، حتى لو علم أبي بوجودي فإنه ربما لن يبذل جهداً كبيراً للعثور عليَّ، وإذا نما إلى علمه خبر كهذا، فربما كان ذلك سيعني النهاية!

واصـل معاليه والقائد، اللذان أدركا بصورة غير مباشـرة أن جينجي لم ينظر بعين خالية

(1) جينجي موناجاتري كوتشاكوشو إينو واكا 186: هائلة هي أوجاع الحب حتى أنني عبثاً أكشف أوراقي شأن صنوبرة أوتا، وأطلب منها اللقاء صراحة».

مـن التعاطف إليهـا، توددهما إليها بإلحاح. وعلم نقيب «النبع من بين الصخور» من خلال ميروكو فحسـب أن جينجي يقـر خطبته، الأمر الذي أفعمه فرحاً، حيـث أنه لـم يكن يعرف الحقيقة، وبدا أنه كرَّس نفسه للإعراب عن تعبيرات حزينة عن شكوى مريرة.

25

هوتارو

الحُباحُب

تعنـي كلمة هوتارو: الحُباحُب. وفي هذا الفصل يتيح جينجـي لأحد خطـاب تاماكازورا، وهـو معالي وزير الحرب، اختلاس نظرة إليها على الضوء المنبعث من الحباحب.

الصلة بالفصول السابقة

ينتهي «الفراشات» في الشهر الرابع، ويمتد «الحباحب» ليغطي الشهر الخامس.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 عاماً.

السيدة المقيمة بالجناح الغربي، 22 عاماً (تاماكازورا).

معالي وزير الحرب، أخ لجينجي (هوتارو هايوبوكو نو ميا).

سايشو، وصيفة تاماكازورا.

السيدة المقيمة في الجناح الشمالي الشرقي (هاناتشيروساتو).

السيدة المقبلة من أكاشي، 27 عاماً (أكاشي نو كيمي).

مورا ساكي،28 عاماً.

السيدة الصغيرة، ابنة جينجي، 8 سنوات (أكاشي نو هيميجيمي).

النقيب، ابن جينجي، 15 عاماً (يوجيري).

نقيب الميمنة، الإبن الأكبر لتو نو تشوجو، 20 أو 21 عاماً (كاشيواجي).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

خبير في تفسير الأحلام.

أتاحت مكانة جينجي الرفيعة له الآن التخفف من كل ما يثقله، وتركته في سلام بالغ إلى حد أن من يعتمدون عليه أحسوا بالرضا، وعاشوا آمنين حياة مترفة. ومن المحزن القول إن السيدة المقيمة في الجناح الغربي هي من اجتاحتها متاعب لا تدركها العين ومن عانت من العذاب والحيرة. ولم يكن الأمر راجعاً إلى أن هذه المتاعب كان يمكن أن توضع موضع المقارنة مع التهديد الذي شكَّله المفوض المدقق الفظيع، ولكن هذا النوع من الأمور كان بعيداً تماماً عما يمكن لأي أحد تصوره من جينجي إلى حد أنها تكتمت عليه، وكرهته بسببه أشد الكره. ولما كانت الآن من النضج بحيث تفهم الكثير من الأمور، فقد راحت تقلب الأمر على وجوهه كافة، وتجدَّد حزنها على أمها، وأسفت على نحو مرير على فقدانها.

الآن وقد كشف جينجي النقاب عن دخيلة نفسه، فإن ذلك قد أدى إلى معاناة فحسب من العواقب، وقد منعه الخوف من اكتشاف الأمر من إرسال أقل الكلمات شأناً إليها، وهو ما كان عذاباً بالغاً بالنسبة إليه، بحيث دأب على زيارتها بصورة مستمرة. وعندما كانت النسوة التابعات لها يتركنها في هدوء لنفسها، ويكشف هو لها مجدداً عن عاطفته المتقدة، فإنها كانت تكتفي بالتظاهر، بفؤاد كسير، بأنها لم تلاحظ شيئاً، حيث أنها لم يكن بمقدورها أن تجعله يحس بالخجل صراحة. ولما كانت باسمة وودودة على نحو طبيعي، فإن محاولاتها الحازمة للاعتصام بالحذر الجاد لم تفلح في حجب جاذبيتها البهيجة.

واصل معالي وزير الحرب، شأن آخرين، شن حملته الجادة، ولم يكن قد أمضى وقتاً طويلاً في شنها، وعندما واصل القول، بعد الإعراب لها عن شكواه من أمطار الشهر الخامس: «لو أنك سمحت لي بالاقتراب أكثر قليلاً فقط! فأنا أتوق إلى الإفضاء لك قليلاً بدخيلة نفسي!».

رأى جينجي رسالته، فقال: «لم لا؟ إنني على يقين من أن الأمر يستحق رؤية هؤلاء النبلاء وهم يتوددون. لا تكوني نافرة لدى مخاطبته، وقومي بالرد عليه أحياناً لطفاً!». وأبلغها بما يتعين عليها أن تكتبه، ولكنها كانت أكثر انزعاجاً من ذي قبل، وتعللت بعدم ميلها إلى القيام بذلك. وكانت هناك قلة قليلة للغاية من وصيفاتها يحظين بأي مرتبة كبيرة أو دعم. وكانت الوحيدة التي تحظى بذلك هي سايشو، وهي ابنة بالتبني لمستشار، هو أحد

أخـوال أمهـا، وقد حظيت بذوق مقبول تماماً، وكان جينجي قـد أنقذها من تردي وضعها، وكان خطها مقبولاً وجيداً بصفة عامة، وجعلها جينجي تكتب ردوداً مناسبة بحسب مقتضى الحال، ومن هنا فقد اسـتدعاها للقيام بهذه المهمة، ولا شـك في أنه كان فضولياً، على أي حال، فيما يتعلق برسائل معاليه.

بعد التعاسة التي تسببت بها مصارحات جينجي، بدأت هي نفسها، بين الحين والآخر، تلقي نظرة عابرة على رسائل معاليه المليئة بالتوجع والمعاناة، ولم يكن ذلك راجعاً إلى أنه هو نفسـه كان يثير اهتمامها بشـكل خاص، لكنها بحلول ذلك الوقت كانت قد امتلكت من البراعة ما يجعلها ترغب في التوصل إلى سبيل يجنبها رؤية رجل لم تعد تطيقه.

أقبـل معاليـه، الـذي دهش لتلقي رسـالة مقبولة منهـا، لزيارتها في حذر بالـغ، من دون أن يخطـر ببالـه قط أن جينجـي كان، بطريقته المشـينة، كامناً في انتظاره. قدمت له وسـادة للجلـوس عليهـا، عند الحاجب الداخلي من الباب المزدوج، وجلسـت هي على مقربة لا يفصلها عنه إلا سـتارة قائمة، وقد حرص جينجي على أن يكون هناك بخور مفعم بالغواية فـي الهـواء، وعلى الرغم من خروجـه المقيت وغير الأبوي عن الأعراف فقد بدا شـخصه المتأنق رائعاً. عندما جلسـت سايشـو المسـكينة هنالك فحسـب، من دون أن تعرف كيف تنقل رسـائل سـيدتها، ضاعف من ارتباكها بوكزها لوماً لها على كآبتها، وكانت الأمسيات المظلمة[1] قد انتهت الآن، وعلى الضوء الشحيح المنبعث من السماء المتشحة بالسحب، اتسمت مهابة معاليه التي كبح جماحها بجاذبية ملحوظة. انساب الهواء عليلاً من الداخل، مختلطـاً بالعبـق الأكثر تميزاً، الـذي يضوع من جينجي نفسـه، فأحاطه بروائـح رائعة، وما اسـتنتجه من حضور السـيدة أوحى له بأنها أكثر جمالاً حتى مما تصور. فمضى يبثها ما في قلبه بكبرياء بالغة، متجنباً أي إيحاء مصدره الصوت، وقد ظهر في غضون ذلك بمظهر غير عادي. ووصل إلى سمع جينجي بعض ما قاله، واعتقد أن الأمر بكامله طريف للغاية.

كانت قد انسـحبت لترقـد في الجانب الشـرقي، وأضاف جينجي لومه، عندما انسـلت سايشـو لتنقل كلمات معاليه: «إنك تجعلين الأمر صعباً للغاية على معاليه، واللباقة مفضلة دوماً، وهذا ليس بوقت إصرارك على التصرف كفتاة بسيطة فحسب، وليس بمقدورك جعل

(1) في الجزء الأخير من الشهر القمري، عندما لا يكون هناك قمر، وبالتالي فإن القمر يكون في أول منازله.

أحدهم يركض جيئة وذهابه كل هذه المسافة عندما تحادثين أميراً. يمكنك على الأقل أن تبقي على مسافة أقرب منه، حتى إذا كنت تفضلين ألا يسمع صوتك».

استبدَّ بها اليأس، ولم ترغب في الذهاب أو البقاء، بما أن البقاء قد يعطي عذراً لجينجي للانقضاض عليها، في أي وقت، فانسلت خارجة لترقد على جنبها وراء الستارة القائمة عند طرف الغرفة. وتناهبها التردد حول كيفية الرد على حديث مطول بصفة خاصة من معاليه، واقترب جينجي منها، وأسدل ستارة جانبية. وفي تلك اللحظة، وعلى نحو أدخل الفزع في نفسها، انبثق ضوء كأن شخصاً يحمل شعلة كما قيل إليها.

في وقت سابق من ذلك المساء، كان جينجي قد وضع سرباً من الحباحب في حرير شفاف وحجبه عن العيون، والآن وفي براءة من يرتب ثيابه، رفع الغطاء عن الحباحب، وجعلها الضوء المفاجيء تحتجب في استياء وراء مروحتها، كاشفة فيما هي تفعل ذلك عن ملمح جانبي ساحر. كان جينجي قد حدَّث نفسه بأن من شأن ضوء ساطع أن يتيح له نظرة جيدة إليها. وقال: «إنني على يقين من أن كونها ابنتي هو وحده الذي جعله على مثل هذا القدر من التلهف»، فليس بمقدوره أن يفترض أن لها كل هذا القدر من الخفة والجمال من تلقاء ذاتها. لسوف أغرس الاضطراب في ذلك الفؤاد الذي لا شك أنه مجرب للغاية في أمور الحب. وما كان جينجي ليثير كل هذه الضجة لو كانت ابنته حقاً. لا، لم يكن لطيفاً للغاية. وما أن أتم فعلته حتى انسل خارجاً من طريق آخر، ومضى إلى داره.

مضى معاليه يخمن أين عساها تكون السيدة الشابة، وخفق فؤاده عندما استنتج أنها في نهاية المطاف أقرب قليلاً مما كان يعتقد. كان يحدِّق فحسب من خلال ثغرة في ستارة حريرية رقيقة عندما التمع بريق ضوء ساطع وغير متوقع بالمرة، على بعد لا يتجاوز عشرة أقدام[1] ملء البصر. وانطفأ في لحظة، ولكن ليس قبل أن يظهر له المباهج التي تعد بها. لا بأس بكونها مجرد لمحة عابرة، لأنه مضى يركز الآن في شغف على جمال قوام رشيق متكيء ترك حقاً انطباعاً لا يمحى في نفسه.

«ابتعدي كما تحبين، فهذه الفراشات المتقدة تحتضن حنيناً

(1) حرفياً «المسافة بين عمودين» (هيتوما)، حوالي عشرة أقدام.

رغم أن صيحتها لا تسمع قط، يتقد أكثر توهجاً من أن ينطفىء[1].

هل تتابعين ما أقوله؟».

من شأن التفكير أكثر مما ينبغي في الرد على قصيدة كتلك ألا يسفر إلا عن شيء يتسم بالبراعة فحسب، فتحدَّثت بما طرأ على بالها أولاً:

«الفراشة التي تتقد بلهب داخلي ولا تند عنها صيحة

هي التي يفصح إخلاصها عن كل ما يمكن للكلمات أن تقوله»[2].

بعد هذا الرد العفوي انسحبت، تاركة إياه يتقد غيظاً حيال معاملتها الجافة له. ولم يبق حتى الفجر، حيث أن ذلك سيكون جسارة شديدة التجاوز من جانبه، وبدلاً من ذلك غادر في وقت متأخر من الليل، وقد بلله المطر، وسط العديد من القطرات المؤلمة المتساقطة من الطنف. ولا بد أن الوقواق قد أصدر هتافه أيضاً، ولكنني لم أكترث بالإصغاء[3]. وقد امتدحت وصيفاتها مظهره المتألق وشبهه الكبير بسموه، جينجي، ولما كن يجهلن الحقيقة فقد أعربن جميعاً عن امتنانهن وإعجابهن بالرعاية الكبيرة التي أحاط بها سموه سيدتهن في ذلك المساء.

بدا لها أن سوء طالعها هو الذي يبرر حماس جينجي المخادع. ومضت تحدِّث نفسها: لو أن أبي كان قد علم بأمري، وشغلت مكاني الذي أستحقه في الدنيا، وكان سموه لا يزال يحس بهذه المشاعر نحوي، فلن يكون هناك ما هو خطأ بصفة خاصة فيما يرغب فيه. لا بدّ من أن الوضع الغريب الذي وقعت فيه هو الذي سيجعلني في النهاية على كل لسان. تركزت خواطرها المعذبة على هذا الأمر ليلاً ونهاراً. ومع ذلك فإن جينجي ظل مصمماً على ألا يجعل منها أبداً مشهداً مضجراً. يا لتلك الخاصية التي تميز سلوكه! إن المرء لا

(1) الإداة المحورية لهذه القصيدة هي تلاعب بشأن لفظ أوموهي (خواطر الحب أو الحنين) والمقطع الأخير «هي»= =في الكلمة نفسها الذي يعني النار. وبسبب هذا المعنى المزدوج فإن الحباحب تبرز في الكثير من قصائد الحب الصيفية.

(2) شيجيوكى شو 264 (أيضاً جوشويشو 216) من نظم ميناموتو نو شيجيوكى «الحبابة التي تتقد في صمت بنيران داخلية تستحق شفقة أعظم من تلك التي تند عنها صيحة».

(3) كوكينشو 153، من نظم كى نو تومونورى: «بينما أتعذب حزيناً وسط أمطار الشهر الخامس، يهتف وقواق في وقت متأخر من الليل ـ إلى أين يمكن أن يمضي؟».

يحتاج بالطبع إلى تصور أن خواطره عن جلالتها، على سبيل المثال، كانت نقية تماماً، وفي بعض الأحيان كان يخاطبها على نحو استفزازي تماماً، وذلك على الرغم من أن مكانتها الرفيعة قد حالت دون جعل كلماته أو منهاج تعامله معها مكشوفاً أكثر مما ينبغي. أما فيما يتعلق بسيدته الشابة فقد جعلها ما تتمتع به من دفء وشباب لا تقاوم بالمرة مما جعله غالباً ينغمس في التصرف معها بطرق يمكن أن تثير الشك لو أن أي أحد قد رآهما معاً، ولكن أعجوبة الأعاجيب قد تمثلت في أنه أحجم عن المضي قدماً، وأبقى علاقتهما في إطار توازن دقيق.

في اليوم الخامس[1]، أتاحت له زيارة قام بها إلى سرادق ميدان الخيل الفرصة لزيارتها كذلك. تساءل: «كيف كان الأمر؟ هل بقي معاليه حتى وقت متأخر؟ لا ينبغي أن نسمح له بالاقتراب أكثر مما ينبغي. فهو كما تعلمين له خصائص غريبة. وفي نهاية المطاف، فإن قلة محدودة من الناس هي التي لم تلحق الأذى بأحد أو لم تذنب بارتكاب أي سقطة». بدا شاباً ووسيماً بلا حدود، فيما مضى يمدح معاليه وينتقده على التوالي وقد ارتدى، فوق رداء رائع، عباءة رسمية مناسبة وبالغة الكمال إلى حد أن المرء يتساءل كيف كان ذلك ممكناً، حيث أن الصباغة بدت متجاوزة لما يمكن لأي أحد في الدنيا أن يبدعه، بل إن لونه، وهو على حاله دوماً، بدا لها معجزة في يوم مهرجان نبات قصب الذريرة، وكان معجزة أيضاً العبق الذي يضوع منه والذي كان يكمل مسرة حضوره، لولا كل الأحزان التي يجلبها إليها.

جاءت رسالة من معالي وزير الحرب، ومن المؤكد أنها بدت جميلة للغاية، فقد كتبت بتميز كبير على ورق أبيض ناحل[2]، ولكنها عندما قُرئت بصوت عال تبين أنها ليست ذات قيمة تذكر.

«أليس لديَّ جذر القصب، الذي يزدريه الجميع حتى اليوم، حيث ينمو خفيفاً
محتجباً عن العيون تحت الماء من عزاء إلا تأوهات الحزن؟»[3]

---

(1) يوم مهرجان قصب الذريرة.

(2) أبيض لأنه جاء مربوطاً إلى جذر قصب ذريرة.

(3) «هل يجب أن تزدريني؟» فمن أجل مهرجان قصب الذريرة يقوم الناس بانتزاع جذور قصب الذريرة (أيامي) بحثاً عن جذور طويلة بصفة خاصة. تتبع مشاعر القصيدة وتورياتها ني« جذر» أو «صيحة» و(ناكازي) [يبكي أو

كان قد أرفق الرسـالة بجذر رائع جدير بالتذكر. وقبل أن يغادر جينجي، استحثها على الرد. «ينبغي عليك ذلك حقاً»، وذكرتها أخريات بذلك، ولسبب ما كتبت بالفعل تقول:

«لكن عندما يبين أخيراً، فما أشد سطحية جذر القصب ذاك

حين يصدر صيحاته المثيرة للشفقة متحدياً كل معنى

وطفولياً أيضاً». كان ذلك هو كل ما هنالك، وقد كتبته بحبر شاحب. ولما كان معالي وزير الحرب ممن يصعب إرضاؤهم، فربما حدَّث نفسه، بأن خطها يمكن أن يكون أكثر إتقاناً، وأحس بشيء من خيبة الأمل.

تساقطت من كل مكان الكرات النباتية الجميلة بروعة تفوق الوصف، وقد انقضت الآن إلى غير رجعة سنوات محنتها، وتوافر لها الكثير للغاية مما تشعر بالامتنان حياله إلى حد أنها تمنت أن يكون بمقدورها ألا تثير ضيقه على الإطلاق.

أطل جينجي على السيدة المقيمة في الجانب الشمالي الشرقي[1]: «قال النقيب[2] إنه سيأتي برجاله إلى المكان، فمسابقة حرس قصره الخاصة بالرماية بالسهام تُقام اليوم[3]. وآمل أن تكوني مستعدة لاستقبالهم. وأحسب أنهم سيكونون هنا قبل حلول الظلام. وقد أردت أن تظل فعاليتنا هادئة وغير رسمية، ولكن الأمر بأسره معقد تماماً، حيث أن معاليهم قد سمعوا بالأمر وسيحضرون بدورهم. فعليك بالاستعداد لطفاً!».



رقصة "رمي الكرة"

يتدفق] العرف.

(1) هانا تشيروساتو.

(2) يوجيري.

(3) يفترض أنها مسابقة الرماية بالسهام من على صهوات الجياد (يابوسيمي) التي تُقام في أراضي الركوب الخاصة بالقصر، في اليوم الخامس من الشهر الخامس، من قبل حراس ميسرة القصر، وفي السادس منه من قبل حراس ميمنة القصر.

كان بمقدوره من موقعه في الممر أن يرى سرادق ميدان الخيل، على بعد مسافة قصيرة. قال: «ينبغي أن تطل الشابات من خلال أبواب طريق الجسر المفتوحة، فهناك الكثير من الضباط الرائعين في حرس ميسرة القصر هذه الأيام. وهم يعادلون الوصفاء الخصوصيين الأصغر سناً». سعدت النساء لتمكنهن من المتابعة، وأقبلت التابعات الصغيرات من الجناح الغربي للانضمام إليهن. أسدلت ستائر حاجبة خضراء جديدة في مدخل الممر، وتدلت عبرها ستائر على أحدث طراز تضرب إلى اللون القاتم قرابة أسفلها[1]. وراحت التابعات الصغيرات والخادمات يتجولن في أرجاء المكان. وبدون وقد لبسن أردية بلون «قصب الذريرة وملابس حريرية بنفسجية هن اللواتي قدمن من الجناح الغربي، وكانت الخادمات الأربع المدربات على صورة تفعم النفس سروراً يرتدين ملابس مبطنة تميل إلى اللون القاتم عند الأطراف، وسترات صينية في لون وريقات القرنفل، متأنقات بشكل خاص استعداداً للمهرجان الذي يصادف اليوم. أما القادمات من الجناح الشرقي اللواتي ارتدين ملابس أرجوانية من دون تفنن تحت ثياب رسمية قرنفلية، فقد بدون جذابات مع تنافس كل جانب على استقطاب الأنظار. ومضى الوصفاء الخصوصيون الشبان ذوو العيون البراقة يستعرضون أناقتهم هم أيضاً. وفي ساعة الغنم[2] خرج جينجي إلى سرادق ميدان الخيل، ويقيناً أنه وجد معاليهم هناك. وقد استقطبت هذه المسابقة، على العكس من تلك التي أقيمت في القصر، النقباء والملازمين كذلك، وتمتع جينجي بألوان الترفيه الجديدة حتى حلول الظلام. ولم تفهم السيدات إلا القليل مما كان يجري، ولكن حتى الحراس العاديين كانوا قد ارتدو أفضل ملابسهم، وكان مما يجلب البهجة والسرور رؤية عرضهم الجريء لسحر الرماة. أتاح الجانب الجنوبي الشرقي بدوره رؤية واضحة وإن كانت من بعيد لميدان الخيل، وراحت الشابات يتابعن ما يجري من هناك أيضاً. وتواصل أداء رقصات «ضرب الكرة» و«التنينات التوأمان» وكذلك عزف موسيقى النصر إلى أن أصبح الظلام أكثر كثافة من أن يسمح برؤية أي شخص على الإطلاق. وتلقى الحراس هدايا على حسب مراتبهم ولم يغادر الحاضرون إلا بعد أن كان الوقت قد تأخر للغاية.

بقي جينجي لقضاء الليل حيث كان. وقال مندهشاً في غمار حواره مع السيدة هناك:

(1) سوسوجو، قماش مصبوغ بحيث يكون فاتحاً في أعلاه وقاتماً في أسفله.

(2) حوالي الساعة الثانية بعد الظهر.

«يا لمعاليه وزير الحرب من نبيل رائع! إن مظهره ليس متألقاً، ولكن لماحيته وحضوره يجعلانه جذاباً، هل أفلحت في اختلاس نظرة إليه؟ وعلى الرغم من ذلك فإن بوسع المرء القيام بما هو أفضل على الرغم من الإشادة التي يحظى بها».

ردت قائلة: «إنني أعلم أنه أخوك الأصغر، ولكنه يبدو من منظوري أكبر منك سناً. وأحسب أنه يجيء ليكون بصحبتك مخلصاً في هذه المناسبات، ولكنني لم أره منذ النظرة الأخيرة التي اختلستها إليه في القصر، وهو وسيم للغاية ووقور الآن. وبوسع المرء أن يقول إن سمو الأمير النائب يتمتع بدرجة من الوسامة، ولكنه يفتقر إلى الحضور المؤثر ولا يشبه أميراً بالمعنى الصحيح»[1].

حدَّث جينجي نفسه: لا شيء يغيب عنها، أليس كذلك؟ ابتسم وتجنب مناقشة الأمر مع الآخرين الذين كانوا حاضرين. وحيث أنه كان لا يقر أولئك الذين يقللون من شأن الآخرين وينتقدونهم، فقد امتنع عن الحديث عن قائد الميمنة[2]. وعلى الرغم من السمعة الرائعة التي يحظى بها ذلك النبيل، فقد وجد نفسه لسبب ما يحجم عن فكرة إقامة تحالف وثيق معه.

كانت علاقته بها الآن تعوزها الحماس، وكل منهما يرقد في مكان منفصل، وراح يتساءل لماذا فصلت هذه المسافة بينهما، لم يجرح كبرياءها شيء لتنظر إليه شذراً. وحتى الآن كانت قد سمعت من الآخرين عن مثل ألوان الترفيه هذه فحسب، وأسعدها أن ترى مناسبة اليوم النادرة، وهي تضفي البريق على جانبها من الدار أيضاً. قالت في هدوء:

«هل اخترت إذن أن تنتزع، في نهاية المطاف عند حافة الماء،

القصب الذي يعرف الجميع حقاً أن الجواد يأباه؟»[3].

لم تكن تلك القصيدة رائعة من الروائع، لكنه تأثر بها فقال:

---

(1) حرفياً، يشبه أوكيمى طفلاً إمبراطورياً لم يعين أميراً أو أميرة أو حتى يمنح لقباً، وهذه هي المرة الوحيدة التي يرد فيها ذكره في الحكاية.

(2) هيجيكورو.

(3) «قصب الذريرة» (أيامي) المراد هي نفسها. «اخترت» تأتي ترجمة للفعل هيكو الذي يحقق تلاعباً فيما يتعلق بـ«ينتزع» («جذر قصب الذريرة»).

«متى ترك الجواد الذي يتطلع إلى صحبة طائر الغوَّاص المخلص

نفسه ينجذب إلى التخلي عن القصب؟»[1].

من المؤكد أنهما كانا صريحين مع نفسيهما. قال ضاحكاً على الرغم من أن حضورها المسالم أبقى صوته خفيضاً: «يبدو أننا نتباعد أكثر فأكثر، ولكني لا أزال أشعر بالألفة تماماً معك على هذا النحو!». تخلت له عن الفراش الذي تحيط به الستائر، ومضت لترقد وراء ستارة قائمة. ووافق جينجي على أنه سيزعجها الرقاد إلى جواره، ولم يبذل جهداً لدعوتها للقيام بذلك.

كانت الأمطار الممتدة طويلاً هذا العام أسوأ من معظم الأعوام، ولتتجاوز الموسم المطير عمدت السيدات إلى الترفيه عن أنفسهن بالحكايات المصورة، وأعدت السيدة القادمة من أكاشي بعض هذه الحكايات على نحو بالغ الجمال، وبعثت بها إلى ابنتها، وأثار هذا النوع من الترفيه بصورة خاصة اهتمام السيدة الشابة المقيمة في الجناح الغربي، والتي أسلمت نفسها طوال اليوم للقيام بنسخها وقراءتها. وكان لديها العديد من الوصيفات المؤهلات بصورة مناسبة لمتابعة هذا الاهتمام[2]. وبين مجموعتها من الحكايات وجدت ألواناً من السرد، سواء أكانت واقعية، أم من وحي الخيال، للكثير من المصائر غير المألوفة، ولكن ما من مصير، ويا للحسرة، كان يشبه مصيرها. كانت المحن التي واجهتها سوميوشي[3] فريدة بالطبع، وكذلك الحال بالنسبة لشهرتها التي لا تزال ماثلة في العالم الراهن، ومن المؤكد أن إفلاتها من مدقق الحسابات يحمل الكثير من عناصر الشبه بفظائع ذلك المفوض المدقق الذي عانت منه.

عندما وجدها جينجي مفتونة بأعمال كهذه، والتي تناثرت حولها في كل مكان، هتف

---

(1) يريد الجواد (جينجي) أن يكون مثل طائر الغواص (نيودوري) الذي يتزاوج مع الأنثى نفسها طوال عمره، وهو لن يتخلى أبداً عن قصب الذريرة (هانا تشيروساتو). وتتعلق «صراحة» الحوار أدناه بمشاعره الزوجية على نحو جلي، التي لا يخفف منها أي من عدم المباشرة أو نغمة التودد المتحذلق.

(2) من المفترض أنهن نساء بارعات في جمع الحكايات ونسخها أو رسم الصور التي توضح فحوى هذه الحكايات.

(3) عمل كان يعتبر كلاسيكياً بالفعل في زمن المؤلفة، ولم يصل إلينا إلا في صياغة أُعيدت كتابتها يرجع تاريخها على وجه التقريب إلى القرن الثالث عشر.

مندهشـاً: «آه، لا، هـذا لن يجدي أبداً! من الواضح أن النسـاء ولـدن لكي يخدمن من دون احتجـاج. ليسـت هناك كلمة صدق في هـذا كله، كما تعرفين حق المعرفـة، ولكن ها أنت غارقة في الحكايات الخرافية، آخذة إياها على محمل الجد تماماً، وناسـخة إياها من دون تفكير في شـعرك المشـعث في هذا المطر الدافىء الخانق!»، ضحـك لكنه واصل حديثه: «علـى الرغـم من ذلك، فإنـه من دون قصص كهذه عـن الأيام الخوالي كيـف لنا أن نزجي الوقـت فيمـا ليس هناك شـيء آخر نقوم بـه؟ بالإضافة إلـى ذلك فإن من المؤكـد أن هناك وسـط هذه الأكاذيب بعض المشـاهد المؤثرة محتملة الحدوث والتي تروى بشكل مقنع، ونعـم، نحن نعلم أنها وليـدة الخيال، ولكننا على الرغم من ذلك نتأثر وننجذب إلى حد ما من دون سبب حقيقي إلى البطلة الجميلة التي تعاني، وقد لا نصدق ما هو مستحيل تماماً، ولكننـا نظل مندهشـين حيال الأعاجيب المنسـوجة على نحو رائع، وعلـى الرغم من أنها تغدو مضجرة في الاستماع الثاني لها، إلا أن بعضها يظل فاتناً. وأخيراً، عندما جعلت ابنتي الصغيرة إحداهن تقرأ لها، ووقفت هنالك مصغياً لها، مضيت أحدِّث نفسي: أي متحدثين جديين هم أولئك الذين يوجدون في الدنيا؟ وكيف أن هذه القصة بدورها لا بد أنها نبعت من الخيال المرتجل لأحدهم على نحو مفعم بالغواية؟ لكن ربما لم يكن الأمر كذلك».

دفعـت محبرتها بعيداً، وقالت: «نعم، بالطبع، لأسـباب عديدة فـإن من اعتاد على إلقاء الأكاذيب سـيحمل الحكايات، لا شـك، على هذا المحمل، ولكنه يبدو من المستحيل لي أنها ينبغي أن تكون أي شيء بخلاف الحقيقة».

ضحك وقال: «كنت فظاً للغاية في الحديث على هذا النحو السيء عن الحكايات! فهي تسـجل ما جرى منذ عصر الآلهة. إن كتاب تاريخ اليابان[1] وما شـابهه لا يقدم إلا جزءاً من القصـة، والحكايات هي التي تتضمن التفاصيل حقاً! وليس الأمر راجعاً إلى أن الحكايات تصف بدقة أي شـخص بعينه، وإنما بالأحرى يبدأ السـرد عندما تنتقل كل تلك الأمور التي يتوق الراوية إلى احتيازها إلى أجيال المستقبل، أياً كان ما هنالك حول الطريقة التي يعيش بهـا النـاس حياتهم، وسـواء كان ذلـك باتجاه الأفضل أم الأسـوأ، فذلك مشـهد جدير بأن

(1) نيهونجي، تاريخ رسمي لليابان، تم تأليفه باللغة الصينية وإكماله في عام 720 مع صورة للكاميو، عصر الآلهة الذي سبق عصر البشر بمعناه الواسع.

يُـرى، أو أعجوبة جديدة بالاسـتماع إليها، وكل ذلك يتدفق من فؤاد الراوية. ولكي يسـلط المرء ضوءاً جيداً على أحدهم، فإنه لا يبرز إلا الخير فحسـب، ولإرضاء أناس آخرين فإن المرء يحبذ الأشـرار بصورة غريبة، ولكن ما من شـيء من هذا سواء أكان خيراً أم شراً، يعد بعيـداً عن الحياة كما نعرفها، والحكايـات لا تروى بالطريقة ذاتها في المملكة الأخرى[1]، وحتـى في بلادنا فإن الطرق القديمة والحديثة ليسـت بالطبع سـواء، ولكن على الرغم من أن المـرء قـد يميز بيـن العميق والسـطحي، فإنه من الخطـأ دائماً تنحية ما يجـده المرء في الحكايـات جانبـاً باعتباره زائفاً. وهنـاك حديث عن «الوسـائل المناسـبة»[2]، وكذلك في التعاليم التي تركها لنا بوذا والكثير من الفقرات في الكتب المقدسة، يحتمل أنها كلها تبدو غير متسـاوقة، وباعتبارها كذلك تثير الشـكوك فـي أذهان من يفتقرون إلـى الفهم، ولكنها لهـا في النهاية رسـالة واحدة، والثغرة الممتدة بين الاسـتنارة والعواطـف[3] هي، في نهاية المطاف، ليست أوسع من الثغرة التي تفصل في الحكايات بين الأخيار والأشرار. وللتعبير عـن الأمر بصورة جميلة فليس هناك شـيء لا يتمتع بقيمته الخاصة». لقد طرح دفاعاً رائعاً للغاية عن الحكايات.

دنـا منهـا، وقال: «لكن هل يتحـدَّث أي من هذه الحكايات القديمـة عن أحمق متلهف مثلي؟ لا، ما من بطلة جامحة قاسية في أي منها تتظاهر بأنها لا تلاحظ شيئاً، بصورة متجردة من العاطفة، كما تفعلين. هلمي دعينا نجعل قصتنا لا مثيل لها ونمنحها للدنيا بأسرها!».

حجبـت وجههـا، وقالت: «حتى إن لم نفعل ذلك، فإنني أشـك في أن قصة غريبة كهذه يمكن أن تتحول إلى موضع ثرثرة الجميع».

«غريبة؟ أهي كذلك بالنسبة لك؟ لا، لا يمكن أن يكون هناك أحد مثلك!

(1) الصين. أصل هذه الجملة بكاملها محير ومشكوك فيه، وهو يختلف بصورة واسعة النطاق على نحو خاص في المخطوطات المختلفة.

(2) هوبين، طريقة يتبناها مخلوق مستنير لكي يمضي بمخلوق غير مؤهل لقبول إرشاد أكثر مباشرة إلى الاستنارة. وهذا الاصطلاح قد يغطي مايمكن وصفه بمصطلحات تقليدية بأنه كذبة. وهذه القضية يتم معالجتها مطولاً في سوترا اللوتس.

(3) يتمثل لغز من ألغاز البوذية المهايانية اليابانية في أن «العواطف هي استنارة» حيث أن العواطف ترجع إلى الرغبة والغرائز التي هي على وجه الدقة تشكل أبعد ما يكون عن الاستنارة على نحو ما يجري تصورها بصورة سائدة.

على الرغم من أن الإفراط في الرعاية يدفعني للسعي بعيداً وراء قصص عتيقة وجامحة كقصتنا،
فإنني لا أجد قصة عن طفلة تعاند والدها هكذا!.

حتى تعاليم بوذا فيها الكثير عن أولئك الذين يسيؤون إلى ورع الأبناء».

عندما لم تتطلع إليه، مسَّد شعرها، فاستبد بها الضيق إلى حد أنها ردت أخيراً.

«نعم، ابحث ما طاب لك في قصص الماضي، فلن تجد
في الدنيا بأسرها أباً له مشاعر تحاكي مشاعرك!».

غمره ردها بالخجل، فلم يسمح لنفسه بالمزيد، على الرغم من ذلك، وهي على نحو ما هي عليه، ما الذي سيؤول إليه مصيرها؟

تعللت السيدة مورا ساكي[1] بدورها برغبات سيدتها الصغيرة، ووجدت أن من المتعذر أن تنحي حكاياتها. قالت، وهي تفحص حكاية من حكايات كومانو[2]: «يا لها من صورة بديعة الإنجاز!». ذكرتها الطفلة الصغيرة التي رقدت في قيلولتها هنالك بصورة بديعة للغاية بنفسها في تلك الأيام الخوالي.

أشار جينجي[3]: «ما أكثر معرفتهما! حتى مثل هذين الطفلين الصغيرين! لقد كنت أنا نفسي وئيداً على نحو مستحيل للغاية» كان ينبغي أن أشتهر بذلك!. شهير، نعم، من المؤكد أنه كان يتعين أن يكون شهيراً، نظراً لمجموعته النادرة من المغامرات التي خلع فيها كل عذار.

قال: «لطفاً لا تُقرأ حكايات سيدتنا الصغيرة الشقية بهذه الطريقة! ليس مرد الأمر إلى أن بطلة غارقة في الحب سراً يحتمل أن تجتذب اهتمامها، ولكنها لا ينبغي أن تصل إلى اعتبار أن من المسلم به أن أموراً كتلك تحدث حقاً». كان حرياً بالسيدة المقيمة في الجناح الغربي أن يستبد بها الحنق لسماعه يتحدَّث هكذا.

---

(1) هذا هو أول ورود للقب «مورا ساكي نو يوئي»، الذي سيترجم على نحو ما هو وارد في المتن حيثما ورد ذكره.
(2) عمل مفقود الآن.
(3) يبدو أنه يمازح، مشيراً إلى أنه على العكس من الأطفال (يفترض أنهما طفل وطفلة)، في الصورة، فإنه طفل كئيب، بطيء لا تعني الاهتمامات الرومانسية شيئاً بالنسبة له.

ردت قائلة: «من المؤلم رؤية أي أحد يقلد بلا عقل هذا النوع من الأمور. لكن تأمل السيدة فوجيوارا الشابة في (الشجرة الجوفاء) فهي جادة ورصينة ولا تنحرف قط عن سواء السبيل لكن حديثها وسلوكها الصارمين هما أبعد ما يكونان عما ينبغي أن تكون عليه السيدة بحيث أنها لا تنحرف عن الجادة». «ذلك يمكن أن يحدث في الحياة الواقعية كذلك، فالناس يصرون على المضي قدماً في طريقهم، ويفقدون كل إحساس بما هو مناسب.

عندما يكون الأبوان المحترمان تماماً لابنة قد ربياها ليصلا بها إلى ما لا يفوق البراءة الطفولية، ولا يكون لديها ما تقدمه خلاف ذلك، فإن المرء يتساءل، لسوء الحظ، عما يمكن أن تكون عليه فكرتهما عن التربية، ولكن عندما يتضح أن الفتاة هي بالضبط ما ينبغي أن تكون عليه، فإن الجهد الذي بُذل يكون جديراً بعناء بذله ويستحق أبواها عندئذ كل تقدير. والأمر مخيب للآمال للغاية عندما لا يكون هناك في كلمات فتاة أو أعمالها ما يوحي بأنها تستحق الإشادة المسرفة بها التي تحصل عليها[1]. ولا بد للمرء من أن يتدبر أن لا يسمح لأناس مضجرين بالإشادة بفتاة ما». كان اهتمامه الوحيد هو ألا يجد أحداً ما يعيب ابنته. وقد أراد أن يتجنب وضع أفكار في ذهنها عن زوجات الآباء الشريرات، لأن الحكايات القديمة مليئة بهذه الأفكار، ولذا كان دقيقاً في اختيار الحكايات التي نسخها وقام بإعداد رسومها لها.

حرص على بقاء النقيب بعيداً عن مقر إقامته، ولكن لم يحظر عليه ارتياد مقر ابنته بالدرجة نفسها من الصرامة، وفي حقيقة الأمر أنه شجعه على القيام بزيارتها[2]، وقد حدَّث نفسه قائلاً: الأمر لا أهمية له طالما هو على قيد الحياة، ولكن تقارباً بين هذين الاثنين قد يحدث فارقاً كبيراً عندما أرحل، ولهذا السبب سمح له بالوصول إلى داخل ستائرها الحاجبة الجنوبية[3]، وذلك على الرغم من أنه حظر عليه الوصول إلى غرفة الوصيفات[4].

---

(1) في المقام الأول من المربيات والوصيفات.

(2) الدار الرئيسية في الجانب الجنوبي الشرقي من روكوجو، الذي تسكنه مورا ساكي، مقسمة بين الجزء الذي تشارك السكنى فيه مع جينجي والجزء الذي تشغله ابنته.

(3) إلى حجرة الجناح، ولكن ليس إيغالاً في الوصول إلى الغرفة.

(4) دايباندوكورو، على الجانب الشمالي من الدار، وتستخدمها أيضاً نسوة مورا ساكي. إنه يحرص على التيقن من أن يوجيري لا يمكنه الوصول إلى مورا ساكي عن طريق إحدى النسوة التابعات لها.

ولمـا كان لديه عدد محدود من الأبناء، فقد كان بوسـعه إبداء اهتمام عن كثب به. وقد كان الشـاب، على وجه العموم، وقـوراً وجاداً تماماً، وأحس جينجـي بالأمان في غمار إعطائه هذا القدر من حرية الحركة.

وعندما رأى الشاب كيف أن الفتاة الصغيرة كانت مشغولة على نحو بريء بدُماها، تذكر كل الشـهور والأعوام التـي أمضاها يلعب بها مع محبوبته[1]، ومـن ثم قدَّم خدمة جلى في قصـر الدمـى[2]، وفي بعض الأحيان سـفح دمعة كذلـك. وقد أبقى على مراسـلة عابرة مع عـدد كبير من السـيدات، طالما أنه ليس فيهن ما يثبطـه عن القيام بذلك، ولكنه كان حريصاً على ألا يشـجع آمالاً كاذبة، وعندما كان يسـتلطف إحداهن بما يكفي لخطب ودها بصورة جادة، فإنه كان يجعل من الأمر نكتة بالنسـبة لنفسـه، حيث أن كل ما اسـتغرقه كان لا يزال متمثـلاً في الرغبة في أنه لم يكن قد ارتـدى هذين الكمين الأزرقين الفاتحين أبداً[3]. وكان يسـاوره الشـك في أن معاليه ربما كان قد استسـلم ومنحه إذنه لو أنه كان قد أصر في عناد فحسب بما يكفي، ولكنه عندما كان يفكِّر في الظلم الذي لحق به، كان يجد أن ليس بوسعه التخلص من رغبته في أن يقر معذبه بالأمر ويعترف به، وكانت الوحيدة التي أبدى اهتمامه المخلص لها، حريصاً على التماسـك الظاهري في غضون ذلك، هي تلك السـيدة المعنية ذاتهـا. وغالباً ما كان إخوتها يشـعرون بالضجر منـه[4]، وكان نقيب الميمنـة[5] واقعاً بعمق تحت تأثير السيدة المقيمة في الجناح الغربي، ولكنه بما أن وصوله إليها كان متعذراً تماماً، فقد عمد بدلاً من ذلك إلى مناشدة ابن جينجي، الذي رد ببرود بأن هذا النوع من الانشغال بشـخص آخر لا يبدو بالنسـبة له أكثـر من حماقة. وقد شـابهت العلاقة بيـن هذين الاثنين العلاقة القديمة بين أبويهما.

وقـد ربـى معالـي وزيـر شـؤون القصـر الـذي أنجـب العديد مـن الأبنـاء مـن أمهات

(1) كوموي نو كاري.

(2) تعبير مناسب بصفة خاصة لضابط في حرس القصر.

(3) لون المرتبة السادسة، التي بدأ عندها حياته العملية وهو يحتل الآن المرتبة الرابعة.

(4) إنهم يفترضون أنه لا يتودد إلى كوموي نو كاري بصورة أكثر نشاطاً لأنه يعتقد أنها ليست جيدة بما فيه الكفاية بحيث تناسبه (مراسلته لها سر محتجب عن العيان).

(5) كاشيواجي، نجل تو نو تشوجو.

مختلفات[1] - ربى هؤلاء الأبناء جميعاً ليصل بهم إلى الثروة والنجاح اللذين يشجعهم طبعهم ووضعه[2] على الرغبة فيهما، ولما كان قد أنجب عدداً محدوداً من البنات، فقد تأسف كثيراً على عجز زوجة الإمبراطور عن تحقيق الآمال التي علقها عليها وعلى الحظ العاثر الذي أثر الآن على ابنته الأخرى[3]، كما أنه لم ينس قرنفلته الصغيرة[4]، وبعد أن أتيح له ذات مرة الحديث عنها[5]، فقد واصل التساؤل عما يمكن أن يكون قد آل إليه مصيرها. أي هول يكمن في التفكير في أن ابنتي الصغيرة قد وقعت في حبائل مخاوف أمها غير المبررة واختفت! لا، عندما يتعلق الأمر بالبنات، فليس بمقدورك أبداً تركهن يبتعدن عن ناظريك. ربما تكون ممن يعشن في مباءة ولا تزال تدعو نفسها ابنتي! خلص إلى قرار نهائي: حسناً، لا تكترث بأي حال تكون فيها أي فتاة تقدم نفسها على أنها ابنتي! كان يقول ذلك دوماً لأبنائه: «إذا ظهرت أي شابة، وهي تصف نفسها بأنها ابنتي، فاستمعوا إليها! فقد كانت هذه ثمرة أحد الأمور المفجعة التي قمت بها لمجرد الترفيه عن النفس، لقد انزعجت امرأة عنت بالنسبة لي أكثر من أي إنسانة أخرى، لهذا السبب أو ذاك، وفجأة فإنني أنا الذي أنجبت عدداً محدوداً من البنات فقدت إحداهن! أتمنى لو أن ذلك لم يحدث قط!». وكان أخيراً قد مال إلى نسيان أمرها، ولكن في ضوء اهتمام الآخرين في سعادة بناتهم، فقد مضى ينوح في مرارة على انهيار آماله.

تراءى له حلم، واستدعى خبيراً في مثل هذه الأمور لتفسير معناه. فتساءل الرجل: «مولاي، هل يمكن أن تكون قد سمعت عمن انحدرت من صلبك وفقدتها قبل سنوات والتي أصبحت الآن ابنة رجل آخر؟».

حدَّث نفسه: لكن الناس نادراً ما يتبنون بنتاً. ما الذي يمكن أن يعنيه هذا؟ كان هذا عندما بدأ في التفكير في الأمر من جديد والحديث عنه.

---

(1) بقدر ما يستطيع المرء أن يحدد، فإن هؤلاء الأبناء هم عشرة أبناء وأربع بنات.

(2) على نحو ما تحسمه في المقام الأول مكانة أمهاتهم.

(3) تورط كوموي نو كاري مع يوجيري.

(4) ابنة يوجاو.

(5) خلال حوار «الليلة المطيرة» في «شجرة الوزَّال».

26

توكوناتسو

القرنفلة

توكوناتسو (المنشور) هي نفسها زهرة ناديشكو (القرنفلة). وبسبب الصورة التي رسمها تو نو تشوجو عن يوجاو وابنتها في «شجرة الوزَّال» فإن ناديشكو تشير بصفة خاصة إلى تاماكازورا، وتشير توكاوناتسو إلى يوجاو، (السبب يتم إيضاحه في مادة «المنشور» في الثبت الملحق بهذا الكتاب)، وهذا ليس واضحاً على الدوام في «القرنفلة» ولكنه جلي في قصيدة جينجي، التي منحت هذا الفصل عنوانه:

«لو استطاع أن يرى كل جمال القرنفلة الصغيرة الساحرة،

لتمنى أن يعرف كذلك المزيد عن زهرة المنثور»

الصلة بالفصول السابقة

يأتي «القرنفلة» عقب «الحباحب» مباشرة، ويغطي الشهر السادس.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 عاماً.

ابنة النقيب، 15 عاماً (يوجيري).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

الملازم المراقب، ابنه الثاني (كوباي).

نقيب الميمنة، ابنه الأكبر، 20 إلى 21 عاماً (كاشيواجي).

المستشار فوجيوارا، ابنه الثالث.

السيدة الشابة في الجناح الغربي، ابنته، 22 عاماً (تاماكازورا).

ابنته، 17 عاماً (كوموي نو كاري).

ابنته الكبرى، زوجة الإمبراطور، 19 عاماً (كوكيدن نو نايوجو).

جوسيتشي، وصيفة مرتبطة بأومي نو كيمي.

تشوناجون، وصيفة الزوجة كوكدين.

ابنة تونو تشوجو المكتشفة حديثاً (أومي نو كيمي).

مضى جينجي في يوم قائظ، للاستمتاع ببرودة سرادق صيد السمك الشرقي، وكان معه ابنه النقيب، وقام على خدمته المقربون من الوصفاء الخصوصيين كذلك، فأعدوا له ألواناً من الطعام الشهي، مثل السلمون المرقط، الذي أرسل من النهر الغربي، وأسماك البلهد من النهر القريب[1]. ووصل أبناء معاليه وزير شؤون القصر كالمعتاد ساعين إلى صحبة النقيب. قال جينجي: «كنت ضجراً ويغالبني النعاس، وها قد جئتم في الوقت المناسب!». احتسوا جميعاً بعض الخمر، وطلبوا الماء المثلج لإعداد الأرز البارد[2]، الذي عكفوا بعدئذٍ على التهامه، محدثين ضجة صاخبة.

كان هناك نسيم عليل، ولكن عندما شرعت الشمس تغوص باتجاه سماء براقة خالية من السحب، غدا صوت زيزان الحصاد مزعجاً تماماً. تمطى جينجي، وهو يقول: «يحسن المرء صنيعاً في هذا الحر بأن يكون على سطح الماء! أرجو أن تعذروني! الموسيقى ليست بالشيء الطريف للغاية في طقس كهذا، ولكن المرء يتساءل بأي طريقة أخرى يجتاز اليوم. لا بد من أن الأمر لا يُطاق تقريباً بالنسبة لكم، أنتم معشر الشباب، عندما تكونون في نوبة خدمة، حيث لا يمكنكم حتى تخفيف إحكام أحزمتكم! فعليكم إذاً على الأقل بنيل قسط من الراحة هنا، وإذا كانت لديكم أي قصص جيدة عما يجري أخيراً، قصص قد توقظني قليلاً، فإنني أرغب في سماعها! فأنا بعيد للغاية عن الاتصال بما يجري إلى حد أنني أحس بأني أوغل في العمر كثيراً».

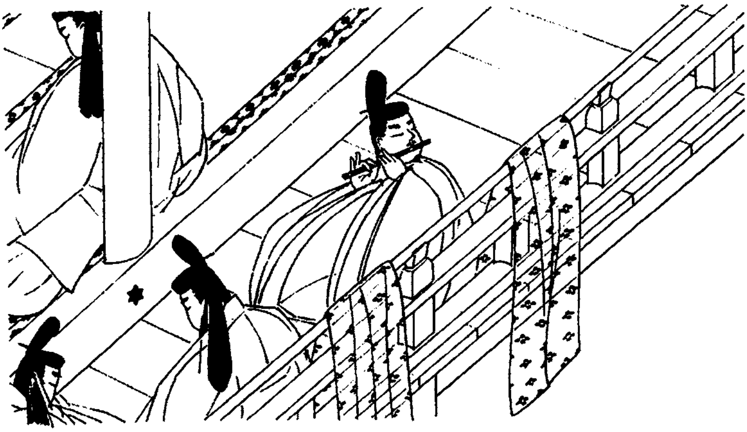
أحسوا بالخجل لأن ليس لديهم ما يروونه، فجلسوا مسندين ظهورهم إلى الحاجز البارد.

«أبلغني أحدهم، نسيت من هو، بأن معاليه قد عثر على ابنة من أم خارج العاصمة وهو يقوم الآن على رعايتها، فهل ذلك صحيح؟». كان سؤال جينجي موجهاً إلى الملازم المراقب. «مولاي، ليس هناك حقاً ما هو غريب للغاية في هذا الأمر. فقد تحدَّث معاليه، في هذا الربيع، عن حلم تراءى له، وأقبلت امرأة من بعيد سمعت بالأمر لتزعم أن لديها

(1) تُصاد الأسماك الحلوة (أيو) التي لا تزال تعتبر من الأطعمة الشهية المترفة، من نهر كاتسورا، وتُصاد أسماك البلهد (إيتشيبوسى، والتي تسمى في اليابانية الحديثة كاجيكا) من نهر كامو.

(2) هيميزو (ماء مبرد مع أرز يحفظ طوال الصيف في دار للثلج [هيمورو]، لإعداد السويهان (الأرز المغلي المبرد في الماء البارد).

شيئاً تريد أن تقوله حول هذا الموضوع. وعندما نما هذا إلى علم النقيب[1]، استفسر عن جلية الأمر، وما إذا كان لديها أي دليل على صحة ما تقوله. وأنا نفسي لست أدري ماذا كانت زبدة الموضوع. على الرغم من ذلك فإنكم محقون، بما أن الناس أثاروا ضجة كبرى حول هذا الأمر. وهذه النوعية من الأمور لا تخدم أبي ولا عائلته أيضاً، بالطبع».



شرفة وسياج

أقرَّ جينجي ذلك. «إن لديه العديد من الإوزات بالفعل في الجناح معه. ومن قبيل الشره من جانبه أن يصر على البحث عن إوزة ربما ضلت السبيل. ولديَّ عدد قليل للغاية إلى حد أنني أحب أن أصادف واحدة على تلك الشاكلة، ولكني لم أسمع عن أي منهن لا يرين أن هناك معنى للإعلان عن أنفسهن. وعلى أي حال، فلا بد أن لها صلة من نوع ما به. فقد اعتاد أن ينطلق منشغلاً هنا وهناك، فلا عجب أن القمر الذي يغوص عميقاً في الماء الكدر لا يخلو تماماً مما يشوبه»[2]. ابتسم جينجي، ولم يستطع ابنه النقيب[3]، الذي كان يعرف القصة بكاملها الاحتفاظ بجمود ملامحه. وأحس الملازم والمستشار فوجيوارا بالضيق الشديد.

داعب جينجي ابنه: «ربما نلتقط تلك الورقة التي سقطت من الشجرة. وبدلاً من ترك

(1) كاشيواجي، الأخ الأكبر للمتحدث.

(2) على الرغم من أنه هو نفسه نبيل، إلا أنه لا عجب أن طفلاً له، ولد لأم متواضعة، هو أدنى شأناً إلى حد ما.

(3) يوجيري.

اسـم ملتبـس، لماذا لا تجمله في نهايـة المطاف بالحلية ذاتها؟»[1]. حـول هذه النوعية من الأمور كان جينجي وصديقه، على الرغم من علاقتهما الودية بصورة سطحية، على خلاف أحدهمـا مـع الآخر منذ وقـت طويل. وفي هـذه الحالة علـى وجه الخصوص لم يسـتطع جينجي تقبل الطريقة التي أسـاء بها معاليه إلى النقيب وأضر به، ولـم يكترث على الإطلاق بما إذا كان معاليه قد اكتشف مدى استيائه.

جعـل هـذا الخبر جينجي يفكِّر في أنه أياً كان الوقت الذي يطلع فيه معاليه على السـيدة الشابة المقيمة في الجناح الغربي، فإنه سيتم استقبالها بلا شك بطريقة لائقة. وحدَّث نفسه بأن أباها سـيد مهذب بالمعنى الكامل للكلمة، ويمكن أن يقال الكثير في معرض الإشـادة به، وهو نبيل يميز بشدة بين ما يقره وما لا يوافق عليه، ويواجه الإشادة أو الإساءة بما يتفق معهـا، وهو لـن يزدريها، إن قدمتها له فجأة وبدون مقدمات، مهما كان الضيق الذي يشـعر به، وسوف يعاملها بأعظم قدر من التقدير.

أصبح النسـيم بارداً مع إقبال المسـاء، ولـم يرغب الشـباب في الانصراف. «ربما يتعين أن أمضي للاسـتمتاع بالنسيم البارد على نحو ما يريحني، فقد أصبحت الآن أكبر سناً قليلاً بالنسـبة لمثل هـذه الرفقة!». عاد جينجي إلى الجناح الغربي، ومضى كل الوصفاء الشـبان معـه. وكان مـن الصعب تبين أحدهـم من الآخر في الغسـق لأن عباءاتهم الرسـمية كانت جميعها من اللون ذاته[2]، ولذا طلب من السـيدة الشـابة أن تتقدم قليلاً، وهمس لها لكي لا يسـمعه غيرها: «لقد أحضرت الملازم والمستشـار، وقد بدا أنهما شغوفان بالحضور. وقد كان من عدم رجاحة العقل من جانب ذلك النقيب الجهم ألا يحضرهما بنفسه. وأتوقع أن يكون لكل منهما آماله. ومن المحتم أن أكثر النسـاء عادية سـتجتذب من الانتباه ما يشـجع عليـه وضعهـا، طالما أنها تظل محمية في بيتها، وكلمـا قل ما يقوم به بيتي لتغذية الأقاويل، زاد ما يبدو أن الناس يحملونه من أفكار عظيمة عنه. وهناك العديد من السيدات هنا، ولكن لا مجـال لأن يتـودد إليهن أحـد. وعلى الرغم من ذلـك فإنك الآن وقـد أصبحت هنا فقد

(1) «ربما تأخذها أنت نفسك. وبدلاً من ترك نفسك يسيء إليك رفض تو نو تشوجو تركك تتزوج كوموى نو كاري، لم لا تتزوج أختها؟».

(2) إنهم جميعاً يرتدون عباءات رسمية (فوتاى) بنفسجية، وهذا اللون يندمج بسهولة مع الغسق، ويبدو يوجيري (النقيب الجهم أدناه) مع ابني تو نو تشوجو.

حسبت أن بمقدوري أن أزجي الوقت في سبر غور اهتمامهم، ويبدو أنني أفلح حالياً في هذا».

لم يكن قد غرس حديقة مترامية أمام جناحها، لأن أزهار قرنفلها الصينية واليابانية ازدهرت بألوان متناغمة، ناسجة طريقها على نحو جذاب من خلال السور الخفيض، ومستقطبة ألق الضوء الأخير في النهار في وفرتها[1]، ومضى الوصفاء الشبان إليها، وتوقفوا، شاعرين بخيبة الأمل لعدم قدرتهم على أن يقطفوا منهم بقدر ما يحبون.

واصل جينجي حديثه: «ها هما شابان مثقفان، وكل منهما متأنق بصورة مبهجة للغاية. ونقيب الميمنة[2] أكثر هدوءاً بقليل وأكثر وقاراً من أي منهما. هل يكتب لك بالفعل؟ أتساءل عن ذلك. احرصي على ألا تحرجيه برفضه!».

برز جمال ابنه ورشاقته في مثل هذه الرفقة الرائعة، قال جينجي: «ليس بمقدوري فهم ما يكرهه معاليه فيه، ربما كان رجل من أصل إمبراطوري لا يستحق الالتفات إليه وسط البهاء الأصيل الذي يحيط به»[3].

«على الرغم من ذلك فقد قال أحدهم: (مولاي، لئن جئت)»[4].

«رويدك، رويدك، إنني لم أطلب أي مأدبة ترحيب كبرى[5]، لكنهما كانا مولعين أحدهما بالآخر منذ كانا طفلين، وأنا أرفض الطريقة التي واصل بها فصلهما أحدهما عن الآخر. إذا كان يحس بأن النقيب لا يزال في مرتبة متواضعة وأصغر سناً من أن يوضع موضع الاعتبار، فإنني أتساءل هل يمكن أن يعني ذلك أن شيئاً مزعجاً قد حدث، وأنه بدلاً من معالجته ترك الأمر برمته لي». تنهد عقب قوله هذا.

---

(1) تشير أزهار القرنفل إلى تاما كازورا.

(2) كاشيواجي.

(3) تو نو تشوجو هو ابن أميرة، وهي أيضاً جدة يوجيري من جانب أمه. غير أن انحدار يوجيري من أصول إمبراطورية من جهة أبيه ينبغي أن يرفعه فوق تو نو تشوجو.

(4) «لسوف يتم الترحيب به إذا تقدم من تلقاء نفسه للمضي قدماً بخطبته». تاما كازورا تلمح إلى (بدلاً من أن تقتطف من) أغنية سايبارا:« في داري، تنسدل الستائر جميعها، هلم، يا مولاي، هلم، ستكون ابنتي من نصيبك..» وقد دفعها إلى ذلك استخدام جينجي للفظ أوكيمي (شخص من سلالة إمبراطورية) وهو ما تشير إليه لفظة «مولاي» الواردة في الأغنية العتيقة.

(5) الأغنية تتواصل «ما الذي سيناسب المأدبة؟ هل سيناسب أذن البحر وسمك التربو وقنفد البحر؟».

حدَّثت نفسها: إذن فهما ليسا على وفاق حقاً. جعلتها فكرة أن العلم بأمرها قد لا يصل إلى أبيها في نهاية المطاف تحس بالبؤس.

أُنيرت المصابيح بما أن القمر لا ينير في مثل هذا الوقت من الشهر. قال: «يشير وجودها على ذلك القرب الشعور بالحر، سيكون المشعل أجمل». استدعى أحدهم ليأمره: «أريد مشعلاً، هنا على وجه الدقة».

كانت هناك آلة واجون موسيقية جميلة بقربه، فقربها منه ولمس أوتارها، فوجدها مدوزنة على العزف بأسلوب رايتشي، وكان نغمها جميلاً أيضاً، وعزف عليه قليلاً. «طوال هذا الوقت، فكرت فيك على مستوى أقل مما اعتدت، لأنني افترضت أنك لا اهتمام لك بهذا النوع من الأمور! هذه الآلة صوتها عذب رقيق، عندما يكون سنا القمر جميلاً في ليلة خريفية، وأنت جالسة غير بعيد عن الشرفة لتعزفي عليها، فيما زيزان الحصاد تصدر أصواتها، ربما تفتقر هذه الآلة إلى الشخصية في إطار الغرفة الموسيقية الكاملة، ولكنها من ناحية أخرى تتمتع بالخاصية الرائعة المتمثلة في نقل الإحساس بتأثير الخشب والإيقاع من كل الآلات الموسيقية الأخرى. وما ينحيه الناس جانباً على أنه مجرد (كوتو يابانية) هي بالفعل آلة مصنوعة على نحو بارع للغاية، وهي تضم أسراراً عميقة، ولكنني أشك في أن من اليسير العزف عليها بشكل جيد على نحو أصيل. وفي اللحظة الراهنة فإنه ما من أحد يوضع موضع المقارنة في براعة العزف عليها مع معالي وزير شؤون البلاط، فالمرء يستمع إلى صوت كل آلة موسيقية في أدنى تلاعب له بالأوتار[1]، ومن هنا تنبعث أروع الموسيقى.

فهمته جيداً بما فيه الكفاية، وأرادت بشدة أن تعزف بصورة جميلة، بحيث تاقت إلى سماع المزيد من الموسيقى. بدت متلهفة وتواقة تماماً وهي تقول: «هل لي في الاستماع بدوري عندما تكون هذه النوعية من الفرق الموسيقية هنا؟ يبدو أن الكثير للغاية من الناس، حتى الريفيين من سكان الجبال، يتعلمون عزفها، وقد افترضت دوماً أن ذلك أمر سهل. وعلى الرغم من ذلك فإنني أحسب أن الشخص الجيد حقاً لا بد من أن يكون مختلفاً أشد الاختلاف».

---

(1) سوجاجاكي، فيما يبدو اسم أسلوب فني محدد.

«نعم، لقد درج الناس على الربط بين الآلة الموسيقية والشرق[1]، ولكنها الآلة الأولى التي طُلبت من المكتبة حتى من أجل موسيقى تعزف في حضرة جلالته. ولا يمكنني الجزم فيما يتعلق بالصين، بالطبع، لكن هذه الآلة تعتبر هي الأب الذي انحدرت منه كل الآلات الموسيقية. وأنا على يقين من أنك ستتقنين العزف عليها إلى أبعد الحدود، إذا تعلمت العزف على الوجه الصحيح من أبيك، وربما سيأتي إلى هنا لدى حلول مناسبة تدعو لذلك، ولكنني أشك في أنه يحتمل أن يعرض كل مهارته في العزف، ذلك أن أفضل ممارسي أي فن يترددون في القيام بذلك. ومع ذلك فإنني أتوقع أن يكون بمقدورك الاستماع إلى عزفه في نهاية المطاف».

عزف قليلاً، وكان عزفه جميلاً بصورة مطلقة وحديثاً في أسلوبه على نحو بهيج، ولم يكن بمقدورها أن تتبين كيف يمكن لأي عزف أن يكون أفضل من عزفه، وازداد حنينها إلى سماع عزف أبيها نفسه. وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يكن بمقدورها إلا أن تتساءل عن الوقت الذي يمكن لها الاستماع إلى عزفه على مهل.

غنى جينجي على نحو بالغ الجمال: «لدنة، فيما وراء أمواج نهر نيوكي المتواثبة، ذراعها المتوسدة..» ابتسم قليلاً عندما وصل إلى العاشق الذي أبعده أبواها[2]. وكانت نغمة ذات السن[3] العفوية التي عزفها آنذاك ساحرة للغاية.

«هلمي، اعزفي أنت! ينبغي على العازف ألا يحس بالحرج البالغ أبداً. حسناً، لقد سمعت أن أحدهم احتفظ لنفسه بمقطوعة (أحبه كثيراً)[4]، ولكن من الأفضل كثيراً العزف بجرأة مع من تستطيعين العزف معه». غير أنها قد تعلمت العزف في مقاطعتها النائية فحسب من عجوز ادعت أن لها صلة غامضة بالمدينة، وبالبيت الإمبراطوري، وعلى الرغم من

---

(1) كانت آلة الواجون الموسيقية تُدعى كذلك أزوماجوتو (كوتو الشرق) وكان الشرق (سهل كانتو على وجه الدقة) منطقة برية يسكنها قوم يتسمون بالفظاظة.

(2) غنى جينجي لآخر مرة أغنية السايبارا هذه (نهر نوكى) في فصل «تحت براعم الكرز» عندما رفضت أوي الترحيب به. وهي شكوى عاشق يمنعه والد فتاته من رؤيتها، وفي هذه المرة يعزي جينجي نفسه عن عدم تمكنه من مضاجعة تاما كازورا. وهو يبتسم لأنه هو الوالد الذي لن يسمح للعاشق (نفسه) بالقيام بذلك.

(3) «ذات السن» مجرد تخمين بالنسبة للسوجاجاكى الذي تمت مناقشته أعلاه.

(4) سوفورين، مقطوعة جاجاكو «صينية». لم يبق للطرفة المعنية وجود.

إصراره، فقد كانت أكثر خوفاً من ارتكاب الأخطاء من أن تمس الآلة الموسيقية.

حدَّثت نفسها قائلة: أتمنى لو يعزف أكثر قليلاً، فقد التقط النغمة في نهاية المطاف. وكانت متلهفة لذلك بما يكفي هذه المرة فحسب لكي تنسل مقتربة منه أكثر. قالت وقد مالت رأسها جانباً، وبدا ساحراً في ضوء المصباح، أي ريح أن تهب إذن لتجعل الموسيقى تبدو بكل هذا الجمال؟»[1].

ابتسم جينجي، وقال: «لديك أذنان مرهفتان في نهاية المطاف، وبالنسبة لي فإن رياح الخريف تهب على نحو قاطع أكثر من أي وقت مضى»[2]. نحّى الآلة الموسيقية جانباً فاستبد بها الضيق التام.

لم يستطع ممازحتها كالمعتاد، لأن وصيفاتها كن يقمن على خدمتها عن كثب. قال: «لقد انصرف هؤلاء الوصفاء الشبان، ولم يكتفوا أبداً من زهور القرنفل. نعم، أود أن يرى معالي وزير شؤون القصر حديقة الزهور هذه أيضاً، والمرء لا يعلم متى يكون الوقت قد تأخر أكثر مما ينبغي. وقد تحدَّث عنك ذات مرة، قبل وقت طويل، وكان يبدو ذلك قد حدث الآن تواً، فأنا أذكره تماماً». جعلها الإتيان على ذكره تتأثر على نحو عميق.

«لو استطاع أن يرى كل جمال القرنفلة الصغيرة الساحرة،

لتمنى أن يعرف كذلك المزيد عن زهرة المنثور

وهذا هو السر في أنني أبقيت مثل هذه الشرنقة حولك، وهو الأمر الذي أشعر بالأسف عليه كثيراً».

انخرط في البكاء.

«من الذي سيود معرفة أين ضربت القرنفلة الصغيرة جذورها أولاً

فيما جاءت إلى الدنيا في سور ريفي في جبل؟» .

(1) غالباً ما يتم الربط بين زفيف الريح وأصوات الأوتار في الشعر، كما في شويشو 451 من نظم سايجو نو نايوجو: «يختلط صوت أشجار الصنوبر على الريح الجبلية مع موسيقى الكين، ولهذا الحفل أي منهما دوزن على الآخر؟».

(2) «إنك تسمع الموسيقى بصورة كاملة، غير أنك تتظاهر بعدم سماع توسلاتي». «الريح القاطعة» مي نى شيمو كازى، تعبير شعري يربط في يسر بمثل هذه الموسيقى، تستحضر أحزان الخريف والحنين المفعم بالوحشة.

جعلتها الطريقة التي حجبت بها مشـاعرها تبـدو صغيرة وعذبة للغاية. ودندن جينجي: «لئن لم يأت»[1]، وجاشـت مشـاعره متصاعدة إلى ذروة حزينة للغاية، حتى أنه لم يعتقد أن بمقدوره التحكم في نفسه أكثر من هذا.

دفعـه حدسـه إلى التوقـف عندما بـدأت زياراته العديـدة لها تحمـل المخاطرة بجذب الانتبـاه، وبـدلاً من ذلك قام بالكتابة لها في كل مناسـبة ممكنة، فقد كانـت كل ما يفكِّر فيه ليـلاً ونهـاراً. لماذا أقع على هذا النحـو في حبائل مخاطرة كان لا ينبغـي أن أخوضها على الإطلاق وأتسبَّب لنفسي بالشقاء في غمارها؟ وإذا حدَّثت نفسي بأن ذلك يكفي ومضيت فيمـا أريده، فإن ذلك سـيكون كارثة بالنسـبة لها، فضلاً عن الاسـتنكارات واسـعة النطاق والمذلـة التي سـأتعرض لهـا. وأياً كان ما تعنيه بالنسـبة لي، فإنني أعرف حـق المعرفة أنها ليس بمقدورها على الإطلاق أن تتحدى كل ما أحس به نحو سيدتي الربيعية، وأي نفع لها أن تنضم إلى الأخريات فحسـب، نعم، إنني أبرز وحيداً على نحو أرفع قدراً من الآخرين، ولكن أي صيت سـيكون لها إذا انتهى بها الأمر إلى أن تكون إحدى نسـائي فحسـب؟ لا، لسوف تكون أحسن حالاً بكثير بالزواج من مستشار حميد الأخلاق لا تحتاج إلى مشاركته عاطفتـه. وكلمـا أوغل في معاتبة نفسـه، رق لها أكثـر. وفي أوقات أخرى قال لنفسـه: هل أتـرك معاليـه إذن يحظـى بها أم القائد؟ هل سـأكف عـن الرغبة فيها لأنها لـم تعد موجودة هنـا وقـد مضـى أحدهم بها بعيـداً؟ لا، الأمر ميؤوس منه، ويسـتوي معـه أن أمضي بالأمر قدمـاً. وعلى الرغم من ذلك فقد واصل زياراته لها، وقد أوحت إليه رؤيته لها الآن بالتعلل بتعليمها الموسـيقى لكي يقضي الوقت معها. وفي البداية كانت عصبية ومنزعجة، ولكنها شيئاً فشيئاً عندما وجدته معتدل المزاج وليس على استعداد بالمرة لإثارة مخاوفها اطمأنت إليـه، ولـم تعد تنقبـض لمرآه، ومضت تحادثه بحسـب ما هـو ضروري، بينمـا ظلت على تجنبهـا للحميمية الزائدة عـن حدها. وفي غضون ذلك بدا أنها تـزداد جاذبية وجمالاً أمام ناظريه، إلى أن سـاوره الشـك في أنه سيكون بمقدوره في نهاية المطاف أن يقاومها طويلاً، هل ينبغي إذاً أن أصر على أن تبقى هنا[2] وأنسـل إليها عندما أسـتطيع بحثاً عن كلمة عزاء؟ إننـي أكـره أن أضغـط عليها أكثر من هـذا بينما لا تزال بعيـدة عن معرفة أسـاليب الرجال،

(1) اقتطاف واضح، لكن المصدر مجهول.

(2) يزوجها، ولكنه يصر على زواج مميز للزوجة، لكي تبقى في الدار.

ولكنني بالطبع إذا أصررت على أن تتفهم الأمور على نحو أفضل، فعندئذ لن يمنعني شيء عنها، مهما تعددت مرات ترددي عليها، ولا تكترث بحارس البوابة الصارم[1]. تلك كانت فكرته، وكانت فكرة مقيتة للغاية أيضاً. لسوف يكون من البؤس الاستمرار في الرغبة فيها. ليس من طائل في هذا، وليس بمقدوري التخلي عنها فحسب. على هذا النحو كانت الورطة غير المحتملة التي وقعا فيها كلاهما.

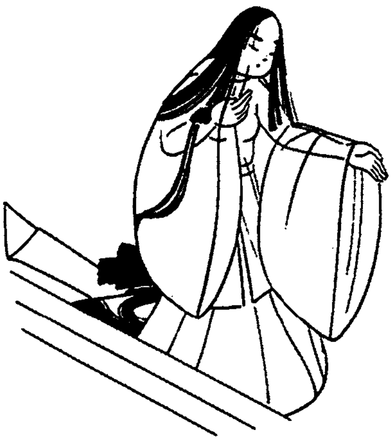
ولم يكد معالي وزير شؤون القصر يعلم بأن القائمين على أمور داره يتجاهلون ابنته، التي عثر عليها أخيراً، وأن الدنيا بأسرها تعاملها على أنها أضحوكة، عندما أشار الملازم إلى حديثه إلى أن سمو المستشار كان يسأل عنها، بادر إلى الرد: «لا شك في أنه سأل عنها. انظروا إليه، لقد استقبل فتاة ريفية لم يسمع أحد بها من قبل قط، وهو يقوم بكل شيء من أجلها. وسموه نادراً ما يتحدَّث بالسوء عن أي أحد، ولكنه لا يهدر فرصة للتقليل من شأننا، وهو يضفي علينا شرفاً بالغاً».

«يقولون إن السيدة المقيمة لديه في ذلك الجناح الغربي حسناء باهرة الجمال. ومعالي وزير الحرب ومن إليه مولعون بها إلى حد كبير، ولكنني أسمع أنهم لم يقطعوا شوطاً يذكر في التقرب منها، ويبدو أن الناس يفترضون أنها متميزة تماماً».

«آه، حسبك، إنهم ينظرون إلى الأمر على تلك الشاكلة، لا لشيء إلا لأنها يفترض أن تكون ابنة سموه. الناس هذا دأبهم. ولا يمكن أن تكون جديرة بسمعتها. ولو أنها كانت على مثل هذا القدر من البهاء لكان المرء قد سمع بها قبل وقت بعيد. ها هو هنالك، لا تشوبه شائبة، وقد ارتفع قدراً عن مستوى الجميع في البحبوحة والمجد، ولكن السيدة التي يهمه أمرها حقاً لم تمنحه ابنة يربيها، ولا أحد يعتز به باعتباره جوهرة كاملة على نحو أصيل، وعلى نحو من الأنحاء فإنه مصدر قلق أن يكون للمرء عدد محدود من الأبناء. والطفلة التي وهبته إياها تلك المرأة القادمة من أكاشي مقدر لها أمور عظيمة على الرغم من منبت أمها البسيط، ويبدو لي أنه لا بد أن يكون هناك سبب لهذا. ولن يدهشني إذا لم

(1) «لا تكترث بمدى إتقان زوجها [سيكيموري]»، «حارس البوابة]حراستها». كوكينشو 632 (كذلك آيسى مونوجاترى 6 القسم 15) من نظم أريوارانو نار يهيرا: «لعل حارس الحاجز المكلف بالطريق الذي أسلكه سراً يأخذه النوم ليلة إثر أخرى!» الحارس كلفه بالوقوف هناك والد الشابة التي كان ناريهيرا يزورها.

تكن هذه الابنة الجديدة التي ظهرت له ابنته على الإطلاق. إن لذلك الرجل خصوصيات، ولن يدهشني أن يكون الأمر كذلك». لم يكن لدى معاليه شيء طيب يقوله عن جينجي.



ثوب حريري شفاف

«وما الذي سيفعله بها على أي حال؟ أتصور أن معالي وزير الحرب سيظفر بها، فقد كانا على الدوام متقاربين، وبالصفات التي يتمتعان بها فإنهما ينبغي أن يكونا على أحسن حال معاً». كان لا يزال يشعر بالمرارة فيما يتعلق بابنته، فقد كان بدوره يحب أن يستعرضها، وأن يبث الاضطراب في قلوب خطابها، وكان عجزه عن القيام بذلك مثيراً للضيق بما فيه الكفاية، فلم تكن لديه نية السماح بالزواج طالما أن مرتبة ذلك الشاب ظلت بسيطة على نحو مستحيل. وفكَّر في أنه ربما يوافق على زواجهما في نهاية المطاف، لو أن جينجي قام فقط بالدفاع في لهفة عن قضية ابنه، ولكن عدم إفصاح الشاب عن نفاد صبره كان دافعاً للشعور بالضيق الشديد.

كان لا يزال عاكفاً على التفكير في مثل هذه الأمور، عندما أقبل بصورة عابرة من دون توقع بالمرة لرؤية ابنته، وقد مضى الملازم بصحبته. وكانت تأخذ قيلولة في ذلك الوقت. فبدت نحيلة للغاية، ورقيقة، راقدة في قميصها، من دون أن يغمرها العرق على الإطلاق، وبدت بشرتها جميلة، وقد توسَّد رأسها ذراعها، وكانت جذابة كذلك الطريقة التي أمسكت بها المروحة، بينما انساب شعرها حولها، صحيح أنه لم يكن طويلاً بصورة استثنائية، حتى عند الأطراف. وكانت وصيفاتها مسترخيات ينلن قسطاً من الراحة، وقد برزن قليلاً وراء الستائر وما إليها، ولم يستيقظن في التو، وأحدث صوتاً قصيراً حاداً بمروحته، وبدت الطريقة البريئة التي رمقته بها جميلة. وبالنسبة لعيني أب كان تضرج وجنتيها بهجة خالصة.

«لماذا أنت راقدة بلا اهتمام بهذه الطريقة فيما حذرتك من نوم القيلولة؟ ليس هناك أحد على مقربة منك. لا. لا فائدة ترجى من هذا. إن المرأة ينبغي أن تكون متنبهة ومترقبة على الدوام، ولا يليق بها أن تدع نفسها على هذه الشاكلة، وما من حاجة تدعوها إلى أن

تكـون متزمتة بصورة ضارية، وأن تقضي وقتها في ترتيل «الداراني» الخاصة بفودو والقيام بالمودرا الخاصة به[1]. وذلك لن يكون مقبولاً أيضاً. وقد يبدو بعيداً عن سـلوك السـيدات الراقيات إبقاء الناس بعيداً للغاية والإفراط في الحديث من وراء الستائر والستائر الحاجبة، ولكن ذلك ليس لطيفاً ولا مقبولاً. مما توصلت إليه أن سمو المستشار قد علَّم إمبراطورته المستقبلية تلك أموراً لا تقتضي منها بذل جهود فائقة، لأنه يعتقد أن المرأة بصفة عامة ينبغي أن تكـون على معرفـة بالعديد من الأمور، ومع ذلك لا تبـرز باعتبارها خبيرة في أمر واحد بينما لا تبقى في الوقت نفسه جاهلة ولا مفتقرة للبصيرة. ولا شك في أنه على حق. ولكن الناس لهم ميول معينة فيما يشعرون أو يقومون به، وإنني لعلى يقين من أن ميولها ستغدو جلية مع نضجها، وأتطلع إلى رؤية ما ستكون عليه عندما تكبر ويرسلها إلى القصر.

وبحسـب مـا أنـت عليه الآن فإنني أخشـى أن مـا أردته لـك أولاً لم يعد فـي المتناول، ولكنني عندما أسـمع بما تعد به الحياة الآخرين، فإنني أمعن التفكير على الأقل في ضمان ألا تصبحـي أضحوكة الآخرين. وفي الوقت الراهن، لا تسـتجيبي لطفاً لرجاء الآخرين أو عروضهم بتقديم الخدمات، فلديَّ فكرة خاصة بي!». فيما هو يتحدَّث راح يركز في إعزاز في مدى جمالها.

تذكـر الآن كيـف ترتبت علـى إهمالها عواقب مؤلمة، وكيف أنهـا كانت قد أبرزت هذا الإهمال بصورة مزعجة في التعامل مع أبيها، فأحست بتأنيب الضمير، وغلبها الخجل، بل إن سـموها أخـذت عليها هـذا الإهمال إلى حد أنها لم تعد تراها، ولكنها لـم تسـتطع حمل نفسـها على الذهاب إليها لأنها خشـيت أن تصـادف هناك نوعية السـلوكيات التي تحدَّث عنها أبوها لتوه.

سـأل معاليه نفسه: ماذا عساني أفعل بهذه الفتاة المقيمة الآن في الجناح الشمالي؟ إنني أنـا الذي أحضرتها الآن إلى هنا، وسـيكون من الجنون ومن غيـر اللائق معاً أن أعيدها من حيث جاءت على أسـاس أن الناس يتحدثون بالسـوء عنها، وأتمنى أنهم لم يفترضوا أنني

---

(1) الإله النشط على نحو شديد الضراوة فودو (الذي لا يحير حراكاً) يجلس أو يقف على صخرة، محاطاً بألسنة اللهب، ويقمع شياطين التوق الشديد. ومن شأن إنشاد الداراني (الرقية، الاستحضار) الخاصة به أن يستدعي وجوده وقوته، على نحو ما تفعل المودرا (إشارات اليد) المرتبطة بطقوسه.

أقصد جاداً القيام بكل شيء لها، لا لشيء إلا لأنها موجودة لديَّ هنا. لا، لسوف أبعث بها إلى دار زوجة الإمبراطور، وأجعلها مضحكتها، فهي في نهاية المطاف ليست مزعجة للغاية إلى حد أن الناس يمكن أن يزدروها باعتبارها مسخاً.

عبَّر كذلك عن الأمر مصحوباً بابتسامة في حديثه مع ابنته زوجة الإمبراطور: «إنها لك، ويمكنك جعل النساء المتقدمات في العمر، السخيفات، التابعات لك ومن إليهن يقومن ما اعوج من سلوكها، واحرصي على ألا يجعلن لها مقراً خاصاً بها، ولا تتحدثي عنها لطفاً، ولا تشجعي الصغيرات على الضحك منها، وهي لها ميل تعس إلى طيش في غير موضعه».

ردت زوجة الإمبراطور: «لست أدري كيف أمكنها أن تكون على ذلك القدر من غرابة الأطوار، من المؤكد أنها لم ترق إلى مستوى تقارير النقيب[1] المسبقة والمتألقة عنها. ولا بد أنها لا تعرف ما الذي تفعله بنفسها، مع حديث الناس عنها على تلك الشاكلة، ولا بد أن لديها إحساساً فظيعاً بنفسها».

تأثر أبوها كثيراً بما قالته. إن لديها من البساطة النبيلة أكثر مما تحظى به من الجمال الأخاذ، ومعها دفء بالطبع يعيد إلى الذهن براعم البرقوق المتفتحة لتوها عند الفجر، وأحس بأن ابتسامتها، التي بدا أنها تترك الكثير من دون أن يُقال، تميزها عن أي مخلوقة أخرى. ردَّ قائلاً: «إنني أعرف ما قاله النقيب، ولكنه شاب لا يعرف من أمر الدنيا إلا القليل للغاية». كان للفتاة المسكينة التي يناقشان أمرها صيت محزن.

مضى ليطل عليها، حيث أنه كان في ذلك الجزء من الدار على أي حال. كانت هنالك، توشك إلى حد بعيد أن تندفع مخترقة الستائر الحاجبة[2]، عاكفة على لعبة النرد[3] مع امرأة شابة مفعمة بالحيوية، تدعى جوسيتشي. «أبقي النرد عند رقم منخفض! أبقيه عند رقم منخفض!». هكذا صاحت بسرعة خاطفة وهي تفرك يديها بحدة[4].

---

(1) كاشيواجي.

(2) الستائر مسدلة، ولكنها قريبة منها للغاية إلى حد أنها تبرز للخارج. ووضعها أبعد ما يكون عما يليق بسيدة نبيلة.

(3) سوجوروكو. لعبة تؤدى على رقعة، تمتعت بالرواج منذ وقت طويل في اليابان.

(4) إنها تفرك يديها معاً في ابتهال لحصول غريمتها على رقم منخفض من رميتها للنرد.

تصاعد الأنين من معاليه: آه، لا! أشار بيديه للحيلولة دون إطلاق مرافقيه صيحات التحذير[1]، ووقف في الفسحة الصغيرة بين الباب المزدوج، وأطل إلى داخل الغرفة عبر فتحة في الباب المنزلق. كانت جوسيتشي منهمكة في اللعبة تماماً هي الأخرى. صاحت: «تغلبي عليها! تغلبي عليها!». هزت القدح، وعلى مهل ألقت بالنرد. وربما كان القدح يخفي أحزانه المحتجبة[2]، وعلى أي حال فقد شكّلت كلتاهما مشهداً مفعماً بالحماقة. اغتفر حضور ابنته المفعم بالحياة وسلوكها الجذاب وشعرها المسترسل لها ألوان قصورها، ولكن انعقاد حاجبيها وطريقتها الطائشة في الحديث وجه إصبع الاتهام إليها. وعلى الرغم من أنها لم تكن حسناء تماماً، إلا أنه لم يكن بمقدوره أن ينكر نصيبه في صفاتها. وتذكّر ما رآه في مرآته، واستنكر أفاعيل القدر.

تساءل: «ألا تشعرين بالارتباك وعدم الارتياح هنا؟ لديَّ الكثير للغاية مما يتعين عليَّ القيام به بحيث أنني لست بقادر على زيارتك».

جاء ردها بسرعتها المعتادة المفرطة: «لماذا يتعين عليَّ الاكتراث بأي شيء هنا؟ ولكن عدم قدرتي على رؤيتك دائماً، بعد كل تلك السنين التي أمضيتها أتساءل عنك وأحن إلى رؤية محياك، يجعلني أحسّ بأن النرد قد خذلني».

«فهمت، لديّ القليل للغاية في خدمتي عن كثب، والذين كنت آملاً أصلاً في أن تنضمي إليهم، ولكن لسوء الطالع أن ذلك لا يبدو ممكناً بصورة حقيقية. والتابعة العادية تختلط في يسر مع الأخريات، كائناً من كانت، ومعظم الوقت لا تجتذب كلماتها ولا مظهرها الكثير من الانتباه. وكان يمكن أن يكون ذلك مصدر أمان كاف بالنسبة لك، ولكن حتى في تلك الحالة، فإنها يحتمل إلى حد كبير أن تحرج عائلتها، عندما يتأكد الناس أنها ابنة فلان الفلاني، وهكذا كما ترين..». لم يقل المزيد ولم تعن الحيرة البادية على محياه شيئاً بالنسبة لها.

«لماذا القلق إذاً؟ أعلم أنه ربما تكون هناك مشكلة، إذا أظهرتني على ذلك النحو،

---

(1) كان الحرس المرافق لسيد عظيم يطلق صيحات تحذير لإخلاء الطريق أمامه حتى في الدار.

(2) إشارة ضاحكة إلى قصيدة (جينجي مونو جاترى كوتشو شاكو شو إينو واكا 745 أو 754) حول الأحزان التي تكمن في قلب الأحجار، «الأحزان المحتجبة».

ولكنني سأقوم مسرورة بإفراغ آنية الفضلات فحسب!».

كان هـذا أكثـر مما يحتمل، فانفجر ضاحكاً. «هـذا الواجب لن يكون لائقاً بك. تحدثي على مهل أكثر قليلاً لطفاً، إذا كان يعني لك كثيراً إلى هذا الحد أن تخدمي الأب الذي كنت محظوظة بالعثور عليه، فقد يساعدني ذلك على أن أحيا عمراً أطول».

ردت على هذا التوبيخ الساخر بابتسامة: «أعتقد أن لساني يعمل بهذه الطريقة فحسب، وقد كانت أمي الراحلة توبخني عليها دوماً، حتى عندما كنت صغيرة السـن. وكانت تشكو مـن أنني قـد انتقلت إليَّ هذه الطريقة مـن نيافته راهب مايوهوجى[1] عندمـا جاء إلى غرفة الولادة، فكيف لي أن أتوقف؟».

علـى الرغـم من تدافع كلماتها، فقـد تأثر لرؤية مدى حرصها على خدمته. «حسـناً، إذاً فسـوف يتعيـن علينا أن نلقـي اللوم على ذلك الراهـب الموقر، الذي اقتـرب كثيراً. ولا بد أنه هو نفسـه مدين بهذه الخاصية لما قام به من الأعمال السـيئة في حياة سـابقة. ويُقال إن ميلاد المرء وقد أصيب بالصمم أو الخرس يجيء من الإسـاءة إلى تعاليم البوذا، وأحسـب أن هـذا الأمـر ينطبق هنا». أدهشـته زوجة الإمبراطـور بحديثها، على الرغم مـن أنها ابنته، وكانـت فكرة تقديم هـذه الفتاة إليها محرجة في ذاتها. ولسـوف تتسـاءل كيف أمكنني ألا أدرك مدى غرابتها، قبل أن أقرر استقبالها في بيتي، ولسوف تنثر وصيفاتها الحديث في كل الاتجاهات. هكذا راح يحدِّث نفسه، ومضى يعيد النظر في خطته.

قال: «زوجة الإمبراطور في الدار الآن، وبإمكانك زيارتها من وقت لآخر والتعلم منها. ومن ليس فيها ما يعيبها يمكنها تحسين نفسها، بطريقة أو بأخرى، عن طريق الحرص على صحبة أخرى».

«يا لها من فكرة جميلة! إن كل ما حلمت به ليلاً ونهاراً على امتداد سـنوات وسـنوات، هو أن أتدبر جعل أخواتي يعترفن بي باعتباري واحدة منهن! لسوف أستقي لها الماء سعيدة مـن البئـر، إذا أرادت ذلك، وأجلبه لها على رأسـي!». وفي غمار سـعادتها، مضت تدمدم بكلماتها بسرعة أكبر من ذي قبل. وبدا جلياً أنه لا جدوى من المحاولة معها.

(1) معبد في مقاطعة أومى (محافظة شيجا الآن) وهذا هو السر في أن الفتاة تعرف باسم أومى نو كيمى، ابنة أومى. وكان يمكن أن يكون الراهب قد استدعي للابتهال من أجل ولادة آمنة.

«لا تكترثـي بالكـدح في جمـع الحطب[1]. وكل مـا عليك هو الذهـاب إليها، وتأكدي فحسب من البقاء بعيداً عن الراهب الذي يبدو أنك التقطت العدوى منه!».

لـم تعـرف أنه يسـخر منها قط، ولم تقتنع أنـه من بين كل الوزراء كان هـو الذي يتجاوز مظهره، وقاره، أساليبه الذكية وحضوره القوي كل الباقين. قالت: «متى يكون الوقت جيداً لكي أذهب إلى هناك؟»[2].

«الأمـر يتعلـق باختيار اليوم المؤاتي فقـط. لا، لماذا نبالغ في الأمـر؟ اليوم إذا أردت». اختتم حديثه، وغادر المكان.

تابعتـه ابنته وهو يمضي مبتعداً، مهيبـاً في أقل حركاته، ومصحوباً في حرص من جانب ممثليـن رائعيـن للمرتبتين الرابعة والخامسـة. قالت: «انظرن فحسـب إلى أبـي! ما أغرب التفكير في أنني ابنته، وأظل مع ذلك مولودة لمثل هذه العائلة الصغيرة البائسة!».

قالـت جوسيتشـي متحدثة عبثـاً: «إنه عظيم ومهيـب للغاية حقـاً. كان ينبغي أن تجدي لنفسك والداً متوسطاً يحبك ويرعاك فحسب».

«هـا أنـت مجدداً تفسـدين كل ما أقوله! أنـت فظيعة! الآن لا أريد أن أسـمع منك كلمة أخرى! إنني في طريقي إلى أمور أفضل!». في نهاية المطاف كان التعبير الغاضب المرتسم على محياها جذاباً، وعلى الرغم من ثرثرتها المزعجة كانت لها جاذبية تغفر كل مساوئها، كان كل مـا في الأمر أنها لا تعرف كيف تتحدَّث فحسـب، بما أنها اكتسـبت الطابع الريفي في كل الأمور، على نحو فظيع، ونشـأت وسـط أناس شديدي البساطة، حتى الملاحظات التـي لا تثيـر الاهتمـام بالمـرة تبـدو ذات قيمة عندمـا تقال بجديـة ورباطة جـأش، أو عند مناقشـة القصائـد[3]، التي لا تعد شـيئاً فـي حد ذاتها، قـد تترك جوهر الأمـر محتجباً، ومع ذلـك تبدو عندما تُسـمع لأول مرة فاتنـة، عندما تتلى بنغمة الصوت الصحيحة، ومفسـحة

(1) جلب الماء وجمع الحطب، نشاطان أساسيان تكرسهما النصوص المقدسة بحسبانهما العمل الأساسي الذي يؤدى في خدمة بوذا.

(2) تدين ساي شونا جون في «كتاب الوسادة» صياغة العبارة التي تستخدمها باعتبارها مما تقوله طبقة وضيعة.

(3) أوتاجاتاري، «الحديث عن القصائد» ربما صورة لتبادل قصائد الحب، مع إلقاء القصائد نفسها بالطريقة المعتادة.

المجال للخيال، كأنما تحجب البدايات والنهايات. ومن شأن أعمق الملاحظات وأكثرها تضمناً للمعاني ألا تجد جمهوراً يُصغي إليها، عندما تُقال بلا مبالاة. وإلى جانب لكنتها كذلك، فإن طريقتها السريعة في الحديث جعلت حديثها خشناً، وتتعذر متابعته، وكان كل ما علمتها إياه مربيتها بفخر قد أعطاها أساليب بالغة الغرابة في التصرف، بحيث أنه أساء إليها إلى حد كبير ولم يفدها. لا، لم تكن عاجزة بحال، وكان بمقدورها أن تدرج واحداً وثلاثين مقطعاً في قصيدة غير متصلة بسرعة لاهثة.

واصلت حديثها الموجه إلى جوسيتشي: «الآن قد أبلغني بأن عليَّ المضي إلى زوجة الإمبراطور، ولن يروق له الأمر، إذا لم أبد متلهفة على ذلك. لسوف أذهب الليلة. آه، إن معالي أبي يقدرني كثيراً ولكن كيف سأبدو هنا إذا لم ترغب هذه السيدات في أن يكن على صلة بي؟». كانت سمعتها عرضة للخطر حقاً. فبعث إلى زوجة الإمبراطور رسالة في التو[1].

«قريبة للغاية ومع ذلك جد بعيدة عن سور قصبك[2]، أنوح على عدم تمتعي بعد بامتياز السير في ظلك، وأخشى أن تكوني قد فضلت إقامة حاجز (تعال ولكن ليس إلى هنا)[3]. إنني لا أعرفك، ومن ثم لست أجرؤ على الإقدام على الحديث عن سهل موساشي[4].. خادمتك المتواضعة للغاية.. المتواضعة للغاية».

---

(1) الرسالة نفسها فسيفساء مكثفة من التوريات المضجرة وغير المترابطة إلى قصائد قياسية، ومن هنا فإنها تعد بمثابة كاريكاتير لرسالة معقولة.

(2) كوكينشو 506 تنوح على أنه على الرغم من أن المتحدِّث قريب للغاية من محبوبته، فإنه ليس بمقدوره لقياها. «سور القصب» (أشيجاكى) في القصيدة هو «منسوج بصورة محكمة» (ماتشيكا كيريبا) على نحو ما ينبغي على العاشقين أن يكونا، ومع ذلك فإنه يبعدهما أحدهما عن الآخر.

(3) جوسينشو 682، من نظم كوتشاشيجو نو مياسودوكورو: على الرغم من أنني قريب منك بحيث أخطو على ظلك، من الذي شيد حاجز ناساكو [تعال - ليس - إلى هنا] كان ناكوسو، وهو مكان في شمال اليابان، أثيراً في الشعر بسبب هذه التورية المتعلقة باسمه.

(4) كوكين روكوجو 3507: «على الرغم من أنني لم أذهب إلى هناك، فإن الحديث عن سهل موساشي يثير شكواي ولكن آه، لا علاج، فالخطأ يقع على كاهل مورا ساكي». الحديث عن سهل مورا ساكي يعني القول، عبر إتيان القصيدة على ذكر مورا ساكي، بوجود رابطة دم مع ملتقى القصيدة.



سياج من القصب

كانـت هنـاك الكثير من نقاط التكـرار[1]، وعلى ظهر الرسـالة: «آه، لقد نسـيت! قررت القدوم لرؤيتك هذا المسـاء، وأخشـى أنني لولا ذلك قد ازداد ولعاً بك، كلما ازددت كرهاً لـي[2]. آه، يـا عزيزتي، آه يا عزيزتي، لو أنك كنت فقط لطيفة بما يكفي للنظر إلى حظي كما للنظر إلى نهر مينيس»[3] وعلى امتداد حافة الرسالة كانت هذه القصيدة:

«بقدر رقة النبتة القادمة من شاطىء هيتاشي فإنها تحن إلى نقطة الاستفسار

إلى رؤية الأمواج العظيمة بأسرع ما تستطيع على شاطىء تاجو[4]

مياه النهر العظيم»[5]. وقد كتبت الرسـالة على ورق أخضر مزدوج الطيات، بخط ميال إلـى التوكيد والجـزم، حافل بالحروف المتصلة، ممتد، يصعب تعرفه، وله ذيول طويلة في كل المواضع، وأوحى بإحسـاس بالغ بأهمية الذات. وامتدت السطور نحو الحافة، وبدت

(1) تنتهي الرسالة بالقول «أنا كاشيكو، أنا كاشيكو. وأنا كاشيكو الثانية (عبارة ختامية تدور في نطاق خادمتك المتواضعة للغاية) يشار إليها ببساطة بسلسلة من النقاط التي توضح تكرار العبارة السابقة. وكان يمكن لأنا كاشيكو واحدة أن تكون كافية.

(2) جوسينشو 608 «ما أغرب ازدياد ولعي بك كلما ازددت كرهاً لي! ما الذي يمكنني القيام به لجعل نفسي أتوقف؟».

(3) «لو أنك اغتفرت لي خطي البائس». إن جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إينو واكا 199 ترجو من المتلقي أن ينظر (مي) باستغراق إلى خط الكاتب، موضحة المعنى من خلال تورية تتعلق باسم نهر مينيس.

(4) «إنني أتوق للقياك الأماكن لا علاقة لأحدها بالآخر، حيث أن شاطىء هيتاشي يقع في شرق اليابان وإيكاجاساكي. («نقطة الاستفسار») كلمة إيكاجا تعني «كيف»؟، تقع في البحر الداخلي، وتاجو عند سفح جبل فوجي.

(5) «إنني أتوق للقياك». إيماءة مشكوك فيها إلى كوكينشو 699 حول «النهر العظيم» عند يوشينو.

كما لو كانت يمكن أن تسقط في أي لحظة. وتأملت عملها بابتسامة موحية بالسرور، وعلى الأقل لفّتها على شكل لفافه صغيرة[1]، وعقدتها بإحكام، وأرفقت بها قرنفلة مزدهرة.

أقبلت فتاة جميلة وواثقة بنفسها من المكلفات بتدبر وعاء فضلات الغرفة[2]، والتي تعد من القادمات الجدد، إلى غرفة جلوس الوصيفات في مسكن زوجة الإمبراطور. وقالت: «عليكن بإعطاء هذه إلى سموها لطفاً!». تعرفتها الخادمة التي تحدَّثت إليها، فهتفت مندهشة، وهي تتسلم الرسالة: «إنك من الجناح الشمالي. ألست كذلك!». حملتها الوصيفة المعروفة باسم تايفو إلى سيدتها، وفتحتها لتلقي عليها نظرة. عندما ابتسمت سيدتها ووضعتها، ألقت تشوناجون، التي كانت في الخدمة عن كثب، نظرة عليها بدورها. قالت وقد بدا عليها الفضول بجلاء: «تلك رسالة متأنقة المظهر إذا كانت هناك رسالة يمكن أن تحظى بهذا الوصف، يا مولاتي!».

أعطتها زوجة الإمبراطور إياها، وقالت: «ليس بمقدوري أن أتبين فيها رأساً من ذيل، وأحسب أنني لست بارعة في قراءة الحروف المتصلة. لسوف يخيب رجاؤها فيَّ إذا كان ردي أقل عظمة، عليك بصياغة شيء في معرض الرد تواً».

كان الأمر كله بالغ الطرافة إلى حد أن النسوة الأصغر سناً ضحكن، على الرغم من أنهن لم يكن بمقدورهن القيام بذلك[3].

استفسرت حاملة الرسالة: «ورد سموها؟»

ردت تشوناجون: «الرسالة تضم الكثير للغاية من اللمسات الرائعة إلى حد أننا لا نعرف كيف نرد عليها. وسيكون أمراً مخجلاً لو أنه بدا أن أحداً آخر قد كتبها». وحرصت على التأكد من أن الرسالة ستبدو قادمة من سيدتها نفسها.

كتبت تقول: «من المؤسف للغاية أن كونك قريبة جداً لم يقربنا معاً أكثر.

---

(1) «على الأقل» (ساسوجا نى) لأنه أياً كانت الرسالة نفسها لا تليق بسيدة نبيلة، فإن معالجتها لهذه الجملة على الأقل تعد مقبولة.

(2) مبعوثة غير مناسبة إلى حد بعيد، حتى وإن كانت في مظهرها وسلوكها في تناسق أفضل مع العناصر المحيطة بها من ابنة أومى.

(3) لأن ابنة أومى هي أخت زوجة الإمبراطور.

انهضي، إذن، أيتها الموجة، هناك على امتداد شاطىء سوما في سوروجا النائية

على بحر هيتاشي، فصنوبرة هاكوزاكي تنتظر![1]».

احتجت زوجة الإمبراطور عندما قرأتها تشوناجون على مسامعها، قائلة: «آه، لا! ماذا لو أن الناس اعتقدوا أنني كتبتها حقاً؟».

«من يسمعون بها سيعرفون الحقيقة يا مولاتي!». طوت تشوناجون الرسالة وبعثت بها.

«مصاغة على نحو جميل! وهي تقول إنها تنتظر مقدمي!». ملأت السيدة الشابة ملابسها مراراً بأرق أنواع البخور[2]، ووضعت لمسات من أكثر أنواع الحمرة توهجاً، ومشطت شعرها، مرتبة إياه وواضعة فيه الحلي، وجعلت نفسها جذابة للغاية بطريقتها الخاصة. ولا شك في أنها أتت بكل أنواع الغرائب والأعاجيب عندما كانتا معاً.

(1) هذه الأماكن بدورها غير مرتبطة على نحو بارز أحدها بالآخر.

(2) كان البخور يحلى بالعسل، ولكن العطر المبالغ فيه كان يعتبر مبتذلاً.

27

كاجاريبي

المشاعل

تعني كلمة «كاجاريبي» المشـعل، وهي نار ترفع عالياً في قفص حديدي، ويستضاء بها خارج الأبنية، وتدين الكلمـة بوظيفتها كعنوان للفصل إلى دورها في تبادل للقصائد بين جينجي وتاما كازورا.

الصلة بالفصول السابقة

يأتي «المشاعل» بعد «القرنفلة» مباشرة، وتقع أحداثه في الشهر السابع، الذي يعد في التقويم القمري أول شهور الخريف.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 عاماً.

السيدة المقيمة في الجناح الغربي، 22 عاماً، تاما كازورا.

النقيب، 15 عاماً (يوجيري).

النقيب أمين السر، الابن الأكبر لتو نو تشوجو، 20 عاماً أو 21 عاماً (كاشيواجي).

الملازم المراقب، الابن الثاني لتو نو تشوجو، 19 عاماً أو 20 عاماً (كوباي).

كانت الدنيا بأسرها تتحدَّث، في تلك الأيام، عندما تكون هناك مناسبة متاحة للحديث، عن ابنة معالي وزير شؤون القصر الجديدة. وأشار جينجي بقوله: «لا، لست أفهم كيف يستطيع أحد في ظل أي ظروف اجتذاب مثل هذا القدر من الانتباه إلى فتاة يفترض أنها حتى الآن ظلت محتجبة بعيداً عن الأنظار، ويحدث مثل هذه الضجة حولها، لا لشيء إلا لأنها تقدمت وزعمت بأنها ابنته. إنه متسرع على الدوام. وأحسب أنه قد استقبلها في داره من دون تبين الكثير عنها، وهذا هو ما فعله بها عندنا خيبت أمله. إن لزوم الحرص لا يعدو كونه أمراً متعلقاً بالكيفية التي يعالج بها المرء الأمور».



مبخرة

ساوره شعور بالأسف البالغ عليها.

«لقد كنت محظوظة إذاً!». قالت السيدة الشابة المقيمة في الجناح الغربي، عندما أوضحت هذه الأحداث أي إذلال كان يمكن أن تعانيه لو أنها كانت قد سعت وراء معالي وزير شؤون القصر، حتى ولو كان أباها، من دون أن تعرف جلية أمره. وقد كانت أوكون قد وظفت كل بلاغتها في تشجيع التوصل إلى هذا الاستنتاج. لقد كانت لدى جينجي نقيصته تلك التي لا تدخل السرور على النفس، ولكنه لم يسع بالفعل إلى فرض نفسه عليها، كما كان يرغب في القيام به في حقيقة الأمر، وبما أنه بخلاف ذلك استمر إخلاصه لها في الازدياد، فقد بدأت في الاستجابة شيئاً فشيئاً.

حلَّ الخريف الآن، وعندما بدأت تلك الريح الأولى الباردة تهب، افتقد على نحو يائس رفرفتها لـ«ملابس حبيبي الحقيقي»[1] ومضى بصورة دائبة للقائها، وأمضى النهار في

(1) كوكينشو 171 : «لشد ما تترامى وترفرف ملابس حبيبي حوله. آه، كم هي منعشة وقوية ريح الخريف الأولى»!.

إعطائها دروس الموسيقى وما إلى ذلك. كان قمر المساء في الليلة الخامسة أو السادسة[1] قد احتجب مبكراً للغاية، وكست السحب السماء في خفة، ومضت الريح تصدر زفيفاً، وهي تتخلل القصبات[2]. وكانت اللحظة هي لحظة مشاعر رقيقة. ورقدا كلاهما معاً، وقد توسد رأساهما آلة الكوتو التي تعزف عليها. وكان يعرف أن أحداً يمكن أن يلاحظ الأمر إذا قضى الليل هناك، وتنهد لإمكانية حدوث مثل هذه الأمور، ولذا فقد عكف على الاستعداد للمغادرة، وعندما استدعى أحد مرافقيه، مفوض حراس الميمنة، ليضيء المشاعل التي كانت بحلول ذلك الوقت قد انطفأت جميعها.

وضع الرجل خشب الصنوبر المقطع بحرص تحت أغصان ممتدة من شجرة السبندل[3]، التي نمت إلى جوار الغدير المنعش على نحو رائع، ثم تراجع لينير المشاعل، تاركاً الحديقة وراء الدار بديعة ومفعمة بنور جميل أظهرها بمظهر مدهش، وكان شعرها بارد الملمس على نحو متألق، وأضفى عليها تحفظها الحريص جاذبية كبيرة، فلم يرغب جينجي في المغادرة.

«ينبغي على الدوام أن تجعلي العاملين بدارك يبقون المشاعل متقدة، فالحديقة الصيفية في ليلة بلا قمر تبدو غامضة وحافلة بالنذر المزعجة.

«مع دخان هذه المشاعل يتعالى دخان آخر، دخان الرغبة، من ألسنة لهيب داخلية

أعرف الآن أنها ستتقد طالما بقيت هذه الدنيا.

آه كم هو وقت طويل حقاً[4] ربما لا ترين الدخان يتصاعد مني، ولكنني في أعماقي أتقد على نحو مؤلم للغاية!».

---

(1) من الشهر القمري السابع، الشهر الأولى من أشهر الخريف.

(2) في الشعر قد يعلن زفيف الريح في القصبات (أجى) قدوم عاشق.

(3) ميومى نو كي شجرة تسقط أوراقها في موسم معين من العام، وتحمل زهوراً صغيرة تجمع بين اللونين الأزرق والأخضر، وتحمر بصورة جميلة في الخريف.

(4) كوكينشو 500: «الآن وقد حل الصيف، تحترق لفات طرد البعوض في موطني»، آه، لشد ما أتوق بالمثل إلى الاحتراق في أعماقي؟ في قصيدة جينجي فإن الدخان يُربط بـ«الرغبة» من خلال تورية تدور حول لفظ كوهى («الرغبة»)، لأن مقطع «هي» في حد ذاته يعني «النار»، وتعد موضوعة الدخان، الذي يتصاعد من فؤاد العاشق المحترق ليختفي (أو لا يختفي) في رحابة السماء، من الموضوعات الشائعة.

حدَّثت نفسها قائلة: «هذا كله غريب للغاية!

دعه إذاً يتبدد في رحابة السماء، إذا كان دخان المشاعل

يطلق دخانك من مثل هذه النيران الأخرى الخفية .

لسوف يتساءل الناس ما الذي نحن بسببيله!».

قال: «على الرغم من ذلك انظري!»[1]. تناهى نغم ناي جميل من الجناح الشرقي[2] مصحوباً بنغم سونوكوتو». لا بد أن النقيب يعزف الموسيقى مع أحد أصدقائه الذين لا يدعونه وحيداً، أحسب أنه النقيب أمين السر[3]. يا له من صوت جميل!». وقف ليصغي للموسيقى.

جاء في رسالته: «إنني هنا[4]، يبقيني ضوء المشاعل الجميل» فأقبل الثلاثة جميعاً للتو.

«ذلك الناي أكثر تأثيراً في النفس من أن أحتمله، لقد بدا كأن أغنية الريح قد استحالت خريفاً». التقط جينجي آلة كوتو ليعزف عليها بعض الموسيقى الجميلة. وعزف النقيب على نايه بصورة جميلة من مقام البانشيكي، لكن النقيب أمين السر كان أكثر عصبية من أن يغني. قال جينجي: «حسناً؟»، فغنى الملازم المراقب بصوت خفيض مزجياً الوقت، وقد تردد صوته كصرار نبات كأس الزهرة[5]. فجعله جينجي يغني أغنيته مرتين، ثم مرَّر آلة الكوتو الموسيقية إلى النقيب أمين السر، الذي كانت لمسته الجذابة أقل جودة من لمسة أبيه.

«هناك شخص آخر وراء هذه الستائر الحاجبة، فيما أعتقد، شخص يعرف الموسيقى أيضاً. لا بد لي من الحرص على عدم الإكثار من الخمر الليلة، فمشهد العجوز الذي يبكي في أقداحه يمكن أن يكون بعيداً عن الحرص».

حدَّثت نفسها بأن ذلك صحيح، وتأثرت، وأبدت سراً اهتماماً كبيراً بكل ما رأته وسمعته

---

(1) انظري لقد تحكمت في نفسي في نهاية المطاف!.

(2) يوجيري.

(3) كاشيواجى، الذي يشغل الآن المنصب الذي احتله أبوه في فصل «شجرة الوزّال».

(4) رسالة نقلها مبعوث شفاهة.

(5) كان صوته رخيماً وصافياً.

من السادة المهذبين الشبان، ولا شك لأن صلتها المستمرة بهم قُدِّر لها أن تكون قوية، ولكنهم هم أنفسهم لم يدر بخلدهم شيء، وتصرف النقيب أمين السر الذي أحس هذه المرة بأنه لن يتمكن من الإحجام عن الإفضاء بما في فؤاده، على أحسن وجه، بل إنه لم يسمح لنفسه بعزف مقطوعة مباشرة، على نحو يكشف دخيله نفسه.

28

نواكي

الإعصار

تعني نواكي («العاصفة») رياح إعصار أوائل الخريف.
والحدث الأساسي في هذا الفصل هو هبوب إعصار.

الصلة بالفصول السابقة

تقع أحداث الإعصار في الشهر الثامن، بعد وقت «المشاعل» مباشرة.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 عاماً.

جلالة الإمبراطورة، 27 عاماً (أكيكونومو).

سيدة الجانب الجنوبي الشرقي، 28 عاماً (مورا ساكي).

النقيب، 15 عاماً (يوجيري).

سمو الأميرة جدة يوجيري، زهاء 70 عاماً (أوميا).

سيدة الجانب الشمالي الشرقي (هانا تشيروساتو).

السيدة المقبلة من أكاشي، 27 عاماً.

السيدة المقيمة في الجناح الغربي، 22 عاماً (تاماكازروا).

ابنة جينجي، 8 أعوام (أكاشي نو هيميجيمي).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

ابنته محبوبة يوجيري، 17 عاماً (كوموي نو كاري).

بـدت الزهـور، التـي كان جينجي قد زرعها فـي حديقة جلالتها، بهيجة تسـر العين كما لم يحدث من قبل، حيث كانت من كل نوع ولون، والتفت حول أسـوار خفيفة وبديعة من الخشب ذي اللحاء والمجرد منه، والتي بدت أكثر كمالاً من نظيراتها في أماكن أخرى، حتى في الطريقة التي تألق بها الندى عليها في الصباح والمسـاء، وجعلها تلتمع كالمجوهرات. والمرء ينسـى تلال الربيع أمام المشـهد البارع لألوانها العديدة، ويمضي فؤاده إليها ضارباً وسـط مباهجهـا البديعة. وقد كان للخريـف على الدوام أنصار أكثر مـن الربيع في النقاش حـول أيهما أفضل، ومـن كانوا في وقت من الأوقات يفضلون حديقـة الربيع المحتفى بها تلك يتحولون الآن، كما يفعل الناس، لينظروا باتجاه آخر.

وقد واصلت جلالتها البقاء في الدار لتسـتمتع بها كلها، وفي غضون ذلك كانت تود لو أنها دعت إلى عزف الموسـيقى، ولكن الشـهر الثامن كان شـهر موت أبيها[1] وبينما كانت تشـاهد الزهـور، وهي تواصل النمو لتغـدو أكثر جمالاً، بدلاً من أن تـذوي، كما تخوفت، تجمعـت نذر هبوب الريح، وتغيرت السـماء مهددة بعاصفة أسـوأ مما يعرف عادة. وعلى الرغم من ذلك فإن من لا يكترثون كثيراً بما يمكن أن تتعرض له الزهور من معاناة صاحوا محذريـن من وقوع كارثة، وأوشـك اليأس أن يسـتبد بجلالتها، فيما لآلـىء الندى تكتسـح اكتساحاً وتنتزع من البتلات والأوراق. وبدا أنها تتوق إلى أكمام ممتدة بما فيه الكفاية لكي تغطي سـماء الخريف[2]، فأوصـدت مصاريعها، فيما الليل يرخي أسـتاره، وفيما العاصفة تحتـدم محتجبـة عن العيون، بما أنها كانت مخيفة للغاية، ولكنها اسـتمرت، حتى في ذلك الوقت، في الارتجاف خوفاً على زهورها.

فـي الجانـب الجنوبي الشـرقي، كانت العاصفة قد بـدأت في الهبوب فيمـا كان العمل يجـري إنجازه فـي الحديقة، وفاجـأت هذه الريح العنيفة سـعف الهاجـي[3]. ومن موضع

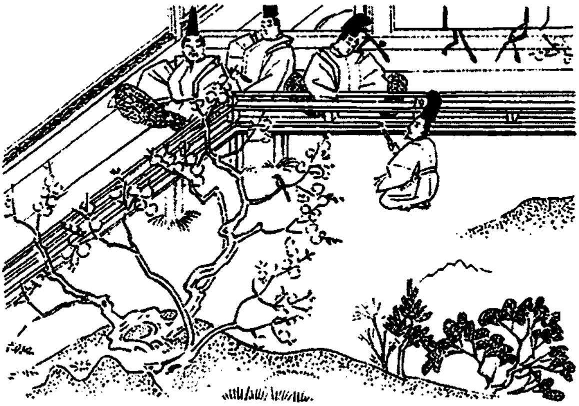
---

(1) زوج روكو جو، ولي العهد، الذي مات منذ وقت طويل.

(2) جوسينشو 64: «ليت لي كماً يكفي لحجب السماء الرحبة! وعندئذ ما من ريح ستنتزع الزهور التي تتفتح في الربيع».

(3) تستحضر كوكينشو 654 العاشق الذي يبرحه العذاب، من خلال تشبيهه بسعف الهاجي الذي ينتظر الريح. وسعفات الهاجي هي موتارا (عارية قرابة قاعدة الفروع) ومن هنا فإنها «يبرحها العذاب» لأن الخريف (موسم الانفصال) يدنو.

قريب من الشرفة راحت ترقب الريح، وهي تطيح مراراً بكل قطرة ندى أخيرة. كان جينجي مع ابنتهما عندما أقبل ابنه النقيب، وألقى هذا الأخير نظرة ساهمة فوق الباب المنزلق[1] على طريق الجسر الشرقي، وعبر الباب المزدوج المفتوح، ووقف يرقب صامتاً، عندما لاحظ جمعاً من الوصيفات. كانت الستائر قد طُويت عالياً، ونحيت جانباً بسبب الريح. وكان بوسعه أن يرى سيدة جالسة في الغرفة القريبة من الممر. ولم يكن هناك مجال للخطأ بشأن جمالها الدافىء والسمح، فقد بدت مثل شجرة كرز جبلية جميلة، في تمام ازدهارها، مطلة من غمامات فجر ربيعي.



الحديقة القريبة

وبدا أن عبير فتنتها يعطر على نحو لا يقاوم، فيما هو يرقبها، لم تكن بقدر ما هو فذ وغير عادي، ولسبب ما. ابتسمت، محدثة تأثيراً فتاكاً بالقلوب، عندما دفعت الريح بالستائر الحاجبة إلى الداخل، فأمسكت بها وصيفاتها، وكانت أكثر قلقاً على زهورها من أن تتركها وتدلف إلى الداخل. ولم يستطع أن يبعد ناظره عنها، وذلك على الرغم من ألوان الفتنة التي تشع كذلك من وصيفاتها، وعرف الآن كم كان أبوه محقاً، تحسباً لحدوث ذلك تحديداً، في إبقائه بعيداً للغاية عن سيدة ما كان يمكن إلا أن تثير المتاعب لكل من يراها.

كان بسبيله إلى الابتعاد مجدداً، خوفاً من أن يلاحظه أحد، عندما عاد جينجي من جناح ابنته، وفتح الباب الداخلي المنزلق، ودخل الغرفة، وقال: «يا لها من ريح فظيعة تدفع للجنون! أغلقن مصاريعكن! لا بد أن هناك رجالاً في أرجاء المكان، وأي واحد يمكنه أن يراكن».

دنا النقيب مجدداً، ومضى يرقب المشهد، فيما هي تقول شيئاً لجينجي، الذي نظر إليها

(1) كوسوجو، حاجز صلب، خفيض (كان يتخذ من الخشب أو من المادة نفسها التي تتخذ منها الحواجز المنزلقة [شوجي] ويركب فوق قاعدة لكي يمكن تحريكه.

وابتسم. لم يكن بمقدوره تصور أن جينجي أبوه، فقد بدا أكثر شباباً ورشاقة وأناقة من أن يكون كذلك، وكانت بدورها في قمة تألقها، وتأثر بمدى كمالهما معاً، ومع ذلك فإن المصراع المطل على طريق الجسر فتحته الريح كذلك، وبدا هو بدوره مكشوفاً فتراجع فزعاً، وتقدم نحو الشرفة متنحنحاً، كأنما وصل لتوه. قال جينجي محدِّثاً نفسه: لقد عرفت ذلك! لا بد من أنها كانت هناك بحيث تقع عليها العين، وقد كان هذا الباب المزدوج مفتوحاً. وأدرك في التو ما الذي لا بد من أن ذلك يعنيه.

ابتهج النقيب، وقال محدِّثاً نفسه: لا شيء كهذا حدث من قبل قط. إن الريح يمكنها حقاً أن تقذف الصخور إلى السماء! إنهما متضايقان معاً إلى أبعد الحدود، على الرغم مما اتخذاه من احتياطات، وقد رأيت مشهداً نادراً رائعاً!

ظهر التابعون القائمون على أمور الدار، وقالوا: «ستكون الريح فظيعة، يا مولاي! إنها معتدلة هنا لأنها تهب من الشمال الشرقي، وسرادق أرض الركوب وسرادق صيد السمك الجنوبي قد تودي بهما الريح في أي وقت». وانطلقوا في ضجة للعناية بشيء أو بآخر.

استفسر جينجي: «من أين أتيت؟».

رد النقيب: «كنت في سانجو، ولكن الناس قالوا إن عاصفة هائلة ستهب، ولذا بادرت بالقدوم إلى هنا، حيث استبد بي القلق. وعلى الرغم من ذلك فإن سموها هي التي تشعر بالخوف حقاً، فهبوب الريح يخيفها في سنها تلك، كأنها طفلة، وأنا أشعر بالأسف البالغ عليها إلى حد أنني سأعود إلى هناك الآن».

«تلك فكرة جيدة، فالعمر لا ينبغي أن يحيل الناس إلى أطفال من جديد، ولكنني أخشى أن ذلك هو ما حدث».

أعرب جينجي عن تعاطفه مع السيدة بطرق أخرى متعددة، وجعل النقيب يبلغها بقوله: «إنني واثق من أنه على الرغم من الضجة، فإنك في أيد أمينة، حيث أن هذا النبيل الشاب يرعاك».

لم يكن هناك يوم لم يقم فيه الشاب، ذو المظهر اللائق دائماً، بتقديم نفسه في كل مكان من سانجو وروكوجو، حتى عندما تلفحه الريح طوال الطريق. وبغض النظر عن

تلـك الأوقات التي كانت العزلة ترغمه بصورة حتمية على البقاء في القصر الإمبراطوري، فإنه ما من شـأن رسـمي ملح وما من واجبات مراسمية ممتدة أو معقدة كان يمكن أن تبقيه بعيداً عن روكوجو أولاً، ثم عن سموها، وهلم جراً، وكان أمراً مؤثراً أن يراه المرء اليوم في هذا الطقس وقد انطلق مسرعاً، يسابق الريح، لأداء هذه الواجبات.

أحسـت سـموها بالسـرور البالغ، وعادت إليها طمأنينتها. وقالت، وهي ترتعد، عاجزة عن السيطرة على رجفتها: «لم أشهد في كل سنوات عمري مثل هذه العاصفة الرهيبة قط. ما أفظع التفكير في أنك جئت إلى هنا وسط تهاوي أغصان الأشجار المتكسرة، بينما يبدو أن الريـح تنتـزع كل القرميد من السـقف! لقـد مضى إلى غير رجعة ذلك المظهر الجسـور الرائع[1]، والآن كان النقيب هو كل من لديها في هذه الدنيا المتقلبة. ولم يكن الأمر راجعاً إلـى أنهـا الآن تحظـى بتقدير أقل عما كانـت تحظى به من قبل، ولكن إلى أن وزير شـؤون القصر ظل مبتعداً تماماً عنها.

رقـد النقيب طوال الليل، وسـط عصف الريح، تحت رقية حزن لا سـبيل إلى تحديده. وبغض النظر عن السـيدة التي كان يتوق إليها على الدوام،فإنه لم يسـتطع نسـيان المشـهد الذي رآه لتوه، وقد صاحبت المشـهد أفكار محظورة على نحو مفزع، واسـتمرت إلى حد أنـه أيقظ نفسـه فزعاً، ليتحول بأفـكاره إلى اتجاه آخر، ولكن هذه الأفـكار واصلت العودة إلـى ذهنـه. لـم يكن بالإمـكان أن تكون هناك كثيـرات مثلها، ولن يكـون بالإمكان حدوث ذلك مسـتقبلاً. عندما تزوجها أبوه، كيف كان بإمكان سيدة الجانب الشمالي الشرقي[2] أن تقف إلى جوارها؟ حدَّث نفسه: يا للمسكينة! لا وجه على الإطلاق للمقارنة بينهما، وراح يتساءل مندهشاً ومعجباً في السر في لطف أبيه. ولما كان شخصاً جاداً، فإنه لم يخطر بباله قـط أن يكـون له طموح يمكن أن يضعه في دائـرة الاهتمام، ولكنه أراد أن يكون بإمكانه أن يمضي حياته مع سيدة مثلها، ولم يستطع منع نفسه من الشعور بأن القيام بذلك من شأنه أن يطيل قليلاً الأعوام التي قُدِّر له أن يعيشها.

هـدأت الريح بعض الشـيء قرابة الفجر، وبـدأ المطر في الهطول بغـزارة. وتلقى خبراً

(1) تزاحم الأتباع والزوار ومن إليهم، عندما كان زوجها على قيد الحياة.

(2) هاناتشيروساتو.

مفـاده أن المباني الخارجية في روكوجو قد انهارت، وبينما الريح تعصف تجمع الكثيرون في تلك الضيعة الواسـعة والمتميزة حول النبيل العظيم وسـيدته، ولكنه أدرك منزعجاً أنها في الجانب الشـرقي تشـعر بالوحدة، فانطلق تحت سـماء بالكاد مسـها النور، وانهمر مطر يجمـد الأوصال يـكاد يكون أفقيـاً[1] طوال الطريق إلـى هناك. وأحس تحت هذه السـماء المضطربـة علـى نحو غريب بأنه غريبٌ عن نفسـه. مـا هذا؟ هل لديَّ حـزن آخر ينبغي أن أحمله على كاهلي؟ لا، لا مجال للتفكير في ذلك! لا بد من أنه مجنون تماماً! مضى مباشرة إلى الجانب الشـمالي الشـرقي، فألفى السيدة المقيمة هناك وقد اسـتبد بها الفزع. وبعد أن قام بكل ما في وسعه لإعادة الطمأنينة إلى نفسها، استدعى أناساً لإعادة الأمور إلى نصابها حسب الاحتياج، ثم مضى إلى الجنوب الشرقي، حيث المصاريع لا تزال موصدة، واستند إلى الحاجز عند الموضع الذي قُدِّر أنهما فيه معاً وتطلع عبر الحديقة. كانت الأشجار على التل مائلة مع الريح، واسـتقرت على الأرض أغصان كثيرة مكسـورة. وغني عن القول أن النباتـات كانت في حالة من الفوضى البالغة، كذلك حصباء الحديقة، القرميد، والمصاريع والأسـوار الحاجبة، وهلم جراً. أشرقت شـمس واهنة، وتألق الندى في الحديقة كأنما هو يتألـق علـى محيا مفعم بالحزن، بينما ظلت السـماء متشـحة بالضباب، جفـت دموعه غير المنطقية، وتنحنح.

قـال جينجـي: «يبدو ذلك صوت النقيب، وأشـك أن الفجر قد أطـل». تناهت أصوات دالة على نهوضه من فراشه. وأياً كان ما قالته فإنه لم يكن مسموعاً، ولكنه ضحك. «هذا هو الفراق عند الفجر الشهير الذي لم أعرضك له، حتى في أيامنا الأولى[2]، أتمنى ألا أعرضك له الآن!» مضيا يثرثران معاً على نحو جميل. ولم تصل ردودهما إلى سـمع النقيب، ولكنه كان بمقدوره أن يدرك مدى تقاربهما من لهجة حديثهما المرحة.

فتح جينجي المصاريع بنفسه، وانزعج النقيب لقربه الشديد، فانسحب إلى مسافة يمليها الاحترام. قال جينجي: «حسناً، هل كانت سعادتها مسرورة برؤيتك مساء أمس؟».

---

(1) على العربة.

(2) يغادر العاشق محبوبته عادة عند انبلاج الفجر (أكيبونو نو واكارى، وهو تعبير قياسي) ولكن جينجي وموراساكى لم يكونا عاشقين عاديين قط، وعاشا معاً منذ البداية.

«نعم، كانت كذلك، وقد أحسست بالأسف البالغ عليها، فكل شيء يمكن أن يجعلها تبكي». ابتسم جينجي، وقال: «أشك في أنها ستبقى معنا زمناً طويلاً، فقم بما تستطيعه لإسعادها، لا بد أنها تتمنى لو أن معاليه كان أكثر اهتماماً بها. إنه متدفق بالحياة والرجولة في شخصيته، وقد حرص على إظهار مدى إخلاصه لأمه، ولكنه يفتقر إلى العمق. وعلى الرغم من ذلك فإنه بارع ومركب على نحو ملحوظ، وأكثر تعلقاً بالعلم مما يستحق هذا العصر المنحدر، بحيث أنه على الرغم من نزقه فإنه لا يمكن أن يكون هناك أحد أكثر بعداً عن أن تطاوله اللائمة».

واصل حديثه: «أتساءل عما إذا كانت جلالتها لديها من يعتمد عليه في خدمتها في هذه الريح الفظيعة، وأعطى ابنه هذه الرسالة ليحملها إليها: «ما رأيك في الضجة التي أحدثتها الريح البارحة؟ ثمة ريح ألمت بي أيضاً[1]، ومع انطلاق عاصفة كهذه، فقد ترددت معنوياتي كثيراً، وأخشى أنني مضطر في الوقت الراهن للعناية بصحتي».

نزل الرقيب من الشرفة، وشرع في المضي نحو مقر جلالتها عبر الباب المفضي إلى الدهليز الموصل بين المقرين. بدا رائعاً للغاية في الفجر المطل. وقف إلى الجنوب من جناح جلالتها الشرقي، فرأى أن دارها الرئيسية بها مصراعان مفتوحان، وأن الستائر الحاجبة مرفوعة وأن هناك نسوة جالسات هناك في ضوء الصباح المبكر الواهن. كان هناك الكثير منهن في مقتبل العمر، مستندات إلى الحاجز، وانعكست حرية سلوكهن بعض الشيء على ملابسهن، لكن ألوانها المنوعة جعلتهن يشكلن لوحة جميلة في الضوء الخافت. جعلت جلالتها تابعاتها الصغيرات ينزلن إلى الحديقة ليحملن الندى إلى صراري الليل في أقفاصها. راحت أربع أو خمس منهن، في أردية حمراء وردية وبلون زهرة النجمية مع أثواب فاتحة أو قاتمة وعباءات مناسبة للموسم، يتجولن هنا وهناك، حاملات أقفاصاً متنوعة الألوان وهن يقطفن زهوراً جذابة مثل القرنفل ويحملنها إلى مولاتهن، وقد بدون جميعاً جميلات، فيما ألوان أرديتهن تتداخل في الغمامات، وحملت إليه الريح عبقاً كعبق زهور النجمية وعبيراً كالبخور، بحيث أنه اعتقد أن هذا البخور لابد أنه لامس كمّي

(1) عُزيت انحرافات مختلفة في الصحة إلى ولوج «الريح» البدن. وجينجي يتخذ من ذلك عذراً لعدم قيامه بزيارة أكيكونومو بنفسه.

جلالتهـا[1]. غلبه هذا التألق الرائع على نفســه، فتردد في المضـي قدماً، ولكن بعد التنحنح في حرص تقدم على الرغم من ذلك. انسـلت النسـوة متراجعات، من دون أن يبدو عليهن الاسـتياء أو التجمل. وعندما كانت جلالتها قد مضت إلى القصر لأول مرة كتابعة صغيرة، كان قـد سُـمح له برؤيتهـا، ولذا فـإن وصيفاتها لـم يكنَّ علـى ذلك القدر مـن الخجل منه. وبعد إبلاغ الرسـالة التي يحملها من أبيه، انتهز الفرصة ليعطي لنايشـي وسايشو رسائل من لدنـه[2]، حيـث أنـه كان قد تكهـن بوجودهما هناك. وعلـى الرغم من ذلك، فـإن جلال ما يحيط بهن حمل إلى الذهن اهتمامات أخرى حزينة.

كانـت كل المصاريـع مفتوحـة في الجانب الجنوبي الشـرقي، حيث مضـت تحدِّق في الزهـور، التـي كانـت قد وجـدت أن من الصعـب أن تتركها في مسـاء اليوم السـابق، وهي الزهور التي كانت الآن ممزقة، كأنما لـم يكن لها وجود قط، أوصل النقيب رد جلالتها من حيث وقف عند الدرج: «كنت قد علقت الآمال، مثل طفلة خائفة، على أنك ستحافظ عليَّ من العاصفة، لكنني أفضل حالاً الآن».

قـال جينجي: «كم هي مخلوعة الفـؤاد جلالتها! لا بد أنني قد خيبت أملها، فليلة كتلك يمكن أن تخيف أي امرأة». ومضى إليها مباشرة.

رفع جينجي السـتائر الحاجبة، ودلف إلى الداخل ليرتدي عباءة رسـمية، ولمح النقيب كماً يحرك ستاراً قائماً إلى وضعية أقرب. لا بد أنها هي! جعلت هذه الخاطرة فؤاده يخفق مدوياً، أو هكذا بدا له، فأشاح بناظريه بعيداً.

أشـار جينجـي في هدوء متملياً في المرآة؛ «النقيـب أنيق للغاية هذا الصباح. لا بد أنه لا يـزال صبياً بالمعنى الصحيح، ربما اقتضى الأمر عيني أب ليرى فيه شـاباً جديراً بالتقدير». بدا مسـروراً بشـباب محياه الدائم. أضـاف: «إن لقاء جلالتها يجعلنـي عصبياً على الدوام. ومن الجلي أنه ليس فيها ما يثير الرهبة، ولكنني لا أسـتطيع منع نفسـي من الشـعور بذلك، فهي لها أعماق شـديدة المراوغة. وأياً ما كانت عليه من لطف أنثوي، فإن بها ما يتجاوز ما تراه العين».

---

(1) أثار معنى هذه الفقرة جدلاً. وأحد الألغاز في هذا الصدد يتمثل في أن زهور النجمية ليست لها رائحة.

(2) وصيفتان مقربتان إلى أكيكونومو.

فـي طريقـه للخـروج لاحظ مدى شـرود النقيب إلى حد أنـه لم يلحظ إلا بالـكاد أبان، وأياً كان ما لمحته عينه الحادة، فقد التفت إلى الوراء نحو محبوبته وقال: «أتسـاءل عما إذا كان النقيـب قـد رآك بالأمس، خلال هبوب تلك الريح؟ فقد كانـت الأبواب مفتوحة، كما تعلمين».

تضرَّج وجهها وقالت: «كيف أمكنه ذلك؟ إنني لم أسمع أحداً عند طريق الجسر قط».

راح جينجي يفكر، وهو منطلق إلى الخارج: «على الرغم من ذلك، فثمة أمر غريب فيما يتعلق به».

رصـد النقيب وجود النسـوة التابعات لجلالتها عند الباب المفضي إلى طريق الجسـر، بمجـرد دخول أبيه مجتازاً سـتائرها الحاجبة، مضى إليهن ليتجـاذب كلمات قلائل معهن. غير أن همومه جعلته يبدو أقل مرحاً من المعتاد.

مضى جينجي شـمالاً مباشـرة من هناك إلى السـيدة المقبلة من أكاشـي، حيث بدلاً من الطاقـم المناسـب مـن العاملات في الـدار لم ير إلا خادمات فحسـب يتحركـن في أرجاء الحديقة. تداخلت الأسوار الخفيضة مع زهور الجُريس التي زُرعت خصيصاً لها وتناثرت زهور الجنطيانا في كل مكان، وبد أن الفتيات التابعات الصغيرات ذوات الملابس البسيطة في أرديتهن الجميلة يبحثن عن هذه الزهور، ويقمن بإعادتها إلى موضعها على أفضل وجه يسـتطعنه. وكانت جالسـة عند الشـرفة تعزف بحزن على آلة السـونو كوتو، عندما سمعت صيحات التحذير تتعالى من مرافقيه، وكانت الطريقة التي أسقطت بها عباءة على ملابسها العادية الرقيقة[1]، لإظهار توقيرها له، مؤثرة في النفس. وأثار شعورها بخيبة الأمل أنه غادر ثانية بعد الجلوس معها ليسأل عن حالها خلال العاصفة. غمغمت لنفسها:

«زفيف الريح العابرة، كشأن الريح دوماً، تحرك القصب

حاملة، في غمار حزني، لمسة أخرى من الصقيع»[2].

كانـت السـيدة المقيمة في الجناح الغربي قد أغفت في وقـت متأخر من الليل، بعد ليلة

(1) كان «المبذل» (كوتشيكى) رداء شبه رسمي. ويوضح شرح مبكر للحكاية فعل «أسقطت» بالإشارة إلى أن عباءة كانت معلقة على مشجب غير بعيد، فبادرت ببساطة إلى جذب العباءة لتنسدل عليها.

(2) الريح التي تصدر زفيفها في القصب هي زيارة جينجي التي تعوزها الحماسة.

مفعمـة بالفـزع لم يغمض لها فيهـا جفن، وكانـت الآن تنظر فقط إلى مرآتهـا. أمر جينجي مرافقيه بألا يطلقوا صيحات التحذير، ودخل المكان في صمت متعمد. جلست هناك وقد غمرها ضوء الشـمس مظهراً جمالها المتألق، وستائرها المطوية مستندة إلى أحد الأركان، وقـد بـدت الغرفة غارقـة في فوضى تامة. جلس إلـى جوارها، وحوَّل العاصفة نفسـها إلى مناسـبة لإحراجهـا بثرثرته المعتـادة التي ضايقتها إلى حـد انفجرت معه أخيراً: «هوسـك الفظيع هذا هو السبب في أنني تمنيت البارحة أن تحملني الريح بعيداً!».

ابتسـم جينجي مبتهجـاً: «أترغبين في الذهاب مع الريح؟ لا يمكـن أن تكوني جادة في هذا. وعلى الرغم من ذلك فإنني أحسب أن في ذهنك مكاناً آخر. هكذا فإن هذا ما وصلت إليه تدريجياً في شعورك نحوي. حسناً، ليس بمقدوري أن ألومك على ذلك».

ابتسـمت بدورهـا، عندما أدركت إلـى أي مدى كانت صريحة فـي حديثها، الأمر الذي أضفـى لوناً وتعبيـراً جميلين على الوجه الذي أطل مكتمـلاً، مثلما حامل مصباح صيني[1] من بين خصلات شعرها الجميل. والابتسامة العريضة للغاية تفتقر إلى وقار معين، لكن ما من شيء آخر فيها كان يمكن أن يؤخذ عليها.

تـاق النقيـب إلى رؤيتها بنفسـه، الآن فيمـا أبوه يتحـدَّث إليها على مثل هـذا النحو من الاسـتغراق. كانت سـتارة قائمة في موضع وراء سـتارة الركن الحاجبـة، ولكنها غير مرتبة قليلاً، عندما نحَّى باباً منزلقاً وجد أن كل الحواجز منحاة، وأتيح له أن يرى المشهد كاملاً، فأذهلـه أن يـرى جينجي وهو يغازلهـا بصورة جلية، فأدهشـه ذلك أعظم الدهشـة. حدَّث نفسـه: إنه يفتـرض أن يكون والدهـا، ولكنها أكبر سـناً من أن يأخذها فـي أحضانه! جعلته الغرابـة المذهلـة للمشـهد يواصـل المراقبة، علـى الرغم مـن خوفه من أن يُكتشـف أمره. كانـت محتجبـة وراء أحـد الأعمدة، وتنظـر بعيداً قليلاً عـن جينجي، ولكنـه اجتذبها إليه، فانتشـر شـعرها مثلما موجـة. وأوحت الطريقة المستسـلمة التـي انحنت بها عليـه بالألفة التامـة، علـى الرغم من انزعاجها وكربها الجليين. لا. هذا مسـتحيل! مـا الذي يعنيه ذلك، فهو لم يقم بتربيتها بنفسـه، لا بد أن ذلك يفسـر السـر في شـعوره نحوها هكذا الآن. إنه لم يتـرك ركنـاً لـم ينقب فيه. أحـس النقيب بالخجـل من خواطره هو نفسـه. إنهـا أخته، نعم،

---

(1) الغلاف البرتقالي الشبيه بورقة رفيعة لفيساليس الكيكينجي نبتة المصباح الصيني أو الكرزة العنقودية اليابانية.

ولكــن بالنظــر إلى جمالها، فإن بمقدوره في يســر أن يتخيل نفســه وهو يتراجــع إلى الوراء قليــلاً، ويخلص في نهايــة المطاف إلى أنهما مــن أمين مختلفتين، ويضل طريقه هو نفســه على الشــاكلة ذاتها، وعلــى الرغم من أنها لا ترقــى إلى الســيدة التــي كان قد رآها خلســة بالأمس، فمن المؤكد أنها من الطبقة نفسها، ورؤيتها تجعل المرء يبتســم حبوراً، وتراءت لذهنــه فــي التو صــورة ورود كيريــا متفتحة، مثقلة بالمدى في سنا الشمس الغاربة. ولم تكن الصورة متماشية مع الفصل الراهن فسبح لكلا على الرغم من ذلك فقد بدا أنها مناسبة. ومع ذلك فإن الزهور لا تدوم طويلاً، وسرعان ما تذبــل، لقد كان جمالها حقاً يتجاوز مثل هــذه المقارنات. لم يقبل أحد ليقطع الطريق على همســاتهما الملحــة، ولكن لســبب لم يســتطع إدراكــه انبعث جينجــي واقفاً فــي التو، وقد ارتسمت الجدية على محياه.



قالت:

«الزهرة التي وقعت في حبائل الريح وتموجاتها

تحس بألا أمل لها إلا أن تذوي أخيراً، وتموت».

لم يســتطع ســماعها، لكن جينجي كرَّر القصيدة، فأهاب به خليط من السرور والرفض أن يواصــل مراقبــة ما يجري، لكنه انســحب علــى الرغم من ذلك، حيث لــم يرغب في أن يدرك جينجي إلى أي حدّ كان قريباً منهما.

رد جينجي قائلاً:

«لو أن الزهرة استسلمت لنداء الندى الخفي

فإنها عند لمسة الريح ما من حاجة تدعوها لأن تذوى وتموت[1].

ما عليك ألا تفكري في شجرة الخيزران الضارعة!».

---

(1) «لو أنك امتثلت لرغباتي المكنونة فحسب!».

لا بـد من أن النقيب قد سـمعه بصـورة خاطئة، فما من أحد ينبغـي أن يتنصت على مثل هذه الأمور.

من هناك مضى جينجي إلى الشـمال الشـرقي، ولسبب أو آخر، ربما برد الصباح الباكر، كانـت وصيفـات متقدمات في العمر عديـدات عاكفات على الحياكة أمام سـيدتهن، بينما مضت الوصيفات الأصغر سناً يفردن قماشاً على ما بدا صناديق صغيرة. وكانت السيدة قد نثـرت في كل الأرجاء حولها بعض القماش الحريري الأصفر وبعض القماش الأحمر في لون البرقوق، والذي تألق بلمعة بالغة الجمال.

سـأل جينجي: «أهذا ثوب مسترسـل للنقيب؟ أتوقع أن حفلة جلالته المقرر إقامتها في حديقة البلاط[1] سـتلغى، فما هو مغزى إقامة هـذا الحفل بعد كل ما فعلته الريح؟ أظن أننا مقبلون على خريف حزين». ماذا تراه يمكن أن يكون؟ هكذا راح يتسـاءل. بينما كانت كل الألـوان جميلـة على نحـو خلاب، وأدرك أنها جيـدة في هذا النوع من الأمور مثل السـيدة المقيمة جنوباً.

كانـت عبـاءة له مزخرفـة بدوائر زهرية قد صُبغـت بخفة لتصل إلى درجة لونية متسـمة بالكمال، باستخدام براعم زهور النهار المقطوفة حديثاً. قال: «يليق بالنقيب أن يرتدي هذا النوع من الملابس، فهو يبدو أفضل على شاب في مقتبل العمر». وبعد ملاحظات مختلفة من هذا النوع انطلق في مسيرته.

كان النقيـب قـد بـدأ في الشـعور بالضجر مـن مصاحبة أبيـه في هذه السلاسـل المتعبة مـن الزيـارات، وبالإضافـة إلى ذلك فإن لديه رسـالة يتعيـن عليه أن يكتبها، وأثـار قلقه أن يـرى الشـمس وقد علت كثيراً في السـماء، وفي غضون ذلك كانوا قـد وصلوا إلى مقر ابنة جينجي.

قالت مربيتها: «مولاي، إنها لا تزال مع سيدتي. وقد أخافتها الريح، ولـم تستطع النهوض هذا الصباح».

(1) تسوبو سينزاي، مساحة الحديقة الواقعة بين مسكن الإمبراطور (سيريودين) وجناح كورودين، الواقع إلى الغرب مباشرة.

تدخل النقيب في الحديث: «جعلني ضجيج العاصفة آمل أن أقدم يد المساعدة هنا. ولكن سعادتها كانت أكثر انزعاجاً من أن تسمح لي بذلك. كيف حال بيت الدمى الخاص بها؟».

ابتسمت الوصيفة وقالت: «إن النسيم الصادر عن مروحة يجعلها تخشى كارثة. وقد أوشكت هذه الريح على أن تقضي على بيت الدمى تقريباً. ولسنا متأكدين من الكيفية التي يمكننا إصلاحه بها».

«هل لديك بعض الورق العادي؟ إنني أحتاج إليه وإلى محبرتك».

مضت إحدى الوصيفات إلى خزانة، وأخرجت لفافة من الورق، أعطتها إياه في غطاء صندوق المحبرة. قال: «آه، لا، ما كنت لأجرؤ على طلب ذلك»[1]. ومع ذلك فقد أحس بأنه في وضع أحسن قليلاً، عندما فكّر في أين تقف السيدة في الجانب الشمالي الغربي[2]، ومضى قدماً في كتابة رسالته. كانت على ورق رفيع، أرجواني اللون، واستجمع الحبر بعناية وكتب بتركيز، متوقفاً بين الحين والآخر لتفقد طرف الريشة. ورسم صورة جميلة للغاية. ومع ذلك فقد كانت قصيدته مبتذلة على نحو فظيع، ومن المؤكد أنها لا تستحق الإشادة:

«دعي الريح الضارية تهب هذا المساء، والسحب الخفيضة تجوب السماء،

فلا سبيل إلى نسيانك حتى عندما أحاول!».

وأرفق بالرسالة عشبة حسك أرز طوحتها العاصفة[3].

أبدين اعتراضهن قائلات: «لقد حرص ملازم كاتانو على التيقن من أن نباته أو زهرته يتفق مع رسالته».

(1) كان قد طلب ورق المرأة ومحبرتها، ولكن ما تقدمه إليه يعود إلى أخته غير الشقيقة.

(2) لم يكن بحاجة إلى الشعور بالرهبة، أخذاً في الاعتبار بهوية السيدة أكاشي.

(3) كاريو كايا، نوع من العشب المرتفع بحسكات سنابل طويلة يرتبط من بعيد بالأرز. كوكين روكوجو 3785: «لا يفيدني كوني جاداً على الإطلاق، آه، لسوف أتقلب معك مثلما عشب حسكي تذروه الريح، في انغماس وحشي!».

«آه، لم يخطر لي على بال أن أضع اللون في اعتباري قط! بم توصين بدلاً من ذلك؟[1] بدا أنه ليس لديه الكثير مما يقوله لهاته النسوة، ولم يسايرهن، وإنما عاملهن بكبرياء. وبعد ذلك كتب رسالة أخرى، وأعطى الرسالتين كلتيهما إلى القيمة الثانية، التي قامت وسط الكثير من التهامس بتمرير رسالة إلى تابعة صغيرة جميلة وأخرى إلى تابع يوحي بالثقة تماماً، وتاقت الشابات أشد التوق إلى معرفة إلى من أُرسلتا.

توثبن حياة وحركة حيال خبر عودة سيدتهن، وشرعن في ترتيب الستائر القائمة وهلم جراً. كان النقيب، الذي لم يُظهر في العادة مثل هذا الاهتمام قط، حريصاً على متابعة المقارنة بين الوجوه، التي تشبه الزهور التي كان قد رآها، وحرص أشد الحرص على أن يخفي نفسه وراء ستارة حاجبة قرب الباب المزدوج، وأن يحدِّق عبر فتحة في الستارة القائمة، وفي التو أقبلت خلف ستارة. كانت هناك نساء عديدات يقطعن عليه مجال الرؤية، وأحس بالضيق الشديد، حيث أنه وجد أنه لا يستطيع تبين الكثير، كان شعرها الذي لم يمتد بعد ليصل إلى الأرض منتشراً على ثوبها الذي يجمع بين اللون الرمادي الشاحب واللون البنفسجي، وبدت رشيقة وصغيرة للغاية على نحو فاتن إلى حد أنه أحبها كثيراً، لم يكن قد لمحها منذ عامين، وحدَّث نفسه بأنها كبرت على نحو جميل منذ ذلك الحين. ترى ما الذي ستكون عليه عندما تكبر؟ بالإضافة إلى براعم الكرز وورود الكيريا التي كان قد رآها، فإنها يمكن أن توصف بالوستارية، نعم، خلص إلى أن جمالها هو جمال الوستارية المزهرة على شجرة قوية ومتمايلة مع النسيم. لو أنني كان بمقدوري فقط البقاء مع مثل هاته النسوة كيفما طاب لي، ليلاً ونهاراً! وينبغي أن يكون من الممكن أيضاً القيام بذلك لولا هذا الحاجز البغيض بيننا! لم يستطع الشاب قوي البنية تمالك نفسه إلا بالكاد.

ألفى سمو الأميرة جدته، مشغولة في هدوء بصلواتها. كانت شابات كثيرات رائعات يقمن على خدمتها، ولكن أياً منهن لم تماثل بعد في المظهر أو الرشاقة أو الزي السيدات اللواتي رآهن لتوه في قمة تألقهن. كانت الراهبات الوسيمات في ملابسهن المتواضعة ذات اللون الحبري[2] هن اللواتي يمنحن المشهد بهاءه المؤثر في النفوس حقاً. وكان

---

(1) إنه يعمد إلى التهكم، فالنسوة لم يدركن المغزى الجنسي للعشب الحسكي.

(2) كان من شأن كبرى وصيفات جدة يوجيرى أن يكن قد سلكن درب الرهبنة معها.

معاليه هنالك، وكانت المصابيح مضاءة، والاثنان يتحدثان في هدوء.

قالت سموها وقد بدا جلياً أنها منخرطة في البكاء: «انقضى وقت طويل للغاية منذ رأيت فتاتي آخر مرة. هذا قاس للغاية».

«آه، نعم، سأجعلها تجيء إليك قريباً، إنها تبدو على نحو ما نحيفة، وقد انخفض وزنها بصورة ملموسة، وإن شئت الحقيقة، فإنني أعتقد أن المرء يمكنه الاستغناء عن البنات، فهن لسن إلا متاعب نحتملها». مضى يتحدَّث بالرفض العنيد ذاته كعهده، جارحاً مشاعرها للغاية بحيث أنها لم تضغط عليه أكثر من ذلك.

واصل حديثه قائلاً: «والآن فيما لديَّ ابنة ميؤوس منها تماماً، فإنني ليست لديَّ فكرة عما أفعله بها».

«آه، لا، يقيناً لا، ما من ابنة لك يمكن أن تكون بذلك السوء!».

يقولون إنه رد قائلاً: «تلك هي جلية الأمر. إنها كارثة! ولا بد لي من تدبر السماح لك برؤيتها».

29

ميويوكي

الرحلة الإمبراطورية

تعنـي كلمـة «ميويوكـي» الرحلـة الإمبراطورية. وفي هذا الفصل يمضي الإمبراطور رايزي في جولة شتوية إلى أوهارانو، الواقعة إلى الجنوب الغربي مباشرة من المدينـة. وتظهر هذه الكلمة (كمقابل لكلمة «الثلج») فـي قصيدة بعث بها جينجي، رداً على قصيدة من نظم الإمبراطور:

«لم يُقدر كاليوم قط لمنحدرات أوشيو، حيث الثلوج المنهمرة تباعاً

تثقل صنوبرات الغابة، أن تشهد روعة حقيقية».

الصلة بالفصول السابقة

يبدأ «الرحلة الإمبراطورية» في الشهر الثاني عشر من العام الذي غطته الفصول الستة السابقة، وتقع أحداثه في الفترة الممتدة حتى الشهر الثاني من العام التالي (العام السابع والثلاثين من عمر جينجي).

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 36 إلى 37 عاماً.

السيدة المقيمة في الجناح الغربي، 22 إلى 23 عاماً (تاماكازورا).

سيدة جينجي، سيدة الجانب الجنوبي الشرقي، 28 إلى 29 عاماً (مورا ساكي).

جلالة الإمبراطور، 18 إلى 19 عاماً (رايزي).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

معالي وزير الحرب، أخ لجينجي (هوتارو هايوبوكو نو ميا).

قائد الميمنة، أوائل الثلاثينات من العمر (هيجيكورو).

النقيب، ابن جينجي، 15 إلى 16 عاماً (يوجيرو).

سمو الأميرة والدة تو نو تشوجو (أوميا).

النقيب، ابن تو نو تشوجو الأكبر، أوائل العشرينات من العمر (كاشيواجي).

الملازم المراقب. حوالي العشرينات من العمر (كوباي).

الزوجة كوكيدن، ابنة تو نو تشوجو، 19 إلى 20 عاماً.

الفتاة القادمة من أومي، ابنة تو نو تشوجو (أومي نو كيمي).

هكذا أمعن جينجي التفكير في كل إمكانية متاحة على أمل تحسين الأمور، ولكن «شلاله الصامت» ذاك[1]، شكَّل عبئاً حزيناً ومؤلماً للشابة المقيمة في الجناح الغربي، وتعرضت سمعته لخطر داهم تماماً على نحو ما قدرت السيدة المقيمة في الجناح الشرقي[2]، ولا شك في أن معاليه، الذي كان دائماً يتصرف بحدة بالغة، ولم يكن بمقدوره احتمال أصغر هفوة، سيقيم الدنيا ويقعدها عليه أمام الجميع، ولكن جينجي كان يعرف أن ذلك من شأنه أن يجعله يبدو أحمق فحسب، وصرف النظر عن الفكرة.

كان من المقرر أن يقوم جلالة الإمبراطور في الشهر الثاني عشر برحلة إلى أوهارانو،[3] وتاق الجميع إلى أن يكونوا هناك. ومضت كل السيدات من روكوجو للتفرج. انطلق جلالة الإمبراطور في رحلته في ساعة الأرنب[4]، وانعطف غرباً من سوزاكو على امتداد جوجو[5]. تراصت عربات متابعي الموكب في صف ممتد بلا انقطاع، على امتداد الطريق إلى نهر كاتسورا. لم يقدر لكل رحلة إمبراطورية أن تستقطب كل هذا الاهتمام بأي معيار في ذلك اليوم، أبدى كل الأمراء وكبار النبلاء اهتماماً خاصاً بإعداد جيادهم وسروجهم، واختاروا أتباعاً ومرافقين طوال القامة، وبالغي الوسامة، وجعلوهم يرتدون ملابس أنيقة، بحيث شكَّلوا مشهداً نادراً في روعته. ومن الطبيعي أن كل وزراء الميمنة والميسرة، بمن في ذلك معالي وزير شؤون القصر والمستشارين ومن يلونهم في المرتبة كانوا حاضرين بلا استثناء. وقد ارتدى الوصفاء الخصوصيون، وصولاً حتى إلى المرتبتين

---

(1) متابعته الصامتة لتاماكازورا. أوتوناشي نو تاكي (شلال أوتوناشي) هو بالمعنى الصحيح اسم، ولكن لفظ أوتوناشي يعني كذلك «لا صوت» وهذا المعنى المزدوج يتم استخدامه في الشعر. وتورد الشروح المبكرة للحكاية قصيدتين كانتا لولا ذلك ستظلان مجهولتين، ربما تشير إليهما هذه الفقرة (جينجي مونوجاتري كوتشوشاكوشو إنيو واكا 205، 1481).

(2) مورا ساكي.

(3) تعد أوهارانو، الواقعة إلى الغرب مباشرة من المدينة، المنطقة المنحدرة (نو) أسفل جبل أوشيو وموقع مزار أوهارانو، والمعادل في كيوتو لمزار كاسوجا في نارا، والمزار الحارس لقبيلة فوجيوارا. وتشير الشروح المبكرة للحكاية إلى أن هذه الصورة استلهمت من زيارة الإمبراطور دايجو لأوهارانو في اليوم الخامس من الشهر الثاني عشر من عام 928..

(4) بين الساعة الخامسة والسابعة صباحاً.

(5) كان سوزاكو هو الطريق العام الرئيسي للمدينة الممتد من الشمال إلى الجنوب. وتمتد جوجو (الجادة الخامسة) من الشرق إلى الغرب.

الخامسة والسادسة، عباءات رسمية في لون أوراق الشجر الخضراء فوق أردية ضافية في لون العنب. مضت ندف ثلج بالغة الضآلة في التساقط، بحيث أن السماء ذاتها أضفت، على امتداد الطريق، على المناسبة روعتها الخاصة. وقد جلب الأمراء وكبار النبلاء الذين سيشاركون في الصيد بالصقور أردية صيد متألقة. وارتدى الصقَّارة المنتمون إلى حراس القصر ملابس ذات تصميمات زخرفية لافتة للنظر[1]، أضفت على المشهد لمسة خاصة. وكان الجميع قد اندفع لرؤية هذ المنظر، وشكَّلت عربات متواضعة على نحو مثير للشفقة تابعة لأناس لا يعرفهم المرء ملمحاً محزناً بعجلاتها المحطمة. وانطلقت عربات رائعة عديدة في مسيرتها بصورة فخمة قرب بداية الجسر العائم[2].

كانت السيدة الشابة القادمة من الجناح الغربي هناك بدورها. وبين كل السادة أمامها الذين يرتدون أبهى حليهم كانت لا تزال لا تجد من يوضع موضع المقارنة مع جلالة الإمبراطور الذي رأت ملمحاً جانبياً له، وقد بدا ثابتاً في جلسته في أرديته الحمراء. وأبدت خلسة اهتماماً خاصاً بمعالي والدها، ولكن على الرغم من مظهره المتألق وحضوره الوقور، فإنه لم يكن هناك ما يُقال عنه أكثر من ذلك. وقد كانت الشخصية الأكثر تأثيراً على نحو يفوق غيره بكثير في صفوف العامة، ولكنها لم تستطع إبعاد ناظريها عن ذلك الجالس في المحفة. النقيب أو الملازم أو الوصيف الخصوصي فلان الفلاني، الذي كانت الشابات الأخريات يتطلعن إليه ويتنهدن، قائلات: أليس وسيماً! أو: إنني أحب أسلوبه! من الطبيعي أنه لم يعن شيئاً بالنسبة لها، ذلك أن جلالة الإمبراطور قد نحاهم جانباً ببهائه. وكان جينجي يشبهه للغاية بحيث أنهما كانا يمكن أن يكونا الرجل ذاته، ولكن جلالة الإمبراطور تجاوز، في اعتقادها، جينجي إلى حد ما في جلاله، وكان هو الذي يُعد ظهوره وحضوره أعجوبة للناظرين. ومن المؤكد أنه لم يكن له نظير. وكانت قد افترضت أن كل السادة النبلاء جميلون، حيث اعتادت على بهاء جينجي والنقيب، ولكن صحبة كهذه ألقت ظلاً عليهما، بل إنه لم يبد أن لهما العيون والأنوف ذاتها، وما كانا ليستحقا نظرة مقارنة بجلالة الإمبراطور، وكان معالي وزير الحرب هناك أيضاً. وقد خدم قائد الميمنة، الذي يبدو دائماً مكيناً مهيباً، جلالة الإمبراطور على نحو مميز اليوم، ولكن لحيته

(1) سوريجورومو، ملابس طُبعت عليها أشكال تجميلية عن طريق فرك خلاصات نباتات الصبغ المختلفة عليها.
(2) أوكيهاشي، نوع من الجسر المؤقت (ألواح خشبية تُمد على زوارق أو أطواف فوق نهر كاتسورا).

السـوداء كانـت بعيدة عن الجاذبية تماماً[1]. ما الذي يمكـن أن يربط مثل هذا الوجه بوجوه النسـوة ذوات التجميل البديع؟ كانت قد سـاورتها شـكوك جدية حول مـا يعتزمه جينجي بالنسـبة لهـا، حيـث أنه قد يتضـح أن الخدمة بالقصر ربما قـد يتبين أنها ممـا يتدنى بمكانة المـرء على نحو رهيب[2]، ولكن بغض النظر عـن الجوانب الحميمية المتعلقة بذلك، فإن مجـرد احتمال خدمـة جلالة الإمبراطور والوجود معـه في مكان واحد بدا لهـا أمراً بهيجاً للغايـة حقاً. توقفـت محفة جلالة الإمبراطـور عندما وصل الموكب إلـى أوهارانو. تناول كبـار النبلاء الطعام تحت خيمة ضربت لهم، وغيروا ملابس البلاط ليرتدوا مكانها ملابس الصيـد. قـدَّم جينجي من روكوجـو الخمر والمرطبـات. وكان قد اعتزم الحضور بنفسـه، وأعلن أنه سـيجيء، ولكنه اضطر لإبلاغ جلالته بأن طقس العزلة يفرض عليه التغيب، في نهاية المطاف. وبعث جلالة الإمبراطور إليه بمساعد حاجب حراسة البوابة اليسرى حاملاً زوجاً من طيور التدرج على غصن شـجرة. وأياً كانت رسـالته، فإنه سـيكون من المضجر القيام بتكرار تفاصيل مناسبة كهذه[3].

«هلم اليوم وتعطَّف مجدداً على مأوى انطلقت منه طيور التدرج يوماً

في تلك المرة على جبل أوشيو، فوق المنحدرات التي يكسوها الثلج»[4].

هكـذا كانـت قصيدتـه. ولا بد أن مستشـاراً كان قـد انضم إلـى الموكـب المنطلق إلى أوهاتانو من قبل.

رحب جينجي بمبعوث جلالة الإمبراطور ترحيباً حاراً ومفعماً بالتوقير، ورد قائلاً:

«لم يقدَّر كاليوم قط لمنحدرات أوشيو، حيث الثلوج المنهمرة تباعاً

تثقل صنوبرات الغابة، أن تشهد روعة حقيقية[5]».

---

(1) ومن هنا فإنه سيعرف باسم هيجيكورو، «ذو اللحية السوداء» وربما كانت له لحية حقاً أو ربما كان شعر الوجه الثقيل يمنحه فكين قاتمين فحسب.

(2) حيث أن الإمبراطور محاط بالنساء بالفعل (أكيكونومو، الزوجة كوكيدين) اللواتي يتجاوزنها مرتبة وقدراً.

(3) سيكون مما لا يليق بامرأة أن تكرر ما قاله الإمبراطور في مناسبة رسمية.

(4) يومىء «مأوى انطلقت منه طيور التدرج يوماً» (تاتسو كيجي نو فوروكي آتو) إلى زيارة سابقة إلى أوهارانو من قبل مستشار، بمناسبة رحلة إمبراطورية.

(5) تحقق قصيدة جينجي، شأن القصيدتين التاليتين لها، تلاعباً فيما يتعلق بلفظة ميوكي «رحلة إمبراطورية»

لست أتذكر إلا أطرافاً ونتفاً مما سمعته آنذاك، وهذا كله قد يكون خطأ.

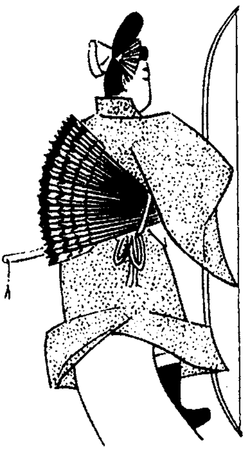
في اليوم التالي، بعث جينجي برسالة قصيرة إلى الجناح الغربي: «هل رأيت جلالة الإمبراطور بالأمس؟ ربما تحسين بالميل أكثر مني إلى الأمر الآن». كانت الرسالة مكتوبة على ورق أبيض عادي، وبصورة عفوية تماماً وغير موحية بمعان أخرى بالمرة.

قرأتها بابتهاج. وتساءلت باسمة ومندهشة لفهمه لها على هذا النحو الدقيق: «ما الذي يتحدَّث عنه؟» وردت تقول:

«مع حجاب الغمام وسحب الصباح الضبابية التي تنثر الثلج

كيف كان بوسعي أن أرى كل أنوار السماء؟[1].

لست أدري كيف أفكِّر في أيّ من هذا».



محارب مع قوس وكنانة

أطلع جينجي محبوبته على هذه الرسالة، وقال لها: «لقد أهبت بها أن تمعن النظر في الأمر، كما تعلمين، ولكن هناك جلالة الإمبراطورة، وطالما أنها تقيم هنا، فإن ذلك يجعل الأمور صعبة، وعندما يعرف معاليه بأمرها، فإنه عندئذ سيبرز موضوع ابنته زوجة جلالة الإمبراطور. ويبدو أن ذلك هو ما يثير قلقها. ومن شأن فتاة لمحت جلالته من بعيد أن تسعدها فكرة الدخول في خدمته الحميمية، طالما أنها ليست بالغة الخجل».

ابتسمت، وقالت: «أنت فظيع! حتى إذا كان جلالة الإمبراطور قد أثَّر فيها بصورة مواتية، فليس بالإمكان أن تطرح نفسها لاختيار خدمة القصر من تلقاء ذاتها!».

قال: «آه، هلمي الآن! إنني على يقين من أنك من تأثرت به أشد التأثر!».

رد على ساكنة الجناح الغربي بصورة مشجعة كعهده معها:

«عندما يتألق ذلك النور الساطع في بهاء لا تشوبه شائبة ملء السماء،

و«ثلج».

(1) «كيف كان بمقدوري أن أرى الإمبراطور على النحو اللائق؟».

اتخذي قرارك واذهبي»!.

على أي حال، كان عليه أولاً القيام بأمر الاحتفال بها كشابة بالغة والقيام بطقس إلباسها نطاق الخصر، وهو الاحتفال الذي جلب من أجله بمزيد من الإخلاص أجمل الأثاث. وكان أي احتفال يميل في حضوره إلى أن يتسم بالكمال على نحو راق، حتى إن كان احتفالاً لا يعنيه كثيراً، وقد كان هذا الاحتفال، الذي قد يتيح له فرصة لإبلاغ وزير شؤون القصر بالحقيقة، واعداً بأن يكون احتفالاً باذخاً حقاً.

وقع اختياره على الشهر الثاني من العام الجديد لإقامة الاحتفال فيه. وراح يحدِّث نفسه: «يمكن حتى لامرأة تحظى بتقدير كبير وتبلغ من العمر ما يجعلها لا تخفي اسمها[1] أن تستغني لبعض الوقت عن تكريم إله أسلافها، طالما أنها لا تزال ضمن عائلتها، وعلى هذا النحو تترك الأمور غامضة على امتداد سنوات، ولكنها إذا أقدمت على الخيار الذي اقترحته، فإن إله كاسوجا سيغضب[2]، وعلى أي حال فإن الحقيقة ستظهر في نهاية المطاف، الأمر الذي سيترك لي صيتاً تعساً دائماً قوامه أنني رجل المؤامرات السيئة، على النحو الذي يقوم الناس من خلاله بإنجاز الأمور الآن سيكون من اليسير عليها اتخاذ اسم جديد[3]، إذا كانت من العامة فحسب، ولكن على نحو ما الحال عليه، بالإضافة إلى ذلك، فإن الصلة بين الأب ومن يولد من صلبه تصمد في وجه كل محاولة لقطعها. يتعين عليَّ المبادرة بالتقدم وإبلاغه بجلية الأمر».

ومن هنا فقد كتب إلى مَعالي وزير شؤون القصر يدعوه إلى طقس إلباس نطاق الخصر[4]، وهو ما رد عليه مَعاليه بأنه لا يستطيع قبول هذه الدعوة لأن أمه قد تواصل

(1) لقبها. كانت الفتاة الصغيرة للغاية تظل داخل عائلتها تماماً، بحيث أنها لا تكون لها هوية اجتماعية بالمرة. ولما كانت تاماكازورا ابنة تو نو تشوجو، فإنها من قبيلة فوجيوارا حقاً، وليست ميناموتو (جينجي) التي يبدو أنها منها.

(2) مزار كاسوجا هو مزار الأسلاف بالنسبة لقبيلة فوجيوارا، وسيستاء الإله إذا خرجت تاماكازورا إلى الدنيا باعتبارها تحمل اسم ميناموتو. ويشير «تكريم إله أسلافها» إلى الحج، إلى أو إلى طقوس تؤديها المرأة نفسها.

(3) أن يتم تبنيها من قبل شخص يحمل لقباً آخر.

(4) ليكون الكوشيوي، الراعي الذي يقوم بعقد نطاق خصر الفتاة. وجينجي يقصد فيما يبدو إبلاغ تو نو تشوجو بهوية الفتاة بعد هذه الفعالية.

مرضها منذ حلول الشتاء. ولم تكن هذه اللحظة المناسبة للنقيب كذلك، حيث أنه كان يمضي الليل في رعاية جدته في سانجو، وقد بلغ منه الاستغراق في ذلك حداً لا يستطيع معه القيام بأي شيء آخر. وراح جينجي يتساءل عما يتعين عليه القيام به. قال لنفسه إن الحياة تمضي مسرعة. وموت سمو والدة الوزير سيعني وقتاً للحداد لا يمكن لها[1] أن تتجاهله بدورها. لا، لسوف أتحدَّث فيما سموها لا تزال على قيد الحياة، ومن هنا فقد انطلق قاصداً مقرها في سانجو، فيما بدا ظاهرياً أنها زيارة للاطمئنان على صحتها.

بحلول ذلك الوقت، كانت أقصر رحلة يقوم بها، مهما كانت خاصة في طبيعتها، تكتسب فخامة رحلة إمبراطورية، ودفع تألق حضوره المتزايد سمو والدة الوزير، فيما هي ترقبه، إلى الاندهاش من وجود مثل هذا الرجل على الإطلاق في هذه الدنيا، إلى أن بدا أن معاناتها المتفاقمة قد انحسرت، وجلست لاستقباله وحادثته على نحو حسنٍ، وذلك على الرغم من الضعف البادي، الذي استندت به على مسندها.

قال: «إنني أعرف أن حالتك ليست بالخطيرة، ولكنها أزعجت إلى حد كبير فتانا النبيل، الذي بدا شديد الانزعاج عليك إلى حد أنه جعلني أقلق كثيراً على حالتك. وأي شيء على الإطلاق يمكن أن يسيطر على مشاعري، حيث أنني لم أمض حتى إلى البلاط إلا في المناسبات الخاصة، وأنا أعيش في عزلة هادئة، على العكس من شخص يخدم الإمبراطور. والماضي والحاضر يقدمان أمثلة عديدة على رجال أكبر سناً أحناهم الدهر على نحو مؤلم، لكنهم مع ذلك خدموا البلاد، ولكن بغض النظر عن كآبتي القديمة فإنني فيما يبدو قد اكتسبت الكسل كذلك».

قالت: «انقضت شهور منذ بدأت في معرفة ألوان المعاناة النابعة من التقدم في العمر. وفي هذا العام، عندما ينتابني الشعور بأنني ليس لديَّ متسع من العمر أحياه، فإنني أحزن لأنني قد لا أراك ثانية. ولكن اليوم يبدو لي أنني لا يزال أمامي ردح من العمر لأحياه. وفي سني هذه ما من شيء أندم عليه. ومن يعيشون بعد رحيل كل من يهمهم أمرهم، في اعتقادي، يدخل مرآهم الحزن إلى القلوب، وقد تمنيت أن يكون رحيلي عاجلاً، لو لا نقيبنا، الذي جعلني لطفه الاستثنائي أستشعر ما يكفي من القلق عليه بحيث أبقى على قيد

(1) المراد تاماكازورا. كان الحداد على جدة يدوم عادة خمسة أشهر.

الحياة». اتسم بكاؤها الممتد وصوتها المرتجف بدرجة من الحماقة تحف بهما، ولكن جينجي تفهم حق الفهم السر في شعورها بما تحس به وتعاطف معها.

مضى جينجي وسمو والدة الوزير يناقشان هذا الموضوع أو ذاك من الماضي أو الحاضر، عندما أشار جينجي بقوله: «لا شك في أن معالي وزير شؤون القصر يأتي لزيارتك يومياً. ولسوف يسعدني أن تتيح لي زياراته لك الحديث معه، فهناك شيء لا بد لي من إبلاغه به، ولكن كما ترين فقد منعني من القيام بذلك عدم توافر المناسبة الملائمة للقائه».

قالت: «إنه لا يجيء إلى هنا كثيراً بمثل هذا القدر، سواء كان السبب في ذلك إلحاح واجباته الرسمية أو افتقاره لإرادة القيام بذلك. ترى ما الذي ترغب في قوله له؟ من المؤكد أن النقيب لديه سبب يدعوه إلى النفور منه، وكما أبلغه في غالب الأحوال بنفسي: (لست أدري كيف بدأ هذا كله، ولكن بقدر مايتعلق الأمر بمعاملتك الراهنة المفتقرة للرفق تماماً له فإنه لا سبيل إلى إيقاف شائعة بعد بدء انتشارها، والطريقة التي يتحدَّث بها الناس الآن عنها تجعل الأمر كله يبدو بالغ السخف). وهو ليس من النوع الذي يتراجع عن أي شيء قاله، وبقدر ما يسعني القول فإنه لا يدرك ما الذي أتحدَّث عنه».

ابتسم جينجي حيال افتراضها أنه يفكِّر في النقيب. وقال: «لقد سمعت أنه ربما يضرب صفحاً عن الأمر باعتباره خطأ، ويبدي موافقته في نهاية المطاف، ولذا فقد طرقت الموضوع بنفسي، ولكنني عندما رأيت مدى قسوته في توبيخ الشاب، أسفت لأنني أخذت على نفسي التدخل في هذا الأمر. وكما يقولون فإن كل شيء يمكن إصلاحه بطريقة أو بأخرى، ولست أتفهم لم لا يصلح الأمر بهذه الطريقة، وذلك على الرغم من أن دنيانا تجعل من الصعب تجبير ما ينكسر، وانطباعي أنه كلما طال الأمر الذي يستغرقه شيء في تقويمه وإصلاحه طال أمر انكساره. وأنا شديد الأسف لسماعي بهذا كله».

واصل الحديث على هذا النحو لبعض الوقت، ثم استرسل قائلاً: «بالمناسبة، فإنني أعترف بغلطة بحق شابة كان ينبغي على وجه الدقة أن تكون تحت رعايته، لأنني صادفتها بنفسي، وبما أنها في ذلك الوقت لم تصحح غلطتي، فإنني لم أبذل جهداً لأكتشف المزيد، وإنما قررت بدلاً من ذلك قبول القصة التي روتها لي على علاتها، حيث أنني لديّ عدد محدود للغاية من الأبناء، غير أنني لم أفعل الكثير من أجلها منذ ذلك الحين، والآن سمع

جلالة الإمبراطور على نحو ما بأمرها، وهو يعرب عن اهتمامه بها. وهو يشكو في مجالسه الخاصة من افتقاره إلى سيدة للعاملين بالقصر، ومن دونها فإن مسؤوليات هذا المنصب لا تؤدى بصورة مناسبة، حيث أن النسوة اللواتي تُسند هذه المسؤليات إليهن لا يقدمن خدمة مناسبة، وتمضي أنواع شتى من الأمور بصورة خاطئة. وهو يقول: (في الوقت الراهن فإن السيدتين اللتين تتمتعان بالخبرة في هذا المجال وغيرهما من السيدات المؤهلات لهذا المنصب أيضاً يعربن عن استعدادهن لشغله لكن أياً منهن لن تكون على مستواه. فقد كانت من تعين فيه دائماً من عائلة كريمة المنبت، طيبة السمعة، ولا يعرقلها اهتمام بعائلتها لو أن الخيار مضى إلى الكفاءة والذكاء، فهناك بعض السيدات اللواتي أكسبتهن الخدمة الطويلة فرصة الترقي، حتى عندما كنّ يفتقرن إلى أمور أخرى، ولكن إذا لم توجد سيدة على هذه الشاكلة، فإن المرء يمكنه المضي فقط على أساس السمعة). ذلك ما يقوله جلالة الإمبراطور، ولست أدري كيف يمكن لمعالي الوزير أن يعترض على ذلك. إن خدمة القصر شرف دائماً، ومن هنا فإنه طموح جدير بالتحقيق بالنسبة لأي شخص رفيع المقام أم متواضعه. والناس يشعرون بأن الواجبات الرسمية المعنية ـ إدارة المنصب المعني والاضطلاع بالمسؤولية عن أمور معينة خاصة بالحكم ـ مضجرة وليست مثيرة للاهتمام، ولكنني لست أرى سبباً يدعو لأن يكون الأمر كذلك[1]، وليس بوسعي إلا الاتفاق معه على أن الأمر المهم حقاً، في نهاية المطاف، هو استعداد السيدة نفسها، وعندما استفسر في هذا الصدد عن عمرها، أدركت أنها لا بد أن تكون الابنة التي كان معالي الوزير يبحث عنها. وقد أردت أن أناقش معك كيف يمكن المضي قدماً بالأمر. ولا يفترض بي أن أقابله إلا عندما تقتضي مناسبة ذلك. وقد فكرت في طريقة لإبلاغه بالأمر على نحو أسرع، وكتبت له، ولكنه بدا متردداً، وتذرع بمرضك للاعتذار. وقد خلصت إلى أنه كان محقاً، فالوقت ليس مناسباً، وفكرت في الحديث معك، الآن وقد أصبحت صحتك أفضل بعض الشيء عما كانت عليه في السابق. أرجو أن تبلغيه بالأمر!».

قالت: «ماذا؟ ما الذي يمكن أن تعنيه؟ عندما أدخل داره العديد من الشابات اللواتي تقدمن بهذا النوع من المزاعم، ما الذي يمكن أن يكون قد استحوذ على هذه الشابة فجعلها

(1) يشير تعبير «خدمة القصر» بصفة خاصة إلى العلاقات الحميمية مع الإمبراطور، بكل ما تعنيه مثل هذه العلاقات بالنسبة للمرأة ولعائلتها. والواجبات المرتبطة اسمياً بالمنصب ليست بذات ثقل، بالمقارنة بذلك.

تلجأ إلى شخص آخر؟ هل يمكن أن يكون لديها مايجعلها تشعر بأنها ابنتك؟».

رد جينجي: «هذه قصة طويلة. وأنا على يقين من أن معالي الوزير سيرغب في سماعها بدوره. وأي كشف للنقاب عنها يمكن أن يثير أقاويل مزعجة، حيث أنها قد تفسر على أنها تتضمن علاقات مع من تنتمي إلى العامة على نحو مضجر، ولهذا السبب فإنني لم أبلغ حتى النقيب بجلية الأمر. لطفاً، لا تدعي الأمر يصل إلى المزيد من الأسماع!». قال ذلك ليضمن صمتها.

علم معالي الوزير في مقر إقامته بوصول سمو المستشار إلى سانجو، فقال مندهشاً: «يا لتواضع الاستقبال الذي استقبل به هذا المقر المنعزل مثل هذا النبيل العظيم! إنني أشك في أن أي أحد هناك يعرف حقاً كيفية الترحيب بمرافقيه أو إعداد غرفة لاستقباله. وأحسب أن النقيب كان يقيناً بصحبته». وبعث إلى هناك بأبنائه وبشبان آخرين مناسبين من بين أصدقائهم. وأضاف: «احملوا إليهم الخمر والمرطبات بحسب مقتضى الحاجة. ينبغي أن أمضي بنفسي إلى هناك، ولكن ذلك لن يزيد الأمور إلا تعقيداً».

في غضون ذلك، وصلت رسالة من سموها: «لقد أقبل سمو المستشار من روكوجو زائراً، وحيث أن الدار مهجورة تماماً، فإنني أشعر بالحرج لنفسي، وبالخشية عليه. هل يمكنك القدوم بدورك متحرياً الحرص ومن دون أن تجعل من الجلي أنني طلبت منك القيام بذلك؟ بالإضافة إلى ذلك فإنه يبدو أن هناك شيئاً يريد إبلاغك به عندما تلتقيان».

ترى ماذا عساه يكون هذا الشيء؟ أحسب أنها شكوى النقيب من هذا الأمر المتعلق بابنتي. لن يكون بمقدوري المجادلة لو أن سموها أبدت أصرارها، حيث أنها لم يبق أمامها إلا القليل من الوقت، ولو أن سمو المستشار طرح عندئذ مناشدة من جانبه تتسم بملاءمة مقتضى الحال بالانفعال المتقد. إنني أكره إظهار ذلك الشاب اللامبالاة، ولكن إذا كانت هناك مناسبة ملائمة، فإنني قد أسمح لنفسي بأن يتم إقناعي وأوافق. وهو يعلم أنه سيكون أمامه مجال أقل للرفض إذا كانا كلاهما قد أعدا مناشدة مشتركة، وحيث أنه جُبل من طبيعة مخالفة فإن هذا ليس من شأنه إلا أن يجعله يتردد مجدداً، ويسائل نفسه في نهاية المطاف لم لا يتردد. غير أن سموها قد كتبت تقول إن سمو المستشار ربما كان يتوقع قدومه، وهو لم يكن راغباً في إثارة ضيق أي منهما، فقرر الذهاب وتبين ما يريدان قوله.

بهـذه الروحيـة ارتـدى ملابسـه بعنايـة، وانطلـق مـن دون أن يكـون بصحبتـه إلا معية متواضعـة. وكان وصولـه بصحبة هذا العدد من الرجال بهياً ومؤثراً في النفوس. وكان ثقله تجسـيداً له، حيث أنه كان مديد القامة، وجعله جلاله المسـتند إلى رصانته واعتداده بنفسه وزيراً جديراً بمنصبه حقاً. وفوق سـروال ملموم عنبي اللون كان يرتدي ثوباً ضافياً في لون براعـم الكـرز، وقد ترامت أطرافه وراءه، وترك جلال مظهره تأثيراً متألقاً في النفوس. وفي غضـون ذلك، فإن سـمو المستشـار القادم من روكوجـو في عباءته الرسـمية المتألقة بلون براعـم الكـرز والمتخذة من قماش التويل[1] فوق رداء في لون البرقوق الأحمر كان يحظى برشـاقة إمبراطورية عفوية أشـد استعصاء علـى الوصف من أي وقت مضـى. ولكن على الرغـم مـن تألقه بمزيد من البريق، إلا أنه بخلاف ذلك لم يعـادل النبيل ذا الملابس الرائعة الجالس إلى جانبه.

التـف رجالـه حوله واحداً بعـد الآخر في مظهر رائـع. كان فوجيوارا المستشـار الكبير ومفـوض ولي العهد الابنين المرموقين لمعاليه الراحل[2]، وكانا يحظيان بنجاح كبير. وقد حضر كذلك في المسار الطبيعي للأمور وصفاء خصوصيون واعدون يحظون بتقدير كبير، مثـل كبار الحجـاب، والحجاب من المرتبة الخامسـة والملازمين بحـرس القصر والنقباء والمراقبيـن كذلك، وكانوا عشـرة نبـلاء رائعين أو أكثر من ذلك، وكلهـم من ذوي المظهر المميـز والكثير من زملائهم ذوي المرتبـة الأدنى. وأديرت أقداح الخمر إلى أن عم المرح الجميع، وكان الموضوع الذي تناولته ألسـنة الجميع هو مكانة سـعادة أم الوزير وأساليبها الجديرة بالإعجاب.

أعاد هذا اللقاء الماضي إلى ذاكرة معالي الوزير، وعلى الرغم من أن ابتعاده عن جينجي ربمـا لـم يؤد إلى شـحذ دافعـه إلى التنافس معه عنـد كل منعطف، مهمـا كان متواضعاً، إلا أن الحديـث وجهاً لوجه على هذا النحو أيقظ الكثير من الذكريات المؤثرة، بالنسـبة لهما، بحيـث أنهمـا جـدَّدا صداقتهمـا، وأمضيا اليوم فـي تدارك أمـور لا تحصى، مـا بين قديمة وجديدة، عرضت على مرِّ السنين.

(1) العباءة متخذة من كارانوكي، وهو قماش تويل حريري خفيف، أو من نسيج مضلع.

(2) والد تو نو تشوجو وحمو جينجي السابق. وهما أخان غير شقيقين لتو نو تشوجو، وربما كانا «الملازم المراقب لحرس بوابة الميسرة» و«القائم بأعمال المستشار الوسيط» اللذين ورد ذكرهما في «الصبايا العذارى».

قـدَّم معالـي الوزير المزيد من الخمر لجينجي، وقال: «كان الخطأ سـيغدو حليفاً لي لو أننـي لـم أقم علـى خدمتك على الإطلاق، ولكنني خشـيت مـن أنني مـن دون دعوة منك سـأكون كمـن يفرض نفسـه فرضاً. ولـو أنني كنت قـد تجاهلت وجودك هنـا، لكان لديك سبب إضافي لإعلان انتهاء صداقتنا».

قال جينجي، ملمحاً في معرض الرد: «ذلك الإعلان شأن خاص بك تبادر به. وقد أتيت الكثير مما يجعلني مستحقاً له».

حدَّث معالي الوزير نفسه متخوفاً، ومتخذاً موقف الاحترام المفعم بالإجلال والتوقير: لا بد أن هذه هي جلية الأمر.

استـهل جينجـي حديثه: «لقـد اعتدت أنا وأنت أن نكون على قلـب رجل واحد في كل أمر، سـواء أكان خاصاً أم عاماً، وقد استشـرتك في الأمور كافـة، جليلها وهينها، وتطلعت قدماً لحفاظنا على البلاد عالية، كأنما نتقاسم جناحاً في طيراننا. أخيراً كانت هناك أمور لم تأت على نحو ما كنا نأمل، ولكن كل ذلك بيننا نحن فحسب. وإذا شئنا الحديث على نطاق أوسـع، فإن موقفي يظل من دون تغيير بالمرة. وأنا أفتقد تلك الأيام الخوالي أكثر فأكثر مع انقضـاء السـنين، في ضوء ندرة لقائنـا الآن، وبينما أقر بأن لديك مهابـة مرتبتك التي يتعين الحفـاظ عليها، فإن ذلك لا يمنعني مـن أن أتمنى بمرارة بالغة في بعض الأوقات أنه طالـما نحـن صديقـان فإنك قد تكبح جماح نزوعك إلى العظمة بعض الشـيء وتبادر بزيارتي في نهاية المطاف».

ردَّ معالي الوزير في حذر قائلاً: «كنا نلتقي كثيراً حقاً آنذاك، وأخشى أننا كنا نلتقي كثيراً جـداً بحيـث أن تصرفي حيالـك أصبح يعكس ألفـة بالغة، حيث لم تكن هناك حقاً مسـافة تفصلنا. وعلى الرغم من ذلك، فإنه لم يخطر ببالي قط أننا نشترك في جناح واحد، لدى بدء خدمتنـا لجلالة الإمبراطـور، وإنما بالأحرى لم أكف قط عن الشـعور بالامتنان لجميلك، الـذي أرحـب به أعظم الترحيب، حتى عندما وصلت أخيراً، مع أنني غير جدير بذلك، إلى خدمـة البـلاد في المنصب الذي أشـغله الآن. غير أنه من الصحيح أننـا نبدو في العديد من الجوانب وقد تباعدنا على نحو ما، مع إيغالنا في العمر».

عندئذ لمس جينجي الموضوع الذي يشغله: «كم هذا مؤثر وما أشد غرابته!». فانخرط معالـي الوزير في البكاء، وقال: «أعتقد أنني في إحدى المناسـبات، وفي غمرة حزن فائق، ذكرت شيئاً حول كيف أنني كمن أحاول منذ ذلك الحين اكتشاف ما حدِّث لها. الآن وفيما يمكننـي أن أرفع رأسـي قليلاً فـي الدنيا، فإن لديَّ أبنـاء من ذوي الصيت السـيء يجوبون الأرجـاء، وإحدى بناتي مصـدر حرج لا أمل في الخلاص منـه، ولكنني ما زلت في بعض الأوقات أفكِّر فيهم جميعاً بإعزاز، وعندئذ فإن خاطرتي الأولى تنصرف دوماً إليها». أعادت كلماته الطريقة التي كان قد أفضيا بها بأكثر أسـرارهما حميمية في تلك الليلة المطيرة حتى أسلما نفسيهما للدموع والضحك.

افترقـا تلك الليلة فـي وقت متأخر للغاية، وقال جينجي: «رؤيتـك على هذا النحو تعيد ذكريـات الأيام الخوالي ومشـاعر ملؤها الحنين، بحيث أنني لا أرغـب في مغادرتك على الإطلاق». وبدأ هو الذي نادراً ما ندّ عنه أي مؤشـر للضعف في البكاء، ربما بتأثير السـكر. أمـا فيمـا يتعلق بسـمو أم الوزير فقـد تذكرت ابنتها بمزيـد من الحنين، وحـرك مرأى مجد جينجـي الـذي أصبح الآن أعظم بكثير مما كان عليه حزناً موغلاً في مرارته إلى حد أنها لـم تسـتطع منع دموعها من الانحـدار. وجعلت الطريقة التي بللت بهـا ثوبها، وجعلته مالحاً، كأي امرأة من نساء البحر[1]، مشهدها مؤثراً في النفس أشد التأثير.

لـم ينتهز جينجي هذه الفرصة الرائعة لطرح موضوع النقيب، فقد قرر أن يوفر على نفسه الحرج النابع من الضغط على معالي الوزير، حيث قُدِّر أنه ليسـت لديه نية للاستسـلام في هـذا الشـأن، بينما أحـس معالي الوزير من جانبه بأنه سـيكون من الإفراط فـي التجاوز من جانبه أن يطرحه من دون إشـارة تشـجيع على ذلك من جانب جينجي، ومن ثم فإنهما ظلا حذرين أحدهما من الآخر، فيما يتعلق بهذا الموضوع، في نهاية المطاف.

قـال معالي الوزير: «سـيكون من اللائق انضمامي الليلة إلـى معيتك وصولا إلى الدار، لكـن ذلـك قد لا يكـون إلا عبئاً عليك، إذا قمـت بذلك على نحو مفاجىء للغاية. لسـوف

(1) هذا الوصف المازح إلى حد ما، في لغة الشعر، يعتمد على التعبير أما جوروما «ثوب أما». ولفظ أما («راهبة») يعني كذلك من يعيش من البحر، ومن هنا يجيء الارتباط بالملابس الغارقة في الملح (الغارقة في الدموع). ومن هنا فإن هذا الاستخدام لأماجوروما يعطي الصورة المتضاربة مع نفسها لراهبة تبكي على ماض يُفترض بها، بحسبانها راهبة، أن تكون تخلت عنه.

أزورك في مناسبة أخرى لأشكرك على النحو اللائق على هذا اليوم».

انتزع جينجي، في معرض الرد، وعداً منه بالقدوم في اليوم الذي كان قد ذكره من قبل[1]، حيث لم تقدم صحة سمو والدة الوزير مؤشراً يدعو للانزعاج. وانصرف كل منهما بروح معنوية عالية، وسط ضجة وهرج بلا نظير.

أشار أحدهم ممن كانوا بمعية أبناء معالي الوزير، قائلاً: «لا بد أن شيئاً قد حدث».

«إنهما لا يلتقيان إلا بالكاد، والآن ها هما في حالة مزاجية مرحة، ربما حصل معالي الوزير على شيء يريده». لكن تخميناتهم لم تصل قط إلى ما ناقشه الاثنان.



صندوق الأمشاط

أثار الطابع المفاجىء الذي اتسم به هذا كله شكوك معالي الوزير، فبدأ القلق يساوره، ولكنه تشكك في أنه يتعين عليه استقبال الفتاة بنفسه في التو والقيام بدور أبيها. ومضى يفكّر في الظروف التي لا بد أن جينجي قد وجدها فيها أصلاً، وقال لنفسه: لا، ليس من الممكن أن يتركها تمضي من دون أن يلمسها. ولا شك في أن الاحترام لسيداته الأخريات الأعظم قدراً قد منعه من التباهي بها علناً، ولا بد أن صعوبة متابعة العلاقة جنباً إلى جنب مع مخاطرة الانكشاف هما اللذان جعلاه يبلغني بأمرها. ولم يكن هذا النمط من التفكير مما يبعث الطمأنينة في النفس. وعلى الرغم من ذلك هل يأخذ أحد عليها ذلك؟ لماذا تعاني سمعتها من جراء ذلك حتى إن كنت أنا من شجع الأمر في المقام الأول؟ لست أحب تصور مشاعر الزوجة كوكيدن إذا بعث بها للخدمة في القصر. هكذا مضى يقلب الأمر في ذهنه ليصل على الرغم من ذلك إلى خلاصة مفادها أنه ليس من شأنه، على أي حال، أن يجعل جينجي يعدل عن قراره أياً كان هذا القرار.

(1) يوم إلباس نطاق الخصر لتاماكازورا.

كان اليـوم السـادس عشـر من الشـهر، الـذي يحل فـي أوائل الاعتـدال الربيعـي، يوماً مواتيـاً تمامـاً، ولـم يكن هناك يوم مماثـل له في المرحلة القريبة المقبلـة، أو هكذا تم إبلاغ جينجي، ولما كانت سـمو والدة الوزير بحالة صحية جيدة، فقد سـارع إلى البدء في إجراء الاسـتعدادات، وواصل زياراته للسـيدة الشابة، ولكنه أبلغها بكل شيء تحتاج إلى معرفته. وبلـغ بهـا الامتنان الحد الذي راحت تحدِّث معه نفسـها بأنه ما من أب كان يمكن أن يفعل من أجلها ما أنجزه هو، وأحست بالسعادة حقاً.

عندئذ أبلغ جينجي النقيب بالقصة في حديث خاص بينهما كذلك. حدَّث النقيب نفسه: كم هو غريب هذا كلّه! الآن أدرك جلية الأمر! الآن وقد بدا معنى كل شـيء واضحاً، وجد أن ذاكرته التي تخونه تمده الآن بصور لها أكثر بكثير مما تمده بصور السـيدة الشـابة، التي كانـت محور عذابـه. وقال متأوهاً: «لم أفكِّر في الأمر قط». وأحـس بأنه كان أحمق تماماً. غير أن الطريقة التي فكَّر بها في اندفاعه ونحاه جانباً باعتباره شـيئاً مسـتحيلاً كانت بلا شك شاهداً على جدية شخصيته النادرة.

هكذا أقبل اليوم، وجاء معه مبعوث حريص من سانجو.

ومع توافر القليل من الوقت فإن سمو والدة الوزير كانت على الرغم من ذلك قد أعدت مجموعـة جميلـة للغايـة من علب الأمشـاط ومـا إلى ذلك. وجـاءت رسـالة بصحبة هذه المجموعـة: «لن يكـون صواباً من جانبي أن أحادثك وأنا على هـذه الحال الآن، ولذا فقد بقيـت في الدار، ولكني أعلق أملاً على أنك سـتلهمين أن تعمـري مثلما عمرت أنا. وربما يتعين عليَّ الامتناع عن الحديث عن الشـعور الذي يسـاورني لدى سـماع كل شيء عنك، ولكن إذا سمحت لي:

«سواء أكنت من هذا الفرع أو ذاك، يا علبة الأمشاط الجميلة،

ستكونين دوماً كنزاً يسعدني الاحتفاظ به»[1].

كانـت اليد التـي كتبت الرسـالة مرتجفة، تتبع طـرازاً عتيقاً للغايـة، وكان جينجي هناك يشرف على الترتيبات. قال عندما شاهد الرسالة: «هذه رسالة خارجة من رحاب الماضي،

(1) «سواء أكنت ابنة جينجي أم ابنة ولدي» هذه القصيدة الدافئة، المفعمة بمشاعر الجدة، هي نسيج من التوريات المرتبطة بالعلب والأغطية وما إلى ذلك.

ولكن يا إلهي! انظر إلى خطها! لقد كانت في وقت من الأوقات بارعة للغاية، ولكن مرور السنين لم يكن رحيماً بها، ومن المؤلم رؤية الطريقة التي ترتجف يدها بها!». تطلع إلى الرسالة من جديد، وأشار بمرح مكنون في قرارة نفسه: «لقد التزمت بنجاح بمقولتها (علبة الأمشاط الجميلة). وعدد قليل من حروف القصيدة البالغة واحداً وثلاثين حرفاً هو الذي لا يرتبط بهذه المقولة، وهذا ليس بالأمر الذي يسهل تدبره».

بعثت سمو والدة الوزير بالرداء ذي الذيل الأبيض، والسترة الصينية، والأردية النسائية، وكل ما يلزم من أدوات الشعر، وما إلى ذلك[1]، وكان هذا كله جميلاً بصورة استثنائية، وكذلك بعثت ببخور صيني عميق وثري بصفة خاصة في الأوعية المعتادة. وبعثت السيدات الأخريات بما راق لهن من ملابس، بل وأمشاط ومراوح للوصيفات، ولم تكن هدية واحدة من هداياهن لا تليق بالبقية، حيث كانت كل سيدة منهن توّاقة إلى إبداء ذوقها المميز، بحيث أن النتائج كانت مبهجة حقاً.

سمعت السيدتان المقيمتان في جناح جينجي الشرقي[2] بهذه الاستعدادات بدورهما، لكنهما تجاهلتا هذه الأخبار، حيث لم تكن مكانتهما لترقى إلى مستوى المساهمة فيها بنفسيهما. وعندما سمعت ابنة سمو أمير هيتاشي ـ التي كانت أساليبها العتيقة، وشديدة الحساسية تمنعها من ترك مثل هذه المناسبة تمر ـ بالأمر قدّمت ما تقتضيه الأصول، فبعثت برداء طويل ذي طية زرقاء ـ رمادية ومجموعة من السراويل بلون الكستناء المتساقطة أو ما شابه ذلك، من النوع الذي كان الناس يقدرونه في غابر الأيام، ومبذل بنقوش تشبه البرد مع مربعات أرجوانية، وكل ذلك ملفوف بطريقة لائقة ومقدم في خزانة ملابس بديعة[3]. وكانت قد كتبت تقول: «إنني مترددة في فرض نفسي، حيث أنني لست ممن ستعرفينهم أبداً، ولكنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير فيك في هذه المناسبة. هذه الأشياء لا قيمة

---

(1) أشياء تستخدم في الاحتفال ذاته. والأردية المذكورة ترتدي مع الرداء ذي الذيل (مو) والسترة الصينية (كاراجينو).

(2) أو تسوسيمي وسويتسوموهانا، في نيجو.

(3) توحي ألوان سويتسوموهانا بالحداد أو بمناسبة حزينة على نحو مماثل. وربما يكون المراد بـ«الكستناء المتساقطة» أوتشيجوري لوناً بنياً محمراً قاتماً. ويتألف نقش «البرد» (أراري)؟ جى من صفوف من المربعات الصغيرة في ألوان مراوحة (مع مربعات أرجوانية).

لها على الإطلاق، ولكنك ربما تقدمينها لتابعاتك». بدت من رسالتها رقيقة من غير حذق أو براعة.

قرأ جينجي رسالتها بانزعاج، وحدَّث نفسه قائلاً: ها هي تعود إلى ما درجت عليه مجدداً! تضرَّج وجهه خجلاً، ومضى قائلاً: يا لها من سيدة عتيقة الطراز، وأي سيدة خجول ينبغي عليها الانطواء كلية على نفسها، ولكن لا، لا بد لها من أن تحرجني! لا بد لك من الرد عليها، وإلا فإن خلاف ذلك سيجرح مشاعرها. وليس بمقدوري احتمال فكرة الاستخفاف بها، عندما أفكِّر في كيف أن سمو والدها درج على حبها أشد الحب.

كان أحد كمَّي المبذل يحمل قصيدة مكتوبة بمزاج مألوف.

«يا للحسرة ويا للندامة، لديّ سبب وجيه للشكوى، أيها الثوب من كاثاي البعيدة

عندما يحدثني اليأس بأن كميك لن يرقدا إلى جواري أبداً».[1]

كان خطها، كما في الماضي، ضيق الأفق على نحو يدعو لليأس، متصلباً ومتشدداً. وعلى الرغم من ضيق جينجي فإنه لم يستطع قمع طربه فهتف متعاطفاً: «فكِّر بما تكبدته لكتابة هذه القصيدة، خاصة الآن، وهي تتلقى عوناً أقل من ذي قبل، لا، ربما أكون مشغولاً، ولكنني لست مشغولاً للغاية بحيث لا أستطيع الرد عليها بنفسي! وعلى الرغم من ذلك فإن أمراً يستعصي عليَّ. من إين جاءت بهذه الفكرة؟ ما كان ينبغي أن تنظم هذه القصيدة! كتب بصبر نافد:

«ثوب من كاثاي، ثوب من كاثاي البعيدة مجدداً، ثوب من كاثاي البعيدة

مراراً وتكراراً أسمع ثوباً من كاثاي البعيدة!»

«على الرغم من ذلك، فإنني جعلت هذه القصيدة جادة لأن تلك هي حيلتها الأثيرة». أطلع عليها السيدة الشابة، التي افترت عن ابتسامة متألقة، فقال لها لائماً: «يا للمسكينة! إنني أعتقد أنك تسخرين منها!».

لكنني أوغل في حديث هو الهراء بعينه.

---

(1) نسيج من التوريات المبتذلة المرتبطة بلفظ كاراكورومو (الثوب من كاثاي البعيدة)، وهو موضوعة سويتسوموهانا المفضلة. ونغمته الشاكية لا تناسب بحال مناسبة سعيدة.

في البداية لم يبد معالي الوزير إلا اهتماماً محدوداً بهذه المناسبة، ولكن الرد الفذ الذي كشف جينجي النقاب عنه جعله يتطلع إليها، في نهاية المطاف، وسرعان ما وصل. تجاوز الاحتفال كل التوقعات، فقد جعله جينجي أعجوبة، فتأثر معالي الوزير أشد التأثر بهذا الدليل على الاهتمام الخاص من جانب جينجي، وأقر بالطبيعة الفذة لما قام به.

سُمح له بالدخول في ساعة الخنزير البري[1]، وكان جينجي قد أمر بإعداد الغرفة ذاتها على نحو رائع، إلى جانب الزخارف المعتادة، وقدَّم لضيفه المرطبات هناك. تألقت المصابيح أكثر قليلاً من بريقها المعهود، حيث كان قد أعد ترحيباً حافلاً. وكان معالي الوزير حريصاً على رؤيتها، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد لذلك، وعندما قام بأداء طقس عقد نطاق الخاصرة بدا أنه لا يسيطر على نفسه إلا بالكاد[2].

أعلن المضيف: «إنني آخذ على نفسي ألا أشير إلى الماضي هذا المساء، وآمل ألا تفصح عن أي معرفة به بدورك، فعليك بالظهور بمظهر جيد أمام من لا يعرفون شيئاً، وأن تقتصر على ما درج العرف عليه».

رد معالي الوزير قائلاً: «على الرغم من ذلك، فإنني لا أعرف إلا بالكاد ما الذي أتحدَّث عنه خلاف ذلك». احتسى القليل من الشراب، وواصل الحديث: «أعترف طواعية بالامتنان الذي أدين لك به لرقتك المبالغة كلها، ومع ذلك فإنني لست أدري كيف يمكنني ألا أشعر بالضيق حيال إخفائك إياها كل هذا الوقت.

كانت مجافية للشفقة، فتاة البحر التي بقيت محتجبة على شاطئها طويلاً

إلى أن جاء الوقت الذي يتعين فيه عقد نطاق خاصرتها»[3]

لم يستطع إيقاف تدفق دموعه.

---

(1) سُمح له بالدخول إلى الحجرة التي سيقام بها الاحتفال في حوالي العاشرة مساء.

(2) تحتفظ تاما كازروا بمروحتها أمام محياها، على نحو ما تقضي به اللياقة، وليس هناك احتمال لخفضها إياها.

(3) نسيج من التوريات حول تصوير شاطيء البحر. وتدور إحدى هذه التوريات حول لفظ مو (ذيل أو عشب بحري ولفظ كازوكو بغوص أو يرتدي)، بحيث أن المعنى الآخر للقول «إلى أن جاء الوقت الذي يتعين فيه عقد نطاق خاصرتها». (أوكي تسو تاما مو أو كازوكو ميدي) هو «إلى أن جاء الوقت الذي تغوص فيه أخيراً على العشب البحري».

تأثرت السيدة الشابة أعمق التأثر بحضور هاتين الشخصيتين البارزتين، فحارت في الرد. وأجاب جينجي نيابة عنها:

«ألقتها الأمواج ضعيفة وحيدة على هذا الشاطىء،

كدمية بحر لا يريدها أيّ صياد .

إنك بعيد كل البعد عن الإنصاف».

«إنني أتفهم ذلك تماماً». هكذا رد معالي الوزير، فيما هو ينسحب. وقد كان ذلك حقاً كل ما كان بوسعه قوله.

كان الأمراء والباقون هناك جميعاً، ومن بينهم العديد من الخطَّاب، وقد شرعوا في التساؤل كم من الوقت انقضى منذ دلف معالي الوزير إلى الغرفة. ومن بين أبنائه فإن النقيب والمراقب[1] وحدهما كانت لديهما فكرة غامضة عن الحقيقة. وقد أحس كل منهما في التو بالسرور والأسى لأنهما علقا فؤاديهما عليها.

همس المراقب: «إنني سعيد لأنني لم أقل أي شيء قط».

«يبدو أن لسمو المستشار أذواقاً غير مألوفة».

«أحسب أنه يريد أن يحولها إلى شخصية مهمة على غرار جلالة الإمبراطورة».

تناهى صوتاهما إلى مسامع جينجي، قال لزائره: «عليك بالتزام الحرص بعض الوقت، وتجنب تقديم المبرر لأي أحد للانتقاد، فالناس الذين هم في وضعية ينشدون معها إدخال السرور على أنفسهم يمكنهم دائماً التفكير من خلال أخطائهم الخاصة بصورة مشوشة، ولكنني أنا وأنت يمكن أن نعاني من جراء تقوّل الناس علينا. وقد يكون من الأفضل ترك الناس يعتادون على الفكرة على مهل، حيث أننا لدينا ما نخسره أكثر من الآخرين».

قال معالي الوزير: «أترك لك معالجة هذا كله، فالطريقة التي وصلت بها إلى أن تكون موضع اهتمامك ووجدت الحماية في ظل رعايتك الرائعة توحي بصلة قوية بينكما من دورات حياة ماضية».

---

(1) كاشيواجي وكوباي.

توافقت الهدايا المقدمة إلى معالي الوزير والهدايا والكرم البالغ الذي حظي به الآخرون مـع مكانة كل متلق لهذه الهدايا بحسـب العرف المعمول بـه، لكن جينجي تجاوزه ليعامل الجميع معاملة رائعة. وقد اسـتغنى عن أي عزف مبالغ فيه للموسـيقى، وأخذاً في الاعتبار بتعلل معالي الوزير في السابق بمرض والدته.

أشـار معالـي وزير الحـرب متلهفاً بقولـه: «الآن ليس لديـك المزيد مـن الأعذار لكي تضعها في طريقي».

رد جينجي: «لقد لمَّح جلالة الإمبراطور تلميحات معينة، ولم أستجب لهذه التعليمات، ولكننـي سأحسـم مطالبـات أخرى بحسـب مـا إذا كان سـيعود إلـى طـرح الموضوع من عدمه».

كان معالـي وزيـر شـؤون القصر قـد لمحها لمحـة عاجلة فحسـب، وتاق إلـى رؤيتها بوضـوح. ولـم تؤد الفكرة القائلة إن جينجي ما كان ليعلي من شـأنها على هذا النحو لو أنه لاحـظ أي عيـب فيها إلا إلى دفعه للتفكير فيها بحب مفعـم بنفاد الصبر. وقد فهم الآن إلى أي حد كان صحيحاً ذلك الحلم الذي تراءى له. وكانت الزوجة كوكيدن هي الوحيدة التي أوضح لها الحقيقة كاملة.

بـذل جينجي قصارى جهده لضمان ألا تتم مناقشـة الأمر خـارج الدوائر المعنية لبعض الوقـت، لكن النـاس يحبون القيل والقال. ومن الطبيعي أن الخبر قد انتشـر على أي حال، وذاع شـيئاً فشـيئاً إلى أن سـمعت به كذلك تلك الشـابة غريبة الأطوار، وعند ذلك مضت قدمـاً إلى الزوجة كوكيدن في وقت كان النقيب[1] والملازم المراقب قائمين على رعايتها، وأعلنـت فـي وقاحة: «بلغنـي أن مولاي قد وجد لنفسـه ابنة. ما أجمل هذا! ماذا عسـاه أن يكون مظهرها إذا كان كل من هذين السـيدين النبيلين يثير ضجة كبرى حولها؟ يقولون إن أمها ليست رفيعة القدر أيضاً».

التزمت الزوجة كوكيدن صمتاً مفعماً بالغضب.

رد النقيـب قائلاً: «إنني على يقين من أن هناك سـبباً يدعو للعناية الكبيرة بها. ولكن من

(1) كاشيواجي.

الـذي أبلغـك بهذا فاندفعت بلا اكتراث لطرحه هاهنا؟ ما عليك إلا أن تتصوري أن وصيفة ثرثارة قد سمعتك!».

«هراء! الجميع يعرف بالأمر! وهي يفترض أن تكون سيدة العاملين في القصر المقبلة. تلك هي نوعية التقدير التي كنت أفكِّر فيها عندما التحقت في لهفة بخدمة سـيدتي، وذلك هو السبب في أنني قمت في سرور بأداء مهمّات لا تقبل امرأة عادية الاضطلاع بها! سيدتي إنك بغيضة تماماً!».

دفع توبيخها هذا بالابتسامات إلى شفاه كل من كانوا هناك.

كان المتحدث، في معرض الرد عليها، هو النقيب: «إنني أضع عينيَّ على ذلك المنصب، إذا أصبح شاغراً! يا للجرأة من جانبك حين تتوقين إلى شغله بنفسك!».

دمدمت قائلة: «آه، لا، نكرة مثلي لا شـأن لها وسط سادة وسيدات أجلاء مثلكم! نعم، يـا نقيبي الرائع، هناك شـجار بيني وبينـك، إنك ذو الحيثية المشـغول، الذي أحضرني إلى هنـا، وها أنت الآن تسـخر مني! إن مخلوقة فانية فحسـب لا تنتمي إلى هـذا المكان! إنك فظيـع، لا أكثر!». وأخذت تتقهقهر إلى الوراء، محدِّقـة فيه، وقد تقاربت عيناها في غضب جامـح، ولكنه كان من المتعذر حقاً أن يكرهها المرء. وأقنع حديثها النقيب بأنه قد ارتكب خطأً حقاً، وحافظ على تعبير جاد ارتسم على محياه.

ابتسـم المراقـب، وهو يقـول: «بقدر ما يتعلـق الأمر بذلك، فليس بمقـدوري تصور أن سـيدتي لم تدرك ميزتك الكبرى. اهدأي لطفاً! إنك تبدين على اسـتعداد لتحويل جلاميد هائلة إلى مسحوق[1]. ولكنني على يقين من أن أمنيتك ستتحقق في وقت لاحق».

نهض النقيب واقفاً، وقال: «هلا أبقيت نفسـك لطفاً في الصخرة السـماوية على الرغم من ذلك؟[2] فقد يكون ذلك أكثر أمناً».

انفجـرت باكية: حتى إخوتي يتعالون عليَّ! يا سـيدتي، وحدهـا طيبتك هي التي تبقيني

---

(1) على نحو ما فعلت ربة الشمس «أماتيراسو» عندما واجهت أخاها، سوسانو، في موجة ضيق وغضب.

(2) في واقعة أخرى من شجار «أماتيراسو» مع سوسانو أغلقت على نفسها كهف الصخرة السماوية (أمانو أواتو) وهكذا أغرقت الدنيا في الظلام.

في خدمتك! رشحيني لشغل منصب سيدة العاملين في القصر! لا بد من ذلك! لا بد من ذلـك». قالتها مصرة، وهي تركض طائعة وبإخلاص شـديد في كل مكان مؤدية مهمات لا تمسـها خادمة أو فتاة تابعة. وحارت الزوجة كوكيدين، التي لم تستطع تصور ما الذي ألم بها ودفعها إلى قول مثل هذه الأشياء في الرد.

انفجـر معالـي الوزير ضاحكاً، عندما تم إبلاغه بأمر طموحها. وذات مرة عندما كان في جناح الزوجة كوكيدين هتف منادياً: «أين أنت؟ تعالي أيتها الفتاة القادمة من أومي!».

«هـا أنـا ذي حاضـرة». دوّى صوتها هكذا، وتبدت للعيـان. قال متخذاً هيئـة الجد: «يا للطريقـة التـي تعملين بهـا! إنني على يقيـن من أنك سـتؤدين العمل جيداً فـي أي منصب تشغلينه. لماذا لم تبلغيني تواً بأنك ترغبين في شغل منصب سيدة العاملين في القصر؟

«كنـت قد أردت الحديث معك في هذا الشـأن، ولكنني سـمحت لنفسـي بالثقة في أن مولاتـي سـتقوم بذلك بصـورة طبيعية بنفسـها، والآن يترامى إلى سـمعي أن هذا المنصب سيعهد به إلى سيدة أخرى. وأنا أحس كما لو أنني أحلم بالثروات فحسب، وكل ما أستطيعه هو وضع يدي على قلبي»[1]. كانت سرعة حديثها مفعمة بالحيوية حقاً.

أخفـى معالـي الوزير ابتسـامة. وقال: «لسـت أفهـم ما الـذي يجعلك متحفظـة هكذا. ولـو أنـك فقط كنت قد أبلغتينـي بما تريدين، لتحدَّثت نيابة عنك أمام أي شـخص آخر. لا تكترثي بما قد يكون لدى ابنة سـمو المستشار من مطالب، فلست أستطيع تصور أن جلالة الإمبراطـور سـيرفض مـا أتقدم به، إذا أحسـنت الدفاع عن مطلبي. لا بد لك مـن القيام تواً بنظـم التماس رفيع الصياغة. وجلالة الإمبراطور لن يخيب رجاءك عندما يرى مدى روعة قصيدتك الطويلة[2] وجودة تعبيرها عن رغبتك، فهو حساس بصفة خاصة لهذه النوعية من الأمور، كما تعلمين». لم تكن نكتته الحاذقة على حسابها ذات طابع أبوي على الإطلاق.

مضت تفرك يديها قائلة: «قصيدة بلسان يا ماتو، نعم، بمقدوري أن أنظم قصيدة من هذه

---

(1) لتهدئة مشاعرها المفعمة بالحزن.

(2) (ناجوتا أوتشوكا) قصيدة غير محددة الطول تنظم في البحر نفسه الذي تنظم فيه القصائد القصار المألوفة في الحكاية. وكان الالتماس المنتمي للنوعية التي أتى تو نو تشوجو على ذكرها يُكتب عادةً باللغة الصينية ويتضمن قصيدة صينية. وهو يوصي بـ«القصيدة الطويلة» كبديل، حيث أن النساء لم يكن يكتبن باللغة الصينية.

النوعية بشكل أو بآخر. إذا تلطفت بالطلب منه على النحو اللائق نيابة عني، فسوف أضيف كلمات قلائل من عندي، إذا صح التعبير، وأنتظر عطفه الكريم». حسبت الوصيفات اللواتي كـن يصغيـن إلى حديثها من وراء السـتائر القائمة أنهن سـيمتن من فـرط الضحك. وغرق بعضهـن في الضحك إلى حد أنهن تسـللن مبتعدات طلباً للخـلاص من نوبات الضحك. تضرَّج وجه الزوجة كوكيدين خجلاً، وأحست بالضيق الشديد.

أعلن معالي الوزير قوله: «عندما تسـوء الأمور، فإن كل ما عليَّ القيام به هو قضاء وقت مـع فتـاة أومي هذه لكي أرى أن كل شـيء على ما يرام من جديد». كانـت فائدتها الوحيدة بالنسبة له هي أن تجعله يضحك.

«إنه يعذبها لأنه يشـعر بالخجل البالغ بسـببها». هذا القول هو ما كان الآخرون يقولونه حول هذا الموضوع.

30

فوجيباكاما

زهور النجمية

«فوجيباكامـا»، المترجمـة هنـا بزهـور النجميـة، هي زهـور بريـة، ترتبـط بصـورة وثيقـة بزهرة البونسـيت الأمريكيـة الشـمالية، ونبتتهـا تزهـر مجموعـات من زهـور بنفسـجية فاتحـة فـي الخريـف. ويسـتمد هذا الفصـل عنوانه مـن «الفوجيباكامـا»، التـي يأتي على ذكرهـا يوجيري في قصيـدة بعث بها إلـى تاماكازورا (وأرفقها بفرع من الفوجيباكاما المزهرة).

«هي ذي زهرة نجمية مثقلة بالندى ذاته الذي يبلل حقلك .

إذاً، فلتشفقي عليَّ، ولو لمجرد الإشفاق!» .

الصلة بالفصول السابقة

تواصلت أحداث «الرحلة الإمبراطورية» حتى الشهر الثاني من عام جينجي السابع والثلاثين. ويغطي «زهور النجمية» الشهرين الثامن والتاسع من العام نفسه.

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 37 عاماً.

السيدة، 23 عاماً (تاماكازورا).

النقيب الاستشاري، نجل جينجي، 16 عاماً (يوجيري).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

النقيب أمين السر، الابن الأكبر لتو نو تشوجو، 21 أو 22 عاماً (كاشَيواجي).

سايشو، وصيفة تاماكازورا

القائد، خال ولي العهد، 32 أو 33 عاماً (هيجيكورو).

زوجته، الأخت غير الشقيقة الكبرى لمورا ساكي، 35 أو 36 عاماً (هيجيكورو نو كيتا نو كاتا).

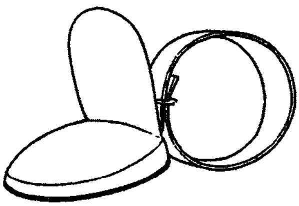
معالي وزير الحرب، أخ لجينجي (هوتارو هايوبوكو نو ميا).

مشرف مراقبة الميسرة، الأخ غير الشقيق لمورا ساكي

أهاب السيدان النبيلان كلاهما بالسيدة المعنية[1] قبول تعيينها سيدة للعاملين في القصر، ولكنها ظلت على قلقها، ولم يكن هناك حد للمخاطرة التي تواجهها في مثل هذه الصحبة، أخذاً في الاعتبار أنها كان عليها أن تلزم الحذر حتى حيال الرجل الذي تنظر إليه على أنه أبوها، ولو وقع شيء غير مناسب، وأخذه عليها جلالة الإمبراطور والزوجة كوكيدين كلاهما، فأين ستكون عندئذٍ؟. لست في وضع أزعم معه أنني أحظى بأي محبة حقيقية من أي منهما، هكذا مضت تفكر، سمعتي التي يلفها الغموض تقدم للكثيرين مبرراً للشك فيَّ، وليكونوا جميعاً على استعداد لوضعي موضع الهزء والسخرية. نعم، هناك الكثير من المتاعب في انتظاري، بشكل أو بآخر، ولما كانت تبلغ من العمر ما يجعلها تفهم وضعها، فقد استبد الاضطراب بها وغمر الحزن نفسها. إنني بخير تماماً على نحو ما أنا عليه الآن، ولكن اهتمامات سمو المستشار مقيتة وليست موضع ترحيب، وإني لأتساءل كيف سأهرب منها، وأبدِّد كل التكهنات التي لا بدَّ من أن الناس يثيرونها حولي. وأبي الحقيقي يذعن لكل رغبة من رغباته، وهو لا يحتمل أن يتخذ موقفاً خاصاً به بحيث أنه يبدو من المؤكد، في أي حال، أنني سأعاني من مظاهر تتهدّدني بالمخاطر ومن استهلال فضيحة.

الآن وقد عرف أبوها بأمرها، فإن جينجي تعامل معها بمزيد من الافتقار إلى الحياء أكثر من أي وقت مضى، الأمر الذي سبَّب لها عذاباً صامتاً، لم يكن لديها قريبة يمكن أن تصارحها ببعض ما يثير قلقها، دع جانباً كل ما يثير قلقها، وكيف يمكن أن تلمح بقلقها إلى أيٍّ من السيدين النبيلين اللذين وجدت في روعتهما الكثير مما يثير الانزعاج؟ بدت فاتنة تماماً وهي تحدِّق من الشرفة في السماء الجميلة، التي لفها الغسق، وراحت في غضون ذلك تتأمل كل ما جعلها مختلفة عمن يحيط بها.

ناسب اللون غير المألوف لردائها الرمادي الفاتح البسيط على نحو جذاب مظهرها تماماً، ومضت النسوة القائمات على خدمتها يبتسمن حيال هذا المشهد، عندما



قبعة مع ذيل ملفوف

(1) يستحث جينجي وتونو تشوجو تاما كازورا على القبول بهذا التعيين الآن وهي لم تعد سيدة «صغيرة» بعد عقد نطاق خاصرتها.

أقبل النقيب الاستشاري، وقد بدا أكثر رشاقة ووسامة من ذي قبل في عباءة رسمية من اللون ذاته، وقلنسوة رسمية مرفوعة الذيل[1]، وقد كان شديد العناية بها بحيث أنها درجت على ألا تجعله على مسافة منها، ولما كان من شأن تغيير هذه العادة الآن وقد عرف الحقيقة أن يكون أمراً قاسياً إلى حد كبير، فقد ظلت تتجاذب أطراف الحديث معه مباشرة، مع وجود ستائر قائمة فحسب بينها وبين ستائرها الحاجبة[2]. سلمها أولاً رسالة من جينجي عن ملاحظات جلالة الإمبراطور، ثم انتقل إلى ما كان هو نفسه قد ألم به حول هذا الموضوع. وكان ردها هادئاً تماماً، ولكن مهارة هذا الرد وما أحاط به من دفء والطبيعة الرائعة لما أدركه من وجودها فيما هي تتحدث، كل ذلك ذكَّره بالوجه الذي كان قد رآه في صباح اليوم الذي أعقب العاصفة، وهو الوجه الذي أثار حنينه، على الرغم من أنه كان قد نحَّى آنذاك مشاعره باعتبارها خطأ، والتي تثير الآن قلقه على نحو أكبر، بعد أن عرف أخيراً من تكون. حدَّث نفسه قائلاً: لا، ليس التحاقها بخدمة القصر هو الذي سيجعل والده يقرر التخلي عنها، أخذاً في الاعتبار النساء الفاتنات اللواتي لديه بالفعل، ومن المؤكد أن مظهرها سيعني المتاعب.

أفلح في أن يقول بلطف كاف، على الرغم من اندفاعة الشعور الذي غلبه: «لا بد أن أنقل لك شيئاً أُعلمت بأنك وحدك المقصودة به. هل يمكنني ذلك؟». عند هذا التلميح تراجعت النسوة القائمات على خدمتها قليلاً، وأشحن بوجوههن عنه وراء ستائرهن القائمة. وبانفعال قوي نقل رسالة طويلة من ابتكاره ولكنها محتملة من جينجي حول لهفة جلالته الاستثنائية والمواقف التي ينبغي أن تضعها في الاعتبار.

لم تكن لديها كلمات ترد بها عليه، ولكنها تنهدت فحسب، سراً وبعذوبة بالغة وعلى نحو مؤثر للغاية، بحيث أنه لم يستطع احتمال المزيد. وقال: «من المقرر أن تنزعي ثياب حدادك هذا الشهر. واليوم ليس بالمناسب لحديث كهذا، ووفقاً لما قاله سمو المستشار

(1) يلزم يوجيري وتاماكازورا الحداد على أوميا، التي توفيت فيما بين الفصلين. ورداء يوجيرى الرمادي أكثر قتامة بقليل لأنه كان أكثر قرباً منها وكون الذيل أيي (ذيل رفيع، ممتد يتخذ من القماش المكسو بالك) على قلنسوته مرفوعاً وليس مستقيماً يعد إشارة للحداد كذلك، وهذه أول إشارة إليه باعتباره «النقيب الاستشاري» (سايشو نو تشوجو).

(2) يجلس يوجيرى خارج ستائرها الحاجبة.

فإنـك سـتخرجين إلى ضفة النهر في اليوم الثالث عشـر[1]. وأنا أتطلـع إلى مصاحبتك إلى هناك».

«ذلك قد يحول الرحلة إلى موكب. أليس كذلك؟ ينبغي على المرء أن يلزم الحرص». كان مـن الحكمـة من جانبهـا أن تلمح إلى أنها تفضـل ألا يعرف الجميع أنهـا تمر بمرحلة الحداد[2].

«إنني آسف لسماع أنك ترغبين في إبقاء الأمر سراً. فهذا الحداد بالنسبة لي عنصر تذكير بخسـارة لا تحتمل، ونزعه سـيكون حزناً آخر، ولكنني لا أفهم الصلـة التي تواصل ربطنا، واللون الذي تلبسينه هو مؤشره الوحيد، بقدر ما يمكنني فهم الأمر».

«أنـا التـي لا تفهـم إلا القليل للغاية لا يمكنني إدراك شـيء على الإطـلاق من مثل هذه الأمـور. ولكنني أعـرف أن ارتداء هذا اللـون محزن على نحو غريب». لـم تبد حزينة حقاً بصورة تفوق المعتاد، ومع ذلك بدت جميلة على نحو بهيج.

ربمـا كان النقيب قد استشـرف مثـل هذه اللحظة، لأنه كان قد جلـب معه زهوراً نجمية بالغـة الجمـال، ودفعها إليها الآن عبر طرف سـتار حاجـب، وقال: «ينبغـي أن تنظري إلى هذه، وهناك سبب لذلك[3]». ولكنه أبقى قبضته عليها، وهو الأمر الذي لم تلحظه، وعندما تحركت لأخذها، أمسك بكم ردائها.

«هي ذي زهرة نجمية مثقلة بالندى ذاته الذي يبلل حقلك،

إذاً، فلتشفقي عليَّ ولو لمجرد الإشفاق!»[4]

قالت لنفسها، وقد صُدمت واستبدَّ بها الغضب: أحسب أنه يقصد «عند نهاية الطريق»، [5] ولكنها تظاهرت بعدم الملاحظة، واكتفت بالابتعاد في هدوء عنه لترد قائلة:

---

(1) للتطهر لإنهاء حدادها، ربما في نهر كانو، والشهر هو الثامن من شهور العام.

(2) لأن الجميع سيعرف عندئذ أنها ابنة تونو تشوجو، وليست ابنة جينجي.

(3) لأن زهور فوجيبا كاما هي مورا ساكي (أرجوانية) فاتحة. ومورا ساكي هو لون الارتباط والقرابة.

(4) «أشفقي عليّ، أنت يا من تعانين من الحزن ذاته [فقدان أوميا] الذي أعانيه!».

(5) «لا بد أنه يحاول التحرش بي». تربط تاما كازورا القول: «ولو لمجرد الإشفاق» (كاجوتو باكارى ني) بالتعبير نفسه الوارد في قصيدة ملغزة قوامها الابتهال العاطفي (شينكو كينشو 1052): «يا إبزيم» زنار هيتاشي عند نهاية الطريق في الشرق البعيد، ولو لمجرد الإشفاق، دعني أكن معك لطفاً!» تتضمن القصيدة تورية بشأن كاجوتو،

«آه، لو أن الندى الذي أحضرته لي كان من حقل بعيد،

فإن أرجوان هذه الزهور الفاتح قد يجلب لك الشفقة على الأقل.[1]

إن الحديث معاً على هذا النحو لا يعني أننا نشترك في أي شيء بالغ العمق».

لاحت على وجه النقيب ابتسامة صغيرة، وقال: «سطحي أو عميق، إنني على يقين من أنك تفهمينني حق الفهم. ومع ذلك فإنني أعرف حق المعرفة المكانة الرفيعة التي تستدعين لشغلها، ولكنني أتساءل عما إذا كان بوسعك فهم الاضطراب العميق الذي يعتمل في فؤادي، وقد احتملت في صمت مرير خوفاً من استيائك، ولكن قصيدة (لم يبق لي شيء الآن) تصف بؤسي[2]. هل تعرفين حقاً شعور النقيب أمين السر؟ ولذلك فإنني أتساءل لماذا تصورت يوماً أن أتحدَّث نيابة عن شخص آخر[3]. وعندما يتعلق الأمر بمصالحي، فإنني أعرف حق المعرفة أنني أحمق، إنني أشعر بالغيرة وخيبة الأمل، وعندما أرى كيف أنه يمكنه أن يتمتع بالعزاء النابع من كونه بقربك الآن وقد غدا يعرف الحقيقة. امنحيني بعض التعاطف من أجل ذلك على الأقل!». قال الكثير من هذا السياق بانفعال كبير، ولكن كتابته ستكون مدعاة للحزن الشديد.

أصابها النفور، فانسحبت[4] ببطء بعيداً أكثر فأكثر عنه. قال محتجاً: «أنت قاسية للغاية! وأنا على يقين من أنك تعرفين أنني لن أقترف أي إساءة». أراد أن يواصل الإفضاء بمزيد من مكنونات قلبه، لكنها انسحبت كلية، زاعمة بأنها تحس فجأة أنها ليست على ما يرام، وهكذا فقد غادر المكان بدوره وسط تنهدات مثيرة للإشفاق.

لماذا كان عليَّ الذهاب وقول ذلك كله؟ هكذا سأل نفسه نادماً، وهو يتساءل في الوقت

الذي يعني كذلك المثبت المعدني للحزام أو الزنار.

(1) «ليست هناك مثل هذه الرابطة بيني وبينك، ولو أنها كانت موجودة فإن اللون المورا ساكي الفاتح لهذه الزهور ربما يعدك بالشفقة على الأقل، ولكنها لا وجود لها».

(2) من جوسينشو 960، من نظم الأمير موتويوشى: «إنني شديد التعاسة، ولم يعد لديَّ إلا السعي للقياها، في نانيوا، على الرغم من أن ذلك يعني إعطاء ذاتي كلها».

(3) في فصل «الحباحب» يتصرف باعتباره وسيطاً بين كاجيواشي (النقيب أمين السر) وتاماكازورا.

(4) يدعوها النص هنا «سيدة العاملين بالقصر»، الأمر الذي يشير إلى أنها ربما قد عُينت بالفعل في هذا المنصب، ولكن الأمر أبعد ما يكون عن الوضوح.

نفسه متى سيرى مجدداً، حتى عبر الستائر القائمة والحاجبة، قواماً ارتسم بمزيد من الحدة في ذهنه أكثر من أي وقت مضى، أو يسمع ذلك الصوت حتى وإن كان خافتاً، ووصل إلى مقر إقامة جينجي، وهذه الخواطر الحزينة تهيمن عليه، أقبل جينجي فأبلغه بردها.

أشـار جينجي بقوله: «إنها لا تحب كثيراً إمكانيـة الالتحاق بخدمة القصر. من المحزن التفكيـر في أنه مع قيام جلالة الإمبراطور وهؤلاء النبلاء الآخرين بتسـليط جاذبيتهم عليها ومتابعتهـا برسـائلهم، فإنها ربما تكـون قد استـلطفتهم بالفعل. ومع ذلك فإنهـا قد جذبها جلالة الإمبراطور إلى حد كبير عندما رأته خلال رحلته إلى أوهارانو. وليس بمقدور امرأة أن تلمحـه مـن بعيد وتنحِّي مـع ذلك جانباً فكرة القيـام بخدمته. ذلك هو السـبب في أنني قررت معالجة الأمور بهذه الطريقة».

تحـدَّث النقيـب بطريقته الأكثر دلالـة على النضج قائلاً: «ولكن كيف تسـتطيع أن تجد مكانهـا هناك يوماً؟ إن جلالة الإمبراطورة سـيدة عظيمة للغايـة، والزوجة كوكيدين تحظى بتقدير بالغ بحيث أنه سـيكون من المتعذر عليها أن تنافسـها، أياً كان الإحساس الشخصي لجلالة الإمبراطور نحوها، ومعالي الوزير والدها شـديد الحرص عليها، وقد يمتعض من ذلك، على الرغم من أن خدمتها لجلالة الإمبراطور لن تعود عليها بلقب مناسب[1]، وذلك بدوره قد تكون له عواقب غير حميدة على صلتك به».

قال جينجي: «الأمر صعب. نعم، إن مصيرها ليس في يديَّ كلية، ولكنني أدرك أنه حتى القائد يسـتلطفها. وأحسـب أنه من الحماقة من جانبي فحسـب أن أدعو الناس إلى الشعور بالضيق، بينما لست بحاجة للقيام بذلك. ولكنني لا أستطيع تجاهل وضعها التعس، وأنا لم أنس قط كلمات أمها المؤثرة لي عنها، وكيف أعربت عن شـكواها من أن معالي الوزير لن يرغب في معرفة المزيد عن إنسـانة نشـأت في قرية جبلية بائسة، وذلك هو السبب في أنني أحضرتها إلى هنا في المقام الأول، لصالحها. والسبب الوحيد وراء اهتمام معالي الوزير بها اهتماماً جدياً هو أنني أنا نفسي أقدِّرها كثيراً». بدا حديثه مقنعاً تماماً، وأضاف: «أعتقد أنها ستناسب جلالة الإمبراطور، أخذاً في الاعتبار طبيعة شخصيتها، فهي أنيقة ورشيقة، ولكنها

(1) كانت وظيفة سيدة العاملين في القصر الحقيقية كشبه زوجة للإمبراطور وظيفة غير رسمية، وبالتالي فإن مرتبتها كانت أدنى كثيراً من مرتبة زوجة الإمبراطور.

ذكية كذلك ومن غير المحتمل أن تخرج عن جادة الصواب. نعم، ستكون إنسانة ملائمة له، وهي مناسبة تماماً للالتحاق بخدمة القصر. حيث تتمتع بالجمال والذكاء، وهي ممن يعتمد عليهن، وقادرة على أداء واجباتها وستوفق في تلبية رغبات جلالة الإمبراطور».

قرَّر النقيب أن يستمر بالضغط عليه، فقال: «نما إلى علمي أن بعضهم يثيرون التكهنات الخبيثة حول دافعك للاحتفاظ بها كل هذا الوقت، وقد ألمح معالي الوزير إلى هذا بنفسه، في رده على القائد، عندما حدَّثه هذا الأخير بشأنها».

ابتسم جينجي وقال: «حديثهم كله محض هراء. وفيما يتعلق بخدمة القصر وما إلى ذلك فإنني ما زلت أعتزم القيام بما يفضله معالي الوزير. إن المرأة مدينة بالطاعة لثلاثة رجال في حياتها[1]، ولكن سيكون من الخطأ تماماً خلط الأمور وجعلها تطيعني».

تحدَّث النقيب بفصاحة رائعة: «في مجالسه الخاصة، أو هكذا علمت من مصدر موثوق، يشكرك معالي الوزير لاعتزامك تركها له بشكل أو بآخر، حيث أن سيداتك المميزات كن معك مدة طويلة للغاية بحيث أنها لا يمكنها الآن الانضمام إليهن. ثم بينما هي تجتاز مراحل الالتحاق بخدمة القصر تحصل عليها لنفسك».

نعم، إنني أتشكك في أن هذا ما يظنه. أشفق عليه جينجي. وقال بصوت عال: «يا لها من أفكار غريبة تلك التي تخطر بباله! أحسب أن من طبعه أن يكدّ ذهنه في التفكير». ضحك، وأضاف «على أي حال، سرعان ما يغدو كل شيء معلناً وتحت أنظار الجميع. ما أشد افتقاره إلى الكياسة!». وكانت طريقته في الحديث مقنعة تماماً، لكن النقيب ظلت الشكوك تساوره.

مضى جينجي يمعن التفكير: إذن هذا هو ما يخمنه الناس! لسوف تكون كارثة لو اتضح أنهم محقون فيما ذهبوا إليه. ولا بد من إقناع معالي الوزير بأنني لديَّ نوايا حميدة فحسب. لقد أزعجه الاعتقاد بأن معالي الوزير كان من الفطنة بالفعل بحيث سبر غور ما يكمن وراء غموض هذه الخدمة المقترحة بالقصر.

خرجت السيدة من حالة الحداد، وأعلن جينجي قوله: «لا يزال عليك الامتناع عن

(1) أبوها قبل الزواج، زوجها ثم ابنها.

الذهاب الشهر المقبل كذلك[1]، فلتذهبي في الشهر العاشر إذن». أصاب هذا الخبر جلالة الإمبراطور بخيبة الأمل. وفي غضون ذلك مضى الطامحون إلى خطبتها جميعاً يتوسلون باكين إلى من يتصادف أنهم يؤثرون من وصيفاتها للتدخل بطريقة ما، بينما لا يزال هناك وقت لذلك، ولكن ذلك كان يتساوى مع إقامة سد لحجز مياه شلال يوشينو[2]، وتلقوا جميعاً الرد نفسه، الذي يدفع المرء إلى فقدان صوابه. «ليس هناك ما يمكنني القيام به».

منذ اندفاع النقيب للإفضاء بمشاعره، مضى يضرب على غير هدى في غمار بؤسه مفكراً فيما لا بد أنها تعتقده بشأنه، وبروح من الرقة البسيطة، مضى يشغل نفسه بالقيام بكل ما بوسعه من أجلها. ولم يعد منغمساً مندفعاً في طرح هذا الموضوع، وتصرف بدلاً من ذلك بحرص بالغ. أما أخواها الحقيقيان اللذان كانا يحسان الآن بالعجز عن مخاطبتها، فقد انتظرا بنفاد صبر الفرصة للقيام بخدمتها لدى وصولها إلى القصر.

كانت الحماسة المأساوية التي اتسم بها النقيب أمين السر قد اختفت بسرعة بالغة إلى حد أن خفة مشاعره كانت مصدر تسلية لوصيفاتها، وهو الآن يصل حاملاً رسائل من معالي الوزير. ولم يكن ليتقدم مقترباً منها، حيث أنه في الماضي لم يكن يقدم رسائله إليها إلا سراً، وبدلاً من ذلك، فإنه في هذه الليلة التي ينيرها سنا القمر ظل محتجباً تحت شجرة الغار في الحديقة. أما هي التي كانت قد تجاهلت كل كلمة من كلماته فقد جعلته الآن عن طواعية يجلس أمام الستائر الحاجبة إلى الجانب الجنوبي منها، وجعلت وصيفتها سايشو تنقل ملاحظاتها إليه، حيث أنها كانت مترددة حتى الآن في مخاطبته بشكل مباشر.

استبدَّ به الضيق، فقال: «إن كون أبي اختارني لأمثله يشير إلى أنه قد فضل ألا يخاطبك من خلال وسيط. وقد حسبت أن بمقدوري الاعتماد على ثقتك بي، إذا كان لي أن ألجأ إلى مثل هذا التعبير عتيق الطراز».

ردَّت في جدية قائلة: «أود حقاً أن أتحدَّث معك حول كل ما حدَث في السنوات الأخيرة. ولكنني أحسست أخيراً بالتوعك، بحيث أنني لم أستطع النهوض إلا بالكاد.

(1) كان الشهر التاسع (شأن الشهر الخامس) يحمل سوء الطالع بالنسبة للزواج، وهو ما ترقى إليه «خدمة القصر» في حالتها.

(2) كوكين روكوجو 2233 تشير إلى إقامة سد لحجز مياه شلال يوشينو باعتباره تشبيهاً بالمستحيل.

ولومك لي لا يقنعني إلا بأنك لا تقدِّرني كثيراً».

«ألا تسمحين لي بالدخول حتى ستائرك القائمة، إذا كنت تشعرين بأنك لست على ما يرام. آه، لا عليك! ما كان ينبغي أن أتحدَّث على نحو ما فعلت». وأعطاها في هدوء رسائل معالي الوزير. لم يكن من الممكن لطريقته المواتية تماماً أن تكون أكثر براعة. واصل حديثه: «لم يستطع أبي الإلمام بالدقائق المتعلقة بالتحاقك الوشيك بخدمة جلالة الإمبراطور، ولكن فيما يتعلق بأمور من تلك النوعية فإنك بإمكانك استشارته بصورة شخصية، وهو يأسف كثيراً لأن الخوف من كونه بعيداً عن الحرص يمنعه دائماً من المجيء للحديث معك بنفسه».

شعر بأنه ملتزم بأن يضيف قائلاً: «لا، لن تسمعي المزيد من الحماقة مني. ولكنني يضايقني أكثر فأكثر أنك تفلحين في تجاهل عاطفتي نحوك في الدورين كليهما. انظري إلى الطريقة التي عاملتني بها الليلة، على سبيل المثال. كان ينبغي أن أكون سعيداً للسماح لي بالدخول من الجانب الشمالي[1]، وبالحديث مع بعض الخادمات على الأقل، حتى وإن كانت في ذلك مخاطرة بإثارة ضيقك. متى تم استقبال أي شخص على هذا النحو؟ آه، إن صلتنا بالغة الغرابة في العديد من الجوانب!».

بدت لسايشو طريفة الطريقة التي أومأ بها، بينما كان يواصل شكواه، ونقلت ملاحظاته إلى سيدتها، التي أجابت صراحة: «نعم، بالطبع، ولكنني أفضل ألا أخاطر بأن يظن بي أنني ممن يسهل الوصول إليهن، ولذلك السبب فإنني لا أستطيع التعبير عن أي من المشاعر التي أثقلتني في السنوات الأخيرة، والتي لا أزال أجدها أكثر طغياناً».

ارتبك النقيب أمين السر، وحاول الحفاظ على رباطة جأشه، واكتفى بالرد:

«نحن اللذين لم نجد في تلال الرجل والعذراء تلك الأعماق الأكثر احتجاباً،

مثل رسائلنا ضللنا الطريق على جسر أوداي»[2].

---

(1) مؤخرة الدار.

(2) «نحن اللذين لم يعرف كل منا الآخر كأخ وأخته فقدنا الاتصال بيننا، بسبب تودد لم تتم متابعته إلا عبر الرسائل». «تلا الرجل والعذراء» (إيمو سياما) يواجه أحدهما الآخر عبر نهر يوشينو، وغالباً ما يرمزان لعاشقين، ولكنهما هنا يشيران بوضوح إلى أخ وأخته «جسر أوداي» الذي يشير اسمه (أوداي) إلى «القطيعة»، يقع في شمال اليابان،

لم يكن شعوره بالمرارة ناتجاً إلا عن خطأ ارتكبه هو ذاته. ردت قائلة:

«آه، ولكنك أنت من ضل الطريق في تلال الرجل والعذراء،

ولطالما تساءلت من الذي قرأ هاتيك الرسائل منك»[1].

أضاف سايشو: «بدا أن سيدتي لا تعرف على أي محمل تحمل رسائلك. وحذرها البالغ حيال العالم هو الذي منعها من الحديث إليك بنفسها. ومن المؤكد أنها لن تواصل ذلك إلى الأبد!



رسالة معقودة

انبعث واقفاً وقال: «حسناً، ينبغي أن لا أبقى وقتاً أطول مما يجب، ولسوف أطالب بمكافأتي في وقت لاحق، عن خدماتي كافة». أضفى القمر المتألق في سماء جميلة على شخصه حسناً وتميزاً، وانطلق في عباءته الرسمية بخطى رشيقة. وعلى الرغم من أنه كان لا يُقارن بالنقيب الاستشاري في المظهر أو الرشاقة، فإنه كانت له جاذبيته الخاصة. واندهشت النسوة الأصغر سناً من أن مثل هذين الرجلين هما أبناء عمومة، وكالمعتاد أعربن بصوت عال عن إشادتهن حتى بأمور فيه لا تستحق الإشادة إلا بالكاد.

كان القائد[2] يستدعي على الدوام النقيب أمين السر، الذي كان نائبه في حرس ميمنة القصر، والذي أهاب به أن يلح على معالي الوزير في الاستجابة لمطلبه. ولم يكن بمقدور معاليه رؤية ما يعيبه، حيث أنه كان رجلاً مميزاً يعد بأن يصبح من أعمدة البلاد، حيث افترض أن جينجي ربما كان في نهاية المطاف لديه من الأسباب ما يدعوه إلى تبني هذه الخطط، ومن هنا فقد ترك لجينجي الحرية في التصرف كما يطيب له.

كان هذا القائد أخاً لزوجة الإمبراطور التي أنجبت ولي العهد[3]، وفي المرتبة التالية

على مبعدة كبيرة من يوشينو، وربما يشير عدم الارتباط هذا بصيغة التأكيد إلى المسافة الكبيرة، التي تفصل هذين النوعين من العلاقات، وتشمل تورية أخيرة في القصيدة فومى - مادويكيرو (تضل الطريق) ومقطع فومى منها يعني أيضاً «رسالة».

(1) «كنت أنت الطريق المرتبك. أما أنا، التي عرفت طوال الوقت أننا أخوان، فقد ضايقني تلقي رسائل التودد منك.

(2) هيجيكورو.

(3) شوكيودين زوجة الإمبراطور سوزاكو التي ورد ذكرها في فصل «الحج إلى سوميوشي».

لسمو المستشار ومعالي وزير شؤون القصر، كان هو الذي حظي بسمعة فائقة في البلاط، وكان في الثانية والثلاثين من العمر. وكانت زوجته هي الأخت الكبرى غير الشقيقة للسيدة مورا ساكي، وأعتقد أن ذلك يعني القول إنها الابنة الكبرى لسمو وزير شؤون المراسم. وكانت تكبر زوجها بثلاث سنوات أو أربع، ولم يكن هناك ما يعيبها بصفة خاصة، ولكن بدا أن شيئاً في شخصيتها قد نفره منها، لأنه كان يشير إليها باعتبارها «العجوز» وأراد بشدة التخلص منها. وربما كان هذا هو السر في أن سمو المستشار المقيم في روكوجو قد ساوره الشعور بأنه سيكون زوجاً غير مناسب ومثيراً للمتاعب لتاماكازورا. ولم يكن هناك في هذا السيد ما يجعله يميل إلى المغامرات العاطفية، ولكنه في هذه الحالة كان خاطباً متلهفاً للغاية، وكان يعرف من مصدر مطلع أن معالي وزير شؤون القصر لم يرفضه مباشرة، وأن السيدة تكره التحاقها بالخدمة في القصر، ومن هنا فقد صارح الوصيفة بن[1] بقوله في جلسة خلت من الإزعاج: «سمو المستشار هو وحده الذي لا يوافق، وطالما أن ذلك ليس ضد رغبات والدها الحقيقي..».

أقبل الشهر التاسع. وفي الصباح الجميل الذي شهد الصقيع الأول، قامت كل مجموعة منحازة إلى أحد الخطّاب خلسة بإحضار رسالة إلى سيدتهن، كالمعتاد، ولكن سيدتهن لم تلق نظرة على أي منها، وأنما أمرت بدلاً من ذلك بقراءة الرسائل على مسامعها. وكان القائد كتب يقول: «كنت لا أزال أفكِّر آملاً في هذا الشهر، ولكن مرور الأيام لم يترك لي إلا الوحشة.

يا للحسرة، بمقدوري أن أمقت، إن كان أحد يكترث على الإطلاق، هذا الشهر الطويل،

عندما تعتمد حياتي ذاتها على أوهى الآمال»[2].

بدا أنه قد عرف كل شيء عن قرار إرسالها إلى القصر في الشهر المقبل.

كان معالي وزير الحرب قد كتب يقول: «الآن ضاعت كل الآمال، ولست أدري ماذا عساي أن أقول.

على الرغم من أنك تحدقين في سنا شمس الصباح، تذكري

---

(1) إحدى وصيفات تاما كازورا البارزات.

(2) الشهر الطويل (ناجاتسوكي) هو الشهر التاسع.

الصقيع المرسل ليلقي ظله على أوراق الصاصا المتألقة[1]!

سيكون أمراً مريحاً لو أنك فهمت جلية الأمر فحسب». حتى المبعوث الذي حمل الرسالة ـ مربوطة إلى وريقات ذاوية على نحو مثير للشفقة ولا يزال يكسوها الصقيع من نبتة صاصا ـ حقيقة كان اختياره ملائماً.

كان مشرف مراقبة الميسرة[2]، نجل معالي الوزير، أخاً غير شقيق لأعز سيدات سمو المستشار، ولما كان من الزوار الذين يترددون كثيراً على مقر سكناها، فإنه من الطبيعي أنه كان يعرف ما فيه الكفاية مما يحمل المستقبل معه، وبالتالي فقد عانى وفقاً لما يعرفه، وتضمنت رسالة مريرة منه هذه القصيدة:

«لست أريد شيئاً أكثر من نسيانك أخيراً، غير أني في غمار حزني

لا أعرف ماذا عساي أصنع ولا من أين أبدأ» .

دفعت ألوان الورقة وتدرجات لون الحبر وعطور الرسالة المنوعة وصيفاتها إلى القول: «سيكون أمراً محزناً للغاية عندما يغمر اليأس كل هؤلاء السادة النبلاء أخيراً!». ولسبب ما كان معالي الوزير هو الوحيد الذي بعثت إليه برد عابر:

«ربما تميل زهرة عباد الشمس من تلقائها نحو النور،

هل ينبغي لها من أجل ذلك أن تنسى كل خاطرة عن صقيع الصباح؟»

بدا له الخط الرهيف أعجوبة حقيقية، وحملت إليه إشارتها إلى أنها ربما كانت لديها بعض المشاعر حياله، لمسة من السعادة على الأقل. وبهذه الطريقة تلقت العديد من الشكاوى من سيد نبيل أو آخر، على الرغم من عدم وقوع شيء يستحق الاهتمام.

يقولون إن سمو المستشار ومعالي الوزير كليهما قد علقّا الآمال على جعلها قدوة للنساء كافة.

---

(1) «على الرغم من أنك تحظين بعطف الإمبراطور، إلا أن عليك ألا تنسي شخصي البائس». الصاصا نبات يكسو الأرض يرتبط بالخيزران، وهو منتشر تماماً في الجبال اليابانية.

(2) ساهيوى نو كامى خاطب لم يرد ذكره من قبل.

31

ماكيباشيرا

العمود البديع

تعني «ماكيباشيرا» على وجه التقريب «عمود من خشب بديع»، والمراد هنا عمود دار ربما اتخذ من خشب السرو الياباني (هينوكي) وتشكل هذه الكلمة عنوان الفصل بسبب دورها في القصيدة التي تتركها ابنة هيجيكورو ملصقة على عمود، عندما تغادر هي وأمها إلى هيجيكورو:

«أغادر الآن داراً طالما كانت لي، أيها العمود البديع،

أنت يا من أحببتك أيضاً، لا تنسني لطفاً!»

وهو اسم تقليدي كذلك لابنة هيجيكورو نفسها.

الصلة بالفصول السابقة

تبدأ أحداث «العمود البديع» سريعاً بعد أحداث «زهور النجمية».

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 37 إلى 38 عاماً.

سيدة العاملين في القصر، 23 إلى 24 عاماً (تاماكازورا).

قائد الميمنة، أوائل الثلاثينات من العمر (هيجيكورو).

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

جلالة الإمبراطور، 19 إلى 20 عاماً (رايزي).

معالي وزير الحرب، أخ لجينجي (هوتارو هايوبوكو نوميا).

مشرف مراقبة الميسرة، الأخ غير الشفيق لمورا ساكي.

أخته، زوجة هيجيكورو الأولى، منتصف الثلاثينات (هيجيكورو نو كيتانو كاتا).

معالى وزير شؤون المراسم، والد زوجة هيجيكورو الأولى، 52 عاماً إلى 53 عاماً (شيكيبو كيو نوميا).

تشوجو، وصيفة زوجة هيجيكورو الأولى.

موكو، في خدمة هيجيكورو.

ابنة هيجيكورو، في مطلع سنوات المراهقة (كاكيباشيرا).

زوجة معالى وزير شؤون المراسم.

سيدة الربيع، السيدة مورا ساكي، 29 إلى 30 عاماً.

النقيب الاستشاري، نجل جينجي 16 إلى 17 عاماً (يوجيري).

النقيب أمين السر، الإبن الأكبر لتو نو تشوجو، أوائل العشرينات (كاشيواجي).

الفتاة القادمة من أومي، ابنة تونو تشو جو (أومي نو كيمي).

قال جينجي محذِّراً: «لست أرغب في أن يترامى هذا الأمر إلى سمع جلالة الإمبراطور. وخير لك أن تحتفظ به لنفسك في الوقت الحالي. لكن السيد النبيل[1] كان قد تجاوز مرحلة كبح جماح النفس. لم يكن هناك مؤشر إلى أن مرور الوقت قد جعلها تميل إلى قبوله على الإطلاق، حيث ظل يثير اضطرابها كالعادة مثل هذا البرهان على قدر كارثي، وهو الأمر الذي جعل الغضب يستبدُّ به يقيناً، لكنه تأثر كثيراً وأحس بالسعادة، عندما تبين أن الصلة التي تصله بها بالغة القوة. وكلما أطال النظر إليها وجدها أكثر روعة، وأوشك قلبه على التوقف عن الخفقان حيال الفكرة القائلة إنه ربما كان يمكن أن يخسرها ليظفر بها شخص آخر، إلى أن أحس كما لو أنه يعبد كلاً من ربة إيشياما والوصيفة بن، التي مالت سيدتها في غضون ذلك إلى استشعار كراهية شديدة العمق نحوها، إلى حد أنها حيل بينها وبين المثول بحضرة سيدتها وظلت بالدار منفردة بنفسها. وبعد كل العذابات التي عانى منها العديد من الخُطَّاب قُدِّر لرجل بعيد عن إثارة الاهتمام أن يظفر بالعروس.

أحسَّ جينجي بدوره بالضيق وخيبة الأمل، ولكن الأوان كان قد فات، وأقام الاحتفال[2] بأسلوب فخم، مقدراً أنه مع اتفاق الطرفين[3] في كل شيء بخلاف ذلك، فإنه سيكون من غير المناسب ومما لا طائل وراءه بالنسبة لها أن يظهر مؤشرات على حجبه للموافقة.

لم يستطع إلا بالكاد انتظار إحضارها إلى مقر سكنه، ولكن جينجي تعلَّل بمراعاة مشاعر سيدة أخرى، والتي نما إلى علمه أنها قد لا يسعدها بالضرورة أن تستقبلها هناك، لو أنها انتقلت فجأة وبلا تمهيد مناسب. وأهاب به: «لطفاً، حافظ على رباطة جأشك، وتصرف بقدر كاف من الحرص لتجنب إثارة الإدانة أو الحقد من جانب أيّ كان!».

أشار معالي الوزير والدها في جلسة خاصة بقوله: «إنها أفضل حالاً على هذا النحو. وقد أحسست بالقلق بصفة خاصة من أن أي سيدة تدخل الجانب العاطفي من خدمة القصر من دون الدعم الكامل[4] قد تندم على ذلك. وأنا أريد الأفضل لها، ولكن بغض النظر عن مسألة الزوجة كوكيدين، الذي كان بوسعي القيام به حقاً؟». كان صحيحاً تماماً

(1) القائد (هيجيكورو) الذي تزوج تاماكازورا لتوه.

(2) لتأكيد الزواج.

(3) من المفترض أن ذلك يعني تو نو تشوجو وجينجي.

(4) من دون وجود أبويها كليهما لرعاية مصالحها.

أنه حتى خدمة جلالة الإمبراطور ستكون غلطة لو أنها تعرضت للسخرية، أو لو أنه نادراً ما أُتيح له وقت يمضيه معها، أو لو أنه لم يبد اكتراثه بها. وأثارت الأنباء عن القصائد المتبادلة بين جينجي والزوج الجديد في الليلة الثالثة في نفس معالي الوزير أشد الامتنان المفعم بالإعجاب بلطف جينجي وكياسته.



الذهاب إلى مهرجان المعبد

على الرغم من الطابع السري للزواج، فإن من الطبيعي أن الناس قد أحبوا الحديث عنه، ومع ذيوع الأخبار عنه، انطلق الجميع يتهامسون عنه في سعادة. وسمع جلالة الإمبراطور به أيضاً، فقال: «من المخيب للآمال أن قدرها يرسو على شاطىء آخر. ولكني كانت لديَّ آمالي. وعلى الرغم من ذلك فمن المؤكد أنها كانت سترغب في التخلي عنها، ولو أنها كانت فقط ذات طبيعة شخصية إلى حد ما».

أقبل الشهر الحادي عشر، وأقبلت معه طقوس عدة تقام تكريماً للآلهة[1]، وكان لمن يخدمون في قاعة المرآة المقدسة الكثير مما يتعين عليهم القيام به، ولكن مما أثار اشمئزازها أن القائد ظل يختلي بها بصورة متكررة حتى خلال النهار، خلال كل الضجة

(1) بين هاتين الفقرتين اضطلعت تاماكازورا بمهام سيدة العاملين في القصر. وكان أعضاء طاقم العاملين في القصر يعملون في قاعة المرايا المقدسة.

المفعمة بالانشغال، بينما كانت النساء اللواتي يشغلن مناصب رسمية يقبلن لرؤيتها بصفتها سيدة العاملين في القصر.

وكان معالـي الوزير[1] وآخرون أكثر امتعاضاً. وأعرب مشـرف مراقبة الميسـرة لأخته، زوجـة القائـد، عن اعتراضه على تعريضه لسـخرية العامة، وبحث بصـورة متكررة إمكانية القيـام بشـيء في هذا الصـدد، ولكنه أحجم عـن تنفيذ هذه الفكرة في نهايـة المطاف، لأنه بحلـول ذلـك الوقت ما كان لمناورة حمقاء من جانبه أن تكون شـيئاً مفيداً. وقد كان القائد الذي عرف على نطاق واسع في وقت من الأوقات بسلوكه الذي يعكس إيماناً راسخاً أبعد ما يكون عن الرجل الذي لا يعرف سبيلاً إلى الخطأ، ذلك لأنه الآن دفعه افتتانه بالسيدة إلى الانسلال بجسارة في الدخول والخروج كل ليلة وكل فجر، شأن أي عاشق، بطريقة مفارقة لما درج عليه في وقت من الأوقات، الأمر الذي بدا طريفاً ومسلياً بالنسبة للجميع.

فقدت زوجته مرحها الذي كان عادة مفعماً بالحياة، وغرقت في كآبة عميقة، على الرغم من أن ما حدث لم يكن بيدها، كما بدا جلياً، فإنها كانت تشعر بالخجل والأسف البالغين، كما تسـاءلت عما عسـى جينجـي يظنه بها، أو عندمـا كانت تتذكر كل لطـف معالي الوزير ورقته، بحيث أن سلوكها أفصح دوماً عن تعاستها.

الآن وقد برأ جينجي نفسه من أي شكوك جارحة لها، مضى يتأمل ماضيه، ويؤكد لنفسه أنه لم يهتم قط بصورة حقيقية بأي شـيء مفاجىء وغريب. قال للسـيدة مورا سـاكي: «لقد شـككت فيَّ، ألـم تفعلي ذلك!». وعلى الرغم من ذلك، فقـد كان يعرف تمام المعرفة إلى أيـن كان يمكـن أن تقـوده تلك الخاصية التي يتسـم بهـا، وأنه عندما يتم إغـواؤه على نحو مؤلم، فإنه لا يملك إلا الاندفاع، وكان لا يزال يفكِّر فيها حتى الآن.

زارها قرب انتصاف النهار، في غياب القائد. وكان توعكها الذي طال على نحو غريب، قـد تركهـا فاترة الهمـة، مكتئبة، لكنهـا نهضت في نهايـة المطاف لدى وصولـه، واحتمت بستارة قائمة.

وقـد كان هو نفسـه حزيناً، متحفظاً فـي طريقة تعامله معها، وجعـل الحوار يقتصر على

(1) هوتارو.

الأمـور العابـرة، ولما كانت قد اعتادت بحلول ذلك الوقت على الصحبة اللطيفة المألوفة، فقد أحسـت بمزيد من الحرص مقارنة بأي وقت مضـى بالطبيعة التي لا توصف بحضوره وبالمفاجأة النابعة من وضعها المحرج، فانخرطت في البكاء. وشـيئاً فشـيئاً انتقل موضوع الحديـث إلـى أمور أكثـر حميمية، واختلس جينجي، الذي اسـتند إلى مسـند قريب، النظر إليهـا قليلاً، بينما واصل الحديث. كانت جميلة حقاً، فضلاً عن الجلال والجاذبية التابعين مـن ملامحهـا النحيلة إلى حد ما، وأحس بالأسـف على حماقة تركها تذهب إلى شـخص آخر.

«أنا الذي لم يشرب أبداً ما تاق إليه من مائك، وفيت بالوعد

أن أتركك تعبرين مع سواي نهر المخاضات(1).

لا يمكنني تصديق ذلك إلا بالكاد!».

حجبت وجهها، لترد قائلة:

«لو أنني، قبل أوان عبوري نهر المخاضات الثلاث،

ذبت مثلما الزبد على غدير متدفق من الدموع!»

«أمنيـة طفلـة! يقولون إن العبور هو أمر ينبغي أن نقوم به جميعاً، ولذا أردت أن أمسـك بيدك على الأقل لأساعدك!». وابتسم وواصل حديثه: «جدياً، على الرغم من أن هناك شيئاً يتعيـن عليك إدراكه. ومن المؤكد أنك ستسـلمين بأن حماقة كحماقتي وأمناً مثل أمنك لم يعرفا في هذه الدنيا من قبل».

أحزنتها كلماته كثيراً إلى حد أنه أشـفق عليها، وغيَّر مجرى الحديث: «إن ما قاله جلالة الإمبراطـور، حـول هذا كله، جعلني أشـعر بالأسـف البالـغ، وأود أن أراك تمضين لبعض الوقت إلى القصر. وأتوقع أن يكون من الصعب عليك أن تكوني مع جلالة الإمبراطور بعد أن يتـم زواجـك بصـورة نهائية، لم يكن هذا هو ما في ذهني. فـي بداية الأمر، ولكن بما أن معالي الوزير سـعيد، فإنني أحس بأن كل شـيء على ما يرام». انكب على الحديث مطولاً.

(1) لم أطارحك الغرام قط، لكنني على الرغم من ذلك لم أقصد أبداً أن يحملك أي أحد عبر نهر الموت. كان يفترض أن الرجل الأول بالنسبة لامرأة يحملها عبر النهر (واتاري نوكاوا نهر والمخاضات أوسانزو نو كاو، نهر المخاضات الثلاث) بين هذا العالم وأرض الموتى.

وأثـر فيهـا جانب كبير مما قالـه، وأحرجها، ولكنها اكتفت بالبكاء. وأزعجه بؤسـها الجلي كثيراً إلى حد أنه لم يتح لنفسـه حرية التصرف على نحو ما حدَّث نفسـه به، وبدلاً من ذلك اكتفى بإصدار التعليمات حول ما يجب عليه أن يكون شـعورها وسـلوكها. لم يبد عليه ما ينم عن استعداده لتركها تنتقل إلى دار القائد بصورة مباشرة.

لـم يحـب القائد على الإطـلاق فكرة ذهابهـا إلى القصـر، ولكنه على الرغـم من ذلك وافـق على ذهابها هناك لفترة قصيرة، لأنه خطر بباله أنه من هناك يمكنه إحضارها إلى داره مباشرة. ولما كان لا يشعر بالارتياح حيال المسألة غير المألوفة المتعلقة بزيارته لها خلسة، فقـد قام بترميـم داره، وانطلق بكل الطرق يجـدِّد مكاناً كان على امتداد السـنين قد تعرض للإهمـال والتداعـي، لم يكتـرث على الإطلاق بالضيـق الذي يحتمل أن تحـس به زوجته الأولـى، ولـم يلق نظرة على الأبنـاء الذين كان يحبهم، لأنه في حيـن كان حرياً برجل أكثر لطفاً وحساسية أن يتفهم ما يجلل رجلاً آخر بالعار، فإن افتقار القائد للمرونة وتصلبه غالباً ما كان يسيئان إلى مشاعر الآخرين.

مـن المؤكـد أنه لم يكن بالإمكان وضـع زوجته الأولى على الوجـه الصحيح في مرتبة أدنـى من أي سـيدة أخـرى. وهي باعتبارها الابنـة المحبوبة كثيراً لمعاليـه أبيه، حظيت من حيـث المبـدأ بكثير مـن التقدير في الدنيا بأسـرها. كما أنهـا كانت جميلة كذلـك، ولكنها ابتليـت بـروح دأبت على نحو غريـب على الإلحاح عليها، إلى حد أنها كفت منذ سـنوات عـن أن تكـون مثل الناس الآخريـن، وأدى تواتر تلك الأوقات التي لـم تكن فيها هي ذاتها إلـى إبعـاده عنها، منـذ وقت طويل، وذلك علـى الرغم من أنه كان لا يـزال يمنحها التقدير الفائق الذي تستحقه. وفي غضون ذلك، فإن من الطبيعي أنه قد تأثر أكثر فأكثر وابتهج ليس بالجمـال الفذ الذي تتمتع به السـيدة التي تحـوَّل إليها قلبه الآن فقط، وإنمـا بالطريقة التي أفلحت من خلالها في تبديد الشكوك، التي كانت قد ساورت الناس بشأنها.

سـمع معالي وزير شـؤون المراسـم بكل هذه الأحداث، فقال: «ستغدو النميمة شيئاً لا يطاق، إذا أحضر فتاته الجميلة هذه إلى الدار، ثم يجعل ابنتي تلزم ركناً من أركانها على نحو غيـر لائـق. وطالما أنني على قيـد الحياة. فإن بمقدورها على الأقل أن تفلت من السـخرية التي يهددها بها». وقام بتجديد الجناح الشـرقي في داره، وأعلن نيته نقلها إليه، ولكن على

الرغم من أنها عندئذ ستكون معه، إلا أن المسار الصحيح لحياتها كان قد تحدد بالفعل، وأزعجه أن يفكّر في استعادتها مجدداً. وفي غضون ذلك مضى ذهنها يوغل في مسيرته بعيداً عنها، وجعلها المرض تلزم الفراش. وكانت بطبيعتها سيدة رقيقة، هادئة، وضعيفة على نحو صبياني، ولكن في بعض الأوقات عندما كانت تنتابها إحدى نوباتها كانت تدمدم صارخة بأمور سيئة حقاً.

شكّلت الحالة المتداعية لدار القائد وطريقة حياة زوجته الأولى التعسة والمنعزلة بصورة مؤلمة مفارقة محزنة مع روعة هذه السيدة الجديدة، ولكن إخلاص القائد الذي امتد طويلاً لزوجته الأولى لم يتغير بصورة حقيقية، وفي قرارة فؤاده أحس بالشفقة المفعمة بالحب عليها. وأشار بقوله: «يقولون إن لمسة من الصبر والتجمل هي التي تكفل لسيدة رفيعة المنبت أن تجتاز محنة أي قصة حب يعيشها زوجها، حتى وإن كانت عابرة. وكما ترين، فقد كان من الصعب طرح ما يتعين عليَّ إبلاغك به عندما كنت مريضة مرضاً شديداً.

ألم أعدك دوماً بأن أكون مخلصاً لك؟ لقد قررت منذ زمن بعيد الوقوف إلى جانبك في مرضك، فلا تنقلبي عليَّ لطفاً من جراء الاستعداد للرد عليَّ بالمثل. وهناك أطفال أيضاً، وأنا أواصل إبلاغك بذلك من أجلهم، كما أنني لا أعتزم إهمالك. ومع ذلك فإنك في غمار فوضى التفكير الأنثوي تواصلين غضبك مني. وبمقدوري تفهم أنك ينبغي أن يكون شعورك على هذا النحو طالما أنك لم تفهمي مدى صدقي فيما أقوله، ولكنني آمل أنك ستجعلينني أستفيد من الشك في أنني لست مذنباً تماماً وأن تواصلي الاعتصام بالصبر وقتاً أطول. لقد سمع معالي الوزير أبوك بهذا كله، وكرهني بسببه، وها هو الآن يقول في التو، هكذا تماماً، إنه يريد استعادتك. وتلك فكرة حمقاء للغاية حقاً. إنني أتساءل هل هو جاد في ذلك أم أنه يوجه إليَّ تحذيراً فحسب». ابتسم فأثار في نفسها شعوراً بالضيق الشديد والاشمئزاز.

حتى تشوجو وكذلك موكو[1] اللتين جعلتها خدمتهما الحميمية خليلة بشكل أو بآخر، صدمتا وغضبتا بقدر ما يمكن لأي من مثل هاتين المرأتين أن تُحسا بالصدمة والغضب، ولما كانت السيدة نفسها آنذاك واعية بنفسها وبما حولها، فقد جلست وسفحت دموعاً

(1) لم تظهر أي من هاتين المرأتين في الحكاية قبل هذا الموضع.

مثيرة للإشفاق.

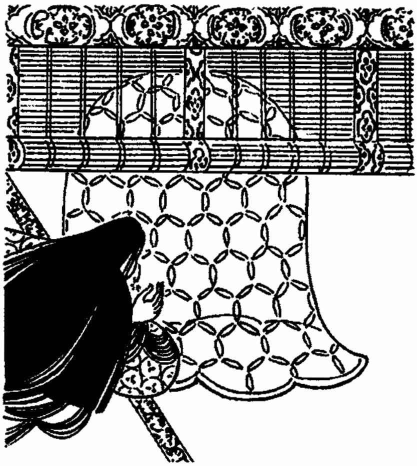
وقالت: «لست مندهشة لأنك تجعلني أشعر بالعار بوصفي غريبة وشاذة، ولكن من المؤلم التفكير في أن والدي قد يسمح بذلك وأن محنتي، كما فهمت، تسيء إلى عائلتي أيضاً. وبالنسبة إليَّ فقد أصبحت الآن معتادة على ذلك، ولم أعد أفكِّر فيه». كان هناك شيء عذب يحيط بها، وقد أدارت ظهرها نحوه على تلك الشاكلة. كانت رشيقة بالفعل، وجعلها مرضها أكثر نحولاً وضعفاً، بينما تساقط شعرها المسترسل الجميل، الذي نادراً ما كانت تمشطه، كأنما غدا خفيفاً، وبدا مثيراً للشفقة، وقد انحنت وانخرطت في البكاء. وعلى الرغم من افتقارها إلى جمال ملحوظ نابع منها، إلا أنها على الرغم من ذلك، احتفظت ببهاء أبيها، ولكن في مثل هذه الحالة المتغيرة على نحو مثير للشفقة كيف يمكن لها أن تحظى بأي جاذبية حقيقية؟

حاول القائد تهدئتها فقال: «من المؤكد أنني لا أشير إلى انعكاس لهذا الأمر على معالي الوزير. لا ينبغي أن تقولي مثل هذه الأشياء الفظيعة. وعلى الرغم من ذلك، فإن المكان الذي أنا بسبيلي إليه الآن رائع تماماً، وزياراتي الجدية إلى هناك تجعلني أشعر بالارتباك الشديد، إلى حد أنني على يقين من أن كل العيون ترمقني، وأنا أفضِّل الراحة المتمثلة في إحضارها إلى هنا. ولست بحاجة إلى تذكيرك بالتكريم الفائق الذي يحظى به سمو المستشار، وسيكون من سوء الطالع إلى حد كبير أن تصل أي شائعة سيئة إلى نبيل يتمتع بهذا الفهم الذي ينفذ إلى جوهر الأمور. فعليك بمسايرتها، واحرصي على أن تسير الأمور بينكما بصورة جيدة. ولن أنساك قط، حتى إذا انتقلت إلى دار معالي الوزير أبيك، وأياً كان ما سيحدث، فإن إخلاصي لك لن يتوقف، ولكنه سيكون مما يلحق بي الضرر كذلك أن يبدأ الناس في الهزء بنا، وآمل أن تتلمسي دربك في الانضمام إليَّ في دعمنا المتواصل، كل منا للآخر».

ردت قائلة: «إن قسوتك لا تعنيني. وأنا أعتقد أن محنتي الغريبة هي التي تثير ضيق معالي الوزير، وذلك يلحق به البؤس المتمثل في رؤيتي وقد تحولت إلى أضحوكة، ويؤسفني أن أتساءل كيف سأواجهه يوماً؟ والأمر كذلك ليس قوامه كما يبدو أن زوجة سمو المستشار غريبة عني تماماً. وكونها هي التي نشأت خارج العائلة، والتي تقوم الآن بدور الأم على

هـذا النحـو، في هذا الوقت المتأخر، هـو أمر بعيد عن الإنصاف إلى حـد أن معالي الوزير يركز عليه تفكيره وحديثه، على الرغم من أن هذا الأمر لا يثير اهتمامي البتة. ولا أتابعه إلا لأرى ما الذي ستفعله؟».

«إنني أسـلم بـكل ما تقولينـه، ولكـن كل هذه الوقائـع التـي تتحدثين عنهـا تجعل من المحتمـل وقـوع أحداث أكثـر إيلاماً في المسـتقبل. وزوجة سـمو المستشـار لا صلة لها بهذا، فهي تعيش حياة ابنة مصونة، وأنا أشـك في أنها تعرف أي شـيء من أي إنسانة تحظى بهـذا التقدير المحـدود. وبقدر ما أعلم فإنها لا تقوم بـدور الأم على الإطلاق، بل العكس تمامـاً. وينبغي أن أشـعر بأشـدّ الأسـف، لو أن مثل هـذا الحديث بلغ مسـامعها». وأمضى اليوم يتجاذب أطراف الحديث معها.


إطار مبخرة

مـا إن غربـت الشـمس، حتى اعتـدل مزاجه، وتـاق إلـى الانصراف، ولكـن ثلجـاً كثيفاً مضى في التسـاقط. ولسـوف يكون مشـهده مؤلماً، لو أنـه أصـر علـى المغـادرة في مثـل هـذا الطقس. ولـن يـؤدي انفعـال غاضب مـن جانبهـا إلا إلى إتاحة الفرصة له للرد بالطريقة نفسها، ولكن، لا، لقـد دفعته طريقتهـا الهادئة الخالية مـن الانفعال إلى الجلـوس قرب الشـرفة والمصاريع مرفوعة والتحديق في الخارج.

لاحظت زوجته نظراته، فقالت مشـجعة: «كيف ستمضي عبر هذا الثلج الفظيع؟ أعتقد أن الوقت قد تأخر للغاية». كانت تمعن التفكير محدثة نفسها: هذه هي النهاية، ولا جدوى من محاولتي استبقاءه، وأفصح محياها عن الأسى الكبير النابع من معرفتها بهذا.

ولكنـه عندئذ قال: «كيـف يمكنني الخروج في هذا الطقس؟ ولو لوقت قصير.. لسـت أحـب البقـاء بعيـداً، كما تعلمين، لأننـي أقلق حيال ما قد يعتقده سـمو المستشـار ومعالي الوزير عندما يسـمعان حكايات يرويها أناس لا يتفهمون مشاعري. أرجو أن تحافظي على هدوئـك وأن تتحمليني، ولسـوف يصبح كل شـيء أيسـر بكثيـر عندما أحضرهـا إلى هنا.

وعندما تكونين على هذه الحالة أنت نفسك، فإنني أفقد أي رغبة في تقسيم عواطفي، وأفكِّر فيك بإعزاز».

ردت في هدوء: «حتى إذا بقيت، فإنك ستفعل ذلك ضد رغباتك، وذلك سيجعل الأمور أشدَّ إيلاماً. وأنا أعرف أن الثلج سيذوب من كميَّ لو أنك تذكرتني فحسب عندما تكون بعيداً»[1].

دعت بمبخرة، وأعطت ملابسه لمسة عطر إضافية. كانت ترتدي ملابس بالية، حافلة بالثنايا، كيفما اتفق، وبدت أكثر ضعفاً وذبولاً من ذي قبل، وكان من المؤلم أن يرى المرء بأسها. ونفَّرته قليلاً عيناها اللتان انتفختا بصورة محزنة من جراء البكاء، ولكن لما كان ينظر إليها بتعاطفه الراهن، فلم يكن يرغب في لومها. قال لنفسه مراراً: لقد صمدت كل هذا الوقت! إنني متقلب ولذا فقد منحت قلبي لامرأة أخرى! وفي غضون ذلك واصل ارتداء ملابسه، وهو حريص على الانطلاق وشغوف به، وسط تنهداته، ثم جذب مبخرة صغيرة لكي يضعها في كميه ويعطرهما. ومن المؤكد أن بريق جينجي، الذي لا سبيل إلى وضعه موضع المقارنة، قد فاقه كثيراً، ولكن مظهره في هذه الثياب الرقيقة يوحي برجولة متألقة تضعه حتماً فوق الغالبية العظمى من رجال البلاط، ويمكن أن تدخل الإحساس بالهيبة في نفس أي شخص ينظر إليه.


إخضاع روح شريرة

«لقد خفَّ تساقط الثلج!».

«لا بد أن الوقت تأخر كثيراً!». شجعته سرّاً أصوات منبعثة من مكتب شؤون الدار، على أن يمضي في طريقه. ومضى رجاله يتنحنحون.

«يا لسيدتي المسكينة!». تنهَّدت تشوجو وموكو، وهما راقدتان تتجاذبان أطراف الحديث. كانت سيدتهما نفسها راقدة في عذوبة بالغة، وقد استندت على مسند

(1) جوسينشو 481: «عندما أضيع في غمار الحب فإنني أرقد مسهداً طوال ليل الشتاء، وحتى «الثلج» [الدموع المتجمدة] لا يذوب من كمّي».

للـذراع، ونهضت فجـأة، والتقطـت المبخرة من تحت إطـار كبير، وأقبلـت وراء زوجها، وأفرغـت المبخـرة عليـه. لـم يتـح الوقت لأحـد حتى لمجـرد الصراخ. تجمـد زوجها في موضعـه فزعـاً. أثار الرماد الدقيـق في عينيه وأنفـه اضطرابه، وحجب الرؤيـة عنه، ومضى يبعـده بالفرشـاة وبيـده عنه، ولكنه كان منتشـراً في كل مـكان، واضطر لنزع ملابسـه كلها. وكان حرياً بنسائها أن يضقن بها ذرعاً، وألا ينظرن إليها ثانية أبداً، لو أنهن حسبن أنها كانت في تمام عقلها عندما أقدمت على ذلك، ولكنهن بدلاً من ذلك حملن هذا في إشفاق على محمـل أنه محاولة أخرى من الروح التي تلبسـتها لتأليب زوجها عليهـا، واندفعن لتزويده بملابس جديدة، ولكن الرماد الكثيف كان قد استقر على شعره أيضاً، وبدا أنه دخل في كل شـيء، بحيث أنه لم يكن بمقدوره أن يزور، وهو في هذه الحالة، سـيدة كان مسـكنها على الدوام متألقاً خالياً من أي شـائبة. وسواء أكانت مصابة بالخبل أم لا، فإن زوجته الأولى لـم يسبق لها أن تصرفت من قبل قط بمثل هذه الرعونة. طرقع بأصابعه، وأحسَّ بأن كل تعاطفه معهـا قـد تبدد. وبدلاً من ذلك، فإن الاشـمئزاز قد غلبه، ولكنه سـيطر على نفسـه، لأن من شأن حدوث فضيحة الآن أن تكون شيئاً كارثياً. وعلى الرغم من أن الليل كان في منتصفه، فقد استدعى كهنة لترتيل صلوات بأصوات عالية. وما كان يمكن للمرء أن يلومه لأنه وجد صرخاتها وهذيانها شيئاً منفراً وداعياً للاشمئزاز.

طـوال الليل، وحتى بزوغ الفجر أخيراً، تعرضت للصفع وللشـد والجذب، وهي تبكي في غضون ذلك، بكاء متواصلاً، وخلال فترة توقف قصيرة بعث برسالة قصيرة، كتب فيها يقـول متكلفاً الجد والاحتشـام: «أوشـك أحدهم هنا علـى الموت البارحـة، وإلى جانب الصعوبـة الإضافيـة المتمثلة في الخروج وسـط كل ذلك الثلج، فقد تـرددت في المغامرة بالخروج. وقد اسـتبد بي البرد بشـدة[1]، وبغض النظر عنك، فإنني أتسـاءل ما الذي عسـى الآخرون يقولونه عن هذا.

«حلَّق فؤادي المسكين عالياً إلى فوضى الثلج في السماء[2]،

بينما رقدت محزوناً وحيداً على كمين متجمدين .

---

(1) إشارة إلى بؤس الراقد وحيداً في ليل الشتاء.

(2) قراءة حرفية (يقتضيها الثلج في القصيدة) لتعبير رمزي عادة، يعني «ألا يتمالك ذاته» أو «أن تغلبه نفسه».

كان ذلـك بالـغ الصعوبة». كانت رسـالته مكتوبـة على ورق أبيض رفيع، وقد سُـطرت بشـكل جليل، ولكن ما من شـيء فيها يلفت النظر بشـكل خاص. وكان خطه بديعاً للغاية، وكان قـد حظي بتعليم راق بالفعل. تجاهلت سـيدة العاملين في القصر، التي لـم يعن غيابه شيئاً بالنسبة لها، اهتمامه الملح، ولـم تبعث حتى برد موجز. فسحقه الحزن، وأمضى اليوم مكتئباً.

لمـا كان يبـدو جليـاً أن زوجته الأولـى لا تزال تعاني، فقـد كلَّف من يقيم طقسـاً كبيراً، وابتهل في قرارة نفسه أن تظل في الوقت الراهن محتفظة بصوابها. حدَّث نفسه بأنه ما كان ليجتاز فظاعة هذه الليلة، لو أنه لـم يعرف مدى جدارتها بالاهتمام حقاً.

انطلق مسـرعاً بعد الغروب كعهده دوماً. ولما لم يكن قد ارتدى ملابسـه بصورة أنيقة، فقد ضاق ذرعاً بعدم تناسبها، والآن حيث أنه لم يكن يرتدي حتى عباءة رسمية، فإن منظره لم يكن مما يروق للعين. وكانت أرديته الخارجية التي تعود إلى البارحة محترقة هنا وهناك. وتفـوح منهـا رائحة الحريق على نحو مزعج، والتقطت ملابسـه التحتانيـة الرائحة كذلك. كان من الواضح تمام الوضوح أن ذلك قد ناله من زوجته الأولى، وقد بدَّل ملابسه، وأخذ حماماً مطولاً، ولولا ذلك لنفرت منه حبيبته أشد النفور.

«هذه النار، حسبما أراها، اندلعت من فؤاد يتقد

بالألم الحارق الذي يستشعره دوماً من يتعرض للهجران» .

قالتهـا موكـو، وهي تعطِّـر ثوباً. «كيف لا يمكـن لأكثر المتابعين سـذاجة ألا يُصدم من الطريقة التي أبعدت بها سـيدتي من حياتك؟». حجبت فمها، وهي تتحدث، ولكن نظرتها إليه كانت مفعمة بالاتهام، وكان كل ما يستطيع التفكير فيه (ويا للقسوة) هو: ما الذي رأيته يوماً في امرأة مثلها؟

«آه، عندما يعكر الغضب صفائي، فإن أعمدة الدخان

تتعالى حقاً، والمزيد والمزيد من أسفي المتقد!» .

تنهَّـد، وهـو يغـادر قائـلاً: «سـأكون فـي مـأزق حقيقي إذا تسـرَّب نبـأ هـذه الأحداث الغريبة».

لم تؤد ليلة واحدة أمضاها بعيداً عن محبوبته إلا إلى الكشف له عن ملامح جديدة من جمالها، حتى لم يعد يتصور إعطاء حصة من عواطفه لأي إنسانة أخرى، وقد كان هذا كله محبطاً للغاية إلى حدّ أنه بقي مختلياً بها وقتاً طويلاً. وأفزعته أنباء أن الروح واصلت هذيانها العنيف، على الرغم من طقس الشفاعة وما إلى ذلك من الطقوس، وبقي بعيداً خوفاً من أن تحل به وصمة أو فضيحة. وعندما كان يمضي إلى الدار كان يبقى بعيداً في مكان آخر، ولا يستدعي إلا أطفاله إليه. وكان هؤلاء الأطفال هم ابنة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها وابنان أصغر منها سناً. وكان قد عامل زوجته بأعظم قدر من التقدير، على الرغم من المسافة التي فصلتهما في السنوات الأخيرة، والآن وقد عرفت أن النهاية قد حانت، فقد استبدَّ بوصيفاتها حزن مرير كذلك.

ترامى ما وقع إلى مسامع معالي الوزير والدها. فقال[1]: «لن يعود عليك إلا العار والسخرية، إذا واصلت التذرع بالصبر، الآن وهو يوشك على هجرانك علانية. لماذا تحتملينه أكثر من ذلك طالما أنني على قيد الحياة؟». وفجأة أحضرها إلى الدار. وكانت هي ذاتها حاضرة الذهن بما يكفي لكي تنوح على هذا التداعي الكارثي. وحدَّثت نفسها قائلة: يمكنني أن أصر على مواصلة البقاء لمتابعة هذا الأمر حتى النهاية ذاتها، ولكنني سأجعل نفسي أبدو أكثر حماقة فحسب. وقررت الذهاب.

كان أحد أخوتها، وهو مشرف مراقبة الميسرة، نبيلاً بارزاً، وكان من شأن حضوره أن يضفي أهمية أكثر مما ينبغي على انتقالها، ولذا فقد جاء النقيب، والاستشاري ومفوض الشؤون المدنية لنقلها في ثلاث عربات. وكانت وصيفاتها قد افترضن منذ وقت طويل أن هذا اليوم سيأتي، لكن على الرغم من ذلك فإن فكرة أنه قد حل بالفعل أسلمتهن لبكاء لا ينقطع. وراحت إحداهن تُسائل الأخرى: «كيف يمكننا جميعاً البقاء مع سيدتنا فيما هي تنطلق في الرحلة الأولى التي تقوم بها في غضون سنوات عدة وستحيا في ظل ظروف مقيدة على نحو مربك؟ بعضنا ينبغي أن يمضين إلى بيوتهن بدلاً من ذلك، وينتظرن إلى أن تستقر بصورة أفضل». ومن هنا بعثن بأغراضهن القليلة إلى بيوتهن، وتفرقن، فمضت كل منهن إلى دارها.

(1) ربما في رسالة نُقلت شفاهة.

مضيــن جميعــاً، على اختــلاف مراتبهن، ينحن، وهــن يحزمن الأغراض التي ســتكون ضرورية لسيدتهن، مشكلات فيما هن يقمن بذلك مشهداً هو بمثابة نذير سيء[1]. واستدعت السـيدة أطفالهـا الذين كانوا يهيمون في المسـألة برمتها مـن دون أن يفهموا من جلية الأمر شيئاً. أبلغت ابنتها بقولها: «الآن إذ لم يعد لديَّ شك فيما يتعلق بمصيري الحزين، فإنني لم أعد أرغب في التشـبث بالدنيا، وأتقبل مصيري أياً يكن. وسـيكون من المحزن لكم جميعاً أن تتفرقـوا بينمـا أنتـم لا تزالون صغـاراً على هذا النحـو! لا بد لك من البقـاء معي أياً كان مـا يحدث. أمـا أنتما أيها الصبيان، فإنني أخشـى أنه سـيتعين عليكما أن تريـا أباكما كثيراً، علـى الرغـم من أنه من غيـر المحتمل أن يبدي اهتمامـاً كبيراً بكما وقد تشـعران بالضياع. وقـد تظلان بحالـة جيدة طالما لا يزال معالـي الوزير والدي معنا، ولكـن في عالم يخضع لإرادة سـمو المستشـار ومعالي وزير شـؤون القصر، فسـوف يتعين عليكما احتمال عبء عدم ترحيبهما بكما، ولن تنجحا في يسـر. كم سـيكون فظيعاً بالنسـبة لي، حتى في الحياة المقبلة، إذا تبعتماني عندئذ إلى الجبال والغابات!»[2] انخرطت في البكاء، فبكيا معها.

جمعـت القائمـات علـى رعايـة الأطفـال حولهـا، وأطلقـت لحزنهـن العنـان. قالـت إحداهن: «في الحكايات القديمة أيضاً هناك آباء حسـنو النوايا شـأن غيرهم، ولكن يتضح في نهاية المطاف أنهم غلاظ القلوب، حيث أنهم يتغيرون مع تقلب الأزمان، ويتبعون تغير الأمزجة».

صاحت سيدتها: «إذن فانظري إليه! إنه أب بالاسم وحده، وهو لم يعد يفكِّر في أطفاله على الإطلاق، وعلى الرغم من المظاهر فإنه لن يفعل شيئاً لهم».

غربت الشمس، ووعدت السماء في هذا المساء الكئيب بتساقط المزيد من الثلج. كان الإخوة قد أقبلوا لاصطحابها، وبينما مضوا يهيبون بها الإسراع لأن الطقس، حسبما قالوا، ينـذر بالتردي، جلسـت أمامها شـاردة، وهي تجفف دموعهـا. ورقدت ابنتهـا، التي كانت أثيرة دوماً عند القائد، قريباً منها ووجهها إلى أسـفل، وهي تتسـاءل كيف سـتعيش من دون رؤيـة والدهـا. ماذا لو أنها مضـت بعيداً للأبد مـن دون أن تودعه؟ وبدا أنهـا غير راغبة في

(1) لأن المشهد يشابه ما بعد الموت.

(2) إنها تقصد إذا أصبحت راهبة.

الانتقال.

قالت أمها محتجة: «ليس جميلاً بالمرة أن يكون هذا شعورك». كان كل ما تريده الفتاة هو مجيء أبيها إلى الدار الآن، ولكن ما هي إمكانية حدوث ذلك مع دنو الليل؟ ضايقها التفكير في ترك العمود القائم إلى الجانب الشرقي، الذي غالباً ما كانت تستند إليه، إلى شخص آخر، ومن هنا فقد لصقت معاً بعض القطع من الورق الذي يشبه في لونه لون لحاء شجر السرو، وكتبت عليها بحروف صغيرة، وشبكت بدبوس للشعر الورقة في صدع العمود:

لا «أغادر الآن داراً طالما كانت لي، أيها العمود البديع،

أنت يا من أحببتك أيضاً، لا تنسني لطفاً!»

أوشكت الدموع أن تمنعها من الفراغ من القصيدة.

قالت أمها: هلمي!

ربما لا يزال هذا العمود البديع يتذكر حبك، ولكن ماذا إذاً؟ إني أسأل:

ما الذي أتركه ورائي ويمكن أن يجعلني أبقى؟».

غمر الحزن نساءها أيضاً، كلاً منها بطريقتها الخاصة. مضين جميعاً يبكين، وتستقر نظراتهن في حنان على نبتة صغيرة أو شُجيرة لم يكن قد لاحظنها من قبل.

كان من المقرر أن تواصل موكو البقاء، الأمر الذي دفع تشوجو إلى القول:

«ضحلاً قد يكون الغدير، ولكنه لا يزال يتدفق بين الصخور عذباً صافياً،

لكن سيدة الدار مرغمة على المضي بعيداً[1]!

لم يخطر ببالي قط رؤية أمر كهذا! آه، ما أفظع التفكير في اضطراري للمغادرة!».

ردت موكو:

«لا، بين هذه الصخور يختنق الغدير ويصمت، فلا كلمات لديَّ

---

(1) «أنت يا من تعد صلته بمولانا واهية باق، بينما سيدتنا..». «الغدير» هو في آن موكو وغدير الحديقة. وتتضمن القصيدة تورية فيما يتعلق بلفظ سومي «يتدفق صافياً» و«يحيا» وكلمات أخرى مرتبطة بالماء.

وهذه ليست حياة بالنسبة لي، بحيث أرغب الآن في البقاء!.

آه، يا إلهي!»

تطلعت تشوجو إلى الوراء، وساورها الحزن لأنها قد لا ترى هذا المكان مرة ثانية. وحدَّقت سيدتها في كل غصن من أغصان الشجر، وتطلعت إلى الوراء مراراً، إلى أن غابت الدار عن ناظريها، ليس لأن محبوبها قد عاش هناك[1]، وإنما لأن هذا هو المكان الذي أمضت فيه سنوات عديدة، وجمعت الكثير من الذكريات.

استقبلها معالي الوزير أبوها مكروباً، وانخرطت أمها بالبكاء، وصاحت: «لقد اعتقدت أن المستشار حليف رائع، ولكن كل ما أراه هو العدو الذي كأنه دائماً. فهو لم يدع فرصة إلا وانتهزها لإحراج زوجة الإمبراطور، لكنك مثل الجميع تزعم أنه قصد تلقيننا درساً فحسب، طالما أن الصلات بينكما سيئة. إني أسألك: هل هذا صحيح؟ لم يكن للأمر معنى على أي حال، لأنه إذا كان حريصاً على تلك الفتاة، فإن الأمثلة السابقة تشير إلى أن مشاعره ستمتد إلى من يحيطون به، ولكن لا، الأمر ليس كذلك، فها هو يتخذ ابنة بالتبني، ثم من جراء الشفقة، بعد أن فرغ منها هو نفسه، يقتنص لها الشيء نفسه، رجلاً نبيلاً يعتمد عليه تماماً، ولا يحتمل أن يسيء التصرف! أليس ذلك أمراً لا يغتفر؟».

رد معالي الوزير: «في ذلك الكفاية! ليس لك أن تمضي في الإساءة إلى سمو المستشار كيفما طاب لك، بينما هو لا يتلقى أدنى قدر من الانتقاد العام. إنه رجل بعيد النظر، وأتصور أنه قد رسم خططه، وتطلع إلى الثأر مني بهذه الطريقة، منذ وقت طويل. من سوء طالعي أن هذا هو شعوره نحوي. إنه يفلح على الدوام بحذق بالغ، ومن دون أثر ينم عنه، في مساعدة الناس أو إلحاق الضرر بهم، بحسب الكيفية التي تصرفوا بها عندما لحق بها العار. ولأنه يعتبرني في نهاية المطاف من أقاربه القريبين فحسب أقام لي منذ عام أو عامين احتفالاً أكثر تألقاً من أي شيء تستحقه داري. وهذا تكريم كاف لي في حياتي هذه».

غير أن زوجته غدت أكثر غضباً، ومضت تكيل كل أنواع الاتهامات، إن لها مزاجاً شريراً تلك المرأة.

---

(1) شويشو 351 من نظم الشاعر المنفي سوجاوارا نو ميتشيزاني: «أمضي قدماً، متطلعاً إلى الرداء مراراً إلى أن تغيب عن ناظريَّ الأغصان التي تعلو الدار التي تحيا فيها محبوبتي».

سـمع القائد أن زوجته قد غادرت الدار، فحدَّث نفسـه: ما أغرب هذا! وعلى الرغم من ذلك فإنها ليست تلك المرأة الغضوب أو الحرون، لا، إن معالي الوزير هو من يمضي إلى هذا النوع من الهراء. وهناك الأطفال أيضاً. كان هذا محرجاً للغاية بالنسبة لهم، وقد أزعجه ذلك.

قـال موضِّحاً الأمر لسـيدة العامليـن في القصر: «ذلـك هو ما حدث! أعتقـد أنه يجعل الأمور أيسـر على نحو ما، ولكنني كنت أعتمد علـى امرأة في مثل اعتدالها في البقاء هادئة فـي ركنها. وهذا الانتقـال المفاجىء لا بد أنه أوعز به معالي الوزير، ولا بد لي من الذهاب وإيضاح مدى السـوء الذي يجعلني هذا أبدو به كذلك. لسـوف أعـود». مضى وقد ارتدى على نحو بديع رداء خارجياً أنيقاً[1]، وآخر مسترسـل الذيل في لون الصفصاف، وسـروالاً ملمومـاً يجمـع بين اللونيـن الأزرق والرمادي من قمـاش التويل الحريـري الخفيف. ولم يكن بمقدور الوصيفات رؤية شـيء يسـتحق الاسـتخفاف فيه. ولكن أخباره فرضت على سيدتهن حقيقة سوء طالعها فحسب، فلم تمنحه نظرة عابرة واحدة.

بعـد أن انطلـق القائد ليبلـغ معالي الوزير برأيـه فيما قام به، مضى إلـى داره أولاً، حيث بـادرت موكـو إلى إبلاغـه بكل ما حـدث. كان وصفهـا لرحيل ابنتـه مؤثراً للغايـة، فدفعه البـكاء، علـى الرغم من جهوده الرجولية للسـيطرة على النفس، فقـال: «إذاً فقد تجاهلت، فـي نهايـة المطاف، الولاء الذي تجاهلت به على مدار السـنين كل أنواع غرابة الأطوار من جانبها، على نحو ما كان أحد غيري يقوم به! هل كان أي رجل يدخل السـرور على نفسـه فحسـب يبقـى معها كل ذلك الوقت؟ لا عليـك! إن الأمر لـم تعد له أهمية الآن وقد بدا أنها قـد ضاعت على أي حال. ترى مـا الذي تعتزم أن تفعله بالأطفال». تنهد. وألقى نظرة على «العمـود الرائع» وأثَّرت فيه هذه القصيدة، فحملته إلى مشـاعر رقيقة بالروح التي تحملها، على الرغم من صبيانية الخط، إلى حد أنه مضى يجفف دموعه طوال الطريق إلى دار معالي الوزير، حيث لم تتح له فرصة لمقابلة زوجته.

قـال معالـي الوزير مصراً: «ولماذا ينبغي أن تقابليه؟ هذه ليسـت المرة الأولى التي يغيِّر

(1) من الواضح أنه قدمته له تاما كازورا ، أو بالأحرى قدَّمه له جينجي. وربما كانت تلك هي (عباءة رسمية) وكان يمكن أن تكون عباءة سوداء، حيث أن اللون الأسود هو لون المرتبة الثالثة التي ينتمي إليها هيجيكورو.

فيها رأيه بمرور الوقت. لقد سمعت منذ وقت طويل إلى أي حد هو مفتون، وكل ما هناك أنني أود أن أعرف حتام سنضطر للانتظار حتى يعود إلى رشده. لن يعني الأمر إلا إظهاراً آخر لحالتك التعسة فحسب».

استهل القائد حديثه بقوله: «كل هذا يجعلني أظهر بمظهر الطفل. ليس بمقدوري الاعتذار بما فيه الكفاية عن حماقتي لافتراضي أنها لن تترك الأطفال البتة. وعلى الرغم من ذلك، وفي الوقت الراهن، فإنني أسألك التسامح فحسب، وآمل ألا تمضي قدماً في هذا الأمر إلى أن يغدو واضحاً للجميع أن إساءتي لا سبيل إلى الرجوع عنها». لم يدر ماذا عساه يقول غير ذلك، وواصل الحديث: «أتمنى أن أقابل ابنتي». لكنها لم يُسمح لها بالخروج من غرفتها. وكان ابنه البالغ العاشرة من العمر مرافقاً جذاباً للغاية. وقد أحبه الناس، فعلى الرغم من أنه لم يكن بديع الحسن، إلا أنه كان شديد المهارة والسرعة. وكان الابن الأصغر، وهو الآن في الثامنة من عمره، لطيفاً للغاية، وكان شبيهاً للغاية بأخته إلى حد أن القائد المنخرط في البكاء مضى يلاطفه، وقال له بإعزاز: «أنت من بقي لي يذكرني بالابنة التي افتقدها!». وقد علّق الآمال على أن معالي الوزير سيوافق على مقابلته بنفسه، ولكن كل ما حصل عليه في معرض الرد كان القول: «من سوء الحظ، أنني لست على ما يرام، وأنا أشك في قدرتي على النهوض». مضى مبتعداً، وهو يحاول تخفيف مرارة هذا الرفض.

جعل ابنيه يركبان العربة، ومضى يحادثهما في الطريق. ولما لم يكن بمقدوره أخذهما إلى روكوجو، فقد توقف بدلاً من ذلك في داره. وقال: «أريدكما أن تبقيا هنا، حيث يمكنني المجيء ورؤيتكما في يسر». وأثّر فيه مشهدهما الحزين فيما هما يرقبانه وهو يغادر الدار تأثيراً عميقاً، وأحس بأنه لا يزال يثقل عليه واجب رعايتهما، ولكن كان مصدر راحة كبيرة بالنسبة له أن يرى زوجته الجديدة، التي كانت بارعة الجمال، تخطف البصر لفرط جمالها، في حقيقة الأمر، مقارنة بتلك الزوجة الأخرى المثيرة للشفقة. وسرعان ما أحس بأنه في حال أفضل كثيراً. ولم يسمع أحد بالمزيد عنه في دار معالي الوزير. وبدا أن عذره يتمثل في الإهانة التي تعرض إليها هناك، ولكن معالي الوزير وجد أن سلوكه جدير بالشجب.

قالت سيدة الربيع[1]، متنهدة، عندما بلغ الخبر مسامعها: «إنني آسفة للغاية لأنه حتى أنا سببت شعوراً بالضيق في هذا الأمر».

تعاطف معها جينجي، فقال: «الأمر صعب. فزواجها لم يكن القرار فيه لي تماماً، وجلالته مستاء كذلك. وقد سمعت أن معالي وزير الحرب، من بين آخرين، غاضب مني بدوره، ولكن لما كان رجلاً أديباً، فإنه فيما يبدو قد حسم الأمر مع نفسه، ولم يظهر أي عداء، والناس في نهاية المطاف يكتشفون كل شيء حول مثل هذه الأمور، أياً كان ما يفعله المرء لحملهم على التزام الصمت، وفي هذه الحالة فإنني لا أعتقد أن هناك أي شيء أحتاج إلى لوم نفسي عليه».

وسط هذه الضجة، غرقت سيدة العاملين في القصر في الكآبة أكثر فأكثر، وبذل القائد المتعاطف قصارى جهده لتبديد هذه الكآبة. وراح يفكّر محدِّثاً نفسه: إن الخطة التي تقضي بذهابها إلى القصر لم تصل إلى شيء، وفي حقيقة الأمر فقد أوقفت هذه الخطة، وهو الأمر الذي لا بد أن يجعلني بالنسبة لجلالة الإمبراطور جلفاً غيوراً، بينما لا شك في أن لهذين السيدين النبيلين أفكارهما حول هذا الموضوع. ألا يمكن لزوج أن يثق في إمكانية أن يعهد بزوجة لخدمة الإمبراطورة؟ غيَّر قراره، وبعث بها إلى القصر في العام الجديد.

كان من المقرر إقامة مهرجان للرجال، وهو ما اعتبر وقتاً مناسباً لمضيها إلى القصر وسط مظاهر الفخامة والروعة البالغة. وتعاون سمو المستشار ومعالي الوزير والقائد بالفعل في هذه المناسبة، وقدَّم لها النقيب الاستشاري[2] مساعدة لا تعرف التوقف. وتجمع إخوتها ليضعوا أنفسهم رهن أمرها، وقاموا على رعايتها بشهامة حقاً.

تم إسكانها على الجانب الشرقي من جناح شوكيودين[3]. وحيث أن زوجة الإمبراطور القادمة من دار معالي الوزير[4] شغلت الجانب الغربي، فإن دهليزاً فحسب هو الذي كان

---

(1) مورا ساكي.

(2) يوجيري.

(3) سرادق (يمتد من الشرق إلى الغرب) طويل وضيق نسبياً، قرب مركز مجمع القصر الداخلي، إلى الشمال من جناح شيشيندين. ويقسمه دهليز (ميدو) يمتد من الشمال إلى الجنوب إلى شقتين تتألف كل منهما من غرفة ومساحات جناحية على ثلاث جوانب.

(4) ابنة حمي هيجيكورو الغاضب.

يفصلهمـا، ولكـن لا بـد أن فؤاديهما ظلا متباعدين تمـام التباعد. وقد كان هـذا وقتاً متألقاً بصفـة خاصـة في البلاط. وتنافسـت سـيدات جلالـة الإمبراطـور كل منهن مـع الأخرى. وكانـت لديـه قلة من القائمات الخبيثـات على خدمته الحميمية في ذلـك الوقت[1]، حيث قامـت علـى رعاية جلالة الإمبراطـورة، الزوجة كوكيديـن، الزوجة القادمة مـن دار معالي الوزيـر والزوجـة القادمة من دار معالي وزيـر الميمنة. وكانت الوحيدتـان اللتان تخوضان هذه النوعية الشرسة من التنافس هما ابنة المستشار وابنة الاستشاري[2].

عقب ذلك أقبلت قريبات كل هاته السيدات من دورهن لكي يشهدن الاحتفال، وارتدين أبهى حللهن لأنه كان من المقرر أن يكون مهرجاناً استثنائياً، وكانت أكمامهن المتماوجة[3] علـى نحو رائـع أعجوبة تفتن الأنظار. وظهرت زوجة الإمبراطـور وأم ولي العهد[4] بأبهى مظهـر، وتـم إنجاز كل شـيء بأرقى أسـلوب، على الرغم مـن أن الأمير نفسـه كان لا يزال صغيراً للغاية.

ذهب المشاركون في المهرجان إلى جلالة الإمبراطور أولاً، ثم إلى جلالة الإمبراطورة، ثم إلى نيافة الكاهن الكبير سـوزاكو، وبحلول ذلك الوقت كان الليل قد أوغل في مسيرته كثيـراً، بحيـث أن جينجـي، الـذي كان آنـذاك في روكوجـو، قرَّر عـدم المبالغة فـي وقائع المهرجـان هـذه المـرة، وسـمح لهـم بالانصـراف. وكانـوا قد عـادوا من قصر سـوزاكو، ومضوا يقدمون عروضهم لسـيدات ولي العهد، عندما بزغ النهار، وهنالك وسـط الشـبان الذين تعتعهم السـكر ومضوا يغنون «نهر الخيزران» في الضوء الجميل للفجر، الذي أطل لتـوه، كان أربعة أو خمسـة من أبنـاء وزراء القصر، شـكّلوا فرقة بهية رائعـة المظهر، علت أصـوات أعضائهـا فـوق أصـوات الوصفـاء الخصوصييـن الآخريـن. وكان ثامنهم، نجل معالـي وزيـر شـؤون القصر، الذي أنجبتـه له زوجته، والـذي كان لا يزال تابعـاً خصوصياً جذابـاً، هو الابن الأثير عند أبيه. لاحظت سـيدة العاملين في القصر وجوده إلى جوار أكبر

(1) «خبيثات» (ميداريجاواشي) بسبب تنافسهن المحتدم، الناجم عن مرتبتهن المتواضعة نسبياً، على عطف الإمبراطور.

(2) هؤلاء النبلاء الثلاثة الأخيرون لا وجود لهم في أي موضع آخر من الحكاية.

(3) التي تنساب من تحت الستائر الحاجبة، التي يشاهدن عبرها فعاليات المهرجان.

(4) أخت هيجيكورو، التي كانت زوجة للإمبراطور سوزاكو الأخ غير الشقيق لجينجي.

أبناء القائد. وسمحت لعينها بأن تستقر عليه، حيث أنه كان من الأقارب. وشكّلت ألوان أكمامها التي انسابت من غرفها مشهداً أكثر حيوية وتألقاً من أي مشهد وقعت عليه العين من قبل. وبرزت أعظم سيدات جلالة الإمبراطور وحتى أكثر مجموعات الألوان المألوفة بتألق استثنائي. وتاقت هي ووصيفاتها إلى العيش بعض الوقت وسط مثل هذه الروعة، التي تدخل السعادة على النفس. وحتى لفافة القماش القطني[1]، التي كانت قد وزعتها بالتساوي على كل المشاركين في المهرجان، كانت رائعة بشكل خاص، وعلى الرغم من أن هذه لم تكن إلا نقطة توقف لشرب الماء، فإن كل الحاضرين كانوا حريصين أشد الحرص على الظهور بأفضل مظهر في مثل هذا المشهد المتألق بالحيوية. وبمقتضى أوامر القائد، فإن الاستقبال المعتاد الذي يستقبلون به تم إعداده بعناية خاصة.

بقي القائد في مقره بالقصر[2]، وأمضى اليوم بكامله يذكر محبوبته مراراً: «لسوف أطلب منك المغادرة الليلة، فلست أحب فكرة تعرضك لغواية البقاء هنا في الخدمة». لم تحر رداً عليه.

اعترضت نساؤها: «سيدي، لقد أبلغك سمو المستشار بأنه ليس هناك ما يدعو إلى العجلة، وأنه حيث أن سيدتي لا تحضر إلا نادراً، فإنها ينبغي أن تبقى إلى أن يرغب جلالة الإمبراطور في صرفها من الخدمة. وهذا المساء يعد وقتاً مبكراً للغاية للانصراف!». غير أن هذا لم يؤد إلا إلى إثارة ضيقه. وقال لنفسه، متنهداً: لقد قلت لها. هل الأمور بيننا صعبة للغاية حقاً؟

انزعج معالي وزير الحرب، الذي كان قائماً على رعاية جلالة الإمبراطور خلال المهرجان، حيث وجد نفسه يفكّر فيها هناك، في غرفها بالقصر، ولم يستطع مقاومة إرسال رسالة إليها. وكان القائد آنذاك في غرفة الحراس، وحيث أن معالي الوزير قد بعث إليها بالرسالة، كما لو أنها قادمة من هناك، فقد قرأتها بكثير من التردد.

«أنت يا من تبدد جناحيك على شجرة جبلية عادية، أيها الطائر، بأنشودتك

---

(1) الهدية التقليدية في هذه المناسبة.

(2) تونوي ـ دوكورو، المقر المخصص له لاستخدامه عندما يكون مناوباً في القصر. وكان من الممكن لهيجيكورو، باعتباره قائد الميمنة، أن يكون في مقر قرب بوابة إنمي، على الجانب الغربي من مجمع القصر الداخلي.

إنها أنشـودة لا يمكنني الانتبـاه لها». تضرَّج وجهها حمرة، فـي معرض التعاطف معه، وراحت تتساءل عما ترد به عليه، عندما وصل جلالة الإمبراطور.

كان محيا جلالة الإمبراطور جميلاً على نحو لا يوصف في سنا القمر المتألق، وأعاد كل شيء فيه إلى الأذهان سمو المستشار. هل يمكن أن يوجد حقاً مثل هذين الرجلين؟ هكذا راحـت تتسـاءل، وهي ترقبـه. كان اهتمام جينجي الشـديد على نحو غريـب بها قد أضاف الكثير إلى همومها، وجلالة الإمبراطور.. لماذا يساوره هذا الشعور القوي نحوها؟ أرادت أن تختفي فحسـب عندما تحدَّث، برقة بالغة دائماً، عن تعاسـته لأن ما علق عليه الآمال لم يتحقـق. قال، عندما ظلت معتصمة بالصمت، ومحياها محتجب وراء مروحتها: «يا لغرابة صمتك! لقد افترضت أنك ستعرفين من توفيقك الأخير[2] طبيعة مشاعري نحوك، ولكنني أحسب أن تلك طريقتك في مواصلة الادعاء بأنك لا تلاحظين»، واصل الحديث:

«لماذا يرحب قلبي ظامئاً بتدرج لون الأرجوان

عندما لا تتألق الصبغة ولا نستطيع أن نلتقي حقاً؟[3]

ألا يمكـن للـون أن يكون أكثر قتامة؟»[4]. تحدَّث ببهاء شـبابي جذاب، ولكنها أفلحت في الرد بتذكير نفسها بأنه مثل جينجي تماماً. ربما قصدت أن تشكره على ترقيتها الأخيرة، حيث أنها لم تخدم بعد على الإطلاق. فقالت:

«عن قصد صبغني الصّباغ بالأرجوان،

على الرغم من أنني لم أفهم قط ما الذي قد يعنيه اللون!.

بعد هذا سوف أعرف»[5].

---

(1) الشجرة صورة تتضمن قدحاً بالنسبة لهيجيكورو.

(2) قام الإمبراطور أخيراً بترقية تاماكازورا إلى المرتبة الثالثة.

(3) «لماذا غدوت مولعاً للغاية بك» يربط لون المورا ساكي (الأرجواني) الفاتح بالمرتبة الثالثة، وهذا اللون يربط بصفة عامة بمشاعر الفؤاد. وبما أن الصبغة يصعب التحكم فيها فإن القصيدة تتضمن تورية بشأن هاي أيجا تاكي «لا يلتقط الرماد» [مرسخ اللون – المثبت]وأيجاتاكي (صعب اللقاء).

(4) «أما كان يمكن أن نكون أكثر اقتراباً؟».

(5) «من الآن فصاعداً، سأعرف أنه أنت من يتعين عليَّ شكره على ترقيتي، ولسوف أخدمك بقدر ما أستطيع».

ابتسم: «ربما كان الأمر كذلك، ولكن إذا كان اللون قد ظهر عليك الآن فحسب، فقد فات الأوان[1]! لسوف يسعدني الحصول على حكم شخص آخر في هذا الأمر، إذا سمع أحد شكواي». كان الاستياء العميق الذي ارتسم على محياه أصيلاً بصورة جلية، فأحست بالانزعاج. كم هذا فظيع! لا ينبغي عليَّ القيام بأي شيء آخر لتشجيعه. ما أشد الصعوبة التي ينتهون بجعل الأمور عليها! وتصرفت على نحو لائق تماماً بحيث أنه لم يفلح قط في مد جسور الحديث، الذي كان قد اعتزم أن يتجاذب أطرافه معها، ولكنه خلص إلى أن الوقت كفيل باجتذابها إليه.

وضعت الأنباء التي أفادت أن جلالة الإمبراطور ذهب لمقابلتها القائد في نوبة من القلق، وانزعجت بدورها بما فيه الكفاية من جراء الخطر الذي يشكله وضعها، بحيث استنبطت بعض الأسباب المحتملة التي تدفعه لصرفها من الخدمة. وفي نهاية المطاف، أفلح رجاء أبيها البارع في الحصول على إذن بمغادرة القصر. قال جلالة الإمبراطور: «إنني أعرف شخصاً استفاد من الدرس الذي تعلمه، ولن يسمح لك بالبقاء هنا من جديد. الأمر صعب للغاية. أنا الذي بادرت إليك أولاً تراجعت الآن إلى الوراء، ولا يمكنني إلا السعي إلى تسامح الآخرين! وإني لأشعر بأن محنة ذلك الرجل قديماً تعادل محنتي تماماً»[2]. وأحس بخيبة الأمل تماماً. فقد كانت بشخصها أجمل بكثير مما دفعه التقرير عنها إلى تخيلها، وما كان ليرغب في خسارتها الآن، حتى ولو لم تثر اهتمامه من البداية، ولذلك السبب أحس بالمزيد من الضيق والغضب، ولكنه على الرغم من ذلك لم يرغب في أن يبدو سطحياً في مشاعره، ولذا أكد لها إخلاصه بعمق بالغ بحيث ارتبكت، وقالت لنفسها: لكنني أخشى أنني ما أنا عليه!.

دعا بمحفة، الأمر الذي أثار حسد كل الوصيفات اللواتي كان كل من سمو المستشار ومعالي وزير شؤون القصر قد بعثا بهن إليها، ولم يغادرها إلا حين أقبل القائد ليمضي جيئة وذهاباً عارضاً خدماته من غير أن يطلبها أحد إلى جوارها، وقال شاكياً: «مما يثير الضيق الشديد أن أجدك تحظين بالعناية عن كثب على هذا النحو».

---

(1) كونك فهمت الآن لن يجديني نفعاً، حيث أنك لا تهبينني نفسك».

(2) تعرض تايرا نو سادافون (الذي يعرف أيضاً باسم هيتشو والمتوفى عام 923) لاختطاف امرأة كان يزورها منه، وذلك على يد أكثر رجال البلاط بروزاً في ذلك العهد، وهو فوجيوارا نو توكوهيرا. (871 ـ 871).

«الآن وقد فصلت بيننا الغمامات التساعية، يا برعم البرقوق الجميل،

ألن أتلقى منك قطّ نفحة عطرك على الأقل؟» .

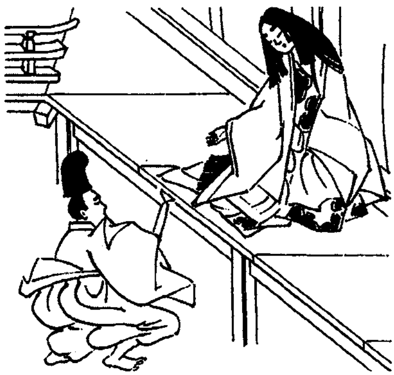
لـم تكـن هذه القصيدة مميـزة، ولكنها ربما أدخلت السـرور على نفسـها، حيث أن من نظمهـا كان ماثـلاً أمامها. «أحب هذه المروج كثيراً إلى حـد أنني آمل قضاء الليل هاهنا[1]، ولكن هناك آخر قد يزعجه ذلك، وكما تعلمين فإنني عندما أتصور مشـاعره أحس بالذنب في نهاية المطاف. كيف يمكنني البقاء على اتصال؟».

من جديد جعلها اضطرابه تحس بالضآلة.

«ابعث إليَّ على جناح النسيم نفحة من عطرك، على الرغم من أن عبقي

قد لا يكون جديراً بأن يكون هناك وسط الزهور على الأغصان الأخرى»[2].

لا، لم يبد أنها تنأى بنفسها عنه، وفيما كان يغادر المكان راح يتطلع إليها في رقة مراراً.



تسليم رسالة

كان القائـد قـد أراد إحضارها مباشـرة إلى الدار فـي ذلك المسـاء، ولكن لم يكن قد قال شـيئاً لأحد عـن هـذا الأمر، لأنه يشـعر فجـأة بأنه ليـس على ما يرام ويرغب في نيل قسط من الراحة في مكان مزود بأسـباب الراحة، ولكنه من شأنه أن يحس بالقلق إذا لم تكـن معه. وبعد قوله هذا اصطحبها مباشـرة إلى الدار، وأعرب معالي الوزير أبوها عن خشيته من أن مثل هذا الانتقال المفاجىء قد يشكِّل انتهاكاً للعرف المعمول به[3]، ولكنه خلص إلى أن اعتراضاً لا يقتضيه المقام من جانبه لن يكسبه إلا عداء القائد له. فقال: «كيفما يطيب لك، إذاً وما تقوم هي به لم يكن وقفاً عليَّ قط على أي حال».

في روكوجو، وجد جينجي هذا التغيير المفاجىء مسيئاً وتعسفياً، ولكن ما الذي يمكن

---

(1) مانيوشو 1428، من نظم أكاهيتو: «أنا الذي جئت لقطف البنفسج في حقول الربيع أحب هذه السهول كثيراً حتى إنني أرقدها هنا طوال الليل».

(2) «أبق على اتصالك بي على الأقل، رغم أنني لست شيئاً مقارنة بسيداتك الأخريات الأعظم مني».

(3) كان ينبغي على تاما كازورا أن تعود إلى روكوجو، قبل الانتقال إلى دار هيجيكورو.

أن يفعله؟ وقد استاءت هي بدورها بفعل الاتجاه الذي كان يأخذه دخان حرائق الملح[1]، ولكـن القائـد كان سـعيداً ومغتبطاً، كأنمـا مضى بعيداً حامـلاً كنزاً مسـروقاً. وبدت غيرته العاصفـة مـن طريقـة مجيء جلالـة الإمبراطور إليها مثيرة للاشـمئزاز على نحـو فج، ولـم تمنحه من نفسها شيئاً، الأمر الذي فاقم غضبه.

لـم يـدر معالي وزير شـؤون القصر ماذا عسـاه يقـول أو يفعل، على الرغم من جسـارة أحاديثه، ولـم يتلق كلمة من القائد. أما الآن وقد ظفر هذا الأخير بما أراده، فقد غدا مشغولاً ليلاً ونهاراً.

أقبل الشـهر الثاني. وحدَّث جينجي نفسـه: أي حدث فج هذا! ساوره باستمرار الشعور بالحرج حيال غضبه على الاحتيال عليه بتلك الطريقة، حيث أنه لم يصادف شيئاً استحواذياً على نحو صريح كهذا أبداً، وتذكرها بمزيد من الحنين. راح يفكِّر: لا شك في أن القدر قد لعب دوره في كل هذا، ولكن إهمالي هو الذي جلب عليها هذا البؤس. وفي غضون ذلك لازمته صورتها ليلاً ونهاراً. وبدا له أنها طالما كانت مع ذلك الشخص الكئيب، المضجر، ذلك القائد، فإنه سوف يتعين عليه أن يتخلى حتى عن أدنى حديث عابر معها، ومن هنا فقد كبح جماح نفسه، ولكن أقبلت أيام الهدوء الخاوي والمطر الذي لا يعرف التوقف، حيث يفتقد على نحو مفعم باليأس الطريقة التي اعتاد بها الذهاب إليها لتجاذب أطراف الحديث وتزجية الوقت، وكتب إليها رسـالة. وبعث بها سـراً إلى أوكون، على الرغم من أنه تحسـباً لما يمكن أن تكون عليه مشاعر أوكون، جعلها رسالة موجزة، وترك معناها الحقيقي لخيال السيدة.

«طوال هذه الأيام الممتدة، الهادئة الخاوية في مطر الربيع الذي لا ينتهي،

ما هي ذكرياتك عن ذلك الرجل في داره القديمة؟

يحـرك الضجـر الكثيـر من الذكريـات المريرة، ولكن كيـف يمكن أن أفصـح لك عنها الآن؟».

---

(1) «الاتجاه الذي كان زواجها يتخذه» من كوكينشو 708: «اتخذ الدخان المتعالي من نيران ملح فتاة البحر سوما، في هذه الريح العالية، اتجاهاً لم يخطر لها قط على بال».

بكـت عندما وجدت أوكون لحظة انفردت فيها بها لتطلعها على الرسـالة، لأن ذاكرتها كانـت مركزة عليه أيضاً بمزيد من الإعزاز مع مضي الوقت، ولـم ترغب إلا في أن تسـتطيع أن تـرى مـن جديد الأب الذي لم تسـتطع أن تقول له قط إنها تفتقـد أو ترغب في أن تكون معـه. وبما أنها لـم تبلغ أوكون أبداً كم كرهت سـلوكه المزعج بين الحين والآخر، فإنها لم تسـتطع التفكير في ذلك إلا في قرارة نفسـها. وكانت أوكون قد لمحت شـيئاً من الحقيقة، ولكنها لـم تتبين تماماً ما الذي حدث بينهما على وجه الدقة.

كتبت في معرض الرد تقول:

«بينما بللت كميَّ القطرات المتساقطة من الطنف في مواسم المطر الممتدة تلك،

كيف كان يمكن ألا تتركز أعز خواطري على إنسان أفتقده كثيراً؟

صحيح أنه كلما أوغل الوقت في الانقضاء ازدادت مشـاعري ولكنني لن أقول أكثر من هذا». كانت رسالتها مكبوحة الجماح تماماً.

عندمـا فـض الرسـالة، وقرأها، أحسـب بدموعـه المتألقة توشـك على الانهمـار، لكنه اصطنـع التماسـك خوفاً من أن يراه أحـد على تلك الحالة. ومع ذلك فقـد فاض فؤاده بما فيـه من مشـاعر، وعلى الرغم من الذكريـات التي دارت حول كيفية قيـام الإمبراطورة الأم بإبعاد سيدة أخرى للعاملين في القصر[1] عنه في عهد الإمبراطور سوزاكو، فقد كانت سيدة العامليـن في القصـر الحالية، في غمار براءتهـا، هي التي نالت القـدر الأعظم من تعاطفه. حـدَّث نفسـه: لكم يجلب العاشـق الجوال المتاعب على نفسـه! ما الـذي يقتضي مني أن أعانـي الآن؟ لا، إنها ليسـت لي! عندما أخفق في قمع أوهامه، تحـول إلى العزف على آلة الكوتو الخاصة به، ومضى يفكّر في إعزاز في الموسـيقى الأثيرة، التي كانت أناملها تبعثها مـن الأوتار. (لا تقطع حشيشـة المـاء المتألقة!)[2] هكذا مضى يغنـي، وهو يتلاعب بمقام «أزومـا»، وهـي التي تاقت إليه ما كان ليغيب عنها سـحر هذا المشـهد، لو أن المرء كان قد سمح لها فقط بأن تراه.

راح جلالة الإمبراطور بدوره يفكِّر في المحيا والقوام، اللذين رآهما وقتاً قصيراً للغاية.

---

(1) أويوروزوكيو في فصل «الغصن الأخضر».

(2) فقرة من أغنية شعبية (فوزوكو أوتا) معروفة باسم «البطات الصينية» (أوشيدوري).

«تلـك التـي رأيتها تجر أذيال تنوراتها الحمراء»[1]. ربما كانـت هذه القصيدة القديمة فجة، ولكنـه واصـل تكرارها، وهو جالس مسـتغرقاً في أحلام اليقظة. تلقت رسـائل سـرية منه. وإذ اقتنعـت بحلـول ذلك الوقـت بأن قدرها هو سـوء الطالع، فقد أحجمـت عن مثل هذه الترفيهات التي لا تليق بها، ولم تشجعه في ردودها. وأخذاً بكل شيء في الاعتبار، فقد كان لطف جينجي النادر هو الذي بقي معها في نهاية المطاف، ولم تستطع نسيانه قط.

بحلول الشـهر الثالث، أعاد مشـهد الوسـتارية ووردة الكيريا في حديقتها في روكوجو، والتـي تألقـت على نحو جميل في سـنا الشـمس الغاربة، إلـى الأذهان الطريقـة التي بدت بها عندما كانت تجلس مسـتمتعة بهذا المشـهد نفسـه، بحيث أن جينجي تخلى عن حديقة الربيع الخاصة به ليمضي لتأمل هذا المشهد. وكان توهج ورود الكيريا المزدهرة على نحو طبيعي على سـور الخيـزران الصيني المجدول يدخل السـرور على النفـس. غمغم قائلاً: «اللون الذي سأكتسيه..»[2].

«لو أنه لم يكن كذلك، لكن الطريق عبر إبدي يفصلنا كذلك،

ولكنني في صمت لا أزال أحب وردة الكيريا.

وجهـي يفصـح..»[3]. مضـى مسترسـلاً، ولكن لـم يكن هنـاك من يسـمعه. أدرك الآن فحسـب حقـاً أنها قد ذهبت، وقد احتـال عليه فؤاده حيلاً غريبـة. وعندما وقعت عينه على عدد كبير من بيض البط على هيئة ثمار اليوسـفي والبرتقال ليرسـله إليها بصورة عفوية[4]. وكتـب يقـول بصورة ملغزة، خوفاً من أن تلفت كلماته نظـر أحد: «لم أرك منذ وقت طويل للغاية، وربما أحتج على أنك تعاملينني بطريقة غريبة، غير أنني أدرك أن هذه الأشياء ليست فـي مقامك بالمرة. ويؤسـفني أنه قـد يكون من الصعب علينا أن نلتقـي إلا في ظل ظروف

(1) كوكين روكوجو 3333: «واقفاً ينتابني الحنين، وجالساً أيضاً، إلى من رأيتها ترحل، وهي تجر أذيال تنوراتها الحمراء».

(2) كوكين روكوجو 3508 «لن أتحدَّث عن الحب والحنين أبداً لكن اللون الذي سأكتسيه يظل دوماً لوناً صامتاً». اللون هو الصبغة الصفراء المتخذة من بذور الجردينية (كوتشيناشي، وهي لفظة تعني أيضاً «بلا فم») وهو نفسه لون أزهار وردة الكيريا (يامابوكي) إن جينجي يحاول إبعاد تاماكازورا عن ذهنه.

(3) اسم مكان راسخ في الشعر، وقد كان مرتبطاً بزهور يامابوكي. كوكين روكوجو 4488 : «يقولون إنه في المساء في الحقول يهتف الوقواق [طير الوجه] ووجهي يفصح عن أنني لن أنساك».

(4) هذه البنود الثلاثة المذكورة كانت كلها هدايا تقليدية.

معينة». وما إلى ذلك من حديث صيغ بطريقة أبوية.

«بطة صغيرة، يا للحسرة، على الرغم من أنها فقست في هذا العش، إلا أنها مضت!

حدثيني، إذاً، أي نوع من الرجال حظي بها؟[1]

لكن لم يتعين أن يكون الأمر على هذا النحو؟ إنه لا يعجبني على الإطلاق!».

قرأ القائد الرسالة، وابتسم. ودمدم: «الزوجة لا تزور حتى أبويها من دون سبب وجيه. فما الذي يدعو سمو المستشار إذن إلى التشبث بك باستمرار والشكوى بهذه الطريقة». أحدثت كلماته صريراً مزعجاً في أذنيها.

لم تدر ماذا عساها تكتب له. قالت: «ليس بمقدوري الرد عليه حقاً».

«دعي الأمر لي!». كانت الطريقة التي تطوع بها للكتابة مثيرة للجنون.

«منذا الذي تقول إنه ينبغي أن يعيد بطة صغيرة لا قيمة لها ضاعت يوماً في العش،

وإلى أين تريدها أن تمضي لتسترد أي مكان صحيح؟.

استياؤك البادي يثير الدهشة، وربما أكون قد لجأت إلى لغة مفعمة بالحيوية».

«لم يعبر هذا القائد عما في نفسه بقدر ما أعلم بمثل هذا الخيال، وليس بمقدوري تصديق ذلك إلا بالكاد». قالها جينجي ضاحكاً، لكنه في قرارة نفسه استبد به الغضب من الطريقة التي استولى بها الرجل عليها.

جلبت هذه النتيجة عذاباً متفاقماً إلى زوجة القائد الأولى مع مضي الوقت، وتدهورت حالتها الذهنية. وتولى القائد الإنفاق عليها بصورة جيدة، وكان لا يزال يرعى ابنيه بمزيد من الانتباه، بحيث أنه لم يستطع النأي عنها كلية، وظل في مجال احتياجاتها الأساسية رجلاً يُعتمد عليه كذي قبل. وعلى الرغم من أنه سعى يائساً لمقابلة ابنته، إلا أنه جوبه برفض أي اتصال له بها. وعانت بشدة، في غمار براءتها الطفولية، من إدانة الجميع بلا

---

(1) تتضمن هذه القصيدة هذا المعنى أيضاً «ليست هناك جدوى [كاي، مرادف للكلمة الشعرية المعبرة عن «بيض»] إذاً من بحثي عنك هاهنا».

رحمة لأبيها، ومن الإصرار المتزايد على إبقائها بعيدة عنه. وفي غضون ذلك، فإن أخويها اللذين كانا غالباً في داره كانا يحدثانها بين وقت وآخر بصورة طبيعية عن سيدة العاملين في القصر، وكانا يقولان: «إنها لطيفة وطيبة معنا، وهي تمضي كل وقتها في إنجاز أشياء جميلة». وقد حسدتهما أختهما، وتنهدت آسفة لأنها لم تولد صبياً لتحظى بحرية كالتي يحظيان بها. إنها عجيبة تلك الطريقة التي تضايق بها سيدة العاملين في القصر الجميع رجالاً ونساء على السواء!

في الشهر الحادي عشر من ذلك العام، أنجبت وليداً بالغ الجمال. ومضى القائد، الذي ما كان ليطلب أكثر من ذلك، يرعاه رعاية تامة. وعلى الرغم من ذلك، فإن كل هذا يسهل تصوره ولا داعي للتركيز عليه. وقد سعد أبوها بدوره، بالطبع، لحسن الحظ الذي واكبها. وفيما يتعلق بالمظهر وما إلى ذلك فقد كانت جديرة بالتقدير تماماً، مثل أبنائه الآخرين الذين كان يعتز بهم دوماً. وكان النقيب أمين السر[1] مولعاً للغاية بهذه الأخت، وعاملها بلطف، ولكنه في بعض الأحيان كان يندّ عنه ما يوحي بخيبة أمل معينة، وكانت جاذبية هذه القادمة الجديدة تجعله يتمنى لو أن خدمتها في القصر قد آتت ثمارها، بل إنه سمح لنفسه بالإشارة بقوله: «كلما سمعت جلالة الإمبراطور يتنهد كمداً لأنه ليس له أبناء، فكرت في الشرف الذي كان يمكن أن يكون». وكانت لا تزال تقوم بواجباتها الرسمية بضمير يقظ، ولكن لم يعد يبدو أن هناك أي فرصة لذهابها بالفعل إلى القصر. ولا شك في أن هذا كان مصيرها المقدر لها.

آه، نعم، كانت هناك ابنة معالي الوزير الأخرى تلك، الابنة التواقة للغاية إلى أن تكون سيدة العاملين في القصر، وكانت مغناجة قليلاً، شأن كثيرات ممن هن على شاكلتها، وقد جعل ذلك الأمور صعبة على أبيها. وعاشت الزوجة كوكيدين بدورها في خوف دائم من أن يؤدي سلوك هذه الابنة إلى حادثة مدوية، بل إن أباها منع هذه الابنة من المثول بين يدي الزوجة كوكيدين، ولكنها تجاهلت ما أمر به، ومثلت في حضرتها على أي حال.

في إحدى المناسبات، كان خيرة الوصفاء الخصوصيين قد اجتمعوا في جناح الزوجة كوكيدين ومضوا يعزفون الموسيقى على إيقاع هادىء وباعث على الاسترخاء. وكان ذلك

(1) كاشيواجي.

في مساء خريفي بديع، وأدهش النقيب الاستشاري[1]، الذي كان هناك بدوره، نساء الزوجة كوكيدين بمرحه غير المألوف، فمضين يعربن عن دهشتهن حيال مدى تميزه، وعندئذ أقبلت الفتاة القادمة من أومي مندفعة نحوهم.

«آه، لا. ما الذي تفعلنه؟» هكذا هتفت بهن باستياء عندما جررنها إلى الوراء جراً. لكنهن رحن يلكزن بعضهن بعضاً في حرج بالغ، وهن يقلن: «ثمة أمر فظيع يوشك على الحدوث».

«إنه هو. إنه هو». هكذا همست متحمسة بصوت مسموع، حول موضوع ذلك النبيل الشاب المميز على نحو استثنائي. كان ذلك أمراً مؤلماً للغاية. تردد صوتها من جديد.

«أيها القارب السابح في البحر، إذا لم تكن تعرف إلى أين تمضي، وقد ضعت وسط الأمواج

بولد، فدعني إذاً أجذف إليك، ولكن حدثني ما هو مرفأك!.

إنك تجدف عائداً بقاربك الصغير إلى الفتاة ذاتها[2]، ليس ذلك من الإنصاف!».

مضى النقيب المصدوم يتساءل من عساها تقوم في جناح الزوجة كوكيدين بالإفصاح عن سريرتها بهذه الفظاظة، فأدرك متفكهاً أن هذه لا بد أن تكون الشابة التي كان قد سمع بأمرها. فرد عليها:

«هذا النوتي الذي ترينه، على الرغم من أنه ليس واثقاً من مقصده، إذ تتلاعب به الرياح،

يكره الاقتراب من شاطىء لا يرغب في المضي إليه» .

يُقال إن ذلك قد أفحمها.

---

(1) يوجيري.

(2) كوموي نو كاري. كوكينشو 732 : «القارب الصغير الذي يجدف عبر مدخل هورى يجدف عائداً مراراً، وفيما يبدو، إلى الشخص نفسه دوماً».

32

أوميجاي

غصن شجرة البرقوق

«أوميجاي» أو (غصن شجرة البرقوق) هو عنوان أغنية سايبارا يغنيها في تجمع احتفالي أحد أبناء تو نو تشوجو.

الصلة بالفصول السابقة

تأتي أحداث «غصن شجرة البرقوق» عقب السياق الزمني لأحداث «العمود البديع».

الشخوص

سمو المستشار، جينجي، 39 عاماً.

سيدة الجناح الجنوبي الشرقي، 31 عاماً (مورا ساكي).

معالي وزير الحرب، أخ لجينجي (هوتارو هايوبوكو نو ميا).

كاهنة كامو السابقة (أساجاو).

النقيب الاستشاري، نجل جينجي، 18 عاماً (يوجيري).

النقيب أمين السر، ابن تو نو تشوجو الأكبر، 23 أو 24 عاماً (كاشيواجي).

الملازم المراقب، 22 إلى 23 عاماً (كوباي).

جلالة الإمبراطورة، 30 عاماً (أكيكونومو).

السيدة الشابة، ابنة جينجي، 11 عاماً (أكاشي نو هيمبجيمي).

ولي العهد، 13 عاماً.

معالي وزير شؤون القصر (تو نو تشوجو).

ابنته، 20 عاماً (كوموي نو كاري).

أعد جينجي شيئاً استثنائياً لطقس عقد نطاق خاصرة ابنته، وكان من المقرر الاحتفال ببلوغ ولي العهد في الشهر الثاني نفسه، وكان من المفترض أن يعقب ذلك تقديمها له.


مبخرة

حلَّ اليوم الأخير من الشهر الأول، وأمضى جينجي فترة الانتظار في الدار والبلاط في خلط البخور[1]. وأحس عندما فحص خشب البخور الذي قدمه له مساعد دازايفو أن الخشب المنتمي إلى عهد سابق ربما يكون أكثر تميزاً، ولذا أمر بفتح المخازن في نيجو وإحضار الأشياء الصينية من كل الأنواع إليه. قال وهو يقارن بعضها ببعض: «عندما يتعلق الأمر بالأقمشة المطرزة وأقمشة التويل وما إلى ذلك، فإن الأقمشة القديمة تظل هي الأروع والأفضل». ولتغطية كمالياتها الشخصية ولوضعها عليها أو لصنع حواف وسائدها وما إلى ذلك، اختار الأفضل من بين ثروة من أقمشة التويل والأقمشة المقصبة الذهبية والحمراء[2]، أقمشة من نوعية تتجاوز أي شيء تقع عليه العين الآن، بقيت من تلك الأقمشة التي أهدتها إلى البلاط بعثة كوما في عهد نيافته الراحل، وخلع أقمشة التويل والشاش التي تلقاها لتوه على وصيفاتها. وأمر بترتيب أخشاب بخوره قديمها وحديثها أمامه، ومن ثم بعث بها إلى سيداته مع طلب قيام كل منهن بإعداد خلطتين. وانشغل الجميع في روكوجو في إعداد هدايا رائعة للضيوف، والمكافآت لكبار النبلاء، وما إلى ذلك، ولكن الآن كان على كل من سيداته اختيار خلطتين من البخور، وتعالى صوت الهاونات الحديدية[3] في كل مكان.

عزل جينجي نفسه في الدار الرئيسية، ومضى يخلط البخور بحسب طريقتين (ترى كيف تعلمهما؟) تتضمنهما تعليمات سوا[4]. وحرصت سيدته على الانفراد خصيصاً في المكان

---

(1) لكي تأخذه ابنته إلى القصر، وتشمل هذه العملية خلط خشب البخور المسحوق ومادة تساعد على الاندماج مثل العسل أو النسغ المغلي الحلو لكرمة أما تشازورا، وتحويل كل ذلك إلى كرات بخور.

(2) هيجونوكي، قماش مقصب بخيط الذهب.

(3) كان خشب البخور يحول إلى مسحوق بالاستعانة بهاون حديدي واليد الخاصة به.

(4) هاتان الخلطتان (لأنواع من بخور الكوروبو والجيجو) قام بتعليمهما الإمبراطور نينمايو في عهد سوا (تنطق كذلك شوا أو جوا) (834 ـ 848)) ومن حيث المبدأ كان يجري تمريرها إلى النساء وحدهن.

الأكثر إيغالاً في بعده من امتداد سكنها الشرقي للتمكن من طريقة خلط البخور التي كان يعلمها هاتشيجو سيد المراسم[1]. وهكذا تنافس الاثنان أحدهما مع الآخر، وأثّر التزامها بالسرية المطلقة في جينجي على نحو دفعه إلى أن يشير قائلاً: «في نهاية المطاف، يكون الخليط موفقاً أو سيئاً بحسب مدى عمقه أو سطحيته!». وبدا شغوفاً للغاية بالأمر، حيث أنه لم يظهر بمظهر الأب المنشغل بغير ذلك من الأمور. قامت قلة من الوصيفات بخدمة كل منهما. وجعلت السيدات الكماليات جميلة كأقصى ما يمكن أن تكون، وكان تصميم أوعية وعلب حفظ البخور وطراز المبخرة حديثاً وجديداً ومثير للاهتمام للغاية، بحيث أن جينجي تطلع إلى القيام بملئها بمجرد اختباره لعينات من الخلطات التي عكفن جميعاً على إعدادها.

في اليوم العاشر من الشهر الثاني، بدأ يهطل مطر خفيف، وبدت شجرة البرقوق أمام سكن جينجي في ازدهار عبق رائع، لا نظير له، عندما جاء معالي وزير الحرب لتقديم تحياته، حيث تقرر أن يكون كل شيء جاهزاً في ذلك اليوم أو الذي يليه. وقد كان هو وجينجي على الدوام على صلة وثيقة، وكانا يتحدثان بسعادة في هذا الشأن أو ذاك، مشيدين بجمال الزهور وما إلى ذلك، عندما وصل مبعوث حاملاً رسالة مرفقة بغصن شجرة برقوق سقطت من معظم الزهور[2]، وذكر المبعوث أن الغصن مرسل من كاهنة كامو السابقة.

كان معالي الوزير قد سمع بذلك، فسأل باهتمام من يجد الأمر طريفاً: «أي نوع من الرسائل بعثت به إليك؟».

ابتسم جينجي، وأخفى الرسالة، قائلاً: «سمحت لنفسي بالتقدم بطلب إليها، ويبدو أنها قابلت الأمر بشجاعة».

كانت قد وضعت في صندوق من خشب الصبر[3] مرطبانين زجاجيين مليئين بكرات بخور كبيرة على نحو سخي. ومثلت ربطات الهدية على المرطبان الأزرق القاتم صنوبرة

(1) الأمير موتوياسو، الابن السابع للإمبراطور نينمايو.

(2) شويشو 1063، من نظم نايوكا كو هوشي «ولى الربيع ومضت أزهار البرقوق، وهذا هو كل ما بقي منها».

(3) جين، خشب بخور من القلب الخشبي العطر للشجرة، وقيل له جين «الغائص» لأنه يغوص في الماء.

خماسية الإبر، بينما مثلت الربطات على المرطبان الأبيض براعم برقوق[1]، بل إنها جعلت القيطانات التي تربطهما معاً شديدة الجاذبية. فقال معالي وزير الحرب: «يا لها من أشياء جميلة!»، ثم لاحظ قصيدة مكتوبة بحبر شاحب:

«لا يبقى عبق الزهور على الغصن الذي تناثرت منه،

ولكن لعل هذا يعطر بعمق الكميَّن اللذين سرعان ما سيتخللهما»[2]

بعد قراءة القصيدة مضى يرددها مجدداً.

عثر النقيب الاستشاري على المبعوث، واستبقاه، وجعله يسرف في الشراب. كان جينجي قد وضع مجموعة من الملابس النسائية على كتفيه، جنباً إلى جنب مع رداء فضفاض من قماش صيني له بطانة في لون برعم البرقوق الأحمر. وكتب رداً على ورق من اللون نفسه، وانتزع غصناً مزهراً من شجرته ليربطه بالرسالة.

قال معالي وزير الحرب باهتمام: «ترى ماذا عساه يكون في هذه الرسالة؟ أي سر ذلك الذي يقتضي أن تحجبه؟». كان فضولياً للغاية.

«نعم، ماذا عساه يمكن أن يكون، يؤسفني أن تتخيل أنني أخفي أسراراً عنك». سمح جينجي لفرشاته بأن ترد بشيء من هذا القبيل:

«يغمر غصنك المزهر فؤادي بعطره الرقيق،

على الرغم من أنك تحجبين عبقاً قد تسلمه أخريات للهواء».

قال: «إنني أقر بأن هذا كله قد يبدو طائشاً للغاية، ولكنها ابنتي الوحيدة، وأنا أعتقد أن هذا هو الأمر الصواب. سيكون من المربك أن أطلب ذلك من أحد إلا إذا كان من الأقارب[3]، حيث أنها متواضعة المظهر، وقد فكرت في دعوة جلالة الإمبراطورة للحضور إلى هنا من القصر، فأنا مقرب منها كثيراً، ولكن جلالها مؤثر في النفس كثيراً بحيث أنني لا أجرؤ على

---

(1) ربا كان المرطبان الأزرق يحتوي بخور كوروبو (الذي يقوم على أساس خشب الصبر، النبتة المسكينة، خشب الصندل، القرنفل مكونات أخرى، ويرتبط بصفة خاصة بالشتاء)، ويحتوي المرطبان الأبيض على بخور بايكا (القرنفل، خشب الصندل، براعم البرقوق ويرتبط بالربيع).

(2) لا جدوى من عبق هذا البخور الزهري لي، فقد ولى زماني. ولكنني آمل أنه سيناسب السيدة الشابة.

(3) أن يكون الراعي الذي «يقوم بعقد» (كوشيوي) نطاق الخصر.

تعريضها لأي شيء عادي ومألوف.

وافق معالي وزير الحرب على ما قاله: «نعم، بالطبع، ولا بد لك من أن تفكِّر كذلك في أن حسن طالعها يستحق التقليد».

انتهز جينجي الفرصة ليرسل إلى كل من سيداته طالباً البخور، الذي كن يقمن بخلطه، قائلاً إنه يعتزم تجريب الخلطات كافة في رطوبة المساء[1]. وقد بادرن بالاستجابة، وقدمن خلطات البخور بطرق عديدة مبهجة. قال جينجي: «عليك بتقدير مراتب هذه الخلطات، لطفاً! إلى من غيرك ألجأ لإطلاعه عليها؟»[2] ودعا بمبخرة وأصر على أن يختبر معالي وزير الحرب الخلطات.

«لست أنا من يعرف!»، هكذا رد معالي وزير الحرب في تواضع، ولكنه قام بعمليات تمييز رائعة بين الخلطات، حتى الخلطات التي تنتمي إلى النوعية ذاتها، وهكذا أفلح في نهاية المطاف في أن يقرِّر أيها أفضل من غيرها. وأخيراً دعا جينجي بالخلطتين اللتين كان قد أعدهما بنفسه. وتماماً كما أن البخور في القصر يدفن إلى جوار الغدير الذي يتدفق متجاوزاً قصر حراس الميمنة، فإنه قد أمر بدفن بخوره بجوار الغدير الذي يتدفق من تحت طريق جسره الغربي. وقد استخرجه مساعد المراقبة، وهو أحد أبناء المستشار كوريمتسو، وحمله النقيب المستشار، وأوصله إلى جينجي.

«يا لها من مهمة تسندها إلى الحكم التعس الذي اخترته ليقضي في الأمر! إن ذهني مشوش تماماً». كان حرياً بالمرء أن يتوقع أن طريقة الخلط ذاتها قد وصلت إليهن جميعاً، ولكن لا، فقد قامت كل منهن بالمهمة حسبما طاب لها، وكان شيئاً مبهجاً تماماً تحديد مرتبة لعمق إنجازهن أو سطحيته.

من بين الخلطات العديدة التي قاومت التصنيف، فإن خلطة كوروبو كاهنة كامو السابقة

(1) الهواء الرطب (كانت السماء تمطر) يؤدي إلى تعميق تأثير عبق البخور.

(2) كوكينشو 38، من نظم كي نو تومونوري، الذي يقتطف الأمير نصفها في رده: «إن لم يكن إليك، إلى من غيرك ألجأ لاطلاعه عليها، براعم البرقوق هذه بعبقها، فوحده الذي يعرفها يعلم جلية الأمر».

كانت[1] ذات طبيعة مهدئة جعلتها خلطة فريدة. أما فيما يتعلق بخلطة جيجو[2]، فقد خلص معالـي وزير الحرب إلى أن خلطة جينجي التي أعدها بنفسـه لهـا عبق يحظى بعذوبة ورقة خاصتيـن. أمـا من تهيمن على جناح جينجي الجنوبي الشـرقي فقد قدمـت ثلاثة أنواع من البخـور، كانت خلطـة بايكا من بينها جديدة ومتألقة، وذات لمسـة شـخصية رقيقة منحتها نوعية نادرة. وأشـار معالـي الوزير بقوله في معرض المديح: «ليـس من الممكن أن تكون هناك أنواع من العبق أجمل من هذه لترسـل مع نسـيم الموسـم». ولم تكن سـيدة الجناح الصيفـي راغبـة في التنافس مـع الأخريات، وأحجمـت حتى عن التفكير فـي دخان يرتفع مـن بخور وسـط مثل هـذه الصحبة، ومـن ثم فقد قامـت بتوليف خلطة واحـدة هي خلطة كايو[3]. وكانت خلطة غير عادية، والعبق هادىء ورقيق بصورة مؤثرة. أما السـيدة المقيمة في الجناح الشـتوي، والتي كانت قد كرهت فكرة الانغماس في أنواع عبق المواسـم، فقد توصلـت إلـى خلطة من البخـور المخصص لتعطير الثيـاب تركها وراءه نيافته سـوزاكو[4] لجلالـة الإمبراطـور، وأعدت وفقاً لطريقـة «المئة خطوة» التـي اختارها النبيـل كينتادا[5]، وشـهد اللطـف الفائق المتجمع فيها على مفهوم متميز. وأقر معالـي الوزير بالميزة الكامنة فـي هـذه الخلطات كافة، الأمر الذي دفع جينجي إلى الإشـارة بقولـه: «لا يبدو أنك حكم محنك. أليس كذلك!».

عندمـا أطل القمر، احتسـوا النبيذ، وتحدثوا عن الأيام الخوالي. وكان سـنا القمر الذي يحفـه الغمام فاتناً، وهب نسـيم عليل غب المطر، ومع امتلاء الهـواء حولهم بعبق البراعم الرائع، هيمن عليهم مزاج بالغ الرقة.

فـي مكتـب العاملين بالـدار، مضـى الناس يدوزنـون الآلات الموسـيقية، للاسـتعداد للموسـيقى التي سـتعزف في الغد، ومع وجود هذا العدد الكبير من الوصفاء الخصوصيين فـي أرجاء المكان، كان من الممكن سـماع النايات خلال العـزف عليها بصورة جميلة هنا

(1) على الرغم من قصيدته أساجاو التي تقلل فيها من شأن نفسها.

(2) نطاق جيجو، المرتبط بالخريف، كان يشمل خشب الصبر البديع والقرنفل من بين مكونات أخرى.

(3) كان البخور الصيفي يعطي الشعور بأنه يماثل عبق زهرة لوتس.

(4) الإمبراطور التاريخي أودا (عاش خلال الفترة من 867 إلى 931).

(5) ميناموتو نو كينتادا رجل بلاط وشاعر متميز (889 ـ 948).

وهناك. كان ابنا معالي وزير شؤون القصر، النقيب أمين السر والملازم المراقب، قد أقبلا من القصر لإلقاء نظرة، استيفاء للمظاهر فحسب، ولكن جينجي استبقاهما، ودعا بالعديد من الآلات الموسيقية. وحصل معالي وزير الحرب على آلة بيوا، وتلقى جينجي سو نو كوتو، وتلقى النقيب أمين السر آلة واجون، فعزفوا عليها موسيقى ملهمة تشنف الآذان. وبعث الناي الذي عزف عليه النقيب الاستشاري بالنغمة التي اتسمت بكمال مسايرة الموسم، وتردد صداها صاعداً إلى عليين. ضبط الملازم المراقب الإيقاع، وكانت أغنية «غصن شجرة البرقوق»[1] وهو يؤديها بالغة الجمال. وكان هو من غنى «تاكاساجو» عندما كان فتى تابعاً، في تلك المرة التي اجتمع فيها النبلاء لتخمين القوافي. وشارك معالي الوزير وجينجي في الغناء، وأضفى الطابع غير الرسمي ذاته للمناسبة سحراً خاصاً على موسيقى هذه الأمسية.

قدَّم معالي الوزير الكأس لجينجي، وقال:

«آه، بوسع قلبي هذا أن يعلو للأبد على تغريد الهازجة،

الآن فيما هذه البراعم البديعة تتخلله بفتنتها.

وإني لعلى يقين من أن ذلك يمتد ألف عام»[2].

رد جينجي:

«وددت أن تجيء هذا الربيع إلى داري هذه، حيث تبرعم مثل هذه الزهور،

إلي أن يجعل لونها وعبقها نفسيهما جزءاً منك!» .

مرَّر الكأس إلى النقيب أمين السر، الذي قدمها عندئذ إلى النقيب الاستشاري:

«واصل العزف، واصل عزف لحن رقيق طوال الليل على نايك

إلى أن تتمايل الهازجة الغافية طرباً حيث جثمت عليَّ الغصن!» .

رد النقيب الاستشاري:

---

(1) أغنية سايبارا «إلى غصن شجرة البرقوق تقبل الهازجة لتغرد طوال الربيع، غير أن الثلج لا يزال يتساقط. انظر كم هو جميل تساقط الثلج!».

(2) كوكينشو 44 من نظم سوسي: «إلى متى يجوب قلبي المروج؟ ربما ألف عام، طالما أن البراعم لا تتساقط».

«عندما يعقد النسيم العزم بخفة بارعة على تجنب هذه الشجرة،

هل تريدني حقاً أن أعزف إلى أن يرحل الطائر؟

كم أنت قاس!»

ضحك الجميع. وقال الملازم المراقب:

«طالما أنه ما من غمامة تنسل من خلل القمر في علاه والبراعم هاهنا،

فإن الطائر في مجثمه سيواصل تغريده يقيناً»[1]

لـم يغـادر معالي وزيـر الحرب إلا بعـد أن أقبل الفجر حقـاً. وعلى سـبيل الهدايا أثقل جينجي عربته بعباءة رسـمية ومجموعة كاملة من أرديته الخاصة ومرطبانين من البخور لم يكن قد فتحهما.

قال معاليه:

«بمثل هذا العطر البديع المنساب من هذه الأكمام الجميلة، فإن محبوبتي في الدار

قد توجه لي كلمة لوم على أساليبي الخاطئة!».

«يا للزوج الرعديد!». ضحك جينجي، وتبعه بينما يجري وضع نير العربة على الثور.

«ستنظر محبوبتك في الدار إليك بدهشة لدى قدومك،

حيث تراك مرتدياً ثوباً موشى بالبراعم!.

سـيكون مشـهدك لافتاً للأنظار!». قالها جينجي، وسـلم معالي الوزير راغماً بالهزيمة. وبادر جينجي فخلع على النبلاء الشبان الآخرين ثياباً وأردية رائعة.

وصل إلى الجناح الجنوبي الغربي في ساعة الخنزير البري[2]. كان الجناح الغربي الذي تقيم به جلالة الإمبراطورة قد أُعد للمناسـبة، وكانت وصيفات رفيعات المقام من سـيِّدات جلالة الأمبراطورة واللواتي كُلفن برفع شعر السيدة الشابة هناك بالفعل. وفي هذه المناسبة أقبلـت السـيدة المقيمة فـي الجناح الجنوبي الشـرقي من دار جينجي بدورهـا للقاء جلالة

---

(1) لأنه يخلط بين سنا القمر والفجر.

(2) حوالي الساعة الثامنة مساء.

الإمبراطورة. وبدا أن حشد الوصيفات من أجنحة روكوجو العديدة يفوق العد والحصر.

ارتدت السيدة الشابة ثوبها ضافي الذيل في ساعة الفأر[1]. كانت المصابيح خفيفة، ولكن جلالة الإمبراطورة وجدت ما استوعبته من حضورها مبهجاً تماماً.

قال جينجي: «لقد شجعتني ثقتي بأنك لن تتخلى عنها على إحضارها أمامك في هذا الزي غير اللائق[2]، ويتمثل أمل أب مولع بابنته في أن هذا قد يكون قدوة لأجيال مقبلة»[3].

«كانت العظمة التي أضفيتها على المناسبة مما يؤثر في النفس تماماً، حيث أنني ليست لديَّ فكرة عن كيفية أداء الطقس على الوجه الصحيح». هكذا ردت جلالتها في تواضع، فيما جاذبية مفعمة بالصبا تشع منها. ومع هذا الحضور البهيج تماماً حول جينجي أحس بابتهاج عظيم بالتناغم السائد بينهما. واستبد الحزن الشديد بوالدة السيدة الشابة لأنها لن ترى ابنتها حتى في ذلك الوقت، وفكَّر جينجي بمزيد من الشفقة في دعوتها في نهاية المطاف، ولكن الخوف مما قد يقوله الناس عندئذ ثبَّط همته ومنعه من القيام بذلك.

من شأن احتفال كهذا أن يتضمن قدراً كبيراً من التفاصيل المزعجة، حتى عندما تتم إقامته بالطريقة العادية، ولم أسجل أياً من هذه التفاصيل لأن رصداً مستفيضاً لجانب واحد منها فقط، قد يجلب من الضرر أكثر مما يجلب من الفائدة.

حل الاحتفال بإقامة طقس عقد نطاق سروال ولي العهد بعد العشرين من الشهر، وقد كان سموه ناضجاً للغاية، وعقد الناس جميعاً العزم على الاندفاع لتقديم بناتهم له، ولكن نوايا جينجي كانت بالغة الوضوح إلى حد أن وزير الميسرة ومن إليه أحجموا عن القيام بذلك، على أساس أن هذا لن يسفر إلا عن جعلهم يندمون إذا أقدموا عليه.

«هذا من سوء الطالع تماماً. ومن المؤكد أن جوهر خدمة القصر يسعى للسمو قليلاً

(1) حوالي الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل.

(2) جاءت الابنة أكاشي مرتدية ملابس الطفلة التي تظل عليها إلى أن ترتدي ثوبها الضافي بالفعل، وهي في هذا الزي لا تزال، من حيث المبدأ، غير جديرة بأن تراها مثل هذه السيدة العظيمة.

(3) لم تقم إمبراطورة من قبل بأداء هذا الدور في عقد نطاق الخاصرة، ويعلق جينجي الآمال على أن الإمبراطورة ستواصل، في بعض الأوقات إضفاء هذا الشرف على آباء مميزين مثله.

فوق كل شيء آخر، والحياة ستكون كئيبة للغاية، إذا لزمت كل هذه الفتيات الرائعات بيوتهن». هكذا أشار جينجي عندما سمع بالأمر، وأجّل انتقال ابنته. ولم تكن الأطراف الأخرى المعنية راغبة في التدافع وراءها، وعندما سمعت هذه الأطراف بقراره مضت ابنة وزير الميسرة الثالثة إلى القصر. وقد عرفت باسم ريكيدن.

قام جينجي بترميم جناح كيريتسوبو، الذي كان في وقت من الأوقات جناحه الخاص في القصر، من أجل ابنته، وقرر أن يكون انتقالها في الشهر الرابع، لأن سمو ولي العهد لم ترق له فكرة تأجيل وصولها. وقام بتحسين قطع الأثاث، ومنح اهتمامه الخاص لتصميم الكماليات ورسمات اللوحات، وجمع أفضل الحرفيين لتنفيذها، وجعل كل شيء يرقى إلى درجة رفيعة من التألق، ولملء خزانة كتبها اختار كتباً[1] يمكن أن تفيدها بصورة مباشرة، مثل كتب نماذج الخط. وقد احتوت على عدد كبير من النماذج، التي جعلت أفضل مبدعي الماضي يشتهرون في أجيال لاحقة.

مضى جينجي يناجي محبوبته: «كل شيء في تراجع مقارنة بالأيام الخوالي، وقد فقد عصرنا الحالي كل عمق، ولكن كتابة الكانا رائعة الآن على الأقل. ومن المؤكد أن الخط القديم يبدو متماسكاً، ولكنه لا يوحي بالعرض أو السخاء، ويبدو على الدوام متتبعاً للنمط نفسه. وفي وقت لاحق فحسب بدأ الناس في كتابة خط فاتن حقاً، ولكن من بين النماذج البسيطة العديدة التي قمت بجمعها عندما كنت أنا نفسي حريصاً على رعاية



كتابة القصب

(1) سويشي، مجلدات، في تميز عن اللفائف (ماكيمونو).

«الأسلوب النسائي»[1]، وهو خط أبدعته بسرعة الملاذ، والدة جلالة الإمبراطورة - وهو خط لم تكترث به هي كثيراً وقد تعلمته منها - بدا لي أنه خط مميز بصفة خاصة. نعم، إنني في نهاية المطاف قد أسأت إلى اسمها. ولم أقصد ذلك حقاً، ولكن ذلك آلمها كثيراً. وقد فهمت أموراً كثيرة، وربما الآن وقد رحلت، فإن روحها أخذت في الاعتبار كل ما فعلته من أجل جلالتها وعفت عني». وهمس: «لقد تميز خط جلالة الإمبراطورة بالجاذبية، ولكنه ربما يفتقر إلى تألق معين. وقد أفصح خط نيافتها الراحلة[2] عن عمق ورشاقة عظيمين، ولكنه كان هناك شيء ضعيف فيه أيضاً، ولم يكن فيه إلا القليل من حاسة التمييز. وقد كانت سيدة العاملين في القصر في عهد نيافته[3] هي التي برزت في هذا المجال في زماننا، على الرغم من أن خطها به العديد من الحيل والتزويق». وخلص في حديثه قائلاً بسخاء: «وعلى الرغم من ذلك فإنك أنت نفسك وكاهنة كامو السابقة اللتان تبدعان الخط بصورة حقيقية».

«من المؤكد أنني لا أرقى إلى هذا المستوى!».

«لا تكوني متواضعة أكثر من اللازم! كما تعلمين، فإنك لا مثيل لك في الدفء والعذوبة. وكلما كان المرء أفضل من الرموز، كان الاحتمال أكبر لتسلل الكانا غير المتقنة إلى خطه». أعد أيضاً بعض الدفاتر ذات الصفحات الفارغة بأغلفة وقيطان بديعة. قال: «لا بدَّ لي من جعل معالي وزير الحرب ومشرف حراس بوابة الميسرة[4] ينجزان بعض لوحات الخط أيضاً، ولسوف أنجز لوحتين بنفسي. وهذان الاثنان يعتزان بنفسيهما كثيراً، ولكنني على يقين من أن بمقدوري مجاراتهما». وكان يعتز بنفسه في هذا المجال كثيراً كذلك.

اختار أفخر أنواع الفراشي والحبر، وبعث على وجه السرعة في طلب السيدات المعتادات في هذه المناسبات، مثيراً انزعاجهن البالغ، إلى حد أن بعضهن اعتذرن عن عدم الحضور أكثر من مرة، وهو ما رد عليه بمزيد من المناشدة فحسب. وكان لديه بعض ورق كوما البديع للغاية، وبالغ الرقة، ولاختبار «بعض شبابنا الباسل» بعث بعضاً منه إلى

(1) أونادى، يُقال له هذا لأن النساء كن من حيث المبدأ هن اللواتي يكتبن الكانا.

(2) فوجيتسوبو.

(3) أوبوروزوكيو.

(4) أخ غير شقيق لتو نو تشوجو.

النقيب الاستشاري، إلى نجل معالي شؤون القصر، إلى النقيب أمين السر، مع أمر بأن يبدعوا ما يروق لهم من الكتابة بالبوص[1] أو القصائد المصورة[2].

مضى إلى الدار الرئيسية كذي قبل لإنجاز كتابته. كان موسم براعم الكرز قد انقضى، وكانت السماء زرقاء يغمرها الهدوء، وكتب القصائد القديمة كيفما طاب له، حسبما تواردت على خاطره، بأعداد مدهشة، بعضها على هيئة متصلة، وبعضها عادي، وبعضها بأسلوب نسائي[3]. وكانت معه قلة من الوصيفات، لا يتجاوزن وصيفتين أو ثلاثاً لطحن حبره، نسوة جديرات بتجاذب أطراف الحديث معهن، لدى تقويم قصيدة أو أخرى من ديوان عتيق ونبيل. كانت كل الستائر مرفوعة، وقد بدا غارقاً في التفكير على ذلك النحو قرب الشرفة، والكتاب موضوع على مسند للذراع أمامه، وطرف الفرشاة في فمه، فشكل مشهداً بالغ الروعة لا يملُّ المرء مشاهدته. وبالنسبة لأي شخص ذي عين فاحصة كان من المدهش رؤيته وقد انكب على الورق الأبيض والأحمر، الذي يتميز بعضه عن بعضه الآخر، محكماً قبضته على الفرشاة. ومكرِّساً نفسه لهذه المهمة.

عندما أُعلن قدوم معالي وزير الحرب، رتب جينجي مجفلاً عباءته الرسمية، ودعا بإعداد وسادة أخرى لجلوس زائره، وأمر بإدخاله عليه مباشرة. وارتقى معاليه الدرج في مهابة، وقد بدا بدوره أنيقاً، بينما مضت النسوة يختلسن النظر إليه من الداخل. كما أن الطابع الرسمي الجاد لتحية أحدهما الآخر كان جديراً بالإعجاب كذلك. واستهل جينجي الحديث على نحو مرح: «انفردت بنفسي هنا من دون أن يكون لديَّ الكثير للقيام به، وبدأ الهدوء يضجرني وقد جئت في الوقت المناسب».

كان معالي الوزير قد أحضر معه دفتره الخاص، الذي فرغ منه، وفي التو تصفحه جينجي. ولم يكن خط زائره ملهماً، ولكنه كان إنجازه الصغير، وقد كُتب بصورة نظيفة حقاً. وكانت

---

(1) أشيدى، التي تتضمن رسم مشهد على حافة الماء (مع قصبات ودوامات مائية وصخور وما إلى ذلك) بطريقة تشكل معها خطوط اللوحة حروف كانا الخاصة بقصيدة.

(2) أوتاى، التي كانت القصائد المستلهمة فيها من لوحة تكتب فوق اللوحة. يحبر شاحب.

(3) يتألف «النص المناسب» (سو) من حروف صينية مكتوبة بصورة متصلة تستخدم لقيمتها الصوتية، والنص «العادي» هو الكانا المألوف، أي علامات صوتية بدون قيمة إيديوجرافية والفارق بين «العادي» و«الأسلوب النسائي» (أونيدى) غير واضح.

القصائد التي اختارها من المنتخبات العتيقة غير مألوفة، وقد أفرد لكل منها ثلاثة أسطر مع رموز صينية قليلة، تدخل البهجة في النفوس. وقد دهش جينجي، وهتف معرباً عن أسفه: «لم أتصور هذه الروائع آتية منك! لسوف يتعيَّن عليَّ إلقاء كل فراشيَّ بعيداً!».

رد معالي الوزير مرحاً: «حدَّثت نفسي بأن عليَّ بذل قصارى جهدي، طالما أنني سأقدم خطي بلا حياء إلى مثل هذا الجمع».

لم يكن جينجي قد استطاع إخفاء الدفاتر التي كان عاكفاً على ملئها بحيث يحجبها عن العيون، ولذا فقد أخرجها وفحصاها معاً. بدا خطه المتصل على ورق صيني بمثابة معجزة لمعالي الوزير، بينما كان أسلوبه الهادىء والمتمكن تماماً على ورق كوما الرقيق، دقيق الحبيبات، جميلاً غير أنه متدفق اللون، ويتجاوز أي شيء. وأحس معالي الوزير بدموعه تتجمع لتشارك في انسياب هذه السطور الرقيقة، التي عرف أنه لن يقدر له قط أن يسطرها، ومنحته القصائد المسطرة بأسلوب متدفق على أوراق ملونة بصورة بديعة من عمل ورشة بلاط اليابان بهجةً لا حدود لها. وخلبت الجاذبية الثرية والمتنوعة لهذه الأشياء لبه إلى حد أنه لم يلق نظرة على إنجاز أي شخص آخر.

سعى مشرف حرس بوابة الميسرة فيما أنجزه بإصرار وراء الخط البارع، ولكن المرء كان يحس بشيء ضبابي في حركة فرشاته، ويرصد أيضاً محاولة من جانبه لحجب هذا الشيء الضبابي. وكان اختياره للقصائد ماكراً إلى حد ما.

لم يتح جينجي لزائره إلقاء نظرة حقيقية على عمل السيدات، بل إنه في الحقيقة لم يخرج عمل كاهنة كامو من مكانه على الإطلاق.

كانت دفاتر الخط المنجز بالبوص، وكل منها مختلف في طريقته، بمثابة بهجة خالصة. وفي حالة دفاتر النقيب الاستشاري كانت الكتابة بالألوان المائية منفَّذة بصورة قوية، وأعادت كثافة البوص المتدفقة بالحياة إلى الأذهان شاطىء نانيوا، وأفصح تداخل الأمرين عن توازن كبير. وكانت هناك كذلك صفحات جرَّب عليها بابتكار جذاب أسلوباً مختلفاً، وأنصف الحروف تمام الإنصاف. وكذلك الحال بالنسبة لتموضع الصخور وما إلى ذلك. وقال معالي الوزير بتقدير كبير: «هذا إبداع متألق، ولا بد أنه استغرق منه زمناً طويلاً». وقد

تأثر إلى أبعد الحدود، وهو الذي أحب كثيراً هذه الأشـياء الرائعة، وشـمل برعايته مثل هذا التألق.

أمضيـا بقيـة النهار في الحديث عن الخط، وعندما أخـرج جينجي مجموعة مختارة من لفائف الشعر، التي أدمجت معاً من أوراق مختلفة[1]، بعث معالي الوزير بابنه، الاستشاري، إلى داره طلباً لمجموعة خاصة به. كانت هناك أربع لفائف من «مانيو شـو» اختارها وكتبها الإمبراطور سـاجا[2]، ونسـخة من «كوكين واكاشو» خطها جلالة الإمبراطور إنجي[3] على مطـولات مـن الورق الصينـي الأزرق الفاتح ألصقت سـوياً، مع ورقة داعمة مسـطرة بقوة بلون أزرق أكثر قتامة وبكرات من حجر اليشـب الأخضر القاتم وقيطان مسـطحة مجدولة بطريقـة صينيـة متموجة، ويبدو هذا كله مشـهداً بديعـاً. وكان جلالة الإمبراطـور إنجي قد أحـرز مهارة مدهشـة فـي تغيير خطه من أجـل كل لفافة «كوكين واكاشـو»، وقـد قرَّبا منها مصباحاً لفحصها. وأشـار جينجي في معرض الإشـادة بها: «إنها لا تخيب أمل المرء أبداً. أليـس كذلـك؟ والنـاس الآن لا يمكنهم التوصل إلى مـا يقاربها إلا بعـد أن يحتالوا لذلك احتيالاً».

أهداهـا معالي الوزير إلـى جينجي في التو، وقال: «حتى لو كانـت لي ابنة فإني ما كنت لأرغـب فـي أن تمضي إلى من لا يعرف ما الذي يراه في هذه اللفائف، وكان من شـأنها في هذه الحالة أن تذهب هدراً».

أعطى جينجي للاستشـاري ابن معالي الوزير بعض لفافات الخط الصيني في صندوق بالغ الروعة من خشب الصبر، وأضاف إليه ناياً جميلاً من إبداع كوما.

بعد ذلك غمر جينجي نفسه في التمكن من خط الكانا، وسعى وراء كل من اشتهر بهذه المهارة على الإطلاق، سواء كان رفيع القدر أم متوسطه أم متواضعه، بحيث يخط كل منهم كل ما قد يكون أكثر ملاءمة لميله واسـتعداده. ولـم يضع شـيئاً من أصل متدن في صندوق

---

(1) تسوجيجامى: أوراق مختلفة الألوان ممزقة على امتداد خطوط غير منتظمة وملصقة معاً بحيث تحول إلى لفافة.

(2) حكم في الفترة من 809 إلى 823.

(3) الإمبراطور دايجو (حكم خلال الفترة من 897 إلى 930) تقع كوكين واكاشو في عشرين لفافة.

دفاتـر ابنتـه، وحرص علـى أن يميز مرتبـة كل كاتب لدى طلـب كتاب أو لفافـة. وبين كل كنوزهـا الرائعـة، وبعضها مجهول حتى في بلاد مـا وراء البحر، كانت هذه الكتب هي التي أثارت أقصى قدر من اهتمام الشباب. وأعد لها كذلك مجموعة من اللوحات، وأراد رؤية يومياته التي كتبها في سوما تمضي إليها وإلى نسلها، ولكنه لم يخرجها في الوقت الراهن، حيث خلص إلى عدم القيام بذلك إلا بعد أن تلم بالمزيد من أمور الدنيا.

بلغت أنباء هذه الاستعدادات معالي وزير شؤون القصر من بعيد، وتركته شـديد القلق وعظيـم الشـعور بخيبة الأمـل في آن، فقد كانت ابنتـه الآن في كمال تفتحهـا وأجمل كثيراً مـن أن تـذوي، وقد كره أن يراها تحس بالضجر وبانخفـاض روحها المعنوية، ولكن ذلك الشـاب الـذي أحبته ظل رصيناً كعهده، ومن شـأنه أن يبدو سـخيفاً لو أنـه فاتحه في الأمر، متحاملاً على نفسـه. ومضى يتأوه قائلاً: «لا، لو أنني تركت نفسـي يتم إقناعي بالأمر عندما كان من الجلي أنه حريص عليها! لم يكن بمقدوره أن يلوم الشـاب وحده. وسـمع النقيب الاستشـاري بأن موقفه قد لان قليلاً، ولكنه كان لا يزال شـديد الغضـب من الطريقة الفظة التي عومل بها في وقت من الأوقات إلى حد أنه تظاهر بأنه لا يكترث بالأمر. وعلى الرغم مـن أنه غالبـاً ما أحس بأنه ليس في حالة مزاجية تسـمح له بالضحك، حيـث أنه في حقيقة الأمر لم يكن يهتم بأي فتاة سواها، فإن تعيير مربيتها له بزيه الرسمي الأزرق الفاتح لم يؤد إلا إلى تقوية عزمه على جعلهم يرونه يرتقي إلى رتبة المستشار الرفيع أولاً.

اسـتنكر جينجـي الحيـاة المجردة مـن الجذور التي يعيشـها ابنـه، وقـال: «إذا كنت قد تخليـت عـن طموحك في هـذا الجانب، فإن وزير الميمنة والأمير ناكاتسـو كاسـا مهتمان بـك، فيمـا يبـدو، وآمل أن تصل إلـى قرار أو آخـر». غير أن ابنـه لم يلـزم إلا موقفاً يفصح عن المراعاة الصامتة لخاطره. واصل جينجي حديثه: «لم أشـعر بالميل إلى إطاعة دروس نيافتـه الراحـل حول هذا النوع مـن الموضوعات بـدوري، ولذا فإنني أتـردد في معاملتك بالطريقـة ذاتهـا. وعلى الرغـم من ذلك فإن التجربة تشـير إلى أن ما قالـه صحيح الآن كما كان دائمـاً. وطالمـا أنـك باق دون ارتباط، فإن الناس سـوف يشـكون في أنـك تفعل ذلك لسـبب محدد، وسيشـعرون بخيبة الأمل إذا سـمحت لقـدرك أن يمضي بك إلـى الاقتران بفتاة كئيبة مضجرة. والتصويب أعلى مما ينبغي هو اسـتهداف للفشـل، لأن كل الأمور لها

معيارهــا الصحيــح، ولكن ذلك ليس مبرراً لمنح نفســك حرية تفوق ما ينبغي. وقد نشــأت منذ يفاعتي في القصر، حيث لم يكن بمقدوري التصرف كما طاب لي، وحيث عشــت في خــوف من أي هفــوة يمكن أن توقعني في الهلاك، وعلى الرغم من ذلك فقد عاقبتني الدنيا على تهتكي وخلعي العذار، فلا تسمح لنفسك بأن تفعل ما طاب لك، بينما لا تزال مرتبتك متواضعــة وأهميتك محدودة. والقلب يمضي في مســاره فــي بعض الأحيان، ويمكنك في يســر أن تحزن على امرأة عندما لا يكون لديك من يجبرك على الســيطرة على نفسك، حتى مثلما توضح قدوة حكماء الماضي. وإذا أثقلت على نفسك وعرضت إحداهن للفضيحة، فإنك أنت نفســك ستتحمل وقر كراهيتها التي ســتواصل عندئذ ربطك بهذه الحياة. وما إن تتزوج بالمرأة الخطأ، فقد يغدو من الصعب إلى أبعد حد أن تتحملها في مجافاة لمشاعرك، ولكنــك مع ذلك ســيظل مــن المتعين عليــك أن تكون مســتعداً لإعادة النظر والاستســلام لرغبــات أبويهــا، أو حتى إذا لــم يكن لها أبوان، لســوء الطالع، أن تحــاول دوماً أن تتذكر ما قد يكون أكثر جاذبية فيها. والثقة بأن كل شــيء ســيكون على ما يرام». وأمضى الوقت في إعطاء هذه النوعية من النصح عندما يتصادف أنه ليس لديه ما يشغله.

لم يحتج الشاب إلى التحفيز للإحجام، من أجل سيدته الشابة، مثلما أهابت به أحاديث جينجي أن يفعل، عن أكثر الاهتمامات ســطحية بأي سيدة أخرى. وفي غضون ذلك كانت هــي تشــعر بالخجل لرؤية أبيها وقد اســتبد به الاضطراب أكثر من المألــوف، وألقت اللوم فــي ذلــك على ســوء طالعهــا، ولكنهــا ظاهرياً أمضــت كل أيامهــا الكئيبة بهــدوء لا يعرف الاضطراب.

كتــب لها رســائل مفعمة بالعاطفة، كلما اقتضت عواطفــه التفريج عن ذاتها. ربما كانت تتســاءل «من غيره أصدق»[1]، ولكن الأمر يقتضي إنسانة أكثر خبرة للشك في فؤاد عاشق، وأثرت العديد من فقرات رســائله في نفســها بعمق. وكان الناس يقولون إن الأمير ناكاتسو كاسا كان يمد جسور الحوار مع سمو المستشار، وإن الاثنين قررا المضي بالأمر قدماً، وهو الأمــر الذي لا بد أنه كان ضربة أخرى لأبيهــا. وقال لها، في حديث خاص بينهما والدموع في عينيه: «ذلك هو ما يترامى إلى ســمعي. ما أقســاه! أحســب أنه يرد عليَّ لعنادي وعندما

(1) كوكينشو 713: «على الرغم من أنني أعتقد أنك تكذبين، إلا أنه الآن من غيرك أصدق؟»

يفاتحني في الأمر، أي أحمق سـأبدو للناس لو أنني أذعنت!». أحسـت بالخجل على نحو يدعو لليأس، ووجدت نفسـها تنخرط بالبكاء كذلك، وتشـيح جانباً وقد استبد بها الحرج، وقـد بـدت لطيفة بلا حـدود فيما ذلك يبدو منها. واصل التسـاؤل: ماذا عسـاي أفعل؟ هل أتحرك الآن لتبين حقيقة مشاعره؟ تردد هذان السؤالان وغيرهما في ذهنه.

مكثـت هنـاك قرب الشـرفة، حتى بعـد أن انصرف، وقد شـرد ذهنها، ولـم يعـد هناك ما يبعـث العـزاء في نفسـها. ما أغرب انهمار دموعي مـن تلقاء ذاتها! ترى مـا الذي يمكن أن يظن بي. فيما جلست هناك تتأمل هذه الأمور، جاءت رسالة منه. نعم قرأتها، وكانت رسالة مطولة ومفعمة باللهفة. كان قد كتب يقول:

«ليست أساليبك القاسية إلا ما يتوقعه المرء في دنيانا هذه،

ولكن هل أنا غريب إذاً لعدم نسياني لك؟» .

لـم تستطع التغلب على البرود الذي لم يشر به ولو تلميحاً إلى ما علمت به لتوها، ولكنها ردت على الرغم من غضبها، قائلة:

«أن يكون ذلك كل ما هناك وأن تنسى من لم تستطع نسيانها،

يقيناً ذلك هو مايعنيه الاستسلام لأوهام الدنيا» .

أصابـه هـذا بحيرة بالغة إلى حد أنه لـم يسـتطع ترك الرسـالة، ولـم يسـتطع إلا الجلوس هنالك محدِّقاً فيها، وهو يهز رأسه.

33

فوجي نو أورابا

أوراق الوستارية الجديدة

تظهر «فوجي نوأورابا» أو (أوراق الوستارية الجديدة) في قصيدة قديمة يقتطفها تو نو تشـوجو، عندما يوافق فـي هذا الفصل على زواج يوجيـري من ابنته كوموي نو كاري.

الصلة بالفصول السابقة

تأتي أحداث «أوراق الوستارية الجديدة» عقب السياق الزمني لأحداث «غصن شجرة البرقوق».

الشخوص

سمو المستشار ثم الإمبراطور الفخري المتقاعد، جينجي، 39 عاماً.

النقيب الاستشاري، ثم المستشار الرفيع، نجل جينجي، 18 عاماً (يوجيري).

معالي وزير شؤون القصر ثم المستشار (تو نو تشوجو).

النقيب أمين السر، ابن تو نو تشوجو الأكبر، 23 أو 24 عاماً (كاشيواجي).

الملازم المراقب، 22 أو 23 عاماً (كوباي).

السيدة الشابة، ابنة تو نو تشوجو، 20 عاماً (كوموي نوكاري).

سيدة جناح جينجي الشرقي، 31 عاماً (مورا ساكي).

سيدة العاملين في دار فوجيوارا، ابنة كوريميتسو

السيدة الشابة، ابنة جينجي، زوجة ولي العهد، 11 عاماً (أكاشي نو هيميجيمي).

أمها، أكاشي، 30 عاماً (أكاشي نو كيمي).

تايفو، مربية كوموي نو كاري.

سايشو، مربية يوجيري.

جلالة الإمبراطور، 21 عاماً (رايزي).

نيافة الإمبراطور المتقاعد سوزاكو، 42 عاماً.

وسط كل هذه الاستعدادات[1]، كان النقيب الاستشاري لا يزال يشعر بالكآبة والشرود، بل إنه دهش إزاء عمق ارتباطه. لو أن فؤادي متعلق بهذا القدر بها[2]، فإنني أسمع بأن حارس الحاجز قد لانت عريكته بما يكفي لإبداء استعداده للنوم[3]، هكذا مضى يفكر، ولكنني ينبغي أن أمضي بالأمر قدماً على نحو يوثق به أكثر من ذلك. ومع ذلك فإن كبحه لجماح نفسه كبّده الكثير من العذاب والألم. وفي غضون ذلك خلصت سيدته الشابة مما أبلغها أبوها، إذا كان صحيحاً، إلى أنها لم تعد تعني أي شيء بالنسبة له. وهكذا نأى كل منهما عن الآخر، وهو الأمر الذي لم يظهر إلا مدى وقوعهما في الحب. وعلى الرغم من عناد معالي وزير شؤون القصر في السابق، فإنه لم يدر ما الذي عساه يفعله بعد ذلك، حيث سيتعين عليه البدء من جديد، إذا قرر الأمير ناكاتسوكاسا المضي قدماً بما عزم على القيام به. وحدَّث نفسه قائلاً: إنني أشفق على أي بديل قد أجده، أما بالنسبة لي فليس لديَّ شك في أن الناس سيضحكون مني ويتبادلون النكات حولي. وليس هناك معنى لمحاولة إخفاء سلوكهما الخبيث ذاك[4]، فلا بد أنه بدوره قد أصبح معروفاً للكافة الآن. وأحسب أنه سيتعين عليَّ الظهور بأفضل مظهر أستطيعه والاستسلام في نهاية المطاف.

تردد في الاتصال بجينجي بهذا الخصوص بصورة فجائية، حيث أنهما تحت علاقتهما الودية على السطح كانا لا يزالان على خلاف أحدهما مع الآخر، ولسوف يبدو أحمق إذا أثار الأمر بصورة رسمية أكثر مما ينبغي. وراح يتساءل متى سيجد اللحظة المناسبة لمحادثته في هذا الأمر.

في العشرين من الشهر الثالث، شدَّ الرحال في رحلة روحية إلى جوكوراكوجي[5]، حيث كانت تلك ذكرى وفاة سمو الأميرة والدته، وصحبه أبناؤه جميعاً في موكب بديع، وأقبل معهم عدد كبير من كبار النبلاء الذين لم يخطفوا البريق من النقيب الاستشاري الذي

---

(1) لدخول ابنة جينجي القصر.

(2) كوموى نو كاري.

(3) إنني أسمع أن أباها قد غدا الآن على استعداد للسماح بالزواج «كوكينشو 632» (أيضاً آيسي مونوجاتري 6 القسم 5) من نظم أريوارى نو ناريهيرا: «لعل حارس الحجز المكلف بالدرب الذي أسلكه سراً يغلبه النوم ليلة إثر أخرى!» الحارس كلفه بالوقوف هناك والد الشابة التي كان ناريهيرا يزورها.

(4) الحميمية الجنسية الحذرة، قبل سنوات، بين يوجيرى وكوموى نو كاري.

(5) معبد جنائزي لنبلاء قبيلة فوجيوارا الكبار.

بات يصل إلى سمت بهائه الرجولي، والذي كان قوامه تجسيداً للرشاقة بعينها. ومنذ شعوره بالغضب الشديد من معالي وزير شؤون القصر كان يشعر بالعصبية في حضوره، وقد لفت أسلوبه القائم على حسن التميز ووقاره الهادىء الآن نظر معاليه بصورة خاصة. وكان جينجي بدوره قد كلَّف من يقوم بقراءات في الكتب المقدسة. وأقبل النقيب الاستشاري للإشراف على الترتيبات كافة، وأبدى إخلاصاً مؤثراً.

في ذلك المساء، وفيما أخذ الجميع في المغادرة، بدت بتلات الكرز كثيفة على الأرض، وكسا الغمام كل الأشياء، بينما مضى معالي الوزير في رشاقة يردد قصائد قديمة ويحلم بالماضي. وبدوره غمرت كآبة الأمسية النقيب الاستشاري، فبقي مستغرقاً في تفكير حزين وشارد، على الرغم من الأصوات التي تعالت قائلة: «يبدو أن المطر سينهمر!».

تخيَّله معالي الوزير غارقاً في التفكير فيها، فجذبه من كمه، وقال له: «لمَ أنت غاضب مني على هذا النحو؟ من المؤكد أن بوسعك أن تسامحني إذا فكرت فحسب في معنى صلوات اليوم بالنسبة لنا كلينا. وكما تعلم، فليست أمامي سنوات كثيرة أحياها، ولا بد لي من إبلاغك بأن رفضك قد ألحق الأذى بي».

اتخذ النبيل الشاب موقفاً مفعماً بالتوقير، وقال: «على الرغم من أن سمو الأميرة الراحلة قد تلطفت فأعطتني مبرراً للأمل، إلا أنك أنت نفسك لم تبد متفقاً في الرأي معها، ومن هنا فإنك سوف تتفهم أنني لم أرغب في أن أفرض نفسي فرضاً». اندفع الجميع ماضين إلى دورهم بأسرع ما وسعهم ذلك وسط عصف الريح والمطر. كان الموضوع يحظى بأهمية دائمة بحيث أن النقيب المستشار أمضى الليلة يقلِّب في ذهنه مراراً ما قصده معالي الوزير بمبادرته غير المألوفة.

الآن وجد معالي الوزير مقاومته قد تبددت، ربما بفضل وفاء النقيب الاستشاري عبر سنوات طويلة، ومضى يفكِّر في مناسبة عابرة يمكن خلالها بخفة، ولكن بصورة لائقة، المضي قدماً بهذا الأمر. وفي غضون ذلك أقبل الشهر الرابع، جالباً إلى مسكنه وفرة رائعة للغاية من براعم الوستارية إلى حد أنه لم يستطع ترك بهائها ينقضي، ورتب عزف موسيقى احتفاءً بهذه المناسبة. وزهاء المساء كانت البراعم أجمل منها في أي وقت مضى، وجعل ابنه، النقيب أمين السر، يحمل إلى الشاب رسالة وجيزة، كتب فيها يقول: «تركني حديثنا

فـي ذلـك اليوم تحـت البراعم حريصاً على المزيـد. تعال، لطفاً، إن لم تكن مرتبطاً بشـيء آخر. وتضمنت الرسالة قصيدة:

«في الغسق المعتم، تتوهج الوستارية حول داري في ظلال متألقة بالحيوية،

ألن تأتي إذاً لرؤية الغنيمة الأخيرة في الربيع[1]»؟

كان قد ربط الرسالة إلى غصن جميل.

كان النقيب قد توقع ذلك، وبقلب خافق صاغ رداً مهذباً:

«يداي المتعثرتان ربما تترددان في قطف مثل هذه الوستارية،

عندما تضل إيماءتي الطريق وسط ظلال الغسق» .

«أخشى أن شجاعتي تخذلني. لطفاً، أدخل التعديلات التي يقتضيها الأمر!».

أعلن مبعوث معالي الوزير له: «لسوف أصحبك».

«تلـك صحبـة تفوق ما أقتضيه!». بعد إرسـاله عائداً إلـى الدار[2]، أبلـغ النقيب أباه بما حدث، وأطلعه على رسالة معالي الوزير.

تحدَّث جينجي، وقد ارتسـمت في عينيه نظـرة تدعو للجنون: «من المؤكد أنه يفكِّر في شـيء محـدد، وإذا كان قد تقدم في مسـيرته إلى هذا الحد، فلا بد أنـه قد غفر لك تصرفك الماضي الخالي من الحب البنوي»[3].

«لا يمكن أن يكون الأمر بذلك القدر من الجدية، وقد فهمت أن الوستارية لديه متفتحة بصـورة أكثـر جمالاً مـن المعتـاد، ومع الهـدوء البالغ، أحسـب أن كل ما يريـده هو بعض الموسيقى».

«على الرغم من ذلك فقد ظفرت بمبعوث بالغ التميز. لا بد لك من الذهاب تواً». منحه

---

(1) يلمح تو نو تشوجو للقيام بإعطاء يوجيري ابنته كوموي نو كاري، وقد تلمح قصيدته إلي أبيات من نظم باي جويي واكان روى شو 52، هوكوشي 631).

(2) كاشيواجي ضابط في الحرس، ونوعية الصحبة المعنية كان يمكن أن يقدمها الحرس إلى شخص ذي مرتبة رفيعة، ومن هنا تأتي نكتة يوجيري اللطيفة.

(3) انتهاكه لحرمة كوموى نو كاري، وهو كان عملاً خالياً من الحب البنوي تجاه أوميا، جدته وجدتها.

موافقته، وظل النقيب متخوفاً مما ينتظره.

«تلك العباءة الرسمية التي ترتديها قاتمة أكثر مما ينبغي، وهي في نظري تفتقر إلى الوقار، فاللون البنفسجي يناسب شخصاً مؤهلاً لمرتبة أدنى من مرتبتك أو شاباً صغيراً يشغل مرتبة لا تستحق الذكر. هلم. دعني أجعلك ترتدي الزي المناسب!»[1]. ودعه جينجي مع حامل للملابس يحمل عباءة رسمية بديعة من عباءاته، جنباً إلى جنب طاقم كامل من الأردية الجميلة.

عاد النقيب الاستشاري إلى غرفته، حيث عكف على الاهتمام بمظهره، وسمح للغسق بأن ينقضي، ثم وصل في الوقت الذي كان مضيفه يتساءل فيه عما إذا كان سيحضر على الإطلاق. وأقبل سبعة أو ثمانية من أبناء معالي الوزير، بينهم النقيب أمين السر، للترحيب به، وكانوا جميعاً نبلاء رائعي المظهر، لكنه على الرغم من ذلك فاقهم جميعاً، حيث أنه فضلاً عن وسامته الباهرة، كان يحظى بمظهر نبيل يفوق الآخرين كافة.

حرص معالي الوزير على استقباله، في غرفة أعدت لهذه المناسبة، ولكنه قبل المضي لتحيته وقد وضع القلنسوة الرسمية وغيرها من عناصر الزي الرسمي، حادث زوجته ووصيفاتها، قائلاً: «انظرن إليه وهو يتحول إلى رجل وسيم ويحظى بوقار وجلال كبيرين كذلك. وأخذاً في الاعتبار بالكيفية الواضحة التي يبز بها أقرانه، فإنني يتعين عليَّ القول إنه يفوق حتى أبيه نفسه. وسمو المستشار يحظى بالجاذبية الأكثر تميزاً، ومجرد النظر إليه يجعل المرء يبتسم وينسى هموم الدنيا، ولكنه في مجال خدمة البلاد يميل إلى إمتاع نفسه وعدم إرهاقها، وهو فيما أحسب أمر طبيعي بما فيه الكفاية. أما هذا الشاب فإنه أعظم ثقافة من أبيه، ويسلِّم له الجميع، فيما يبدو، بدأب رجولي مثير للإعجاب وبرجاحة عقل لا موضع للشك فيها».

أمضى بعض الوقت في تبادل المجاملات المناسبة، ثم مضي للاستمتاع بمشاهدة البراعم.

«كل زهور الربيع أعجوبة عندما تتفتح، ولكنها تمضي سريعاً بحيث أن المرء يلومها

---

(1) يرتدي يوجيري فوتاي، أي عباءة رسمية مصبوغة بكل من النيلة (اللون الأزرق) والقرطم (اللون القرمزي) وربما يعطيه جينجي بدلاً من ذلك عباءة رسمية زرقاء، مناسبة لشاب ذي مستقبل باهر.

علـى ذلك، وهذه البراعم هي الوحيدة التي تبقى حتى الصيف، وذلك هو السـبب في أنني مولع بها بصفة خاصة. وكما تعلمون، فإنه حتى لونها يفصح عن إيحاءات الحب». أوحت ابتسامات معالي الوزير بدفء الترحيب.

ظلت البراعم بعيدة عن أن تتملاها العيون بوضوح، حتى بعد ارتفاع القمر في السـماء، ولكنهم استمعوا إلى الموسيقى، وشربوا الخمر في روح من البهجة والسرور. وسرعان ما بـدا معاليه فـي التظاهر بأنه قد ثمل، ومضى في مرح صاخب يدعو ضيفه لاحتسـاء المزيد من الخمر، وهو الضيف الذي كانت لديه أفكار خاصة به، فأصر على الاعتذار. قال معالي الوزير: «ربما تكون المسؤول الأكثر موهبة في البلاد بأسرها، بل وقد تكون أكثر تميزاً من أن تناسـب هـذا العصر المتداعي، ولكنني ألومك لتخليك عن شـيخ هـرم. من المؤكد أنه حتى الأعمال التقليدية العريقة تأتي على ذكر احترام المرء لكباره. ويقيني أنك على معرفة بتعاليم ذلك الحكيم[1] كذلك. أقول لك إنه يثير غضبي أن أفكِّر في كل المعاناة التي سببتها لي!». وسواء أكانت دموعاً سكرى تلك التي سفحها أم لا، فقد أفلح في إبلاغ الشاب أمراً أو أمرين من خلالها.

احتج النقيب بصورة مهذبة: «آه، لا، يا سـيدي، لسـوف أقدم كل شـيء طواعية إلى من يواصل الماضي الحياة فيهم بالنسبة لي، ولست أدري كيف استطعت تصور مثل هذا الأمر! لا بد أن افتقار فؤادي الأحمق للفطنة هو الذي جعل الأمر يبدو على ذلك النحو».

كانت تلك اللحظة المواتية ليطلق فيها معالي الوزير إلى رحاب الغناء «أوراق الوستارية الجديـدة»[2]، والتـي قطـف فيهـا النقيب أمين السـر مجموعـة طويلة وداكنة مـن البراعم، ووضعهـا إلـى جوار كأس الضيف. واجتهد النبيل الشـاب للوصول إلـى رد، وفي غضون ذلك قال معالي الوزير:

«سأشكو إذاً إلى الظل الأرجواني الجميل لبراعم الوستارية،

---

(1) تعاليم كونفوشيوس.

(2) جوسينشو 100، المتحدِّث امرأة تلقت لتوها تأكيدات بالإخلاص من حبيبها: «تنير شمس الربيع أوراق الوستارية الجديدة فتستسلم، ولئن أجبتني فسوف أثق بك» يقدم تو نو تشوجو ابنته إلى يوجيرى.

على الرغم من أنني لست مسروراً على الإطلاق من أنها تجاوزت الصنوبرة»[1]

أشعره النقيب الاستشاري، وكأسه في يده، بأنه أدرك المعنى الذي أراده، وذلك بانحناءة خفيفة ورشيقة تماماً.

«آه، كم مرة يتعين عليَّ أن أقاسي خلال فصول الربيع الغارقة في الندى،

لأجيء أخيراً في هذا اليوم والزهور في ذروة تفتحها؟».

هكذا رد، ومرَّر الكأس إلى النقيب أمين السر.

«الوستارية التي في تفتحها الرقيق تعيد إلى الذهن كميَّ عذراء جميلة،

لا شك في أنها تبدو أجمل لعيني ناظر مسلوب اللب».

واصلت الكأس دورانها، ولكن القصائد تعثرت سكرى، ولم يفلح أحد في إبداع ما هو أفضل. بسطت البحيرة مرآتها الساجية تحت قمر الشهر السابع المسائي الشاحب. نعم، كانت الأوراق العالية في الأشجار رشيقة وغضة، ولكن الصنوبرة على الرغم من أنها لم تكن سامقة، مالت بصورة موحية، وتدلت منها براعم نادراً ما رأتها الدنيا. وكعهده على الدوام مضى الملازم المراقب يغني: «سور من الأسل» بصوته الجميل[2].

«يا لها من أغنية غريبة تختارها!». هكذا داعبه معالي الوزير، وشارك في الغناء: «.. هذا البيت النبيل العريق» بصوته الرخيم[3]. كان مساؤهما لطيفاً، وتبدد كل توتر كان بينهما.

كان الليل قد أوغل في مسيرته، أخيراً، عندما التفت النقيب الاستشاري إلى النقيب أمين السر، مبدياً على نحو جلي أنه ليس على ما يرام[4]. «إنني لست أشعر حقاً بأنني على ما يرام، وبحلول هذا الوقت فإنني لا ينبغي أن أحاول العودة إلى الدار. هل لي في غرفة

(1) «سألوم إذن ابنتي في نهاية المطاف، على الرغم من أنني ينبغي أن أستنكر أنك قد استغرقت وقتاً طويلاً للتقدم، بحيث أنني اضطررت إلى المضي نحوك بأكثر مما كنت أرغب فيه».

(2) أغنية سايبارا عن عاشق يقبل للانسلال بعروسه من دار أبيها، فيتم الإيقاع به، ويبدو أن المغني كوباي يلمح على – نحو بالغ الخبث – إلى الحميمية الجنسية القديمة بين يوجيرى وكوموى نوكارى.

(3) توشي هينيكيرو كونو إي بدلاً من العبارة الأصلية الواردة في الأغنية، تودورو كيرو كونو إي («هذا البيت العريق»). دار والد العروس.

(4) من جراء الشراب.

لأمضي الليلة فيها؟».

صاح معالي الوزير: «رتبوا له مكاناً ينام فيه، فهذا العجوز تعتعه السكر، بحيث لا يستطيع القيام بذلك بنفسه. أرجو أن تعذروني!» وغادر الغرفة متعثراً.

أشار النقيب أمين السر بقوله: «حسناً. أرى أنها ليلة مسافر البراعم. آه، يا إلهي، ذلك يجعل الأمور أصعب قليلاً بالنسبة لمرشدك!».

دمدم النقيب الاستشاري: «أتظن الزهرة لعوباً زفت إلى صنوبرة؟ ربما كان حرياً بك أن تختار تعبيراً آخر!»[1].

على الرغم من أن النقيب أمين السر كان يشعر بالضيق بصفة شخصية، إلا أنه كان يرغب في هذه الزيجة، حيث أن النقيب الاستشاري لم يكن ينقصه شيء وتكاملت مزاياه ومناقبه، ومضى به في الطريق إلى الداخل عن رضا واقتناع.

حسب الشاب أنه يحلم، ولا بد أنه قد شعر بالفخر والاعتزاز البالغين بنفسه أيضاً. وكانت سيدته الشابة خجولاً للغاية، ولكن حسنها الجديد الأكثر إيحاء بالأنوثة أدخل السرور في نفسه أكثر من أي وقت مضى. قال يبثها شكواه: «ربما تتحاكى بي الأغاني والقصص[2]. ولكن ربما أقنع وفائي معالي الوزير، في نهاية المطاف، فيما يبدو. وعلى الرغم من ذلك، فإن عماك عن مشاعري أمر غريب! وهل لاحظت ما تدور حوله أغنية (سور من الأسل) التي غناها الملازم؟ يا لجرأته! لقد أردت الرد عليه بأغنية (عند حاجز كاواجوتشي)!»[3].

تلقت ذلك على محمل سيء.

«نعم، يا حاجز كاواجوتشي، أنت من جعل عارناً على ألسنة الكافة،

---

(1) يرد يوجيرى بحدة على مداعبة كاشيواجي. تشير «ليلة مسافر تحت البراعم» (هانا نو كاجي تابيني) إلى لقاء عابر مع امرأة ممن يتخذن للمتعة، ويدعى كاشيواجي ضاحكاً الشعور بالحرج، لكن ذلك لا يبدو طريفاً ليوجيري.

(2) جوسينشو 1063 من نظم ميبو نو تاراميني: «لم يمت أحد حتى الآن من ألم الحب، ولكن الأغاني والقصص قد تتحاكى بي لهذا السبب».

(3) أغنية سايبارا أخرى بصوت فتاة تتباهى بالهرب عبر «سور حاجز كاواجوتشي الخشن» على الرغم من عيني أبيها اللتين لا تغفلان، لترقد مع محبوبها.

ولم فعلت ذلك وأفشيت أسرارنا؟.[1]

إنك فظيع!». وانخرطت في البكاء، مثل صبية صغيرة.

«لطفاً، أحجمي على الأقل عن لوم كاواجوتشي على إهماله

حيث أن حاجز كوكيدا هو الساحة التي تسرب منها كل شيء!»[2].

هكذا رد بابتسامة واهنة. وقال: «بعد كل سنوات الانتظار تلك، فإنني أشعر بأنني فظيع تماماً، ولست أدري ما عساني أقدم عليه». تعلَّل بالسكر، وادعى المرض يقيناً، وتجاهل الفجر المطل[3]. وعندما لم توقظه وصيفاتها، أشار معالي الوزير ببعض الضيق إلى أنه راض عن نفسه بحيث يغرق في النوم كل هذا الوقت الطويل. غير أنه انصرف قبل أن تكتمل ملامح النهار، وكان محياه الناعس، فيما هو ينصرف، جديراً بأن تتملاه العيون.

وصلتها رسالته كذي قبل مصحوبة بألوان الحذر المألوفة، ولكن إرسال رد اليوم كان حقاً يفوق ما تستطيع القيام به. ووجدت الأمر مزعجاً بصورة متفاقمة عندما أقبل معالي الوزير وقرأ الرسالة، ومضت وصيفاتها خبيثات اللسان تلكز إحداهن الأخرى في ابتهاج جلي. جاء في الرسالة: «علمتني الأجواء التي تتظاهرين بها مكانتي عندك، أوضح من أي وقت آخر، ولكن بينما يؤلمني ذلك، فلعله يكون النهاية بالنسبة لي:

لا تلوميني، فيما فقدت يداي القوة على حجب الدموع،

إذا جئت إليك اليوم بكميَّن تتقاطر منهما الدموع بجلاء» .

كانت نغمة الرسالة مألوفة بصورة لافتة.

ابتسم معالي الوزير، وأشار بقوله ضمن أمور أخرى من دون أثر واحد لضيقه القديم؛ «كم هو جميل خطه الآن!». وعندما رآها في طريقه مجدداً، ذكَّرها بما يقتضيه الحفاظ

---

(1) تمضي قصيدة كوموى نو كاري قدماً بموضوعة حاجز كاواجوتشي بتورية تتعلق بـ«السور الخشن» الخاص بالحاجز (أراجاكي) الذي سمع بتسرب الحقيقة.

(2) «لا تلوميني، فأبوك هو الذي أذاع الأمر» حاجز كاواجوتشي (الموجود حالياً في محافظة ماي) وحاجز كوكيدا هما حاجز واحد، ولكن حاجز كاواجوتشي نادر في الشعر، ولا يظهر حاجز كوكيدا في أي موضع آخر.

(3) في هذه المرحلة كان يجب أن يترك كوموى نو كاري قبل وقت طويل من بزوغ الفجر، ليعود في الليلة التالية. وبدلاً من ذلك، فإنه يتصرف كما لو كان متزوجاً منذ سنوات.

على المظاهر، ثم مضى في طريقه مجدداً، حيث أن ترددها كان أمراً طبيعياً بما فيه الكفاية. وأوعز بمكافأة مبعوث النقيب الاستشاري على نحو سخي بصفة خاصة، ورحَّب به النقيب أمين السر ترحيباً كبيراً. وكان هذا المبعوث قد اضطر حتى الآن إلى إنجاز مهمته خفية، وحجب الرسائل عن العيان، ولكنه اليوم كان بمقدوره أخيراً أن يرفع رأسه عالياً. فقد كان مساعداً لحرس ميمنة القصر، يثق فيه النقيب الاستشاري كل الثقة.

تأمل جينجي، الذي بلغ هذا كله مسامعه، النقيب الاستشاري بحرص عندما أطل وقد بدا متألقاً أكثر من أي وقت مضى. وقال: «كيف حالك هذا الصباح؟ هل كتبت رسالتك؟ حتى الحكيم قد يخطىء عندما يتعلق الأمر بامرأة، على نحو ما توضح أمثلة عديدة. ومن منظوري فإن الطريقة التي أفلحت بها في تجنب الإصرار أو نفاد الصبر غير اللائقين تظهر أنك سبَّاق للآخرين في الفضل. وقد كان موقف معالي الوزير متسماً بالعناد المبالغ فيه حقاً، وأحسب أن الناس سيتحدثون عنه الآن وقد استسلم تماماً على هذا النحو الكامل. ومع ذلك، فإنك لا ينبغي لك أن تسمح لنفسك بحرية أكثر مما ينبغي أو تتصرف كأنما انعقد لك لواء الفوز. إنني أعرف أنه يبدو متحرراً وصريحاً، ولكنه تحت هذا المظهر لديه بعض الخصائص البعيدة عن الرجولة، وبعض السمات التي تجعله رجلاً صعب المراس». كان جينجي يبدي رأيه كالمعتاد، وقد ساوره الشعور بأن الأمر مضى بصورة طيبة، وبأن العروسين زوجان رائعان.

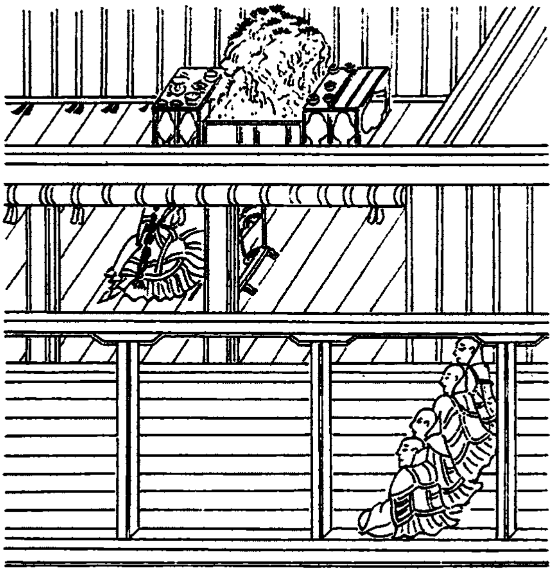
بدا جينجي أقرب إلى الأخ الأكبر للنبيل الشاب منه إلى أبيه، بل والأخ الذي لا يكبره كثيراً. وعندما يكونان على مبعدة أحدهما من الآخر، فإن وجهيهما يبدوان كأن أحدهما نسخة من الآخر، ولكنهما عندما يكونان معاً، فإن كلاً منهما يكون له جماله الخاص. وكان جينجي يرتدي عباءة رسمية فاتحة اللون[1] فوق رداء أبيض ذي نقوش حادة الزخرف، يحمل أسلوباً صينياً على نحو ملحوظ، ويبدو شفافاً متألقاً. وحتى في الوقت الراهن فإنه كان يطل بقوام فائق التميز والرشاقة. أما العباءة الرسمية التي كان النقيب الاستشاري يرتديها فقد كانت أكثر دكنة إلى حد[2] ما، ونقل الإحساس بتألق بديع في رداء مصبوغ

(1) ربما هانادا (متوسطة الزرقة) من حيث اللون.

(2) أكثر دكنة هانادا من عباءة أبيه الرسمية لأنه أصغر سناً.

بلون قرنفلي عميق[1] وقميص من قماش حريري أبيض ارتداه مع ذلك الرداء.

أحضر بوذا التطهير[2] وحيث أن الكاهن القائم بأداء طقس التطهير قد تأخر في القدوم، فإن السيدات بعثن بعد الغروب بالفتيات التابعات إليه بما طاب لهن من تقدمات، وكلها في سخاء ما يرد من القصر. وتم أداء الطقس تماماً على نحو ما يُؤدى في حضور جلالة الإمبراطور. وتجمع النبلاء الشبان من كل مكان لحضوره. ومن الغريب أنهم أحسوا هناك بارتباك وحياء يفوق ما أحسوا به في أي وقت في القصر.



طقس التطهير

أحست بعض الوصيفات الشابات اللواتي كان النقيب المستشار يؤثرهن بين الحين والآخر بالكره له عندما انطلق خارجاً وقد استبد به القلق، وغدا أكثر شغفاً وأناقة في زيه من أي وقت مضى. فبعد كل هذه السنوات من الصبر، بدا هو وزوجته سعيدين تماماً أحدهما بالآخر بحيث أنه ما من أحد آخر كان يمكن أن يتدخل بينهما. وأسبغ عليه معالي الوزير، الذي وجد أنه يستحسنه أكثر كلما توثقت معرفته به، ألوان اهتمامه به. وكان لا يزال يشعر بخيبة الأمل لأنه خسر في التحدي، ولكنه سامح زوج ابنته عن طواعية وبملء القلب، حيث أن وفاءه لم يفارقه أبداً. ووجد بعض الناس، مثل زوجته ووصيفاته سبباً للشكوى، الآن وقد أصبح وضع ابنته الأصغر أكثر مدعاة للسعادة ومرضياً تماماً من وضع الزوجة كوكيدين ولكن ذلك أمر لم تكن له

(1) تشوجيزومي، بني فاتح عموماً، ولكن هنا فيما يبدو أكثر دكنة.

(2) تمثال لبوذا كطفل لأداء طقس صقل بوذا (كانبوتسو - إي) في اليوم الثامن من الشهر الرابع، تكريماً ليوم ميلاد بوذا، ويشمل الطقس صقل التمثال (بصب الماء عليه).

أهمية تذكر. وأرضت النتيجة تمام الإرضاء زوجة المفتش[1].

استهدفت الاستعدادات في روكوجو[2] الآن يوماً يحل بعد العشرين من الشهر الرابع مباشرة. وقد أعدت سيدة جناح جينجي الشرقي للذهاب إلى «الميلاد الرباني» في كامو[3]، وكالمعتاد قامت بدعوة السيدات الأخريات للقدوم بدورهن، ولكنهن فضلن تجنب مجرد اتباعها، ومكثن جميعهن في الدار، ولم يصحبها جمع رسمي كبير باستثناء ركبها المتواضع تماماً والمؤلف من عشرين عربة، والذي أضفت عليه هذه البساطة فتنة نابعة منها.

انطلقت قبل الفجر في يوم المهرجان، وفي طريق عودتها اتخذت مكانها في منصة للفرجة لمشاهدة الموكب. وقد تبعتها نساء كل السيدات الأخريات في عرباتهن، التي شغلت مجالاً كبيراً للغاية أمامها بحيث أن عددهن الكبير أوضح من بعيد هويتها على وجه الدقة.



الموكب الإمبراطوري

(1) والدة كوموى نو كاري. زوجة تو نو تشوجو حزينة، لأن ابنتها كزوجة للإمبراطور لم تسعد بدورها.
(2) لدخول الابنة أكاشي القصر.
(3) ما يرى، طقس ليلي يعيد تقديم الظهور على الأرض من جانب واكيكازوتشي، إله مزار نهر كامو الأعلى ويؤدى. هذا الطقس في منتصف سارو، يوم (القرد) في الشهر الرابع، ويتبعه في اليوم التالي مهرجان كامو، أو مهرجان أوى.

تذَّكر جينجي الوقت التي دُفعت فيه عربة والدة الإمبراطورة، ملاذ روكوجو، إلى الوراء نحو الحشـد. قال: «كان من قبيل القسـوة من جانبها[1] أن تدع صلف تميز عابر يشجع مثل هـذا الأمر. وهـي التي أرذرت أخـرى ماتت تحت وقر معانـاة هائلة». تغاضـى عن الكثير مـن الأمـور في صمت. «من بين كل من بقوا فإن النقيب[2]، وهو من العامة البسـطاء، يفلح بالـكاد في البروز، بينما جلالة الإمبراطورة تشـمخ عالية. وإنني لأجد هذا شـيئاً مؤثراً إلى أبعـد الحـدود. الحياة غـادرة، ذلك على وجـه الدقة هو السـر في أنني آمل فـي قضاء بقية حياتي حسبما طاب لي، ولكنني لا أملك إلا القلق من أن شظف العيش قد يحل بساحتك، عندما أرحل». ثم تجمع كبار النبلاء في منصات الفرجة، ومضى للانضمام إليهم.

كان مبعوث حرس القصر هو النقيب أمين السـر. وقد تجمع هؤلاء السـادة النبلاء أولاً في مسكن معالي الوزير، ثم قدموا من هناك ليكونوا في خدمة سمو المستشار. وكانت هناك مبعوثة أخرى هي سـيدة العاملين في دار فوجيـوارا[3]. ولما كانت تحظى بتقدير كبير، فقد نعمت بإعزاز بالغ إلى حد أن العديد من الهدايا انهمرت عليها من كل حدب وصوب، بما في ذلك هدايا من جلالة الإمبراطور، ولي العهد، روكوجو ذاته، بل إن النقيب الاستشاري بعث إليها برسـالة تهنئة، فيما هي تنطلق في طريقها، وكانا قد ربطتهما سـراً علاقة حميمية، وضايقتها الطريقة التي استقر بها محققاً مثل هذا التميز الكبير. كان قد كتب يقول:

«ما الذي يدعون به الورقة التي نضعها جميعاً اليوم؟ ها هي

غير أن عهوداً طويلة انقضت، فلم أعد أعرف لها اسماً[4].

يا له من أمر مثير للشفقة!».

لم يكن قد ترك اللحظة تفلت منه سدى، ولسبب أو لآخر أفلحت حتى في غمار فوضى ركوب عربتها في أن قائلة:

«فيما يتعلق بتلك الورقة الخضراء التي تضعها في مرح، وجاهلاً أم لا،

---

(1) أوى.

(2) يوجيري.

(3) ابنة كوريميتسو، المؤتمن القديم على سر جينجي، وكانت الأجهزة الحكومية التي تبعث بمبعوث رسمي إلى مهرجان كامو تشمل مكتب العاملين.

(4) «لم نلتق منذ زمن بعيد للغاية بحيث أنني نسيت اسم هذه الورقة». الورقة هي أوى «قلباً إلى قلب».

يقيناً أن من يكسب الغار يمكنه أن يعرف اسمها[1]!

أحسب أن الأمر يقتضي طبيباً». كان رداً بارعاً، ولكنه كان لاذعاً بالنسبة له. نعم، من المؤكد أنها كانت من ينسل خفية إليها في نهاية المطاف.

من شأن زوجة الرجل أن تصحب بصورة مناسبة ابنته إلى القصر، لكن جينجي مضى يفكّر في أن زوجته ليس بإمكانها البقاء هناك طويلاً، وأنه عندئذ قد يكون ذلك هو الوقت المناسب لتقديم المساعدة لها[2].

وصلت سيدة جناحه الشرقي بدورها إلى الشعور بأن هذا الفراق الطويل، الذي من المؤكد أنه سينتهي ذات يوم، لا بد من أن يكون محزناً ومؤلماً بالنسبة لأم السيدة الشابة، وأنه لا بد قد غدا الآن يثير انزعاج السيدة الشابة نفسها. لا، لم تحب فكرة تأليبهما معاً عليها. فقالت: «دعها تصحب أمها هذه المرة. فما يقلقني أنها لا تزال في سن صغيرة وأن الكثيرات من حولها صغيرات للغاية أيضاً. ومربياتها لا يمكنهن القيام على كل شيء، وطالما أنني لن أمكث معها بنفسي فإنني أود أن أتركها في أيد أمينة».

سر جينجي لأن خواطرها طابقت تمام المطابقة خواطره على هذا النحو. وطرق الموضوع مع أم ابنته. وكان هذا هو ما تعلق الأمل عليه، وأحست بسعادة بالغة، ومضت تتأكد من أن وصيفات ابنتها حسنات الملبس، وأن كل التفاصيل تتسم بالكمال، كما هي الحال بالنسبة لتلك السيدة الأخرى الأرفع قدراً. وكانت السيدة الراهبة التي كان يعني الكثير بالنسبة لها أن تعيش لترى حفيدتها مستقرة، وقد تشبثت في عناد بالحياة على أمل أن تلقاها ذات يوم مرة أخرى، ولكنها مضت الآن تتساءل كيف يمكن أن يتحقق ذلك ذات يوم.

عندما صحبت سيدة جناحه الشرقي السيدة الشابة إلى القصر، في تلك الليلة، سارت

---

(1) كان الغار (كاتسورا) يوضع في غطاء الرأس في مهرجان كامو وكان «نزع الغار» يعني اجتياز امتحانات رسمية، على نحو ما قام به يوجيرى.

(2) يفكّر جينجي في أن مورا ساكي ليست مؤهلة تماماً بالمعنى الدقيق بحسبانها زوجته (كيتا نو كاتا). فهي أقرب معادل من جانبه للزوجة بهذا المعنى الدقيق. وسوف تصحب ابنتها المتبناة إلى القصر وتبقى معها لفترة وجيزة، ولكنها سيتعين عليها عندئذ أن تعود إلى روكوجو، وسيحل جينجي محلها السيدة القادمة من أكاشي، وهي الأم الطبيعية للفتاة.

أم الفتاة في تواضع وراء محفتها. وقد كان يمكن أن يكون هذا أمراً مذلاً لو أن خواطرها كانت منصبة على نفسها، ولكنها لم تأسف إلا على أنها هي، التي تعد بمثابة عيب في الجوهرة التي صقلها جينجي، قد عاشت على الرغم من ذلك هذا العمر الطويل.

كان جينجي قد أراد تجنب تحويل الوصول الاحتفالي لابنته إلى القصر إلى مشهد يخطف الأنظار، لكنها كانت، بالطبع، استثنائية. لقد أحبتها سيدة جناحه الشرقي، التي اعتنت بها بإخلاص متفان حباً حقيقياً، وتمنت لو أنها كانت لها ابنة صغيرة، ابنة لا تحتاج قط إلى إرسالها بعيداً عنها. وقد نظر كل من جينجي والنقيب الاستشاري إلى هذا بالفعل على أنه عيبها الوحيد. وقد انسحبت من القصر بعد ذلك بثلاثة أيام.

التقت السيدتان في الليلة التي تبادلتا خلالها الأماكن. استهل جينجي الحديث بودّ قائلاً: «إن رؤيتها وقد نضجت على حين غرة يذكر المرء بكم من السنين قد انقضت. وآمل ألا نحتاج إلى البقاء بعيدين عن بعضنا»، ومضوا يتجاذبون أطراف الحديث. كانت تلك هي بداية صداقتهما. لا عجب أنه مولع بها، هكذا مضى جينجي يحدِّث نفسه، وقد أدهشته الأناقة والبلاغة التي مضت تتحدَّث بهما. وقابلت أكاشي بدورها هذه السيدة المميزة على نحو رفيع بسرور، وأدركت إلى أي حد كان سمو المستشار محقاً في حبه لها وفي رفعها إلى مقام يفوق سيداته الأخريات كافة. وحدَّثت نفسها: أليس شرفاً أن أحدثها حديث الند للند على هذا النحو؟ وكان الاحتفال الذي واكب رحيل سيدة جينجي رائعاً بصفة خاصة، وأضفى عليها الإذن بأن تستقل محفة ما لا يقل عن مهابة زوجة الإمبراطور، وهو الأمر الذي من خلاله عرفت أكاشي مكانتها الخاصة في نهاية المطاف.

حدَّقت، كأنما في حلم يتراءى لها، في الفتاة الرقيقة العذبة، التي تشبه الدمية، الماثلة أمامها، ولم تبد الدموع التي انهمرت من عينيها متماثلة بحال[1]. بدت لها الحياة، التي أزعجتها وأثقلت كاهنها على مرِّ السنين، والتي دفعتها فحسب بألف طريقة إلى أن تبكي حظها في الدنيا، غالية، وعرفت في بهاء تلك اللحظة كم هي مدينة لإله سوميوشي. كانت ابنتها الآن بين يديها لتسعد كيفما طاب لها. وبينما اكتسبت السيدة الشابة تقدير الجميع بفضل رشاقتها وذكائها النادر، فإن جمالها وحسنها النادرين قد اجتذبا بشدة مشاعر ولي

(1) جوسينشو 1188 تشير إلى أن الدموع، سواء أكانت تنهل فرحاً أو حزناً، هي الدموع ذاتها.

العهد الصبيانية. كانت هناك وصيفات في خدمة منافساتها ذهبن إلى وصف قيام أمها على رعايتها بأنه أمر معيب، ولكن ما من حديث كهذا كان يمكن أن يلحق أي ضرر بها. ومن المسلم به أن حضورها اتسم بالنبل الفائق، وبما أن أمها قد غذّت تميزها الفاتن بألوان الاهتمام التي تشمل التفاصيل، فإن الوصفاء الخصوصيين ومن إليهم قد ركزوا عليها غرائب تنافسهم[1]، بينما منحت أمها عنايتها الرائعة حتى بمظهر وصيفاتها الأثيرات عندها وسلوكهن.

قدمت سيدة جناح جينجي الشرقي للزيارة في المناسبات الملائمة. واضطردت مسيرة الصداقة بين السيدتين على نحو رائع. ولكن أكاشي لم تستغل هذه الصداقة قط، ولم يثر سلوكها يوماً أدنى تعليق يحمل الإساءة إليها، حيث أنها في شخصها وسلوكها كانت أقرب ما تكون من المثالية.

لم يتوقع جينجي قط أن يطول به العمر. والآن وقد رأى ابنته أخيراً وهي تصل إلى القصر على مستوى رفيع، وبعد أن استقر ابنه النقيب الاستشاري الذي كانت حياته المفتقرة إلى الجذور لا تلائمه استقراراً يثير الإعجاب، وأحس بما يكفي من السلام لكي يقرر أن يحقق أخيراً رغبته الأثيرة[2]، ولسوف يجد من الصعب عليه أن يتخلى عن أعز سيداته، ولكنها لديها في شخص جلالة الإمبراطورة حليفاً لا يستهان به. وهي في عيون الدنيا كانت كذلك أم ابنته، التي لا شك في أنها جاءت إليها أولاً، لا، لسوف تحظى بعناية فائقة. ولسوف تفتقد سيدة الجناح الصيفي الألق الدوري الذي يواكب زياراته، ولكن لديها النقيب الاستشاري. وبدا له أنه ما من حاجة حقيقية تدعوه للقلق على أي منهن.

سيكون العام المقبل عامه الأربعين. وكان الناس في كل مكان، وعلى رأسهم جلالة الإمبراطور، يستعدون للاحتفال بهذه المناسبة. وفي ذلك الخريف مُنح مرتبة تعادل مرتبة الإمبراطور المتقاعد. وارتفعت تعويضاته، وتمتع بوظائف جديدة ذات مردود عال وبمزايا كبيرة. وكانت الحياة تمنحه بالفعل كل ما يمكن أن يرغب فيه، ولكن تم الرجوع إلى سابقة

(1) التنافس في أمور التألق المندفع والنجاح الرومانسي هو تنافس ليس موجهاً إلى الصبية الصغيرة، وإنما إلى بلاطها، إذا صح التعبير.
(2) السير في درب الدين.

نـادرة حدثت فـي الماضي، فقد عُين مسـاعد للإمبراطور المتقاعد فـي منصب يخدمه فيه بصورة عملية، وحقق مكانة بالغة الرفعة إلى حد أنه لأساه لم يعد بمقدوره إلا بالكاد التردد علـى القصر. وعلى الرغم من ذلك فإن جلالة الإمبراطور كان يتوق على الدوام إلى القيام بأمـور أعظـم وأجل لصالحه، وأحس بالأسـى ليلاً ونهاراً لأنه نزولاً عنـد رغبات الدنيا لم يكن بمقدوره التنازل عن العرش لجينجي.

تمت ترقية وزير شـؤون القصر[1]، بينما أصبح النقيب الاستشـاري مستشـاراً، وانطلق فـي جولاته للإعراب عن الشـكر. وكان كل شـيء فيـه، وليس أقله التألـق المتزايد لمحياه وشـخصه، أبعـد كثيراً عن أن يناله لوم أو انتقاد إلى حـد أن حميه أحس بالامتنان، في نهاية المطاف، لأنه لم يرسـل ابنته للالتحاق بخدمة القصر، التي ما كان يمكن فيها إلا أن تخسـر لحساب سيدة أخرى.

أُتيحت للمستشـار الجديد المناسبة من وقت إلى آخر لتذكر ذلك المساء الذي همست فيـه تايفو، مربية زوجته، قائلة: «ما أفظع التفكير في أن قدرها هو البدء مع رجل في المرتبة السادسة!». ولذا فقد ربط هذه الرسالة إلى زهرة أقحوان بديعة اللون[2]:

«هل حلمت قط أمام وريقات الأقحوان شاحبة الخضرة،

برؤيتها تبرعم ظلاً أرجوانياً بهذا الثراء؟[3]».

كان ذلك وقتاً محزناً وهناك شـيء سـمعته آنذاك لا يمكنني نسـيانه!»، وقدَّم الزهرة لها بابتسامة متألقة.

وجدته جذاباً للغاية، على الرغم من حرجها وشعورها بالألـم من أجله.

«ما من زهرة أقحوان حظيت بالرعاية في مثل هذه الحديقة منذ أيام منبتها

أمكنها أن تتعذب طويلاً، حسبما أعرف، من خضرة شاحبة.

(1) إلى مستشار.

(2) زهرة أقحوان غدت قاتمة عندما مسها الثلج.

(3) كان الاستشاري يرتدي ملابس أرجوانية. وبالنسبة إلى الأوراق، فإن القصيدة تأتي تحديداً على ذكر الأساميدورى، وهو لون كل من أوراق الأقحوان والمرتبة السادسة. غير أنه بينما كان لون هذه الدرجة هو الأزرق الفاتح، فإن ورقة الأقحوان خضراء، ولفظ أساميدورى يغطي الاثنين كليهما.

من أين واتتك مثل هذه الفكرة، يا مولاي؟». هكذا تحدَّثت برقة في معرض الاحتجاج.

جعل هذا الارتفاع الكبير في المكانة طريقة حياة الزوجين الشابين الحالية غير مناسبة، ولهذا انتقلا إلى سانجو[1]، وكان المكان قد عانى من إهمال جم، ولكن المستشار قام على ترميمه بصورة جميلة، وأقام هناك، بعد إعادة تجديد الغرف التي كانت تشغلها سمو الأميرة والدة الوزير. وكان هذا السكن مليئاً بذكريات الماضي المؤثرة. والآن أصبحت أشجار الحديقة بموازاة الدار، والتي كانت صغيرة للغاية في ذلك العهد، تلقي ظلاً كثيفاً، وغدت كتلة من العشب برية في طابعها، وقد قام بترتيب هذا كله وتشذيبه بصورة مناسبة، كما قام بتطهير الغدير من حشيشة الماء بحيث عاد للانسياب في مرح من جديد.

ذات غسق جميل، كانا يحدقان في هذا المشهد بأسره، وهما يتحدثان عن كيف أنهما كانا صغيرين آنذاك، وأي أوقات حزينة أمضياها، ومضت محبوبته تتذكر بإعزاز الكثير من الأشياء، ذلك على الرغم من أن هذا صحبته وخزات من الخجل مما يمكن أن يكون قد جال بخاطر نسائها. وكانت النسوة اللواتي خدمن على الدوام سمو الأميرة والدة الوزير لا يزلن هناك، كل منهن في غرفتها، وقد تجمعن الآن في سعادة أمام مولاهن الجديد وسيدتهن. قال:

«إنني أعرف أنه أنت أيها الغدير الراهن الذي ستحمي هاته النسوة صخوره،

ولكن حدثني، إن استطعت، أين تلك التي أحببناها يوماً؟».

قالت:

«ليس بمقدوري رؤية مؤشر من تلك الشخصية البارزة التي فقدناها، أيها الغدير الرشيق المتدفق،

غير أنك لا تزال، في قسوة، تواصل إصدار خريرك، كيفما طاب لك!» .

في غضون ذلك فتنت ألوان أوراق شجر الخريف لب معالي الوزير، وهو في طريقه إلى الدار عائداً من القصر. فقدم للانضمام إليهما. ولم يكن المكان قد تغير إلا بالكاد

---

(1) كان يوجيرى وكوموي نو كارى يقيمان في مسكن والد كوموى نو كارى، تو نو تشوجو. أما الآن وقد جرت ترقية كل من يوجيرى وتو نو تشوجو فإن هذا الترتيب، وهو ترتيب عادي تماماً بالنسبة لزوجين شابين، لم يعد ملائماً. وسانجو هو المسكن السابق لجدة يوجيرى.

منذ كان أبواه يقيمان فيه، وكان أمراً مؤثراً للغاية أن يرى الزوجين الشابين وقد استقرا في سعادة، وسط هذه العناصر المحيطة بهما والمفعمة بالسلام. كان محيا المستشار متورداً قليلاً، ولاح جاداً على نحو غير مألوف، وأوحى سلوكه باللطف البالغ. وقد شكّلا ثنائياً وسيماً بصورة بهيجة، ولكن بدا لمعالي الوزير أن محياها الجميل من فئة يمكن أن تقع عليها العين في كل مكان، بينما كان بهاء زوجها استثنائياً. وضعت الوصيفات اللواتي تقدم بهن العمر أنفسهن رهن تصرفه، وقمن بتسليته بأحاديثهن ذات الطابع العتيق، وتناثرت القصيدتان اللتان كان زوج وابنته قد كتباهما منذ لحظة حولهما، فبكى لرؤيتهما. وقال: «كان يسعدني بدوري أن أسائل الغدير، ولكن عجوزاً مثلي لا بد له من الإحجام[1].

ليس مدهشاً أن تموت أخيراً الصنوبرة الأكثر جدارة بالتوقير،

لكن النبتة التي غرستها تكتسي الآن بالأشنة»[2].

لم تكن سايشو، مربية السيد النبيل الشاب، قد نسيت بعد كم أغضبها معالي الوزير، وأضافت باغتباط جلي:

«سأتطلع إليهما للحصول على أرق الظلال، إلى شجيرتي الصنوبر هاتين

ظل وارف قدره سنوات طويلة من السعادة» .

عندئذ مضت النسوة المسنّات يقدمن قصائد مماثلة من إبداعهن وجدها المستشار طريفة. وأصغت سيدتهن الشابة التي تضرَّج وجهها بحمرة الخجل إليهن في خجل بالغ.

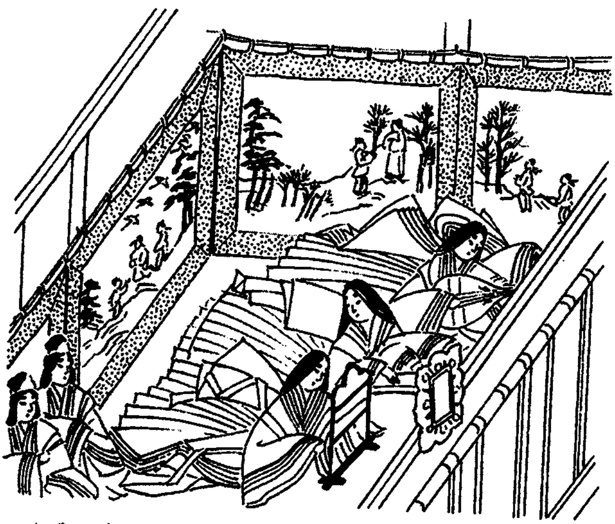
تقرر القيام برحلة إمبراطورية في العشرين من الشهر العاشر إلى ضيعة روكوجو التابعة لجينجي. وقد بدت واعدة بأن تكون رحلة بهيجة، حيث أن ألوان الخريف ستكون في سمتها، ولذلك فقد وجه جلالة الإمبراطور الدعوة إلى الإمبراطور المتقاعد سوزاكو للانضمام إليه في هذه الرحلة. وأعد مضيفهما، جينجي، ترحيباً بالغ الروعة بهما إلى حد أن المرء لم يكن يصدق عينيه.

---

(1) لا بد له من الأحجام عن متابعة الموضوع، خوفاً من أن يسفح المزيد من الدموع، وكان من سوء الطالع البكاء في حضور زوجين حديثي الزواج.

(2) من المفترض أن الصنوبرة القديمة هي أوميا، والنبتة التي نمت من بذرتها هي تو نو تشوجو.

عندما وصل الإمبراطوران، في ساعة الحية[1]، اصطفت في التو الجياد من إصطبلات الميسرة والميمنة الإمبراطورية أمام سرادق ساحة الركوب، وتجمع حراس ميمنة القصر وميسرته في صفوف إلى جوارها تماماً، مثلما هي الحال بالنسبة لمهرجان السوسن البري في الشهر الخامس. ومع اقتراب ساعة الخروف[2] من نهايتها، انتقل الجمع إلى الدار الرئيسية للجناح الجنوبي الشرقي. وكان جينجي قد أعد



حاجز قماشي

الطريق على نحو رائع، حيث أن الجسور المقنطرة وطرق الجسور على امتداد الطريق قد فُرشت بالقماش المقصب، وعُلقت اللوحات القماشية حيثما قد يتعرض الإمبراطوران لنظرات العيون. وكان قد دعا صائد الغاق الرئيسي الملحق بالقصر الإمبراطوري وكذلك الصيادين من العاملين لديه إلى إطلاق طيورهم من قوارب في البحيرة الشرقية. والتقطت طيور الغاق سمك الشبوط الصغير[3]. ولم يكن جينجي قد قصد بهذا أن يكون مشهداً مسلياً في حد ذاته، وكل ما أراده هو أن يقدم شيئاً يستقطب الاهتمام ويمكن رؤيته على امتداد الطريق. وكانت أوراق الخريف جميلة على التلال كافة، ولكن التلال الممتدة أمام الجناح الجنوبي الغربي[4] كانت جميلة بشكل خاص، ولهذا السبب كان قد أزال جدران الشرفة الخارجية التي تعترض النظر، وترك بوابته مفتوحة، ليتيح للإمبراطورين مشهداً مفتوحاً تماماً. وكان قد أعد لكل منهما مقعداً أعلى قليلاً من مقعد جينجي، ولكن جلالة

(1) حوالي العاشرة صباحاً.

(2) بعد الثانية ظهراً، أو نحو ذلك.

(3) فونا، سمك صغير، كثير الحسك.

(4) جناح أكيكونومو بحديقته الخريفية.

الإمبراطـور أصدر أمـراً بتصحيح هذا الترتيب. وكان هذا شـرفاً حقاً، لكـن جلالته كان لا يزال يأسـف لأنه ليس بمقدوره أن يمنح سـمو المستشار كل الإجلال الرسمي الذي يتوق لإظهاره له. حمل ملازم ميسـرة السـمك من البحيرة، وحمل نائب ميمنة زوجاً من الطيور قنصهمـا في كيتانو صقـارة مكتب الحجـاب، وتقدما كلاهما من الشـرق ليجثو كل منهما علـى ركبة واحـدة على كل من جانبي الدرج[1] وليقدمـا للإمبراطورين ما حملاه. وقد أمر المستشـار بإعداد هذا وتقديمه لجلالتيهما. وكانت هناك مرطبات جذابة، معدة بطرق غير مألوفـة، للأمـراء وكبـار النبلاء أيضـاً. وثمل الجميع تمامـاً. وقرابة الغـروب دعوا بعازفي القصـر، الذيـن لـم يعزفوا موسـيقى احتفالية رفيعـة القدر، وبـدلاً من ذلك رقـص الأتباع الخصوصيـون بصـورة بالغـة الجمال. وكالمعتاد لم يسـتطع جينجي منع نفسـه من العودة بتفكيـره إلـى الاحتفال الذي أقيم تحـت أوراق الخريف في قصر سـوزاكو. وعندما عزف الموسـيقيون «جلالـة عاهلنـا»[2] كان ابـن المستشـار الأصغر، وهـو فتى في العاشـرة من عمـره، هـو الـذي رقـص علـى هـذه المقطوعـة رقصـاً جميـلاً للغاية حقـاً. ونـزع جلالة الإمبراطور عنه رداء، وخلعه عليه، وهبط المستشـار الدرج ينحني انحناءة الاحترام إعراباً عن شكره.

فـي غضـون ذلك، أمـر جينجي بقطف زهـور الأقحوان، إحيـاء لذكرى «أمـواج البحر الزرقاء».

«تبدو زهور الأقحوان المتفتحة في ألوان أكثر دكنة كأنما تتوق
إلى فصول خريف نائية، عندما كنا نلوح بأكمامنا في مرح»[3].

أدرك معالي كبير الوزراء، الذي كان قد رقص إلى جواره آنذاك حقاً، أنه أياً كانت الرفعة التـي كفلتهـا له هداياه، فـإن هدايا جينجـي قد رفعته إلـى ذروة أرفع لا سـبيل إلى وضعها موضع المقارنة مع غيرها. وبدا أن مطر أوائل الشتاء يختزل روح هذه اللحظة.

---

(1) الدرج المفضي إلى أسفل نحو الحديقة، على الجانب الجنوبي من الدار الرئيسية.

(2) «جاوون» مقطوعة بوجاكو مرتبطة بـ «موسيقى التانج (توجاكو).

(3) يشير اللون الأكثر دكنة للزهور كذلك إلى الملابس الأكثر دكنة التي يرتديها الآن تو نو تشوجو، في منصبه الجديد الأكثر سمواً.

«زهور الأقحوان هذه التي تختلط مع السحب الأرجوانية،

تتألق أمام ناظريَّ مثل نجوم تحتفظ بنقائها الأصلي في عهد زاه

لقد كان لها زمانها»[1]. هكذا كان رده.

في الحديقة امتدت أوراق الخريف في ألوان داكنة أو شاحبة، وقد نثرتها الريح مثل قماش مقصب على امتداد طرق الجسور. ومضى أتباع وسيمون، أبناء عائلات نبيلة، في أردية خضراء أو حمراء أو نبيذية أو بلون الخشب الريان، وقد أُسدل شعرهم كالمعتاد في ضفيرتين، وبرز جبين كل منهم تحت التاج الذي يعتمره، مضوا يرقصون برقة على موسيقى مقطوعات صغيرة، ليعودوا إلى الانسحاب مجدداً تحت الأشجار المتألقة، كأنما هم يتمنون ألا تغرب الشمس. وأبقى العازفون موسيقاهم خفيضة، إلى أن دعا السادة النبلاء بآلات موسيقية من المكتبة، وبدأوا عزفهم الخاص.

في سمت الحفل، وضعت الآلات الموسيقية أمام أعظم النبلاء على الإطلاق. وتأثر نيافته سوزاكو ودهش في آن من جديد لسماعه، من دون تغيير، صوت «الكاهن أودا»[2].

«مع انقضاء الخريف، عرفت في قريتي المتواضعة الكثير من الأمطار،

ومع ذلك فإني لم أر مثل هذا البريق يضفي على الأوراق قط» .

ربما بدا مستاء بعض الشيء[3].

ردَّ جلالة الإمبراطور قائلاً:

«أتراك تقول إن هذه لا تعدو أن تكون أوراق خريف؟ إنها قماش مقصب

نُثر عبر الحديقة هاهنا إحياء لذكرى الأيام الخوالي» .

كان من الصعب تمييز ملامحه، التي عكست نضجاً متزايداً، من ملامح جينجي. وكان

---

(1) كوكينشو 279، من نظم نو سادافون: «فيما وراء الخريف كان لها زمانها، زهور الأقحوان التي تلملم اللون حتى فيما هي تأفل». «السحب الأرجوانية» تشيد بالطابع السعيد لهذا العهد الإمبراطوري، وباقي القصيدة يهنىء جينجي بصفة خاصة على ارتقائه الفذ.

(2) أودا نو هوشى، اسم آلة واجون موسيقية أثيرة لدى الإمبراطور أودا.

(3) «قرية» سوزاكو (ساتو) هي المقر (قصر سوزاكو) الذي انتقل إليه بعد تنازله عن العرش، ويبدو أنه كان يشكو من أنه ما من شيء رائع كهذا حدث خلال عهده.

من المذهل فضلاً عن ذلك أن المستشـار الواقف بين يديهما، غير بعيد عنهما، يشبه جلالة الإمبراطـور كذلـك. وفي النبل الحـق للحضور، لمح المـرء (أم كان ذلك محض خيال؟) فارقـاً في الطبيعة بينهما، ولكنه كان يحظـى بالجاذبية الأكثر نضارة. وكان عزفه على الناي بهيجاً. وبرز صوت الملازم المراقب وسط أصوات الوصفاء الخصوصيين، الذين تجمعوا أسـفل الـدرج، ليصدحـوا بالأغاني. نعـم، كان مثل هذا النجـاح الكبير قدر هذيـن البيتين المقدر.

محتويات الكتاب

حكاية جينجي

يلقي هذا العمل بعض الأضواء على العلاقات الثقافية العربية اليابانية، بل على مجمل علاقة العرب بالثقافات الآسيوية، والتي ينفي بعض الباحثين وجودها أصلاً. فأهمية هذه الحكاية بالنسبة إلى العرب تكاد تكون غير محدودة، وهذا من شأنه أن يدفعنا إلى مزيد من الاهتمام بالأعمال المماثلة من كنوز الآداب الشرقية.

وتكمن أهمية هذه الحكاية في أنها الرواية الأولى بالمعنى الصحيح في الأدب العالمي، فهي تقع فيما يزيد على ثلاثة أرباع مليون كلمة، مقسمة إلى أربعة وخمسين فصلاً، تتميز بحبكة بسيطة، تدور حول حياة البطل جينجي وغرامياته، وتهتم بأدق تفاصيل الأحداث، بوصف ممتع للحياة اليومية، وتشابك العلاقات والغوص في أعماق الشخصيات.

ونجد اهتماماً بالغاً باللغة الواضحة والدقيقة التي كتبت بها الرواية، وتتحول هذه اللغة إلى نور يُسلَّط في مواجهة مفاهيم مركبة ومعقدة في ذلك العصر، فهي لا شك تؤلف تطوراً نوعياً لا مثيل له في مسار الأدب الياباني.

السعر 60 درهماً

9 789948 019633

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE